تفسير
القرآن العظيم

للإمام الحافظ
عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي

طبعة مجودة قوبلت على أوثق النسخ الخطية والمطبوعة، محققة الأحاديث والآثار، مخرجة القراءات، ذات فوائد منتخبة وفهارس علمية.

تحقيق الأحاديث والآثار
للشيخ عادل بن يوسف العزازي

قام على الخدمة العلمية للكتاب ومقابلة النسخ

أبو الفداء أحمد بن بدر الدين — أبو مجدي جمال بن السيد الأبيض
أبو محمد محمد بن إبراهيم بن شحاتة — أبو طلحة شاهر بن سيد زكي

إشراف ومتابعة
أبي الفداء أحمد بن بدر الدين بن عبد العزيز

المجلد الرابع

التوبة - الكهف

حقوق الطبع محفوظة

رقم الإيداع: ٢٠٠٣/١٧٣١٢

الطبعة: الأولى

التاريخ: ١٤٣٨هـ-٢٠١٧م

المكتبة الإسلامية للنشر والتوزيع

المكتبة الإسلامية

الإدارة والفرع الرئيس
القاهرة ٣٢ ش صعب صالح عين شمس الشرقية
ت: ٢٤٩٩١٢٥٤ - ٢٤٩٠٠٦٠٦ فاكس ٢٤٩٠٠٨٠٨

فرع الأزهر: ١ ش البيطار خلف جامع الأزهر درب الأتراك ت/٢٥١٠٨٠٠٤ محمول: ٠١١١٢٧٢٨٧٢٥

E-mail: islamya2005@hotmail.com

facebook Alslamya.2005

سُورَةُ التَّوْبَةِ

[تفسير][1] سورة براءة [وهي][2] مدنية

﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ۝١ فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ ۙ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ ۝٢﴾

هذه السُّورة الكَرِيمَة مِن أواخر ما نزل علىٰ رسول الله ﷺ، كما قال البخاري.

حدَّثنا [أبو][3] الوليد، حدَّثنا شعبة، عن أبي إسحاق قال: سَمِعْتُ البراء يقول: آخر آيةٍ نزلت: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾ [النساء: ١٧٦]، وآخر سورةٍ نزلت «براءة»[4].

وإنَّما لا يُبَسْمَلُ فِي أوَّلِهَا؛ لأنَّ الصَّحَابَة لم يكتبوا البَسْمَلَةَ في أولها في المصحف الإمام، والاقتداء في ذلك بأمير المؤمنين عثمان بن عفان - رضي الله عنه وأرضاه -، كما قال الترمذي:

حدَّثنا محمَّد بن بشار، حدَّثنا يحيىٰ بن سعد، ومحمَّد بن[5] جعفر وابن أبي عَدِيّ، وسَهْل بن يوسف قالوا: حدَّثنا عوف بن أبي جَميلة، أخبرني يزيد الفارسي، أخبرني ابن عبَّاس قال: قلت لعثمان بن عفَّان: ما حملكم أَن عمدتم إلىٰ الأنفال، وهِي من المثاني[6]، وإلىٰ براءة وهِي من[7] المِئِين، فقرنتم بينهما، ولم تكتبوا بينهما سطرَ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ ووضعتموها في السَّبع الطُّوَل، ما حملكم علىٰ ذلك؟ فقال عثمان: كان رسول الله ﷺ مما يأتي عليه الزَّمان[8] وهو يُنْزَل عليه السُّورُ ذوَاتُ العدد، فكان إذا نزَل عليه الشيءُ دعا بعضَ مَن كان يكتب، فيقول: «**ضَعُوا هَذِهِ الآيَاتِ فِي السُّورَةِ الَّتِي يُذْكَرُ فِيهَا كَذَا وَكَذَا**»، فإذا نزلت عليه الآية فيقول: «**ضَعُوا هَذِهِ الآيَةَ فِي السُّورَةِ الَّتِي يُذْكَرُ فِيهَا كَذَا وَكَذَا**» ، وكانت الأنفال من أول ما نَزَل بالمدينة، وكانت «براءة» مِن آخر القرآن، وكانت قِصَّتُها شبيهةً بِقِصَّتِها وحَسبْتُ أَنَّها منها، وقُبِضَ رسول الله ﷺ ولَمْ يُبَيِّن لنا أَنَّها مِنهَا، فمِن أجلِ ذٰلِكَ قَرَنْت[9] بَيْنَهُما، ولم أَكْتُب بَيْنَهُما سطر ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ فوَضَعْتها في السَّبع الطُّوَل[10].

---

(١) سقط من (ز).

(٢) ليست في (ز).

(٣) سقط من (ز)، والصواب إثباتها.

(٤) البخاري (٤٦٠٥)، ومسلم (٦١٨).

(٥) في (ز): (محمَّد بن أبي جعفر)، وهو خطأ.

(٦) المثاني: كل سورة أقل من المئين.

(٧) لوحة (٢١٢ أ).

(٨) أي: يأتي عليه الزمان الطويل.

(٩) في (ز): (قربت).

(١٠) ضعيف: رواه الترمذي (٣٠٨٦) وحسنه، وأحمد (١/ ٥٧) وأبو داود (٧٨٦) وابن حبان (٤٣) والحاكم (٢/ ٢٢١)، وفيه يزيد الفارسي، اختلفوا في اسمه هل هو يزيد بن هرمز أم لا؟ انظر: «التاريخ الكبير» (٨/ ٣٦٧)، =

وكذا رواه أحمد، وأبو داود، والنَّسائي، وابن حبَّان في «صَحِيحِه»، والحاكم في «مستدركه»، من طُرُق أُخر، عن عَوفِ الأعرابي به، وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

وأوَّل هذه السُّورة الكريمة نزَل علىٰ رسول الله ﷺ، لما رَجَع مِن غزوة تبوك وهُم بالحَجِّ، ثم ذُكر أنَّ المشركين يَحْضُرون عامهم هذا الموسم علَىٰ عادَتِهم في ذلك، وأنَّهم يطوفُون بالبَيْتِ عراةً فكره مخَالطتهم، فبعث أبا بكر الصديق رضي الله عنه أميرًا علىٰ الحَجِّ هذه السَّنَةِ؛ ليُقِيم للنَّاس مناسكهم، ويُعْلِم المشركين ألَّا يحجُّوا بعد عامهم هذا، وأَن ينادِي في النَّاس ببراءَة، فلمَّا قَفَل أتبَعَه بعليِّ بن أبي طالب ليكون مُبلِّغًا عن رسول الله ﷺ، لِكَوْنِه عَصَبَةً له، كما سيأتي بيانه.

فقوله: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾ أي: هذه براءَةٌ؛ أي: تبرؤٌ مِن الله ورسوله ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾.

اختلف المُفسِّرون هاهنا اختلافًا كثيرًا، فقال قائلون: هذه الآية لِذَوِي العهود المُطْلَقَة غير المُؤَقَّتَة، أو مَن له عهدٌ دون أربعة أشهر، فيكمل له أربعة أشْهُر؛ فأمَّا مَن كان له عهد مؤقَّت فأَجَلُه إلىٰ مُدَّتِهِ، مهما كان؛ لقوله تعالىٰ: ﴿فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة:٤]، ولما سيأتي في الحديث: «وَمَنْ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَسُولِ اللهِ ﷺ عَهْدٌ فَعَهْدُهُ إِلَىٰ مُدَّتِهِ». وهذا أحسن الأقوال وأقواها، وقد اختاره ابن جرير رحمه الله ورُوِيَ عن الكلبي، ومحمَّد بن[(١)] كعب القُرَظِيِّ، وغيرِ واحِدٍ.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس في قوله: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ قال: حَدَّ الله للَّذِين عاهدوا رسولُه أربعة أشهر، يَسِيحُون في الأرض حيثما شاءوا، وأَجَّل أجل[(٢)] مَن ليس له عهد، انسلاخَ الأشهر الحرم، [مِن يوم النَّحر إلىٰ انْسِلاخ المُحَرَّمِ، فذلك خمسون ليلةً، فإذا انسلخ الأشهر الحرم][(٣)] أَمَرَه بأن يَضَعَ السَّيْفَ فِيمَن لا عهد له[(٤)].

وكذا رواه العوفي، عن ابن عبَّاس[(٥)].

وقال [الضَّحَّاك][(٦)] بعد قوله: فذلك خمسونَ ليلةً: فأمر الله نَبِيَّه إذا انسلَخَ المحرم أن يَضَع السَّيْفَ فيمن لم يكن بينه وبَيْنَه عَهْدٌ، يقتلهم حتىٰ يدخلوا في الإسلام. وأمر ممن كان له عَهْدٌ إذا انسلخ أربعةُ أشهرٍ من يوم النَّحر إلىٰ عشرٍ خَلَوْن مِن ربيع الآخر، أن يضع فيهم السَّيف حتَّىٰ يدخلوا في الإسلام.

وقال أبو معشر المدني: حدَّثنا محمَّد بن كعبِ القرظي وغيرُه قالوا: بعث رسول الله ﷺ أبا بكر

= و«الجرح والتعديل» (٩/ ٢٩٣)، والحديث ضعفه الشيخ الألباني، والعلامة أحمد شاكر رحمهما الله، قال الشيخ أحمد شاكر: في إسناده نظر كثير، بل هو عندي ضعيفٌ جدًا. انظر: تعليقه علىٰ «المسند» حديث (٣٩٩، ٤٩٩).

(١) لوحة (٢١٢ ب). (٢) أي: جعل له أجلًا ووقتًا معلومًا.

(٣) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

(٤) رواه الطبري (١٠/ ٦٠)، وإسناده منقطع بين علي بن أبي طلحة وابن عبَّاس.

(٥) الطبري (١٠/ ٦٠) مسلسل بالضعفاء. (٦) سقط من (ز).

أميرًا على الموسم سَنَة تسع، وبعث علي بن أبي طالب بثلاثين آيةً أو أربعين آيةً من «براءة» فقرأها على النَّاس، يُؤَجِّل المشركين أربعةَ أشهرٍ يَسِيحُون في الأرض، فقرأها عَلَيْهِم يوم عرفة، أجَّل المشركين عِشْرين من ذي الحِجَّة، والمحرم، وصفر، وشهر ربيع الأول، وعشرًا مِن ربيع الآخر، وقرأها عليهم في منَازِلِهم، وقال: لا يَحُجَّنَّ بعد عامنا هذا مشركٌ، ولا يَطُوفَن بالبَيْتِ عُريان(١).

وقال ابن أبي نَجِيح، عن مجاهد: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾ إلى أهل العهد: خزاعة، ومُدْلِج، ومن كان له عَهْدٌ أو غيرهم. أقبل رسول الله ﷺ مِن تبوك حين فرغ، فأراد رسول الله ﷺ الحجَّ، ثم قال: «إِنَّمَا يَحْضُرُ الْمُشْرِكُونَ فَيَطُوفُونَ عُرَاةً، فَلَا أُحِبُّ أَنْ أَحُجَّ حَتَّىٰ لا يَكُونَ ذَٰلِكَ». فأرسل أبا بكر وعليًّا رضي الله عنهما فطافا بالنَّاس في ذي المجاز وبأمكنتهم التي كانوا يَتبايَعُون بها بالمَوَاسِم كُلِّها، فآذَنُوا أصحاب العَهْد بأن يَأْمَنُوا أربعة أشهر، فهِيَ الأشهر المتواليات: عِشْرُون مِن ذي الحجة إلى عشرٍ يخلون من ربيع الآخر، ثم لا عهد لهم، وآذَن الناسَ كلَّهم بالقتال إلا أن يُؤْمِنُوا(٢).

وهكذا روي عن السُّدِّي: وقتادة.

وقال الزهري: كان ابتداءُ التَّأجيل مِن شوال، وآخره سَلْخ المحرم.

وهذا القول غريبٌ، وكيف يُحَاسَبُون بمدةٍ لم يبلغهم حكمها، وإنَّما ظهر لهم أمرها يوم النَّحر، حين نادى أصحاب رسول الله ﷺ بذلك، ولهذا قال تعالى:

﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ(٣) أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ(٤) فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾﴾

يقول تعالى: وإعلامٌ ﴿مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾ وتَقَدُّمٌ وإنذارٌ ﴿إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ﴾ وهو [يوم النَّحر](٥) الذي هو أفضل أيام المناسك وأظهرها وأكثرها جمعًا ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ﴾ أي: بريءٌ منهم أيضًا.

ثم دعاهم إلى التَّوبةِ إليه فقال: ﴿فَإِن تُبْتُمْ﴾ أي: مما أنتم فيه مِن الشِّرك والضَّلال ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ أي: استمررتم على ما أنتم عليه ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ﴾ بل هو قادرٌ

---

(١) رواه الطبري (١٠/ ٦١)، وإسناده مرسل، لكن أصل الحديث صحيح: رواه الترمذي (٢٠٩١) (٢٠٩٢).

(٢) رواه الطبري (١٠/ ٤٤ برقم ١٦٣٦٥) وإسناده مرسل.

(٣) لوحة (٢١٣ أ).

(٤) **قال الشيخ أبو بكر الجزائري** رحمه الله: قالت العلماء: في الآية بيان جواز قطع المعاهدة بين المسلمين والكافرين لأحد أمرين: الأول: أن تنقضي المدة المعاهدة عليها فنعلمهم بانقضائها وبالحرب عليهم. والثاني: أن نخاف غدرهم لظهور علامات تدلُّ عليه.

(٥) مكانه في (ز): اليوم.

عليكم، وأنتم في قبضته، وتحت قَهْرِهِ ومَشِيئَتِهِ، ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي: في الدُّنيا بالخزي والنَّكال، وفي الآخرة بالمقامع والأغلال(١).

قال البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: حدَّثنا عبد الله بن يوسف(٢)، حدَّثنا الليث، حدَّثني عَقيل، عن ابن شهاب قال: أخبرني حُمَيد بن عبد الرحمن أن أبا هريرة قال: بعثني أبو بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في تلك الحَجَّة في المُؤذِّنين، بعثهم يوم النَّحر، يُؤذِّنون بمنىٰ: ألا يحجَّ بعد العام مشرك، ولا يَطُوفَ بالبَيْت عريان. قال حميد: ثم أردف النَّبيُّ ﷺ بعلي بن أبي طالب، فأمره أن يُؤذِّن ببراءة. قال أبو هريرة: فأذَّنَ معنا عليٌّ في أهل منىٰ يوم النَّحر ببراءة وألا يحج بعد العام مُشْرِكٌ، ولا يطوف بالبَيْت عُرْيَان(٣)

ورواه البخاري أيضًا: حدَّثنا أبو اليمان، أخبرنا شُعَيب، عن الزهري، أخبرني حميد بن عبد الرحمن أن أبا هريرة قال: بعثني أبو بكر فيمن يُؤذِّن يوم النَّحر بمنىٰ: لا يَحُجُّ بعد العام مشرك، ولا يَطُوفُ(٤) بالبيت عُريان، ويوم الحج الأكبر يوم النحر، وإنَّما قيل: «الأكبر»، من أجل قول النَّاس: «الحج الأصغر»، فنبَذَ أبو بكر إلىٰ الناس في ذلك العام، فلم يحجَّ عام حَجَّة الوداع الذي حَجَّ فيه رسول الله ﷺ مشرك(٥).

وهذا لفظ البخاري في كتاب «الجهاد»

وقال عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن الزهري، عن ابن المسيب، عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في قوله: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾ قال: لما كان النَّبيُّ ﷺ زمن حُنَين، اعتمر من الجِعرَّانة، ثم أمَّرَ أبا بكر علىٰ تلك الحَجَّة -قال معمر: قال الزهري: وكان أبو هريرة يحدِّث أن أبا بكر أمرَ أبا هريرة أن يُؤذِّن ببراءة في حَجَّة أبي بكر قال أبو هريرة: ثم أتبعنا النَّبيُّ ﷺ عليًّا، وأمره أن يُؤذِّن ببراءة، وأبو بكر علىٰ الموسم كما هو، أو قال: علىٰ هيئته(٦)(٧).

وهذا السياق فيه غرابة، من جهة أن أمير الحَجِّ كان سنة عمرة الجِعرَّانة(٨) إنما هو عَتَّاب بن أسيد، فأما أبو بكر إنَّما كان أميرًا سنة تسع.

وقال أحمد: حدَّثنا محمَّد بن جعفر، حدَّثنا شعبة، عن مغيرة، عن الشعبي، عن مُحرَّر(٩) بن أبي هريرة، عن أبيه قال: كنت مع علي بن أبي طالب، حين بعثه رسول الله ﷺ إلىٰ أهل مكة «ببراءة»، فقال: ما كنتم تنادون؟ قال: كنا نادي: ألَّا يدخل الجنَّة إلا مؤمن، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان بينه

---

(١) المَقَامع: جمع مِقْمَعة، وهي سياطٌ من حديدٍ رءوسها معوجة، والأغلال: جمع غُل، وهو القيد.

(٢) في (ز): (عبد الله بن موسىٰ)، وهو خطأ.

(٣) رواه البخاري (٤٦٥٥).

(٤) في (ز): (يَطُوفَنَّ)، والمثبت موافق لما في «البخاري».

(٥) رواه البخاري (٣١٧٧) ومسلم (٦٦).

(٦) لوحة (٢١٣ ب).

(٧) رواه عبد الرزاق (١/ ٢٦٥)، وفي السياق غرابة كما ذكر ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

(٨) الجِعِرَّانَة: موضع قريب من مكة -وهي في الحِلّ- وهي بِتَسْكِين العَين والتَّخْفِيف، وقد تُكْسَر العين وتُشدّد الراء. «النهاية»: (١/ ٢٧٦)، وانظر: «معجم البلدان»: (٢/ ١٤٢)، و«اللسان»: جعر، و«هدي الساري»: (ص/ ٩٨).

(٩) في (ز): (محرز)، وهو تصحيف.

وبين رسول الله ﷺ عَهْدٌ فإنَّ أجله -أو أَمَدَه- إلىٰ أربعة أشهر، فإذا مضت الأربعة الأشهر فإن اللهَ بريءٌ مِن المشركين ورسولُهُ، ولا يَحُجُّ هذا البيت بعد العام مشرك. قال: فكنت أُنَادِي حتىٰ صَحِلَ صوتي[١].

وقال الشعبي: حدَّثني مُحَرر[٢] بن أبي هريرة، عن أبيه قال: كنت مع ابن أبي طالب رضي الله عنه حين بعثه رسول الله ﷺ ينادي، فكان إذا صَحِلَ ناديتُ. قلت: بأيِّ شيءٍ كنتم تنادون؟ قال: بأربعٍ: لا يطوف بالكعبة عريان، ومن كان له عهد مع رسول الله ﷺ فعهده إلىٰ مُدَّتِه، ولا يدخل الجنة إلا نفسٌ مؤمنةٌ، ولا يحج بعد عامنا مشركٌ.

رواه ابن جرير من غير ما وجه، عن الشعبي[٣]. ورواه شعبة، عن مغيرة، عن الشعبي به، إلا أنَّه قال: ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهدٌ، فعهده إِلَىٰ أربعة أشهر... وذكر تمام الحديث.

قال ابن جرير: وأخشىٰ أن يكون وهمًا من بعض نَقَلَتِهِ؛ لأنَّ الأخبار متظاهرةٌ[٤] في الأَجَلِ بخِلَافِهِ[٥].

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا عفان، حدَّثنا حماد، عن سِماك، عن أنس بن مالك رضي الله عنه أَنَّ رسول الله ﷺ بعث بـ«براءة» مع أبي بكر، فلما بلغ ذا الحليفة قال: «**لا يُبَلِّغُهَا إِلَّا أَنَا أَوْ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي**». فبعث بها مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه[٦].

ورواه الترمذي في «التفسير»، عن بندار، عن عفان وعبد الصَّمد، كلاهما عن حمَّاد بن سلمة به، ثم قال: حسن غريب من حديث أنس رضي الله عنه[٧].

وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل: حدَّثنا محمَّد بن سليمان -لُوَين- حدَّثنا محمَّد بن جابر، عن سماك، عن حَنَش، عن عليٍّ رضي الله عنه قال: لما نزلت عشر آياتٍ من «براءة» علىٰ النَّبيِّ ﷺ، دعا النَّبيُّ ﷺ أبا بكر، فبعثه بها لِيَقْرَأَهَا علىٰ أهل مَكَّة، ثم دعاني فقال: «**أَدْرِكْ أَبَا بَكْرٍ، فَحَيْثُمَا لَحِقْتَهُ فَخُذِ الكِتَابَ مِنْهُ، فَاذْهَبْ إِلَىٰ أَهْلِ[٨] مَكَّةَ فَاقْرَأْهُ عَلَيْهِمْ**». فلحقته بالجُحْفة، فأخذت الكِتَاب منه، ورجع أبو بكر إلىٰ النَّبيِّ ﷺ، فقال: يا رسول الله، نزل فيَّ شيءٌ؟ فقال: «**لا، وَلَكِنَّ جِبْرِيلَ جَاءَنِي فَقَالَ: لَنْ يُؤَدِّي عَنْكَ إِلَّا أَنْتَ أَوْ رَجُلٌ مِنْكَ**».

هذا إسنادٌ فيه ضعف[٩].

---

(١) صَحِلَ صَوْتُهُ: بَحَّ، أو احتدَّ في بَحَحٍ «القاموس المحيط» (ص٩٦٥): (صحل).

(٢) في (ز): (محرز)، وهو تصحيف.

(٣) ضعيف: أحمد (٢/ ٢٩٩) والطبري (١٠/ ٦٣)، وإسناده ضعيفٌ بهذا السياق، فيه محرر بن أبي هريرة: مقبول. واعلم أن أصل الحديث صحيح كما تقدم، وكما سيأتي.

(٤) في (ز): (متظافرة)، وما أثبتناه موافق لما في «الطبري».

(٥) انظر الطبري (١٠/ ٦٣).

(٦) حسن صحيح: أحمد (٣/ ٢٨) والترمذي (٣٠٩٠) وإسناده حسن، ويشهد لصحته الروايات الأخرىٰ الآتية.

(٧) انظر التعليق السابق. (٨) لوحة (٢١٤ أ).

(٩) ضعيف: أحمد (١/ ١٥١) وفي إسناده محمَّد بن جابر الحليمي: ضعيف. وحنش بن المعتمر: صدوق وكان يرسل.

وليس المراد أن أبا بكر رضي الله عنه رَجَع من فوره، بل بعد قضائه المناسك التي أمره عليها رسول الله ﷺ، كما جاء مبينًا في الرواية الأخرى.

وقال عبد الله أيضًا: حدَّثني أبو بكر، حدَّثنا عمرو بن حماد، عن أسباط بن نصر، عن سماك، عن حنش، عن عليٍّ رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ حين بعثه بـ«براءة» قال: يا نبي الله، إني لست باللَّسِن ولا بالخطيب، قال: «مَا بُدٌّ أَنْ أَذْهَبَ بِهَا أَنَا(١)، أَوْ تَذْهَبَ بِهَا أَنْتَ». قال: فإن كان ولا بدَّ فسأذهب أنا. قال: «انْطَلِقْ فَإِنَّ اللهَ يُثَبِّتُ لِسَانَكَ وَيَهْدِي قَلْبَكَ». قال: ثم وضع يده على فِيهِ(٢).

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا سفيان، عن أبي إسحاق، عن زيد بن يُثَيع(٣) -رجل من هَمْدان-: سألنا عليًّا: بأيِّ شيءٍ بُعِثْت؟ -يعني: يوم بعثه النَّبيُّ ﷺ مع أبي بكرٍ في الحَجَّة- قال: بُعثت بأربع: لا يدخل الجنَّة إلا نفسٌ مؤمنةٌ، ولا يطوف بالبيت عريان، ومَن كان بينه وبين النَّبيِّ ﷺ عهد فعهده إلىٰ مُدَّتِه، ولا يحجُّ المُشرِكُون والمسلمون(٤) بعد عامهم هذا(٥).

ورواه الترمذي عن قلابة، عن سفيان بن عيينة به، وقال: حسن صحيح، كذا قال.

ورواه شعبة، عن أبي إسحاق فقال: عن زيد بن يُثَيع(٦) وهِمَ فيه، ورواه الثوري، عن أبي إسحاق، عن بعض أصحابه، عن علي رضي الله عنه.

وقال ابن جرير: حدَّثنا ابن وكيع، حدَّثنا [أبو](٧) أسامة، عن زكريا، عن أبي إسحاق، عن زيد بن يُثيع، عن علي قال: بعثني رسول الله ﷺ حين أنزلت «براءة» بأربع: «أَلَّا يَطُوفَ بِالبَيْتِ عُرْيَانٌ، وَلَا يَقْرَبَ المَسْجِدَ الحَرَامَ مُشْرِكٌ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا، وَمَنْ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَسُولِ اللهِ ﷺ عَهْدٌ فَهُوَ إِلَىٰ مُدَّتِهِ، وَلَا يَدْخُلَ الجَنَّةَ إِلَّا نَفْسٌ مُؤْمِنَةٌ»(٨).

ثم رواه ابن جرير، عن محمَّد بن عبد الأعلىٰ، عن ابن ثور، عن معمر، عن أبي إسحاق، عن الحارث، عن عليٍّ قال: أُمرت بأربع... فذكره(٩).

وقال إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن زيد بن يُثَيع قال: نزلت براءة؛ فبعث رسول الله ﷺ أبا بكر، ثم أرسل عليًّا، فأخذها [منه](١٠)، فلما رجع أبو بكر قال: نزل فِيَّ شيء؟ قال: «لا، وَلَكِنْ أُمِرْتُ أَنْ أُبَلِّغَهَا أَنَا(١١) أَوْ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي». فانطلق إلىٰ أهل مكة، فقام فيهم بأربع: لا يدخل مكَّة مشركٌ بعد عامه

---

(١) في (ز): (ما بد لي أن يذهب بها أنا)، والمثبت موافق لما في «المسند».

(٢) ضعيف: «زوائد المسند» (١/ ١٥٠) وفيه أسباط بن نصر: صدوق كثير الخطأ يغرب، وفيه حنش بن المعتمر: كان يرسل.

(٣) في (ز): (ابن أبي يثيع)، والمثبت هو الصواب. (٤) أي: لا يحج المشركون مع المسلمين.

(٥) صحيح: أحمد (١/ ٧٩) وابن جرير (١٠/ ٦٤) والترمذي (٣٠٩٢) وفيه أبو إسحاق السبيعي: مدلس وقد عنعن، لكن يشهد له الروايات الأخرىٰ في الباب.

(٦) في (ز): (عن زيد عن أسهل). (٧) سقط من (ز). (٨) انظر التعليق السابق.

(٩) رواه الطبري (١٠/ ٦٤) وفيه الحارث الأعور، وهو ضعيف جدًّا.

(١٠) سقط من (ز). (١١) لوحة (٢١٤ ب).

هذا، ولا يطوف بالبيت عريان، ولا يدخل الجنَّة إلا نفس مسلمة، ومَن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد، فعَهْدُهُ إلىٰ مُدَّتِه(١)(٢).

وقال محمَّد بن إسحاق، عن حكيم بن حكيم بن عباد بن حُنَيْف، عن أبي جعفر محمَّد بن علي بن الحسين بن علي قال: لما نزلت «براءة» علىٰ رسول الله ﷺ، وقد كان بعث أبا بكر ليقيم الحج للناس، فقيل: يا رسول الله، لو بعثت إلىٰ أبي بكر، فقال: «**لا يُؤَدِّي عَنِّي إِلَّا رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي**». ثم دعا عليًّا فقال: «**اخْرُجْ بِهَذِهِ القِصَّةِ مِنْ صَدْرِ بَرَاءَةَ، وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ يَوْمَ النَّحْرِ إِذَا اجْتَمَعُوا بِمِنًىٰ: أَنَّهُ لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ كَافِرٌ، وَلا يَحُجُّ بَعْدَ العَامِ مُشْرِكٌ، وَلا يَطُفْ بِالبَيْتِ عُرْيَانٌ، وَمَنْ كَانَ لَهُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ عَهْدٌ فَهُوَ لَهُ إِلَىٰ مُدَّتِهِ**».

فخرج علي ﷺ علىٰ ناقة رسول الله ﷺ العضباء، حتىٰ أدرك أبا بكر بالطريق فلما رآه أبو بكر قال: أميرٌ أو مأمورٌ؟ قال: بل مأمور. ثم مَضيا فأقام أبو بكر للنَّاس الحج، [والعرب](٣) إذ ذاك في تلك السَّنة علىٰ منازلهم مِن الحَجِّ التي كانوا عليها في الجاهليَّة، حتىٰ إذا كان يوم النَّحر، قام علي بن أبي طالب فأذَّن في النَّاس بالَّذي أمره رسول الله ﷺ، فقال: «**يا أيُّها النَّاس، إنَّه لا يدخل الجنَّة كافرٌ، ولا يَحُجُّ بعد العام مُشْرِكٌ، ولا يطف بالبيت عُرْيَان، ومَن كان له عهد عند رسول الله ﷺ فهو إلىٰ مُدَّتِه**». فلم يحج بعد ذلك العام مشرك، ولم يَطُف بالبيت عريان، ثم قدما علىٰ رسول الله ﷺ. فكان هذا مِن «براءة» فيمن كان من أهل الشِّرك مِن أهل العَهْد العام، وأهل المُدَّة إلىٰ الأَجَل المُسَمَّىٰ(٤).

وقال ابن جرير: حدَّثنا محمَّد بن عبد الله بن عبد الحكم، أخبرنا أبو زُرْعة وهب الله بن راشد، أخبرنا حَيْوَة بن شُريح: أخبرنا أبو صخر(٥): أنَّه سَمِع أبا معاوية البَجَلي مِن أهل الكوفة يقول: سَمِعْت أبا الصهباء البكري وهو يقول: سألت علي بن أبي طالب عن «يوم الحج الأكبر» فقال: إنَّ رسول الله ﷺ بعث أبا بكر بن أبي قُحَافة يقيم للناس الحج، وبعثني معه بأربعين آية من «براءة»، حتىٰ أتىٰ عرفة فخطب النَّاس يوم عرفة، فلما قضىٰ خطبته التفت إليَّ فقال: قم يا علي فأدِّ رسالة رسول الله ﷺ، فقمت فقرأت عليهم أربعين آيةً من «براءة»(٦)، ثم صَدَرنا(٧) فأتينا مِنَىٰ، فرميت الجمرة ونَحَرْتُ البدنة، ثم حلقت رأسي، وعلمت أنَّ أهل الجمع لم يكونوا حضروا كلهم خطبة أبي بكر يوم عرفة، فطفت أتتبع بها الفَسَاطِيط(٨) أقرؤها عليهم، فمن ثَمَّ إخال حسبتم أنَّه يوم النحر، ألَا وهو يوم عرفة(٩).

وقال عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن أبي إسحاق: سألت أبا جُحَيفة عن يوم الحج الأكبر، قال: يوم

---

(١) في (ز): إلىٰ مدته هنا. (٢) رواه الطبري (١٠/ ٦٤) وإسناده مرسل. (٣) سقط من (ز).

(٤) الطبري (١٠/ ٦٥) من طريق ابن إسحاق، وهو مدلس وقد عنعن، والإسناد مرسل، وقد تقدم ما يشهد له.

(٥) في (ز): (ابن صخر)، والمثبت موافق لما في «الطبري». (٦) لوحة (٢١٥ أ).

(٧) صدر عن الماء والبلد: رجع، والصَّدَر: ليلة رجوع الناس من عرفة إلىٰ منىٰ.

(٨) الفساطيط: جمع فسطاط، مثل السرادق، وهو أصغر منه، يتخذه المسافرون.

(٩) ضعيف: الطبري (١٠/ ٦٧)، وأبو الصهباء البكري هو صهيب، قال الحافظ: مقبول.

عرفة. فقلت: أمِنْ عندك أم من أصحاب محمَّد ﷺ؟ قال: كل في ذلك[١].

وقال عبد الرزاق أيضًا، عن ابن جُرَيْج، عن عطاء قال: يوم الحج الأكبر يوم عرفة.

وقال عُمَر بن الوليد الشَّنِّي: حدَّثنا شهاب بن عباد العَصَرِيُّ، عن أبيه قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول: هذا يوم عرفة، هذا يوم الحَجِّ الأكبر، فلا يصومَنَّه أحدٌ. قال: فحججت بعد أبي فأتيتُ المدينةَ، فسألت عن أفضل أهلها، فقالوا: سعيد بن المسيب، فأتيته فقلت: إنِّي سألت عن أفضل أهل المدينة، فقالوا: سعيد بن المسيِّب، فأخبرْني عن صوم يوم عرفة؟ فقال: أخبرك عمَّن هو أفضل مني مائة ضِعْف؛ عُمَرُ -أو: ابن عمر- كان ينهىٰ عن صومه، ويقول: هو يوم الحج الأكبر[٢].

رواه ابن جرير وابن أبي حاتم، وهكذا روي عن ابن عبَّاس، وعبد الله بن الزبير، ومجاهد، وعِكْرِمة، وطاوس أنهم قالوا: يوم عرفة هو يوم الحج الأكبر.

وقد ورد في ذلك حديث مرسل رواه ابن جُرَيْج: أخبرت عن محمَّد بن قيس بن مَخْرَمة أنَّ رسول الله ﷺ خطب يوم عرفة، فقال: «**هَذَا يَوْمُ الحَجِّ الأَكْبَرِ**».

ورُوِيَ مِن وجهٍ آخر عن ابن جريج، عن محمَّد بن قيس، عن المِسْوَر بن مخرمة، عن رسول الله ﷺ، أنَّه خطبهم بعرفات فحمد الله وأثنىٰ عليه، ثم قال: «**أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ هَذَا يَوْمُ الحَجِّ الأَكْبَرِ**»[٣].

والقول الثاني: أنَّه يوم النحر.

قال هُشَيْم، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن الشعبي، عن علي رضي الله عنه قال: يوم الحج الأكبر يوم النَّحر[٤].

وقال أبو إسحاق السَّبِيعي، عن الحارث الأعور، سألت عليًّا رضي الله عنه عن يوم الحج الأكبر، فقال: [هو][٥] يوم النحر[٦].

وقال شعبة، عن الحكم: سمعت يحيىٰ بن الجزَّار يحدِّث عن عليٍّ رضي الله عنه أنَّه خرج يوم النحر علىٰ بغلةٍ بيضاء يريد الجَبَّانة، فجاء رجل فأخذ بلجام دابَّته، فسأله عن الحج الأكبر، فقال: هُو يَوْمُك هذا، خَلِّ سبيلها[٧].

وقال عبد الرازق، عن سفيان وشعبة[٨]، عن عبد الملك بن عمير، عن عبد الله بن أبي أوفىٰ أنه قال:

---

(١) رواه الطبري (١٠/ ٦٨)، وإسناده صحيح.

(٢) رواه الطبري (١٠/ ٦٨) فيه شهاب بن عباد العصري، أورده ابن أبي حاتم في «الجرح والتعديل» ولم يذكر فيها جرحًا ولا تعديلًا، وفي «التقريب» قال في عباد: مقبول. وبناء علىٰ ذلك فالإسناد ضعيف.

(٣) مرسل: رواه الطبري (١٠/ ٦٨، ٦٩)، وإسناده مرسل.

(٤) رواه الطبري (١٠/ ٦٩)، وإسناده صحيح.

(٥) ليست في (ز).

(٦) رواه الطبري (١٠/ ٦٩) والترمذي (٣٠٨٩)، وفيه الحارث الأعور، وهو ضعيف جدًّا.

(٧) رواه الطبري (١٠/ ٧٠) من طرق عن شعبة به، وإسناده صحيح.

(٨) لوحة (٢١٥ ب).

يوم الحج الأكبر يوم النحر[(١)].

وروىٰ شعبة وغيره، عن عبد الملك بن عمير، به نحوه. وهكذا رواه هشيم وغيره، عن الشَّيباني، عن عبد الله بن أبي أوفىٰ.

وقال الأعمش، عن عبد الله بن سنان قال: خطبنا المغيرة بن شعبة يوم الأضحىٰ علىٰ بعير فقال: هذا يوم الأضحىٰ، وهذا يوم النَّحر، وهذا [يوم][(٢)] الحج الأكبر[(٣)].

وقال حماد بن سلمة، عن سِمَاك، عن عِكْرِمة، عن ابن عبَّاس أنَّه قال: الحج الأكبر يوم النحر[(٤)].

وكذا روي عن أبي جُحَيْفة، وسعيد بن جُبَير، وعبد الله بن شداد بن الهاد، ونافع بن جُبَير بن مطعم، والشعبي، وإبراهيم النَّخَعِي، ومجاهد، وعِكْرِمة، وأبي جعفر الباقر، والزهري، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم أنهم قالوا: يوم الحَجِّ الأكبر هو يوم النَّحر، واختاره ابن جرير، وقد تقدَّم الحديث عن أبي هريرة في «صحيح البخاري»: أنَّ أبا بكر بعثهم يوم النَّحر يُؤَذِّنُون بمنًىٰ، وقد ورد في ذلك أحاديث أخر، كما قال الإمام أبو جعفر بن جرير: حدَّثني سهل بن محمَّد السِّجِسْتاني[(٥)]، حدَّثنا أبو جابر الحرمي، حدَّثنا هشام بن الغاز الجُرَشي -عن نافع، عن ابن عمر قال: وقف رسول الله ﷺ يوم النحر عند الجمرات في حجة الوداع، فقال: «**هَذَا يَوْمُ الحَجِّ الأَكْبَرِ**»[(٦)]

وهكذا رواه ابن أبي حاتم، وابن مَرْدويه من حديث أبي جابر -واسمه محمَّد بن عبد الملك به، ورواه ابن مَرْدويه أيضًا من حديث الوليد بن مسلم، عن هشام بن الغاز به. ثم رواه مِن حديث سعيد بن عبد العزيز، عن نافع به.

وقال شعبة، عن عمرو بن مُرَّة [عن مرة][(٧)] الهَمْداني، عن رجل من أصحاب النَّبيِّ ﷺ قال: قام فينا رسول الله ﷺ علىٰ ناقة حمراء مخضرمة، فقال: «**أَتَدْرُونَ أَيُّ [يَوْمٍ][(٨)] يَوْمِكُمْ هَذَا؟**» قالوا: يوم النحر. قال: «**صَدَقْتُمْ، يَوْمَ الحَجِّ الأَكْبَرِ**»[(٩)].

وقال ابن جرير: حدَّثنا أحمد بن المقدام، حدَّثنا يزيد بن زُرَيع، حدَّثنا ابن عون، عن محمَّد بن

---

(١) عزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ١٢٧) لابن مردويه، وفي الإسناد عبد الملك بن عمير: تغير حفظه وربما دلس.
قلت: لكن انتفت تهمة التدليس فقد صرح بالسماع في رواية الطبري (١٠/ ٦٩) فالإسناد قد رواه من طرق أخرىٰ عن ابن أبي أوفىٰ.

(٢) سقط من (ز).

(٣) رواه الطبري (١٠/ ٧٠).

(٤) رواه الطبري (١٠/ ٧٠)، لكنه من رواية سماك عن عكرمة، وروايته عنه مضطربة.

(٥) في (ز): (الحسباني)، وهو خطأ.

(٦) رواه ابن جرير (١٠/ ٦٩)، ورجاله ثقات، عدا محمَّد بن عبد الملك أبي جابر، وقد توبع في رواية ابن مردويه، تابعه الوليد بن مسلم، لكنه مدلس وقد عنعن. قلت: ويشهد لصحة الحديثِ الحديثُ الآتي.

(٧) سقط من (ز).

(٨) سقط من (ز).

(٩) **صحيح**: رواه ابن جرير (١٠/ ٧٣) وكذلك الإسناد الذي بعده، وقد صححه المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ، ورواه أحمد وأصله في البخاري (٦٧، ١٠٥) ومسلم (١٦٧٩) من حديث رجل من أصحاب النَّبيِّ، ورواه الطبري (١٠/ ٧٣) والترمذي (٢١٥٩) وابن ماجة (٣٠٥٥) من حديث أبي بكرة وإسناده صحيح.

سيرين، عن عبد الرحمن بن أبي بكرة، عن أبيه قال: لما كان ذلك اليوم، قعد رسول الله ﷺ علىٰ بعير له، وأخذ الناس بخطامه -أو: زمامه- فقال: «أَيُّ يَوْمٍ هَذَا؟» قال: فسكتنا حتىٰ ظننا أنَّه سيسميه سوىٰ اسمه، فقال: «أَلَيْسَ هَذَا يَوْمَ الحَجِّ الأَكْبَرِ؟»[١].

وهذا إسناد صحيح، وأصله مخرج في «الصحيح».

وقال أبو الأحوص، عن شبيب بن غرقدة، عن سليمان بن عمرو بن الأحوص، عن أبيه قال: سمعت رسول الله ﷺ في حجة الوداع، فقال[٢]: «أَيُّ يَوْمٍ هَذَا؟» فقالوا: اليوم الحج الأكبر[٣].

وعن سعيد بن المسيب أنه قال: يوم الحج الأكبر اليوم الثاني مِن يوم النحر، رواه ابن أبي حاتم.

وقال مجاهد أيضًا: يوم الحج الأكبر أيام الحَجِّ كلها.

وكذا قال أبو عبيد، قال سفيان: «يوم الحجِّ»، و«يوم الجمل»، و«يوم صِفِّين» أي: أيامه كلها.

وقال سهل السراج: سئل الحسن البصري عن يوم الحج الأكبر، فقال: ما لكم وللحج الأكبر، ذاك عامٌ حَجَّ فيه أبو بكر، الذي استخلفه رسول الله ﷺ فحَجَّ بالناس. رواه ابن أبي حاتم[٤].

وقال ابن جرير: حدَّثنا ابن وَكِيع، حدَّثنا أبو أسامة، عن ابن عون: سألت محمَّدًا -يعني ابن سيرين- عن يوم الحج الأكبر، فقال: كان يومًا وافق فيه حجُّ رسول الله ﷺ حجَّ أهل الوبر[٥].

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ثُمَّ لَمۡ يَنقُصُوكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَمۡ يُظَٰهِرُواْ عَلَيۡكُمۡ أَحَدٗا فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيۡهِمۡ عَهۡدَهُمۡ إِلَىٰ مُدَّتِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ٤﴾

هذا استثناء مِن ضرب مدَّة التَّأجيل بأربعة أشهر، لمن له عهدٌ مُطْلَقٌ ليس بمؤقت فأجله، أربعة أشهر يسيح في الأرض؛ يذهب فيها لِيَنْجُو بنفسه حيث شاء، إلا مَن له عهد مؤقَّت، فأجله إلىٰ مُدَّته المضروبة التي عوهد عليها، وقد تقدَّمت الأحاديث: «وَمَنْ كَانَ لَهُ عَهْدٌ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَعَهْدُهُ إِلَىٰ مُدَّتِهِ»؛ وذلك بشرط ألا ينقض المعاهد عهده، ولم يظاهر علىٰ المسلمين أحدًا؛ أي: يمالئ عليهم مَن سواهم، فهذا الذي يُوَفَّىٰ له بذِمَّته وعهده إلىٰ مُدَّتِهِ؛ ولهذا حرَّض الله تعالىٰ علىٰ الوفاء بذلك فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ أي: الموفين بعهدهم.

﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ وَخُذُوهُمۡ وَٱحۡصُرُوهُمۡ وَٱقۡعُدُواْ لَهُمۡ كُلَّ مَرۡصَدٖۚ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡ[٦] إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥﴾

---

(١) انظر التعليق السابق. (٢) لوحة (٢١٦ أ).

(٣) في إسناده سليمان بن عمرو بن الأحوص، قال الحافظ في «التقريب»: مقبول؛ فعلىٰ هذا فالإسناد ضعيف.

(٤) ابن أبي حاتم (٩٢٣١). (٥) رواه الطبري (١٠/ ٧٢).

(٦) قال الشيخ السعدي رحمه الله: وفي هذه الآية دليل علىٰ أن من امتنع من أداء الصلاة أو الزكاة، فإنه يقاتل حتىٰ يؤديهما، كما استدل بذلك أبو بكر الصديق رضي الله عنه.

اختلف المفسِّرون في المراد بالأشهر الحرم هاهنا، ما هي؟ فذهب ابن جرير إلىٰ أنها [الأربعة][1] المذكورة في قوله تعالىٰ: ﴿مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُۚ فَلَا تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ الآية [التوبة:٣٦] قاله أبو جعفر الباقر، لكن قال ابن جرير: آخر الأشهر الحرم في حقهم المحرم، وهذا الذي ذهب إليه حكاه علي بن أبي طلحة عن ابن عبَّاس، وإليه ذهب الضَّحَّاك أيضًا، وفيه نظر، والذي يظهر من حيث السياق ما ذهب إليه ابن عبَّاس في رواية العوفي عنه، وبه قال مجاهد، وعمرو بن شعيب، ومحمَّد بن إسحاق، وقتادة، والسُّدِّي، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: أن المراد بها: أشهر التسيير الأربعة المنصوص عليها في قوله: ﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلْأَرْضِ[2] أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ [التوبة: ٢] ثُمَّ قَالَ: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ﴾ أي: إذا انقضت الأشهر الأربعة [التي حرَّمنا عليكم فيها قتالهم، وأجَّلناهم فيها، فحيثما وجدتموهم فاقتلوهم؛ لأنَّ عود العهد علىٰ مذكورٍ أولىٰ من مقدَّرٍ. ثمَّ إنَّ الأشهر الأربعة][3] المحرمة سيأتي بيان حكمها في آيةٍ أخرىٰ بعد هذا في هذه السورة الكريمة.

وقوله: ﴿فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ أي: من الأرض. وهذا عامٌّ، والمشهور تخصيصه بتحريم القتال في الحرم بقوله: ﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ﴾ [البقرة: ١٩١].

وقوله: ﴿وَخُذُوهُمْ﴾ أي: وأسِرُوهُم؛ إن شئتم قتلًا وإن شئتم أسرًا.

وقوله: ﴿وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ أي: لا تكتفوا بمجرَّد وجدانكم لهم، بل اقصدوهم[4] بالحِصَار في معاقلهم وحصونهم، والرَّصد في طرقهم ومسالكهم حتىٰ تُضَيِّقوا عليهم الواسع، وتضطروهم إلىٰ القتل أو الإسلام؛ ولهذا قال: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

ولهذا اعتمد الصديق رضي الله عنه في قتال مانعي الزَّكاة علىٰ هذه الآية الكريمة وأمثالها، حيث حرمت قتالهم بشرط هذه الأفعال، وهي الدُّخول في الإسلام، والقيام بأداء واجباته. ونبَّه بأعلاها علىٰ أدناها؛ فإنَّ أشرف الأركان بعد الشَّهادة الصَّلاة التي هي حق الله عز وجل، وبعدها أداء الزَّكاة التي هي نَفْعٌ مُتَعدٍّ إلىٰ الفقراء والمحاويج، وهي أشرف الأفعال المتعلقة بالمَخْلُوقين؛ ولهذا كثيرًا ما يقرن الله بين الصلاة والزَّكاة، وقد جاء في «الصحيحين» عن ابن عمر، رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّىٰ يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ...**» الحديث[5].

وقال أبو إسحاق، عن أبي عبيدة، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: أُمرتم بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، ومن لم يُزَكِّ فلا صلاة له.

---

(١) ليست في (ز).
(٢) لوحة (٢١٦ ب).
(٣) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).
(٤) في (ز): تقصدوهم.
(٥) البخاري (٢٥) ومسلم (٢٢).

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: أبىٰ الله أن يَقْبَل الصَّلاة إلا بالزكاة وقال: يرحم الله أبا بكر، ما كان أفقهه.

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا علي بن إسحاق، أنبأنا عبد الله بن المبارك، أنبأنا حميد الطويل، عن أنس: أن رسول الله ﷺ قال: «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّىٰ يَشْهَدُوا أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، فَإِذَا شَهِدُوا أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَاسْتَقْبَلُوا قِبْلَتَنَا، وَأَكَلُوا ذَبِيحَتَنَا، وَصَلَّوْا صَلاتَنَا، فَقَدْ حُرِّمَتْ عَلَيْنَا دِمَاؤُهُمْ وَأَمْوَالُهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا، لَهُمْ مَا لِلْمُسْلِمِينَ، وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَيْهِمْ»(١).

ورواه البخاري في «صحيحه» وأهل السُّنن إلا ابن(٢) ماجه، من حديث عبد الله بن المبارك به.

وقال الإمام أبو جعفر بن جرير: حدَّثنا عبد الأعلىٰ بن واصل الأسدي، حدَّثنا عبيد الله بن موسىٰ، أخبرنا أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، [عن أنس](٣) قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ فَارَقَ الدُّنْيَا عَلَىٰ الإِخْلَاصِ للهِ وَحْدَهُ، وَعِبَادَتِهِ لا يُشْرِكُ بِهِ [شَيْئًا](٤)، فَارَقَهَا وَاللهُ عَنْهُ رَاضٍ» -قال: وقال أنس: هو دين الله الذي جاءت به الرُّسل وبلَّغوه عن ربهم، قبل هَرْج الأحاديث(٥)، واختلاف الأهواء، وتصديقُ ذلك في كتاب الله في آخر ما أنزل، قال الله تعالىٰ: ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا الزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ -قال: توبتهم خلع الأوثان، وعبادة ربِّهم، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، ثم قال في آيةٍ أخرىٰ: ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا الزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ [التوبة: ١١] ورواه ابن مردويه(٦).

ورواه محمَّد بن نصر المروزي في كتاب «الصلاة» له: حدَّثنا إسحاق بن إبراهيم، أنبأنا حكَّام بن سَلْم(٧) حدَّثنا أبو جعفر الرازي، به سواء.

وهذه الآية الكريمة هي آية السيف التي قال فيها الضَّحَّاك بن مزاحم: إنَّها نسخت كلَّ عهدٍ بين النَّبيِّ ﷺ وبين أحدٍ من المشركين، وكل عهدٍ، وكل مُدَّةٍ.

وقال العوفي، عن ابن عبَّاس في هذه الآية: لم يَبْقَ لأحدٍ من المشركين عهدٌ ولا ذِمَّةٌ منذ نزلت براءة وانسلاخ الأشهر الحرم، ومدَّة من كان له عهد من المشركين قبل أن تنزل أربعة أشهر، مِن يوم أُذِّن ببراءة إلىٰ عشر من أول شهر ربيع الآخر.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس في هذه الآية، قال: أمره الله تعالىٰ أَن يَضَع السَّيْف فيمن عاهد إن لم يدخلوا في الإسلام، ونقض ما كان سمي لهم من العهد والميثاق، وأذهب الشرط الأول.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا إسحاق بن موسىٰ الأنصاري قال: قال سفيان: قال علي بن

---

(١) البخاري (٣٩٢) وأحمد (٣/ ١٩٩) وأبو داود (٢٦٤١) والترمذي (٢٦٠٨) والنسائي (٨/ ١٠٩).

(٢) لوحة (٢١٧ أ). (٣) سقط من (ز).

(٤) سقط من (ز). (٥) هَرْج الأحاديث: الإكثار فيها واختلاف المختلفين.

(٦) ضعيف: رواه الطبري (١٠/ ٧٨) وابن ماجة (٧٠) والمروزي في تعظيم قدر الصلاة (١)، وفيه الربيع بن أنس: ضعيف.

(٧) في (ز): (حكام بن سلمة)، وهو خطأ.

أبي طالب: بعث النَّبيُّ ﷺ بأربعة أسياف: سيف في المشركين من العرب، قال الله: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ﴾ (١)، هكذا رواه مختصرًا.

وأظن أنَّ السيف الثاني هو قتال أهل الكتاب في قوله: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة:٢٩].

والسيف الثالث: قتال المنافقين في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ (٢) وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ٧٣، والتحريم:٩].

والرَّابع: قتال الباغين في قوله: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الحجرات:٩].

ثم اختلف المُفسِّرون في آية السَّيف هذه؛ فقال الضَّحَّاك والسُّدِّي: هي منسوخةٌ بقوله تعالىٰ: ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً﴾ [محمَّد:٤]، وقال قتادة بالعكس.

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ (٣) اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦﴾

يقول تعالىٰ لنبيِّه صلوات الله وسلامه عليه: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الذين أمرتك بقتالهم، وأحللت لك استباحة نفوسهم وأموالهم،] (٤) ﴿اسْتَجَارَكَ﴾ أي: استأمنك، فأجبه إلىٰ طِلْبَتِهِ ﴿حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ أي: القرآن تقرؤُه عليه وتذكر له شيئًا مِن [أمر] (٥) الدِّين تُقِيم عليه به حُجَّة الله، ﴿ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ أي: وهو آمِن مستمر الأمان حتىٰ يرجع إلىٰ بلاده وداره ومأمنه، ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: إنَّما شرعنا أمان مثل هؤلاء ليعلموا دِينَ الله، وتنتشر دعوة الله في عباده.

وقال ابن أبي نجيح، عن مجاهد، في تفسير هذه الآية، قال: إنسان يأتيك يسمع ما تقول وما أنزل عليك، فهو آمِنٌ حتىٰ يأتيك فيسمع كلام الله، وحتىٰ يبلغ مأمنه، حيث جاء.

ومِن هذا كان رسول الله ﷺ يعطي الأمان لمن جاءه؛ مسترشدًا أو في رسالة، كما جاءه (٦) يوم الحديبية جماعةٌ من الرُّسل من قريش؛ منهم: عروة بن مسعود، ومِكْرَز بن حفص، وسهيل بن

---

(١) إسناده منقطع بين سفيان وعلي بن أبي طالب، والأثر رواه ابن أبي حاتم (٥/ ٩٢٥٤).

(٢) لوحة (٢١٧ ب).

(٣) قال الشيخ السعدي رحمه الله: وفي هذا حجةٌ صريحةٌ لمذهب أهل السنة والجماعة، القائلين بأن القرآن كلام الله غير مخلوق؛ لأنه تعالىٰ هو المتكلم به، وأضافه إلىٰ نفسه إضافة الصفة إلىٰ موصوفها، وبطلان مذهب المعتزلة ومن أخذ بقولهم: أن القرآن مخلوق.

وكم من الأدلة الدالة علىٰ بطلان هذا القول، ليس هذا محل ذكرها.

(٤) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

(٥) ليست في (ز).

(٦) في (ز): أو جاءه.

عمرو، وغيرهم واحدًا بعد واحدٍ، يترددون في القضيَّة بينه وبين المشركين، فرأوا من إعظام المسلمين رسول الله ﷺ ما بَهَرَهُم، وما لم يشاهدوه عند ملك ولا قيصر، فرجعوا إلىٰ قومهم فأخبروهم بذلك، وكان ذلك وأمثاله مِن أكبر أسباب هداية أكثرهم.

ولهذا أيضًا لما قَدِم رسول مسيلمة الكذاب علىٰ رسول الله ﷺ قال له: «**أَتَشْهَدُ أَنَّ مُسَيْلِمَةَ رَسُولُ اللهِ؟**» قال: نعم. فقال رسول الله ﷺ: «**لَوْلا أَنَّ الرُّسُلَ لا تُقْتَلُ لَضَرَبْتُ عُنُقَكَ**»[١]، وقد قيَّض الله له ضرب العنق في إمارة ابن مسعود علىٰ الكوفة، وكان يقال له: ابن النواحة، ظهر عنه في زمان ابن مسعود أنه يشهد لمسيلمة بالرِّسالة، فأرسل إليه ابن مسعود فقال له: إنَّك الآن لست في رسالة، وأمر به فضُربت عنقه، لا رحمه الله، ولعنه.

والغرض أنَّ مَن قَدِم من دار الحرب إلىٰ دار الإسلام في أداء رسالة أو تجارة، أو طلب صلح (أو مهادنة، أو حمل جزية[٢]، أو نحو ذلك من الأسباب، فطلب من الإمام أو نائبه أمانًا)[٣]، أُعْطِي أمانًا ما دام مترددًا في دار الإسلام، وحتىٰ يرجع إلىٰ مأمنه ووطنه. لكن قال العلماء: لا يجوز أن يُمَكَّن مِن الإقامة في دار الإسلام سَنَةً، ويجوز أن يمكَّن من إقامة أربعة أشهر، وفيما بين ذلك -فيما زاد علىٰ أربعة أشهر ونقص عن سنة- قولان عن الإمام الشافعي وغيره من العلماء رَحِمَهُمُ اللهُ.

﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ۝٧﴾

يُبيِّن تعالىٰ حكمته في البراءة من المشركين ونظرته إياهم أربعة أشهر، ثم بعد ذلك السَّيف المُرْهَف أين ثقفوا، فقال تعالىٰ: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ﴾ وأمان ويُتْرَكُون فيما هم فيه وهُم مشركون بالله كافرون به وبرسوله، ﴿إِلَّا الَّذِينَ[٤] عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ يعني: يوم الحديبية، كما قال تعالىٰ: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ....﴾ الآية [الفتح: ٢٥]، ﴿فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾ أي: مهما تمسكوا بما عاقدتُمُوهُم عليه وعاهدتموهم مِن ترك الحَرْب بينكم وبينهم عشر سنين ﴿فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾، وقد فعل رسول الله ﷺ ذلك والمسلمون، استمر العَقْد والهدنة مع أهل مكَّة مِن ذي القعدة في سنة ست، إلىٰ أن نقضت قريش العهد ومَالَئُوا حلفاءهم بني بكر علىٰ خزاعة أحلاف رسول الله ﷺ، فقتلوهم معهم في الحرم أيضًا، فعِنْدَ ذلك غزاهم رسول الله ﷺ في رمضان سنة ثمان، ففتح الله عليه البلد الحرام، ومكَّنه مِن نواصيهم، ولله الحمد والمِنَّة، فأطلق مَن أسلم منهم بعد القهر والغلبة عليهم، فسُمُّوا الطلقاء، وكانوا قريبًا مِن ألفين، ومَن استمر علىٰ كفره وفرَّ من رسول الله ﷺ بعث إليه بالأمان والتَّسْيِير

---

(١) صحيح: رواه أحمد (٣/ ١٨٧) وأبو داود (٢٧٦١).
(٢) لوحة (٢١٨ أ).
(٣) هذه العبارة تكررت في (ز).
(٤) في (ز): (إلا من عاهدتم). وهو خطأ.

في الأرض أربعة أشهر، يذهب حيث شاء: منهم صفوان بن أمية، وعِكْرِمة بن أبي جهل وغيرهما، ثم هداهم الله بعد ذلك إلىٰ الإسلام التَّام، والله المحمود علىٰ جميع ما يقدِّره ويفعله.

﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ⟨٨⟩﴾

يقول تعالىٰ محرضًا للمؤمنين علىٰ معاداة المشركين والتَّبَرِّي منهم، ومُبَيِّنًا أنهم لا يَسْتَحِقُّون أن يكون لهم عهد لشركهم بالله وكفرهم(١) برسول الله ولو أنَّهم إذ ظهروا علىٰ المسلمين وأُدِيلُوا عليهم، لم يُبْقُوا ولم يَذَرُوا، ولا راقبوا فيهم إلًّا ولا ذمَّة. قال علي بن أبي طلحة، وعِكْرِمة، والعوفي عن ابن عبَّاس: «الإِلُّ»: القرابة، «والذِّمَّة»: العهد. وكذا قال الضَّحَّاك والسُّدِّي، كما قال تميم بن مُقْبِل:

أَفْسَدَ النَّاسَ خُلُوفٌ خَلَفُوا ... قَطَعُوا الإِلَّ وَأَعْرَاقَ الرَّحِمِ(٢)

وقال حسان بن ثابت رضي الله عنه:

وَجَدْنَاهُمُ كَاذِبًا إِلُّهُمْ(٣) ... وَذُو الإِلِّ وَالعَهْدِ لا يَكْذِبُ(٤)

وقال ابن أبي نجيح، عن مجاهد: ﴿لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا﴾ قال: الله. وفي رواية: لا يَرْقُبُون الله ولا غيره.

وقال ابن جرير: حدَّثني يعقوب، حدَّثنا ابن علية، عن سليمان، عن أبي مِجْلَز في قوله تعالىٰ: ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾ مثل قوله: «جِبْرَائِيل»، «مِيكَائِيل»، «إسرافيل»، كأنَّه يقول: [يُضِيفُ «جبر»، و«ميكا»، و«إسراف»، إلىٰ «إيل»، يقول عبد الله: ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا﴾ كأنه يقول:](٥) لا يرقبون الله.

والقول الأول أشهر وأظهر، وعليه الأكثر.

وعن مجاهد أيضًا: «الإِلُّ»: العهد. وقال قتادة: «الإِلُّ»: الحلف.

﴿اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ ۚ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ⟨٩⟩ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ⟨١٠⟩ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ⟨١١⟩﴾

يقول تعالىٰ ذمًّا للمشركين وحثًّا للمؤمنين علىٰ قتالهم: ﴿اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ يعني: أنَّهم اعتاضوا عن اتِّباع آيات الله بما الْتَهَوا به مِن أمور الدُّنيا الخسيسة، ﴿فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ﴾ أي: منعوا

---

(١) لوحة (٢١٨ ب).
(٢) خلوف: جمع (خَلْف)، وهم بقية السوء والأشرار تخلف من سبقها، والأعراق: جمع عِرْق، وعرق كل شيء أصله.
(٣) في (ز): (كاذبًا لهم).
(٤) قال المعلق علىٰ طبعة الشعب: نسبه ابن كثير إلىٰ حسان، ولم نجده في ديوانه، والبيت عند الطبري غير منسوب (١٥/ ١٤٨).
(٥) ما بين المعقوفتين سقط من (ز)، وهي مثبتة في «تفسير الطبري».

المؤمنين من اتِّباع الحق.

﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝٩ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾ تقدَّم تفسيره، وكذا الآية التي بعدها: ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ﴾ إلىٰ آخرها، تقدمت.

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدَّثنا محمَّد بن المثنىٰ، حدَّثنا يحيىٰ بن أبي بكر، حدَّثنا أبو جعفر الرازي، حدَّثنا الربيع بن أنس قال: سمعت أنس بن مالك يقول: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ فَارَقَ الدُّنْيَا عَلَىٰ الإِخْلَاصِ للهِ وَعِبَادَتِهِ، لا شَرِيكَ لَهُ، وَأَقَامَ الصَّلَاةَ، وَآتَىٰ الزَّكَاةَ، فَارَقَهَا وَاللهُ عَنْهُ رَاضٍ، وَهُوَ دِينُ اللهِ الَّذِي جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ وَبَلَّغُوهُ عَنْ رَبِّهِمْ، قَبْلَ هَرْجِ الأَحَادِيثِ وَاخْتِلَافِ الأَهْوَاءِ». وتصديق ذلك في كتاب الله: ﴿فَإِن تَابُوا﴾ يقول: فإن خلعوا الأوثان وعبادتها ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا الزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ وقال في آية أخرىٰ[1]: ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا الزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِي الدِّينِ﴾.

ثم قال البزار: آخر الحديث عندي والله أعلم: «فَارَقَهَا وَهُوَ عَنْهُ رَاضٍ»، وباقيه عندي من كلام الربيع بن أنس[2].

﴿وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ[3] ۝١٢﴾

يقول تعالىٰ: وإن نكث هؤلاء المشركون الَّذين عاهدتموهم علىٰ مُدَّة معيَّنةٍ أيمانهم؛ أي: عهودهم ومواثيقهم، ﴿وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ﴾ أي: عابوه وانتقصوه. ومِن هاهنا أُخِذَ قتل من سبَّ الرسول، صلوات الله وسلامه عليه، أو مَن طعن في دِينِ الإسلام أو ذكره بتنقص؛ ولهذا قال: ﴿فَقَٰتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ﴾ أي: يرجعون عمَّا هم فيه مِن الكفر والعناد والضلال.

وقد قال قتادة وغيره: أئمَّة الكفر كأبي جهل، وعتبة، وشيبة، وأمية بن خلف ... وعدَّد رجالًا.

وعن مصعب بن سعد بن أبي وقاص قال: مَرَّ سعد برَجُلٍ من الخوارج، فقال الخارجي: هذا من أئمَّة الكفر. فقال سعد: كذبت، بل أنا قاتلت أئمَّة الكفر. رواه ابن مردويه.

وقال الأعمش، عن زيد بن وهب، عن حذيفة أنَّه قال: ما قوتل أهل هذه الآية بعد.

وروىٰ عن علي بن أبي طالب ﷺ مثله.

والصَّحيح أنَّ الآية عامَّة، وإن كان سبب نزولها مشركي قريش فهِيَ عامَّةٌ لهم ولغيرهم، والله أعلم.

وقال الوليد بن مسلم: حدَّثنا صفوان بن عمرو، عن عبد الرحمن بن جُبَير بن نفير: أنه كان في عهد أبي بكر ﷺ إلىٰ النَّاس حين وَجَّهَهُم إلىٰ الشَّام، قال: إنَّكم ستجدون قومًا مُحَوَّقَة رءوسهم[4]،

---

(١) لوحة (٢١٩ أ).

(٢) ضعيف: رواه الطبري (١٠/ ٨٧)، وابن ماجة (٧٠)، والمروزي في «تعظيم قدر الصلاة» (٦)، وفيه: الربيع بن أنس: ضعيف.

(٣) في (ز): (يتقون)، وهو خطأ.

(٤) أي: محلوقة.

فاضربوا معاقد الشيطان منهم بالسُّيوف، فوالله لأن أقتل رجلًا منهم أَحَبُّ إلي من أن أَقْتُلَ سبعين من غيرهم؛ وذلك بأن الله يقول: ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ﴾، رواه ابن أبي حاتم(١).

﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾﴾

وهذا أيضًا تَهْيِيجٌ وتحضيضٌ وإغراءٌ علىٰ قتال المشركين النَّاكثين لأيمانهم، الَّذين هَمُّوا بإخراج الرسول مِن مكَّة، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ(٢) وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

وقال تعالىٰ: ﴿يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ۙ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ...﴾ الآية [الممتحنة: ١]، وقال تعالىٰ: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٦].

وقوله: ﴿وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ قيل: المراد بذلك يوم بدر، حين خرجوا لنصر عيرهم، فلمَّا نجت وعلموا بذلك استمروا علىٰ وجوههم طلبًا للقتال، بغيًا وتكبرًا، كما تقدم بسْط ذلك.

وقيل: المراد نقضهم العهد وقتالهم مع حلفائهم بني بكر لخزاعة أحلاف رسول الله ﷺ، حتىٰ سَارَ إليهم رسول الله ﷺ عام الفتح، وكان ما كان، ولله الحمد.

وقوله: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ يقول تعالىٰ: لا تخشوهم واخشونِ، فأنا أهلٌ أَن يَخْشَىٰ العباد من سطوتي وعقوبتي، فبِيَدِي الأمر، وما شئت كان، وما لم أشأ لم يكن.

ثم قال تعالىٰ عزيمةً(٣) علىٰ المؤمنين، وبيانًا لحكمته فيما شرع لهم من الجهاد، مع قدرته علىٰ إهلاك الأعداء بأمرٍ من عنده: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾، وهذا عامٌّ في المؤمنين كُلِّهم.

وقال مجاهد، وعِكْرِمة، والسُّدِّي في هذه الآية: ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ يعني: خزاعة.

وأعاد الضمير في قوله: ﴿وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ عليهم أيضًا.

وقد ذكر ابن عساكر في ترجمة مؤذنٍ لعمر بن عبد العزيز رحمه الله عن مسلم بن يسار، عن عائشة رضي الله عنها

---

(١) رواه ابن أبي حاتم (٥/ ١٠٠٢٠).

(٢) لوحة (٢١٩ ب).

(٣) أي: إيجابًا عليهم.

أن رسول الله ﷺ كان إذا غَضِبَت أخذ بأنفها، وقال: «يَا عُوَيْشُ، قُولِي: اللَّهُمَّ رَبَّ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ اغْفِرْ ذَنْبِي، وَأَذْهِبْ غَيْظَ قَلْبِي، وَأَجِرْنِي مِنْ مُضِلَّاتِ الفِتَنِ»(١).

ساقه من طريق أبي أحمد الحاكم، عن الباغندي، عن هشام بن عمار، حدَّثنا عبد الرحمن بن أبي الجون عنه.

﴿وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ﴾ أي: من عباده، ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ أي: بما يصلح عباده، ﴿حَكِيمٌ﴾ في أفعالِهِ وأقوالِهِ الكونيَّة والشرعيَّة، فيفعل ما يشاء، ويحكم ما يُرِيدُ، وهو العادل الحاكم الَّذِي لا يجور أبدًا، ولا يُضِيع مثقال ذرةٍ من خيرٍ وشرٍّ، بل يجازي عليه في الدنيا والآخرة.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾

يقول تعالىٰ: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾ أيها المؤمنون أن نترككم مُهْمَلِين، لا نختبركم بأمورٍ يظهر فيها أهل العَزْم الصَّادقِ من الكاذب؟ ولهذا قال: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ(٢) وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾ أي: بطانةً ودخيلةً، بل هم في الظاهر والباطنِ علىٰ النُّصح لله ولرسوله، فاكتفىٰ بأحد القِسْمَين عن الآخر، كما قال الشاعر:

وَمَا أَدْرِي إِذَا يَمَّمْتُ أَرْضًا ... أُرِيدُ الخَيْرَ أَيُّهُمَا يَلِينِي

وقد قال الله تعالىٰ في الآية الأخرىٰ: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ١-٣]، وقال تعالىٰ: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢].

وقال تعالىٰ: ﴿مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ...﴾ الآية [آل عمران: ١٧٩].

والحاصل أنه تعالىٰ لما شرع الجهاد لعباده، بيَّن أن له فيه حكمة، وهو اختبار عبيده: مَن يطيعه ممن يعصيه(٣)، وهو تعالىٰ العالم بما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون، فيعلم الشَّيءَ قبل كونه، ومع كونه علىٰ ما هو عليه، لا إله إلا هو، ولا رَبَّ سواه، ولا رادَّ لما قدَّره وأمضاه.

---

(١) ضعيف: رواه ابن عساكر (١٩/ ١٦٩)، وإسناده ضعيف لجهالة مؤذن عمر، ولكن رواه ابن السني في «عمل اليوم والليلة» (٤٥٧) من طريقٍ أخرىٰ، وضعفه الحافظ العراقي في «تخريج الإحياء» (١/ ٣٢٦)، فيه محمَّد بن المهاجر: ضعيف. انظر: «لسان الميزان».

قلت: وأما الدعاء بقوله: «اللهم رب النَّبِيّ محمَّد...إلخ» فله شواهد أخرىٰ؛ فقد رواه الطبري (٦/ ٢١٤ برقم ٦٦٥٢)، والطبراني في «الكبير» (٢٣/ ٧٨٥)، وفي إسناده شهر بن حوشب كثير الإرسال والاضطراب.

(٢) لوحة (٢٢٠ أ).

(٣) قال الشيخ السعدي رحمه الله: فشرع الله الجهاد ليحصل به هذا المقصود الأعظم، وهو أن يتميز الصادقون الذين لا يتحيزون إلا لدين الله، من الكاذبين الذين يزعمون الإيمان وهم يتخذون الولائج والأولياء من دون الله ورسوله والمؤمنين.

﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾ ﴾

يقول تعالىٰ: ما ينبغي للمشركين بالله أن يعمروا مساجد الله التي بُنِيَت علىٰ اسمه وحده لا شريك له. ومَن قرأ: «مسجد الله»[(١)] فأراد به المسجد الحرام، أشرف المساجد في الأرض، الذي بُنِيَ من أوَّل يوم علىٰ عبادة الله وحده لا شريك له، وأسَّسَه خليل الرحمن هذا، وهم شاهدون علىٰ أنفسهم بالكفر، أي: بحالهم وقالهم[(٢)]، كما قال السُّدِّي: لو سألت النَّصراني: ما دينك؟ لقال: نصراني، واليهودي: ما دينك؟ لقال: يهودي، والصابئي، لقال: صابئي، والمشرك، لقال: مشرك.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ أي: بشركهم، ﴿وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ﴾ كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال:٣٤]؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ فشهد تعالىٰ بالإيمان لعُمَّار المساجد، كما قال الإمام أحمد:

حدَّثنا سريج حدَّثنا ابن وهب، عن عمرو بن الحارث؛ أن دَرَّاجًا[(٣)] أبا السمح حدثه، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد الخدري؛ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**إِذَا رَأَيْتُمُ الرَّجُلَ يَعْتَادُ المَسْجِدَ فَاشْهَدُوا لَهُ بِالإِيمَانِ؛ قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾**»[(٤)].

ورواه الترمذي، وابن مردويه، والحاكم في «مستدركه» من حديث عبد الله بن وهب به.

وقال عبد بن حميد في «مسنده»: حدَّثنا يونس بن محمَّد، حدَّثنا صالح المُرِّي، عن ثابت البناني، عن ميمون بن سياه، وجعفر بن زيد، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّمَا عُمَّارُ المَسَاجِدِ هُمْ أَهْلُ اللهِ**»[(٥)].

ورواه الحافظ أبو بكر البزار، عن عبد الواحد بن غياث، عن صالح بن بشير المري، عن ثابت، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّمَا عُمَّارُ المَسَاجِدِ هُمْ أَهْلُ اللهِ**» ثم قال: لا نعلم رواه عن ثابت غير صالح.

وقد روىٰ الدَّارقطني في الأفراد مِن طريق حكَّامة بنت عثمان بن دينار، عن أبيها، عن أخيه مالك بن

---

(١) متواترة: قَرَأَ (مَسْجِدَ) ابْنُ كَثِيرٍ وَأَبُو عَمْرٍو وَيَعْقُوبُ وَوَافَقَهُمُ ابْنُ مُحَيْصِنٍ وَالْيَزِيدِيُّ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ (مَسَاجِدَ).

(٢) قالهم: قولهم. (٣) لوحة (٢٢٠ ب).

(٤) ضعيف: رواه أحمد (٣/ ٦٨) والترمذي (٣٠٩٣)، وإسناده ضعيف من أجل دراج أبي السمح، قال الحافظ: صدوق في حديثه عن أبي الهيثم ضعف.

(٥) ضعيف: رواه البزار (٤٣٣) وغيره، وفيه صالح المري، قال الحافظ: ضعيف، انظر «التقريب» (٢٨٤٥).

دينار، عن أنس مرفوعًا: «إِذَا أَرَادَ اللهُ بِقَوْمٍ عَاهَةً نَظَرَ إِلَىٰ أَهْلِ المَسَاجِدِ، فَصَرَفَ عَنْهُمْ». ثم قال: غريب[(١)].

وروىٰ الحافظ البهاء في «المستقصىٰ»، عن أبيه بسنده إلىٰ أبي أمية الطَّرَسوسي: حدَّثنا منصور بن صقير، حدَّثنا صالح المري، عن ثابت، عن أنس مرفوعًا: «يَقُولُ اللهُ: وَعِزَّتِي وَجَلَالِي، إِنِّي لَأَهُمُّ بِأَهْلِ الأَرْضِ عَذَابًا، فَإِذَا نَظَرْتُ إِلَىٰ عُمَّارِ بُيُوتِي وَإِلَىٰ المُتَحَابِّينَ فِيَّ، وَإِلَىٰ المُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ، صَرَفْتُ ذَلِكَ عَنْهُمْ». ثم قال ابن عساكر: حديث غريب[(٢)].

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا رَوْحٌ، حدَّثنا سعيد، عن قتادة، حدَّثنا العلاء بن زياد، عن معاذ بن جبل؛ أن النبيَّ ﷺ قال: «إِنَّ الشَّيْطَانَ ذِئْبُ الإِنْسَانِ، كَذِئْبِ الغَنَمِ يَأْخُذُ الشَّاةَ القَاصِيَةَ وَالنَّاحِيَةَ، فَإِيَّاكُمْ وَالشِّعَابَ[(٣)]، وَعَلَيْكُمْ بِالجَمَاعَةِ وَالعَامَّةِ وَالمَسْجِدِ»[(٤)].

وقال عبد الرازق، عن مَعْمَر، عن أبي إسحاق، عن عمرو بن ميمون الأَوْدي قال: أدركت أصحاب النَّبيِّ ﷺ وهم يقولون: إنَّ المساجد بُيوت الله في الأَرض، وإنَّه حقٌّ علىٰ الله أن يكرم مَن زَارَه فيها[(٥)].

وقال المسعودي، عن حبيب بن أبي ثابت وعدي بن ثابت، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما، قال: مَن سَمِعَ النِّداء بالصَّلاةِ ثم لم يُجِب ويأتي المسجد ويُصَلِّي، فلا صلاة له، وقد عصىٰ الله ورسوله، قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ...﴾ الآية رواه ابن مردويه[(٦)].

وقد روي[(٧)] مرفوعًا من وجه آخر، وله شواهد من وجوه أخر ليس هذا موضع بسطها[(٨)].

---

(١) ضعيف: لم نقف عليه بهذا الإسناد، وعلي كلٍّ فهو إسناد ضعيف، قال ابن عدي في «الكامل» في ترجمة عثمان بن دينار: (تروي حكَّامة ابنته أحاديث بواطيل ليس لها أصل...) ثم قال: (أحاديث حكَّامة تُشبه حديث القُصَّاص ليس لها أصول). «الكامل في الضعفاء» (١١٩٩).

وروىٰ ابن عدي (٣/ ٢٣٣) ترجمة (٧٢٥) حديثًا بنحوه من طريق: زافر بن سليمان عن عبد الله بن أبي صالح عن أنس بنحوه، وقال: (زافر بن سليمان كأن أحاديثه مقلوبة الإسناد، مقلوبة المتن، وعامة ما يرويه لا يتابع عليه، ويكتب حديثه مع ضعفه)، ورواه أبو نعيم في «أخبار أصبهان» (٢/ ٣٤١)، وضعفه الشيخ الألباني رحمه الله في «ضعيف الجامع» (٤٤٤).

(٢) ضعيف: مداره علىٰ صالح المري، وهو ضعيف كما تقدم قريبًا، والحديث رواه ابن عدي في «الكامل» (٤/ ٦١)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٩٠٥١).

(٣) الشِّعَاب: جمع شِعْب، وهو ما انفرج بين جبلين.

(٤) ضعيف: أحمد (٥/ ٢٣٢)، والعلاء بن زياد: ثقة، إلا أن روايته عن معاذ مرسلة فهو لم يدركه، انظر: «جامع التحصيل» (صـ ٣٠٥).

(٥) رجاله ثقات، لكن أبو إسحاق مدلس، والإسناد معضل، رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٩٠٥٢).

(٦) عزاه لابن مردويه، وكذلك عزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ١٤٠)، ولم أقف علىٰ إسناده.

(٧) لوحة (٢٢١ أ).

(٨) منها ما رواه أبو هريرة مرفوعًا: «**لا صلاة لجار المسجد إلا في المسجد**» رواه الحاكم (١/ ٣٧٤).

ومنها ما رواه ابن عبَّاس موقوفًا: رواه ابن الجعد في «مسنده» (٤٨٢)، والطبراني في «الأوسط» (٤٣٠٣)

ومنها ما رواه الدارقطني (١/ ٤٢٠) من حديث جابر مرفوعًا، وإسناده ضعيف؛ فيه محمَّد بن سِكِّين، قال الذهبي: لا يعرف، وخبره منكر. وقد ثبت بسند صحيح من حديث ابن عبَّاس مرفوعًا: «**من سمع النداء فلم يأته فلا صلاة له إلا من عذرٍ**» رواه ابن ماجة (٧٩٣)، والحاكم (١/ ٢٤٥)، والبيهقي (٤/ ١٧٤)، وقال الحاكم: صحيح علىٰ شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في «إرواء الغليل» في تعليقه علىٰ الحديث (٥٥١).

وقوله: ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: التي هي أكبر عبادات البدن، ﴿وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي: التي هي أفضل الأعمال المُتعدِّية إلىٰ برِّ الخلائقِ، ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ أي: ولم يَخَفْ إلَّا مِن الله تعالىٰ، ولم يَخْش سِواهُ، ﴿فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾.

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عبَّاس في قوله: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ يقول: مَن وحَّد الله، وآمَن باليَوْمِ الآخر يقول: مَن آمن بما أنْزَل الله، ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ يعني: الصَّلوات الخمس، ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ يقول: لَمْ يَعْبُد إلَّا الله -ثم قال: ﴿فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ يقول: إنَّ أولئك هم المفلحون؛ كقوله لنبيه ﷺ: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء:٧٩] [يقول: إنَّ ربَّك سيبعثُكَ مقامًا محمودًا] (١) وهي الشفاعة، وكل «عسىٰ» في القرآن فهي واجبة.

وقال محمَّد بن إسحاق بن يسار رَحِمَهُ ٱللَّهُ: و«عسىٰ» مِن الله حقٌّ.

﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾

قال العوفي في «تفسيره» عن ابن عبَّاس في تفسير هذه الآية قال: إن المشركين قالوا: عمارة بيت الله، وقيام علىٰ السِّقَاية خيرٌ ممَّن آمَن وجَاهَد. وكانوا يَفْخَرُون بالحرم ويَسْتكْبِرُون به مِن أجل أنَّهم أهله وعُمَّاره. فذكر الله استكبارهم وإعراضهم فقال لأهل الحَرَم من المشركين: ﴿قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ﴾ يعني: أنَّهم كانوا يستكبرون بالحرم، قال: ﴿بِهِۦ سَٰمِرًا﴾ كانوا يَسْمُرون به ويَهْجُرُون القرآن والنَّبيَّ ﷺ، فخيَّر الله الإيمان والجهاد مع النَّبيِّ ﷺ علىٰ عمارة المشركين البيت وقيامهم علىٰ السِّقاية، ولم يكن ينفعهم عند الله مع الشِّرك به، وإن كانوا يَعْمُرُون بيته ويخدمونه به. قال الله تعالىٰ: ﴿لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يعني: الذين زعموا أنَّهم أهل العمارة فسمَّاهم الله ظالمين بشركهم فلم تُغْنِ عنهم العمارة شيئًا (٢).

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عبَّاس في تفسير هذه الآية (٣)، قال: نزلت في العبَّاس بن عبد المطلب حين أُسِرَ ببدرٍ قال: لئن كنتم سبقتمونا بالإسلام والهجرة والجهاد، لَقَدْ كنا نَعْمُرُ المسجد الحرام ونسقي [الحاج] (٤) ونفك العَانِي، قال الله ﷻ: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ﴾ إلىٰ قوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يعني: أنَّ ذلك كلَّه كان في الشِّرك ولا أقبل ما كان في الشرك (٥).

---

(١) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).
(٢) رواه الطبري (١٠/ ٩٥)، وإسناده ضعيف.
(٣) لوحة (٢٢١ ب).
(٤) ليست في (ز).
(٥) رواه الطبري (١٠/ ٩٥)، وإسناده منقطع بين علي بن أبي طلحة وابن عبَّاس.

وقال الضَّحَّاك بن مزاحم: أقبل المُسْلِمُون على العبَّاس وأصحابه الذين أُسِرُوا يوم بدر يُعَيِّرُونَهم بالشِّرك، فقال العبَّاس: أما والله لقد كنَّا نعمر المسجد الحرام، ونَفُكُّ العَانِي، ونَحْجُب البيت، ونَسْقِي الحَاجَّ؛ فأنزل الله ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ ...﴾ الآية[١].

وقال عبد الرزاق: أخبرنا ابن عيينة، عن إسماعيل، عن الشعبي، قال: نزلت في علي والعبَّاس رضي الله عنهما [بما][٢] تكلما في ذلك.

وقال ابن جرير: حدَّثني يونس، أخبرنا ابن وهب، أُخبرت[٣] عن أبي صخر، قال: سمعت محمَّد بن كعب القُرَظي يقول: افتخر طلحة بن شيبة من بني عبد الدار، وعبَّاس بن عبد المطلب، وعلي بن أبي طالب، فقال طلحة[٤]: أنا صاحب البيت معي مفتاحه ولو أشاء بِتُّ فيه، وقال العبَّاس: أنا صاحب السِّقاية والقائم عليها، ولو أشاء بِتُّ في المسجد، فقال عليٌّ رضي الله عنه: ما أدري ما تقولان، لقد صَلَّيْتُ إلى القبلة ستَّة أشهرٍ قبل النَّاس وأنا صاحب الجِهاد، فأنزل الله عز وجل: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ ...﴾. الآية كلها[٥].

وهكذا قال السُّدِّي إلَّا أنَّه قال: افتخر علي، والعبَّاس، [وعثمان][٦]، وشيبة بن عثمان، وذكر نحوه.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن عمرو، عن الحسن، قال: نَزَلَتْ في عليٍّ، وعبَّاس وعثمان، وشَيْبَة تكلَّموا في ذلك، فقال العبَّاس: ما أُراني إلَّا تاركَ سِقايتِنا، فقال رسول الله ﷺ: «أَقِيمُوا عَلَىٰ سِقَايَتِكُمْ فَإِنَّ لَكُمْ فِيهَا خَيْرًا»[٧].

ورواه محمَّد بن ثور، عن معمر، عن الحسن... فذكر نحوه إلا أنه قال: فقال رسول الله ﷺ: «أَقِيمُوا عَلَىٰ سِقَايَتِكُمْ فَإِنَّ لَكُمْ فِيهَا خَيْرًا» وقد ورد في تفسير هذه الآية حديثٌ مرفوعٌ فلا بد مِن ذكره هاهنا.

قال عبد الرزَّاق: أخبرنا معمر، عن يحيىٰ بن أبي كثير، عن النعمان بن بشير رضي الله عنه: أن رجلًا قال: ما أُبالِي أن لا أعمل عملًا بعد الإسلام إلا أن أَسْقِيَ الحاجَّ، وقال آخر: ما أبالي أن [لا][٨] أعمل عملًا بعد الإسلام إلا أن أعمر المسجد الحرام، وقال آخر: الجهاد في سبيل الله أفضل ممَّا قلتم، فزجرهم عمر رضي الله عنه وقال: لا ترفعوا أصواتكم عند[٩] مِنْبَرِ رسول الله ﷺ وذلك يوم الجمعة، ولكن إذا صلينا الجمعة دخلنا [علىٰ النَّبيِّ ﷺ][١٠] فسألناه. فنزلت: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ إلىٰ قوله: ﴿لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ﴾[١١].

---

(١) رواه الطبري (١٠/ ٩٦)، وإسناده مرسل، وكذلك الإسناد الذي بعده عن الشعبي.

(٢) ليس في (ز).

(٣) في (ز): (أخبرنا ابن وهب أخبرني ابن لهيعة عن أبي صقر)، والمثبت موافق لما في «الطبري».

(٤) جاء في هامش (ز): (لعله عثمان بن طلحة).

(٥) ضعيف: رواه ابن جرير (١٠/ ٩٦)، وأسانيدها معضلة. (٦) سقط من (ز).

(٧) ضعيف: رواه عبد الرزاق (١/ ٢٤٣)، ورواه ابن جرير (١٠/ ٩٦) عن الحسن، وهو مدلس، وروايته هذه مرسلة.

(٨) سقط من (ز). (٩) لوحة (٢٢٢ أ). (١٠) في (ز): دخلنا عليه.

(١١) رواه مسلم (١٨٧٢)، والطبري (١٠/ ٩٥)، وابن أبي حاتم (١٠٠٦٣)، وهذا أصح ما ورد في سبب نزول الآية، =

(طريق أخرىٰ) قال الوليد بن مسلم: حدَّثني معاوية بن سلام، عن جده أبي سلام الأسود، عن النُّعمان بن بشير الأنصاري قال: كنت عند مِنْبَرِ رسول الله ﷺ في نفرٍ من أصحابه فقال رجلٌ منهم: ما أُبَالِي أن لا أعمل لله عملًا بعد الإسلام إلا أن أسقي الحاج، وقال آخر: بل عمارة المسجد الحرام. وقال آخر: بل الجِهَاد في سبيل الله خير مما قلتم، فزجرهم عمر بن الخطاب ﷺ وقال: لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله ﷺ، وذلك[1] يوم الجمعة، ولكن إذا صليت الجمعة دخلت علىٰ رسول الله ﷺ فاستفتيه فيما اختلفتم فيه. قال: ففعل فأنزل الله ﷻ ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ إلىٰ قوله: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[2].

رواه مسلم في «صحيحه»، وأبو داود، وابن جرير وهذا لفظه، وابن مردويه وابن أبي حاتم في تفاسيرهم، وابن حبان في «صحيحه».

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾[3]

أمر الله تعالىٰ بمُبَايَنَة الكفَّار به، وإن كانوا آباءً أو أبناء، ونهىٰ عن موالاتهم [إن][4] ﴿اسْتَحَبُّوا﴾ أي: اختاروا الكفر علىٰ الإيمان، وتوعد علىٰ ذلك؛ كما قال تعالىٰ: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ الآية [المجادلة: ٢٢].

وروىٰ الحافظ [أبو بكر][5] البيهقي من حديث عبد الله بن شَوْذَب قال: جعل أبو أبي عبيدة بن الجراح يَنْعَتُ له الآلهةَ يوم بدر، وجعل أبو عبيدة يَحِيدُ عنه، فلما أكثر الجراح قصده ابنه أبو عبيدة فقتله، فأنزل الله فيه هذه الآية: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾[6] الآية [المجادلة: ٢٢][7].

= ولم أجده في «سنن أبي داود».

(١) في (ز): (وهو يوم الجمعة).

(٢) انظر التعليق السابق.

(٣) قال الشيخ السعدي رحمه الله: وهذه الآية الكريمة أعظم دليل علىٰ وجوب محبة الله ورسوله، وعلىٰ تقديمها علىٰ محبة كل شيء، وعلىٰ الوعيد الشديد والمقت الأكيد علىٰ مَنْ كان شيء من هذه المذكورات أحب إليه من الله ورسوله وجهاد في سبيله. وعلامة ذلك، أنه إذا عرض عليه أمران، أحدهما يحبه الله ورسوله، وليس لنفسه فيه هوًىٰ، والآخر تحبه نفسه وتشتهيه، ولكنه يُفَوِّتُ عليه محبوبًا لله ورسوله، أو ينقصه، فإنه إن قدَّم ما تهواه نفسه، علىٰ ما يحبه الله، دل ذلك علىٰ أنه ظالمٌ، تاركٌ لما يجب عليه.

(٤) في (ز): (إذا).

(٥) ليست في (ز).

(٦) لوحة (٢٢٢ ب).

(٧) ضعيف: رواه الحاكم (٣/ ٢٩٦)، والبيهقي (٩/ ٢٧)، وإسناده مرسل.

ثم أمر تعالىٰ رسوله أن يتوعَّد مَن آثر[(١)] أهله وقرابته وعشيرته علىٰ الله وعلىٰ رسوله وجهادٍ في سبيله، فقال: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا﴾ أي: اكتسبتموها وحصَّلتموها ﴿وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ﴾ أي: تُحِبُّونها لِطِيبِهَا وحسنها؛ أي: إن كانت هذه الأشياء ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟﴾ أي: فانتظروا ماذا يَحِلُّ بكم مِن عقابه ونكاله بكم؛ ولهذا قال: ﴿حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ .

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا قتيبة بن سعيد، حدَّثنا ابن لهيعة، عن زُهْرة بن معبد، عن جده قال: كنَّا مع رسول الله ﷺ، وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب، فقال: والله لأنت يا رسول الله أحبُّ إِلَيَّ مِن كلِّ شيءٍ إِلَّا مِن نفسي فقال رسول الله ﷺ: «**لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ نَفْسِهِ**». فقال عمر: فأنت الآن والله أحب إليّ من نفسي. فقال رسول الله: «**الآنَ يَا عُمَرُ**»[(٢)] .

انفرد بإخراجه البخاري؛ فرواه عن يحيىٰ بن سليمان، عن ابن وهب، عن حيوة بن شريح، عن أبي عقيل زهرة بن معبد، أنه سمع جده عبد الله بن هشام، عن النَّبيِّ ﷺ بهذا .

وقد ثبت في «الصحيح» عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**»[(٣)]

وروىٰ الإمام أحمد، وأبو داود -واللفظ له- من حديث أبي عبد الرحمن الخُراساني، عن عطاء الخراساني، عن نافع، عن ابن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالعِينَةِ**[(٤)] ، **وَأَخَذْتُمْ بِأَذْنَابِ البَقَرِ، وَرَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ، وَتَرَكْتُمُ الجِهَادَ، سَلَّطَ اللهُ عَلَيْكُمْ ذُلًّا لا يَنْزِعُهُ حَتَّىٰ تَرْجِعُوا إِلَىٰ دِينِكُمْ**»[(٥)] .

وروىٰ الإمام أحمد أيضًا عن يزيد بن هارون، عن أبي جناب، عن شهر بن حوشب أنه سمع عبد الله بن عمرو عن رسول الله ﷺ بنحو ذلك[(٦)] ، وهذا شاهد للَّذي قبله، والله أعلم.

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾

---

(١) في (ز): (أحب). (٢) البخاري (٦٦٣٢)، وأحمد (٤/ ٣٣٦).

(٣) رواه البخاري (١٤) نحوه، ورواه مسلم (٤٤).

(٤) العِينة: أن يَبيعَ مِن رَجُل سِلْعةً بثَمنٍ مَعْلوم إلىٰ أجَل مُسمًّىٰ، ثم يَشْتريها منه بأقلَّ من الثَّمن الذي باعَها به، وسُمِّيت عِينَةً لحصُول النَّقْد لصاحب العِينَة؛ لأنَّ العَيْن هو المَال. «النهاية»: (٣/ ٣٣٣- ٣٣٤).

(٥) صحيح لغيره: رواه أحمد (٢/ ٤٢) وأبو داود (٣٤٦٣)،وقد استوفىٰ الشيخ الألباني له شواهد ومتابعات وقال: هو حديث صحيح لمجموع طرقه. انظر: «السلسلة الصحيحة» (١١).

(٦) رواه أحمد (٢/ ٨٤)، وفيه شهر بن حوشب وهو كثير الإرسال والاضطراب. وانظر التعليق السابق.

قال ابن جُرَيْج، عن مجاهد: هذه أوَّل آيةٍ نزلت [١]مِن [سورة] [٢]«براءة».

يذكر تعالىٰ للمؤمنين فَضْلَه عليهم وإحسانه لَدَيْهِم في نَصْرِهِ إيَّاهم في مواطن كثيرةٍ من غزواتهم مع رسوله، وأن ذلك من عنده تعالىٰ، وبتأْييده وتَقْدِيره، لا بعَدَدِهم ولا بِعُدَدِهم ونبَّهَهُم علىٰ أنَّ النَّصر مِن عنده؛ سواءٌ قَلَّ الجَمْعُ أو كثر؛ فإنَّ يوم حُنين أعجبتهم كَثْرَتُهُم، ومع هذا ما أَجْدَىٰ ذلك عنهم شيئًا فوَلَّوْا مُدْبِرِين إلا القليل منهم مع رسول الله ﷺ. ثم أنزل الله نصره وتَأْييدَه علىٰ رسوله وعلىٰ المؤمنين الَّذِين معه، كما سَنُبَيِّنُه -إن شاء الله تعالىٰ- مفصلًا ليُعْلِمَهم أنَّ النصر من عنده تعالىٰ وحده، وبإمداده وإن قل الجمع، فكم مِن فئة قليلة غلبت فئةً كثيرةً بإذن الله، والله مع الصابرين.

وقد قال الإمام أحمد: حدَّثنا وهب بن جرير، حدَّثنا أبي، سمعت يونس يحدث عن الزهري، عن عبيد الله، عن ابن عبَّاس قال: قال رسول الله ﷺ: «**خَيْرُ الصَّحَابَةِ أَرْبَعَةٌ، وَخَيْرُ السَّرَايَا أَرْبَعُمِائَةٍ، وَخَيْرُ الجُيُوشِ أَرْبَعَةُ آلافٍ، وَلَنْ تُغْلَبَ اثْنَا عَشَرَ أَلْفًا مِنْ قِلَّةٍ**»[٣].

وهكذا رواه أبو داود، والترمذي ثم قال: هذا حديث حسن غريب، لا يُسْنِده كبيرُ أحدٍ غيرَ جرير بن حازم، وإنَّما روي عن الزهري، عن النَّبيِّ ﷺ مرسلًا.

وقد رواه ابن ماجة والبيهقي وغيره، عن أكثم بن الجون، عن رسول الله ﷺ، بنحوه[٤]، والله أعلم.

وقد كانت وقعة: «حُنين» بعد فتح مكة في شوال سنة ثمانٍ من الهجرة؛ وذلك لما فرغ ﷺ مِن فتح مكَّة، وتمهدت أُمُورُها، وأسلم عامَّة أهلها، وأطلقهم رسول الله ﷺ، فبلغه أن هوازن جمعوا له لِيُقَاتِلُوه، و[أن] [٥]أميرهم مالك بن عوف النَّضْري، ومعه ثقيف بكمالها، وبنو جُشَم وبنو سعد بن بكر، وأوزاع[٦] من بني هلال، وهُم قليلٌ، وناسٌ مِن بني عمرو بن عامر، وعوف بن عامر، وقد أقبلوا معهم النِّساء والولدان والشَّاء والنَّعم، وجاءوا بقَضِّهم وقَضِيضِهم[٧] فخرج إليهم رسول الله ﷺ في جيشه الذي جاء معه للفتح، وهو عشرة آلافٍ مِن المهاجرين والأنصار وقبائل العرب، ومعه الذين أَسْلَمُوا مِن أهل مكَّة، وهم الطُّلقاء في ألفين أيضًا، فسار بهم إلىٰ العدو، فالتقوا بواد بينَ مكَّة والطَّائف يقال له: «حنين»، فكانت فيه الوقعة في أوَّل النَّهار في غَلَس الصبح، انحدروا في الوادي وقد كَمَنَت فيه هوازن، فلما تواجهوا لم يشعر المسلمون إلا بهم قد ثَاوَرُوهُم[٨] ورشقوا بالنِّبال، وأصلتوا السيوف، وحملوا حملة رجلٍ واحدٍ، كما أمرهم ملكهم[٩]. فعند ذلك ولَّىٰ المسلمون مدبرين، كما قال الله ﷻ وثبت

---

(١) لوحة (٢٢٣ أ). (٢) ليست في (ز).

(٣) صحيح: أحمد (١/ ٢٢٤)، وأبو داود (٢٦١١)، والترمذي (١٥٥٥) وحسنه، وقد انفرد بوصله جرير بن حازم كما قال الترمذي: ولا يضر ذلك؛ فجرير بن حازم صدوق. وله شاهد من حديث أكثم بن الجون كما أشار إلىٰ ذلك المصنف: رواه ابن ماجة (٢٨٢٧)، والبيهقي في «الكبرىٰ» (٩/ ٢٦٣) وإسناده ضعيف، وعلته: أبو سلمة العاملي الأزدي، وعبد الملك بن محمَّد الصَّغاني، كلاهما ضعيف.

(٤) انظر التعليق السابق. (٥) سقط من (ز). (٦) **الأوزاع**: الجماعات.

(٧) أي: بأجمعهم. (٨) **المثاورة**: المواثبة. (٩) لوحة (٢٢٣ ب).

رسول الله ﷺ، وهو راكب يومئذٍ بغلته الشَّهْبَاء يسوقها إلىٰ نحر العدو، والعبَّاس عمه آخذ بِرِكَابِهَا الأيمن، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب آخذ برِكَابِهَا الأيسر يُثَقِّلانها؛ لئلَّا تُسْرِعَ السَّيرَ، وهو ينوه باسمه ﷺ ويدعو المسلمين إلىٰ الرَّجعة ويقول: «أَيْنَ يَا عِبَادَ اللهِ؟ إِلَيَّ أَنَا رَسُولُ اللهِ»، ويقول في تلك الحال:

أَنَـــا النَّبِـــيُّ لا كَـــذِبْ   أَنَـــا ابْـــنُ عَبْـــدِ المُطَّلِـــبْ

وثبت معه مِن أصحابه قريب من مائة، ومنهم من قال: ثمانون؛ فمنهم: أبو بكر، وعمر رضي الله عنهما والعبَّاس وعلي، والفضل بن عبَّاس، وأبو سفيان بن الحارث، وأيمن بن أم أيمن، وأسامة بن زيد، وغيرهم رضي الله عنهم.

ثم أمر ﷺ عمه العبَّاس -وكان جَهِير الصَّوت- أن ينادي بأعلىٰ صوته: يا أصحاب الشَّجرة -يعني: شجرة بيعة الرضوان، التي بايعه المسلمون من المهاجرين والأنصار تحتها، علىٰ ألا يفروا عنه- فجعل ينادي بهم: يا أصحاب السَّمُرَة[1] ويقول تارة: يا أصحاب سورة البقرة، فجعلوا يقولون: يا لبيك، يا لبيك، وانعطف النَّاس فجعلوا يتراجعون إلىٰ رسول الله ﷺ، حتىٰ إنَّ الرجل منهم إذا لم يطاوعه بَعِيرُه علىٰ الرجوع، لبس درعه، ثم انحدر عنه، وأرسله، ورجع بنفسه إلىٰ رسول الله ﷺ. فلما رجعت شِرْذِمَةٌ منهم، أمرهم عليه السلام أن يصدُقُوا الحَمْلَةَ، وأخذ قبضةً من التُّراب بعدما دعا ربه واستنصره، وقال: «اللَّهُمَّ أَنجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي» ثم رمىٰ القوم بها، فما بَقِي إنسانٌ منهم إلا أصابه منها في عَيْنَيْه وفمِهِ ما شغله عن القِتَال، ثم انهزموا، فاتَّبع المسلمون أَقْفَاءَهُم يقتلون ويأسرون، وما تراجع بقيَّة النَّاس إلا والأسارىٰ مُجَدَّلة[2] بين يدي رسول الله ﷺ[3].

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا عفان، حدَّثنا حماد بن سلمة، أخبرنا يعلىٰ بن عطاء، عن عبد الله بن يسار أبي همام، عن أبي عبد الرحمن الفِهْري -واسمه يزيد بن أسيد، ويقال: يزيد بن أنيس، ويقال: كُرْز- قال: كنت مع رسول الله ﷺ في غزوة حنين، فَسِرْنا في يومٍ قائظٍ شديد الحَرِّ، فنزلنا تحت ظلال الشَّجر، فلما زالت الشَّمس لبست لَأْمَتي ورَكِبْت فرسي، فانطلقتُ إلىٰ رسول الله ﷺ وهو في فسطاطه، فقلت: السلام عليك[4] يا رسول الله ورحمة الله، حان الرواح؟ فقال: «أَجَلْ». فقال: «يَا بِلَالُ» فثار[5] من تحت سمرة كأنَّ ظِلَّهُ ظِلُّ طائرٍ[6]، فقال: لبيك وسعديك، وأنا فداؤك فقال: «أَسْرِجْ لِي فَرَسِي». فأخرج سَرْجًا دَفَّتاه من ليف، ليس فيهما أشرٌ ولا بَطَر.

قال: فأسرج، فركب وركبنا، فصافقناهم عشيتَنَا وليلتَنَا، فتشامت[7] الخِيلانُ، فولىٰ المسلمون

---

(١) السَّمُرة: من شجر الطلح. (٢) جَدَّلْته: رميته وصرعته.

(٣) انظر غزوة حنين في: «صحيح البخاري» (٢٨٦٤)، ومسلم (١٧٧٦)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٥/ ١٤٣).

(٤) لوحة (٢٢٤ أ).

(٥) أي: ظهر من تحت الشجرة. (٦) كناية عن سرعته في إجابة دعوة النبي ﷺ.

(٧) تشامت: تقاربت، والخِيلان: جمع خَال، وهو البعير الضخم.

مدبرين، كما قال الله ﷻ: [﴿ثُمَّ وَلَّيۡتُم مُّدۡبِرِينَ﴾][1] فقال رسول الله ﷺ: «يَا عِبَادَ اللهِ، أَنَا عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ»، ثم قال: «يَا مَعْشَرَ المُهَاجِرِينَ، أَنَا عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ». قال: ثم اقتحم رسول الله ﷺ عن فرسه فأخذ كفًّا من تراب، فأخبرني الذي كان أدنىٰ إليه مني: أنه ضرب به وجوههم، وقال: «شَاهَتِ الوُجُوهُ». فهزمهم الله ﷻ. قال يعلىٰ بن عطاء: فحدَّثني أبناؤهم، عن آبائهم، أنَّهم قالوا: لم يَبْقَ منَّا أحدٌ إلا امتلأت عيناه وفمه ترابًا، وسمعنا صلصلةً بين السماء والأرض، كإمرار الحديد علىٰ الطَّسْت الجديد[2].

وهكذا رواه الحافظ البيهقي في «دلائل النبوة» من حديث أبي داود الطيالسي، عن حماد بن سلمة به.

وقال محمَّد بن إسحاق: حدَّثني عاصم بن عمر بن قتادة، عن عبد الرحمن بن جابر، عن أبيه جابر عن عبد الله قال: فخرج مالك بن عوف بمَن معه إلىٰ حنين، فسبق رسول الله ﷺ إليه، فأعدوا وتهيئوا في مضايق الوادي وأحنائه، وأقبل رسول الله ﷺ وأصحابه، حتىٰ انحطَّ بهم الوادي في عماية الصُّبح[3]، فلما انحطَّ النَّاس ثارت في وجوههم الخيل، فاشتدت عليهم، وانكفأ الناس منهزمين، لا يُقْبِل أحدٌ علىٰ أحدٍ، وانحاز رسول الله ﷺ ذات اليمين يقول: «أَيُّهَا النَّاسُ هَلُمُّوا إِلَيَّ، أَنَا رَسُولُ اللهِ، أَنَا رَسُولُ اللهِ، أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ» فلا شيء، وركبت الإبل بعضها بعضًا، فلما رأىٰ رسول الله ﷺ أمر الناس قال: «يَا عَبَّاسُ، اصْرُخْ: يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ، يَا أَصْحَابَ السَّمُرَةِ». فأجابوه: لبيك، لبيك، فجعل الرجل يذهب ليعطف بعيره، فلا يقدر علىٰ ذلك، فيقذف درعه في عنقه، ويأخذ سيفه وقوسه، ثم يَؤُمُّ الصوت، حتىٰ اجتمع إلىٰ رسول الله ﷺ منهم مائة، فاستعرض الناسَ فاقتتلوا، وكانت الدعوة أول ما كانت بالأنصار، ثم جعلت آخرًا بالخزرج وكانوا صُبُرًا عند الحرب، وأشرف رسول الله ﷺ[4] في ركابه فنظر إلىٰ مُجتَلَد القوم[5]، فقال: «الآنَ حَمِيَ الوَطِيسُ[6]» قال: فوالله ما راجعه النَّاس إلا والأسارىٰ عند رسول الله ﷺ ملقَون، فقتل الله منهم من قتل، وانهزم منهم مَن انهزم، وأفاء الله علىٰ رسوله أموالهم وأبناءهم[7].

وفي «الصحيحين» من حديث شعبة، عن أبي إسحاق، عن البراء بن عازب ﷺ أنَّه قال له رجل: يا أبا عمارة، أَفَرَرْتُم عن رسول الله ﷺ يوم حنين، فقال: لكن رسول الله ﷺ لم يفرَّ، إن هوازن كانوا قومًا رُماةً، فلما لقيناهم وحَمَلنا عليهم انهزموا، فأقبل الناس علىٰ الغنائم، فاستقبلونا بالسِّهام، فانهزم النَّاس، فلقد رأيت رسول الله ﷺ وأبو سفيان بن الحارث آخذٌ بلجام بغلةِ رسول الله ﷺ البيضاء، وهو يقول:

---

(١) سقط من (ز).

(٢) **حسن لغيره**: رواه أحمد (٥/ ٢٨٦)، وأبو داود (٥٢٣٣)، وفيه عبد الله بن يسار: لم يوثقه غير ابن حبان، وقال الحافظ: مجهول، وقال ابن المديني: شيخ مجهول؛ وعليه فالحديث ضعيف، لكن يشهد له حديث جابر الآتي، والحديث حسنه الشيخ الألباني رَحِمَهُ اللهُ في «صحيح أبي داود».

(٣) أي: ظلامه قبل أن يتبين. (٤) لوحة (٢٢٤ ب).

(٥) أي: مكان جِلادِهم بالسيوف، وهو حيث تكون المعركة.

(٦) الوَطِيسُ: التَّنُّور، وهو كناية عن شِدّة الأمرِ واضْطِرام الحَرْب. ويقال: إنّ هذه الكلمة أوّلُ من قالها النبي ﷺ لمَّا اشتدّ البَأسُ يومئذ، ولم تُسْمَع قَبْله، وهي أحْسن الاسْتِعارات. «النهاية».

(٧) **صحيح**: رجاله كلهم ثقات، وهو شاهد للحديث السابق.

أَنَـــا النَّبِـــيُّ لا كَـــذِبْ أَنَـــا ابْـــنُ عَبْـــدِ المُـطَّلِـبْ[١]

قلت: وهذا في غاية ما يكون من الشَّجَاعة التَّامَّة، أَنَّه في مثل هذا اليوم في حَومة الوَغَىٰ، وقد انكشف عنه جيشه، هو مع ذلك علىٰ بَغْلَةٍ وليست سريعة الجري، ولا تصلح لكرٍّ ولا لفرٍّ ولا لهربٍ، وهو مع هذا أيضًا يركضها إلىٰ وجوههم وينوِّه باسمه لِيَعْرِفَه مَن لم يعرفه، صلوات الله وسلامه عليه دائمًا إلىٰ يوم الدين، وما هذا كله إلا ثقةً بالله، وتوكلًا عليه، وعلمًا منه بأنه سينصره، ويتم ما أرسله به، ويظهر دينه علىٰ سائر الأديان؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ﴾ أَيْ: طُمَأْنينته وثباته علىٰ رسوله، ﴿وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي: الذين معه، ﴿وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ وهم الملائكة، كما قال الإمام أبو جعفر بن جرير:

[حدَّثنا القاسم قال:][٢] حدَّثني الحسن بن عرفة قال: حدَّثني المعتمر بن سليمان، عن عوف -هو ابن أبي جميلة الأعرابي- قال: سمعت عبد الرحمن مولىٰ ابن بُرْثُن، حدَّثني رجلٌ كان من المشركين يوم حنين قال: لما الْتَقَيْنَا نحن وأصحاب رسول الله ﷺ يوم حنين لم يقُومُوا لنا حَلْبَ شاةٍ[٣]، قال: فلما كشفناهم جعلنا نسوقهم في آثارهم، حتىٰ انتهينا إلىٰ صاحب البَغْلَةِ البيضاء، فإذا هو رسول الله ﷺ، قال: فتلقانا عنده رجال بيض حسان الوجوه، فقالوا لنا: شاهت الوجوه، ارجعوا[٤]. قال: فانهزمنا، وركبوا أكتافنا، فكانت إياها[٥].

وقال الحافظ أبو بكر البيهقي: أنبأنا أبو عبد الله الحافظ، حدَّثني محمَّد بن أحمد بن بَالَوَيه، حدَّثنا إسحاق بن الحسن الحربي، حدَّثنا عفان بن مسلم، حدَّثنا عبد الواحد بن زياد، حدَّثنا الحارث بن حَصِيرة، حدَّثنا القاسم بن عبد الرحمن، عن أبيه قال: قال ابن مسعود رضي الله عنه: كنت مع رسول الله ﷺ يوم حُنينٍ، فولىٰ عنه الناس، وبقيتُ معه في ثمانين رجلًا من المهاجرين والأنصار، قدمنا ولم نولهم الدبر، وهم الذين أنزل الله عليهم السكينة. قال: ورسول الله ﷺ علىٰ بغلته يمضي قُدُمًا، فحادَت بغلته، فمال عن السَّرج، فقلت: ارتفع رفعك الله. قال: «نَاوِلْنِي كَفًّا مِنَ التُّرَابِ». فناولته، قال: فضرب به وجوههم، فامتلأت أعينهم ترابًا، قال: «أَيْنَ المُهَاجِرُونَ وَالأَنْصَارُ؟» قلت: هم هناك. قال: «اهْتِفْ بِهِمْ». فهتفت بهم، فجاءوا وسيوفهم بأيمانهم، كأنها الشهب، وولىٰ المشركون أدبارهم.

ورواه الإمام أحمد في «مسنده» عن عفان، به نحوه[٦].

---

(١) البخاري (٢٨٦٤) ومسلم (١٧٧٦).
(٢) سقط من (ز)، وإثباتها موافق لما في «الطبري».
(٣) أي: لم يثبتوا لنا قدر حلب شاة.
(٤) لوحة (٢٢٥ أ).
(٥) هذا السند ورد في الطبري (١٠/ ٧٣ برقم ١٦٥٨٢)، وإسناده هكذا: (حدثنا القاسم قال، حدثنا الحسين قال، حدثنا جعفر ابن سليمان، عن عوف الأعرابي، عن عبد الرحمن مولىٰ أم برثن، حدثني رجل، وهو هكذا في طبعة الشيخ شاكر وطبعة عبد الله بن عبد المحسن التركي، وما أثبتناه هو ما في المخطوط، وهو أقرب للصواب، نعم عوف بن أبي جميلة يروي عن معتمر بن سليمان، وجعفر بن سليمان الضُّبعي، لكن الحسن بن عرفة هو من تلاميذ المعتمر بن سليمان).
(٦) صحيح: البيهقي في «الدلائل» (٥/ ١٤٣)، وأحمد (١/ ٤٥٤).

وقال الوليد بن مسلم: حدَّثني عبد الله بن المبارك، عن أبي بكر الهُذلي، عن عِكْرِمة مولىٰ ابن عبَّاس، عن شيبة بن عثمان قال: لما رأيت رسول الله ﷺ يوم حنين قد عَري[١]، ذكرت أبي وعمي وقتل علي وحمزة إياهما، فقلت: اليوم أُدْرِك ثأري منه -قال: فذهبت لأجيئه عن يمينه، فإذا أنا بالعبَّاس بن عبد المطلب قائمًا، عليه درع بيضاء كأنها فضةٌ، يكشف عنها العجاج، فقلت: عَمُّه ولن يخذله -قال: فجئته عن يساره، فإذا أنا بأبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، فقلت: ابن عمه ولن يخذله. فجئته من خلفه، فلم يبقَ إلا أن أُسَوِّره[٢] سورة بالسيف، إذ رُفِعَ لي شُوَاظٌ مِن نار بيني وبينه، كأنَّه برق، فخِفْتُ أن تَمْحَشَني[٣]، فوضعت يدي علىٰ بصري ومشيت القهقرىٰ، فالتفت رسول الله ﷺ وقال: «**يَا شَيْبَ، يَا شَيْبَ ادْنُ مِنِّي اللَّهُمَّ أَذْهِبْ عَنْهُ الشَّيْطَانَ**». قال: فرفعت إليه بصري، ولهو أحب إلي من سمعي وبصري، فقال: «**يَا شَيْبَ قَاتِلِ الكُفَّارَ**».

رواه البيهقي من حديث الوليد، فذكره[٤].

ثم روىٰ من حديث أيوب بن جابر، عن صدقة بن سعيد، عن مصعب بن شيبة، عن أبيه قال: خرجت مع رسول الله ﷺ[٥] يوم حنين، والله ما أخرجني إسلام ولا معرفة به، ولكني أبيت أن تظهر هوازن علىٰ قريش، فقلت وأنا واقف معه: يا رسول الله، إني أرىٰ خيلًا بُلقًا، فقال: «**يَا شَيْبَةُ، إِنَّهُ لا يَرَاهَا إِلَّا كَافِرٌ**». فضرب بيده في صدري، ثم قال: «**اللَّهُمَّ اهْدِ شَيْبَةَ**»، ثم ضربها الثانية، ثم قال: «**اللَّهُمَّ اهْدِ شَيْبَةَ**»، ثم ضربها الثالثة ثم قال: «**اللَّهُمَّ اهْدِ شَيْبَةَ**». قال: فوالله ما رفع يده عن صدري في الثالثة حتىٰ ما كان أحدٌ مِن خلق الله أحب إليَّ منه، وذكر تمام الحديث، في[٦] التقاء الناس وانهزام المسلمين، ونداء العبَّاس واستنصار رسول الله ﷺ حتىٰ هزم الله المشركين[٧].

قال محمَّد بن إسحاق: حدَّثني والدي إسحاق بن يَسَار، عمَّن حدَّثه، عن جُبَير بن مطعم رضي الله عنه قال: إنا لمع رسول الله ﷺ يوم حنين، والنَّاس يقتتلون، إذ نظرت إلىٰ مثل البِجَاد[٨] الأسود يهوي مِن السماء، حتىٰ وقع بيننا وبين القوم، فإذا نملٌ منثور قد ملأ الوادي، فلم يكن إلا هزيمة القوم، فما كنا نشك أنها الملائكة[٩].

وقال سعيد بن السائب بن يسار، عن أبيه قال: سمعت يزيد بن عامر السُّوَائي -وكان شهد حُنَيْنًا مع المشركين ثم أسلم بعد- فكنا نسأله عَن الرعب الذي ألقىٰ الله في قلوب المشركين يوم حنين، فكان يأخذ الحصاة فيرمي بها في الطَّسْت فَيَطِنُّ، فيقول: كنا نجد في أجوافنا مثل هذا.

---

(١) أي: انفض عنه الناس. (٢) أي: أرتفع إليه وآخذه. (٣) مَحَشَتْهُ النار: أحرقته.

(٤) رواه البيهقي في «دلائل النبوة» (٥/ ١٤٥)، وفي إسناده أبو بكر الهذلي: متروك الحديث.

(٥) لوحة (٢٢٥ ب). (٦) في (ز): ثم التقاء.

(٧) ضعيف: البيهقي (٥/ ١٤٥)، وإسناده ضعيف، وعلته مصعب بن شيبة: لين الحديث.

(٨) البجاد: الكساء. (٩) ضعيف: عزاه لمحمَّد بن إسحاق، وفيه من لم يسم.

وقد تقدَّم له شاهدٌ من حديث يزيد بن [أبي] (١) أسيد فالله أعلم.

وفي «صحيح مسلم»، عن محمَّد بن رافع، عن عبد الرزاق أنبأنا مَعْمَر، عن هَمَّام قال: هذا ما حدَّثنا أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ، وَأُوتِيتُ جَوَامِعَ الكَلِمِ» (٢).

ولهذا قال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

وقوله: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ قد تاب الله علىٰ بقيَّة هوازن، وأسلموا وقدموا عليه مسلمين، ولحقوه وقد قارب مكة عند الجِعِرَّانة، وذلك بعد الوقعة بقريب من عشرين يومًا، فعند ذلك خيَّرهم بين سبيهم وبين أموالهم، فاختاروا سبيهم، وكانوا ستة آلاف أسير ما بَيْنَ صبيٍّ وامرأة، فرده عليهم، وقسم أموالهم بَيْنَ الغانمين، ونفل أناسًا من الطلقاء ليتألَّف قلوبهم علىٰ الإسلام، فأعطاهم مائةً مائةً من الإبل، وكان من جملة من أعطي مائة: مالك بن عوف النَّضْري، واستعمله علىٰ قومه كما كان، فامتدحه بقصيدته التي يقول فيها:

مَا إِنْ رَأَيْتُ وَلَا سَمِعْتُ بِمِثْلِهِ ... فِي النَّاسِ كُلِّهِم بِمِثْلِ مُحَمَّدِ

أَوْفَىٰ وَأَعْطَىٰ لِلْجَزِيلِ إِذَا اجْتُدِي ... وَمَتَىٰ تَشَأْ (٣) يُخْبِرْكَ عَمَّا فِي غَدِ (٤)

وَإِذَا الكَتِيبَةُ عَرَّدَتْ أَنْيَابُهَا ... بِالسَّمْهَرِيِّ وَضَرْبِ كُلِّ مُهَنَّدِ (٥)

فَكَأَنَّهُ لَيْثٌ عَلَىٰ أَشْبَالِهِ ... وَسْطَ الهَبَاءَةِ (٦) خَادِرٌ فِي مَرْصَدِ (٧)

قوله تعالىٰ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾

أمر تعالىٰ عباده المؤمنين الطاهرين دينًا وذاتًا بنفي المشركين، الذين هم نَجَسٌ دينًا، عن المسجد الحرام، وألا يقربوه بعد نزول هذه الآية. وكان نزولها في سنة تسع؛ ولهذا بعث رسول الله ﷺ عليًا

(١) سقط من (ز). (٢) مسلم (٥٢٣). (٣) في (ز): وما نشأ.

(٤) اجتدىٰ: طلب منه الجدوىٰ، وهي العطية. (٥) عردت: عوجت، والسمهرىٰ: الرماح.

(٦) في (ز): (وسط المساءة). والمثبت من «سيرة ابن هشام».

(٧) الهباءة: الغبار يثور عند اشتداد الحرب، والهباءة أيضًا: اسم موضع، والخادر: الأسد في عرينه، وهو حينئذ أشد ما يكون بأسًا، والمرصد: الموضع الذي يرصد منه ويرقب.

صحبةَ أبي بكر ﷺ عامئذٍ، وأمره أن يُنَادِيَ في المشركين: ألَّا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عُرْيان. فأتمَّ الله ذلك، وحكم به شرعًا وقدرًا.

وقال عبد الرازق: أخبرنا ابن جُرَيْج، أخبرني أبو الزبير، أنه سمع جابر بن عبد الله يقول في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾: إلا أن يكون عبدًا، أو أحدًا من أهل الذمة (١).

وقد روي مرفوعًا من وجهٍ آخرَ، فقال الإمام أحمد: حدَّثنا حُسَين، حدَّثنا شريك، عن الأشعث -يعني: ابن سَوَّار- عن الحسن، عن جابر قال: قال النَّبيُّ ﷺ: «**لا يَدْخُلُ مَسْجِدَنَا بَعْدَ عَامِنَا هَذَا مُشْرِكٌ، إِلَّا أَهْلَ العَهْدِ وَخَدَمَهُمْ**» تفرَّد به أحمد مرفوعًا، والموقوف أصح إسنادًا (٢).

وقال الإمام أبو عمرو الأوزاعي: كتب عمر بن عبد العزيز ﷺ: أن امنعوا اليهود والنَّصارىٰ مِن دخول مساجد المسلمين، وأتبع نهيه قول الله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ (٣).

وقال عطاء: الحرم كلُّه مسجد؛ لقوله تعالىٰ: ﴿فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾.

ودلَّت هذه الآية الكريمة علىٰ نجاسة المشرك، كما دلَّت (٤)[علىٰ طهارة المؤمن، ولما] (٥) ورد في الحديث الصحيح: «**المُؤْمِنُ لا يَنْجُسُ**» (٦)، وأما نجاسة بدنه فالجمهور علىٰ أنَّه ليس بنجس البدن والذات؛ لأن الله تعالىٰ أحلَّ طعام أهل الكتاب، وذهب بعض الظاهريَّة إلىٰ نجاسة أبدانهم (٧).

وقال أشعث، عن الحسن: من صافحهم فليتوضأ. رواه ابن جرير (٨).

وقوله: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ (٩) قال ابن إسحاق: وذلك أن النَّاس

---

(١) رواه الطبري (١٠/ ١٠٨)، وإسناده صحيح، وهو موقوف علىٰ جابر، وسيأتي مرفوعًا بإسناد ضعيف.

(٢) ضعيف بهذا اللفظ: أحمد (٣/ ٣٩٢)، وفيه الأشعث بن سوار: ضعيف، والحسن مدلس وقد عنعن، وهو لم يسمع من جابر، وقد تقدم بلفظ آخر صحيح: «**لا يحجن بعد العام مشرك**» انظر: (١٧١٣، ٢٥٣٥).

(٣) رواه الطبري (١٠/ ١٠٥).

(٤) لوحة (٢٢٦ ب).

(٥) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

(٦) البخاري (٢٨٣)، ومسلم (٣٧١)، وأبو داود (٢٣١)، والترمذي (١٢١)، والنسائي (١/ ١٤٥) من حديث أبي هريرة، وثبت نحوه من حديث حذيفة، رواه مسلم (٣٧٢).

(٧) **قال الشيخ السعدي** رحمه الله: وليس المراد هنا، نجاسة البدن؛ فإن الكافر كغيره طاهر البدن، بدليل أن الله تعالىٰ أباح وطء الكتابية ومباشرتها، ولم يأمر بغسل ما أصاب منها.
والمسلمون ما زالوا يباشرون أبدان الكفار، ولم ينقل عنهم أنهم تقذروا منها تَقَذُّرَهم من النجاسات، وإنما المراد كما تقدم: نجاستهم المعنوية، بالشرك، فكما أن التوحيد والإيمان طهارة، فالشرك نجاسة.

(٨) الصحيح ما ذهب إليه الجمهور من طهارة أبدانهم. (انظر كتابي «تمام المنة في فقه الكتاب وصحيح السنة» ١/ ٢٢).

(٩) **قال الإمام القرطبي** رحمه الله: في هذه الآية دليلٌ علىٰ أن تعلق القلب بالأسباب في الرزق جائز، وليس ذلك بمنافٍ للتوكل، وإن كان الرزق مقدرًا وأمر الله وقسمه مفعولًا، ولكنه علقه بالأسباب حكمة؛ ليعلم القلوب التي تتعلق بالأسباب من القلوب التي تتوكل علىٰ رب الأرباب. وقد تقدم أن السبب لا ينافي التوكل.
* وانظر تتميمًا للفائدة تفسير القرطبي الآية (١٢٢) سورة آل عمران.

قالوا: لتَنْقَطِعَنَّ عنا الأسواق، ولتَهْلِكَنَّ التِّجارة، وليذهبن ما كنا نُصِيب فيها من المرافق، فنزلت ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ من وجه غير ذلك ﴿إِن شَآءَ﴾ إلىٰ قوله(١): ﴿وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ أي: إنَّ هذا عوض ما تخوفتم مِن قطع تلك الأسواق، فعوضهم الله بما قطع [عَنْهُم من](٢) أمر الشِّرك، ما أعطاهم مِن أعناق أهل الكتاب، من الجزية.

وهكذا رُوي عن ابن عبَّاس، ومجاهد، وعِكْرِمة، وسعيد بن جُبَير، وقتادة والضَّحَّاك، وغيرهم.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ﴾ أي: بما يصلحكم، ﴿حَكِيمٌ﴾ أي: فيما يأمر بِهِ وينهىٰ عنه؛ لأنَّه الكامل في أفعاله وأقواله، العادل في خَلْقِهِ وأمره تبارك وتعالىٰ؛ ولهذا عوضهم عَن تِلْك المكاسب بأموالِ الجِزْيَةِ التي يأخذونها مِن أهل الذِّمَّة، فقال: ﴿قَٰتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ فهم في نفس الأمر لما كفروا بمحمَّدٍ ﷺ لم يبقَ لهم إيمان صحيحٌ بأَحَدٍ من الرسل، ولا بما جاءوا به، وإنَّما يَتَّبعون آراءهم وأهواءهم وآباءهم فيما هم فيه، لا لأنَّه شرع الله ودينه؛ لأنَّهم لو كانوا مؤمنين بما بأيديهم إيمانًا صحيحًا لقَادَهُم ذلك إلىٰ الإيمان بمحمَّدٍ، صلوات الله عليه؛ لأنَّ جميع الأنبياء [الأقدمين](٣) بشَرُّوا به، وأمروا باتِّباعه، فلمَّا جاء وكفروا به، وهو أَشْرَف الرسل، عُلِم أنَّهم ليسوا مُتَمَسِّكين بشرع الأنبياء الأقدمين؛ لأنَّه من عند الله، بل لِحُظُوظِهِم وأهوائهم؛ فلهذا لا يَنْفَعُهُم إيمانهم ببَقِيَّة الأنبياء، وقد كفروا بسيِّدِهِم وأفضلهم وخاتمهم وأكملهم؛ ولهذا قال: ﴿قَٰتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَٰبَ﴾ وهذه الآية الكريمة [نزلت](٤) أَوَّل الأمر بقتال أهل الكتاب، بعد مَا تَمَهَّدت أمور المُشْرِكِينَ ودخل الناس في دِين الله أفواجًا، فلما استقامت(٥) جزيرة العرب أمَرَ اللهُ رسولَه بِقِتَال أهل الكِتَابَيْنِ اليهود والنصارىٰ، وكان(٦) ذلك في سَنَةِ تسعٍ؛ ولهذا تجهَّز رسول الله ﷺ لقتال الروم ودعا النَّاس إلىٰ ذلك، وأظهره لهم، وبعث إلىٰ أحياء العرب حول المدينة فندبهم، فَأَوْعَبوا(٧) معه، واجتمع مِن المقاتِلَةِ نحوٌ مِن ثلاثين ألفًا، وتخلف بعضُ الناس من أهل المدينة ومَن حولها من المنافقين وغيرهم، وكان ذلك في عام جَدْب، ووقت قَيْظ وحَرٍّ، وخرج ﵇ يُرِيد الشام لقتال الروم، فبلغ تبوك، فنزل بها وأقام علىٰ مائها قريبًا من عشرين يومًا، ثم استخار الله في الرُّجوع، فرجع عامَهُ ذلك لضيق الحال وضعف النَّاس، كما سيأتي بيانه بعدُ إن شاء الله.

وقد استدلَّ بهذه الآية الكريمة مَن يرىٰ أنَّه لا تؤخذ الجِزْيَة إلَّا مِن أهل الكتاب، أو مِن أشباههم

---

(١) في (ز): (إلىٰ غيره). (٢) سقط من (ز). (٣) ليست في (ز).
(٤) ليست في (ز). (٥) في (ز): (واستقامت)، والتصويب من طبعة «الشعب».
(٦) لوحة (٢٢٧ أ). (٧) أوعبوا: جاءوا أجمعون.

كالمجوس؛ لما صَحَّ فيهم الحديث أن رسول الله ﷺ أخذها من [مجوس][(١)] هَجَر[(٢)] وهذا مذهب الشافعي، وأحمد -في المشهور عنه- وقال أبو حنيفة رَحِمَهُ اللَّهُ: بل تُؤْخَذ مِن جميع الأعاجم، سواء كانوا مِن أهل الكتاب أو من المشركين، ولا تُؤخَذ مِن العرب إلَّا من أهل الكتاب.

وقال الإمام مالك: بل يجوزُ أن تُضرب الجزية علىٰ جميع الكُفَّار مِن كتابيٍّ، ومجوسيٍّ، ووثنيٍّ، وغير ذلك، ولمأخذ هذه المذاهب وذكر أَدِلَّتِهَا مكان غير هذا، والله أعلم.

وقوله: ﴿حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ﴾ أي: إن لم يُسْلِمُوا، ﴿عَن يَدٍ﴾ أي: عن قهرٍ لهم وغلبة، ﴿وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ أي: ذَلِيلُون حقيرون مهانون. فلهذا لا يجوز إعزاز[(٣)] أهل الذِّمَّة ولا رفعهم علىٰ المسلمين، بل هم أذلاء صَغَرة أشقياء، كما جاء في «صحيح مسلم»، عن أبي هريرة رضي الله عنه أَنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**لا تَبْدَءُوا اليَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ بِالسَّلامِ، وَإِذَا لَقِيتُمْ أَحَدَهُمْ فِي طَرِيقٍ فَاضْطَرُّوهُ إِلَىٰ أَضْيَقِهِ**»[(٤)].

ولهذا اشترط عليهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه تلك الشروط المعروفة في إِذْلَالِهم وتصغيرهم وتحقيرهم؛ وذلك مما رواه الأئمة الحفاظ، من رواية عبد الرحمن بن غَنْم الأشعري قال: كتبت لعمر بن الخطاب رضي الله عنه حين صالح نصارىٰ مِن أهل الشام:

بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب لعبد الله عمرَ أميرِ المؤمنين مِن نصارىٰ مدينة كذا وكذا، إنَّكم لما قدمتم[(٥)] علينا سألناكم الأمان لأنفسنا وذَرَارِينَا وأموالنَا وأهل ملتنا، وشرطنا لكم علىٰ أنفسنا ألا نُحْدِث في مدينتنا ولا فيما حولها ديرًا ولا كنيسة، ولا قَلَّايَة[(٦)] ولا صَوْمَعة راهب[(٧)]، ولا نجدد ما خَرِبَ منها، ولا نُحْيِي منها ما كان [في][(٨)] خطط المسلمين، وألَّا نمنع كنَائِسَنَا أن ينزلها أحدٌ مِن المسلمين في ليلٍ ولا نهارٍ، وأن نوسع أبوابها للمارَّة وابن السبيل، وأن ينزل مَن مرَّ بنا مِن المسلمين ثلاثةَ أيَّامٍ نطعِّمهم، ولا نأوي في كَنَائِسِنَا ولا منازلنا جاسوسًا، ولا نكتم غشًّا للمسلمين، ولا نُعَلِّم أولادنا القرآنَ، ولا نظهر شركًا، ولا ندعو إليه أحدًا؛ ولا نمنع أحدًا مِن ذوي قرابتنا الدخول في الإسلام إن أرادوه، وأن نُوَقِّر المسلمين، وأَن نقوم لهم مِن مجالسنا إن أرادوا الجلوس، ولا نَتَشَبَّه بهم في شيءٍ من ملابسهم، في قَلَنْسُوة، ولا عمامة، ولا نعلين، ولا فَرْق شعر، ولا نتكلم بكلامهم، ولا نكتني بكُنَاهم، ولا نركب السروج، ولا نتقلد السُّيوف، ولا نتخذ شيئًا من السلاح، ولا نحمله معنا، ولا ننقش خواتيمنا بالعَرَبِيَّة،

---

(١) سقط من (ز).

(٢) البخاري (١١٥٢)، والترمذي (٣٠٤٣)، والحميدي (١/ ٣٥)، وأبو يعلىٰ (٨٦٠)، والدارقطني (٢/ ١٥٥)، وابن الجارود في «المنتقىٰ» (١١٠٥).

(٣) في (ز): (لا يجوز إذلال).

(٤) رواه مسلم (٢١٦٧)، وأبو داود (٥٢٠٥)، والترمذي (١٦٠٢) (٢٧٠٠).

(٥) في (ز): (إنكم قد أقدتم).

(٦) القَلِيَّةُ ـ كالعَلِيَّةِ ـ: شِبْهُ الصَّوْمَعَةِ تكونُ في كَنِيسَةِ النَّصارَىٰ، والجَمْعُ: القَلالي. وقد جاءَ ذِكْرُها في الحديثِ، وهي القَلَّايةُ عِنْدَ النَّصارَىٰ، مُعَرَّب: كَلاذَة، وهي مِن بُيوتِ عِبادَاتِهم. «تاج العروس»: (٣٩/ ٣٤٥).

(٧) لوحة (٢٢٧ ب). (٨) مثبتة من «سنن البيهقي».

ولا نبيع الخمور، وأن نجزَّ مقاديم رُءُوسِنَا، [وأن][1] نلزم زِيَّنَا حيثما كنا، وأن نشد الزَّنانير علىٰ أوساطنا، وألا نظهر الصَّليب علىٰ كَنَائِسِنَا، وألا نظهر صُلُبَنَا ولا كتبنا في شيءٍ مِن طرق المسلمين ولا أسواقهم، ولا نضرب نَوَاقِيسَنَا في كنائسنا إلا ضربًا خفيًّا، وألا نرفع أصواتنا بالقراءة في كنائسنا في شيءٍ مِن حضرة المسلمين، ولا نخرج شعانين ولا باعوثًا[2]، ولا نرفع أصواتنا مع مَوْتَانا، ولا نظهر النِّيران معهم في شيءٍ من طرق المسلمين ولا أسواقهم، ولا نُجَاوِرُهم بمَوْتَانا، ولا نَتَّخِذ من الرقيق ما جرىٰ عليه سهام المسلمين، وأن نرشد المسلمين، ولا نَطَّلِع عليهم في منازلهم.

قال: فلما أتيت عمر بالكتاب، زاد فيه: ولا نضرب أحدًا من المسلمين، شرطنا لكم ذلك علىٰ أنفسنا وأهل مِلَّتِنا، وقبلنا عليه الأمان، فإن نحن خالفنا في شيءٍ مما شرطناه لكم وَوَظَفْنا[3] علىٰ أنفسنا، فلا ذِمَّة لنا، وقد حلَّ لكم منا ما يَحِلُّ مِن أهل المعاندة والشقاق[4].

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾

وهذا إغراء مِن الله تعالىٰ للمؤمنين علىٰ قتال المشركين الكُفَّار من اليهود والنصارىٰ؛ لمقالتهم هذه المقالة الشَّنِيعَة، والفِرْية علىٰ الله تعالىٰ، فأمَّا اليهود فقالوا في العُزَير: إنَّه ابن الله، تعالىٰ الله عن ذلك علوًّا كبيرًا.

وذكر السُّدِّي[5] وغيره أنَّ الشبهة التي حصلت لهم في ذلك، أنَّ العمالقة لما غلبت علىٰ بني إسرائيل، فقتَلُوا علماءهم وسَبَوْا كبارهم، بَقِيَ العزير يَبْكِي علىٰ بني إسرائيل وذهاب العِلْم منهم، حتىٰ سقطت جفون عَيْنَيْهِ، فبَيْنَا هو ذات يوم إذ مَرَّ علىٰ جبَّانَةٍ، وإذ امرأة تبكي عند قبر وهي تقول: وامُطْعِماه! واكَاسِياه! فقال لها: ويحك مَن كان يطعمك قبل هذا؟ قالت: الله. قال: فإنَّ الله حيٌّ لا يموت! قالت: يا عزير فمَن كان يُعلم العلماء قبل بني إسرائيل؟ قال: الله. قالت: فَلِم تبكي عليهم؟ فعَرف أنَّه شيء قد وُعِظ به. ثمَّ قيل له: اذْهَبْ إلىٰ نهر كذا فاغتسل منه، وصَلِّ هناك ركعتين، فإنَّك ستَلْقَىٰ هناك شيخًا، فما أطعمك فكُلْهُ. فذهب ففعل ما أُمِرَ به، فإذا شيخ فقال له: افتح فَمَكَ. ففتح فَمَه. فألقىٰ فيه شيئًا كهيئة الجَمْرَة العظيمة،

---

(١) سقط من (ز).

(٢) الباعوث: استسقاء النصارىٰ، وهو اسم سرياني، وقيل: هو بالغين المعجمة والتاء المنقوطة.

(٣) وظف الشيء علىٰ نفسه وظفًا: ألزمها إياه.

(٤) ضعيف جدًّا: البيهقي (٩/ ٢٠١-٢٠٢)، وابن الأعرابي في «معجمه» (٣٥٧)، وابن عساكر (٢/ ١٧٥) من طريق يحيىٰ بن عقبة، قال ابن معين: لين ليس بشيء، وقال مرة: كذاب خبيث عدو الله، وقال البخاري: منكر الحديث.

(٥) لوحة (٢٢٨ أ).

ثلاث مرات، فرجع عُزَير وهو مِن أعلم النَّاس بالتَّوراة، فقال: يا بني إسرائيل، قد جئتكم بالتَّوراة. فقالوا: يا عُزَير، ما كنت كَذَّابا. فعَمَدَ فربط علىٰ إصبع من أصابِعِه قلَمًا، وكتب التوراة بإصبعه كلها، فلمَّا تراجع النَّاس مِن عَدُوِّهم ورجع العلماء، وأُخْبِرُوا بشأن عزير، فاستخرجوا النسخ التي كانوا أودعوها في الجبال، وقابلوها بها، فوجدوا ما جاء به صحيحًا، فقال بعض جهلتهم: إنَّما صنع هذا لأنه ابن الله(١).

وأما ضَلال النَّصارىٰ في المسيح فظاهر؛ ولهذا كَذَّب الله سبحانه الطائفتين فقال: ﴿ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ أي: لا مستندَ لهم فيما ادَّعَوْه سوىٰ افترائهم واختلاقهم، ﴿يُضَٰهِـُٔونَ﴾ أي: يُشَابِهُون ﴿قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ﴾ أي: مِن قبلهم من الأُمَم، ضلُّوا كما ضلَّ هؤلاء(٢)، ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ﴾ وقال ابن عبَّاس: لعنهم الله، ﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾؟ أي: كيف يَضِلُّون عن الحقِّ، وهو ظاهرٌ، ويعدلون إلىٰ الباطل؟

[وقوله](٣) ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ روىٰ الإمام أحمد، والترمذي، وابن جرير من طرق، عن عدي بن حاتم رضي الله عنه أنَّه لما بلغته دعوة رسول الله ﷺ فرَّ إلىٰ الشَّام، وكان قد تنصَّر في الجاهلية، فَأُسِرَتْ أُخْتُه وجماعةٌ من قومه، ثمَّ مَنَّ رسول الله ﷺ علىٰ أُخْتِهِ وأعطاها، فرجعت إلىٰ أخيها، ورَغَّبته في الإسلام وفي القدوم علىٰ رسول الله ﷺ، فقدم عَدِيٌّ المدينة، وكان رئيسًا في قومه طيئ، وأبوه حاتم الطَّائي المشهور بالكَرَم، فتحدَّث الناس بقدومِهِ، فدخل علىٰ رسول الله ﷺ وفي عُنُقِ عَدِيٍّ صليبٌ مِن فِضَّةٍ، فقرأ رسول الله ﷺ(٤) هذه الآية: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ قال: فقلت: إنَّهم لم يعبدوهم. فقال: «**بَلَىٰ، إِنَّهُمْ حَرَّمُوا عَلَيْهِمُ الحَلَالَ، وَأَحَلُّوا لَهُمُ الحَرَامَ، فَاتَّبَعُوهُمْ، فَذَلِكَ عِبَادَتُهُمْ إِيَّاهُمْ**». وقال رسول الله ﷺ: «**يَا عَدِيُّ، مَا تَقُولُ؟ أَيُفِرُّكَ(٥) أَنْ يُقَالَ: اللهُ أَكْبَرُ؟ فَهَلْ تَعْلَمُ شَيْئًا أَكْبَرَ مِنَ اللهِ؟ مَا يُفِرُّكَ؟ أَيُفِرُّكَ أَنْ يُقَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ؟ فَهَلْ تَعْلَمُ مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللهُ**»؟ ثم دعاه إلىٰ الإسلام فأسلم، وشهد شهادة الحق، قال: فلقد رأيتُ وجهه استبشر ثم قال: «**إِنَّ اليَهُودَ مَغْضُوبٌ عَلَيْهِمْ، وَالنَّصَارَىٰ ضَالُّونَ**»(٦).

وهكذا قال حذيفة بن اليمان، وعبد الله بن عبَّاس، وغيرهما في تفسير: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ إنهم اتَّبَعُوهم فيما حَلَّلُوا وحَرَّمُوا.

وقال السُّدِّي: اسْتَنْصَحُوا الرِّجال، وتركوا كتَاب الله وراءَ ظُهُورِهم(٧).

---

(١) رواه الطبري (١٠/ ١١١) عن السُّدِّي، ولم يسنده، ولا دليل عليه، ولم يثبت دليل صحيح يدل علىٰ سبب اتخاذهم العزيز ابن الله.

(٢) في (ز): (هؤلاء من). (٣) ليست في (ز). (٤) لوحة (٢٢٨ ب).

(٥) أي: أيحملك علىٰ الفرار والهرب أن يقال: الله أكبر؟

(٦) حسن: رواه الترمذي (٣٠٩٥)، والبيهقي (١٠/ ١١٦)، وعزوُ المصنفِ الحديثَ لمسند أحمد وهم، والحديث حسنه الترمذي، وحسنه الشيخ الألباني [انظر: «غاية المرام» (٦)].

(٧) قال الشيخ القاسمي رحمه الله: قال الرازي: قال الربيع: قلت لأبي العالية: كيف كانت تلك الربوبية في بني إسرائيل؟ =

ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ﴾ أي: الذي إذا حرم الشَّيءَ فهو الحَرَام، وما حلَّلَه حَلَّ، وما شرعه اتُّبِعَ، ومَا حكم بِهِ نَفَذَ.

﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ أي: تعالىٰ وتقدَّس وتنزَّه عن الشُّركاء والنُّظَرَاء والأعوان والأضداد والأَوْلَادِ، لا إله إلا هو، ولا رَبَّ سواه.

﴿يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ[1] وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾

يقول تعالىٰ: يُرِيد هؤلاء الكفَّار من المشركين وأهل الكتاب ﴿أَن يُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ﴾ أي: ما بعث به رسوله مِن الهدىٰ ودين الحقِّ، بمجرَّد جِدَالِهِم وافترائهم، فمثلهم فِي ذلك كمثل مَن يريد أن يُطْفِئَ شعاع الشَّمس، أو نور القمر بنَفْخِهِ، وهذا لا سبيل إليه، فكذلك ما أرسل الله به رسوله لا بد أن يَتِمَّ ويظهر؛ ولهذا قال تعالىٰ مقابلًا لهم فيما رَامُوهُ وأرادوه: ﴿وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾.

والكافرُ: هو الَّذي يَسْتُرُ الشَّيءَ ويُغَطِّيه، ومنه سُمِّي اللَّيل «كافرًا»؛ لأنَّه يستر الأشياء، والزَّارع كافرًا؛ لأنَّه يُغَطِّي الحب في الأرض كما قال: ﴿أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾ [الحديد: ٢٠].

ثم قال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ﴾ فالهدىٰ: هو ما جاء به مِن الإخبَارَات الصادقة، والإيمان الصحيح، والعلم النَّافع -ودين الحق: هو الأعمال [الصالحة][2] الصحيحة النافعة في الدُّنْيا والآخرة.

﴿لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ أي: علىٰ سائِرِ الأديان، كما ثبت في «الصحيح»، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**إِنَّ اللهَ زَوَىٰ[3] لِيَ الأَرْضَ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَسَيَبْلُغُ مُلْكُ أُمَّتِي مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا[4]**»[5].

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا محمَّد بن جعفر، حدَّثنا شعبة، عن محمَّد بن أبي يعقوب: سمعت شقيق

= فقال: إنهم ربما وجدوا في كتاب الله ما يخالف أقوال الأحبار والرهبان، فكانوا يأخذون بأقوالهم، وما كانوا يقبلون حكم كتاب الله تعالىٰ.

قال الرازي: قال شيخنا ومولانا خاتمة المحققين والمجتهدين رَحِمَهُ اللهُ: قد شاهدت جماعةً من مقلِّدَةِ الفقهاء، قرأتُ عليهم آياتٍ كثيرةً في كتاب الله تعالىٰ في بعض مسائل، وكانت مذاهبهم بخلاف تلك الآيات، فلم يقبلوا تلك الآيات ولم يلتفتوا إليها، وبقُوا ينظرون إليّ كالمتعجب؛ يعني: كيف يمكن العمل بظواهر هذه الآيات، مع أن الرواية عن سلفنا وردت علىٰ خلافها؟ ولو تأملت حق التأمل وجدت هذا الداء ساريـاً في عروق الأكثرين من أهل المدينة. انتهىٰ.

(١) قال الشيخ القاسمي رَحِمَهُ اللهُ: قال الشهاب: روعي في كل من المشبه والمشبه به الإفراط والتفريط، حيث شبه الإبطال بالإطفاء بالفم، ونسب النور إلىٰ الله، ومن شأن النور المضاف إليه أن يكون عظيمـاً، فكيف يطفأ بنفخ الفم، مع ما بين الكفر الذي هو ستر وإزالة للظهور، والإطفاء من المناسبة.

(٢) ليست في (ز). (٣) أي: جمع. (٤) لوحة (٢٢٩ أ).

(٥) رواه مسلم (٢٨٨٩)، وأبو داود (٤٢٥٢)، والترمذي (٢١٧٦)، وأحمد (٤/ ١٢٣).

ابن حيان يحدث عن مسعود بن قَبِيصة -أو: قبيصة بن مسعود- يقول: صلىٰ هذا الحيُّ من «مُحَارب» الصبح، فلما صلَّوا قال شابٌّ منهم: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إِنَّهُ سَيُفْتَحُ لَكُمْ مَشَارِقُ الأَرْضِ وَمَغَارِبُهَا، وَإِنَّ عُمَّالَهَا فِي النَّارِ، إِلَّا مَنِ اتَّقَىٰ اللهَ وَأَدَّىٰ الأَمَانَةَ**»(١).

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا أبو المغيرة، حدَّثنا صفوان، حدَّثنا سليم بن عامر، عن تميم الداري ﵁ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لَيَبْلُغَنَّ هَذَا الأَمْرُ مَا بَلَغَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، وَلَا يَتْرُكُ اللهُ بَيْتَ مَدَرٍ وَلَا وَبَرٍ إِلَّا أَدْخَلَهُ هَذَا الدِّينَ، بِعِزِّ عَزِيزٍ، أَوْ بِذُلِّ ذَلِيلٍ، عِزًّا يُعِزُّ اللهُ بِهِ الإِسْلَامَ، وَذُلًّا يُذِلُّ اللهُ بِهِ الكُفْرَ**»، فكان تميم الداري يقول: قد عرفت ذلك في أهل بيتي، لقد أصاب من أسلم منهم الخير والشَّرف والعز، ولقد أصاب من كان منهم كافرًا الذل والصغار والجزية(٢).

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا يزيد بن عبد ربه، حدَّثنا الوليد بن مسلم، حدَّثني ابن جابر، سمعت سليم ابن عامر قال: سمعت المقداد بن الأسود يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لَا يَبْقَىٰ عَلَىٰ وَجْهِ الأَرْضِ بَيْتُ مَدَرٍ وَلَا وَبَرٍ، إِلَّا أَدْخَلَهُ اللهُ كَلِمَةَ الإِسْلَامِ بِعِزِّ عَزِيزٍ، أَوْ بِذُلِّ ذَلِيلٍ، إِمَّا يُعِزُّهُمُ اللهُ فَيَجْعَلُهُمْ مِنْ أَهْلِهَا، أَوْ يُذِلُّهُمْ فَيَدِينُونَ لَهَا**»(٣).

وفي «المسند» أيضًا: حدَّثنا محمَّد بن أبي عَدِيٍّ، عن ابن عون، عن ابن سيرين، عن أبي حذيفة، عن عدي بن حاتم سمعه يقول: دخلت علىٰ رسول الله ﷺ فقال: «**يَا عَدِيُّ، أَسْلِمْ تَسْلَمْ**». فقلت: إنِّي مِن أهل دين. قال: «**أَنَا أَعْلَمُ بِدِينِكَ مِنْكَ**». فقلت: أنت أعلم بديني مني؟ قال: «**نَعَمْ، أَلَسْتَ مِنَ الرَّكُوسِيَّةِ**(٤)**، وَأَنْتَ تَأْكُلُ مِرْبَاعَ قَوْمِكَ؟**». قلت: بلىٰ. قال: «**فَإِنَّ هَذَا لَا يَحِلُّ لَكَ فِي دِينِكَ**». قال: فلم يَعْدُ أن قالها فتواضعت لها، قال: «**أَمَا إِنِّي أَعْلَمُ مَا الَّذِي يَمْنَعُكَ مِنَ الإِسْلَامِ، تَقُولُ: إِنَّمَا اتَّبَعَهُ ضَعَفَةُ النَّاسِ وَمَنْ لَا قُوَّةَ لَهُ، وَقَدْ رَمَتْهُمُ العَرَبُ، أَتَعْرِفُ الحِيرَةَ؟**» قلت: لم أرها، وقد سَمِعْتُ بها. قال: «**فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَيُتِمَّنَّ اللهُ هَذَا الأَمْرَ حَتَّىٰ تَخْرُجَ الظَّعِينَةُ مِنَ الحِيرَةِ، حَتَّىٰ تَطُوفَ بِالبَيْتِ فِي غَيْرِ جِوَارِ أَحَدٍ، وَلَتُفْتَحَنَّ كُنُوزُ كِسْرَىٰ بْنِ هُرْمُزَ**». قلت: كسرىٰ بن هرمز؟ قال: «**نَعَمْ، كِسْرَىٰ بْنُ هُرْمُزَ، وَلَيُبْذَلَنَّ المَالُ حَتَّىٰ لَا يَقْبَلَهُ أَحَدٌ**». قال عدي بن حاتم: فهذه الظَّعينة تخرج مِن الحيرة، فتطوف بالبَيْتِ في غير جوار(٥) أحد، ولقد كنت فيمَن فتح كنوز كسرىٰ بن هرمز، والَّذي نفسي بيده، لتكونَنَّ الثالثة؛ لأن رسول الله ﷺ قد قالها(٦).

---

(١) ضعيف: أحمد (٥/ ٣٦٦)، وفيه شقيق بن حيان: مجهول.

(٢) صحيح: أحمد (٤/ ١٠٣)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٣)، ويشهد له الحديث الآتي.

(٣) صحيح: أحمد (٦/ ٤)، وابن حبان (٦٦٩٩)، وابن منده في «الإيمان» (١٠٨٤).

(٤) الركوسية: هو دين بين النصارىٰ والصابئة. «النهاية» (٢/ ٢٥٩).

(٥) لوحة (٢٢٩ ب).

(٦) صحيح: أحمد (٤/ ٢٥٧، ٣٧٧)، والحاكم (٤/ ٥١٨)، وابن حبان (٦٦٧٩).

وقال مسلم: حدَّثنا أبو معن زيد بن يزيد الرَّقَاشِيُّ، حدَّثنا خالد بن الحارث، حدَّثنا عبد الحميد بن جعفر، عن الأسود بن العلاء، عن أبي سلمة، عن عائشة ﵂ قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لَا يَذْهَبُ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ حَتَّىٰ تُعبَدَ اللَّاتُ وَالعُزَّىٰ». فقلت: يا رسول الله، إن كنت لأظُنُّ حين أنزل الله ﷻ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ إلىٰ قوله: ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ أنَّ ذلك تامٌّ، قال: «إِنَّهُ سَيَكُونُ مِنْ ذَٰلِكَ مَا شَاءَ اللهُ ﷻ ثُمَّ يَبْعَثُ اللهُ رِيحًا طَيِّبَةً [فَيَتَوَفَّىٰ كُلَّ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ](١)، فَيَبْقَىٰ مَنْ لَا خَيْرَ فِيهِ، فَيَرْجِعُونَ إِلَىٰ دِينِ آبَائِهِمْ»(٢).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ(٣) تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾(٤)

قال السُّدِّي: الأحبار من اليهود، والرهبان من النَّصارىٰ.

وهو كما قال، فإنَّ الأحبار هم علماء اليهود، كما قال تعالىٰ: ﴿لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ﴾ [المائدة: ٦٣] والرهبان: عبَّاد النَّصارىٰ، والقِسِّيسُون: علماؤهم، كما قال تعالىٰ: ﴿بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [المائدة: ٨٢].

والمقصود: التَّحذير من علماء السُّوء وعُبَّاد الضَّلال كما قال سفيان بن عيينة: من فَسَد مِن علمائنا كان فيه شَبَهٌ من اليهود، ومن فَسَد مِن عُبَّادنا كان فيه شبه من النصارىٰ. وفي الحديث الصحيح: «لَتَرْكَبُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَذْوَ القُذَّةِ بِالقُذَّةِ(٥)». قالوا: اليهود والنصارىٰ؟ قال: «فَمَنْ؟». وفي رواية: فارس والروم؟ قال: «وَمَنِ النَّاسُ إِلَّا هَؤُلَاءِ؟»(٦)

والحاصل التَّحذير من التَّشبُّه بهم في أحوالِهم وأقوالهم؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ وذلك أنهم يأكلون الدُّنيا بالدِّين، ومناصِبُهم ورِيَاسَتُهم في الناس يأكلون أَموَالَهم بذلك، كما

---

(١) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).
(٢) مسلم (٢٩٠٧)، والحاكم (٤/ ٤٤٦).
(٣) في (ز): (فذوقوا العذاب بما كنتم تكنزون)، وهو خطأ.
(٤) قال الشيخ السعدي ﵀: ذكر الله في هاتين الآيتين، انحراف الإنسان في ماله، وذلك بأحد أمرين:
إما أن ينفقه في الباطل الذي لا يجدي عليه نفعًا، بل لا يناله منه إلا الضرر المحض، وذلك كإخراج الأموال في المعاصي والشهوات التي لا تعين علىٰ طاعة الله، وإخراجها للصد عن سبيل الله.
وإما أن يمسك ماله عن إخراجه في الواجبات، و «النهي عن الشيء، أمر بضده».
(٥) القُذَّة: واحدة القُذَذ، وهي ريش السهم؛ أي: كما تقدر كل واحدةٍ من الريش علىٰ قدر صاحبتها وتقطع، يضرب مثلًا للشيئين يستويان ولا يتفاوتان.
(٦) البخاري (٣٤٥٦)، ومسلم (٢٦٦٩)، وأحمد (٣/ ٨٤، ٨٩، ٩٤) من حديث أبي سعيد.
وله شاهد من حديث أبي هريرة سيأتي، انظر: (٢٦٢١).

كان لأحبار اليهود علىٰ أَهْلِ الجاهليَّة شرف، [ولهم][1] عندهم خَرْج[2] وهدايا وضرائب تجيء إليهم، فلما بعث الله رسوله، صلوات الله وسلامه عليه استمروا علىٰ ضَلَالهم وكُفْرِهِم وعنادهم، طمعًا منهم أن تبقىٰ لهم تلك الرِّياسات، فأطفأها الله بنور[3] النُّبُوَّة، وسلبهم إياها، وعوضهم بالذِّلَّة والمسكنة، وباءُوا بغضَبٍ مِن الله.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: وهم مع أَكْلِهِم الحرام يَصُدُّون النَّاس عن اتِّباع الحقِّ، ويُلبسون الحَقَّ بالبَاطِلِ، ويُظْهِرُون لِمَنِ اتَّبَعَهُم من الجهلة أنَّهم يدعون إلىٰ الخير، وليسوا كما يَزْعُمُون، بل هُم دعاةٌ إلىٰ النَّار، ويوم القِيَامَة لا يُنْصَرُون.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ هؤلاء هُم القِسْم الثَّالث مِن رُءوسِ النَّاس، فإنَّ النَّاس عالةٌ عَلَىٰ العُلَمَاءِ، وعلىٰ العُبَّاد، وعلىٰ أرباب الأموال، فإذا فسدت أحوال هؤلاء فسدت أحوال النَّاس، كما قال بعضهم:

وَهَلْ أَفْسَدَ الدِّينَ إِلَّا المُلُوكُ ... وَأَحْبَارُ سُوءٍ وَرُهْبَانُهَا؟

وأما الكنز فقال مالك، عن عبد الله بن دينار، عن ابن عمر أنه قال: هو المال الذي لا تُؤَدَّىٰ منه الزكاة.

وروىٰ الثوري وغيره عن عُبَيد الله عن نافع، عن ابن عمر قال: ما أُدِّي زكاتُه فليس بكنز وإن كان تَحْتَ سبع أرضين، وما كان ظاهرًا لا تُؤَدَّىٰ زكاته فهو كنز[4]، وقد رُوِيَ هذا عن ابن عبَّاس، وجابر، وأبي هريرة موقوفًا ومرفوعًا وعمر بن الخطاب، نحوه ﷺ: «أَيُّمَا مَالٍ أُدِّيَتْ زَكَاتُهُ فَلَيْسَ بِكَنْزٍ وَإِنْ كَانَ مَدْفُونًا فِي الأَرْضِ، وَأَيُّمَا مَالٍ لَمْ تُؤَدَّ زَكَاتُهُ فَهُوَ كَنْزٌ يُكْوَىٰ بِهِ صَاحِبُهُ وَإِنْ كَانَ عَلَىٰ وَجْهِ الأَرْضِ»[5].

وروىٰ البخاري من حديث الزهري، عن خالد بن أسلم قال: خرجنا مع عبد الله بن عمر، فقال: هذا قبل أن تنزل الزكاة، فلما نزلت جعلها الله طُهرًا للأموال[6]

وكذا قال عمر بن عبد العزيز، وعِرَاك بن مالك: نسخها قوله تعالىٰ: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ [التوبة: ١٠٣].

---

(١) سقط من (ز).

(٢) الخَرْج والخراج: واحد، وهي الإتاوة التي كان الأحبار والرهبان يأخذونها من أموال أتباعهم.

(٣) لوحة (٢٣٠ أ).

(٤) رواه البيهقي (٤/ ٨٢)، والطبري (١٠/ ١١٨)، وهو ثابت من حديث ابن عمر من طرق عنبسة.

(٥) رواه ابن عدي (٧/ ١٨٩)، والخطيب (٨/ ١٢)، وابن الجوزي في «العلل» (٨١٨) من حديث جابر، وضعفه ابن الجوزي في «العلل»، وعلة ضعفه: عبد العزيز البالسي؛ قال أحمد: كذاب. وقال ابن حبان (ضعفاء ٢/ ١٣٨): يأتي بالمقلوبات عن الثقات.

وأما حديث ابن عبَّاس فرواه الطبري (١٠/ ١٢١) موقوفًا، وإسناده منقطع.

وأما حديث أبي هريرة فرواه الترمذي (٦١٨)، وقال العراقي: إسناده جيد.

(٦) رواه البخاري (١٤٠١).

وقال سعيد عن محمَّد بن زياد، عن أبي أمامة أنه قال: حلية السُّيوف مِن الكنز ما أحدثكم إلا ما سمعت(١).

وقال الثوري، عن أبي حصين، عن أبي الضُّحَىٰ، عن جَعْدَة بن هبيرة، عن عليٍّ ﵁ قال: أربعة آلاف فما دونها نَفَقَةٌ، فما كان أكثر مِنه فهو كَنْزٌ(٢). وهذا غريبٌ.

وقد جاء في مدح التقلل من الذَّهب والفِضَّة وذَمِّ التكَثُّر منهما، أحاديث كثيرة؛ ولْنُورِدْ منهاهنا طرفًا يدل علىٰ الباقي، فقال عبد الرازق: أخبرنا الثوري، أخبرني أبو حصين، عن أبي الضحىٰ، عن جعدة بن هبيرة، عن عليٍّ ﵁ في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا(٣) يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ قال النَّبيُّ ﷺ: «تبًّا لِلذَّهَبِ، تبًّا لِلْفِضَّةِ» يقولها ثلاثًا، قال: فشق ذلك علىٰ أصحاب رسول الله ﷺ وقالوا: فأيُّ مالٍ نتخذ؟ فقال: عمر ﵁ أنا أعلم لكم ذلك، فقال: يا رسول الله، إنَّ أصحابك قد شق عليهم وقالوا: فأيَّ مال نتخذ؟ قال: «لِسَانًا ذَاكِرًا، وَقَلْبًا شَاكِرًا وَزَوْجَةً تُعِينُ أَحَدَكُمْ عَلَىٰ دِينِهِ»(٤).

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدَّثنا محمَّد بن جعفر، حدَّثنا شعبة، حدَّثني سالم، حدَّثني عبد الله ابن أبي الهُذَيْل، حدَّثني صاحبٌ لي أن رسول الله ﷺ قال: «تَبًّا لِلذَّهَبِ وَالفِضَّةِ». قال: فحدَّثني صاحبي أنه أنطلق مع عمر بن الخطاب فقال: يا رسول الله، قولك: «تَبًّا لِلذَّهَبِ وَالفِضَّةِ»، ماذا ندخر؟ قال رسول الله ﷺ: «لِسَانًا ذَاكِرًا، وَقَلْبًا شَاكِرًا، وَزَوْجَةً تُعِينُ عَلَىٰ الآخِرَةِ»(٥).

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدَّثنا وكيع، حدَّثنا عبد الله بن عمرو بن مرة، عن أبيه، عن سالم بن أبي الجعد، عن ثوبان قال: لما نزل في الفِضَّة والذَّهب ما نزل قالوا: فأي المال نَتَّخِذ؟ [قال عمر: أنا أعلم ذلك لكم فأوضع علىٰ بَعيرٍ فأدركه، وأنا في أثره، فقال: يا رسول الله، أيَّ المال نتَّخِذُ؟](٦) قال: «لِيَتَّخِذْ أَحَدُكُمْ قَلْبًا شَاكِرًا، وَلِسَانًا ذَاكِرًا، وَزَوْجَةً تُعِينُ أَحَدَكُمْ فِي أَمْرِ الآخِرَةِ»(٧).

ورواه التِّرمذي، وابن ماجه، من غير وجه، عن سالم بن أبي الجعد وقال الترمذي: حسن، وحكي عن البخاري أن سالمًا لم يسمعه مِن ثَوْبَان. قلت: ولهذا رواه بعضهم عنه مرسلًا، والله أعلم.

---

(١) رواه ابن أبي حاتم (١٠٠٤٨)، والبيهقي (٤/ ١٤٤)، والطبراني في «مسند الشاميين» (٢/ ١١) وفي «المعجم الكبير» (٨/ ١١٧)، وقد ضعفه الألباني في «ضعيف الترغيب والترهيب» (٤٧٢) من كتاب الصدقات.

(٢) رواه الطبري (١٠/ ١١٨) من طرق به، ورجاله ثقات، إلا أن أبا الحصين ربما دلس وقد عنعن.

(٣) لوحة (٢٣٠ ب).

(٤) حسن: رجاله ثقات، إلا أن أبا حصين ربما دلس، لكن للحديث شواهد، وهي الروايات التي بعده؛ فرواه أحمد (٥/ ٣٦٦) من حديث علي.

ورواه أحمد (٥/ ٢٨٢) والترمذي (٣٠٩٤) وابن ماجة (١٨٥٦) نحوه من حديث ثوبان، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٢٢٧٦).

(٥) انظر التعليق السابق.

(٦) سقط من (ز)، وهي مثبتة في «المسند».

(٧) انظر التعليق السابق.

حديث آخر: قال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا حميد بن مالك، حدَّثنا يحيىٰ بن يعلىٰ المحاربي، حدَّثنا أبي، حدَّثنا غَيْلان بن جامع المحاربي، عن عثمان أبي اليقظان، عن جعفر بن إياس[١]، عن مجاهد، عن ابن عبَّاس قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ﴾ الآية، كَبُر ذلك علىٰ المسلمين، وقالوا: ما يستطيع أحدٌ منا أن يترك لِوَلَدِهِ ما لا يبقىٰ بعده. فقال عمر: أنا أفرِّج عنكم. فانطلق عمر واتبعه ثوبان، فأتىٰ النَّبيَّ ﷺ فقال: يا نبيَّ الله، إنَّه قد كَبُر علىٰ أصحابك هذه الآية. فقال نبيُّ الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ لَمْ يَفْرِضِ الزَّكَاةَ إِلَّا لِيُطَيِّبَ بِهَا مَا بَقِيَ مِنْ أَمْوَالِكُمْ، وَإِنَّمَا فَرَضَ المَوَارِيثَ مِنْ أَمْوَالٍ تَبْقَىٰ بَعْدَكُمْ». قال: فكبَّر عمر، ثم قال له النَّبيُّ ﷺ: «أَلَا أُخْبِرُكَ بِخَيْرِ مَا يَكْنِزُ المَرْءُ؟ المَرْأَةُ الصَّالِحَةُ الَّتِي إِذَا نَظَرَ إِلَيْهَا سَرَّتْهُ، وَإِذَا أَمَرَهَا أَطَاعَتْهُ، وَإِذَا غَابَ عَنْهَا حَفِظَتْهُ»[٢].

ورواه أبو داود، والحاكم في «مستدركه»، وابن مردويه من حديث يحيىٰ بن يعلىٰ، به[٣]، وقال الحاكم: صحيح علىٰ شرطهما، ولم يخرجاه.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدَّثنا روح، حدَّثنا الأوزاعي، عن حسان بن عطية قال: كان شدَّاد ابن أوس ﵁ في سفر، فنزل منزلًا فقال لغلامه: ائتنا بالشَّفْرَةِ نعبث[٤] بها، فأنكرت عليه، فقال: ما تكلمت بكلمةٍ منذ أسلمت إلا وأنا أَخْطِمُها[٥] وأزمُّها غير كلمتي هذه، فلا تحفظوها علي، واحفظوا ما أقول لكم: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِذَا كَنَزَ النَّاسُ الذَّهَبَ وَالفِضَّةَ فَاكْنِزُوا هَؤُلَاءِ الكَلِمَاتِ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الثَّبَاتَ فِي الأَمْرِ، وَالعَزِيمَةَ عَلَىٰ الرُّشْدِ، وَأَسْأَلُكَ شُكْرَ نِعْمَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ حُسْنَ عِبَادَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ قَلْبًا سَلِيمًا، وَأَسْأَلُكَ لِسَانًا صَادِقًا، وَأَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ مَا تَعْلَمُ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا تَعْلَمُ، وَأَسْتَغْفِرُكَ لِمَا تَعْلَمُ، إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الغُيُوبِ»[٦].

وقوله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ أي: يُقال لهم هذا الكلام تَبْكِيتًا وتقريعًا وتهكُّمًا، كما في قوله: ﴿ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٨، ٤٩] أي: هذا بذاك، وهذا الَّذي كنتم تكنزون لِأَنْفُسِكُم؛ ولهذا يقال: مَن أحبَّ شيئًا وقدَّمه علىٰ طاعة الله،

---

(١) في (ز): (جعفر بن أبي إياس)، وهو خطأ.

(٢) ضعيف: أبو داود (١٦٦٤)، والحاكم (٢/ ٢٣٣) وصححه علىٰ شرطهما، وتعقبه الذهبي فقال: عثمان لا أعرفه، والخبر عجيب. وقال الحافظ: ضعيف واختلط وكان يدلس ويغلو في التشيع.

(٣) لوحة (٢٣١ أ).

(٤) في (ز): (بعثت بها).

(٥) أي: أربطها وأشدها، يريد الاحتراز فيما يقوله ويلفظ به، ومثله: أزمها -من: الزمام-.

(٦) حسن لغيره: رواه أحمد (٤/ ١٢٣)، ولكنه منقطع بين حسان بن عطية، وله شواهد، ووصله ابن حبان (٣/ ٢١٥) من طريق حسان عن أبي عبد الله مسلم بن مِشْكَم، وفي إسناده سويد بن عبد العزيز: ضعيف. لكن للحديث طرق أخرىٰ: رواها النسائي (٣/ ٥٤)، والترمذي (٥/ ٤٤٣)، وأبو نعيم (١/ ٢٦٦) (١/ ٢٦٧)، ولا يخلو طريق منها من ضعفٍ؛ وبها يتقوىٰ الحديث.
قال الحافظ في تخريج الأذكار: (حديث حسن)، وقال (هذه طرق يقوي بعضها بعضًا يمتنع معها إطلاق القول بضعف الحديث). انظر: «الفتوحات الربانية» (٣/ ١٦٣).
وانظر تعليق الشيخ شعيب علىٰ ابن حبان (٩٣٥).

عُذِّب به. وهؤلاء لما كان جَمْعُ هذه الأموال آثَرَ عندهم من رضا الله عنهم، عُذِّبوا بها، كما كان أبو لهب - لعنه الله- جاهدًا في عداوة الرسول صلوات الله [وسلامه](١) عليه، وامرأته تعينه في ذلك، كانت يوم القيامة عونًا علىٰ عذابه أيضًا ﴿فِي جِيدِهَا﴾ أي: [في](٢) عنقها ﴿حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ [المسد: ٥] أي: تجمع من الحطب في النار وتُلْقِي عليه؛ ليكون ذلك أبلغ في عذابه ممن هو أشفق عليه -كان- في الدنيا، كما أن هذه الأموال لما كانت أعز الأشياء علىٰ أَرْبَابِهَا، كانت أضرَّ الأشياء عليهم في الدَّار الآخرة، فيُحْمَىٰ عليها في نار جهنم، وناهيك بِحَرِّها، فتُكْوَىٰ بها جباههم وجنوبهم وظهورهم.

قال سفيان، عن الأعمش، عن عبد الله بن مُرَّة، عن مسروق، عن عبد الله بن مسعود: والله الَّذِي لا إله غيره، لا يكوىٰ عبدٌ بكنزٍ فيَمَسَّ دينارٌ دينارًا، ولا درهمٌ درهمًا، ولكن يوسَّع جلده، فيوضع كل دينار ودرهم علىٰ حدته(٣).

وقد رواه ابن مرْدويه، عن أبي هريرة مرفوعًا، ولا يصح رفعه، والله أعلم.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَر، عن ابن طاوس، عن أبيه قال(٤): بلغني أن الكنز يتحوَّل يوم القيامة شجاعًا(٥) يتبع صاحبه، وهو يفر منه ويقول: أنا كنزك! لا يدرك منه شيئًا إلا أخذه.

وقال الإمام أبو جعفر بن جرير: حدَّثنا بشر، حدَّثنا يزيد، حدَّثنا سعيد، عن قتادة، عن سالم بن أبي الجَعْد، عن مَعْدَان بن أبي طلحة، عن ثوبان أن نبي الله ﷺ كان يقول: «**مَنْ تَرَكَ بَعْدَهُ كَنْزًا مُثِّلَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شُجَاعًا أَقْرَعَ لَهُ زَبِيبَتَانِ، يَتْبَعُهُ، يَقُولُ: وَيْلَكَ مَا أَنْتَ؟ فَيَقُولُ: أَنَا كَنْزُكَ الَّذِي تَرَكْتَهُ بَعْدَكَ! وَلَا يَزَالُ يَتْبَعُهُ حَتَّىٰ يُلْقِمَهُ يَدَهُ فَيُقَصْقِصَهَا(٦) ثُمَّ يُتْبِعُهَا سَائِرَ جَسَدِهِ**»(٧).

ورواه ابن حبان في «صحيحه»، من حديث يزيد، عن سعيد به وأصل هذا الحديث في «الصحيحين» من رواية أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وفي «صحيح مسلم»، من حديث سهيل بن أبي صالح، عن أبيه، عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «**مَا مِنْ رَجُلٍ لَا يُؤَدِّي زَكَاةَ مَالِهِ إِلَّا جُعِلَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صَفَائِحَ مِنْ نَارٍ يُكْوَىٰ بِهَا جَنْبُهُ وَجَبْهَتُهُ وَظَهْرُهُ، فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، حَتَّىٰ يُقْضَىٰ بَيْنَ النَّاسِ، ثُمَّ يُرَىٰ سَبِيلُهُ إِمَّا إِلَىٰ الْجَنَّةِ وَإِمَّا إِلَىٰ النَّارِ...**»(٨) وذكر تمام الحديث.

وقال البخاري في تفسير هذه الآية: حدَّثنا قتيبة، حدَّثنا جرير، عن حُصَيْن، عن زيد(٩) بن وهب قال:

---

(١) ليست في (ز). (٢) ليست في (ز).
(٣) رواه الطبري (١٠/ ١٢٤)، وإسناده صحيح، وهو في حكم المرفوع؛ لأن مثله لا يقال بالرأي.
(٤) لوحة (٢٣١ ب). (٥) أي: ثُعبانًا. (٦) قصقص الشئ: كسره.
(٧) **صحيح**: رواه ابن جرير (١٠/ ١٢٤)، والطبراني (١٤٠٨)، والحاكم (١/ ٣٨٨) وصححه علىٰ شرط مسلم، وأصله في البخاري (٤٦٥٩).
(٨) مسلم (٩٨٧)، وأبو داود (١٦٥٨، ١٦٥٩)، والنسائي (٥/ ١٢)، وانظر: «صحيح البخاري» (١٤٠٢).
(٩) في (ز): (يزيد بن وهب)، وهو خطأ.

مَرَرْتُ علىٰ أبي ذَرٍّ بالرَّبَذة[(١)]، فقلت: ما أنزلك بهذه الأرض، قال: كنَّا بالشَّام، فقرأت: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ فقال معاوية: ما هذه فينا ما هذه إلا في أهل الكتاب. قال: قلت: إنَّها لَفِينا وفِيهم[(٢)].

ورواه ابن جرير من حديث عبثر بن القاسم، عن حصين، عن زيد بن وهب، عن أبي ذر رضي الله عنه فذكره وزاد: فارتفع في ذلك بيني وبينه القول، فكتب إلىٰ عثمان يشكوني، فكتب إليَّ عثمان أن أُقْبِلَ إليه، قال: فأقبلت، فلما قدمت المَدِينَة رَكِبَنِي الناس كأنهم لم يروني قبل يومئذٍ، فشكوت ذلك إلىٰ عثمان، فقال لي: تَنَحَّ قريبًا. قلت: والله لن أَدَعَ ما كنت أقولُ[(٣)].

قلتُ: كان مِن مَذْهَبِ أبي ذرٍّ رضي الله عنه تحريم ادخار ما زاد علىٰ نفقة العِيَال، وكان يفتي [النَّاس][(٤)] بذلك، ويَحُثُّهُم عليه، ويأمرهم به، ويُغَلِّظ في خلافه، فنَهَاه معاوية فلم يَنْتَهِ، فخشي أَن يَضُرَّ بالناس في هذا، فكتب يشكوه إلىٰ أمير المؤمنين عثمان، وأن يأخذه إليه[(٥)]، فاستقدمه عثمان إلىٰ المدينة، وأنزله بالرَّبَذة[(٦)] وحده، وبها مات رضي الله عنه في خلافةِ عثمان. وقد اختبره معاوية رضي الله عنه وهو عنده، هل يُوَافِقُ عَمَلُهُ قَوْلَهُ؟ فبعث إليه بألف دينارٍ، ففرقها مِن يومِهِ، ثم بعث إليه الذي أتاه بها فقال: إنَّ معاوية إنَّما بعثني إلىٰ غيرك فأخطأت، فهات الذَّهَبَ! فقال: وَيْحَكَ! إنَّها خرجت، ولكِن إذا جاء مالي حاسَبْنَاكَ به.

وهكذا روىٰ علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس أنَّها عامَّةٌ.

وقال السُّدِّي: هي في أهل القبلة.

وقال الأحنف بن قيس: قدمت المدينة، فبينا أنَا في حلقةٍ فيها مَلأ مِن قريش، إذ جاء رجلٌ أخشن الثِّياب، أخشن الجسد، أخشن الوَجْه، [فقام عليهم][(٧)] فقال: بَشِّر الكانزين برَضْفٍ[(٨)] يُحْمَىٰ عليه في نار جهنم، فيُوضَع علىٰ حَلمةِ ثَدْي أحدهم حتىٰ يخرج مِن نُغْضِ كَتِفِه[(٩)]، ويوضع علىٰ نُغْضِ كتفه حتىٰ يخرج مِن حلمة ثَدْيِهِ يتزلزل -قال: فوضَع القومُ رءُوسَهم، فما رأيت أحدًا منهم رَجَع إليه شيئًا- قال: وأدبر فاتَّبَعْتُه حتىٰ جلس إلىٰ ساريةٍ، فقلت: ما رأيت هؤلاء إلا كَرِهُوا ما قلت لهم. فقال: إنَّ هؤلاء لا يَعْلَمُون شيئًا[(١٠)].

---

(١) الرَّبَذَة: من قرىٰ المدينة، علىٰ ثلاثة أميال منها، بها قبر أبي ذر رضي الله عنه.
(٢) البخاري (٤٦٦٠) كتاب تفسير القرآن.
(٣) رواه الطبري (١٠/ ١٢١، ١٢٢) من طريق عبد الله بن أحمد بن يونس قال: ثنا هشيم، قال: ثنا حصين به، وليس في الإسناد عبثر بن القاسم كما ذكر ابن جرير (كذا في المطبوع)، وإسناده صحيح.
(٤) ليست في (ز).
(٥) في (ز): (وأن يأخذه الذي يأخذه إليه).
(٦) لوحة (٢٣٢ أ).
(٧) ليست في (ز).
(٨) الرضف: الحجارة المحماة علىٰ النار.
(٩) النُّغْض والنَّغْض والناغِض: أعْلىٰ الكَتِف، وقيل: هو العَظْم الرقيق الذي علىٰ طَرَفِه. «النهاية»: (٥/ ٨٧)، وانظر: «اللسان»: نغض، و«هدي الساري»: (ص١٩٧).
(١٠) وثبت ذلك مرفوعًا عنه، رواه البخاري (١٤٠٧)، ومسلم (٩٩٢).

وفي «الصحيح» أنَّ رسول الله ﷺ قال لأبي ذرٍّ: «**مَا يَسُرُّنِي أَنَّ عِنْدِي مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا يَمُرُّ عَلَيْهِ ثَالِثَةٌ وَعِنْدِي مِنْهُ شَيْءٌ إِلَّا دِينَارٌ أَرْصُدُهُ لِدَيْنٍ**»(١).

فهذا -والله أعلم- هو الذي حدا أبا ذرٍّ علىٰ القول بهذا.

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا عفان، حدَّثنا همام، حدَّثنا قتادة، عن سعيد بن أبي الحسن، عن عبد الله بن الصامت رضي الله عنه أنَّه كان مع أبي ذرٍّ، فخرج عطاؤه ومعه جاريةٌ له، فجعلت تقضي حوائجه، ففضلت معها سبعة، فأمرها أن تَشْتَرِي به فلوسًا. قال: قلت: لو ادَّخَرْتَه [للحاجة تَنُوبك](٢) وللضَّيف ينزل بك! قال: إنَّ خليلي عَهِدَ إليَّ أَنْ أيُّما ذهبٍ أو فِضَّةٍ أُوكِي عليه(٣)، فهو جمرٌ علىٰ صاحبه، حتىٰ يُفْرِغه في سبيل الله عز وجل(٤).

ورواه عن يزيد، عن همَّام به، وزاد: إفراغًا.

وقال الحافظ ابن عساكر بسنده إلىٰ أبي بكر الشِّبْلي في ترجمته، عن محمَّد بن مهدي: حدَّثنا عمرو ابن أبي سلمة، عن صدقة بن عبد الله، عَن طلحة بن زيد، عن أبي فَرْوَة الرَّهاوي، عن عطاء، عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**الْقَ اللهَ فَقِيرًا وَلَا تَلْقَهُ غَنِيًّا**». قال: يا رسول الله، كيف لي بذلك؟ قال: «**مَا سُئِلْتَ فَلَا تَمْنَعْ، وَمَا رُزِقْتَ فَلَا تَخْبَأْ**»، قال: يا رسول الله، كيف لي بذلك؟ قال(٥) رسول الله ﷺ: «**هُوَ ذَاكَ وَإِلَّا فَالنَّارُ**» إسناده ضعيف(٦).

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا عفان، حدَّثنا جعفر بن سليمان، حدَّثنا عتيبة، عن بريد بن أصرم(٧)(٨) قال: سمعت عليًّا رضي الله عنه يقول: مات رجلٌ مِن أهل الصُّفَّة، وترك دينارين -أو: درهمين- فقال رسول الله ﷺ: «**كَيَّتَانِ، صَلُّوا عَلَىٰ صَاحِبِكُمْ**»(٩).

وقد رُوِي هذا مِن طرف آخر.

وقال قتادة، عن شَهْر بن حَوْشَب، عن أبي أمامة صُدَيِّ بن عَجْلان قال: مات رجلٌ من أهل الصُّفَّة، فوُجِدَ في مِئْزَرِه دينارٌ، فقال رسول الله ﷺ: «**كَيَّةٌ**». ثم تُوفي رجلٌ آخر فوجد في مِئْزَرِه ديناران، فقال

---

(١) البخاري (١٤٠٧)، ومسلم (٩٩٢)، وثبت نحوه من حديث أبي هريرة، رواه البخاري (٢٣٨٩) ومسلم (٩٩٢).

(٢) في (ز): لحاجة بيوتك.

(٣) أي: ربط وشد عليه وِكاء، وهو الخيط الذي تشد به الصرة.

(٤) أحمد (٥/ ١٥٦)، ورجاله ثقات، غير أن قتادة بن دعامة مدلس، لكن يشهد له الروايات السابقة.

(٥) لوحة (٢٣٢ ب).

(٦) موضوع: ورواه الخطيب (١٤/ ٣٩٠)، وضعفه الحافظ ابن كثير.

قلت: فيه صدقة بن عبد الله وهو ضعيف، وطلحة بن زيد القرشي: كذاب.

(٧) في (ز): (حدثنا عيينة عن يزيد بن الصرم).

(٨) قال الشيخ سامي السلامة: في جميع النسخ (عيينة عن يزيد بن الصرم)، والتصويب من «المسند» (٤/ ١٤٣).

(٩) حسن من غير هذا الطريق: رواه أحمد (١/ ١٣٧) وفيه بريد بن أصرم: مجهول، لكن له شاهد إسناده حسن، رواه أحمد (١/ ٤٠٥، ٤١٢، ٤١٥، ٤٢١)، وأبو يعلىٰ (٤٩٩٧)، وإسناده حسن.

رسول الله ﷺ: «كَيَّتَانِ»(١).

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا أبو النضر إسحاق بن إبراهيم الفراديسي، حدَّثنا معاوية ابن يحيىٰ الأَطْرابُلسي، حدَّثني أرطاة، حدَّثني أبو عامر الهَوْزَني، سمعت ثوبان مولىٰ رسول الله ﷺ قال: ما من رجل يموت وعنده أحمر أو أبيض، إلا جعل الله بكُلِّ قيراطٍ صفحةً مِن نارٍ يُكْوَىٰ بها مِن قدمه إلىٰ ذَقَنِه(٢).

وقال الحافظ أبو يعلىٰ: حدَّثنا [محمود](٣) بن خِداش، حدَّثنا سيف بن محمَّد الثوري، حدَّثنا الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يُوضَعُ الدِّينَارُ عَلَىٰ الدِّينَارِ، وَلا الدِّرْهَمُ عَلَىٰ الدِّرْهَم، وَلَكِنْ يُوَسَّعُ جِلْدُهُ فَيُكْوَىٰ بِهَا جِباهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ، هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ» سيف هذا كذَّاب متروك(٤).

﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾﴾

قال الإمام أحمد: حدَّثنا إسماعيل، أخبرنا أيوب، أخبرنا محمَّد بن سيرين، عن أبي بَكْرَة، أن النَّبيَّ ﷺ خطب في حَجَّتِهِ، فقال: «أَلَا إِنَّ الزَّمَانَ قَدِ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ، السَّنَةُ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا، مِنْهَا أَرْبَعَةٌ [حُرُمٌ، ثَلَاثَةٌ](٥) مُتَوَالِيَاتٌ(٦): ذُو القَعْدَةِ، وَذُو الحِجَّةِ، وَالمُحَرَّمُ، وَرَجَبُ مُضَرَ الَّذِي بَيْنَ جُمَادَىٰ وَشَعْبَانَ». ثم قال: «أَيُّ يَوْمٍ هَذَا؟» قلنا: الله ورسوله أعلم. فسكت حتىٰ ظَنَنَّا أنه سَيُسَمِّيه بغير اسمه، قال: «أَلَيْسَ يَوْمَ النَّحْرِ؟» قلنا: بلىٰ. ثم قال: «أَيُّ شَهْرٍ هَذَا؟» قلنا: الله ورسوله أعلم. فسكت حتىٰ ظَنَنَّا أنه سَيُسَمِّيه بغير اسمه، قال: «أَلَيْسَ(٧) ذَا الحِجَّةِ؟» قلنا: بلىٰ. ثم قال: «أَيُّ بَلَدٍ هَذَا؟». قلنا: الله ورسوله أعلم. فسكت حتىٰ ظَنَنَّا أنَّه سَيُسَمِّيه بغير اسمه، قال: «أَلَيْسَتِ البَلْدَةَ؟» قلنا: بلىٰ. قال: «فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ -قال: وأحسبه قال: وَأَعْرَاضَكُمْ- عَلَيْكُمْ حَرَامٌ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا، وَسَتَلْقَوْنَ رَبَّكُمْ فَيَسْأَلُكُمْ عَنْ أَعْمَالِكُمْ، أَلَا لَا تَرْجِعُوا بَعْدِي ضُلَّالًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ، أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ؟ أَلَا لِيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الغَائِبَ [مِنْكُمْ](٨)، فَلَعَلَّ مَنْ يُبَلَّغُهُ يَكُونُ أَوْعَىٰ لَهُ

---

(١) حسن لغيره: رواه أحمد (٥/ ٢٥٢)، وفيه شهر بن حوشب: صدوق كثير الإرسال والأوهام، لكن يشهد له الرواية السابقة، ويشهد له أيضًا الحديث الآتي.

(٢) حسن: عزاه لابن أبي حاتم، وإسناده حسن، ومثله لا يقال بالرأي فهو في حكم المرفوع؛ لذا فهو شاهد للروايات السابقة.

(٣) في (ز): (محمد)، ومحمود بن خداش: ثقة من شيوخ أبي يعلي.

(٤) ضعيف جدًّا: رواه أبو يعلىٰ كما في «المطالب العالية» (٣٦٣٣) وضعفه الحافظ، فيه سيف بن محمَّد الثوري، قال الحافظ: كذبوه، لكنه ثبت موقوفًا علىٰ ابن مسعودٍ وقد تقدم بإسناد صحيح، وهو في حكم المرفوع.

(٥) سقط من (ز). (٦) في (ز): متوالية.

(٧) لوحة (٢٣٣ أ). (٨) سقط من (ز).

مِنْ بَعْضِ مَنْ يَسْمَعُهُ»[١].

ورواه البخاري في «التفسير» وغيره، ومسلم من حديث أيوب، عن محمَّد -وهو ابن سيرين- عن عبد الرحمن بن أبي بَكْرَة، عن أبيه به.

وقد قال ابن جرير: حدَّثنا محمَّد بن مَعْمَر، حدَّثنا رَوْحُ، حدَّثنا أشعث، عن محمَّد بن سيرين، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الزَّمَانَ قَدِ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ، وَإِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ، ثَلَاثَةٌ مُتَوَالِيَاتٌ، وَرَجَبُ مُضَرَ بَيْنَ جُمَادَىٰ وَشَعْبَانَ»[٢].

ورواه البَزَّار، عن محمَّد بن معمر، به ثم قال: [لا يروىٰ][٣] عن أبي هريرة إلا من هذا الوجه، وقد رواه ابن عَوْن وقُرَّة، عن ابن سيرين، عن عبد الرحمن بن أبي بكرة[٤]، عن أبيه به.

وقال ابن جرير أيضًا: حدَّثني موسىٰ بن عبد الرحمن المسروقي، حدَّثنا زيد بن حُبَاب، حدَّثنا موسىٰ بن عبيدة الربَذي، حدَّثني صدقة بن يسار، عن ابن عمر قال: خطب رسول الله ﷺ في حجة الوداع بمنىٰ في أوسط أيام التشريق فقال: «أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ الزَّمَانَ قَدِ اسْتَدَارَ، فَهُوَ الْيَوْمَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ، وَإِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ، أَوَّلُهُنَّ رَجَبُ مُضَرَ بَيْنَ جُمَادَىٰ وَشَعْبَانَ، وَذُو الْقَعْدَةِ، وَذُو الْحِجَّةِ، وَالْمُحَرَّمُ»[٥].

وروىٰ ابن مَرْدويه من حديث موسىٰ بن عبيدة، عن عبد الله بن دينار، عن ابن عمر، مثله أو نحوه.

وقال حماد بن سلمة: حدَّثني علي بن زيد، عن أبي حُرَّة الرقاشي، عن عمه -وكانت له صُحْبَةٌ- قال: كنت آخذًا بزمام ناقة رسول الله ﷺ في أوسط أيام التشريق، أَذُود النَّاس عنه، فقال رسول الله ﷺ: «أَلَا إِنَّ الزَّمَانَ قَدِ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللهُ السَّمَوَاتِ[٦] وَالأَرْضَ، وَإِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ، مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ»[٧].

وقال سعيد بن منصور: حدَّثنا أبو معاوية، عن الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عبَّاس في قوله: ﴿مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ قال: محرم، ورجب، وذو القعدة، وذو الحجَّة.

وقوله ﷺ في الحديث: «إِنَّ الزَّمَانَ قَدِ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ» تقرير

---

(١) صحيح: رواه أحمد (٥/ ٣٧)، ورواه البخاري (٦٧)، ومسلم (١٦٧٩).

(٢) صحيح لغيره: رواه ابن جرير (١٠/ ١٢٥) ورجاله ثقات عدا أشعث فهو ضعيف، لكن يشهد له الحديث السابق فهو في «الصحيحين».

(٣) سقط من (ز).

(٤) في (ز): (عبد الرحمن عن أبي بكرة).

(٥) رواه ابن جرير (١٠/ ١٢٦)، وفيه موسىٰ بن عبدة: ضعيف ويشهد له ما تقدم.

(٦) لوحة (٢٣٣ب).

(٧) ضعيف: رواه أحمد (٥/ ٧٢، ٧٣)، وفي إسناده علي بن زيد: ضعيف، ويشهد له ما تقدم.

منه، صَلَوَات الله وسلامه عليه، وتثبيت للأمر على ما جعله الله تعالى في أَوَّل الأمر مِن غير تقديم ولا تأخيرٍ، ولا زيادةٍ ولا نقصٍ، ولا نسيءٍ ولا تبديل، كما قال في تحريم مكَّة: «**إِنَّ هَذَا الْبَلَدَ حَرَّمَهُ اللهُ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ، فَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ**»، وهكذا قال هاهنا: «**إِنَّ الزَّمَانَ قَدِ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ**» أي: الأمر اليوم شرعًا كما ابتدأ الله ذلك في كتابه يوم خلق السَّموات والأرض.

وقد قال بعض المفسِّرين والمتكلمين على هذا الحديث: إن المراد بقوله: «**قَدِ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ**» أنَّه اتَّفق أن حَجَّ رسول الله ﷺ في تلك السَّنَة في ذي الحجة، وأنَّ العرب قد كانت نسأَت النَّسيءَ، يَحُجُّون في كثيرٍ مِن السِّنينَ، بل أكثرها، في غير ذي الحِجَّة، وزعموا أن حجة الصِّدِّيق في سنة تسع كانت في ذي القَعْدة، وفي هذا نظر، كما سَنُبيِّنُه إذا تكلمنا على النَّسِيء.

وأغرب منه ما رواه الطبراني، عن بعض السلف، في جملة حديث: أنَّه اتَّفَق حج المسلمين واليهود والنَّصارىٰ في يومٍ واحدٍ، وهو يوم النَّحْر، عام حِجَّة الوداع، والله أعلم.

[حاشية فصل][1]

وذكر الشيخ علم الدين السَّخاوي في جزء جمعه سمَّاه «المشهور في أسماء الأيام والشُّهور»: أنَّ المحرم سُمِّي بذلك لكونه شهرًا محرمًا، وعندي أنَّه سُمِّي بذلك تأكيدًا لتَحْرِيمِه؛ لأنَّ العرب كانت تتقلب به، فتُحِلُّه عامًا وتُحَرِّمه عامًا، قال: ويُجمع على: مُحَرَّمات، ومحارم، ومحاريم.

صَفَر: سُمِّي بذلك لخُلُوِّ بُيُوتِهِم منه، حين يخرجون للقتال والأسفار، يقال: «صَفِرَ المَكَانُ» : إذا خلا، ويُجمع على: أصفار كجَمَل وأَجْمَال.

شهر ربيع أوَّل: سُمِّي بذلك لارتباعهم فيه. والارْتِبَاع: الإقامة في عمارة الرَّبع، ويُجمع على: أَرْبِعَاء كنَصِيب وأنصباء، وعلى أَرْبِعة، كرَغِيف وأَرْغِفَة.

ربيع الآخر[2]: كالأول.

جُمَادىٰ: سمي بذلك لجُمُود الماء فيه. قال: وكانت الشُّهور في حسابهم لا تَدُورُ. وفي هذا نظر؛ إذ كانت شهورهم مَنُوطَة بالأَهِلَّة، ولا بد مِن دورانها؛ فلعَلَّهُم سَمَّوه بذلك أول ما سُمِّي[3] عند جمود الماء في البرد، كما قال الشاعر:

وَلَيْلَـةٍ مِـنْ جُمَـادَىٰ ذَاتِ أَنْدِيَـةٍ ... لا يُبْـصِرُ العَبْـدُ فِـي ظُلْمَاتِهَـا الطُّنُبَـا[4]

لا يَنْـبَحُ الكَلْـبُ فِيهَـا غَيْـرَ وَاحِـدَةٍ ... حَتَّـىٰ يَلُـفَّ عَلَـىٰ خُرْطُومِـهِ الـذَّنَبَا

ويُجمع على: جُمَادَيَات، كحُبَارىٰ وحُبَاريات، وقد يُذَكَّر ويُؤَنَّث، فيقال: جمادىٰ الأولىٰ

---

(١) ما بين المعقوفتين ليست في (ز).
(٢) لوحة (٢٣٤ أ).
(٣) في (ز): (أو سمي).
(٤) الطنب: حبل الخباء والسرادق.

[والأول][1]، وجمادىٰ [الآخر و][2]الآخرة.

رجب: مِن التَّرْجِيب، وهو التَّعْظِيم، ويُجمع علىٰ أرجاب، ورِجَاب، ورَجَبات.

شعبان: مِن تَشَعُّب القبائل وتفرقها للغَارَة ويُجمع علىٰ: شَعَابِينَ وشَعْبَانات .

ورمضان: مِن شدَّة الرَّمْضَاء، وهو الحَرُّ، يقال: «رَمَضَتِ الفِصَال» : إذا عَطِشَت، ويُجمع علىٰ: رَمَضَانات ورَمَاضِين وأرْمِضَة قال: وقول من قال: «إنَّه اسْم من أسماء الله»؛ خطأ لا يُعَرَّج عليه، ولا يُلتفت إليه.

قلت: قد ورد فيه حديثٌ؛ ولكنَّه ضعيفٌ، وبَيَّنْتُه في أول كتاب الصيام.

شوَّال: مِن شالت الإبل بأذْنَابِها للطِّراقِ، قال: ويجمع علىٰ: شَوَاول وشَوَاوِيل وشَوَّالات.

القَعْدَة: بفتح القاف -قلت: وكسرها- لقُعُودِهِم فيه عن القِتَال والتَّرحال، ويجمع علىٰ: ذَوَاتِ القَعْدَة.

الحِجَّة: بكسر الحاء -قلت: وفتحها- سُمِّي بذلك لإيقاعهم الحَجَّ فيه، ويُجْمَع علىٰ: ذوات الحجة.

أسماء الأيام: أَوَّلُها الأحد، ويُجْمَع علىٰ: آحَاد، وأُحاد ووحود. ثمَّ يوم الاثنين، ويُجمع علىٰ: أثانين. الثُّلاثاء: يُمَدُّ، ويُذَكَّر ويؤنث، ويُجمع علىٰ: ثلاثاوات وأثالث. ثم الأربعاء بالمَدِّ، ويُجمع علىٰ: أربعاوات وأرابيع. والخَمِيس: يُجمع علىٰ: أخمسة وأخامس، ثم الجمُعَة -بضَمِّ الميم، وإسكانها، وفتحها أيضًا- ويُجمع علىٰ: جُمَع وجُمُعات[3].

السَّبت: مأخوذ من السَّبْت، وهو القَطْع؛ لانتهاء العَدَدِ عنده. وكانت العرب تُسَمِّي الأيام أوَّل، ثم أَهْون، ثم جُبَار، ثم دُبَار، ثم مُؤْنِس، ثم العَرُوبَة، ثم شِيَار، قال الشاعر -من العرب العرباء العاربة المتقدمين-:

أُرَجِّـــي أَنْ أَعِـــيشَ وَأَنَّ يَـــوْمِي ... بِـــأَوَّلَ أَوْ بِـــأَهْوَنَ أَوْ جُبَـــارِ

أَوِ التَّـــالِي دُبَـــارَ فَـــإِنْ أَفُتْـــهُ ... فَمُـــؤْنِسٍ اوْ عَرُوبَـــةَ أَوْ شِـــيَارِ[4]

وقوله تعالىٰ: ﴿مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ فهذا ممَّا كانت العرب أيضًا في الجاهلية تُحَرِّمه، وهو الذي كان عليه جمهورهم، إلا طائفة منهم يقال لهم: «البَسْل»، كانوا يحرمون من السَّنة ثمانية أشهر، تعمُّقًا وتشديدًا.

وأما قوله: «**ثَلَاثٌ مُتَوَالِيَاتٌ: ذُو القَعْدَةِ وَذُو الحِجَّةِ وَالمُحَرَّمُ، وَرَجَبُ مُضَرَ الَّذِي بَيْنَ جُمَادَىٰ وَشَعْبَانَ**»، [فإنَّما أضافه إلىٰ مُضَر؛ ليُبيِّن صحَّة قولهم في رجب أنَّه الشهر الذي بين جمادىٰ وشعبان][5]، لا كما كَانَت تَظُنُّه ربيعة مِن أنَّ رجب المُحَرَّم هو الشهر الذي بَيْنَ شعبان وشوَّال، وهو رمضان اليوم،

---

(١) سقط من (ز). (٢) سقط من (ز).

(٣) في (ز): (جمع وجماعات)، والمثبت موافق لما في «لسان العرب».

(٤) لوحة (٢٣٤ ب). (٥) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

فبيَّن عليه [الصَّلاة و](١) السَّلام، أنَّه رجب مُضَر لا رجب ربيعة. وإنَّما كانت الأشهر المُحَرَّمة أربعة، ثلاثة سَرْدٌ وواحد فَرْدٌ؛ لأجل أداء مناسك الحج والعمرة، فحُرِّم قبل شهرِ الحجِّ شهرٌ، وهو ذو القَعْدَة؛ لأنَّهم يقعُدُون فيه عَنِ القِتَال، وحُرِّم شهر ذي الحِجَّة؛ لأنهم يُوقِعُون فيه الحَجَّ ويَشْتَغِلُون [فيه](٢) بأداء المَنَاسِك، وحُرِّم بعده شهر آخر، وهو المحرم؛ ليَرْجِعُوا فيه إلىٰ نائي أقصىٰ بلادِهِم آمِنِين، وحُرِّم رجب في وسط الحول؛ لأجل زيارة البَيْت والاعتمَار به، لمن يقدم إليه مِن أقصىٰ جزيرة العرب، فيَزُورُه ثم يعود إلىٰ وطنه فيه آمنًا.

وقوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ أي: هذا هو الشَّرع المستقيم مِن امتثال أمر الله فيما جعل من الأشهر الحرم، والحَذْو بها علىٰ ما سبق في كتاب الله الأول.

وقال تعالىٰ: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ أي: في هذه الأشهر المحرمة؛ لأنه آكدُ وأبلغ في الإثم مِن غيرها، كما أنَّ المعاصي في البلد الحرام تُضَاعَف؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥]، وكذلك الشهر الحرام تغلظ فيه الآثام؛ ولهذا تغلظ فيه الدية في مذهب الشافعي، وطائفةٍ كثيرةٍ من العلماء، وكذا في حَقِّ مَن قتل في الحرم أو قتل ذا مَحْرَم.

وقال حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن يوسف بن مِهْران، عن ابن عبَّاس، في قوله: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ قال: في الشهور كلها .

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس قوله: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا ...﴾ الآية ﴿فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ في كلِّهن، ثمَّ اختص من ذلك أربعة أشهرٍ فجعلهن حرامًا، وعَظم حُرُماتهن، وجعل الذَّنب فيهنَّ أعظم، والعمل الصالح والأجر أعظم.

وقال قتادة في قوله: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ إنَّ الظُّلم في الأشهر الحرم أَعْظَم خطيئةً ووزرًا مِن الظلم فيما سواها، وإن كان الظُّلم علىٰ كلِّ حالٍ عظيمًا، ولكنَّ الله يُعَظِّمُ مِن أمره ما يشاء. قال: إنَّ الله اصْطَفَىٰ صَفَايا مِن خلقه، اصطفىٰ من(٣) الملائكة رسلًا ومن النَّاس رسلًا واصطفىٰ من الكَلام ذِكْرَه، واصطفىٰ مِن الأرض المساجد، واصطفىٰ من الشُّهور رمضان والأشهر الحرم، واصطفىٰ مِن الأيَّام يوم الجمعة، واصْطَفَىٰ من اللَّيالي ليلة القدر، فَعَظِّموا ما عظَّم الله، فإنَّما تُعَظم [الأُمورُ](٤) بما عَظَّمَها الله به عند أهل الفَهْم وأهل العَقْل.

وقال الثوري، عن قيس بن مسلم، عن الحسن بن محمَّد بن الحنفية: بألَّا تُحَرِّمُوهن كحُرْمَتِهِنَّ.

وقال محمَّد بن إسحاق: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ أي: لا تجعلوا حرامها حلالًا ولا حلالها حرامًا، كما فعل أهل الشرك، فإنما النَّسيء الذي كانوا يصنعون من ذلك، زيادة في الكفر ﴿يُضَلُّ بِهِ

---

(١) ليست في (ز).
(٢) سقط من (ز).
(٣) لوحة (٢٣٥ أ).
(٤) سقط من (ز).

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟...﴾ الآية [التوبة: ٣٧].

وهذا القول اختيار ابن جرير.

وقوله: ﴿وَقَـٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً﴾ أي: جميعكم ﴿كَمَا يُقَـٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾ أي: جميعهم، ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

وقد اختلف العلماء في تحريم ابتداء القتال في الشَّهر الحرام: هل هو منسوخٌ أو مُحْكَمٌ؟ علىٰ قولين:

أحدهما -وهو الأشهر: أنَّه منسوخٌ؛ لأنَّه تعالىٰ قال هاهنا: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ وأمر بقتال المشركين، وظاهر السِّياق مُشْعِرٌ بأنَّه أمر بذلك أمرًا عامًّا، فلو كان محرمًا في الشهر الحرام لأَوْشَك أن يقيده بانسلاخها، ولأنَّ رسول الله ﷺ حاصر أهل الطائف في شهر حرام -وهو ذو القَعْدة- كما ثبت في «الصحيحين»: أنَّه خرج إلىٰ هوازن في شوال، فلمَّا كسرهم واستفاء أموالهم، ورجع فَلُّهم[1]، فلجئُوا إلىٰ الطائف، عَمَد إلىٰ الطائف فحاصرها أربعين يومًا، وانصرف ولم يفتتحها، فثبت أنه حاصر في الشهر الحرام.

والقول الآخر: أنَّ ابتداء القتال في الشهر الحَرام حَرامٌ، وأنَّه لم ينسخ تحريم الشَّهر الحَرام؛ لقوله تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحِلُّوا۟ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ﴾ [المائدة: ٢] وقال: ﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَـٰتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ الآية[البقرة: ١٩٤] وقال: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ٥].

وقد تقدَّم أنَّها الأربعة المقرَّرة في كل سَنَةٍ، لا أشهر التَّسْيير علىٰ أحد القولين.

وأما قوله تعالىٰ: ﴿وَقَـٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَـٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾ فيُحْتَمل أنَّه مُنْقَطِعٌ عمَّا قبله، وأنَّه حكمٌ مستأْنَفٌ، ويكون مِن باب التَّهْييج والتَّحْضِيض؛ أي: كما يَجْتَمِعُون لحَرْبِكُم إذا حارَبُوكُم فاجتمعوا أنتم أيضًا لهم إذا حارَبْتُمُوهُم، وقاتِلُوهم بنَظِيرِ ما يَفْعَلُون، ويحتمل أنَّه أُذِن للمؤمنين بقتال المشركين[2] في الشهر الحرام إذا كانت البداءة مِنْهُم، كما قال تعالىٰ: ﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَـٰتُ قِصَاصٌ﴾ [البقرة: ١٩٤]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَا تُقَـٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَـٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ...﴾ الآية [البقرة: ١٩١]، وهكذا الجواب عَن حصار رسول الله ﷺ أهل الطائف، واستصحابه الحِصَار إلىٰ أن دخل الشَّهر الحرام، فإنَّه مِن تَتِمَّة قتال هوازن وأحلافِها من ثقيف؛ فإنَّهم هم الذين ابتدءوا القِتَال، وجمعوا الرجال، ودعوا إلىٰ الحرب والنِّزال، فعندما قصدهم رسول الله ﷺ كما تقدَّم، فلما تحصَّنوا بالطَّائف ذهب إليهم لِيُنْزِلَهُم مِن حصونهم، فنالوا من المسلمين، وقتَلُوا جماعةً، واستمر الحصار بالمَجَانِيقِ وغيرها قريبًا مِن أربعين يومًا. وكان ابتداؤه في شهرٍ حلالٍ، ودخل الشهر الحرام، فاسْتَمَرَّ فيه أيامًا، ثم قفل عنهم؛ لأنَّه يُغْتَفَر في الدَّوام ما لا يُغْتَفر في الابتداء، وهذا أمرٌ مقرَّرٌ، وله نظائر كثيرة، والله أعلم.

---

(١) أي: المنهزمون منهم.

(٢) لوحة (٢٣٥ ب).

ولنذكر الأحاديث الواردة في ذلك وقد حَرَّرنا ذلك في السِّيرة، والله أعلم[١].

﴿إِنَّمَا النَّسِيٓءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾

هذا مما ذَمَّ الله تعالىٰ به المُشْرِكِين من تَصَرُّفِهُم في شرع الله بآرائهم الفاسدة، وتَغْيِيرِهِم أحكام الله بأَهْوَائِهِم الباردة، وتحليلهم ما حرَّم الله وتحريمهم ما أحلَّ الله، فإنَّهم كان فيهم مِن القوَّة الغضَبية والشَّهامة والحميَّة ما استطالوا به مُدَّة الأشهر الثلاثة في التَّحريم المانع لهم مِن قضاء أوطَارِهِم من قتال أعدائهم، فكَانُوا قد أحدثوا قبل الإسلام بمدةِ تحليلَ المحرَّم وتأخيره إلىٰ صَفَر، فيُحِلُّون الشهر الحرام، ويُحَرِّمون الشهر الحلال؛ لِيُوَاطِئُوا عدَّة الأشهر الأربعة كما قال شاعرهم -وهو عمير بن قيس المعروف بجَذْل الطِّعان-[٢][٣]:

لَقَـدْ عَلِمَـتْ مَعَـدٌّ أَنَّ قَـوْمِي ... كِـرَامُ النَّـاسِ أَنَّ لَهُـمْ كِرَامَـا
أَلَـسْنَا النَّاسِـئِينَ عَلَـىٰ مَعْـدٍّ ... شُـهُورَ الحِـلِّ نَجْعَلُهَـا حَرَامَـا
فَـأَيُّ النَّـاسِ لَـمْ تُـدْرَكْ بِـوَتْرٍ؟ ... وَأَيُّ النَّـاسِ لَـمْ نُعْلِـكْ لِجَامَـا؟[٤]

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عبَّاس في قوله: ﴿إِنَّمَا النَّسِيٓءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ قال: النسيء أنَّ جُنادة بن عوف بن أمية الكناني، كان يُوَافِي[٥] الموسم في كُلِّ عام، وكان يُكَنَّىٰ «أبا ثُمامة»، فيُوَافِي الموسم كل عام فينادي: ألَا إنَّ أبا ثمامة لا يُحاب[٦] ولا يُعاب، ألا وإنَّ صَفَرَ العَامِ الأولِ العامَ حلالٌ. فيُحِلُّه للنَّاس، فيُحَرِّمُ صَفرًا عامًا، ويحرِّمُ المُحَرَّمَ عامًا، فذلك قول الله: ﴿إِنَّمَا النَّسِيٓءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾.

[إلىٰ قوله: ﴿الْكَافِرِينَ﴾. وقوله: ﴿إِنَّمَا النَّسِيٓءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾][٧] يقول: يتركون المُحَرَّم عامًا، وعامًا يحرمونه[٨].

وروىٰ العوفي عن ابن عبَّاس نحوه[٩].

وقال ليث بن أبي سليم، عن مجاهد، كان رجلٌ من بني كنانة يأتي كلَّ عامٍ إلىٰ الموسم علىٰ حمارٍ

---

(١) وقع في (ز) بعد هذه الكلمة بياض نحو أربعة أسطر.
(٢) سمي (جَذْل الطِّعان) لثباته في الحرب؛ كأنه جذل شجرة واقف، وقيل: لأنه كان يستشفىٰ برأيه ويستراح إليه، كما تستريح البهيمة الجرباء إلىٰ الجذل تَحتَكُّ به.
(٣) لوحة (٢٣٦ أ).
(٤) يقول: أي الناس لم نقدعهم ونكفهم كما يقدع الفرس باللجام؟.
(٥) في (ز): يوالي.
(٦) أي: لا ينسب إلىٰ الحوب، وهو الإثم.
(٧) سقط من (ز).
(٨) الطبري (١٠/ ١٣٠)، وابن أبي حاتم (١٠٠١٥)، وإسناده منقطع.
(٩) الطبري (١٠/ ١٣٠)، وإسناده مسلسل بالضعفاء.

له، فيقول: يا أيُّها الناس، إني لا أُعاب ولا أُجاب، ولا مَرَدَّ لما أقول، إنا قد حَرَّمنا المحرم، وأَخَّرْنا صفر، ثم يجيء العام المُقْبِل بعده فيقولُ مثل مقالته، ويقول: إنَّا قد حَرَّمْنا صفر، وأخرنا المحرم. فهو قوله: ﴿لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِـدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ قال: يعني الأربعة ﴿فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ لتأخير هذا الشهر الحرام.

وروي عن أبي وائل، والضَّحَّاك، وقتادة نحو هذا.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ...﴾ الآية، قال: هذا رجلٌ مِن بني كنانة يقال له: «القَلَمَّس»، وكان في الجاهلية، وكانوا في الجاهلية لا يُغِيرُ بعضهم علىٰ بعضٍ في الشهر الحرام، يَلْقَىٰ الرجل قاتل أبيه ولا يَمُدُّ إليه يده، فلمَّا كان هو، قال: اخرجوا بنا. قالوا له: هذا المُحَرَّم! قال: نُنْسِئُه العام، هما العام صفران، فإذا كان العام القابل قضينا جعلناهما مُحرَّمين. قال: ففعل ذلك، فلمَّا كان عام قابل قال: لا تغزُوا في صَفَر، حَرِّموه مع المحرم، هما مُحَرَّمان.

فهذه صفةٌ غريبةٌ في النَّسيء، وفيها نظر؛ لأنَّهم في عام إنَّما يُحَرِّمون علىٰ هذا ثلاثة أشهر فَقَط، وفي العام الذي يليه يُحَرِّمون خمسة أشهر، فأَيْن هذا مِن قوله تعالىٰ: ﴿يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِـدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ .

وقد روي عن مجاهد صفة أخرىٰ غريبة أيضًا، فقال عبد الرزاق، أخبرنا مَعْمَر، عن ابن أبي نَجِيح، عن مجاهد في قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ الآية، قال: فرض الله عز وجل الحَجَّ في ذي الحِجَّة. قال: وكان المشركون يُسَمُّون [الأشهر][(١)] ذا الحِجَّة، والمحرم، وصفر، وربيع، وربيع، وجمادىٰ، وجمادىٰ، ورجب، وشعبان[(٢)]، ورمضان، وشوالًا وذا القعدة. وذا الحجة يحجون فيه مرَّةً أخرىٰ ثم يسكتون عن المُحَرَّم ولا يذكرونه، ثم يعودون فيُسَمُّون صفر [صفر][(٣)]، ثم يُسَمُّون رجب جمادىٰ الآخرة، ثم يُسَمُّون شعبان رمضان، ثم يسمون شوالًا رمضان، ثم يُسَمُّون ذا القَعدة شوالًا ثم يسمون ذا الحِجَّة ذا القَعدة، ثم يُسَمُّون المحرم ذا الحِجَّة، فيحجون فيه، واسمه عندهم ذو الحجة، ثم عادوا بمثل هذه القِصَّة فكانوا يَحُجُّون في كل شهرٍ عامين، حتىٰ وافق حجة أبي بكر الآخر من العامين في القَعدة ثم حجَّ النَّبيُّ ﷺ حجته التي حَجَّ، فوافق ذا الحِجَّة؛ فذلك حين يقول النَّبيُّ ﷺ في خطبته: «**إِنَّ الزَّمَانَ قَدِ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ**».

وهذا الَّذِي قاله مجاهد فيه نظرٌ أيضًا، وكيف تَصِحُّ حَجَّة أبي بكر وقد وقعت في ذي القَعْدة، وأنَّىٰ هذا؟ وقد قال الله تعالىٰ: ﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ...﴾ الآية [التوبة: ٣] ، وإنَّما نُودِيَ بذلك في حجة أبي بَكْر، فلو لم تكن في ذِي الحِجَّة لما قال تعالىٰ : ﴿يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ﴾ ولا يلزم من فعلهم النَّسيء هذا الَّذِي ذكره، من دوران السَّنَة عليهم، وحَجِّهم في كل شهرٍ عامين؛ فإنَّ النَّسيء حاصلٌ بِدُون هذا، فإنَّهم لما كانوا يحلون شهر المحرم عامًا

---

(١) سقط من (ز). (٢) لوحة (٢٣٦ ب). (٣) سقط من (ز).

يحرمون عوضه صفرًا، وبعده ربيع وربيع [إلىٰ آخر السَّنة، والسَّنة بحالها علىٰ نِظَامِهَا وعِدَّتِها وأسماء شهورها ثمَّ في العام القابل يُحَرِّمون المحرم ويتركونه علىٰ تحريمه، وبعده صفر، وربيع وربيع] (١) إلىٰ آخرها فـ ﴿يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾؛ أي: في تحريم أربعةِ أشهر من السَّنَة، إلا أنَّهم تارةً يُقدِّمون تحريم الشَّهر الثَّالث من الثَّلاثة المتوالية وهو المُحَرَّم، وتارةً ينسئونه إلىٰ صفر؛ أي: يُؤَخِّرونه. وقد قدمنا الكلام علىٰ قوله ﷺ: «إِنَّ الزَّمَانَ قَدِ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ، السَّنَةُ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ، ثَلَاثَةٌ مُتَوَالِيَةٌ: ذُو القَعْدَةِ، وَذُو الحِجَّةِ، وَالمُحَرَّمُ، وَرَجَبُ مُضَرَ» أي: أنَّ الأمر في عدَّة الشهور وتحريم ما هو محرَّم منها، علىٰ ما سبق في كتاب الله مِن العدد والتَّوالي، لا كما يَعْتَمِدُه جهلة العرب، مِن فصلهم تحريم بعضها بالنَّسيءِ عن بعض، والله أعلم.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا صالح بن بشر بن سلمة الطبراني، حدَّثنا مكي بن إبراهيم، حدَّثنا موسىٰ ابن عبيدة، عن عبد الله بن دينار، عن ابن عمر أنه قال: وقف رسول الله ﷺ بالعقبة، فاجتمع إليه من شاء الله من المسلمين، فحمد الله وأثنىٰ عليه بما هو له أهل (٢) ثم قال: «وَإِنَّمَا النَّسِيءُ مِنَ الشَّيْطَانِ، زِيَادَةٌ فِي الكُفْرِ، يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا، يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا» (٣). فكانوا يُحَرِّمُون المحرم عامًا، ويَسْتَحِلُّون صفَر ويَسْتَحِلُّون المحرم، وهو النَّسيءُ.

وقد تكلَّم الإمام محمَّد بن إسحاق علىٰ هذا في كتاب «السيرة» كلامًا جيدًا ومفيدًا حسنًا، فقال: كان أوَّل مَن نسأ الشُّهور علىٰ العرب، فأحلَّ منها ما حرَّم الله، وحرَّم منها ما أحلَّ الله ﷻ «القَلَمَّس»، وهو: حذيفة بن عبد فُقَيم بن عدي بن عامر بن ثعلبة بن الحارث بن مالك بن كنانة بن خُزَيمة بن مدْركة بن إلياس بن مُضَر بن نزار بن مَعدِّ بن عدنان، ثم قام بعده علىٰ ذلك ابنه عَبَّاد ثم مِن بعد عبَّاد ابنه قَلَع بن عبَّاد، ثم ابنه أُمَيَّة بن قلع، ثم ابْنُه عوف بن أُميَّة، ثم ابنه أبو ثمامة جنادة بن عوف، وكان آخرهم، وعليه قام الإِسْلَام. فكانت العرب إذا فَرَغَت مِن حَجِّها اجتمعت إليه، فقام فيهم خطيبًا، فحرم رجبًا، وذا القَعْدَة، وذا الحِجَّة، ويحل المحرم عامًا، ويجعل مكانه صَفر، ويُحَرِّمه عامًا لِيُوَاطِئَ عدَّة ما حرَّم الله، فيُحِل ما حرم الله؛ يعني: ويُحَرِّم ما أحل الله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾

هذا شروعٌ في عِتَاب مَن تخلَّف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، حين طابت الثِّمار والظِّلال في

---

(١) ليست في (ز). (٢) لوحة (٢٣٧ أ).

(٣) ضعيف: رواه ابن أبي حاتم (٦/ ١٠٠١٩)، وفيه موسىٰ بن عبدة ضعيف كما تقدم.

شدَّة الحرِّ وحَمَارَّة القيظ، فقال تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: إذا دعيتم إلىٰ الجِهاد في سَبيل الله ﴿ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: تكاسلتم ومِلْتم إلىٰ المُقام في الدَّعَة والخَفْض وطيِّب الثمار، ﴿أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [أي: ما لكم فعَلْتم هكذا، أرِضًا منكم بالدُّنيا بدلًا من الآخرة؟][١].

ثم زهَّد تبارك وتعالىٰ في الدنيا، ورَغَّب في الآخرة، فقال: ﴿فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾.

كما قال الإمام أحمد: حدَّثنا وَكِيع ويحيىٰ بن سعيد قالا: حدَّثنا إسماعيل بن أبي خالد، عن قيس، عن المستَوْرِد أخي بني فِهْر قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَا الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلَّا كَمَا يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ إِصْبَعَهُ هَذِهِ فِي الْيَمِّ، فَلْيَنْظُرْ بِمَا تَرْجِعُ؟**» وأشار بالسَّبَّابة. انفرد بإخراجه مسلم[٢].

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا بشر بن مسلم بن عبد الحميد الحِمْصي بحمص، حدَّثنا الربيع بن رَوْح، حدَّثنا محمَّد بن خالد الوهبي، حدَّثنا زياد[٣] -يعني الجصاص- عن أبي عثمان قال: قلت: يا أبا هريرة، سَمِعْت [مِن][٤] إخواني بالبَصْرة أنَّك تقول: سمعت نبي الله ﷺ يقول: «**إِنَّ اللهَ يَجْزِي بِالْحَسَنَةِ أَلْفَ أَلْفِ حَسَنَةٍ**» قال أبو هريرة: بل سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إِنَّ اللهَ يَجْزِي بِالْحَسَنَةِ أَلْفَيْ أَلْفِ حَسَنَةٍ**» ثم تلا هذه الآية: ﴿فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾[٥]. [فالدُّنيا ما مضىٰ منها وما بقي منها عند الله قليل.

وقال سفيان الثوري، عن الأعمش في الآية: ﴿فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾][٦] قال: كزَادِ الرَّاكب.

وقال عبد العزيز بن أبي حازم عن أبيه: لما حضرت عبد العزيز بن مروان الوفاةُ قال: ائْتُونِي بكَفَنِي الذي أُكَفَّن فيه أنظر إليه، فلما ووضع بين يديه نَظَر إليه فقال: أمَا لي من كَبِير ما أخلف مِن الدُّنيا إلا هذا؟ ثم وَلَّىٰ ظهره فبَكَىٰ وهو يقول: أُفٍّ لكِ مِن دار. إن كان كثيرُك لقَلِيل، وإن كان قليلك لَقَصِير، وإن كنَّا منك لفي غرور.

ثم توعَّد تعالىٰ علىٰ ترك الجهاد فقال: ﴿إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ قال ابن عبَّاس: استنفَرَ رسول الله ﷺ حيًّا من العرب، فتثَاقَلُوا عنه، فأمسك الله عنهم القَطْر[٧] فكان عذابهم[٨].

---

(١) سقط من (ز).

(٢) مسلم (٢٨٥٨)، والترمذي (٢٣٢٣)، وابن ماجة (٤١٠٨)، وأحمد (٤/ ٢٣٠، ٢٢٨).

(٣) لوحة (٢٣٧ ب).

(٤) سقط من (ز).

(٥) **ضعيف**: رواه ابن أبي حاتم (٦/ ١٠٠٣٠)، وفيه زياد الجصاص: ضعيف، ورواه أحمد (٢/ ٥٢١، ٥٢٢)، وفيه علي ابن زيد بن جدعان: ضعيف، وقد تقدم الكلام عليه وبيان علله. انظر: الآية (٢٤٥) من سورة البقرة.

(٦) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

(٧) أي: المطر.

(٨) **ضعيف**: رواه ابن أبي حاتم (١٠٠٣٣)، والطبري (١٠/ ١٣٤) وفي إسناده: نجدة بن نفيع: مجهول.

﴿وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ أي: لنصرة نَبِيِّه وإقامة [دينه][(١)]، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم﴾ [محمَّد: ٣٨].

﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا﴾ أي: ولا تضروا الله شيئًا بتَوَلِّيكُم عن الجهاد، ونُكُولِكُم وتثاقُلِكم عنه، ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: قادر علىٰ الانتصار مِن الأعداء بدونكم.

وقد قيل: إن هذه الآية، وقوله: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ وقوله: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ١٢٠] إنهن منسوخات بقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾ [التوبة: ١٢٢] رُوي هذا عن ابن عبَّاس[(٢)]، وعِكْرِمة، والحسن، وزيد بن أسلم. ورده ابن جرير وقال: إنما هذا فيمن دعاهم رسول الله ﷺ إلىٰ الجهاد، فتعَيَّن عليهم ذلك، فلو تركوه لعُوقِبُوا عليه.

وهذا له اتِّجاه، والله [سبحانه و][(٣)] تعالىٰ أعلم [بالصواب][(٤)].

﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ[(٥)(٦)] إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٠)﴾

يقول تعالىٰ: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ﴾ أي: تنصروا رسوله، فإنَّ الله ناصره ومُؤَيِّدُه وكافيه وحَافِظُه، كما تولىٰ نصره ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾ أي: عام الهجرة، لما هَمَّ المشركون بقتله أو حبسه أو نفيه، فخرج منهم هاربًا صحبةَ[(٧)] صَدِيقه وصِدِّيقه وصاحِبه أَبِي بكر بن أبي قحافة، فلجَأَ إلىٰ غار ثور ثلاثة أيَّام ليرجع الطُّلَّبُ[(٨)] الَّذين خرجوا في آثارهم، ثم يسيرا نحو المدينة، فجعل أبو بكر رضي الله عنه يجزع أن يَطَّلع عليهم أحد، فيخلص إلىٰ الرسول عليه السلام منهم أذىٰ، فجعل النَّبيُّ ﷺ

---

(١) سقط من (ز).

(٢) الطبري (١٠/ ١٣٤)، وابن أبي حاتم (١٠٠٣٥) وابن الجوزي في «نواسخ القرآن» (صـ٣٦٥)، وقال ابن الجوزي: وهذا ليس بصحيح -يعني النسخ- لأنه لا تنافي بين الآيتين، وإنما حكم كل آية قائمٌ في موضعها.

(٣) ليست في (ز). (٤) ليست في (ز).

(٥) قال الشيخ أبو بكر الجزائري حفظه الله: إذ أحبط تعالىٰ أعمال قريشٍ في طلبها الرسول ﷺ لتقتله حيث جعلت مائة ناقة لمن يأتيها برأسه وأنجىٰ الله رسوله منهم وانتهىٰ إلىٰ المدينة ونصره عليهم.

(٦) قال العلامة السعدي رحمه الله: نصر الله رسوله بدفعه عنه، وهذا هو النصر المذكور في هذا الموضع، فإن النصر علىٰ قسمين: نصر المسلمين إذا طمعوا في عدوهم بأن يتم الله لهم ما طلبوا، وقصدوا، ويستولوا علىٰ عدوهم ويظهروا عليهم.
والثاني: نصر المستضعف الذي طمع فيه عدوه القادر، فنصر الله إياه، أن يرد عنه عدوه، ويدافع عنه، ولعل هذا النصر أنفع النصرين، ونصر الله رسوله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين من هذا النوع... وفي هذه الآية الكريمة فضيلة أبي بكر الصديق بخَصِيصَة لم تكن لغيره من هذه الأمة، وهي الفوز بهذه المنقبة الجليلة، والصحبة الجميلة، وقد أجمع المسلمون علىٰ أنه هو المراد بهذه الآية الكريمة؛ ولهذا عدوا من أنكر صحبة أبي بكر للنبي ﷺ كافرًا؛ لأنه منكر للقرآن الذي صرح بها.

(٧) لوحة (٢٣٨ أ). (٨) جمع طالب. انظر: القاموس المحيط باب الباء فصل الطاء.

يُسَكِّنه ويثبِّته ويقول: «يَا أَبَا بَكْرٍ، مَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللهُ ثَالِثُهُمَا».

كما قال الإمام أحمد: حدَّثنا عفان، حدَّثنا همام، أنبأنا ثابت، عن أنس أن أبا بكر حدثه قال: قلت للنَّبيِّ ﷺ، ونحن في الغار: لو أنَّ أحدهم نظر إلىٰ قدميه لأبصرنا تحت قدميه. قال: فقال: «يَا أَبَا بَكْرٍ، مَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللهُ ثَالِثُهُمَا».

أخرجاه في «الصحيحين»[(١)].

ولهذا قال تعالىٰ: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ﴾ أي: تأييده ونصره عليه؛ أي: علىٰ الرَّسول في أشهر القولين: وقيل: علىٰ أبي بكر، وروي عن ابن عبَّاس وغيره، قالوا: لأن الرسول لم تزل معه سكينة، وهذا لا يُنَافِي تجدد سَكِينة خاصَّة بتلك الحال؛ ولهذا قال: ﴿وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا﴾ أي: الملائكة.

﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَا﴾ قال ابن عبَّاس: يعني ﴿كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ الشرك و ﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ﴾ هي: لا إله إلا الله.

وفي «الصحيحين» عن أبي موسىٰ الأشعري رضي الله عنه قال: سُئِل رسول الله ﷺ عن الرجل يُقاتل شجاعةً، ويقاتل حَمِيَّةً، ويقاتل رياءً، أيُّ ذلك في سبيل الله؟ فقال: «مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ العُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ»[(٢)].

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾ أي: في انتقامه وانتصاره، مَنِيع الجناب، لا يُضامُ مَن لاذ ببابه، واحْتَمَىٰ بالتَّمَسُّك بخطابه، ﴿حَكِيمٌ﴾ في أقوالِهِ وأفعالِهِ.

﴿ٱنفِرُواْ خِفَافٗا وَثِقَالٗا وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٤١﴾

قال سفيان الثَّوري، عن أبيه، عن أبي الضحىٰ مسلم بن صَبيح: هذه الآية: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافٗا وَثِقَالٗا﴾ أوّل ما نزل من سورة براءة.

وقال معتمر بن سليمان، عن أبيه قال: زعم حَضرمي أنَّه ذكر له أنَّ ناسًا كانوا عسىٰ أن يكون أَحَدُهُم عليلًا أو كبيرًا، فيقول: إني لا آثم، فأنزل الله: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافٗا وَثِقَالٗا ...﴾ الآية.

أمر الله تعالىٰ بالنَّفير العامّ مع الرسول، صلوات الله وسلامه عليه، عام غزوة تبوك؛ لقتالِ أعداء الله مِن الرُّوم الكفرة مِن أهل الكتاب، وحتَّم علىٰ المؤمنين في الخروج معه علىٰ كلِّ حالٍ في المَنْشط والمَكْرَه والعُسْر واليُسْر، فقال: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافٗا وَثِقَالٗا﴾.

---

(١) البخاري (٣٦٥٣)، ومسلم (٢٣٨١)، وأحمد (١/ ٤).

(٢) البخاري (١٢٣) (٢٨١٠) (٧٤٥٨)، ومسلم (١٩٠٤)، وأبو داود (٢٥١٧)، والترمذي (١٦٤٦)، والنسائي (٦/ ٢٣)، وابن ماجة (٢٧٨٣).

وقال علي بن[1] زيد، عن أنس، عن أبي طلحة[2]: كهولًا وشَبابًا ما أسمع الله عَذَر أحدًا، ثم خَرَجَ إلىٰ الشَّام فقاتل حتىٰ قُتل.

وفي رواية: قرأ أبو طلحة سورة براءة، فأتىٰ علىٰ هذه الآية: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فقال: أرىٰ ربَّنا يستنفرنا شيوخًا وشَبابًا جهزوني يا بَنِيَّ. فقال بنوه: يرحمك الله، قد غزوت مع رسول الله حتىٰ مات، ومع أبي بكر حتَّىٰ مات، ومع عمر حتىٰ مات، فنحن نغزُو عنك. فأبىٰ، فركب البحر فمات، فلم يجدوا له جَزِيرةً يدفنونه فيها إلا بعد تسعة أيَّام، فلم يتَغَيَّر، فدفنوه بها[3].

وهكذا روي عن ابن عبَّاس، وعِكْرِمة وأبي صالح، والحسن البصري، وشَمْر بن عطية، ومقاتل بن حَيَّان، والشعبي وزيد بن أسلم: أنَّهم قالوا في تفسير هذه الآية: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ قالوا: كهولًا وشبابًا. وكذا قال عِكْرِمة والضَّحَّاك، ومقاتل بن حيان، وغير واحدٍ.

وقال مجاهد: شبابًا وشيوخًا، وأغنياء ومساكين. وكذا قال أبو صالح، وغيره.

وقال الحكم بن عُتيبة[4]: مشاغيل وغير مشاغيل.

وقال العوفي، عن ابن عبَّاس في قوله تعالىٰ: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ يقول: انفروا نشاطًا وغير نشاطٍ. وكذا قال قتادة.

وقال ابن أبي نَجِيح، عن مُجاهد: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ قالوا: فإنَّ فينا الثَّقيل، وذا الحاجة، والضَّيعة والشغل، والمتيسر به أمر، فأنزل الله وأبىٰ أن [يعذرهم دون أن ينفروا خفافًا وثقالًا][5] وعلىٰ ما كان منهم.

وقال الحسن بن أبي الحسن البصري أيضًا: في العُسْر واليُسْر. وهذا كله من مقتضياتِ العموم في الآية، وهذا اختيار ابن جرير.

وقال الإمام أبو عمرو الأوزاعي: إذا كان النَّفير إلىٰ دُروب الرُّوم نفرَ النَّاس إليها خفافًا وركبانًا، وإذا كان النَّفير إلىٰ هذه السواحل نَفَرُوا إليها خفافًا وثقالًا وركبانًا ومشاةً. وهذا تفصيل في المسألة.

وقد رُوِيَ عن ابن عبَّاس، ومحمَّد بن كعب، وعطاء الخراساني وغيرهم أنَّ هذه الآية منسوخةٌ بقوله تعالىٰ: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ﴾ وسيأتي الكلام علىٰ ذلك إن شاء الله[6].

---

(١) لوحة (٢٣٨ ب).

(٢) في (ز): (عن علي بن أبي طلحة)، وهو خطأ.

(٣) الإسناد الأول رواه الطبري (١٠/ ٣٨)، وفي إسناده ضعف لأجل علي بن زيد بن جدعان وهو ضعيف، وأما الإسناد الثاني فصحيح رواه أبو يعلىٰ (٣٤١٣) ومن طريقه ابن حبان (٧١٨٤)، ورواه الطبراني (٤٦٨٣) والحاكم (٣/ ٣٥٣) وقال الحاكم: صحيح علىٰ شرط مسلم ولم يخرجاه. وسكت عليه الذهبي.

(٤) في (ز): (الحكم بن عيينة)، وهو خطأ.

(٥) في (ز): (يعذبهم).

(٦) رواه النحاس في «الناسخ والمنسوخ» (ص٣٦٦)، وفيه حجاج بن أرطأة: ضعيف، وابن جريج: مدلس وقد عنعن، وعطاء الخراساني عن ابن عبَّاس منقطع.

وقال السُّدِّي قوله: ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ يقول: غنيًّا وفقيرًا، وقويًّا وضعيفًا، فجاءه رجلٌ يومئذٍ، [زعموا][١] أنَّه المقداد، وكان عظيمًا سمينًا، فشكا إليه وسأله أن يأذن له، فأبىٰ؛ فنزلت يومئذٍ ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ فلما نزلت[٢] هذه الآية اشْتَدَّ علىٰ النَّاس شأنها فنسخها الله، فقال: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [التوبة: ٩١][٣].

وقال ابن جرير: حدَّثني يعقوب، حدَّثنا ابن عُلَيَّة، حدَّثنا أيوب، عن محمَّد قال: شهد أبو أيوب مع رسول الله ﷺ بدرًا ثم لم يتخلف عن غَزاةٍ للمُسلمين إلا وهو في آخرين إلا عامًا واحدًا قال: وكان أبو أيوب يقول: قال الله: ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ فلا أجدني إلا خفيفًا أو ثقيلًا[٤].

وقال ابن جرير: حدَّثني سعيد بن عمر السَّكُوني[٥]، حدَّثنا بَقِيَّة، حدَّثنا حَرِيز، حدَّثني عبد الرحمن ابن ميسرة، حدَّثني أبو راشد الحُبْراني قال: وافيت المقداد بن الأسود فارس رسول الله ﷺ جالسًا علىٰ تابوت من توابيت الصَّيارفة بحمص، وقد فضل عنها مِن عِظَمِه، يريد الغزو، فقلت له: لقد أعذر الله إليك فقال: أتت علينا سورة «البحوث»[٦][٧] ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾[٨].

وبه قال حريز: حدَّثني حبان بن زيد الشَّرْعَبي قال: نَفَرْنا مع صفوان بن عمرو، وكان واليًا علىٰ حمص قِبَل الأفسُوس[٩][١٠] إلىٰ الجَراجِمَة، فلقيت شيخًا كبيرًا هِمًّا[١١]، وقد سقط حاجِباه علىٰ عَيْنَيْه، مِن أهل دمشق، علىٰ راحلته، فيمن أغار فأقبلت إليه فقلت: يا عم، لَقَد أعذر الله إليك. قال: فرفع حاجبيه فقال: يا ابن أخي، استنفرنا الله خفافًا وثقالًا، إنَّه مَن يحبه الله يَبْتَلِيه، ثم يُعِيدُه الله فيُبْقِيه، وإنَّما يبتلي الله من عباده مَن شكر وصبر وذَكَر، ولم يعبد إلا الله ﷻ[١٢].

ثم رغَّب تعالىٰ في النَّفَقة في سبيله، وبذل المُهَج في مَرْضَاته ومرضاة رسوله، فقال: ﴿وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: هذا خير لكم في الدُّنيا والآخرة، ولأنَّكم تغرمون في النفقة قليلًا فيغنيكم الله أموال عدوكم في الدنيا، مع ما يَدَّخر لكم من

---

(١) سقط من (ز). (٢) لوحة (٢٣٩ أ).

(٣) **مرسل**: عزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٢٠٨) إلىٰ ابن أبي حاتم (١٠٠٦٢)، وأبي الشيخ.

(٤) رواه الطبري (١٠/ ١٣٩)، وإسناده صحيح.

(٥) في (ز): السكوكي.

(٦) هي سورة التوبة، سميت بذلك لما تضمنت من البحث عن أسرار المنافقين وإثارتها والتفتيش عنها.

(٧) في (ز): «البعوث»، والمثبت هو الصواب.

(٨) **حسن**: رواه الطبري (١٠/ ١٤٠)، والحاكم (٢/ ٢٣٣) وصححه ووافقه الذهبي، وابن أبي حاتم (١٠٠٥٦)، والطبراني في «الكبير» (٢٠/ ٣٣٦/ ٥٥٦)، وإسناده حسن، ولا يخشىٰ من تدليس بقية؛ فإنه رواه بالتحديث في جميع طبقات السند.

(٩) **الأفسوس**: بلد بثغر طَرَسوس، وطرسوس: مدينة بثغور الشام بين أنطاكية وحلب وبلاد الروم، والجراجمة: نبط الشام، وقيل: هم قوم من العجم بالجزيرة.

(١٠) في (ز): الأفسون. (١١) الهِمُّ: الشيخ الكبيرُ البالي، وجمعه أَهْمامٌ. «اللسان»: همم.

(١٢) رواه الطبري (١٠/ ١٣٨)، وإسناده حسن.

الكرامة في الآخرة، كما قال النَّبيُّ ﷺ: «وَتَكَفَّلَ اللهُ لِلْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِهِ إِنْ تَوَفَّاهُ أَنْ يُدْخِلَهُ الجَنَّةَ، أَوْ يَرُدَّهُ إِلَىٰ مَنْزِلِهِ نَائِلًا مَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ»[١].

ولهذا قال تعالىٰ: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

ومِن هذا القبيل ما رواه الإمام أحمد:

حدَّثنا محمَّد بن أبي عَدِيٍّ، عن حميد، عن أنس؛ أنَّ رسول الله[٢] ﷺ قال لرجل: «أَسْلِمْ». قال: أجدني كارهًا. قال: «أَسْلِمْ وَإِنْ كُنْتَ كَارِهًا»[٣].

﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾﴾

يقول تعالىٰ موبِّخًا للذين تخلَّفوا عن النَّبيِّ ﷺ في غزوة تبوك، وقعدوا عن النَّبيِّ ﷺ بعد ما اسْتَأْذَنُوه في ذلك، مُظْهِرِين أنَّهم ذَوُو أعذارٍ، ولم يكونوا كذلك، فقال: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا﴾ قال ابن عبَّاس: غنيمةً قريبةً، ﴿وَسَفَرًا قَاصِدًا﴾ أي: قريبًا أيضًا، ﴿لَّاتَّبَعُوكَ﴾ أي: لكانوا جاءوا معك لذلك، ﴿وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ﴾ أي: المسافة إلىٰ الشَّام، ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ﴾ أي: لكم إذا رجعتم إليهم ﴿لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ أي: لو لم تكُن لنا أعذارٌ لخرجنا [معكم،][٤] قال الله تعالىٰ: ﴿يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.

﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾﴾

قال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا أبو حصين بن يحيي بن سليمان الرازي حدَّثنا سفيان بن عيينة، عن مِسْعَر عن عون قال: هل سمعتم بمعاتَبَةٍ أحسن مِن هذا؟ بدأ بالعفو قبل المُعَاتَبَةِ فقال: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾، وكذا قال مُوَرِّق العِجْلي وغيره.

وقال قتادة: عاتبه كما تسمعون، ثم أنزل الَّتي في سورة النُّور، فرخَّص له في أن يأذن لهم إن شاءَ: ﴿فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ [النور: ٦٢]، وكذا رُوي عن عطاء الخراساني.

---

(١) البخاري (٧٤٦٣)، ومسلم (١٨٧٦)، والنسائي (٨/ ١١٩)، وأحمد (٢/ ٣٩٩، ٤٢٤).

(٢) لوحة (٢٣٩ ب).

(٣) صحيح: رواه أحمد (٣/ ١٠٩) (٣/ ١٨١)، ورجاله ثقات.

(٤) سقط من (ز).

وقال مجاهد: نَزَلَت هذه الآية في أُناسٍ قالوا: استأذِنُوا رسول الله فإن أذن لكم فاقْعُدُوا، وإن لم يأْذَن لكم فَاقْعُدُوا[١].

ولهذا قال تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ﴾ أي: في إبداء الأَعْذَارِ، ﴿وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ يقول تعالىٰ: هلا تَرَكْتَهُم لما اسْتَأْذَنُوكَ، فلم تأذن لأحدٍ منهم في القعود، لتَعْلَم الصادق مِنهم في إظهار طَاعَتِك من الكاذب، فإنَّهم قد كانوا مُصِرِّين علىٰ القعود عن الغزو [وإن لم تأذن لهم فيه. ولهذا أخبر تعالىٰ أنَّه لا يستأذنه في القعود عن الغزو][٢] أحد يُؤْمِن بالله ورسوله، فقال: ﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ﴾ أي: في القعود عن الغزو ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾؛ لأن أولئك يرون الجِهَاد قربةً، ولما ندبهم إليه[٣] بادروا وامتثلوا. ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ﴾ أي: في القُعُودِ ممَّن لا عذر له ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ﴾ أي: لا يَرْجُون ثواب اللهِ في الدَّار الآخرةِ علىٰ أعمالهم، ﴿وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: شَكَّتْ في صِحَّة ما جِئْتَهُم به، ﴿فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ أي: يتحيَّرون، يُقَدِّمُون رِجْلًا ويُؤَخِّرون أخرىٰ، وليست لهم قدمٌ ثابتةٌ في شيءٍ، فهُم قومٌ حيارىٰ هَلْكَىٰ، لا إلىٰ هؤلاء ولا إلىٰ هؤلاء، ومَن يُضْلِلِ الله فلن تجد له سبيلًا.

﴿وَلَوْ أَرَادُواْ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾

يقول تعالىٰ: ﴿وَلَوْ أَرَادُواْ ٱلْخُرُوجَ﴾ أي: معك إلىٰ الغَزْوِ ﴿لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةً﴾ أي: لكانوا تأهَّبُوا له، ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ﴾ أي: أبغض أن يخرجوا معك قَدرًا، ﴿فَثَبَّطَهُمْ﴾ أي: أخرهم، ﴿وَقِيلَ ٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ أي: قدرًا.

ثم بيَّن الله تعالىٰ وجه كراهيته لخُرُوجِهم مع المؤمنين فقال: ﴿لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ أي: لأنَّهم جبناء مخذُولُون، ﴿وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ﴾ أي: ولأسرعوا السَّير والمَشْيَ بينكم بالنَّمِيمَة والبغضاء والفِتْنَة، ﴿وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾ أي: مُطِيعُون لهم ومُسْتَحْسِنُون لحديثهم وكلامهم، يَسْتَنْصِحُونَهم وإن كانوا لا يَعْلَمُون حالهم، فيُؤَدِّي هذا إلىٰ وقوع شَرٍّ بين المؤمنين وفَسَادٍ كَبِيرٍ.

وقال مجاهد، وزيد بن أسلم، وابن جرير: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾ أي: عيون يسمعون لهم الأخبار ويَنْقِلُونها إليهم.

وهذا لا يبقىٰ له اختصاص بخروجهم معهم، بل هذا عامٌّ في جميع الأحوال، والمعنىٰ الأَوَّل أظهر

---

(١) رواه الطبري (١٠/ ١٤٢)، وإسناده مرسل.
(٢) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).
(٣) لوحة (٢٤٠ أ).

في المناسبة بالسِّياق، وإليه ذهب قتادة وغيره من المفسِّرين.

وقال محمَّد بن إسحاق: كان فيما بلغني -من استأذن- من ذوي الشرف منهم: عبد الله بن أبي ابن سلول، والجَدُّ بن قيس، وكانوا أشرافًا في قومهم، فثبَّطَهم الله؛ لعِلْمِهِ بهم: أن يَخْرُجوا معه فيُفْسِدُوا عليه جنده، وكان في جُنْدِهِ قوم أهل محبَّةٍ لهم وطاعة فيما يدْعونهم إليه؛ لِشَرَفِهِمْ فيهم؛ فقال: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾.

ثم أخبر تعالىٰ عن تمام علمه فقال: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فأخبر بأنه يعلم ما كان، وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون(١)؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ فأخبر عن حالهم كيف يكون لو خَرَجُوا، ومع هذا ما خرجوا، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٣]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّأَتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [النساء: ٦٦-٦٨]، والآيات في هذا كثيرة.

﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُاْ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾﴾

يقول تعالىٰ مُحَرِّضًا لنبيِّه عَلَيْهِ السَّلَامُ علىٰ المنافقين: ﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُاْ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلْأُمُورَ﴾ أي: لقد أَعْمَلُوا فِكْرَهم وأجالُوا آراءهم في كَيْدِك وكيد أصحابك، وخذلان دينك وإخمالِهِ مدَّةً طويلةً؛ وذلك أول مقدم النَّبيِّ ﷺ المدينة رمته العرب عن قوسٍ واحدةٍ، وحاربته يهود المدينة ومنافقوها، فلمَّا نصره الله يوم بدرٍ وأعلىٰ كلمتَهُ، قال عبد الله بن أبي وأصحابه: هذا أمر قد تَوَجَّه(٢). فدخلوا في الإسلام ظاهرًا، ثم كلما أعزَّ الله الإسلام وأهله غاظهم ذلك وساءهم؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ ۚ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُواْ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾﴾

يقول تعالىٰ: ومِن المنافقين مَن يقول لك يا محمَّد: ﴿ٱئْذَن لِّي﴾ في القعود ﴿وَلَا تَفْتِنِّيٓ﴾ بالخروج مَعَك، بسبب الجواري من نساءِ الروم، قال الله تعالىٰ: ﴿أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُواْ﴾ أي: قد سقطوا في الفتنة بقولهم هذا. كما قال محمَّد بن إسحاق، عن الزهري، ويزيد بن رُومان، وعبد الله بن

(١) لوحة (٢٤٠ ب).

(٢) أي: انقضىٰ وانتهىٰ.

أبي بكر، وعاصم بن عمر بن قتادة وغيرهم قالوا: قال رسول الله ﷺ ذات يوم، وهو في جهازه، للجد بن قيس أخي بني سلمة: «هَلْ لَكَ يَا جَدُّ العَامَ فِي جِلَادِ بَنِي الأَصْفَرِ؟» فقال: يا رسول الله، أو تأذن لي ولا تَفْتِنِّي، فوالله لقد عرف قومي ما رجل أشدُّ عجبًا بالنساء مني، وإني أخشىٰ إن رأيت نساء بني الأصفر ألَّا أصبر عنهُنَّ. فأعرض عنه رسول الله ﷺ وقال: «قَدْ أَذِنْتُ لَكَ» (١). ففي الجَدِّ بن قيس نزلت هذه: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي...﴾ الآية، أي: إن كان إنَّما يخشىٰ من نساء بني الأصفر وليس ذلك به، فما سقط فيه (٢) مِن الفتنة بتخلفه عن (٣) رسول الله ﷺ والرَّغبة بنفسه عن نفسه أعظم.

وهكذا روي عن ابن عبَّاس، ومجاهد، وغير واحد: أنها نزلت في الجَدِّ بن قيس. وقد كان الجَدُّ بن قيس هذا من أشراف بني سلمة، وفي الصحيح (٤): أنَّ رسول الله ﷺ قال لهم: «مَنْ سَيِّدُكُمْ [يَا بَنِي سَلَمَةَ؟] (٥)» قالوا: الجَدُّ بن قيس، علىٰ أنَّا نُبَخِّله، فقال رسول الله ﷺ: «وَأَيُّ دَاءٍ أَدْوَأُ مِنَ البُخْلِ، وَلَكِنَّ سَيِّدَكُمُ الفَتَىٰ الأَبْيَضُ الجَعْدُ بِشْرُ بْنُ البَرَاءِ بْنُ مَعْرُورٍ» (٦).

وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: لا مَحيد لهم عنها، ولا مَحيص، ولا مَهرَب.

﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾

يُعْلِم تبارك وتعالىٰ نَبيَّه بعداوة هؤلاء له؛ لأنَّه مهما أصابه من ﴿حَسَنَةٌ﴾ أي: فتح ونصر وظفر علىٰ الأعداء، مما يَسُرُّه ويَسُر أصحابه، ساءهم ذلك، ﴿وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ﴾ أي: قد احترزنا من متابعته من قبل هذا، ﴿وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ﴾ فأرشد الله تعالىٰ رسوله، صلوات الله وسلامه عليه، إلىٰ جوابهم في عداوتهم هذه التَّامة، فقال: ﴿قُل﴾ أي: لهم ﴿لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ أي: نحن تحت مشيئةِ الله، وقدره، ﴿هُوَ مَوْلَىٰنَا﴾ أي: سَيِّدنا وملجؤنا ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: ونحن متوكلون عليه، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

---

(١) رواه الطبري (١٠/ ١٤٧)، وإسناده مرسل.
(٢) في (ز): (فأسقط فيه).
(٣) لوحة (٢٤١ أ).
(٤) قال في «التحبير للأوهام الواردة في تفسير ابن كثير» (ص:٥٦): (هذا الحديث ليس في الصحيح). اهـ.
(٥) سقط من (ز).
(٦) صحيح: رواه البخاري تعليقًا (٥/ ٧٨) ووصله في «الأدب المفرد»، ورواه الطبراني (١٩/ ٨١) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٩/ ٣١٥): رواه الطبراني بإسنادين، ورجال أحدهما رجال الصحيح، غير شيخي الطبراني ولم أر من ضعفهما، ورجاله ثقات.

﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ قُلْ أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ۖ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾﴾

يقول تعالىٰ: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمَّد: ﴿هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ﴾؟ أي: تنتظرون بنا ﴿إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾ شهادةٌ أو ظَفَرٌ بكم. قاله ابن عبَّاس، ومجاهد، وقتادة، وغيرهم. ﴿وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا﴾ أي: ننتظر بكم هذا [أو هذا](١)، إمَّا أن يُصيبكم الله بقارعةٍ من عنده أو بأيْدِينا، بسبْيٍ أو بقتلٍ، ﴿فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾.

وقوله: ﴿قُلْ أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ أي: مهما أنفقتم مِن نفقةٍ طائعين أو مكرهين ﴿لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ۖ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ(٢)﴾.

ثم أخبر تعالىٰ عن سبب ذلك، وهو أنَّهم لا يتقبل منهم، ﴿إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ﴾ [أي: والأعمال إنَّما تصح بالإيمان](٣)، ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ﴾ أي: ليس لهم قَصْدٌ صحيحٌ، ولا هِمَّةٌ في العمل، ﴿وَلَا يُنفِقُونَ﴾ نفقةً ﴿إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾.

وقد أخبر الصادق المصدوق أن الله لا يَمَلُّ حتىٰ تَمَلُّوا(٤)، وأنَّه طيِّبٌ لا يقبل إلا طيِّبًا(٥)؛ فلهذا لا يتقبل الله مِن هؤلاء نفقةً ولا عملًا؛ لأنَّه إنَّما يتقبل من المُتَّقين.

﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾﴾

يقول تعالىٰ لرسوله، صلوات الله وسلامه عليه: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ﴾ كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ١٣١].

وقال: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٥، ٥٦].

وقوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ قال الحسن البصري: بزكاتها، والنفقة منها في سبيل الله.

وقال قتادة: هذا من المقدم والمؤخر، تقديره: فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم [في الحياة الدنيا](٦)، إنما يريد الله ليعذبهم بها [في الآخرة](٧).

---

(١) سقط من (ز).
(٢) لوحة (٢٤١ ب).
(٣) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).
(٤) البخاري (١١٥١)، ومسلم (٧٨٢).
(٥) مسلم (١٠١٥)، والترمذي (٢٩٨٩).
(٦) سقط من (ز).
(٧) سقط من (ز).

واختار ابن جرير قول الحسن، وهو القول القَوي الحسن.

وقوله: ﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ أي: ويريد أن يُميتَهم حين يُميتهم على الكفر؛ لِيَكُون ذلك أنكى لهم وأشد لعذابهم، عياذًا بالله من ذلك، وهذا يكون من باب الاستدراج لهم فيما هم فيه.

﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾﴾

يخبر الله تعالى نَبِيَّه، صلوات الله وسلامه عليه، عَن جَزَعِهم وفزعهم وفرقهم وهلعهم أنهم ﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ﴾ يمينًا مؤكدةً، ﴿وَمَا هُم مِّنكُمْ﴾ أي: في نفس الأمر، ﴿وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾ أي: فهو الذي حملهم على الحلف. ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا﴾ أي: حصنًا يتحصنون به، وحرزًا يحترزون به ﴿أَوْ مَغَٰرَٰتٍ﴾ وهي التي في الجبال ﴿أَوْ مُدَّخَلًا﴾ وهو السَّرَب في الأرض والنفَق. قال ذلك في الثلاثة ابنُ عبَّاس، ومجاهد، وقتادة: ﴿لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ أي: يُسْرِعون في ذهابهم [عنكم؛ لأنَّهم إنما يخالطونكم كرهًا لا محبةً، ووَدُّوا أنهم][1] لا يخالطونكم، ولكن للضرورة أحكام؛ ولهذا لا يزالون في هَمٍّ وحزنٍ وغَمٍّ؛ لأن الإسلام وأهله لا يزال في عزٍّ ونصرٍ ورفعةٍ؛ فلهذا كلما سُرَّ المؤمنون ساءهم ذلك، فهم يودون ألا يخالطوا[2] المؤمنين؛ ولهذا قال: ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾

يقول تعالى: ﴿وَمِنْهُم﴾ أي: ومن المنافقين ﴿مَّن يَلْمِزُكَ﴾ أي: يعيب عليك ﴿فِى﴾ قَسْم ﴿ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ إذا فرقتها، ويتهمك في ذلك، وهم المتهمون المَأْبُونون، وهم مع هذا لا ينكرون للدين، وإنَّما ينكرون لحظ أنفسهم؛ ولهذا إن ﴿أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ أي: يغضبون لأنفسهم.

قال ابن جُرَيْج: أخبرني داود بن أبي عاصم قال: أُتِيَ النَّبِيُّ ﷺ بصدقةٍ، فقسمها هاهنا وهاهنا حتى ذهبت. قال: ووراءه رجلٌ مِن الأنصار فقال: ما هذا بالعدل؟ فنزلت هذه الآية.

وقال قتادة في قوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ يقول: ومنهم مَن يطعن عليك في الصَّدقات. وذُكر لنا أن رجلًا من [أهل][3] البادية حديثَ عهدٍ بأعرابيَّةٍ، أتى رسول الله ﷺ وهو يقسم ذهبًا وفضة، فقال: يا محمَّد، والله لئن كان الله أمرك أن تعدل، ما عدلت، فقال نبي الله ﷺ: «وَيْلَكَ فَمَنْ ذَا يَعْدِلُ

---

(١) ما بين المعقوفتين سقط من (ز). (٢) لوحة (٢٤٢ أ). (٣) سقط من (ز).

عَلَيْكَ بَعْدِي». ثم قال نبي الله: «احْذَرُوا هَذَا وَأَشْبَاهَهُ، فَإِنَّ فِي أُمَّتِي أَشْبَاهَ هَذَا، يَقْرَءُونَ القُرْآنَ لا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ، فَإِذَا خَرَجُوا فَاقْتُلُوهُمْ، ثُمَّ إِذَا خَرَجُوا فَاقْتُلُوهُمْ ثُمَّ إِذَا خَرَجُوا فَاقْتُلُوهُمْ». وذكر لنا أن نبي الله ﷺ كان يقول: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا أُعْطِيكُمْ شَيْئًا وَلا أَمْنَعُكُمُوهُ، إِنَّمَا أَنَا خَازِنٌ»(١).

وهذا الذي ذكره قتادة شبيه بما رواه الشَّيخان من حديث الزهري، عن أبي سلمة عن أبي سعيد في قصة ذي الخُوَيصرة -واسمه حُرْقوص- لما اعترض على النَّبيِّ ﷺ حين قسم غنائم حنين، فقال له: اعدل، فإنك لم تعدل. فقال: «لَقَدْ خِبْتُ وَخَسِرْتُ إِنْ لَمْ أَكُنْ أَعْدِلُ». ثم قال رسول الله ﷺ وقد رآه مُقفِّيًا: «إِنَّهُ يَخْرُجُ مِنْ ضِئْضِئِ هَذَا قَوْمٌ يَحْقِرُ أَحَدُكُمْ صَلاتَهُ مَعَ صَلاتِهِمْ، وَصِيَامَهُ مَعَ صِيَامِهِمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ مُرُوقَ السَّهْمِ مِنَ الرَّمِيَّةِ، فَأَيْنَمَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ، فَإِنَّهُمْ شَرُّ قَتْلَىٰ تَحْتَ أَدِيمِ السَّمَاءِ...» وذكر بقيَّة الحديث(٢).

ثم قال تعالىٰ مُنبِّهًا لهم علىٰ ما هو خير مِن ذلك لهم، فقال: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ (٣) سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴾ فتضمَّنت هذه الآية الكريمة أدبًا(٤) عظيمًا وسرًّا شريفًا؛ حيث جعل الرضا بما آتاه الله ورسوله والتَّوكل علىٰ الله وحده، وهو قوله: ﴿وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾ وكذلك الرَّغبة إلىٰ الله وحده في التوفيق لطاعة الرسول وامْتِثَال أوامره، وترك زواجره، وتصديق أخباره، والاقتفاء بآثاره.

﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾

لما ذكر الله تعالىٰ اعتراض المنافقين الجهلة علىٰ النَّبيِّ ﷺ ولمزهم إياه في قَسْم الصدقات، بيَّن تعالىٰ أنه هو الذي قسمها وبيَّن حكمها، وتولَّىٰ أمرها بنفسه، ولم يَكِل قَسْمها إلىٰ أحدٍ غيرِه، فجزَّأها لهؤلاء المذكورين، كما رواه الإمام أبو داود في «سننه» من حديث عبد الرحمن بن زياد بن أَنْعُم -وفيه ضعف- عن زياد بن نعيم، عن زياد بن الحارث الصُّدَائي رضي الله عنه قال: أتيت النَّبيَّ ﷺ فبايعته، فأتىٰ رجلٌ فقال: أعطني من الصدقة فقال له: «إِنَّ اللهَ لَمْ يَرْضَ بِحُكْمِ نَبِيٍّ وَلا غَيْرِهِ فِي الصَّدَقَاتِ حَتَّىٰ حَكَمَ فِيهَا هُوَ، فَجَزَّأَهَا ثَمَانِيَةَ أَصْنَافٍ، فَإِنْ كُنْتَ مِنْ تِلْكَ الأَجْزَاءِ أَعْطَيْتُكَ»(٥).

وقد اختلف العلماء في هذه الأصناف الثمانية: هل يجب استيعاب الدَّفع إليها أو إلىٰ ما أمكن منها؟ علىٰ قولين:

أحدهما: أنَّه يجب ذلك، وهو قول الشافعي وجماعة.

---

(١) رواه الطبري (١٠/ ١٥٦)، وإسناده ضعيف لإرساله، لكن ثبت صحيحًا عند البخاري ومسلم وهي الرواية الآتية.
(٢) البخاري (٣٦١٠)، ومسلم (١٠٦٤) نحوه.
(٣) لوحة (٢٤٢ ب). (٤) في (ز): (إذنًا عظيمًا).
(٥) ضعيف: رواه أبو داود (١٦٣٠)، وفيه عبد الرحمن بن زياد بن أنعم الإفريقي: ضعيف.

والثاني: أنَّه لا يجب استيعابها، بل يجوز الدَّفع إلىٰ واحدٍ منها، ويُعْطَىٰ جميعَ الصدقة مع وجود الباقين. وهو قول مالك وجماعة من السَّلف والخلف، منهم: عمر، وحذيفة، وابن عبَّاس، وأبو العالية، وسعيد بن جُبَير، وميمون بن مِهْران.

قال ابن جرير: وهو قول عامة أهل العلم، وعلىٰ هذا فإنَّما ذُكِرَت الأصناف هاهنا لبَيَان المصرف لا لوُجُوب استيعاب الإعطاء.

ولوجوه الحِجاج والمآخذ مكان غير هذا، والله أعلم.

وإنَّما قدَّم الفقراء هاهنا؛ لأنَّهم أحوج من البقيَّة علىٰ المشهور؛ لشدَّة فاقتهم وحاجتهم، وعند أبي حنيفة أنَّ المسكين أسوأ حالًا من الفقير، وهو كما قال، قال ابن جرير: حدَّثني يعقوب، حدَّثنا ابن عُلَيَّة، أنبأنا ابن عَوْن، عن محمَّدٍ قال: قال عمر ﵁: الفقير ليس بالَّذي لا مال له، ولكنَّ الفقير: الأَخْلَق الكَسْب. قال ابن علية: الأخلق[(١)]: المحارَفُ[(٢)] عندنا[(٣)].

والجمهور علىٰ خلافه. ورُوي عن ابن عبَّاس، ومجاهد، والحسن[(٤)] البصري، وابن زيد. واختار ابن جرير وغير واحدٍ أن الفقير: هو المتعفِّف الذي لا يسأل الناس شيئًا، والمسكين: هو الَّذي يسأل ويطوف ويتبع النَّاس.

وقال قتادة: الفقير: مَن به زَمَانَةٌ، والمسكين: الصَّحِيح الجسم.

وقال الثوري، عن منصور، عن إبراهيم: هم فقراء المهاجرين. قال سفيان الثوري: يعني: ولا يُعْطَىٰ الأعرابُ منها شيئًا.

وكذا روي عن سعيد بن جُبَير، وسعيد بن عبد الرحمن بن أبْزَىٰ.

وقال عِكْرِمة: لا تقولوا لفقراء المسلمين: مساكين، وإنَّما المساكين [مساكين][(٥)] أهل الكتاب.

ولنذكر أحاديث تتعلق بكلٍّ من الأصناف الثمانية.

فأما الفُقَراء فعن ابن عمرو[(٦)] قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَا تَحِلُّ الصَّدَقَةُ لِغَنِيٍّ وَلَا لِذِي مِرَّةٍ سَوِيٍّ**[(٧)]». رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي[(٨)].

ولأحمد أيضًا، والنسائي، وابن ماجة عن أبي هريرة مثله.

وعن عبيد الله بن عَدِيِّ بن الخيار: أن رجلين أخبراه: أنهما أتيا النَّبيَّ ﷺ يسألانه من الصَّدقة، فقلب فيهما البصر، فرآهما جَلْدين، فقال: «**إنْ شِئْتُمَا أَعْطَيْتُكُمَا، وَلَا حَظَّ فِيهَا لِغَنِيٍّ، وَلَا لِقَوِيٍّ مُكْتَسِبٍ**»[(٩)].

---

(١) الأخلق: الخالي، والمحارف: المنقوص الحظ المحروم.
(٢) في (ز): المحارب.
(٣) رواه الطبري (١٠/ ١٥٩)، ورجاله ثقات.
(٤) لوحة (٢٤٣ أ).
(٥) سقط من (ز).
(٦) في (ز): (عمر)، وهو خطأ.
(٧) المِرَّة: القوة، والسوي: السليم الأعضاء.
(٨) **صحيح**: رواه أبو داود (١٦٣٤) والترمذي (٦٥٢) وأحمد (٢/ ١٦٤).
(٩) **صحيح**: أبو داود (١٦٣٣) والنسائي (٥/ ٩٩).

رواه أحمد، وأبو داود، والنسائي بإسنادٍ جيدٍ قويٍّ.

وقال ابن أبي حاتم في كتاب الجرح [والتعديل: أبو بكر العبسي قال: قرأ عمر رضي الله عنه: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ﴾ قال: هم أهل الكتاب] [١] روىٰ عنه عمر بن نافع، سمعت أبي يقول ذلك.

قلت: وهذا قولٌ غريبٌ جدًّا بتقدير صحَّة الإسناد؛ فإنَّ أبا بكر هذا وإن لم يَنُصَّ أبو حاتمٍ علىٰ جهالته، لكنه في حكم المجهول.

وأما المساكين: فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**لَيْسَ المِسْكِينُ بِهَذَا الطَّوَّافِ الَّذِي يَطُوفُ عَلَىٰ النَّاسِ، فَتَرُدُّهُ اللُّقْمَةُ وَاللُّقْمَتَانِ، وَالتَّمْرَةُ وَالتَّمْرَتَانِ**». قالوا: فما المسكين يا رسول الله؟ قال: «**الَّذِي لا يَجِدُ غِنَىً يُغْنِيهِ، وِلا يُفْطَنُ لَهُ فَيُتَصَدَّقَ عَلَيْهِ، وَلا يَسْأَلُ النَّاسَ شَيْئًا**». رواه الشيخان: البخاري ومسلم [٢].

وأما العاملون عليها: فهم الجُبَاة والسُّعاة يستحقون منها قسطًا علىٰ ذلك، ولا يجوز أن يكونوا مِن أقرباء رسول الله ﷺ الذين تحرم عليهم الصَّدقة؛ لما ثبت في «صحيح مسلم» عن عبد المطلب بن ربيعة ابن الحارث: أنَّه انطلق هو والفضل بن عبَّاس يسألان رسول الله ﷺ لِيَسْتَعْمِلَهُما علىٰ الصدقة، فقال: «**إِنَّ الصَّدَقَةَ لا تَحِلُّ لِمُحَمَّدٍ ولا لِآلِ مُحَمَّدٍ، إِنَّمَا هِيَ أَوْسَاخُ النَّاسِ**» [٣].

وأما المؤلفة قلوبهم: فأقسام: منهم من يعطىٰ ليُسلم، كما أعطىٰ النَّبيُّ ﷺ صفوان بن أمية مِن غنائم حنين، وقد كان شهدها مشركًا، قال [٤]: فلم يَزَل يعطيني حتىٰ صار أحبَّ الناس إليَّ بعد أن كان أبغض النَّاس إليَّ، كما قال الإمام أحمد:

حدَّثنا زكريا بن عدي، أنا ابن المبارك، عن يونس، عن الزهري، عن سعيد بن المسيب، عن صفوان ابن أمية قال: أعطاني رسول الله ﷺ يوم حنين، وإنه لأبغض الناس إلي، فما زال يعطيني حتىٰ [صار و] [٥] إنَّه لأَحب النَّاس إليَّ [٦].

ورواه مسلم والترمذي من حديث يونس، عن الزهري به

ومنهم من يُعطَىٰ ليحسُن إسلامه، ويثبت قلبه، كما أعطىٰ يوم حنين أيضًا جماعة من صناديد الطُّلقاء وأشرافهم: مائةً من الإبل، مائةً من الإبل وقال: «**إِنِّي لأُعْطِي الرَّجُلَ، وَغَيْرُهُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْهُ؛ مَخَافَةَ أَنْ يَكُبَّهُ اللهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ**» [٧].

وفي «الصحيحين» عن أبي سعيد: أنَّ عليًا بعث إلىٰ النَّبيِّ ﷺ بذُهَيبةٍ في تربتها من اليمن فقسمها بين أربعة نفر: الأقرع بن حابس، وعُيَينة بن بدر، وعلقمة بن عُلاثة، وزيد الخير، وقال: «**أَتَأَلَّفُهُمْ**» [٨].

---

(١) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).
(٢) البخاري (١٤٧٩)، ومسلم (١٠٣٩).
(٣) مسلم (١٠٧٢).
(٤) لوحة (٢٤٣ ب).
(٥) سقط من (ز)، وهي مثبتة في «المسند».
(٦) مسلم (٢٣١٣)، والترمذي (٦٦٦)، وأحمد (٦/ ٤٦٥).
(٧) البخاري (٢٧) (١٤٧٨)، ومسلم (١٥٠).
(٨) البخاري (٣٣٤٤)، ومسلم (١٠٦٤).

ومنهم من يُعطَىٰ لما يرجىٰ من إسلام نظرائه. ومنهم من يُعطَىٰ ليجبي الصدقات ممن يليه، أو ليدفع عن حَوزة المسلمين الضرر من أطراف البلاد. ومحلُّ تفصيل هذا في كتب الفروع، والله أعلم.

وهل تعطَىٰ المؤلَّفة علىٰ الإسلام بعد النَّبيِّ ﷺ؟ فيه خلاف، فرُوِيَ عن عمر، وعامر الشعبي وجماعة: أنَّهم لا يُعطَون بعده؛ لأنَّ الله قد أعَزَّ الإسلام وأهله، ومَكَّن لهم في البِلَاد، وأذَلَّ لهم رقاب العباد.

وقال آخرون: بل يُعطَون؛ لأنَّه ﷺ قد أعطاهم بعد فَتْحِ مكَّة وكسر هَوازن، وهذا أمرٌ قد يحتاج إليه فيصرف إليهم.

وأما الرِّقاب: فرُوي عن الحسن البصري، ومقاتل بن حيان، وعمر بن عبد العزيز، وسعيد بن جُبَير، والنَّخعي، والزهري، وابن زيد: أنَّهم المكاتَبون، وروي عن أبي موسىٰ الأشعري نحوه، وهو قول الشافعي والليث.

وقال ابن عبَّاس، والحسن: لا بأس أن تعتق الرَّقبة مِن الزكاة، وهو مذهب الإمام أحمد بن حنبل، ومالك، وإسحاق؛ أي: إن الرِّقابَ أعمُّ مِن أن يُعْطَىٰ المكاتب، أو يشتري رقبةً فيعتقها استقلالًا. وقد ورد في ثوابِ الإعتاق وفَكِّ الرَّقَبَة أحاديث كثيرة، وأنَّ الله يعتق بكل عضوٍ منها عضوًا من مُعتقها حتىٰ الفَرْج بالفَرج، وما ذاك إلا لأن الجزاء من جنس العمل، ﴿وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات:٣٩].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**ثَلَاثَةٌ حَقٌّ عَلَىٰ اللهِ عَوْنُهُمْ: الغَازِي**[١] **فِي سَبِيلِ اللهِ، وَالمُكَاتَبُ الَّذِي**[٢] **يُرِيدُ الأَدَاءَ، وَالنَّاكِحُ الَّذِي يُرِيدُ العَفَافَ**».

رواه الإمام أحمد وأهل السنن إلا أبا داود[٣]

وفي «المسند» عن البراء بن عازب قال: جاء رجل فقال: يا رسول الله، دُلَّني علىٰ عمل يقربني من الجنة ويباعدني من النَّار. فقال: «**أَعْتِقِ النَّسَمَةَ وَفُكَّ الرَّقَبَةَ**». فقال: يا رسول الله، أو ليسا واحدًا؟ قال: «**لَا، عِتْقُ النَّسَمَةِ أَنْ تُفْرِدَ بِعِتْقِهَا، وَفَكُّ الرَّقَبَةِ أَنْ تُعِينَ فِي ثَمَنِهَا**»[٤]

وأمَّا الغارمون: فهم أقسام: فمِنْهُم مَن تحمَّلَ حَمَالَةً[٥] أو ضمن دينًا فلزمه فأجحف بماله، أو غَرِم في أداءِ دينِهِ أو في معصيةٍ ثم تاب، فهؤلاء يدفع إليهم. والأصل في هذا الباب حديث قَبيصة بن مخارق الهلالي قال: تحملت حمالةً فأتيت رسول الله ﷺ أسأله فيها، فقال: «**أَقِمْ حَتَّىٰ تَأْتِيَنَا الصَّدَقَةُ، فَنَأْمُرَ لَكَ بِهَا**». قال: ثم قال: «**يَا قَبِيصَةُ، إِنَّ المَسْأَلَةَ لَا تَحِلُّ إِلَّا لِأَحَدِ ثَلَاثَةٍ: رَجُلٍ تَحَمَّلَ حَمَالَةً فَحَلَّتْ لَهُ المَسْأَلَةُ**

---

(١) لوحة (٢٤٤ أ).

(٢) في (ز): (والمكاتب والمدين يريد)، وما أثبتناه هو الموافق لمصادر التخريج.

(٣) حسن: الترمذي (١٦٥٥)، والنسائي (٦/ ٦١)، وابن ماجة (٢٥١٨)، وأحمد (٢/ ٢٥١).

(٤) صحيح: أحمد (٤/ ٢٩٩) وابن حبان (٣٧٤).

(٥) **الحَمَالَة**: ما يتحمله الإنسان عن غيره من ديةٍ أو غرامةٍ، كمن تحمل ذلك للإصلاح بين الناس.

حَتَّىٰ يُصِيبَهَا، ثُمَّ يُمْسِكُ. وَرَجُلٍ أَصَابَتْهُ جَائِحَةٌ[(١)] اجْتَاحَتْ مَالَهُ، فَحَلَّتْ لَهُ المَسْأَلَةُ حَتَّىٰ يُصِيبَ قِوَامًا[(٢)] مِنْ عَيْشٍ: أو قال: سِدَادًا مِنْ عَيْشٍ - وَرَجُلٍ أَصَابَتْهُ فَاقَةٌ حَتَّىٰ يَقُومَ ثَلَاثَةٌ مِنْ ذَوِي الحِجَا[(٣)] مِنْ قَوْمِهِ، فَيَقُولُونَ: لَقَدْ أَصَابَتْ فُلَانًا فَاقَةٌ فَحَلَّتْ لَهُ المَسْأَلَةُ، حَتَّىٰ يُصِيبَ قِوَامًا مِنْ عَيْشٍ -أو قال: سِدَادًا مِنْ عَيْشٍ -فَمَا سِوَاهُنَّ مِنَ المَسْأَلَةِ سُحْتٌ، يَأْكُلُهَا صَاحِبُهَا سُحْتًا[(٤)]» رواه مسلم[(٥)].

وعن أبي سعيد قال: أصيب رجلٌ في عهد رسول الله ﷺ في ثمار ابتاعها، فكثر دينه، فقال النَّبيُّ ﷺ [«تَصَدَّقُوا عَلَيْهِ». فتصدَّق النَّاس، فلم يبلغ ذلك وفاء دينه، فقال النَّبيُّ ﷺ][(٦)] لغرمائه: «خُذُوا مَا وَجَدْتُمْ، وَلَيْسَ لَكُمْ إِلَّا ذَلِكَ» رواه مسلم[(٧)].

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا عبد الصمد، أنبأنا صدقة بن موسىٰ، عن أبي عمران الجَوْني، عن قيس بن زيد عن قاضي المصرَيْن[(٨)] عن عبد الرحمن بن أبي بكر قال: قال رسول الله ﷺ: «يَدْعُو اللهُ بِصَاحِبِ الدَّيْنِ يَوْمَ القِيَامَةِ حَتَّىٰ يُوقَفَ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَيَقُولُ: يَا ابْنَ آدَمَ، فِيمَ أَخَذْتَ هَذَا الدَّيْنَ؟ وَفِيمَ ضَيَّعْتَ حُقُوقَ النَّاسِ؟ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنِّي أَخَذْتُهُ فَلَمْ آكُلْ وَلَمْ أَشْرَبْ وَلَمْ أُضَيِّعْ، وَلَكِنْ أَتَىٰ عَلَىٰ يَدَيَّ إِمَّا حَرْقٌ وَإِمَّا سَرَقٌ وَإِمَّا وَضِيعَةٌ[(٩)]. فَيَقُولُ اللهُ: صَدَقَ عَبْدِي، أَنَا أَحَقُّ مَنْ قَضَىٰ عَنْكَ اليَوْمَ. فَيَدْعُو اللهُ بِشَيْءٍ فَيَضَعُهُ فِي كِفَّةِ مِيزَانِهِ، فَتَرْجَحُ حَسَنَاتُهُ عَلَىٰ سَيِّئَاتِهِ، فَيَدْخُلُ الجَنَّةَ بِفَضْلِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ»[(١٠)].

وأمَّا في سبيل الله: فمنهم الغزاة الذين لا حقَّ لهم في الدِّيوان، وعند الإمام أحمد، والحسن، وإسحاق: والحَجُّ من سبيل الله، للحديث[(١١)].

وكذلك ابن السبيل: وهو المسافر المجتاز في بلدٍ ليس معه شيء يَسْتَعِين به علىٰ سفره، فيُعْطَىٰ من الصدقات ما يكفيه إلىٰ بلده وإن كان له مال. وهكذا الحكم فيمَن أراد إنشاء سفرٍ مِن بلده وليس معه شيءٌ، فيعطىٰ من مال الزَّكاة كفايتَهُ في ذهَابِهِ وإيابه. والدَّليل علىٰ ذلك الآية، وما رواه الإمام أبو داود وابن ماجة من حديث مَعْمَر، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يَسَار، عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تَحِلُّ الصَّدَقَةُ لِغَنِيٍّ إِلَّا لِخَمْسَةٍ: العَامِلِ عَلَيْهَا، أَوْ رَجُلٍ اشْتَرَاهَا بِمَالِهِ، أَوْ غَارِمٍ، أَوْ غَازٍ فِي سَبِيلِ اللهِ، أَوْ مِسْكِينٍ تُصُدِّقَ عَلَيْهِ مِنْهَا فَأَهْدَىٰ لِغَنِيٍّ»[(١٢)].

---

(١) **الجائحة**: الآفة التي تهلك الثمار والأموال وتستأصلها، وكل مصيبةٍ عظيمةٍ.

(٢) أي: حتىٰ يجد ما تقوم به حاجته، والسِّداد: ما يسد به حاجته.

(٣) **ذوو الحِجَا**: أصحاب العقول.

(٤) **السُّحت**: الحرام.

(٥) رواه مسلم (١٠٤٤)، وأبو داود (١٦٤٠).

(٦) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

(٧) رواه مسلم (١٥٥٩).

(٨) **المِصْرَان**: البصرة والكوفة، وقاضيهم هو شريح القاضي.

(٩) **الوَضِيعَة**: الخسارة.

(١٠) رواه أحمد (١/ ١٩٧)، وعزاه المنذري إلىٰ أحمد والطبراني وأبي نعيم، وقال: أحد أسانيدهم حسن، وضعفه الشيخ الألباني في «ضعيف الترغيب والترهيب» (١١٢٩).

(١١) لوحة (٢٤٤ ب).

(١٢) **صحيح**: أبو داود (١٦٣٥)، وابن ماجة (١٨٤١) بلفظ آخر وأوله: «**لا تحل الصدقة إلا لخمسة**»، وأما الرواية التي

وقد رواه السفيانان، عن زيد بن أسلم، عن عطاء مرسلًا. ولأبي داود عن عطية العوفي، عن أبي سعيدٍ الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تَحِلُّ الصَّدَقَةُ لِغَنِيٍّ إِلَّا فِي سَبِيلِ اللهِ، وَابْنِ السَّبِيلِ، أَوْ جَارٍ فَقِيرٍ فَيُهْدِي**[1] **لَكَ أَوْ يَدْعُوكَ**»[2].

وقوله: ﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: حكمًا مقدرًا بتقدير الله وفَرْضِه وقَسْمه ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ أي: عليمٌ بظواهر الأمور وبواطنها وبمصالح عباده، ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يفعله ويقوله ويشرعه ويحكم به، لا إله إلا هو، ولا رَبَّ سواه.

﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾﴾

يقول تعالىٰ: ومِن المنافقين قوم يُؤذون رسولَ الله ﷺ بالكلام فيه ويقولون: ﴿هُوَ أُذُنٌ﴾ أي: من قال له شيئًا صدَّقه، ومن حدَّثه فينا صدَّقه، فإذا جئنا وحلفنا له صدَّقَنا. روي معناه عن ابن عبَّاس، ومجاهد، وقتادة. قال الله تعالىٰ: ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾ أي: هو أُذن خير، يعرف الصادق من الكاذب، ﴿يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: ويُصدِّق المؤمنين، ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ﴾ أي: وهو حُجَّةٌ علىٰ الكافرين؛ ولهذا قال: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدًا فِيهَا ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾﴾

قال قتادة في قوله تعالىٰ: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ ...﴾ الآية، قال: ذكر لنا أن رجلًا من المنافقين قال: والله إن هؤلاء لخيارنا وأشرافنا، وإن كان ما يقول محمَّدٌ حقًّا، لَهُمْ شر[3] من الحمير. قال: فسمعها رجلٌ من المسلمين فقال: والله إن ما يقول محمَّد لحقٌّ، ولأنت أشرُّ من الحمار. قال: فسعىٰ بها الرجل إلىٰ نبيِّ الله ﷺ فأخبره، فأرسل إلىٰ الرجل فدعاه فقال: «**مَا حَمَلَكَ عَلَىٰ الَّذِي قُلْتَ؟**» فجعل يَلْتَعِن[4]، ويحلف بالله ما قال ذلك. وجعل الرجل المسلم يقول: اللَّهمَّ صدق الصادق وكذب الكاذب. فأنزل الله ﷻ: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾[5].

= ذكرها المصنف فهي عند أبي داود (١٦٣٧) وفيها عطية العوفي: مدلس وكان شيعيًّا.

(١) في (ز): (فيهوي)، وهو تحريف.

(٢) رواه أبو داود (١٦٣٧)، وفيه عطية العوفي: شيعي مدلس، وبقية رجاله ثقات، ولكن الحديث صحيح للرواية السابقة.

(٣) لوحة (٢٤٥ أ).

(٤) أي: يلعن نفسه.

(٥) ضعيف: عزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٢٢٨) إلىٰ ابن المنذر وابن أبي حاتم (١٠٠٤٩) عن قتادة مرسلًا، =

وقوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا﴾ أي: ألم يَتحقَّقوا ويعلموا أنَّه مَن حادَّ الله؛ أي: شَاقَّه وحاربه وخالفَه، وكان في حَدٍّ والله ورسوله في حدٍّ ﴿فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا﴾ أي: مهانًا معذَّبًا، ﴿ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ﴾ أي: وهذا هو الذل العظيم، والشَّقاء الكبير.

﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾[1]﴾

قال مجاهد: يقولون القولَ بينهم، ثم يقولون: عسىٰ الله ألَّا يُفْشِي علينا سِرَّنا هذا.

وهذه الآية شبيهة بقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ ۚ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [المجادلة: ٨].

وقال في هذه الآية: ﴿قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾ أي: إنَّ الله سينزل علىٰ رسولِهِ ما يفضحكم به، ويُبيِّن له أمركم كما قال تعالىٰ: [﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ﴾ إلىٰ قوله:][2] ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ [محمَّد: ٢٩، ٣٠]؛ ولهذا قال قتادة: كانت تُسمَّىٰ هذه السورة «الفاضحة»، فاضحة المنافقين.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾﴾

قال أبو معشر المديني عن محمَّد بن كعب القُرَظي وغيره قالوا: قال رجلٌ مِن المنافقين: ما أرىٰ قُرَّاءنا هؤلاء إلا أَرْغبَنا بطونًا، وأكذبنا أَلْسِنَةً، وأَجْبَنَنَا عند اللقاء. فرُفع ذلك إلىٰ رسول الله ﷺ، فجاء إلىٰ رسول الله وقد ارْتَحَلَ وركب ناقته، فقال: يا رسول الله، إنَّما كنَّا نخوض ونلعب. فقال: ﴿أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾ إلىٰ قوله: ﴿مُجْرِمِينَ﴾ وإنَّ رجليه لَتَنْسِفَان[3][4] الحجارة وما يلتفت إليه رسول الله ﷺ، وهو متعلِّق بنِسْعَة[5] رسول الله ﷺ[6].

= والصحيح في ذلك ما ثبت من حديث ابن عمر: رواه ابن أبي حاتم (١٠٠٤٧) وسيأتي في الآية الآتية.

(١) قال العلامة السعدي رحمه الله: كانت هذه السورة الكريمة تسمىٰ «الفاضحة» لأنها بينت أسرار المنافقين، وهتكت أستارهم، فما زال الله يقول: ومنهم ومنهم، ويذكر أوصافهم، إلا أنه لم يعين أشخاصهم لفائدتين: إحداهما: أن الله سِتِّيرٌ يحب الستر علىٰ عباده. والثانية: أن الذم علىٰ من اتصف بذلك الوصف من المنافقين، الذين توجه إليهم الخطاب وغيرهم إلىٰ يوم القيامة، فكان ذكر الوصف أعم وأنسب، حتىٰ خافوا غاية الخوف.

(٢) ما بين المعقوفتين سقط من (ز). (٣) النسف: القلع، كناية عن عدوه وجريه.

(٤) في (ز): (ليسفعان)، والمثبت موافق لما في «الطبري». (٥) النِّسْعة: سير مضفور يجعل زمامًا للبعير.

(٦) صحيح: رواه الطبري (١٠/ ١٧٢) من طريق عبد الله بن صالح، كاتب الليث، وهو صدوق كثير الخطإ، لكنه توبع =

وقال عبد الله بن وهب: أخبرني هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم، عن عبد الله بن عمر قال: قال رجلٌ في غزوة[(١)] تبوك في مجلس يومًا ما رأيت مثل قُرائنا هؤلاء، أرغبَ بطونًا، ولا أكذبَ ألسنًا، ولا أجبن عند اللقاء. فقال رجل في المسجد: كذبتَ، ولكنَّك منافق، لأخبرن رسول الله ﷺ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ ونزل القرآن. قال عبد الله بن عمر: وأنا رأيته متعلقًا بحَقَبِ[(٢)] ناقة رسول الله ﷺ تَنكُبُه[(٣)] الحجارة وهو يقول: يا رسول الله، إنَّما كنا نخوض ونلعب. ورسول الله ﷺ يقول: ﴿أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ۝٦٥ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾[(٤)].

وقد رواه الليث، عن هشام بن سعد، بنحو من هذا.

وقال ابن إسحاق: وقد كان جماعة من المنافقين منهم وَديعة بن ثابت، أخو بني أمية بن زيد، من بني عمرو بن عوف، ورجل من أشجع حليف لبني سلمة يقال له: مُخَشِّن بن حُمَيِّر يشيرون إلىٰ رسول الله ﷺ وهو منطلق إلىٰ تبوك، فقال بعضهم لبعض: أتحسبون جِلادَ بني الأصفر[(٥)] كقتال العرب بعضهم بعضًا؟ والله لكأنَّا بكم غدًا مُقرَّنين في الحبال، إرجافًا وترهيبًا للمؤمنين، فقال مُخَشِّن بن حُمَيِّر: والله لوددتُ أني أقاضىٰ علىٰ أن يُضرب كلُّ رجلٍ منَّا مائةَ جلدةٍ، وإنا نَنفَلتُ أن ينزل فينا قرآن لمقالتكم هذه. وقال رسول الله ﷺ -فيما بلغني- لعمار بن ياسر: «**أَدْرِكِ الْقَوْمَ، فَإِنَّهُمْ قَدِ احْتَرَقُوا، فَسَلْهُمْ عَمَّا قَالُوا، فَإِنْ أَنْكَرُوا فَقُلْ: بَلَىٰ، قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا**». فانطلق إليهم عمار، فقال ذلك لهم، فأتوا رسول الله ﷺ يعتذرون إليه، فقال وديعة بن ثابت، ورسول الله ﷺ واقف علىٰ راحلته، فجعل يقول وهو آخذ بحَقَبها: يا رسول الله، إنما كنَّا نخوض ونلعب، [فأنزل الله ﷻ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾][(٦)] فقال مُخَشِّن بن حُمَيِّر: يا رسول الله، قعد بي اسمي واسم أبي، فكان الذي عفي عنه في هذه الآية مُخَشِّن بن حُمَيِّر، فتسمىٰ عبد الرحمن، وسأل الله أن يقتل شهيدًا لا يعلم بمكانه، فقتل يوم اليمَامة، فلم يُوجَد له أثر[(٧)].

وقال قتادة: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ قال: فبينما النَّبيُّ ﷺ في غزوة تبوك، ورَكْبٌ من المنافقين يسيرون بين يديه، فقالوا: يظن هذا أن يفتح قصور الروم وحصونها، هيهات هيهات، فأطلع الله نبيه ﷺ علىٰ ما قالوا، فقال: «**عَلَيَّ بِهَؤُلَاءِ النَّفَرِ**». فدعاهم، فقال: «**قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا**». فحلفوا ما كنا إلا نخوض ونلعب.

= عند ابن أبي حاتم (١٠٠٤٧)، فرواه عن يونس بن عبد الأعلىٰ عن ابن وهب، وإسناده صحيح، انظر: «الصحيح المسند لأسباب النزول».

(١) لوحة (٢٤٥ ب).

(٢) **الحَقَب**: حبل يشد به الرحل في بطن البعير.

(٣) **نكبته الحجارة**: لثمته؛ أي: نالته وآذته.

(٤) **صحيح**: انظر التخريج السابق.

(٥) أي: الروم.

(٦) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

(٧) رواه ابن هشام (٢/ ٥٢٤)، والإسناد مرسل.

وقال عِكْرِمة في تفسير هذه الآية: كان رجلٌ ممن[1] إن شاء الله عفا عنه يقول: اللهم، إنِّي أسمع آية أنا أُعنَىٰ بها، تقشعر منها الجلود، وتَجِبُ[2] منها القلوب، اللهم، فاجعل وفاتي قتلًا في سبيلك، لا يقول أحد: أنا غسَّلت، أنا كفَّنت، أنا دفنت، قال: فأصيب يوم اليمامة، فما أحد مِن المسلمين إلا وقد وجد غيره.

وقوله: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ أي: بهذا المقال الذي استهزأتم به ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ﴾ أي: لا يُعفَىٰ عَن جميعكم، ولا بدَّ مِن عذاب بعضكم، ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾ أي: مجرمين بهذه المقالة الفاجرة الخاطئة.

﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾

يقول تعالىٰ منكرًا علىٰ المنافقين الذين هم علىٰ خلاف صفات المؤمنين، ولما كان المؤمنون يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، كان هؤلاء ﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ أي: عن الإنفاق في سبيل الله، ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي: نسوا ذكر الله، ﴿فَنَسِيَهُمْ﴾ أي: عاملهم معاملة من نسيهم؛ كقوله تعالىٰ: ﴿وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ[3] نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ [الجاثية: ٣٤] ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ أي: الخارجون عن طريق الحق، الداخلون في طريق الضلالة.

وقوله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ أي: علىٰ هذا الصنيع الذي ذكر عنهم، ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي: ماكثين فيها مخلدين، هم والكفار، ﴿هِىَ حَسْبُهُمْ﴾ أي: كفايتهم في العذاب، ﴿وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: طردهم وأبعدهم، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾.

﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾﴾

يقول تعالىٰ: أصاب هؤلاء من عذاب الله في الدنيا والآخرة كما أصاب مَن قبلهم، وقد كانوا أشد منهم قوة وأكثر أموالًا وأولادًا، ﴿فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ﴾ قال الحسن البصري: بدينهم، ﴿كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟﴾ أي: في الكذب والباطل، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ أي: بطلت مساعيهم، فلا ثواب لهم عليها؛ لأنها فاسدةٌ ﴿فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ

---

(١) لوحة (٢٤٦ أ). (٢) تجب: تضطرب.

(٣) في (ز): (فاليوم ننساكم)، وليست آية.

هُمُ(١) ﴿ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾؛ لأنهم لم يحصل لهم عليها ثواب.

قال ابن جُرَيْج عن عُمَر بن عَطَاء، عن عِكْرِمة، عن ابن عبَّاس في قوله: ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ...﴾ الآية، قال ابن عبَّاس: ما أشبه الليلة بالبارحة، ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ هؤلاء بنو إسرائيل، شُبِّهنا بهم، لا أعلم إلا أنه قال: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَتَتَّبِعُنَّهُمْ حَتَّىٰ لَوْ دَخَلَ الرَّجُلُ مِنْهُمْ جُحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ»(٢).

قال ابن جُرَيْج: وأخبرني زياد بن سعد، عن محمَّد بن زيد بن مهاجر، عن سعيد بن أبي سعيد المَقْبُري، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ، شِبْرًا بِشِبْرٍ، وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، وَبَاعًا بِبَاعٍ، حَتَّىٰ لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ». قالوا: ومن هم يا رسول الله؟ أهل(٣) الكتاب؟ قال: «فَمَهْ(٤)؟»(٥).

وهكذا رواه أبو مَعْشَر، عن سعيد المقبري، عن أبي هريرة، عن النَّبيِّ ﷺ، فذكره وزاد: قال أبو هريرة: اقرءوا إن شئتم القرآن: ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَـٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَـٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَـٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَـٰقِهِمْ﴾ قال أبو هريرة: الخلاق: الدين. ﴿وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟﴾ قالوا: يا رسول الله، كما صنعت فارس والروم؟ قال: «فَهَلِ النَّاسُ إِلَّا هُمْ»(٦).

وهذا الحديث له شاهد في «الصحيح».

﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَـٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَـٰتِ ۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾﴾

يقول تعالىٰ واعظًا لهؤلاء المنافقين المكذبين للرسل: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: ألم تُخْبَروا خبر مَن كان قبلكم من الأمم المكذبة للرسل ﴿قَوْمِ نُوحٍ﴾ وما أصابهم من الغرق العام لجميع أهل الأرض، إلا من آمن بعبده ورسوله نوح عليه السلام ﴿وَعَادٍ﴾ كيف أُهلكوا بالرِّيح العقيم لما كذبوا هودًا عليه السلام، ﴿وَثَمُودَ﴾ كيف أخذتهم الصَّيحَةُ لما كذبوا صالحًا عليه السلام وعقروا النَّاقة، ﴿وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ كيف نصَرَه الله عليهم وأيَّده بالمعجزات الظَّاهِرَة عليهم، وأهلك ملكهم النمروذ بن كنعان بن

---

(١) لوحة (٢٤٦ ب).

(٢) رواه الطبري (١٠/ ١٧٦) وعزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٢٣٣) إلىٰ ابن المنذر وابن أبي حاتم (١٠٥٠٣) وأبي الشيخ، ويشهد له الحديث الآتي.

(٣) في (ز): (قال: أهل الكتاب). (٤) (مه): اسم استفهام، أصلها (ما) ثم وقف عليها بالهاء.

(٥) أصل الحديث رواه البخاري (٧٣١٩)، وأما ما ذكره المصنف فهو عند الطبري (٣/ ١٧٦) من الطريقين: الأول صحيح، والثاني فيه أبي معشر: ضعيف وله شاهد من حديث أبي سعيد. رواه البخاري (٣٤٥٦)، ومسلم (٢٦٦٩).

(٦) انظر التعليق السابق.

كوش الكنعاني -لعنه الله- ﴿وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ﴾ وهم قوم شعيب عليه السلام وكيف أصابتهم الرَّجْفَة والصَّيحة وعذاب يوم[1] الظلة، ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ﴾ قوم لوط، وقد كانوا يسكنون في مدائن، وقال في الآية الأخرىٰ: ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ﴾ [النجم: ٥٣] أي: الأمة المؤتفكة[2]، وقيل: أم قراهم، وهي «سدوم». والغرض: أنَّ الله تعالىٰ أهلكهم عن آخرهم بتكذيبهم نبيَّ الله لوطًا عليه السلام وإتيانِهم الفاحشة التي لم يَسْبِقْهم بها أحد من العالمين.

﴿أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: بالحجج والدلائل القاطعات، ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ أي: بإهلاكه إياهم؛ لأنه أقام عليهم الحجة بإرسال الرسل وإزاحة العلل ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أي: بتكذيبهم الرُّسل ومخالفتهم الحقَّ، فصاروا إلىٰ ما صاروا إليه من العذاب والدَّمار.

﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾

لما ذكر الله تعالىٰ صفات المنافقين الذَّميمة، عطف بذكر صفات المؤمنين المحمودة، فقال: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ أي: يتناصرون ويتعاضدون، كما جاء في «الصحيح»: «المُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا»[3] وشبَّك بين أصابعه، وفي «الصحيح» أيضًا: «مَثَلُ المُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ، كَمَثَلِ الجَسَدِ الوَاحِدِ، إِذَا اشْتَكَىٰ مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَىٰ لَهُ سَائِرُ الجَسَدِ بِالحُمَّىٰ وَالسَّهَرِ»[4].

وقوله: ﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ كما قال تعالىٰ: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي: يُطِيعُون الله ويُحْسِنون إلىٰ خلقه، ﴿وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ أي: فيما أمر، وترك ما عنه زجر، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: سيرحم اللهُ مَن اتَّصف بهذه الصِّفات، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ أي: عزيز، مَن أطاعه أعزَّه، فإنَّ العزَّة لله ولرسوله وللمؤمنين، ﴿حَكِيمٌ﴾ في قسمته هذه الصِّفات لهؤلاء، وتخصيصه المنافقين بصِفَاتِهم المتقدمة، فإنَّ له الحكمة في جميع ما يفعله، تبارك وتعالىٰ.

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾

---

(١) في (ز): (تلك الظلة). (٢) لوحة (٢٤٧ أ).
(٣) البخاري (٤٨١)، ومسلم (٢٥٨٥).
(٤) البخاري (٦٠١١)، ومسلم (٢٥٨٦)، وأحمد (٤/ ٢٦٨، ٢٧٤، ٢٧٦)، وابن حبان (٢٣٣).

يخبر تعالىٰ بما أعدَّه للمؤمنين به والمؤمنات من الخيرات والنَّعيم المُقيم في ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي: مَاكِثِينَ فيها أبدًا، ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً﴾ أي: حسنة البناء، طيِّبة القرار، كما جاء في «الصحيحين» من حديث أبي عمران الجوني، عن أبي بكر بن أبي[1] موسىٰ عبد الله بن قيس الأشعري، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «جَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَجَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَمَا بَيْنَ القَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ إِلَّا رِدَاءُ الكِبْرِيَاءِ عَلَىٰ وَجْهِهِ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ»[2].

وبه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ لِلْمُؤْمِنِ فِي الجَنَّةِ لَخَيْمَةً مِنْ لُؤْلُؤَةٍ وَاحِدَةٍ مُجَوَّفَةٍ، طُولُهَا سِتُّونَ مِيلًا فِي السَّمَاءِ، لِلْمُؤْمِنِ فِيهَا أَهْلُونَ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ، لا يَرَىٰ بَعْضُهُمْ بَعْضًا» أخرجاه[3].

وفي «الصحيحين» أيضًا، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ، وَأَقَامَ الصَّلَاةَ، وَصَامَ رَمَضَانَ، فَإِنَّ حَقًّا عَلَىٰ اللهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الجَنَّةَ، هَاجَرَ فِي سَبِيلِ اللهِ، أَوْ جَلَسَ[4] فِي أَرْضِهِ الَّتِي وُلِدَ فِيهَا». قالوا: يا رسول الله، أفلا نخبر الناس؟ قال: «إِنَّ فِي الجَنَّةِ مَائَةَ دَرَجَةٍ، أَعَدَّهَا اللهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِهِ، بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللهَ فَاسْأَلُوهُ الفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَعْلَىٰ الجَنَّةِ وَأَوْسَطُ الجَنَّةِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الجَنَّةِ، وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ»[5].

وعند الطبراني والترمذي وابن ماجه، من رواية زيد بن أسلم، عن عطاء بن يَسَار، عن معاذ بن جبل رضي الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ يقول... فذكر مثله[6]. وللترمذي عن عبادة بن الصامت، مثله[7].

وعن أبي حازم، عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَهْلَ الجَنَّةِ لَيَتَرَاءَوْنَ الغُرْفَةَ فِي الجَنَّةِ، كَمَا تَرَاءَوْنَ الكَوْكَبَ فِي السَّمَاءِ». أخرجاه في «الصحيحين»[8].

ثم ليعلم أنَّ أعلىٰ منزلة في الجنَّة مكانٌ يقال له: «الوسيلة» لقربه من العرش، وهو مسكن رسول الله ﷺ من الجنَّة، كما قال الإمام أحمد بن حنبل.

حدَّثنا عبد الرازق، أخبرنا سفيان، عن ليث، عن كعب، عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «إِذَا صَلَّيْتُمْ عَلَيَّ فَسَلُوا اللهَ لِيَ الوَسِيلَةَ» قيل: يا رسول الله، وما الوسيلة؟ قال: «أَعْلَىٰ دَرَجَةٍ فِي الجَنَّةِ، لا يَنَالُهَا إِلَّا رَجُلٌ وَاحِدٌ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ»[9].

---

(١) لوحة (٢٤٧ ب).

(٢) البخاري (٤٨٧٨)، ومسلم (١٨٠)، والترمذي (٢٥٢٨)، وابن ماجة (١٨٦)، وأحمد (٢/ ٣١٦).

(٣) البخاري (٤٨٧٩)، ومسلم (٢٨٣٨).

(٤) في (ز): (أو حبس)، وهي رواية «البيهقي»، وما أثبتناه لفظ «الصحيح».

(٥) البخاري (٢٧٩٠) كتاب الجهاد، ورواه في كتاب التوحيد، وقد وهم المصنف في عزوه لصحيح مسلم، انظر: «تحفة الأشراف» (١٠/ ٢٧٨).

(٦) الطبراني (٢٠/ ١٥٨)، والترمذي (٢٥٣٠)، وابن ماجة (٤٣٣١)، والإسناد فيه انقطاع؛ لأن عطاء لم يدرك معاذ بن جبل.

(٧) سنن الترمذي (٢٥٣١)، وإسناده منقطع أيضًا.

(٨) البخاري (٦٥٥٥)، ومسلم (٢٨٣٠)، وثبت نحوه من حديث أبي سعيد: رواه البخاري (٣٢٥٦)، ومسلم (٢٨٣١).

(٩) صحيح من غير هذا الطريق: رواه أحمد (٢/ ٢٥٦)، وفيه ليث بن أبي سليم: أدخل ابنه في حديثه ما ليس منه ولم يتميز حديثه فترك، =

وفي «صحيح مسلم»، من حديث كعب بن علقمة، عن عبد الرحمن بن جُبَير[1]، عن عبد الله بن عمرو بن العاص؛ أنَّه سمع النبيَّ ﷺ يقول: «إِذَا سَمِعْتُمُ المُؤَذِّنَ فَقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ، ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ، فَإِنَّهُ مَنْ صَلَّىٰ عَلَيَّ[2] صَلَاةً صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا، ثُمَّ سَلُوا لِيَ الوَسِيلَةَ، فَإِنَّهَا مَنْزِلَةٌ فِي الجَنَّةِ لا تَنْبَغِي إِلَّا لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللهِ، وَأَرْجُو أَنِّي أَكُونُ أَنَا هُوَ، فَمَنْ سَأَلَ لِيَ الوَسِيلَةَ حَلَّتْ عَلَيْهِ الشَّفَاعَةُ يَوْمَ القِيَامَةِ»[3].

[وفي «صحيح البخاري»، من حديث محمَّد بن المنكدر، عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَالَ حِينَ يَسْمَعُ النِّدَاءَ: اللَّهُمَّ رَبَّ هَذِهِ الدَّعْوَةِ التَّامَّةِ وَالصَّلاةِ القَائِمَةِ، آتِ مُحَمَّدًا الوَسِيلَةَ وَالفَضِيلَةَ، وَابْعَثْهُ مَقَامًا مَحْمُودًا الَّذِي وَعَدْتَهُ، إِلَّا حَلَّتْ لَهُ الشَّفَاعَةُ يَوْمَ القِيَامَةِ»[4]][5].

وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدَّثنا أحمد بن علي الأبار، حدَّثنا الوليد بن عبد الملك الحرَّاني، حدَّثنا موسىٰ بن أعين، عن ابن أبي ذئب، عن محمَّد بن عمرو بن عطاء، عن ابن عبَّاس قال: قال رسول الله ﷺ: «سَلُوا اللهَ لِي الوَسِيلَةَ، فَإِنَّهُ لَمْ يَسْأَلْهَا لِي عَبْدٌ فِي الدُّنْيَا إِلَّا كُنْتُ لَهُ شَهِيدًا - أو شَفِيعًا - يَوْمَ القِيَامَةِ»[6].

وفي «مسند الإمام أحمد»، من حديث سعد أبي مجاهد الطائي، عن أبي الْمُدِلَّةِ، عن أبي هريرة ﵁ قال: قلنا: يا رسول الله، حَدِّثْنَا عن الجنة، ما بناؤها؟ قال: «لَبِنَةٌ ذَهَبٍ، وَلَبِنَةٌ فِضَّةٍ، وَمِلَاطُهَا[7] المِسْكُ، وَحَصْبَاؤُهَا اللُّؤْلُؤُ وَاليَاقُوتُ، وَتُرَابُهَا الزَّعْفَرَانُ، مَنْ يَدْخُلُهَا يَنْعَمُ لا يَبْأَسُ، وَيَخْلُدُ لا يَمُوتُ، لا تَبْلَىٰ ثِيَابُهُ وَلا يَفْنَىٰ شَبَابُهُ»[8].

وروي عن ابن عمر مرفوعًا، نحوه[9].

وعند الترمذي من حديث عبد الرحمن بن إسحاق، عن النعمان بن سعد، عن علي ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ فِي الجَنَّةِ لَغُرَفًا يُرَىٰ ظُهُورُهَا مِنْ بُطُونِهَا، وَبُطُونُهَا مِنْ ظُهُورِهَا». فقام

= وكعب المدني: مجهول، لكن الحديث صح من حديث عبد الله بن عمرو وهو الحديث الآتي، وله شواهد أخرىٰ من حديث ابن عباس رواه الطبراني في «الأوسط» (٦٣٣)، وإسناده حسن، ومن حديث أبي سعيد، رواه الطبراني (٢٦٣)، وإسناده حسن.

(١) في (ز): (عبد الرحمن بن جبر)، وهو خطأ. (٢) لوحة (٢٤٨ أ).

(٣) مسلم (٣٨٤)، وأبو داود (٥٢٣)، والنسائي (٢/ ٢٥).

(٤) البخاري (٦١٤) (٤٧١٩)، والترمذي (١/ ٤١٣)، والنسائي (١/ ١١٠-١١١)، وابن ماجة (٧٢٢).

(٥) ما بين المعقوفتين ليست في (ز).

(٦) حسن: أحمد (٢/ ٣٠٤) قال المنذري في «الترغيب والترهيب»: (والوليد مستقيم الحديث فيما يرويه عن الثقات، وموسىٰ بن أعين ثقة)، والحديث حسنه الشيخ الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب».

(٧) المِلاط: الطين يُطلىٰ به الحائط، وطين يجعل بين كل لَبِنَتَين أو آجرتين أوحجرين في البناء. «المعجم الوسيط»: (ص٨٨٥).

(٨) حسن لغيره: أحمد (٢/ ٣٠٤)، وفيه أبو المدلة: مقبول، لكن للحديث شاهد من حديث ابن عمر، رواه أبو نعيم في «صفة الجنة» (٩٦)، وابن أبي شيبة (١٣، ٩٥)، وفي سنده ضعف، وعلته عمر بن ربيعة، قال أبو حاتم: منكر الحديث. ووثقه ابن معين، والحديث قال عنه الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٣٩٧): (رواه الطبراني بإسناد حسَّن الترمذي لرجاله).

(٩) انظر التعليق السابق.

أعرابيٌّ فقال: يا رسول الله، لمن هي؟ فقال: «لِمَنْ طَيَّبَ الكَلَامَ، وَأَطْعَمَ الطَّعَامَ، وَأَدَامَ الصِّيَامَ، وَصَلَّىٰ بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ»[١] . ثم قال: حديث غريب.

ورواه الطبراني، من حديث عبد الله بن عمرو وأبي مالك الأشعري، كل منهما عن النَّبِيِّ ﷺ بنحوه[٢]، وكل من الإسنادين جيد حسن، وعنده أنَّ السائل هو «أبو مالك»، فالله أعلم.

وعن أسامة بن زيد قال: قال رسول الله ﷺ: «أَلَا هَلْ مُشَمِّرٌ إِلَىٰ الجَنَّةِ؟ فَإِنَّ الجَنَّةَ لَا خَطَرَ[٣] لَهَا[٤]، هِيَ - وَرَبِّ الكَعْبَةِ- نُورٌ يَتَلَأْلأُ وَرَيْحَانَةٌ تَهْتَزُّ، وَقَصْرٌ مَشِيدٌ، وَنَهْرٌ مُطَّرِدٌ، وَثَمَرَةٌ نَضِيجَةٌ، وَزَوْجَةٌ حَسْنَاءُ جَمِيلَةٌ، وَحُلَلٌ كَثِيرَةٌ، وَمَقَامٌ فِي أَبَدٍ، فِي دَارٍ سَلِيمَةٍ، وَفَاكِهَةٍ وَخُضْرَةٍ وَحَبْرَةٍ[٥] وَنِعْمَةٍ فِي مَحَلَّةٍ عَالِيَةٍ بَهِيَّةٍ». قالوا: نعم يا رسول الله، نحن المُشَمِّرون لها، قال: «قُولُوا: إِنْ شَاءَ اللهُ». فقال القوم: إن شاء الله. رواه ابن ماجه[٦]

وقوله تعالىٰ: ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ أي: رضا الله عنهم أكبر وأجلُّ وأعظَمُ مما هم فيه من النَّعيم، كما قال الإمام[٧] مالك رَحِمَهُ اللَّهُ عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيدٍ الخُدْري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ لِأَهْلِ الجَنَّةِ: يَا أَهْلَ الجَنَّةِ، فَيَقُولُونَ: لَبَّيْكَ يَا رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ، وَالخَيْرُ فِي يَدِكَ. فَيَقُولُ: هَلْ رَضِيتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: وَمَا لَنَا لَا نَرْضَىٰ يَا رَبِّ، وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، فَيَقُولُ: أَلَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَٰلِكَ؟ فَيَقُولُونَ: يَا رَبِّ، وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُ: أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا»[٨] أخرجاه من حديث مالك.

وقال أبو عبد الله الحسين بن إسماعيل المحاملي: حدَّثنا الفضل الرُّخاميُّ، حدَّثنا الفِرْيابي، عن سفيان، عن محمَّد بن المُنْكَدِر، عن جابر بن عبد الله، قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الجَنَّةِ الجَنَّةَ قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: هَلْ تَشْتَهُونَ شَيْئًا فَأَزِيدَكُمْ؟ قَالُوا: يَا رَبَّنَا، مَا خَيْرٌ مِمَّا أَعْطَيْتَنَا؟ قَالَ: رِضْوَانِي أَكْبَرُ»[٩].

ورواه البزار في «مسنده»، من حديث الثوري، وقال الحافظ الضياء المقدسي في كتابه «صفة الجنة»: هذا عندي علىٰ شرط الصحيح، والله أعلم.

---

(١) **صحيح لغيره**: الترمذي (٢٥٢٧)، وأحمد (١/ ١٥٦)، وفيه النعمان بن سعد: ضعيف، لكن للحديث شواهد؛ فقد رواه الطبراني في «الكبير» (٣٤٦٦)، وأحمد (٥/ ٣٤٣)، وعبد الرزاق (٢٠٨٨٣) من حديث أبي مالك الأشعري وإسناده لا بأس به، ورواه أحمد (٢/ ١٧٣)، والحاكم (١/ ٣٢١) من حديث عبد الله بن عمرو، وإسناده حسن.

(٢) انظر التعليق السابق.

(٣) في (ز): (لا حصر لها).

(٤) أي: لا مثل لها.

(٥) الحبرة: النعمة وسعة العيش.

(٦) **ضعيف**: رواه ابن ماجة (٤٣٣٢)، وأبو نعيم في «صفة الجنة» (٢٤)، وفيه الضَّحَّاك المعافري: لم يوثقه غير ابن حبان، وسليمان بن موسىٰ: مختلف فيه، وقال الحافظ: صدوق، في حديثه بعض اللين، وخولط قبل موته.

(٧) لوحة (٢٤٨ ب).

(٨) البخاري (٦٥٤٩)، ومسلم (٢٨٢٩)، وأحمد (٣/ ٨٨)، والترمذي (٢٥٥٥)، والنسائي في «الكبرىٰ» (٧٧٠٢).

(٩) **صحيح**: رواه الحاكم (١/ ٨٢)، وأبو نعيم في «صفة الجنة» (٢٨٣)، وقال الحاكم: صحيح علىٰ شرط الشيخين وأقره الذهبي، وصححه الألباني، انظر: «الصحيحة» (١٣٣٦).

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَـٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَـٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ٧٣ ﴾(١) ﴿يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدۡ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلۡكُفۡرِ وَكَفَرُواْ بَعۡدَ إِسۡلَـٰمِهِمۡ وَهَمُّواْ بِمَا لَمۡ يَنَالُواْۚ وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضۡلِهِۦۚ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيۡرٗا لَّهُمۡۖ وَإِن يَتَوَلَّوۡاْ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَمَا لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ٧٤﴾

أمر تعالىٰ رسوله ﷺ بجهاد الكُفَّار والمنافقين والغِلْظَة عليهم، كما أمره بأن يخفضَ جناحهُ لمن اتَّبعَه من المؤمنين، وأخبره أنَّ مصير الكفَّار والمنافقين إلىٰ النَّار في الدَّار الآخرة. وقد تقدَّم عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب أنَّه قال: بعث رسول الله ﷺ بأربعةِ أسيافٍ:

سيف للمشركين: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [التوبة:٥]، وسيف للكفَّار أهل الكتاب: ﴿قَـٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَـٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَـٰغِرُونَ﴾ [التوبة:٢٩]، وسيف للمنافقين: ﴿جَـٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَـٰفِقِينَ﴾ [التوبة:٧٣، التحريم:٩]، وسيف للبغاة: ﴿فَقَـٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾(٢) [الحجرات:٩].

وهذا يقتضي(٣) أنَّهم يُجاهَدُون بالسُّيوف إذا أظهروا النِّفاق، وهو اختيار ابن جرير.

وقال ابن مسعود في قوله تعالىٰ: ﴿جَـٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَـٰفِقِينَ﴾ قال: بِيَدِهِ، فإن لم يستطع [فبِلِسَانه فإن لم يستطع فبِقَلْبِه، فإن لم يستطِع](٤) فلْيَكْفَهِرَّ في وجهه.

وقال ابن عبَّاس: أمره الله تعالىٰ بجِهَاد الكفَّار بالسَّيف، والمنافقين باللِّسان، وأذهب الرِّفق عنهم(٥).

وقال الضَّحَّاك: جاهد الكفَّار بالسَّيف، واغلظ علىٰ المنافقين بالكَلَام؛ وهو مجاهدتهم. وعن مقاتل، والربيع مثله.

وقال الحسن وقتادة: مجاهدتهم إقامة الحدود عليهم.

وقد يقال: إنَّه لا مُنَافَاة بين هذه الأقوال؛ لأنَّه تارةً يُؤَاخِذُهم بِهذا، وتارةً بهذا بحسب الأحوال، والله أعلم.

---

(١) قال العلامة السعدي رحمه الله: وهذا الجهاد يدخل فيه الجهاد باليد، والجهاد بالحجة واللسان، فمن بارز منهم بالمحاربة فيجاهد باليد واللسان، والسيف والبيان. ومن كان مذعنًا للإسلام بذمةٍ أو عهدٍ، فإنه يُجَاهَدُ بالحجة والبرهان ويُبَيَّنُ له محاسن الإسلام، ومساوئ الشرك والكفر، فهذا ما لهم في الدنيا.

(٢) ابن أبي حاتم (٩٢٥٤)، وإسناده معضل.

(٣) لوحة (٢٤٩ أ).

(٤) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

(٥) رواه ابن أبي حاتم (١٠٦١٨)، والطبري (١٠/ ١٨٣)، والبيهقي (٩/ ١١)، وفيه انقطاع بين علي بن أبي طلحة وابن عبَّاس.

وقوله: ﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ ﴾ قال قتادة: نزلت في عبد الله بن أبي، وذلك أنه اقتتل رجلان: جُهَني وأنصارِي، فعلا الجُهَني على الأنصاري، فقال عبد الله للأنصار: ألا تنصرون أخاكم؟ والله ما مثلنا ومثل محمَّد إلا كما قال القائل: سَمِّن كلبك يأكلك، وقال: ﴿لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ [المنافقون:٨] فسعىٰ بها رجلٌ من المسلمين إلىٰ النَّبيِّ ﷺ، فأرسل إليه فسأله، فجعل يحلفُ بالله ما قاله؛ فأنزل الله فيه هذه الآية[١].

وروىٰ إسماعيل بن إبراهيم بن عقبة، عن عمه موسىٰ بن عقبة قال: فحدَّثنا عبد الله بن الفضل، أنه سمع أنس بن مالك رضي الله عنه يقول: حَزِنْت علىٰ مَن أُصِيب بالحرَّة[٢] مِن قومي، فكتب إليَّ زيد بن أرقم، وَبَلَغَهُ شدة حزني، يَذْكُرُ أنَّه سمع رسول الله ﷺ يقول: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِلْأَنْصَارِ وَلِأَبْنَاءِ الْأَنْصَارِ» -وشكَّ ابن الفضل في أبناء أبناء الأنصار- قال ابن الفضل: فسأل أنسًا[٣] بعضُ من كان عنده عن زيد بن أرقم، فقال: هو الذي يقول له رسول الله ﷺ: «أَوْفَىٰ اللهُ لَهُ بِأُذُنِهِ[٤]». وذاك حين سمع رجلًا من المنافقين يقول -ورسول الله ﷺ يخطب-: لئن كان هذا صادقًا فنَحْن شرٌّ مِن الحمير، فقال زيد بن أرقم: فهو والله صادق، ولأنت شر من الحمار، ثم رُفع ذلك إلىٰ رسول الله، فجحده القائل، فأنزل الله هذه الآية تصديقًا لزيد -يعني قوله: ﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ ...﴾ الآية[٥].

رواه البخاري في «صحيحه»[٦]، عن إسماعيل بن أبي أُوَيْس، عن إسماعيل بن إبراهيم بن عقبة. إلىٰ قوله: «هَذَا الَّذِي أَوْفَىٰ اللهُ لَهُ بِأُذُنِهِ»[٧]، ولعلَّ ما بعده من قول موسىٰ بن عقبة، وقد رواه محمَّد بن فُلَيح، عن موسىٰ بن عقبة بإسناده ثم قال: قال ابن شهاب. فذكر ما بعده عن موسىٰ، عن ابن شهاب.

والمشهور في هذه القِصَّة أنها كانت في غزوة بني المُصْطَلِق؛ فلعلَّ الراوي وَهَم في ذكر الآية، وأراد أَن يذكر غيرها فذكرها، والله أعلم.

[حاشية][٨]

قال «الأموي» في «مغازيه»: حدَّثنا محمَّد بن إسحاق، عن الزهري، عن عبد الرحمن بن عبد الله ابن كعب بن مالك، عن أبيه عن جده قال: لما قدم رسول الله ﷺ، أخذني قومي فقالوا: إنَّك امرؤٌ شاعرٌ، فإن شئت أن تَعْتَذِر إلىٰ رسول الله ﷺ ببعض العِلَّة، ثم يكون ذنبًا تستغفر الله منه... وذكر

---

(١) مرسل: رواه ابن جرير (١٨٦:١٠) عن قتادة مرسلًا.

(٢) كانت وقعة الحرة سنة ثلاث وستين هجرية، وهي (حَرَّةُ واقم)، تقع ظاهر المدينة، وكان أهلُ المدينة قد خرجوا علىٰ يزيد وخلعوه، فأرسل لهم جيشًا استباح المدينة وقتل من أهلها المئات. ينظر: «البداية والنهاية»: (١١/ ٦١٤).

(٣) في (ز): (قال أنس).

(٤) أي: أظهر الله صدقه في إخباره عما سمعت أذنه.

(٥) صحيح: عزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٢٤٠) إلىٰ ابن أبي حاتم (١٠٤٠١) وأبي الشيخ وابن مردويه والبيهقي في «الدلائل»، والجزء الأول منه رواه البخاري (٤٩٠٦)، والظاهر أن ما بعده من قول موسىٰ بن عقبة كما ذكر ابن كثير.

(٦) لوحة (٢٤٩ ب).

(٧) البخاري (٤٩٠٦).

(٨) سقطت من بعض النسخ، وهي مثبتة في (ز).

الحديث بطوله، إلىٰ أن قال: وكان ممَّن تخلَّف من المنافقين، ونزل فيه القرآن منهم، ممَّن كان مع النَّبيِّ ﷺ: الجُلاس بن سُوَيد بن الصامت، وكان علىٰ أم عُمَير بن سعد، وكان عمير في حجره، فلما نزل القرآن وذكرهم الله بما ذكر مما أنزل في المنافقين، قال الجُلَاس: والله لئن كان هذا الرجل صادقًا فيما يقول لنحن شر مِن الحمير، قال: فسمعها عمير بن سعد فقال: والله -يا جُلَاس- إنك لأَحَبُّ النَّاس إليَّ، وأحسنهم عندي بلاءً، وأعزهم علي أن يَصِلَه شيءٌ يكرهه، ولقد قلت مقالةً لئن ذكرتُها لتفْضَحَنَّكَ[١] ولئن كتمتُها لتُهْلِكَنِّي، ولَإِحداهُما أهون عليَّ من الأخرىٰ. فمشىٰ إلىٰ رسول الله ﷺ، فذكر له ما قال الجُلَاس. فلما بلغ ذلك الجُلَاس خرج حتىٰ يأتي النَّبيَّ ﷺ، فحلف بالله ما قال ما قال عمير بن سعد، ولقد كذب عليَّ. فأنزل الله ﷻ فيه: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ...﴾ إلىٰ آخر الآية. فوَقَفَهُ رسول الله ﷺ عليها. فزعموا أن الجُلَاس تاب فحَسُنَت توبته، ونزع فأحسن النُّزوع، هكذا جاء هذا «مدرجًا» في الحديث متصلًا به، وكأنَّه -والله أعلم- مِن كلام ابن إسحاق نفسه، لا مِن كلام كعب بن مالك[٢].

وقال عروة بن الزبير: نزلت هذه الآية في الجلاس بن سويد بن الصامت، أقبل هو وابن امرأته مُصعب من قُباء، فقال الجُلَاس: إن كان ما جاء به محمَّدٌ حقًّا فنحن أشر من حُمُرنا هذه التي نحن عليها. فقال مصعب: أما والله -يا عدو الله[٣]- لأخبرن رسول الله ﷺ بما قلت: فأتيت النَّبيَّ ﷺ، وخفت أن ينزل فيَّ القرآن أو تُصِيبَنِي قارعة، أو أن أخلط بخَطِيئَتِه، فقلت: يا رسول الله، أقبلت أنا والجُلَاس مِن قباء، فقال كذا وكذا، ولولا مخافة أن أخلط بخَطِيئَة أو تصيبني قارعة ما أخبرتك، قال: فدعا الجلاسَ فقال: «**يَا جُلَاسُ، أَقُلْتَ الَّذِي قَالَهُ مُصْعَبٌ؟**» فحلف، فأنزل الله: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ...﴾ الآية[٤].

وقال محمَّد بن إسحاق: كان الذي قال تلك المقالة -فيما بلغني- الجلاس بن سويد بن الصامت، فرفعها عليه رجل كان في حجره، يقال له: عمير بن سعيد، فأنكرها، فحلف بالله ما قالها: فلما نزل فيه القرآن تاب ونَزَع وحسُنَت توبته، فيما بلغني.

وقال الإمام أبو جعفر بن جرير: حدَّثني أيوب بن إسحاق بن إبراهيم، حدَّثنا عبد الله بن رجاء، حدَّثنا إسرائيل، عن سماك، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عبَّاس قال: كان رسول الله ﷺ جالسًا في ظِلِّ شجرةٍ فقال: «**إِنَّهُ سَيَأْتِيكُمْ إِنْسَانٌ فَيَنْظُرُ إِلَيْكُمْ بِعَيْنَي الشَّيْطَانِ، فَإِذَا جَاءَ فَلَا تُكَلِّمُوهُ**». فلم يلبثوا أن طلع رجل أزرق[٥]، فدعاه رسول الله ﷺ فقال: «**عَلَامَ تَشْتُمُنِي أَنْتَ وَأَصْحَابُكَ؟**» فانطلق الرجل فجاء بأصحابه،

---

(١) في (ز): (لتفضحني). (٢) ضعيف: رواه الطبري (١٠/ ١٨٥)، وإسناده مرسل.

(٣) لوحة (٢٥٠ أ).

(٤) ضعيف: عزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٢٤١) إلىٰ ابن جرير (١١/ ٥٧١) وعبد الرزاق في «مصنفه» (١٠/ ٤٦) وابن أبي حاتم (٦/ ١٨٤٣) برقم (١٠٤٠٢) وأبي الشيخ، والحديث عند أحمد (٤/ ٤٨)، وإسناده مرسل.

(٥) يعني: أزرق العين.

فحلفوا بالله ما قالوا، حتىٰ تجاوز عنهم، فأنزل الله ﷻ: ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا ...﴾ الآية [(١)].

وقوله: ﴿وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا﴾ قيل: نزلت في الجُلَاس؛ وذلك أنَّه هَمَّ بقتل ابن امْرَأَتِهِ حين قال لأخبرن رسول الله ﷺ. وقيل: في عبد الله بن أُبَي هَمَّ بقَتْل النَّبيِّ ﷺ. وقال السُّدِّي: نزلت في أُناسٍ أرادوا أن يُتَوِّجوا عبد الله بن أُبَي وإن لم يَرْضَ رسول الله ﷺ. وقد وردَ أَنَّ نفرًا مِن المنافقين هَمُّوا [بالفَتْكِ] [(٢)] بالنَّبيِّ ﷺ وهو في غزوةِ تبوكَ في بَعْض تلك اللَّيالِي في حال السَّير في بِضْعَةَ عشر رجلًا. قال الضَّحَّاك: ففيهم نزلت هذه الآية.

وذلك بَيِّنٌ فيما رواه الحافظ أبو بكر البيهقي في كتاب «دلائل النبوة» من حديث محمَّد بن إسحاق، عن الأعمش عن عمرو بن مُرة، عن [أبي] [(٣)] البَخْتَري، عن حذيفة بن اليمان ﷺ قال: كنت آخذًا بخِطَام ناقة رسول الله ﷺ أقود به، وعمار يسوق النَّاقة -أو أنا: أسوقه، وعمَّار يقودُه- حتىٰ إذا كنا بالعَقَبَة فإذا أنا باثني عشر راكبًا قد اعترضوه فيها [(٤)]، قال: فأنبهت رسول الله ﷺ [بهم] [(٥)] فصرخ بهم فولوا مدبرين، فقال لنا رسول الله ﷺ: «**هَلْ عَرَفْتُمُ القَوْمَ؟**» قلنا: لا يا رسول الله، قد كانوا متلثمين، ولكنا قد عرفنا الركاب. قال: «**هَؤُلَاءِ المُنَافِقُونَ إِلَىٰ يَوْمِ القِيَامَةِ، وَهَلْ تَدْرُونَ مَا أَرَادُوا؟**» قلنا: لا. قال: «**أَرَادُوا أَنْ يَزْحَمُوا رَسُولَ اللهِ فِي العَقَبَةِ، فَيُلْقُوهُ مِنْهَا**». قلنا: يا رسول الله، أو لا تبعث إلىٰ عشائرهم حتىٰ يبعث إليك كل قوم برأس صاحبهم؟ قال: «**لَا، أَكْرَهُ أَنْ تَتَحَدَّثَ العَرَبُ بَيْنَهَا أَنَّ مُحَمَّدًا قَاتَلَ بِقَوْمٍ حَتَّىٰ [إِذَا]** [(٦)] **أَظْهَرَهُ اللهُ بِهِمْ أَقْبَلَ عَلَيْهِمْ يَقْتُلُهُمْ**»، ثم قال: «**اللَّهُمَّ ارْمِهِمْ بِالدُّبَيْلَةِ**». قلنا: يا رسول الله، وما الدُّبَيْلَة؟ قال: «**شِهَابٌ مِنْ نَارٍ يَقَعُ عَلَىٰ نِيَاطِ قَلْبِ أَحَدِهِمْ فَيَهْلِكُ**» [(٧)].

وقال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ: حدَّثنا يزيد، أخبرنا الوليد بن عبد الله بن جميع، عن أبي الطفيل قال: لما أقبل رسول الله ﷺ من غزوة تبوك، أمر مناديًا فنادىٰ: إن رسول الله ﷺ أخذ العقبة فلا يأخذها أحدٌ. فبينما رسول الله ﷺ يقُودُه حذيفة ويسُوقُه عمَّار، إذ أقبل رهط متلثمون علىٰ الرواحل فغشوا [(٨)] عمارًا وهو يسوق برسول الله، وأقبل عمار ﷺ يَضْرِب وجوه الرَّواحل، فقال رسول الله ﷺ لحذيفة: «**قَدْ، قَدْ** [(٩)]» حتىٰ هبط رسول الله ﷺ، [فلما هبط] [(١٠)] نزل ورجع عمار، فقال: «**يَا عَمَّارُ، هَلْ عَرَفْتَ القَوْمَ؟**» فقال: قد عرفت عامَّة الرَّواحل، والقوم مُتَلَثِّمون. قال: «**هَلْ تَدْرِي مَا أَرَادُوا؟**» قال: الله ورسوله أعلم. قال: «**أَرَادُوا أَنْ يُنَفِّرُوا بِرَسُولِ اللهِ ﷺ فَيَطْرَحُوهُ**». قال: فسارَّ [(١١)] عمارٌ رجلًا من أصحاب النَّبيِّ ﷺ فقال: نشدتك بالله

---

(١) **حسن**: الطبري (١٠/ ١٨٥-١٨٦) رجاله كلهم ثقات، عدا سماك فهو صدوق اختلط بآخره.

(٢) في (ز): (بالقتل). (٣) سقط من (ز). (٤) لوحة (٢٥٠ ب).

(٥) سقط من (ز). (٦) سقط من (ز).

(٧) **صحيح لغيره**: البيهقي في «دلائل النبوة» (٧/ ٢٦٠)، ورجاله ثقات، إلا أنه من طريق ابن إسحاق، وهو مدلس وقد عنعن، وله شاهد من حديث أبي الطفيل الآتي، رواه أحمد (٥/ ٤٥٣) بسند حسن.

(٨) في (ز): (فعينوا). (٩) أي: حسبك.

(١٠) سقط من (ز). (١١) في «المسند»: فسابَّ.

كم تعلم كان أصحاب العَقَبة؟ قال: أربعة عشر. فقال: إن كنت منهم فقد كانوا خمسة عشر. قال: فعذر رسول الله ﷺ منهم ثلاثة قالوا: والله ما سمعنا منادي رسول الله، وما علمنا ما أراد القوم. فقال عمار: أشهد أنَّ الاثني عشر الباقين حربٌ لله ولرسوله في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد (١).

وهكذا روىٰ ابن لهيعة، عن أبي الأسود، عن عُرْوَة بن الزُّبير نحو هذا، وأنَّ رسول الله ﷺ أمر أن يمشي النَّاس في بَطْن الوادي، وصَعِد هو وحُذَيْفة وعمار العَقَبَة، فتبعهم هؤلاء النَّفر الأرذلون، وهم مُتَلَثِّمون، فأرادوا سلوك العقبة، فأطلع الله علىٰ مرادهم رسول الله ﷺ، فأمر حذيفة فرجع (٢) إليهم، فضرب وجوهَ رواحلهم، ففزعوا ورجعوا مقبُوحِين (٣)، وأعلم رسول الله ﷺ حذيفة وعمارًا بأسمائهم، وما كانوا هَمُّوا به من الفَتْك به -صلوات الله وسلامه عليه- وأمرهما أن يَكْتُما عليهم.

وكذلك روىٰ يونس بن بُكَير، عن ابن إسحاق، إلا أنه سَمَّىٰ جماعة منهم، فالله أعلم (٤).

وكذا قد حكي في «معجم الطبراني»، قاله البيهقي. ويشهد لهذه القِصَّة بالصِّحَّة، ما رواه مسلم:

حدَّثنا زهير بن حرب، حدَّثنا أبو أحمد الكوفي، حدَّثنا الوليد بن جُمَيع، حدَّثنا أبو الطفيل قال: كان [بين] (٥) رجلٍ من أهل العقبة [وبين حذيفة بعضُ ما يكون بين النَّاس، فقال: أَنشدُكَ بالله، كم كان أصحاب العقبَّة] (٦) قال: فقال له القوم: أَخبِرْهُ إذ سأَلَكَ. قال: كنَّا نُخْبَر أنهم أربعة عشر، فإن كنتَ مِنهُم فقد كان القوم خمسة عشر، وأشهد بالله أنَّ اثني عشر منهم حرب لله ولرسوله في الحياة الدُّنيا ويوم يقوم الأشهاد، وعَذَرَ ثلاثة قالوا: ما سمعنا منادي رسول الله ﷺ، ولا علمنا بما أراد القوم، وقد كان في حرَّة فمشىٰ، فقال: «**إِنَّ المَاءَ قَلِيلٌ، فَلَا يَسْبِقُنِي إِلَيْهِ أَحَدٌ**»، فوجد قومًا قد سبقوه، فلعنَهُم يومئذٍ (٧).

وما رواه مسلم أيضًا، من حديث قتادة، عن أبي نَضْرة، عن قيس بن عباد، عن عمار بن ياسر قال: أخبرني حذيفة عن النَّبيِّ ﷺ أنه قال: «**فِي أَصْحَابِي اثْنَا عَشَرَ مُنَافِقًا، لا يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ، وَلا يَجِدُونَ رِيحَهَا حَتَّىٰ يَلِجَ [الجَمَلُ] (٨) فِي سَمِّ الخِيَاطِ: ثَمَانِيَةٌ تَكْفِيكَهُمُ الدُّبَيْلَةُ: سِرَاجٌ مِنْ نَارٍ يَظْهَرُ بَيْنَ أَكْتَافِهِمْ حَتَّىٰ يَنْجُمَ مِنْ صُدُورِهِمْ**».

ولهذا كان حذيفة يقال له: «صاحب السِّرِّ، الَّذي لا يعلمه غيره» أي: مِن تعيين جماعة من المنافقين، وهم هؤلاء، قد أطلعه عليهم (٩) رسول الله ﷺ دون غيره (١٠)، والله أعلم. وقد تَرْجَم الطبراني في «مسند حذيفة» تسمية أصحاب العقبة، ثم روىٰ عن علي بن عبد العزيز، عن الزُّبير بن بكَّار أنَّه قال:

---

(١) إسناده حسن: رواه أحمد (٥/ ٤٥٣)، وانظر التعليق السابق.

(٢) لوحة (٢٥١ أ).

(٣) في (ز): (منوخين).

(٤) مرسل بهذا السياق: رواه البيهقي في «الدلائل» (٥/ ٢٥٦).

(٥) سقط من (ز).

(٦) سقط من (ز).

(٧) رواه مسلم (٢٧٧٩).

(٨) سقط من (ز).

(٩) في (ز): (قد أطلعه الله عليهم رسول الله).

(١٠) مسلم (٢٧٧٩).

هُم مُعتِّب بن قشير(١)، ووديعة بن ثابت، وجد بن عبد الله بن نَبْتَل بن الحارث من بني عمرو بن عوف، والحارث بن يزيد الطائي، وأوس بن قَيْظِي، والحارث بن سُوَيْد، وسعد بن زرارة(٢) وقيس بن فهد، وسويد وداعِس مِن بني الحبلي، وقيس بن عمرو بن سهل، وزيد بن اللَّصِيت، وسلالة بن الحُمَام، وهما من بني قينقاع أظهروا الإسلام.

وقوله: ﴿وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ﴾ أي: وما للرسولِ عندهم ذنب إلا أَنَّ الله أغناهم ببركته ويُمْنِ سفارته(٣)، ولو تمَّت عليهم السَّعادة لهداهم الله لما جاء به، كما قال ﷺ للأنصار: «أَلَمْ أَجِدْكُمْ ضُلَّالًا فَهَدَاكُمُ اللهُ بِي؟ وَكُنْتُمْ مُتَفَرِّقِينَ فَأَلَّفَكُمُ اللهُ بِي؟ وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمُ اللهُ بِي؟» كلما قال شيئًا قالوا: الله ورسوله أَمَنُّ(٤).

وهذه الصيغة تقال حيث لا ذنب كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [البروج:٨] وكما قال ﷺ: «مَا يَنْقِمُ ابْنُ جَمِيلٍ إِلَّا أَنْ كَانَ فَقِيرًا فَأَغْنَاهُ اللهُ»(٥).

ثم دعاهم الله تبارك وتعالىٰ إلىٰ التَّوبة فقال: ﴿فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْاْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي: وإن يستمروا علىٰ طَرِيقِهم ﴿يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا﴾ أي: بالقتل والهمِّ والغمِّ، ﴿وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي: بالعذاب والنَّكال والهوان والصَّغار، ﴿وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ أي: وليس لهم أحد يُسْعِدُهُم ولا يُنْجِدُهم، ولا يحصِّل لهم خيرًا، ولا يدفع عنهم شرًّا.

﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾﴾

يقول تعالىٰ: ومِن المنافقين مَن أعطىٰ الله عهدَه وميثاقه: لَئِن أغناه مِن فضله لَيَصَّدَّقَنَّ مِن ماله، ولَيَكُونَنَّ مِن الصالحين. فما وفىٰ بما قال، ولا صدق فيما ادَّعىٰ؛ فأعقبهم هذا الصَّنيع نفاقًا سكن في قلوبهم إلىٰ يوم يَلْقَوْن الله ﷻ يوم القيامة، عياذًا بالله من ذلك(٦).

وقد ذكر كثيرٌ مِن المفسِّرين؛ منهم ابن عبَّاس، والحسن البصري: أنَّ سبب نزول هذه الآية الكريمة في «ثعلبة بن حاطب الأنصاري».

---

(١) في (ز): (معتب بن فير). (٢) في (ز): (سعد بن واره).
(٣) لوحة (٢٥١ ب). (٤) البخاري (٣٣٣٠)، ومسلم (١٠٦١).
(٥) البخاري (١٤٦٨)، ومسلم (٩٨٣)، وأبو داود (١٦٢٣)، والنسائي (٥/ ٣٣).
(٦) قال الشيخ السعدي رحمه الله: فليحذر المؤمن من هذا الوصف الشنيع، أن يعاهد ربه، إن حصل مقصوده الفلاني ليفعلن كذا وكذا، ثم لا يفي بذلك، فإنه ربما عاقبه الله بالنفاق كما عاقب هؤلاء.

وقد ورد فيه حديث رواه ابن جرير هاهنا وابن أبي حاتم، من حديث مُعان بن رِفَاعة، عن علي بن يزيد، عن أبي عبد الرحمن القاسم بن عبد الرحمن، مولىٰ عبد الرحمن بن يزيد بن معاوية، عن أبي أمامة الباهلي، عن ثعلبة بن حاطب الأنصاري، أنه قال لرسول الله ﷺ: ادعُ الله أن يرزقني مالًا، فقال رسول الله ﷺ: «وَيْحَكَ يَا ثَعْلَبَةُ قَلِيلٌ تُؤَدِّي شُكْرَهُ خَيْرٌ مِنْ كَثِيرٍ لَا تُطِيقُهُ». قال: ثم قال مرة أخرىٰ، فقال: «أَمَا تَرْضَىٰ أَنْ تَكُونَ مِثْلَ نَبِيِّ اللهِ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ شِئْتُ أَنْ تَسِيرَ مَعِيَ الْجِبَالُ ذَهَبًا وَفِضَّةً لَسَارَتْ». قال[1]: والذي بعثك بالحق لئن دعوت الله فرزقَني مالًا لأعطين كلَّ ذي حقٍّ حقَّه، فقال رسول الله ﷺ: «اللَّهُمَّ ارْزُقْ ثَعْلَبَةَ مَالًا». قال: فاتَّخذ غنمًا، فنَمَتْ كما يَنْمُو الدُّود، فضاقت عليه المدينة، فتنحَّىٰ عنها، فنزل واديًا مِن أَوْدِيَتِهَا، حتَّىٰ جعل يُصَلِّي الظُّهر والعصر في جماعةٍ، ويترك ما سواهما، ثم نَمَت وكَثُرتْ، فتَنَحَّىٰ حتىٰ ترك الصَّلَوات إلا الجمعة، وهي تنمو كما يَنْمُو الدُّود، حتىٰ تَرَك الجُمُعَة. فطفق يتلقىٰ الرُّكْبان[2] يوم الجمعة، يسألهم عن الأخبار، فقال رسول الله ﷺ: «مَا فَعَلَ ثَعْلَبَةُ»؟ فقالوا: يا رسول الله، اتَّخذ غنمًا فضاقت عليه المدينة، فأخبروه بأمره فقال: «يَا وَيْحَ ثَعْلَبَةَ، يَا وَيْحَ ثَعْلَبَةَ، يَا وَيْحَ ثَعْلَبَةَ». وأنزل الله جلَّ ثناؤه: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ...﴾ الآية [التوبة: ١٠٣] قال: ونزلت عليه فَرَائِض الصدقة، فبعث رسول الله ﷺ رجلين علىٰ الصَّدقة: رجلًا من جُهَيْنَة، ورجلًا من سليم، وكتب لهما كيف يأخذان الصدقة من المسلمين، وقال لهما: «مُرَّا بِثَعْلَبَةَ، وَبِفُلَانٍ -رجل من بني سليم- فَخُذَا صَدَقَاتِهِمَا». فخرجا حتىٰ أتيا ثعلبة، فسألاه الصَّدقة، وأقرآه كتاب رسول الله ﷺ، فقال: ما هذه إلا جزية، ما هذه إلا أخت الجزية. ما أدري ما هذا، انطلقا حتىٰ تَفْرُغا ثم عُودَا إليَّ، فانطلقا وسمع بهما السلمي، فنظر إلىٰ خيار أَسْنَان إبله، فعزلَها للصَّدقَة، ثم استقبلهما بها فلما رأوها قالوا: ما يجب عليك هذا، وما نُرِيد أَن نأخذ هذا منك. قال: بلىٰ، فخُذُوها، فإِن نفسي بذلك طَيِّبة، وإنَّما هي له. فأخذوها منه. فلما فرغا من صدقاتهما رجعا حتىٰ مَرَّا بثَعْلَبَة، فقال: أَرُونِي كتابكما فنظر فيه، فقال: ما هذه إلا أخت الجِزْيَة. انطلقا حتىٰ أرىٰ رأيي، فانطلقا حتىٰ أتيا النَّبيَّ ﷺ، فلما رآهما قال: «يَا وَيْحَ ثَعْلَبَةَ» قبل أن يكلمهما، ودعا للسلمي بالبركة، فأخبراه بالذي صنع ثعلبة والذي صنع السلمي، فأنزل الله ﷻ: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ﴾ إلىٰ قوله: ﴿وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾ قال: وعند رسول الله ﷺ رجلٌ مِن أقارب ثعلبة، فسمع ذلك، فخرج حتىٰ أتاه فقال: ويحك يا ثعلبة، قد أنزل الله فيك كذا وكذا، فخرج ثعلبة حتىٰ أتىٰ النَّبيَّ ﷺ، فسأله أن يقبل منه صدقته، فقال: «إِنَّ اللهَ مَنَعَنِي أَنْ أَقْبَلَ مِنْكَ صَدَقَتَكَ». فجعل يحثو علىٰ رأسه التراب، فقال له رسول الله ﷺ: «[هَذَا][3] عَمَلُكَ، قَدْ أَمَرْتُكَ فَلَمْ تُطِعْنِي». فلمَّا أبىٰ أن يقبض رسول الله ﷺ[4] رجع إلىٰ منزله، فقُبِض رسول الله ﷺ ولم يقبل منه شيئًا. ثم أتىٰ أبا بكر ؓ حين استخلف، فقال: قد علمتَ منزلتي

---

(١) لوحة (٢٥٢ أ). (٢) في (ز): الركاب.
(٣) سقط من (ز). (٤) لوحة (٢٥٢ ب).

مِن رسول الله، وموضعي من الأنصار، فاقبل صدقتي. فقال أبو بكر: لم يقبلها منك رسول الله ﷺ، وأبىٰ أن يقبلها، فقبض أبو بكر ولم يقبلها. فلما وَلِي عمر ؓ أتاه فقال: يا أمير المؤمنين، اقبل صَدَقَتِي. فقال: لَمْ يقبلها رسول الله ﷺ ولا أبو بكر، وأنا أقبلها منك! فقُبِضَ ولم يقبلها؛ ثمَّ وَلِي عثمان ؓ فأتاه فسأله أن يقبل صدقته، فقال: لم يقبلها رسول الله ﷺ ولا أبو بكر ولا عمر، وأنا أقبلها منك! فلم يقبلها منه، وهلك ثعلبة في خلافة عثمان(١).

وقوله تعالىٰ: ﴿بِمَآ أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ﴾ أي: أعقبهم النفاق في قلوبهم بسبب إخلافِهِم الوعد وكذبهم، كما جاء في «الصحيح»، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «آيَةُ المُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ»(٢) وله شواهد كثيرة، والله أعلم.

وقوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ يخبرهم تعالىٰ أنَّه يعلم السِّرَّ وأَخْفَىٰ، وأنَّه أعلم بضَمَائِرِهم وإن أظهروا أنه إن حصل لهم أموال تصدَّقوا منها وشكروا عليها، فإنَّه أعلم بهم من أنفسهم؛ لأنه تعالىٰ علَّام الغيوب؛ أي: يعلم كلَّ غيبٍ وشهادةٍ، وكلَّ سرٍّ ونجوىٰ، ويعلم ما ظهر وما بطن.

﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾

وهذه أيضًا من صفات المنافقين: لا يسلم أحدٌ مِن عيبهم ولَمْزِهم في جميع الأحوال، حتىٰ ولا المُتَصَدِّقون يَسْلَمُون منهم، إن جاء أحدٌ مِنْهُم بمالٍ جزيلٍ قالوا: هذا مراءٍ، وإن جاء بشيءٍ يسيرٍ قالوا: إنَّ الله لغنيٌّ عن صدقة هذا.

كما قال البخاري: حدَّثنا عبيد الله بن سعيد، حدَّثنا أبو النعمان البصري، حدَّثنا شعبة، عن سليمان، عن أبي وائل، عن أبي مسعود قال: لما نزلت آية الصدقة كنَّا نتحامل(٣) علىٰ ظهورنا، فجاء رجل فتصدق بشيءٍ كثيرٍ، فقالوا: مُرائِي. وجاء رجلٌ فتصدَّق بصاعٍ، فقالوا: إن الله لغَنِيٌّ عن صدقة هذا. فنزلت ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ...﴾ الآية(٤).

---

(١) منكر: والقصة باطلة؛ رواه الطبري (١٠/ ١٨٩) وفي إسناده علي بن يزيد الألهاني: ضعيف، والقاسم بن عبد الرحمن قال فيه ابن حبان: كان ممن يروي عن أصحاب رسول الله ﷺ المعضلات، ويأتي في الثقات بالمقلوبات.
* وقد نبه علىٰ ضعفها الكثير من أهل العلم قديمًا وحديثًا منهم: ابن حزم، والبيهقي، والقرطبي، والذهبي، والعراقي، والهيثمي، وابن حجر، والمناوي، والألباني. وانظر: «التحبير للأوهام الواردة في تفسير الحافظ ابن كثير» (ص:٥٦-٥٩)، و«قصص لا تثبت» (١/ ٤٣-٤٩).

(٢) البخاري (٣٣)، ومسلم (٥٩)، والترمذي (٢٦٣٢)، والنسائي (٨/ ١١٧).

(٣) أي: نتكلف الحمل بالأجرة لنكتسب ما نتصدق به.

(٤) البخاري (١٤١٥)، ومسلم (١٠١٨).

وقد رواه مسلم أيضًا في «صحيحه»، من حديث شعبة به.

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا يزيد، حدَّثنا الجُرَيْري، عن أبي السليل قال: وقف علينا رجلٌ في مجلسنا بالبقيع فقال[١]: حدَّثني أبي -أو: عمي أنَّه رأىٰ رسول الله ﷺ بالبقيع، وهو يقول: «مَنْ يَتَصَدَّقُ بِصَدَقَةٍ أَشْهَدُ لَهُ بِهَا يَوْمَ القِيَامَةِ»؟ قال: فحَلَلْتُ مِن عمامتي لوثًا أو لَوْثَين، وأنا أريد أن أتصدق بهما، فأدركني ما يدرك ابن آدم، فعقدت[٢] علىٰ عمامتي. فجاء رجلٌ لم أَرَ بالبقيع رجلًا أشدَّ سوادًا [ولا][٣] أصغر منه[٤]، ولا أدمَّ[٥] ببعير ساقه، لم أَرَ بالبقِيع ناقةً أحسن منها، فقال: يا رسول الله، أصدقة؟ قال: «نَعَمْ» فقال: دونك هذه النَّاقة، قال: فلمَزَهُ رجلٌ فقال: هذا يتصدَّق بهذه فوالله لهي خيرٌ منه، قال: فسمعها رسول الله ﷺ فقال: «كَذَبْتَ، بَلْ هُوَ خَيْرٌ مِنْكَ وَمِنْهَا» ثلاث مرات، ثم قال: «وَيْلٌ لِأَصْحَابِ المِئِينَ مِنَ الإِبِلِ» ثلاثًا. قالوا: إلا من يا رسول الله؟ قال: «[إِلَّا مَنْ][٦] قَالَ بِالمَالِ هَكَذَا وَهَكَذَا[٧]»، وجمع بين كفيه عن يمينه وعن شماله، ثم قال: «قَدْ أَفْلَحَ المُزْهِدُ المُجْهِدُ[٨]» ثلاثًا: المزهد في العيش، المجهد في العبادة[٩].

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس في هذه الآية، قال: جاء عبد الرحمن بن عوف بأربعين أوقية من ذهبٍ إلىٰ رسول الله ﷺ وجاءه رجلٌ من الأنصار بصاع من طعام، فقال بعض المنافقين: والله ما جاء عبد الرحمن بما جاء به إلا رِياءً. وقالوا: إن كان الله ورسولُه لَغَنِيَّيْنِ عن هذا الصاع[١٠].

وقال العوفي، عن ابن عبَّاس: إن رسول الله ﷺ خرج إلىٰ النَّاس يومًا فنادىٰ فيهم: أن اجمعوا صدقاتكم، فجمع الناس صدقاتهم، ثم جاء رجلٌ مِن آخرهم بصاعٍ مِن تمرٍ، فقال: يا رسول الله، هذا صاع من تمر [بتُّ ليلتي أجر بالجرير[١١] الماء، حتىٰ نلت صاعين مِنَ تمرٍ،][١٢] فأمسكت أحدهما، وأتيتك بالآخر. فأمره رسول الله ﷺ أن ينثره في الصدقات، فسَخِرَ منه رجال، وقالوا: إن الله ورسوله لغَنِيَّان عن هذا. وما يصنعان بصَاعِكَ مِن شيءٍ. ثمَّ إن عبد الرحمن بن عوف قال [لرسول الله ﷺ: هل بَقِيَ أحدٌ مِن أهل الصَّدقات؟ فقال: «لَا» فقال له عبد الرحمن بن عوف: فإن][١٣] عندي مائة أُوقِيَّةٍ مِن ذهبٍ في الصَّدقات، فقال له عمر بن الخطاب ﷺ: أمجنونٌ أَنْتَ؟ قال: ليس بي جُنُون، قال: فعلت ما فعلت؟ قال: [نعم][١٤]، مالي ثمانية آلاف، أما أربعة آلاف فأقرضها رَبِّي، وأمَّا أربعة آلاف فلي، فقال له رسول الله ﷺ: «بَارَكَ اللهُ لَكَ فِيمَا أَمْسَكْتَ وَفِيمَا أَعْطَيْتَ». ولمزه المنافقون فقالوا: والله ما أعطىٰ عبد الرحمن

---

(١) لوحة (٢٥٣ أ).
(٢) في (ز): (قعدت).
(٣) سقط من (ز)، ولفظه في «المسند»: [لم أر بالبقيع رجلًا أشدَّ سوادًا منه ولا آدم يعبُرُ بناقة أحسن منها...].
(٤) في «الطبري» أقصر قمَّة. والقمة هي: القامة.
(٥) من الدمامة، وهي القبح.
(٦) سقط من (ز).
(٧) يعني: تصدق به.
(٨) المُزهد: القليل الشئ، والمُجهد: ذو الجهد والمشقة.
(٩) ضعيف: رواه أحمد (٥/ ٣٤)، وفيه الجريري اختلط، ويزيد روىٰ عنه بعد الاختلاط.
(١٠) رواه الطبري (١٠/ ١٩٤) وإسناده منقطع لكنه يشهد له حديث ابن مسعود السابق.
(١١) الجرير: الحبل.
(١٢) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).
(١٣) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).
(١٤) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

عطيته إلا رياءً. وهم كَاذِبُون، إنَّما كان به متطوعًا، فأنزل الله ﷻ [عذره][(١)] وعذر صاحبه المسكين الذي جاء بالصَّاع من التمر، فقال تعالىٰ في كتابه: ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ ...﴾ الآية[(٢)].

وكذا روي عن مجاهد، وغير واحد.

وقال ابن إسحاق: كان المطوعون من المؤمنين في الصدقات: عبد الرحمن بن عوف[(٣)]، تصدق بأربعة آلاف دِرْهَم، وعاصم بن عدي أخا بني العجلان، وذلك أنَّ رسول الله ﷺ رَغَّبَ في الصدقات، وحضَّ عليها، فقام عبد الرحمن بن عوف فتصدَّق بأربعة آلاف، وقام عاصم فتصدَّق بمائة وَسق مِن تمرٍ، فلمَزُوهُما وقالوا: ما هذا إلا رِياء. وكان الَّذِي تصدَّق بجهده: أبو عقيل أخو بني أُنَيْفِ الإراشي حليف بني عمرو بن عوف، أتىٰ بصاعٍ مِن تمرٍ فأفرغه في الصدقة، فتضَاحَكُوا به وقالوا: إنَّ الله لَغَنِيٌّ عَن صاع أبي عَقيل.

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدَّثنا طالوت بن عباد، حدَّثنا أبو عَوَانة، عن عمر بن أبي سلمة، عن أبيه، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**تَصَدَّقُوا فَإِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَبْعَثَ بَعْثًا**». قال: فجاء عبد الرحمن ابن عوف فقال: يا رسول الله، عندي أربعة آلاف، ألفين أقرضهما ربي، وألفين لعيالي، فقال رسول الله ﷺ: «**بَارَكَ اللهُ لَكَ فِيمَا أَعْطَيْتَ وَبَارَكَ لَكَ فِيمَا أَمْسَكْتَ**». وبات رجلٌ مِن الأنصار فأصاب صاعين من تَمْرٍ، فقال: يا رسول الله، أصبت صاعين من تَمْرٍ: صاع أقرضه لِرَبِّي، وصاع لعيالي. قال: فلمزه المنافقون وقالوا: ما أعطىٰ الذي أعطىٰ ابن عوف إلا رياء! وقالوا: ألم يكن الله ورسوله غَنِيَّيْن عن صاع هذا؟ فأنزل الله: ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ...﴾ الآية[(٤)].

ثم رواه عن أبي كامل، عن أبي عوانة، عن عمر بن أبي سلمة، عن أبيه مرسلًا قال: ولم يسنده أحدٌ إلا طالوت.

وقال الإمام أبو جعفر بن جرير: حدَّثنا ابن وكيع، حدَّثنا زيد بن الحُبَاب، عن موسىٰ بن عبيدة، حدَّثني خالد بن يسار، عن ابن أبي عقيل، عن أبيه قال: بِتُّ أَجُرُّ الجَرِيرَ علىٰ ظهري، علىٰ صاعين مِن تمر، فانقلبت بأحدهما إلىٰ أَهْلِي يَتبَلَّغُون به، وجئت بالآخر أتقرَّب [به][(٥)] إلىٰ رسول الله ﷺ

---

(١) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

(٢) رواه الطبري (١٠/ ١٩٤)، وفيه عطية العوفي: شيعي مدلس، لكن أصل القصة دون قول عمر: «أمجنونٌ أنت؟» يشهد لها حديث أبي هريرة الآتي.

(٣) لوحة (٢٥٣ ب).

(٤) حسن: رواه البزار (٢٢١٦)، ورجاله ثقات عدا عمر بن أبي سلمة، قال الحافظ: صدوق يخطئ، ويشهد له رواية ابن عبَّاس السابقة.

(٥) سقط من (ز).

فأتيت رسول الله ﷺ فأخبرته، فقال: «انْثُرْهُ فِي الصَّدَقَةِ». قال: فسخر القوم وقالوا: لقد كان الله غنيًّا عن صدقة هذا المسكين. فأنزل الله: ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ ...﴾ الآيتين(١).

وكذا رواه الطبراني من حديث زيد بن الحباب به. وقال: اسم [أبي](٢) عقيل: حباب(٣). ويقال: عبد الرحمن بن عبد الله بن ثعلبة.

وقوله: ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ﴾ وهذا من باب المقابلة على سوء صنيعهم واستهزائهم بالمؤمنين؛ لأنَّ الجزاء من جنس العمل(٤)، فعاملهم مُعامَلَة مَن سخر بهم؛ انتصارًا للمؤمنين في الدنيا، وأعد للمنافقين في الآخرة عذابًا أليمًا.

﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾﴾

يخبر تعالىٰ نبيَّه ﷺ بأن هؤلاء المنافقين ليسوا [أهلًا](٥) للاستغفار، وأنه لو استغفر لهم ولو سبعين مرة فإن الله لا يغفر لهم.

وقد قيل: إنَّ السبعين إنما ذكرت حسمًا لمادة الاستغفار لهم؛ لأنَّ العرب في أساليب كلامها تذكر السَّبعين في مبالغة كلامها، ولا تريد التحديد بها، ولا أن يكون ما زاد عليها بخلافها.

وقيل: بل لها مفهوم، كما روىٰ العوفي عن ابن عبَّاس أن رسول الله ﷺ قال لما نزلت هذه الآية: «أَسْمَعُ رَبِّي قَدْ رَخَّصَ لِي فِيهِمْ، فَوَاللهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً، لَعَلَّ اللهَ أَنْ يَغْفِرَ لَهُمْ!» فقال الله من شدة غضبه عليهم: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [المنافقون:٦](٦).

وقال الشعبي: لما ثَقُل عبد الله بن أبي، انطلق ابنه إلىٰ النَّبيِّ ﷺ فقال: إنَّ أبي قد احتضر، فأُحِبُّ أن تشهده وتصلي عليه. فقال النَّبيُّ ﷺ: «مَا اسْمُكَ». قال: الحباب بن عبد الله. قال: «بَلْ أَنْتَ عَبْدُ اللهِ بْنُ عَبْدِ اللهِ، إِنَّ الحُبَابَ اسْمُ شَيْطَانٍ». قال: فانطلق معه حتىٰ شهده وألبسه قميصه وهو عرق، وصلىٰ عليه، فقيل له: أَتُصلِّي عليه [وهو منافق](٧)؟ قال: «إِنَّ اللهَ قَالَ: ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً﴾ وَلَأَسْتَغْفِرَنَّ لَهُ

---

(١) ضعيف: رواه الطبري (١٠/ ١٩٥)، والطبراني في «الكبير» (٤/ ٤٥)، وفيه موسىٰ بن عبدة: ضعيف، لكن يشهد له حديث أبي مسعود السابق.

(٢) سقط من (ز).

(٣) قال الحافظ: كذا وقع عند الطبراني، والصواب: حَبْحَاب. «الإصابة» (٢/ ٢٠١)، مستفاد من هامش طبعة طيبة للسلامة.

(٤) لوحة (٢٥٤ أ).

(٥) سقط من (ز).

(٦) ضعيف: رواه ابن جرير (١٠/ ٢٠٠)، وفيه عطية العوفي: شيعي مدلس.

(٧) سقط من (ز).

سَبْعِينَ وَسَبْعِينَ وَسَبْعِينَ»(١).

وكذا رُوِيَ عن عُرْوَة بن الزُّبير ومجاهد بن جبر، وقتادة بن دِعَامة. رواها ابن جرير بأسانيده.

﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ (٨١) فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٢)﴾

يقول تعالىٰ ذامًّا للمُنافقين المُتَخَلِّفين عن صحابةِ رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، وفَرِحُوا بمَقْعَدِهِم بعد خروجه، ﴿وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا﴾ معه ﴿بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا﴾ أي: بعضهم لبعض: ﴿لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾؛ وذلك أنَّ الخروج في غزوة تبوك كان في شدَّة الحرِّ، عند طيب الظِّلال والثِّمار؛ فلهذا قالوا: ﴿لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾ قال الله تعالىٰ لرسوله: ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿نَارُ جَهَنَّمَ﴾ التي تَصِيرُون إليها بسبب مخالفتكم ﴿أَشَدُّ حَرًّا﴾ مما فررتم منه(٢) من الحرِّ، بل أشد حرًّا من النَّار، كما قال الإمام مالك، عن أبي الزِّناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «نَارُ بَنِي آدَمَ الَّتِي يُوقِدُونَ بِهَا جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا [مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ» فقالوا: يا رسول الله، إن كانت لكافيةً. قال: «إِنَّهَا فُضِّلَتْ عَلَيْهَا بِتِسْعَةٍ وَسِتِّينَ جُزْءًا»](٣) أخرجاه في «الصحيحين» من حديث مالك، به(٤).

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا سفيان، عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «إِنَّ نَارَكُمْ هَذِهِ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ، وَضُرِبَتْ بِالْبَحْرِ مَرَّتَيْنِ، وَلَوْلَا ذَلِكَ مَا جَعَلَ [اللهُ](٥) فِيهَا مَنْفَعَةً لِأَحَدٍ»(٦)، وهذا أيضًا إسناده صحيح.

وقد روىٰ الإمام أبو عيسىٰ الترمذي وابن ماجه، عن عبَّاس الدوري، عن يحيىٰ بن أبي بكير عن شريك، عن عاصم، عن أبي صالح، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أُوقِدَ عَلَىٰ النَّارِ أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّىٰ احْمَرَّتْ، ثُمَّ أُوقِدَ عَلَيْهَا أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّىٰ ابْيَضَّتْ، ثُمَّ أُوقِدَ عَلَيْهَا أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّىٰ اسْوَدَّتْ، فَهِيَ سَوْدَاءُ كَاللَّيْلِ الْمُظْلِمِ». ثم قال التِّرمذي: لا أعلم أحدًا رفعه غير يحيىٰ(٧). كذا قال.

وقد رواه الحافظ أبو بكر بن مردويه عن إبراهيم بن محمَّد، عن محمَّد بن الحسين بن مكرم، عن عبيد الله بن سعد عن عمه، عن شريك -وهو ابن عبد الله النخعي- به. وروىٰ أيضًا ابن مردويه من رواية

---

(١) ضعيف: رواه ابن جرير (١٠/ ١٩٩)، وأسانيده مرسلة.
(٢) لوحة (٢٥٤ ب).
(٣) زيادة من «الموطأ».
(٤) الموطأ (٢/ ٩٩٤)، والبخاري (٣٢٦٥)، ومسلم (٢٨٤٣).
(٥) سقط من (ز).
(٦) صحيح: رواه أحمد (٢/ ٢٤٤)، وانظر الحديث السابق.
(٧) ضعيف: الترمذي (٢٥٩١)، وابن ماجه (٤٣٢٠)، وإسناده ضعيف؛ فيه شريك النخعي: سيئ الحفظ، وضعفه الشيخ الألباني، وانظر: «الضعيفة» (١٣٠٥).

مبارك بن فضالة، عن ثابت، عن أنس قال: تلا رسول الله ﷺ: ﴿نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [التحريم:٦] قال: «أُوقِدَ عَلَيْهَا أَلْفَ عَامٍ حَتَّىٰ ابْيَضَّتْ، وَأَلْفَ عَامٍ حَتَّىٰ احْمَرَّتْ، وَأَلْفَ عَامٍ حَتَّىٰ اسْوَدَّتْ، فَهِيَ سَوْدَاءُ كَاللَّيْلِ، لا يُضِيءُ لَهَبُهَا»(١).

وروىٰ الحافظ أبو القاسم الطبراني من حديث تمام بن نَجِيح -وقد اختلف فيه- عن الحسن، عن أنس مرفوعًا: «لَوْ أَنَّ شَرَارَةً بِالمَشْرِقِ - أي: من نار جهنم- لَوَجَدَ حَرَّهَا [مَنْ](٢) بِالمَغْرِبِ»(٣).

وروىٰ الحافظ أبو يعلىٰ عن إسحاق بن أبي إسرائيل، عن أبي عبيدة الحداد، عن هشام بن حسان عن محمَّد بن شبيب، عن جعفر بن أبي وحشية، عن سعيد بن جُبَير، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لَوْ كَانَ فِي هَذَا المَسْجِدِ مِائَةُ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ، وَفِيهِمْ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَتَنَفَّسَ فَأَصَابَهُمْ نَفَسُهُ، لاحْتَرَقَ المَسْجِدُ وَمَنْ فِيهِ» غريب(٤).

وقال الأعمش عن أبي إسحاق، عن النعمان بن بشير قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَهْوَنَ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا يَوْمَ القِيَامَةِ لَمَنْ لَهُ نَعْلانِ وَشِرَاكَانِ مِنْ نَارٍ، يَغْلِي مِنْهُمَا دِمَاغُهُ كَمَا يَغْلِي المِرْجَلُ، لا يَرَىٰ أَنَّ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ النَّارِ أَشَدُّ عَذَابًا مِنْهُ، وَإِنَّهُ أَهْوَنُهُمْ عَذَابًا». أخرجاه في(٥) «الصحيحين»، من حديث الأعمش(٦).

وقال مسلم أيضًا: حدَّثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدَّثنا يحيىٰ بن أبي بُكَيْر(٧) حدَّثنا زهير بن محمَّد، عن سهيل بن أبي صالح، عن النعمان بن أبي عياش عن أبي سعيد الخدري، أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ أَدْنَىٰ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا يَوْمَ القِيَامَةِ يَنْتَعِلُ بِنَعْلَيْنِ مِنْ نَارٍ، يَغْلِي دِمَاغُهُ مِنْ حَرَارَةِ نَعْلَيْهِ»(٨).

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا يحيىٰ، عن ابن عجلان، سمعت أبي، عن أبي هريرة، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «إِنَّ أَدْنَىٰ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا رَجُلٌ يُجْعَلُ لَهُ نَعْلانِ يَغْلِي مِنْهُمَا دِمَاغُهُ»(٩).

وهذا إسنادٌ جَيِّدٌ قويٌّ، رجاله علىٰ شرط مسلم، والله أعلم.

والأحاديث والآثار النبوية في هذا كثيرةٌ، وقال الله تعالىٰ في كتابه العزيز: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ﴾ [المعارج: ١٥، ١٦]، وقال تعالىٰ: ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِي

---

(١) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٧٩٩) وفي إسناده مبارك بن فضالة: صدوق يدلس ويسوي، فالإسناد ضعيف أيضًا.

(٢) سقط من (ز).

(٣) **ضعيف جدًّا**: رواه الطبراني (٣٦٨١)، وضعفه الشيخ الألباني في «ضعيف الجامع»، وفي «الضعيفة» (٥٠٢٢)، وعلته تمام بن نجيح وثقه ابن معين، وضعفه أبو زرعة، وقال أبو حاتم: منكر الحديث ذاهب، وقال البخاري: فيه نظر، وقال النسائي: لا يعجبني حديثه، وقال ابن عدي: وعامة ما يرويه لا يتابعه عليه الثقات. انظر: «تهذيب الكمال» (٤/ ٣٢٤)، وقال الحافظ ابن حجر: ضعيف.

(٤) **حسن**: رواه أبو يعلىٰ (١٢/ ٢٢)، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣٦٦٨).

(٥) لوحة (٢٥٥ أ).

(٦) البخاري (٦٥٦٢)، ومسلم (٢١٣) من حديث النعمان.

(٧) في (ز): (يحيىٰ بن أبي كثير)، وهو خطأ.

(٨) رواه مسلم (٢١١) من حديث أبي سعيد.

(٩) رواه أحمد (٢/ ١٣٨) بإسناد حسن من حديث أبي هريرة.

بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ۝٢٠ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ۝٢١ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [الحج: ١٩-٢٢]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦].

وقال تعالىٰ في هذه الآية الكريمة [الأخرىٰ][1]: ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ﴾ أي: لو أنَّهم يفقهون ويفهمون لنفروا مع الرسول في سبيل الله في الحَرِّ؛ ليَتَّقُوا به حَرَّ جهنم، الذي هو أضعاف أضعاف هذا، ولكنهم كما قال الآخر:

كَالمُسْتَجِيرِ مِنَ الرَّمْضَاءِ بِالنَّارِ

وقال الآخر:

عُمْرُكَ بِالحِمْيَةِ أَفْنَيْتَهُ ... مَخَافَةَ البَارِدِ وَالحَارِّ
وَكَانَ أَوْلَىٰ بِكَ أَنْ تَتَقِي ... مِنَ المَعَاصِي حَذَرَ النَّارِ

ثم قال الله تعالىٰ جل جلاله، مُتوعِّدًا لهؤلاء المنافقين علىٰ صنيعهم هذا: ﴿فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾.

قال ابن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس: الدنيا قليل، فليضحكوا فيها ما شاءوا، فإذا انقطعت الدنيا وصاروا إلىٰ الله ﷻ استأنفوا بكاءً لا ينقطع أبدًا[2]. وكذا قال أبو رَزِين، والحسن، وقتادة، والربيع بن خُثَيم، وعون العقيلي وزيد بن أسلم.

وقال الحافظ أبو يعلىٰ الموصلي: حدَّثنا عبد الله بن عبد الصمد بن أبي خِداش، حدَّثنا محمَّد بن حميد[3] عن ابن المبارك، عن عمران بن زيد، حدَّثنا يزيد الرَّقاشي، عن أنس بن مالك قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يَا أَيُّهَا[4] النَّاسُ، ابْكُوا، فَإِنْ لَمْ تَبْكُوا فَتَبَاكَوْا، فَإِنَّ أَهْلَ النَّارِ يَبْكُونَ حَتَّىٰ تَسِيلَ دُمُوعُهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ كَأَنَّهَا جَدَاوِلُ، حَتَّىٰ تَنْقَطِعَ الدُّمُوعُ فَتَسِيلَ الدِّمَاءُ فَتُقَرِّحَ العُيُونَ. فَلَوْ أَنَّ سُفُنًا أُزْجِيَتْ[5] فِيهَا لَجَرَتْ»[6].

ورواه ابن ماجه من حديث الأعمش، عن يزيد الرقاشي به.

وقال الحافظ أبو بكر بن عبد الله بن محمَّد بن أبي الدنيا: حدَّثنا محمَّد بن العبَّاس، حدَّثنا حماد

---

(١) سقط من (ز).

(٢) ابن أبي حاتم (١٠٦٦٨)، والزهد لأسد بن موسىٰ (١) من طريق أخرىٰ غير التي ذكرها المصنف، وفيه سويد بن سعيد: صدوق إلا أنه عمي فصار يتلقن، فالأثر حسن إن شاء الله.

(٣) في (ز): (محمَّد بن جبر)، والتصويب من أبي يعلىٰ.

(٤) لوحة (٢٥٥ ب).

(٥) زَجاه، وزَجَّاه، وأزجاه: ساقه.

(٦) حسن لغيره: أبو يعلىٰ (٧/ ١٦١)، وابن ماجه (٤٣٢٤) وفيه يزيد الرقاشي: ضعيف، لكنه ثبت من حديث أبي موسىٰ عند الحاكم (٤/ ٦٠٥) نحوه، ورجاله ثقات، وبمجموع الطريقين حسنه الشيخ الألباني في «الصحيحة» (١٦٧٩).

الجزري، عن زيد بن رُفَيع، رفعه قال: «إِنَّ أَهْلَ النَّارِ إِذَا دَخلُوا النَّارَ بَكَوا الدُّمُوعَ زَمَانًا، ثُمَّ بَكَوا القَيْحَ زَمَانًا» قال: «فَتَقُولُ لَهُمُ الخزَنَةُ: يَا مَعْشَرَ الأَشْقِيَاءِ، تَرَكْتُمُ البُكَاءَ فِي الدَّارِ المَرْحُومِ فِيهَا أَهْلُهَا فِي الدُّنْيَا، هَلْ تَجِدُونَ اليَوْمَ مَنْ تَسْتَغِيثُونَ بِهِ؟ قَالَ: فَيَرْفَعُونَ أَصْوَاتَهُمْ: يَا أَهْلَ الجَنَّةِ، يَا مَعْشَرَ الآبَاءِ وَالأُمَّهَاتِ وَالأَوْلَادِ، خَرَجْنَا مِنَ القُبُورِ عِطَاشًا، وَكُنَّا طُولَ المَوْقِفِ عِطَاشًا، وَنَحْنُ اليَوْمَ عِطَاشٌ، فَأَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ المَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ، فَيَدْعُونَ أَرْبَعِينَ سَنَةً لا يُجِيبُهُمْ، ثُمَّ يُجِيبُهُمْ: ﴿إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧] فَيَيْأَسُونَ مِنْ كُلِّ خَيْرٍ»(١).

﴿ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٖ مِّنۡهُمۡ فَٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ لِلۡخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخۡرُجُواْ مَعِيَ أَبَدٗا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِيَ عَدُوًّاۖ إِنَّكُمۡ رَضِيتُم بِٱلۡقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٖ فَٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡخَٰلِفِينَ ٨٣ ﴾

يقول تعالىٰ آمرًا لرسوله ﷺ: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ﴾ أي: ردك الله من غزوتك هذه ﴿إِلَىٰ طَآئِفَةٖ مِّنۡهُمۡ﴾ قال قتادة: ذكر لنا أنَّهم كانوا اثني عشر رجلًا ﴿فَٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ لِلۡخُرُوجِ﴾ أي: معك إلىٰ غزوةٍ أخرىٰ، ﴿فَقُل لَّن تَخۡرُجُواْ مَعِيَ أَبَدٗا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِيَ عَدُوًّا﴾ أي: تعزيرًا لهم وعقوبةً. ثم علل ذلك بقوله: ﴿إِنَّكُمۡ رَضِيتُم بِٱلۡقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٖ﴾، وهذا كقوله تعالىٰ: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ﴾ [الأنعام: ١١٠] فإنَّ مِن جزاء السَّيِّئةِ السَّيِّئةَ بعدها كما أنَّ مِن ثواب الحسنةِ الحسنةَ بعدها، كما قال في عُمرة الحديبية: ﴿سَيَقُولُ ٱلۡمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقۡتُمۡ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأۡخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعۡكُمۡۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَٰمَ ٱللَّهِۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمۡ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبۡلُ﴾ [الفتح: ١٥].

وقوله تعالىٰ: ﴿فَٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡخَٰلِفِينَ﴾ قال ابن عبَّاس: أي: الرِّجال الذين تخلَّفُوا عن الغزاة. وقال قتادة: ﴿فَٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡخَٰلِفِينَ﴾ أي: مع النِّساء.

قال ابن جرير: وهذا لا يَستَقِيم؛ لأنَّ جمع النِّساء لا يكون بالياء والنون، ولو أُرِيدَ النِّساء لقال: فاقعدوا مع الخَوالف، أو الخالفات، ورجح قول ابن عبَّاس(٢) ﷺ.

﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٖ مِّنۡهُم مَّاتَ أَبَدٗا وَلَا تَقُمۡ عَلَىٰ قَبۡرِهِۦٓۖ إِنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمۡ فَٰسِقُونَ ٨٤ ﴾

أمر الله تعالىٰ رسوله ﷺ أن يَبرأ مِن المنافقين، وألَّا يُصلِّي علىٰ أحدٍ مِنهُم إذا مات، وألَّا يقومَ علىٰ قَبْرِه ليستغفر له أو يدعو له؛ لأنَّهم كفروا بالله ورسوله، وماتُوا عليه. وهذا حكمٌ عامٌّ في كلِّ مَن عُرِفَ نفاقه، وإن كان سبب نزول الآية في عبد الله بن أُبيٍّ بن سلول رأس المنافقين.

كما قال البخاري: حدَّثنا عُبَيد بن إسماعيل، عن أبي أسامة، عن عبيد الله، عن نافع، عن ابن عمر قال: لما توفي عبد الله -هو ابن أبي- جاء ابنه عبد الله بن عبد الله إلىٰ رسول الله ﷺ، فسأله أن يعطيه

---

(١) ضعيف جدًّا: أخرجه أبو الدنيا في «صفة النار» (١/ ١٣٢)، وفي إسناده حماد بن عمرو النصيبي؛ قال البخاري: منكر الحديث، وقال النسائي: متروك، وقال ابن معين: من المعروفين بالكذب، وفيه زيد بن رفيع: ضعيف.

(٢) لوحة (٢٥٦ أ).

قميصه يُكفَّن فيه أباه، فأعطاه، ثم سأله أن يُصَلِّي عليه، فقام رسولُ الله ﷺ ليصلي عليه، فقام عمر فأخذ بثوب رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، تُصلِّي عليه وقد نهاك ربُّك أن تصلي عليه؟! فقال رسول الله ﷺ: «**إنَّمَا خيَّرَني اللهُ فقَالَ**: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ **وَسَأزيدُهُ عَلَىٰ السَّبْعِينَ**». قال: إنه منافق! قال: فصلَّىٰ عليه رسولُ الله ﷺ فأنزل الله ﷻ آية: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾ (١).

وكذا رواه مسلم عن أبي بكر بن أبي شيبة، عن أبي أسامة حماد بن أسامة به.

ثم رواه البخاري عن إبراهيم بن المنذر، عن أنس بن عياض، عن عبيد الله -وهو ابن عمر العمري- به، وقال: فصلىٰ عليه، وصلَّيْنا معه، وأنزل الله: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا ...﴾ الآية.

وهكذا رواه الإمام أحمد، عن يحيىٰ بن سعيد القطان، عن عبيد الله به.

وقد رُوِيَ مِن حديث عمرَ بن الخطاب نفسه أيضًا بنحو من هذا، فقال الإمام أحمد:

حدَّثنا يعقوب، حدَّثنا أبي، عن ابن إسحاق، حدَّثني الزهري، عن عبيد الله بن عبد الله، عن ابن عبَّاس قال: سمعت عمرَ بن الخطاب ﷺ يقول لما تُوفِّي عبد الله بن أُبي [دُعِيَ رسول الله ﷺ للصلاة عليه، فقام إليه، فلما وقف عليه يُرِيدُ الصلاة تحولتُ حتىٰ قُمْتُ في صدره، فقلت: يا رسول الله، أعَلَىٰ عَدُوِّ الله عبد الله بن أُبي] (٢) القائل يوم كذا: كذا وكذا -يُعَدِّد أيَّامه- قال: ورسول الله ﷺ يتبسم، حتىٰ إذا أكثرت عليه قال: «**أَخِّرْ عَنِّي يَا عُمَرُ، إِنِّي خُيِّرْتُ فَاخْتَرْتُ، قَدْ قِيلَ لِي**: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ (٣) [التوبة: ٨٠] **لَوْ أَعْلَمُ أَنِّي إِنْ زِدْتُ عَلَىٰ السَّبْعِينَ غُفِرَ لَهُ لَزِدْتُ**». قال: ثم صلَّىٰ عليه، ومشىٰ معه، وقام علىٰ قبره حتىٰ فُرغ منه -قال: فَعَجَبٌ لي وجراءتي علىٰ رسول الله ﷺ، والله ورسوله أعلم! قال: فوالله ما كان إلا يسيرًا حتىٰ نزلت هاتان الآيتان: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ﴾.

فما صلَّىٰ رسول الله ﷺ بعده علىٰ منافق، ولا قام علىٰ قبره، حتىٰ قبضه الله ﷻ (٤).

وهكذا رواه الترمذي في «التفسير» من حديث محمَّد بن إسحاق، عن الزهري به. وقال: حسن صحيح. ورواه البخاري عن يحيىٰ بن بُكَير، عن الليث، عن عُقَيل، عن الزهري به، فذكر مثله. وقال: «**أَخِّرْ عَنِّي يَا عُمَرُ**». فلما أكثرت عليه قال: «**إِنِّي خُيِّرْتُ فَاخْتَرْتُ، وَلَوْ أَعْلَمُ أَنِّي إِنْ زِدْتُ عَلَىٰ السَّبْعِينَ يُغْفَرْ لَهُ لَزِدْتُ عَلَيْهَا**». قال: فصلىٰ عليه رسول الله ﷺ ثم انصرف، فلم يلبث إلا يسيرًا حتىٰ نزلت الآيتان من براءة: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ...﴾ الآية، فعجبتُ بعدُ من جُرْأتي علىٰ

---

(١) البخاري (٤٦٧٠)، ومسلم (٢٧٧٤)، وانظر: «صحيح البخاري» (٤٦٧٢) وأحمد في «المسند» (٢/ ١٨).
(٢) ما بين المعقوفتين سقط من (ز)، وهي مثبتة في «المسند».
(٣) لوحة (٢٥٦ب).
(٤) البخاري (٤٦٧١) (٤٦٧٢)، والترمذي (٣٠٩٧)، وأحمد (١/ ١٦).

رسول الله ﷺ، ورسول الله ﷺ أعلم(١).

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا محمَّد بن أبي عُبَيد، حدَّثنا عبد الملك، عن أبي الزبير، عن جابر قال: لما مات عبد الله بن أُبَيّ، أتىٰ ابنه النَّبيَّ ﷺ فقال: يا رسول الله، إنَّك إن لم تأته لم نزل نُعَيَّر بها، فأتاه النَّبيُّ ﷺ، فوجده قد أدخل في حُفْرَتِهِ، فقال: أفلا قبل أن تدخلوه! فَأخرجَ مِن حُفْرَته، وتَفَل عليه من قرنه إلىٰ قدمه، وألبسه قميصه(٢).

ورواه النَّسائي، عن أبي داود الحراني، عن يعلىٰ بن عبيد، عن عبد الملك -وهو ابن أبي سليمان- به.

وقال البخاري: حدَّثنا عبد الله بن عثمان، أخبرنا ابن عُيَينة، عن عمرو، سمع جابر بن عبد الله قال: أتىٰ النَّبيُّ ﷺ عبد الله بن أُبَيّ بعد ما أدخل في قبره، فأمر بِهِ فأخرج، ووضع علىٰ رُكْبَتَيْهِ، ونفث عليه مِن رِيقِهِ، وألبسه قميصه، والله أعلم(٣).

وقد رواه أيضًا في غير موضع مع مسلم والنسائي، من غير وجه، عن سفيان بن عيينة به.

وقال الإمام أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار في «مسنده»: حدَّثنا عمرو بن علي، حدَّثنا يحيىٰ، حدَّثنا مجالد، حدَّثنا عامر، حدَّثنا جابر (ح) وحدَّثنا يوسف بن موسىٰ، حدَّثنا عبد الرَّحمن بن مغراء الدوسي، حدَّثنا مجالد، عن الشعبي، عن جابر قال: مات رأس المنافقين(٤) -قال يحيىٰ بن سعيد: بالمدينة- فأوصىٰ أن يصلي عليه النَّبيُّ ﷺ، فجاء ابنه إلىٰ رسول الله ﷺ فقال:

إن أبي أَوْصَىٰ أن يكفن في قَمِيصِكَ -وهذا الكلام في حديث عبد الرحمن بن مغراء- قال يحيىٰ في حديثه: فصلىٰ عليه، وألبسه قميصه، فأنزل الله تعالىٰ: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنۡهُم مَّاتَ أَبَدٗا وَلَا تَقُمۡ عَلَىٰ قَبۡرِهِۦٓ﴾ وزاد عبد الرحمن: وخلع النَّبيُّ ﷺ قميصه، فأعطاه إيَّاه، ومشىٰ فصلَّىٰ عليه، وقام علىٰ قبره، فأتاه جبريل عليه السلام لما ولىٰ قال: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنۡهُم مَّاتَ أَبَدٗا وَلَا تَقُمۡ عَلَىٰ قَبۡرِهِۦٓ﴾ وهذا إسناد لا بأس به، وما قبله شاهد له(٥).

وقال الإمام أبو جعفر الطبري: حدَّثنا [أحمد بن إسحاق، حدَّثنا](٦) أبو أحمد، حدَّثنا حماد بن سلمة، عن يزيد الرقاشي، عن أنس: أن رسول الله ﷺ أراد أن يُصَلِّي علىٰ عبد الله بن أُبَيّ، فأخذ جبريل بثوبه وقال: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنۡهُم مَّاتَ أَبَدٗا وَلَا تَقُمۡ عَلَىٰ قَبۡرِهِۦٓ﴾(٧).

---

(١) انظر التعليق السابق.

(٢) رواه أحمد (٣/ ٣٧١)، وفي إسناده أبو الزبير: مدلس وقد عنعن، لكن أصل الحديث في «صحيح البخاري» (١٢٧٠، ١٣٥٠، ٥٧٩٥)، ومسلم (٢٧٧٣).

(٣) رواه البخاري (١٢٧٠) (١٣٥٠) (٥٧٩٥)، ومسلم (٢٧٧٣)، والنسائي (٤/ ٣٧، ٣٨).

(٤) لوحة (٢٥٧ أ).

(٥) عزاه المصنف إلىٰ البزار في «مسنده»، وقد رواه ابن ماجه (١٥٢٤)، والطبري (١٠/ ٢٢٥)، وفيه مجالد بن سعيد: ليس بالقوي لكنه لا بأس به في الشواهد، ويشهد له ما تقدم من الأحاديث.

(٦) سقط من (ز)، وإثباتها موافق لما في «المسند».

(٧) رواه الطبري (١٠/ ٢٠٥)، وأبو يعلىٰ (٧/ ١٤٥)، وفيه يزيد الرقاشي: ضعيف.

ورواه الحافظ أبو يعلىٰ في مسنده، من حديث يزيد الرقاشي وهو ضعيف.

وقال قتادة: أرسل عبد الله بن أبيّ إلىٰ رسول الله ﷺ وهو مريض، فلما دخل عليه قال له النَّبيُّ ﷺ: «أَهْلَكَكَ حُبُّ يَهُودَ». قال: يا رسول الله، إنَّما أرسلتُ إليك لتستغفر لي، ولم أرسل إليك لتؤنبني! ثم سأله عبد الله أن يُعْطِيَه قميصه أن يكفن فيه [أباه](١)، فأعطاه إيَّاه، وصلَّىٰ عليه، وقام علىٰ قبره، فأنزل الله ﷻ: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾(٢).

وقد ذكر بعض السَّلف أنَّه إنَّما ألبسه قميصه لأنَّ عبد الله بن أُبيّ لما قدم العبَّاس طُلب له قميص، فلم يُوجَد علىٰ تفصيله إلا ثوب عبد الله بن أُبَيّ؛ لأنَّه كان ضخمًا طويلًا؛ ففعل ذلك به رسول الله ﷺ مكافأةً له، فالله أعلم؛ ولهذا كان رسول الله ﷺ بعد نزول هذه الآية الكريمة عليه لا يُصَلِّي علىٰ أحدٍ من المُنَافِقِين، ولا يقوم علىٰ قبره.

كما قال الإمام أحمد: حدَّثنا يعقوب، حدَّثنا أبي، عن أبيه، حدَّثني عبد الله بن أبي قتادة، عن أبيه قال: كان رسول الله ﷺ إذا دعي لجنازةٍ سأل عنها، فإن أثني عليها خيرًا قام فصلىٰ عليها، وإن أثني عليها غير ذلك قال لأهلها: «شَأْنَكُمْ بِهَا»، ولم يُصَلِّ عليها(٣).

وكان عمر بن الخطاب لا يصلي علىٰ جنازة من جُهِل حاله، حتىٰ يصلي(٤) عليها حذيفة بن اليمان؛ لأنَّه كان يعلم أعيان منافقين قد أخبره بهم رسول الله ﷺ؛ ولهذا كان يقال له: «صاحب السر» الذي لا يعلمه غيره؛ أي: من الصحابة(٥).

وقال أبو عُبَيد في كتاب «الغريب»، في حديث عُمَر أنَّه أراد أن يصلي علىٰ جنازة رجل، فَمَرَزَه حُذيفة، كأنه أراد أن يَصُده عن الصلاة عليها، ثم حكي عن بعضهم أن «المَرْزَ» بلغة أهل اليمامة هو: القَرْص بأطراف الأصابع.

ولما نهىٰ الله ﷻ عن الصَّلاة علىٰ المنافقين والقِيَام علىٰ قبورهم للاسْتِغْفَار لهم، كان هذا الصنيعُ مِن أكبر القُرُبات في حق المؤمنين، فشرع ذلك، وفي فعله الأجر الجزيل، لما ثبت في «الصِّحاح» وغيرها من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ شَهِدَ الجَنَازَةَ حَتَّىٰ يُصَلَّىٰ عَلَيْهَا فَلَهُ قِيرَاطٌ، وَمَنْ شَهِدَهَا حَتَّىٰ تُدْفَنَ فَلَهُ قِيرَاطَانِ». قيل: وما القيراطان؟ قال: «أَصْغَرُهُمَا مِثْلُ أُحُدٍ»(٦).

وأما القيام عند قبر المؤمن إذا مات فقد قال أبو داود: حدَّثنا إبراهيم بن موسىٰ الرازي، أخبرنا هشام، عن عبد الله بن بَحير، عن هانئ -وهو أبو سعيد البربري، مولىٰ عثمان بن عفان- عن عثمان رضي الله عنه قال: كان النَّبيُّ ﷺ إذا فرغ مِن دفن الرجل وقف عليه وقال: «اسْتَغْفِرُوا لِأَخِيكُمْ، وَاسْأَلُوا لَهُ

---

(١) سقط من (ز).
(٢) رواه الطبري (١٠/ ٢٠٦)، وإسناده مرسل.
(٣) صحيح: رواه أحمد (٥/ ٢٩٩)، وإسناده صحيح.
(٤) لوحة (٢٥٧ ب).
(٥) رواه الطبري (١١/ ١١)، وإسناده ضعيف وعلته الإرسال.
(٦) البخاري (١٣٢٥)، ومسلم (٩٤٥).

التَّثبِيتَ، فَإِنَّهُ الآنَ يُسأَلُ»(١).

انفرد بإخراجه أبو داود رَحِمَهُ اللَّهُ.

﴿ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾

قد تقدَّم تفسير نظير هذه الآية الكريمة ولله الحمد.

﴿ وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾

يقول تعالىٰ منكرًا وذامًّا للمتخلفين عن الجهادِ، النَّاكِلين عنه مع القدرة عليه، ووجود السَّعة والطَّوْل(٢)، واستأذنوا الرسول في القعود، وقالوا: ﴿ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ ورضوا لأنفسهم بالعَار والقُعُود في البلد مع النِّساء، وهنَّ الخوالف، بعد خروج الجيش، فإذا وقع الحرب كانُوا أجبن الناس، وإذا كان أَمْنٌ كانوا أكثر الناس كلامًا، كما قال الله تعالىٰ عنهم في الآية الأخرىٰ: ﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً﴾ [الأحزاب:١٩] أي: عَلَت ألسنتهم بالكلام الحاد(٣) القَوِيِّ في الأمن، وفي الحرب أجبن شيء، وكما قال الشاعر:

أَفِـي الـسِّلْمِ أَعْيَـارًا جفَـاءً وَغِلْظَـةً ... وَفِـي الحَـرْبِ أَشْبَاهَ النِّسَاءِ العَـوَارِكِ(٤)

وقال تعالىٰ في الآية الأخرىٰ: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ﴾ الآية [محمَّد: ٢٠-٢٢].

وقوله: ﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أي: بسبب نكولهم عَن الجِهَاد والخروج مع الرسول في سبيل الله، ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ أي: لا يفهمون ما فِيهِ صلاحٌ لهم فيَفْعَلُوه، ولا ما فيه مضرَّةٌ لهم فيجتنبوه.

﴿ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ ﴾.

---

(١) حسن: أبو داود (٣٢٢١)، والحاكم (١/ ٣٧٠)، وإسناده حسن، رجاله ثقات، عدا هانئ مولىٰ عثمان: صدوق، والحديث حسنه النووي في «الأذكار» (ص١٣١)، وقال الحاكم: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في «المشكاة» (١٣٣).

(٢) الطَّوْل: الغنىٰ.

(٣) لوحة (٢٥٨ أ).

(٤) الأعيار: جمع عَير، وهو الحمار، أهليًّا كان أم وحشيًّا، وأما العوارك: فهن الحوائض، وعَرَكَت المرأة ودَرَسَت وطَمَثَت: إذا حاضت.

لما ذكر تعالىٰ ذم المنافقين، بيَّن ثناء المؤمنين، وما لهم في آخرتهم، فقال: ﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟﴾ إلىٰ آخر الآيتين مِن بيان حالهم ومآلهم.

وقوله: ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ﴾ أي: في الدَّار الآخرة، في جنات الفردوس والدرجات العلىٰ.

﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾﴾

ثم بَيَّن تعالىٰ حال ذَوِي الأعذار في ترك الجهاد الَّذين جاءوا رسول الله ﷺ يَعْتَذِرُون إليه، ويُبَيِّنُون له ما هم فيه من الضعف، وعدم القدرة علىٰ الخروج، وهم من أحياء العرب ممن حول المدينة.

قال الضَّحَّاك، عن ابن عبَّاس: إنه كان يقرأ: «وَجَاءَ المُعْذِرُون» بالتَّخفيف[1]، ويقول: هم أهل العذر.

وكذا روي عن ابن عيينة، عن حُمَيد، عن مجاهد سواء.

قال ابن إسحاق: وبلغَنِي أَنَّهم نَفَر من بني غفار منهم: خُفاف بن إيماء بن رَحَضة.

وهذا القول هو الأظهر في معنىٰ الآية؛ لأنه قال بعد هذا: ﴿وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي: لم يَأْتُوا فيعتذروا.

وقال ابن جُرَيْج عن مجاهد: ﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ قال: نفرٌ مِن بني غفار، جاءوا فاعتذروا فلم يَعْذُرْهم الله. وكذا قال الحسن، وقتادة، ومحمَّد بن إسحاق، والقول الأول أظهر والله أعلم، لما قدمنا من قوله بعده: ﴿وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي: وقَعَد آخرون من الأعراب عن المجيء للاعْتِذَار، ثم أوعدهم بالعذاب[2] الأليم، فقال: ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ۞ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾﴾

ثم بَيَّن تعالىٰ الأعذار التي لا حَرَج علىٰ مَن قعد فيها عن القتال، فذكر منها ما هو لازمٌ للشخص لا ينفك عنه، وهو الضَّعف في التَّركيب الذي لا يستطيع معه الجِلَاد في الجهاد، ومنه العمىٰ والعَرَج ونحوهما؛ ولهذا بدأ به. وما هو عارض بسبب مرض عَنَّ له في بَدَنِه، شغَلَه عن الخروج في سبيل الله، أو بسبب فقره لا يَقْدِر علىٰ التَّجَهُّز للحرب، فليس علىٰ هؤلاء حَرَجٌ إذا قعدوا ونصحوا في حال قعودهم،

(١) متواترة: قَرَأَ (الْمُعْذِرُونَ) يَعْقُوبُ وَوَافَقَهُ الشَّنبُوذِيُّ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ (الْمُعَذِّرُونَ).

(٢) لوحة (٢٥٨ ب).

ولم يُرْجِفُوا بالنَّاس، ولم يُثَبِّطوهم، وهم مُحْسِنُون في حالهم هذا؛ ولهذا قال: ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

وقال سفيان الثوري، عن عبد العزيز بن رفيع، عن أبي ثمامة رحمه الله قال: قال الحواريون: يا روح الله، أخبرنا عن الناصح لله؟ قال: الذي يُؤْثِرُ حقَّ الله علىٰ حقِّ الناس، وإذا حدث له أمران -أو: بدا له أمر الدنيا وأمر الآخرة- بَدَأَ بالَّذي للآخرة، ثم تفرَّغ للَّذِي للدُّنيا[1].

وقال الأوزاعي: خرج الناس إلىٰ الاستسقاء، فقام فيهم بلال بن سعد، فحمد الله وأثنىٰ عليه، ثم قال: يا معشر من حضر: ألستم مُقِرِّين بالإساءة؟ قالوا: اللَّهمَّ نعم. فقال: اللَّهمَّ إنا نسمعك تقول: ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾ اللَّهمَّ، وقد أقررنا بالإساءة فاغْفِر لنا وارْحَمْنا واسْقِنا. ورفع يديه ورفعوا أيديهم؛ فَسُقوا.

وقال قتادة: نزلت هذه الآية في عائذ بن عمرو المزني[2].

[وقال][3] ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا هشام بن عبيد الله الرازي، حدَّثنا ابن جابر، عن ابن فروة، عن عبد الرحمن بن أبي ليلىٰ، عن زيد بن ثابت قال: كنت أكتبُ لرسول الله ﷺ، فكنت أكتب «براءة» فإني لواضعٌ القلم علىٰ أذني؛ إذ أُمِرْنا بالقتال، فجعل رسول الله ﷺ ينظر ما ينزل عليه، إذ جاء أَعْمَىٰ فقال: كيف بي يا رسول الله وأنا أعمىٰ؟ فأنزل الله: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ ...﴾ الآية[4].

وقال العوفي، عن ابن عبَّاس في هذه الآية: وذلك أن رسول الله[5] ﷺ أمرَ الناس أن يَنْبَعِثُوا غازين معه، فجاءته عصابةٌ من أصحابه، فيهم عبد الله بن مُغَفَّل المزني[6] فقالوا: يا رسول الله، احملنا. فقال لهم: «وَاللهِ لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ». فتولوا ولهم بكاء، وعزَّ عليهم أن يجلسوا عن الجهاد، ولا يجدون نفقةً ولا محملًا. فلما رأىٰ الله حِرْصَهم علىٰ محبته ومحبة رسوله أنزل عذرهم في كتابه، فقال: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ

---

(١) رواه ابن أبي حاتم (١٠٢٠٧)، وعزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٣٦٢) إلىٰ ابن أبي شيبة (٣٤٢٣٤)، وأحمد في «الزهد» (٣٠)، والحكيم الترمذي في «نوادر الأصول»، ورواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٤٧/ ٤٤٩)، والإسناد مرسل، وأبو ثمامة هو أبو ثمامة الصائدي، أورده البخاري في «التاريخ الكبير» في الكنىٰ (ت١٣٤) ولم يذكر فيه جرحًا ولا تعديلًا، وكذلك ابن أبي حاتم (٩/ ٣٥١)، قال: وسمعت أبي يقول: لا أعرف اسمه؛ فالإسناد ضعيف، وفي عبارة ابن كثير: «رضي الله عنه» ما يشكل علىٰ القارئ أنه صحابي وليس كذلك.

(٢) **ضعيف**: رواه الطبري (١٠/ ٢١١)، وعزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٢٦١) إلىٰ ابن المنذر، وابن أبي حاتم (٧/ ٣٣٧ برقم ١٠٦٢٣)، وأبي الشيخ، وإسناده مرسل.

(٣) بياض في (ز).

(٤) **ضعيف**: رواه ابن أبي حاتم (١٠٦٩٧)، وعزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٢٦١) إلىٰ ابن أبي حاتم والدارقطني في «الأفراد» وابن مردويه، وفي إسناده ابن أبي ليلىٰ: سيئ الحفظ.

(٥) لوحة (٢٥٩ أ).

(٦) في (ز): (عبد الله بن معقل بن مقرن المزني)، والمثبت موافق لما في «الطبري».

حَرَجٌ﴾ إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[١].

وقال مجاهد في قوله: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ﴾ نزلت في بني مقرن من مزينة.

وقال محمَّد بن كعب: كانوا سبعة نفر، من بني عمرو بن عوف: سالم بن عُمَيْر[٢] -ومن بني واقف: هَرَمي[٣][٤] بن عمرو- ومن بني مازن بن النجار: عبد الرحمن بن كعب، ويكنىٰ أبا ليلىٰ -ومن بني المُعَلىٰ: [سلمان بن صخر- ومن بني حارثة: عبد الرحمن بن يزيد، أبو عبلة، وهو الذي تصدق بعرضه فقبله الله منه][٥]، ومن بني سَلِمة: عمرو بن عَنَمة وعبد الله بن عمرو المزني[٦].

وقال محمَّد بن إسحاق في سياق غزوة تبوك: ثم إنَّ رجالًا من المسلمين أَتَوْا رسول الله ﷺ، وهم البكَّاءُون، وهم سبعة نفر من الأنصار وغيرهم، مِن بني عمرو بن عوف: سالم بن عُمَير، وعلبة ابن زيد أخو بني حارثة، وأبو ليلىٰ عبد الرحمن بن كعب، أخو بني مازن بن النجار، وعمرو بن الحمام بن الجموح، أخو بني سَلِمة، وعبد الله بن المُغَفَّل المزني؛ وبعض الناس يقول: بل هو عبد الله بن عمرو المزني، وهَرَميُّ بن عبد الله، أخو بني واقف، وعِرْباض بن سارية الفزاري، فاستحملوا[٧] رسول الله ﷺ، وكانوا أهل حاجةٍ، فقال: «**لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ**» فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنًا ألا يجدوا ما ينفقون .

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا عمر بن الأودي، حدَّثنا وَكيع، عن الربيع، عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَقَدْ خَلَّفْتُمْ بِالمَدِينَةِ أَقْوَامًا، مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ، وَلَا قَطَعْتُمْ وَادِيًا، وَلَا نِلْتُمْ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا وَقَدْ شَرِكُوكُمْ فِي الأَجْرِ**»، ثم قرأ: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ ...﴾ الآية[٨].

وأصل هذا الحديث في «الصحيحين» من حديث [أنس][٩] أن رسول الله ﷺ قال: «**إِنَّ بِالمَدِينَةِ أَقْوَامًا مَا قَطَعْتُمْ وَادِيًا، وَلَا سِرْتُمْ مَسِيرًا إِلَّا وَهُمْ مَعَكُمْ**». قالوا: وهم بالمدينة؟ قال: «**نَعَمْ، حَبَسَهُمُ العُذْرُ**»[١٠].

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا وَكِيع، حدَّثنا الأعمش، عن أبي سفيان، عن جابر قال: قال رسول الله

---

(١) ابن أبي حاتم (١٠٢٠٠)، وإسناده مسلسل بالضعفاء.
(٢) في (ز): (سالم بن عوف)، والمثبت موافق لتفسير «الطبري».
(٣) في (ز): (حرمي بن عمرو)، وهو خطأ.
(٤) قال السلامة: في جميع النسخ (حرمي)، والتصويب من «أسد الغابة»، و«الإصابة» (٤/ ١٩٩)، وهو مستفاد من طبعة «الشعب».
(٥) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).
(٦) ضعيف: رواه الطبري (١٠/ ٢١٣)، وإسناده مرسل.
(٧) أي: طلبوا منه ما يحملهم عليه.
(٨) رواه ابن أبي حاتم (١٠٢٠٥)، وهو مرسل؛ لأنه من رواية الحسن البصري ولم يسنده، ولكن يشهد له الحديث الآتي دون ذكر الآية.
(٩) بياض في (ز)، والزيادة من «البخاري».
(١٠) حديث أنس رضي الله عنه من أفراد البخاري (٢٨٣٩) ولم يخرجه مسلم، وإنما أخرج مسلم (١٩١١) نحوه من حديث جابر رضي الله عنه.

ﷺ[(١)]: «لَقَدْ خَلَّفْتُمْ بِالْمَدِينَةِ رِجَالًا مَا قَطَعْتُمْ وَادِيًا، وَلَا سَلَكْتُمْ طَرِيقًا إِلَّا شَرِكُوكُمْ فِي الْأَجْرِ، حَبَسَهُمُ الْمَرَضُ»[(٢)].

ورواه مسلم، وابن ماجه، من طرق، عن الأعمش به.

ثم ردَّ تعالىٰ الملامة على الذين يستأذنون في القعود وهم أغنياء، وأنَّبهم في رضاهم بأن يكونوا مع النساء الخوالف في الرحال، ﴿وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾.

﴿يَعۡتَذِرُونَ إِلَيۡكُمۡ إِذَا رَجَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡۚ قُل لَّا تَعۡتَذِرُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكُمۡ قَدۡ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنۡ أَخۡبَارِكُمۡۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمۡ إِذَا ٱنقَلَبۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ لِتُعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡۖ فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡۖ إِنَّهُمۡ رِجۡسٞۖ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحۡلِفُونَ لَكُمۡ لِتَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡۖ فَإِن تَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرۡضَىٰ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ[(٣)] ﴿٩٦﴾﴾.

أخبر تعالىٰ عن المنافقين بأنهم إذا رجعوا إلى المدينة أنهم يعتذرون إليهم، ﴿قُل [لَّا تَعۡتَذِرُواْ][(٤)] لَن نُّؤۡمِنَ لَكُمۡ﴾ أي: لن نصدقكم، ﴿قَدۡ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنۡ أَخۡبَارِكُمۡ﴾ أي: قد أعْلَمَنَا الله أحوالكم، ﴿وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ﴾ أي: سيظهر أعمالكم للناس في الدنيا، ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ أي: فيخبركم بأَعْمَالِكُم، خيرها وشرها، ويجزيكم عليها.

ثم أخبر عنهم أنَّهم سيحلفون معتذرين لتعرضوا عنهم فلا تؤنِّبوهم، ﴿فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡ﴾ احتقارًا لهم، ﴿إِنَّهُمۡ رِجۡسٞ﴾ أي: خُبثاء نَجِسٌ بواطنهم واعتقاداتهم، ﴿وَمَأۡوَىٰهُمۡ﴾ في آخرتهم ﴿جَهَنَّمُ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ أي: من الآثام والخطايا.

وأخبر أنهم وإن رضوا عنهم بحلفهم[(٥)] لهم، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرۡضَىٰ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ أي: الخارجين عن طاعته وطاعة رسوله؛ فإنَّ الفسق هو الخروج، ومنه سميت الفأرة «فُوَيْسِقة» لخروجها من جُحرها للإفساد، ويقال: «فسقت الرطبة»: إذا خرجت من أكمامها.

---

(١) لوحة (٢٥٩ ب).
(٢) رواه مسلم (١٩١١)، وابن ماجه (٢٧٦٥)، وأحمد (٣/ ٢٠٠).
(٣) قال الشيخ السعدي رحمه الله: وتأمل كيف قال: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرۡضَىٰ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ ولم يقل: «فإن الله لا يرضىٰ عنهم» ليدل ذلك علىٰ أن باب التوبة مفتوح، وأنهم مهما تابوا هم أو غيرهم، فإن الله يتوب عليهم، ويرضىٰ عنهم. وأما ما داموا فاسقين، فإن الله لا يرضىٰ عليهم؛ لوجود المانع من رضاه، وهو خروجهم عن ما رضيه الله لهم من الإيمان والطاعة، إلىٰ ما يغضبه من الشرك، والنفاق، والمعاصي.
وقال رحمه الله - أيضًا- واعلم أن المسيء المذنب له ثلاث حالات: إما أن يُقبل قوله وعذره، ظاهرًا وباطنًا، ويُعفىٰ عنه بحيث يبقىٰ كأنه لم يذنب. فهذه الحالة هي المذكورة هنا في حق المنافقين، أن عذرهم غير مقبول، وأنه قد تقررت أحوالهم الخبيثة وأعمالهم السيئة. وإما أن يعاقبوا بالعقوبة والتعزير الفعلي علىٰ ذنبهم. وإما أن يعرض عنهم، ولا يقابلوا بما فعلوا بالعقوبة الفعلية، وهذه الحال الثالثة هي التي أمر الله بها في حق المنافقين.
(٤) سقط من (ز).
(٥) في (ز): (بحلفائهم).

﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾﴾(١)

أخبر(٢) تعالىٰ أن في الأعراب كفارًا ومنافقين ومُؤمِنِين، وأن كفرهم ونفاقهم أعظم من غيرهم وأَشَدُّ، ﴿وَأَجْدَرُ﴾؛ أي: أحرىٰ ألا يعلموا حدودَ ما أنزل الله علىٰ رسوله، كما قال الأعمش عن إبراهيم قال: جلس أعرابي إلىٰ زَيْد بن صَوْحان وهو يحدث أصحابه، وكانت يده قد أصيبت يوم نهاوَند، فقال الأعرابي: والله إن حديثك ليعجبني، وإن يَدَكَ لَتُرِيبُنِي، فقال زيد: ما يُرِيبك من يدي؟ إنها الشِّمال. فقال الأعرابي: والله ما أدري، اليمين يقطعون أو الشِّمالَ؟ فقال زيد بن صوحان: صدق الله: ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾(٣).

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا عبد الرحمن بن مَهْدِي، حدَّثنا سفيان، عن أبي موسىٰ، عن وهب بن مُنَبِّه، عن ابن عبَّاس، عن النَّبِيِّ ﷺ قال: «مَنْ سَكَنَ الْبَادِيَةَ جَفَا، وَمَنِ اتَّبَعَ الصَّيْدَ غَفَلَ، وَمَنْ أَتَىٰ السُّلْطَانَ افْتُتِنَ»(٤).

ورواه أبو داود، والترمذي، والنسائي من طرق، عن سفيان الثوري، به وقال الترمذي: حسن غريب، لا نعرفه إلا من حديث الثوري.

ولما كانت الغِلْظَة والجفاء في أهل البوادي لم يبعث الله منهم رسولًا وإنما كانت البعثة من أهل القرىٰ، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ [يوسف:١٠٩]، ولما أهدىٰ ذلك الأعرابي تلك الهدية لرسول الله ﷺ فردَّ عليه أضعافها حتىٰ رضي قال: «لَقَدْ هَمَمْتُ أَلَّا أَقْبَلَ هَدِيَّةً إِلَّا مِنْ قُرَشِيٍّ، أَوْ ثَقَفِيٍّ أَوْ أَنْصَارِيٍّ، أَوْ دَوْسِيٍّ»(٥)؛ لأن هؤلاء كانوا يسكنون المدن(٦): مكة، والطائف، والمدينة، واليمن، فهم ألطف أخلاقًا من الأعراب؛ لما في طباع الأعراب من الجفاء.

حديث [الأعرابي في تقبيل الولد: قال مسلم: حدَّثنا أبو بكر بن أبي شيبة وأبو كُرَيْب قالا: حدَّثنا أبو أسامة وابن نُمَيْر، عن هشام، عن أبيه، عن عائشة قالت: قَدِمَ ناسٌ من الأعراب علىٰ رسول الله ﷺ

---

(١) قال الشيخ السعدي رحمه الله: وفي هذه الآية دليل علىٰ أن الأعراب كأهل الحاضرة، منهم الممدوح ومنهم المذموم، فلم يذمهم الله علىٰ مجرد تعربهم وباديتهم؛ إنما ذمهم علىٰ ترك أوامر الله، وأنهم في مظنة ذلك.

(٢) لوحة (٢٦٠ أ).

(٣) رواه الطبري (١٤/ ٤٢٩ -شاكر)، وابن سعد في «الطبقات» (٦/ ١٢٣)، وإسناده حسن.

(٤) صحيح: رواه أحمد (١/ ٢٥٧)، وأبو داود (٢٨٥٩)، والترمذي (٢٢٥٦)، والنسائي (٧/ ١٩٥).

(٥) صحيح: رواه الترمذي (٣٩٤٥)، والنسائي (٣٧٥٩)، وأبو داود (٣٥٣٧).

(٦) في (ز): الملل.

فقالوا: أتُقبِّلون صبيانكم؟ قالوا: نعم. قالوا: ولكنا والله ما نقبِّل. فقال رسول الله ﷺ: «وَأَمْلِكُ[١] إِنْ كَانَ اللهُ نَزَعَ مِنكُمُ الرَّحْمَةَ؟». وقال ابن نمير: «مِنْ قَلْبِكَ الرَّحْمَةَ»[٢]][٣].

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي: عليم بمن يستحق أن يعلمه الإيمان والعلم، ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما قسم بين عباده من العلم والجهل والإيمان والكفر والنفاق، لا يُسأل عما يفعل؛ لعلمه وحكمته.

وأخبر تعالىٰ أن منهم ﴿مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ﴾ أي: في سبيل الله ﴿مَغْرَمًا﴾ أي: غرامة وخسارة، ﴿وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ﴾ أي: ينتظر بكم الحوادث والآفات، ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ أي: هي منعكسة عليهم والسوء دائر عليهم، ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي: سَمِيعٌ لدعاء عباده، عليمٌ بمن يستحق النَّصر ممن يستحق الخِذْلان.

وقوله: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ﴾ هذا هو القسم[٤] الممدوح من الأعراب، وهم الذين يَتَّخِذُون ما يُنفِقُون في سبيل الله قربةً يتقربون بها عند الله، ويَبْتَغُون بذلك دعاء الرسول لهم، ﴿أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ﴾ أي: ألا إن ذلك حاصل لهم، ﴿سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝١٠٠﴾

يُخْبِر تعالىٰ عن رِضَاه عن السَّابقين من المهاجرين والأنصار والتَّابعين لهم بإحسان، ورضاهم عنه بما أعدَّ لهم مِن جنَّات النَّعيم، والنَّعيم المقيم.

قال الشعبي: السَّابقون الأوَّلون من المهاجرين والأنصار مَن أدرك بيعة الرضوان عام الحديبية.

وقال أبو موسىٰ الأشعري، وسعيد بن المسيب، ومحمَّد بن سيرين، والحسن، وقتادة: هم الذين صلَّوْا إلىٰ القبلتين مع رسول الله ﷺ.

وقال محمَّد بن كعب القرظي: مرَّ عمر بن الخطاب برجلٍ يقرأ: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ فأخذ عمر بيده فقال: مَن أَقْرَأَكَ هذا؟ فقال: أُبيُّ بن كعب. فقال: لا تُفارِقْني حتىٰ أذهب بك إليه، فلما جاءه قال عمر: أنت أَقْرَأْتَ هذا هذه الآية هكذا؟ قال: نعم. قال: وسمعتَها من رسول الله ﷺ؟ قال: نعم. لقد كنت أرىٰ أَنَّا رُفِعْنا رفعة لا يبلغها أحدٌ بعدنا، فقال أبيٌّ: تصديق هذه الآية في أول سورة الجمعة: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الجمعة:٣]، وفي سورة الحشر: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [الحشر:١٠]، وفي الأنفال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ مَعَكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنكُمْ ...﴾

---

(١) أي: أو أملك؟ علىٰ الاستفهام الذي يقصد به النفي؛ أي: لا أملك.
(٢) مسلم (٢٣١٧). (٣) ما بين المعقوفتين سقط من (ز). (٤) لوحة (٢٦٠ ب).

[الأنفال: ٧٥] إلىٰ آخر الآية[1]، رواه ابن جرير.

قال: وذكر عن الحسن البصري أنه كان يقرؤها برفع «الأنصارُ»[2] عطفًا علىٰ ﴿وَالسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾.

فقد أخبر الله العظيم أنه قد رَضِيَ عن السابقين الأولين مِنَ المهاجرين والأنصار والذين اتَّبعُوهم بإحسان: فيا ويل من أبغضهم أو سَبَّهم أو أبغض أو سبَّ بعضهم، ولا سيما سيدُ الصحابة بعد الرسول وخيرُهم وأفضَلُهم؛ أعني: الصِّدِّيقَ الأكبرَ والخليفةَ الأعظمَ أبا بكر بن أبي قحافة رضي الله عنه فإن الطائفة المخذولة من الرافضة يعادون أفضل الصحابة[3] ويُبغضونهم ويَسُبُّونهم، عياذًا بالله مِن ذلك. وهذا يدلُّ علىٰ أن عقولهم معكوسة، وقلوبهم منكوسة، فأين هؤلاء من الإيمان بالقُرْآنِ، إذ يسبُّون من رضي الله عنهم؟ وأما أهل السُّنَّة فإنَّهم يترضَّوْن عمن رَضِيَ الله عنه ويَسُبُّون مَن سبه الله ورسوله، ويوالون مَن يوالي الله، ويُعَادون مَن يُعَادِي الله، وهم مُتَّبِعون لا مُبْتَدِعون، ويقتدون ولا يبتدون ولهذا هم حزب الله المفلحون وعباده المؤمنون.

﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾

يخبر تعالىٰ رسوله، صلوات الله وسلامه عليه، أن في أحياءِ العرب ممن حول المدينة منافقين، وفي أهلِ المدينة أيضًا منافقون ﴿مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾ أي: مَرَنُوا واستمروا عليه؛ ومنه يقال: شيطان مريدٌ ومارِدٌ، ويقال: تمرَّد فلان علىٰ الله؛ أي: عتا وتجبَّر.

وقوله: ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ لا ينافي قوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ...﴾ الآية [محمَّد: ٣٠]؛ لأنَّ هذا مِن باب التَّوَسُّم فيهم بصفات يعرفون بها، لا أنَّه يعرف جميع من عنده مِن أهل النِّفاق والريب علىٰ التعيين. وقد كان يعلم أنَّ في بعض من يخالطه من أهل المدينة نفاقًا، وإن كان يراه صباحًا ومساءً.

وشاهِدُ هذا بالصِّحَّة ما رواه الإمام أحمد في «مسنده» حيث قال: حدَّثنا محمَّد بن جعفر، حدَّثنا شعبة، عن النعمان بن سالم، عن رجل، عن جُبَير بن مطعم رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، إنهم يزعمون أنه ليس لنا أجر بمكة، فقال: «لَتَأْتِيَنَّكُمْ أُجُورُكُمْ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي جُحْرِ ثَعْلَبٍ» وأصغىٰ[4] إليَّ رسول الله ﷺ برأسه فقال: «إِنَّ فِي أَصْحَابِي مُنَافِقِينَ»[5].

---

(١) ضعيف: رواه الطبري (١١/ ٨)، وعزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٢٦٨) إلىٰ أبي الشيخ (١١/ ٨)، وإسناده مرسل.

(٢) متواترة: قَرَأَ (وَالأَنْصَارُ) يَعْقُوبُ وَوَافَقَهُ الْحَسَنُ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ (وَالأَنْصَارِ).

(٣) لوحة (٢٦١ أ).

(٤) يعني: مال إليه برأسه.

(٥) ضعيف: رواه أحمد (٤/ ٨٣)، وفيه رجل لم يسم.

ومعناه: أنَّه قد يبوح بعض المنافقين والمرجفين من الكلام بما لا صحة له، ومن مثلهم صَدَر هذا الكلام الذي سمعه جُبَير بن مطعم. وتقدم في تفسير قوله: ﴿وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ﴾ [التوبة: ٧٤] أنه ﷺ أعلم حُذَيفة بأعيان أربعة عشر أو خمسة عشر منافقًا، وهذا تخصيصٌ لا يَقْتَضِي أنَّه اطَّلع علىٰ أسمائهم وأعيانهم كُلِّهم، والله أعلم.

وروىٰ الحافظ ابن عساكر في ترجمة «أبي عمر البيروتي» من طريق هشام بن عمار: حدَّثنا صدقة بن خالد، حدَّثنا بن جابر، حدَّثني شيخ ببيروت يُكَنَّىٰ أبا عمر، أظنه حدَّثني عن أبي الدرداء[1]؛ أن رجلًا يقال له: «حرملة» أتىٰ النَّبيَّ ﷺ فقال: الإيمان هاهنا، وأشار بيده إلىٰ لسانه، والنفاق هاهنا، وأشار بيده إلىٰ قلبه، ولم يذكر الله إلا قليلًا. فقال رسول الله ﷺ: «**اللَّهُمَّ اجْعَلْ لَهُ لِسَانًا ذَاكِرًا، وَقَلْبًا شَاكِرًا، وَارْزُقْهُ حُبِّي، وَحُبَّ مَنْ يُحِبُّنِي، وَصَيِّرْ أَمْرَهُ إِلَىٰ خَيْرٍ**». فقال: يا رسول الله، إنه كان لي أصحابٌ من المنافقين وكنت رأسًا فيهم، أفلا آتيك بهم؟ قال: «**مَنْ أَتَانَا اسْتَغْفَرْنَا لَهُ، وَمَنْ أَصَرَّ عَلَىٰ دِينِهِ فَاللهُ أَوْلَىٰ بِهِ، وَلَا تَخْرِقَنَّ عَلَىٰ أَحَدٍ سِتْرًا**»[2].

قال: وكذا رواه أبو أحمد الحاكم، عن أبي بكر الباغندي، عن هشام بن عمار به.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن قتادة في هذه الآية أنه قال: ما بال أقوام يتكلَّفون علمَ النَّاس؟ فلانٌ في الجنَّة وفلانٌ في النَّار. فإذا سألت أحدهم عن نفسه قال: لا أدري! لَعَمْرِي أنت بنفسك[3] أعلم منك بأحوالِ النَّاس، ولقد تكلَّفتَ شيئًا ما تكلَّفه الأنبياء قبلك. قال نبي الله نوح: ﴿وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١٢]، وقال نبي الله شعيب: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ [هود: ٨٦]، وقال الله لنبيِّه ﷺ: ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾.

وقال السُّدِّي، عن أبي مالك، عن ابن عبَّاس في هذه الآية قال: قام رسول الله ﷺ خطيبًا يوم الجمعة فقال: «**اخْرُجْ يَا فُلَانُ، فَإِنَّكَ مُنَافِقٌ، وَاخْرُجْ يَا فُلَانُ فَإِنَّكَ مُنَافِقٌ**». فأخرج من المسجد ناسًا منهم، فضحهم. فجاء عمر وهم يخرجون من المسجد فاختبأ منهم حياءً أنَّه لم يشهد الجمعة وظنَّ أن النَّاس قد انصرفوا، واختبئوا هم مِن عُمر؛ ظنُّوا أنه قد عَلِم بأمرهم. فجاء عمر فدخل المسجد فإذا النَّاس لم يُصَلُّوا، فقال له رجل من المسلمين: أبشر يا عُمر، قد فضح الله المنافقين اليوم. قال ابن عبَّاس: فهذا العذاب الأوَّل حين أخرجهم من المسجد، والعذاب الثَّاني عذاب القبر[4].

---

(١) لوحة (٢٦١ ب).

(٢) ضعيف: انظر: «مختصر تاريخ دمشق» (٢٩/ ٧٦)، ورواه كذلك القضاعي في «مسند الشهاب» (٩٣٤)، وعزاه الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٩/ ٦٦٩) إلىٰ الطبراني، (وفيه رجل لم يسم، وبقية رجاله ثقات)، قلت: وهو الذي يكنىٰ: أبا عمرو شيخ من بيروت.

(٣) في (ز): (بنصيبك).

(٤) رواه الطبري (١١/ ١٠)، والطبراني في «الأوسط» (٧٩٢)، وفيه شيخ الطبري «الحسين بن محمَّد العنقري» قال أبو زرعة: كان لا يصدق، وعزاه السيوطي في «الدر المنثور» إلىٰ ابن أبي حاتم (١٠٣٠٣)، وأبي الشيخ، وابن مردويه.

وكذا قال الثوري، عن السُّدِّي، عن أبي مالك نحو هذا.

وقال مجاهد في قوله: ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ يعني: القتل والسباء وقال -في رواية- بالجوع، وعذاب القبر، ﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾.

وقال ابن جريج: عذاب الدنيا، وعذاب القبر، ثمَّ يُرَدُّون إلىٰ عذاب النار.

وقال الحسن البصري: عذاب في الدنيا، وعذاب في القبر.

وقال عبد الرحمن بن زيد: أما عذاب في الدُّنيا فالأموال والأولاد، وقرأ قول الله: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ(١) أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [التوبة: ٥٥] فهذه المصائب لهم عذاب، وهي للمؤمنين أجر، وعذاب في الآخرة في النار ﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ قال: النار.

وقال محمَّد بن إسحاق: ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ قال: هو -فيما بلغني- ما هم فيه مِن أمْرِ الإسلام، وما يدخل عليهم مِن غيظ ذلك علىٰ غير حسبة، ثم عذابهم في القبور إذا صاروا إليها، ثم العذاب العظيم الذي يردون إليه، عذاب الآخرة والخلد فيه.

وقال سعيد، عن قتادة في قوله: ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ عذاب الدُّنيا، وعذاب القَبْرِ، ﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾.

ذكر لنا أنَّ نَبِيَّ الله ﷺ أسرَّ إلىٰ حذيفة باثني عشر رجلًا من المنافقين، فقال: «**سِتَّةٌ مِنْهُمْ تَكْفِيكَهُمُ الدُّبَيْلَةُ: سِرَاجٌ مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ، يَأْخُذُ فِي كَتِفِ أَحَدِهِمْ حَتَّىٰ يُفْضِيَ إِلَىٰ صَدْرِهِ، وَسِتَّةٌ يَمُوتُونَ مَوْتًا**»(٢). وذكر لنا أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان إذا مات رجلٌ ممَّن يُرىٰ أنَّه منهم، نظر إلىٰ حذيفة، فإن صلَّىٰ عليه وإلا تركه. وذُكِر لنا أنَّ عمر قال لحذيفة: أنشدك بالله، أَمِنْهُم أنا؟ قال: لا. ولا أُومِن منها أحدًا بعدك(٣).

﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾﴾

لما بَيَّن تعالىٰ حال المُنافِقِين المُتخلِّفين عن الغزاة رَغبةً عنها وتكذيبًا وشكًّا، شرع في بيان حال المُذْنِبين الَّذين تأخَّروا عن الجهاد كسلًا وميلًا إلىٰ الراحة، مع إيمانهم وتصديقهم بالحقِّ، فقال: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي: أقرُّوا بها واعترفوا فيما بينهم وبين رَبِّهم، ولهم أعمالٌ أُخَرُ صالحةٌ، خلطوا هذه بتلك، فهؤلاء تحت عفوِ الله وغفرانه.

وهذه الآية -وإن كانت نزلت في أناسٍ معينين- إلا أنَّها عامَّةٌ في كل المذنبين الخاطئين المخلطين المتلوِّثين.

وقد قال مجاهد: إنها نزلت في أبي لُبَابة لما قال لبني قريظة: إنَّه الذَّبح، وأشار بيده إلىٰ حلقه.

---

(١) لوحة (٢٦٢ أ).

(٢) ضعيف: الطبري (١١/ ١١) وإسناده معضل، ولكن تقدم نحوه بأسانيد صحيحه، الآية (٧٥).

(٣) ضعيف: وعلته الإرسال. رواه الطبري (١١/ ١١).

وقال ابن عبَّاس: ﴿وَءَاخَرُونَ﴾ نزلت في أبي لُبابة وجماعة مِن أصحابه، تخلَّفُوا عن غزوة تبوك، فقال بَعْضُهم: أبو لبابة وخمسة معه، وقيل: وسبعة معه، وقيل: وتسعة معه، فلما رجع النَّبيُّ ﷺ مِن غزوته ربطوا أنفسهم بِسوَارِي المسجد، وحلَفُوا لا يحلهم إلَّا رسول الله ﷺ، فلمَّا أنزل الله هذه الآية: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ﴾ أطلقهم النَّبيُّ ﷺ، وعفا عنهم (١).

وقال (٢) البخاري: حدَّثنا مُؤَمَّل بن هشام، حدَّثنا إسماعيل بن إبراهيم، حدَّثنا عوف، حدَّثنا أبو رجاء، حدَّثنا سَمُرَة بن جُنْدَب قال: قال رسول الله ﷺ لنا: «أَتَانِي اللَّيْلَةَ آتِيَانِ فَابْتَعَثَانِي فَانْتَهَيْنَا إِلَىٰ مَدِينَةٍ مَبْنِيَّةٍ بِلَبِنِ ذَهَبٍ وَلَبِنِ فِضَّةٍ، فَتَلَقَّانَا رِجَالٌ شَطْرٌ مِنْ خَلْقِهِمْ كَأَحْسَنِ مَا أَنْتَ رَاءٍ، وَشَطْرٌ كَأَقْبَحِ مَا أَنْتَ رَاءٍ، قَالَا لَهُمْ: اذْهَبُوا فَقَعُوا فِي ذَٰلِكَ النَّهْرِ. فَوَقَعُوا فِيهِ، ثُمَّ رَجَعُوا إِلَيْنَا قَدْ ذَهَبَ ذَٰلِكَ السُّوءُ عَنْهُمْ، فَصَارُوا فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ، قَالَا لِي: هَٰذِهِ جَنَّةُ عَدْنٍ، وَهَٰذَا مَنْزِلُكَ. قَالَا: أَمَّا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَانُوا شَطْرٌ مِنْهُمْ حَسَنٌ وَشَطْرٌ مِنْهُمْ قَبِيحٌ، فَإِنَّهُمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا، فَتَجَاوَزَ اللهُ عَنْهُمْ» (٣).

هكذا رواه مختصرًا في تفسير هذه الآية.

﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ (٤) إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ١٠٣ أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَأۡخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١٠٤﴾

أمر الله تعالىٰ رسوله ﷺ بأن يأخُذَ من أموالهم صدقةً يطهرهم ويُزَكِّيهم بها، وهذا عامٌّ، وإن أعاد بعضهم الضمير في «أموالهم» إلىٰ الَّذين اعترفوا بذُنُوبِهم وخلطوا عملًا صالحًا وآخر سيئًا؛ ولهذا اعتقد بعض مانعي الزَّكاة مِن أحياء العرب أنَّ دفع الزكاة إلىٰ الإمام لا يكون، وإنَّما كان هذا خاصًّا برسول الله ﷺ؛ ولهذا احْتجُّوا بقوله تعالىٰ: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡ﴾، وقد رَدَّ عليهم هذا التأويل والفهم الفاسد الصدِّيق أبو بكر وسائر الصحابة، وقاتلوهم حتىٰ أَدَّوا

---

(١) ضعيف: رواه الطبري (١١/ ١٣)، وفيه عطية العوفي: مدلس، والإسناد إليه مسلسل بالضعفاء.

(٢) لوحة (٢٦٢ ب).

(٣) البخاري (٤٦٧٤، ٧٠٤٧)، ورواه مسلم مختصرًا (٢٢٧٥)، والنسائي في «الكبرىٰ» (١٠٢٥٦).

(٤) قال الشيخ القاسمي رحمه الله: دلت الآية علىٰ جواز الصلاة علىٰ غير الأنبياء استقلالًا.

قال الرازي: روىٰ الكعبي في «تفسيره» أن عليًّا رضي الله عنه قال لعمر رضي الله عنه وهو مسجّىٰ: عليك الصلاة والسلام. ومن الناس من أنكر ذلك.

ونقل عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: لا تنبغي الصلاة من أحدٍ علىٰ أحد، إلا في حق النبيّ ﷺ. ثم قال الرازي: إن أصحابنا يمنعون من ذكر صلوات الله عليه و عليه الصلاة والسلام، إلا في حق الرسول، والشيعة يذكرونه في عليّ وأولاده، واحتجوا بأن نص القرآن دلَّ علىٰ جوازه فيمن يؤدي الزكاة، فكيف يمنع في حق عليّ والحسن والحسين عليهم رضوان الله؟ قال: ورأيت بعضهم قال: أليس أن الرجل إذا قال: سلام عليكم، يقال له: وعليكم السلام؛ فدل هذا علىٰ أن ذكر هذا اللفظ جائز في حق جمهور المسلمين، فأولىٰ آل البيت. انتهىٰ.

وأقول: إن المنع من ذلك أدبي لا شرعي؛ لأنه صار - في العرف - دعاءً خاصًّا به ﷺ، وشعارًا له، كالعلم بالغلبة، فغيره لا يطلق عليه، إلا تبعية له، أدبًا لفظيًّا.

الزكاة إلىٰ الخليفة، كما كانوا يُؤدونها إلىٰ رسول الله ﷺ، حتىٰ قال الصديق: والله لو منعوني عِقالًا -وفي رواية: عَناقًا[١] - كانوا يُؤدُّونه إلىٰ رسول الله ﷺ لأقاتلنهم علىٰ منعه[٢].

وقوله: ﴿وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡ﴾ أي: ادع لهم واستغفر لهم، كما رواه مسلم في «صحيحه»، عن عبد الله بن أبي أوفىٰ قال: كان رسول الله ﷺ إذا أُتِيَ بصدقةِ قوم صَلَّىٰ عليهم، فأتاه أبي بصدقته فقال: «**اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَىٰ آلِ أَبِي أَوْفَىٰ**»[٣] وفي الحديث الآخر: أن امرأةً قالت: يا رسول الله، صلِّ عليَّ وعلىٰ زوجي. فقال: «**صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْكِ، وَعَلَىٰ زَوْجِكِ**»[٤].

وقوله: ﴿إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡ﴾: قرأ بعضهم: «صَلَوَاتِكَ» علىٰ الجمع، وآخرون قرءوا: ﴿إِنَّ صَلَوٰتَكَ﴾ علىٰ الإفراد[٥].

﴿سَكَنٞ لَّهُمۡ﴾ قال[٦] ابن عبَّاس: رحمةٌ لهم. وقال قتادة: وقارٌ.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ أي: لدعائك ﴿عَلِيمٌ﴾ أي: بمَن يستحق ذلك منك ومن هو أهل له.

قال الإمام أحمد: حدَّثنا وَكِيع، حدَّثنا أبو العُمَيْس، عن أبي بكر بن عمرو بن عتبة[٧]، عن ابنٍ لحذيفة، عن أبيه؛ أن النَّبيَّ ﷺ كان إذا دعا لرجل أصابته، وأصابت ولده، وولد ولده[٨].

ثم رواه عن أبي نُعَيم، عن مِسْعَر، عن أبي بكْر بن عمرو بن عتبة، عن ابنٍ لحذيفة -قال مسعر: وقد ذكره مرة عن حذيفة-: إن صلاة النَّبيِّ ﷺ لتُدرك الرَّجل وولده وولد ولده[٩].

وقوله: ﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَأۡخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ هذا تَهْييجٌ إِلىٰ التَّوبةِ والصَّدقةِ اللَّتين كل منهما يحطُّ الذنوب ويمحصها ويَمْحقُها.

وأخبر تعالىٰ أنَّ كلَّ مَن تاب إليه تاب عليه، ومَن تصدَّق بصدقةٍ من كسبٍ حلالٍ فإن الله تعالىٰ يَتقبَّلُها بيمينه فيربيهَا لصاحبها، حتىٰ تصير التمرة مثل أحد، كما جاء بذلك الحديث عن رسول الله ﷺ -كما قال الثوري ووكيع، كلاهما عن عباد بن منصور، عن القاسم بن محمَّد أنَّه سمع أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ يَقْبَلُ الصَّدَقَةَ وَيَأْخُذُهَا بِيَمِينِهِ فَيُرَبِّيهَا لِأَحَدِكُمْ، كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ مُهْرَهُ، حَتَّىٰ إِنَّ اللُّقْمَةَ لَتَصِيرُ مِثْلَ أُحُدٍ**»، وتصديق ذلك في كتاب الله ﷻ: ﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقۡبَلُ[١٠] ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ

---

(١) **العِقال**: الحبل، والعَناق: الأنثىٰ من ولد المعز.

(٢) البخاري (١٤٠٠) وفي مواضع أخرىٰ من «صحيحه»، ومسلم (٢٠).

(٣) البخاري (١٤٩٧)، ومسلم (١٠٧٨).

(٤) **صحيح**: أبو داود (١٥٣٣) ورواه الترمذي مختصرًا.

(٥) **متواترة**: قَرَأَ (صَلاتَكَ) حَمْزَةُ وَالْكِسَائِيُّ وَخَلَفٌ (فِي اخْتِيَارِهِ) وَحَفْصٌ وَوَافَقَهُمُ الْأَعْمَشُ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ (صَلَوَاتِكَ).

(٦) لوحة (٢٦٣ أ).

(٧) في (ز): (عن أبي بكر بن عمرو عن عتبة)، وهو خطأ، والصواب ما أثبتناه.

(٨) أحمد (٥/ ٣٨٥، ٤٠٠)، وفيه جهالة ابن حذيفة؛ فالإسناد ضعيف.

(٩) **ضعيف**: رواه أحمد (٥/ ٢٠٠)، وإسناده ضعيف كسابقه.

(١٠) في (ز): (وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات) والتي في التوبة كما أثبتناها في المتن، وأما آية الشورىٰ/ ٢٥ فهي: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَعۡفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾؛ وعليه فهو خلط من الناسخ.

عِبَادِهِۦ وَيَأۡخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ وقوله: ﴿يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ﴾ [البقرة: ٢٧٦](١).

وقال الثوري والأعمش كلاهما، عن عبد الله بن السائب، عن عبد الله بن أبي قتادة قال: قال عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه: إن الصَّدقة تقع في يد الله عز وجل قبل أن تقع في يد السائل. ثم قرأ هذه الآية: ﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَأۡخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾(٢).

وقد روىٰ ابن عساكر في «تاريخه»، في ترجمة عبد الله بن الشاعر السَّكْسَكي الدمشقي -وأصله حمصي، وكان أحد الفقهاء، روىٰ عن معاوية وغيره، وحكىٰ عنه حوشب بن سيف السكسكي الحمصي- قال: غزا الناس في زمان معاوية رضي الله عنه وعليهم عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، فَغَلَّ(٣) رجل من المسلمين مائة دينارٍ رُوميَّة. فلما قفل الجيش ندم وأتىٰ الأميرَ، فأبىٰ أن يَقْبلَها منه، وقال: قد تفرق النَّاس ولن أقبلها منك، حتىٰ تأتي الله بها يوم القيامةِ فجعل الرجل يَسْتَقْرِئُ الصحابة، فيقولون له مثل ذلك، فلما قدم دمشق ذهب إلىٰ معاوية ليَقْبَلَها منه، فأبىٰ عليه(٤). فخرج من عنده وهو يَبْكِي ويسترجع، فمَرَّ بعبد الله بن الشاعر السكسكي، فقال له: ما يبكيك؟ فذكر له أمره، فقال أَمُطِيعُني أنت؟ فقال: نعم، فقال: اذهب إلىٰ معاوية فقل له: اقبل مني خُمسك، فادفع إليه عشرين دينارًا، وانظر الثمانين الباقية فتَصدَّق بها عن ذلك الجيش؛ فإنَّ الله يقبل التَّوبة عن عباده، وهو أعلم بأسمائهم ومكانهم، ففعل الرجل، فقال معاوية رضي الله عنه: لأن أكون أفتيتُه بها أحب إلي مِن كلِّ شيءٍ أملكه، أحسن الرجل(٥).

﴿وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٠٥﴾

قال مجاهد: هذا وَعيدٌ، يعني: مِن الله تعالىٰ للمخالفين أوامره بأنَّ أعمالهم ستُعْرَضُ عليه تبارك وتعالىٰ، وعلىٰ الرسول، وعلىٰ المؤمنين. وهذا كائنٌ لا محالةَ يوم القيامة، كما قال: ﴿يَوۡمَئِذٖ تُعۡرَضُونَ لَا تَخۡفَىٰ مِنكُمۡ خَافِيَةٞ﴾ [الحاقة: ١٨]، وقال تعالىٰ: ﴿يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ [الطارق: ٩]، وقال: ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [العاديات: ١٠]، وقد يُظهر الله تعالىٰ ذلك للنَّاس في الدنيا.

كما قال الإمام أحمد: حدَّثنا حسن بن موسىٰ، حدَّثنا ابن لَهِيعة، حدَّثنا دَرَّاج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد، عن رسول الله ﷺ أنه قال: **«لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ يَعْمَلُ فِي صَخْرَةٍ صَمَّاءَ لَيْسَ لَهَا بَابٌ وَلَا كُوَّةٌ، لَأَخْرَجَ اللهُ عَمَلَهُ لِلنَّاسِ كَائِنًا مَا كَانَ»**(٦).

---

(١) صحيح: رواه أحمد (٢/ ٤٠٤)، والترمذي (٦٦٢)، وأصل الحديث في «الصحيحين»: رواه البخاري (٧٥١)، ومسلم (١٠١٤).

(٢) صحيح: عزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٢٨٢) إلىٰ عبد الرزاق في «تفسيره» (١٠٨٩) والحكيم الترمذي في «نوادر الأصول»، وابن أبي حاتم (٧/ ٤٠٤ برقم ١٠٧٨٤)، والطبراني (٩/ ١٠٩/ ٨٥٧١).

(٣) الغلول: الأخذ من الغنائم قبل تقسيمها. (٤) لوحة (٢٦٣ ب).

(٥) رواه ابن إسحاق في «السير» (٢١٥).

(٦) ضعيف: رواه أحمد (٣/ ٢٨)، وابن حبان (٥٦٧٨)، وفيه دراج أبو السمح. قال الحافظ: صدوق في حديثه عن أبي الهيثم: ضعيف.

وقد ورد: أن أعمال الأحياء تُعرَض على الأموات من الأقرباء والعشائر في البرزخ، كما قال أبو داود الطيالسي: حدَّثنا الصلت بن دينار، عن الحسن، عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَعْمَالَكُمْ تُعْرَضُ عَلَىٰ أَقْرِبَائِكُمْ وَعَشَائِرِكُمْ فِي قُبُورِهِمْ، فَإِنْ كَانَ خَيْرًا اسْتَبْشَرُوا بِهِ، وَإِنْ كَانَ غَيْرَ ذَلِكَ قَالُوا: اللَّهُمَّ، أَلْهِمْهُمْ أَنْ يَعْمَلُوا بِطَاعَتِكَ»(١).

وقال الإمام أحمد: أخبرنا عبد الرزاق، عن سفيان، عمَّن سمع أنسًا يقول: قال النبيُّ ﷺ: «إِنَّ أَعْمَالَكُمْ تُعْرَضُ عَلَىٰ أَقَارِبِكُمْ وَعَشَائِرِكُمْ مِنَ الأَمْوَاتِ، فَإِنْ كَانَ خَيْرًا اسْتَبْشَرُوا بِهِ، وَإِنْ كَانَ غَيْرَ ذَلِكَ قَالُوا: اللَّهُمَّ، لا تُمِتْهُمْ حَتَّىٰ تَهْدِيَهُمْ كَمَا هَدَيْتَنَا»(٢).

وقال البخاري: قالت عائشة ﵂: إذا أعجبك حُسْن عملِ امرئٍ، فقل: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾(٣).

وقد ورد في الحديث شبيه بهذا، قال الإمام أحمد: حدَّثنا يزيد، حدَّثنا حُمَيد، عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «لا عَلَيْكُمْ أَنْ تَعْجَبُوا بِأَحَدٍ حَتَّىٰ تَنْظُرُوا بِمَ يُخْتَمُ لَهُ؟ فَإِنَّ(٤) العَامِلَ يَعْمَلُ زَمَانًا مِنْ عُمُرِهِ -أو: بُرْهَةً مِنْ دَهْرِهِ- بِعَمَلٍ صَالِحٍ لَوْ مَاتَ عَلَيْهِ لَدَخَلَ الجَنَّةَ، ثُمَّ يَتَحَوَّلُ فَيَعْمَلُ عَمَلًا سَيِّئًا، وَإِنَّ العَبْدَ لَيَعْمَلُ البُرْهَةَ مِنْ دَهْرِهِ بِعَمَلٍ سَيِّئٍ، لَوْ مَاتَ عَلَيْهِ دَخَلَ النَّارَ، ثُمَّ يَتَحَوَّلُ فَيَعْمَلُ [عَمَلًا](٥) صَالِحًا، وَإِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدٍ خَيْرًا اسْتَعْمَلَهُ قَبْلَ مَوْتِهِ». قالوا: يا رسول الله وكيف يستعمله: قال: «يُوَفِّقُهُ لِعَمَلٍ صَالِحٍ ثُمَّ يَقْبِضُهُ عَلَيْهِ». تفرَّد به أحمد من هذا الوجه(٦).

﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾

قال ابن عبَّاس ومجاهدُ وعِكْرِمة، والضَّحَّاك وغير واحد: هم الثلاثة الذين خلفوا؛ أي: عن التَّوبة، وهم: مرارة بن الربيع، وكعب بن مالك، وهلال بن أمية، قعدوا عن غزوة تبوك في جملة من قعد، كسلًا وميلًا إلىٰ الدَّعَة والحِفْظ وطيب الثمار والظِّلال، لا شكًّا ونفاقًا، فكانت منهم طائفةٌ رَبطوا أنفسهم بالسَّواري، كما فعل أبو لُبابة وأصحابه، وطائفةٌ لم يفعلوا ذلك وهُم هؤلاء الثَّلاثة المذكورون، فنزلت توبة أولئك قبل هؤلاء، وأَرْجىٰ هؤلاء عن التَّوبة حتىٰ نزلت الآية الآتية، وهي قوله: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ...﴾ الآية [التوبة: ١١٧]، ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَـٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ ...﴾ الآية [التوبة: ١١٨]، كما سيأتي بيانه في حديث كعب بن مالك.

وقوله: ﴿إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: هم تَحْت عفوِ الله، إن شاء فعل بهم هذا، وإن شاء فعل

---

(١) ضعيف: رواه الطيالسي (١٧٩٤)، وفيه الصلت بن دينار: متروك، والحسن البصري مدلس وقد عنعن.

(٢) ضعيف: رواه أحمد (٣/ ١٦٤)، وإسناده ضعيف لجهالة الواسطة بين أنس وسفيان، والحديث ضعفه الألباني في «الضعيفة» (٨٦٣).

(٣) البخاري (١٣/ ٥٠٣ -فتح) تعليقًا، ووصله الحافظ في «تغليق التعليق» (٥/ ٣٦٥).

(٤) لوحة (٢٦٤ أ). (٥) سقط من (ز). (٦) صحيح: رواه أحمد (٣/ ١٢٠).

بِهِم ذاك، ولكن رَحْمَتُه تَغْلِب غضبه، وهو ﴿عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي: عليمٌ بمن يَسْتَحِقُّ العقوبة ممَّن يستحقُّ العفو، حكيمٌ في أفعاله وأقواله، لا إله إلا هو، ولا رب سواه.

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٠٧) لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ (١٠٨)﴾

سبب نزول هذه الآيات الكريمات: أنه كان بالمدينة قبل مَقْدَم رسول الله ﷺ إليها رجلٌ من الخزرج يقال له: «أبو عامر الراهبُ»، وكان قد تَنَصَّر في الجاهلية وقرأ عِلْم أهل الكتاب، وكان فيه عبادة في الجاهلية، وله شرف في الخَزْرَج كبيرٌ. فلما قَدم رسولُ الله ﷺ مهاجرًا إلىٰ المدينة، واجتمع المسلمون عليه، وصارت للإسلام كلمةٌ عاليةٌ، وأظهرهم الله يوم بدر، شَرِق اللعين[1] أبو عامر بريقه، وبارز بالعداوة، وظاهر بها، وخرج فارًّا إلىٰ كفار مكة من مشركي قريش فألَّبهم علىٰ حرب رسول الله ﷺ، فاجتمعوا بمَن وَافَقَهُم مِن أحياء العرب، وقدموا عام أحد، فكان من أمر المسلمين ما كان، وامتحنهم الله، وكانت العاقبة للمتقين[2].

وكان هذا الفاسق قد حفر حفائر فيما بين الصفين، فوقع في إحداهنَّ رسول الله ﷺ، وأصيب ذلك اليوم، فجرح في وجهه وكُسِرت رباعِيَتُه اليُمْنَىٰ السُّفلىٰ، وشُجَّ رأسه، صلوات الله وسلامه عليه.

وتقدم أبو عامر في أوَّل المبارزة إلىٰ قومه من الأنصار، فخَاطَبَهُم واستمالهم إلىٰ نصره وموافقته، فلما عرفوا كلامه قالوا: لا أنعم الله بك عينًا يا فاسق يا عدو الله، ونالوا منه وسبُّوه. فرجع وهو يقول: والله لقد أصاب قومي بعدي شَرٌّ. وكان رسول الله ﷺ قد دعاه إلىٰ الله قبل فراره، وقرأ عليه من القرآن، فأبىٰ أن يسلم وتمرَّد، فدعا عليه رسول الله ﷺ أن يموت بعيدًا طريدًا، فنالته هذه الدعوة.

وذلك أنه لما فرغ الناس من أحد، ورأىٰ أمر الرسول، صلوات الله وسلامه عليه في ارتفاع[3] وظهورٍ، ذهب إلىٰ هرقل -ملك الروم- يستنصره علىٰ النَّبيِّ ﷺ، فوعده ومَنَّاه، وأقام عنده، وكتب إلىٰ جماعةٍ من قومه من الأنصار مِن أهل النِّفاق والرِّيَب يعدهم ويُمنِّيهم أنه سيقدمُ بجيشٍ يقاتل به رسول الله ﷺ ويغلبه ويرده عما هو فيه، وأمرهم أن يتخذوا له مَعقلًا يقدم عليهم فيه مَن يقدم من عنده لأداء كُتُبه ويكونَ مرصدًا له إذا قدم عليهم بعد ذلك، فشرعوا في بناء مسجدٍ مجاورٍ لمسجد قباء، فبنوه وأحكموه، وفرغوا منه قبل خروج النَّبيِّ ﷺ إلىٰ تبوك، وجاءوا فسألوا رسول الله ﷺ أن يأتي إليهم فيصلي في مسجدهم؛ ليَحْتَجُّوا بصلاته عَلَيْهِ السَّلَامُ فيه علىٰ تقريره وإثباته، وذكروا أنهم إنَّما بنوه للضعفاء منهم وأهل العِلَّة في الليلة الشاتية، فعصمه الله من الصلاة فيه فقال: «إِنَّا عَلَىٰ سَفَرٍ، وَلَكِنْ إِذَا رَجَعْنَا إِنْ شَاءَ اللهُ».

فلما قفل عَلَيْهِ السَّلَامُ راجعًا إلىٰ المدينة من تبوك، ولم يبقَ بينه وبينها إلا يوم أو بعض يوم، نزل عليه

(١) لوحة (٢٦٤ ب). (٢) في (ز): (وكانت العاقبة للتقوىٰ). (٣) في (ز): (كلما له في ارتفاع).

الوحي بخبر مسجد الضِّرار، وما اعتمده بانُوهُ من الكفر والتفريق[(١)] بين جماعة المؤمنين في مسجدهم مسجد قباء، الذي أسس من أول يوم على التقوى. فبعث رسول الله ﷺ إلى ذلك المسجد من هَدَمه قبل مقدمه المدينة، كما قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وهم أناسٌ من الأنصار، ابتنوا مسجدًا، فقال لهم أبو عامر، ابنوا مسجدًا واستعدوا بما استطعتم من قوةٍ ومن سلاح، فإني ذاهب إلى قيصر ملك الروم، فآتي بجند من الروم وأخرج محمَّدًا وأصحابه. فلمَّا فرغوا مِن مسجدهم أتوا النَّبيَّ ﷺ فقالوا: قد فَرَغْنا مِن بناء مسجدنا، فنُحِبُّ أن تصلي فيه وتدعو لنا بالبركة. فأنزل الله ﷻ: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾ إلى ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[(٢)].

وكذا رُوي عن سعيد بن جُبير، ومجاهد، وعروة بن الزبير، وقتادة وغير واحدٍ من العلماء.

وقال محمَّد بن إسحاق بن يَسَار، عن الزهري، ويزيد بن رومان، وعبد الله بن أبي بكر، وعاصم ابن عُمَر بن قتادة وغيرهم، قالوا: أقبل رسول الله ﷺ -يعني: من تبوك- حتى نزل بذي أوان -بلد بينه وبين المدينة ساعة من نهار- وكان أصحاب مسجد الضرار قد كانوا أتوه وهو يتجهز إلى تبوك، فقالوا: يا رسول الله، إنَّا قد بنينا مسجدًا لذي العلَّة والحاجة، والليلة المطيرة، والليلة الشاتية، وإنا نحب أن تأتينا فتصلي لنا فيه. فقال: «**إِنِّي عَلَىٰ جَنَاحِ سَفَرٍ وَحَالِ شُغْلٍ** -أو كما قال رسول الله ﷺ- **وَلَوْ قَدْ قَدِمْنَا إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَىٰ أَتَيْنَاكُمْ فَصَلَّيْنَا لَكُمْ فِيهِ**». فلما نزل بذي أوان أتاه خبرُ المسجد، فدعا رسول الله ﷺ مالك ابن الدُّخْشُم أخا بني سالم بن عوف، ومعن بن عدي -أو: أخاه عامر بن عدي- أخا بلعجلان فقال: «**انْطَلِقَا إِلَىٰ هَذَا المَسْجِدِ الظَّالِمِ أَهْلُهُ، فَاهْدِمَاهُ وَحَرِّقَاهُ**».

فخرجا سريعين حتى أتيا بني سالم بن عوف، وهم رهط مالك بن الدُّخشم، فقال مالك لمعن: أنظرني حتى أخرج إليك بنار من أهلي. فدخل أهله فأخذ سَعَفًا من النخل، فأَشْعَل فيه نارًا، ثم خرجا يَشتدَّان حتى دخلا المسجد وفيه أهله، فحرقاه وهدماه وتفرَّقُوا عنه. ونزل فيهم من القرآن ما نزل: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا ...﴾ إلى آخر القصة.

وكان الذين بَنُوه اثني عشر رجلًا خذام بن خالد، من بني عُبَيد[(٣)] بن زيد، أحد بني عمرو بن عوف[(٤)]، ومن داره أخرج مسجد الشقاق، وثعلبة بن حاطب من بني عبيد وهو إلى بني أمية [بن زيد، ومعتِّب بن قُشير، من بني ضُبَيعة بن زيد، وأبو حبيبة بن الأذعر، من بني ضُبيعة بن زيد، وعَبَّاد بن حُنَيف، أخو سهل بن حنيف، من بني عمرو بن عوف، وجارية بن عامر، وابناه: مُجَمِّع بن جارية، وزيد

---

(١) لوحة (٢٦٥ أ).

(٢) عزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٢٨٤) إلى الطبري (١١/ ٢٤)، وابن المنذر وابن أبي حاتم (١٠٠٧٤)، وابن مردويه، والبيهقي في «الدلائل» (٥/ ٢٦٣).

(٣) في (ز): (عبد بن زيد). (٤) لوحة (٢٦٥ ب).

ابن جارية، ونَبْتَل بن الحارث، وهم من بني ضبيعة، وبحزج وهو من بني ضبيعة، وبجاد بن عُثمان وهو من بني ضُبَيعة، ووديعة بن ثابت، وهو إلىٰ بني أمية][١] رهط أبي لبابة بن عبد المنذر[٢].

وقوله: ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ﴾ أي: الذين بنوه ﴿إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي: ما أردنا ببنيانه إلا خيرًا ورفقًا بالناس، قال الله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ أي: فيما قصدوا وفيما نوَوا، وإنما بنوه ضِرارًا لمسجد قُباء، وكفرًا بالله، وتفريقًا بين المؤمنين، وإرصادًا لمن حارب الله ورسوله، وهو أبو عامر الفاسق، الذي يقال له: الراهب لعنه الله.

وقوله: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ نهي مِن الله لرسوله، صلوات الله وسلامه عليه، والأمة تبَع له في ذلك، عَن أن يقوم فيه؛ أي: يصلي فيه أبدًا.

ثم حثَّه علىٰ الصَّلاة في مسجد قُباء الذي أُسِّس مِن أوَّل يوم بنائه علىٰ التَّقوىٰ، وهي طاعة الله، وطاعة رسوله، وجمعًا لكلمة المؤمنين ومَعقلًا وموئلًا للإسلام وأهله؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾ والسِّياق إنَّما هو في معرض مسجد قباء؛ ولهذا جاء في الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ [قال: «**صَلَاةٌ فِي مَسْجِدِ قُبَاءَ كَعُمْرَةٍ**»[٣]. وفي «الصحيح»: أن رسول الله ﷺ][٤] كان يزورُ مسجد قُباء راكبًا وماشيًا[٥] وفي الحديث: أن رسول الله ﷺ لما بناه وأَسَّسه أول قدومه ونزوله علىٰ بني عمرو بن عوف، كان جبريل هو الذي عَيَّن له جِهَة القبلة، فالله أعلم.

وقال أبو داود: حدَّثنا محمَّد بن العلاء، حدَّثنا معاوية بن هشام، عن يونس بن الحارث، عن إبراهيم ابن أبي ميمونة، عن أبي صالح، عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي أَهْلِ قُبَاءَ: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟﴾ قَالَ: كَانُوا يَسْتَنْجُونَ بِالمَاءِ، فَنَزَلَتْ فِيهِمْ هَذِهِ الآيَةُ**»[٦].

ورواه الترمذي وابن ماجه، من حديث يونس بن الحارث، وهو ضعيف، وقال الترمذي: غريب من هذا الوجه.

وقال الطبراني: حدَّثنا الحسن بن علي المعمري، حدَّثنا محمَّد بن حميد الرازي، حدَّثنا سلمة بن الفضل، عن محمَّد بن إسحاق، عن الأعمش، عن مجاهد، عن ابن عبَّاس قال: لما نزلت هذه الآية:

---

(١) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

(٢) رواه الطبري (١١/ ١٣)، وابن هشام في «السيرة» (٢/ ٥٣٠)، وإسناده مرسل، ووصله ابن إسحاق وابن مردويه عن أبي رُهْم كلثوم بن الحصين الغفاري، كذا عزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٢٨٦)، لكنه لم يذكر إسناده لينظر فيه.

(٣) **صحيح**: رواه الترمذي (٣٢٤)، وابن ماجه (١٤١١).

(٤) ما بين المعقوفتين سقط من (ز). (٥) البخاري (١١٩١)، ومسلم (١٣٩٩).

(٦) **صحيح لشواهده**: رواه أبو داود (٤٤)، والترمذي (٣١٠٠)، وسنن ابن ماجه (٣٥٧)، وفيه يونس بن الحارث: ضعيف، وصححه الألباني بشواهده، انظر: «الإرواء» (١/ ٨٥)، وقد ساق ابن كثير هذه الشواهد بعد ذكره لهذه الرواية.

فمنها حديث ابن عبَّاس: رواه الطبراني (١١/ ٦٧)، وفيه محمَّد بن حميد: قال عنه الحافظ في «التقريب»: حافظ ضعيف، وكان ابن معين حسن الرأي فيه.

ومنها: حديث عويم بن ساعدة، رواه أحمد (٣/ ٤٢٢)، وابن خزيمة (٨٣)، وفي إسناده ضعف.

ومنها حديث خزيمة بن ثابت. رواه الطبري (١١/ ٢٨)، وفيه ضعف كسابقه.

﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا﴾ بعث رسول الله ﷺ إلىٰ عُوَيم بن ساعدة فقال: «مَا هَذَا الطُّهُورُ الَّذِي أَثْنَىٰ اللهُ عَلَيْكُمْ؟». فقال: يا رسول الله، ما خرج منَّا رجلٌ ولا امرأةٌ من الغائط إلا غَسَل فرجَهُ -أو قال: مقعدته- فقال النبيُّ ﷺ: «هُوَ هَذَا»[١].

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا حُسَين[٢] بن محمَّد، حدَّثنا أبو أويس، حدَّثنا شُرَحْبيل، عن عُوَيم بن ساعدة الأنصاري: أنَّه حدَّثه أن النَّبيَّ ﷺ أتاهم في مسجد قُباء[٣]، فقال: «إِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ قَدْ أَحْسَنَ [عَلَيْكُمُ الثَّنَاءَ][٤] فِي الطُّهُورِ فِي قِصَّةِ مَسْجِدِكُمْ، فَمَا هَذَا الطُّهُورُ الَّذِي تَطَهَّرُونَ بِهِ؟» فقالوا: والله -يا رسول الله- ما نعلم شيئًا إلَّا أنَّه كان لنا جيران من اليهود، فكانوا يغسلون أدبارهم من الغَائِط، فغسلنا كما غسلوا[٥].

ورواه ابن خُزيمة في «صحيحه».

وقال هُشَيْم، عن عبد الحميد المدني، عن إبراهيم بن إسماعيل[٦] الأنصاري: أن رسول الله ﷺ قال لعُوَيم بن ساعدة: «مَا هَذَا الَّذِي أَثْنَىٰ اللهُ عَلَيْكُمْ: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾» قالوا: يا رسول الله، إنا نغسل الأدبار بالماء.

وقال ابن جرير: حدَّثني محمَّد بن عُمارة الأسدي، حدَّثنا محمَّد بن سعد، حدَّثنا إبراهيم بن محمَّد، عن شرحبيل بن سعد، قال: سمعت خُزَيمة بن ثابت يقول: نزلت هذه الآية: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ قال: كانوا يغسلون أدبارهم من الغائط[٧].

حديث آخر: قال الإمام أحمد بن حنبل: حدَّثنا يحيىٰ بن آدم، حدَّثنا مالك -يعني: ابن مِغْوَل- سمعت سيارًا أبا الحكم، عن شهر بن حوشب، عن محمَّد بن عبد الله بن سلام قال: لقد قدم رسول الله ﷺ؛ يعني: قباء، فقال: «إِنَّ اللهَ ﷻ قَدْ أَثْنَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الطُّهُورِ خَيْرًا، أَفَلَا تُخْبِرُونِي؟». يعني: قوله تعالىٰ: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ فقالوا: يا رسول الله، إنا نجده مكتوبًا علينا في التوراة: الاستنجاءُ بالماء[٨].

وقد صرَّح بأنَّه مسجد قباء جماعة من السَّلف، رواه علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس. ورواه عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن الزهري، عن عُرْوَة بن الزبير. وقاله عطية العوفي، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، والشعبي، والحسن البصري، ونقله البغوي عن سعيد بن جُبَير، وقتادة.

وقد ورد في الحديث الصحيح: أن مسجد رسول الله ﷺ الذي هو في جوف المدينة، هو المسجد

---

(١) انظر التعليق السابق.
(٢) في (ز): (حسن بن محمَّد)، وهو خطأ.
(٣) لوحة (٢٦٦ أ).
(٤) سقط من (ز)، وهي مثبتة في «المسند».
(٥) انظر التخريج السابق.
(٦) في (ز): (إبراهيم بن المعلىٰ الأنصاري). والمثبت هو الصواب، وهو موافق لما في «الطبري».
(٧) سبق عند تخريج حديث أبي هريرة ﵁.
(٨) صحيح لشواهده: رواه أحمد (٦/ ٦)، وابن أبي شيبة (١/ ١٥٣)، والطبري في «التفسير» (١١/ ٢٩)، وهذا إسناد ضعيف، لضعف شهر بن حوشب، وانظر ما تقدم عند تخريج حديث أبي هريرة ﵁.

الذي أسس على التقوى. وهذا صحيح. ولا منافاة بين الآية وبين هذا؛ لأنه إذا كان مسجد قباء قد أسس على التقوى من أول يوم، فمسجد رسول الله ﷺ بطريق الأولى والأحرى؛ ولهذا قال الإمام أحمد بن حنبل في «مسنده»:

حدَّثنا أبو نُعيم، حدَّثنا عبد الله بن عامر الأسلمي، عن عمران بن أبي أنس، عن سهل بن سعد، عن أُبيِّ بن كعب: أن النَّبيّ ﷺ قال: «**المَسْجِدُ الَّذِي أُسِّسَ عَلَىٰ التَّقْوَىٰ مَسْجِدِي هَذَا**». تفرَّد به أحمد(١).

حديث آخر: قال الإمام أحمد(٢): حدَّثنا وَكِيع، حدَّثنا ربيعة بن عثمان التيمي، عن عمران بن أبي أنس، عن سهل بن سعد الساعدي قال: اختلف رجلَان على عهد رسول الله ﷺ في المسجد الذي أسِّسَ على التقوى، فقال أحدهما: هو مسجد رسول الله ﷺ. وقال الآخر: هو مسجد قباء.

فأتيا النَّبيَّ ﷺ فسألاه، فقال: «**هُوَ مَسْجِدِي هَذَا**» تفرد به أحمد أيضًا(٣).

حديث آخر: قال أحمد: حدَّثنا موسى بن داود، حدَّثنا ليث، عن عمران بن أبي أنس، عن سعيد بن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: تَمَارَىٰ رجلان في المسجد الذي أسس على التقوى، فقال أحدهما: هو مسجد قباء، وقال الآخر: هو مسجد النَّبيِّ ﷺ، فقال النَّبيُّ ﷺ: «**هُوَ مَسْجِدِي هَذَا**» تفرد به أحمد(٤).

طريق أخرى: قال الإمام أحمد: حدَّثنا إسحاق بن عيسى، حدَّثنا ليث، حدَّثني عمران بن أبي أنس، عن ابن أبي سعيد، عن أبيه أنه قال: تمارى رجلان في المسجد الذي أُسِّس على التقوى من أوَّل يوم، فقال رجلٌ: هو مسجد قباء، وقال الآخر: هو مسجد رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «**هُوَ مَسْجِدِي**»(٥).

وكذا رواه الترمذي والنسائي عن قتيبة، عن الليث وصححه الترمذي، ورواه مسلم كما سيأتي.

طريق أخرى: قال أحمد: حدَّثنا يحيى، عن أُنَيْس بن أبي يحيى، حدَّثني أبي، قال: سمعت أبا سعيدٍ الخدري قال: اختلف رجلان: رجل من بني خُدْرة، ورجل من بني عمرو بن عوف في المسجد الذي أسس على التقوى، فقال الخدري: هُو مسجد رسول الله ﷺ، وقال العَمْري: هو مسجد قباء، فأتيا رسول الله ﷺ فسألاه عن ذلك، فقال: «**هُوَ هَذَا المَسْجِدُ**» لمسجد رسول الله ﷺ، وقال: «**فِي ذَاكَ [خَيْرٌ كَثِيرٌ**»](٦) يعني: مسجد قباء(٧).

طريق أخرى: قال أبو جعفر بن جرير: حدَّثنا ابن بشار، حدَّثنا يحيى بن سعيد -حدَّثنا حميد الخراط المدني، [قال: سَمِعْتُ أبا سَلَمَةَ بنَ عبدِ الرحْمَن، قال: مرَّ بي عبدُ الرحمن بن أبي سعيدٍ](٨)، فقلت: كيف سمعت أباك يقول في المسجد الذي أُسِّس على التقوى؟ فقال: [قال](٩) أبي(١٠): أتيت

---

(١) صحيح لشواهده: رواه أحمد (٥/ ١١٦)، وأخرجه أبو يعلى في «مسنده الكبير» كما في «إتحاف الخيرة» (١٤٠٣) من طريق عبد الله بن عامر به، وهذا إسناد ضعيف، فيه عبد الله بن عامر الأسلمي: متفق على ضعفه.

(٢) لوحة (٢٦٦ ب).

(٣) رواه أحمد (٥/ ٣٣١)، وانظر التخريجات السابقة.

(٤) رواه أحمد (٣/ ٩١).

(٥) رواه أحمد (٣/ ٨)، وهو إسناد حسن. انظر التخريجات السابقة.

(٦) سقط من (ز).

(٧) رواه أحمد (٣/ ٢٣)، وإسناده حسن. انظر التخريجات السابقة.

(٨) في (ز): (سألت أبا سلمة بن عبد الرحمن بن أبي سعيد)، والمثبت موافق لما في «تفسير الطبري»، و«صحيح مسلم».

(٩) ليست في (ز).

(١٠) في (ز): فقال إني.

رسول الله ﷺ فدخلت عليه في بيتٍ لبعض نسائه، فقلت: يا رسول الله، أين المسجد الَّذي أُسِّس علىٰ التَّقوىٰ؟ قال: فأخذ كفًّا من حصباء[١] فضرب به الأرض، ثم قال: «هُوَ مَسْجِدُكُمْ هَذَا». ثم قال: [فقلتُ له: هكذا][٢] سمعتَ أباك يذكره؟[٣].

رواه مسلم منفردًا به عن محمَّد بن حاتم، عن يحيىٰ بن سعيد، به ورواه عن أبي بكر بن أبي شيبة وغيره، عن حاتم بن إسماعيل، عن حميد الخراط به.

وقد قال بأنه مسجد النَّبيِّ ﷺ جماعة من السلف والخلف، وهو مرويٌّ عن عمر بن الخطاب، وابنه عبد الله، وزيد بن ثابت، وسعيد بن المسيب. واختاره ابن جرير.

وقوله: ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾ دليلٌ علىٰ استحباب الصَّلاة في المساجد القديمة المؤسسة من أوَّل بنائها علىٰ عبادة الله وحده لا شريك له، وعلىٰ استحباب الصلاة مع جماعة الصالحين، والعباد العاملين المحافظين علىٰ إسباغ الوضوء، والتَّنزُّه عن ملابسة القاذورات.

وقد قال الإمام أحمد: حدَّثنا محمَّد بن جعفر، عن شعبة، عن عبد الملك بن عمير، سمعت شبيبًا أبا روح يحدث عن رجل من أصحاب النَّبيِّ ﷺ؛ أن رسول الله ﷺ صَلَّىٰ بهم الصبح فقرأ بهم الرُّوم فأوهم، فلما انصرف قال: «إِنَّهُ يُلَبِّسُ عَلَيْنَا القُرْآنُ، إِنَّ أَقْوَامًا مِنْكُمْ يُصَلُّونَ مَعَنَا لا يُحْسِنُونَ الوُضُوءَ، فَمَنْ شَهِدَ الصَّلاةَ مَعَنَا فَلْيُحْسِنِ الوُضُوءَ»[٤].

ثم رواه مِن طريقين آخرين، عن عبد الملك بن عمير، عن شبيب أبي روح من ذي الكَلاع: أنَّه صلىٰ مع النَّبيِّ ﷺ... فذكره[٥]؛ فدلَّ هذا علىٰ أنَّ إكمال الطَّهارة يُسَهِّل القيام في العبادة، ويُعِين علىٰ إتمامها وإكمالها والقيام بمشروعاتها.

وقال أبو العالية في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾ إن الطهور بالماء لحسن، ولكنَّهم المطهرون من الذنوب. وقال الأعمش: التوبة من الذنب، والتطهير من الشرك.

وقد ورد في الحديث المروي من طرق في السنن وغيرها، أن رسول الله ﷺ قال لأهل قباء: «قَدْ أَثْنَىٰ اللهُ عَلَيْكُمْ فِي الطُّهُورِ، فَمَاذَا تَصْنَعُونَ؟» فقالوا: نستنجي بالماء[٦].

---

(١) لوحة (٢٦٧ أ).

(٢) سقط من (ز)، وهي مثبتة في «الطبري».

(٣) رواه الطبري (١١/ ٢٨)، ورواه مسلم (١٣٩٨).

(٤) **ضعيف**: رواه أحمد (٣/ ٤٧١)، والنسائي (٢/ ١٥٦). وعبد الملك بن عمير قال أحمد: مضطرب الحديث جدًّا، مع قلة حديثه، وقال ابن معين: مخلط، وقال أبو حاتم: ليس بحافظ وهو صالح الحديث تغير حفظه قبل موته. وقال النسائي: ليس به بأس، ووثقه العجلي، انظر: «تهذيب الكمال» (٨/ ٣٧٤)، وقد وقع اختلاف علىٰ عبد الملك بن عمير؛ فقد رواه شريك القاضي وزائدة عند أحمد (٣/ ٤٧١) مرسلًا، ورواه شعبة في هذه الرواية موصولًا وهو الأصح. وأبو روح قال ابن القطان: لا تعرف عدالته، ووثقه ابن حبان، والذي يترجح عندي أن الحديث ضعيف. والله أعلم.

(٥) **إسناده ضعيف**: انظر التعليق السابق، وفيه علة الإرسال أيضًا.

(٦) **صحيح**: رواه الترمذي (٣٠٩٩)، وأبو داود (٤٤)، وابن ماجه (٣٥٧).

وقد قال الحافظ أبو بكر البزار: حدَّثنا عبد الله بن شبيب، حدَّثنا أحمد بن محمَّد بن عبد العزيز قال: وجدته في كتاب أَبِي، عن الزهري، عن عبيد الله بن عبد الله، عن ابن عبَّاسٍ قال: نزلت هذه الآية في أهل قباء. ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَاللَّهُ (١) يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ فسألهم رسول الله ﷺ فقالوا: إنا نُتْبِعُ الحجارة الماء (٢).

ثم قال: تفرد به محمَّد بن عبد العزيز، عن الزهري، ولم يرو عنه سوىٰ ابنه.

قلت: وإنما ذكرته بهذا اللفظ؛ لأنَّه مشهورٌ بين الفقهاء، ولم يعرفه كثيرٌ من المحدِّثين المتأخرين، أو كلهم (٣)، والله أعلم.

﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠٩) لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١١٠)﴾

يقول تعالىٰ: لا يستوي مَن أَسَّس بنيانه علىٰ تَقْوَىٰ الله ورِضْوَان، ومَن بَنَىٰ مسجدًا ضرارًا وكفرًا وتفريقًا بين المؤمنين، وإرصادًا لمن حارب الله ورسوله مِن قبل، فإنَّما بنىٰ هؤلاء بنيانهم ﴿عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾ أي: طرف حَفِيرة مثاله ﴿فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ أي: لا يصلح عمل المُفْسِدِين.

قال جابر بن عبد الله: رأيت المسجد الذي بُنِي ضِرارًا يخرج منه الدخان علىٰ عهد النَّبيِّ ﷺ (٤).

وقال ابن جُرَيْج ذُكر لنا أنَّ رجالًا حَفَروا فوجدوا الدخان يخرج منه، وكذا قال قتادة.

وقال خلف بن ياسين الكوفي: رأيت مسجد المنافقين الذي ذكره الله تعالىٰ في القرآن، وفيه جحر يخرج منه الدخان، وهو اليوم مَزْبلة . رواه ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ.

وقوله: ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أي: شكًّا ونفاقًا بسبب إقدامهم علىٰ هذا الصَّنيع الشَّنيع، أورثهم نفاقًا في قلوبهم، كما أُشْرِب عابدو العجل حُبَّه.

وقوله: ﴿إِلَّا أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: بموتهم. قاله ابن عبَّاس، ومجاهد، وقتادة، وزيد بن أسلم، والسُّدِّي، وحبيب بن أبي ثابت، والضَّحَّاك، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغير واحدٍ من علماء السلف.

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ أي: بأعمال خلقه، ﴿حَكِيمٌ﴾ في مجازاتهم عنها مِن خيرٍ وشرٍّ.

---

(١) لوحة (٢٦٧ ب).

(٢) ضعيف: رواه البزار (٢٤٧)، وسنده ضعيف، وعلته محمَّد بن عبد العزيز بن عمر الزهري: ضعيف.

(٣) المقصود أن الحافظ ابن كثير: ينبه علىٰ أن رواية الجمع بين الحجارة والماء في الاستنجاء عن أهل قباء رواية ضعيفة، وأن الرواية الصحيحة هي السابقة التي فيها الاستنجاء بالماء فقط.

(٤) رواه الطبري (١١/ ٣٢-٣٣)، وعزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٢٩٢) إلىٰ ابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه، ولم أجده في هذه المصادر.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾

يخبر تعالىٰ أنَّه عاوض عباده المؤمنين عن أنفسهم وأموالهم إذْ بذلوها في سَبيلِهِ بالجنَّة، وهذا مِن فضلِهِ وكرمِهِ وإحسانِهِ، فإنَّه قَبِلَ العوض عمَّا يملكه بما تفضَّل به علىٰ عباده المُطِيعِينَ له؛ ولهذا قال الحسن البصري وقتادة: بايَعهم والله فأغلىٰ ثمنهم.

وقال شَمِر بن عطية[١] : ما من مسلمٍ إلا ولله ﷻ في عُنُقه بيعة، وفَّىٰ بها أو مات عليها، ثم تلا هذه الآية.

ولهذا يقال: مَن حمل في سبيل الله بايع الله؛ أي: قَبِل هذا العقد ووفَّىٰ به.

وقال محمَّد بن كعب القُرَظي وغيره: قال عبد الله بن رواحة ﵁ لرسول الله ﷺ -يعني ليلة العقبةِ-: اشْتَرِط لربِّك ولنفسك ما شئت! فقال: «**أَشْتَرِطُ لِرَبِّي أَنْ تَعْبُدُوهُ[٢] وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَأَشْتَرِطُ لِنَفْسِي أَنْ تَمْنَعُونِي مِمَّا تَمْنَعُونَ مِنْهُ أَنْفُسَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ**». قالوا: فما لنا إذا فعلنا ذلك؟ قال: «**الجَنَّةُ**». قالوا: رَبِح البيعُ، لا نُقِيل ولا نَسْتَقِيل[٣] ، فنزلت: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم ...﴾ الآية[٤] .

وقوله: ﴿يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ أي: سواء قتلوا [أو قُتلوا][٥] ، أو اجْتَمَعَ لهم هذا وهذا، فقد وجبت لهم الجنة؛ ولهذا جاء في «الصحيحين»: «**وَتَكَفَّلَ اللهُ لِمَنْ خَرَجَ فِي سَبِيلِهِ، لَا يُخْرِجُهُ إِلَّا جِهَادٌ فِي سَبِيلِي، وَتَصْدِيقٌ بِرُسُلِي، بِأَنْ تَوَفَّاهُ أَنْ يُدْخِلَهُ الجَنَّةَ، أَوْ يُرْجِعَهُ إِلَىٰ مَسْكَنِهِ الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ، نَائِلًا مَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ**»[٦] .

وقوله: ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ﴾ تأكيد لهذا الوعد، وإخبار بأنَّه قد كتبه علىٰ نفسه الكريمة، وأنزله علىٰ رسله في كتبه الكبار، وهي التَّوراة المنزَّلة علىٰ موسىٰ، والإنجيل المنزَّل علىٰ عيسىٰ، والقرآن المنزَّل علىٰ محمَّد، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

وقوله: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾ [أي: ولا واحد أعظم وفاءً بما عاهد عليه من الله][٧] فإنَّه لا يخلف الميعاد، وهذا كقوله تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧] ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢] ؛ ولهذا قال: ﴿فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ أي: فَلْيَسْتَبْشِر مَن قام بمقتضىٰ هذا العقد ووفَّىٰ بهذا العهد بالفوز العظيم، والنعيم المقيم.

---

(١) لوحة (٢٦٨ أ). (٢) في (ز): أن تصدقوه.

(٣) الإقالة: فسخ البيع، وتكون الإقالة في البيع والعهد.

(٤) رواه الطبري (١١/ ٣٥)، وإسناده مرسل.

(٥) سقط من (ز). (٦) رواه البخاري (٣١٢٣)، ومسلم (١٨٧٦) بنحو هذا اللفظ.

(٧) ليست في (ز).

﴿التَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١١٢﴾

هذا نعتُ المؤمنين الذين اشترىٰ الله منهم أنفسهم وأموالَهم بهذه الصفات الجميلة والخلال الجليلة: ﴿التَّٰٓئِبُونَ﴾ من الذُّنوب كلِّها، التَّاركون للفَوَاحِشِ، ﴿ٱلۡعَٰبِدُونَ﴾ أي: القائمون بعبادة رَبِّهم محافِظِين عليها، وهي الأقوال والأفعال؛ فمن أَخَصِّ الأقوال الحمد؛ فلهذا قال: ﴿ٱلۡحَٰمِدُونَ﴾، ومن أفضل الأعمال الصيامُ؛ وهو ترك الملاذِّ من الطَّعام والشَّراب والجماع، وهو المراد بالسِّياحة[١] هاهنا؛ ولهذا قال: ﴿ٱلسَّٰٓئِحُونَ﴾ كما وصف أزواج النَّبيِّ ﷺ بذلك في قوله تعالىٰ: ﴿سَٰٓئِحَٰتٖ﴾ [التحريم: ٥] أي: صائمات، وكذا الركوع والسجود، وهما عبارة عن الصَّلاة؛ ولهذا قال: ﴿ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ﴾ وهم مع ذلك يَنْفَعُون خلق الله، ويرشدونهم إلىٰ طاعة الله بأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، مع العِلْم بما ينبغي فعلُهُ ويجب تركُهُ، وهو حفظ حدودِ الله في تحليلِهِ وتحريمِهِ، علمًا وعملًا، فقاموا بعبادةِ الحقِّ ونصحِ الخلقِ؛ ولهذا قال: ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾؛ لأنَّ الإيمان يشمل هذا كله، والسَّعادة كل السَّعادة لمن اتَّصفَ به.

- بيان أنَّ المراد بالسِّياحة الصِّيام:

قال سفيان الثوري، عن عاصم، عن زِرٍّ، عن عبد الله بن مسعود قال: ﴿ٱلسَّٰٓئِحُونَ﴾ الصَّائمون[٢]. وكذا رُوي عن سعيد بن جُبَير، والعوفي عن ابن عبَّاس[٣].

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس: كل ما ذكر الله في القرآن السِّياحة هم الصائمون[٤]، وكذا قال الضَّحَّاك رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وقال ابن جرير: حدَّثنا أحمد بن إسحاق، حدَّثنا أبو أحمد، حدَّثنا إبراهيم بن يزيد، عن الوليد بن عبد الله، عن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهَا قالت: سياحةُ هذه الأمَّة الصيام[٥].

وهكذا قال مجاهد، وسعيد بن جُبَير، وعطاء، وأبو عبد الرحمن السُّلَمي، والضَّحَّاك بن مُزاحم، وسفيان بن عُيينة وغيرهم: أن المراد بالسائحين: الصائمون.

وقال الحسن البصري: ﴿ٱلسَّٰٓئِحُونَ﴾ الصائمون شهر رمضان.

وقال أبو عمرو العَبْدي: ﴿ٱلسَّٰٓئِحُونَ﴾ الذين يديمون الصيام من المؤمنين.

وقد ورد في حديثٍ مرفوعٍ نحو هذا، وقال ابن جرير: حدَّثني محمَّد بن عبد الله بن بَزِيع، حدَّثنا

---

(١) لوحة (٢٦٨ ب).

(٢) صحيح: رواه الطبري (١١/ ٣٧)، وإسناده صحيح. وعزاه السيوطي (٤/ ٢٩٧) إلىٰ ابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وأبي الشيخ.

(٣) صحيح: رواه الطبري (١١/ ٣٧).

(٤) رواه الطبري (١١/ ٣٨)، وإسناده منقطع، لكنه يشهد له الطريق السابقة.

(٥) رواه الطبري (١١/ ٣٩).

حكيم بن حزام، حدَّثنا سليمان، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**السَّائِحُونَ هُمُ الصَّائِمُونَ**»(١).

[ثم رواه عن بُنْدَار، عن ابن مهدي، عن إسرائيل، عن سليمان الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة أنه قال: ﴿ٱلسَّٰٓئِحُونَ﴾ الصَّائمون](٢).

وهذا الموقوف أصح(٣).

وقال أيضًا: حدَّثني يونس، عن ابن وهب، عن عمر بن الحارث، عن عمرو بن دينار، عن عُبَيد بن عُمَير قال: سئل النَّبيُّ ﷺ عن السائحين فقال: «**هُمُ الصَّائِمُونَ**»(٤).

وهذا مرسل جيد.

فهذه أصح الأقوال وأشهرها.

وجاء ما يدلُّ علىٰ أنَّ السياحة الجهاد، وهو ما روىٰ أبو داود في «سننه»، من حديث أبي أمامة أن رجلًا قال: يا رسول الله، ائْذنْ لي في السِّياحة. فقال النَّبيُّ ﷺ: «**سِيَاحَةُ أُمَّتِي الجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ**»(٥).

وقال ابن المبارك، عن ابن لَهِيعة: أخبرني عُمارة بن غَزِيَّة: أنَّ السِّياحة ذكرت عند رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «**أَبْدَلَنَا اللهُ بِذَلِكَ الجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَالتَّكْبِيرَ عَلَىٰ كُلِّ شَرَفٍ**(٦)»(٧).

وعن عِكْرِمة أنه قال: هم طلبة العلم. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هم المهاجرون. رواهما ابن أبي حاتم.

وليس المراد مِن السِّياحة ما قد يفهمه بعضُ مَن يتعبَّد بمجرَّد السياحة في الأرض، والتَّفَرُّد فِي شواهق الجبال والكهوف والبَراري؛ فإنَّ هذا ليس بمشروعٍ إلا في أيام الفِتَن والزَّلَازِل في الدين، كما ثبت في «صحيح البخاري»، عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «**يُوشِكُ أَنْ يَكُونَ خَيْرَ مَالِ الرَّجُلِ غَنَمٌ يَتْبَعُ بِهَا شَعَفَ**(٨) **الجِبَالِ، وَمَوَاقِعَ القَطْرِ، يَفِرُّ بِدِينِهِ مِنَ الفِتَنِ**»(٩)(١٠).

وقال العوفي وعلي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس في قوله: ﴿وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ﴾ قال: القائمون

---

(١) ضعيف: رواه الطبري (١١/ ٣٧)، وعلته حكيم بن حزام: متروك، ،الحديث ضعفه الشيخ الألباني انظر: «ضعيف الجامع» (٣٣٣٠)، ولكنه ثبت موقوفًا بإسنادٍ صحيحٍ عند الطبري وهو الأصح كما أشار إلىٰ ذلك ابن كثير:.

(٢) ما بين المعقوفتين ليس في (ز).

(٣) **صحيح**: رواه الطبري (١١/ ٢٧).

(٤) **مرسل**: رواه الطبري (١٥/ ٣٧).

(٥) **حسنه الألباني**: أبو داود (٢٤٨٦).

(٦) لوحة (٢٦٩ أ).

(٧) **ضعيف**: رواه ابن المبارك في «الجهاد» (١٧)، وإسناده منقطع؛ لأن عمارة بن غزية لم يدرك أحدًا من الصحابة.

(٨) **الشَّعَف**: واحدها شَعفة، وهي أعلىٰ الجبل.

(٩) البخاري (١٩)، والنسائي (٨/ ٣٩٨)، وابن ماجه (٣٩٨٠).

(١٠) **قال الشيخ السعدي** رحمه الله: فسرت السياحة بالصيام، أو السياحة في طلب العلم، وفسرت بسياحة القلب في معرفة الله ومحبته، والإنابة إليه علىٰ الدوام، والصحيح أن المراد بالسياحة: السفر في القربات؛ كالحج، والعمرة، والجهاد، وطلب العلم، وصلة الأقارب، ونحو ذلك.

بطاعة الله. وكذا قال الحسن البصري، وعنه رواية: ﴿وَٱلْحَـٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ﴾ قال: لفرائض الله، وفي رواية: القائمون علىٰ أمر الله.

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾

قال الإمام أحمد: حدَّثنا عبد الرزاق، حدَّثنا مَعْمَر، عن الزُّهري، عن ابن المسيب، عن أبيه قال: لما حَضرت أبا طالب الوفاة دخل عليه النَّبيُّ ﷺ وعنده أبو جهل، وعبد الله بن أبي أمية، فقال: «أَيْ عَمِّ، قُلْ: لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ. كَلِمَةٌ أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللهِ ﷻ». فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أُمَيَّة: يا أبا طالب، أَتَرْغَبُ عَن ملَّة عبد المطلب؟ [قال: فلم يزالا يُكلِّمانه، حتىٰ قال آخر شيء كلمهم به: علىٰ ملَّة عبد المطلب][1]. فقال النَّبيُّ ﷺ: «لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ». فنزلت: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ قال: ونزلت فيه: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦] أخرجاه[2].

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا يحيىٰ بن آدم، أخبرنا سفيان، عن أبي إسحاق، عن أبي الخليل، عن علي رضي الله عنه قال: سمعت رجلًا يستغفر لأبويه، وهما مشركان، فقلت: أيستغفر الرَّجل لأبويه وهما مشركان؟ فقال: أو لم يستغفر إبراهيم لأبيه؟ فذكرت ذلك للنبي ﷺ، فنزلت: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ إلىٰ قوله: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ﴾ قال: «لَمَّا مَاتَ»[3]، فلا أدري قاله سفيان أو قاله إسرائيل، أو هو في الحديث «لَمَّا مَاتَ».

قلت: هذا ثابت عن مجاهد أنه قال: لما مات.

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا الحسن بن موسىٰ، حدَّثنا زهير، حدَّثنا زبيد بن الحارث اليامِي عن محارب بن دثار، عن ابن بُرَيْدة، عن[4] أبيه قال: كنا مع النَّبيِّ ﷺ، فنزل بنا ونحن معه قريب مِن ألف راكبٍ، فصلَّىٰ ركعتين، ثم أَقْبَل علينا بوجهه وعيناه تَذْرِفان، فقام إليه عمر بن الخطاب وفَداه بالأب والأم، وقال: يا رسول الله، ما لك؟ قال: «إِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي ﷻ فِي الاِسْتِغْفَارِ لِأُمِّي، فَلَمْ يَأْذَنْ لِي، فَدَمَعَتْ عَيْنَايَ رَحْمَةً لَهَا مِنَ النَّارِ، وَإِنِّي كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ ثَلَاثٍ: نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ القُبُورِ فَزُورُوهَا، لِتُذَكِّرَكُمْ زِيَارَتُهَا خَيْرًا، وَنَهَيْتُكُمْ عَنْ لُحُومِ الأَضَاحِي بَعْدَ ثَلَاثٍ، فَكُلُوا وَأَمْسِكُوا مَا شِئْتُمْ، وَنَهَيْتُكُمْ عَنِ الأَشْرِبَةِ

---

(١) ما بين المعقوفتين سقط من (ز)، وهو مثبت من «المسند».
(٢) البخاري (١٢٦٠)، ومسلم (٢٤)، والنسائي (١/ ٩٠)، وأحمد (٣٩٨٠).
(٣) ضعيف: أحمد (١/ ٩٩)، وفيه أبو إسحاق السبيعي: اختلط بآخره، وروىٰ عنه سفيان بعد الاختلاط.
(٤) لوحة (٢٦٩ ب).

فِي الأَوْعِيَةِ، فَاشْرَبُوا فِي أَيِّ وِعَاءٍ وَلَا تَشْرَبُوا مُسْكِرًا»[١].

وروى ابن جرير، من حديث علقمة بن مَرْثد، عن سليمان بن بُرَيدة، عن أبيه؛ أن رسول الله ﷺ لما قَدِم مكَّة أتىٰ رَسْمَ قبر، فجلسَ إليه، فجعل يُخَاطِب، ثمَّ قَام مُسْتَعْبِرًا. فقلنا: يا رسول الله، إنَّا رَابَنَا[٢] ما صنعت. قال: «إِنِّي اسْتَأْذَنْتُ رَبِّي فِي زِيَارَةِ قَبْرِ أُمِّي، فَأَذِنَ لِي، وَاسْتَأْذَنْتُهُ فِي الاسْتِغْفَارِ لَهَا فَلَمْ يَأْذَنْ لِي». فما رُئِيَ بَاكيًا أكثر مِن يومئذٍ[٣].

وقال ابن أبي حاتم، في «تفسيره»: حدَّثنا أبي، حدَّثنا خالد بن خِدَاش، حدَّثنا عبد الله بن وهب، عن ابن جرَيج عن أيوب بن هانئ، عن مسروق، عن عبد الله بن مسعود قال: خَرَجَ رسول الله ﷺ يومًا إلىٰ المقابر، فاتَّبعناه، فجاء حتَّىٰ جلس إلىٰ قبر منها، فناجاه طويلًا ثم بكىٰ فبكينا [لبُكَائِهِ][٤] ثم قام فقام إليه عمر بن الخطاب، فدعاه ثم دعانا، فقال: «مَا أَبْكَاكُمْ؟» فقلنا: بكينا لبكائك. قال: «إِنَّ القَبْرَ الَّذِي جَلَسْتُ عِنْدَهُ قَبْرُ آمِنَةَ، وَإِنِّي اسْتَأْذَنْتُ رَبِّي فِي زِيَارَتِهَا فَأَذِنَ لِي» [ثم أورده من وجه آخر، ثم ذكر من حديث ابن مسعود قريبًا منه، وفيه:][٥] «وَإِنِّي اسْتَأْذَنْتُ رَبِّي فِي الدُّعَاءِ لَهَا فَلَمْ يَأْذَنْ لِي، وَأَنْزَلَ عَلَيَّ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ﴾ فَأَخَذَنِي مَا يَأْخُذُ الوَلَدَ لِلْوَالِدَةِ، وَكُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ القُبُورِ فَزُورُوهَا؛ فَإِنَّهَا تُذَكِّرُ الآخِرَةَ»[٦].

حديث آخر في معناه: قال الطبراني: حدَّثنا محمَّد بن علي المروزي، حدَّثنا أبو الدرداء عبد العزيز بن منيب[٧]، حدَّثنا إسحاق بن عبد الله بن كَيْسَان، عن أبيه، عن عِكْرِمة، عن ابن عبَّاس؛ أن رسول الله ﷺ لما أقبل مِن غزوة تبوك واعتمر، فلما هبط من ثَنِيَّة عُسْفان أمر أصحابه: أن استندوا[٨] إلىٰ العقبة حتىٰ أَرْجِعَ إليكم، فذهب فنزل علىٰ قبر أمِّه، فناجىٰ ربَّه طويلًا ثم إنَّه بكىٰ فاشتدَّ بكاؤُه، وبكىٰ هؤلاء لبُكَائِهِ، وقالوا: ما بكىٰ نبيُّ الله بهذا المكان إلا وقد أُحْدِثَ في أمته شيء لا تُطيقه. فلما بكىٰ هؤلاء قام فرجع إليهم، فقال: «مَا يُبْكِيكُمْ؟». قالوا: يا نبي الله، بكينا لبكائك، فقلنا[٩]: لعله أحدث في أمتك شيء لا تطيقه، قال: «لَا وَقَدْ كَانَ بَعْضُهُ، وَلَكِنْ نَزَلْتُ عَلَىٰ قَبْرِ أُمِّي فَدَعَوْتُ اللهَ أَنْ يَأْذَنَ لِي فِي شَفَاعَتِهَا يَوْمَ القِيَامَةِ، فَأَبَىٰ اللهُ أَنْ يَأْذَنَ لِي، فَرَحِمْتُهَا وَهِيَ أُمِّي، فَبَكَيْتُ، ثُمَّ جَاءَنِي جِبْرِيلُ فَقَالَ: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ فَتَبَرَّأْ أَنْتَ مِنْ أُمِّكَ، كَمَا تَبَرَّأَ إِبْرَاهِيمُ مِنْ أَبِيهِ، فَرَحِمْتُهَا وَهِيَ أُمِّي، وَدَعَوْتُ رَبِّي أَنْ يَرْفَعَ عَنْ أُمَّتِي أَرْبَعًا، فَرَفَعَ عَنْهُمُ اثْنَتَيْنِ، وَأَبَىٰ أَنْ يَرْفَعَ عَنْهُمُ اثْنَتَيْنِ:

---

(١) صحيح: المسند (٥/ ٣٥٥). (٢) رابه الشيء يريبه: جعله شاكًا.

(٣) صحيح: الطبري (١١/ ٤٢). (٤) سقط من (ز). (٥) سقط من (ز).

(٦) صحيح لشواهده: ورواه الحاكم (٢/ ٣٣٦)، ورجاله ثقات عدا أيوب بن هانئ ففيه لين، لكن يشهد له الروايات السابقة (عدا سبب النزول) فلم أقف علي شاهد له منه.

(٧) في (ز): (عبد العزيز بن مثبت)، وهو خطأ.

(٨) في (ز): (أن استنسدوا). (٩) لوحة (٢٧٠ أ).

دَعَوْتُ رَبِّي أَنْ يَرْفَعَ عَنْهُمُ الرَّجْمَ مِنَ السَّمَاءِ وَالغَرَقَ مِنَ الأَرْضِ، وَأَلَّا يُلْبِسَهُمْ شِيَعًا، وَأَلَّا يُذِيقَ بَعْضَهُمْ بَأْسَ بَعْضٍ، فَرَفَعَ اللهُ عَنْهُمُ الرَّجْمَ مِنَ السَّمَاءِ، وَالغَرَقَ مِنَ الأَرْضِ، وَأَبَىٰ اللهُ أَنْ يَرْفَعَ عَنْهُمُ القَتْلَ وَالهَرْجَ». وإنَّما عدل إلىٰ قبر أُمِّه؛ لأنَّها كانت مَدفُونَةً تحت كَداء وكانت عُسْفان لهم[١].

وهذا حديث غريب وسياق عجيب، وأغرب منه وأشدُّ نكارةً ما رواه الخطيب البغدادي في كتاب «السَّابق واللَّاحق» بسندٍ مجهولٍ، عن عائشة في حديث فيه قصة أنَّ الله أحيا أمَّه فآمنت ثم عادَت. وكذلك ما رواه السُّهَيْلي في «الرَّوض» بسند فيه جَمَاعة مجهولون: أنَّ الله أَحْيَا له أباه وأُمَّه فآمنا به[٢].

وقد قال الحافظ ابن دِحْيَةَ: [هذا الحديث موضوعٌ يَرُدُّه القرآن والإجماع، قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌ﴾ [النساء: ١٨]. وقال أبو عبد الله القرطبي: إن مقتضىٰ هذا الحديث... وردَّ عَلَىٰ ابن دِحية][٣] في هذا الاستدلال بما حاصله: أنَّ هذه حياةٌ جديدةٌ، كما رجعت الشَّمس بعد غَيْبُوبَتِهَا فصلَّىٰ عَلِيٌّ العصر، قال الطحاوي: وهو حديثٌ ثابتٌ؛ يعني: حديث الشمس.

قال القرطبي : فليس إحياؤهما يمتنع عقلًا ولا شرعًا، قال: وقد سمعتُ أن الله أحيا عمَّه أبا طالبٍ فآمن به.

قلت: وهذا كله متوقِّفٌ علىٰ صحَّة الحديث، فإذا صحَّ فلا مانع منه[٤]، والله أعلم.

وقال العوفي، عن ابن عبَّاس في قوله: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ ...﴾ الآية، فإنَّ رسول الله ﷺ أراد أن يَسْتَغْفِر لأُمِّه، فنهاه الله عن ذلك فقال: «فَإِنَّ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلَ اللهِ قَدِ اسْتَغْفَرَ لِأَبِيهِ»، فأنزل الله: ﴿ وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ...﴾ الآية.

وقال عليُّ بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس، في هذه الآية: كانوا يَسْتَغْفِرُون لهم، حتىٰ نزلت هذه الآية، فلمَّا [نزلت أمسكوا عَن الاستغفار لأَمْوَاتِهِم، ولَمْ يَنْهَهُم أن يَسْتَغْفِرُوا للأَحْيَاءِ حتَّىٰ يموتوا ثُمَّ][٥] أنزل الله: ﴿ وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ ...﴾ الآية.

وقال قتادة في هذه الآية: ذُكر لنا أن رجالًا مِن أصحاب النَّبيِّ ﷺ قالوا: يا نَبِيَّ الله، إنَّ مِن آبائنا من كان يحسن الجوار، ويَصِلُ الأرحَام، ويفُكُّ العاني، ويُوفِي بالذِّمَم؛ أفلا نستغفر لهم؟ قال: فقال النَّبيُّ ﷺ[٦]: «بَلَىٰ، وَاللهِ إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ لِأَبِي كَمَا اسْتَغْفَرَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ». فأنزل الله: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ﴾ حتىٰ بلغ: ﴿ٱلۡجَحِيمِ﴾ ثم عذر الله تعالىٰ إبراهيم، فقال: ﴿ وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ﴾ قال: وذُكر لنا

---

(١) ضعيف: الطبراني (١١/ ٢٧٤)، وفي إسناده عبد الله بن كيسان، قال الحافظ: صدوق يخطئ كثيرًا، وقال البخاري: منكر الحديث، وقال أبو حاتم:ضعيف، وانظر تعليق ابن كثير بعده.

(٢) ضعيف: واستنكره الحافظ ابن كثير، وبيَّن أن في سنده مجهول، والرواية الثانية فيها مجاهيل.

(٣) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

(٤) لكن الحديث ضعيف كما تقدم.

(٥) سقط من (ز).

(٦) لوحة (٢٧٠ ب).

أن نبي الله قال: «**أُوحِيَ إِلَيَّ كَلِمَاتٌ، فَدَخَلْنَ فِي أُذُنِي وَوَقَرْنَ فِي قَلْبِي: أُمِرْتُ أَلَّا أَسْتَغْفِرَ لِمَنْ مَاتَ مُشْرِكًا، وَمَنْ أَعْطَىٰ فَضْلَ مَالِهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ، وَمَنْ أَمْسَكَ فَهُوَ شَرٌّ لَهُ، وَلَا يَلُومُ اللهُ عَلَىٰ كَفَافٍ**[١]»[٢].

وقال الثوري، عن الشيباني، عن سعيد بن جُبير قال: مات رجلٌ يهوديٌّ وله ابن مسلم، فلم يخرج معه، فذكر ذلك لابن عبَّاس فقال: فكان ينبغي له أن يمشي معه ويدفنه، ويدعو له بالصلاح ما دام حيًّا، فإذا مات وكله إلىٰ شأنه، ثم قال: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ لم يدْعُ[٣].

قلت: وهذا يشهد له [بالصحة][٤] ما رواه أبو داود وغيره، عن علي بن أبي طالب قال: لما مات أبو طالب قلت: يا رسول الله، إن عمَّك الشيخ الضَّال [قد مات][٥]. قال: «**اذْهَبْ فَوَارِهِ وَلَا تُحْدِثَنَّ شَيْئًا حَتَّىٰ تَأْتِيَنِي...**» وذكر تمام الحديث[٦].

ويروىٰ أن رسول الله ﷺ لما مَرَّت به جنازة عمه أبي طالب قال: «**وَصَلَتْكَ رَحِمٌ يَا عَمِّ**»[٧].

وقال عطاء بن أبي رباح: ما كنتُ لأدع الصَّلاة علىٰ أحدٍ مِن أهل القبلة، ولو كانت حبشيَّة حبلىٰ من الزِّنا؛ لأنِّي لم أسمع الله حجب الصلاة إلا علىٰ المشركين، يقول الله ﷻ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ﴾.

وروىٰ ابنُ جَرير، عن ابن وَكيع، عن أبيه، عن عصمة بن زامل، عن أبيه قال: سمعت أبا هريرة يقول: رَحِمَ الله رجلًا استغفر لأبي هريرةَ ولأمِّه. قلت: ولأبيه؟ قال: لا. قال: إن أبي مات مشركًا[٨].

وقوله: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ قال ابن عبَّاس: ما زال إبراهيم يستغفر لأبيه حتىٰ مات، فلمَّا تبيَّن له أنَّه عدو لله تبرأ منه. وفي رواية: لما مات تبيَّن له أنه عدو لله.

وكذا قال مجاهد، والضَّحَّاك، وقتادة، وغيرهم رحمهم الله.

وقال عُبَيْد بن عمير، وسعيد بن جُبَيْر: إنه يتبرأ منه في يوم القيامة حين يلقىٰ أباه، وعلىٰ وجه أبيه الغَبَرَةُ والقَتَرَة فيقول: يا إبراهيم، إني كنت أَعْصِيك وإنِّي اليوم لا أَعْصِيك. فيقول: أيْ رَبي، ألم تعدني ألا تخزني يوم يُبْعَثُون؟ فأيُّ خِزْي أَخْزَىٰ مِن أبي الأبعد؟ فيقال: انظر إلىٰ ما وراءك، فإذا هو بِذِيخٍ مُتَلَطِّخٍ؛

---

(١) **الكَفَاف** من الرزق: مايكون علىٰ قدر الحاجة، لا يفضل منه شئ.
(٢) **ضعيف**: رواه الطبري (١١/ ٤٣) وإسناده مرسل.
(٣) رواه الطبري (١١/ ٤٤)، ورجاله ثقات، ورواه نحوه من طريق أخرىٰ عن سعيد بن جبير به، إلا أنه ذكر أن الميت نصراني.
(٤) سقط من (ز).
(٥) سقط من (ز).
(٦) **صحيح**: أبو داود (٣٢١٤)، وصححه الشيخ الألباني.
(٧) **ضعيف**: رواه ابن عدي في «الكامل» (١/ ٢٦٠) نحوه، وفي إسناده إبراهيم بن عبد الرحمن، قال ابن عدي: (أحاديثه عن كل من روىٰ عنه غير مستقيمة، وعامة أحاديثه غير محفوظة).
(٨) **ضعيف**: رواه الطبري (١١/ ٤٤)، وفيه ابن وكيع: ضعيف، وعصمة بن زامل: مجهول.

أي: قد مُسِخ ضِبْعانًا[١]، ثم[٢] يُسْحَب بقوائِمِه، ويُلْقَىٰ في النار[٣].

وقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ قال سفيان الثوري وغير واحدٍ، عن عاصم بن بَهْدَلة، عن زِرّ بن حُبَيش، عن عبد الله بن مسعود أنه قال: الأوَّاه: الدَّعَّاء. وكذا رُوِيَ من غير وجهٍ، عن ابن مسعود[٤].

وقال ابن جرير: حدَّثني المثنىٰ: حدَّثنا الحجاج بن مِنْهال، حدَّثنا عبد الحميد بن بَهْرام، حدَّثنا شَهْر ابن حَوشب، عن عبد الله بن شداد بن الهاد قال: بينما رسول الله ﷺ جالسٌ قال رجل: يا رسول الله، ما الأوَّاه؟ قال: المُتَضَرِّع، قال: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾[٥].

ورواه ابن أبي حاتم من حديث ابن المبارك، عن عبد الحميد بن بَهْرَام به، قال: المُتَضَرِّع الدَّعَّاء.

وقال الثوري، عن سلمة بن كُهَيْل، عن مسلم البَطِين عن أبي العُبَيْدَيْن[٦] أنَّه سأل ابن مسعود عن الأوَّاه، فقال: هو الرَّحيم.

وبه قال مجاهد، وأبو ميسرة عمرو بن شُرَحْبيل، والحسن البصري، وقتادة: أنَّه الرحيم؛ أي: بعباد الله.

وقال ابن المبارك، عن خالد، عن عِكْرِمة، عن ابن عبَّاس قال: الأوَّاه: المُوقِن بلسان الحبشة، وكذا قال العوفي، عن ابن عبَّاس: أنَّه المُوقِن. وكذا قال مجاهد، والضَّحَّاك. وقال علي بن أبي طلحة، ومجاهد، عن ابن عبَّاس: الأواه: المؤمن، زاد علي بن أبي طلحة عنه: المُؤْمِن التَّوَّاب. وقال العوفي عنه: هو المؤمن بلسَان الحَبَشَةِ. وكذا قال ابن جُرَيْج: هو المؤمن بلسان الحَبَشَةِ.

وقال أحمد: حدَّثنا موسىٰ، حدَّثنا ابن لهِيعة، عن الحارث بن يزيد[٧]، عن علي بن رباح، عن عقبة بن عامر؛ أنَّ رسول الله ﷺ قال لرجل يقال له: «ذُو البِجَادَيْن»: «إِنَّه أَوَّاهٌ»، وذلك أنَّه رجل كثير الذكر لله في القُرْآن ويرفع صوته في الدعاء[٨].

ورواه ابن جرير.

وقال سعيد بن جبير، والشعبي: الأوَّاه: المُسَبِّح. وقال ابن وهب، عن معاوية بن صالح، عن أبي الزاهرية، عن جُبَير بن نفير، عن أبي الدرداء ﷺ قال: لا يحافظ علىٰ سُبْحة الضُّحَىٰ إلا أوَّاه[٩]. وقال [شُفَيُّ بنُ مَاتِع][١٠]، عن أبي أيوب: الأوَّاه: الَّذِي إذا ذكر خطاياه استغفر منها[١١].

وعن مجاهد: الأوَّاه: الحفيظ الوَجِل، يذنب الذَّنب سِرًّا، ثم يتوب منه سرًّا.

---

(١) الذِّيخ: ذكر الضباع، وأراد بالتلطخ: التلطخ برجيعه أو بالطين. والضِّبْعان: الضبع.

(٢) لوحة (٢٧١ أ). (٣) البخاري (٣١٧٢). (٤) **صحيح**: رواه الطبري من طرق (١١/ ٤٧).

(٥) **ضعيف**: الطبري (١١/ ٥١) وإسناده ضعيف؛ شهر بن حوشب كثير الإرسال والأوهام، والإسناد مرسل.

(٦) في (ز): (عن أبي القدير). (٧) في (ز): (الحارث بن مرثد)، وهو خطأ.

(٨) أحمد (٤/ ١٥٩)، ورجاله ثقات غير أن ابن لهيعة قد اختلط، فالحديث ضعيف.

(٩) رواه ابن أبي حاتم (١٠٠٧٠)، ورجاله ثقات.

(١٠) في (ز): (شفي بن مانع)، والمثبت هو الصواب.

(١١) رواه ابن أبي حاتم (١٠٠٦٩)، وفي إسناده ابن لهيعة: اختلط.

ذكر ذلك كلّه ابن أبي حاتم رَحِمَهُ اللَّهُ.

وقال ابن جرير: حدَّثنا ابن وَكِيع، حدَّثنا المحاربي، عن حجَّاج، عن الحكم، عن الحسن بن مسلم بن يَنَّاق[(١)]: أن رجلًا كان يكثر ذكر الله ويسبِّح، فذكر ذلك للنَّبيِّ ﷺ، فقال: «إِنَّهُ أَوَّاهٌ»[(٢)].

وقال أيضًا: حدَّثنا أبو كُرَيب، حدَّثنا ابن يمان[(٣)]، حدَّثنا المِنْهَال بن خليفة، عن حَجّاج بن أَرْطَأة، عن عطاء، عن ابن عبَّاس؛ أن النَّبيَّ ﷺ دفن ميتًا، فقال: «رَحِمَكَ اللهُ إِنْ[(٤)] كُنْتَ لَأَوَّاهًا»! يعني: تَلَّاءً للقرآن[(٥)].

وقال شعبة، عن أبي يونس الباهلي قال: سمعت رجلًا بمكة -وكان أصله روميًّا، وكان قاصًّا- يحدِّث عن أبي ذَرٍّ قال: كان رجلٌ يطوف بالبيت الحرام ويقول في دعائه: «أَوَّهْ أَوَّهْ»، فذُكر ذلك للنَّبيِّ ﷺ فقال: إنه أوَّاه. قال: فخرجت ذات ليلة، فإذا رسول الله ﷺ يدفن ذلك الرجل ليلًا ومعه المصباح[(٦)].

هذا حديثٌ غريبٌ رواه ابن جرير ومشاه.

وروي عن كعب الأحبار أنه قال: سمعت ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ﴾ قال: كان إذا ذكر النار قال: «أَوَّهْ مِنَ النَّارِ».

وقال ابن جُرَيْج عن ابن عبَّاس: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ﴾ قال: فَقِيهٌ.

قال الإمام العلم أبو جعفر بن جرير: وأولىٰ الأقوال قول من قال: إنَّه الدَّعَّاء، وهو المناسب للسِّياق؛ وذلك أنَّ الله تعالىٰ لما ذكر أنَّ إبراهيم إنَّما استغفر لأبيه عن موعدةٍ وعدها إيَّاه، وقد كان إبراهيم كثير الدعاء حليمًا عمَّن ظلمه وأَنَالَه مكروهًا؛ ولهذا استغفر لأبيهِ مع شدَّة أذاه له في قوله: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ [مريم: ٤٦، ٤٧]، فحَلُمَ عنه مع أذاه له، ودعا له واستَغْفَرَ؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾.

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ اللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ ۖ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾﴾

يقول تعالىٰ مخبراً عن نفسه الكريمة وحكمه العادل: إنَّه لا يضل قومًا بعد بلاغ الرسالة إليهم، حتىٰ يكونوا

(١) في (ز): (مسلم بن بيان)، وهو خطأ.
(٢) ضعيف: رواه الطبري (١٤/ ٥٢٩ برقم ١٧٤٠٧)، وفيه حجاج بن أرطأة: ضعيف، الحكم بن عتيبة: ثقة ثبت ربما دلس وقد عنعن.
(٣) في (ز): (ابن هانئ)، وهو خطأ.
(٤) لوحة (٢٧١ ب).
(٥) ضعيف: رواه الطبري (١١/ ٥٠)، وإسناده ضعيف، وعلته حجاج بن أرطأة: ضعيف.
(٦) ضعيف: رواه الطبري (١١/ ٥٠)، وإسناده معضل.

قد قامت عليهم الحجة، كما قال تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ الآية [فصلت: ١٧].

وقال مجاهد في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ قال: بيان الله ﷻ للمؤمنين في الاستغفار للمشركين خاصَّة، وفي بيانه طاعته ومعصيته عامَّة، فافعلوا أو ذَرُوا.

وقال ابن جرير: يقول الله تعالىٰ: وما كان الله ليقضي عليكم في استغفاركم لموتاكم المشركين بالضَّلال بعد إذ رزقكم الهداية ووفقكم للإيمان به وبرسوله، حتىٰ يتقدم إليكم بالنَّهي عنه فتتْرُكوا، فأمَّا قبل أن يُبيِّنَ لكم كراهيته ذلك بالنَّهْيِ عنه، ثم تتعدَّوْا نهيه إلىٰ ما نهاكم عنه؛ فإنَّه لا يحكم عليكم بالضَّلال؛ فإنَّ الطَّاعة والمعصيةَ إنَّما يكونان من[1] المَأْمُور والمنهي، وأما من لم يُؤمَر ولم يُنْهَ فغير كائنٍ مطيعًا أو عاصيًا فيما لم يؤمر به ولم يُنْهَ عنه.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ قال ابن جرير: هذا تحريضٌ من الله لعباده المؤمنين في قتَال المشركين وملوك الكفر، وأن يَثِقُوا بنصر الله مالك السموات والأرض، ولم يرهبوا مِن أعدائه فإنه لا ولي لهم من دون الله، ولا نَصِيرَ لهم سواه.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا علي بن أبي دُلامة البغدادي، حدَّثنا عبد الوهاب بن عطاء، حدَّثنا سعيد، عن قتادة، عن صفوان بن مُحْرِز، عن حكيم بن حزام قال: بينا رسول الله ﷺ بين أصحابه إذ قال لهم: «**هَلْ تَسْمَعُونَ مَا أَسْمَعُ؟**» قالوا: ما نسمع من شيءٍ. فقال رسول الله ﷺ: «**إِنِّي لَأَسْمَعُ أَطِيطَ**[2] **السَّمَاءِ، وَمَا تُلَامُ أَنْ تَئِطَّ، وَمَا فِيهَا مِنْ مَوْضِعِ شِبْرٍ إِلَّا وَعَلَيْهِ مَلَكٌ سَاجِدٌ أَوْ قَائِمٌ**»[3].

وقال كعب الأحبار: ما مِن موضع خرمة إبرة من الأرض إلا ومَلَكٌ موكَّلٌ بها، يرفع علم ذلك إلىٰ الله، وإنَّ ملائكة السَّماء لأكثر مِن عدد التُّراب، وإنَّ حملة العرش ما بين كعب أحدهم إلىٰ مُخِّه مسيرة مائة عام.

﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ[4] ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ١١٧﴾

---

(١) لوحة (٢٧٢ أ).

(٢) الأطيط: صوت الرَّحل عند الحمل عليه، لا سيما الجديد.

(٣) صحيح لغيره: رواه ابن نصر في «الصلاة» (٢٥٠)، والطبراني في «الكبير» (٣/ ٢٠١)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٣١٧)، والطحاوي في «مشكل الآثار» (٢٣١٢)، وعبد الوهاب بن عطاء، قال فيه الحافظ: صدوق، ربما أخطأ «تقريب التهذيب» ترجمة (٤٢٦٢). فالإسناد حسن. وصححه الشيخ الألباني في «الصحيحة» (١٠٦٠)، وللحديث شواهد منها ما رواه أبو نعيم (٦/ ٢٦٩) من حديث أنس، وفيه ضعف، ومنها ما رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٢/ ٢٠٠/ ١٧٥١) من حديث جابر.

(٤) قال الشيخ السعدي رحمه الله: وزَيْغُ القلب هو انحرافه عن الصراط المستقيم، فإن كان الانحراف في أصل الدين، كان كفرًا، وإن كان في شرائعه، كان بحسب تلك الشريعة، التي زاغ عنها، إما قصر عن فعلها، أو فعَلَهَا علىٰ غير الوجه الشرعي.

قال مجاهد وغير واحدٍ: نزلت هذه الآية في غزوة تبوك، وذلك أنَّهم خرجوا إليها في شدَّةٍ مِن الأمر في سَنَةٍ مُجدبةٍ وحرٍّ شديدٍ، وعُسْرٍ من الزَّاد والماء.

قال قتادة: خرجوا إلىٰ الشَّام عام تبوك في لَهَبان الحرِّ، علىٰ ما يعلم الله من الجهد، أصابهم فيها جهدٌ شديدٌ، حتىٰ لقد ذكر لنا أنَّ الرجلين كانا يشُقَّان التَّمرة بينهما، وكان النَّفر يتداولون التَّمرة بينهم، يمُصُّها هذا، ثم يشرب عليها، ثم يمُصُّها هذا، ثم يشرب عليها، [ثم يمُصُّها هذا، ثم يشرب عليها][١] فتاب الله عليهم وأَقْفَلَهُم من غزوتهم.

وقال ابن جرير: حدَّثني يونس بن عبد الأعلىٰ، أخبرنا ابن وهب، أخبرني عمرو بن الحارث، عن سعيد بن أبي هلال، عن عتبة بن أبي عتبة، عن نافع بن جُبَير بن مطعم، عن عبد الله بن عبَّاس؛ أنه قيل لعمر بن الخطاب في شأن العسرة، فقال عمر بن الخطاب: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلىٰ تبوك في قَيْظٍ[٢] شديدٍ، فنزلنا منزلًا فأصابنا فيه[٣] عَطَش، حتىٰ ظنَّنا أنَّ رقابنا ستنقطع حتىٰ إن [كان الرجل لَيَذْهَب يلتمس الماء، فلا يَرْجِع حتىٰ يَظُنَّ أن رقبته سَتَنْقَطِع؛ حتىٰ إنَّ][٤] الرجل لَيَنْحَرُ بعيره فيعصر فَرْثَه[٥] فيشربه، ويجعل ما بقي علىٰ كبده، فقال أبو بكر الصديق: يا رسول الله، إنَّ الله ﷻ قد عوَّدك في الدُّعاء خيرًا، فادع لنا. قال: «تُحِبُّ ذَلِكَ؟». قال: نعم! فرفع يديه فلم يرجعهما حتىٰ مالت السماء فأظَلَّت[٦] ثم سكبت، فملئوا ما معهم، ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جاوزت العسكر[٧].

وقال ابن جرير في قوله: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾ أي: من النَّفقة والظَّهر والزَّاد والماء، ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ﴾ أي: عن الحق، ويشكُّ في دين رسول الله ﷺ ويرتاب، بالَّذي نالهم مِن المشقَّة والشِّدَّة في سفره وغزوه، ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ يقول: ثم رزقهم الإنابة إلىٰ ربِّهم، والرجوع إلىٰ الثبات علىٰ دينه، ﴿إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾

قال الإمام أحمد: حدَّثنا يعقوب بن إبراهيم، حدَّثنا ابن أخي الزهري محمَّد بن عبد الله، عن عمه

---

(١) ليست في (ز).
(٢) في (ز): (في قبض)، والمثبت هو الصواب.
(٣) لوحة (٢٧٢ ب).
(٤) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).
(٥) الفرث: السِّرْجين (الزبل) ما دام في الكرش، وفرثه: أي روثه في كرشه.
(٦) أي: جاء السحاب بالظل.
(٧) صحيح: رواه الطبري (١١/ ٥٥)، وابن حبان (١٣٨٣)، والبزار (١٨٤١)، والحاكم (١/ ١٥٩).

محمَّد بن مسلم الزهري، أخبرني عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك، أن عبد الله[(١)] بن كعب بن مالك -وكان قائد كعب من بَنِيهِ[(٢)] حين عَمِي- قال: سمعت كعب بن مالك يحدِّث حديثه حين تخلَّف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، فقال كعب بن مالك: لم أتخلَّف عن رسول الله ﷺ في غزاةٍ غيرِهَا قط إلا في غزوة تبوك، غير أنِّي كنت تخلفت في غزاة بدر، ولم يعاتَب أحدٌ تخلَّف عنها، وإنَّما خرج رسول الله ﷺ يريد عِير قريش، حتىٰ جمع الله بينهم وبين عدوِّهم علىٰ غير ميعاد، ولقد شهدتُ مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة حين توافقنا علىٰ الإسلام، وما أُحِبُّ أن لي بها مشهد بدر، وإن كانت بدر أذْكَر في الناس منها وأشهر، وكان مِن خبري حين تخلَّفت عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك أنِّي لم أكن قطُّ أقوىٰ ولا أَيْسَر منِّي حين تخلَّفت عنه في تلك الغزاة، واللهِ ما جمعت قبلها راحلتين قطُّ حتىٰ جمعتهما في تلك الغَزَاةِ، وكان رسول الله ﷺ[(٣)] قلَّما يريد غزوة يغزوها إلا وَرَّىٰ[(٤)] بغيرها، حتىٰ كانت تلك الغزوة فغزاها رسول الله ﷺ في حَرٍّ شديدٍ، واستقبل سفرًا بعيدًا ومفازًا[(٥)]، واستقبل عدوًّا كثيرًا فَجَلَّىٰ للمسلمين أمرهم ليتأَهَّبوا أهبة عدوهم، فأخبرهم وَجْهَه الذي يريد، والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير، لا يجمعهم كتاب حافظ -يريد الدِّيوَان- فقال كعب: فَقَلَّ رجلٌ يريد أن يتغيَّب إلا ظنَّ أن ذلك سيَخْفَىٰ له ما لم ينزل فيه وحي من الله ﷻ، وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزاة حين طابت الثمار والظل، وأنا إليها أَصْعَر[(٦)].

فتجهز إليها رسول الله ﷺ والمؤمنون معه، وطَفِقْتُ أغدو لكي أتجهز معهم، فأرجع ولم أَقْضِ مِن جهازي شيئًا، فأقول لنفسي: أنا قادر علىٰ ذلك إذا أردت، فلم يزل ذلك يتمادىٰ بي حتىٰ شمَّر[(٧)] بالناس الجِدُّ، فأصبح رسول الله ﷺ غاديًا والمسلمون معه، ولم أقضِ من جهازي شيئًا، وقلت: الجهاز بعد يوم أو يومين ثم ألحقه، فغدوت بعد ما فَصَلُوا[(٨)] لأَتجَهَّز، فرجعت ولم أَقْضِ شيئًا، فلم يَزَلْ [ذلك][(٩)] يَتمادىٰ بي حتىٰ أسرعوا وتفَارَطَ الغزو[(١٠)]، فهممت أن أَرْتَحِلَ فأدركهم -وليت أنِّي فعلتُ- ثم لم يُقَدَّر ذلك لي، فطفقت إذا خرجتُ في الناس بعد [خروج][(١١)] رسول الله ﷺ [فَطُفْتُ فيهم][(١٢)] يحزنني ألا أرىٰ إلا رجلًا مَغْمُوصًا[(١٣)] عليه في النِّفاق، أو رجلًا ممن عذره الله ﷻ ولم يذكرني رسول الله ﷺ حتىٰ بلغ تبوك، فقال وهو جالس في القوم بتبوك: «**مَا فَعَلَ كَعْبُ**

---

(١) في (ز): (عبيد الله)، وهو خطأ. (٢) في (ز): (من بيته). (٣) لوحة (٢٧٣ أ).

(٤) من التَّوْرِية، وهي: أن يُوهم غير مراده؛ فيقصدَ شيئًا ويتكلم بما يُفهَم منه غيره. «تهذيب الأسماء واللغات».

(٥) أي: صحراء طويلة مهلكة. (٦) أي: أميل.

(٧) في (ز): (حتىٰ استمرَّ)، والمثبت موافق لما في «المسند».

(٨) في (ز): (بعدما وصلوا)، والمثبت موافق لما في «المسند».

(٩) سقط من (ز)، وهي مثبتة في «المسند».

(١٠) أي: فات. (١١) سقط من (ز)، وهي مثبتة في «المسند».

(١٢) سقط من (ز)، وهي مثبتة في «المسند».

(١٣) المغموص عليه: المُعَاب عليه، المطعون في دينه المتهم.

ابْنُ مَالِكٍ؟» قال رجلٌ مِن بني سَلمة: حبسه يا رسول الله بُرْدَاه، والنَّظر في عِطْفيه[١]. فقال له معاذ بن جبل: بئسما قلتَ! والله يا رسول الله ما عَلِمْنَا عليه إلّا خيرًا! فسكت رسول الله ﷺ، قال كعب بن مالك: فلما بلغني أنَّ رسول الله ﷺ قد توجَّه قافلًا من تبوك حضرني بَثِّي[٢] فطفقت أتذكر الكَذب، وأقول: بماذا أخرج مِن سخطته غدًا؟ أستعين علىٰ ذلك كلَّ ذي رأي من أهلي. فلما قيل: إنَّ رسول الله ﷺ قد أظلَّ قادمًا، زاح عني الباطل وعرفت أني لم أنجُ منه بشيءٍ أبدًا. فأجمعتُ صدقَهُ، وصَبَّح رسول الله ﷺ، وكان إذا قدم مِن سفرٍ بدأ بالمسجد فركع [فيه][٣] ركعتين، ثم جلس للناس. فلمَّا فعل ذلك جاءه المتخلِّفون فطَفِقُوا يعتذرون إليه ويحلفون[٤] له -وكانوا بضعة وثمانين رجلًا- فقبل منهم رسول الله ﷺ علانِيَتَهم ويستغفرُ لهم، ويَكِلُ سرائرهم إلىٰ الله تعالىٰ، [حتىٰ][٥] جِئتُ، فلما سلَّمت عليه تَبَسَّم تَبَسُّمَ المُغْضَب، ثم قال لي: «تَعَالَ»، فجئت أَمْشِي حتىٰ جلستُ بين يديه، فقال لي: «مَا خَلَّفَكَ، أَلَمْ تَكُ قَدِ اشْتَرَيْتَ ظَهْرَكَ»؟ قال: فقلت: يا رسول الله، إنِّي لو جلست عند غيرك مِن أهل الدنيا لرأيت أَن أخرج من سَخَطه بعذرٍ، لقد أُعْطِيتُ جَدَلًا، ولكنَّه والله لقد علمتُ لئن حَدَّثتك اليوم حديثَ كَذِبٍ ترضىٰ به عنِّي، ليوشكن الله [أَنْ][٦] يُسْخطك عليَّ، ولئن حدثتك بصدق تَجدُ عَلَيَّ فيه، إنِّي لأرجو عقبىٰ [ذلك عفوًا][٧] مِن الله تعالىٰ والله ما كان لي عذرٌ، والله ما كنت قطُّ أفرغ ولا أيسر مني حين تخلفت عنك قال: فقال رسول الله ﷺ: «أَمَّا هَذَا فَقَدْ صَدَقَ، فَقُمْ حَتَّىٰ يَقْضِيَ اللهُ فِيكَ». فقُمْتُ وبادرني رجالٌ من بني سلمة واتَّبعوني، فقالوا لي: والله ما علمناك كنت أَذْنَبْتَ ذنبًا قبل هذا، ولقد عَجَزت ألا تكون اعْتَذَرْت إلىٰ رسول الله ﷺ بما اعتذر به المُتَخَلِّفون فقد كان كافيك [من ذنبك][٨] استغفار رسول الله ﷺ لك. قال: فوالله ما زالوا يؤنِّبوني حتىٰ أردت أن أرجع فأُكذِّب نفسي: قال: ثم قلت لهم: هل لقي هذا معي أحدٌ؟ قالوا: نعم، [لقيه معك][٩] رجلان، قالا ما قلتَ، وقيل لهما مثل ما قيل لك. قلت: فمن هما؟ قالوا: مُرارة بن الربيع[١٠] العامري، وهلال بن أمية الواقفي. فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدرًا لي فيهما أسوةٌ. قال: فمَضَيْتُ حين ذكروهما لي، قال: ونهىٰ رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا -أيها الثلاثة- من بين من تخلف [عنه][١١]، فاجتنبَنا الناس وتغيَّروا لنا، حتىٰ تنكرَتْ لي في نفسي الأرضُ، فما هي بالأرض التي كنت أعرف، فلَبِثْنا علىٰ ذلك خمسين ليلةً. فأما صاحباي فاستكانا

---

(١) كناية عن الإعجاب بنفسه، واختياله بحسن لباسه، والعِطْفان: الجانبان، فهو يتلفت من شدة خيلائه.

(٢) البَث: أشد الحزن.

(٣) سقط من (ز)، وهي مثبتة في «المسند».

(٤) لوحة (٢٧٣ ب).

(٥) سقط من (ز)، وهي مثبتة في «المسند».

(٦) سقط من (ز).

(٧) سقط من (ز)، وهي مثبتة في «المسند».

(٨) سقط من (ز)، وهي مثبتة في «المسند».

(٩) سقط من (ز)، وهي مثبتة في «المسند».

(١٠) في (ز): (مرارة بن ربيع).

(١١) سقط من (ز)، وهي مثبتة في «المسند».

وقعدا في بيوتهما يَبْكِيَان، وأمَّا أنا فكنت أَشَبَّ[1] القوم وأجلَدهم، فكنت أَشْهَدُ الصَّلاة مع المسلمين، وأطوف بالأسواق فلا يُكَلِّمُنِي أحدٌ، وآتي رسول الله ﷺ وهو في مجلسِهِ بعد الصَّلاة فأُسَلِّم، وأقول في نفسي: حَرَّكَ شفتيه برد السَّلام عليَّ أم لا؟ ثم أُصَلِّي قريبًا منه، وأسارقه النَّظر، فإذا أقبلتُ علىٰ صلاتي نظر إليَّ، فإذا التفتُّ نحوه أعرَض، حتىٰ إذا طال عليَّ ذلك من هجر المسلمين مَشَيتُ حتىٰ تسوَّرتُ[2] حائط أبي قتادة -وهو ابن عمي، وأحب النَّاس إليَّ- فسلَّمتُ عليه، فوالله ما رَدَّ عليَّ السلام، فقلت له: يا أبَا[3] قتادة، أَنْشدُكَ الله: هل تعلم أنِّي أحب الله ورسوله؟ قال: فسكت. قال: فعدتُ فَنَشدته [فسكت، فعدت فنشدته][4] فقال: الله ورسوله أعلم. قال: ففاضت عَيْنَايَ وتوليت حتىٰ تسوَّرت الجدار. فبينا أنا أمشي بسوق المدينة إذا نَبَطِيٌّ[5] مِن أنباط الشَّام، ممن قَدم بطعام يبيعه بالمدينة يقول: مَن يدل علىٰ كعب بن مالك؟ قال: فطَفِقَ النَّاس يشيرون له إليَّ، حتىٰ جاء فدفع إليَّ كتابًا من مَلِكِ غسَّان، وكنت كاتبًا فإذا فيه: أمَّا بعد، فقد بَلَغَنَا أنَّ صاحبك قد جفَاكَ ولم يجعلك الله بدارِ هَوانٍ ولا مَضْيَعةٍ، فَالْحَقْ بنا نُواسِكَ، قال: فقلت حين قرأتها: وهذا أيضًا مِن البلاء، قال: فتيَمَّمْتُ بها التَّنُّور فَسَجرته[6] بها حتىٰ إذا مضت أربعون ليلةً من الخمسين، إذا برسول رسول الله ﷺ يأتيني، فقال: إنَّ رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزِلَ امرأتك، قال: فقلت: أُطَلِّقُها أم ماذا أفعل؟ قال: بل اعتزلها ولا تقربها، قال: وأُرْسِل إلىٰ صاحبيَّ بمثل ذلك، قال: فقلت لامرأتي: الحقي بأهلك، فكوني عندهم حتىٰ يقضي الله في هذا الأمر.

قال: فجاءت امرأةُ هلال بن أميَّة رسول الله ﷺ فقالت له: يا رسول الله، إنَّ هلالًا شيخٌ ضائعٌ ليس له خادم، فهل تكره أن أخدمه؟ قال: «لا، وَلَكِنْ لا يَقْرَبَنَّكِ» قالت: وإنَّه والله ما به حركة إلىٰ شيء، والله ما يزال يبكي مِن لدن أن كان مِن أمرك ما كان إلىٰ يومه هذا. قال: فقال لي بعض أهلي: لو استأذنت رسول الله ﷺ في امرأتك، فقد أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه. قال: فقلت: والله لا أستأذن فيها رسول الله ﷺ، وما أدري ما يقول رسول الله ﷺ إذا استأذنته وأنا رجلٌ شابٌّ؟

قال: فلبِثْنا [بعد ذلك][7] عشرَ ليال، فكمُل لنا خمسون ليلةً مِن حين نهىٰ عن كلامنا، قال: ثم صَلَّيت صلاة الفجر صباح خمسين ليلة علىٰ ظَهْرِ بيتٍ مِن بيوتنا، فبينا أنا جالسٌ علىٰ الحال التي ذكر الله تعالىٰ منَّا: قد ضاقت عليَّ نفسي، وضاقت عليَّ الأرض بما رحبت سَمِعْتُ صارخًا أَوْفَىٰ علىٰ جبل سَلْع[8] يقول بأعلىٰ صوته: يا كعب بن مالك، أبشر. قال: فخررت ساجدًا، وعرفت أن قد جاء فرج، فآذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صلَّىٰ الفجر، فذهب النَّاس يُبَشِّرُونَنَا، وذهب قِبَل صاحبيَّ

---

(١) في (ز): (أشد)، والمثبت موافق لما في «الصحيحين» و«المسند».
(٢) تسورته: علوته.
(٣) لوحة (٢٧٤ أ).
(٤) سقط من (ز).
(٥) النَّبَط والأنباط والنبيط: فلَّاحو العجم.
(٦) أي: ألقاه في الفرن.
(٧) سقط من (ز).
(٨) أي: أشرف عليه.

مبشرون، وركض إليَّ رجُلٌ فرسًا، وسعىٰ ساعٍ من أسلم وأوفىٰ علىٰ الجبل، فكان الصوت أسرع مِنَ الفَرَسِ. فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني[١]، فنزَعْت ثَوْبَيَّ، فكسوتهما إياه ببشارته، والله ما أملك غيرهما يومئذٍ، واستعرت ثوبين فلبستهما، وانطلقت أَؤُمُّ[٢] رسول الله ﷺ، يلقاني الناس فوجًا بعد فوج يُهَنِّئُونِي بالتوبة، يقولون: لِيَهْنكَ توبةُ الله عليك.

حتىٰ دخلت المسجد، فإذا رسول الله ﷺ جالس في المسجد حوله النَّاس، فقام إليَّ طلحة بن عبيد الله يُهَرْوِل، حتىٰ صافحني وهَنَّأني، والله ما قام إليَّ رجلٌ من المهاجرين غيره قال: فكان كعب لا ينساها لطلحة. قال كعب: فلمَّا سَلَّمت علىٰ رسول الله ﷺ قال وهو يَبْرُق وجهه مِن السرور: «**أَبْشِرْ بِخَيْرِ يَوْمٍ مَرَّ عَلَيْكَ مُنْذُ وَلَدَتْكَ أُمُّكَ**». قال: قلت: أَمِن عندك يا رسول الله أم مِن عند الله؟ قال: «**لا بَلْ مِنْ عِنْدِ اللهِ**». قال: وكان رسول الله ﷺ إذا سُرَّ استنار وجهه حتىٰ كأنَّه قطعة قمر، حتىٰ يُعْرفَ ذلك منه. فلما جلست بين يديه قلت: يا رسول الله، إن من[٣] توبتي أَن أنخلعَ مِن مالي صدقةً إلىٰ الله وإلىٰ رسوله. قال: «**أَمْسِكْ عَلَيْكَ بَعْضَ مَالِكَ، فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ**». قال: فقلت: فإنِّي أمسك سهمي الَّذِي بخيبر، وقلت: يا رسول الله، إنَّما نجاني الله بالصِّدق، وإنَّ مِن توبتي أَلَّا أُحَدِّث إلا صدقًا ما بقيت. قال: فوالله ما أعلم أحدًا من المسلمين أبلاه[٤] الله من الصِّدق في الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ أحسن مما أبلاني الله تعالىٰ، والله ما تعمدت كَذبَةً منذ قلت ذلك لرسول الله ﷺ إلىٰ يومي هذا، وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقي. قال: وأنزل الله تعالىٰ: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ قال كعب: فوالله ما أنعم الله عليَّ مِن نعمةٍ قطُّ بعد أن هداني للإسلام أعظمَ في نفسي من صدقي رسولَ الله ﷺ يومئذٍ أَلَّا أكون كَذَبْتُه فأهلِكَ كما هلك الذين كَذَبوه [حين كَذَبُوه][٥]؛ فإنَّ الله تعالىٰ قال للذين كَذَبوه حين أنزل الوحي شرَّ ما قال لأحد، قال الله تعالىٰ: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ[٦] بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٩٥، ٩٦]. قال: وكنا خُلِّفنا -أيها الثلاثة- عن أمر أولئك الذين قبِلَ منهم رسول الله ﷺ حين حَلَفوا، فبايعهم واستغفر لهم، وأرجأ رسولُ الله أمرَنا، حتىٰ قضىٰ الله فيه، فبذلك قال الله تعالىٰ: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟﴾ وليس تخليفه إيَّانا وإرجاؤه أمرَنا الذي ذكر مما

---

(١) لوحة (٢٧٤ ب).
(٢) أي: أقصد.
(٣) في (ز): (أمن).
(٤) أي: أنعم عليه.
(٥) سقط من (ز).
(٦) لوحة (٢٧٥ أ).

خُلِّفنا بتخلفنا عن الغزو، وإنما هو عمن حلف له واعتذر إليه، فقبل منه[١].

هذا حديث صحيح ثابت متَّفق علىٰ صحته، رواه صاحبا «الصحيح»: البخاري ومسلم من حديث الزهري بنحوه.

فقد تضمَّن هذا الحديث تفسير هذه الآية الكريمة بأحسن الوجوه وأبسطها. وكذا رُوي عن غير واحدٍ من السلف في تفسيرها، كما رواه الأعمش، عن أبي سفيان، عن جابر بن عبد الله في قوله تعالىٰ: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَـٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾ قال: هُم كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومُرارة بن ربيعة، وكلهم من الأنصار.

وكذا قال مجاهد، والضَّحَّاك، وقتادة، والسُّدِّي وغير واحدٍ، وكلهم قال: مُرارة بن ربيعة.

[وكذا في مسلم: مُرارة بن ربيعة في بعض نسخه، وفي بعضها: مرارة بن الربيع][٢].

وفي رواية عن سعيد بن جُبَير: ربيع بن مرارة.

وقال الحسن البصري: ربيع بن مرارة أو مرارة بن ربيع.

وفي رواية عن الضَّحَّاك: مُرارة بن الربيع، كما وقع في «الصحيحين»، وهو الصواب.

وقوله: «فسمُّوا رجلين شَهِدَا بدرًا»، قيل: إنَّه خطأٌ من الزُّهري، فإنَّه لا يُعْرَف شُهودُ واحدٍ من هؤلاء الثلاثة بدرًا، والله أعلم.

ولما ذكر تعالىٰ ما فرَّج به عن هؤلاء الثَّلاثة مِن الضِّيق والكرب، مِن هجْر المسلمين إيَّاهم نحوًا مِن خمسين ليلةً بأيَّامها، وضاقت عليهم أنفسهم، وضاقت عليهم الأرض بما رَحُبت؛ أي: مع سعتها، فسدِّدت عليهم المسالك والمذاهب، فلا يهتدون ما يصنعون، فصَبَرُوا لأمرِ الله، واستكانوا لأمر الله، وثبتُوا حتىٰ فرَّج الله عنهم بسبب صدْقِهم رسولَ الله ﷺ في تخلفهم، وأنَّه كان عن غير عذرٍ، فعوقبوا علىٰ ذلك هذه المدة، ثم تاب الله عليهم، فكان عاقبة صدقهم خيرًا لهم وتوبةً عليهم؛ ولهذا قال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ أي: اصدُقوا والزموا الصدق تكونوا مع أهله وتَنْجُوا من المهالك ويجعل لكم فرجًا من أموركم، ومخرجًا، وقد قال الإمام أحمد: حدَّثنا أبو معاوية، حدَّثنا الأعمش، عن شقيق؛ عن عبد الله، هو ابن مسعود ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ[٣]: «**عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ؛ فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَىٰ البِرِّ، وَإِنَّ البِرَّ يَهْدِي إِلَىٰ الجَنَّةِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّىٰ الصِّدْقَ حَتَّىٰ يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ صِدِّيقًا، وَإِيَّاكُمْ وَالكَذِبَ، فَإِنَّ الكَذِبَ يَهْدِي إِلَىٰ الفُجُورِ، وَإِنَّ الفُجُورَ يَهْدِي إِلَىٰ النَّارِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّىٰ الكَذِبَ، حَتَّىٰ يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ كَذَّابًا**». أخرجاه في «الصحيحين»[٤].

---

(١) البخاري (٢٧٥٧)، ومسلم (٢٧٦٩)، وأحمد (٣/ ٤٥٦).

(٢) ليست في (ز).

(٣) لوحة (٢٧٥ ب).

(٤) البخاري (٦٠٩٤)، ومسلم (٢٦٠٧)، وأبو داود (٤٩٨٩)، والترمذي (١٩٧٢)، وأحمد (١/ ٤١٠).

وقال شعبة، عن عمرو بن مُرّة، سمع أبا عبيدة يحدث عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنَّه قال: [إنَّ][١] الكذب لا يصلح منه جِدٌّ ولا هزلٌ، اقرءوا إن شئتم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ -هكذا قرأها- ثم قال: فهل تجدون لأحدٍ فيه رخصة[٢].

وعن عبد الله بن عمر: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ مع محمَّدٍ ﷺ وأصحابه.

وقال الضَّحَّاك: مع أبي بكر وعمر وأصحابهما.

وقال الحسن البصري: إن أردت أن تكون مع الصَّادقين، فعليك بالزهد في الدنيا، والكفِّ عن أهل الملَّة.

﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١٢٠)﴾

يعاتب تعالىٰ المتخلِّفين عن رسول الله ﷺ في غزوة تَبُوك، مِن أهل المدينة ومَنْ حولها من أحياء العرب، ورغبتهم بأنفسهم عن مواساته فيما حصل من المشقة، فإنهم نَقَصُوا أنفسهم من الأجر؛ لأنهم ﴿لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ﴾ وهو: العطش ﴿وَلَا نَصَبٌ﴾ وهو: التعب ﴿وَلَا مَخْمَصَةٌ﴾ وهي: المجاعة ﴿وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ﴾ أي: ينزلون منزلًا يُرهبُ عدوهم ﴿وَلَا يَنَالُونَ﴾ منه ظفرًا وغلبةً عليه إلا كَتَب الله لهم بهذه الأعمال التي ليست داخلةً تحت قدرتهم، وإنَّما هي ناشئةٌ عن أفعالهم، أعمالًا صالحةً وثوابًا جزيلًا ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾؛ كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٣٠].

﴿وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢١)﴾

يقول تعالىٰ: ولا يُنفِق هؤلاء الغزاة في سبيل الله ﴿نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾ أي: قليلًا ولا كثيرًا.

﴿وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا﴾ أي: في السير إلىٰ الأعداء ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾ ولم يقل هاهنا: «بِهِ» لأنَّ هذه أفعال صادرة عنهم؛ ولهذا قال: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

---

(١) ليست في (ز).

(٢) ضعيف: رواه الطبري (١١/ ٦٣)، وعزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٣١٦) إلىٰ سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن عدي وأبي الشيخ وابن مردويه والبيهقي في «شعب الإيمان».
قلت: وأبو عبيدة لم يسمع من ابن مسعود؛ فالإسناد منقطع.

وقد حصل(١) لأمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه مِن هذه الآية الكريمة حظٌّ وافرٌ، ونصيبٌ عظيمٌ؛ وذلك أنه أنفق في هذه الغزوة النَّفقات الجليلة، والأموال الجزيلة.

كما قال عبد الله ابن الإمام أحمد: حدَّثنا أبو موسىٰ العَنَزي(٢)، حدَّثنا عبد الصمد بن عبد الوارث، حدَّثني سَكَن(٣) بن المغيرة، حدَّثني الوليد بن أبي هاشم، عن فرقد أبي طلحة، عن عبد الرحمن بن خَبَّاب السلمي قال: خطب رسول الله ﷺ فحثَّ علىٰ جيش العسرة، فقال عثمان بن عفان رضي الله عنه: عليَّ مائة بعيرٍ بأَحْلَاسِها وأَقْتَابِهَا(٤). قال: ثم حثَّ، فقال عثمان: عليَّ مائة أخرىٰ بأَحْلَاسِهَا وأَقْتَابِهَا. قال: ثم نزل مِرْقاة من المنبر ثم حثَّ، فقال عثمان بن عفان: عليَّ مائة أخرىٰ بأَحْلَاسِهَا وأَقْتَابِهَا. قال: فرأيت رسول الله ﷺ يقول بيده هكذا -يحركها. وأخرج عبد الصمد يده كالمتعجب: «مَا عَلَىٰ عُثْمَانَ مَا عَمِلَ بَعْدَ هَذَا»(٥).

وقال عبد الله أيضًا: حدَّثنا هارون بن معروف، حدَّثنا ضَمْرَة، حدَّثنا عبد الله بن شَوْذَب، عن عبد الله ابن القاسم، عن كثير مولىٰ عبد الرحمن بن سَمُرة، عن عبد الرحمن بن سمرة قال: جاء عثمان إلىٰ النَّبيِّ ﷺ بألف دينارٍ في ثوبه حين(٦) جهَّز النَّبيُّ ﷺ جيش العسرة قال: فصبَّها في حجر النَّبيِّ ﷺ، فجعل النَّبيُّ ﷺ يُقلِّبُها بيده ويقول: «مَا ضَرَّ ابْنَ عَفَّانَ مَا عَمِلَ بَعْدَ الْيَوْمِ». يرددها مرارًا(٧).

وقال قتادة في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ ...﴾ الآية: ما ازداد قوم مِن أهليهم في سبيل الله بعدًا إلا ازدادوا من الله قربًا.

﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾(٨) (٩)

هذا بيانٌ مِن الله تعالىٰ لما أراد من نَفير الأحياء مع الرسول في غزوة تبوك؛ فإنه قد ذهب طائفةٌ من السَّلف إلىٰ أنَّه كان يجب النَّفير علىٰ كلِّ مسلمٍ إذا خرج رسول الله ﷺ؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿انفِرُوا

---

(١) لوحة (٢٧٦ أ). (٢) في (ز): (الغنوي)، وهو خطأ. (٣) في (ز): (سكر)، وهو خطأ.

(٤) أي: بأكسيتها، والأحلاس: جمع حِلْس، وهو الكساء الذي يلي ظهر البعير تحت القتب، والقَتَب للبعير: بمثابة البرذعة للحمار.

(٥) حسن لغيره: رواه عبد الله في «زوائد المسند» (٤/ ٧٥)، ورجاله ثقات، عدا فرقد أبي طلحة: مجهول، لكن يشهد له الرواية الآتية.

(٦) في (ز): (حتىٰ).

(٧) حسن لغيره: رواه في «زوائد المسند» (٥/ ٦٣)، ورواه الترمذي (٣٧٠١) وفي إسناده: كثير مولىٰ ابن سمرة، قال الحافظ: مقبول. وبقية رجاله ثقات، ويشهد له الرواية السابقة.

(٨) قال الشيخ أبو بكر الجزائري حفظه الله: هذه الآية دليل علىٰ أن الجهاد فرض كفاية ولا يتعين إلا إذا عينه الإمام، أو هاجم العدو قومًا مؤمنين، فيجب عليهم قتاله كافة. كما هي نص في وجوب طلب العلم؛ وهو بالرحلة الطويلة إليه، وفي الحديث: «طلب العلم فريضة علىٰ كل مسلم»، وهذا الحديث دليل علىٰ أن طلب العلم يكون فرض عين ويكون فرض كفاية.

(٩) قال العلامة السعدي رحمه الله: وفي هذه الآية دليل وإرشاد وتنبيه لطيف لفائدة مهمة؛ وهي: أن المسلمين ينبغي لهم أن يعدوا لكل مصلحة من مصالحهم العامة من يقوم بها، ويوفر وقته عليها، ويجتهد فيها، ولا يلتفت إلىٰ غيرها؛ لتقوم مصالحهم، وتتم منافعهم، ولتكون وجهة جميعِهم، ونهاية ما يقصدون قصدًا واحدًا، وهو قيام مصلحة دينهم ودنياهم، ولو تفرقت الطرق وتعددت المشارب؛ فالأعمال متباينة، والقصد واحد، وهذه من الحكمة العامة النافعة في جميع الأمور.

خِفَافًا وَثِقَالًا ﴾ [التوبة: ٤١]، وقال: ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ١٢٠]، قالوا: فنسخ ذلك بهذه الآية.

وقد يقال: إنَّ هذا بيان لمراده تعالىٰ من نفير الأحياءِ كلِّها، وشرذمة مِن كل قبيلة إن لم يخرجوا كلهم، لِيَتَفَقَّه الخارجون مع الرسول بما ينزل من الوحي عليه، وينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم بما كان من أمر العدو، فيجتمع لهم الأمران[1] في هذا النَّفير المعيَّن، وبعده صلوات الله وسلامه عليه تكون الطَّائفة النافرة من الحي إما للتَّفقُّه وإمَّا للجِهَاد؛ فإنَّه فرض كفاية علىٰ الأحياء.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً﴾ يقول: ما كان المؤمنون لينفروا جميعًا ويتركوا النَّبيَّ ﷺ وحده، ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ﴾ يعني: عصبة؛ يعني: السرايا، ولا يَتَسرَّوْا[2] إلا بإِذْنِهِ، فإذا رجعت السرايا وقد نزل بعدهم قرآن تعلمه القاعدون من النَّبيِّ ﷺ، وقالوا: إنَّ الله قد أنزل علىٰ نبيكم قرآنًا، وقد تعلَّمْنَاه. فتمكث السرايا يتعلمون ما أنزل الله علىٰ نَبِيِّهم بعدهم، ويبعث سرايا أخرىٰ؛ فذلك قوله: ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ﴾ يقول: ليتعلَّموا ما أنزل الله علىٰ نبيِّهم؛ وليعلموا السَّرايا إذا رجعت إليهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[3].

وقال مجاهد: نزلت هذه الآية في أناسٍ من أصحاب محمَّد ﷺ، خرجوا في البوادي، فأصابوا من النَّاس معروفًا، ومن الخصب ما ينتفعون به، ودعوا مَن وجدوا منَ النَّاس إلىٰ الهدىٰ، فقال الناس لهم: ما نراكم إلا وقد تركتم أصحابكم وجئتمونا. فوجدوا في أنفسهم مِن ذلك تحرُّجًا، وأقبلوا[4] من البادية كلهم حتىٰ دخلوا علىٰ النَّبيِّ ﷺ، فقال الله ﷻ: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ﴾ يَبْتَغُون الخير، ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ﴾ وليستمعوا ما في الناس، وما أنزل الله بعدهم[5]، ﴿وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ﴾ الناس كلهم ﴿إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[6].

وقال قتادة في هذه الآية: هذا إذا بعث رسول الله ﷺ الجيوش، أمرهم الله ألا يُعروْا نبيَّه[7] ﷺ، وتُقِيم طائفةٌ مع رسول الله تتفقه في الدِّين، وتنطلق طائفة تدعو قومها، وتُحَذِّرهم وقائع الله فيمن خلا قبلهم[8].

وقال الضَّحَّاك: كان رسولُ الله ﷺ إذا غزا بنفسه لم يُحِلَّ لأحدٍ من المسلمين أن يتخلَّف عنه، إلا أهل الأعذار. وكان إذا أقام فاسْتَرَتِ السَّرايا لم يحل لهم[9] أن ينطلقوا إلا بإذنه، فكان الرجل إذا استرىٰ فنزل بعده قرآن، تلاه رسول الله ﷺ علىٰ أصحابه القاعدين معه، فإذا رجعت السرية قال لهم الذين أقاموا مع رسول الله ﷺ: إن الله أنزل بعدكم علىٰ نبيِّه قرآنًا، فيقرئونهم ويفقهونهم في الدين، وهو قوله:

---

(١) لوحة (٢٧٦ ب).
(٢) في (ز): (ولا يسيروا)، والمثبت موافق لما في «الطبري».
(٣) رواه الطبري (١١/ ٦٩)، وابن أبي حاتم (١٠١٢٧).
(٤) في (ز): (وأضلوا).
(٥) في (ز): (فعذرهم).
(٦) رواه الطبري (١١/ ٦٦)، وابن أبي حاتم (١٠١٢١)، وإسناده مرسل.
(٧) في (ز): (أن يغزو بنبيه).
(٨) رواه الطبري (١١/ ٦٩).
(٩) في (ز): (لم يحل لأحد منهم).

﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً﴾ يقول: إذا أقام رسول الله ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ﴾ يعني بذلك: أنَّه لا ينبغي للمسلمين أن ينفروا جميعًا ونبيُّ الله ﷺ(١) قاعد، ولكن إذا قعد نبي الله تسرَّت(٢) السرايا، وقعد معه عُظْم الناس.

وقال علي بن أبي طلحة أيضًا عن ابن عبَّاس: قوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً﴾ فإنها ليست في الجهاد، ولكن لما دعا رسول الله ﷺ علىٰ مُضر بالسنين أجدبت بلادهم، وكانت القبيلة منهم تُقبِل بأسرها حتىٰ يحلُّوا بالمدينة من الجهد، ويعتلُّوا بالإسلام وهم كاذبون. فضيقوا علىٰ أصحاب النَّبيِّ ﷺ وأجهدوهم. فأنزل الله يخبر رسوله أنَّهم ليسوا مُؤْمِنِين، فردَّهم رسول الله إلىٰ عشائرهم، وحذَّر قومهم أن يفعلوا فعلهم؛ فذلك قوله: ﴿وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾(٣).

وقال العوفي، عن ابن عبَّاس في هذه الآية: كان ينطلق مِن كل حيٍّ من العرب عصابةٌ، فيأتون النَّبيَّ ﷺ. فيسألونه عما يريدون من أَمْرِ دينِهم، ويتفقهون في دينهم، ويقولون لنبي الله ﷺ: ما تأمرنا أن نفعله؟ وأخبرنا [ما نقول](٤) لعشائرنا إذا قدمنا انطلقنا إليهم. قال: فيأمرهم نبي الله ﷺ بطاعة الله وطاعة رسوله، ويبعثهم إلىٰ قومهم بالصلاة والزكاة. وكانوا إذا أتوا(٥) قومهم نادوا: إن من أسلم فهو منا، وينذرونهم، [حتىٰ](٦) إنَّ الرجل ليفارق أباه وأمَّه، وكان رسول الله ﷺ يخبرهم وينذرهم قومهم، فإذا رجعوا إليهم يدعونهم إلىٰ الإسلام وينذرونهم النَّار ويبشرونهم بالجنة(٧).

وقال عكرمة: لما نزلت هذه الآية: [الشريفة](٨) ﴿إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [التوبة: ٣٩]، و ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ١٢٠]، قال المنافقون: هلك أصحاب البدو الذين تخلَّفوا عن محمَّد ولم ينفروا معه. وقد كان ناس من أصحاب النَّبيِّ ﷺ خرجوا إلىٰ البدو إلىٰ قومهم يفقهونهم، فأنزل الله ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ ...﴾ الآية، ونزلت: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ...﴾ الآية [الشورىٰ: ١٦](٩).

وقال الحسن البصري: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ﴾ قال: ليتفقَّه الذين خرجوا، بما يردهم الله من الظهور علىٰ المشركين، والنُّصرة، وينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم.

---

(١) لوحة (٢٧٧ أ).

(٢) في (ز): (فسرت)، والمثبت موافق لما في «الطبري».

(٣) ضعيف: رواه الطبري (١١/ ٦٨)، وإسناده منقطع بين علي بن أبي طلحة وابن عبَّاس.

(٤) سقط من (ز).

(٥) في (ز): (إذا أسر).

(٦) سقط من (ز).

(٧) ضعيف جدًّا: رواه الطبري (١١/ ٦٨) فيه عطية العوفي: شيعي مدلس.

(٨) ليست في (ز).

(٩) مرسل: رواه الطبري (١١/ ٦٨).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ(١) ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ١٢٣﴾

أمر الله تعالىٰ المؤمنين أن يقاتِلُوا الكفَّار أولًا [فأوَّلا](٢) الأقرب فالأقرب إلىٰ حوزةِ الإسلام(٣)؛ ولِهَذَا بدأ رسول الله ﷺ بِقِتَالِ المشركين في جزيرةِ العَرَبِ، فلما فرغ منهم وفتح الله عليه مكة والمدينة، والطائف، واليمن، واليمامة، وهجر، وخيبر، وحضرموت، وغير ذلك مِن أقاليم جزيرة العرب، ودخل النَّاس مِن سائر أحياء العرب في دين الله أفواجًا، شرع في قتال أهل الكتاب، فتجهَّز لغزو الرُّوم الَّذين هم أقرب النَّاس إلىٰ جزيرة العرب، وأولىٰ الناس بالدَّعوة إلىٰ الإسلام لكونهم أهلَ الكتاب، فبلغ تبوك ثم رجع لأجل جَهْد الناس وجَدْب البلاد(٤) وضيق الحال، وكان ذلك سنة تسعٍ من هجرته عليه السلام.

ثم اشتغل في السَّنة العاشرة بحَجَّتِهِ حَجَّة الوداع، ثم عاجلته المنيَّة، صلوات الله وسلامه عليه، بعد الحَجَّة بأحدٍ وثمانين يومًا، فاختاره الله لما عنده.

وقام بالأمر بعده وزيرُه وصديقُه وخليفتُه أبو بكر رضي الله عنه وقد مال الدِّين ميلةً كاد أن يَنْجَفِلَ(٥)، فثبته الله تعالىٰ به فوطد القواعد، وثبت الدَّعائم، وردَّ شارد الدِّين وهو راغم، وردَّ أهل الرِّدَّة إلىٰ الإسلام، وأخذ الزَّكاة ممَّن منعها من الطَّغام(٦)، وبيَّن الحقَّ لمن جهله، وأدَّىٰ عن الرسول ما حمله، ثم شرع في تجهيز الجيوش الإسلامية إلىٰ الروم عَبَدَةِ الصلبان وإلىٰ الفرس عبدة النِّيران؛ ففتح الله ببركة سفارته البلادَ، وأَرْغَم أنفس كِسْرَىٰ وقيصر ومَن أطاعهما من العباد؛ وأنفق كنوزهما في سبيل الله، كما أخبر بذلك رسول الإله.

وكان تمام الأمر علىٰ يدي وصيِّه من بعده، ووليِّ عهده الفاروق الأوَّاب، شهيد المحراب، أبي حفص عمر بن الخطاب، فأرغم الله به أُنوف الكفرَةِ المُلْحِدِين، وقمع الطُّغاة والمنافقين، واستولىٰ علىٰ الممالك شرقًا وغربًا. وحُمِلَتْ إليه خزائن الأموال مِن سائر الأقاليم بعدًا وقُربًا؛ ففرقها علىٰ الوجه الشَّرعي، والسَّبيل المرضِيِّ.

ثم لما مات شهيدًا وقد عاش حميدًا، أجمع الصحابةُ من المُهَاجِرين والأنصار علىٰ خلافة أميرِ

---

(١) قال الشيخ أبو بكر الجزائري حفظه الله: توجيه الخطاب للذين آمنوا دون النبي ﷺ فيه إيماء إلىٰ أن النبي ﷺ لا يغزو بعد ذلك وأن أجله الشريف قد اقترب، وفعلًا فإنه ﷺ ما غزا بعد تبوك، وإنما حجَّ حجة الوداع وبعدها بواحد وثمانين يومًا استأثر الله تعالىٰ بروحه الطاهرة الشريفة.

(٢) سقط من (ز).

(٣) لوحة (٢٧٧ ب).

(٤) في (ز): (الناس).

(٥) أي: يذهب.

(٦) الطَّغام: أوغاد الناس.

المؤمنين [أبي عمرو][(١)] عثمان بن عفان شهيد الدَّار، فكسى الإسلامَ [بجلاله][(٢)] رياسَةَ حلَّةٍ سابغةٍ. وامتدت في سائر الأقاليم على رقاب العباد حجة الله البالغة، وظهر الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها، وعلَتْ كلمة الله وظهر دينه. وبلغت الأمة الحنيفيَّة مِن أعداء الله غاية مآربها، فكُلَّما علَوا أمة انتقلوا إلى من بعدهم، ثم الذين يلونهم من العُتَاة الفجَّار[(٣)]؛ امتثالًا لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ [أي: وليجد الكفار منكم غلظةً][(٤)] عليهم في قتالكم لَهُمْ؛ فإن المؤمن الكامل هو الذي يكون رفيقًا لأخيه المؤمن، غليظًا على عدوِّه الكافر، كما قال تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ٧٣، والتحريم: ٩]، وفي الحديث: أن رسول الله ﷺ قال: «**أَنَا الضَّحُوكُ القَتَّالُ**»[(٥)]؛ يعني: أنه ضَحُوكٌ في وجه وليه، قَتَّالٌ لهامة عدوِّه.

وقوله: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي: قاتلوا الكفار، وتوكلوا على الله، واعلموا أن الله معكم إن اتقيتمُوهُ وأطعتموه.

وهكذا الأمر لما كانت القرون الثلاثة الذين هم خير هذه الأمة، في غاية الاستقامة، والقيام بطاعة الله تعالى، لم يزالوا ظاهرين على عدوِّهم، ولم تزل الفتوحات كثيرةً، ولم تزل الأعداء في سَفَالٍ وخَسَارٍ. ثم لما وقعت الفتن والأهواء والاختلافات بين الملوك، طمع الأعداء في أطراف البلاد، وتقدموا إليها، فلم يمانعوا لشغل الملوك بعضهم ببعض، ثم تقدموا إلى حَوْزة الإسلام، فأخذوا من الأطراف بلدانًا كثيرةً، ثم لم يزالوا حتى استحوذوا على كثيرٍ من بلاد الإسلام، ولله سبحانه الأمر من قبل ومن بعد، فكلما قام ملك من ملوك الإسلام، وأطاع أوامر الله، وتوكل على الله، فتح الله عليه من البلاد، واسترجع من الأعداء بحسبه، وبقدر ما فيه من ولاية الله. والله المسئول المأمول أن يُمَكِّن المسلمين من نواصي أعدائه الكافرين، وأن يُعْلِيَ كلمتهم في سائر الأقاليم، إنه جوادٌ كريمٌ.

---

(١) ليست في (ز).
(٢) ليست في (ز).
(٣) لوحة (٢٧٨ أ).
(٤) سقط من (ز).
(٥) لا يثبت، وقد تقدم الكلام عليه. انظر الآية (٥٦) من سورة المائدة.

﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾

يقول تعالىٰ: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ فمن المنافقين ﴿مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا﴾؟ أي: يقول بَعْضُهم لبعض: أيكم زادته هذه السورة إيمانًا؟ قال الله تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾.

وهذه الآية مِن أكبر الدلائل علىٰ أن الإيمان يزيد وينقص، كما هو مذهب أكثر السلف والخلف من أئمَّة العلماء، بل قد حكىٰ الإجماع علىٰ ذلك(١) غير واحدٍ، وقد بُسِط الكلام علىٰ هذه المسألة في أول «شرح البخاري» رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ أي: زادتهم شكًّا إلىٰ شكهم، وريبًا إلىٰ ريبهم، كما قال تعالىٰ: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢]، وقال تعالىٰ: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤]، وهذا من جملة شقائهم أنَّ ما يهدي القلوب يكون سببًا لضلالهم ودمارهم، كما أن سَيِّئ المزاج لو غُذي بما غذي به لا يزيده إلا خبالًا ونقصًا.

﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾﴾

يقول تعالىٰ: أوَلَا يرىٰ هؤلاء المنافقون ﴿أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ﴾ أي: يختبرون ﴿فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ أي: لا يتوبون من ذنوبهم السالفة، ولا هم يذكرون فيما يستقبل من أحوالهم. قال مجاهد: يختبرون بالسَّنة(٢) والجوع.

وقال قتادة: بالغزو في السَّنة مرة أو مرتين. وقال شريك، عن جابر -هو الجعفي- عن أبي الضُّحىٰ، عن حذيفة: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾ قال: كنَّا نسمع في كل عامٍ

---

(١) لوحة (٢٧٨ ب).

(٢) السَّنة: الجدب والقحط.

كذبةً أو كذبتين، فيضلُّ بها فئامٌ[١] مِن النَّاس كثير. رواه ابن جرير[٢].

وفي الحديث عن أنس: «لا يَزْدَادُ الأَمْرُ إِلَّا شِدَّةً، وَلا يَزْدَادُ النَّاسُ إِلَّا شُحًّا، وَمَا مِنْ عَامٍ إِلَّا وَالَّذِي بَعْدَهُ شَرٌّ مِنْهُ»، سمعته من نبيكم ﷺ[٣].

وقوله: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ هذا أيضًا إخبارٌ عن المنافقين أنَّهم إذا أنزلت سورةٌ علىٰ رسول الله ﷺ، ﴿نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي: تلفتوا، ﴿هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟﴾ أي: تولوا عن الحق وانصرفوا عنه، وهذا حالهم في الدِّين لا يثبتون عند الحق ولا يقبلونه ولا يفهمونه كما قال تعالىٰ: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ﴾ [المدثر: ٤٩-٥١]، وقال تعالىٰ: ﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ﴾ [المعارج:٣٦، ٣٧]، أي: ما لهؤلاء القوم يتفلَّلون[٤] عنك يمينًا وشمالًا هروبًا من الحق[٥]، وذهابًا إلىٰ الباطل.

وقوله: ﴿ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾ كقوله: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ أي: لا يفهمون عَن الله خطابه، ولا يقصدون لفهمه ولا يريدونه، بل هم في شَدَهٍ[٦][٧] عنه ونفور منه؛ فلهذا صاروا إلىٰ ما صاروا إليه.

﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾

يقول تعالىٰ ممتنًا علىٰ المؤمنين بما أرسل إليهم رسولًا من أنفسهم؛ أي: من جنسهم وعلىٰ لغتهم، كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٩]، وقال تعالىٰ: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، وقال تعالىٰ: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ

---

(١) الفئام: الجماعات.

(٢) ضعيف: رواه الطبري (١١/ ٧٤)، وفيه جابر الجعفي: ضعيف.

(٣) ضعيف جدًّا: رواه ابن ماجه (٤٠٣٩) وضعفه الشيخ الألباني في «السلسلة الضعيفة» (٧٧)، وقال الذهبي في «الميزان»: أنه خبر منكر، وقال الصنعاني: موضوع، وأما قوله في آخر الحديث: «وما من عام إلا والذي بعده شر منه» فهو ثابت صحيح؛ روىٰ البخاري (٧٠٦٨) نحوه بلفظ «اصْبِرُوا، فإِنَّهُ لا يَأْتِي عَلَيْكُمْ زَمَانٌ إِلَّا الَّذِي بَعْدَهُ شَرٌّ مِنْهُ، حَتَّىٰ تَلْقَوْا رَبَّكُمْ» من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعًا.

(٤) أي: يتبعدون، وأصل التفلل: الانهزام، ومن شأن المنهزم أن يفر ويبتعد.

(٥) لوحة (٢٧٩ أ).

(٦) أي: شغل، يقال: شده، دهش وشغل.

(٧) في (ز): (في شكٍّ). ومعنىٰ شده: شغل.

﴿رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ أي: منكم وبلغتكم، كما قال جعفر بن أبي طالب للنَّجَاشِيِّ، والمغيرةُ بن شعبة لرسول كسرىٰ: إنَّ الله بعث فينا رسولًا منَّا، نعرف نسبه وصفته، ومدخله ومخرجه، وصدقه وأمانته، وذكر الحديث.

وقال سفيان بن عُيينة، عن جعفر بن محمَّد، عن أبيه في قوله تعالىٰ: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ قال: لم يصبه شيءٌ من ولادة الجاهلية، وقال ﷺ: «خَرَجْتُ مِنْ نِكَاحٍ، وَلَمْ أَخْرُجْ مِنْ سِفَاحٍ».

وقد وصل هذا من وجه آخر، كما قال الحافظ أبو محمَّد الحسن بن عبد الرحمن الرامهُرْمُزي في كتابه «الفاصل بين الراوي والواعي»: حدَّثنا أبو أحمد يوسف بن هارون بن زياد، حدَّثنا ابن أبي عمر، حدَّثنا محمَّد بن جعفر بن محمَّد قال: أشهد علىٰ أبي لحدَّثني، عن أبيه، عن جده، عن علي قال: قال رسول الله ﷺ: «خَرَجْتُ مِنْ نِكَاحٍ وَلَمْ أَخْرُجْ مِنْ سِفَاحٍ، مِنْ لَدُنْ آدَمَ إِلَىٰ أَنْ وَلَدَنِي أَبِي وَأُمِّي لَمْ يَمَسَّنِي مِنْ سِفَاحِ الجَاهِلِيَّةِ شَيْءٌ»(١).

وقوله: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ أي: يعز عليه الشيء الذي يُعْنِتُ أمته ويشق عليها؛ ولهذا جاء في الحديث المروي من طرق عنه أنه قال: «بُعِثْتُ بِالحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ»(٢)، وفي «الصحيح»: «إِنَّ هَذَا الدِّينَ يُسْرٌ»(٣) وشريعته كلها سهلةٌ سمحةٌ كاملة، يسيرةٌ علىٰ من يسرها الله تعالىٰ عليه.

﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ أي: علىٰ هدايتكم ووصول النَّفع الدنيوي والأخروي إليكم.

قال الطبراني: حدَّثنا محمَّد بن عبد الله الحضرمي، حدَّثنا محمَّد بن عبد الله بن يزيد المقرئ، حدَّثنا سفيان بن عيينة(٤)، عن فِطْر، عن أبي الطفيل، عن أبي ذرٍّ قال. تركنا رسول الله ﷺ وما طائر يقلب جناحيه في الهواء إلا وهو يذكرنا منه علمًا -قال: وقال ﷺ: «مَا بَقِيَ شَيْءٌ يُقَرِّبُ مِنَ الجَنَّةِ وَيُبَاعِدُ مِنَ النَّارِ إِلَّا وَقَدْ بُيِّنَ لَكُمْ»(٥).

---

(١) حسنه الألباني: رواه الرامهرمزي في «المحدث الفاصل» (٥٦٢)، والطبراني في «الأوسط» (٤٧٢٨) ورجاله ثقات، عدا محمَّد بن جعفر: متكلم فيه، لكن للحديث شواهد ومتابعات استوفاها الشيخ الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه «الإرواء» (١٩١٤) وحكم علىٰ الحديث بالتحسين.

(٢) حسن: رواه أحمد (٥/ ٢٦٦)، والطبراني في «الكبير» (٨/ ٢٥٧)، وفيه علي بن يزيد: ضعيف، وله شاهد من حديث جابر، رواه الخطيب (٧/ ٢٠٩) وإسناده ضعيف أيضًا، وله شاهد مرسل من حديث حبيب ابن أبي ثابت، رواه ابن سعد في «الطبقات» (١/ ١٩٢).

(٣) صحيح: له طرق وشواهد. انظر الآية (١٨٥) من سورة البقرة.

(٤) لوحة (٢٧٩ ب).

(٥) صحيح: الطبراني (١٦٤٧)، وأصل الحديث رواه أحمد (٥/ ١٦٢)، والطيالسي (٤٧٩)، وابن حبان (٦٥).

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا [أبو][1] قَطَن، حدَّثنا المسعودي، عن الحسن بن سعد، عن عبدة النَّهدي[2]، عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ لَمْ يُحَرِّمْ حُرْمَةً إِلَّا وَقَدْ عَلِمَ أَنَّهُ سَيَطَّلِعُهَا مِنْكُمْ مُطَّلِعٌ، أَلَا وَإِنِّي آخِذٌ بِحُجَزِكُمْ أَنْ تَهَافَتُوا فِي النَّارِ، كَتَهَافُتِ الفَرَاشِ، أَوِ الذُّبَابِ»[3].

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا حسن بن موسىٰ، حدَّثنا حماد بن سلمة، عن علي بن زيد بن جُدْعان، عن يوسف بن مِهْران، عن ابن عبَّاس: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَتَاهُ مَلَكَانِ، فِيمَا يَرَىٰ النَّائِمُ، فَقَعَدَ أَحَدُهُمَا عِنْدَ رِجْلَيْهِ وَالآخَرُ عِنْدَ رَأْسِهِ. فَقَالَ الَّذِي عِنْدَ رِجْلَيْهِ لِلَّذِي عِنْدَ رَأْسِهِ: اضْرِبْ مَثَلَ هَذَا وَمَثَلَ أُمَّتِهِ. فَقَالَ: إِنَّ مَثَلَهُ وَمَثَلَ أُمَّتِهِ كَمَثَلِ قَوْمٍ سَفْرٍ انْتَهَوا إِلَىٰ رَأْسِ مَفَازَةٍ[4] فَلَمْ يَكُنْ مَعَهُمْ مِنَ الزَّادِ مَا يَقْطَعُونَ بِهِ المَفَازَةَ وَلَا مَا يَرْجِعُونَ بِهِ، فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ أَتَاهُمْ رَجُلٌ فِي حُلَّةٍ حِبَرَةٍ[5] فَقَالَ: أَرَأَيْتُمْ إِنْ وَرَدْتُ بِكُمْ رِيَاضًا مُعْشِبَةً، وَحِيَاضًا رِوَاءً تَتَّبِعُونِي؟ فَقَالُوا: نَعَمْ. قَالَ: فَانْطَلَقَ بِهِمْ، فَأَوْرَدَهُمْ رِيَاضًا مُعْشِبَةً، وَحِيَاضًا رِوَاءً، فَأَكَلُوا وَشَرِبُوا وَسَمِنُوا، فَقَالَ لَهُمْ: أَلَمْ أَلْفَكُمْ عَلَىٰ تِلْكَ الحَالِ، فَجَعَلْتُمْ لِي إِنْ وَرَدْتُ بِكُمْ رِيَاضًا مُعْشِبَةً وَحِيَاضًا رِوَاءً أَنْ تَتَّبِعُونِي؟ فَقَالُوا: بَلَىٰ. قَالَ: فَإِنَّ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ رِيَاضًا هِيَ أَعْشَبُ مِنْ هَذِهِ، وَحِيَاضًا هِيَ أَرْوَىٰ مِنْ هَذِهِ، فَاتَّبِعُونِي. فَقَالَتْ طَائِفَةٌ: صَدَقَ، وَاللهِ لَنَتَّبِعَنَّهُ، وَقَالَتْ طَائِفَةٌ: قَدْ رَضِينَا بِهَذَا نُقِيمُ عَلَيْهِ»[6].

وقال البزَّار: حدَّثنا سلمة بن شبيب وأحمد بن منصور قالا: حدَّثنا إبراهيم بن الحكم بن أبان حدَّثنا أبي، عن عِكْرِمة، عن أبي هريرة رضي الله عنه؛ أنَّ أعرابيًّا جاء إلىٰ رسول الله ﷺ ليستعينه في شيء - قال عِكرِمة: أراه قال: «في دم»- فأعطاه رسول الله ﷺ شيئًا، ثم قال: «أَحْسَنْتُ إِلَيْكَ؟» قال الأعرابي: لا ولا أجملت، فغضب بعض المسلمين، وهمُّوا أن يقوموا إليه، فأشار رسول الله إليهم: أن كُفُّوا، فلما قام رسول الله ﷺ وبلغ[7] إلىٰ منزله، دعا الأعرابي إلىٰ البيت، فقال له: «إِنَّكَ جِئْتَنَا فَسَأَلْتَنَا فَأَعْطَيْنَاكَ، فَقُلْتَ مَا قُلْتَ» فزاده رسول الله ﷺ شيئًا، وقال: «أَحْسَنْتُ إِلَيْكَ؟» فقال

---

(١) سقط من (ز)، وفي بعض النسخ (أبو فطن) بموحدة وهو تصحيف.

(٢) في (ز): (الهذلي)، وهو خطأ.

(٣) أحمد (١/ ٣٩٠) وفيه المسعودي: اختلط، وضعفه الشيخ الألباني في «السلسلة الضعيفة» (٣٠٨٢)، وأعله بالاضطراب وكذلك باختلاط المسعودي.

(٤) المفازة: الفلاة لا ماء فيها.

(٥) الحبرة ـ بزنة عنبة ـ: ضرب من برود اليمن.

(٦) ضعيف: أحمد (١/ ٢٦٧)، وفيه علي بن زيد بن جدعان: ضعيف.

(٧) لوحة (٢٨٠ أ).

الأعرابي: نعم، فجزاك الله مِن أهلٍ وعشيرةٍ خيرًا. قال النَّبيُّ ﷺ: «**إِنَّكَ جِئْتَنَا تَسْأَلُنَا فَأَعْطَيْنَاكَ، فَقُلْتَ مَا قُلْتَ، وَفِي أَنْفُسِ أَصْحَابِي عَلَيْكَ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ، فَإِذَا جِئْتَ فَقُلْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ مَا قُلْتَ بَيْنَ يَدَيَّ، حَتَّىٰ يَذْهَبَ عَنْ صُدُورِهِمْ**». قال: نعم، فلمَّا جاء الأعرابي قال: إن صاحبكم كان جاءنا فسألنا فأعطيناه، فقال ما قال، وإنَّا قد دَعَوْنَاه فأعطيناه فزعم أنَّه قد رَضِيَ، [كذلك يا أعرابي؟] [(١)] قال الأعرابي: نعم، فجزاك الله مِن أهلٍ وعشيرةٍ خيرًا، فقال النَّبيُّ ﷺ: «**إِنَّ مَثَلِي وَمَثَلُ هَذَا الأَعْرَابِيِّ كَمَثَلِ رَجُلٍ كَانَتْ لَهُ نَاقَةٌ، فَشَرَدَتْ عَلَيْهِ، فَاتَّبَعَهَا النَّاسُ فَلَمْ يَزِيدُوهَا إِلَّا نُفُورًا، فَقَالَ لَهُمْ صَاحِبُ النَّاقَةِ: خَلُّوا بَيْنِي وَبَيْنَ نَاقَتِي، فَأَنَا أَرْفَقُ بِهَا، وَأَعْلَمُ بِهَا، فَتَوَجَّهَ إِلَيْهَا وَأَخَذَ لَهَا مِنْ قَتَامِ [(٢)] الأَرْضِ، وَدَعَاهَا حَتَّىٰ جَاءَتْ وَاسْتَجَابَتْ، وَشَدَّ عَلَيْهَا رَحْلَهَا، وَإِنَّهُ لَوْ أَطَعْتُكُمْ حَيْثُ قَالَ مَا قَالَ لَدَخَلَ النَّارَ**».

ثم قال البزَّار: لا نعلمه يروىٰ إلا من هذا الوجه [(٣)].

قلت: وهو ضعيف بحال إبراهيم بن الحكم بن أبان، والله أعلم.

[وقوله:] [(٤)] ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ كما قال تعالىٰ: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الشعراء: ٢١٥-٢١٧]. وهكذا أمره تعالىٰ.

وهذه الآية الكريمة، وهي قوله تعالىٰ: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ أي: تولوا عمَّا جئتهم به من الشَّريعة العظيمة المطهَّرة الكاملة الشاملة، ﴿فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ﴾ أي: الله كافيَّ، لا إله إلا هو عليه توكلت، كما قال تعالىٰ: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل: ٩].

﴿وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ أي: هو مالك كل شيء وخالقه، لأنَّه ربُّ العرش العظيم، الذي هو سقف المخلوقات وجميع الخلائق من السموات والأرضين وما فيهما وما بينهما تحت العرش مقهورون بقدرة الله تعالىٰ، وعلمُهُ محيطٌ بكلِّ شيءٍ، وَقَدَره نافذٌ في كل شيءٍ، وهو علىٰ كلِّ شيءٍ وكيل.

---

(١) سقط من (ز).

(٢) القتام: الغبار.

(٣) ضعيف: رواه البزار (٢٤٧٦ - كشف)، وعلته إبراهيم بن الحكم بن أبان: قال الحافظ: ضعيف وَصَلَ مراسيل. انظر: «تقريب التهذيب» ترجمة (١٦٦)، وانظر: ترجمته في «تهذيب الكمال» (٢/ ٧٤).

(٤) سقط من (ز).

قال [عبد الله ابن][١] الإمام أحمد: حدَّثني محمَّد بن أبي بكر، حدَّثنا بشر بن عمر، حدَّثنا شعبة، عن علي بن زيد، عن يوسف بن[٢] مِهْرَان، عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما عن أبي بن كعب قال: آخر آيةٍ نزلت من القرآن هذه الآية: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ...﴾ إلىٰ آخر السورة[٣].

وقال عبد الله ابن الإمام أحمد: حدَّثنا روح بن عبد المؤمن، حدَّثنا عمر بن شقيق، حدَّثنا أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، عن أبي بن كعب رضي الله عنه: أنهم جَمَعُوا القرآن في مصاحف في خلافة أبي بكر رضي الله عنه فكان رجالٌ يكتبون ويُمْلِي عليهم أُبَيُّ بن كعب، فلمَّا انتهوا إلىٰ هذه الآية مِن سُورَةِ بَرَاءَة: ﴿ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ١٢٧]، فظنُّوا أنَّ هذا آخر ما أنزل من القرآن، فقال لهم أُبَيُّ بن كعب: إنَّ رسول الله ﷺ أَقْرَأَنِي بعدها آيتين: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ إلىٰ: ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ قال: «هَذَا آخِرُ مَا أُنْزِلَ مِنَ الْقُرْآنِ» قال: فخُتِمَ بما فُتح به، بالله الذي لا إله إلَّا هو، وهو قول الله تعالىٰ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾[٤] [الأنبياء: ٢٥] غريبٌ أيضًا.

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا علي بن بحر، حدَّثنا محمَّد بن سلمة، عن محمَّد بن إسحاق، عن يحيىٰ ابن عباد، عن أبيه عباد بن عبد الله بن الزبير رضي الله عنه قال: أتىٰ الحارث بن خَزَمة بهاتين الآيتين من آخر براءة: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ إلىٰ عمر بن الخطاب، فقال: مَن معك عَلَىٰ هذا؟ قال: لا أَدْرِي، والله إنِّي لأشهد لسمعتها من رسول الله ﷺ ووعيتها وحفظتها. فقال عمر: وأنا أشهد لَسَمِعْتُهَا من رسول الله ﷺ -ثم قال: لو كانت ثلاث آياتٍ لجعلتها سورة علىٰ حدة، فانظروا سورة من القرآن، فضعوها فيها. فوضعوها في آخر براءة[٥].

وقد تقدَّم أن عمر بن الخطاب هو الذي أشار علىٰ أبي بكر الصديق رضي الله عنه، بجمع القرآن، فأمر زيد ابن ثابت فجمعه، وكان عمر يحضرهم وهم يكتبون ذلك. وفي «الصحيح» أن زيدًا قال: فوجدت

---

(١) ليست في (ز).
(٢) لوحة (٢٨٠ ب).
(٣) **ضعيف:** أحمد (٥/ ١١٧)، وفيه علي بن زيد بن جدعان: ضعيف.
(٤) **ضعيف:** أحمد (٥/ ١٣٤)، وفيه عمر بن شقيق: مقبول، وأبو جعفر الرازي: صدوق سيئ الحفظ.
(٥) **ضعيف:** أحمد (١/ ١٩٩)، وفيه تدليس ابن إسحاق، وإرسال عباد بن عبد الله بن الزبير.

آخر سورة «براءة» مع خزيمة بن ثابت -أو: أبي خزيمة[١] وقدمنا أنَّ جماعة من الصحابة تذكروا ذلك عن رسول الله ﷺ، كما قال خزيمة بن ثابت حين ابتدأهم بها، والله أعلم.

وقد روىٰ أبو داود، عن يزيد بن محمَّد، عن عبد الرزاق بن عمر -وقال: كان من ثقات المسلمين من المتعبدين- عن مدرك بن سعد -قال يزيد: شيخ ثقة- عن يونس بن ميسرة، عن أم الدرداء، عن أبي الدرداء قال: من قال إذا أصبح وإذا أمسىٰ: حسبي الله لا إله إلا هو، عليه توكلت، وهو رب العرش العظيم سبع مرات، إلا كفاه الله ما أهمه[٢].

وقد رواه ابن عساكر في ترجمة «عبد الرزاق بن عمر» هذا، من رواية أبيٰ زُرْعَة الدمشقي، عنه، عن أبي سعد مُدْرِك بن أبي سعد الفزاري، عن يونس بن ميسرة بن حليس، عن أم الدرداء، سمعت أبا الدرداء يقول: ما من عبدٍ يقول: حسبي الله، لا إله إلا هو، عليه توكلت، وهو رب العرش العظيم، سبع مرات، صادقًا كان بها أو كاذبًا، إلا كفاه الله ما هَمَّه[٣].

وهذه زيادة غريبة.

ثم رواه في ترجمة عبد الرزاق أبي محمَّد، عن أحمد بن عبد الله بن عبد الرزاق، عن جَدِّه عبد الرزاق بن عمر، بسنده فرفعه فذكر مثله بالزِّيادة[٤]. وهذا منكر، والله أعلم.

آخر سورة براءة، والحمد لله وحده.

---

(١) البخاري (٤٦٧٩).

(٢) حسن: أبو داود (٥٠٨١)، وإسناده حسن بهذا السياق لكني رأيته في «السنن» بزيادة: «صادقًا بها أو كاذبًا» -وهي زيادة منكرة كما ذكر ابن كثير، والذي يترجح لي أنه وقع اختلاف في الروايات، ويكون الوهم ممن رووا السنن، فهذه الرواية ساقطة بالمرة في رواية اللؤلؤي، والله أعلم؛ ولذلك فإن الرواية الصحيحة دون قوله «أو كاذبًا» فإنها زيادة منكرة، قال المزي في «الأطراف»: وهو من كلام أبي الدرداء غريب، فكيف يجزي الله تعالىٰ الكاذب جزاء الصادق.

(٣) انظر التعليق السابق.

(٤) انظر التعليق السابق.

سُورَةُ يُونُسَ

تفسير سورة يونس عليه السلام وهي مكيَّة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝١ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ۝٢﴾

أمَّا الحروف المقطَّعة في أوائل السُّور فقد تقدَّم الكلام عليها مستوفًىٰ في أوائل سورة البقرة.

وقال أبو الضُّحىٰ: عن ابن عبَّاس في قوله تعالىٰ: ﴿الٓر﴾؛ أي: أنَا الله أرىٰ[1]. وكذا قال الضَّحَّاك وغيره.

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾ أي: هذه آيات القرآن المحكم المبين، وقال مجاهد: ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [قال: التوراة والإنجيل][2] [وقال الحسن: التَّوراة والزَّبُور][3]، وقال قتادة: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ قال: الكتب التي كانت قبل القرآن. وهذا القول لا أعرف وجهه ولا معناه.

وقوله: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ يقول تعالىٰ منكرًا علىٰ مَن تعجَّب من الكفَّار من إرسال المرسلين من البشر، كما أخبر تعالىٰ عن القُرُون الماضية مِن قولهم: ﴿أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ [التغابن: ٦]، وقال هود وصالح لقومهما: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾ [الأعراف: ٦٣، ٦٩]، وقال تعالىٰ مخبرًا عن كفَّار قريش أنهم قالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥]. وقال الضَّحَّاك، عن ابن عبَّاس: لما بعث الله تعالىٰ محمَّدًا ﷺ رسولًا أنكرت العرب ذلك، أو مَن أنكر منهم[4]، فقالوا: الله أعظم من أن يكون رسوله بشرًا مثل محمَّد. قال: فأنزل الله ﷻ: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ﴾[5].

وقوله: ﴿أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ اختلفوا فيه؛ فقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس في قوله:

---

(١) ضعيف: رواه الطبري (١١/ ٧٩)، وعزاه السُّيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٣٣٩) إلىٰ ابن المنذر وابن أبي حاتم (١٠١٩٣) وأبي الشيخ والبيهقي في «الأسماء والصفات» وابن النجار في «تاريخه».
قلت: وفي الإسناد شريك النخعي: سيئ الحفظ، وعطاء: مختلط.

(٢) بياض في (ز)، والمثبت موافق لما في «الطبري».

(٣) بياض في (ز). (٤) لوحة (٢٨١ ب).

(٥) ضعيف: رواه ابن جرير (١١/ ٨١)، وإسناده ضعيف؛ فالضَّحَّاك لم يسمع من ابن عبَّاس، وبشر بن عمارة: ضعيف. والأثر عزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٣٤٠) إلىٰ ابن أبي حاتم (١٠١٩٤) وأبي الشيخ وابن مردويه.

﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ يقول: سبقت لهم السعادة في الذِّكر الأوَّل.

وقال العوفي: عن ابن عبَّاس: ﴿أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ يقول: أجرًا حسنًا بما قدَّموا. وكذا قال الضَّحَّاك، والربيع بن أنس، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وهذا كقوله تعالىٰ: ﴿لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا (٢) مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا﴾ [الكهف: ٢، ٣].

وقال مجاهد: ﴿أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ قال: الأعمال الصالحة: صلاتهم وصومهم وصدقتهم وتسبيحهم. [وقال عمرو بن الحارث: عن قتادة أو الحسن ﴿أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾][(١)] قال: ومحمَّد ﷺ شفيع لهم[(٢)]. وكذا قال زيد بن أسلم، ومقاتل بن حيَّان. وقال قتادة: سَلَفُ صدقٍ عند ربِّهم.

واختار ابن جرير قول مجاهد -أنها الأعمال الصالحة التي قدموها- قال: كما يقال: لَهُ قَدَمٌ في الإسلام؛ ومنه قول حسان[(٣)] رضي الله عنه:

لَنَا القَدَمُ العُلْيَا إِلَيْكَ وَخَلْفُنَا ... لِأَوَّلِنَا فِي طَاعَةِ اللهِ تَابِعُ

وقول ذي الرُّمة:

لَكُمْ قَدَمٌ لا يُنْكِرُ النَّاسُ أَنَّهَا ... مَعَ الحَسَبِ العَادِيِّ طَمَّتْ عَلَىٰ البَحْرِ

وقوله تعالىٰ: ﴿قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ﴾ أي: مع أنَّا بعثنا إليهم رسولًا منهم، رجلًا من جنسهم، بشيرًا ونذيرًا، ﴿قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ﴾ أي: ظاهر، وهم الكاذبون في ذلك.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٣)﴾

يخبر تعالىٰ أنَّه رَبُّ العالم جميعه، وأنَّه خَلَق السَّموات والأرض في ستَّة أيام؛ قيل: كهذه الأيام، وقيل: كل يومٍ كألف سنةٍ مما تعدون. -كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالىٰ- ثم استوىٰ علىٰ العرش، والعرش أعظم المخلوقات وسقفها.

قال ابن أبي حاتم: حدَّثنا حجاج بن حمزة، حدَّثنا أبو أسامة، حدَّثنا إسماعيل بن أبي خالد قال: سمعت سعدًا الطائي يقول: العَرْشُ ياقُوتةٌ حمراء[(٤)]. وقال وهب بن منبه: خلقه الله مِن نورِه. وهذا غريب.

---

(١) سقط من (ز).

(٢) الذي في «الطبري» عن فضيل بن عمرو بن الجون، عن قتادة أو الحسن: ﴿أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [يونس: ٢]، قال: محمَّد شفيعٌ لهم.

(٣) في (ز): الحسن رحمه الله.

(٤) سعد الطائي: تابعي، وهذه من الأمور الغيبية التي نحتاج في ثبوتها إلىٰ مشكاة النبوَّة، والأثر رواه أبو الشيخ في «العظمة» (٣/ ٢١٥)، ومحمَّد بن عثمان في «كتاب العرش» (٤٧).

﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ أي: يدبر أمر الخلائق، ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [سبأ: ٣]، ولا يشغله شأنٌ عن شأن، ولا تغلطه[١] المسائل، ولا يتبرَّم[٢] بإلحاح الملحِّين، ولا يُلْهيه تدبيرُ الكبير عن الصَّغير، في الجبال والبحار، والعمران والقِفَار، ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [هود: ٦]. ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

وقال الدراوردي: عن سعد بن إسحاق بن كعب [بن عجرة][٣] أنه قال لما نزلت هذه الآية: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ لَقِيَهُم ركبٌ عظيمٌ لا [يرون إلا][٤] أنَّهم من العرب، فقالوا لهم: من أنتم؟ قالوا: من الجنِّ، خرجنا من المدينة، أخرجتنا هذه الآية. رواه ابن أبي حاتم[٥].

وقوله: ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ﴾ كقوله تعالىٰ: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وكقوله تعالىٰ: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٦]، وقوله: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٣].

وقوله: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي: أفردوه بالعبادة وحده لا شريك له، ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي: أيها المشركون في أمركم، تعبدون مع الله غيره، وأنتم تعلمون أنَّه المتفرِّد بالخلق، كقوله تعالىٰ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]، وقوله: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٦ -٨٧]، وكذا الآية التي قبلها والتي بعدها.

﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾﴾

أخبر تعالىٰ أنَّ إليه مرجع الخلائق يوم القيامةِ، لا يترك منهم أحدًا حتىٰ يعيده كما بدأه. ثم ذكر تعالىٰ أنَّه كما بدأ الخلق كذلك يعيده، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧].

﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ﴾ أي: بالعدل والجزاء الأوفى، ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾ أي: بسبب كفرهم يُعذَّبُونَ يوم القيامة بأنواع العقاب من ﴿سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ﴾ [الواقعة: ٤٢، ٤٣]. ﴿هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ

---

(١) في بعض النسخ: «تغلظه». (٢) لوحة (٢٨٢ أ).
(٣) سقط من (ز). (٤) سقط من (ز).
(٥) مرسل: والأثر رواه ابن أبي حاتم (١٠٢٠٧).

﴿وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ﴾ [ص: ٥٧، ٥٨]. ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾ [الرحمن: ٤٣، ٤٤].

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ(١) ﴿٥﴾ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾﴾

يخبر تعالىٰ عمَّا خلق من الآيات الدَّالَّة علىٰ كمال قدرته، وعظيم سلطانِه، وأنَّه جعل الشعاع الصَّادر عن جرم الشمس ضياءً، وشعاع القمر نورًا، هذا فنٌّ وهذا فنٌّ آخر، ففاوت بينهما؛ لئلَّا يشتبها، وجعل سلطان الشَّمس بالنَّهار، وسلطان القمر بالليل، وقدَّر القمر منازِلَ، فأوَّل ما يبدو صغيرًا، ثم يتزايد نُورُه وجرمُهُ، حتىٰ يستوسق ويكمل إبداره، ثم يشرع في النَّقص حتىٰ يرجع إلىٰ حاله الأول في تمام شهر، كما قال تعالىٰ: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٣٩، ٤٠]، وقال: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [الأنعام: ٩٦].

وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿وَقَدَّرَهُۥ﴾ أي: القمر ﴿مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ فبالشَّمس تُعْرَفُ الأيام، وبسير القمر تُعْرَفُ الشُّهور والأعوام.

﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ أي: لم يخلقه عبثًا بل له حكمةٌ عظيمةٌ في ذلك، وحجَّةٌ بالغةٌ، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [ص: ٢٧]، وقال تعالىٰ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦].

وقوله: ﴿يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ﴾ أي: [يُبيِّن](٢) الحجج والأدلَّة ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

وقوله: ﴿إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أي: تعاقبهما، إذا جاء هذا ذهب هذا، وإذا ذهب هذا جاء هذا، لا يتأخَّر عنه شيئًا، كما قال تعالىٰ: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ [الأعراف: ٥٤]، وقال: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ﴾ [يس: ٤٠]، وقال تعالىٰ: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [الأنعام: ٩٦].

وقوله: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: من الآيات الدَّالَّة علىٰ عظمته تعالىٰ، كما قال: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ [يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥]، وقال ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ](٣) وَمَا تُغْنِى ٱلْـَٔايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١]،

---

(١) لوحة (٢٨٢ ب). (٢) سقط من (ز). (٣) سقط من (ز).

وقال: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [سبأ: ٩]، وقال: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٠]. أي: العقول، وقال هاهنا: ﴿لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ أي: عقاب الله، وسخطه، وعذابه.

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا[1] وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ﴿٧﴾ أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾﴾

يقول الله -تعالىٰ- مخبرًا عن حال الأشقياء الذين كفروا بلقاء الله يوم القيامة، ولا يرجون في لقاء الله شيئًا، ورضوا بهذه الحياة الدنيا، واطمأنت إليها أنفسهم. قال الحسن: والله ما زَيَّنُوها ولا رفعوها، حتىٰ رَضُوا بها[2]. وهم غافلون عن آيات الله الكونيَّة[3] فلا يتفكَّرون فيها، والشرعيَّة فلا يأتمرونَ بها - بأنَّ مأواهم يوم معادهم النَّار، جزاءً علىٰ ما كانوا يكسبون في دنياهم من الآثام والخطايا والإجرام، مع ما هم فيه من الكفر بالله ورسوله واليوم الآخر.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ ۖ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ۚ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾﴾

وهذا إخبارٌ عن حال السُّعداء الذين آمنوا بالله وصدَّقوا المرسلين، وامتثلوا ما أُمِرُوا به، فعملوا الصَّالحات، بأنَّه سيهديهم بإيمانهم.

يحتمل أن تكون «الباء» -هاهنا- سببية؛ فتقديره: بسبب إيمانهم في الدنيا يهديهم الله يوم القيامة علىٰ الصِّراط، حتىٰ يجوزوه ويخلصُوا إلىٰ الجنَّة. ويحتمل أن تكون للاستعانة، كما قال مجاهد في قوله: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ﴾ [قال: يكون لهم نورًا يمشون به.

وقال ابن جُرَيْج في قوله: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ﴾][4] قال: يمثل له عمله في صورةٍ حسنةٍ وريح طيبةٍ إذا قام من قبره، يعارض صاحبه ويبشره بكلِّ خير، فيقول له: من أنت؟ فيقول: أنا عملك. فيجعل له نورًا من بين يديه حتىٰ يدخله الجنة، فذلك قوله تعالىٰ: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ﴾ والكافر يمثل له عمله في صورةٍ سيئةٍ وريحٍ منتنةٍ فيلازم صاحبه ويلازُّه[5] حتىٰ يقذفه في النار.

وروي نحوه عن قتادة مرسلًا، فالله أعلم.

وقوله: ﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ۚ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: هذا حال أهل الجنة.

---

(١) لوحة (٢٨٣ أ). (٢) إلىٰ هنا انتهىٰ قول الحسن، وانظر: «تفسير ابن أبي حاتم» (١١٠٦٧).
(٣) في (ز): «الكريمة». (٤) سقط من (ز). (٥) أي: يلزمه ويلصق به.

قال ابن جريج: أخبرتُ أن قوله: ﴿ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ ﴾[(١)] قال: إذا مر بهم الطَّير يشتهونه، [قالوا: سبحانك اللَّهمَّ -وذلك دعواهم- فيأتيهم المَلَك بما يشتهونه][(٢)] فيُسلِّم عليهم، فيردون عليه. فذلك [قوله][(٣)]: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ [قال:][(٤)] فإذا أكلوا حمدوا الله ربهم، فذلك قوله: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

وقال مقاتل بن حيان: إذا أراد أهل الجنة أن يدعوا بالطعام قال أحدهم: ﴿سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾[(٥)] قال: فيقوم علىٰ أحدهم عشرة آلاف خادم، مع كل خادم صحفة من ذهب، فيها طعامٌ ليس في الأخرىٰ، قال: فيأكل منهنَّ كلهنَّ. وقال سفيان الثوري: إذا أراد أحدهم أن يدعو بشيءٍ قال: ﴿سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾.

وهذه الآية فيها شبه من قوله: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٤]، وقوله: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾ [الواقعة: ٢٥، ٢٦]، وقوله: ﴿ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس: ٥٨]. وقوله: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤].

وقوله: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ هذا فيه دلالةٌ علىٰ أنَّ الله -تعالىٰ- هو المحمود أبدًا، المعبود علىٰ طول المدىٰ؛ ولهذا حَمِدَ نفسه عند ابتداء خلقه واستمراره، وفي ابتداء كتابه، وعند ابتداء تنزيله، حيث يقول تعالىٰ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [الكهف: ١]، [﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ١]][(٦)] إلىٰ غير ذلك من الأحوال التي يطول بسطها، وأنه المحمود في الأول وفي الآخر، في الحياة الدنيا وفي الآخرة في جميع الأحوال؛ ولهذا جاء في الحديث: «إِنَّ أَهْلَ الجَنَّةِ يُلْهَمُونَ التَّسْبِيحَ وَالتَّحْمِيدَ كَمَا يُلْهَمُونَ النَّفَسَ»[(٧)]، وإنما يكون ذلك كذلك لما يرون مِن تضاعف نعم الله عليهم، فتكرَّر وتعاد وتزاد، فليس لها انقضاء ولا أمد، فلا إله إلا هو، ولا رب سواه.

﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾﴾

يخبر تعالىٰ عن حِلْمِهِ ولُطْفِهِ بعباده، أنَّه لا يستجيب لهم إذا دعوا علىٰ أنفسهم أو أموالهم أو أولادهم في حال ضجرهم وغضبهم، وأنَّه يعلم منهم عدم القصد إلىٰ إرادة ذلك؛ فلهذا لا يستجيب لهم -والحالة هذه- لطفًا ورحمةً، كما يستجيب لهم إذا دعوا لأنفسهم أو لأموالهم وأولادهم بالخير والبركة والنَّماء؛ ولهذا قال: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ أي: لو استجاب لهم كل ما دعوه به في ذلك لأهلكهم، ولكن لا ينبغي الإكثار من ذلك، كما جاء في الحديث الذي رواه الحافظ أبو بكر البزار في «مسنده»:

---

(١) في (ز): في هذا الموضع بعد قوله: ﴿ سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ ﴾ [يونس: ١٠]: [وذلك دعواهم فيها سبحانك اللهم]. وقد حذفناها تبعًا لما في تفسير «الطبري» والمطبوع في «الشعب»؛ لاضطراب السياق بها.

(٢) سقط من (ز). (٣) سقط من (ز). (٤) سقط من (ز).

(٥) لوحة (٢٨٣ ب). (٦) سقط من (ز). (٧) رواه مسلم (٢٨٣٥)، وأحمد (٣/ ٣٤٩).

حدَّثنا محمَّد بن مَعْمَر، حدَّثنا يعقوب بن محمَّد، حدَّثنا حاتم بن إسماعيل، حدَّثنا يعقوب بن مجاهد أبو حَزْرَة، عن عبادة بن الوليد، حدَّثنا جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تَدْعُوا عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ، لا تَدْعُوا عَلَىٰ أَوْلادِكُمْ، لا تَدْعُوا عَلَىٰ أَمْوَالِكُمْ، لا تُوَافِقُوا مِنَ اللهِ سَاعَةً فِيهَا إِجَابَةٌ فَيَسْتَجِيبُ لَكُمْ** [١]» [٢].

ورواه أبو داود [٣]، من حديث حاتم بن إسماعيل به.

وقال البزَّار: وتفرَّد به عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت الأنصاري، لم يشاركه أحدٌ فيه، وهذا كقوله تعالىٰ: ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَـٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ عَجُولًا﴾ [الإسراء: ١١].

وقال مجاهد في تفسير هذه الآية: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ﴾ هو قول الإنسان لولده وماله إذا غضب عليه: اللَّهم لا تبارك فيه والْعَنْهُ. فلو يعجل لهم الاستجابة في ذلك -كما يستجاب لهم في الخير- لأهلكهم.

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾﴾

يخبر تعالىٰ عن الإنسان وضجره وقلقه إذا مسه الضر، [كقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ] [٤] فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ [فصلت: ٥١] أي: كثير، وهما في معنًىٰ واحدٍ؛ وذلك لأنَّه إذا أصابته شدةٌ قلق لها وجَزِعَ منها، وأَكْثَرَ الدعاء عند ذلك، فدعا الله في كشفها وزوالها عنه في حال اضطجاعه وقعوده وقيامه، وفي جميع أحواله، فإذا فَرَّج الله شدَّته وكشف كربته أعرض ونأىٰ بجانبه، وذهب كأنه ما كان به من ذاك شيء، ﴿مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾.

ثم ذَمَّ تعالىٰ مَنْ هذه صفته وطريقته فقال: ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ فأمَّا من رزقه الله الهداية والسَّداد والتَّوفيق والرَّشاد فإنَّه مستثنًىٰ من ذلك، كما قال تعالىٰ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ [هود: ١١]، وكقول رسول الله ﷺ: «**عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ؛ لا يَقْضِي اللهُ لَهُ قَضَاءً إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ، إِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ**» [٥].

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ۙ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰكُمْ خَلَـٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ [٦] ﴿١٤﴾﴾

---

(١) لوحة (٢٨٤ أ).
(٢) صحيح: أبو داود (١٥٣٢)، وانظر: «صحيح مسلم» (٣٠٠٩).
(٣) بل رواه مسلم كما تقدم.
(٤) ليست في (ز).
(٥) مسلم (٢٩٩٩)، وأحمد (٤/ ٣٣٢) (٦/ ١٥، ١٦) من حديث صهيب رضي الله عنه.
(٦) قال الإمام السعدي رحمه الله: فإن أنتم اعتبرتم واتعظتم بمن قبلكم، واتبعتم آياتِ الله وصَدَّقْتُمْ رسلَه، نجوتم في الدنيا والآخرة، وإن فعلتم كفعل الظالمين قبلكم، أحل بكم ما أحل بهم، ومن أنذر فقد أعذر.

أخبر تعالىٰ عما أحلَّ بالقرون الماضية، في تكذيبهم الرُّسل فيما جاءوهم به من البيِّنات والحُجَج الواضحات، ثم استخلف الله هؤلاء القومَ من بعدهم، وأرسل إليهم رسولًا لينظر طاعتهم له، واتِّباعهم رسوله.

وفي «صحيح مسلم» من حديث أبي نَضْرَة، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ، وَإِنَّ اللهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا فَنَاظِرٌ مَاذَا تَعْمَلُونَ، فَاتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النِّسَاءَ؛ فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ**»(١).

وقال ابن جرير: حدَّثني(٢) المثنىٰ، حدَّثنا زيد بن عوف أبو ربيعة فهد(٣)، حدَّثنا حماد، عن ثابت البُناني، عن عبد الرحمن بن أبي ليلىٰ؛ أن عوف بن مالك قال لأبي بكر: رأيتُ فيما يرىٰ النَّائم كأنَّ سَبَبًا(٤) دُلِّيَ من السَّماء، فانتُشط(٥) رسولُ الله ﷺ، ثم أُعِيد فانتُشط أبو بكر، ثم ذُرِعَ(٦) النَّاس حول المنبر، ففضل عمر بثلاث أذرع إلىٰ المنبر. فقال عمر: دَعْنَا مِن رؤياك، لا أرَبَ لنا فيها! فلمَّا استخلف عمر قال: يا عوف، رؤياك! فقال: وهلِ لك في رُؤْيَاي مِن حاجةٍ؟ أولم تنتهرني؟ فقال: وَيْحَكَ! إنِّي كرهت أن تنعَىٰ لخليفة رسول الله ﷺ نفسه! فقصَّ عليه الرؤيا، حتىٰ إذا بلغ: ذُرِع الناس إلىٰ المنبر بهذه الثَّلاث الأذرع، قال: أمَّا إحداهنَّ: فإنَّه كائنٌ خليفةً. وأمَّا الثَّانية: فإنَّه لا يخاف في الله لومة لائم. وأما الثالثة: فإنَّه شهيدٌ. قال: فقال: يقول الله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ فقد استُخلفت يا ابن أم عمر، فانظر كيف تعمل؟ وأما قوله: «فإنِّي لا أخاف في الله لومة لائم» فما شاء الله! وأمَّا قوله: «إني شهيد» فأنَّىٰ لعمر الشهادة والمسلمون مطيفون به(٧).

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾﴾

يُخبِر تعالىٰ عن تعنُّت الكفَّار من مشركي قريش الجاحدين الحقَّ المعرضين عنه، أنَّهم إذا قرأ

(١) مسلم (٢٧٤٢)، والنسائي في «الكبرىٰ» (٩٢٦٩)، وأحمد (٣/ ٢٢، ٤٠، ٦٨).

(٢) لوحة (٢٨٤ ب).

(٣) في (ز): «سهد»، والصواب ما أثبتناه، وهو موافق لما عند «الطبري».

(٤) السبب: الحبل.

(٥) أي: انتزع وجذب إلىٰ السماء.

(٦) أي: قدر ما بينهم وبين المنبر بالذراع.

(٧) ضعيف جدًّا: رواه الطبري (١٥/ ٩٤)، وفيه زيد بن عوف، قال الدارقطني: ضعيف، وقال أبو حاتم: تعرف وتنكر، وقال الفلاس: متروك، وذكره أبو زرعة واتهمه بسرقة الحديث «ميزان الاعتدال» (٢/ ١٠٥).

عليهم الرسول ﷺ كتاب الله وحُجَجه الواضحة قالوا له: ﴿ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ﴾ أي: رُدَّ هذا وجئنا بغيره من نمط آخر، أو بَدِّله إلىٰ وضع آخر، قال الله لنبيه -صلوات الله وسلامه عليه-: ﴿قُلۡ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلۡقَآيِٕ نَفۡسِيٓۖ﴾ أي: ليس هذا إليَّ، إنَّما أنا عبدٌ مأمورٌ، ورسولٌ مُبَلِّغٌ عن الله، ﴿إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾.

ثمَّ قال محتجًّا عليهم في صِحَّة ما جاءهم به: ﴿قُل لَّوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوۡتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَدۡرَىٰكُم بِهِۦ﴾ أي: هذا إنَّما جئتكم به عَن إذنِ الله لي في ذلك ومشيئته وإرادته، والدليل علىٰ أنِّي لست أتقوَّله مِن عندي ولا افتريته أنَّكم عاجزون عن معارضته، وأنَّكم تعلمون صدقي وأمانتي منذ نشأت بينكم إلىٰ حين بعثني الله ﷻ لا تَنتَقِدُون عليَّ شيئًا تَغمصوني به[1]؛ ولهذا[2] قال: ﴿فَقَدۡ لَبِثۡتُ فِيكُمۡ عُمُرٗا مِّن قَبۡلِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ أي: أفليس لكم عقولٌ تعرفون بها الحَقَّ من الباطل؟ ولهذا لما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان ومَن معه، فيما سأله من صفة النَّبيِّ ﷺ، قال: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال أبو سفيان: فقلت: لا -وقد كان أبو سفيان إذ ذاك رأس الكفرة وزعيم المشركين- ومع هذا اعترف بالحق، وَالفَضْلُ ما شَهِدَتْ به الأعداءُ.

فقال له هرقل: فقد أعرف أنَّه لم يكن ليدَعَ الكذب علىٰ النَّاس ثم يذهب فيكذب علىٰ الله[3].

وقال جعفر بن أبي طالب للنَّجاشي ملك الحبشة: بعث الله فينا رسولًا نعرف نَسَبَهُ وصِدْقَه وأمانته، وقد كانت مُدَّة مقامه ﷺ بين أظهرنا قبل النُّبوَّة أربعين سنة[4][5]. وعن سعيد بن المسيب: ثلاثًا وأربعين سنة[6]. والصَّحيح المشهور الأول.

﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ١٧﴾

يقول تعالىٰ: لا أحد أظلَم ولا أعتىٰ ولا أشد إجرامًا ﴿مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾، وتَقَوَّل علىٰ الله، وزعم أنَّ الله أرسله، ولم يكن كذلك، فليس أحدٌ أكبَرُ جرمًا، ولا أعظم ظُلمًا مِن هذا، ومثل هذا لا يخفىٰ أمره علىٰ الأغبياء، فكيف يشتبه حال هذا بالأنبياء؟ فإنَّ مَن قال هذه المقالة صادقًا أو كاذبًا، فلا بدَّ أن الله يَنصب عليه من الأدلَّة علىٰ بِرِّه أو فُجُوره ما هو أظهر من الشمس، فإنَّ الفرق بين محمَّدٍ ﷺ وبين مسيلمة الكذَّاب لمن شاهدهما أظهر من الفرق بين وقت الضحىٰ ووقت نصف الليل

---

(١) غَمَصَه: احتقره وعابه وتهاون بحقه.
(٢) لوحة (٢٨٥ أ).
(٣) البخاري (٧)، ومسلم (١٧٧٣).
(٤) رواه أحمد (١/ ٢٠٢)، (٥/ ٢٩٠)، وإسناده حسن.
(٥) ثبوت بعثته بعد الأربعين ثابت في «الصحيحين»: البخاري (٣٥٤٧)، ومسلم (٢٣٤٧)، وأحمد (٣/ ١٥١)، وأبو يعلىٰ (٣٥٧٢)، وابن حبان (٦٣٨٧).
(٦) رواه ابن أبي شيبة (٨/ ٤٣٧)، والحاكم (٢/ ٦١٠)، وهي روايةٌ شاذَّةٌ مخالفةٌ النُّصوصَ الصَّحيحةَ الثابتةَ في «الصحيحين» أنَّها أربعون سنة.

في حِنْدِسِ[(١)] الظَّلماء، فَمِنْ سيما كل منهما وكلامه وفعاله يَستدلُّ مَن له بصيرةٌ علىٰ صدق محمَّدٍ ﷺ وكذب مسيلمة الكذاب وسَجَاح والأسود العَنْسي.

قال عبد الله بن سلام: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة انْجَفَل النَّاس[(٢)]، فكنتُ فيمن انْجَفَل، فلمَّا رأيته عرفت أنَّ وجهه ليس بوجهِ رجل كذَّابٍ، فكان أول ما سمعته يقول: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَفْشُوا السَّلَامَ، وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ، [وَصِلُوا الأَرْحَامَ][(٣)] وَصَلُّوا بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ، تَدْخُلُونَ الجَنَّةَ بِسَلَامٍ»[(٤)].

ولما قَدِم وفد ضمام بن ثعلبة علىٰ رسول الله ﷺ مِن قومه بني سعد بن بكر قال لرسول الله فيما قال له: من رفع هذه السماء؟ قال: «اللهُ». قال: ومن نصب هذه الجبال[(٥)]؟ قال: «اللهُ». قال: ومَن سَطَحَ هذه الأرض؟ قال: «اللهُ». قال: فبالذي رفع هذه السماء، ونصب هذه الجبال، وسَطَح هذه الأرض: اللهُ أرسلك إلىٰ الناس كلِّهم؟ قال: «اللَّهُمَّ نَعَمْ» ثم سأله عن الصلاة، والزكاة، والحج، والصيام، ويحلف عند كل واحدةٍ هذه اليمين، ويحلف رسول الله ﷺ، فقال له: صَدَقْتَ، والذي بَعَثَكَ بالحقِّ لا أزيد علىٰ ذلك ولا أنقص[(٦)].

فاكتفىٰ هذا الرجل بمجرَّد هذا، وقد أيقن بصدقه -صلوات الله وسلامه عليه- بما رأىٰ وشاهد من الدلائل الدَّالَّة عليه، كما قال حسان بن ثابت:

لَـوْ لَـمْ تكُـنْ فِيـهِ آيَـاتٌ مُبَيِّنَـةٌ ... كَانَـتْ بَدِيهَتُـهُ تَأْتِيـكَ بِـالخَبَرِ

وأمَّا مسيلمة فمَن شاهده مِن ذَوِي البصائر، عَلِمَ أمره لا محالة، بأقواله الرَّكيكة التي ليست بفصيحةٍ[(٧)]، وأفعاله غير الحسنة بل القَبيحة، وقرآنه الذي يخلد به في النَّار يوم الحسرة والفضيحة، وكم[(٨)] مِن فَرْقٍ بين قوله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. وبين عُلَاكِ[(٩)] مسيلمة -قبَّحه الله ولعنه-: «يا ضفدع بنتَ الضُّفدعين، نقي كما تنقِّين، لا الماء تُكَدِّرين، ولا الشَّارب تمنعين». وقوله -قُبِّح ولُعِن-: «لقد أنعم الله علىٰ الحُبْلَىٰ، إذ أخرج منها نَسَمة تسعىٰ، من بين صِفَاقٍ وحَشَىٰ[(١٠)]».

---

(١) الحِنْدِسُ، بالكسر: الليل المظلم، والظلمة، ج: حَنَادِسُ. «القاموس المحيط» (ص:٤٢٨): (حندس).

(٢) أي: ذَهبوا مُسرِعين نَحوه. «النهاية».

(٣) سقط من (ز)، وإثباتها موافق لمصادر التخريج.

(٤) صحيح: الترمذي (٢٤٨٧)، وابن ماجة (١٣٣٤)، وقال الترمذي: حسن صحيح.

(٥) لوحة (٢٨٥ ب).

(٦) البخاري (٦٣)، ومسلم (١٢)، وأبو داود (١٨٦)، والنسائي (٨٥٩).

(٧) في (ز): «بصحيحة».

(٨) في (ز): «وهم».

(٩) العُلاك -بضم العين وفتحها-: ما يعلك ويمضغ.

(١٠) الصِّفاق: الجلد الأسفل الذي يكون تحت الجلد الذي عليه الشعر، أو هو ما بين الجلد والمصران، والحَشَىٰ: ما دون الحجاب مما في البطن كله، من الكبد والطِّحال والكرش.

وقوله -خدَّره[١] اللهُ في نار جهنَّم، وقد فعل-: «الفيل وما أدراك ما الفيل؟ له زلوم[٢] طويل» وقوله -أبعده الله من رحمته-: «والعاجنات عجنًا، والخابزات خبزًا، واللاقمات لقمًا، إهالةً وسمنًا، إن قريشًا قوم يعتدون» إلىٰ غير ذلك من الهذيانات والخرافات التي يأنف الصِّبيان أن يتلفظوا بها، إلا علىٰ وجه السُّخرية والاستهزاء؛ ولهذا أرغم الله أنفه، وشرب يوم «حديقة الموت»[٣] حتْفَهُ. ومزّق شمله. ولعنه صحبُه وأهلُهُ. وقدموا علىٰ الصِّدِّيق تائبين، وجاءوا في دين الله راغبين، فسألهم الصِّدِّيقُ خليفةُ الرسولِ -صلوات الله وسلامه عليه، ورضي الله عنه- أن يقرءوا عليه شيئًا من قرآن مسيلمة لعنه الله، فسألوه أن يعفيهم من ذلك، فأبىٰ عليهم [إلا][٤] أن يقرءوا شيئًا منه ليُسْمِعَه مَن لم يسمعه من النَّاس، فيعرفوا فضل ما هم عليه من الهدىٰ والعلم، فقرءوا عليه من هذا الذي ذكرناه وأشباهه[٥]، فلما فرغوا قال لهم الصِّدِّيقُ رضي الله عنه: وَيْحَكُم! أين كان يَذهب بعقولكم؟ والله إن هذا لم يخرج من إلٍّ[٦].

وذكروا أنَّه وفد عمرو بن العاص علىٰ مسيلمة، وكان صَدِيقًا له في الجاهلية، وكان عمرو لم يُسْلِم بعدُ، فقال له مسيلمة: ويحك يا عمرو، ماذا أنزل علىٰ صاحبكم -يعني: رسول الله ﷺ- في هذه المدَّة؟ فقال: لقد سَمِعْت أصحابه يقرءون سورةً عظيمةً قصيرةً، فقال: وما هي؟ فقال: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ سورة العصر، ففكر مسيلمة ساعةً، ثم قال: وقد أنزل عليَّ مثله. فقال: وما هو؟ فقال: «يا وَبْرُ يا وَبْرُ[٧]، إنَّما أنت أذنان وصدر، وسائرك حَقْرٌ نَقْر» كيف ترىٰ يا عمرو؟ فقال له عمرو: والله إنَّك لتعلم أنِّي أعلم أنَّك لتكذب، فإذا كان هذا من مشركٍ في حال شركه، لم يشتبه عليه حال محمَّد ﷺ وصدقه، وحال مسيلمة -لعنه الله- وكذبه، فكيف بأولي البصائر والنُّهىٰ، وأصحاب العقول السليمة المستقيمة والحِجَىٰ؟! ولهذا قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: ٩٣]، وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝١٧﴾[٨] [يونس]، وكذلك من كذَّب بالحقِّ الذي جاءت به الرسل، وقامت عليه الحجج، لا أحد أظلم منه كما جاء في الحديث: «أَعْتَىٰ النَّاسِ عَلَىٰ اللهِ رَجُلٌ قَتَلَ نَبِيًّا، أَوْ قَتَلَهُ نَبِيٌّ»[٩].

---

(١) أي: ألزمه النار، من قولهم: «جارية مخدرة»، إذا ألزمت الخدر. (٢) أي: حلقوم.

(٣) حديقة الموت: بستان كان باليمامة، واليمامة من نجد الرياض الآن، وفيها قُتِلَ مُسَيْلِمَة لعنه الله.

(٤) سقط من (ز). (٥) لوحة (٢٨٦ أ).

(٦) أي: من رُبُوبيَّةٍ، وقيل: الإلُّ هو الأصل الجيِّد؛ أي: لم يجئ من الأصْل الذي جاء منه القرآن. وقيل: الإلُّ النَّسب والقرابة. فيكون المعنىٰ: إن هذا كلامٌ غير صادرٍ عن مُناسَبَة الحق والإدْلَاء بسببٍ بيْنَهُ وبين الصِّدق. «النهاية».

(٧) الوَبْر: دويبة علىٰ قدر الهرة، والحَقْر والحقير: الصغير الذيل.

(٨) في صدر هذه الآية في (ز): «ومن أظلم»، واختلطت علىٰ البعض -لذلك- بالآية (٢١) من سورة الأنعام، والسِّياق يأبىٰ هذا، والصواب ما أثبتناه؛ لقول الحافظ: وقال في هذه الآية الكريمة.

(٩) حسن: رواه أحمد (١/ ٣٨٥)، والبغوي في «معجم الصحابة» (٥/ ٢٠٨٠)، وأبو نعيم في «معرفة الصحابة» (٦٠١٢).

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾﴾

ينكر تعالىٰ علىٰ المشركين الذين عبدوا مع الله غيره، ظانِّين أن تلك الآلهة تنفعهم شفاعتُها عند الله، فأخبر تعالىٰ أنَّها لا تنفع ولا تضر، ولا تملك شيئًا، ولا يقع شيءٌ مما يزعمون فيها، ولا يكون هذا أبدًا؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

وقال ابن جرير: معناه أَتُخبِرُون الله بما لا يكون في السموات ولا في الأرض؟ ثمَّ نزَّه نفسه عَن شِرْكِهم وكُفرِهم، فقال: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

ثم أخبر تعالىٰ أنَّ هذا الشِّرك حادثٌ في النَّاس[(١)]، كائنٌ بعد أن لم يكن، وأنَّ النَّاس كلهم كانوا علىٰ دينٍ واحدٍ، وهو الإسلام؛ قال ابن عبَّاس: كان بين آدم ونوح عشرة قرون، كلُّهم علىٰ الإسلام[(٢)]، ثم وقع الاختلاف بين النَّاس، وعُبدت الأصنام والأنداد والأوثان، فبعث الله الرسل بآياته وبيناته، وحُجَجه البالغة، وبراهينه الدامغة؛ ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢].

وقوله: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أي: لولا ما تقدَّم مِن الله -تعالىٰ- أنَّه لا يعذب أحدًا إلا بعد قيام الحجة عليه، وأنَّه قد أَجَّل الخلق إلىٰ أجلٍ معدودٍ لقضىٰ بينهم فيما فيه اختلفوا، فأسعد المؤمنين، وأعنَتَ الكافرين.

﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾﴾

أي: ويقول هؤلاء الكفرة الملحدون المكذِّبون المعاندون: لولا أُنزلَ علىٰ محمَّدٍ آيةٌ مِن ربه، يعنون كما أعطىٰ الله ثمود الناقة، أو أن يُحوِّل لهم الصفا ذهبًا، أو يزيح عنهم جبال مكَّة ويجعل مكانها بساتين وأنهارًا، ونحو ذلك مما الله عليه قادرٌ، ولكنه حكيمٌ في أفعاله وأقواله، كما قال تعالىٰ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًۢا ﴿١٠﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ [الفرقان: ١٠، ١١]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء: ٥٩]، يقول تعالىٰ: إنَّ سُنَّتي في خلقي أنِّي إذا آتيتهم ما سألوا، فإن آمنوا وإلا عاجلتهم بالعقوبة. ولهذا لما خُيِّر رسول الله

---

(١) لوحة (٢٨٦ ب).

(٢) صحيح: رواه الطبري (٢/ ٣٣٤)، والحاكم (٢/ ٥٤٦)، ورجاله ثقات، وصحَّحه الحاكم علىٰ شرط البخاري، ووافقه الذَّهبيُّ.

عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بين أن يُعطىٰ ما سألوا، فإن أجابوا وإلا عُوجلوا، وبين أن يتركهم ويُنْظرهم، اختار إنظارهم، كما حلم عنهم غير مرة صلوات الله عليه؛ ولهذا قال تعالىٰ إرشادًا لنبيِّه إلىٰ الجواب لهم عما سألوا: ﴿فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ أي: الأمر كله لله، وهو يعلم العواقب في الأمور، ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ أي: إن كنتم لا تؤمنون حتىٰ تشاهدوا ما سألتم فانتظروا حكم الله فيَّ وفيكم. هذا مع أنَّهم قد شاهدوا من معجزاته عَلَيْهِ السَّلَامُ أعظم مما سألوا حين أشار بحضرتهم إلىٰ القمر ليلة إبداره، فانشق باثنتين: فِرْقَةٍ من وراء الجبل[1]، وفِرْقَةٍ من دونه[2]. وهذا أعظم من سائر الآيات الأرضية مما سألوا وما لم يسألوا، ولو علم الله منهم أنَّهم سألوا ذلك استرشادًا وتثبتًا لأجابهم، ولكن علم أنهم إنما يسألون عنادًا وتعنتًا، فتركهم فيما رابهم، [وعلم أنهم لا يؤمن منهم أحد][3] كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُوٓاْ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ [الأنعام: ١١١]، ولما فيهم من المكابرة، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ [الحجر: ١٤، ١٥]، وقال تعالىٰ: ﴿وَإِن يَرَوْاْ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُواْ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ [الطور: ٤٤]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأنعام: ٧]، فمِثل هؤلاء أقل مِن أن يجابوا إلىٰ ما سألوه؛ لأنَّه لا فائدة في جواب هؤلاء؛ لأنَّه دائرٌ علىٰ تَعَنُّتِهم وعنادهم؛ لكثرة فجورهم وفسادهم؛ ولهذا قال: ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾.

﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِيٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِي ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾

يخبر تعالىٰ أنَّه إذا أذاق النَّاس رحمةً من بعد ضراء مسَّتْهم، كالرَّخاء بعد الشِّدَّة، والخصب بعد الجدب، والمطر بعد القحط ونحو ذلك ﴿إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِيٓ ءَايَاتِنَا﴾.

---

(١) لوحة (٢٨٧ أ). (٢) البخاري (٣٦٣٦)، ومسلم (٢٨٠٠).

(٣) ما بين المعقوفتين في (ز): «ولكن من لم يؤمن منهم».

قال مجاهد: استهزاءٌ وتكذيبٌ. كما قال: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ﴾ [يونس : ١٢]، وفي «الصحيح» أنَّ رسول الله ﷺ صلَّىٰ بهم الصبح علىٰ[1] إثر سماء -مطر- أصابهم من الليل ثم قال: «هَلْ تَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمُ اللَّيْلَةَ؟» قالوا[2] : الله ورسوله أعلم. قال: «قَالَ: أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ، فَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ، فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي[3] كَافِرٌ بِالكَوْكَبِ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا، فَذَاكَ كَافِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِالكَوْكَبِ»[4] .

وقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ﴾ أي: أشد استدراجًا وإمهالًا، حتىٰ يظن الظانُّ من المجرمين أنَّه [ليس بمعذَّبٍ][5] ، وإنَّما هو في مهلةٍ، ثم يؤخذ علىٰ غرَّةٍ منه، والكاتبون الكرام يكتبون عليه جميع ما يفعله، ويحصونه عليه، ثم يعرضون علىٰ عالم الغيب والشهادة، فيجازيه علىٰ الحقير والجليل والنَّقير والقِطْمير.

ثم أخبر تعالىٰ أنه: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾ أي: يحيطكم ويَكْلَؤُكم بحراسته ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا ﴾ أي: بسرعة سيرهم رافقين[6] ، فبينما هم كذلك إذ ﴿جَآءَتْهَا ﴾ أي: تلك السُّفن ﴿رِيحٌ عَاصِفٌ ﴾ أي: شديدةٌ ﴿وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ ﴾ أي: اغتلم البحر عليهم[7] ﴿وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ﴾ أي: هلكوا ﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ أي: لا يدعون معه صنمًا ولا وثنًا، بل يفردونه بالدُّعاء والابتهال، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴾ [الإسراء : ٦٧]، وقال هاهنا: ﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ ﴾ أي: هذه الحال ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ أي: لا نشرك بك أحدًا، ولنفردنك بالعبادة هناك كما أفردناك بالدعاء هاهنا، قال الله تعالىٰ: ﴿ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ ﴾ أي: من تلك الورطة ﴿إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ أي: كأن لم يكن من ذاك شيء ﴿كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ﴾.

ثم قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ﴾ أي: إنَّما يذوق وبال هذا البغي أنتم أنفسكم، ولا تَضُرُّون به أحدًا غيركم، كما جاء في الحديث: «مَا مِنْ ذَنْبٍ أَجْدَرُ أَنْ يُعَجِّلَ اللهُ عُقُوبَتَهُ فِي الدُّنْيَا، مَعَ مَا يَدَّخِرُ اللهُ لِصَاحِبِهِ فِي الآخِرَةِ مِنَ البَغْيِ وَقَطِيعَةِ الرَّحِمِ»[8] .

وقوله: ﴿مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ أي: إنَّما لكم متاعٌ في الحياة الدُّنيا الدَّنيئة الحقيرة ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ ﴾ أي: مصيركم ومآلكم[9] ﴿فَنُنَبِّئُكُم ﴾ أي: فنُخْبِرُكُم بجميع أعمالكم، ونوفيكم إياها، فمَن وجد خيرًا فلْيَحْمَدِ الله، ومَن وجد غير ذلك فلا يَلُومَنَّ إلا نفسه.

---

(١) في (ز): «في». (٢) في (ز): «قلنا». (٣) لوحة (٢٨٧ ب).

(٤) البخاري (٨٤٦)، ومسلم (٧١)، وأبو داود (٣٩٠٦)، والنسائي (٣/ ١٦٤).

(٥) في (ز): «أنه يعذب». (٦) أي: في رفق. (٧) أي: اشتدَّ وهاج واضطرب.

(٨) **صحيح:** رواه أبو داود (٤٩٠٢)، والترمذي (٢٥١١)، وابن ماجة (٤٢١١)، وقال الترمذي: حسن صحيح.

(٩) في (ز): «ومآبكم».

﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ[١] ﴿٢٤﴾ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾

ضرب -تبارك وتعالىٰ- مثلًا لزهرة الحياة الدُّنيا وزينتها، وسرعة انقضائها وزوالها، بالنَّبات الذي أخرجه الله مِن الأرض بما أنزل مِن السماء من الماء، ممَّا يأكل النَّاس من زرعٍ وثمارٍ، علىٰ اختلاف أنواعها وأصنافها، وما تأكل الأنعام من أبٍّ[٢] وقَضْب[٣] وغير ذلك، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا﴾ أي: زينتها الفانية، ﴿وَٱزَّيَّنَتْ﴾ أي: حَسُنت بما خرج مِن رُباها مِن زهورٍ نَضِرةٍ مختلفة الأشكال والألوان، ﴿وَظَنَّ أَهْلُهَآ﴾ الذين زرعوها وغرسوها ﴿أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ﴾ أي: علىٰ جذاذِها وحصادها [فبينما هم][٤] كذلك إذ جاءتها صاعقةٌ، أو ريحٌ بادرةٌ، فأَيْبَسَتْ أوراقها، وأتلفت ثمارها؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا﴾ أي: يبسًا بعد تلك الخضرة والنَّضارة، ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾ أي: كأنَّها ما كانت حسناء قبل ذلك. وقال قتادة: ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ﴾ كأن لم تنعم.

وهكذا الأمور بعد زوالها كأنَّها لم تكن؛ ولهذا جاء في «الصحيح»: «**يُؤْتَىٰ بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا، فَيُغْمَسُ فِي النَّارِ غَمْسَةً، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ؟ [هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا. وَيُؤْتَىٰ بِأَشَدِّ النَّاسِ عَذَابًا فِي الدُّنْيَا فَيُغْمَسُ فِي النَّعِيمِ غَمْسَةً، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ؟]**[٥] **فَيَقُولُ: لَا**»[٦].

وقال تعالىٰ إخبارًا عن المهلكين: ﴿فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ﴾ [هود: ٩٤، ٩٥].

ثم قال تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ﴾ أي: نُبيِّن الحُجج والأدلة، ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فيعتبرون بهذا المثل في زوال الدُّنيا من أهلها سريعًا مع اغترارهم بها، وتمكُّنهم بمواعيدها، وتَفَلُّتها منهم، فإنَّ مِن طَبْعِهَا الهرب ممَّن طلبها، والطلب لمن هرب منها، وقد ضرب الله مثل الحياة الدُّنيا بنبات الأرض، في غيرِ مَا آيةٍ من كتابه العزيز، فقال في سورة الكهف: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾

---

(١) لوحة (٢٨٨ أ).

(٢) الأَبُّ: الكلأ، أو المرعىٰ، أو ما أنبتت الأرض. «القاموس المحيط» (ص:٣١): (أبب).

(٣) القَضْبُ: كل شجرة طالت وبسطت أغصانها، وما قَطَعْتَ مِن الأغصان للسِّهَامِ أو القِسِيِّ. «القاموس المحيط» (ص:١٤١٧) (قضب).

(٤) في (ز): «فبيناها»، وفي نسخ أخرىٰ: «فبيناهم».

(٥) سقط من (ز).

(٦) مسلم (٢٨٠٧)، والنسائي (١/ ٣٦)، وأحمد (٣/ ٢٠١).

[الكهف: ٤٥]، وكذا في سورة الزمر والحديد يضرب بذلك مثل الحياة الدنيا كماء.

وقال ابن جرير: حدَّثني الحارث، حدَّثنا عبد العزيز(١)، حدَّثنا ابن عُيَيْنَةَ، عن عمرو(٢) بن دينار، عن عبد الرحمن بن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام قال: سمعت مروان -يعني: ابن الحكم- يقرأ(٣) على المنبر: «وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا وَمَا كَانَ اللهُ لِيُهلِكَهَا إِلَّا بِذُنُوبِ أَهْلِهَا»، قال: قد قرأتها وليست في المصحف(٤) فقال عبَّاس بن عبد الله بن عبَّاس: هكذا يقرؤها ابن عبَّاس. فأرسلوا إلى ابن عبَّاس فقال: هكذا أقرأني أبيُّ بن كعب(٥).

وهذه قراءةٌ غريبةٌ، وكأنَّها زيادةٌ للتفسير.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [لما ذكر تعالى الدُّنيا وسرعة عَطَبِهَا وزوالها، رغَّب في الجنَّة ودعا إليها، وسماها دار السلام](٦) أي: من الآفات، والنَّقائص والنَّكبات، فقال: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾.

قال أيوب: عن أبي قِلابة عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**قِيلَ لِي: لِتَنَمْ عَيْنُكَ، وَلْيَعْقِلْ قَلْبُكَ، وَلْتَسْمَعْ أُذُنُكَ فَنَامَتْ عَيْنِي، وَعَقَلَ قَلْبِي، وَسَمِعَتْ أُذُنِي. ثُمَّ قِيلَ: سَيِّدٌ بَنَىٰ دَارًا، ثُمَّ صَنَعَ مَأْدُبَةً، وَأَرْسَلَ دَاعِيًا، فَمَنْ أَجَابَ الدَّاعِيَ دَخَلَ الدَّارَ، وَأَكَلَ مِنَ الْمَأْدُبَةِ، وَرَضِيَ عَنْهُ السَّيِّدُ، وَمَنْ لَمْ يُجِبِ الدَّاعِيَ لَمْ يَدْخُلِ الدَّارَ، وَلَمْ يَأْكُلْ مِنَ الْمَأْدُبَةِ، وَلَمْ يَرْضَ عَنْهُ السَّيِّدُ، فَاللهُ السَّيِّدُ، وَالدَّارُ الإِسْلَامُ، وَالْمَأْدُبَةُ الْجَنَّةُ، وَالدَّاعِي مُحَمَّدٌ ﷺ**»(٧).

وهذا حديث مرسل، وقد جاء متصلًا من حديث اللَّيث، عن خالد بن يزيد(٨)، عن سعيد بن أبي هلال، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: خرج علينا رسولُ الله ﷺ يومًا فقال: «**إِنِّي رَأَيْتُ فِي الْمَنَامِ كَأَنَّ جِبْرِيلَ عِنْدَ رَأْسِي، وَمِيكَائِيلَ عِنْدَ رِجْلِي، يَقُولُ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: اضْرِبْ لَهُ مَثَلًا. فَقَالَ: اسْمَعْ سَمِعَتْ أُذُنُكَ، وَاعْقِلْ عَقَلَ قَلْبُكَ، إِنَّمَا مَثَلُكَ وَمَثَلُ أُمَّتِكَ كَمَثَلِ مَلِكٍ اتَّخَذَ دَارًا، ثُمَّ بَنَىٰ فِيهَا بَيْتًا، ثُمَّ جَعَلَ فِيهَا مَأْدُبَةً، ثُمَّ بَعَثَ رَسُولًا يَدْعُو النَّاسَ إِلَىٰ طَعَامِهِ، فَمِنْهُمْ مَنْ أَجَابَ الرَّسُولَ، وَمِنْهُمْ مَنْ تَرَكَهُ، فَاللهُ الْمَلِكُ،**

---

(١) في (ز): «الحارث بن عبد العزيز»، وهو خطأ، والمثبت موافق للطبري.

(٢) في (ز): «عن عبد بن دينار»، وهو خطأ، والمثبت موافق للطبري.

(٣) في (ز): «يقول». (٤) لوحة (٢٨٨ ب).

(٥) **ضعيف جدًّا**: رواه الطبري (١١/ ١٠٢) وفيه عبد العزيز بن أبان الأموي: متروك، وعبد الرحمن بن أبي بكر لم أقف على ترجمته.

(٦) سقط من (ز).

(٧) رواه ابن جرير (١١/ ١٠٣)، وإسناده مرسل، ويشهد له الرواية التي بعده من حديث جابر، لكن فيها انقطاع بين سعيد ابن أبي هلال وجابر بن عبد الله، وقد وصله الحاكم (٢/ ٣٣٨) بواسطة بينهما وهو محمَّد بن علي بن الحسن، وصحَّحه ووافقه الذهبي؛ وفي إسناده عبد الله بن صالح -كاتب الليث-: ضعيف من قِبَلِ حفظه.

- والحديث عند البخاري (٧٢٨١) من حديث جابر رضي الله عنه - أيضًا- بنحوه.

(٨) في (ز): «سويد»، والصواب ما أثبتناه، وهو موافق لما في «الطبري».

وَالدَّارُ الإِسْلَامُ، وَالبَيْتُ الجَنَّةُ، وَأَنْتَ يَا مُحَمَّدُ الرَّسُولُ، فَمَنْ أَجَابَكَ دَخَلَ الإِسْلَامَ، وَمَنْ دَخَلَ الإِسْلَامَ دَخَلَ الجَنَّةَ، وَمَنْ دَخَلَ الجَنَّةَ أَكَلَ مِنْهَا» رواه ابن جرير(١).

وقال قتادة: حدَّثني خُلَيْد العَصَري، عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ يَوْمٍ طَلَعَتْ فِيهِ شَمْسُهُ إِلَّا وَبِجَنْبَتَيْهَا(٢) مَلَكَانِ [يُنَادِيَانِ](٣) يَسْمَعُهُمَا خَلْقُ اللهِ كُلُّهُمْ إِلَّا الثَّقَلَيْنِ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، هَلُمُّوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ، إِنَّ مَا قَلَّ وَكَفَىٰ خَيْرٌ مِمَّا كَثُرَ وَأَلْهَىٰ». قال: وأنزل ذلك في القرآن في قوله(٤): ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ رواه ابن أبي حاتم، وابن جرير(٥).

﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ(٦) أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾﴾

يُخْبِرُ تعالىٰ أنَّ لمن أحسن العمل في الدنيا بالإيمان والعمل الصالح أنَّ لهم الحسنىٰ في الدار الآخرة، كما قال تعالىٰ: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن: ٦٠].

وقوله: ﴿وَزِيَادَةٌ﴾ هي تضعيف ثواب الأعمال بالحسنة عشر أمثالها إلىٰ سبعمائة ضعف، وزيادة علىٰ ذلك أيضًا، ويشمل ما يعطيهم الله في الجنان من القُصُور والحُور والرِّضا عنهم، وما أخفاه لهم مِن قرَّة أعينٍ، وأفضل من ذلك وأعلاه النظرُ إلىٰ وجهه الكريم، فإنَّه زيادة أعظم من جميع ما أعطوه، لا يستحقونها بعَمَلِهِم، بل بفضله ورحمته، وقد رُوِيَ تفسير الزِّيادة بالنَّظر إلىٰ وجه الله الكريم، عن أبي بكر الصديق(٧)، وحذيفة بن اليمان(٨)، وعبد الله بن عبَّاس(٩)(١٠)، وسعيد بن المسيب، وعبد الرحمن بن أبي ليلىٰ، وعبد الرحمن بن سابط، ومجاهد، وعكرمة، وعامر بن سعد، وعطاء، والضَّحَّاك، والحسن، وقتادة، والسُّدِّي، ومحمَّد بن إسحاق، وغيرهم من السلف والخلف.

وقد وردت في ذلك أحاديثُ كثيرةٌ عن رسول الله ﷺ، فمن ذلك ما رواه الإمام أحمد:

حدَّثنا عفَّان، أخبرنا حمَّاد بن سلمة، عن ثابت البُناني، عن عبد الرحمن بن أبي ليلىٰ، عن صهيب؛ أنَّ رسول الله ﷺ تلا هذه الآية: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ وقال: «إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الجَنَّةِ الجَنَّةَ، وَأَهْلُ النَّارِ النَّارَ، نَادَىٰ مُنَادٍ: يَا أَهْلَ الجَنَّةِ، إِنَّ لَكُمْ عِنْدَ اللهِ مَوْعِدًا يُرِيدُ أَنْ يُنْجِزَكُمُوهُ. فَيَقُولُونَ: وَمَا هُوَ؟ أَلَمْ

---

(١) انظر التخريج السابق. (٢) الجَنْبَة: الناحية. (٣) سقط من (ز).
(٤) في (ز): بعد هذه الكلمة: «يا أيها الناس هلموا إلىٰ ربكم». وهو تكرار.
(٥) صحيح: رواه ابن جرير (١١/ ١٠٤)، وابن حبان (٣٣٢٩). (٦) لوحة (٢٨٩أ).
(٧) صحيح: رواه الطبري (١١/ ١٠٤)، وعبد الله بن أحمد في «السنة» (٤٧١)، وصحَّحه الألباني في «ظلال الجنة» (٣١).
(٨) صحيح: رواه الطبري (١١/ ١٠٥)، وعبد الله ابن الإمام أحمد (١٧٣).
(٩) انظر: ابن أبي حاتم بعد إيراده الحديث (١٠٣٤١)، وعزاه السُّيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٣٥٨) إلىٰ ابن مردويه.
(١٠) ورد في بعض النُّسخ هنا زيادة: [قال البغوي: وأبو موسىٰ وعبادة بن الصامت]، والأقرب أنها مقحمةٌ، وإن كانت موافقةً لما في «تفسير البغوي» (٤/ ١٣٠).

يُثَقِّلْ مَوَازِينَنَا، وَيُبَيِّضْ وُجُوهَنَا، وَيُدْخِلْنَا الجَنَّةَ، وَيُزَحْزِحْنَا مِنَ النَّارِ؟». قال: «فَيَكْشِفُ لَهُمُ الحِجَابَ، فَيَنْظُرُونَ إِلَيْهِ، فَوَاللهِ مَا أَعْطَاهُمُ اللهُ شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَيْهِ، وَلَا أَقَرَّ لِأَعْيُنِهِمْ»(١).

وهكذا رواه مسلم وجماعة من الأئمَّة، من حديث حماد بن سلمة به.

وقال ابن جرير: أخبرنا يونس، أخبرنا ابن وهب، أخبرنا شبيب، عن أبان(٢)، عن أبي تَمِيمَة الهُجَيْمي؛ أنَّه سمع أبا موسىٰ الأشعري يحدث عن رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ يَبْعَثُ يَوْمَ القِيَامَةِ مُنَادِيًا يُنَادِي: يَا أَهْلَ الجَنَّةِ -بِصَوْتٍ يُسْمِعُ أَوَّلَهُمْ وَآخِرَهُمْ-: إِنَّ اللهَ وَعَدَكُمُ الحُسْنَىٰ وَزِيَادَةً، الحُسْنَىٰ: الجَنَّةُ. وَزِيَادَةٌ: النَّظَرُ إِلَىٰ وَجْهِ الرَّحْمَنِ ﷻ»(٣).

رواه أيضًا ابن أبي حاتم من حديث أبي بكرٍ الهذلي، عن أبي تميمة الهجيمي به.

وقال ابن جرير أيضًا: حدَّثنا ابن حميد، حدَّثنا(٤) إبراهيم بن المختار، عن ابن جُرَيْج، عن عطاء، عن كعب بن عُجْرة، عن النَّبيِّ ﷺ في قوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ قال: النَّظر إلىٰ وجه الرحمن ﷻ(٥).

وقال أيضًا: حدَّثنا ابن عبد الرحيم، حدَّثنا عمرو بن أبي سلمة، سمعت زهيرًا، عمَّن سَمِعَ أبا العالية، حدَّثنا أُبيُّ بن كعب: أنَّه سأل رسولَ الله ﷺ عن قول الله ﷻ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ قال: «الحُسْنَىٰ: الجَنَّةُ، وَالزِّيَادَةُ: النَّظَرُ إِلَىٰ وَجْهِ اللهِ ﷻ»(٦).

وورواه ابن أبي حاتم أيضًا من حديث زهير به.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ﴾ أي: قتام(٧) وسوادٌ في عَرَصات المحشر، كما يَعْتَري وجوه الكفرة الفجرة من القَتَرة والغَبرة، ﴿وَلَا ذِلَّةٌ﴾ أي: هوان وصغار؛ أي: لا يحصل لهم إهانةٌ في الباطن، ولا في الظَّاهر، بل هم كما قال تعالىٰ في حقهم: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ أي: نضرةً في وجوههم، وسرورًا في قلوبهم، جَعَلَنَا الله منهم بفضله ورحمته، آمين.

﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾﴾

(١) مسلم (١٨١)، والترمذي (٢٥٥٢)، وابن ماجة (١٨٧).

(٢) في (ز): «وأبان»، وهو خطأ، وما أثبتناه موافق للطبري.

(٣) ضعيف جدًا: رواه ابن جرير (١١/ ١٠٥)، والدارقطني في «الرؤية» (٣٩)، وفيه أبان بن أبي عياش، قال الحافظ: متروك الحديث، وعزاه المصنِّف لابن أبي حاتم، ولم أجده فيه، والإسناد الذي ذكره ضعيف أيضًا.

(٤) لوحة (٢٨٩ ب).

(٥) حسن لغيره: حديث كعب رواه ابن جرير (١١/ ١٠٧)، وفيه محمَّد بن حميد الرازي: قال عنه الحافظ في «التقريب»: حافظ ضعيف، وكان ابن معين حسن الرأي فيه، وعطاء الخراساني روايته عن كعب مرسلةٌ، ويشهد له حديث أُبيٍّ الآتي.

(٦) رواه ابن جرير (١١/ ١٠٧) وفيه جهالة الراوي عن أبي العالية، وبمجموع الروايتين فالحديث حسن، ويشهد له الآثار الواردة عن الصِّدِّيق وحذيفة وغيرهما، وهي آثارٌ صحيحةٌ، ومثلها لا يقال بالرأي، فهي في حكم المرفوع.

(٧) في (ز): «قتار».

لما أخبر تعالىٰ عن حالِ السُّعداء الذين يُضاعِف لهم الحسناتِ، ويَزْدَادُون علىٰ ذلك، عطف بذكر حال الأشقياء، فذكر عدله تعالىٰ فيهم، وأنَّه يجازيهم علىٰ السَّيِّئة بمثلها، لا يزيدهم علىٰ ذلك، ﴿وَتَرْهَقُهُمْ﴾ أي: تعتريهم وتعلُوهُم ذِلَّةٌ مِن معاصيهم وخوفهم منها، كما قال تعالىٰ: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ [الشورىٰ : ٤٥]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ﴾ [إبراهيم : ٤٢ -٤٤]، وقوله: ﴿مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ أي: من مانعٍ ولا واقٍ يَقِيهم العذاب، كما قال تعالىٰ: ﴿يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ﴾ [القيامة : ١٠ -١٢].

وقوله: ﴿كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا﴾ إخبارٌ عن سواد وجوههم في الدَّار الآخرةِ، كما قال تعالىٰ: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا ٱلْعَذَابَ(١) بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [آل عمران : ١٠٦ ، ١٠٧]، وكما قال تعالىٰ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ﴾ [عبس : ٣٨ -٤٢].

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ ۚ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ۖ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ ۚ وَرُدُّوٓا إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾﴾

يقول تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ﴾ أي: أهل الأرض كلهم، مِن إنسٍ وجنٍّ وبرٍّ وفاجرٍ، كما قال: ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف : ٤٧].

﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ﴾ أي: الزموا أنتم وهُم مكانًا معينًا، امتازوا فيه عَن مقام المُؤمنين، كما قال تعالىٰ: ﴿وَٱمْتَٰزُوا ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [يس : ٥٩]، وقال: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾ [الروم : ١٤]، وفي الآية الأخرىٰ: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ [الروم : ٤٣] أي: يَصِيرُون صِدْعَيْن(٢)، وهذا يكون إذا جاء الرَّبُّ تعالىٰ لفصل القَضَاء؛ ولهذا قيل: ذلك(٣) يَسْتَشفع المؤمنون إلىٰ الله -تعالىٰ- أن يأتي لفصل القضاء، ويُريحنا مِن مقامنا هذا، وفي الحديث الآخر: «نَحْنُ يَوْمَ القِيَامَةِ عَلَىٰ كَوْمٍ(٤) فَوْقَ النَّاسِ»(٥).

---

(١) لوحة (٢٩٠ أ).
(٢) الصِّدْع: الفرقة؛ أي: يصيرون فرقتين.
(٣) يوجد بياض في (ز) قدر كلمة بعد هذه الكلمة.
(٤) الكَوْم -واحدها: كومة-: المواضع المشرفة العالية.
(٥) صحيح: رواه أحمد (٣/ ٣٤٥)، ومسلم (١٩١) موقوفًا عن جابر، وهو في حكم المرفوع، وقد سبق تخريجه وبيان شواهده. انظر سورة البقرة الآية (١٤٣).

وقال الله -تعالىٰ- في هذه الآية الكريمة إخبارًا عمَّا يأمر به المشركين وأوثانهم يوم القيامة: ﴿مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾ أنكروا عبادتهم، وتبرَّءُوا منهم، كما قال تعالىٰ: ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ الآية. [مريم : ٨٢]. وقال: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾ [البقرة : ١٦٦]، وقال: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الأحقاف : ٥ ، ٦].

وقال في هذه الآية إخبارًا عن قول الشُّركاء فيما راجعوا فيه عابديهم عند ادِّعَائِهِم عبادتهم: ﴿فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ﴾ أي: ما كنا نشعر بها ولا نعلم، وإنَّما أنتم كنتم تعبدوننا من حيث لا نَدْرِي بكم، والله شهيدٌ بيننا وبينكم أنَّا ما دعوناكم إلىٰ عبادتنا، ولا أمرناكم بها، ولا رَضِينا منكم بذلك.

وفي هذا تبكيتٌ عظيمٌ للمشركين الذين عبدوا مع الله غيره[١]، ممَّن لا يسمع ولا يُبْصِر، ولا يُغْنِي عنهم شيئًا، ولم يأمرهم بذلك، ولا رَضِيَ به، ولا أراده، بل تبرَّأ منهم [في][٢] وقتِ أحوج ما يكونون إليه، وقد تركوا عبادةَ الحيِّ القيُّوم، السَّميع البصير، القادر علىٰ كلِّ شيءٍ، العليم بكلِّ شيءٍ وقد أرسل رسله وأنزل كتبه؛ آمرًا بعبادته وحده لا شريك له، ناهيًا عن عبادة ما سواه، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ [النحل : ٣٦]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء : ٢٥]، وقال: ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف : ٤٥].

والمشركون أنواعٌ وأقسامٌ كثيرون، قد ذكرهم الله في كتابه، وبيَّن أحوالهم وأقوالهم، وردَّ عليهم فيما هم فيه أتمَّ ردٍّ.

وقوله: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ﴾ أي: في موقفِ الحساب يوم القيامة تُخْتبَرُ كل نفسٍ، وتعلم ما أسلفت مِن [عملها من][٣] خيرٍ وشرٍّ، كما قال تعالىٰ: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ [الطارق : ٩]، وقال تعالىٰ: ﴿يُنَبَّأُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة : ١٣]، وقال تعالىٰ: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ۝١٣ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء : ١٣ ، ١٤].

وقد قرأ بعضهم: ﴿هُنَالِكَ تَتْلُو[٤] كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ﴾ وفسَّرها بعضهم بالقراءة، وفسَّرها بعضهم بمعنىٰ تتبع ما قدمته من خيرٍ وشرٍّ، وفسَّرها بعضهم بحديث: «تَتْبَعُ كُلُّ أُمَّةٍ مَا كَانَتْ تَعْبُدُ،

---

(١) لوحة (٢٩٠ ب). (٢) سقط من (ز). (٣) سقط من (ز).

(٤) متواترة: قرأ (تَتْلُو) حمزةُ والكِسائِيُّ وخلفٌ (في اختيارِه) ووافقهُمُ الأعمشُ، وقرأ الباقُونَ (تَبْلُو).

فَيَتْبَعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الشَّمسَ الشَّمْسَ، وَيَتْبَعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ القَمَرَ القَمَرَ، وَيَتْبَعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الطَّوَاغِيتَ الطَّوَاغِيتَ» الحديث(١).

وقوله: ﴿وَرُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ أي: ورجعت الأمور كلها إلىٰ الله الحكم العدل، ففصلها، وأدخل أهل الجنَّة الجنَّة، وأهل النَّار النَّار.

﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾ أي: ذهب عن المشركين ﴿مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ أي: ما كانوا يعبدون من دون الله افتراءً عليه.

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾﴾

يَحْتَجُّ تعالىٰ علىٰ المشركين باعترافهم بوحدانيَّته وربوبيَّته علىٰ وحدانيَّة الإلهيَّة(٢) فقال: ﴿قُلْ مَن(٣) يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: من [ذا](٤) الَّذي ينزل من السَّماء ماء [المطر](٥) فيشق الأرض شقًّا بقدرتِهِ ومشيئته، فيخرج منها ﴿حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا﴾ [عبس: ٢٧-٣١]، أَإِلَهٌ مع الله؟ فسيقولون: الله، ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ﴾ [الملك: ٢١]، وكذلك قوله: ﴿أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾ [يونس: ٣١] أي: الذي وهَبَكُم هذه القوَّة السَّامعة، والقوَّة الباصرة، ولو شاء لذهب بها ولسلبكم إيَّاها، كما قال تعالىٰ: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الملك: ٢٣]، وقال: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ﴾ [الأنعام: ٤٦].

[وقوله](٦): ﴿وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ أي: بقدرته العظيمة، ومِنَّته العميمة، وقد تقدَّم ذكر الخلاف في ذلك، وأنَّ الآية عامَّةٌ في ذلك كله.

وقوله: ﴿وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ أي: من بيده ملكوت كلِّ شيءٍ وهو يُجيرُ ولا يُجارُ عليه، وهو المتصرِّف الحاكم الَّذي لا مُعقِّب لحكمه، ولا يُسأل عمَّا يفعل وهم يُسْأَلون، ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩]، فالملك كله العلوي والسفلي، وما فيهما مِن ملائكة وإنسٍ وجانٍّ، فقيرون إليه، عبيد له، خاضعون لديه، ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾ أي: هُم يعلمون ذلك ويعترفون به، ﴿فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أي: أفلا تخافون منه أن تَعبُدُوا معه غيره بآرائِكُم وجهلكم؟.

---

(١) طرف من حديث طويل، رواه البخاري (٨٠٦)، ومسلم (١٨٢)، والنسائي (٢/ ٢٢٩)، وابن ماجة (٤٣٢٦).
(٢) في بعض النسخ «الإله».
(٣) لوحة (٢٩١ أ).
(٤) سقط من (ز).
(٥) سقط من (ز).
(٦) سقط من (ز).

وقوله: ﴿ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾ أي: فهذا الذي اعترفتم بأنَّه فاعل ذلك كله هو ربكم وإلهكم الحق الَّذي يستحِقُّ أن يفرد بالعبادة، ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ أي: فكل معبودٍ سواه باطلٌ، لا إله إلا هو، واحدٌ لا شريك له.

﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾ أي: فكيف تُصرَفونَ عن عِبادَتِهِ إلىٰ عبادة ما سواه، وأنتم تعلمون أنَّه الرَّبُّ الذي خلق كل شيءٍ، والمتصرِّف في كل شيءٍ؟

وقوله: ﴿ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ أي: كما كفر هؤلاء المشركون واستمروا علىٰ شركهم وعبادتهم مَعَ الله غيرَهُ، مع أنَّهم يعترفون بأنَّه الخالق الرَّازق المتصرِّف في الملك وحده، الذي بعث رسله بتوحيده؛ فلهذا حقَّت عليهم كلمة الله أنَّهم أشقياء مِن ساكني النَّار، [كقوله:] (١) ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الزمر: ٧١].

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم (٢) مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾

وهذا إبطالٌ لدعواهم فيما أشركوا بالله غيره، وعبدوا من الأصنام والأنداد، ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ أي: مَن بدأ خلق هذه السموات والأرض، ثمَّ ينشئ ما فيهما من الخلائق، ويفرق أجرام السموات والأرض ويبدلهما [بفناء ما فيهما] (٣)، ثم يعيد الخلق خلقًا جديدًا؟ ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ هو الذي يفعل هذا، ويستقِلُّ به وحده لا شريك له، ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ أي: فكيف تصرفون عن طريق الرُّشد إلىٰ الباطل؟!

﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ﴾ أي: أنتم تعلمون أن شركاءكم لا تقدر علىٰ هدايةِ ضالٍّ، وإنَّما يهدي الحيارىٰ والضُّلَّال، ويقلب القلوب من الغي إلىٰ الرشد - الله الذي لا إله إلا هو.

﴿أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ﴾ أي: أفيُتَّبَع [العبد الذي يهدي إلىٰ الحق، ويُبَصِّر بعد العمىٰ، أم الذي لا يَهْدِي إلىٰ شيءٍ إلا] (٤) أن يُهْدَىٰ لعماه وبُكْمِهِ؟ كما قال تعالىٰ إخبارًا عن إبراهيم أنَّه قال: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٤٢]، وقال لقومه: ﴿ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الصافات: ٩٥، ٩٦] إلىٰ غير ذلك من الآيات.

---

(١) سقط من (ز).
(٢) لوحة (٢٩١ ب).
(٣) سقط من (ز).
(٤) سقط من (ز).

وقوله: ﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ أي: فما لكم أنَّي يُذْهَبُ بعقولكم، كيف سَوَّيْتُم بين الله وبين خَلقه، وعدلتم هذا بهذا، وعبدتم هذا وهذا؟ وهلَّا أفردتم الرَّبَّ -جَلَّ جلاله- المالك الحاكم الهادي من الضَّلالة بالعبادة وحدَهُ، وأخلصتم إليه الدَّعوة والإنابة.

ثم بيَّن تعالىٰ أنَّهم لا يَتَّبِعُون في دينهم هذا دليلًا ولا برهانًا، وإنَّما هو ظنٌّ منهم(١)؛ أي: توهُّم وتخيُّل، وذلك لا يغني عنهم شيئًا. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ تهديدٌ لهم، ووعيدٌ شديدٌ؛ لأنَّه تعالىٰ أخبر أنَّه سيُجَازِيهم علىٰ ذلك أتمَّ الجزاء.

﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٣٩﴾ وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِ ۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾﴾

هذا بيانٌ لإعجاز القرآن، وأنه لا يستطيع البشر أن يأتوا بمِثْلِهِ، ولا بعشرِ سورٍ(٢)، ولا بسورةٍ مِن مثله؛ لأنَّه بفصاحته وبلاغته، ووَجازته وحَلاوته، واشتماله علىٰ المعاني العزيزة النَّافعة في الدنيا والآخرة، لا يكون إلا من عند الله الذي لا يشبهه شيءٌ في ذاته ولا صفاته، ولا في أفعاله وأقواله، فكلامه لا يشبه كلام المخلوقين؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أي: مثل هذا القرآن لا يكون إلا من عند الله، ولا يشبه هذا كلام البشر، ﴿وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي: من الكتب المتقدمة، ومهيمنًا عليها، ومبينًا لما وقع فيها من التَّحريف والتَّأويل والتَّبديل.

وقوله: ﴿وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: وبيان الأحكام، والحلال والحرام، بيانًا شافيًا كافيًا حقًّا، لا مرية فيه من الله ربِّ العالمين، كما تقدَّم في حديث الحارث الأعور، عن علي بن أبي طالب: فيه خَبرُ ما قبلكم، ونبأُ ما بعدكم، وفصل ما بينكم؛ أي: خَبر عما سلف وعما سيأتي، وحكم فيما بين النَّاس بالشَّرع الذي يُحِبُّه الله ويرضاه.

وقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي: إن ادَّعيْتُم وافتريْتُم وشككتم في أنَّ هذا مِن عند الله، وقلتم كذبًا ومَيْنًا: إنَّ هذا مِن عند محمَّدٍ، فمحمَّدٌ بشرٌ

(١) قال الشيخ أبو بكر الجزائري حَفِظَهُ اللهُ: الظن يطلق علىٰ مراتب الإدراك، فيطلق علىٰ الاعتقاد الجازم الذي لا شك فيه كقوله تعالىٰ: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ﴾، ويطلق علىٰ الاعتقاد المشكوك فيه كقول قوم نوح لنوح: ﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾، ويطلق علىٰ الاعتقاد المخطئ، كآية: ﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾، وحديث: «فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ».

(٢) لوحة (٢٩٢ أ).

مثلكم، وقد جاءَ فيما زعمتم بهذا القرآن، فأتوا أنتم بسورةٍ مثله؛ أي: مِن جنس القرآن، واستعينوا علىٰ ذلك بكلِّ مَن قَدرتم عليه من إنسٍ وجانٍّ.

وهذا هو المقام الثالث في التَّحدِّي، فإنَّه تعالىٰ تحدَّاهم ودعاهم، إن كانوا صادقين في دعواهم أنَّه مِن عند محمَّدٍ، فلتعارضوه بنظير ما جاء به وحده، واستعينوا بمَن شئتم، وأخبر أنَّهم لا يقدرون علىٰ ذلك، ولا سَبيل لهم إليه، فقال تعالىٰ: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨]، ثمَّ تقاصر معهم إلىٰ عشر سور منه، فقال في أول سورة هود: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [هود: ١٣]، ثمَّ تنازل إلىٰ سورة، فقال في هذه السورة: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾، وكذا في سورة البقرة -وهي مدنية- تحدَّاهم بسورةٍ منه، وأخبر أنَّهم لا يستطيعون ذلك أبدًا، فقال: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ﴾ الآية: [البقرة: ٢٤].

هذا، وقد كانت الفصاحة من سجاياهم، وأشعارهم ومعلَّقاتهم إليها المنتهىٰ[(١)] في هذا الباب، ولكن جاءهم مِن الله ما لا قِبَلَ لأحدٍ به، ولهذا آمَن مَن آمَنَ منهم بما عرف من بلاغةِ [هذا الكلام وحلاوتِهِ، وجزالتِهِ وطلاوتِهِ، وإفادتِهِ وبراعتِهِ][(٢)] فكانوا أعلم النَّاس به، وأفهمهم له، وأتبعهم له، وأشدهم له انقيادًا، كما عرف السَّحرة -لعلمهم بفنون السِّحر- أنَّ هذا الذي فعله موسىٰ عليه السلام لا يصدر إلا عن مُؤيَّدٍ مُسَدَّدٍ مرسلٍ من الله، وأنَّ هذا لا يستطاع لبشر إلا بإذن الله.

وكذلك عيسىٰ عليه السلام بُعِث في زمان علماء الطِّبِّ ومعالجة المرضىٰ، فكان يبرئ الأكمه والأبرص، ويحيي الموتىٰ بإذن الله، ومثل هذا لا مدخل للعلاج والدَّواء فيه، فعرف من عرف منهم أنَّه عبد الله ورسوله؛ ولهذا جاء في «الصحيح»، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**مَا مِنْ نَبِيٍّ مِنَ الأَنْبِيَاءِ إِلَّا وَقَدْ أُوتِيَ مِنَ الآيَاتِ مَا آمَنَ عَلَىٰ مِثْلِهِ البَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُهُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا**»[(٣)].

وقوله: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾ يقول: بل كذب هؤلاء بالقرآن، ولم يفهموه ولا عرفوه، ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾ أي: ولم يُحصِّلوا ما فيه من الهدىٰ ودين الحق إلىٰ حين تكذيبهم به جهلًا وسفهًا ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: من الأمم السَّالفة ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: فانظر كيف أهلكناهم بتكذيبهم رسلنا ظلمًا وعلوًّا، وكفرًا وعنادًا وجهلًا؛ فاحذروا أيها

---

(١) لوحة (٢٩٢ ب). (٢) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

(٣) البخاري (٤٩٨١)، ومسلم (١٥٢).

المكذِّبون أن يصيبكم ما أصابهم.

وقوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾ أي: ومن هؤلاء الَّذين بُعثتَ إليهم -يا محمَّد- من يؤمن بهذا القرآن، ويتَّبعك وينتفع بما أرسلت به، ﴿وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ بل يموت على ذلك ويبعث عليه، ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾ أي: وهو أعلم بمَن يستحق الهداية فيهديه، ومَن يستحق الضَّلالة فيضله، وهو العادل الذي لا يجور، بل يعطي كلًّا ما يستحقه، تبارك وتعالىٰ وتقدَّس وتنزَّه، لا إله إلا هو.

﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِي ٱلْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾

يقول تعالىٰ لنبيِّه ﷺ: وإن كذبك هؤلاء المُشرِكُون، فتبرَّأ منهم ومِن عملهم، ﴿فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾، كقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ [1] يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [سورة الكافرون]، وقال إبراهيم الخليل وأتباعه لقومهم المشركين: ﴿إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: ٤].

وقوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ أي: يسمعون كلامك الحسن، والقرآن العظيم، والأحاديث الصحيحة الفصيحة النَّافعة في القلوب والأبدان والأديان، وفي هذا كفايةٌ عظيمةٌ، ولكن ليس ذلك إليك ولا إليهم، فإنَّك لا تقدر علىٰ إسماع الأصم -وهو الأطرش- فكذلك لا تقدر علىٰ هداية هؤلاء، إلَّا أن يشاء الله.

[﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ﴾][2] أي: ينظرون إليك وإلىٰ ما أعطاك الله من التُّؤَدَة، والسَّمت الحسن، والخلق العظيم، والدَّلالة الظَّاهرة علىٰ نبوءَتِكَ لأولي البصائر والنُّهىٰ، وهؤلاء ينظرون كما ينظر غيرهم، ولا يحصل لهم مِن الهداية شيءٌ مما يحصل لغيرهم، بل المؤمنون ينظرون إليك بعين الوَقار، والكافرون ينظرُون إليك بعين الاحتقار، ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِي بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ

---

(١) لوحة (٢٩٣ أ).

(٢) سقط من (ز).

يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان: ٤١، ٤٢].

ثمَّ أخبر تعالىٰ أنَّه لا يظلم أحدًا شيئًا، وإن كان قد هَدَىٰ به من هَدَىٰ من الغيِّ وبصَّر به من العمىٰ، وفتح به أعينًا عميًا، وآذانًا صمًّا، وقلوبًا غلفًا، وأضل به عن الإيمان آخرين، فهو الحاكم المتصرِّف في ملكه بما يشاء، الذي لا يُسْأل عمَّا يفعل وهم يسألون؛ لعِلْمِهِ وحِكْمَتِهِ وعَدْلِهِ؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾، وفي الحديث عن أبي ذرٍّ عن النَّبيِّ ﷺ، فيما يرويه عن ربه ﷻ: «يَا عِبَادِي، إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَىٰ نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلَا تَظَالَمُوا -إلىٰ أن قال في آخره-: يَا عِبَادِي، إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ» رواه مسلم بطوله(١).

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ۚ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾

يقول تعالىٰ مُذكِّرًا للنَّاس قيام الساعة، وحشرهم مِن أجداثهم إلىٰ عَرَصات القيامة: كأنَّهم يوم يوافونها لم يلبثوا في الدنيا ﴿إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ ﴾ [كقوله: ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ﴾](٢)، وكما قال تعالىٰ: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا(٣) لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ [النازعات: ٤٦]، وقال تعالىٰ: ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴾ [طه: ١٠٢ -١٠٤]، وقال تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الروم: ٥٥، ٥٦].

وهذا كلُّه دليلٌ علىٰ استقصار الحياة الدُّنيا في الدَّار الآخرة، كما قال تعالىٰ: ﴿ قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [المؤمنون: ١١٢، ١١٤].

وقوله: ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ﴾ أي: يعرف الأبناء الآباء والقرابات بعضهم لبعض، كما كانوا في الدنيا، ولكن كلٌّ مشغولٌ بنفسه ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٠١]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ يُبَصَّرُونَهُمْ ۚ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴾ [المعارج: ١٠، ١٥].

---

(١) مسلم (٢٥٧٧)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٤٩٠)، والحاكم (٤/ ٢٤١)، ورواه الترمذي (٢٤٩٥)، وابن ماجة (٤٢٥٧).
(٢) سقط من (ز). (٣) لوحة (٢٩٣ ب).

وقوله: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ كقوله تعالىٰ: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات : ١٥]؛ لأنَّهم خَسِرُوا أنفسهم وأهليهم يوم القِيامَةِ، ألا ذلك هو الخسران المبين. فهذه هي الخسارة العظيمة، [ولا خسارة أعظم مِن خَسارة] [١] مَنْ فُرِّق بينه وبين أَحِبَّتِهِ [٢] يوم الحسرة والنَّدامة.

﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾﴾

يقول تعالىٰ مخاطبًا لرسوله ﷺ: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ﴾ أي: ننتقم [منهم] [٣] في حياتك لتقرَّ عينُك منهم، ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ أي: مصيرهم ومتقلَّبهم، والله شهيدٌ علىٰ أفعالهم بعدك.

وقد قال الطبراني: حدَّثنا عبد الله بن أحمد، حدَّثنا عقبة بن مكرم، حدَّثنا أبو بكر الحنفي، حدَّثنا داود بن الجارود، عن أبي الطفيل [٤]، عن حذيفة بن أسيد، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**عُرِضَتْ عَلَيَّ أُمَّتِي البَارِحَةَ لَدَىٰ هَذِهِ الحُجْرَةِ، أَوَّلُهَا وَآخِرُهَا**». فقال رجلٌ: يا رسول الله، عُرِضَ عليك مَن خُلِق، فكيف من لم يُخْلَق؟ فقال: «**صُوِّرُوا لِي فِي الطِّينِ، حَتَّىٰ إِنِّي لَأَعْرِفُ بِالإِنْسَانِ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدِكُمْ بِصَاحِبِهِ**» [٥].

ورواه عن محمَّد بن عثمان [٦] بن أبي شيبة، عن عقبة بن مكرم، عن يونس بن بُكَيْر، عن زياد بن المنذر، عن أبي الطفيل، عن حذيفة بن أسيد به نحوه [٧].

وقوله: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ﴾ قال مجاهد: يعني يوم القيامة.

﴿قُضِىَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ كما قال تعالىٰ: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِالنَّبِيِّۦنَ وَالشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الزمر : ٦٩]، فكل أمة تُعْرَض علىٰ الله بحَضْرَةِ رسولها، وكتابُ أعمالها مِن خيرٍ وشرٍّ موضوعٌ شاهدٌ عليهم، وحَفَظَتُهُمْ من الملائكة شهودٌ أيضًا أمَّة بعد أمة. وهذه الأمة الشريفة وإن كانت آخر الأُمَمِ في الخلق، إلا أنَّها أوَّل الأمم يوم القيامة يفصل بينهم، ويقضىٰ لهم، كما جاء في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «**نَحْنُ الآخِرُونَ السَّابِقُونَ**

---

(١) سقط من (ز). (٢) في (ز): «أخيه». (٣) سقط من (ز).

(٤) في (ز): «أبي السليل»، وهو خطأ وتحريف، والصَّواب ما أثبتناه كما عند الطبراني في «الكبير».

(٥) موضوع: رواه الطَّبراني (٣/ ١٨١/ ٣٠٥٤، ٣٠٥٥)، وفي «الصغير» (٥٤٢٢)، وابن الأعرابي في «معجمه» (١٨٢٠)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٦٩): «وفيه زياد بن المنذر، وهو كذاب»، وقال الحافظ في «التقريب» في ترجمة زياد: رافضيٌّ كذَّبَهُ يحيىٰ بن معين، ويبدو أنَّه وقع تصحيفٌ في رواية الطَّبراني فكتب داود بن الجارود، ولكن الصواب: أبو الجارود؛ وهي كنية زياد بن المنذر؛ ولذلك ضعَّفه الهيثمي به، ولم يتعرَّض في الرواية الثَّانية لداود بن الجارود، وظنِّي بذلك أنَّه نفس الراوي زياد بن المنذر أبو الجارود. والله أعلم.

(٦) لوحة (٢٩٤ أ). (٧) انظر التعليق السابق.

يَوْمَ القِيَامَةِ، المَقْضِيُّ لَهُمْ قَبْلَ الخَلَائِقِ»(١) فَأُمَّتُهُ إنما حازت قَصَب السَّبق لشرف رسولها، صلوات الله وسلامه عليه دائمًا إلىٰ يوم الدين.

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۝٤٨ قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۚ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ۝٤٩ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ۝٥٠ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنتُم بِهِ ۚ آلْآنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ۝٥١ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ۝٥٢ ﴾

يقول تعالىٰ مخبرًا عن كفر هؤلاء المشركين في استعجالهم العذاب وسؤالهم عَن وقته قبل التَّعيُّن، ممَّا لا فائدة فيه لهم كما قال تعالىٰ: ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ ﴾ [الشورىٰ : ١٨] أي: كائنةٌ لا محالة وواقعةٌ، وإن لم يعلموا وقتها عينًا، ولهذا أرشَدَ رسوله ﷺ إلىٰ جوابهم فقال: ﴿ قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾ أي: لا أقول إلا ما علَّمني، ولا أقدر علىٰ شيءٍ ممَّا استأثر به إلا أن يُطْلِعَني عليه، فأنا عبده ورسوله إليكم، وقد أخبرتكم بمجيءِ السَّاعة، وأنَّها كائنةٌ، ولم يُطلِعْني علىٰ وقتها، [ولكن](٢) ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ﴾ أي: لكلِّ قرنٍ مدَّةٌ من العمر مقدَّرةٌ، فإذا انقضىٰ أجلهم ﴿فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا ﴾ [المنافقون : ١١]، ثم أخبرهم أن عذاب الله سيأتيهم بغتةً، فقال: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ(٣) إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا ﴾ أي: ليلًا ﴿أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ۝٥٠ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنتُم بِهِ(٤)﴾ يعني: أنهم إذا جاءهم العذاب قالوا: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة : ١٢]، وقال تعالىٰ: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ۝٨٤ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴾ [غافر : ٨٤، ٨٥].

﴿ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ﴾ أي: يوم القِيامَة يقال لهم هذا، تبكيتًا وتقريعًا، كقوله: ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ۝١٣ هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝١٤ أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ لَا

---

(١) رواه مسلم (٨٥٦) بهذا اللفظ من حديث حذيفة ﵁، وهو عند البخاري (٨٧٦) بنحوه من حديث أبي هريرة ﵁.

(٢) سقط من (ز).

(٣) قال الإمام القاسمي ﵀: (أرأيت) يستعمل بمعنىٰ الاستفهام عن الرؤية البصرية أو العلمية، وهو أصل وضعه، ثم استعملوه بمعنىٰ (أخبرني)، والرؤية فيه يجوز أن تكون بصريةً وعلميةً، فالتقدير: أأبصرت حالته العجيبة، أو أعرفتها؟ فأخبرني عنها؛ ولذا لم يستعمل في غير الأمر العجيب. ولما كانت رؤية الشيء سببًا لمعرفته، ومعرفته سببًا للإخبار عنه، أطلق السبب القريب أو البعيد، وأريد مسببه، وهل هو بطريق التجوز كما ذهب إليه كثير، أو التضمين كما ذهب إليه أبو حيان - كذا في «العناية».

(٤) لوحة (٢٩٤ ب).

نُّبۡصِرُونَ ﴿١٥﴾ ٱصۡلَوۡهَا فَٱصۡبِرُوٓاْ أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [الطور: ١٣ -١٦].

﴿وَيَسۡتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَۖ قُلۡ إِي وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقّٞۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ﴿٥٣﴾ وَلَوۡ أَنَّ لِكُلِّ نَفۡسٖ ظَلَمَتۡ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ لَٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَۖ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿٥٤﴾﴾

يقول تعالىٰ: ويستخبرونك ﴿أَحَقٌّ هُوَ﴾ أي: المعاد والقيامة من الأجداث بعد صيرورةِ الأجسام ترابًا. ﴿قُلۡ إِي وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقّٞۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ﴾ أي: ليس صيرورتكم ترابًا بمعجز الله عن إعادتكم كما بدأكم مِنَ العدم ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ[1] إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

وهذه الآية ليس لها نظير في القرآن إلا آيتان أخريان، يأمر الله -تعالىٰ- رسوله أن يقسم به علىٰ مَن أنكر المعاد في سورة سبأ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ﴾ [سبأ: ٣]. وفي التغابن: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ [التغابن: ٧].

ثم أخبر تعالىٰ أنَّه إذا قامت القيامة يودُّ الكافر لو افتدىٰ من عذاب الله بملءِ الأرض ذهبًا، ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَۖ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِ﴾ أي: بالحق، ﴿وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾.

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٥٦﴾﴾

يخبر تعالىٰ أنَّه مالك السَّموات والأرض، وأنَّ وعده حقٌّ كائنٌ لا محالة، وأنَّه يحيي ويميت وإليه مرجعهم، وأنَّه القادر علىٰ ذلك، العليم بما تفرَّق من الأجسام، وتمزَّق في سائر أقطار الأرض والبحار والقفار [سبحانه وتعالىٰ تقدَّست أسماؤه وجلَّ ثناؤه][2].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ[3] وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾

يقول تعالىٰ ممتنًّا علىٰ خلقه بما أنزل إليهم من القرآن العظيم علىٰ رسوله الكريم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ أي: زاجر عن الفواحش، ﴿وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾ أي: من الشُّبه والشكوك، وهو إزالةُ ما فيها مِن رجسٍ ودَنَسٍ، ﴿وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ﴾ أي: محصلٌ لها الهداية والرَّحمة من الله تعالىٰ. وإنَّما ذلك للمُؤمنين به، والمصدِّقين الموقنين بما فيه، كما قال تعالىٰ: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارٗا﴾ [الإسراء: ٨٢]، وقال تعالىٰ: ﴿قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ

---

(١) في (ز): «قوله»، وهو خطأ.
(٢) سقط من (ز).
(٣) لوحة (٢٩٥ أ).

هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤].

وقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ أي: بهذا الذي جاءهم من الله مِن الهُدَىٰ ودين الحق فليفرحوا، فإنَّه أولىٰ ما يفرحون به، [﴿هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾] (١) أي: من حطام الدُّنيا، وما فيها من الزَّهرة الفانية الذَّاهبة لا محالة (٢)، كما قال ابن أبي حاتم، في تفسير هذه الآية: وذُكِر عن بَقيَّة -يعني ابن الوليد- عن صفوان بن عمرو، سمعت أيفع بن عبد الكلاعي يقول: لما قُدِّم خراجُ العراق إلىٰ عمر رضي الله عنه خرج عُمَرُ ومولىً له، فجعل عمرُ يعدُّ الإبل، فإذا هي أكثر من ذلك، فجعل عمر يقول: الحمد لله تعالىٰ، ويقول مولاه: هذا واللهِ مِن فضل الله ورحمتِهِ. فقال عمر: كذبت. ليس هذا، هو الذي يقول الله تعالىٰ: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾، وهذا مما يجمعون (٣).

وقد أسنده الحافظ أبو القاسم الطبراني، فرواه عن أبي زُرْعَة الدمشقي، عن حَيوة بن شُرَيح، عن بقية فذكره.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ (٤) ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾﴾

قال ابن عبَّاس، ومجاهد، والضَّحَّاك، وقتادة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: نزلت إنكارًا علىٰ المشركين فيما كانوا يُحَرِّمون ويُحِلُّون من البحائر والسَّوائب والوصايا، كقوله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا

---

(١) سقط من (ز).

(٢) قال الإمام السعدي رحمه الله: فالهدىٰ هو العلم بالحق والعمل به، والرحمة هي ما يحصل من الخير والإحسان، والثواب العاجل والآجل، لمن اهتـدىٰ به، فالهدىٰ أَجَلُّ الوسائل، والرحمة أكمل المقاصد والرغائب، ولكن لا يهتدي به، ولا يكون رحمةً إلا في حق المؤمنين.

وإذا حصل الهدىٰ، وحلت الرحمة الناشئة عنه، حصلت السعادة والفلاح، والربح والنجاح، والفرح والسرور؛ ولذلك أمر تعالىٰ بالفرح بذلك فقال: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ﴾ الذي هو القرآن، الذي هو أعظم نعمة ومنة، وفضل تفضل الله به علىٰ عباده ﴿وَبِرَحْمَتِهِۦ﴾ الدين والإيمان، وعبادة الله ومحبته ومعرفته. ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ من متاع الدنيا ولذاتها.

(٣) ضعيف: رواه ابن أبي حاتم (٦/ ١٠٤٣٥)، وفيه بقيَّة بن الوليد: يُدَلِّس ويُسَوِّي، وقد عنعن؛ فالإسناد ضعيف. الأثر عزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٣٦٨) إلىٰ الطبراني أيضًا.

(٤) قال الإمام الشوكاني رحمه الله: وفي هذه الآية الشريفة ما يصكّ مسامع المتصدرين للإفتاء لعباد الله في شريعته بالتحليل والتحريم والجواز وعدمه، مع كونهم من المقلدين الذين لا يعقلون حجج الله، ولا يفهمونها ولا يدرون ما هي، ومبلغهم من العلم الحكاية لقول قائل من هذه الأمة قد قلدوه في دينهم، وجعلوه شارعًا مستقلًا، ما عمل به من الكتاب والسنة فهو المعمول به عندهم.

ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا﴾ [الأنعام: ١٣٦] الآيات.

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا محمَّد بن جعفر، حدَّثنا شعبة، عن أبي إسحاق، سمعت أبا الأحوص - وهو عوف بن [مالك بن][١] نضلة- يحدث عن أبيه قال: أتيت رسول الله ﷺ وأنا قَشْف الهيئة[٢]، فقال: «**هَلْ لَكَ مَالٌ؟**» قال: قلت: نعم. قال: «**مِنْ أَيِّ المَالِ؟**» قال: قلت: مِن كلِّ المال، من الإبل والرقيق والخيل والغنم[٣]. فقال: «**إِذَا آتَاكَ اللهُ[٤] مَالًا فَلْيُرَ عَلَيْكَ**». وقال: «**هَلْ تُنْتَجُ إِبِلُ قَوْمِكَ صِحَاحًا آذَانُهَا، فَتَعْمِدُ إِلَىٰ مُوسَىٰ فَتَقْطَعُ آذَانَهَا، فَتَقُولُ: هَٰذِهِ بَحْرٌ وَتَشُقُّهَا، أَوْ تَشُقُّ جُلُودَهَا وَتَقُولُ: هَٰذِهِ صُرُمٌ[٥]، وَتُحَرِّمُهَا عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أَهْلِكَ؟**» قال: نعم. قال: «**فَإِنَّ مَا آتَاكَ اللهُ لَكَ حِلٌّ، وَسَاعِدُ اللهِ أَشَدُّ مِنْ سَاعِدِكَ، وَمُوسَىٰ اللهِ أَحَدُّ مِنْ مُوسَاكَ**» وذكر تمام الحديث[٦].

ثمَّ رواه عن سفيان بن عيينة، عن أبي الزعراء عمرو بن عمرو، عن عمه أبي الأحوص، وعن بَهْز بن أسد، عن حماد بن سلمة، عن عبد الملك بن عمير، عن أبي الأحوص به، وهذا حديثٌ جيدٌ قوي الإسناد.

وقد أنكر الله -تعالىٰ- علىٰ من حَرَّم ما أحل الله، أو أحلَّ ما حرَّم بمجرد الآراء والأهواء، الَّتِي لا مستند لها، ولا دليل عليها، ثم توعَّدهُم علىٰ ذلك يوم القيامة، فقال: ﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي: ما ظنهم أن يُصنع بهم يوم مرجعهم إلينا يوم القيامة.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ قال ابن جرير: في تَرْكِهِ معاجلتهم بالعقوبة في الدُّنيا.

قلت: ويحتمل أن يكون المراد: لذو فضل علىٰ النَّاس فيما أباح لهم ممَّا خلقه من المنافع في الدُّنيا، ولم يحرم عليهم إلا ما هو ضارٌّ لهم في دُنْيَاهُم أو دِينِهِم.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ بل يحرمون ما أنعم الله به عليهم، ويُضَيِّقُون علىٰ أنفسهم، فيجعلون بعضًا حلالًا وبعضًا حرامًا. وهذا قد وَقَع فيه المشركون فيما شرَّعوه لأنفسهم، وأهل الكتاب فيما ابتدعوه في دينهم.

وقال ابن أبي حاتم في تفسير هذه الآية: حدَّثنا أبي، حدَّثنا أحمد بن أبي الحواري، حدَّثنا رباح، حدَّثنا عبد الله بن سليمان، حدَّثنا موسىٰ بن أبي الصباح[٧] في قول الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ قال: إذا كان يوم القِيَامَةِ، يؤتىٰ بأهل ولاية الله ﷻ، فيقومون بين يدي الله ﷻ ثلاثة أصناف

---

(١) سقط من (ز)، والمثبت هو الصواب، فـ«أبو الأحوص» هو: عوف بن مالك بن نضلة، وهذا من كلام الحافظ ابن كثير، ولم يرد في «المسند» ذكر اسمه.

(٢) أي: تارك للتنظيف والغسل.

(٣) في (ز): «والنعم».

(٤) لوحة (٢٩٥ ب).

(٥) صُرُم: جمع صريم، وهي التي صرمت أذنها؛ أي: قطعت.

(٦) **صحيح**: رواه أحمد (٣/ ٤٧٣)، وأبو داود (٤٠٦٣)، والترمذي (٢٠٠٧)، والنسائي (٨/ ١٨٠).

(٧) في بعض النسخ الخطيَّة والمطبوعة: موسىٰ بن الصباح، والمثبت موافق لما ورد في (ز)، ولما في تفسير ابن أبي حاتم، وهو غير موسىٰ بن الصباح أبي كثير المترجم له في «تاريخ دمشق»، والمعروف بموسىٰ الكبير الكوفي.

قال: فيُؤتَىٰ برجلٍ مِن الصِّنف الأوَّل فيقول: عبدي، لماذا عَمِلْت؟ فيقول: يا ربُّ، خلقت الجنَّة وأشجارها وثمارها وأنهارها، وحورها ونعيمها، وما أَعْدَدْت لأهل طاعتك فيها، فأسهرتُ ليلي وأظمأتُ نهاري شوقًا إليها. قال: فيقول الله تعالىٰ: عبدي، إنما عملت للجنَّة، هذه الجنَّة فادخلها، ومِن فضلي عليك أن أَعْتَقْتُكَ من النَّار [1]، قال: فيدخل هو ومن معه الجنَّة.

قال: ثم يؤتىٰ [برجلٍ من الصِّنف] [2] الثاني، قال: فيقول [3]: عبدي، لماذا عملت؟ فيقول: يا رب، خلقت نارًا، وخلقت أغلالها وسَعِيرَها وسمومها ويَحْمُومها، وما أعددت لأعدائك وأهل مَعْصِيَتِك فيها؛ فأسهرتُ ليلي وأظمأتُ نهاري خوفًا منها. فيقول: عبدي، إنَّما عملتَ ذلك خوفًا من نارِي، فإنِّي قد أعتقتك من النَّار، ومِن فضلي عليك أن أدخلك جنَّتي. فيدخل هو ومن معه الجنَّة.

ثم يؤتىٰ برجل من الصِّنف الثَّالث، فيقول: عبدي، لماذا عملتَ؟ فيقول: ربِّ حبًّا لك، وشوقًا إليك، وعزَّتك لقد أسهرتُ لِيلي وأظمأتُ نهاري شوقًا إليك وحبًّا لك، فيقول تبارك وتعالىٰ: عبدي، إنَّما عَمِلْتَ حبًّا لي وشوقًا إليَّ، فيتجَلَّىٰ له الرَّبُّ جلَّ جلاله، ويقول: ها أنا ذا، انظر إليَّ ثم يقول: من فضلي عليك أن أعتقك من النَّار، وأبيحك جنَّتي، وأزيرَكَ ملائكتي، وأُسَلِّمُ عليك بنَفْسِي. فيدخل هو ومن معه الجنَّة [4].

﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾ ﴾

يخبر تعالىٰ نبيَّه -صلوات الله عليه وسلامه- أنَّه يعلم جميع أحوالِهِ وأحوالِ أُمَّتِهِ، وجميع الخلائق في كلِّ ساعةٍ وآنٍ ولحظةٍ، وأنَّه لا يعزُب عن علمِهِ وبصرِهِ مثقالُ ذرَّةٍ في حقَارتها وصغرها في السَّموات ولا في الأرض، ولا أصغر منها ولا أكبر إلا في كتابٍ مبينٍ، كقوله: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩]، فأخبر تعالىٰ أنَّه يعلم حركة الأشجار وغيرها من الجمادات، وكذلك الدَّواب السَّارحة في قوله: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [هود: ٦].

وإذا كان هذا علمه بحركات هذه الأشياء، فكيف بعِلْمِهِ بحركات المكلَّفين المأمورين بالعبادة، كما

---

(١) في بعض النسخ هنا زيادة: [ومن فضلي عليك أن: أدخلك جنتي]، وهي ليست في تفسير «ابن أبي حاتم».
(٢) في (ز): ثم يؤتىٰ بالصف الثاني. (٣) لوحة (٢٩٦ أ).
(٤) ضعيف: ابن أبي حاتم (٦/ ٧٤٤٥)، وهذا موقوف علىٰ موسىٰ بن الصباح، وغاية ما فيه أنه مرسل؛ لأنه لا يقال بالرأي.

قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٧ -٢١٩]؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ [(١)] مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ أي: إذ تأخذون في ذلك الشيء نحن مشاهدون لكم راءون سامعون؛ ولهذا قال عليه السلام لما سأله جبريل عن الإحسان: «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»[(٢)].

﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾

يخبر تعالىٰ أنَّ أولياءه هم الذين آمنوا وكانوا يتقون، كما فسَّرهم ربهم، فكل من كان تقيًّا كان لله وليًّا: فـ[(٣)] ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ [أي][(٤)] فيما يستقبلون من أهوال القيامة، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ علىٰ ما وراءهم في الدُّنيا[(٥)].

وقال عبد الله بن مسعود، وابن عبَّاس، وغير واحدٍ من السلف: أولياء الله الذين إذا رُءُوا ذُكِر الله[(٦)].

وقد ورد هذا في حديثٍ مرفوعٍ كما قال البزار: حدَّثنا علي بن حَرْب الرازي، حدَّثنا محمَّد بن سعيد ابن سابق، حدَّثنا يعقوب بن عبد الله الأشعري -وهو القمي- عن جعفر بن أبي المغيرة، عن سعيد بن جبير، عن ابن عبَّاس قال: قال رجلٌ: يا رسول الله، مَنْ أولياء الله؟ قال: «الَّذِينَ إِذَا رُءُوا ذُكِرَ اللهُ». ثم قال البزار: وقد روي عن سعيدٍ مرسلًا[(٧)].

وقال ابن جرير: حدَّثنا أبو هشام الرِّفاعي، حدَّثنا ابن فضيل[(٨)]، حدَّثنا أبي، عن عمارة بن القعقاع، عن أبي زُرْعَة بن عمرو بن جرير البَجَلي، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ مِنْ عِبَادِ اللهِ

---

(١) لوحة (٢٩٦ ب).
(٢) البخاري (٥٠)، ومسلم (٩).
(٣) في (ز): (أنه).
(٤) سقط من (ز).
(٥) قال الإمام القاسمي رحمه الله: وليس لأولياء الله شيءٌ يتميزون به عن الناس في الظاهر من الأمور المباحات، فلا يتميزون بلباسٍ دون لباس، ولا بحلق شعر أو تقصيره أو ضفره، إذا كان كلاهما مباحًا، كما قيل: كم من صديقٍ في قباء، وكم من زنديق في عباء. بل يوجدون في جميع أصناف أمة محمد ﷺ إذا لم يكونوا من أهل البدع الظاهرة والفجور.... وليس من شرط ولي الله أن يكون معصومًا لا يغلط ولا يخطئ، بل يجوز أن يخفىٰ عليه بعض علم الشريعة، ويجوز أن يشتبه عليه بعض أمور الدين، حتىٰ يحسب بعض الأمور مما أمر الله به مما نهىٰ الله عنه، ويجوز أن يظن في بعض الخوارق أنها من كرامات أولياء الله تعالىٰ، وتكون من الشيطان لبَّسها عليه؛ لنقص درجته، ولا يعرف أنها من الشيطان، وإن لم يخرج بذلك عن ولاية الله تعالىٰ.
(٦) أثر ابن مسعود رضي الله عنه: رواه الطبري (١١/ ١٣١)، وفيه سفيان بن وكيع: ساقط الحديث.
وأثر ابن عبَّاس: رواه الطبري (١١/ ١٣١)، وفيه محمَّد بن عبد الرحمن بن أبي ليلىٰ: سيء الحفظ.
(٧) ضعيف: وعلَّته جعفر بن أبي المغيرة فإنَّ روايته ضعيفة في سعيد بن جبير: رواه الطبري (١١/ ١٣١)، والبزَّار، وابن المبارك (٢١٨)، والراجح في الحديث الإرسال.
(٨) في (ز): «أبو فضيل»، وهو خطأ.

عِبادًا يَغْبِطُهُمُ الأنْبِياءُ وَالشُّهَداءُ». قيل: من هم يا رسول الله؟ لعلَّنا نحبهم. قال: «هُمْ قَوْمٌ تَحابُّوا فِي اللهِ مِنْ غَيْرِ أَمْوالٍ وَلا أَنْساب، وُجُوهُهُمْ نُورٌ، عَلَىٰ مَنابِرَ مِنْ نُورٍ، لا يَخافُونَ إِذا خافَ النّاسُ، وَلا يَحْزَنُونَ إِذا حَزِنَ النّاسُ». ثم قرأ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[١] .

ثم رواه أيضًا أبو داود، من حديث جرير، عن عمارة بن القعقاع، عن أبي زرعة بن عمرو بن جرير، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ بمثله[٢] .

وهذا أيضًا إسنادٌ جيدٌ، إلا أنَّه منقطع بين أبي زرعة وعمر بن الخطاب، والله أعلم.

وفي حديث الإمام أحمد، عن أبي النضر، عن عبد الحميد بن بَهْرَام، عن شَهْر بن حَوْشَب، عن عبد الرحمن بن غَنْم، عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «يَأْتِي مِنْ أَفْناءِ النّاسِ[٣] وَنَوازِعِ القَبائِلِ[٤] قَوْمٌ لَمْ تَتَّصِلْ بَيْنَهُمْ أَرْحامٌ مُتَقارِبَةٌ، تَحابُّوا فِي اللهِ، وَتَصافَوْا فِي اللهِ، يَضَعُ اللهُ لَهُمْ يَوْمَ القِيامَةِ[٥] مَنابِرَ مِنْ نُورٍ، فَيُجْلِسُهُمْ عَلَيْها، يَفْزَعُ النّاسُ وَلا يَفْزَعُونَ، وَهُمْ أَوْلِياءُ اللهِ، الَّذِينَ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ». والحديث متطول[٦] .

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا عبد الرزاق، أخبرنا سفيان، عن الأعمش، عن ذَكْوان أبي صالح، عن رجل، عن أبي الدرداء رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ في قوله: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ قال: «الرُّؤْيا الصّالِحَةُ يَراها المُسْلِمُ، أَوْ تُرَىٰ لَهُ»[٧] .

وقال ابن جرير: حدَّثني أبو السائب، حدَّثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن عطاء بن يسار، عن رجل من أهل مصر، عن أبي الدرداء في قوله: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ قال: سأل رجلٌ أبا الدَّرداء عن هذه الآية، فقال: لقد سألت عن شيء ما سمعتُ [أحدًا][٨] سأل عنه بعد رجل سأل[٩] عنه رسولَ الله، فقال: «هِيَ الرُّؤْيا الصّالِحَةُ يَراها الرَّجُلُ المُسْلِمُ، أَوْ تُرَىٰ لَهُ، بُشْراهُ فِي الحَياةِ الدُّنْيا، وَبُشْراهُ فِي الآخِرَةِ الجَنَّةُ».

---

(١) **صحيح**: ابن جرير (١١/ ١٣٢)، وابن حبان (٥٧٣)، وابن أبي الدنيا في «الإخوان» (٥).

(٢) رواه أبو داود (٣٥٢٧)، والطبري (١١/ ١٣٢)، وإسناده منقطع بين أبي زرعة وعمر، ورواه هناد في «الزهد» (٢/ ٤٧٤) من طريق أخرىٰ لكنَّه أيضًا منقطع، لكن يشهد له حديث أبي هريرة السابق.

(٣) **رجل من أفناء الناس**؛ أي: لم يعلم ممَّن هو. الواحد: فِنْو.

(٤) لوحة (٢٩٧ أ). (٥) في (ز): «في القيامة».

(٦) رواه أحمد (٥/ ٣٤٣)، وابن أبي الدنيا في «الإخوان» (٥)، وفيه شهر بن حوشب: صدوق كثير الأوهام والإرسال، ويشهد لحديثه حديث أبي هريرة السابق.

(٧) **حسن لغيره**: في إسناده رجل مجهول، رواه الطبري (١١/ ١٣٤)، وأحمد (٦/ ٤٤٥)، والترمذي (٣١٠٥)، و لكنَّه ثبت موقوفًا عن أبي الدرداء كما سيأتي.
وله شاهد من حديث عبادة بن الصامت وسيأتي، وانظر: «السلسلة الصحيحة» للألباني (١٧٨٧).

(٨) سقط من (ز). (٩) في (ز): «سألت».

ثمَّ رواه ابن جرير من حديث سفيان، عن ابن المنكَدِر، عن عَطَاء بن يَسَار، عن رجلٍ مِن أهل مصر، أنَّه سأل أبا الدرداء عن هذه الآية، فذكر نحو ما تقدَّم (١).

وقال ابن جرير: حدَّثني المثنىٰ، حدَّثنا الحجاج بن مِنْهَال، حدَّثنا حماد بن زيد، عن عاصم بن بَهْدَلَة، عن أبي صالح قال: سمعت أبا الدرداء وسُئِلَ عن: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ۝٦٣ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾ فذكر نحوه سواء (٢).

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا عفان، حدَّثنا أبان، حدَّثنا يحيىٰ، عن أبي سلمة، عن عبادة بن الصَّامت؛ أنَّه سأل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، أرأيت قول الله تعالىٰ: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ﴾؟ فقال: «**لَقَدْ سَأَلْتَنِي عَنْ شَيْءٍ مَا سَأَلَنِي عَنْهُ أَحَدٌ مِنْ أُمَّتِي أَوْ أَحَدٌ قَبْلَكَ**» قال: «**تِلْكَ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ، يَرَاهَا [الرَّجُلُ] (٣) الصَّالِحُ أَوْ تُرَىٰ لَهُ**» (٤).

وكذا رواه أبو داود الطيالسي، عن عمران القَطَّان، عن يحيىٰ بن أبي كثير به.

ورواه الأوزاعي، عن يحيىٰ بن أبي كثير فذكره. ورواه علي بن المبارك، عن يحيىٰ، عن أبي سلمة قال: نُبِّئنا عن عبادة بن الصامت. سأل رسول الله ﷺ عن هذه الآية فذكره.

وقال ابن جرير: حدَّثني أبو حميد الحِمْصيُّ، حدَّثنا يحيىٰ بن سعيد، حدَّثنا عمر (٥) بن عمرو بن عبد الأحْمُوسي، عن حميد بن عبد الله المزني قال: أتىٰ رجل عبادة بن الصامت فقال: آية في كتاب الله أسألك عنها، قول الله تعالىٰ: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾؟ فقال عبادة: ما سألني عنها أحدٌ قبلك، سألت عنها نبي الله فقال مثل ذلك: «**مَا سَأَلَنِي عَنْهَا أَحَدٌ قَبْلَكَ، الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ، يَرَاهَا العَبْدُ المُؤْمِنُ فِي المَنَامِ أَوْ تُرَىٰ لَهُ**» (٦).

ثم رواه من حديث موسىٰ بن عبيدة، عن أيوب بن خالد بن صَفْوان، عن عبادة بن الصامت؛ أنَّه قال لرسول الله ﷺ: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ﴾ فقد عرفنا بشرىٰ الآخرة الجنَّة، فما بشرىٰ الدنيا؟ قال: «**الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ يَرَاهَا العَبْدُ أَوْ تُرَىٰ لَهُ، وَهِيَ جُزْءٌ مِنْ أَرْبَعَةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا أَوْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ**» (٧).

---

(١) انظر التعليق السابق.

(٢) **إسناده حسن**: رواه الطبري (١١/ ١٣٦)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٧/ ٢٣١).

(٣) سقط من (ز).

(٤) **حسن لغيره**: رواه أحمد (٥/ ٣١٥)، والطبري (١١/ ١٣٤، ١٣٦)، وفي إسناده انقطاع، لكن يشهد له حديث أبي الدرداء السابق.

(٥) لوحة (٢٩٧ ب).

(٦) **صحيح**: رواه الطبري (١١/ ١٣٤)، وانظر: «الصحيحة» للألباني (١٧٨٦).

(٧) **ضعيف بهذا اللفظ**: رواه الطبري (١١/ ١٣٥)، وفيه موسىٰ بن عبيدة: ضعيف.

وقال الإمام أحمد أيضًا: حدَّثنا بَهْز، حدَّثنا حماد، حدَّثنا أبو عمران، عن عبد الله بن الصامت، عن أبي ذرٍّ أنَّه قال: يا رسول الله، الرجل يعمل العمل فيحمده النَّاس عليه، ويثنون عليه به، فقال رسول الله ﷺ: «**تِلْكَ عَاجِلُ بُشْرَىٰ الْمُؤْمِنِ**». رواه مسلم(١).

وقال أحمد أيضًا: حدَّثنا حسن -يعني الأشيب- حدَّثنا ابن لَهِيعة، حدَّثنا درَّاج، عن عبد الرحمن ابن جُبَيْر، عن عبد الله بن عمرو، عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ قال: «**الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ يُبَشَّرُهَا الْمُؤْمِنُ، هِيَ [جُزْءٌ]**(٢) **مِنْ تِسْعَةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ، فَمَنْ رَأَىٰ [ذَلِكَ]**(٣) **فَلْيُخْبِرْ بِهَا، وَمَنْ رَأَىٰ سِوَىٰ ذَلِكَ فَإِنَّمَا هُوَ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَهُ، فَلْيَنْفُثْ عَنْ يَسَارِهِ ثَلَاثًا، وَلْيُكَبِّرْ وَلَا يُخْبِرْ بِهَا أَحَدًا**(٤)» لم يخرجوه.

وقال ابن جرير: حدَّثني يونس، أنبأنا ابن وَهْب، حدَّثني عمرو بن الحارث، أن دَرَّاجًا أبا السمح حدَّثه، عن عبد الرحمن بن جُبَيْر، عن عبد الله بن عمرو، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «﴿**لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا**﴾ **الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ يُبَشَّرُهَا الْمُؤْمِنُ جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ**»(٥).

وقال أيضًا ابن جرير: حدَّثني محمَّد بن حاتم(٦) المؤدِّب، حدَّثنا عمار بن محمَّد، حدَّثنا الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، عن النَّبيِّ ﷺ: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ قال: «**هِيَ فِي الدُّنْيَا الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ، يَرَاهَا العَبْدُ أَوْ تُرَىٰ لَهُ، وَهِيَ فِي الآخِرَةِ الجَنَّةُ**»(٧).

ثمَّ رواه عن أبي كُرَيْب، عن أبي بكر بن عيَّاش، عن أبي حصين(٨)، عن أبي صالح، عن أبي هريرةَ أنَّه قال: الرُّؤيا الحسنةُ بشرىٰ من الله، وهي من المبشِّرات(٩).

هكذا رواه من هذه الطريق موقوفًا.

وقال أيضًا: حدَّثنا أبو كُرَيْب، حدَّثنا أبو بكر، حدَّثنا هشام، عن ابن سيرين، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**الرُّؤْيَا الحَسَنَةُ هِيَ البُشْرَىٰ، يَرَاهَا المُسْلِمُ أَوْ تُرَىٰ لَهُ**»(١٠).

وقال ابن جرير: حدَّثني أحمد بن حماد الدُّولابي، حدَّثنا سفيان، عن عبيد الله بن أبي يزيد، عن

---

(١) مسلم (٢٦٤٢)، وابن ماجة (٤٢٢٥)، وأحمد (٥/ ١٥٦، ١٦٨).

(٢) سقط من (ز). (٣) سقط من (ز).

(٤) ضعيف: رواه أحمد (٢/ ٢١٩) وفيه ابن لهيعة: اختلط.

(٥) حسن: رواه الطبري (١١/ ١٣٥) (١١/ ١٣٧).

(٦) وقع في بعض النسخ: محمَّد بن أبي حاتم المؤدب، وهو خطأ.

(٧) صحيح: رواه الطبري (١١/ ١٣٥)، ويشهد له رواية أبي الدرداء وعبادة بن الصامت السابقتين.

(٨) لوحة (٢٩٨ أ).

(٩) رجاله ثقات: رواه الطبري (١١/ ١٣٥)، وابن أبي شيبة (٧/ ١٣١)، وفيه أبو بكر بن عيَّاش: ثقةٌ ثَبْتٌ إلا أنَّه لما كبر ساء حفظه.

(١٠) صحيح: رواه ابن جرير (١١/ ١٣٤)، ورواه البخاري (٧٠١٧)، ومسلم (٢٢٦٣) نحوه.

أبيه، عن سِبَاع بن ثابت، عن أم كُرْز الكعبية: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ذَهَبَتِ النُّبُوَّةُ، وَبَقِيَتِ المُبَشِّرَاتُ»(١).

وهكذا روي عن ابن مسعود، وأبي هريرة، وابن عبَّاس، ومجاهد، وعُرْوَة بن الزبير، ويحيىٰ بن أبي كثير، وإبراهيم النَّخَعي، وعطاء بن أبي رباح: أنَّهم فسَّروا ذلك بالرُّؤيا الصَّالحة.

وقيل: المراد بذلك بشرىٰ الملائكة للمؤمن عند احتضاره بالجنَّة والمغفرة، كما في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٠-٣٢].

وفي حديث البراء: «أَنَّ المُؤْمِنَ إِذَا حَضَرَهُ المَوْتُ جَاءَهُ مَلَائِكَةٌ بِيضُ الوُجُوهِ، بِيضُ الثِّيَابِ، فَقَالُوا: اخْرُجِي أَيَّتُهَا الرُّوحُ الطَّيِّبَةُ إِلَىٰ رَوْحٍ وَرَيْحَانٍ، وَرَبٍّ غَيْرِ غَضْبَانٍ. فَتَخْرُجُ مِنْ فَمِهِ، كَمَا تَسِيلُ القَطْرَةُ مِنْ فَمِ السِّقَاءِ»(٢).

وأمَّا بشراهم في الآخرة فكما قال تعالىٰ: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٣]، وقال تعالىٰ: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [الحديد: ١٢].

وقوله: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: هذا الوعد لا يُبدَّل، ولا يُخلَف، ولا يُغيَّر؛ بل هو مقرَّرٌ مثبتٌ كائنٌ لا محالة: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ (٣) وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾﴾

يقول تعالىٰ لرسوله ﷺ: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ﴾ قولُ هؤلاء المشركين، واستعن بالله عليهم، وتوكَّل عليه؛ فإنَّ العزَّة لله جميعًا؛ أي: جميعها له ولرسوله وللمؤمنين، ﴿هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي: السميع لأقوال عباده [العليم بأحوالهم](٤).

ثم أخبر تعالىٰ أنَّ له ملك السموات والأرض، وأنَّ المشركين يعبدون الأصنام، وهي لا تملك شيئًا، لا ضرًّا ولا نفعًا، ولا دليل لهم علىٰ عبادتها، بل إنَّما يَتَّبِعُون في ذلك ظنونَهم وتخرصهم وكذبهم وإفكهم.

---

(١) صحيح: ابن جرير (١١/ ١٣٥)، وابن ماجة (٣٨٩٦).
(٢) صحيح: رواه أحمد (٤/ ٢٨٧)، وأبو داود (٤٧٥٣)، والحاكم (١/ ٣٧، ٣٨).
(٣) لوحة (٢٩٨ ب).
(٤) في (ز): «عليم بهم».

ثمَّ أخبر أنَّه الَّذي جعل لعباده اللَّيل ليسكنوا فيه؛ أي: يستريحون فيه مِن نَصَبِهم وكَلَالِهم وحَرَكاتهم، ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ أي: مضيئًا لمعاشهم وسَعْيِهِم، وأسفارهم ومصالحهم، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ أي: يسمعون هذه الحجج والأدلَّة، فيعتبرون بها، ويستدلُّون على عظمة خالقها، ومقدرها ومسيرها.

﴿قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾

يقول تعالىٰ منكرًا علىٰ من ادَّعىٰ أن له ولدًا: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّ﴾ أي: تقدَّس عن ذلك، هو الغنيُّ عن كل ما سواه، وكل شيءٍ فقيرٌ إليه، ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: فكيف [يكون][1] له ولد مما خلق، وكل شيءٍ مملوكٌ له، عبدٌ له؟! ﴿إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ﴾ أي: ليس عندكم دليلٌ علىٰ ما تقولونه من الكذب والبهتان! ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ إنكارٌ ووعيدٌ أكيدٌ، وتهديدٌ شديدٌ، كما قال تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٨٨ - ٩٥].

ثم توعَّد تعالىٰ الكاذبين عليه المفترين، ممَّن زعم أنَّ له ولدًا، بأنَّهم لا يفلحون في الدنيا، ولا في الآخرة، فأمَّا في الدُّنيا فإنَّهم إذا استدرَجهُم وأملىٰ لهم متَّعهُم قليلًا ثم [يَضطَرهم][2] إلىٰ عذابٍ غليظٍ، كما قال هاهنا: ﴿مَتَٰعٌ فِى[3] ٱلدُّنْيَا﴾ أي: مدة قريبة، ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ أي: يوم القيامة، ﴿ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ﴾ أي: الموجع المؤلم ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾ أي: بسبب كُفْرِهم وافترائهم وكذبهم علىٰ الله، فيما ادَّعوه من الإفك والزُّور.

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾﴾

---

(١) سقط من (ز). (٢) سقط من (ز). (٣) لوحة (٢٩٩ أ).

يقول تعالىٰ لنبيِّه صلوات الله وسلامه عليه: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ﴾أي: أخبرهم واقْصُص عليهم؛ أي: علىٰ كفَّار مكَّة الذين يُكذِّبُونك ويخالفونك ﴿نَبَأَ نُوحٍ﴾أي: خبره مع قومه الذين كذبوه، كيف أهلكهم الله ودمَّرهم بالغَرَق أجمعين عن آخرهم؛ ليَحْذَرَ هؤلاء أن يصيبهم من الهلاك والدمار ما أصاب أولئك. ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم﴾أي: عَظُم عليكم، ﴿مَّقَامِى﴾أي فيكم بين أظهركم، ﴿وَتَذْكِيرِى﴾إياكم ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾أي: بحُجَجِه وبراهينه، ﴿فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾أي: فإنِّي لا أُبالِي ولا أكف [1]عنكم سواء عَظُمَ عليكم أو لا! ﴿فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ﴾أي: فاجتمعوا أنتم وشركاؤُكم الذين تدعون من دون الله، من صَنَمٍ ووثَنٍ، ﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾أي: ولا تجعلوا أمركم [عليكم] [2]ملتبسًا، بل افصلوا حالكم معي، فإن كنتم تزعمون أنكم مُحِقُّون، فاقضوا إلي ولا تُنْظِرُون؛ أي: ولا تُؤَخِّرُوني ساعةً واحدةً؛ أي: مهما قدرتم فافعلوا، فإنِّي لا أباليكم ولا أخاف منكم؛ لأنَّكم لستم علىٰ شيءٍ، كما قال هود لقومه: ﴿إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝٥٤ مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ۝٥٥ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٤-٥٦].

﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾أي: كذبتم وأدبرتم عن الطَّاعة، ﴿فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ﴾أي: لم أطلب منكم علىٰ نُصْحِي إيَّاكم شيئًا، ﴿إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾أي: وأنا مُمْتَثِلٌ ما أمرت به من الإسلام لله ﷻ، والإسلام هو دين جميع الأنبياء من أولهم إلىٰ آخرهم، وإن تنوَّعت شرائعهم وتعدَّدت مناهِجُهم، كما قال تعالىٰ: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا [3]مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨]. قال ابن عبَّاس: سبيلًا وسُنَّةً. فهذا نوحٌ يقول: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٩١]، وقال تعالىٰ عن إبراهيم الخليل: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٣١ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِۦمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣١، ١٣٢]، وقال يوسف: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١]. وقال موسىٰ: ﴿يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤]. وقالت السحرة: ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٦]. وقالت بلْقيس: ﴿رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤]. وقال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُواْ﴾ [المائدة: ٤٤]، وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّۦنَ أَنْ ءَامِنُواْ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ [المائدة: ١١١]، وقال خاتم الرسل وسيد البشر: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢،

---

(١) في (ز): «ولا أفكر».
(٢) سقط من (ز).
(٣) لوحة (٢٩٩ ب).

١٦٣] أي: من هذه الأمة؛ ولهذا قال في الحديث الثابت عنه: «نَحْنُ -مَعَاشِرَ الأَنْبِيَاءِ- أَوْلَادُ عَلَّاتٍ، دِينُنَا وَاحِدٌ»[١] أي: وهو عبادة الله وحده لا شريك له، وإن تنوَّعت شرائعنا، وذلك معنىٰ قوله: «أَوْلَادُ عَلَّاتٍ»، وهم: الإخوة من أمهاتٍ شتىٰ والأب واحد.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ﴾ أي: علىٰ دينه ﴿فِى ٱلْفُلْكِ﴾ وهي: السفينة، ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ﴾ أي: في الأرض، ﴿وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ أي: يا محمَّد كيف أنجينا المؤمنين، وأهلكنا المكذبين.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾﴾

يقول تعالىٰ: ثم بعثنا من بعد[٢] نوح رسلًا إلىٰ قومهم، فجاءوهم بالبينات؛ أي: بالحُجج والأدلَّة والبراهين علىٰ صدق ما جاءوهم به، ﴿فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ﴾ أي: فما كانت الأمم لتؤْمِن بما جاءتهم به رسلهم، بسبب تكذيبهم إيَّاهم أول ما أرسلوا إليهم، كما قال تعالىٰ: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠].

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ أي: كما طبع الله علىٰ قلوب هؤلاء، فما آمنوا بِسَبَبِ تكذيبهم المتقدِّم، هكذا يطبع الله علىٰ قلوب مَن أشبههم ممَّن بعدهم، ويختم علىٰ قلوبهم، فلا يُؤْمِنُوا حتىٰ يَرَوُا[٣] العذاب الأليم.

والمراد: أنَّ الله تعالىٰ أهلك الأُمم المكذِّبة للرُّسل، وأنجىٰ مَن آمن بهم، وذلك من بعد نوح عليه السلام فإنَّ النَّاس كانوا من قبله إلىٰ زمان آدم عليه السلام [علىٰ الإسلام][٤] إلىٰ أن أحدث النَّاس عبادة الأصنام، فبعث الله إليهم نوحًا عليه السلام؛ ولهذا يقول له المُؤمنون يوم القيامة: أنت أوَّل رسولٍ بعثه الله إلىٰ أهل الأرض[٥].

وقال ابن عبَّاس: كان بين آدم ونوح عشرة قرون، كلهم علىٰ الإسلام[٦].

وقال الله تعالىٰ: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ [الإسراء: ١٧]، وفي هذا إنذارٌ عظيمٌ لمشركي العرب الَّذِين كذبوا بسَيِّد الرُّسل وخاتم الأنبياء والمرسلين، فإنَّه إذا كان [قد][٧] أصاب مَن كذَّب بتلك الرسل ما ذكره الله -تعالىٰ- من العِقَاب والنَّكال، فماذا ظن هؤلاء وقد ارتكبوا أكبر من أولئك؟

---

(١) البخاري (٣٤٤٢)، ومسلم (٢٣٦٥)، وأحمد (٢/ ٣١٩). (٢) في (ز): «من بعد قوم نوح».
(٣) لوحة (٣٠٠ أ). (٤) سقط من (ز).
(٥) البخاري (٤٧٧٢)، ومسلم (١٩٤)، والترمذي (٢٤٣٦)، والنسائي وابن ماجة، وهو جزء من حديث الشفاعة.
(٦) رواه الطبري (٢/ ٣٣٤)، ورواه الحاكم (٢/ ٤٤٢)، وقال: صحيح علىٰ شرط البخاري ووافقه الذهبي، وهو كما قالا.
(٧) سقط من (ز).

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾﴾

يقول تعالىٰ: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا﴾ من بعد تلك الرسل ﴿مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾ أي: قومه. ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي: حُجَجِنا وبراهيننا، ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ أي: استكبروا عن اتِّباع الحقِّ والانقياد له، ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ كأنهم -قبَّحهم الله- أقسموا علىٰ ذلك، وهم يعلمون أنَّ ما قالوه كَذِبٌ وبهتانٌ، كما قال تعالىٰ: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٤].

﴿قَالَ﴾ لهم ﴿مُوسَىٰٓ﴾ منكرًا عليهم: ﴿أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا﴾ أي: تُثْنِينا ﴿عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا﴾ أي: الدِّين [الَّذي][1] كانوا عليه، ﴿وَتَكُونَ لَكُمَا﴾ أي: لك ولهارون ﴿ٱلْكِبْرِيَآءُ﴾ أي: العظمة والرِّياسة ﴿فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾.

وكثيرًا ما يذكر الله تعالىٰ قصة موسىٰ عليه السلام مع فرعون في كتابه العزيز؛ لأنَّها من أعجب القَصَصِ، فإنَّ فرعون حَذِر من موسىٰ كلَّ الحذر، فسخَّره القدر أن رَبَّىٰ هذا الذي يحذر منه علىٰ فراشه ومائدته بمنزلة الولد، ثم تَرَعْرَعَ وعقد الله له سببًا أخرجه مِن بين أظهرهم، ورزقه النُّبوَّة والرسالة والتَّكليم، وبعثه إليه ليدعوه إلىٰ الله -تعالىٰ- لِيَعْبُدَه ويرجع إليه، هذا مع ما كان[2] عليه فرعون مِن عظمة المملكة والسلطان، فجاءه برسالة الله، وليس له وزير سوىٰ أخيه هارون -عليهما السلام- فتمرَّد فرعون واستكْبَرَ وأخذته الحميَّة، والنَّفس الخبيثة الأبيَّة، وقوىٰ رأسه، وتولَّىٰ بِرُكْنِه، وادَّعىٰ ما ليس له، وتَجَهْرَم علىٰ الله، وعتا وبغىٰ، وأهان حزب الإيمان مِن بني إسرائيل، والله -تعالىٰ- يحفظ رسوله موسىٰ وأخاه هارون، ويحوطهما بعنايته، ويحرسهما بعينه التي لا تنام، ولم تزل المحاجَّة والمجادلة والآيات تقوم علىٰ يدي موسىٰ شيئًا بعد شيءٍ، ومرةً[3] بعد مرة، مما يبهر العقول، ويدهش الألباب، مما لا يقوم له شيء، ولا يأتي به إلا مَن هو مُؤَيَّدٌ من الله، وما تأتيهم من آيةٍ إلا هي أكبر من أختها، وصمم فرعون ومَلَؤه -قبحهم الله- علىٰ التَّكذيب بذلك كلِّه، والجحد والعناد والمكابرة، حتىٰ أحلَّ الله بهم بأسه الذي لا يُرد، وأغرقهم في صبيحةٍ واحدةٍ أجمعين، ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٥].

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾﴾

---

(١) سقط من (ز). (٢) لوحة (٣٠٠ ب). (٣) في (ز): «كرة بعد مرة».

ذكر تعالىٰ قصَّة السَّحرة مع موسىٰ عليه السلام في سورة الأعراف، وقد تقدَّم الكلام عليها هناك. وفي هذه السُّورة، وفي سورة طه، وفي الشُّعراء؛ وذلك أن فرعون -لعنه الله- أراد أن يتهرَّج [1] علىٰ النَّاس، ويعارض ما جاء به موسىٰ عليه السلام من الحقِّ المبين، بزخارف السَّحرة والمُشَعْبِذين، فانعكس عليه النِّظام، ولم يحصل له ذلك المرام، وظهرت البراهين الإلهيَّة في ذلك المحفل العام، ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ [الشعراء: ٤٦-٤٨] فظنَّ فرعون أن ينتصر بالسحَّار، علىٰ رسول عالم الأسرار، فخابَ وخَسِرَ الجنَّة، واستوجب النَّار.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ﴾؛ وإنَّما قال لهم ذلك لأنهم لما اصطفوا -وقد وُعِدُوا من فرعون بالتَّقريب والعطاء الجزيل- ﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا﴾ [طه: ٦٥، ٦٦]، فأراد موسىٰ أن تكون البَدَاءة منهم؛ ليرىٰ الناس ما صنعوا، ثم يأتي بالحقِّ بعده فيدمغ باطلهم؛ ولهذا لما ﴿أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ١١٦]، ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ [2] الْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ [طه: ٦٧، ٦٩]، فعند ذلك قال موسىٰ لما ألقوا: ﴿مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾.

وقال ابن أبي حاتم [3]: حدَّثنا محمَّد بن عمار بن الحارث، حدَّثنا عبد الرحمن -يعني الدَّشْتكِيّ- أخبرنا أبو جعفر الرازي، عن لَيْث -وهو ابن أبي سليم- قال: بلغني أن هؤلاء الآيات شفاءٌ من السِّحر بإذن الله تعالىٰ، تُقرأُ في إناءٍ فيه ماء، ثم يصب علىٰ رأس المسحور الآية التي من سورة يونس: ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾، والآية الأخرىٰ: ﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ [الأعراف: ١١٨-١٢٢]، وقوله: ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ [طه: ٦٩] [4].

﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾

يخبر تعالىٰ أنَّه لم يؤمن بموسىٰ عليه السلام -مع ما جاء به من الآيات البيِّنات والحجج القاطعات

---

(١) هرج في الحديث: إذا خلط فيه. (٢) لوحة (٣٠١ أ).

(٣) في (ز): «وقال ابن أبي الدنيا»، وهو خطأ.

(٤) رواه ابن أبي حاتم (٦/ ١٠٥١٤)، ولم يصح في ذلك عن رسول الله ﷺ، علمًا بأنَّه لا بأس بالرقية بجميع آي القرآن، لكن نسبة ذلك إلىٰ رسول الله ﷺ لا بد من أن يثبت بها حديث.

والبراهين السَّاطعات- إلَّا قليل من قومِ فرعون، من الذُّرِّيَّة -وهم الشباب- علىٰ وجل وخوفٍ منه ومِن مَلَئِهِ، أَن يردُّوهم إلىٰ ما كانوا عليه من الكُفْرِ؛ لأنَّ فرعون كان جبَّارًا عنيدًا مسرفًا في التَّمرد والعتوِّ، وكانت له سَطْوةٌ ومَهابةٌ، تخاف رعيته منه خوفًا شديدًا.

قال العوفي: عن ابن عبَّاس: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ﴾ قال: فإنَّ الذُّرِّيَّة التي آمَنَتْ لموسىٰ مِن أناسٍ غير بني إسرائيل، من قوم فرعون يسير، منهم: امرأة فرعون، ومؤمن آل فرعون، وخازن فرعون، وامرأة خازنه[1].

وروىٰ علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس في قوله: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ﴾ يقول: بني إسرائيل[2].

وعن ابن عبَّاس، والضَّحَّاك، وقتادة: الذُّرِّيَّة : القليل.

وقال مجاهد في قوله: ﴿إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ﴾[3] قال: هم أولاد الذين أرسل إليهم مُوسىٰ من طول الزمان، ومات آباؤهم.

واختار ابن جرير قول مجاهد في الذرية: [أنَّها][4] مِن بني إسرائيل، لا مِن قوم فرعون؛ لِعَوْدِ الضمير علىٰ أقرب المذكورين.

وفي هذا نظر؛ لأنَّه أراد بالذُّرِّيَّة الأحداث والشَّباب، وأنَّهم من بني إسرائيل، فالمعروف أنَّ بني إسرائيل كلهم آمنوا بموسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ واستبشروا به، وقد كانوا يعرفون نعته وصِفَتَهُ والبشارة به مِن كتبهم[5] المتقدِّمة، وأنَّ الله -تعالىٰ- سينقذهم به من أَسْرِ فرعون ويظهرهم عليه؛ ولهذا لما بلغ هذا فرعون حَذرَ كلَّ الحَذَر فلم يُجْدِ عنه شيئًا.

ولما جاء موسىٰ آذاهم فرعون أشد الأذىٰ، و﴿قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَاۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٩]. وإذا تَقرَّر هذا فكيف يكون المراد: إلا ذُرِّيَّة من قوم موسىٰ، وهم بنو إسرائيل؟.

﴿عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ﴾ أي: وأشراف قَومِهِم أن يَفْتِنَهُم، ولم يكن في بني إسرائيل مَن يخاف منه أن يُفْتَنَ عن الإيمان سوىٰ قارون، فإنَّه كان من قوم موسىٰ فبغىٰ عليهم؛ لكنَّه كان طاويًا إلىٰ فرعون، متصلًا به، متعلِّقًا بحباله ومن قال: إن الضمير في قوله: ﴿وَمَلَإِيْهِمْ﴾ عائد إلىٰ فرعون، وعظم الملك من أجل اتِّباعه أو بحذف «آل» فرعون، وإقامة المضاف إليه مقامه -فقد أبعد، وإن كان ابن جرير قد حكاهما عن بعض النُّحاة. ومما يدلُّ علىٰ أنه لم يكن في بني إسرائيل إلا مؤمن قوله تعالىٰ:

---

(١) ضعيف: رواه الطبري (١١/ ١٥٠)، وفيه عطية العوفي: شيعي مدلس.

(٢) ضعيف: رواه الطبري (١١/ ١٥٠)، وإسناده منقطع.

(٣) زادت بعض النسخ هنا جملة: [يقول: بني إسرائيل]، ونراها مقحمة.

(٤) سقط من (ز). (٥) لوحة (٣٠١ ب).

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَا رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحۡمَتِكَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾

يقول تعالىٰ مخبرًا عن موسىٰ أنَّه قال لبني إسرائيل: ﴿يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ﴾ أي: فإن الله كافٍ مَن توكَّل عليه، ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥ﴾ [الزمر : ٣٦]، ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ﴾ [الطلاق : ٣].

وكثيرًا ما يقرن الله بين العبادة والتوكل، كما في قوله تعالىٰ: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِ﴾ [هود : ١٢٣]، ﴿قُلۡ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيۡهِ تَوَكَّلۡنَا﴾ [الملك : ٢٩]، ﴿رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا﴾ [المزمل : ٩]، وأمر الله -تعالىٰ- المؤمنين أن يَقُولوا في كلِّ صلواتهم مراتٍ متعددةٍ: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ [الفاتحة : ٥].

وقد امتثَل بنو إسرائيل ذلك، فقالوا: ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَا رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: بظفرهم بنا، وتَسلُّطِهم علينا، فيَظُنُّوا أنَّهم إنَّما سُلِّطوا لأنَّهم علىٰ الحقِّ ونحن علىٰ الباطل، فيفتنوا بذلك. هكذا روي عن أبي مِجْلَزٍ، وأبي الضُّحىٰ.

وقال ابن أبي نَجيح وغير واحدٍ، عن مجاهد: لا تعذبنا بأيدي قوم فرعون، ولا بعذابٍ مِن عندك، فيقول قوم فرعون: لو كانوا علىٰ حقٍّ ما عُذِّبوا، ولا سُلِّطنا عليهم، فيُفْتَنُوا بنا.

وقال عبد الرزاق: أنبأنا ابن عُيَيْنَةَ، عن ابن نَجِيحٍ، عن مجاهد: ﴿رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ لِّلۡقَوۡمِ[1] ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: لا تسلطهم علينا فيَفْتِنُونا.

﴿وَنَجِّنَا بِرَحۡمَتِكَ﴾ [أي: خلصنا][2] برحمةٍ منك وإحسان ﴿مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ أي: الذين كفروا الحق وستروه، ونحن قد آمنَّا بك وتوكَّلنا عليك.

﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوۡمِكُمَا بِمِصۡرَ بُيُوتٗا وَٱجۡعَلُواْ بُيُوتَكُمۡ قِبۡلَةٗ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨٧﴾﴾

يذكر تعالىٰ سبب إنجائه بني إسرائيل من فرعون وقومه، وكيفيَّة خلاصهم منهم، وذَلِكَ أنَّ الله -تعالىٰ- أمر موسىٰ وأخاه هارون -عليهما السلام- ﴿أَن تَبَوَّءَا﴾ أي: يَتَّخِذَا لقومهما بمصر بيوتًا.

واختلف المُفسِّرون في معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَٱجۡعَلُواْ بُيُوتَكُمۡ قِبۡلَةٗ﴾ فقال الثوري وغيره: عن خُصَيف، عن عِكْرِمة، عن ابن عبَّاس: ﴿وَٱجۡعَلُواْ بُيُوتَكُمۡ قِبۡلَةٗ﴾ قال: أمرُوا أن يَتَّخِذُوها مساجد[3].

---

(١) لوحة (٢٠٢ أ). (٢) سقط من (ز).

(٣) رواه الطبري (١١/ ١٥٣)، وفيه خصيف بن عبد الرحمن، قال الحافظ: صدوق سيئ الحفظ تغير بآخره. وانظر: «تهذيب الكمال» (٨/ ٣٥٧).

وقال الثَّوري أيضًا، عن ابن منصور، عن إبراهيم: ﴿وَٱجۡعَلُواْ بُيُوتَكُمۡ قِبۡلَةً﴾ قال: كانوا خائفين، فأُمِرُوا أن يُصَلُّوا في بيوتهم.

وكذا قال مجاهد، وأبو مالك، والربيع بن أنس، والضَّحَّاك، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وأبوه زيد بن أسلم: وكأن هذا -والله أعلم- لما اشْتَدَّ بهم البلاء من قِبَل فرعون وقومه، وضَيَّقوا عليهم، أُمِرُوا بكثرة الصَّلاة، كما قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة: ١٥٣]. وفي الحديث: «كان رسول الله ﷺ إذا حَزَبَه أمرٌ صلَّىٰ». أخرجه أبو داود[١]. ولهذا قال تعالىٰ في هذه الآية: ﴿وَٱجۡعَلُواْ بُيُوتَكُمۡ قِبۡلَةً وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أي: بالثواب والنَّصر القريب.

وقال العوفي، عن ابن عبَّاس في تفسير هذه الآية قال: قالت بنو إسرائيل لموسىٰ عليه السلام: لا نستطيع أن نُظْهِرَ صلاتنا مع الفراعنة، فأَذِنَ الله تعالىٰ لهم أن يُصَلُّوا في بيوتهم، وأُمِرُوا أن يجعلوا بيوتهم قِبَلَ القِبْلَةِ[٢].

وقال مجاهد: ﴿وَٱجۡعَلُواْ بُيُوتَكُمۡ قِبۡلَةً﴾ قال: لما خاف بنو إسرائيل مِن فرعون أن يقتلوا في الكنائس الجامعة، أُمِرُوا أن يَجْعَلُوا بيوتهم مساجد مستقبلة الكعبة، يُصَلُّون فيها سرًّا. وكذا قال قتادة، والضَّحَّاك.

وقال سعيد بن جبير: ﴿وَٱجۡعَلُواْ بُيُوتَكُمۡ قِبۡلَةً﴾ أي: يقابل بعضها بعضًا.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيۡتَ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمۡوَٰلًا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَۖ رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدۡ أُجِيبَت دَّعۡوَتُكُمَا فَٱسۡتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾

هذا إخبارٌ مِنَ الله -تعالىٰ- عمَّا دعا به موسىٰ عليه السلام علىٰ فرعون ومَلَئِه، لما أَبَوْا قبول الحق[٣]، واستمروا علىٰ ضلالهم وكفرهم معاندين جاحدين، ظلمًا وعلوًّا، وتكبرًا وعتوًّا، قال: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيۡتَ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً﴾ أي: من أثاث الدنيا ومتاعها، ﴿وَأَمۡوَٰلًا﴾ أي: جزيلةً كثيرةً ﴿فِي﴾ هذه ﴿ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا رَبَّنَا لِيَضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ﴾ -بفتح الياء- أي: أعطيتهم ذلك وأنت تعلم أنَّهم لا يُؤْمِنُون بما أرسلتني به إليهم استدراجًا منك لهم، كما قال تعالىٰ: ﴿لِنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِ﴾.

وقرأ آخرون: ﴿لِيُضِلُّواْ﴾ بضم الياء[٤]؛ أي: ليفتتن بما أعطيتهم من شئت من خلقك، ليَظُن مَن أغويته أنك إنما أعطيت هؤلاء هذا لِحُبِّك لهم واعتنائك بهم.

﴿رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ﴾ قال ابن عبَّاس، ومجاهد: أي: أهلكها. وقال الضَّحَّاك، وأبو العالية، والربيع بن أنس: جعلها الله حجارةً منقوشةً كهيئة ما كانَتْ.

---

(١) حسن: رواه الطبري (١/ ٢٦٠)، وأبو داود (١٣١٩)، وأحمد (٥/ ٣٨٨)، وقد تقدم عند تفسير الآية (٤٥) من سورة البقرة.

(٢) ضعيف: رواه الطبري (١١/ ١٥٤)، عطية العوفي: شيعي مدلس. (٣) لوحة (٣٠٢ ب).

(٤) متواترة: قرأ (لِيُضِلُّوا) عَاصِمٌ وَحَمْزَةُ وَالْكِسَائِيُّ وَخَلَفٌ (فِي اخْتِيَارِهِ) وَوَافَقَهُمُ الْحَسَنُ وَالْمُطَّوِّعِيُّ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ (لِيَضِلُّوا).

وقال قتادة: بلغنا أنَّ زروعهم تحوَّلت حجارةً.

وقال محمَّد بن كعب القُرَظي: اجعل سُكَّرهم [حجارة](١).

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا إسماعيل بن أبي الحارث، حدَّثنا يحيىٰ بن أبي بُكَيْر، عن أبي مَعْشَر، حدَّثني محمَّد بن قيس: أن محمَّد بن كعب قرأ سورة يونس علىٰ عمر بن عبد العزيز [حتَّىٰ بلغ](٢): ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ﴾ إلىٰ قوله: ﴿ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ إلىٰ آخرها فقال له عمر: [يا أبَا حمزة، أيُّ شيءٍ الطَّمس؟ قال: عادت أموالهم كلُّها حجارة، فقال عمر](٣) بن عبد العزيز لغلام له: ائْتِني بكيسٍ. [فجاءه بكيسٍ](٤) فإذا فيه حِمَّصٌ وبيضٌ، قَد قُطِّعَ قَدْ حُوِّلَ حِجَارةً(٥).

وقوله: ﴿وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ قال ابن عبَّاس: أي اطبع عليها، ﴿فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾.

وهذه الدَّعوة كانت من موسىٰ عليه السلام غضبًا لله ولِدِينِهِ علىٰ فرعون وملئِهِ، الذين تبيَّن له أنَّه لا خير فيهم، ولا يَجِيءُ منهم شيءٌ كما دعا نوح عليه السلام فقال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح: ٢٦، ٢٧]؛ ولهذا استجاب الله -تعالىٰ- لموسىٰ عليه السلام فيهم هذه الدعوة، التي أمَّنَ عليها أخوه هارون(٦)، فقال تعالىٰ: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾.

قال أبو العالية، وأبو صالح، وعكرمة، ومحمَّد بن كعب القرظي، والربيع بن أنس: دعا موسىٰ وأَمَّنَ هارون؛ أي: قد أجبناكما فيما سألتما مِن تدمير آل فرعون.

وقد يَحتجُّ بهذه الآية من يقول: إنَّ تأمين المأموم علىٰ قراءَةِ الفاتحة يُنَزَّل منزلة قراءتها؛ لأنَّ موسىٰ دعا وهارون أَمَّن.

وقال تعالىٰ: ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا [وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: كما أُجِيبَت دعوتكما فاستقيما](٧) علىٰ أَمْرِي.

قال ابن جُرَيْج: عن ابن عبَّاس: ﴿فَٱسْتَقِيمَا﴾ فامْضِيَا لأَمْرِي، وهي الاستقامة. قال ابن جريج: يقولون: إنَّ(٨) فرعون مكث بعد هذه الدَّعوة أربعين سنةً.

وقال محمَّد بن علي بن الحسين: أربعين يومًا.

---

(١) سقط من (ز).

(٢) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

(٣) سقط من (ز).

(٤) سقط من (ز).

(٥) ورد هكذا في (ز)، وهو موافق لما عند «ابن أبي حاتم»، وورد في بعض النسخ: (قد قُطِّعَ حُوِّلَ حجارة).

(٦) **قال الإمام السعدي رحمه الله:** هذا دليلٌ علىٰ أن موسىٰ، كان يدعو، وهارون يُؤَمِّنُ علىٰ دعائه، وأن الذي يؤمن يكون شريكًا للداعي في ذلك الدعاء.

(٧) سقط من (ز).

(٨) لوحة (٣٠٣أ).

﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ
ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ
وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ
عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾﴾

يذكر تعالىٰ كيفية إغراقه فرعون وجنوده؛ فإن بني إسرائيل لما خرجوا من مصر صُحْبة موسىٰ عليه السلام، وهم -فيما قيل- ستمائة ألف مقاتل سوىٰ الذُّرِّيَّة، وقد كانوا استعاروا من القبط حُليًّا كثيرًا، فخرجوا به معهم، فاشتدَّ حَنَق فرعون عليهم، فأرسل في المدائن حاشرين يجمعون له جنوده مِن أقاليمه، فركب وراءهم في أُبَّهَةٍ عظيمةٍ، وجيوشٍ هائلةٍ لما يريده الله -تعالىٰ- بهم، ولم يتخلَّف عنه أحدٌ ممَّن له دولةٌ وسلطانٌ في سائر مملكته، فلَحِقوهُم وقت شروق الشمس، ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ [الشعراء: ٦١] وذلك أنَّهم [لما](١) انتهوا إلىٰ ساحل البحر، وأدركهم فرعون، ولم يبق إلا أن يتقاتل الجمعان، وألَحَّ أصحاب موسىٰ عليه السلام عليه في السُّؤال كيف المخلص مما نحن فيه؟ فيقول: إنِّي أمرت أن أسلك هاهنا، ﴿قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢].

فعندما ضاق الأمر اتَّسع، فأمره الله -تعالىٰ- أن يضرب البحر بعَصَاه، فضربه فانفلق البَحْرُ، ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الشعراء: ٦٣] أي: كالجبل العظيم، وصار اثني عشَرَ طريقًا، لكلِّ سِبْطٍ واحدٌ. وأمر الله الريح فنَشَّفت أرضه، ﴿فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ﴾ [طه: ٧٧] وتخرق الماء بين الطرق كهيئة الشَّبابيك؛ ليرىٰ كلُّ قوم الآخرين؛ لئلَّا يظنُّوا أنَّهم هلكوا.

وجازت بنو إسرائيل البحر، فلما خرج آخرهم منه انتهىٰ فرعون وجنوده إلىٰ حافته من النَّاحية الأخرىٰ، وهو في مائة ألف أدهم(٢) سوىٰ بقيَّة الألوان، فلما رأىٰ ذلك هاله وأَحْجَم، وهاب وهَمَّ بالرُّجوع، وهيهات ولات حين مناص، نفَذَ القدر، واستجيبت الدعوة. وجاء جبريل عليه السلام علىٰ فرس -وديق حائل(٣)- فمَرَّ إلىٰ جانب حصان فرعون فحَمْحَمَ، إليها وتقدَّم جبريل فاقتحم البحر ودخله، فاقْتَحَم الحصان وراءَهُ، ولم يبقَ فرعونُ يملك من نفسه شيئًا(٤)، فتَجَلَّد لأُمَرائِهِ، وقال لهم: ليس بنو إسرائيل بأحقَّ بالبحر منَّا، فاقتحموا كلهم عن آخرهم، وميكائيل في ساقتهم، لا يترك أحدًا منهم إلا ألحقه بهم. فلما استوسقوا(٥) فيه وتكامَلُوا، وهَمَّ أوَّلهم بالخروج منه، أمر اللهُ القدير البحرَ أن يَرْتَطِمَ عليهم، فارتطم عليهم، فلم يَنْجُ منهم أحدٌ، وجعلت الأمواج ترفعهم وتخفضهم، وتراكمت الأمواج فوق فرعون، وغَشِيَتْهُ سكرات الموت، فقال وهو كذلك: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ فآمن حيث لا ينفعه الإيمان، ﴿فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا

---

(١) سقط من (ز). (٢) الأدهم: الفرس الأسود.
(٣) الوَدِيق: التي تَشْتَهِي الفَحْل. «النهاية». (٤) لوحة (٣٠٣ ب). (٥) أي: اجتمعوا.

بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [غافر: ٨٤، ٨٥].

وهكذا قال الله -تعالىٰ- في جواب فرعون حين قال ما قال: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ﴾ أي: أهذا الوقت تقولُ، وقد عصيت الله قبل هذا فيما بينك وبينه؟ ﴿وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ أي: في الأرض الذين أضلوا الناس، ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ [القصص: ٤١].

وهذا الذي حكىٰ الله -تعالىٰ- عن فرعون مِن قوله هذا في حَالِهِ ذاك مِن أسرار الغيب الَّتِي أعلم الله بها رسوله؛ ولهذا قال الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

حدَّثنا سليمان بن حرب، حدَّثنا حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن يوسف بن مهْران، عن ابن عبَّاس قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَمَّا قَالَ فِرْعَوْنُ: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ قَالَ: قَالَ لِي جِبْرِيلُ: يَا [مُحَمَّدُ][1] لَوْ رَأَيْتَنِي وَقَدْ أَخَذْتُ [حَالًا][2] مِنْ حَالِ[3] الْبَحْرِ، فَدَسَسْتُهُ فِي فِيهِ مَخَافَةَ أَنْ تَنَالَهُ الرَّحْمَةُ**»[4].

ورواه الترمذي، وابن جرير، وابن أبي حاتم في «تفاسيرهم»، من حديث حماد بن سلمة به، وقال الترمذي: حديث حسن.

وقال أبو داود الطيالسي: حدَّثنا شعبة، عن عدي بن ثابت وعطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عبَّاس قال: قال رسول الله ﷺ: «**قَالَ لِي جِبْرِيلُ: لَوْ رَأَيْتَنِي وَأَنَا آخُذُ مِنْ حَالِ الْبَحْرِ، فَأَدُسُّهُ فِي فَمِ فِرْعَوْنَ مَخَافَةَ أَنْ تُدْرِكَهُ الرَّحْمَةُ**». وقد رواه أبو عيسىٰ التِّرمذي أيضًا، وابن جرير أيضًا، من غير وجه، عن شعبة به، وقال الترمذي: حسن غريب صحيح[5].

ووقع في روايةٍ عند ابن جرير، عن محمَّد بن المثنىٰ، عن غُنْدَر، عن شعبة، عن عطاء وعَدِيّ، عن سعيد، عن ابن عبَّاس، رفعه أحدهما -وكأن[6] الآخر لم يرفعه، فالله أعلم.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبو سعيد الأشَجُّ، حدَّثنا أبو خالد الأحمر، عن عمر بن عبد الله بن يَعْلَىٰ الثقفي، عن سعيد بن جُبَيْر، عن ابن عبَّاس قال: لما أغرق الله فرعون، أشار بأصبعه ورفع صوته: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ قال: فخاف جبريل أن تسبق رحمةُ الله فيه غَضَبَهُ، فجعل يأخُذُ الحال بجناحيه فيضرب به وجهه فيَرْمُسُه[7].

---

(١) سقط من (ز). (٢) سقط من (ز). (٣) الحال: الطين الأسود.

(٤) إسناده ضعيف: رواه الترمذي (٣١٠٦)، وابن جرير (١١/ ١٦٣)، وأحمد (١/ ٣٠٩)، وفي إسناده ضعف من أجل علي بن زيد، لكن يشهد له الرواية التي بعده.

(٥) صحيح: رواه الطيالسي (٢٦١٨)، والترمذي (٣١٠٧)، وابن جرير (١١/ ١٦٣)، وقد ثبت موقوفًا.

(٦) لوحة (٣٠٤ أ).

(٧) رواه ابن أبي حاتم (٦/ ١٠٥٦٣)، والطبري (١١/ ١٦٤)، وفي إسناده عُمر بن عبد الله بن يعلىٰ: ضعيف، لكن يشهد له ما تقدم.

وكذا رواه ابن جرير، عن سفيان بن وَكِيع[(١)]، عن أبي[(٢)] خالد به موقوفًا.

وقد روي من حديث أبي هريرة أيضًا، فقال ابن جرير:

حدَّثنا ابن حميد، حدَّثنا حَكَّام، عن عَنْبَسة -هو ابن سعيد- عن كثير بن زاذان، عن أبي حازم، عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«قَالَ لِي جِبْرِيلُ: يَا مُحَمَّدُ، لَوْ رَأَيْتَنِي وَأَنَا أَغُطُّهُ وَأَدُسُّ مِنَ الحَالِ فِي فِيهِ، مَخَافَةَ أَنْ تُدْرِكَهُ رَحْمَةُ اللهِ فَيَغْفِرَ لَهُ»** يعني: فرعون[(٣)].

كثير بن زاذان هذا قال ابن مَعِين: لا أعرفه، وقال أبو زُرْعَة وأبو حاتم: مجهول، وباقي رجاله ثقات.

وقد أرسل هذا[(٤)] الحديث جماعة من السلف: قتادة، وإبراهيم التيمي، وميمون بن مِهْران. ونقل عن الضَّحَّاك بن قيس: أنه خطب بهذا للنَّاس، فالله أعلم.

وقوله: ﴿ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ﴾ قال ابن عبَّاس وغيره من السلف: إنَّ بعض بني إسرائيل شكُّوا في موت فرعون، فأمر الله -تعالىٰ- البحر أن يُلْقِيَه بجسده بلا روح، وعليه درعه المعروفة به علىٰ نجوةٍ من الأرض وهو المكان المرتفع؛ ليتحقَّقُوا موته وهلاكه؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ ﴾ أي: نرفعك علىٰ نَشزٍ من الأرض، ﴿بِبَدَنِكَ ﴾ قال مجاهد: بجسدك. وقال الحسن: بجسم لا روح فيه. وقال عبد الله بن شداد: سويًّا صحيحًا؛ أي: لم يتمزَّق ليتحقَّقوه ويعرفوه. وقال أبو صخر: بدرعك، وكل هذه الأقوال لا منافاة بينها، كما تقدَّم، والله أعلم.

وقوله: ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ﴾ أي: لتكون لبني إسرائيل دليلًا علىٰ موتك وهلاكك، وأنَّ الله هو القادر الذي ناصية كل دابَّةٍ بيده، وأنَّه لا يقوم لغضبه شيء؛ ولهذا قرأ بعض السلف: ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خلَقَكَ[(٥)] ءَايَةً ﴾.

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴾ أي: لا يَتَّعِظون بها، ولا يعتبرون. وقد كان إهلاك فرعون [وملئه][(٦)] يوم عاشوراء، كما قال البخاري:

حدَّثنا محمَّد[(٧)] بن بشار، حدَّثنا غُنْدَر، حدَّثنا شعبة، عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن

---

(١) زادت بعض الطَّبعات هنا: [ثنا أبي] بين سفيان بن وكيع وأبي خالد الأحمر، وهي غير مثبتةٍ في أي نسخةٍ خطيَّةٍ لـ«تفسير ابن كثير»، وزعم البعض أيضًا هكذا في «تفسير الطبري»، وبالرجوع لطبعة هجر من «تفسير الطبري» تبيَّن أنَّها غير مثبتة، وكذا في طبعة الشيخ شاكر للطبري، أضف إلىٰ هذا أن سفيان بن وكيع هو الذي يروي عن أبي خالد الأحمر سليمان بن حيان الأزدي دون واسطة، وبتصريح بالسماع، كما عند التِّرمذي -مثلًا- (٣٥٢)، ولم أقف علىٰ رواية لوكيع عن أبي خالد، فهذا خطأٌ منهجيٌ بيِّنٌ واضحٌ وتدخلٌ غير سديدٍ!!!.

(٢) في (ز): «عن ابن أبي خالد»، وهو خطأ، والصواب ما أثبتناه.

(٣) رواه ابن جرير (١١/ ١٦٣)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٨٩٤٤)، وفيه كثير بن زاذان: مجهول، لكنه توبع، فقد رواه الطبراني في «الأوسط» (٦/ ٥٨٢٣) من طريق أخرىٰ وفيها ضعف، قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» فيه قيس بن الربيع: وثَّقه شعبة والثوري وضعَّفه آخرون، ويشهد له أثر ابن عبَّاس السابق.

(٤) في (ز): «وقد أرسل علىٰ هذا».

(٥) قراءة: قَرَأَ (خَلَقَكَ) عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ وَأَبُو السَّمَّالِ وَابْنُ السَّمَيْفَعِ وَأَبُو الْمُتَوَكِّلِ وَأَبُو الْجَوْزَاءِ، وَلَيْسَ فِي الْمُتَوَاتِرِ إِلَّا (خَلْفَكَ).

(٦) سقط من (ز). (٧) لوحة (٣٠٤ بَ).

عبَّاس قال: قدم النَّبيُّ ﷺ المدينَة، واليهود تصوم يوم عاشوراء فقالوا: هذا يوم ظهر فيه موسىٰ علىٰ فرعون. فقال النَّبيُّ ﷺ لأصحابه: «أَنْتُمْ أَحَقُّ بِمُوسَىٰ مِنْهُمْ، فَصُومُوهُ»[١].

﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾﴾

يخبر تعالىٰ عمَّا أنعم به علىٰ بني إسرائيل من النِّعم الدينيَّة والدنيويَّة فـ﴿مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾ قيل: هو بلاد مصر والشام، مما يلي بيت المقدس ونواحيه، فإنَّ الله تعالىٰ لما أهلك فرعون وجنوده استقرَّت يد الدولة الموسويَّة علىٰ بلاد مصر بكمالِهَا، كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٧] وقال في الآية الأخرىٰ: ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ[٢] وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء: ٥٧-٥٩] ولكن استمروا مع موسىٰ عليه السلام طالبين إلىٰ بلاد بيت المقدس [وهي بلاد الخليل عليه السلام فاستمرَّ موسىٰ بمَن معه طالبًا بيت المقدس][٣] وكان فيه قوم من العمالِقَة، [فنكل بنو إسرائيل عن قتال العمالِقَة][٤] فشرَّدهم الله تعالىٰ في التِّيه أربعين سنةً، ومات في أثنائها هارون، ثم موسىٰ -عليهما السلام- وخرجوا بعدهما مع يوشع بن نون، ففتح الله عليهم بيت المقدس، واستقرَّت أيديهم عليها إلىٰ أنَّ أخذها منهم بُخْتَنَصَّر حينًا من الدَّهر، ثم عادَت إليهم، ثم أخذها ملوك اليُونان، وكانت تحت أحكامِهِم مدَّةً طويلةً، وبعث الله عيسىٰ ابن مريم عليه السلام في تلك المدة، فاستعانت اليهود -قبحهم الله- علىٰ معاداة عيسىٰ عليه السلام بملوك اليونان، وكانت تحت أحكامهم، ووَشوا عندهم، وأوحوا إليهم أن هذا يُفْسِد عليكم الرَّعايا، فبعثوا من يقبض عليه، فرفعه الله إليه، وشُبِّه لهم بعض الحوارِيِّين بمشيئةِ الله وقَدَرِهِ فأخذوه فصلبوه، واعتقدوا أنَّه هو ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٥٧، ١٥٨] ثم بعد المسيح عليه السلام بنحوٍ من ثلاثمائة سنة، دخل قُسطَنْطِين -أحد ملوك اليونان- في دين النصرانيَّة، وكان فيلسوفًا قبل ذلك. فدخل في دين النَّصارىٰ[٥] قيل: تقية، وقيل: حيلةً ليفسده، فوضعت له الأساقفة منهم قوانين وشريعةً وبدعًا أحدثوها، فبنىٰ لهم الكنائِس والبِيَع الكبار والصغار، والصوامع والهياكل، والمعابد، والقلايات. وانتشر دين النصرانيَّة في ذلك الزَّمان، واشتهر علىٰ ما فيه مِن تبديل وتغييرٍ وتحريفٍ، ووضع وكذبٍ، ومخالفةٍ لدين المسيح. ولم يبقَ علىٰ دين المسيح علىٰ الحقيقة منهم إلا القليل من الرُّهبان، فاتَّخذوا لهم الصَّوامع في البراري والمهامه والقفار، واستحوذت يدُ النَّصارىٰ علىٰ مملكة الشَّام والجزيرة وبلاد الرُّوم، وبنىٰ هذا الملك المذكور مدينة قسطنطينية، والقُمَامة، وبيت لحم، وكنائس بلاد بيت المقدس، ومُدُن حوران، كبُصرىٰ وغيرها من البلدان بناءات هائلة محكمة،

---

(١) البخاري (٤٦٨٠)، ومسلم (١١٣٠)، وأبو داود (٢٤٤٤).

(٢) في (ز): «وزروع». وهو موضع آخر.

(٣) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

(٤) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

(٥) لوحة (٣٠٥ أ).

وعبدوا الصليب من حينئـذٍ، وصَلُّوا إلىٰ الشرق، وصوَّرُوا الكنائس، وأحَلُّوا لحم الخنزير، وغير ذلك مما أَحْدَثُوه من الفروع في دينهم والأصول، ووضعوا له الأمانة الحقيرة(١)، التي يسمونها الكبيرة، وصنَّفوا له القوانين، وبسط هذا [يطول](٢).

والغرض أنَّ يَدَهُم لم تزل علىٰ هذه البلاد إلىٰ أن انتزعها منهم الصحابة ﷺ، وكان فتح بيت المقدس علىٰ يدي أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ، ولله الحمد والمنَّة.

وقوله: ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ أي: الحلال من الرِّزق الطَّيِّب النَّافع المستطاب طبعًا وشرعًا.

وقوله: ﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ أي: ما اختلفوا في شيءٍ من المسائل إلا من بعد ما جاءهم العلم؛ أي: ولم يكن لهم أن يختلفوا، وقد بيَّن الله لهم وأزال عنهم اللَّبس.

وقد ورد في الحديث: «**أَنَّ الْيَهُودَ اخْتَلَفُوا عَلَىٰ إِحْدَىٰ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَأَنَّ النَّصَارَىٰ اخْتَلَفُوا عَلَىٰ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَسَتَفْتَرِقُ هَذِهِ الأُمَّةُ عَلَىٰ ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، مِنْهَا وَاحِدَةٌ فِي الْجَنَّةِ، وَثِنْتَانِ وَسَبْعُونَ فِي النَّارِ**». قيل: من هم يا رسول الله؟ قال: «**مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي**»(٣).

رواه الحاكم في «مستدركه» بهذا اللفظ، وهو في «السُّنن» و«المسانيد»، ولهذا قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ﴾ أي: يفصل بينهم ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ(٤) لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ(٥) ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ

---

(١) في (ز): «الكبيرة الحقيرة». (٢) سقط من (ز).

(٣) **صحيح**: تقدم انظر تفسير الآية (٧) من سورة آل عمران.

(٤) **قال القاسمي** رحمه الله: (وفي الآية تنبيه علىٰ أن كل من خالجته شبهة في الدِّين ينبغي أن يسارع علىٰ حلها بمقادحة العلماء المنبهين علىٰ الحق).

(٥) **قال الإمام السعدي** رحمه الله: فإن قيل: إن كثيرًا من أهل الكتاب من اليهود والنصارىٰ، بل ربما كان أكثرهم ومعظمهم كذبوا رسول الله وعاندوه، وردوا عليه دعوته. والله تعالىٰ أمر رسوله أن يستشهد بهم، وجعل شهادتهم حجةً لما جاء به، وبرهانًا علىٰ صدقه، فكيف يكون ذلك؟

فالجواب عن هذا، من عدة أوجه:

منها: أن الشهادة إذا أضيفت إلىٰ طائفة، أو أهل مذهب، أو بلد ونحوهم، فإنها إنما تتناول العدول الصادقين منهم، وأما من عداهم، فلو كانوا أكثر من غيرهم فلا عبرة فيهم؛ لأن الشهادة مبنيةٌ علىٰ العدالة والصدق، وقد حصل ذلك بإيمان كثير من أحبارهم الربانيين، كـ «عبد الله بن سلام» وأصحابه، وكثير ممن أسلم في وقت النبي ﷺ، وخلفائه، ومن بعده و «كعب الأحبار» وغيرهما.

ومنها: أن شهادة أهل الكتاب للرسول ﷺ مبنيةٌ علىٰ كتابهم التوراة الذي ينتسبون إليه. فإذا كان موجودًا في التوراة ما يوافق القرآن ويصدقه، ويشهد له بالصحة، فلو اتفقوا من أولهم لآخرهم علىٰ إنكار ذلك، لم يقدح بما جاء به الرسول.

ومنها: أن الله -تعالىٰ- أمر رسوله أن يستشهد بأهل الكتاب علىٰ صحة ما جاءه، وأظهر ذلك وأعلنه علىٰ رءوس الأشهاد.

ومن المعلوم أن كثيرًا منهم من أحرص الناس علىٰ إبطال دعوة الرسول محمد ﷺ، فلو كان عندهم ما يرد ما ذكره الله، لأبدوه وأظهروه وبينوه، فلما لم يكن شيء من ذلك، كان عدم رد المعادي، وإقرار المستجيب من أدلِّ الأدلة علىٰ صحة هذا القرآن وصدقه.

=

مِنَ[1] ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾

قال قتادة بن دعامة: بَلَغَنا أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**لا أَشُكُّ وَلا أَسْأَلُ**»[2].

وكذا قال ابن عبَّاس[3]، وسعيد بن جبير، والحسن البصري، وهذا فيه تثبيتٌ للأُمَّة، وإعلامٌ لهم أن صفة نبيهم ﷺ موجودةٌ في الكتب المتقدمة التي بأيدي أهل الكتاب، كما قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ الآية [الأعراف: ١٥٧]. ثمَّ مع هذا العلم يعرفونه من كتبهم كما يعرفون أبناءهم، يلبسون ذلك ويحرفونه ويبدلونه، ولا يؤمنون به مع قيام الحجة عليهم؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ أي: لا يؤمنون إيمانًا ينفعهم، بل حين لا ينفع نفسًا إيمانها؛ ولهذا لما دعا موسىٰ عليه السلام علىٰ فرعون وملئِهِ قال: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٨٨]، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ [الأنعام: ١١١] ثم قال تعالىٰ:

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾﴾

يقول تعالىٰ: فهلَّا كانت قريةٌ آمنت بكمالها من الأُمَمِ السَّالِفَةِ الذين بعثنا إليهم الرُّسل، بل ما أرسلنا مِن قبلك -يا محمَّد- مِن رسول إلا كذَّبه قومه، أو أكثرهم كما قال تعالىٰ: ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [يس: ٣٠]، ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات: ٥٢]، ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣]، وفي الحديث الصحيح: «**عُرِضَ عَلَيَّ الأَنْبِياءُ، فَجَعَلَ النَّبِيُّ يَمُرُّ وَمَعَهُ الفِئَامُ مِنَ النَّاسِ، وَالنَّبِيُّ مَعَهُ الرَّجُلُ، وَالنَّبِيُّ مَعَهُ الرَّجُلانِ، وَالنَّبِيُّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ**» ثم ذكر كثرة أتباع موسىٰ

= ومنها: أنه ليس أكثر أهل الكتاب رد دعوة الرسول، بل أكثرهم استجاب لها، وانقاد طوعًا واختيارًا، فإن الرسول بعث وأكثر أهل الأرض المتدينين أهل كتاب، فلم يمكث دينه مدةً غير كثيرة، حتىٰ انقاد للإسلام أكثر أهل الشام، ومصر، والعراق، وما جاورها من البلدان التي هي مقر دين أهل الكتاب، ولم يبقَ إلا أهل الرياسات الذين آثروا رياساتهم علىٰ الحق، ومن تبعهم من العوام الجهلة، ومن تدين بدينهم اسمًا لا معنًىٰ، كالإفرنج الذين حقيقة أمرهم أنهم دهرية منحلون عن جميع أديان الرسل، وإنما انتسبوا للدين المسيحي؛ ترويجًا لملكهم، وتمويهًا لباطلهم، كما يعرف ذلك من عرف أحوالهم البينة الظاهرة.

(١) لوحة (٣٠٥ ب).

(٢) ضعيف: رواه ابن أبي شيبة (٦/ ١٢٥)، والطبري (١١/ ١١٦)، وإسناده مرسل، ولكن الصحيح ما رواه ابن عبَّاس وهو التعليق الآتي.

(٣) رواه ابن أبي حاتم (١٠٥٨٣)، والضياء في «المختارة» (٩١).

عَلَيْهِ السَّلَامُ ثم ذكر كثرة أُمَّته -صلوات الله وسلامه عليه- كثرةً سدَّت الخافقين الشَّرقِيِّ والغَرْبِيِّ(١)(٢).

والغرض أنَّه لم توجد قريةٌ آمنت بكمالها بنبيهم ممن سلف من القرىٰ، إلا قوم يونس، وهم أهل نِينَوىٰ ، وما كان إيمانهم إلا خوفًا من وصول العذاب الذي أنذرهم به رسولهم، بعد ما عاينوا أسبابه، وخرج رسولهم مِن بين أظهرهم، فعندها جأروا إلىٰ الله واستغاثوا به، وتضرَّعوا لديه، واستكانوا وأحضروا أطفالهم ودوابَّهم ومواشيهم، وسألوا الله تعالىٰ أن يرفع عنهم العذاب الذي أنذرهم به نبيهم. فعندها رحمهم الله، وكشف عنهم العذاب وأُخِّرُوا(٣)، كما قال تعالىٰ: ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾.

واختلف المفسِّرون: هل كُشِف عنهم العذاب الأخروي مع الدنيوي؟ أو إنما كشف عنهم في الدُّنيا فقط؟ علىٰ قولين. أحدهما: إنما كان ذلك في الحياة الدنيا، كما هو مقيدٌ في هذه الآية. والقول الثاني فيهما لقوله تعالىٰ: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُواْ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [الصافات: ١٤٧، ١٤٨] فأطلق عليهم الإيمان، والإيمان منقذ من العذاب الأخروي، وهذا هو الظاهر، والله أعلم.

قال قتادة في تفسير هذه الآية: لم ينفع قرية كفرت ثم آمنت حِينَ حضرها العذاب، فتركت، إلا قوم يونس، لما فقدوا نبيهم وظنُّوا أن العذاب قد دنا منهم، قذف الله في قلوبهم التَّوبة، ولبسوا المسوح، وفرَّقوا بين كل بهيمةٍ وولدها ثم عَجُّوا(٤) إلىٰ الله أربعين ليلة. فلما عرف الله منهم الصِّدق من قلوبهم، والتَّوبة والنَّدامة علىٰ ما مضىٰ منهم كشف الله عنهم العذاب بعد أن تدلَّىٰ عليهم، قال قتادة: وذكر أن قوم يونس كانوا بنِينَوىٰ أرض الموصل.

وكذا روي عن ابن مسعود، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وغير واحدٍ من السلف، وكان ابن مسعود يقرؤها: «فَهَلَّا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ».

وقال أبو عمران، عن أبي الجَلْد قال: لما نزل بقوم يونس العذاب، جعل يدورُ علىٰ رءوسهم كقِطَعِ الليل المظلم، فمشوا إلىٰ رجلٍ مِن علمائهم فقالوا: عَلِّمنا دعاءً ندعوا به، لعلَّ الله يكشف عنَّا العذاب، فقال: قولوا: يا حيُّ حين لا حيَّ، يا محيي الموتىٰ لا إله إلا أنت. قال: فكشف عنهم العذاب. وتمام القصَّة سيأتي(٥) مفصلًا في سورة الصَّافَّات إن شاء الله.

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَـَٔامَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ(٦) إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾﴾

---

(١) لوحة (٣٠٦ أ). (٢) البخاري (٦٥٤١)، ومسلم (٢٢٠).

(٣) قال الإمام القاسمي رَحِمَهُ اللَّهُ: يروي بعض المفسرين هنا أن العذاب تدلىٰ عليهم وغشيهم، وجعل يدور علىٰ رءوسهم، وغامت السماء غيمًا أسود، ونحو هذا. وليس في التنزيل بيانٌ لهذا، ولا في صحيح السنة، وكأن من زعمه فهمه من لفظ: ﴿كَشَفْنَا﴾، ولا صراحة فيه.

(٤) عَجّ عجًّا وعجة وعجيجًا: رفع صوته وصاح، يقال: عج إلىٰ الله بالدعاء، وعج بالتلبية في الحج. «المعجم الوسيط»: (ص: ٥٨٤).

(٥) لوحة (٣٠٦ ب). (٦) في (ز): «أن تموت»، وهو موضع آخر.

يقول تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ﴾ -يا محمد- لأذِن لأهل الأرض كلهم في الإيمان بما جئتهم به، فآمنوا كلّهم، ولكن له حكمةٌ فيما يفعله تعالى كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [الرعد: ٣١]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ﴾ [أي: تلزمهم وتلجئهم][1] ﴿حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ أي: ليس ذلك عليك ولا إليك، بل إلى الله ﴿يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾ [فاطر: ٨]، ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣]، ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦]، ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠]، ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ (٢١) لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية: ٢١، ٢٢] إلى غير ذلك من الآيات الدالَّة على أنَّ الله -تعالى- هو الفعَّال لما يُريد، الهادي من يشاء، المضلُّ لمن يشاء، لعلْمِهِ وحكمَتِهِ وعدْلِهِ؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ﴾ وهو الخبال والضَّلال، ﴿عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أي: حججَ الله وأدلته، وهو العادل في كلِّ ذلك، في هداية من هدى، وإضلال مَن ضلَّ.

﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ (١٠١) فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ قُلْ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ (١٠٢) ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٣)﴾

يرشدُ تعالى عباده إلى التفكُّر في آلائه، وما خلق في السموات والأرض من الآيات الباهرة لذَوِي الألباب، مما في السَّموات من كواكب نيِّرات، ثوابت وسيَّارات، والشمس والقمر، واللَّيل والنهار واختلافهما، وإيلاج أحدهما في الآخر، حتى يطول هذا ويقصر هذا، ثم يقصر هذا ويطول هذا، وارتفاع السَّماء واتِّساعها، وحسنها وزينتها، وما أنزل الله منها مِن مطرٍ فأحيا به الأرض بعد موتها، وأخرج فيها مِن أفانين الثِّمار والزروع والأزاهير، وصنوف النَّبات، وما ذرأ فيها من دواب مختلفة[2] الأشكال والألوان والمنافع، وما فيها من جبالٍ وسهولٍ وقفار وعمرانٍ وخرابٍ. وما في البحر من العجائب والأمواج، وهو مع هذا [مسخر][3] مذلل للسالكين، يحمل سفنهم، ويجري بها برفق [بتسخير][4] القدير له، لا إله إلا هو، ولا رب سواه.

---

(١) سقط من (ز). (٢) لوحة (٣٠٧ أ).
(٣) سقط من (ز). (٤) سقط من (ز).

وقوله: ﴿وَمَا تُغْنِي ٱلْآيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: وأي شيءٍ تُجدي الآيات السَّماويَّة والأرضية، والرسل بآياتها وحججها وبراهينها الدَّالَّة علىٰ صدقها، عن قوم لا يؤمنون، كما قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس].

وقوله: ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: فهل ينتظر هؤلاء المُكَذِّبون لك -يا محمَّد- من النِّقمة والعذاب إلا مثل أيام الله في الذين خلوا من قبلهم من الأمم المكذبة لرسلهم، ﴿قُلْ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: ونهلك المكذبين بالرسل، ﴿كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: حقًّا أوجبه تعالىٰ علىٰ نفسه الكريمة؛ كقوله: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام :٥٤] كما جاء في «الصحيحين» عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إِنَّ اللهَ كَتَبَ كِتَابًا فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ العَرْشِ: إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي»[1].

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾﴾

يقول تعالىٰ لرسوله محمَّدٍ -صلوات الله وسلامه عليه-: قل: يا أَيُّها النَّاس، إن كنتم في شَكٍّ من صحة ما جئتكم من الدِّين الحنيف، الذي أوحاه الله إليَّ، فها أنا لا أعبد الذين تعبدون مِن دون الله، ولكن أعبد الله وحده لا شريك له، وهو الذي يتوفَّاكم كما أحياكم، ثم إليه مرجعكم؛ فإن كانت آلهتكم التي تدعون من دون الله حقًّا، فأنا لا أعبدها فادعوها فلْتَضُرَّني، فإنها لا تضر ولا تنفع، وإنما الذي بيده الضُّرُّ والنَّفع هو الله وحده لا شريك له، وأمرت أن أكون من المؤمنين.

وقوله[2]: ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ[3] حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، أي: أخلص العبادة لله وحده حنيفا؛ أي: منحرفًا عن الشِّرك؛ ولهذا قال: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ وهو معطوف علىٰ

---

(١) البخاري (٣١٩٤) (٧٤٢٢)، ومسلم (٢٧٥١)، والترمذي (٣٥٣٧)، والنسائي في «الكبرىٰ» (٤/ ٧٧٥٠)، وابن ماجة (١٨٩) (٤٢٩٥).

(٢) لوحة (٣٠٧ ب).

(٣) قال الإمام القاسمي رَحِمَهُ اللهُ: إقامة الوجه للدين كناية عن توجيه النفس بالكلية إلىٰ عبادته تعالىٰ، والإعراض عما سواه، فإنَّ من أراد أن ينظر إلىٰ شيءٍ نظرَ استقصاءٍ يقيم وجهه في مقابلته، بحيث لا يلتفت يمينًا ولا شمالًا؛ إذ لو التفت بطلت المقابلة، فلذا كني به عن صرف العمل بالكلية إلىٰ الدين، فالمراد بالوجه: الذات؛ أي: اصرف ذاتك وكليتك للدين، فاللام صلة.

قوله: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

وقوله: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ﴾ إلىٰ آخرها: بيانٌ لأنَّ الخير والشَّرَّ والنَّفع والضُّرَّ إنَّما هو راجعٌ إلىٰ الله تعالىٰ وحده لا يشاركه في ذلك أحدٌ، فهو الذي يستحق العبادة وحده، لا شريك له.

روىٰ الحافظ ابن عساكر في ترجمة صفوان بن سليم، من طريق عبد الله بن وهب، أخبرني يحيىٰ بن أيوب، عن عيسىٰ بن موسىٰ، عن صفوان بن سليم، عن أنس بن مالك، أن رسول الله ﷺ قال: «اطْلُبُوا الخَيْرَ دَهْرَكُمْ كُلَّهُ، وَتَعَرَّضُوا لِنَفَحَاتِ رَحْمَةِ اللهِ، فَإِنَّ للهِ نَفَحَاتٍ مِنْ رَحْمَتِهِ، يُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، وَاسْأَلُوهُ أَنْ يَسْتُرَ عَوْرَاتِكُمْ، وَيُؤَمِّنَ رَوْعَاتِكُمْ»(١).

ثم رواه من طريق الليث، عن عيسىٰ بن موسىٰ، عن صفوان، عن رجلٍ من أشجع، عن أبي هريرة مرفوعا بمثله سواء(٢).

وقوله: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ أي: لمن تاب إليه وتوكَّل عليه، ولو من أيِّ ذنبٍ كان، حتَّىٰ من الشرك به، فإنَّه يتوب عليه.

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ (١٠٨) وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (١٠٩)﴾

يقول تعالىٰ آمرًا لرسوله -صلوات الله وسلامه عليه- أن يخبر النَّاس أنَّ الذي جاءهم به مِن عند الله هو الحَقُّ الذي لا مِريةَ فيه ولا شكَّ، فمَنِ اهتدَىٰ به واتَّبعه فإنَّما يعود نفع ذلك [الاتِّباع](٣) علىٰ نفسه، [ومن ضلَّ عنه فإنَّما يرجع وبال ذلك عليه](٤).

﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ أي: وما أنا موكَّلٌ بكم حتىٰ تكونوا مؤمنين به، وإنَّما أنا نذيرٌ لكم، والهداية علىٰ الله تعالىٰ.

وقوله: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ﴾ أي: تمسك بما أنزل الله عليك وأوحاه، واصبر علىٰ مخالفةِ مَن خالفك من الناس، ﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ﴾ أي: يفتح بينك وبينهم، ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ أي: خير الفاتحين بعدله وحكمته.

---

(١) ضعيف: أخرجه البغوي في «شرح السنة» (٥/ ١٣٧٨)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٢/ ١١٢١)، وغيرهم، وفيه انقطاع بين صفوان بن سليم وأنس وفيه عيسىٰ بن موسىٰ: لم يوثقه غير ابن حبان، والحديث ضعَّفه الألباني في «الضعيفة» (٢٧٩٨).

(٢) انظر التعليق السابق. (٣) سقط من (ز). (٤) ما بين المعقوفتين ليس في (ز).

سُورَةُ هُودٍ

تفسير سورة هود، وهي مكية

قال الحافظ أبو يعلىٰ: حدَّثنا خلف بن هشام البزار، حدَّثنا أبو الأحوص، عن أبي إسحاق، عن عِكْرِمة قال: قال أبو بكر: سألت رسول الله ﷺ: ما شَيَّبك؟ قال: «شَيَّبَتْني[1] هُودٌ، وَالوَاقِعَةُ، وَعَمَّ يَتَسَاءَلُونَ، وَإِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ»[2].

[وقال أبو عيسىٰ الترمذي: حدَّثنا أبو كُرَيْب محمَّد بن العلاء، حدَّثنا معاوية بن هشام، عن شيبان، عن أبي إسحاق، عن عكرمة، عن ابن عبَّاس قال: قال أبو بكر: يا رسول الله، قد شِبْتَ؟ قال: «شَيَّبَتْني هُودٌ، وَالوَاقِعَةُ، وَالمُرْسَلاتُ، وَعَمَّ يَتَسَاءَلُونَ، وَإِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ»، وفي رواية: «هُودٌ وَأَخَوَاتُهَا»[3]][4].

وقال الطبراني: حدَّثنا عبدان بن أحمد، حدَّثنا حماد بن الحسن، حدَّثنا سعيد بن سلام، حدَّثنا عمر ابن محمَّد، عن أبي حازم، عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «شَيَّبَتْني هُودٌ وَأَخَوَاتُهَا: الوَاقِعَةُ، وَالحَاقَّةُ، وَإِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ»، وفي رواية: «هُودٌ وَأَخَوَاتُهَا»[5].

وقد روي من حديث ابن مسعود، فقال الحافظ أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني في «معجمه الكبير»: حدَّثنا محمَّد بن عثمان بن أبي شيبة، حدَّثنا أحمد بن طارق الرائشي، حدَّثنا عمرو بن ثابت، عن أبي إسحاق، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنَّ أبا بكر قال: يا رسول الله، ما شيَّبكَ؟ قال: «هُودٌ وَالوَاقِعَةُ»[6]. عمرو بن ثابت: متروك، وأبو إسحاق لم يدرك ابن مسعود. والله أعلم.

---

(١) لوحة (٣٠٨أ).

(٢) إسناده مرسل، والحديث صحيح: رواه أبو يعلىٰ (١٠٧-١٠٨) وإسناده مرسل، ولكن صحَّ الحديث كما في الرواية الآتية.

(٣) صحيح: رواه الترمذي (٣٢٩٣)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٩٥٥).

(٤) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

(٥) ضعيف: رواه الطبراني (٥٨٠٤)، قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٣٧): فيه سعيد بن سلام العطار وهو كذاب.

(٦) رواه الطبراني (١٠/ ١٠٠٩٢)، وفيه عمرو بن ثابت: متروك.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ۝٢ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ۝٣ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٤﴾

قد تقدَّم الكلام علىٰ حروف الهجاء في أوَّل سورة البقرة بما أغنَىٰ عن إعادته هاهنا، وبالله التوفيق.

وأما قوله: ﴿أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ أي: هي محكمةٌ في لفظها، مفصَّلةٌ في معناها، فهو كامل صورةً ومعنًى. هذا معنىٰ ما روي عن مجاهد، وقتادة، واختاره ابن جرير. وقوله: ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ أي: من عند الله الحكيم في أقواله وأحكامه، الخبير بعواقب الأمور.

﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ أي: نَزَّلَ هذا القرآنَ المحكَمَ المفصَّلَ لعبادة الله وحده لا شريك له، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥]، قال: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل:٣٦].

وقوله: ﴿إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ أي: إني لكم نذيرٌ من العذاب إن خالفتموه، وبشيرٌ بالثَّواب إن أطعتموه، كما جاء في الحديث الصحيح: أن رسول الله ﷺ صعد الصَّفا، فدعا بطون قريش الأقرب ثم الأقرب، فاجتمعوا، فقال: «يا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، أَرَأَيْتُم لَوْ أَخْبَرْتُكُم أَنَّ خَيْلًا تُصَبِّحُكُم، أَلَسْتُم مُصَدِّقِيَّ؟» فقالوا: ما جرَّبنا عليك كذبًا. قال: «فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ[1]»[2].

وقوله: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾ أي: وآمركم بالاستغفار من الذُّنوب السَّالفة والتَّوبة منها إلىٰ الله ﷻ فيما تستقبلونه، وأن تستمروا علىٰ ذلك، ﴿يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: في الدنيا ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾ أي: في الدَّار الآخرة، قاله قتادة، كقوله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل:٩٧]، وقد جاء في «الصحيح»: أن رسول الله ﷺ قال لسعد: «وَإِنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللهِ إِلَّا أُجِرْتَ بِهَا، حَتَّىٰ مَا تَجْعَلُ فِي فِيِّ امْرَأَتِكَ»[3].

وقال ابن جرير: حدثت عن المسيب بن شريك، عن أبي بكر، عن سعيد بن جُبير، عن ابن مسعود في

---

(١) لوحة (٣٠٨ ب).

(٢) البخاري (١٣٩٤، ٤٧٧٠)، ومسلم (٢٠٨)، والترمذي (٣٣٦٠).

(٣) البخاري (٥٦) (١٣٩٦) (١٢٩٥) (٣٩٣٦)، ومسلم (١٦٢٨) والترمذي (٢١١٦)، والنسائي (١/ ٢٤١)، وابن ماجة (٢٧٠٨).

قوله: ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾ قال: مَن عَمِلَ سيِّئةً كُتِبت عليه سيئة، ومَن عَمِلَ حسنةً كُتِبَت له عشر حسناتٍ؛ فإن عوقب بالسَّيِّئة التي كان عملها في الدُّنيا بَقِيَت له عشر حسنات، وإن لم يُعَاقَب بها في الدُّنيا أخذ من الحسنات العشر واحدةً، وبَقِيَت له تسعُ حسنات. ثم يقول: هلك مَن غلب آحاده[١] أعشاره[٢].

وقوله: ﴿وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ هذا تهديدٌ شديدٌ لمن تولىٰ عن أوامر الله تعالىٰ، وكذَّب رسله، فإنَّ العذاب يناله يوم معاده لا محالة. ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ أي: معادكم ومرجعكم يوم القيامة، ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: وهو القادر علىٰ ما يشاء من إحسانه إلىٰ أوليائه، وانتقامِهِ مِن أعدائه، وإعادة الخلائق يوم القيامة، وهذا مقام التَّرهيب، كما أنَّ الأول مقام ترغيب.

﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ ۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٥﴾

قال ابن عبَّاس: كانوا يَكْرَهُون أن يستقبلوا السَّماء بفروجهم، وحال وقاعهم، فأنزل الله هذه الآية.

رواه البخاري من حديث ابن جُرَيْج، عن محمَّد بن عباد بن جعفر؛ أن ابن عبَّاس قرأ: «أَلَا إِنَّهُمْ تَثْنَوْنِي[٣] صُدُورهُم»، فقلت: يا أبا عبَّاس، ما تَثْنَوْنِي[٤] صدورهم؟ قال: [كان][٥] الرَّجل يجامع امرأته فيستحيي -أو: يتخلىٰ فيستحيي فنزلت: «أَلَا إِنَّهُمْ تَثْنَوْنِي[٦] صُدُورهُم»[٧].

وفي لفظ آخر له: قال ابن عبَّاس: أناس كانوا يستحيون أن يتخلَّوا، فيفضوا إلىٰ السماء، وأن يجامعوا نساءهم [فيفضوا إلىٰ السَّماء][٨] فنزل ذلك فيهم[٩].

قال البخاري: وقال غيره عن ابن عبَّاس: ﴿يَسْتَغْشُونَ﴾: يُغَطُّون رءوسهم.

ثم قال: حدَّثنا الحميدي، حدَّثنا سفيان، حدَّثنا عمرو قال: [قرأ][١٠] ابن عبَّاس «أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنَوْنِي[١١] صُدُورهُم[١٢] لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ[١٣] أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ [ثِيَابَهُم][١٤]»[١٥].

---

(١) في (ز): «آحاده علىٰ...»، والمثبت موافق لما في «الطبري».

(٢) ضعيف جدًّا: رواه الطبري (١١/ ١٨٢)، وفيه المسيب بن شريك -أبو سعيد التميمي- قال يحيىٰ: ليس بشيء، وقال أحمد: ترك النَّاسُ حديثَه، وقال البخاري: سكتوا عنه، وقال مسلم وجماعة: متروك. «ميزان الاعتدال» (٤/ ١١٤).

(٣) في (ز): «يثنون»، والمثبت موافق لما في «صحيح البخاري».

(٤) في (ز): «يثنون»، والمثبت موافق لما في «صحيح البخاري».

(٥) ليست في (ز)، وهي مثبتة في «صحيح البخاري».

(٦) في (ز): «يثنون»، والمثبت موافق لما في «صحيح البخاري».

(٧) البخاري (٤٦٨٢).

(٨) ليست في (ز)، وهي مثبتة في «الصحيح».

(٩) البخاري (٤٦٨١).

(١٠) ليست في (ز)، وهي مثبتة في «الصحيح».

(١١) في (ز): «يثنون»، والمثبت موافق لما في «صحيح البخاري».

(١٢) قراءة: قَرَأَ (تَثْنَوْنِي) ابْنُ عَبَّاسٍ وَعَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ وَالضَّحَّاكُ، وَلَيْسَ فِي الْمُتَوَاتِرِ إِلَّا (يَثْنُونَ).

(١٣) لوحة (٣٠٩ أ).

(١٤) سقط من (ز).

(١٥) البخاري (٤٦٨٣).

وقال ابن عبَّاس في رواية أخرىٰ في تفسير هذه الآية: يعني به الشَّكَّ في الله، وعمل السَّيِّئات [(١)]، وكذا روي عن مجاهد، والحسن، وغيرهم؛ أي: أنَّهم كانوا يَثْنُون صدورهم إذا قالوا شيئًا أو عملوه، يَظُنُّون أنَّهم يستخفون من الله بذلك، فأعلمهم الله -تعالىٰ- أنَّهم حين يستغشون ثيابهم عند منامهم في ظلمة اللَّيل، ﴿يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ﴾ من القول، ﴿وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي: يعلم ما تُكِنُّ صدورهم من النِّيَّات والضَّمائر والسَّرائر. وما أحسن ما قال زهير بن أبي سلمىٰ في معلقته المشهورة:

فَـلا تَكْـتُمُنَّ اللهَ مَـا فِـي نُفُوسِـكُمْ ... لِيَخْفَـىٰ، فَمَهْمَـا يُكْـتَمِ اللهُ يَعْلَـمِ

يُـؤَخَّرْ فَيُوضَـعْ فِـي كِتَـابٍ فَيُـدَّخَرْ ... لِيَـوْمِ الحِـسَابِ [(٢)]، أَوْ يُعَجَّـلْ فَيُـنْقَمِ

فقد اعترف هذا الشاعر الجاهلي بوجود الصَّانع [(٣)] وعلمه بالجزئيَّات، وبالمعاد وبالجزاء، وبكتابةِ الأعمال في الصُّحف ليوم القيامة.

وقال عبد الله بن شدَّاد: كان أحدهم إذا مرَّ برسول الله ﷺ ثنىٰ صدره، وغطَّىٰ رأسه فأنزل الله ذلك [(٤)].

وعود الضَّمير علىٰ الله أولىٰ؛ لقوله: ﴿أَلَا حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَ﴾.

وقرأ [ابن عبَّاس] [(٥)]: «أَلا إِنَّهُمْ تَثْنوني صُدُورُهُم»، برفع الصدور علىٰ الفاعلية، وهو قريب المعنىٰ.

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ۝٦﴾

أخبر تعالىٰ أنَّه متكفِّل بأرزاق المخلوقات، من سائر دوابِّ الأرض، صغيرِها وكبيرِها، بَحْرِيِّهَا وَبَرِّيِّهَا، وأنَّه ﴿يَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَا﴾ أي: يعلم أين مُنتهىٰ سيرها في الأرض، وأين تَأْوِي إليه مِن وَكْرِها، وهو مستودعها.

---

(١) رواه الطبري (١١/ ١٨٥) وفي إسناده انقطاع؛ ففي إسناده قال معمر: أُخبرت عن عكرمة أن ابن عبَّاس قرأ الآية... فذكره، ورواه بعده عن معمر عن رجل عن عكرمة؛ هكذا بواسطة رجل لم يسم.

(٢) هكذا في (ز)، وفي بعض النسخ: (ليوم حساب).

(٣) قال العلامة بكر بن عبد الله أبو زيد: (.... هذا علىٰ رأي من اكتفىٰ في إطلاق الأسماء بورود الفعل، وقد غلَّطَ المحققون هذا الرأي في مباحث مطولة نفيسة، وقرروا أن أسماء الله توقيفية، وعليه فلا يكون (الصانع) اسمًا من أسماء الله تعالىٰ.

ونجد هذا مبسوطًا في مؤلفات ابن تيمية وتلميذه ابن القيم - رحمهما الله تعالىٰ- كما في شفاء العليل والبدائع، وكلاهما لابن القيم. والله أعلم) «معجم المناهي اللفظية» (ص٣٣٢)، وانظر: «التحبير للأوهام والتنبيهات الواردة في تفسير ابن كثير» (ص:٦٢).

(٤) مرسل: رواه الطبري (١١/ ١٨٣)، وابن أبي حاتم (٦/ ١٠٦٥٩)، وعزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٤٠٠) إلىٰ سعيد بن منصور وابن المنذر وأبي الشيخ.

(٥) في (ز): «ابن مسعود» !! وهو خطأ.

وقال علي بن أبي طلحة وغيره عن ابن عبَّاس: ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا﴾: أي: حيث تأوي، ﴿وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾: حيث تموت.

وعن مجاهد: ﴿مُسْتَقَرَّهَا﴾ في الرَّحم، ﴿وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ في الصُّلب، كالتي في الأنعام: وكذا روي عن ابن عبَّاس، والضَّحَّاك، وجماعة.

وذكر ابن أبي حاتم أقوال المفسِّرين هاهنا، كما ذكره عند تلك الآية: فالله أعلم، وأن جميع ذلك مكتوبٌ في كتابٍ عند الله مُبين عن جميع ذلك، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الانعام:٣٨]، وقال تعالىٰ: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ (١) إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام:٥٩].

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِن بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨﴾﴾

يخبر تعالىٰ عن قُدرَتِه علىٰ كل شيء، وأنه خلقَ السَّموات والأرض (٢) في ستَّة أيَّام، وأنَّ عرشه كان علىٰ الماء قبل ذلك، كما قال الإمام أحمد:

حدَّثنا أبو معاوية، حدَّثنا الأعمش، عن جامع بن شَدَّاد، عن صفوان بن مُحْرِز، عن عمران بن حصين قال: قال رسول الله ﷺ: «اقبَلُوا البُشْرَىٰ يَا بَنِي تَمِيمٍ». قالوا: قد بشَّرتنا فأعطنا. قال: «اقبَلُوا البُشْرَىٰ يَا أَهْلَ اليَمَنِ». قالوا: قد قبلنا، فأخبرنا عن أول هذا الأمر كيف كان؟ قال: «كَانَ اللهُ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَىٰ المَاءِ، وَكَتَبَ فِي اللَّوْحِ المَحْفُوظِ ذِكْرَ كُلِّ شَيْءٍ». قال: فأتاني آتٍ فقال: يا عمران، انحلَّت ناقتك من عقالها. قال: فخرجت في إثرها، فلا أدري ما كان بعدي (٣).

---

(١) لوحة (٣٠٩ ب).

(٢) قال الشيخ أبو بكر الجزائري حفظه الله: قيل لحاتم الأصمّ: من أين تأكل؟ فقال من عند الله، فقيل له: الله ينزل لك دنانير ودراهم من السماء؟ فقال: كأنّ ما له إلا السماء! يا هذا: الأرض له والسماء له، فإن لم يؤتني رزقي من السماء ساقه لي من الأرض، وأنشد يقول:

وَكَيْفَ أَخَافُ الْفَقْرَ وَاللهُ رَازِقِي ... وَرَازِقُ هَذَا الْخَلْقِ فِي الْعُسْرِ وَالْيُسْرِ
تَكَفَّلَ بِالأرزاقِ لِلْخَلْقِ كُلِّهِمْ ... وللضَّبِّ فِي الْبَيْدَاءِ وَالْحُوتِ فِي الْبَحْرِ

(٣) رواه أحمد (٤/ ٤٣١)، وهو في «صحيح البخاري» (٣١٩١) (٤٣٦٥)، (٤٣٨٦)، (٧٤١٨)، والترمذي (٣٩٤٦)، =

وهذا الحديث مخرَّج في «صحيحي البخاري ومسلم» بألفاظٍ كثيرةٍ؛ فمنها: قالوا: جئناك نسألك عن أول هذا الأمر فقال: «**كَانَ اللهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ قَبْلَهُ**»، وفي رواية: «**غَيْرُهُ**»[(١)]، وفي رواية: «**مَعَهُ**»[(٢)]، «**وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَىٰ الماءِ، وَكَتَبَ فِي الذِّكْرِ كُلَّ شَيْءٍ، ثُمَّ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ**»[(٣)].

وفي «صحيح مسلم» عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ قَدَّرَ مَقَادِيرَ الخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَىٰ المَاءِ**»[(٤)].

وقال البخاري في تفسير هذه الآية: حدَّثنا أبو اليمان، أخبرنا شعيب، حدَّثنا أبو الزِّنَادِ، عن الأعرج، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَنْفِقْ أُنْفِقْ عَلَيْكَ**». وقال: «**يَدُ اللهِ مَلْأَىٰ لَا يَغِيضُهَا**[(٥)] **نَفَقَةٌ، سَحَّاءُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ**» وقال «**أَفَرَأَيْتُم مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ، فَإِنَّهُ لَمْ يَغِضْ مَا فِي يَدِهِ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَىٰ المَاءِ، وَبِيَدِهِ المِيزَانُ يَخْفِضُ وَيَرْفَعُ**»[(٦)].

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا يزيد بن هارون، أخبرنا حماد بن سلمة، عن يَعْلَىٰ بن عَطَاء، عن وَكِيع بن عُدُس، عن عمه أبي رَزِين -واسمه لَقِيط بن عامر بن المنتفق العُقَيْلي- قال: قلت: يا رسول الله، أين كان ربنا قبل أن يخلق خلقه؟ قال: «**كَانَ فِي عَمَاءٍ**[(٧)]**، مَا تَحْتَهُ هَوَاءٌ وَمَا فَوْقَهُ هَوَاءٌ، ثُمَّ خَلَقَ العَرْشَ**[(٨)] **بَعْدَ ذَلِكَ**»[(٩)].

وقد رواه التِّرمذي في «التَّفسير»، وابن ماجة في «السنن» من حديث يزيد بن هارون به، وقال الترمذي: هذا حديث حسن.

وقال مجاهد: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾: قبل أن يخلق شيئًا. وكذا قال وهب بن مُنَبِّه،

= والنسائي في «الكبرىٰ» (١١٢٤٠).

(١) البخاري (٣١٩١)، والنسائي في «الكبرىٰ» (١١٢٤٠).

(٢) هذه الرواية بهذا اللفظ غير واردة في كتب السُّنَّة، وقد أشار إلىٰ ذلك ابن تيمية، ونقله عنه الحافظ في «الفتح» (٦/ ٢٨٩).

(٣) البخاري (٧٤١٨)، ونسبته إلىٰ «صحيح مسلم» وهمٌ.

(٤) مسلم (٢٦٥٣)، والترمذي (٢١٥٧)، وأحمد (٢/ ١٦٩).

(٥) أي: لا ينقصُها. «النهاية».

(٦) البخاري (٤٦٨٤)، ومسلم (٩٩٣)، والترمذي (٣٠٤٨)، وابن ماجة (١٩٧، ٢١٢٣).

(٧) قال ابنُ أبي زمنين: العماء: السَّحاب الكثيف المطبق، فيما ذكره الخليل. «مجموع الفتاوىٰ»: (٥/ ٥٥-الحموية).

(٨) لوحة (٣١٠أ).

(٩) ضعيف: رواه أحمد (٣/ ١١، ١٢)، والترمذي (٣١٠٨) وحسنه، وابن ماجة (١٨٢) وإسناده ضعيف؛ لأن وكيع بن عُدُس -ويقال: حدس- قال الذهبي: لا يعرف، وقال ابن حجر: مقبول. والحديث حسَّنه الترمذي، وحسنه الذهبي في «مختصر العلو»، وضعفه الشيخ الألباني، انظر: ابن أبي عاصم (٦١٢) وقد وهم الذهبي في تحسينه؛ لأنه قال عن وكيع: لا يعرف. انظر: «ميزان الاعتدال».

وضمرة بن حبيب، وقاله قتادة، وابن جرير، وغير واحدٍ.

وقال قتادة في قوله: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ يُنبِّئكم كيف كان بدء خلقه قبل أن يخلُق السَّموات والأرض.

وقال الربيع بن أنس: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ فلما خلق السموات والأرض قَسَم ذلك الماء قسمين، فجعل نصفًا تحت العرش، وهو البحر المسجور.

وقال ابن عبَّاس: إنَّما سمي العرش عرشًا لارتفاعه.

وقال إسماعيل بن أبي خالد، سمعت سعدًا الطائي يقول: العرش ياقوتةٌ حمراءُ.

وقال محمَّد بن إسحاق في قوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ فكان كما وصف نفسه تعالىٰ، إذ ليس إلا الماء وعليه العرش، وعلىٰ العرش ذو الجلال والإكرام، والعزَّة والسُّلطان، والملك والقدرة، والحلم والعلم، والرَّحمة والنِّعمة، الفعَّال لما يريد.

وقال الأعمش، عن المِنْهَال بن عمرو، عن سعيد بن جبير قال: سُئِلَ ابن عبَّاس عن قول الله: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ علىٰ أيِّ شيءٍ كان الماء؟ قال: علىٰ مَتْنِ الرِّيح[1].

وقوله تعالىٰ: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أي: خلق السموات والأرض لنفع عبادِهِ الَّذِين خلقهم لِيَعْبُدُوه وحده لا شريك له، ولم يخلق ذلك عبثًا، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [ص:٢٧]، وقال تعالىٰ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون:١١٥، ١١٦]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦].

وقوله: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ أي: ليختبركم ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ ولم يقل: أكثر عملًا بل ﴿أَحْسَنُ عَمَلًا﴾، ولا يكون العمل حسنًا حتىٰ يكون خالصًا لله ﷻ علىٰ شريعة رسول الله ﷺ؛ فمتىٰ فقد العمل واحدًا من هذين الشَّرطين بطل وحَبِطَ.

وقوله: ﴿وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ يقول تعالىٰ: ولَئِن أخبرت -يا محمَّد- هؤلاء المشركين أنَّ الله سيبعثهم بعد مماتهم كما

---

(١) رواه ابن أبي عاصم (١/ ٥٨٤)، وقال الألباني: إسناده جيد موقوف، وليس له حكم المرفوع لاحتمال أن يكون ابن عبَّاس تلقَّاه من أهل الكتاب.

بدأهم، مع أنَّهم يعلمون أنَّ الله -تعالىٰ- هو الَّذي خلق السَّموات والأرض، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [العنكبوت:٦١]، وهم مع هذا يُنْكِرُون البعث والمعاد يوم القيامة، الذي هو بالنِّسبة إلىٰ القدرة[1] أَهْوَن مِن البداءة، كما قال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم:٢٧]، وقال تعالىٰ: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [لقمان:٢٨]، وقولهم: ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: يقولون -كفرًا وعنادًا- ما نصدقك علىٰ وقوع البعث، وما يذكر ذلك إلا مَنْ سَحَرْتَهُ، فهو يتَّبعك علىٰ ما تقول.

وقوله: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ﴾ يقول تعالىٰ: ولئن أخَّرنا العذاب والمؤاخذة عن هؤلاء المشركِينَ إلىٰ أجلٍ معدودٍ وأمدٍ محصورٍ، وأوعدناهم به إلىٰ مدةٍ مضروبةٍ، ليقولُنَّ تكذيبًا واستعجالًا ﴿مَا يَحْبِسُهُ﴾ أي: يؤخر هذا العذاب عنَّا، فإنَّ سجاياهم قد ألفت التَّكذيب والشَّك، فلم يَبْقَ لهم محيصٌ عنه ولا محيدٌ.

و«الأُمَّة» تستعمل في القرآن والسُّنَّة في معانٍ متعددةٍ، فيراد بها: الأَمَدُ، كقوله في هذه الآية: ﴿إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ﴾، وقوله في «سورة يوسف»: ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف:٤٥]. وتستعمل في الإمام المقتدىٰ به، كقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل:١٢٠]. وتستعمل في الملَّة والدِّين، كقوله -إخبارًا عن المشركين- إنهم قالوا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف:٢٣]. وتستعمل في الجماعة، كقوله: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ﴾ [القصص:٢٣]. وقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل:٣٦]. وقال تعالىٰ: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [يونس:٤٧].

والمراد من الأمة هاهنا: الذين يبعث فيهم الرسول مؤمنهم وكافرهم، كما في «صحيح مسلم»: **«وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ، يَهُودِيٌّ وَلا نَصْرَانِيٌّ، ثُمَّ لا يُؤْمِنُ بِي إِلَّا دَخَلَ النَّارَ»**[2].

وأما أُمَّة الاتباع، فهم المصدقون للرسل، كما قال تعالىٰ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠] وفي «الصحيح»: **«فَأَقُولُ: أُمَّتِي أُمَّتِي»**[3].

---

(١) لوحة (٣١٠ ب).

(٢) مسلم (١٥٣)، وأحمد (٢/ ٣١٧). (٣) البخاري (٧٥١٠)، ومسلم (١٩٣).

وتستعمل «الأمَّة» في الفرقة والطائفة، كقوله تعالىٰ: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف:١٥٩]، وقال تعالىٰ: ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ [آل عمران:١١٣].

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَـٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾

يخبر تعالىٰ عن الإنسان وما فيه من الصِّفات الذَّميمة، إلا مَن رَحِم الله مِن عباده المؤمنين، فإنَّه إذا[1] أصابته شدَّةٌ بعد نعمةٍ حصل له يأسٌ وقنوطٌ مِن الخير بالنِّسبة إلىٰ المستقبل، وكُفر وجحود لماضِي الحال، كأنَّه لم يَرَ خيرًا، ولم يَرْجُ بعد ذلك فرجًا. وهكذا إن أصابته نعمةٌ بعد نقمةٍ ﴿لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ﴾ أي: يقول: ما بَقِي ينالني بعد هذا ضيمٌ ولا سوءٌ، ﴿إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ أي: فرح بما في يده، بطر فخور علىٰ غيره. قال الله تعالىٰ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾ أي: في الشَّدائد والمَكارِه، ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ أي: في الرَّخاء والعافية، ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ أي: بما يصيبهم من الضَّرَّاء، ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ بما أسلفوه في زمن الرخاء، كما جاء في الحديث: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لا يُصِيبُ المُؤْمِنَ هَمٌّ وَلا غَمٌّ، وَلا نَصَبٌ وَلا وَصَبٌ، وَلا حَزَنٌ حَتَّىٰ الشَّوْكَةُ يُشَاكُهَا إِلَّا كَفَّرَ اللهُ عَنْهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاه»[2]، وفي «الصحيحين»[3]: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لا يَقْضِي اللهُ لِلْمُؤْمِنِ قَضَاءً إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ فَشَكَرَ كَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ فَصَبَرَ كَانَ خَيْرًا لَهُ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ غَيْرِ المُؤْمِنِ»[4]، وهكذا قال الله تعالىٰ: ﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [سورة العصر]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾ الآية [المعارج:١٩-٢٢].

﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَـٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾

---

(١) لوحة (٣١١ أ).
(٢) البخاري (٥٦٤١)، ومسلم (٢٥٧٣)، والترمذي (٩٦٦).
(٣) قوله: «وفي الصحيحين» وهمٌ، وإنما هو من أفراد مسلم.
(٤) مسلم (٢٩٩٩)، وأحمد (٦/ ١٥، ١٦) من حديث صهيب.

يقول تعالىٰ مسليًا لرسوله الله ﷺ عما كان يَتَعَنَّت به المشركون فيما كانوا يقولونه عن الرسول - كما أخبر تعالىٰ عنهم-: ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ۝٧ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ [الفرقان:٧، ٨]. فأمر الله تعالىٰ رسوله -صلوات الله تعالىٰ وسلامه عليه- وأرشده إلىٰ ألَّا يضيق بذلك منهم صَدْرُه، ولا يُهيدَنَّه[١] ذلك، ولا يُثْنِينَّه عن دُعائِهم إلىٰ الله ﷻ آناء اللَّيل وأطراف النَّهار، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ۝٩٧ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۝٩٨ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ [الحجر:٩٧ -٩٩]، وقال هاهنا: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُواْ﴾ أي: لقولهم ذلك، فإنَّما أنت نذير، ولك[٢] أسوةٌ بإخوانك من الرُّسل قبلك، فإنَّهم كُذِّبُوا وأُوذُوا فصَبَرُوا حتىٰ أتاهم نصر الله ﷻ.

ثم بيَّن تعالىٰ إعجاز القُرآن، وأنَّه لا يستطيع البشر الإتيان بمِثْلِهِ، ولا بعشرِ سورٍ مثله، ولا بسورةٍ مِن مثله؛ لأنَّ كلام الرَّبِّ لا يشبهه كلام المخلوقين، كما أنَّ صفاته لا تشبه صفات المحدثات، وذاته لا يشبهها شيء، تعالىٰ وتقدَّس وتنزَّه، لا إله إلا هو، ولا ربَّ سواه.

ثم قال تعالىٰ: ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ﴾ أي: فإن لم يأتوا بمعَارَضَة ما دعوتموهم إليه، فاعلموا أنَّهم عاجزون عن ذلك، وأنَّ هذا الكلام منزَّلٌ من عند الله، متضمِّنٌ علمه وأمره ونهيه، ﴿وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾.

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ۝١٥ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝١٦﴾

قال العوفي عن ابن عبَّاس في هذه الآية: إنَّ أهل الرِّياء يعطون بحسناتهم في الدُّنيا، وذلك أنَّهم لا يظلمون نقيرًا، يقول: من عَمِل صالحًا التماس الدُّنيا -صومًا أو صلاةً أو تهجدًا باللَّيل- لا يعمله إلا التماس الدُّنيا، يقول الله: أُوَفِّيه الذي التمس في الدُّنيا من المثابة، وحَبِطَ عمله الذي كان يعمله التماس الدُّنيا، وهو في الآخرة من الخاسرين[٣].

وهكذا روي عن مجاهد، والضَّحَّاك، وغير واحد.

---

(١) هَادَه الشيءُ يُهِيدُه: أفزعه وكَرَبَهُ «القاموس المحيط» (ص:١٨٣٥): (هيد).

(٢) لوحة (٣١١ ب).

(٣) إسناده ضعيف، ومعنىٰ الأثر صحيح: رواه الطبري (١٢/ ١١)، وابن أبي حاتم (٦/ ١٠٧٣٩)، وفيه عطية العوفي: شيعي مدلس.

وقال أنس بن مالك، والحسن: نزلت في اليهود والنَّصارىٰ[١].

وقال مجاهد وغيره: نزلت في أهل الرِّياء.

وقال قتادة: من كانت الدنيا همَّه وَسَدَمه[٢] وطَلَبته ونيَّته؛ جازاه الله بحسناته في الدُّنيا، ثمَّ يفضي إلىٰ الآخرة وليس له حسنةٌ يعطَىٰ بها جزاء. وأمَّا المؤمن فيجازَىٰ بحسناتِهِ في الدنيا ويُثاب عليها في الآخرة.

وقد ورد في الحديث المرفوع نحو من هذا[٣].

وقال تعالىٰ: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ١٨ -٢١]، وقال تعالىٰ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورىٰ: ٢٠].

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِى[٤] مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾﴾

يخبر تعالىٰ عن حال المؤمنين الذين هم علىٰ فِطرةِ الله -تعالىٰ- التي فطر عليها عباده، من الاعتراف له بأنَّه لا إله إلا هو، كما قال تعالىٰ: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ [الروم: ٣٠].

وفي «الصحيحين» عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَىٰ الفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ وَيُنَصِّرَانِهِ وَيُمَجِّسَانِهِ، كَمَا تُولَدُ البَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ، هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ؟**»[٥].

وفي «صحيح مسلم» عن عياض بن حمار، عن رسول الله ﷺ قال: «**يَقُولُ اللهُ تَعَالَىٰ: إِنِّي خَلَقْتُ**

---

(١) رواه ابن جرير (١٢/ ١٢)، ورجاله ثقات.

(٢) السَّدَم: الولوع بالشَّيء، واللَّهج به، والغمُّ بطلبه، والنَّدم علىٰ فوته.

(٣) مسلم (٢٨٠٨)، ولفظه: «**إِنَّ اللهَ لا يَظْلِمُ مُؤْمِنًا حَسَنَةً يُعْطَىٰ بِهَا فِي الدُّنْيَا، وَيُجْزَىٰ بِهَا فِي الآخِرَةِ، وَأَمَّا الكَافِرُ فَيُطْعَمُ بِحَسَنَاتِ مَا عَمِلَ بِهَا للهِ فِي الدُّنْيَا، حَتَّىٰ إِذَا أَفْضَىٰ إِلَىٰ الآخِرَةِ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَةٌ يُجْزَىٰ بِهَا**».

(٤) لوحة (٣١٢ أ).

(٥) البخاري (١٣٥٨)، ومسلم (٢٦٥٨)، وأبو داود (٤٧١٤)، والترمذي (٢١٣٨)، والنسائي (٤/ ٩٨).

عِبادِي حُنَفَاءَ، فَجاءَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ»[١].

وفي «المسند» و«السنن»: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَىٰ هَذِهِ المِلَّةِ، حَتَّىٰ يُعْرِبَ عَنْهُ لِسَانُهُ» الحديث[٢]، فالمؤمن باقٍ علىٰ هذه الفطرة. وقوله: ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ أي: وجاءه شاهدٌ مِن الله، وهو ما أوحاه إلىٰ الأنبياء، من الشَّرائع المطهرَة المُكمَّلَة المعظَّمة المُخْتَتَمَةِ بشريعةِ محمَّد صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين. ولهذا قال ابن عبَّاس، ومجاهد، وعِكْرِمة، وأبو العالية، والضَّحَّاك، وإبراهيم النَّخعي، والسُّدِّي، وغير واحدٍ في قوله تعالىٰ: ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ إنه جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وعن علي، والحسن، وقتادة: هو محمَّد ﷺ.

وكلاهما قريبٌ في المعنىٰ؛ لأنَّ كلًّا من جبريل ومحمَّد -صلوات الله عليهما- بلَّغ رسالة الله تعالىٰ، فجبريل إلىٰ محمَّد، ومحمَّد إلىٰ الأُمة.

وقيل: هو عليٌّ. وهو ضعيفٌ لا يثبت له قائل.

والأوَّل والثَّاني هو الحق؛ وذلك أن المُؤمِن عنده من الفِطْرَة ما يشهد للشَّريعة من حيث الجملة، والتَّفاصيل تؤخذ من الشريعة، والفِطْرَة تصدِّقها وتؤمن بها؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ وهو القرآن، بلَّغه جبريل إلىٰ النَّبيِّ محمَّدٍ ﷺ، وبلَّغه النَّبيُّ محمَّد إلىٰ أمته.

ثم قال تعالىٰ: ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ أي: ومِن قبل هذا القرآن كتاب موسىٰ، وهو التَّوراة، ﴿إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ أي: أنزل الله -تعالىٰ- إلىٰ تلك الأُمَّة إمامًا لهم، وقدوةً يقتدون بها، ورحمةً مِن الله بهم. فمَن آمن بها حق الإيمان قاده ذلك إلىٰ الإيمان بالقرآن؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾.

ثم قال تعالىٰ متوعدًا لمن كذَّب بالقرآن أو بشيءٍ منه: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾ أي: ومَن كفر بالقرآن من سائر[٣] أهل الأرض؛ مشركيهم و[٤] أهل الكتاب وغيرهم، مِن سائر طوائف بني آدم علىٰ اختلاف ألوانِهم وأشكالهم وأجناسهم، ممن بلغه القرآن، كما قال تعالىٰ: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]، وقال تعالىٰ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]. وقال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾ وفي «صحيح مسلم» من حديث شعبة، عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير، عن أبي موسىٰ الأشعري رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ يَهُودِيٌّ أَوْ نَصْرانِيٌّ ثُمَّ لا يُؤْمِنُ بِي إِلَّا دَخَلَ النَّارَ»[٥].

وقال أيوب السختياني، عن سعيد بن جبير قال: كنت لا أسمع بحديث عن رسول الله ﷺ علىٰ

---

(١) مسلم (٢٨٦٥). (٢) صحيح: رواه أحمد (٣/ ٣٥). (٣) لوحة (٣١٢ ب).
(٤) ليست في (ز). (٥) مسلم (١٥٣)، وأحمد (٢/ ٣١٧).

وجهه إلا وجدت مصداقه -أو قال: تصديقه- في القرآن، فبلغني أن رسول الله ﷺ قال: «لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ، يَهُودِيٌّ وَلَا نَصْرَانِيٌّ، فَلَا يُؤْمِنُ بِي إِلَّا دَخَلَ النَّارَ». فجعلت أقول: أين مصداقه في كتاب الله؟ قال: وقلما سمعت عن رسول الله ﷺ إلا وَجَدْتُ له تصديقًا في القرآن، حتىٰ وجدتُ هذه الآية: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾ قال: مِنَ الملل كلها(١).

قوله: ﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ أي: القرآن حقٌّ من الله، لا مِرْيَة فيه ولا شَكَّ، كما قال تعالىٰ: ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [السجدة:١، ٢]، وقال تعالىٰ: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:١، ٢].

وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣]، وقال تعالىٰ: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام:١١٦]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [سبأ: ٢٠].

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٨ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ۝١٩ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۚ مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ ۝٢٠ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ۝٢١ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ۝٢٢﴾

يُبَيِّن تعالىٰ حال المفترين عليه، وفَضِيحتَهم في الدّار الآخرة علىٰ رُءُوس الخلائق؛ من الملائكة والرُّسل والأنبياء وسائر البشر والجانِّ، كما قال الإمام أحمد:

حدَّثنا بَهْزٌ(٢) وعفان قالا: أخبرنا هَمَّام، حدَّثنا قتادة، عن صفوان بن مُحْرِز قال: كنت آخذًا بيدِ ابن عمر [إذ](٣) عرض له رجل قال: كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوىٰ يوم القيامة؟ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ اللهَ ﷻ يُدْنِي المُؤْمِنَ، فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ(٤)، وَيَسْتُرُهُ مِنَ النَّاسِ، وَيُقَرِّرُهُ بِذُنُوبِهِ، وَيَقُولُ لَهُ: أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ أَتَعرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ أَتَعرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ حَتَّىٰ إِذَا قَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ، وَرَأَىٰ فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ قَدْ هَلَكَ قَالَ: فَإِنِّي قَدْ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَإِنِّي أَغْفِرُهَا لَكَ اليَوْمَ. ثُمَّ يُعْطَىٰ كِتَابَ حَسَنَاتِهِ، وَأَمَّا الكُفَّارُ

---

(١) صحيح: رواه الطبري (١٢/ ١٩)، ووصله الحاكم موقوفًا علي ابن عبَّاس (٢/ ٣٤٢).

(٢) لوحة (٣١٣ أ). (٣) زيادة من «المسند».

(٤) «كنفه» يعني: ستره. ينظر: «النهاية» لابن الأثير: (٤/ ٢٠٥)، و«مجموع فتاوىٰ العثيمين»: (٣/ ١٧٦).

وَالمُنافِقُونَ فَيَقُولُ ﴿ٱلْأَشْهَـٰدُ هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾»[(١)]. أخرجه البخاري ومسلم في «الصحيحين»، من حديث قتادة به.

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي يردُّون الناسَ عن اتباع الحق وسلوك طريق الهدىٰ الموصلة إلىٰ الله عَجَّلَّ، ويجنبونهم الجنة[(٢)]، ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي: ويريدون أن تكون طريقهم عوجًا غير معتدلةٍ، ﴿وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَـٰفِرُونَ﴾ أي: جاحدون بها، مكذبون بوقوعها وكونها.

﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ أي: بل كانوا تحت قهره وغلبته، وفي قبضته وسلطانه، وهو قادرٌ علىٰ الانتقام منهم في الدَّار الدنيا قبل الآخرة، ولكن ﴿يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ [إبراهيم: ٤٢]، وفي «الصحيحين»: «إِنَّ اللهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ، حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ»[(٣)]؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿يُضَـٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۚ مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ﴾ أي: يُضاعَف عليهم العذاب؛ وذلك لأنَّ الله -تعالىٰ- جعل لهم سَمْعًا وأَبْصارًا وأفئدةً، فما أغنىٰ عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم، بل كانوا صُمًّا عن سماع الحق، عُميًا عن اتِّباعه[(٤)]، كما أخبر تعالىٰ عنهم حين دخولهم النار: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠]، وقال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَـٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ﴾ [النحل: ٨٨]؛ ولهذا يُعَذَّبون علىٰ كل أمرٍ تركوه، وعلىٰ كل نهيٍ ارتكبوه؛ ولهذا كان أصح الأقوال أنَّهم مكلَّفون بفروع الشَّرائع أمرها ونهيها بالنِّسبة إلىٰ الدَّار الآخرة.

وقوله: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ أي: خسروا أنفسهم؛ لأنَّهم دخلوا نارًا حاميةً، فهم معذَّبون فيها[(٥)] لا يُفتَّر عنهم من عذابها طرفة عَيْنٍ، كما قال تعالىٰ: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَـٰهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧].

﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾ أي: ذهب عنهم ﴿مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ من دون الله من الأنداد والأصنام، فلم تُجْدِ عنهم شيئًا، بل ضرَّتهم كل الضَّرر، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَـٰفِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٦]، وقال تعالىٰ: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨١، ٨٢]، وقال الخليل لقومه: ﴿إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَـٰنًا

---

(١) البخاري (٢٤٤١)، ومسلم (٢٧٦٨)، والنسائي في «الكبرىٰ» (١١٢٤٢)، وابن ماجة (١٨٣)، وأحمد (٢/ ٧٤، ١٠٥).

(٢) في (ز): «وبحبحة الجنة».

(٣) البخاري (٤٦٨٦)، ومسلم (٢٥٨٣)، والترمذي (٣١٠٩)، والنسائي في «الكبرىٰ» (١١٢٤٥)، وابن ماجة (٤٠١٨).

(٤) قال الشيخ أبو بكر الجزائري حَفِظَهُ اللهُ: أقول: ما كنت أدرك المعنىٰ الحقيقي لقوله تعالىٰ: ﴿مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ﴾ حتىٰ كان صوت العرب علىٰ عهد بطل الاشتراكية «عبد الناصر» وأخذ يسبّ ويشتم ويعبّر ويقبّح سلوك كل من لم يوالِ الاشتراكيين فكنت - والله- لا أستطيع سماع ما يذيعه، وثَم فهمت معنىٰ الآية علىٰ حقيقته.

(٥) لوحة (٣١٣ ب).

مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴾ [العنكبوت: ٢٥]، وقال تعالىٰ: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴾ [البقرة: ١٦٦]؛ إلىٰ غير ذلك من الآيات الدالة علىٰ خسرهم ودمارهم؛ ولهذا قال: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ ﴾ يخبر تعالىٰ عن حالهم أنَّهم أخسر النَّاس صفقةً في الدَّار الآخرة؛ لأنَّهم استبدلوا بالدَّركات عن الدَّرجات، واعتاضوا عن نعيم الجنان بحميم آنٍ، وعن شرب الرَّحيق المختوم بِسمُوم وحميم، وظِلٍّ مِن يحموم، وعن الحور العين بطعامٍ من غِسْلين، وعن القصور العالية بالهاوية، وعن قرب الرَّحمن ورؤيته بغضب الدَّيَّان وعقوبته، فلا جرم أنَّهم في الآخرة هم الأخسرون.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّـٰلِحَـٰتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَـٰئِكَ أَصْحَـٰبُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

لما ذكر تعالىٰ حال الأشقياء ثَنَّىٰ بذكر السُّعَداء، وهم الذين آمنوا وعملوا الصَّالحات، فآمَنَتْ قلوبهم وعَمِلَت جوارحهم الأعمال الصَّالحة قولًا وفعلًا، من الإِتْيَان بالطَّاعات، وتَرْكِ المنكرات، وبهذا وَرِثُوا الجنَّات، المشتملة علىٰ الغرف العاليات، والسُّرُر المصفوفات، والقُطُوف الدَّانيات، والفُرُش المرتفعات، والحسان الخيرات، والفَوَاكه المتنوعات، والمآكل المشتهيَات، والمشارب المستلذات، والنَّظر إلىٰ خالق الأرض والسَّموات، وهم فِي ذلك خَالِدُون، لا يمُوتون ولا يَهْرَمون ولا يَمْرَضُون، ولا ينامُون ولا يتغَوَّطون، ولا يَبْصُقُون ولا يتمَخَّطُون، إن هو إلا رَشْحُ مِسكٍ يعرقون.

ثمَّ ضرب الله -تعالىٰ- مثل الكافرين والمؤمنين فقال: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ ﴾ أي: الذين وصفهم أولًا بالشَّقاء والمُؤمِنِين السُّعَداء، فأولئك كالأعمىٰ والأصم، وهؤلاء كالبَصِير(1) والسميع. فالكافر أعمىٰ عن وجه الحقِّ في الدنيا، وفي الآخرة لا يهتدي إلىٰ خيرٍ ولا يعرفه، أصمُّ عن سماع الحجَج، فلا يسمع ما ينتفع به، ﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٣]. وأما المؤمن ففَطِنٌ ذكيٌّ لبيبٌ، بصيرٌ بالحقِّ، يميِّز بينه وبين الباطل، فيتبعُ الخيرَ ويترك الشَّرَّ، سميعٌ للحجةِ، يفرق بينها وبين الشُّبهة، فلا يَرُوج عليه باطل، فهل يستوي هذا وهذا.

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أفلا تعتبرون وتُفرِّقون بين هؤلاء وهؤلاء، كما قال في الآية الأخرىٰ: ﴿ لَا يَسْتَوِي أَصْحَـٰبُ النَّارِ وَأَصْحَـٰبُ الْجَنَّةِ أَصْحَـٰبُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَآئِزُونَ ﴾ [الحشر: ٢٠]، وقال ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا الظُّلُمَـٰتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَآءُ وَلَا الْأَمْوَٰتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾ [فاطر: ١٩ - ٢٤].

(١) لوحة (٣١٤ أ).

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾

يُخْبِر تعالىٰ عن نوح عليه السلام، وكان أوَّل رسولٍ بعثه الله إلىٰ أهل الأرض من المشركين عَبَدة الأصنام أنه قال لقومه: ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: ظاهر النِّذَارة لكم من عذاب الله إن أنتم عبدتم غير الله؛ ولهذا قال: ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ وقوله: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ أي: إن استمررتم علىٰ ما أنتم عليه عَذَّبكم الله عذابًا أليمًا مُوجعًا شاقًّا في الدَّار الآخرة.

﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ﴾ والملأ هم: السَّادة والكبراء من الكافرين منهم: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ أي: لست بملك، ولكنَّك بشر، فكيف أوحي إليك من دوننا؟ ثم ما نراك اتَّبعك إلا أراذلنا كالباعة والحاكة[1] وأشباههم، ولم يَتَّبِعْك الأشراف ولا الرُّؤساء منَّا، ثم هؤلاء الَّذِين اتَّبعوك لم يكن عن تَرَوٍّ منهم، ولا فكرةٍ ولا نظرٍ، بل بمجرَّد ما دعوتهم أجابوك فاتَّبعوك؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأْيِ﴾ أي: في أول بادئ الرَّأي، ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ﴾ يقولون: ما رَأَينا لكم علينا فضيلةً في خَلْق ولا خُلُق، ولا رِزقٍ ولا حال، لَمَّا دخلتم في دينكم هذا، ﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾ أي: فيما تَدَّعونه لكم من البرِّ والصَّلاح والعبادة، والسَّعادة في الدَّار الآخرة إذا صِرْتُم إليها.

هذا اعتراض الكافرين علىٰ نوح عليه السلام[2] وأتباعه، وذلك دليلٌ علىٰ جهلهم، وقلَّة علمهم وعقلهم، فإنَّه ليس بعارٍ علىٰ الحقِّ رَذَالة من اتَّبعه، فإنَّ الحق في نفسه صحيح، وسواء اتَّبعه الأشراف أو الأراذل بل الحق الَّذِي لا شكَّ فيه أنَّ أتباع الحقِّ هم الأشراف، ولو كانوا فقراء، والَّذِين يأبونه هم الأراذل، ولو كانوا أغنياء. ثمَّ الواقع غالبًا أن ما يتَّبع الحقَّ ضعفاء النَّاس، والغالب علىٰ الأشراف والكبراء مخالفته، كما قال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣]، ولما سأل هرقل ملك الرُّوم أبا سفيان صخر بن حرب عن صفات النَّبيِّ ﷺ قال له فيما قال: أشراف النَّاس اتَّبعوه أو ضعفاؤهم؟ قال: بل ضعفاؤهم. فقال هرقل: هم أتباع الرُّسل[3].

وقولهم: ﴿بَادِيَ ٱلرَّأْيِ﴾ ليس بمذَمَّةٍ ولا عيبٍ؛ لأنَّ الحق إذا وضح لا يبقىٰ للتَّرَوِّي ولا للفكر مجال، بل لا بد من اتِّباع الحق والحالة هذه لكلِّ ذي زكاءٍ وذكاءٍ، ولا يفكر وينزوي هاهنا إلا عَيِيٌّ أو غبيٌّ، والرُّسل - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - إنَّما جاءوا بأمرٍ جليٍّ واضح.

وقد جاء في الحديث: أن رسول الله ﷺ قال: «مَا دَعَوْتُ أَحَدًا إِلَى الإِسْلَامِ إِلَّا كَانَتْ لَهُ كَبْوَةٌ، غير

---

(١) الحاكة: جمع حَائك، وهم خائطو الثياب.
(٢) لوحة (٣١٤ ب).
(٣) رواه البخاري (٧)، ومسلم (١٧٧٣).

أَبِي بَكْرٍ، فَإِنَّهُ لَمْ يَتَلَعْثَمْ»[1] أي: ما تردَّد ولا تروَّىٰ؛ لأنَّه رأىٰ أمرًا جليًّا عظيمًا واضحًا، فبادر إليه وسارع.

وقولهم: ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ هم لا يرون ذلك؛ لأنَّهم عُمْيٌ عن الحقِّ، لا يسمعون ولا يبصرون: بل هم في ريبهم يتردَّدون، في ظلمات الجهل يعمهون، وهم الأفَّاكون الكاذبون، الأقلُّون الأرذلون، وفي الآخرة هم الأخسرون.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾﴾

يقول تعالىٰ مخبرًا عن نوحٍ ما ردَّ علىٰ قومه في ذلك: ﴿أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ أي: علىٰ يقينٍ وأمرٍ جليٍّ، ونبوةٍ صادقةٍ، وهي الرَّحمة العظيمة من الله به وبِهِم، ﴿فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾ أي: خَفِيت عليكم، فلم تهتدوا إليها، ولا عرفتم قدرها، بل بادرْتُم إلىٰ تكذيبها وردها، ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾ أي: نغْصبكم بقبولها وأنتم لها كارهون.

﴿وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ[2] ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾﴾

يقول لقومه: لا أسألكم علىٰ نُصْحِي مالًا أجرةً آخذها منكم، إنَّما أبتغي الأجر من الله ﷻ ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ كأنَّهم طلبوا منه أن يطرد المؤمنين عنه؛ احتشامًا ونفاسةً منهم أن يجلسوا معهم، كما سأل أمثالهم خاتم الرسل ﷺ أن يطرد عنهم جماعة من الضُّعفاء ويجلس معهم مجلسًا خاصًّا، فأنزل الله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ [الأنعام: ٥٢]، وقال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ الآيات [الأنعام: ٥٣].

﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِيٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّيٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾

يخبرهم أنَّه رسول من الله، يدعو إلىٰ عبادة الله وحده لا شريك له، بإذن الله له في ذلك، ولا يسألهم علىٰ ذلك أجرًا، بل هو يدعو مَن لَقِيَه مِن شريفٍ ووضيعٍ، فمَنِ استجاب له فقد نجا، ويخبرهم أنَّه لا يَقدِر علىٰ التَّصرُّف في خزائن الله، ولا يعلم من الغيب إلا ما أطلعه الله عليه، وليس هو بمَلَكٍ من

---

(١) رواه الديلمي (١٢٨٦)، والبيهقي في «الدلائل» (٢/ ١٦٤) وإسناده مرسل، ولكن ثبت نحوه في «صحيح البخاري» (٣٦٦١) ولفظه: «إِنَّ اللهَ بَعَثَنِي إِلَيْكُمْ فَقُلْتُمْ: كَذَبْتَ، وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: صَدَقَ...».

(٢) لوحة (٣١٥ أ).

الملائكة، بل بشرٌ مرسلٌ، مؤيَّدٌ بالمعجزات. ولا أقولُ عن هؤلاء الذين تحتقِرُونَهم وتزدَرُونهم[١]: إنّه ليس لهم عند الله ثواب على إيمانهم، الله أعلم بما في أنفسهم، فإن كانوا مؤمنين باطنًا -كما هو الظاهر من حالهم- فلَهُم جزاء الحسنىٰ، ولو قطع لهم أحد بشر بعدما آمنوا لكان ظالمًا قائلًا ما لا علم له به.

﴿ قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾

يقول تعالىٰ مخبرًا عَن استعجال قوم نوح نقمة الله وعذابه وسخطه، والبلاء موكَّل بالمنطق: ﴿ قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا ﴾ أي: حَاجَجْتَنا فأكثرت من ذلك، ونحن لا نَتَّبِعُك ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ أي: من النِّقمة والعذاب، ادعُ علينا بما شئت، فليأتنا ما تدعو به ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ أي: إنّما الذي يعاقبكم ويُعَجِّلُها لكم الله[٢] الذي لا يُعجزُه شيء، ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾ أي: أي شيء يُجدِي عليكم إبلاغي لكم، وإنذاري إيَّاكم ونصحي، إن كان الله يريد إغواءكم ودماركم ﴿هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ أي: هو مالك أَزِمَّة الأمور، والمتصرِّف الحاكم العادل الَّذِي لا يجور، له الخلق وله الأمر، وهو المبدئ المعيد، مالك الدنيا والآخرة.

﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

هذا كلامٌ معترضٌ في وسط هذه القِصَّة، مؤكِّدٌ لها ومقرِّرٌ بشأنها، يقول تعالىٰ لمحمَّد ﷺ: أم يقول هؤلاء الكافرون الجاحدون: افترىٰ هذا وافتعله من عنده؟ ﴿قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى﴾ أي: فإثم ذلك عليَّ، ﴿وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴾ أي: ليس ذلك مفتعلًا ولا مفترًى؛ لأنِّي أعلم ما عند الله من العقوبة لمن كذب عليه.

﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ ﴾

يخبر تعالىٰ أنَّه أوحىٰ إلىٰ نُوح لما استعجل قومُه نقمةَ الله بهم وعذابَهُ لهم، فدعا عليهم نوحٌ دعوته التي قال الله تعالىٰ مخبرًا عنه أنه قال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦]، ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى

---

(١) في (ز): «تزدرون بهم»، وهو خطأ، يقال: أزرىٰ به وازدراه، ولا يقال: ازدرىٰ به.
(٢) لوحة (٣١٥ ب).

مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ﴾ [القمر: ١٠]، فعند ذلك أوحىٰ الله -تعالىٰ- إليه: ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ فلا تحزن عليهم ولا يَهُمَّنك أمرهم.

﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ﴾ يعني: السفينة ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ أي: بمرأىٰ منَّا، ﴿وَوَحْيِنَا﴾ أي: وتعليمنا لك ماذا تصنعه ﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾.

فقال بعض السلف: أمرَهُ الله -تعالىٰ- أن يغرِز الخشب ويقطِّعه وييبسه، فكان ذلك في مائة سنةٍ، ونَجرَها في مائةِ سنةٍ أخرىٰ، وقيل: في أربعين سنة، فالله أعلم.

وذكر محمَّد بن إسحاق عن التوراة: أن الله أمره أن يصنعها مِن خشب السَّاج، وأن يجعل طولها ثمانين ذراعًا، وعرضها خمسين ذراعًا، [وأن يَطْلِي باطنها وظاهرها بالقار، وأن يجعل لها جُؤْجُؤًا أَزْوَرَ(١) يشقُّ الماء.

وقال قتادة: كان طولها ثلاثمائة ذراع في عرض خمسين](٢).

وعن الحسن: طولها ستمائة ذراع، وعرضها ثلاثمائة ذراع.

وعنه مع ابن عبَّاس: طولها ألف ومائتا ذراع، في عرض ستمائة.

وقيل: طولها ألفا ذراع، وعرضها مائة ذراع، فالله أعلم.

قالوا كلُّهم: وكان ارتفاعها في السماء(٣) ثلاثين ذراعًا، ثلاث طبقات، كل طبقة عشرة أذرعٍ، فالسُّفلىٰ للدَّواب والوحوش: والوسطىٰ للإنس: والعليا للطيور. وكان بابها في عرضها، ولها غطاء من فوقها مطبق عليها(٤).

وقد ذكر الإمام أبو جعفر بن جرير أثرًا غريبًا، من حديث علي بن زيد بن جُدْعَان(٥)، عن يوسف بن مِهْران، عن عبد الله بن عبَّاس؛ أنه قال: قال الحواريون لعيسىٰ ابن مريم: لو بعثت لنا رجلًا شهد السَّفينة فحدَّثنا عنها. قال: فانطلق بهم حتىٰ أتىٰ إلىٰ كَثِيبٍ مِن تراب، فأخذ كفًّا من ذلك التُّراب بكَفِّه، قال: أتدرون ما هذا؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: هذا كعب حام بن نوح. قال: وضرب الكَثِيب بعصاه، قال: قم بإذن الله، فإذا هو قائمٌ ينفُض التُّراب عن رأسه، قد شاب. قال له عيسىٰ عليه السلام: هكذا هلكت؟ قال: لا. ولكني متُّ وأنا شابٌّ، ولكنَّني ظننت أنَّها الساعة، فمَن ثمَّ شِبْت. قال: حدِّثنا عن سفينة نوح؟ قال: كان طولها ألف ذراع ومائتي ذراع، وعرضها ستمائة ذراع، وكانت ثلاث طبقات، فطبقة فيها الدَّوابُّ والوحوش، وطبقة فيها الإنس، وطبقة فيها الطَّير، فلما كثر أرواث الدواب، أوحىٰ الله عز وجل إلىٰ نوح عليه السلام أن اغمز ذَنَب

---

(١) الجؤجؤ: الصَّدر، وأزور: من الزَّوَر، وهو الميل، كهيئة صدر السفينة.

(٢) ما بين المعقوفتين سقط من (ز). (٣) لوحة (٣١٦ أ).

(٤) كل هذه الآثار التي ذكرها ابن كثير في وصف السفينة وطولها وعرضها لا دليل عليها، وأشبه ما تكون أنها من الإسرائيليات.

(٥) علي بن زيد بن جُدعان البصري: ضعيف، ويوسف بن مهران البصري: لين الحديث، قال الشيخ شاكر: وهذا خبر لا شك أنَّه من بقيَّة أخبار بني إسرائيل وأشباههم، ولا يبلغ أن يكون شيئًا.

الفيل، فغمزَهُ، فوقع منه خنزير وخنزيرة، فأقبلا على الرَّوث، فلما وقع الفأر بخَرَزِ[1] السَّفينة يقرضه، أوحىٰ إلىٰ نوح؛ أن اضرب بين عيني الأسد، فخرج من منخره سنَّور وسنورة، فأقبلا علىٰ الفأر. فقال له عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ: كيف عَلِمَ نوح أنَّ البلاد قد غرقت؟ قال: بعث الغراب يأتيه بالخبر، فوجد جيفةً فوقع عليها، فدعا عليه بالخوف، فلذلك لا يألف البيوت، قال: ثم بعث الحمامة، فجاءت بورقِ زيتون بمنقارها، وطين برجليها، فعلم أن البلاد قد غَرِقت. قال: فطوَّقها الخضرة التي في عنقها، ودعا لها أن تكون في أُنْسٍ وأمان، فمن ثَمَّ تألف البيوت. قال: فقلنا: يا رسول الله، ألا ننطلق به إلىٰ أهلينا فيجلس معنا ويحدِّثنا؟ قال: كيف يتبعكم من لا رزق له؟ قال: فقال له: عد بإذن الله، فعاد ترابًا[2].

وقوله: ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ﴾ أي: يَطْنِزون[3] به، ويكذبون بما يتوعَّدهم به من الغرق، ﴿قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ وعيدٌ شديدٌ، وتهديدٌ أكيدٌ، ﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ أي: يهنه في الدُّنيا، ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ أي: دائمٌ مستمرٌّ أبدًا[4].

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾﴾

هذه مُواعدةٌ مِن الله -تعالىٰ- لنوح عَلَيْهِ السَّلَامُ إذا جاء أمر الله من الأمطار المتتابعة، والهَتَّان[5] الذي لا يُقلع ولا يفتُر، بل هو كما قال تعالىٰ: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ [القمر: ١١-١٤].

وأما قوله: ﴿وَفَارَ التَّنُّورُ﴾ فعن ابن عبَّاس: التَّنُّور: وجه الأرض؛ أي: صارت الأرض عيونًا تفور، حتىٰ فار الماء من التَّنانير التي هي مكان النَّار، صارت تفورُ ماءً، وهذا قول جمهور السَّلف وعلماء الخَلَفِ.

وعن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: التَّنُّور: فَلَق الصبح، وتنوير الفجر، وهو ضياؤه وإشراقه.

والأول أظهر.

وقال مجاهد والشَّعبي: كان هذا التَّنُّور بالكوفة، وعن ابن عبَّاس: عين بالهِنْدِ.

وعن قتادة: عين بالجزيرة، يقال لها: عين الوَرْدَة.

وهذه أقوال غريبة.

فحينئذٍ أمر الله نوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يحمل معه في السَّفِينة مِن كلٍّ زوجين -من صنوف المخلوقات ذوات

---

(١) خرز السفينة: فقارها؛ أي: إن الفأر أخذ يقرض فقار السفينة؛ أي: ألواحها وليفها.

(٢) أثر ضعيف: رواه ابن جرير (١٢/ ٣٥)، وفيه علي بن زيد بن جدعان، وهو ضعيف.

(٣) طنز يطنز طنزًا -من باب: ضرب-: كَلَّمَهُ باستهزاء، والطَّنْز: السخرية.

(٤) لوحة (٣١٦ ب).

(٥) هتنت السماء تهتن -من باب: ضرب- هتنًا وهتونًا: صبت.

الأرواح، قيل: وغيرها من النباتات- اثنين: ذكرًا وأنثىٰ، فقيل: كان أول مَن أُدْخِل من الطُّيور الدُّرَّة، وآخر من أدخل من الحيوانات الحمار، فدخل إبليس متعلقًا بذنَبِهِ، فدخل بيده، وجعل يُريد أن ينهض فيُثَقِّله إبليس وهو متعلِّقٌ بذَنَبِه، فجعل يقول له نوح: ما لَكَ؟! وَيْحَكَ؛ ادْخُل. فينهض ولا يقدر، فقال: ادخل وإن كان إبليس معك. فدخلا في السَّفينة.

وذكر أبو عبيدة بن عبد الله بن مسعود: أنَّهم لم يستطيعوا أَن يحملوا معهم الأَسَدَ، حتىٰ أُلْقِيَت عليه الحمَّىٰ.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا عبد الله بن صالح كاتب اللَّيث، حدَّثني اللَّيث، حدَّثني هشام ابن سعد، عن زيد بن أسلم. [عن أبيه](١) أن رسول الله ﷺ قال: «**لَمَّا حَمَلَ نُوحٌ فِي السَّفِينَةِ مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ، قَالَ أَصْحَابُهُ: وَكَيْفَ يَطْمَئِنُّ -أَوْ: تَطْمَئِنُّ- المَوَاشِي وَمَعَهَا الأَسَدُ؟ فَسَلَّطَ اللهُ عَلَيْهِ الحُمَّىٰ، فَكَانَتْ أَوَّلُ حُمَّىٰ نَزَلَتِ الأَرْضَ، ثُمَّ شَكَوُا الفَأْرَةَ فَقَالُوا: الفُوَيسِقَةُ تُفْسِدُ عَلَيْنَا طَعَامَنَا وَمَتَاعَنَا. فَأَوْحَىٰ اللهُ إِلَىٰ الأَسَدِ فَعَطَسَ، فَخَرَجَتِ الهِرَّةُ مِنْهُ، فَتَخَبَّأَتِ الفَأْرَةُ مِنْهَا**»(٢).

وقوله: ﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ أي: واحْمِلْ فيها أهلك، وهم أهل بَيْتِهِ وقرابته إلَّا مَن سبق عليه القول منهم، ممَّن لم يؤمن بالله، فكان منهم ابنُهُ «يام» الَّذي(٣) انعزل وحده، وامرأة نوح، وكانت كافرةً بالله ورسوله.

وقوله: ﴿وَمَنْ آمَنَ﴾ أي: من قومك، ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ أي: نَزْرٌ يسيرٌ مع طولِ المدَّة والمقام بين أظهرهم ألف سنة إلا خمسين عامًا، فعَن ابن عبَّاس: كانوا ثمانين نفسًا منهم نساؤهم، وعن كعب الأحبار: كانوا اثنين وسبعين نفسًا. وقيل: كانوا عشرةً. وقيل: إنَّما كانوا نوح وبنوه الثَّلاثة سام، وحام، ويافث، وكنائِنه(٤) الأربع نساء هؤلاء الثلاثة وامرأة يام. وقيل: بل امرأةُ نوح كانت معهم في السَّفينة، وهذا فيه نَظَرٌ، بل الظَّاهر أنها هلكت؛ لأنها كانت علىٰ دين قومِهَا، فأصابهاَ ما أصابهم، كما أصاب امرأة لوطٍ ما أصاب قومها، والله أعلم وأحكم.

﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾﴾

يقول تعالىٰ إخبارًا عن نوح عليه السلام أنَّه قال للَّذين أمر بحملهم معه في السَّفينة: ﴿ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ

(١) ليست في (ز)، وهي مثبتة في «ابن أبي حاتم».

(٢) ضعيف: رواه ابن أبي حاتم (١٠٨٧١)، وفيه علتان؛ الأولىٰ: الإرسال، والثانية: عبد الله بن صالح كاتب الليث: صدوق يخطئ كثيرًا.

(٣) لوحة (٣١٧ أ).

(٤) الكنائن: جمع كَنَّة، وهي امرأة الابن أو الأخ.

﴿مَجْرِٮٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾ أي: بسم الله يكون جَرْيُها على وجه الماء، وبسم الله يكون منتهىٰ سَيْرِها، وهو رُسُوها.

وقرأ أبو رجاء العَطاردي: «بِسْمِ اللهِ مُجْرِيها ومُرْسِيهَا».

وقال الله تعالىٰ: ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ [المؤمنون:٢٨، ٢٩]؛ ولهذا تستحب التَّسمية في ابتداء الأمور: عند الرُّكوب علىٰ السَّفينة وعلىٰ الدَّابَّة، كما قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾ [الزخرف:١٢ -١٤]، وجاءت السُّنَّة بالحثِّ علىٰ ذلك، والنَّدب إليه، كما سيأتي في «سورة الزخرف» إن شاء الله، وبه الثِّقة.

وقال أبو القاسم الطبراني: حدَّثنا إبراهيم بن هاشم البغوي، حدَّثنا محمَّد بن أبي بكر المقدمي -وحدَّثنا زكريا بن يحيىٰ الساجي، حدَّثنا محمَّد بن موسىٰ الحَرشي- قالا: حدَّثنا عبد الحميد بن الحسن الهلالي، عن نَهْشل بن سعيد، عن الضَّحَّاك، عن ابن عبَّاس(١)، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «أَمَانُ أُمَّتِي مِنَ الغَرَقِ إِذَا رَكِبُوا فِي السُّفُنِ أَنْ يَقُولُوا: بِسْمِ اللهِ المَلِكِ، ﴿وَمَا قَدَرُوا ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧]، ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرِٮٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾»(٢).

وقوله: ﴿إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ مناسبٌ عندَ ذكر الانتقام من الكافِرينَ بإغراقهم أجمعين ذِكْرُ أنَّه غفور رحيم، كما قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٦٧]، وقال: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الرعد: ٦]، إلىٰ غير ذلك من الآيات التي يقرن(٣) فيها بين انتقامه ورحمته.

وقوله: ﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ﴾ أي: السَّفينة سائرة بهم علىٰ وجه الماء الَّذي قد طبَّق جميع الأرض، حتىٰ طَفَتْ علىٰ رءوس الجِبَال، وارتفع عليها بخمسة عشرَ ذراعًا، وقيل: بثمانين ميلًا، وهذه السفينة علىٰ وجه الماء سائرة بإذن الله، وتحت كَنَفه وعنايته، وحراسته وامتنانه، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ [الحاقة]، وقال تعالىٰ: ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر].

وقوله: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ هذا هو الابن الرابع، واسمه «يام»، وكان كافرًا، دعاه أبوه عند ركوب السفينة أن يؤمن ويركب معهم، ولا يغرق مثل

---

(١) لوحة (٣١٧ ب).

(٢) **ضعيف جدًّا**: «المعجم الكبير» و«الأوسط» (٦/ ٦١٣٦)، وفيه نهشل بن سعيد: قال الحافظ: متروك. وكذَّبه إسحاق ابن راهويه.

(٣) في (ز): «يفرق».

ما يغرق الكافرون ﴿قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ ٱلْمَآءِ﴾ وقيل: إنَّه اتخذ له مركبًا من زُجاج، وهذا من الإسرائيليَّات، والله أعلم بصحته. والذي نصَّ عليه القرآن أنه قال: ﴿قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ ٱلْمَآءِ﴾ اعتقد بجهله أنَّ الطوفان لا يبلغ إلىٰ رءوس الجبال، وأنه لو تعلَّق في رأس جبل لنجَّاه ذلك من الغرق، فقال له أبوه نوح عليه السلام: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ أي: ليس شيءٌ يعصم اليوم مِن أمر الله. وقيل: إن عاصمًا بمعنىٰ معصوم، كما يقال: «طاعمٌ وكاسٍ»، بمعنىٰ: مطعومٌ ومكسُوٌّ، ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾.

﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾

يخبر تعالىٰ أنَّه لما غَرِقَ أهل الأرض إلا أصحاب السَّفينة، أمر الأرض أن تبلع[1] ماءها الذي نبَعَ منها واجتمع عليها، وأمر السَّماء أن تُقلعَ عن المطر، ﴿وَغِيضَ ٱلْمَآءُ﴾ أي: شرع في النقص، ﴿وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾ أي: فُرِغَ من أهل الأرض قاطبة، ممن كفر بالله، لم يبق منهم ديَّار، ﴿وَٱسْتَوَتْ﴾ السَّفينة بمَن فيها ﴿عَلَى ٱلْجُودِيِّ﴾ قال مجاهد: وهو جبل بالجَزيرَةِ، تشامَخَت الجبال يومئذٍ من الغرق وتطَاوَلَت، وتواضع هو لله عَزَّ وَجَلَّ فلم يغرق[2]، وأرست عليه سفينة نوح عليه السلام.

وقال قتادة: استوت عليه شهرًا حتىٰ نزلوا منها، قال قتادة: قد أبقىٰ الله سفينة نوح عليه السلام علىٰ الجُودِيِّ مِن أرض الجزيرة عِبرةً وآيةً حتىٰ رآها أوائل هذه الأُمَّة، وكم مِن سفينةٍ قد كانت بعدها فهلكت، وصارت رمادًا.

وقال الضَّحَّاك: الجُوديُّ: جبل بالموصل، وقال بعضهم: هو الطور.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا عمرو بن رافع، حدَّثنا محمَّد بن عبيد، عن توبة بن سالم قال: رأيت زِرَّ بن حُبَيش يصلِّي في الزَّاوية حين يُدخل من أبواب كِندة علىٰ يمينك، فسألته إنَّك لكثير الصلاة هاهنا يوم الجمعة! قال: بلغني أنَّ سفينة نوح أرْسَتْ مِن هاهنا.

وقال عِلْباء بن أحمد، عن عِكْرِمة، عن ابن عبَّاس قال: كان مع نوح في السفينة ثمانون رجلًا معهم أهلوهم، وإنَّهم كانوا في السَّفينة مائة وخمسين يومًا، وإن الله وجَّه السَّفينة إلىٰ مكَّة فدارت بالبيت أربعين يومًا، ثم وجهها الله إلىٰ الجُودِيِّ فاستقرَّت عليه، فبعث نوحٌ الغرابَ ليأتيه بخبر الأرض، فذهب فوقع علىٰ الجيف، فأبطأ عليه، فبعث الحمامة فأتته بورق الزَّيتون، ولطخت

---

(١) لوحة (٣١٨ أ).

(٢) **قال الإمام القرطبي** رحمه الله: لما تواضع الجودي وخضع عزَّ، ولما ارتفع غيره واستعلىٰ ذلَّ، وهذه سنة الله في خلقه، يرفع من تخشع، ويضع من ترفع؛ ولقد أحسن القائل:

وإذا تذللت الرقاب تخشعًا ... منا إليك فعزها في ذلها

رجليها بالطِّين، فعرف نوح عليه السلام أنَّ الماء قَدْ نَضبَ، فهَبطَ إلىٰ أسفل الجُودِيِّ، فابتنىٰ قريةً وسماها ثمانين، فأصبحوا ذات يومٍ وقد تَبَلْبَلَت ألسنتهم علىٰ ثمانين لغةً، إحداها اللِّسان العربي. فكان بعضهم لا يفقه كلام بعض، وكان نوحُ عليه السلام يُعبِّر عنهم[1].

وقال كعب الأحبار: إنَّ السَّفينة طافت ما بين المشرق والمغرب قبل أن تَسْتَقِرَّ علىٰ الجوديِّ.

وقال قتادة وغيره: ركبوا في عاشر شهر رجب فساروا مائةً وخمسين يومًا، واستقرت بهم علىٰ الجوديِّ شهرًا، وكان خروجهم من السفينة في يوم عاشوراء من المحرم. وقد ورد نحو هذا في حديثٍ مرفوعٍ رواه ابن جرير[2]. وأنَّهم صاموا يومهم ذاك، فالله أعلم.

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا أبو جعفر، حدَّثنا عبد الصمد بن حَبيب[3] الأزدي، عن أبيه حبيب بن عبد الله، عن شُبَيل، عن أبي هريرة قال: مرَّ النَّبيُّ ﷺ بأناسٍ من اليَهُود، وقد صاموا يوم عاشوراء، فقال: ما هذا مِن الصوم؟ قالوا: هذا اليوم الذي نجَّىٰ الله موسىٰ وبني إسرائيل من الغرق، وغرق فيه فرعون، وهذا يومٌ استوت فيه السَّفينة علىٰ الجُودِيِّ، فصامه نوح وموسىٰ -عليهما السلام- شكرًا لله عز وجل؛ فقال النَّبيُّ ﷺ: «**أَنَا أَحَقُّ بِمُوسَىٰ، وَأَحَقُّ بِصَوْمِ هَذَا الْيَوْمِ**». فصام، وقال لأصحابه: «**مَنْ كَانَ أَصْبَحَ مِنْكُمْ صَائِمًا فَلْيُتِمَّ صَوْمَهُ، وَمَنْ كَانَ أَصَابَ مِنْ غَذَاءِ أَهْلِهِ فَلْيُتِمَّ بَقِيَّةَ يَوْمِهِ**»[4].

وهذا حديثٌ غريبٌ من هذا الوجه، ولبعضه شاهدٌ في «الصحيح».

وقوله: ﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: هلاكًا وخسارًا لهم، وبُعدًا من رحمة الله، فإنَّهم قد هلكوا عن آخرهم، فلم يَبْقَ لَهُمْ بَقِيَّةٌ.

وقد روىٰ الإمام أبو جعفر بن جرير والحبر أبو محمَّد بن أبي حاتم في «تفسيريهما» من حديث موسىٰ بن يعقوب الزمعي، عن فائد -مولىٰ عبيد الله بن أبي رافع- أن إبراهيم بن عبد الرحمن بن أبي ربيعة أخبره: أن عائشةَ زوجَ النَّبيِّ ﷺ أخبرته، أن النَّبيَّ ﷺ قال: «**لَوْ رَحِمَ اللهُ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ أَحَدًا لَرَحِمَ أُمَّ الصَّبِيِّ**»، قال رسول الله ﷺ: «**كَانَ نُوحٌ عليه السلام مَكَثَ فِي قَوْمِهِ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا**[5]، **يَعْنِي: وَغَرَسَ مِائَةَ سَنَةٍ الشَّجَرَ، فَعَظُمَتْ وَذَهَبَتْ كُلَّ مَذْهَبٍ، ثُمَّ قَطَعَهَا، ثُمَّ جَعَلَهَا سَفِينَةً، وَيَمُرُّونَ عَلَيْهِ وَيَسْخَرُونَ [مِنْهُ]**[6] **وَيَقُولُونَ: تَعْمَلُ سَفِينَةً فِي الْبَرِّ، فَكَيْفَ تَجْرِي؟ قَالَ: سَوْفَ تَعْلَمُونَ. فَلَمَّا فَرَغَ وَنَبَعَ**

---

(١) موقوف علىٰ ابن عبَّاس، لكنَّه ليس له حكم المرفوع لاحتمال أن يكون أخذ ذلك من كتب بني إسرائيل، والأثر رواه ابن أبي حاتم (٦/ ١٠٨٨٢).

(٢) ضعيف: رواه ابن جرير (١٢/ ٤٧) نحوه مرفوعًا، وفيه عثمان بن مطر: ضعيف، وفيه علَّة الإرسال.

(٣) لوحة (٣١٨ ب).

(٤) ضعيف بهذا السياق: رواه أحمد (٢/ ٣٥٩)، وفيه أبو جعفر حبيب الأزدي: ضعيف، لكن الحديث صحيح دون ذكر نوح عليه السلام.

(٥) ليست في (ز)، وهي مثبتة في تفسير «الطبري» و «ابن أبي حاتم».

(٦) ليست في (ز)، وهي مثبتة في تفسير «الطبري» و «ابن أبي حاتم».

المَاءُ، وَصَارَ فِي السِّكَكِ خَشِيَتْ أُمُّ الصَّبِيِّ عَلَيْهِ، وَكَانَتْ تُحِبُّهُ حُبًّا شَدِيدًا، فَخَرَجَتْ إِلَىٰ الجَبَلِ، حَتَّىٰ بَلَغَتْ ثُلُثَهُ، فَلَمَّا بَلَغَهَا المَاءُ خَرَجَتْ بِهِ حَتَّىٰ اسْتَوَتْ عَلَىٰ الجَبَلِ، فَلَمَّا بَلَغَ رَقَبَتَهَا رَفَعَتْهُ بِيَدَيْهَا فَغَرِقَا فَلَوْ رَحِمَ اللهُ مِنْهُمْ أَحَدًا لَرَحِمَ أُمَّ الصَّبِيِّ»(١).

وهذا حديثٌ غريبٌ من هذا الوجه، وقد روي عن كعب الأحبار ومجاهد بن جبر قصةُ هذا الصبي وأُمِّه بنحوٍ من هذا.

﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾﴾

هذا سؤال استعلام وكشف(٢) من نوح عليه السلام عن حال ولده الَّذي غَرِقَ، ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى﴾ أي: وقد وَعَدْتَنِي بنجاة أهلي، ووعدُك الحقُّ الذي لا يُخلَف، فكيف غَرِقَ وأنت أحكم الحاكمين؟ ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ أي: الَّذين وعدت إنجاءهم؛ لأنِّي إنَّما وعدتك بنجاة من آمَن مِن أهلك؛ ولهذا قال: ﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾ [هود: ٤٠]، فكان هذا الولد ممَّن سَبَق عليه القول بالغَرَقِ لكفره، ومخالفته أباه نبيَّ اللهِ نوحًا عليه السلام.

وقد نصَّ غير واحدٍ من الأئمَّة علىٰ تخطئةِ مَن ذهب في تفسير هذا إلىٰ أنه ليس بابنه، وإنَّما كان ابن زنْيةٍ، ويحكىٰ القول بأنه ليس بابنه وإنَّما كان ابن امرأته عن مجاهد، والحسن، وعُبيد بن عُمير، وأبي جعفر الباقر، وابن جُرَيج، واحتج بعضهم بقوله: ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ وبقوله: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ [التحريم: ١٠]، فمِمَّن قاله: الحسن البصري، احتج بهاتين الآيتين. وبعضهم يقول: كان ابن امرأته. وهذا يحتمل أن يكون أراد ما أراد الحسن، أو أراد أنه نسب إليه مجازًا؛ لكونه كان ربيبًا عنده، فالله أعلم.

وقال ابن عبَّاس، وغير واحدٍ من السلف: ما زَنَتْ امرأةُ نبيٍّ قطُّ(٣)، قال: وقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ أي: الذين وعدتك نجاتهم.

وقولُ ابن عبَّاس في هذا هو الحق الَّذي لا محيد عنه، فإنَّ الله -سبحانه- أَغْيَر مِن أن يُمَكِّنَ

---

(١) رواه ابن جرير (١٢/ ٣٥)، وابن أبي حاتم (١٨٩٩٨)، والحاكم (٢/ ٣٤٢) وصححه، وتعقبه الذهبي بقوله: إسناده مظلم، وموسىٰ ابن يعقوب ليس بذاك، وقال ابن كثير في «البداية والنهاية» (١/ ١٢٩): وأَحْرَىٰ بهذا الحَدِيث أن يكون موقوفًا متلقىٰ من مثل كعب الأحبار. قلت: أي فيكون هذا مما يروىٰ عنهم لا يصدق ولا يكذب، لكن لم يصح إسناده. وقد روي موقوفًا علىٰ ابن عباس. رواه ابن أبي حاتم (١٨٩٩٨) وفيه انقطاع، وسيأتي لفظه والتعليق عليه في سورة نوح. والله أعلم.

(٢) لوحة (٣١٩أ).

(٣) صحيح: رواه ابن جرير (١٢/ ٥١)، والحاكم (٢/ ٥٣٨) وصحَّحه، ووافقه الذهبي.

امرأة نبيٍّ مِن الفاحشة؛ ولهذا غَضِب الله على الَّذِين رمَوا أم المؤمنين عائشة بنتَ الصِّدِّيق زوج النَّبيِّ ﷺ، وأنكر على المؤمنين الَّذين تكلَّموا بهذا وأشاعوه؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾﴾ إلى قوله: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور].

وقال عبد الرزَّاق: أخبرنا مَعْمَر، عن قتادة وغيره، عن عِكْرِمة، عن ابن عبَّاس قال: هو ابنه غير أنَّه خالفه في العمل والنية(١).

قال عكرمة: في بعض الحروف: «إنه عَمِل عملًا غير صالح»، والخيانة تكون على غير باب.

وقد ورد في الحديث أن رسول الله قرأ بذلك، فقال الإمام أحمد: حدَّثنا يزيد بن هارون، حدَّثنا حماد بن سلمة، عن ثابت، عن شَهْر بن حَوْشَب، عن أسماء بنت يزيدٍ قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقرأ: «إِنَّهُ عَمِلَ غَيْرَ صَالِحٍ»، وسمعته يقول: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ ولا يبالي ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣](٢).

وقال أحمد أيضًا: حدَّثنا وَكِيعٌ، حدَّثنا هارون النحوي، عن ثابت البُنَاني، عن شَهْر بن حَوْشَب، عن أم سلمة أن رسول الله قرأها: «إِنَّهُ عَمِلَ غَيْرَ صَالِحٍ»(٣).

أعاده أحمد أيضًا في «مسنده».

أم سلمة هي أم المؤمنين، والظاهر -والله أعلم- أنَّها أسماء بنت يزيد، فإنَّها تكنىٰ بذلك أيضًا.

وقال عبد الرزَّاق أيضًا: أخبرنا الثوري وابن عيينة، عن موسىٰ بن أبي عائشة، عن سليمان بن قَتَّة قال: سمعت ابن عبَّاس سُئِل - وهو إلىٰ جَنْب الكعبة- عن قول الله: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ [التحريم: ١٠]، قال: أما وإنَّه لم يكن بالزِّنا، ولكن كانت هذه تخبر النَّاس أنَّه مجنونٌ، وكانت هذه تدلُّ على الأضياف. ثم قرأ: ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾(٤).

قال ابن عيينة: وأخبرني عمَّار الدُّهْني أنَّه سأل سعيد بن جبير عن ذلك فقال: كان ابن نوحٍ، إن الله لا يَكْذِب! قال تعالىٰ: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ﴾ قال: وقال بعض العلماء: ما فجرت امرأةُ نبيٍّ قطُّ.

وكذا روي عن مجاهد أيضًا، وعكرمة، والضَّحَّاك، وميمون بن مِهْران، وثابت بن الحجاج، وهو اختيار أبي جعفر بن جرير، وهو الصَّواب الذي لا شك فيه.

---

(١) **صحيح**: رواه عبد الرزاق، والطبري (١٢/ ٥١)، وابن أبي حاتم (٦/ ١٠٩٢٧).

(٢) رواه أحمد (٦/ ٤٥٤) (٦/ ٤٥٩-٤٦٠) وأبو داود (٣٩٨٢)، وفي إسناده شهر بن حوشب: كثير الإرسال والأوهام، والحديث صحَّحه الألباني لشواهده. انظر: «الصحيحة» (٢٨٠٩).

(٣) **متواترة**: قَرَأَ (عَمِلَ غَيْرَ) الْكِسَائِيُّ وَيَعْقُوبُ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ (عَمَلٌ غَيْرُ).

(٤) رواه عبد الرزاق (٢/ ٣١٠)، وابن جرير (١٢/ ٥١) بسندٍ صحيح.

وقوله:

﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾﴾

يخبر تعالىٰ عما قيل لنوح عَلَيْهِ السَّلَامُ حين أَرْسَت السَّفينة علىٰ الجوديِّ مِن السَّلام عليه، وعلىٰ مَن معه من المؤمنين، وعلىٰ كلِّ مؤمنٍ مِن ذُرِّيَّته إلىٰ يوم القيامة، كما قال محمَّد بن كعب: دخل في هذا السلام كُلُّ مؤمنٍ ومؤمنةٍ إلىٰ يوم القيامة، وكذلك في العذاب والمتاع كلُّ كافرٍ وكافرةٍ إلىٰ يوم القيامة.

وقال محمَّد بن إسحاق: ولما أراد أن يكف الطوفان أرسل ريحًا علىٰ وجهِ الأرض، فسكن الماءُ، وانسدت ينابيع الأرض الغمر الأكبر(١) وأبواب السماء، يقول الله تعالىٰ: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

فجعل الماء ينقص ويَغيض ويُدْبِرُ، وكان استواء الفلك علىٰ الجُودِيِّ -فيما يزعم أهل التَّوراة- في الشَّهر السَّابع لسبع عشرةَ ليلةً مضت منه، وفي أوَّل يومٍ من الشهر العاشر رُئِي رءُوس الجبال. فلمَّا مضىٰ بعد ذلك أربعون يومًا فتح نوحٌ كُوَّةَ الفُلْك التي ركب فيها، ثم أرسل الغرابَ لينظر له ما صنع الماء، فلم يرجع إليه، فأرسل الحمامة فرجعت إليه، لم تجد لرجليها موضعًا، فبسط يده للحمامة فأخذها فأدخلها. ثم مضىٰ سبعة أيام، ثم أرسلها لتنظر له، فرجعت حين أمست، وفي فيها وَرَق زيتون؛ فعلم نوحٌ أن الماء قد قَلَّ عن وجه الأرض، ثم مكث سبعة أيام، ثم أرسلها فلم ترجع، فعلم نوح أن الأرض قد بَرَزَت، فلما كملت السنة فيما بين أن أرسل الله الطُّوفان إلىٰ أن أرسل نوح الحمامة، ودخل يوم واحد من الشهر الأول من سنة اثنتين برز وجه الأرض، وظهر اليَبَس، وكشف نوح غطاء الفلك ورأىٰ وجه الأرض، وفي الشَّهر الثَّاني مِن سنة اثنتين في سبع وعشرين ليلة منه ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ﴾ إلىٰ آخر الآية.

﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾

يقول تعالىٰ لنبيِّه ﷺ هذه القصة وأشباهها ﴿مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ﴾ يعني: مِن أخبار الغيوب السَّالفة نوحيها إليك علىٰ وجهها كأنَّك شاهدها، ﴿نُوحِيهَآ إِلَيْكَ﴾ أي: نُعْلِمُكَ بها وحيًا منَّا إليك، ﴿مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا﴾ أي: لَم يكن عندكَ ولا عند أحدٍ مِن قومِكَ عِلْمٌ بها، حتَّىٰ يقول من

---

(١) **قال الشيخ شاكر في تعليقه علىٰ الطبري**: هكذا في المخطوطة والمطبوعة: الغمر الأكبر، وأنا أرجِّح أنه خطأٌ محض، وأنَّ الصواب: «الغوط الأكبر»، وهذا اللَّفظ رواه صاحب «اللسان» في مادة (غوط)...اهـ.
وقد فسرها رَحِمَهُ اللَّهُ في موضع آخر: الغَوْط والغَائِط: المتسع من الأَرْضِ من طمأنينة. اهـ.
قلت: وهو كذلك في «تاج العروس» و«العباب الزاخر»، والله أعلم بالصواب.

يُكَذِّبك: إنَّك تعلمتها منه، بل أخبرك الله بها مطابقةً لما كان عليه الأمر الصَّحيح، كما تشهد به كتب الأنبياء قبلك، فاصْبِر علىٰ تكذيب من كذبك من قومك، وأذاهم لك، فإنَّا سننصرك ونحوطك بعنايتنا، ونجعل العاقبةَ لك ولأتباعك في الدنيا والآخرة، كما فعلنا بإخوانك من المرسلين حيث نصرناهم علىٰ أعدائهم، ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ [غافر: ٥١، ٥٢]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ ...الآية﴾ [الصافات]، وقال تعالىٰ: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [هود].

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾

يقول تعالىٰ: ﴿وَ﴾ لقد أرسلنا، ﴿إِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ آمرًا لهم بعبادة الله وحده لا شريكَ له، ناهيًا لهم عن عبادة الأوثان التي افتروها، واختلقوا لها أسماء الآلهة، وأخبرهم أنَّه لا يُريد منهم أجرةً علىٰ هذا النُّصح والبلاغ منَ الله، إنَّما يبغي ثوابه من الله الذي فطره[1] ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ مَن يدعوكم إلىٰ ما يُصْلِحُكُم في الدُّنيا والآخرةِ مِن غير أجرة؟

ثمَّ أمرهم بالاستغفار الَّذي فيه تكفير الذُّنوب السَّالفة، وبالتَّوبة عمَّا يستقبلون، ومن اتَّصف بهذه الصِّفة يسَّر الله عليه رزقه، وسَهَّل عليه أمرَهُ وحَفِظَ شأنه وقوته؛ ولهذا قال: ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ [نوح: ١١]، وفي الحديث: «مَنْ لَزِمَ الِاسْتِغْفَارَ جَعَلَ اللهُ لَهُ مِنْ كُلِّ هَمٍّ فَرَجًا، وَمِنْ كُلِّ ضِيقٍ مَخْرَجًا، وَرَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ»[2].

﴿قَالُوا يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾

[يخبر][3] تعالىٰ أنَّهم قالوا لنَبِيِّهم: ﴿مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ أي: بحجَّة برهان علىٰ ما تدعيه، ﴿وَمَا نَحْنُ

---

(١) أي: خلقه.

(٢) ضعيف: رواه أبو داود (١٥١٨)، وابن ماجة (٣٨١٩)، وفيه الحكم بن مصعب: مجهول.

(٣) في (ز): «يقول».

بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوۡلِكَ﴾ أي: بمجرد قولك: «اتركوهم» نتركهم، ﴿وَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾ بمصدقين، ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٖ﴾ يقولون: ما نَظُنُّ إلا أنَّ بعض الآلهة أصابك بجنونٍ وخبَلٍ في عقلك بسببِ نهيكَ عَن عبادتها وعيبك لها ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ٥٤ مِن دُونِهِۦ﴾. يقول: إنِّي بريءٌ مِن جميع الأندادِ والأصنام، ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعٗا﴾ أي: أنتم وآلهتكم إن كانت حقًّا ﴿ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ أي: طرفةَ عينٍ واحدةٍ.

وقوله: ﴿إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ﴾ أي: تحت قهرِهِ وسلطانِهِ، وهو الحاكم العادل الذي لا يجور في حُكْمِهِ، فإنَّه علىٰ صراطٍ مستقيم.

قال الوليد بن مسلم، عن صفوان بن عمرو، عن أيفع بن عبدِ الكلاعي أنَّه قال في قوله تعالىٰ: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ قال: فيأخذ بنواصي[1] عباده، فيلقىٰ المؤمن حتىٰ يكون له أشفق مِن الوالد لولده، ويُقال للكافر: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ﴾ [الانفطار: ٦].

وقد تضمَّن هذا المقام حجَّةً بالغةً ودلالةً قاطعةً علىٰ صدق ما جاءهم به، وبطلان ما هُم عليه مِن عبادة الأصنام التي لا تَنفَع ولا تَضُرُّ، بل هي جَمَادٌ لا تسمع ولا تبصر، ولا تُوالِي ولا تُعادِي، وإنَّما يستحق إخلاص العبادة الله وحده لا شريك له، الذي بيده الملك، وله التَّصرف، وما مِن شيءٍ إلا تحت ملكه وقهره وسلطانه، فلا إله إلا هو، ولا ربَّ سواه.

﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦٓ إِلَيۡكُمۡۚ وَيَسۡتَخۡلِفُ رَبِّي قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ ٥٧ وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا هُودٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَنَجَّيۡنَٰهُم مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٖ ٥٨ وَتِلۡكَ عَادٞۖ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَعَصَوۡاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ ٥٩ وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ عَادٗا كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّعَادٖ قَوۡمِ هُودٖ ٦٠﴾

يقول لهم هود: فإن تولَّوْا عما جئتكم به مِن عبادة الله ربِّكم وحده لا شريك له، فقد قامت عليكم الحجَّة بإبلاغي إيَّاكم رسالة الله التي بعثني بها، ﴿وَيَسۡتَخۡلِفُ رَبِّي قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ﴾ يعبدونه وحده لا يُشركُون به، ولا يُبالِي بكم؛ فإنَّكم لا تضرونه بكفركم؛ بل يعود وَبَال ذلك عليكم ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ﴾ أي: شاهدٌ وحافظٌ لأقوال عباده وأفعالهم، ويجزيهم عليها إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر.

﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا﴾ وهو الريح العقيم فأهلكهم الله عن آخرهم، ونجَّىٰ هودًا وأتباعه المؤمنين من عذابٍ غليظٍ برحمته تعالىٰ ولطفِهِ.

﴿وَتِلۡكَ عَادٞۖ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾ كفروا بها، وعَصَوْا رسل الله، وذلك أنَّ مَن كفر بنَبِيٍّ فقد كفر بجميع الأنبياء؛ لأنَّه لا فرق بين أحدٍ منهم في وجوب الإيمان به، فعادٌ كفروا بِهُودٍ، فنزَّل كفرهم منزلة مَن كفر

---

(١) الناصية: مُقدم الرَّأس، يقال: أخذ بناصيته؛ أي: مَلَكَهُ وَتَصرَّفَ فِيه.

بجميع الرُّسل، ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ﴾ تركوا اتِّباع رسولهم الرَّشيد، واتَّبعوا أمر كلِّ جبَّارٍ عنيدٍ، فلِهَذَا أُتبِعوا في هذه الدُّنيا لعنةً مِن الله ومِن عباده المؤمنين كلمَّا ذُكِرُوا، وينادىٰ عليهم يوم القيامة علىٰ رءوس الأشهاد: ﴿أَلَآ إِنَّ عَادٗا كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّعَادٖ قَوۡمِ هُودٖ﴾.

قال السُّدِّي: ما بُعِث نبيٌّ بعد عاد إلا لُعِنُوا علىٰ لسانه.

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا فَٱسۡتَغۡفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٞ مُّجِيبٞ ٦١﴾

يقول تعالىٰ: ﴿وَ﴾ لقد أرسلنا ﴿إِلَىٰ ثَمُودَ﴾ وهم الَّذين كانوا يسكنون مدائن الحجر بين تبوك والمدينة، وكانوا بعد عاد، فبعث الله منهم ﴿أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗا﴾ فأمرهم بعبادة الله وحده؛ ولهذا قال: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: ابتدأ خلقكم منها، من الأرض الَّتي خلق منها أباكم آدم، ﴿وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا﴾ أي: جعلكم [فيها][1] عُمَّارًا تعمرونها وتستغلونها لسالف ذنوبكم، ﴿ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾ فيما تستقبلونه؛ ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٞ[2] مُّجِيبٞ﴾ كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ الآية [البقرة: ١٨٦].

﴿قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدۡ كُنتَ فِينَا مَرۡجُوّٗا قَبۡلَ هَٰذَآۖ أَتَنۡهَىٰنَآ أَن نَّعۡبُدَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ ٦٢ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي مِنۡهُ رَحۡمَةٗ فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنۡ عَصَيۡتُهُۥۖ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيۡرَ تَخۡسِيرٖ ٦٣﴾

يذكر تعالىٰ ما كان من الكلام بين صالح عليه السلام وبين قومه، وما كان عليه قومه من الجهْلِ والعناد في قولهم: ﴿قَدۡ كُنتَ فِينَا مَرۡجُوّٗا قَبۡلَ هَٰذَآ﴾ أي: كنَّا نرجوك في عقلك قبل أن تقولَ ما قلت! ﴿أَتَنۡهَىٰنَآ أَن نَّعۡبُدَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ وما كان عليه أسلافنا، ﴿وَإِنَّنَا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ﴾ أي: شكٌّ كثيرٌ.

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي﴾ فيما أرسلني به إليكم علىٰ يقينٍ وبرهانٍ ﴿وَءَاتَىٰنِي مِنۡهُ رَحۡمَةٗ فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنۡ عَصَيۡتُهُۥ﴾ وتركت دعوتكُم إلىٰ الحقِّ وعبادة الله وحده، فلو تركته لما نفعتموني ولما زِدْتُمُوني ﴿غَيۡرَ تَخۡسِيرٖ﴾ أي: خسارة.

---

(١) ليست في (ز).

(٢) قال العلامة السعدي رحمه الله: واعلم أن قربه تعالىٰ نوعان: عامٌّ، وخاصٌّ، فالقرب العام: قربه بعلمه من جميع الخلق، وهو المذكور في قوله تعالىٰ: ﴿وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ﴾ والقرب الخاص: قربه من عابديه، وسائليه، ومحبيه، وهو المذكور في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب﴾.

وفي هذه الآية، وفي قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ وهذا النوع، قرب يقتضي إلطافه تعالىٰ، وإجابته لدعواتهم، وتحقيقه لمراداتهم، ولهذا يقرن باسمه «القريب» اسمه «المجيب».

﴿ وَيَٰقَوۡمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ
عَذَابٞ قَرِيبٞ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمۡ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٖۖ ذَٰلِكَ وَعۡدٌ غَيۡرُ مَكۡذُوبٖ
﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا صَٰلِحٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَمِنۡ خِزۡيِ يَوۡمِئِذٍۚ إِنَّ
رَبَّكَ هُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ
﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾ ﴾

وتقدَّم الكلام علىٰ هذه القصَّة مستوفًىٰ في «سورة الأعراف» بما أغنىٰ عن إعادته هاهنا، وبالله التوفيق.

﴿ وَلَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجۡلٍ حَنِيذٖ
﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيۡدِيَهُمۡ لَا تَصِلُ إِلَيۡهِ نَكِرَهُمۡ وَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۚ قَالُواْ لَا تَخَفۡ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمِ
لُوطٖ ﴿٧٠﴾ وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتۡ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ
ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عَجِيبٞ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ
رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ ﴿٧٣﴾ ﴾

يقول تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُنَآ ﴾ وهم الملائكة، ﴿إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ ﴾ ، قيل: تبشره بإسحاق، وقيل: بهلاك قوم لوط. ويشهد للأوَّل قوله تعالىٰ: ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنۡ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلرَّوۡعُ وَجَآءَتۡهُ ٱلۡبُشۡرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِي قَوۡمِ لُوطٍ ﴾ [هود: ٧٤]، ﴿قَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞ(١) ﴾ أي: عليكم.

قال علماء البيان: هذا أحسن مما حيَّوه به؛ لأنَّ الرفع يدل علىٰ الثُّبوت والدَّوام.

﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجۡلٍ حَنِيذٖ﴾ أي: ذهب سريعًا، فأتاهم بالضِّيافة، وهو عِجْلٌ -فتىٰ البقر- حَنِيذٌ -مَشْويٌّ علىٰ الرَّضْف- وهي: الحجارة المُحْماة.

هذا معنىٰ ما روي عن ابن عبَّاس وقتادة وغير واحدٍ، كما قال في الآية الأخرىٰ: ﴿ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ ﴾ [الذاريات: ٢٦، ٢٧].

وقد تضمَّنت هذه الآية آداب الضيافة من وجوهٍ كثيرةٍ.

وقوله: ﴿ فَلَمَّا رَءَآ أَيۡدِيَهُمۡ لَا تَصِلُ إِلَيۡهِ نَكِرَهُمۡ ﴾ تنكَّرهم، ﴿وَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗ﴾ ؛ وذلك أنَّ الملائكة لا همَّة لهم إلىٰ الطعام ولا يشتهونه ولا يأكلونه؛ فلهذا رأىٰ حالهم معرضين عمَّا جاءهم به، فارغين عنه بالكليَّة فعند ذلك نكرَهُم، ﴿وَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗ﴾.

قال السُّدِّي: لما بعث الله الملائكة لقوم لوطٍ أقبلت تمشِي في صُور رجال شبان حتىٰ نزلوا علىٰ

---

(١) **قال العلامة السعدي رحمه الله:** ففي هذا مشروعية السلام، وأنه لم يزل من ملة إبراهيم عليه السلام، وأن السلام قبل الكلام، وأنه ينبغي أن يكون الرد أبلغ من الابتداء؛ لأن سلامهم بالجملة الفعلية، الدالة علىٰ التجدد، ورده بالجملة الاسمية الدالة علىٰ الثبوت والاستمرار، وبينهما فرق كبير كما هو معلوم في علم العربية.

إبراهيم فتضيَّفوه، فلما رآهم أجلَّهم ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ فذبحه، ثمَّ شواه في الرَّضف، وأتاهم به فقعد معهم، وقامت سارَّة تخدمهم فذلك حين يقول: «وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ وَهُوَ جَالِسٌ» في قراءة ابن مسعود؛ فلما قرَّبه إليهم قال: ألا تأكلون. قالوا: يا إبراهيم، إنَّا لا نأكل طعامًا إلا بثمن. قال: فإنَّ لهذا ثمنًا. قالوا وما ثمنه؟ قال: تذكرون اسم الله علىٰ أوَّله، وتحمدونه علىٰ آخره، فنظر جبريل إلىٰ ميكائيل فقال: حُقَّ لهذا أن يتخذه ربه خليلًا. ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ﴾ يقول: فلمَّا رآهم لا يأكلون فَزِعَ منهم، وأوجس منهم خيفةً، فلما نظرت إليه سارَّة أنَّه قد أكرمهم، وقامت هي تخدُمُهم؛ ضحكت وقالت: عجبًا لأضْيافِنا هؤلاء، نخدمهم بأنفسنا كرامةً لهم، وهم لا يأكلون طعامنا.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا علي بن الحسين، حدَّثنا نصر بن علي، حدَّثنا نوح بن قيس، عن عثمان ابن مِحْصن في ضيف إبراهيم قال: كانوا أربعة: جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، ورفائيل. قال نوح بن قيس: فزعم نوح بن أَبِي شدَّاد أنهم لما دخلوا علىٰ إبراهيم، فقرَّب إليهم العِجْلَ، مسحه جبريل بجناحه، فقام يدرج حتىٰ لحق بأمه، وأم العجل في الدار(١).

وقوله تعالىٰ إخبارًا عن الملائكة: ﴿قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ۝٧٠ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ﴾ أي قالوا: لا تخف منا، إنا ملائكةٌ أُرسِلْنَا إلىٰ قوم لوطٍ لنهلكهم؛ فضحكت سارة استبشارًا بهلاكهم؛ لكثرة فسادهم، وغِلَظ كفرهم وعنادهم، فلهذا جوزيت بالبشارة بالولد بعد الإياس.

وقال قتادة: ضحكت وعجبت أن قومًا يأتيهم العذاب وهم في غفلةٍ.

وقوله: ﴿وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ قال العوفي عن ابن عبَّاس: ﴿فَضَحِكَتْ﴾ أي: حاضت.

وقول محمَّد بن قيس: إنها إنما ضحكت من أنَّها ظنَّت أنهم يريدون أن يعملوا كما يعمل قوم لوط، وقول الكلبي: إنها إنما ضحكت لما رأت من الروع بإبراهيم -ضعيفان جدًّا، وإن كان ابن جرير قد رواهما بسنده إليهما، فلا يلتفت إلىٰ ذلك، والله أعلم.

وقال وهب بن مُنبِّه: إنما ضحكت لما بُشِّرت بإسحاق. وهذا مخالفٌ لهذا السياق، فإنَّ البشارة صريحةٌ مُرتبةٌ علىٰ ضحكها.

﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ أي: بولد لها يكون له ولد وعقب ونسل؛ فإنَّ يعقوب ولد إسحاق، كما قال في آية البقرة: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٣].

ومِن هاهنا استدلَّ مَنِ استدلَّ بهذه الآية علىٰ أنَّ الذَّبيح إنَّما هو إسماعيل، وأنَّه يمتنع أن يكون هو إسحاق؛ لأنَّه وقعت البشارة به، وأنه سيُولد له يعقوب، فكيف يؤمر إبراهيم بذَبْحِه وهو طفلٌ صغيرٌ، ولم يولد له بعد يعقوب الموعود بوجوده. ووعد الله حقٌّ لا خُلْفَ فيه، فيمتنع أن يؤمر بذبح هذا

---

(١) ابن أبي حاتم (١١٠١٢) ولا أصل له، وهو أشبه بالإسرائيليات؛ لأنَّه لم يرفعه إلىٰ النبيِّ ﷺ.

والحالة هذه، فتعيَّن أن يكون هو إسماعيل، وهذا مِن أحسن الاستدلال وأصحه وأبينه، ولله الحمد.

﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ حكىٰ قولها في هذه الآية، كما حكىٰ فعلها في الآية الأخرىٰ، فإنَّها: ﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ﴾ وفي الذاريات: ﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ [الذاريات: ٢٩]، كما جرت به عادة النساء في أقوالهن وأفعالهن عند التعجب. ﴿قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ أي: قالت الملائكة لها، لا تعجبي مِن أمر الله، فإنَّه إذا أراد شيئًا أن يقول له: «كُن» فيكون، فلا تعجبي مِن هذا، وإن كنتِ عجوزًا عقيمًا، وبعلُكِ شيخًا كبيرًا، فإن الله علىٰ ما يشاء قدير.

﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ أي: هو الحميد، في جميع أفعاله وأقواله محمودٌ، مُمَجَّدٌ في صفاته وذاته؛ ولهذا ثبت في «الصحيحين» أنهم قالوا: قد عَلِمْنَا السلام عليك، فكيف الصلاة عليك يا رسول الله؟ قال: قولوا: «اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ، وَعَلَىٰ آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَآلِ إِبْرَاهِيمَ، وَبَارِكْ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَعَلَىٰ آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَآلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ»(١).

﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ ۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾﴾

يخبر تعالىٰ عن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: أنَّه لما ذهب عنه الروع، وهو ما أَوْجَس من الملائكة خيفةً، حين لم يأكلوا، وبشَّروه بعد ذلك بالوَلَد، وأخبروه بهلاك قوم لوط، أخذ يقول كما قال سعيد بن جبير في الآية قال: لما جاءه جبريل ومَن معه قالوا له: ﴿إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ﴾ [العنكبوت: ٣١]، قال لهم: أَتُهْلِكُون قريةً فيها ثلاثمائة مؤمن؟ قالوا: لا. قال: أفتهلكون قريةً فيها مائتا مؤمن؟ قالوا: لا. قال: أفتهلكون قريةً فيها أربعون مؤمنًا؟ قالوا: لا. قال: ثلاثون؟ قالوا: لا حتىٰ بلغ خمسة. قالوا: لا. قال: أرأيتكم إن كان فيها رجلٌ واحدٌ مسلم أتهلكونها؟ قالوا: لا. فقال إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ عند ذلك: ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ﴾ الآية [العنكبوت:٣٢]، فسَكَت عنهم واطْمَأَنَّت نفسه.

وقال قتادة وغيره قريبًا من هذا، زاد ابن إسحاق: أفرأيتم إن كان فيها مؤمنٌ واحدٌ؟ قالوا: لا. قال: فإن كان فيها لوط يدفع به عنهم العذاب، قالوا: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ [العنكبوت:٣٢].

وقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾ مدح إبراهيمَ بهذه الصِّفات الجميلة، وقد تقدَّم تفسيرها.

---

(١) البخاري (٣٣٧٠)، ومسلم (٤٠٧)، وأبو داود (٩٧٦)، والترمذي (٤٨٣)، والنسائي (٣/ ٤٧)، وابن ماجة (٩٠٤).

وقوله: ﴿ يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآۖ إِنَّهُۥ قَدۡ جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَإِنَّهُمۡ ءَاتِيهِمۡ عَذَابٌ غَيۡرُ مَرۡدُودٖ ﴾ .

أي: إنَّه قد نفذَ فيهم القضَاء، وحَقَّت عليهم الكلمة بالهَلاك، وحلول البَأس الَّذي لا يُردُّ عن القوم المجرمين.

﴿ وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا وَقَالَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٞ ٧٧ وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ وَمِن قَبۡلُ كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓۖ أَلَيۡسَ مِنكُمۡ رَجُلٞ رَّشِيدٞ ٧٨ قَالُواْ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنۡ حَقّٖ وَإِنَّكَ لَتَعۡلَمُ مَا نُرِيدُ ٧٩ ﴾

يخبر تعالىٰ عَن قُدومِ رسلِهِ مِن الملائكة بعدَ مَا أَعْلَمُوا إبراهيم بهلاكهم، وفارقوه وأخبروه بإِهْلَاك الله قوم لوط هذه الليلة. فانطلقوا مِن عنده، فأتوا لوطًا عَلَيْهِ السَّلَامُ وهو -علىٰ ما قيل- في أرضٍ له، وقيل: في منزله، ووردوا عليه وهم في أجمل صورةٍ تكون، علىٰ هيئةِ شبَّان حسانِ الوجوه؛ ابتلاءً من الله، وله الحكمة والحجَّة البالغة، فساءه شأنهم، وضاقت نفسه بسببهم، وخشي إن لم يُضِفْهم أن يضيفهم أحدٌ من قومه، فينالهم بسوء، ﴿ وَقَالَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٞ ﴾ .

قال ابن عبَّاس ومجاهد وقتادة ومحمَّد بن إسحاق وغير واحد من الأئمَّة: شديد بلاؤه، وذلك أنَّه عَلِم أنه سيدافع قومه عنهم، ويشُقُّ عليه ذلك.

وذكر قتادة: أنَّهم أتوه وهو في أرضٍ له فتضيَّفوه فاستحيا منهم، فانطلق أمامهم، وقال لهم في أثناء الطريق -كالمعرض لهم بأن ينصرفوا عنه-: إنَّه - والله- يا هؤلاء، ما أعلم علىٰ وجهِ الأرض أهلَ بلدٍ أخبث من هؤلاء. ثم مشىٰ قليلًا ثم أعاد ذلك عليهم، حتىٰ كرَّره أربع مراتٍ. قال قتادة: وقد كانوا أمروا ألا يُهلِكُوهم حتىٰ يشهد عليهم نبيهم بذلك.

وقال السُّدِّي(١): خرجت الملائكة من عند إبراهيم نحو قرية لوط فبلغوا نهر سدون نصف النَّهار، ولقوا بنت لوط تستقي [من الماء لأهلها، وكانت له ابنتان اسم الكبرىٰ «رثيا»، والصغرىٰ «زغرتا»](٢) فقالوا [لها](٣) يا جارية، هل مِن منزل؟ فقالت: [نعم](٤) مكانكم حتىٰ آتيكم، وفَرِقت(٥) عليهم من قومها، فأتت أباها فقالت: يا أبتاه، أَدْرِكْ فتيانًا علىٰ باب المدينة، ما رأيت وجوه قومٍ [هي](٦) أحسن منهم، لا يأخذهم قومك [فيفضحوهم](٧)، وقد كان قومه نهوه أن يُضَيِّف رجلًا، فقالوا: خَلِّ عنَّا فلْنُضِف الرِّجال. فجاء بهم، فلم يعلم بهم أحدٌ إلا أهل بيته فخرجت امرأتُهُ فأخبرت قومها [فقالت: إنَّ في بيتِ لوطٍ رجالًا ما رأيت مثل وجوهِهم قط](٨) فجاءوا يهرعون إليه.

وقوله: ﴿ يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ ﴾ أي: يُسْرِعون ويُهَرِولُون مِن فرحهم بذلك.

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم (١١٠٥٢). (٢، ٣، ٤) سقط من (ز)، وهي مثبتة في تفسير «ابن أبي حاتم».
(٥) أي: خافت عليهم. (٦، ٧، ٨) سقط من (ز)، وهي مثبتة في تفسير «ابن أبي حاتم».

وقوله: ﴿وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أي: لم يَزَلْ هذا مِن سَجِيَّتِهم حتىٰ أُخِذُوا وهُم علىٰ ذلك الحال.

وقوله: ﴿قَالَ يَـٰقَوْمِ هَـٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ يُرشِدُهُم إلىٰ نسائِهِم، فإنَّ النَّبيَّ للأمَّة بمنزلة الوالد، فأرشدهم إلىٰ ما هو أنفعُ لهم في الدُّنيا والآخرة، كما قال لهم في الآية الأخرىٰ: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ [الشعراء: ١٦٥، ١٦٦]، وقوله في الآية الأخرىٰ: ﴿قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الحجر: ٧٠] أي: ألم ننهك عن ضيافة الرجال ﴿قَالَ هَـٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَـٰعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر: ٧١، ٧٢]، وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿هَـٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ قال مجاهد: لم يَكُنَّ بناتِهِ، ولكن كُنَّ مِن أمَّتِهِ، وكلُّ نبيٍّ أبو أمَّتِه.

وكذا روي عن قتادة، وغير واحدٍ.

وقال ابن جُرَيْج: أمرهم أن يتزوجوا النساء، ولم يَعْرِضْ عليهم سِفَاحًا.

وقال سعيد بن جبير: يعني نساءهم، هُنَّ بَنَاته، وهو أبٌ لهم، ويقال في بعض القراءات: «النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَهُوَ أَبٌ لَهُمْ».

وكذا روي عن الرَّبيع بن أنس، وقتادة، والسُّدِّي، ومحمَّد بن إسحاق، وغيرهم.

وقوله: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ﴾ أي: اقبلُوا ما آمركم به مِن الاقتصار علىٰ نسائِكُم، ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ أي: خَيِّرٌ، يقبل ما آمره به، ويترك ما أنهاه عنه؟

﴿قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ أي: إنك تعلم أنَّ نساءنا لا أَرَبَ لنا فيهنَّ ولا نَشْتَهِيهِنَّ، ﴿وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ أي: ليس لنا غرضٌ إلا في الذُّكور، وأنت تعلم ذلك، فأيُّ حاجةٍ في تكرار القول علينا في ذلك؟

قال السُّدِّي: ﴿وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ إنما نريد الرِّجال.

﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا۟ يَـٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾﴾

يقول تعالىٰ مخبراً عن نبيه لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ: إنَّ لوطًا توعدهم بقوله: ﴿لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ أي: لَكُنْت نكلت بكم، وفَعَلْت بكم، الأفاعيل بنفسي وعشيرتي، ولهذا ورد في الحديث من طريق محمَّد بن عمرو بن علقمة، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**رَحْمَةُ اللهِ عَلَىٰ لُوطٍ، لَقَدْ كَانَ يَأْوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ** -يعني: الله عَزَّ وَجَلَّ- **فَمَا بَعَثَ اللهُ بَعْدَهُ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا فِي ثَرْوَةٍ مِنْ قَوْمِهِ**(١)» (٢).

---

(١) أي: في عددٍ كثيرٍ من قومه، أو في مَنَعَةٍ.

(٢) حسن: رواه أحمد (٢/ ٣٣٢)، والترمذي (٣١١٥)، وابن حبان (٦٢٠٦)، وأصل الحديث في «الصحيحين» بدون الجملة الأخيرة، وهي قوله: «فَمَا بَعَثَ اللهُ بَعْدَهُ.. إلخ».

فعند ذلك أخبرته الملائكة أنَّهم رُسل الله إليه، وأنَّهم لا وصول لهم إليه ﴿قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَ﴾ وأمروه أن يَسْرِي بأهله مِن آخر اللَّيل، وأن يتَّبع أدبارهم؛ أي: يكون ساقةً لأهله، ﴿وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ﴾ أي: إذا سمعت ما نزل بهم، ولا تهولنَّكم تلك الأصوات المزعجة، ولكن استمرُّوا ذاهبين.

﴿إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَ﴾ قال الأكثرون: هو استثناءٌ من المثبت، وهو قوله: ﴿فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ﴾ تقديره ﴿إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَ﴾ وكذلك قرأها ابن مسعود، ونصب هؤلاء امرأتك؛ لأنَّه من مثبت، فوجب نصبه عندهم.

وقال آخرون من القرَّاء والنُّحاة: هو استثناء من قوله: ﴿وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَ﴾ فجوَّزوا الرفع والنصب[(١)]، وذكر هؤلاء أنَّها خرجت معهم، وأنَّها لما سمعت الوَجبَة[(٢)] الْتَفَتَتْ، وقالت: واقوماه؛ فجاءها حَجَرٌ مِن السَّماء فقتلها.

ثم قرَّبوا له هلاك قومه تبشيرًا له؛ لأنَّه قال لهم: «أهلكوهم السَّاعة»، فقالوا: ﴿إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ﴾ هذا وقومُ لُوطٍ وقُوفٌ علىٰ الباب وعُكوفٌ، قد جاءوا يُهرعون إليه مِن كلِّ جانبٍ، ولوطٌ واقفٌ علىٰ الباب يُدافِعُهم، ويردعهم وينهاهم عمَّا هم فيه، وهم لا يقبلون منه، بل يتوعَّدونه ويتهدَّدُونَه، فعند ذلك خرج عليهم جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ فضرب وجوههم بجناحه، فطمس أعينهم، فرجعوا وهم لا يهتدون الطَّريق، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدۡ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيۡفِهِۦ فَطَمَسۡنَآ أَعۡيُنَهُمۡ فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ ٣٧ وَلَقَدۡ صَبَّحَهُم بُكۡرَةً عَذَابٞ مُّسۡتَقِرّٞ ٣٨ فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ [القمر: ٣٧-٣٩].

وقال مَعْمَر، عن قتادة، عن حذيفة بن اليمان قال: كان إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ يأتي قوم لوطٍ، فيقول: أنهاكم الله أن تَعَرَّضوا لعقوبته؟ فلم يُطيعُوه، حتىٰ إذا بلغ الكتابُ أَجَلَهُ لمحل عذابِهم وسطوات الرَّبِّ بهم قال[(٣)]: انتهت الملائكة إلىٰ لوطٍ وهو يعمل في أرضٍ له، فدعاهم إلىٰ الضِّيافة، فقالوا: إنَّا ضيوفك اللَّيلة، وكان الله قد عَهِدَ إلىٰ جبريل ألا يُعذبَهُم حتىٰ يشهد عليهم لوطٌ ثلاث شَهاداتٍ، فلمَّا توجَّه بهم لوطٌ إلىٰ الضِّيافة، ذكر ما يعمل قومه من الشَّرِّ [والدواهي العظام][(٤)] فمشىٰ معهم ساعةً، ثم التفت إليهم فقال: أما تعلمون ما يعمل أهل هذه القرية؟ ما أعلم علىٰ وجه الأرض شرًّا منهم. أين أذهب بكم؟ إلىٰ قومي وهم أشر خلق الله، فالتفت جبريل إلىٰ الملائكة فقال: احفظوها هذه واحدة. ثم مشىٰ معهم ساعةً، فلمَّا توسَّط القرية وأشفق عليهم واستحيا منهم قال: أما تعلمون ما يعمل أهل هذه القرية؟ ما أعلم علىٰ وجه الأرض أشر منهم، إنَّ قومي أشر خلق الله. فالتفت جبريل إلىٰ الملائكة فقال: احفظوا، هاتان اثنتان، فلما انتهىٰ إلىٰ باب الدَّار بكىٰ حياءً منهم وشفقةً عليهم فقال: إنَّ قومي أشر من خلق الله؟ أَمَا تعلمون ما يعمل أهل هذه القرية؟ ما أعلم علىٰ وجه الأرض أهل قريةٍ شرًّا منهم. فقال جبريل

---

(١) متواترة: قَرَأَ (امْرَأَتُكَ) ابْنُ كَثِيرٍ وَأَبُو عَمْرٍو وَوَافَقَهُمَا ابْنُ مُحَيْصِنٍ وَالْيَزِيدِيُّ وَالْحَسَنُ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ (امْرَأَتَكَ).

(٢) أي: الرجفة. (٣، ٤) سقط من (ز)، وإثباتها موافق لما في «الطبري».

للملائكة: احفظوا، هذه ثلاث، قد حَقَّ العذاب. فلما دخلوا ذهبت عجوز السُّوء فصعدت فلوَّحَتْ بثوبها، فأتاها الفسَّاق يُهرَعون سراعًا، قالوا: ما عندك؟ قالت: ضَيَّف لوطًا قوم ما رأيت قطُّ أحسنَ وجوهًا منهم، ولا أطيبَ ريحًا منهم. فهُرعوا يسارعون إلىٰ الباب، فَعَالَجَهُمْ لوطٌ علىٰ الباب، فدافعوه طويلًا هو داخل وهم خارج، يناشدهم الله ويقول: ﴿هَٰؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ فقام المَلَكُ فلَزَّ بالباب -يقول فسَدَّه- واستأذن جبريل في عقوبتهم، فأذن الله له، فقام في الصُّورة التي يكون فيها في السَّماء، فنشر جناحه. ولجبريل جناحان، وعليه وشاحٌ من درٍّ منظوم، وهو برَّاق الثَّنايا، أَجْلَىٰ الجَبين، ورأسه حُبُكٌ حُبُك مثل المرجان(١) وهو اللُّؤلُؤ، كأنَّه الثَّلج، ورجلاه إلىٰ الخضرة. فقال يا لوط: ﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ﴾ امْضِ يا لوط عن الباب ودعني وإيَّاهم، فتنحَّىٰ لوطٌ عن الباب، فخرج إليهم، فنَشَرَ جناحه، فضرب به وجوههم ضربةً شدخ أعينهم، فصاروا عُمْيًا لا يعرفون الطَّريق [ولا يهتدون إلىٰ بيوتهم](٢) ثم أُمِرَ لوطٌ فاحتمل بأهله في ليلته قال: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾(٣).

وروي عن محمَّد بن كعب وقتادة والسُّدِّي نحو هذا.

﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ (٨٢) مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ (٨٣)﴾

يقول تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ وكان ذلك عند طلوع الشمس ﴿جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا﴾ وهي سَدُوم ﴿سَافِلَهَا﴾ كقوله: ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ (٥٣) فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ﴾ [النجم:٥٣، ٥٤] أي: أمطرنا عليها حجارةً من «سجيل» وهي بالفارسيَّة: حجارة من طين، قاله ابن عبَّاس وغيره.

وقال بعضهم: أي من «سَنْكِ» وهو الحجر، و«كِلٍ» وهو الطين، وقد قال في الآية الأخرىٰ: ﴿حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴾ [الذاريات:٣٣] أي: مستحجرةً قويَّةً شديدةً. وقال بعضهم: مشوية، وقال البخاري: «سِجِّيل»: الشديد الكبير. سِجِّيل وسِجِّين واحد، اللام والنون أختان، وقال تميم بن مُقبِل:

وَرَجْلَةٍ يَضْرِبُونَ البَيْضَ ضَاحِيَةً ... ضَرْبًا تَوَاصَتْ بِهِ الأَبْطَالُ سِجِّينَا(٤)

وقوله: ﴿مَّنضُودٍ﴾ قال بعضُهُم: منضودةٌ في السماء؛ أي: معدَّةٌ لذلك.

وقال آخرون: ﴿مَّنضُودٍ﴾ أي: يتبع بعضها بعضًا في نزولها عليهم.

وقوله: ﴿مُّسَوَّمَةً﴾ أي مُعَلَّمَة مختومةً، عليها أسماء أصحابها، كلُّ حَجرٍ مكتوبٌ عليه اسم الَّذي ينزل عليه.

---

(١) أي: شعره جعد متكسر. (٢) سقط من (ز)، وهي مثبتة في «الطبري».

(٣) ضعيف: رواه الطبري (١٢/ ٩٠-٩٢)، وإسناده منقطع بين قتادة وحذيفة.

(٤) البيض: واحده بيضة، وهي الخوذة، وعنىٰ بها الرأس، ومعنىٰ ضاحية: بارزة.

وقال قتادة وعِكْرِمة: ﴿مُسَوَّمَةً﴾ مُطوَّقةً، بها نَضحٌ من حُمْرةٍ[١].

وذكروا أنَّها نزلت علىٰ أهل البلد، وعلىٰ المتفرِّقين في القُرىٰ مما حولها، فبَيْنَا أحدهم يكون عند النَّاس يتحدَّث، إذ جاءه حجرٌ مِن السَّماء فسقط عليه مِن بين النَّاس، فدمَّره، فتَتْبَعُهُمُ الحجارة من سائر البلاد، حتىٰ أهلكتهم عن آخرهم فلم يَبْقَ منهم أحد.

وقال مجاهد: أخذ جبريلُ قوم لوط مِن سَرْحهم ودورهم، حملهم بمواشيهم وأمتعتهم، ورفعهم حتىٰ سَمِعَ أهل السَّماء نُباح كلابِهِم ثم أكفأَهُم، وكان حملهم علىٰ حوافِي جناحه الأيمن. قال: ولما قلبها كان أوَّلَ ما سقط منها شُذانها.

وقال قتادة: بَلَغَنَا أنَّ جبريل أخذ بعروة القَرْيَة الوسطىٰ، ثم أَلْوَىٰ بها[٢] إلىٰ جوِّ السَّماء، حتىٰ سَمِعَ أهل السَّماء ضواغي كِلَابِهِم[٣]، ثم دمَّر بعضها علىٰ بعض، ثم أتبع شُذَّاذ القوم صَخْرًا -قال: وذكر لنا أنهم كانوا أربع قرىٰ، في كلِّ قريةٍ مائة ألف -وفي روايةٍ: ثلاث قرىٰ، الكبرىٰ منها سَدُوم. قال: وبلغنا أنَّ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ كان يشرف علىٰ سدوم، ويقول: سدوم، يومٌ مَا لَكِ؟

وفي رواية عن قتادة وغيره: بلغنا أن جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ لما أصبح نشر جناحه، فانتسف به أرضهم بما فيها من قُصُورها ودوابها وحجارتها وشجرها، وجميع ما فيها، فضَمَّها في جناحه، فحَوَاها وطواها في جوف جناحه، ثم صعد بها إلىٰ السماء الدُّنيا، حتىٰ سمع سكَّانُ السَّماء أصواتَ النَّاس والكلاب، وكانوا أربعة آلاف ألف، ثم قلبها، فأرسلها إلىٰ الأرض منكوسةً، وَدَمْدَم بعضها علىٰ بعضٍ، فجعل عاليها سافلها، ثم أتبعها حجارةً مِن سجِّيل.

وقال محمَّد بن كعب القُرَظي: كانت قرىٰ قوم لوط خمس قريات: «سَدُوم»، وهي العظمىٰ، و«صعبة» و«صعوة» و«عثرة» و«دوما»، احتملها جبريل بجناحه، ثم صعد بها، حتىٰ إنَّ أهل السَّماء الدُّنيا ليسمعون نابحةَ كلابها، وأصوات دَجَاجِهَا، ثم كفأها علىٰ وجهها، ثم أتبعها الله بالحجارة، يقول الله تعالىٰ: ﴿جَعَلْنَا عَلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ فأهلكها الله وما حولها من المؤتفكات.

وقال السُّدِّي: لما أصبح قوم لوط، نزل جبريلُ فاقتلع الأرض من سبع أرضين، فحملها حتىٰ بلغ بها السَّماء، حتىٰ سَمِعَ أهل السَّماء الدُّنيا نباح كلابهم، وأصوات ديوكهم، ثم قلَبَهَا فقتلهم، فذلك قوله: ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ﴾ [النجم: ٥٣]، ومَن لم يَمُت حين سقط للأرض، أمطر الله عليه -وهو تحت الأرض- الحجارة، ومن كان منهم شاذًّا في الأرض يتبعهم في القرىٰ، فكان الرَّجل يتحدَّث فيأتيه الحجر فيقْتُله، فذلك قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا﴾ أي: في القرىٰ حجارة من سجيل. هكذا قال السُّدِّي.

وقوله: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ أي: وما هذه النِّقمة ممَّن تَشَبَّه بهم في ظُلْمِهم ببعيدٍ عنه.

وقد ورد في الحديث المرويِّ في «السنن» عن ابن عبَّاس مرفوعًا: «مَنْ وَجَدْتُمُوهُ يَعْمَلُ عَمَلَ قَوْمِ

---

(١) أي: أثر وبقية. (٢) أي: أخذها وطار بها. (٣) أي: صوتها.

لُوطٍ، فَاقْتُلُوا الفَاعِلَ وَالمَفْعُولَ بِهِ»(١).

وذهب الإمام الشَّافعي في قول عنه وجماعةٌ من العلماء إلىٰ أنَّ اللَّائط يُقْتَل، سواء كان محصنًا أو غير محصنٍ، عملًا بهذا الحديث.

وذهب الإمام أبو حنيفة إلىٰ: أنه يلقىٰ من شاهقٍ، ويُتبَع بالحجارة، كما فعل الله بقوم لوط، والله تعالىٰ أعلم بالصواب.

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾﴾

يقول تعالىٰ: ولقد أرسلنا إلىٰ مدين -وهم قبيلة من العرب، كانوا يسكنون بين الحجاز والشام، قريبًا من بلاد معان، في بلد يعرف بهم، يقال لها: «مدين»- فأرسل الله إليهم شعيبًا، وكان من أشرفهم نسبًا. ولهذا قال: ﴿أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ يأمرهم بعبادة الله -تعالىٰ- وحده، وينهاهم عن التَّطفيف في المكيال والميزان ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾ أي: في معيشتكم ورزقكم فأخاف أن تُسلبوا ما أنتم فيه بانتهاككم محارم الله، ﴿وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾ أي: في الدَّار الآخرة.

﴿وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾﴾

ينهاهم أولًا عن نقص المكيال والميزان إذا أعطوا النَّاس، ثم أمرهم بوفاء الكيل والوزن بالقسط آخِذِينَ ومُعْطِين، ونهاهم عن العيث في الأرض بالفساد، وقد كانوا يقطعون الطَّريق.

وقوله: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ قال ابن عبَّاس: رِزْقُ الله خيرٌ لكم.

وقال الحسن: رزق الله خيرٌ مِن بخسكم النَّاس.

وقال الربيع بن أنس: وَصِيَّة الله خيرٌ لكُم.

وقال مجاهد: طاعةُ الله.

وقال قتادة: حظُّكُم من الله خيرٌ لكم.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: «الهلاك» في العذاب، و«البقية» في الرَّحمة.

وقال أبو جعفر بن جرير: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي: ما يفضُل لكم من الرِّبح بعد وفاء الكَيْلِ والميزان ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي: مِن أخذ أموال النَّاس، قال: وقد رُوِيَ هذا عن ابن عبَّاس.

قلت: ويشبه قوله تعالىٰ: ﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ﴾ [المائدة: ١٠٠].

وقوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ أي: برقيب ولا حفيظ؛ أي: افعلوا ذلك لله عز وجل لا تفعلوه ليراكم النَّاس، بل لله عز وجل.

---

(١) صحيح: رواه أحمد (١/ ٣٠٠)، وأبو داود (٤٤٦٢)، والترمذي (١٤٥٦)، وابن ماجة (٢٥٦١).

﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَوَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾﴾

يقولون له علىٰ سبيل التَّهكُّم، قبَّحهم الله: ﴿أَصَلَوَاتُكَ﴾، قال الأعمش: أي: قرآنك، ﴿تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ أي: الأوثان والأصنام، ﴿أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ﴾ فنترُكَ التَّطفيف علىٰ قولك، هي أموالُنا نفعل فيها ما نريد.

[قال الحسن في قوله: ﴿أَصَلَوَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ إيْ والله، إنَّ صلاته لتأمرهم أن يتركوا ما كان يعبد آباؤُهم](١).

وقال الثوري في قوله: ﴿أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ﴾ يعنون: الزَّكاة.

وقولهم: ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ قال ابن عبَّاس، وميمون بن مِهْران، وابن جُرَيْج، وابن أسلم، وابن جرير: يقولون ذلك -أعداء الله- علىٰ سبيل الاستهزاء(٢)، قبَّحهم الله ولعنهم عن رحمته، وقد فعَلَ.

﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾

يقول لهم: أرأيتم يا قوم ﴿إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ أي: علىٰ بصيرةٍ فيما أدعو إليه، ﴿وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ قيل: أراد النُّبوَّة. وقيل: أراد الرِّزق الحلال، ويحتمل الأمرين.

[وقال الثوري](٣) ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾ أي: لا أنهاكم عن شيءٍ، وأخالف أنا في السِّرِّ فأفعله خفيةً عنكم، كما قال قتادة في قوله: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾ يقول: لم أكن لأنهاكم عَن أمرٍ وأركبه ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾ أي: فيما آمركم وأنهاكم، إنَّما مرادي إصلاحكم جهدي وطاقتي، ﴿وَمَا تَوْفِيقِي﴾ أي: في إصابة الحقِّ فيما أريده ﴿إِلَّا بِاللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ في جميع أموري، ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ أي: أرجع، قاله مجاهد وغيره.

قال الإمام أحمد: حدَّثنا عفان، حدَّثنا حماد بن سلمة، حدَّثنا أبو قَزْعَةَ سُويد بن حُجَير الباهلي، عن حكيم بن معاوية، عن أبيه: أن أخاه مالكًا قال: يا معاوية، إنَّ محمَّدًا أخذ جيراني، فانطلِق إليه، فإنَّه قد

---

(١) ليست في (ز).

(٢) قال العلامة السعدي رحمه الله: وقصدهم أنه موصوف بعكس هذين الوصفين: بالسفه والغواية؛ أي: أن المعنىٰ: كيف تكون أنت الحليم الرشيد، وآباؤنا هم السفهاء الغاوون؟!!

وهذا القول الذي أخرجوه بصيغة التهكم، وأن الأمر بعكسه، ليس كما ظنوه، بل الأمر كما قالوه. إن صلاته تأمره أن ينهاهم عما كان يعبد آباؤهم الضالون، وأن يفعلوا في أموالهم ما يشاءون، فإن الصلاة تنهىٰ عن الفحشاء والمنكر، وأي فحشاء ومنكر أكبر من عبادة غير الله، ومن منع حقوق عباد الله، أو سرقها بالمكاييل والموازين، وهو عليه الصلاة والسلام الحليم الرشيد.

(٣) ليست في (ز).

كلَّمكَ وَعرَفَكَ، فانطلقتُ معه، فقال: دع لي جيراني، فقد كانوا أسلموا. فَأَعْرَض عنه. فقام مُتَمَعطًا[١] فقال: أما والله لئن فَعلتَ إن النَّاس يزعمون أنَّك تأمر بالأمر وتخالف إلىٰ غيره. وجعلتُ أجرُّه وهو يتكلَّم، فقال رسول الله ﷺ: «مَا تَقُولُ؟» فقال: إنك والله لَئِنْ فعلتَ [ذلك][٢] إنَّ النَّاس ليزعمون أنك لتأمر بالأمر وتخالف[٣] إلىٰ غيره. قال: فقال: «أَوَ قَدْ قَالُوهَا - أو: قَائِلُهُمْ - وَلَئِنْ فَعَلْتُ ذَلِكَ مَا ذَاكَ إِلَّا عَلَيَّ، وَمَا عَلَيْهِمْ مِنْ ذَلِكَ مِنْ شَيْءٍ، أَرْسِلُوا لَهُ جِيرَانَهُ»[٤].

وقال أحمد أيضًا: حدَّثنا عبد الرزَّاق، حدَّثنا مَعْمَر، عن بَهْز بن حكيم، عن أبيه، عن جده قال: أخذ النَّبيُّ ﷺ ناسًا من قومي في تُهَمةٍ فحبَسَهُم، فجاء رجلٌ مِن قومي إلىٰ رسول الله ﷺ وهو يخطب، فقال: يا محمَّد، علام تَحْبِس جيرتي؟ فصمت رسول الله ﷺ، فقال: إنَّ ناسًا ليقولون: إنك تنهىٰ عن الشيء وتستخلي به، فقال النَّبيُّ ﷺ: «مَا يَقُولُ؟» قال: فجعلت أعرض بينهما الكلام مخافة أن يسمعها فيدعو علىٰ قومي دَعوةً لا يُفْلِحُون بعدها أبدًا، فلم يزل رسول الله ﷺ [به][٥] حتىٰ فهمها، فقال: «أَوَ قَدْ قَالُوهَا -أو: قَائِلُهَا مِنْهُمْ- وَاللهِ لَوْ فَعَلْتُ لَكَانَ عَلَيَّ وَمَا كَانَ عَلَيْهِمْ، خَلُّوا لَهُ عَنْ جِيرَانِهِ»[٦].

ومِن هذا القبيل الحديث الذي رواه الإمام أحمد: حدَّثنا أبو عامر، حدَّثنا سليمان بن بلال، عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن، عن عبد الملك بن سعيد بن سويد الأنصاري قال: سمعت أبا حميد وأبا أسيد يقولان: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا سَمِعْتُمُ الحَدِيثَ عَنِّي تَعْرِفُهُ قُلُوبُكُمْ، وَتَلِينُ لَهُ أَشْعَارُكُمْ وَأَبْشَارُكُمْ، وَتَرَوْنَ أَنَّهُ مِنْكُمْ قَرِيبٌ، فَأَنَا أَوْلاكُمْ بِهِ، وَإِذَا سَمِعْتُمُ الحَدِيثَ عَنِّي تُنْكِرُهُ قُلُوبُكُمْ، وَتَنْفِرُ مِنْهُ أَشْعَارُكُمْ وَأَبْشَارُكُمْ، وَتَرَوْنَ أَنَّهُ مِنْكُمْ بَعِيدٌ فَأَنَا أَبْعَدُكُمْ مِنْهُ»[٧]. هذا إسنادٌ صحيحٌ.

وقد أخرج مسلم بهذا السند حديث: «إِذَا دَخَلَ أَحَدُكُمُ المَسْجِدَ فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ، افْتَحْ لِي أَبْوَابَ رَحْمَتِكَ، وَإِذَا خَرَجَ فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ، إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ»[٨].

ومعناه -والله أعلم-: مهما بلغكم عنِّي مِن خيرٍ فأنا أولاكم به، ومهما يكن من مكروهٍ فأنا أبعدكم منه، ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُ﴾.

وقال قتادة، عن عَزْرَة، عن الحسن العُرَني[٩]، عن يحيىٰ بن الجزار، عن مسروق، أنَّ امرأةً جاءت

---

(١) أي: متسخطًا متغضبًا. (٢) سقط من (ز). (٣) لوحة (٣١٩ ب).

(٤) حسن: أحمد (٤/ ٤٤٧)، (٥/ ٢)، وإسناده رجاله ثقات عدا حكيم بن معاوية: لم يوثقه غير ابن حبان، لكن يشهد للحديث الرواية الآتية.

(٥) ليست في (ز).

(٦) رواه أحمد (٥/ ٢)، وأبو داود (٢٦٣٠) مختصرًا، والنسائي (٨/ ٦٦)، والترمذي (١٤١٧) وحسنه.

(٧) صحيح: رواه أحمد (٣/ ٤٩٧)، وانظر: «الصحيحة» للألباني (٧٣٢).

(٨) مسلم (٧١٣)، وأبو داود (٤٦٥)، والنسائي (٢/ ٥٣)، وابن ماجة (٧٧٢).

(٩) في (ز): «عن عروة عن الحسن البصري»، وهو خطأ، والمثبت موافق لما في «المسند» و «ابن أبي حاتم»، وعَزْرَة هو ابن عبد الرحمن الخزاعي الكوفي الأعور، والحسن -هو ابن عبد الله-: كلاهما ثقة.

ابن مسعود قالت: أَتَنْهىٰ عن الوَاصِلَةِ؟[١] قال: نعم. فقالت المرأة: فلعلّه في بعض نسائك؟ فقال: ما حفظت إذًا وصيَّة العبد الصالح: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾[٢].

وقال عثمان بن أبي شيبة: حدَّثنا جرير، عن أبي سليمان العتبي قال: كانت تَجِيئُنا كتب عمر بن عبد العزيز فيها الأمر والنَّهي، فيكتب في آخرها: وما كنت مِن ذلك إلا كما قال العبد الصالح: ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِ[٣] عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾.

﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾﴾

يقول لهم: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ﴾ أي: [لا][٤] تحملنَّكم عداوتي وبغضي علىٰ الإصرار علىٰ ما أنتم عليه من الكُفْر والفساد، فيُصِيبَكُم مثل ما أصاب قومَ نوحٍ، وقوم هودٍ، وقوم صالحٍ، وقوم لوطٍ من النِّقمة والعذاب.

قال قتادة: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ﴾ يقول: لا يحملنَّكم فراقي.

وقال السُّدِّي: عداوتي، علىٰ أن تتمادوا في الضَّلال والكفر، فيُصِيبَكُم من العذاب ما أصابهم.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا محمَّد بن عوف الحمصي، حدَّثنا أبو المغيرة عبد القدوس بن الحجاج، حدَّثنا ابن [أبي][٥] غَنِيَّة، حدَّثني عبد الملك بن أبي سليمان، عن أبي ليلىٰ الكندي قال: كنت مع مولاي أُمْسِكُ دابته، وقد أحاط النَّاس بعثمان بن عفان؛ إذ أشرف علينا مِن داره فقال: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ﴾ يا قوم، لا تقتلوني، إنَّكم إن تقتلوني كنتم هكذا، وشبَّك بين أصابعه[٦].

وقوله: ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ يعني: إنَّما أهلكوا بين أيديكم بالأمس، وقيل: في المكان، ويحتمل الأمران، ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ أي: استغفروه مِن سالف الذُّنوب، وتوبوا فيما تستقبلونه من الأعمال السيئة، ﴿إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ أي: لمن تاب وأناب.

﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾﴾

---

(١) الواصلة: التي تصل شعرها بشعر آخر زور. «النهاية» (٥/ ١٩٢).

(٢) **حسن:** رواه أحمد (١/ ٤١٥)، والنسائي (٨/ ١٤٦)، وابن أبي حاتم (٦/ ١١١٤٥).

(٣) لوحة (٣٢٠ أ). (٤) سقط من (ز).

(٥) في (ز): «ابن غنية»، وهو خطأ، والمثبت موافق لما عند «ابن أبي حاتم».

(٦) **حسن:** رواه ابن أبي حاتم (٦/ ١١١٥٤)، وعزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٤٧٠) إلىٰ ابن أبي شيبة.

يقولون: ﴿يَـٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾ أي: ما نفهم ولا نعقل كثيرًا من قولك، وفي آذاننا وقر، ومِن بيننا وبينك حجاب. ﴿وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾.

قال سعيد بن جبير، والثوري: كان ضرير البصر. قال الثوري: وكان يقال له: خطيب الأنبياء.

[وقال السُّدِّي: ﴿وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾ قال: أنت واحد.

وقال أبو روق: ﴿وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾ يعنون: ذليلًا؛ لأنَّ عشيرتك ليسوا علىٰ دينك][١] فأنت ذليلٌ ضعيفٌ.

﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ﴾ أي: قومك وعشيرتك؛ لولا معزَّة قومك علينا لرجمناك، قيل: بالحجارة، وقيل: لسبَبْنَاك، ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ أي: ليس لك عندنا معزَّةٌ.

﴿قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ يقول: أتتركوني لأجل قومي، ولا تتركوني إعظامًا لجناب الله[٢] أن تنالوا نَبِيَّه بمساءة. وقد اتَّخذْتُم جانب الله ﴿وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا﴾ أي: نبذتموه خلفكم، لا تُطِيعُونَه ولا تعظِّمونه، ﴿إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ أي: هو يعلم جميعَ أعمالكم وسيجزيكم بها.

﴿وَيَـٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَـٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ ۖ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَـٰرِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾﴾

لما يئس نبيُّ الله شعيب من استجابة قومه له، قال: يا قوم ﴿ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ أي: علىٰ طريقتكم، وهذا تهديدٌ ووعيدٌ شديدٌ، ﴿إِنِّى عَـٰمِلٌ﴾ علىٰ طَرِيقَتِي ومنهجي ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ أي: في الدَّار الآخرة، ﴿وَمَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ﴾ أي: مِنِّي ومنكم، ﴿وَٱرْتَقِبُوٓا۟﴾ أي: انتظروا ﴿إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾.

قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ وهم قومه، ﴿فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَـٰرِهِمْ جَـٰثِمِينَ﴾ [وقوله: ﴿جَـٰثِمِينَ﴾][٣] أي: هامدين لا حِرَاك بهم. وذكر هاهنا أنه أتتهم صيحة، وفي الأعراف رجفة، وفي الشعراء عذاب يوم الظلة، وهم أمَّة واحدة، اجتمع عليهم يوم عذابهم هذه النِّقَمُ كلها. وإنما ذكر في كل سياق ما يناسبه، ففي الأعراف لما قالوا: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَـٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ﴾ [الأعراف:٨٨]، ناسب أن يذكر هناك الرجفة، فرجفت بهم الأرض التي ظلموا بها، وأرادوا إخراج نبيهم منها، وهاهنا لما أساءوا الأدب في مقالتهم علىٰ نبيهم ناسب ذكر الصيحة التي أسكتتهم وأخمدتهم، وفي الشعراء لما قالوا: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ

---

(١) ليست في (ز). (٢) لوحة (٣٢٠ ب). (٣) سقط من (ز).

﴿ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الشعراء:١٨٧]، قال: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء:١٨٩]، وهذا من الأسرار الغريبة الدقيقة، ولله الحمد والمنَّة كثيرًا دائمًا.

وقوله: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ﴾ أي: يعيشوا في دارهم قبل ذلك، ﴿أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ وكانوا جيرانهم قريبًا منهم في الدَّار، وشبيهًا بهم في الكُفْرِ وقَطْعِ الطريق، وكانوا عربًا شبههم.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا۟[(١)] فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾﴾

يقول تعالىٰ مخبراً عن إرسال موسىٰ عليه السلام بآياته وبيناته، وحججه ودلائله الباهرة القاطعة إلىٰ فرعون -لعنه الله- وهو ملك ديار مصر علىٰ أمَّةِ القبط، ﴿فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ﴾ أي: مسلكه ومنهجه، وطريقته في الغيِّ والضَّلال، ﴿وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ أي: ليس فيه رُشْدٌ ولا هدًىٰ، وإنَّما هو جهلٌ وضلالٌ، وكفرٌ وعنادٌ، وكما أنَّهم اتَّبعوه في الدُّنيا، وكان مُقدمهم ورئيسهم، كذلك هو يَقْدُمُهُمْ يوم القيامة إلىٰ نار جهنَّم، فأوردهم إيَّاها، وشربوا مِن حياض رَدَاها، وله في ذلك الحظُّ الأوفر، من العذاب الأكبر، كما قال تعالىٰ: ﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ [المزمل:١٦]، وقال تعالىٰ: ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ﴾ [النازعات:٢١-٢٦]، وقال تعالىٰ: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ﴾ وكذلك شأن المتبوعين يكونون موفرين في العذاب يوم المعاد، كما قال تعالىٰ: ﴿قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨]، وقال تعالىٰ إخبارًا عن الكفرة أنَّهم يقولون في النار: ﴿رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٦٧، ٦٨].

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا هُشَيْم، حدَّثنا أبو الجهم، عن الزهري، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «امْرُؤُ القَيْسِ حَامِلُ لِوَاءِ شُعْرَاءِ الجَاهِلِيَّةِ إِلَىٰ النَّارِ»[(٢)].

وقوله: ﴿وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ﴾ أي: أتبعناهم زيادة علىٰ ما جازَيْناهُم مِن عذاب النار لعنةً في هذه الحياة الدنيا، ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ﴾.

قال مجاهد: زيدوا لعنة يوم القيامة، فتلك لعنتان.

---

(١) لوحة (٣٢١أ).

(٢) ضعيف: أحمد (٢/ ٢٢٨)، وفي إسناده أبو الجهم. قال أبو زرعة الرازي: واهٍ، وقال ابن عدي: شيخ مجهول لا يعرف له اسم وخبره منكر، ولا أعرف له غيره، وقال ابن عبد البر: لا يصح حديثه، انظر: «تعجيل المنفعة» (٤٧٣)، وانظر ترجمته في «لسان الميزان» و«ميزان الاعتدال».

- ولفظ الحديث عند أحمد: «امْرُؤُ القَيْسِ صَاحِبُ لِوَاءِ الشُّعَرَاءِ إِلَىٰ النَّارِ».

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس: ﴿بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ﴾ قال: لعنة الدُّنيا والآخرة، وكذا قال الضَّحَّاك، وقتادة، وهكذا قوله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾ [القصص: ٤١، ٤٢]، وقال تعالىٰ: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦].

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ (١) فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾﴾

لما ذكر تعالىٰ خبر هؤلاء الأنبياء، وما جرىٰ لهم مع أُمَمِهم، وكيف أهلك الكافرين ونَجَّىٰ المؤمنين قال: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ﴾ أي: مِن أخبارها ﴿نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ﴾ أي: عامر، ﴿وَحَصِيدٌ﴾ أي: هالك دائر، ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ﴾ أي: إذ أهلكناهم، ﴿وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ أي: بتكذيبهم رسلنا وكفرهم بهم، ﴿فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ﴾ أي: أصنامهم وأوثانهم التي كانوا يعبدونها ويدعونها، ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ أي: ما نفعوهم ولا أنقذوهم لمَّا جاء أمر الله بإهلاكهم، ﴿وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾.

قال مجاهد، وقتادة، وغيرهما: أي غير تخسير، وذلك أن سبب هلاكهم ودَمَارهم إنَّما كان باتِّباعهم تلك الآلهة وعبادتهم إيَّاها فبهذا أصابهم ما أصابَهُم، وخَسِرُوا بهم في الدُّنيا والآخرة.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾

يقول تعالىٰ: وكما أهلكنا أولئك القُرُون الظَّالمة المكذِّبة لرسلنا، كذلك نفعل بنظرائهم وأشباههم وأمثالهم، ﴿إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾. وفي «الصَّحيحين» عن أبي موسىٰ الأشعري ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِم، حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ»، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ (٢).

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾﴾

يقول تعالىٰ: إن في إهلاكنا الكافرين وإنجائنا المؤمنين ونصرة الأنبياء لآيةٍ؛ أي: عظةً واعتبارًا علىٰ صدق موعودنا في الدار الآخرة، ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾

---

(١) لوحة (٣٢١ ب).

(٢) البخاري (٤٦٨٦)، ومسلم (٢٥٨٣)، والترمذي (٣١٠٩)، والنسائي في «الكبرىٰ» (١١٣٤٥)، وابن ماجة (٤٠١٨).

[غافر:٥١]، وقال تعالىٰ: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ﴾ [إبراهيم:١٣، ١٤].

وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ﴾ أي: أولهم وآخرهم، فلا يبقىٰ منهم أحد، كما قال: ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف:٤٧].

﴿وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ أي: يومٌ عظيمٌ تحضره الملائكة كلهم، ويجتمع فيه الرسل جميعهم، وتحشر فيه الخلائق بأسرهم، من الإنس[١] والجنِّ والطير والوحوش والدَّواب، ويحكم فيهم العادل الذي لا يظلم مثقالَ ذرَّةٍ، وإن تك حسنةً يُضاعِفْها.

وقوله: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ أي: ما نُؤَخِّر إقامة يوم القيامة إلا لأنه قد سبقت كلمةُ الله وقضاؤه وقدره، في وجود أناس معدودين مِن ذُرِّيَّة آدم، وضرب مدةً معينةً إذا انقضت وتكامل وجود أولئك المقدر خروجهم مِن ذرِّيَّة آدم، أقام الله الساعة؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ أي: لمدةٍ مؤقتةٍ لا يزاد عليها ولا ينتقص منها، ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ يقول: يوم يأتي هذا اليوم -وهو يوم القيامة- لا يتكلَّم أحدٌ يومئذٍ إلا بإذن الله -تعالىٰ- كما قال تعالىٰ: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبأ:٣٨]، وقال تعالىٰ: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [طه:١٠٨]، وفي «الصحيحين» عن رسول الله ﷺ في حديث الشفاعة الطويل: «وَلا يَتكَلَّمُ يَوْمَئِذٍ إِلَّا الرُّسُلُ، وَدَعْوَىٰ الرُّسُلِ يَوْمَئِذٍ: اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ»[٢].

وقوله: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ﴾ أي: فمن أهل الجمع شقيٌّ ومنهم سعيد، كما قال: ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾ [الشورىٰ:٧].

وقال الحافظ أبو يعلىٰ في «مسنده»: حدَّثنا موسىٰ بن حيان، حدَّثنا عبد الملك بن عمرو، حدَّثنا سليمان بن سفيان، حدَّثنا عبد الله بن دينار، عن ابن عمر، عن عمر رضي الله عنه قال: لما نزلت ﴿فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ﴾ سألت النَّبيَّ ﷺ، قلت: يا رسول الله، علام نعمل[٣]؟ علىٰ شيءٍ قد فُرغ منه، أم علىٰ شيءٍ لم يفرغ منه؟ فقال: «عَلَىٰ شَيْءٍ قَدْ فُرِغَ مِنْهُ يَا عُمَرُ، وَجَرَتْ بِهِ الأَقْلَامُ، وَلَكِنْ كُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ»[٤].

ثم بيَّن تعالىٰ حال الأشقياء وحال السُّعداء، فقال:

---

(١) لوحة (٣٢٢أ).

(٢) البخاري (٦٥١٠)، ومسلم (١٩٣)، وقد تقدم في مواطنَ سابقةٍ في هذا الكتاب.

(٣) في (ز): «ما نعمل»، والمثبت موافق لما في «مصادر التخريج».

(٤) **صحيح لشواهده**: رواه الترمذي (٣١١٠)، وابن جرير (١٢/ ١١٧)، وقال الترمذي: حديث حسن غريب.
قلت: وفيه سليمان بن سفيان: ضعيف كما في «التقريب» لكنه توبع، فقد رواه أحمد (١/ ٢٩)، وابن أبي عاصم (١٦٣) من طرق أخرىٰ، وفيها عاصم بن عبيد الله العدوي: ضعيف، وللحديث شاهد من حديث أبي هريرة، ولفظه: «كُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ»، وله شاهد من حديث أبي بكر رضي الله عنه سيأتي في تفسير سورة الليل الآية (١- ١١)، وبالجملة: فالحديث صحيح.

﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِي ٱلنَّارِ لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٞ وَشَهِيقٌ ١٠٦ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ ١٠٧ ﴾

يقول تعالىٰ: ﴿لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٞ وَشَهِيقٌ﴾ قال ابن عبَّاس: الزَّفير في الحلق، والشَّهيق في الصَّدر؛ أي: تنفسهم زفير، وأخذهم النفس شهيق، لما هم فيه من العذاب، عياذًا بالله من ذلك.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾ قال الإمام أبو جعفر بن جرير: من عادة العرب إذا أرادت أن تَصِف الشَّيء بالدَّوام أبدًا قالت: هذا دائمٌ دوامَ السَّموات والأرض، وكذلك يقولون: هو باقٍ ما اختلف اللَّيلُ والنَّهار، وما سمر ابنا سَمير، وما لَألأَت العُفْر بأذنابها[1]. يعنون[2] بذلك كلمة: «أبدًا»، فخاطبهم جلَّ ثناؤه بما يتعارفونه بينهم، فقال: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾.

قلت: ويحتمل أن المراد بـ ﴿مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾: الجنس؛ لأنَّه لا بدَّ في عالم الآخرة مِن سموات وأرض، كما قال تعالىٰ: ﴿يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ [إبراهيم:٤٨]؛ ولهذا قال الحسن البصري في قوله: ﴿مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾ قال: تبدل سماء غير هذه السماء، وأرض غير هذه الأرض، فما دامت تلك السماء وتلك الأرض.

وقال ابن أبي حاتم: ذكر عن سفيان بن حسين، عن الحكم، عن مجاهد، عن ابن عبَّاس قوله: ﴿مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾ قال: لكلِّ جنَّةٍ سماءٌ وأرض[3].

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ما دامت الأرض أرضًا، والسماء سماءً.

وقوله: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ﴾ كقوله تعالىٰ: ﴿ٱلنَّارُ مَثۡوَىٰكُمۡ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ﴾ [الأنعام: ١٢٨].

وقد اختلف المفسِّرون في المراد من هذا الاستثناء، علىٰ أقوالٍ كثيرةٍ، حكاها الشيخ أبو الفرج ابن الجوزي في كتابه «زاد المسير» وغيره من علماء التَّفسير، ونقل كثيرًا منها الإمام أبو جعفر بن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه، واختار هو ما نقله عن خالد بن مَعْدان، والضَّحَّاك، وقتادة، وأبي سِنَان، ورواه ابن أبي حاتم عن ابن عبَّاس والحسن أيضًا: أن الاستثناء عائدٌ علىٰ العُصاة مِن أهل التَّوحيد، ممن يخرجهم الله من النَّار بشفاعة الشَّافعين، من الملائكة والنَّبيِّين والمؤمنين، حين يشفعون في أصحاب الكبائر، ثم تأتي رحمة أرحم الرَّاحمين، فتُخرِجُ من النَّار مَن لم يعمل خيرًا قطُّ، وقال يومًا من الدَّهر: لا إله إلا الله. كما وردت بذلك الأخبار الصحيحة المستفيضة عن رسول الله ﷺ بمضمون ذلك من حديث أنس، وجابر، وأبي سعيد، وأبي هريرة، وغيرهم من الصحابة، ولا يبقىٰ بعد ذلك في النَّار إلا مَن وجب عليه الخلود فيها، ولا محيد له عنها.

---

(١) السمير: الدَّهر، وابناه: اللَّيل والنَّهار، يقول: لا أفعله ما بَقِيَ الدهر، والعُفْر: الظباء، جمع أعفر، ولألأت العفر بأذنابها: بصبصت وحركت.

(٢) لوحة (٣٢٢ ب).

(٣) ضعيف: رواه ابن أبي حاتم (٦/ ١١٢٢٩) وإسناده منقطع.

وهذا الذي عليه كثيرٌ من العلماء قديمًا وحديثًا في تفسير هذه الآية الكريمة[١].

وقد روي في تفسيرها عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، وابن عبَّاس، وابن مسعود، وأبي هريرة، وعبد الله بن عمرو، وجابر، وأبي سعيد، من الصَّحابة. وعن أبي مِجْلَز، والشَّعبي، وغيرهما من التَّابعين. وعن عبد الرَّحمن بن زيد بن أسلم، وإسحاق بن راهويه[٢] وغيرهما من الأئمَّة -أقوال غريبة. وورد حديثٌ غريبٌ في «معجم الطبراني الكبير»، عن أبي أمامة صُدَيٍّ بن عَجْلان الباهلي، ولكن سنده ضعيف، والله أعلم.

وقال قتادة: الله أعلم بثنياه[٣].

وقال السُّدِّي: هي منسوخة بقوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [النساء:٥٧].

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾﴾

يقول تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟﴾ وهم أتباع الرسل، ﴿فَفِى ٱلْجَنَّةِ﴾ [أي: فمأواهم الجنَّة][٤] ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي: ماكثين مقيمين فيها أبدًا، ﴿مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ معنىٰ الاستثناء هاهنا: أن دوامهم فيما هم فيه من النَّعيم، ليس أمرًا واجبًا بذاته، بل هو موكولٌ إلىٰ مشيئة الله تعالىٰ، فله المنة عليهم، ولهذا يُلْهَمُون التَّسبيح والتَّحميد كما يلهمون النَّفَس[٥].

وقال الضَّحَّاك، والحسن البصري: هي في حقِّ [عصاة][٦] الموحِّدين الذين كانوا في النَّار، ثم أُخرِجُوا منها. وعقَّب ذلك بقوله: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ أي: غير مقطوع -قاله ابن عبَّاس، ومجاهد، وأبو العالية وغير واحدٍ- لئلَّا يتوهم مُتَوَهِّمٌ بعد ذكره المشيئة أنَّ ثمَّ انقطاعًا، أو لبسًا، أو شيئًا، بل ختم له بالدَّوام وعدم الانقطاع. كما بيَّن هنا أنَّ عذاب أهل النَّار في النَّار دائمًا مردودٌ إلىٰ مشيئته، وأنَّه بعَدْلِهِ وحكمته عذَّبهم؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود:١٠٧] كما قال: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء:٢٣]، وهنا طيَّب القلوب وثبَّت المقصود بقوله: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾.

وقد جاء في «الصحيحين»: «**يُؤْتَىٰ بِالمَوْتِ فِي صُورَةِ كَبْشٍ أَمْلَحَ، فَيُذْبَحُ بَيْنَ الجَنَّةِ وَالنَّارِ، ثُمَّ يُقَالُ: يَا أَهْلَ الجَنَّةِ، خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ، خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ**»[٧].

وفي «الصحيح» أيضًا: «**فَيُقَالُ: يَا أَهْلَ الجَنَّةِ، إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَعِيشُوا فَلَا تَمُوتُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَشُبُّوا**

---

(١) قال العلامة السعدي رحمه الله: أي: خالدين فيها أبدا، إلا المدة التي شاء الله، أن لا يكونوا فيها، وذلك قبل دخولها، كما قاله جمهور المفسرين، فالاستثناء علىٰ هذا راجع إلىٰ ما قبل دخولها، فهم خالدون فيها جميع الأزمان، سوىٰ الزمن الذي قبل الدخول فيها.

(٢) لوحة (٣٢٣ أ). (٣) الثُّنيا: الاستثناء. (٤) سقط من (ز).

(٥) البخاري (٦١٧٨)، ومسلم (٢٨٤٩). (٦) سقط من (ز).

(٧) البخاري (٤٧٣٠)، ومسلم (٢٨٤٩)، والترمذي (٣١٥٥)، والنسائي (١١٣١٦).

فلا تهرموا أبدًا، وإنّ لكم أن تصحّوا فلا تسقموا أبدًا، وإنّ لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبدًا»[1].

﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰؤُلَاءِ ۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُم مِّن قَبْلُ ۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ ۚ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾﴾

يقول تعالىٰ: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ﴾[2] ﴿مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰؤُلَاءِ﴾ المشركون، إنَّه باطلٌ وجهلٌ وضلالٌ[3]، فإنَّهم إنما يعبدون ما يعبد آباؤهم مِن قبل؛ أي: ليس لهم مُستَنَدٌ فيما هم فيه إلَّا اتباع الآباء في الجهالات، وسيجزيهم الله علىٰ ذلك أتمَّ الجزاء، فيعذِّب كافرهم عذابًا لا يعذِّبه أحدًا من العالمين، وإن كان لهم حسناتٌ فقد وفَّاهم الله إيَّاها في الدُّنيا قبل الآخرة.

قال سفيان الثوري، عن جابر الجُعْفي، عن مجاهد، عن ابن عبَّاس: ﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾ قال: ما وعدوا فيه من خيرٍ أو شرٍّ.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: لموفوهم مِن العذاب نصيبهم غير منقوص. ثم ذكر تعالىٰ أنَّه آتىٰ موسىٰ الكتاب، فاختلف النَّاس فيه، فمِن مؤمنٍ به، ومِن كافرٍ به، فلك بمَن سلف من الأنبياء قبلك -يا محمَّد- أسوة، فلا يغيظنَّك تكذيبهم لك، ولا يهيدنَّك ذلك.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ قال ابن جرير: لولا ما تقدَّم مِن تأجيله العباد إلىٰ أجلٍ معلومٍ لقضىٰ الله بينهم.

ويحتمل أن يكون المراد بالكلمة، أنَّه لا يعذِّب أحدًا إلا بعد قيام الحُجَّة عليه، وإرسال الرَّسول إليه، كما قال: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء:١٥]؛ فإنَّه قد قال في الآية الأخرىٰ: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ [طه:١٢٩، ١٣٠].

ثمَّ أخبر أن الكافرين في شكٍّ -مما جاءهم به الرسول- قويٍّ، فقال: ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾.

ثم أخبرنا تعالىٰ أنه سيجمع الأولين والآخرين من الأمم، ويجزيهم بأعمالهم، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر، فقال: ﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ ۚ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي: عليم بأعمالهم جميعها، جليلها وحقيرها، صغيرها وكبيرها.

وفي هذه الآية قراءاتٌ كثيرةٌ، ويرجع معناها إلىٰ هذا الذي ذكرناه، كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس:٣٢].

﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا ۚ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾﴾

---

(١) مسلم (٢٨٣٧)، والترمذي (٣٢٤١)، والنسائي في «الكبرىٰ» (١١١٨٤).

(٢) المِرْيَة: الشك والرِّيبة. (٣) لوحة (٣٢٣ ب).

يأمر تعالىٰ رسوله وعباده المؤمنين بالثَّبات والدَّوام علىٰ الاستقامة، وذلك من أكبر العون علىٰ النَّصر علىٰ الأعداء ومخالفة الأضداد، ونهىٰ عن الطُّغيان، وهو: البغي، فإنَّه مَصرَعة حتىٰ ولو كان علىٰ مشرك. وأعلم تعالىٰ أنَّه بصير بأعمال العباد، لا يغفل عن شيءٍ، ولا يخفىٰ عليه شيءٌ.

وقوله: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ قال علي بن أبي طلحة، عن ابن [١] عبَّاس: لا تُدهنُوا.

وقال العوفي، عن ابن عبَّاس: هو الركون إلىٰ الشِّرك.

وقال أبو العالية: لا ترضوا أعمالهم.

وقال ابن جُرَيْج، عن ابن عبَّاس: ولا تميلوا إلىٰ الَّذين ظلموا وهذا القول حسن؛ أي: لا تَسْتَعِينُوا بالظَّلمة فتكونوا كأنَّكم قد رَضِيتُم بباقِي صنيعهم، ﴿فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ أي: ليس لكم مِن دونه مِن وليٍّ ينقذكم، ولا ناصِرٍ يخلصكم من عذابه.

﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾﴾

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ﴾ قال: يعني الصُّبح والمغرب. وكذا قال الحسن، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

وقال الحسن -في رواية- وقتادة، والضَّحَّاك، وغيرهم: هي الصُّبح والعصر.

وقال مجاهد: هي الصُّبح في أوَّل النَّهار، والظُّهر والعصر من آخره. وكذا قال محمَّد بن كعب القُرَظي، والضَّحَّاك في روايةٍ عنه.

وقوله: ﴿وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ قال ابن عبَّاس، ومجاهد، والحسن، وغيرهم: يعني صلاة العشاء.

وقال الحسن -في رواية ابن المبارك- عن مبارك بن فَضَالة، عنه: ﴿وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ يعني: المغرب والعشاء. قال رسول الله ﷺ: «هُمَا زُلْفَتَا اللَّيْلِ: المَغْرِبُ وَالعِشَاءُ»[٢]. وكذا قال مجاهد، ومحمَّد بن كعب، وقتادة، والضَّحَّاك: إنَّها صلاة المغرب والعشاء.

وقد يحتمل أن تكون هذه الآية نزلت قبل فرض الصَّلوات الخمس ليلة الإسراء؛ فإنَّه إنَّما كان يجب من الصَّلاة صلاتان: صلاةٌ قبل طلوع الشمس، وصلاةٌ قبل غروبها. وفي أثناء اللَّيل قيام عليه وعلىٰ الأمَّة، ثم نسخ في حقِّ الأمَّة، وثبت وجوبه عليه، ثم نسخ عنه أيضًا في قولٍ، والله أعلم.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ يقول: إنَّ فعل الخيرات يكفر الذنوب السالفة، كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد وأهل السنن، عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب قال: كنت إذا سمعتُ من رسول الله ﷺ حديثًا نفعني الله بما شاء أن ينفعني منه، وإذا حدَّثني عنه أحدٌ استحلفته، فإذا

---

(١) لوحة (٣٢٤ أ).
(٢) ضعيف: رواه الطبري (١٢/ ١٣٠، ١٣١)، وفيه مبارك بن فضالة، وهو مدلس وقد عنعن، وأيضًا الإسناد مرسل.

حلف لي صدقته، وحدَّثني أبو بكر -وصدق أبو بكر- أنَّه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُذْنِبُ ذَنْبًا، فَيَتَوَضَّأُ**(١) **وَيُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ، إِلَّا غُفِرَ لَهُ**»(٢).

وفي «الصحيحين» عن أمير المؤمنين عثمان بن عفَّان: أنَّه توضَّأ لهم كوضُوء رسول الله ﷺ، ثم قال: هكذا رأيتُ رسول الله يتوضَّأ، وقال: «**مَنْ تَوَضَّأَ نَحْوَ وُضُوئِي هَذَا، ثُمَّ صَلَّىٰ رَكْعَتَيْنِ لَا يُحَدِّثُ فِيهِمَا نَفْسَهُ، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ**»(٣).

وروىٰ الإمام أحمد، وأبو جعفر بن جرير، من حديث أبي عَقِيل زُهْرَة بن مَعْبَد: أنه سَمِعَ الحارث مولىٰ عثمان يقول: جلس عثمان يومًا وجلسنا معه، فجاءه المؤذِّن فدعا عثمان بماءٍ في إناءٍ أظنُّه سيكون فيه قدر مُدٍّ(٤)، فتوضَّأ، ثم قال: رأيت رسول الله ﷺ يتوضَّأ وضوئي هذا، ثم قال: «**مَنْ تَوَضَّأَ وُضُوئِي هَذَا، ثُمَّ قَامَ فَصَلَّىٰ صَلَاةَ الظُّهْرِ، غُفِرَ لَهُ مَا كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ صَلَاةِ الصُّبْحِ، ثُمَّ صَلَّىٰ العَصْرَ غُفِرَ لَهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ صَلَاةِ الظُّهْرِ، ثُمَّ صَلَّىٰ المَغْرِبَ غُفِرَ لَهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ صَلَاةِ العَصْرِ، ثُمَّ صَلَّىٰ العِشَاءَ غُفِرَ لَهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ صَلَاةِ المَغْرِبِ، ثُمَّ لَعَلَّهُ يَبِيتُ يَتَمَرَّغُ لَيْلَتَهُ، ثُمَّ إِنْ قَامَ فَتَوَضَّأَ وَصَلَّىٰ الصُّبْحَ غُفِرَ لَهُ مَا بَيْنَهَا وَبَيْنَ صَلَاةِ العِشَاءِ، وَهُنَّ الحَسَنَاتُ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ**»(٥).

وفي «الصَّحيح» عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «**أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ بِبَابِ أَحَدِكُمْ نَهَرًا غَمْرًا**(٦) **يَغْتَسِلُ فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ، هَلْ يُبْقِي مِنْ دَرَنِهِ شَيْئًا؟**» قالوا: لا يا رسول الله: قال: «**وَكَذَٰلِكَ الصَّلَوَاتُ الخَمْسُ، يَمْحُو اللهُ بِهِنَّ الذُّنُوبَ وَالخَطَايَا**»(٧).

وقال مسلم في «صحيحه»: حدَّثنا أبو الطَّاهر وهارون بن سعيد قالا: حدَّثنا ابن وَهْب، عن أبي صخر؛ أن عمر بن إسحاق مولىٰ زائدة حَدَّثه، عن أبيه، عن أبي هريرة؛ أن رسول الله ﷺ كان يقول: «**الصَّلَوَاتُ الخَمْسُ، وَالجُمُعَةُ إِلَىٰ الجُمُعَةِ، وَرَمَضَانُ إِلَىٰ رَمَضَانَ، مُكَفِّرَاتٌ مَا بَيْنَهُنَّ إِذَا اجْتُنِبَتِ الكَبَائِرُ**»(٨).

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا الحَكَم بن نافع، حدَّثنا إسماعيل بن عياش، عن ضَمْضَم بن زُرْعَة، عن

---

(١) لوحة (٣٢٤ ب).

(٢) **حسن**: رواه أبو داود (١٥٢١)، والترمذي (٤٠٦) (٣٠٠٦)، وابن ماجة (١٣٩٥)، وأحمد (١/ ٢)، والإسناد حسن من أجل أسماء بن الحكم الفزاري: صدوق، وبقية رجاله ثقات.

(٣) البخاري (١٥٩) (١٦٤) (١٩٣٤) (٦٤٣٣)، ومسلم (٢٢٦)، وابن ماجة (٢٨٥)، وأبو داود (١٠٧)، وأحمد (١/ ٦٦).

(٤) **المُدُّ**: ربُع الصاع، وقيل: إن أصلَ المُدِّ مُقدَّرٌ بأن يَمُدَّ الرجل يديه فيَملأ كَفَّيه طعاماً. «النهاية».

(٥) **صحيح**: رواه أحمد (١/ ٧١)، والطبري (١٢/ ١٣٢).

(٦) **الغمر**: الكثير.

(٧) البخاري (٥٢٨)، ومسلم (٦٦٧)، والترمذي (٢٨٧٢)، والنسائي (١/ ٢٣٠).

(٨) مسلم (٢٣٣)، والترمذي (٢١٤)، وابن ماجة (١٠٨٦).

شُرَيح بن عبيد، أنَّ أبا رُهْم السَّمعي كان يحدِّث، أن أبا أيوب الأنصاري حدَّثه أن النَّبيَّ ﷺ كان يقول: «إِنَّ كُلَّ صَلَاةٍ تَحُطُّ مَا بَيْنَ يَدَيْهَا مِنْ خَطِيئَةٍ»(١).

وقال أبو جعفر بن جرير: حدَّثنا محمَّد بن عوف، حدَّثنا محمَّد بن إسماعيل، حدَّثنا أبي، عن ضمضم بن زرعة، عن شريح بن عبيد، عن أبي(٢) مالك الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «جُعِلَتِ الصَّلَوَاتُ كَفَّارَاتٍ لِمَا بَيْنَهُنَّ؛ فَإِنَّ اللهَ قَالَ: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾(٣)».

وقال البخاري: حدَّثنا قتيبة بن سعيد، حدَّثنا يزيد بن زُرَيع، عن سليمان التيمي، عن أبي عثمان النهدي، عن ابن مسعود؛ أن رجلًا أصاب مِن امرأةٍ قُبْلَةً، فأتىٰ النَّبيَّ ﷺ فأخبره، فأنزل الله: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ فقال الرجل: ألي هذا يا رسول الله؟ قال: «لِجَمِيعِ أُمَّتِي كُلِّهِمْ»(٤).

هكذا رواه في كتاب الصلاة، وأخرجه في «التفسير» عن مُسَدَّد، عن يزيد بن زُرَيع بنحوه، ورواه مسلم، وأحمد، وأهل السنن إلا أبا داود، مِن طرق عن أبي عثمان النهدي، واسمه عبد الرحمن بن مُلٍّ به.

وروىٰ الإمام أحمد، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن جرير -وهذا لفظه- من طُرُق: عن سِمَاك بن حرب: أنه سَمِعَ إبراهيم بن يزيد، يُحدِّث عن علقمة والأسود، عن ابن مسعودٍ قال: جاء رجلٌ إلىٰ النَّبيِّ ﷺ فقال: يا رسول الله، إنِّي وجدت امرأةً في بستانٍ، ففعلت بها كلَّ شيءٍ، غير أنِّي لم أجامعها، قبَّلتها ولَزِمْتُها(٥)، ولم أفعل غير ذلك، فافعل بي ما شئت. فلم يَقُل رسول الله ﷺ شيئًا، فذهب الرَّجل، فقال عمر: لقد ستر الله عليه، لو ستر علىٰ نفسه. فأتبعه رسول الله ﷺ بصرَه ثم قال: «رُدُّوهُ عَلَيَّ». فردُّوه [عليه](٦) فقرأ عليه: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ فقال معاذ -وفي رواية عمر-: يا رسول الله، أَلَهُ وحده، أم للنَّاس كافة؟ [فقال: «بَلْ لِلنَّاسِ كَافَّةً»](٧)(٨).

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا محمَّد بن عبيد، حدَّثنا أبان بن إسحاق، عن الصباح بن محمَّد، عن

---

(١) حسن صحيح: رواه أحمد (٥/ ٤١٣) وإسناده حسن، ولكنه يرقىٰ للصحة لشواهده، انظر ما قبله وما بعده.

(٢) لوحة (٣٢٥أ).

(٣) حسن لغيره: رواه ابن جرير (١٢/ ١٣٣)، وفيه انقطاع، لكن يشهد له الروايات قبله.

(٤) البخاري (٥٢٦) (٤٦٨٧)، ومسلم (٢٧٦٣)، والترمذي (٣١١٢)، والنسائي في «الكبرىٰ» (٧٣٢٦)، وابن ماجة (١٣٩٨) (٤٢٥٤).

(٥) أي: عانقتها فأطلت العناق.

(٦) سقط من (ز). (٧) سقط من (ز).

(٨) مسلم (٢٧٦٣)، وأبو داود (٤٤٦٨)، والترمذي (٣١١١)، والنسائي في «الكبرىٰ» (٧٣٢٣، ١١٢٤٧).

مُرَّة الهَمْداني، عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ قَسَّمَ بَيْنَكُمْ أَخْلَاقَكُمْ كَمَا قَسَّمَ بَيْنَكُمْ أَرْزَاقَكُمْ، وَإِنَّ اللهَ يُعْطِي الدُّنْيَا مَنْ يُحِبُّ وَمَنْ لا يُحِبُّ، وَلا يُعْطِي الدِّينَ[١] إِلَّا مَنْ أَحَبَّ. فَمَنْ أَعْطَاهُ اللهُ الدِّينَ فَقَدْ أَحَبَّهُ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لا يُسْلِمُ عَبْدٌ حَتَّىٰ يُسْلِمَ قَلْبُهُ وَلِسَانُهُ، وَلا يُؤْمِنُ حَتَّىٰ يَأْمَنَ جَارُهُ بَوَائِقَهُ». قال: قلنا: وما بوائقه يا نبي الله[٢]؟ قال: «غِشُّهُ وَظُلْمُهُ، وَلا يَكْسِبُ عَبْدٌ مَالًا حَرَامًا فَيُنْفِقَ مِنْهُ فَيُبَارَكَ لَهُ فِيهِ، وَلا يَتَصَدَّقُ فَيُقْبَلَ مِنْهُ، وَلا يَتْرُكُهُ خَلْفَ ظَهْرِهِ إِلَّا كَانَ زَادَهُ إِلَىٰ النَّارِ، إِنَّ اللهَ لا يَمْحُو[٣] السَّيِّئَ بِالسَّيِّئِ، وَلَكِنَّهُ يَمْحُو السَّيِّئَ بِالحَسَنِ، إِنَّ الخَبِيثَ لا يَمْحُو الخَبِيثَ»[٤]. قال ابن جرير: حدَّثنا أبو السائب، حدَّثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن إبراهيم قال: كان فلان ابن معتب رجلًا من الأنصار، فقال: يا رسول الله، دخلت علىٰ امرأةٍ فنِلْتُ[٥] منها ما ينَال الرَّجل من أهله، إلا أنِّي لم أجامعها، فلم يدر رسول الله ﷺ ما يجيبه، حتىٰ نزلت هذه الآية: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ فدعاه رسول الله، فقرأها عليه[٦].

وعن ابن عبَّاس: أنه عمرو بن غَزِيَّة الأنصاري التَّمَّار. وقال مقاتل: هو أبو نفيل عامر بن قيس الأنصاري، وذكر الخطيب البغدادي أنَّه أبو اليَسَر: كعب بن عمرو.

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا يونس وعفان قالا: حدَّثنا حماد -يعني: ابن سلمة- عن علي بن زيد قال عفان: أنبأنا علي بن زيد، عن يوسف بن مهْران، عن ابن عبَّاس؛ أن رجلًا أتىٰ عمر، قال: امرأةٌ جاءت تبايعه، فأدخلتها الدَّولج[٧]، فأصبت منها ما دون الجماع، فقال: ويحك. لعلها مُغِيبة[٨] في سبيل الله؟ قال: أجل. قال: فائتِ أبا بكر فاسأله قال: فأتاه فسأله، فقال: لعلها مُغيبة في سبيل الله؟ فقال مثل قول عمر، ثم أتىٰ النَّبيَّ ﷺ فقال له مثل ذلك، قال: «فَلَعَلَّهَا مُغِيبَةٌ فِي سَبِيلِ اللهِ». ونزل القرآن: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ إلىٰ آخر الآية، فقال: يا رسول الله، أَلِي خاصَّة أم للنَّاس عامَّة؟ فضرب -يعني: عمر- صدره بيده [فقال: لا][٩] ولا نُعمَة عين، بل للنَّاس عامة.

---

(١) في (ز): «الآخرة».
(٢) لوحة (٣٢٥ ب).
(٣) في (ز): «لا يَمْحُو اللهُ السَّيِّئَ بِالسَّيِّئِ».
(٤) بهذا السياق رواه أحمد (١/ ٣٨٧)، وأبو نعيم (٤/ ١٦٦) (٥/ ٣٥)، وابن عدي (٣/ ١١٥٨)، وفيه الصباح بن محمَّد: ضعيف، وللجملة الأولىٰ من الحديث طرق صحيحة تقدم ذكرها عند الآية (٢٦٩) من سورة البقرة، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٢٤١٧).
(٥) في (ز): فقلبت منها.
(٦) ضعيف: رواه الطبري (١٢/ ١٣٥)، وإسناده مرسل، ويكفي لصحته ما تقدم.
(٧) الدولج: المخدع، وهو البيت الصغير داخل البيت الكبير.
(٨) المُغِيبة: التي غاب عنها زوجها.
(٩) سقط من (ز)، وهي مثبتة في «المسند».

فقال رسول الله ﷺ: «صَدَقَ عُمَرُ»(١).

وروىٰ الإمام أبو جعفر بن جرير من حديث قيس بن الربيع، عن عثمان بن موهب، عن موسىٰ بن طلحة، عن أبي اليسر كعب بن عمرو الأنصاري قال: أتتني امرأةٌ تبتاع مِنِّي بدرهم تمرًا، فقلت: إن في البيت تمرًا أطيب وأجود من هذا، فدخلت، فأهويت إليها فقبلتها، فأتيت عمر فسألته، فقال: اتَّق الله(٢)، واستر علىٰ نفسك، ولا تخبرنَّ أحدًا. فلم أصبر حتىٰ أتيت أبا بكر فسألته، فقال: اتَّقِ الله، واستر علىٰ نفسك، ولا تخبرنَّ أحدًا. قال: فلم أصبر حتىٰ أتيت النَّبيَّ ﷺ فأخبرته، فقال: «أَخَلَفْتَ رَجُلًا غَازِيًا فِي سَبِيلِ اللهِ فِي أَهْلِهِ بِمِثْلِ هَذَا؟» حتىٰ ظننت أني من أهل النار، حتىٰ تمنيت أني أسلمت ساعتئذٍ(٣). فأطرق رسول الله ﷺ ساعةً، فنزل جبريل، فقال: «[أَيْنَ](٤) أَبُو الْيَسَرِ؟». فجئت، فقرأ علي: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِ﴾ إلىٰ ﴿ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ فقال إنسان: يا رسول الله، أله خاصة أم للنَّاس عامة؟ قال «لِلنَّاسِ عَامَّةً»(٥).

وقال الحافظ أبو الحسن الدارقطني: حدَّثنا الحسين بن إسماعيل المحاملي، حدَّثنا يوسف بن موسىٰ، حدَّثنا جرير، عن عبد الملك بن عمير، عن عبد الرحمن بن أبي ليلىٰ، عن معاذ بن جبل؛ أنَّه كان قاعدًا عند النَّبيِّ ﷺ فجاءه رجلٌ فقال: يا رسول الله، ما تقولُ في رجل أصاب مِن امرأةٍ لا تحلُّ له، فلم يدع شيئًا يصيبه الرَّجل مِن امرأته إلا قد أصاب منها، غير أنَّه لم يجامعها؟ فقال له النَّبيُّ ﷺ: «تَوَضَّأْ وُضُوءًا حَسَنًا، ثُمَّ قُمْ فَصَلِّ» قال: فأنزل الله ﷻ هذه الآية، يعني قوله: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِ﴾ فقال معاذ: أهي له خاصة أم للمسلمين عامة؟ قال: «بَلْ لِلْمُسْلِمِينَ عَامَّةً»(٦).

ورواه ابن جرير من طرق(٧)، عن عبد الملك بن عمير به.

وقال عبد الرزَّاق: أخبرنا محمَّد بن مسلم، عن عمرو بن دينار، عن يحيىٰ بن جعدة؛ أن رجلًا من أصحاب النَّبيِّ ﷺ ذكر امرأةً وهو جالسٌ مع رسول الله ﷺ، فاستأذنه لحاجةٍ، فأذِنَ له، فذهب يطلبها فلم

---

(١) **إسناده ضعيف**: رواه أحمد (١/ ٢٦٩)، وفيه علي بن زيد: ضعيف.

(٢) لوحة (٣٢٦ أ).

(٣) لأن الإسلام يمحو ما قبله من الذنوب والآثام.

(٤) سقط من (ز)، وهي مثبتة في «الطبري».

(٥) **حسن لغيره**: رواه الترمذي (٣١١٤)، وقال: حسن صحيح، وقيس بن الربيع: ضعفه وكيع وغيره. وقال عنه الحافظ: صدوق، تغير لما كبر، وأدخل عليه ابنه ما ليس من حديثه فحدث به، وروىٰ شريك عن عثمان بن عبد الله هذا الحديث مثل رواية قيس بن الربيع.

قلت: رواه النسائي (٧٣٢٧) (١١٢٤٨)، وشريك: صدوق يخطئ، لكن بمجموع الطريقين فالإسناد حسن.

(٦) **إسناده ضعيف**: رواه الدارقطني (١/ ١٣٤)، والإسناد منقطع بين عبد الرحمن بن أبي ليلي ومعاذ، لكن يشهد لصحته ما تقدم.

(٧) سقط من (ز).

يجدها، فأقبل الرَّجل يريد أن يبشر النَّبيَّ ﷺ بالمطر، فوجد المرأةَ جالسةً علىٰ غديرٍ، فدفع في صَدْرِها وجلس بين رجليها، فصار ذكره مثل الهُدْبة، فقام نادمًا حتىٰ أتىٰ النَّبيَّ ﷺ فأخبره بما صنع، فقال له: «اسْتَغْفِرْ رَبَّكَ، وَصَلِّ أَرْبَعَ رَكَعَاتٍ». قال: وتلا عليه: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِ﴾ الآية [(١)].

وقال ابن جرير: حدَّثني عبد الله بن أحمد بن شَبّويه، حدَّثنا إسحاق بن إبراهيم، حدَّثني عمرو بن الحارث، حدَّثني عبد الله بن سالم، عن الزبيدي، عن سليم [(٢)] بن عامر؛ أنه سمع أبا أمامة يقول: إنَّ رجلًا أتىٰ النَّبيَّ ﷺ فقال: يا رسول الله، أقم فيَّ حدَّ الله -مرة أو ثنتَيْنِ- فأعرض عنه [(٣)] رسول الله ﷺ، ثم أُقيمت الصلاة، فلمَّا فرغ النَّبيُّ ﷺ من الصلاة قال: «أَيْنَ هَذَا الرَّجُلُ القَائِلُ: أَقِمْ فِيَّ حَدَّ اللهِ؟» قال: أنا ذا: قال: «أَتْمَمْتَ الوُضُوءَ وَصَلَّيْتَ مَعَنَا آنِفًا؟» قال: نعم. قال: «فَإِنَّكَ مِنْ خَطِيئَتِكَ كَمَا وَلَدَتْكَ أُمُّكَ، وَلَا تَعُدْ». وأنزل الله علىٰ رسول الله ﷺ: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ [(٤)].

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا عفان، حدَّثنا حماد بن سلمة، أنبأنا علي بن زيد، عن أبي عثمان قال: كنت مع سلمان الفارسي تحت شجرةٍ، فأخذ منها غُصْنًا يابسًا فهزَّه حتىٰ تحاتَّ [(٥)] ورقه، ثم قال: يا أبا عثمان [(٦)]، ألا تسألني لِمَ أفعل هذا؟ فقلت: لِمَ تفعله؟ قال: هكذا فعَلَ بي رسول الله ﷺ وأنا معه تحت شجرةٍ، فأخذ منها غصنًا يابسًا فهزَّه حتىٰ تحاتَّ ورقه، فقال: «يَا سَلْمَانُ، أَلَا تَسْأَلُنِي: لِمَ أَفْعَلُ هَذَا؟». قلت: ولِمَ تفعله؟ فقال: «إِنَّ المُسْلِمَ إِذَا تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الوُضُوءَ، ثُمَّ صَلَّىٰ الصَّلَوَاتِ الخَمْسَ، تَحَاتَّتْ خَطَايَاهُ كَمَا يَتَحَاتُّ هَذَا الوَرَقُ. وَقَالَ: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾» [(٧)].

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا وَكِيع، حدَّثنا سفيان، عن حبيب بن أبي ثابت، عن ميمون بن أبي شبيب، عن معاذ رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال له: «يَا مُعَاذُ، أَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ» [(٨)].

---

(١) ضعيف:رواه عبد الرزاق (٢/ ٣١٥)، والطبري (١٢/ ١٣٦)، وفي إسناده محمَّد بن مسلم الطائفي: صدوق يخطئ من حفظه.

(٢)في (ز): «سليمان»، وهو خطأ.

(٣)لوحة (٣٢٦ ب).

(٤)رواه الطبري (١٢/ ١٣٦)، ومسلم (٢٧٦٥)، وأبو داود (٤٣٨١)، والنسائي في «الكبرىٰ» (٤/ ٧٣١٣)، وأحمد (٥/ ٢٥١).

(٥)أي: تساقط.

(٦)في (ز): «عثمان» وهو خطأ، والمثبت موافق لما في «المسند».

(٧) حسن لشواهده:رواه أحمد (٥/ ٤٣٧)، وفيه علي بن زيد بن جدعان: ضعيف، وله شاهد من حديث أبي ذر، رواه أحمد (٥/ ١٧٩).

(٨) ضعيف: رواه أحمد (٥/ ٢٢٨)، والترمذي (١٩٨٨)، وفيه ميمون بن أبي شبيب، وروايته عن معاذ مرسلةٌ، وقد =

وقال الإمام أحمد رضي الله عنه: حدَّثنا وَكِيع، حدَّثنا سفيان، عن حبيب، عن ميمون بن أبي شبيب، عن أبي ذر؛ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «اتَّقِ اللهَ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ»[(١)].

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا أبو معاوية، حدَّثنا الأعمش، عن شِمْر بن عطية، عن أشياخه، عن أبي ذرٍّ قال: قلت: يا رسول الله، أَوْصِنِي. قال: «إِذَا عَمِلْتَ سَيِّئَةً فَأَتْبِعْهَا حَسَنَةً تَمْحُهَا». قال: قلت: يا رسول الله، أمن الحسنَات: لا إله إلا الله؟ قال: «هِيَ أَفْضَلُ الحَسَنَاتِ»[(٢)].

وقال الحافظ أبو يعلىٰ الموصلي: حدَّثنا هذيل بن إبراهيم الجُمَّاني، حدَّثنا عثمان بن عبد الرحمن الزهري، من ولد سعد بن أبي وقاص، عن الزهري، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا قَالَ عَبْدٌ: لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فِي سَاعَةٍ مِنْ لَيْلٍ أَوْ نَهَارٍ، إِلَّا طَلَسَتْ[(٣)] مَا فِي الصَّحِيفَةِ مِنَ السَّيِّئَاتِ، حَتَّىٰ تَسْكُنَ إِلَىٰ مِثْلِهَا مِنَ الحَسَنَاتِ»[(٤)].

عثمان بن عبد الرحمن[(٥)] -يقال له: الوقاصي-: فيه ضعف.

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدَّثنا بشر بن آدم وزيد بن أخرم قالا: حدَّثنا الضَّحَّاك بن مَخْلَد، حدَّثنا مستور بن عباد، عن ثابت، عن أنس؛ أن رجلًا قال: يا رسول الله، ما تركت من حَاجَةٍ ولا دَاجَةٍ[(٦)]، فقال رسول الله ﷺ: «تَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ؟». قال: بلىٰ. قال: «فَإِنَّ هَذَا يَأْتِي عَلَىٰ ذَلِكَ»[(٧)].

تفرَّد به من هذا الوجه مستور.

﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾

= اضطرب فرواه عن معاذ ورواه عن أبي ذر «وهو الآتي»، لكن ثبتت الجملة الأخيرة من الحديث: «إِذَا عَمِلْتَ سَيِّئَةً فَأَتْبِعْهَا حَسَنَةً تَمْحُهَا» رواه أحمد (٥/ ١٦٩) من حديث أبي ذرٍّ، وإسناده حسن.

(١) ضعيف: رواه أحمد (٥/ ١٥٣)، والترمذي (١٩٨٨)، ومداره علىٰ ميمون بن أبي شبيب، وروايته عن أبي ذرٍّ مرسلةٌ. وانظر الحديث السابق.

(٢) حسن: رواه أحمد (٥/ ١٦٩)، وفي إسناده جهالة شيوخ شمر بن عطية، ورواه البيهقي (١/ ٢٠١)، وأبو نعيم (٤/ ٢١٨) من طريق أخرىٰ، قال الألباني: «وهذا إسناد جيد رجاله كلهم ثقات رجال مسلم» انظر: «الصحيحة» (٣/ ٣٦١).

(٣) أي: محت.

(٤) ضعيف جدًّا: رواه أبو يعلىٰ (٣٦١١)، وفيه عثمان بن عبد الرحمن الزهري: متروك، وكذبه ابن معين، انظر: «تقريب التهذيب».

(٥) لوحة (٣٢٧ أ).

(٦) الداجة: أخف شأنًا من الحاجة.

(٧) صحيح: رواه أبو يعلىٰ (٣٤٣٣)، والبزار (٣٠٦٧-كشف).

يقول تعالىٰ: فهلَّا وُجِد من القرون الماضية بقايا من أهل الخير، ينهون عما كان يقع بينهم من الشُّرور والمنكرات، والفساد في الأرض.

وقوله: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: قد وُجِدَ منهم مِن هذا الضَّرب قليلٌ، لم يكونوا كثيرًا، وهم الَّذين أنجاهم الله عند حلولِ غِيَرِه[(١)]، وفجأةِ نِقَمِه؛ ولهذا أمر تعالىٰ هذه الأمَّة الشَّريفة أن يكون فيها مَن يأمر بالمعروف وينهىٰ عنِ المنكر، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤]. وفي الحديث: «إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوُا المُنْكَرَ فَلَمْ يُغَيِّرُوهُ، أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللهُ بِعِقَابٍ»[(٢)]؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾.

وقوله: ﴿وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ﴾ أي: استمروا علىٰ ما هم فيه من المعاصي والمنكرات، ولم يلتفتوا إلىٰ إنكار أولئك، حتىٰ فَجَأَهُم العذابُ، ﴿وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾.

ثم أخبر تعالىٰ أنَّه لم يُهْلِك قريةً إلا وهي ظالمةٌ، ولم يأتِ قريةً مُصْلِحَةً بَأْسُهُ وَعَذَابُهُ قطُّ حتىٰ يكونوا هم الظالمين، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ [هود: ١٠١]، وقال: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦].

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ[(٣)] مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾[(٤)]

---

(١) الغِيَر: تغير الحال من الصلاح إلىٰ الفساد.

(٢) صحيح: رواه أبو داود (٤٣٣٨)، والترمذي (٢١٦٨)، وابن حبان (٣٠٤)، وابن ماجة (٤٠٠٥)، وأحمد (١/ ٢، ٥، ٧).

(٣) قال الطاهر ابن عاشور رَحِمَهُ اللهُ مبينًا سبب ذكر العذاب دون الرحمة في هذا الموضع: (لأن قوله: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ يؤذِنُ أن المستثنىٰ منه قوم مختلفون اختلافًا لا رحمة لهم فيه، فهو اختلاف مضاد للرحمة، وضد النعمة: النقمة، فهو اختلاف أوجب الانتقام.

(٤) قال ابن عاشور رَحِمَهُ اللهُ: (لما كان النعي عن الأمم الذين لم يقع فيهم من ينهون عن النساء فاتبعوا الإجرام، وكان الإخبار عن إهلاكهم بأنه ليس ظلمًا من الله وأنهم لو كانوا مصلحين لَمَا أهلكوا، لما كان ذلك كله قد يثير توهُّهم أن تعاصِي الأمم عما أراد الله منهم خروج عن قبضة القدرة الإلهية أعقب ذلك بما يرفع هذا التوهم بأن الله قادر أن يجعلهم أمة واحدة متفقة علىٰ الحق مستمرة عليه كما أمرهم أن يكونوا.

ولكن الحمكة التي أقيم عليها نظام العالم اقتضت أن يكون نظام عقول البشر قابلًا للتطوح بهم في مسلك الضلالة أو في مسلك الهدىٰ علىٰ مبلغ استقامة التفكير والنظر، والسلامة من حُجب الضلالة، وأن الله تعالىٰ لما خلق العقول صالحة لذلك جعل منها قبول الحق بحسب الفطرة التي هي سلامة العقول من عوارض الجهالة والضلال، وهي الفطرة الكاملة المشار إليها بقوله تعالىٰ: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ وتقدم الكلام عليها في سورة البقرة. لم يدخرهم إرشادًا أو نصحًا بواسطة الرسل ودعاة الخير ومُلقِّنيه من أتابع الرسل، وهم أولو البقية الذين ينهون عن الفساد في الأرض، فمن الناس مهتد =

يخبر تعالىٰ أنَّه قادرٌ علىٰ جَعْل الناس كُلِّهم أمةً واحدةً، من إيمان أو كفران، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩].

وقوله: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ أي: ولا يزال الخُلْفُ بين الناس في أديانهم، واعتقادات مللهم ونحلهم، ومذاهبهم وآرائهم[١].

قال عكرمة: ﴿مُخْتَلِفِينَ﴾ في الهدىٰ. وقال الحسن البصري: ﴿مُخْتَلِفِينَ﴾ في الرزق، يُسخِّر بعضهم بعضًا، والمشهورُ الصحيح الأول.

وقوله: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ أي: إلا المرحومين[٢] من أتباع الرسل، الذين تمسَّكوا بما أمروا به من الدين. أَخْبَرَتْهُمْ به رسل الله إليهم، ولم يزل ذلك دأبهم، حتىٰ كان النَّبيُّ ﷺ الأمي خاتم الرسل والأنبياء، فاتَّبعوه وصدَّقوه، ونصروه ووازروه، ففازوا بسعادة الدُّنيا والآخرة؛ لأنَّهم الفرقة النَّاجية، كما جاء في الحديث المروي في «المسانيد» و«السنن»، من طرقٍ يشد بعضها بعضًا: «**إِنَّ اليَهُودَ افْتَرَقَتْ عَلَىٰ إِحْدَىٰ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَإِنَّ النَّصَارَىٰ افْتَرَقُوا عَلَىٰ ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَسَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَىٰ ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا فِرْقَةً وَاحِدَةً**». قالوا: ومن هم يا رسول الله؟ قال: «**مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي**»[٣].

رواه الحاكم في «مستدركه» بهذه الزيادة.

وقال عطاء: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ يعني: اليهود والنَّصارىٰ والمجوس ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾

= وكثير منهم فاسقون، ولو شاء لخلق العقول البشرية علىٰ إلهام متَّحد لا تعْدوه كما خلق إدراك الحيوانات العُجم علىٰ نظام لا تتخطاه من أول النشأة إلىٰ انقضاء العالم، فنجد حال البعير والشاة في زمن آدم ﷺ كحالهما في زماننا هذا، وكذلك يكون إلىٰ انقراض العالم، فلا شك أن حكمة الله اقتضت هذا النظام في العقل الإنساني؛ لأن ذلك أوفىٰ بإقامة مراد الله تعالىٰ مع مساعي البشر في هذه الحياة الدنيا الزائلة المخلوطة، لينتقلوا منها إلىٰ عالم الحياة الأبدية الخالصة إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر، فلو خُلق الإنسان كذلك لما كان العمل الصالح مقتضيًا ثواب النعيم ولا كان الفساد متقضيًا عقاب الجحيم، فلا جرم أن الله خلق البشر علىٰ نظام من شأنه طريان الاختلاف بينهم في الأمور، ومنها أمر الصلاح والفساد في الأرض وهو أهمها وأعظمها ليتفاوت الناس في مدارج الارتقاء ويَسْموا إلىٰ مراتب الزلفىٰ فتتميز أفراد هذا النوع في كل أنحاء الحياة حتىٰ يعد الواحد بألف ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾.

- وهذا وجه مناسبة عطف جملة: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ۝١١٩﴾ علىٰ جملتي ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾، ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾.

(١) يراد بالاختلاف هنا: التحير والاضطراب الذي يمنع المختلفين من الاهتداء إلىٰ الحق بسبب الجهل والظلم، فيكون جميع المختلفين مذمومين لأن لكل منهم نصيبًا من الضلال بحسبهم؛ ولهذا فسر غير واحد من المفسرين ﴿مُخْتَلِفِينَ﴾ بأن معناه: مخالفين للحق، كأبي السعود وابن عاشور رحمهما الله تعالىٰ.

(٢) لوحة (٣٢٧ ب).

(٣) **صحيح**: وقد تقدم، انظر الآية (٧) من سورة آل عمران.

يعني: الحنَيفيَّة.

وقال قتادة: أهلُ رحمة الله أهل الجماعة، وإن تفرَّقت ديارهم وأبدانهم، وأهل معصيته أهل فرقة، وإن اجتمعت ديارهم وأبدانهم.

وقوله: ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ قال الحسن البصري -في روايةٍ عنه-: وللاختلاف خَلَقهم.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس: خلقهم فريقين، كقوله: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [هود:١٠٥].

وقيل: للرَّحمة خلقهم. قال ابن وهب: أخبرني مسلم بن خالد، عن ابن أبي نَجِيح، عن طاوس؛ أن رجلين اختصما فأكثرا فقال طاوس: اختلفتما فأكثرتما! فقال أحد الرَّجلين: لذلك خلقنا. فقال طاوس: كذبت. فقال: أَلَيْسَ الله يقول: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ قال: لم يخلقهم لِيَخْتَلِفُوا، ولكن خلقهم للجماعة والرَّحمة. كما قال الحكم بن أبان، عن عِكْرِمة، عن ابن عبَّاس قال: للرحمة خلقهم ولم يخلقهم للعذاب(١). وكذا قال مجاهد والضَّحَّاك وقتادة. ويرجع معنىٰ هذا القول إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦].

وقيل: بل المراد: وللرحمة والاختلاف خلقهم، كما قال الحسن البصري -في رواية عنه- في قوله: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ قال: الناس مختلفون علىٰ أديانٍ شتىٰ، ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ فمَن رَحِمَ ربك غير مختلف. قيل له: فلذلك خلقهم؟ قال: خلق هؤلاء لجنته، وخلق هؤلاء لناره، وخلق هؤلاء لرحمته، وخلق هؤلاء لعذابه.

وكذا قال عطاء بن أبي رَبَاح، والأعمش.

وقال ابن وَهْب: سألت مالكًا عن قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ قال: فريقٌ في الجنَّة، وفريقٌ في السَّعير.

وقد اختار هذا القول ابن جرير، وأبو عبيدة، والفراء.

وعن مالك فيما رويناه عنه في التفسير: ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ قال: للرَّحمة، وقال قوم: للاختلاف.

وقوله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ يخبر تعالىٰ أنَّه قد سبق في قضائه وقدره، لعلْمِهِ التَّامِّ وحكمته النَّافذة، أنَّ ممن خلقه من يستحق الجنَّة، ومنهم من يستحق النَّار، وأنَّه لا بدَّ أن يملأ جهنَّم من هذين الثَّقلين الجنِّ والإنس، وله الحجَّة البالغة(٢) والحكمة التَّامَّة.

وفي «الصحيحين» عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**اخْتَصَمَتِ الجَنَّةُ وَالنَّارُ**،

---

(١) ضعيف: رواه الطبري (١٢/ ١٤٤)، وفيه حفص بن عمر العدني الصنعاني: ضعيف.

(٢) لوحة (٣٢٨ أ).

فَقالَتِ الجَنَّةُ: مَا لِي لا يَدْخُلُنِي إِلَّا ضَعَفَةُ النَّاسِ وَسَقَطُهُمْ(١)؟ وَقالَتِ النَّارُ: أُوثِرْتُ بِالمُتَكَبِّرِينَ وَالمُتَجَبِّرِينَ. فَقالَ اللهُ ﷻ لِلْجَنَّةِ: أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ. وَقَالَ لِلنَّارِ: أَنْتِ عَذَابِي، أَنْتَقِمُ بِكِ مِمَّنْ أَشَاءُ، وَلِكُلٍّ وَاحِدَةٍ مِنْكُمَا مِلْؤُهَا. فَأَمَّا الجَنَّةُ فَلا يَزَالُ فِيهَا فَضْلٌ، حَتَّىٰ يُنْشِئَ اللهُ لَهَا خَلْقًا يَسْكُنُ فَضْلَ الجَنَّةِ، وَأَمَّا النَّارُ فَلا تَزَالُ تَقُولُ: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ؟ حَتَّىٰ يَضَعَ عَلَيْهَا رَبُّ العِزَّةِ قَدَمَهُ، فَتَقُولُ: قَطْ قَطْ(٢)، وَعِزَّتِكَ»(٣).

﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾

يقول تعالىٰ: وكلَّ أخبارٍ نقُصُّها عليك، من أنباءِ الرُّسُل المتقدِّمين قبلك مع أممهم، وكيف جرىٰ لهم من المُحَاجَّات والخصومات، وما احتمله الأنبياء من التَّكذيب والأذىٰ، وكيف نصر الله حزبه المؤمنين، وخذل أعداءه الكافرين -كلُّ هذا مما ﴿نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ نُثَبِّتُ به فؤادَك يا محمَّد؛ أي: قلبك؛ لِيَكُون لك بمن مضىٰ مِن إخوانك من المرسلين أسْوةٌ.

وقوله: ﴿وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ﴾ أي: هذه السورة. قاله ابن عبَّاس، ومجاهد، وجماعة من السَّلف.

وعن الحسن -في رواية عنه- وقتادة: في هذه الدُّنيا.

والصحيح: في هذه السورة المشتملة علىٰ قصص الأنبياء، وكيف نَجَّاهم الله والمؤمنين بهم، وأهلك الكافرين، جاءك فيها قَصَصُ حقٍّ، ونبأُ صدقٍ، وموعظةٌ يرتدع بها الكافرون، وذكرىٰ يتوقر(٤) بها المؤمنون.

﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾

يقول تعالىٰ آمرًا رسوله أن يقول للَّذين لا يؤمنون بما جاء به مِن ربِّه علىٰ وجه التهديد: ﴿ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ أي: علىٰ طريقتكم ومنهجكم ﴿إِنَّا عَٰمِلُونَ﴾ أي: علىٰ طريقتنا ومنهجنا، ﴿وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ أي: فستعلمون مَن تكون له عاقبة الدار، إنه لا يفلح الظالمون.

وقد أنجز الله لرسوله وعده، ونصره وأيَّده، وجعل كلمته هي العليا، وكلمة الذين كفروا السُّفلىٰ، والله عزيز حكيم.

---

(١) السَّقَط: جمع ساقط، وهو نازل المكانة الذي لا يؤبه به.

(٢) أي: حسبي، يكفي.

(٣) البخاري (٤٨٤٩)، ومسلم (٢٨٤٦)، والترمذي (٢٥٦٤)، والنسائي في «الكبرىٰ» (٦/ ١١٥٢٢).

(٤) أي: يتثبت.

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾﴾

يُخْبِرُ تعالىٰ أنَّه عالِم غيب السَّموات والأرض، وأنَّه إليه المرجع والمآب، وَسيُوَفِّي كل عامِلٍ عمله يوم الحِسَاب، فله الخَلْق والأمر. فأَمَر تعالىٰ بعبَادَتِه والتَّوكُّل عليه؛ فإنَّه كافٍ مَن توكَّل عليه وأناب إليه.

وقوله: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أي: ليس يَخْفَىٰ عليه ما عَلَيْه مُكَذِّبُوك يا محمَّد، بل هُو عليمٌ بأحوالهم وأقوالهم، وسيجزيهم علىٰ ذلك أتمَّ الجزاء في الدنيا والآخرة، وسينصرك وحزبك عليهم في الدارين. وقال ابن جرير: حدَّثنا ابن وَكِيعٍ، حدَّثنا زيد بن الحباب، عن جعفر بن سليمان، عن أبي عمران الجَوْني، عن عبد الله بن رباح، عن كعب قال: خاتمة «التوراة» خاتمة «هود»[١].

آخر تفسير سورة هود. ولله الحمد[٢].

---

(١) رواه الطبري (٥/ ١٤٤)، وإسناده صحيح من رواية كعب الأحبار. والله أعلم.

(٢) لوحة (٣٢٨ ب) وقد جاء في آخرها: آخر تفسير سورة هود: «ولله الحمد ويتلوه في الرابع تفسير سورة يوسف والحمد لله وحده، وصلواته علىٰ خير خلقه محمَّد وآله وصحبه وسلم كثيرًا».

سُورَةُ يُوسُفَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

رَبِّ أَعِنْ على إتْمَامِهِ

تفسير سورة يوسف عليه السلام، وهي مكيَّة

روىٰ الثَّعلبي وغيره، مِن طريق سَلام بن [سلَم][(١)] -ويقال: سليم- المدائني، وهو متروك، عن هارون بن كثير -وقد نصَّ علىٰ جهالته أبو حاتم- عن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن أبي أمامة، عن أُبَيِّ بنِ كعبٍ قال: قال رسول الله ﷺ: «**عَلِّمُوا أَرِقَّاءَكُمْ سُورَةَ يُوسُفَ، فَإِنَّهُ أَيُّمَا مُسْلِمٍ تَلاهَا، أَوْ عَلَّمَهَا أَهْلَهُ، أَوْ مَا مَلَكَتْ يَمِينُهُ؛ هَوَّنَ اللهُ عَلَيْهِ سَكَرَاتِ المَوْتِ، وَأَعْطَاهُ مِنَ القُوَّةِ أَلَّا يَحْسُدَ مُسْلِمًا**»[(٢)].

وهذا من هذا الوجه لا يَصِحُّ؛ لضعف إسناده بالكليَّة. وقد ساق له[(٣)] الحافظ ابن عساكر متابعًا مِن طريق القاسم بن الحكم، عن هارون بن كثير به، ومن طريق شَبَابة، عن [مخلد بن عبد الواحد البصري][(٤)]، عن علي بن زيد [بن][(٥)] جدعان -وعن عطاء بن أبي ميمونة، عن زر بن حُبَيش، عن أُبَيِّ ابنِ كعبٍ، عن النَّبيِّ ﷺ -فذكر نحوه، وهو منكرٌ من سائر طرقه.

وروىٰ البيهقي في «الدلائل» أنَّ طائفة من اليهود حين سَمِعُوا رسول الله ﷺ يتلو هذه السُّورة أسلموا لموافقتها ما عندهم. وهو من رواية الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عبَّاس[(٦)].

---

(١) في (ز): «سليم».

(٢) **منكر:** في إسناده هارون بن كثير، قال ابن عدي في «الكامل» (٧/ ٢٥٨٨): «هارون بن كثير شيخ ليس بمعروف»، وسلام بن سلم المدائني: متروك.

وأما الرواية الثانية المشار إليها؛ فهي من طريق علي بن زيد بن جدعان: ضعيف.

(٣) في (ز): «ساقه».

(٤) في (ز): «محمَّد بن عبد الواحد النضري»، وفي نسخ أخرىٰ: «مخلد بن عبد الواحد النضري»، وكلاهما خطأ، والصواب ما أثبتناه كما في «الجرح والتعديل» (٨/ ٣٤٨)، و«الميزان» (٥/ ٢٠٨)، وبقية كتب الرجال.

(٥) في (ز): «عن».

(٦) **ضعيف جدًا:** رواه البيهقي في «الدلائل» (٦/ ٢٧٦)، وفيه الكلبي، وهو مُتَّهمٌ بالكذب.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ(١) بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾﴾

أمَّا الكلام علىٰ الحروف المقطَّعة فقد تقدَّم في أوَّل سورة «البقرة».

وقوله: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ﴾ أي: هذه آيات الكتاب، وهو القرآن، ﴿ٱلْمُبِينِ﴾ أي: الواضح الجَلِيُّ، الذي يُفْصِحُ عن الأشياء المُبهَمَة ويفسرها ويبينها.

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ وذلك لأنَّ لغة العرب أفصح اللُّغات، وأبينها وأوسعها، وأكثرها تأديةً للمعاني التي تقوم بالنُّفوس؛ فلهذا أنزلَ أشرف الكُتُب بأشرف اللُّغات، علىٰ أشرف الرُّسل، بسفارة أشرف الملائكة، وكان ذلك في أَشْرَف بقاع الأرض، وابتدئ إنزاله في أشرف شهور السَّنَة وهو رمضان، فكَمُلَ مِن كل الوجوه؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ بسبب إيحائنا إليك هذا القرآن.

وقد وَرَدَ في سبب نزول هذه الآيات ما رواه ابن جرير:

حدَّثني نصر بن عبد الرحمن الأَوْدِيّ، حدَّثنا حكام الرازي، عن أيوب، عن عمرو -هو ابن قيس الملائي- عن ابن عبَّاس قال: قالوا: يا رسول الله، لو قصصتَ علينا؟ فنزلت: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾. ورواه من وجه آخر، عن عمرو بن قيس مرسلًا(٢).

وقال أيضًا: حدَّثنا محمَّد بن [سعيد العطار](٣)، حدَّثنا عمرو بن محمَّد، أنبأنا [خَلاد](٤) الصفار، عن عمرو بن قيس، عن عمرو بن مُرَّة، عن مصعب بن سعد، عن سعد قال: أُنزِلَ علىٰ النَّبيِّ ﷺ القرآن، قال: فتلا عليهم زمانًا، فقالوا: يا رسول الله، لو قَصَصْتَ علينا؟ فأنزل الله ﷻ: ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ إلىٰ قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾. ثم تلا عليهم زمانًا، فقالوا: يا رسول الله، لو حَدَّثْتَنَا. فأنزل الله ﷻ: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾ الآية [الزمر: ٢٣]، وذكر الحديث. ورواه الحاكم من حديث إسحاق ابن رَاهَويه، عن عمرو بن محمَّد القرشي العَنْقَزي به(٥).

---

(١) قال السعدي رَحِمَهُ اللهُ: واعلم أن الله ذكر أنه يقص علىٰ رسوله أحسن القصص في هذا الكتاب، ثم ذكر هذه القصة وبسطها، وذكر ما جرىٰ فيها، فعلم بذلك أنها قصةٌ تامةٌ كاملةٌ حسنةٌ، فمن أراد أن يكملها أو يحسنها بما يذكر في الإسرائيليات التي لا يعرف لها سند ولا ناقل وأغلبها كذب، فهو مستدرك علىٰ الله، ومكمل لشيء يزعم أنه ناقص، وحسبك بأمر ينتهي إلىٰ هذا الحد قبحًا، فإن تضاعيف هذه السورة قد ملئت في كثيرٍ من التفاسير من الأكاذيب والأمور الشنيعة المناقضة لما قصه الله تعالىٰ بشيءٍ كثير. فعلىٰ العبد أن يفهم عن الله ما قصه، ويدع ما سوىٰ ذلك مما ليس عن النبي ﷺ ينقل.

(٢) رواه ابن جرير (١٢/ ١٥٠)، وفيه أيوب بن سيار: ضعيف، لكن يشهد لهذه الرواية رواية سعد الآتية.

(٣) في (ز): «سعد القطان»، وهو خطأ.

(٤) في (ز): «خالد»، وهو خطأ، وخلاد هو: ابن أسلم الصفار.

(٥) حسن: رواه ابن جرير (١٢/ ١٥٠)، وإسناده حسن، والحاكم (٢/ ٣٤٥) وصححه، ووافقه الذهبي، ورواه ابن حبان (١٠٦٩)، وأبو يعلىٰ (٧٤٠).

وروىٰ ابن جرير بسنده عن المسعودي، عن عَوْن بن عبد الله قال: مَلَّ أصحابُ رسول الله ﷺ مَلَّةً، فقالوا: يا رسول الله حدِّثنا. [فأنزل الله: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ﴾ ثم مَلُّوا مَلَّةً أخرىٰ فقالوا: يا رسول الله حدِّثنا][(١)] فوق الحديث ودون القرآن -يعنون القصص- فأنزل الله: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝٢ نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ﴾ فأرادوا الحديث، فدلَّهم علىٰ أحسن الحديث، وأرادوا القصص فدلَّهم علىٰ أحسن القصص[(٢)].

ومما يناسب ذكره عند هذه الآية الكريمة، المشتملة علىٰ مَدْح القرآن، وأنه كافٍ عن كل ما سواه من الكتب ما قال الإمام أحمد: حدَّثنا سُرَيْج بن النعمان، أخبرنا هُشَيْم، أنبأنا مجالد، عن الشعبي، عن جابر بن عبد الله؛ أنَّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه أتىٰ النَّبيَّ ﷺ بكتابٍ أصابه مِن بعض أهل الكتاب، فقرأه علىٰ النَّبيِّ ﷺ فغضب وقال: «**أَمُتَهَوِّكُونَ[(٣)] فِيهَا يَا ابْنَ الْخَطَّابِ؟ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَقَدْ جِئْتُكُمْ بِهَا بَيْضَاءَ نَقِيَّةً، لا تَسْأَلُوهُمْ عَنْ شَيْءٍ فَيُخْبِرُوكُمْ بِحَقٍّ فَتُكَذِّبُونَهُ، أَوْ بِبَاطِلٍ فَتُصَدِّقُونَهُ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ أَنَّ مُوسَىٰ كَانَ حَيًّا لَمَا وَسِعَهُ إِلَّا أَنْ يَتَّبِعَنِي**»[(٤)].

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا عبد الرزَّاق، أخبرنا سفيان، عن جابر، عن الشعبي، عن عبد الله بن ثابت قال: جاء عمر إلىٰ رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إنِّي مررت بأخٍ لي مِن قريظة، فكتب لي جوامع مِن التَّوراة، ألا أعرضها عليك؟ قال: فتغيَّر وجه رسول الله ﷺ. قال عبد الله بن ثابت: فقلت له: ألا ترىٰ ما بِوَجْهِ رسول الله ﷺ؟ فقال عمر: رَضِينا بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمَّدٍ رسولًا. قال: فسُرِّي عن النَّبيِّ ﷺ، وقال: «**وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَوْ أَصْبَحَ فِيكُمْ مُوسَىٰ ثُمَّ اتَّبَعْتُمُوهُ وَتَرَكْتُمُونِي [لَضَلَلْتُم][(٥)]، إِنَّكُمْ حَظِّي مِنَ الأُمَمِ، وَأَنَا حَظُّكُمْ مِنَ النَّبِيِّينَ**»[(٦)].

وقال الحافظ أبو يعلىٰ الموصلي: حدَّثنا عبد الغفار بن عبد الله بن الزبير، حدَّثنا علي بن مُسْهِر، عن عبد الرحمن بن إسحاق، عن خليفة بن قيس، عن خالد بن عُرْفُطة قال: كنت جالسًا عند عُمر، إذ أُتي برجل من عبد القيس مسكنه بالسُّوس[(٧)]، فقال له عمر: أنت فلان ابن فلان العبدي؟ قال: نَعم. قال: وأَنت

---

(١) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

(٢) رواه الطبري (١٢/ ١٥٠)، وابن أبي حاتم (١١٣٢٥)، وإسناده ضعيف، فيه سفيان بن وكيع: ضعيف، والإسناد مرسل، والمسعودي: اختلط.

(٣) التهوك: الوقوع في الأمر بغير رويَّة، وقيل: هو التحير.

(٤) حسن لشواهده: رواه أحمد (٣/ ٣٨٧)، والدارمي (١/ ١١٥)، وابن أبي شيبة (٩/ ٤٧)، وفي الإسناد مجالد بن سعيد، قال الدارقطني: ليس بالقوي، وقد توبع، رواه أحمد (٣/ ٣٧٠) (٤/ ٢٦٥)، وعبد الرزاق (٦/ ١١٣)، وفي إسناده جابر الجعفي وهو ضعيف. وللحديث شواهد أخرىٰ. انظر: «إرواء الغليل» (١٥٨٩).

(٥) في (ز): «أضللتم»، والمثبت موافق لما في «المسند».

(٦) رواه أحمد (٣/ ٤٧٠)، (٤/ ٢٦٥)، وفيه جابر الجعفي: ضعيف.

(٧) السُّوس: بلدة بخوزستان، وجد فيها جسد دانيال، فدفن في نهرها تحت الماء وغمر قبره.

النَّازل بالسُّوس؟ قال: نَعم. فضربه بقناةٍ معه، قال: فقال الرجل: ما لي يا أمير المؤمنين؟ فقال له عمر: اجلس. فجلس، فقرأ عليه: ﴿الٓر تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ١ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ٢ نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ﴾ إلىٰ قوله: ﴿لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ﴾ فقرأها ثلاثًا، وضربه ثلاثًا، فقال له الرَّجل: ما لي يا أمير المؤمنين؟ فقال: أنت الذي نسخت كتاب دَانْيَال! قال: مرني بأمرك أتبعه. قال: انطلِق فَامْحُهُ بالحميم[١] والصوف الأبيض، ثم لا تَقْرأه ولا تُقْرِئه أحدًا من النَّاس، فلَئِنْ بلغني عنك أنَّك قرأته أو أقرأته أحدًا من النَّاس لأنهكنَّك[٢] عقوبة، ثم قال له: اجلس، فجلس بين يديه، فقال: انطلقت أنا فَانْتَسَخْتُ كتابًا من أهل الكتاب، ثُم جئت به في أديم، فقال لي رسول الله ﷺ: «مَا هَذَا فِي يَدِكَ يَا عُمَرُ؟». قال: قلتُ: يا رسول الله، كتاب نسخته لنزداد به علمًا إلىٰ علمنا. فغَضِبَ رسول الله ﷺ حتىٰ احمرَّت وَجْنَتَاه، ثم نودي بالصلاة جامعة، فقالت الأنصار: أغضب نبيكم ﷺ؟ السلاح السلاح. فجاءوا حتىٰ أحدقوا بمنبر رسول الله ﷺ، فقال: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّي قَدْ أُوتِيتُ جَوَامِعَ الكَلِمِ وَخَوَاتِيمَهُ، وَاخْتُصِرَ لِيَ اخْتِصَارًا، وَلَقَدْ أَتَيْتُكُمْ بِهَا بَيْضَاءَ نَقِيَّةً فَلَا تَتَهَوَّكُوا، وَلَا يَغُرَّنَّكُمُ الْمُتَهَوِّكُونَ**». قال عمر: فقمت فقلتُ: رضيت بالله ربًّا وبالإسلام دينًا، وبك رسولًا. ثم نزل رسول الله ﷺ[٣].

وقد رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» مختصرًا، من حديث عبد الرحمن بن إسحاق به. وهذا حديث غريب من هذا الوجه. وعبد الرحمن بن إسحاق هو أبو شَيبة الواسطي، وقد ضَعَّفُوه وشيخه، قال البخاري: [لا يصح][٤] حديثه.

قُلتُ: وقد روي له شاهد من وجه آخر، فقال الحافظ أبو بكر أحمد بن إبراهيم الإسماعيلي: أخبرني الحسن بن سفيان، حدَّثنا يعقوب بن سفيان، حدَّثنا إسحاق بن إبراهيم بن العلاء الزبيدي، حدَّثني عمرو بن الحارث، حدَّثنا عبد الله بن سالم الأشعري، عن الزبيدي، حدَّثنا سليم بن عامر: أن جُبَير بن نُفَير حَدَّثهم: أنَّ رَجُلَيْنِ كانا بحمص في خلافة عمر ﷺ فأرسل إليهما فيمن أرسل من أهل حمص، وكانا قد اكتتبا مِن اليهود [مِلْء صفينة][٥] فأخذاها معهما[٦] يَسْتَفْتِيَان فيها أمير المؤمنين ويقولون: إن رضيها لنا أمير المؤمنين ازددنا [فيها][٧] رغبةً. وإن نهانا عنها رفضناها، فلمَّا قَدِما عليه قالا: إنَّا بأرض أهلِ الكِتَابَيْن، وإنا نسمع منهم كلامًا تقشعر منه جلودنا، أَفَنَأْخُذُ منه أو نترك؟ فقال: لعلكما كتبتما منه شيئًا. قالا: لا. قال: سأحدِّثكما، انطلقت في حياة النَّبيِّ ﷺ حتىٰ أتيت خيبر، فوجدت

---

(١) الحميم: الماء الحار. (٢) نهكه: بالغ في عقوبته.

(٣) ضعيف: رواه ابن أبي حاتم (٧/ ١١٣٢٤)، والعقيلي في «الضعفاء» (٢/ ٢١)، وفيه عبد الرحمن بن إسحاق الواسطي الكوفي: ضعيف.

(٤) سقطت من (ز).

(٥) في (ز): (ملا صفنين)، والمراد بـ«الصفينة»: الوعاء، وعند أبي نعيم في «الحلية»: (ملء صفنين). والصفن: الخريطة تكون للراعي، فيها متاعه وما يحتاج إليه.

(٦) في (ز): (فأخذا معهما)، والمثبت كما في «مسند الشاميين».

(٧) في (ز): (فيه)، والمثبت موافق لما في «مسند الشاميين» (١٨٤٤).

يهوديًّا يقول قولًا أعجبني، فقلتُ: هل [أنت][1] مكتبي ما تقول؟ قال: نعم. فأتيت بأديمٍ، فأخذ يملي عليَّ حتىٰ كتبت في الأكرُع[2]. فلما رجعت قلتُ: [يا نبي الله][3]، وأخبرته، قال: «ائْتِنِي بِهِ». فانطلقت أَرْغَب عن المشي رجاء أن أكون أتيت رسول الله بَبَعْضِ ما يُحِبُّ، فلما أتيت به قال: «اجْلِسْ اقْرَأْ عَلَيَّ». فقرأت ساعةً، ثم نظرت إلىٰ وجهِهِ فإذا هو يتلوَّن، فتحيَّرت من الفَرق، فما استطعت أجيز منه حرفًا، فلمَّا رأىٰ الَّذِي بي [دَفَعه][4] ثم جعل يتبعه رسمًا رسمًا فيمحوه بِرِيقه، وهو يقول: «لَا تَتَّبِعُوا هَؤُلَاءِ، فَإِنَّهُمْ قَدْ هَوَّكُوا وَتَهَوَّكُوا» حتىٰ محا آخره حرفًا حرفًا. قال عمر ﵁: فلو علمتُ أنَّكما كتبتما منه شيئًا جعلتكما نكالًا لهذه الأمة! قالا: والله ما نكتب منه شيئًا أبدًا. فخرجا [بصفنيهما][5] فحفرا لها فلم يألُوا[6] أن يُعَمِّقَا، ودفناها فكان آخر العهد منها[7].

وكذا روىٰ الثوري، عن جابر بن يزيد الجُعْفي، عن الشَّعبي، عن عبد الله بن ثابت الأنصاري، عن عمر ابن الخطاب بنحوه، وروىٰ أبو داود في «المراسيل»، من حديث أبي قِلابة، عن عمر نحوه. والله أعلم.

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ۝٤﴾

يقول تعالىٰ: اذكر لقومك -يا محمَّد- في قَصَصِك عليهم مِن قصَّة يوسف إذ قال لأبيه، وأبُوه هو: يعقوب [بن إسحاق بن إبراهيم][8] -عليهم السلام- كما قال الإمام أحمد: حدَّثنا عبد الصمد، حدَّثنا عبد الرحمن بن عبد الله بن دينار، عن أبيه، عن ابن عمر؛ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «الْكَرِيمُ، ابْنُ الْكَرِيمِ، ابْنِ الْكَرِيمِ، ابْنِ الْكَرِيمِ، يُوسُفُ بْنُ يَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ»[9].

انفرد بإخراجه البخاريُّ، فرواه عن عبد الله بن محمَّد، عن عبد الصمد به، وقال البخاري أيضًا: حدَّثنا محمَّد، أخبرنا عبدة، عن عُبَيْد الله، عن سعيد بن أبي سعيد، عن أبي هريرة ﵁ قال: سُئِل رسولُ الله ﷺ: أيُّ الناس أكرم؟ قال: «أَكْرَمُهُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاهُمْ». قالوا: ليس عن هذا نسألك. قال: «فَأَكْرَمُ النَّاسِ يُوسُفُ نَبِيُّ اللهِ، ابْنُ نَبِيِّ اللهِ، ابْنِ نَبِيِّ اللهِ، ابْنِ خَلِيلِ اللهِ». قالوا: ليس عن هذا نسألك. قال: «فَعَنْ مَعَادِنِ الْعَرَبِ تَسْأَلُونِي؟» قالوا: نعم. قال: «فَخِيَارُكُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُكُمْ فِي الْإِسْلَامِ إِذَا فَقُهُوا». ثم قال: تابعه أبو أسامة، عن عبيد الله[10].

---

(١) في (ز): «أنتم»، والمثبت موافق لما في «مسند الشاميين».

(٢) الأكرع: جمع كُراع، وهو مستدق الساق العاري من اللحم.

(٣) في (ز): «رسول الله». (٤) في (ز): «دفعته».

(٥) هكذا في (ز). (٦) لم يألوا: لم يقصرا.

(٧) حسن لغيره: رواه أبو نعيم في «الحلية» (٥/ ١٣٥)، فيه إسحاق بن إبراهيم: وثقه ابن معين، وضعفه النسائي، انظر: «مجمع الزوائد» للهيثمي (١/ ٧٨)، وقال الحافظ: صدوق يهم كثيرًا.
قلت: تشهد له الرواية السابقة، وله متابعة أخرىٰ مرسلة في «مراسيل أبي داود» (٤٥٥)، كما ذكر المصنِّف. وبمجموع هذه الطرق فالحديث حسن، والله أعلم.

(٨) سقط من (ز). (٩) البخاري (٣٣٨٢، ٤٦٨٨)، وأحمد (٢/ ٩٦).

(١٠) البخاري (٤٦٨٩)، ومسلم (٢٣٧٨).

وقال ابن عبَّاس: رؤيا الأنبياء وحيٌ[١].

وقد تكلَّم المفسِّرون علىٰ تعبير هذا المنام: أنَّ الأحد عشر كوكبًا عبارة عن إخوته، وكانوا أحد عشر رجلًا [سواه][٢]، والشمس والقمر عبارة عن أبيه وأُمِّه. رُوي هذا عن ابن عبَّاس، والضَّحَّاك، وقتادة، وسفيان الثوري، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وقد وقع تفسيرُها بعد أربعين سنةً، وقيل: ثمانين سنةً، وذلك حين رفع أبويه علىٰ العرش -وهو سريره- وإخوته بين يديه: ﴿وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗا﴾ [يوسف: ١٠٠].

وقد جاء في حديثٍ تسميةُ هذه الأحد عشر كوكبًا -فقال الإمام أبو جعفر بن جرير:

حدَّثني علي بن سعيد الكندي، حدَّثنا الحكم بن ظهير، عن السُّدِّي، عن عبد الرحمن بن سابط، [عن جابر][٣] قال: أتىٰ النَّبيَّ ﷺ رجلٌ من يهود يقال له: «بُسْتَانة اليهودي» فقال له: يا محمَّد، أخبرني عن الكواكب التي رآها يوسف أنَّها ساجدة له، ما أسماؤها؟ قال: فسكت النَّبيُّ ﷺ ساعةً فلم يُجِبْهُ بشيءٍ، ونزل [عليه جبريل عليه السلام][٤] فأخبره بأسمائها. قال: فبعث رسول الله ﷺ إليه فقال: «[هَلْ][٥] **أَنْتَ مُؤْمِنٌ إِنْ أَخْبَرْتُكَ بِأَسْمَائِهَا؟**» فقال: نعم. قال: «**[جَرْبَانُ][٦] وَالطَّارِقُ، وَالذَّيَّالُ، وذُو الكَنَفَاتِ، وَقَابِسٌ، ووَثَّابُ، وعَمُودَانِ، [وَالفَيْلَقُ][٧]، والمُصَبِّحُ، وَالضَّرُوحُ، وذُو الفَرْغِ، وَالضِّيَاءُ، وَالنُّورُ**» فقال اليهودي: إِيْ والله، إنَّها لأسماؤها[٨].

ورواه البيهقيُّ في «الدلائل» من حديث سعيد بن منصور، عن الحكم بن ظهير. وقد روىٰ هذا الحديث الحافظان أبو يعلىٰ الموصلي وأبو بكر البزار في «مسنديهما»، وابن أبي حاتم في «تفسيره»؛ أما أبو يعلىٰ فرواه عن أربعة من شيوخه عن الحكم بن ظهير به، وزاد: قال رسول الله ﷺ: «**لَمَّا رَآهَا يُوسُفُ قَصَّهَا عَلَىٰ أَبِيهِ يَعْقُوبَ، فَقَالَ لَهُ أَبُوهُ: هَذَا أَمْرٌ مُتَشَتِّتٌ يَجْمَعُهُ اللهُ مِنْ بَعْدُ؛ قَالَ: وَالشَّمْسُ أَبُوهُ، وَالقَمَرُ أُمُّهُ**»[٩].

تفرَّد به الحكم بن ظهير الفزاري، وقد ضَعَّفه الأئمة، وتركه الأكثرون، وقال الجوزجاني: ساقط، وهو صاحب حديث حُسْن يوسف.

﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٥﴾

---

(١) حسن: رواه الطبري (١٢/ ١٥١)، وابن أبي حاتم (٧/ ١١٣٢٨)، والإسناد حسن من أجل سماك بن حرب فإنه صدوق.

(٢) سقط من (ز).

(٣) سقط من بعض النسخ، والمثبت موافق لما في «تفسير الطبري».

(٤) في (ز): «جبريل عليه السلام».

(٥) سقط من (ز)، وهي مثبتة في «الطبري».

(٦) في (ز): «حرثان»، والمثبت موافق لما في «الطبري» ط: الشيخ شاكر (١٥/ ٥٥٥).

(٧) في (ز): «الفليق».

(٨) **ضعيف جدًّا**: ابن جرير (١٢/ ١٥١)، والبيهقي في «الدلائل» (٦/ ٥٧٧)، والبزار (٣/ ٢٢٠ ـ كشف)، وفيه الحكم بن ظهير، قال الحافظ: متروك، رمي بالرفض، وفي الإسناد انقطاع، وانظر تعليق ابن كثير بعده.

(٩) انظر التعليق السابق.

يقول تعالىٰ مخبرًا عن [قول][(١)] يعقوب لابنه يوسف حين قَصَّ عليه ما رأىٰ من هذه الرؤيا، التي تعبيرها خضوع إخوته له، وتعظيمهم إيَّاه تعظيمًا زائدًا، بحيث يخرون له ساجدين؛ إجلالًا وإكرامًا واحترامًا، فخشي يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يُحَدِّث بهذا المنام أحدًا من إخوته [فيحسدوه][(٢)] علىٰ ذلك، [فيبغوا][(٣)] له الغوائل، حسدًا منهم له؛ ولهذا قال له: ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا﴾ أي: يحتالوا لك حيلةً يُرْدُونك فيها. ولهذا ثبتت السُّنَّة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إِذَا رَأَىٰ أَحَدُكُمْ مَا يُحِبُّ فَلْيُحَدِّثْ بِهِ، وَإِذَا رَأَىٰ مَا يَكْرَهُ فَلْيَتَحَوَّلْ إِلَىٰ جَنْبِهِ الآخَرِ، وَلْيَتْفُلْ عَنْ يَسَارِهِ ثَلَاثًا، وَلْيَسْتَعِذْ بِاللهِ مِنْ شَرِّهَا، وَلَا يُحَدِّثْ بِهَا أَحَدًا، فَإِنَّهَا لَنْ تَضُرَّهُ»[(٤)].

وفي الحديث الآخر الذي رواه الإمام أحمد، وبعض أهل السُّنن، من رواية معاوية بن حيدة القشيري أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الرُّؤْيَا عَلَىٰ رِجْلِ طَائِرٍ مَا لَمْ تُعَبَّرْ، فَإِذَا عُبِّرَتْ[(٥)] وَقَعَتْ»[(٦)]، ومن هذا يُؤْخَذ الأمر بكِتْمان النعمة حتىٰ توجد وتظهر، كما ورد في حديث: «اسْتَعِينُوا عَلَىٰ قَضَاءِ الحَوَائِجِ بِكِتْمَانِهَا، فَإِنَّ كُلَّ ذِي نِعْمَةٍ مَحْسُودٌ»[(٧)].

﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٦﴾

يقول تعالىٰ مخبرًا عن قول يعقوب لولده يوسف: إنَّه كما اختارك رَبُّك، وأراك هذه الكواكب مع الشَّمس والقمر ساجدة لك، ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ أي: يختارك ويَصْطَفِيك لنبوَّته، ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ قال مجاهد وغير واحدٍ: يعني تعبير الرؤيا[(٨)].

﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾ أي: بإرسالك والإيحاء إليك؛ [ولهذا][(٩)] قال: ﴿كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ﴾ وهو الخليل، ﴿وَإِسْحَٰقَ﴾ ولده، وهو الذَّبيح في قول وليس بالرجيح، ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي: [هو][(١٠)] أعلم حيث يجعل رسالاته، كما قال في الآية الأخرىٰ.

---

(١) في (ز): «قيل». (٢) في (ز): «فيحسدونه». (٣) في (ز): «فيبغون».

(٤) صحيح: انظر: «صحيح البخاري» (٦٩٨٥، ٣٢٩٢)، ومسلم (٢٢٦١، ٢٢٦٢)، وهي روايات مختلفة يحصل بمجموعها ما ذكره المؤلف.

(٥) عَبَرَ الرؤيا وعَبَّرَها: فسرها.

(٦) أبو داود (٥٠٢٠)، والترمذي (٢٢٧٩)، وابن ماجة (٣٩١٤)، وقال الترمذي: حسن صحيح، وحسنه الحافظ في «الفتح» (١٢/ ٤٣٢)، وصححه الألباني.

(٧) صححه الألباني: رواه العقيلي في «الضعفاء» (٢/ ١٠٩)، وابن عدي في «الكامل» (٣/ ١٠٤)، وأبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٩٦)، قال أبو حاتم في «العلل» (٢/ ٢٥٥): حديث منكر، وللحديث طريق أخرىٰ من حديث أبي هريرة. انظر: «صحيح الجامع» (٩٥٦)، و«الصحيحة» (١٤٥٣).

(٨) قال أبو بكر الجزائري رَحِمَهُ اللهُ: قيل لمالك أيعبر الرؤيا كل أحد؟ فقال: بالنبوة تلعب؟ لا يعبر الرؤيا إلا من يحسنها، فإن رأىٰ خيرًا أخبر به، وإن رأىٰ مكروهًا فليقل خيرًا أو ليصمت.

(٩) سقط من (ز). (١٠) سقط من (ز).

﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ۝٧ إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٨ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ۝٩ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ۝١٠﴾

يقول تعالىٰ: لقد كان في قصة يوسف وخبره مع إخوَتِهِ آيات؛ أي: عبرةٌ ومواعظُ للسائلين عن ذلك، المستخبرين عنه، فإنه خبرٌ عجيبٌ، يَسْتَحِقُّ أن يستخبر عنه، ﴿إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا﴾ أي: حلفوا فيما يظنون: واللهِ ليوسف وأخوه -يعنون بنيامين، وكان شقيقه لأمه- ﴿أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ أي: جماعة، فكيف أحب ذَيْنِكَ الاثنين أكثر من الجماعة؛ ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ يعنون في تقديمهما علينا، ومحبته إيَّاهما أكثر منا.

واعلم أنَّه لم يقم دليلٌ علىٰ نبوَّة إخوة يوسف[1]، وظاهر هذا السِّياق يدل علىٰ خلاف ذلك، ومن النَّاس مَن يزعم أنهم أُوحِيَ إليهم بعد ذلك، وفي هذا نظر. ويحتاج مُدَّعي ذلك إلىٰ دليل، ولم يذكروا سوىٰ قوله تعالىٰ: ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ﴾ [البقرة: ١٣٦]، وهذا فيه احتمال؛ لأنَّ بطون بني إسرائيل يقال لهم: الأسباط، كما يقال للعرب: قبائل، وللعجم: شعوب؛ يذكر تعالىٰ أنه أوحىٰ إلىٰ الأنبياء من أسباط بني إسرائيل، فذكرهم إجمالًا؛ لأنَّهم كثيرون، ولكنَّ كل سبط مِن نسل رجلٍ من إخوة يوسف، ولم يقم دَلِيلٌ علىٰ أعيان هؤلاء أنهم أُوحِيَ إليهم، والله أعلم.

﴿ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ يقولون: هذا الذي يزاحمكم في محبة أبيكم لكم، أَعْدِمُوه مِن وجه أبيكم، ليخلو لكم وحدكم، إما بأن تقتلوه، أو تلقوه في أرض من الأراضي - تستريحوا منه، وتختلوا أنتم بأبيكم، وتكونوا مِن بعد إعدامه قومًا صالحين، فأضمروا التَّوبة قبل الذنب.

﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ﴾ قال قتادة، ومحمَّد بن إسحاق: كان أكبرهم واسمه: روبيل. وقال السُّدِّي: الذي قال ذلك يهوذا. وقال مجاهد: هو شمعون ﴿لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ﴾ أي: لا تَصِلوا في عداوته [وبُغْضِه][2] إلىٰ قتله، ولم يكن لهم سبيلٌ إلىٰ قتله؛ لأن الله -تعالىٰ- كان يريد منه أمرًا لا بدَّ مِن إمضائه وإتمامه، من الإيحاء إليه بالنُّبوَّة، ومن [التَّمكين][3] له ببلاد مصر والحكم بها، فصرفهم الله عنه بمقالة روبيل فيه، وإشارته عليهم بأن يُلقُوه في ﴿غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾، وهو أسفله. قال قتادة: وهي: بئر بيت المقدس.

﴿يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ﴾ أي: المارة من المسافرين، فتستريحوا منه بهذا، ولا حاجة إلىٰ قتله.

---

(١) وهذا هو الصحيح، أن إخوة يوسف ليسوا بأنبياء. وانظر: «جامع المسائل» لشيخ الإسلام ابن تيمية (٣/ ٢٩٥)، و«الحاوي في الفتاوىٰ» للسيوطي (١/ ٣١٠).

(٢) في (ز): «وبغضته».

(٣) في (ز): «التمكن».

﴿إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ أي: إن كنتم عازمين علىٰ ما تقولون.

قال محمَّد بن إسحاق بن يسار: لقد اجتمعوا علىٰ أمرٍ عظيم من قطيعة الرحم، وعقوق الوالد، وقلَّة الرَّأفة بالصغير الضَّرِع[(١)] الذي لا ذنب له، وبالكبير الفاني ذي الحَقِّ والحرمة والفضل، وخطره عند الله، مع حق الوالد علىٰ ولده؛ ليُفَرِّقُوا بينه وبين ابنه وحبيبه، علىٰ كِبَرِ سِنِّه، [ورِقَّة][(٢)] عظمه، مع مكانه مِن الله فيمن أحبَّه طفلًا صغيرًا وبين أبيه، علىٰ ضعف قوَّته وصغر سِنِّه، وحاجته إلىٰ لطف والده وسكونه إليه[(٣)]، يغفر الله لهم وهو أرحم الراحمين؛ فقد احتملوا أمرًا عظيمًا.

رواه ابن أبي حاتم من طريق سلمة بن الفضل عنه.

﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾﴾

لما تواطئوا علىٰ أَخْذِهِ وطَرْحه في البئر، كما أشار عليهم أخوهم الكبير رُوبيل، جاءوا أباهم يعقوب عليه السلام فقالوا: ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ﴾ وهذه توطئةٌ وسلفٌ ودَعْوىٰ، وهم يريدون خلاف ذلك؛ لما له في قلوبهم من الحسد لحُبِّ أبيه له، ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا﴾ أي: ابعثه معنا ﴿غَدًا نَرْتَعْ وَنَلْعَبْ﴾ وقرأ بعضهم بالياء ﴿يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾[(٤)]. قال ابن عبَّاس: يسعىٰ وينشط. وكذا قال قتادة، [والضَّحَّاك][(٥)] والسُّدِّي، وغيرهم.

﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ يقولون: ونحن نحفظه ونحوطُهُ مِن أجلك.

﴿قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا۟ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾﴾

يقول تعالىٰ مخبرًا عن نَبِيِّه يعقوب أنه قال لبَنِيهِ في جوابِ ما سألوا من إرسال يوسف معهم إلىٰ الرَّعْيِ في الصحراء: ﴿إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُوا۟ بِهِۦ﴾ أي: يشق عليَّ مفارقتُهُ مدة ذهابكم به إلىٰ أن يرجع؛ وذلك لفَرْط محبته له؛ لما يتوسم فيه مِن الخير العظيم، وشمائل النُّبوَّة والكمال في

---

(١) أي: الضعيف. (٢) سقط من (ز).

(٣) قال القاسمي رحمه الله: قال المهايمي: في الآية من الفوائد أن الجاه يدعو إلىٰ الحسد، كالمال، وهو يمنع من المحبة الأصلية من القرابة ونحوها، بل يجعل عداوتهم أشد من عداوة الأجانب، وأن الحسد يدعو إلىٰ المكر بالمحسود، وبمن يراعيه، وأنه إنما يكون برؤية الماكر نفسه أكمل عقلًا من الممكور به. وأن الحاسد إذا ادعىٰ النصح والحفظ والمحبة، بل أظهره فعلًا؛ لم يعتمد عليه.

(٤) متواترة: قَرَأَ (يَرْتَع وَيَلْعَبْ) نَافِعٌ وَأَبُو جَعْفَرٍ، وَقَرَأَ (نَرْتَعْ وَنَلْعَبْ) أَبُو عَمْرٍو وَابْنُ عَامِرٍ وَوَافَقَهُمَا الْيَزِيدِيُّ، وَقَرَأَ (نَرْتَعِ وَنَلْعَبْ) الْبَزِّيُّ وَقُنْبُلٌ بِخُلْفٍ عَنْهُ، وَقَرَأَ (نَرْتَعِي وَنَلْعَبْ) قُنْبُلٌ فِي وَجْهِهِ الثَّانِي، وَقَرَأَ (يُرْتِعْ وَيَلْعَبْ) ابْنُ مُحَيْصِنٍ مِنَ الْمُفْرَدَةِ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ (يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ).

(٥) سقط من (ز).

الخُلُق والخَلْق صلوات الله وسلامه عليه.

وقوله: ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ﴾ يقول: وأخشىٰ أن تشتغلوا عنه بِرَمْيِكُم ورَعْيِتِكُم، فيأتيه ذئب فيأكله وأنتم لا تشعرون، فأخذوا مِن فَمِهِ هذه الكلمة، وجعلوها عذرهم فيما فعلوه، وقالوا مجيبين عنها في السَّاعة الراهنة: ﴿لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ يقولون: لئن عدا عليه الذئب فأكله من بيننا -ونحن جماعة- إنَّا إذًا لهالكون عاجزون.

﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾﴾

يقول تعالىٰ: فلما [ذهب][١] به إخوته من عند أبيه بعد مُراجَعَتِهِم له في ذلك، ﴿وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾ هذا فيه تعظيمٌ لما فعلوه أنهم اتَّفقوا كلهم علىٰ إلقائه في أسفل ذلك [الجُبِّ][٢]، وقد أخذوه من عند أبيه فيما يُظهرونه له إكرامًا له، وبسطًا وشرحًا لصدره، وإدخالًا للسرور عليه، فيقال: إن [يعقوب][٣] عَلَيْهِ السَّلَامُ لما بعثه معهم ضَمَّه إليه، وقَبَّله ودعا له.

وقال [السُّدِّي][٤] وغيره: إنه لم يكن بين إكرامهم له وبين إظهار الأذىٰ له، إلا أن غابوا عن عين أبيه وتواروا عنه، ثم شرعوا يؤذونه بالقول، مِن شتمٍ ونحوه، والفعل من ضَرْبٍ ونحوه، ثم جاءوا به إلىٰ ذلك الجُبِّ الذي اتَّفقوا علىٰ رميه فيه فربطوه بحبلٍ ودَلَوه فيه، فجعل إذا لجأ إلىٰ واحدٍ منهم لطمه وشَتمه، وإذا تشبث بحافات البئر ضربوا علىٰ يديه، ثم قطعوا به الحبل مِن نصف المسافة، فسقط في الماء فغمره، فصعد إلىٰ صخرةٍ تكون في وسطه، يقال لها: «الراغوفة» فقام فوقها.

قال الله تعالىٰ: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ يقول تعالىٰ ذاكرًا لطفه ورحمته وعائدته، وإنزاله اليسر في حال العسر: إنَّه أوحىٰ إلىٰ يوسف في ذلك الحال الضَّيِّق، تطييبًا لقلبه، وتثبيتًا له: إنَّك لا تحزن مما أنت فيه، فإنَّ لك من ذلك فرجًا ومخرجًا حسنًا، وسينصرك الله عليهم، ويُعْلِيك ويرفع درجتك، وستخبرهم بما فعلوا معك من هذا الصنيع[٥].

وقوله: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ -قال [مجاهد و][٦] قتادة: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بإيحاء الله إليه. وقال ابن عبَّاس: ستنبئهم بصنيعهم هذا في حَقِّك، وهم لا يعرفونك، ولا يستشعرون بك، كما قال ابن جرير:

حدَّثني الحارث، حدَّثنا عبد العزيز، حدَّثنا صدقة بن عُبادة الأسدي، عن أبيه، سمعت ابن عبَّاس يقول: لما دخل إخوة يوسف علىٰ يوسف فعرفهم وهم له منكرون، قال: جيء بالصُّواع[٧]، فوضعه

---

(١) في (ز): «ذهبت». (٢) سقط من (ز).

(٣) في (ز): «يوسف». (٤) سقط من (ز).

(٥) قال أبو بكر الجزائري رَحِمَهُ اللَّهُ: هذا دليل علىٰ نبوته وأنه نبيٌّ وهو صغير، إذ النبوة لا يشترط لها بلوغ الرشد كالرسالة. وقيل: الهاء في ﴿إليه﴾ تعود علىٰ يعقوب، وعليه فلا إشكال إذ هو نبي ورسول عَلَيْهِ السَّلَامُ.

(٦) سقط من (ز). (٧) الصواع: الذي يكال به.

علىٰ يده، ثم نقرَهُ فطَنَّ، فقال: إنَّه ليخبرني هذا الجامُ[١] أنَّه كان لكم أخٌ مِن أبيكم يقال له «يوسف» يُدْنِيهِ دونكم، وأنكم انطلقتم به فألقيتموه في غيابة الجب -قال: ثم نقره فطَنَّ- فأتيتم أباكم فقلتم: إنَّ الذِّئب أكله، وجئتم علىٰ قميصه بدَم كَذِبٍ -قال: فقال بعضهم لبعض: إنَّ هذا الجام ليخبره بخبركم. قال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: لا نرىٰ هذه الآية نزلت إلا فيهم: ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[٢].

﴿وَجَاءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾

يقول تعالىٰ مخبرًا عن الذي اعتمده إخوة يوسف بعدما ألقوه في غيابة الجب: [أنهم][٣] رجعوا إلىٰ أبيهم فِي ظلمة الليل يبكون، ويظهرون الأسف والجزع علىٰ يوسف ويَتَغَمَّمُون لأبيهم، وقالوا معتذرين عمَّا وقع فيما زعموا: ﴿إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾ أي: نَترَامَىٰ، ﴿وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا﴾ أي: ثيابنا وأمتعتنا، ﴿فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ وهو الذي كان جَزِعَ منه، وحَذِرَ عليه.

وقولهم: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾ تلَطُّفٌ عظيمٌ في تقرير ما يحاولونه، يقولون: ونحن نعلم أنك لا تصدقنا -والحالة هذه- لو كنَّا عندك صادقين، فكيف وأنت تتهمنا في ذلك؛ لأنَّك خشيت أن يأكله الذئب، فأكله الذئب، فأنت معذور في تكذيبك لنا؛ لغرابة ما وقع وعجيب ما اتَّفق لنا في أمرنا هذا.

﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ أي: مكذوبٍ مفترًىٰ. وهذا من الأفعال التي يؤكدون بها ما تمالئوا عليه من المكيدة، وهو أنهم عمدوا إلىٰ سَخْلَةٍ[٤] -فيما ذكره مجاهد، والسُّدِّي، وغير واحد- فذبحوها، ولَطَّخُوا ثوب يوسف بدَمِهَا، موهمين أن هذا قميصه الذي أكله فيه الذِّئب، وقد أصابه مِن دمه، ولكنهم نسوا أن يَخرِقُوه، فلهذا لم [يَرُج][٥] هذا الصنيع علىٰ نَبِيِّ الله يعقوب، بل قال لهم معرضًا عن كلامهم إلىٰ ما وقع في نفسه من تمالئهم عليه: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ أي: فسأصبر صبرًا جميلًا علىٰ هذا الأمر الذي قد اتفقتم عليه، حتىٰ يفرجه الله بعَوْنِهِ ولطفه، ﴿وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ أي: علىٰ ما تذكرون من الكذب والمحال.

وقال الثوري، عن سِمَاك، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عبَّاس: ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ قال:

---

(١) الجام: إناء من فضة.

(٢) ضعيف: رواه ابن جرير (١٢/ ١٦٢)، وفيه صدقة بن عبادة وأبوه: مجهولان؛ «الجرح والتعديل» (٤/ ٤٣٣)، (٦/ ٩٦)، وهذه من الأخبار التي يغلب عليها أنَّها من الإسرائيليات.

(٣) في (ز): «تم».

(٤) السخلة: ولد الشاة من المعز والضأن، ذكرًا كان أو أنثىٰ.

(٥) في (ز): «يرجع».

لو أكله السَّبع لخَرَّقَ القميص[(١)]. وكذا قال الشعبي، والحسن، وقتادة، وغير واحدٍ.

وقال مجاهد: الصَّبر الجميل: الذي لا جَزَعَ فِيهِ.

وروىٰ هُشَيم، عن عبد الرحمن بن يحيىٰ، عن حبَّان بن أبي جَبَلَة قال: سئل رسول الله ﷺ عن قوله: ﴿فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ﴾ فقال: «صَبْرٌ لا شَكْوَىٰ فِيهِ» وهذا مرسل[(٢)].

وقال عبد الرزَّاق: قال الثوري عن بعض أصحابه أنَّه قال: ثلاث من الصبر: ألا تُحدِّث بوجعك، ولا بمصيبتك، ولا تُزَكِّي نفسك.

وذكر البخاري هاهنا حديث عائشة ﵂ في الإفك حتىٰ ذكر قولها: والله لا أجد لي ولكم مثلًا إلَّا أبا يوسف ﴿فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾[(٣)].

﴿وَجَآءَتۡ سَيَّارَةٞ فَأَرۡسَلُواْ وَارِدَهُمۡ فَأَدۡلَىٰ دَلۡوَهُۥۖ قَالَ يَٰبُشۡرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٞۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ١٩ وَشَرَوۡهُ بِثَمَنِۢ بَخۡسٖ دَرَٰهِمَ مَعۡدُودَةٖ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ٢٠﴾

يقول تعالىٰ مخبرًا عمَّا جرىٰ ليوسف ﵇ حين ألقاه إخوته، وتركوه في ذلك الجُبِّ فريدًا وحيدًا، فمكث في البئر ثلاثة أيَّام، فيما قاله أبو بكر بن عياش.

وقال محمَّد بن إسحاق: لما ألقاه إخوته جلسوا حَولَ البِئْرِ يومهم ذلك، ينظرون ما يصنع وما يُصنَع به، فساق الله له سَيَّارةً، فنزَلُوا قريبًا مِن تلك البئر، وأرسلوا واردهم -وهو الذي يتطلب لهم الماء- فلما جاء [تلك][(٤)] البئر، وأدلىٰ دلوه فيها، تشبث يوسف ﵇ فيها، فأخرجه واستبشر به، وقال: ﴿يَا بُشْرَايَ هَٰذَا غُلَامٌ﴾.

وقرأ بعض القراء: ﴿يَٰبُشۡرَىٰ﴾[(٥)] زعم السُّدِّي أنَّه اسم رجل ناداه ذلك الرجل الَّذِي أدلىٰ دلوه، معلمًا له أنَّه أصاب غلامًا. وهذا القول من السُّدِّي غريبٌ؛ لأنه لم يُسبَق إلىٰ تفسير هذه القراءة بهذا إلا في رواية عن ابن عبَّاس، والله أعلم. وإنَّما معنىٰ القراءة علىٰ هذا النحو يرجع إلىٰ القراءة الأخرىٰ، ويكون قد أضاف البُشْرَىٰ إلىٰ نفسه، وحذف ياء الإضافة وهو يريدها، كما تقول العرب: «يَا نَفْسُ اصْبِرِي» و«يا غُلَامُ أَقْبِلْ» بحذف حرف الإضافة، ويجوز الكسر حينئذٍ والرفع، وهذا منه، وتفسرها القراءة الأخرىٰ ﴿يَا بُشْرَايَ﴾ والله أعلم.

وقوله: ﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةٗۚ﴾ أي: وأَسَرَّه الواردون مِن بقية السَّيَّارة، وقالوا: اشتريناه وتبضَّعناه مِن

---

(١) حسن: رواه الطبري (١٢/ ١٦٤)، وابن أبي حاتم (٧/ ١١٣٩٠).

(٢) مرسل: رواه ابن جرير (١٢/ ١٦٦).

(٣) البخاري (٤٦٩٠، ٤٦٩١). والحديث عند مسلم أيضًا (٢٧٧٠).

(٤) في (ز): «ذلك».

(٥) متواترة: قَرَأَ (يَا بُشْرَىٰ) عَاصِمٌ وَحَمْزَةُ وَالْكِسَائِيُّ وَخَلَفٌ (فِي اخْتِيَارِهِ) وَوَافَقَهُمُ الْأَعْمَشُ وَابْنُ مُحَيْصِنٍ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ (يَا بُشْرَايَ).

أصحاب الماء مخافة أن يشاركوهم فيه إذا علموا خبره. قاله مجاهد، والسُّدِّي، وابن جرير. هذا قول.

وقال العوفي، عن ابن عبَّاس قوله: ﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً﴾ يعني: إخوة يوسف، أَسَرُّوا شأنه، وكتموا أَن يكون أخاهم، وكتم يوسف شَأْنَهُ مخافة أن يَقْتُلَه إخوته، واختار البيع. فذكره إخوته لوَارِدِ القوم، فنادىٰ أصحابه: ﴿يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ﴾ يُبَاع، فباعه إخوته.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾[(١)] أي: يعلم ما يَفْعَلُهُ إخوة يوسف [ومشتروه][(٢)]، وهو قادرٌ علىٰ تغيير ذلك ودفعه، ولكن له حكمةٌ وقَدَرٌ سابقٌ، فترك ذلك ليمضي ما قَدَّره وقضاه، ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٥٤)﴾.

وفي هذا تعريضٌ لرسوله محمَّدٍ ﷺ، وإعلامٌ له بأنِّي عالمٌ بأذىٰ قومك، وأنَا قادرٌ علىٰ الإنكار عليهم، ولكنِّي سأُمْلِي لهم، ثمَّ أجعل لك العاقبة والحكم عليهم، كما جعلت ليُوسُفَ الحكم والعاقبة علىٰ إخوته.

وقوله: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾ يقول تعالىٰ: وبَاعَه إخوته بثمنٍ قليلٍ، قاله مجاهد وعِكْرِمة.

والبَخْسُ: هو النقص، كما قال تعالىٰ: ﴿فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾ [الجن: ١٣] أي: اعتاض عنه إخوته بثمنٍ دُونٍ قليلٍ، وكانوا مع ذلك فيه من الزَّاهدين؛ أي: ليس لهم رغبة فيه، بل لو سُئِلُوهُ بلا شيءٍ لأجابوا.

قال ابن عبَّاس، ومجاهد، والضَّحَّاك: إن الضمير في قوله: ﴿وَشَرَوْهُ﴾ عائد علىٰ إخوة يوسف.

وقال قتادة: بل هو عائدٌ علىٰ السَّيَّارة.

[والأول أقوىٰ؛ لأنَّ قوله: ﴿وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾ إنَّما أراد إخوته، لا أولئك السَّيَّارة؛][(٣)] لأن السَّيَّارة استبشروا به وأَسَرُّوه بضاعة، ولو كانوا فيه زاهدين لما اشتروه، فيُرَجَّح مِن هذا أنَّ الضمير في ﴿وَشَرَوْهُ﴾ إنَّما هو لإخوته.

وقيل: المراد بقوله: ﴿بَخْسٍ﴾ الحَرَام. وقيل: الظُّلم. وهذا وإن كان كذلك، لكن ليس هو المراد هنا؛ لأنَّ هذا معلوم يعرفه كل أحدٍ أنَّ ثمنه حرامٌ علىٰ كل حالٍ، وعلىٰ كلِّ أحدٍ؛ لأنَّه نبيٌّ ابن نبيٍّ، ابن نبيٍّ، ابن خليل الرَّحمن، فهو الكريم، ابن الكريم، ابن الكريم، ابن الكريم، وإنَّما المراد هنا بالبَخْس: النَّاقص أو الزُّيوف أو كلاهما؛ أي: إنهم إخوته، وقد باعوه -ومع هذا- بأَنْقَصِ الأثمان؛ ولهذا قال: ﴿دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾ فعن ابن مسعود باعوه بعشرين درهمًا[(٤)]، وكذا قال ابن عبَّاس[(٥)]، ونَوْف البَكَالي،

---

(١) في (ز): «والله عليم بما يفعلون». (٢) في (ز): «ستروه».

(٣) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

(٤) **ضعيف**: رواه الطبري (١٢/ ١٧٢)، وإسناده منقطع بين أبي عبيدة وابن مسعود.

(٥) **ضعيف**: رواه الطبري (١٢/ ١٧٣)، وابن أبي حاتم (٧/ ١١٤٢٤)، وفي إسناده انقطاع، ورواه من طريق آخر، وفيه مسلم بن كيسان الملائي: ضعيف.

والسُّدِّي، وقتادة، وعطية العَوْفي وزاد: اقتسموها درهمين درهمين.

وقال مجاهد: اثنان وعشرون درهمًا.

وقال محمَّد بن إسحاق وعِكْرِمة: أربعون درهمًا.

وقال الضَّحَّاك في قوله: ﴿وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾ وذلك أنهم لم يعلموا نُبُوَّته ومنزلته عند الله ﷻ.

وقال مجاهد: لمَّا باعوه جعلوا يتبعونهم ويقولون لهم: اسْتَوْثِقُوا منه لا يأبق حتىٰ وَقَفُوه بمصر، فقال: مَن يبتاعني ولْيُبْشِر؟ فاشتراه الملك، وكان مسلمًا.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾

يخبر تعالىٰ بألطافه بيوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ [أنَّه][1] قيَّض له الَّذي اشتراه من مصر، حتىٰ اعتنىٰ به وأكْرَمَهُ، وأوصىٰ أهله به، وتوسَّم فيه الخير والفلاح، فقال لامرأته: ﴿أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾، وكان الَّذي اشتراه مِن مصر عزيزها، وهو الوزير بها. [قال][2] العوفي، عن ابن عبَّاس: وكان اسمه: قِطْفِير[3]. وقال محمَّد بن إسحاق: اسمه: إِطْفِير بن روحيب، وهو العزيز، وكان علىٰ خَزَائِن مصر، وكان الملك يومئذٍ: الرَّيَّان بن الوليد، رجلٌ مِن العماليق، قال: واسم امرأتِهِ: رَاعِيلَ بنت [رَعَائِيل][4]. وقال غيره: اسمها: زليخا. وقال محمَّد بن إسحاق أيضًا، عن محمَّد بن السائب، عن أبي صالح، عن ابن عبَّاس: كان الَّذي باعه بمصر مالك بن دعر بن بُويب بن عنقا بن مديان بن إبراهيم[5]، فالله أعلم.

وقال أبو إسحاق، عن أبي عبيدة، عن عبد الله بن مسعود أنَّه قال: أفرس الناس ثلاثة: عزيز مصر حين قال لامرأته: ﴿أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ﴾، والمرأة التي قالت لأبيها عن موسىٰ: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦]، وأبو بكر الصِّدِّيق حين استخلف عمر بن الخطاب رضي الله عنهما[6].

يقول تعالىٰ: وكما أنقذنا يوسف من إخوته، ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يعني: بلاد مصر، ﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ قال مجاهد والسُّدِّي: هو تعبير الرُّؤيا، ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾ أي إذا أراد شيئًا فلا يُرَدُّ ولا يُمَانَعُ ولا يُخَالَفُ، بل هو الغَالِبُ لما سواه.

---

(١) في (ز): «أن». (٢) بياض في (ز).

(٣) **ضعيف**: رواه الطبري (١٢/ ١٧٤)، وفيه عطية العوفي: شيعي مدلس.

(٤) في (ز): «رعابيل». (٥) رواه الطبري (١٢/ ١٧٥)، وإسناده منقطع.

(٦) رواه الطبري (١٢/ ١٧٦)، وإسناده منقطع بين أبي عبيدة وابن مسعود، لكنَّه تُوبع، فقد رواه الطبري (١٢/ ١٧٥)، والحاكم(٢/ ٣٤٥)، من طريق أخرىٰ صحيحة.

قال سعيد بن جبير في قوله: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ﴾ أي: فعَّالٌ لما يشاء[١].

وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ يقول: لا يَدْرُون حكمته في خلقِهِ، وتلطفِهِ [وفعله][٢] لما يُريدُهُ.

وقوله: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ﴾ أي: يوسف عليه السلام ﴿أَشُدَّهُۥٓ﴾ أي: اسْتكْمَلَ عقله وتَمَّ خلقه. ﴿ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمًا وَعِلۡمًا﴾ يعني: النُّبوَّة، إنَّه حَبَاهُ بها بين أولئك الأقوام، ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ أي: إنَّه كان محسنًا في عمله، عاملًا بطاعة ربِّه تعالىٰ.

وقد اختُلِف في مقدار المُدَّة التي بلغ فيها أَشُدَّه، فقال ابن عبَّاس ومجاهد وقتادة: ثلاثٌ وثلاثون. وعن ابن عبَّاس: بضع وثلاثون. وقال الضَّحَّاك: عشرون. وقال الحسن: أربعون سنةً. وقال عكرمة: خمس وعشرون سنةً. وقال السُّدِّي: ثلاثون سنةً. وقال سعيد بن جبير: ثمانية عشرة سنةً. وقال الإمام مالك، وربيعة، وزيد بن أسلم، والشعبي: الأَشُدُّ: الحُلُمُ. وقيل غير ذلك، والله أعلم.

﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٣﴾

يخبر تعالىٰ عن امرأة العزيز التي كان يوسف في بَيْتِهَا بمصر، وقد أوصاها زوجها به وبإِكْرَامِهِ، [فراودته][٣] عن نفسه، ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ﴾ أي: حاولته علىٰ نفسه، ودَعَتْهُ إليها، وذلك أنَّها أحبته حبًّا شديدًا لجماله وحُسْنِهِ وبهائه، فحملها ذلك علىٰ أن تجمَّلت له، وغلَّقتْ عليه الأبواب، ودعته إلىٰ نفسها، ﴿وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَ﴾ فامتنع من ذلك أَشدَّ الامتناع، و﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ﴾ وكانوا يطلقون «الرَّبَّ»[٤] علىٰ السَّيِّد والكبير؛ أي: إن بعلك ربي ﴿أَحۡسَنَ مَثۡوَايَ﴾ أي: مَنْزِلي وأحسن إِلَيَّ، فلا أقابله بالفاحشة في أهله، ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ قال ذلك مجاهد، والسُّدِّي، ومحمَّد بن إسحاق، وغيرهم.

---

(١) قال القرطبي رحمه الله: قالت الحكماء في هذه الآية: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ﴾ [يوسف:٢١] حيث أمره يعقوب ألا يقص رؤياه علىٰ إخوته فغلب أمر الله حتىٰ قصَّ، ثم أراد إخوته قتله فغلب أمر الله حتىٰ صار ملكًا وسجدوا بين يديه، ثم أراد الإخوة أن يخلو لهم وجه أبيهم فغلب أمر الله حتىٰ ضاق عليهم قلب أبيهم، وافتكره بعد سبعين سنة أو ثمانين سنة، فقال: ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ [يوسف:٨٤] ثم تدبروا أن يكونوا من بعده قوما صالحين؛ أي: تائبين، فغلب أمر الله حتىٰ نسوا الذنب وأصروا عليه حتىٰ أقروا بين يدي يوسف في آخر الأمر بعد سبعين سنةً، وقالوا لأبيهم: ﴿إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ﴾ [يوسف:٩٧] ثم أرادوا أن يخدعوا أباهم بالبكاء والقميص فغلب أمر الله فلم ينخدع، وقال: ﴿بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرًاۖ﴾ [يوسف: ١٨] ثم احتالوا في أن تزول محبته من قلب أبيهم، فغلب أمر الله فازدادت المحبة والشوق في قلبه، ثم دبرت امرأة العزيز أنها إن ابتدرته بالكلام غلبته، فغلب أمر الله حتىٰ قال العزيز: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلۡخَاطِـِٔينَ﴾ [يوسف: ٢٩]، ثم دبر يوسف أن يتخلص من السجن بذكر الساقي فغلب أمر الله فنسي الساقي، ولبث يوسف في السجن بضع سنين.

(٢) سقطت من (ز). (٣) سقط من (ز). (٤) سقط من (ز).

وقد اختلف القُرَّاء في قراءة: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾[1] فقرأه كثيرون بفتح الهاء، وإسكان الياء، وفتح التَّاء. وقال ابن عبَّاس، ومجاهد، وغير واحدٍ: معناه: أنَّها تدعوه إلىٰ نفسها. وقال علي بن أبي طلحة، والعوفي، عن ابن عبَّاس: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ تقول: هَلُمَّ لك. وكذا قال زِرُّ بن حبيش، وعِكْرِمة، والحسن، وقتادة.

قال عمرو بن [عبُيد][2]، عن الحسن: وهي كلمةٌ بالسُّرْيَانِيَّة؛ أي: عليك.

وقال السُّدِّي: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ أي: هَلُمَّ لك، وهي بالقبطيَّة.

وقال مجاهد: هي لغة [عربيَّة][3] تَدْعُوهُ بِهَا.

وقال البخاري: وقال عكرمة: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ هَلُمَّ لك بالحورَانية.

هكذا ذكره معلَّقًا، وقد أسنده الإمام أبو جعفر بن جرير: حدَّثني أحمد بن [سُهَيْل][4] الواسطي، حدَّثنا قُرَّة بن قيسي، حدَّثنا النضر بن عربي الجَزَري، عن عكرمة مولىٰ ابن عبَّاس في قوله: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ قال: هَلُمَّ لك. قال: هي بالحورَانيَّة.

وقال أبو عبيد القاسم بن سلام: وكان الكسائي [يحكي][5] هذه القراءة -يعني: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾- ويقول: هي لغة لأهل حوران، وقعت إلىٰ أهل الحجاز، معناها: تَعَالَ. وقال أبو عبيد: سألت شيخًا عالمًا من أهل حورَان، فذكر أنَّها لغتهم يعرفها.

واستشهد الإمام ابن جرير علىٰ هذه القراءة بقول الشاعر لعلي بن أبي طالب ﷺ:

أَبْلِغْ أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ ... أَخَا العِرَاقِ إِذَا أَتَيْنَا

إِنَّ العِرَاقَ وَأَهْلَهُ ... [عُنُقٌ][6] إِلَيْكَ فَهَيْتَ هَيْتَا[7]

يقول: فتعالَ واقتربْ.

وقرأ ذلك آخرون: ﴿هِئْتُ لَكَ﴾ بكسر الهاء والهمزة، وضَمِّ التاء؛ بمعنىٰ: تهَيَّأت لك، من قول القائل: هئت للأمر أهِيءُ [هيْئَةً][8]، وممن رُوِيَ عنه هذه القراءة ابن عبَّاس، وأبو عبد الرحمن السُّلَمِي، وأبو وائل، وعكرمة، وقتادة، وكلهم يفسرها بمعنىٰ: تَهَيَّأت لك.

قال ابن جرير: وكان أبو عمرو والكسائي يُنْكِرَان هذه القراءة. وقرأ عبد الله بن إسحاق[9] ﴿هَيْتِ﴾[10] بفتح الهاء وكسر التاء: وهي غريبةٌ.

---

(١) متواترة: قَرَأَ (هِيتَ) نَافِعٌ وَابْنُ عَامِرٍ وَأَبُو جَعْفَرٍ وَابْنُ ذَكْوَانَ وَوَافَقَهُمُ ابْنُ مُحَيْصِنٍ بِخُلْفٍ عَنْهُ وَلَهُ فِيهَا (هَيْتِ) (هِيتُ) (هِئْتِ) (هِيتِ)، وَقَرَأَ (هِئْتَ) هِشَامٌ بِخُلْفٍ عَنْهُ، وَقَرَأَ (هِئْتُ) هِشَامٌ فِي وَجْهِهِ الثَّانِي، وَقَرَأَ (هَيْتُ) ابْنُ كَثِيرٍ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ (هَيْتَ).

(٢) سقط من (ز).

(٣) في (ز): «غريبة»، والمثبت موافق لما ورد في «الطبري» عن مجاهد. ط: الشيخ شاكر (١٦/ ٢٧).

(٤) في (ز): «سهل»، وهو خطأ. (٥) في (ز): «يحب». (٦) في (ز): «عتق».

(٧) عُنُقٌ إليك: مائلون إليك. (٨) في (ز): «هئية». (٩) في (ز): «بن أبي إسحاق»، وهوخطأ.

(١٠) شاذة: قَرَأَ (هَيْتِ) ابْنُ مُحَيْصِنٍ، سَبَقَ بيان مَا فِيهَا مِنَ الْمُتَوَاتِرِ.

وقرأ آخرون؛ منهم عامَّةُ أهل المدينة «هَيْتُ» بفتح الهاء، وضَمِّ التَّاء، وأنشد قول الشاعر:

لَــيْسَ قَــوْمِي بِالأَبْعَــدِينَ إِذَا مَــا قَــالَ دَاعٍ مِــنَ العَــشِيرَةِ: هَيْــتُ

قال عبد الرزَّاق: أنبأنا الثوري، عن الأعمش، عن أبي وائل قال: قال ابن مسعود: قد سَمِعْت القرَأَة فسمعتهم متقاربين، فاقرءوا كما عُلِّمتم، وإيَّاكم والتَّنطُّع والاختلاف، فإنَّما هو كقول أحدكم: «هَلُمَّ» و«تَعَالَ» ثم قرأ عبد الله: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ فقال: يا أبا عبد الرحمن، إنَّ ناسًا يقرءونها: «هَيْتُ»؟ فقال عبد الله: إنِّي أقرأها كما عُلِّمت، أَحَبُّ إلي[(١)].

وقال ابن جرير: حدَّثني ابن وَكيع، حدَّثنا ابن عُيَيْنة، عن منصور، عن أبي وائل قال: قال عبد الله: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ فقال له مسروق: إنَّ ناسًا يقرءونها: «هَيْتُ لَكَ»؟ فقال: دعوني، فإنِّي أقرأ كما أُقْرِئتُ، أحبُّ إليَّ[(٢)].

وقال أيضًا: حدَّثني المثنىٰ، حدَّثنا آدم بن أبي إياس، حدَّثنا شعبة، عن شقيق، عن ابن مسعود قال: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ بنصب الهاء والتَّاء ولا تهمز[(٣)].

وقال آخرون: «هِيتُ لَكَ» بكسر الهاء، وإسكان الياء، وضم التاء[(٤)].

قال أبو [عُبيدة][(٥)] معمر بن المثنىٰ: «هَيْتَ» لا تثنىٰ ولا تجمع ولا تؤنث، بل يخاطب الجميع بلفظٍ واحدٍ، فيقال: هَيْتَ لَكَ، وهَيْتَ لَكِ، وَهَيْتَ لَكُمَا، وَهَيْتَ لَكُمْ، وَهَيْتَ لَهُنَّ.

﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ[(٦)] (٢٤)﴾

[اختلفت][(٧)] أقوال النَّاس وعباراتهم في هذا المقام، وقد رُوِيَ عن ابن عبَّاس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وطائفة من السَّلف في ذلك ما ذكره ابن جرير وغيره، والله أعلم.

وقال بعضهم: المراد بهمِّه بها هَمُّ خَطَراتٍ وحديثُ النَّفْس. حكاه البغوي عن بعض أهل التَّحْقِيق، ثم أورد البغوي هاهنا حديث عبد الرزَّاق، عن مَعْمَر، عن همام، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله

(١) **صحيح**: رواه عبد الرزاق (٢/ ٣٢٠)، والطبري (١٢/ ١٨١)، وابن أبي حاتم (٧/ ١١٤٦٥).
ورواه البخاري (٤٦٩٢)، وأبو داود (٤٠٠٤، ٤٠٠٥) مختصرًا.

(٢) رواه الطبري (١٢/ ١٨٢)، وفي إسناده سفيان بن وكيع: ضعيف، لكن يشهد له الرواية السابقة.

(٣) **صحيح**: رواه الطبري (١٢/ ١٨٢)، والحاكم (٢/ ٣٤٦)، وقال: صحيح علىٰ شرط الشيخين، ووافقه الذهبي.

(٤) **شاذة**: قرأ (هِيتُ) ابنُ مُحَيْصِنٍ، سَبَقَ بَيَانُ مَا فِيهَا مِنَ الْمُتَوَاتِرِ قريبًا.

(٥) في (ز): «عبيد».

(٦) **قال السعدي** رحمه الله: هذه المحنة العظيمة أعظم علىٰ يوسف من محنة إخوته، وصبره عليها أعظم أجرًا؛ لأنه صبر اختيارٍ مع وجود الدواعي الكثيرة؛ لوقوع الفعل، فقدم محبة الله عليها، وأما محنته بإخوته، فصبره صبر اضطرارٍ، بمنزلة الأمراض والمَكارِهِ التي تصيب العبد بغير اختياره، وليس له ملجأٌ إلا الصبر عليها، طائعًا أو كارهًا.

(٧) في (ز): «اختلف».

ﷺ: «يَقُولُ اللهُ تَعَالَىٰ: إِذَا هَمَّ عَبْدِي بِحَسَنَةٍ فَاكْتُبُوهَا لَهُ حَسَنَةً، فَإِنْ عَمِلَهَا فَاكْتُبُوهَا لَهُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، وَإِنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا فَاكْتُبُوهَا حَسَنَةً، فَإِنَّمَا تَرَكَهَا مِنْ جَرَّائِي، فَإِنْ عَمِلَهَا فَاكْتُبُوهَا بِمِثْلِهَا»(١).

وهذا الحديث مخرَّجٌ في «الصحيحين» وله ألفاظٌ كثيرةٌ، هذا منها(٢).

وقيل: هَمَّ بضَرْبِهَا. وقيل: تمنَّاها زوجةً. وقيل: ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾ أي: فلم يهمَّ بها. وفي هذا القول نظرٌ من حيث العربية، ذكره ابن جرير وغيره(٣).

وأمَّا البرهان الذي رآه ففيه أقوالٌ أيضًا: فعن ابن عبَّاس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، ومحمَّد بن سيرين، والحسن، وقتادة، وأبي صالح، والضَّحَّاك، ومحمَّد بن إسحاق، وغيرهم: رأىٰ صورة أبيه يعقوب عليه السلام عاضًا علىٰ أصبعه [بفَمِهِ](٤).

وقيل عنه في رواية: فضرب في صدر يوسف(٥).

وقال العوفي، عن ابن عبَّاس: [رأىٰ](٦) خيال المَلِك؛ يعني: سَيِّدَه(٧)، وكذا قال محمَّد بن إسحاق، فيما حكاه عن بعضهم: إنما هو خيال [إِطْفِير](٨) سَيِّدِه، حين دنا من الباب.

وقال ابن جرير: حدَّثنا أبو كُرَيْب، حدَّثنا وكيع، عن أبي مودود، سمعت من محمَّد بن كعب القُرَظي قال: رفع يوسف رأسه إلىٰ سقف البيت، فإذا كتاب في حائط البيت: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢]

وكذا رواه أبو مَعْشَر المدني، عن محمَّد بن كعب.

وقال عبد الله بن وهب، أخبرني نافع بن يزيد، عن أبي صَخْرٍ قال: سمعت القرظيَّ يقول في: «البرهان»

---

(١) رواه البغوي في «شرح السنة» (٤١٤٨)، ورواه البخاري (٧٥٠١)، ومسلم (١٣٠)، والترمذي (٣٠٧٥)، والنسائي (١١١٨١)، وهو ثابت في «الصحيحين» بألفاظ متقاربة كما ذكر المصنف.

(٢) البخاري (٧٥٠١)، ومسلم (١٢٨).

(٣) قال أبوحيان الأندلسي رحمه الله: «طَوَّل المفسِّرون في تفسير هذين الهَمَّيْن، ونسب بعضهم ليوسف ما لا يجوز نسبته لآحاد الفسَّاق، والذي أختارُهُ أن يوسف عليه السلام لم يقع منه همٌّ بها البتَّة، بل هو منفيٌّ لوجود رؤية البرهان، كما تقول: لقد قارفت لولا أن عَصَمَك الله، ولا تقول: إنَّ جواب «لولا» متقدِّم عليها -وإنْ كان لا يقوم دليل علىٰ امتناع ذلك- بل صريح أدوات الشَّرط العاملة مختلف في جواز تقديم أجوبتها عليها، وقد ذهب إلىٰ ذلك الكوفيون، ومن أعلام البصريين: أبو زيد الأنصاري، وأبو العبَّاس المبرد. بل نقول: إنَّ جواب «لولا» محذوف لدلالة ما قبله عليه... وقد طهَّرنا كتابنا هذا عن نقلِ ما في كتب التَّفسير ممَّا لا يليق ذكره، واقتصرنا علىٰ ما دلَّ عليه لسان العرب ومساق الآيات التي في هذه السورة، مما يدلُّ علىٰ العصمة، وبراءة يوسف عليه السلام من كل ما يشين». «البحر المحيط» (٥/ ٢٩٤- ٢٩٥)، و«أضواء البيان» (٣/ ٦٦- ٨٠) ط. عالم الفوائد.

(٤) في (ز): «بعظمه».

(٥) رواه الطبري (١٢/ ١٨٧)، والحاكم (٢/ ٣٤٦)، وصحَّحه علىٰ شرط الشَّيخين، ووافقه الذَّهبيُّ، والإسناد صحيح. لكن ليس له حكم المرفوع؛ لأنَّه مِن رواية ابن عبَّاس، وهو ممَّن أخذ مِن كتب بني إسرائيل.

(٦) سقط من (ز).

(٧) ضعيف: رواه الطبري (١٢/ ١٩٠)، وفيه عطية العوفي: شيعي مدلس.

(٨) في (ز): «إظفير».

الذي رأىٰ يوسف: ثلاث آياتٍ مِن كتاب الله ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ﴾ الآية [الانفطار: ١٠]، وقوله: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ﴾ الآية [يونس: ٦١]، وقوله: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٣] قال نافع: سَمِعْتُ أبا هلالٍ يقول مثل قول القرظي، وزاد آيةً رابعةً ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ﴾ [الإسراء: ٣٢].

وقال الأوزاعي: رأىٰ آيةً مِن كتاب الله في الجدار تَنْهَاهُ عَن ذلك.

قال ابن جرير: والصَّواب أن يُقَال: إنَّه رأىٰ مِن آيات الله ما زجره عمَّا كان هَمَّ به، وجائزٌ أَن يكون صورة يعقوب، وجائزٌ أن يكون [صورة][1] الملك، وجائزٌ أن يكون ما رآه مكتوبًا من الزَّجر عن ذلك. ولا حُجَّة قاطعةً علىٰ تعيين شيءٍ مِن ذلك، فالصواب أن يُطْلَق كما قال الله تعالىٰ[2].

قال: وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ﴾ أي: كما أريناه برهانًا صرفه عمَّا كان فيه، كذلك نَقِيهِ السُّوء والفحشاء في جميع أموره.

﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ أي: من المجتبين المُطَهَّرِين المختارين المُصْطَفَيْنَ الأخيار، صلوات الله وسلامه عليه.

﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾﴾

يخبر تعالىٰ عن حالهما حين خرجا يَسْتَبِقَان إلىٰ الباب، يوسف هارب، والمرأة تطلبه ليرجع إلىٰ البيت، فَلَحِقَتْه في أثناء ذلك، فأمسكت بقميصِهِ [مِن ورائه][3] فَقَدَّته قدًّا فظيعًا، يقال: إنَّه سقط عنه،

---

(١) سقط من (ز).

(٢) قال الدكتور أبو شهبة رَحَمَهُ ٱللَّهُ: (وقد مَرَّ بها ابنُ كثير بعد أن نقلها حاكيًا من غير أن ينبه إلىٰ زيفها، وهو الناقد البصير)، ثم قال: (ولو أن عربيدًا رأىٰ صورة أبيه بعد مماته تحذره من معصية لكف عنها، وانزجر، فأيُّ فضل ليوسف إذًا، وهو نبي من سلالة أنبياء؟!! ثم كيف يتفق ما حِيك حول نبي الله يوسف عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وقول الله -تباركَ وتعالىٰ- عقب ذكر الهم: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف:٢٤].... بل كيف يتفق ما روي هنا وما حكاه الله عَزَّوَجَلَّ عن زليخا بطلة المراودة، من قولها: ﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [يوسف:٥١]، وهو اعتراف صريح من البطلة التي أعيتها الحيل عن طريق التزين حينًا، والتودد بمعسول القول حينًا آخر، والإرهاب والتخويف حينًا ثالثًا، فلم تفلح: ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ [يوسف:٣٢]، وانظر ماذا كان جواب السيد العفيف، الكريم ابن الكريم، ابن الكريم، ابن الكريم، يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم صلوات الله وسلامه: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾﴾ [يوسف]. اهـ «الإسرائيليات والموضوعات» (٢٢٠- ٢٢٥).

(٣) سقط من (ز).

واستمرَّ يوسف هاربًا ذاهبًا، وهي في إثره، فألفيا سيدها -وهو زوجها- عند الباب، فعند ذلك خرجت مما هي فيه بمكرها وكيدها، وقالت لزوجها مُتَنَصِّلَةً وقاذفةً يوسف بدائها: ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا﴾ أي: فاحشة، ﴿إِلَّآ أَن يُسْجَنَ﴾ أي: يحبس، ﴿أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: يضرب ضربًا شديدًا موجعًا. فعند ذلك انتصَرَ يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ بالحَقِّ، وتبرأ مما رمته به من الخيانةِ، وقال بارًّا صادقًا: ﴿هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى﴾ وذكر أَنَّها اتَّبعتْهُ تجذبه إليها حتىٰ قدَّت قميصه، ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ﴾ أي: مِن قُدَّامِهِ، ﴿فَصَدَقَتْ﴾ أي: في قولها: إنَّه أرادها علىٰ نفسها؛ لأنَّه يكون لما دعاها وأبت عليه دفعته في صدره، فقدت قميصه، فيصح ما قالت: ﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ وذلك يكون كما وقع لما هرب منها، وتطلبته أمسكت بقميصه مِن ورائه لتردَّه إليها، فقَدَّت قميصه مِن ورائه.

وقد اختلفوا في هذا الشاهد: هل هو صغير أو كبير، علىٰ قولين لعلماء السلف.

فقال عبد الرزَّاق: أخبرنا إسرائيل، عن سِمَاك، عن عِكْرِمة، عن ابن عبَّاس: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ قال: ذو لحيةٍ[(١)]. وقال الثوري، عن جابر، عن ابن أبي مُلَيْكة، عن ابن عبَّاس: كان من خاصَّة الملك[(٢)]. وكذا قال مجاهد، وعكرمة، والحسن، وقتادة، والسُّدِّي، ومحمَّد بن إسحاق: إنَّه كان رجلًا. وقال زيد بن أسلم، والسُّدِّي: كان ابن عَمِّها. وقال ابن عبَّاس: كان من خَاصَّة الملك. وقد ذكر ابن إسحاق أن زَلِيخَا كانت بنت أخت الملك الرَّيَّان بن الوليد.

وقال العوفي، عن ابن عبَّاس في قوله: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ قال: كان صبيًّا في المَهْدِ[(٣)]. وكذا رُوِيَ عن أبي هريرة[(٤)]، وهلال بن يَسَاف، والحسن، وسعيد بن جبير، والضَّحَّاك بن مُزاحم: أنَّه كان صبيًّا في الدَّار. واختاره ابن جرير.

وقد ورد فيه حديثٌ مرفوعٌ، فقال ابن جرير: حدَّثنا الحسن بن محمَّد، حدَّثنا عفان، حدَّثنا حماد -هو ابن سلمة- أخبرني عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عبَّاس، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**تكلَّمَ أَرْبَعَةٌ وَهُمْ صِغَارٌ**» فذكر فيهم شاهد يوسف[(٥)].

ورواه غيره عن حمَّاد بن سلمة، عن عطاء، عن سعيد، عن ابن عبَّاس؛ أنه قال: تكلَّم أربعةٌ وهم صغارٌ: ابن ماشطة بنت فرعون، وشاهد يوسف، وصاحب جُرَيْج، وعيسىٰ ابن مريم[(٦)].

---

(١) ضعيف: رواه الطبري (١٢/ ١٩٤)، وابن أبي حاتم (٧/ ١١٥٠٤)، ورواية سماك عن عكرمة مضطربة.

(٢) ضعيف: رواه الطبري (١٦/ ٦٤ برقم ١٩١١٢) وابن أبي حاتم (٧/ ١١٥٠٩)، وفيه جابر الجعفي: ضعيف.

(٣) ضعيف: رواه الطبري (١٢/ ١٩٤)، وفيه عطية العوفي: شيعي مدلس، ورواه ابن أبي حاتم (٧/ ١١٥٠٣) من طريق أخرىٰ، وفيه أبو سعد البقال: ضعيف مدلس، لكن يكفي للاستدلال لذلك بالحديث الآتي عن ابن عبَّاس.

(٤) ضعيف جدًّا: رواه الطبري (١٢/ ١٩٣)، وفيه شهر بن حوشب: كثير الأوهام والإرسال، وفيه أبو بكر الهذلي، لكن يكفي للاستدلال لذلك بالحديث الآتي.

(٥) حسن: ابن جرير (١٢/ ١٩٣)، وأحمد (١/ ٣٠٩)، وابن حبان (٢٩٠٤)، وحماد بن سلمة روىٰ عن عطاء قبل الاختلاط فصَحَّت روايته.

(٦) انظر التعليق السابق.

وقال ليث بن أبي سليم، عن مجاهد: كان من أمر الله، ولم يكن إنسيًّا. وهذا قولٌ غريبٌ.

وقوله: ﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ﴾ أي: فلما تحقَّق زوجها صِدْقَ يوسف وكذبها فيما قذفته ورمته به، ﴿قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ﴾ أي: إنَّ هذا البهت واللَّطخ الذي لطخت عرض هذا الشَّاب به مِن جملة كيدكن، ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾.

ثم قال آمرًا ليوسف ﷺ بكتمان ما وقع: يا ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾ أي: اضرب عن هذا الأمر صفحًا، فلا تذكره لأحدٍ، ﴿وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ﴾ يقول لامرأته، وقد كان لَيِّن العريكة سهلًا، أو أنَّه عذرها؛ لأنَّها رأت ما لا صبر لها عنه، فقال لها: ﴿وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ﴾ أي: الَّذي وقع منكِ من إرادة السُّوء بهذا الشاب، ثم قَذْفه بما هو بريء منه، استغفري من هذا الذي وقع منك، ﴿إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾.

﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَاسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾﴾

يخبر تعالىٰ أنَّ خبر يوسف وامرأة العزيز شاع في المدينة، وهي مصر، حتىٰ تحدث النَّاس به، ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ﴾ مثل نساء الأُمَراء والكُبَراء، يُنكِرْن علىٰ امرأة العزيز، وهو الوَزير، ويَعِبْنَ ذلك عليها: ﴿امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِۦ﴾ أي: تحاول غلامها عن نفسه، وتدعوه إلىٰ نفسها، ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ أي: قد وصل حُبُّه إلىٰ شغاف قلبها. وهو غلافه.

قال الضَّحَّاك عن ابن عبَّاس: الشَّغَف: الحب القاتِل، والشَّعَف دون ذلك، والشِّغاف: حجاب القلب.

﴿إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي: في صَنيعِهَا هذا من حُبِّها فتاها، ومراودتها إياه عن نفسه.

﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾ قال بعضهم: بقَوْلِهِنَّ. وقال محمَّد بن إسحاق: بل بَلَغهُنَّ حُسْنُ يوسف، فأحببن أن يَرَيْنَهُ، فقُلْنَ ذلك ليتوصلن إلىٰ رُؤْيَتِهِ ومشاهدته، فعند ذلك ﴿أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ﴾ أي: دَعَتْهُنَّ إلىٰ منزلها لِتُضيِّفَهُنَّ ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا﴾.

قال ابن عبَّاس، وسعيد بن جبير، ومجاهد، والحسن، والسُّدِّي، وغيرهم: هو المجلس المُعَدُّ، فيه مفارِشُ ومخادُّ وطعامٌ، فيه ما يُقطَّع بالسَّكاكين من [أَتْرُجٍّ][1] ونحوه. ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا﴾ وكان هذا مكيدةً منها، ومقابلةً لهن في احتيالهنَّ علىٰ رؤيته، ﴿وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾

---

(١) في (ز): «أرتج».

وذلك أنَّها كانت قد خبأته في مكانٍ آخر، ﴿فَلَمَّا﴾ خرج و﴿رَأَيۡنَهُۥٓ أَكۡبَرۡنَهُۥ﴾ أي: أعظمن شأنه، وأَجْلَلْن قدره؛ وجعلن يقطعن أيديهن دَهَشًا برؤيته، وهُنَّ يظنن أنَّهنَّ يقطعن الأُتْرُجَّ بالسكاكين، والمراد: أنَّهن حَزَّزْن أيديهن بها، قاله غير واحد.

وعن مجاهد، وقتادة: قَطَّعْن أيديهن حتىٰ أَلْقَيْنَهَا، فالله أعلم.

وقد ذكر عن زيد بن أسلم أنَّها قالت لهُنَّ بعدما أَكَلْنَ وطابت أنفسهن، ثم وضعت بين أيديهن أُتْرُجًّا وآتت كل واحدةٍ منهن سكينًا: هل لكنَّ في النظر إلىٰ يوسف؟ قلن: نعم. فبعثت إليه تأمره أن اخرج إليهن، فلما رأينه جعلن يُقَطِّعْن أيديهن، ثم أمرته أن يرجع فرجع ليرينه مقبلًا ومدبرًا، وهن يحززن في أيديهن، فلما أَحْسَسْن بالألـم جعلن يُوَلْوِلْنَ، فقالت: أَنْتُنَّ مِن نظرةٍ واحدةٍ فعلتن هكذا، فكيف أُلَامُ أنا؟ ﴿وَقُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٞ كَرِيمٞ ٣١﴾، ثم قُلْنَ لها: وما نرىٰ عليكِ مِن لوم بعد الذي رأينا؛ لأنَّهن لـم يرين في البشر شبهه ولا قريبًا منه، فإنَّه -صلوات الله عليه وسلم- كان قَد أُعْطِيَ شطر الحسن، كما ثبت ذلك في الحديث الصحيح في حديث الإسراء: أنَّ رسول الله ﷺ مَرَّ بيوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ في السَّماء الثَّالثة، قال: «**فَإِذَا هُوَ قَدْ أُعْطِيَ شَطْرَ الحُسْنِ**»(١).

وقال حمَّاد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «**أُعْطِيَ يُوسُفُ وَأُمُّهُ شَطْرَ الحُسْنِ**» وقال سفيان الثوري، [عن أبي إسحاق](٢)، عن أبي الأحوص، عن عبد الله بن مسعود قال: أعطي يوسف وأمه ثلث الحسن(٣).

وقال أبو إسحاق أيضًا، عن أبي الأحوص، عن عبد الله قال: كان وجه يوسف مثل البرق، وكانت المرأة إذا أتته لحاجةٍ غطَّىٰ وجهه مخافَةَ أن تَفْتَتِنَ به(٤).

ورواه الحسن البصري مرسلًا عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**أُعْطِيَ يُوسُفُ وَأُمُّهُ ثُلُثَ حُسْنِ أَهْلِ الدُّنْيَا، وَأُعْطِيَ النَّاسُ الثُّلُثَيْنِ -أَوْ قَالَ: أُعْطِيَ يُوسُفُ وَأُمُّهُ الثُّلُثَيْنِ وَالنَّاسُ الثُّلُثَ**»(٥).

وقال سفيان، عن منصور، عن مجاهد، عن ربيعة الجُرَشي قال: قُسِمَ الحسن نصفين، فأعطي يوسف وأمه سارَّة نصف الحسن. والنِّصف الآخر بين سائر الخلق.

وقال الإمام أبو القاسم السهيلي: معناه: أن يوسف كان علىٰ النِّصف مِن حسن آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ فإنَّ الله خلق آدم بيدِهِ علىٰ أكمل صورةٍ وأحسنها، ولم يكن في ذُرِّيَّته من يوازيه في جماله، وكان يوسف قد أعطي شطر حُسْنِهِ.

---

(١)رواه مسلم (١٦٢). (٢)سقط من (ز).

(٣)رواه الطبري (١٢/ ٢٠٧)، والحاكم (٢/ ٥٧٠) وصححه، ووافقه الذهبي، قلت: أبو إسحاق السبيعي يرسل، وقد عنعن، فالإسناد ضعيف، ثم هو معارض للحديث السابق.

(٤)رواه ابن أبي حاتم (٧/ ١١٥٦١)، وفيه أبو إسحاق. انظر التعليق السابق.

(٥) **ضعيف جدًّا**: رواه ابن جرير (١٢/ ٢٠٧)، وفيه أكثر من علة، منها: الإرسال، ومنها: سليمان بن أرقم: متروك، ومنها: محمَّد الرازي: ضعيف، ومنها المخالفة للحديث الصحيح السابق.

فلهذا قال هؤلاء النِّسوة عند رؤيته: ﴿حَٰشَ لِلَّهِ﴾ قال مجاهد وغير واحدٍ: معاذ الله، ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾ وقرأ بعضهم: «ما هذا بِشِرًى»(١) أي: بمشترًى.

﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ﴾ تقول هذا معتذرةً إليهنَّ بأن هذا حقيق بأن يحبَّ لجماله وكماله.

﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ﴾ أي: فامتنع. قال بعضهم: لما رأين جماله الظَّاهر، أخبرتهنَّ بصفاته الحسنة التي تخفىٰ عنهن، وهي العِفَّة مع هذا الجمال، ثم قالت تتوعده: ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ فعند ذلك استعاذ يوسف عليه السلام من شَرِّهِنَّ وكَيْدِهِنَّ، وقال: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ﴾ أي: من الفاحشة، ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ أي: إن وَكَلْتَنِي إلىٰ نفسي، فلَيْسَ لي مِن نفسي قدرة، ولا أملك لها ضرًّا ولا نفعًا إلا بحولك وقوَّتك، أنت المستعان وعليك التُّكلان، فلا تكلني إلىٰ نفسي فـ(٢)﴿أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ وذلك أن يوسف عليه السلام عَصَمَهُ الله عصمةً عظيمةً، وحماه فامتنع منها أشدَّ الامتناع، واختار السِّجن علىٰ ذلك، وهذا في غاية مقامات الكمال: أنَّه مع شبابه وجماله وكماله تدعوه سيدته، وهي امرأةُ عزيز مصر، وهي مع هذا في غاية الجمال والمال، والرِّياسة ويمتنع من ذلك، ويختار السِّجن علىٰ ذلك؛ خوفًا من الله ورجاء ثوابه.

ولهذا ثبت في «الصحيحين» أن رسول الله ﷺ قال: «**سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: إِمَامٌ عَادِلٌ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ اللهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ بِالمَسْجِدِ إِذَا خَرَجَ مِنْهُ حَتَّىٰ يَعُودَ إِلَيْهِ، وَرَجُلانِ تَحَابَّا فِي اللهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وافْتَرَقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّىٰ لا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا أَنْفَقَتْ يَمِينُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ جَمَالٍ وَمَنْصِبٍ، فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللهَ**»(٣).

﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾﴾

يقول تعالىٰ: ثمَّ ظهر لهم مِن المصلحة فيما رأوه أنَّهم يسجنونه إلىٰ حين؛ أي: إلىٰ مدة، وذلك بعدما عرَفُوا براءته، وظهرت الآيات -وهي الأدلة- علىٰ صدقه في عِفَّتِه ونزاهته. فكأنهم -والله أعلم- إنَّما سجنوه لما شاع الحديث إيهامًا أنَّ هذا راودها عن نفسها، وأنَّهم سجنوه علىٰ ذلك. ولهذا لما طلبه الملك الكَبير في آخر المدَّة، امتنع من الخروج حتىٰ تتبيَّن براءته مما نسب إليه من الخيانة، فلما تقرَّر ذلك خرج وهو نَقِيُّ العرض، صلوات الله عليه وسلامه. وذكر السُّدِّي: أنهم إنَّما سجنوه؛ لئلَّا يشيع ما كان منها في حَقِّه، ويبرئ عرضه فيفضحها.

---

(١) قراءة: قَرَأَ (بِشِرًى) أَبُو الْحُوَيْرِثِ الْحَنَفِيُّ وَعَبْدُ الْوَارِثِ، وَلَيْسَ فِي الْمُتَوَاتِرِ إِلَّا (بَشَرًا).

(٢) سقط من (ز).

(٣) البخاري (٦٦٠) (١٤٢٣)، (٦٤٧٩) (٦٨٠٦)، ومسلم (١٠٣١)، والترمذي (٢٣٩١)، والنسائي (٨/ ٢٢٢).

﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾

قال قتادة: كان أحدهما سَاقِي الملك، والآخر خبَّازه. قال محمَّد بن إسحاق: كان اسم الذي علىٰ الشَّراب «نبوا»، والآخر: «مجلث».

قال السُّدِّي: وكان سبب حبس الملك إيَّاهما أنَّه توهَّم أنَّهما تمالآ علىٰ سمِّه في طعامِهِ وشرابه. وكان يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ قد اشتهر في السِّجن [بالجود][1] والأمانة، وصدق الحَدِيثِ، وحسن السَّمت، وكثرة العبادة، صلوات الله عليه وسلامه، ومعرفة التَّعبير والإحسان إلىٰ أهل السِّجن، وعيادة مَرْضَاهم، والقيام بحقوقهم. ولما دخل هذان الفتيان إلىٰ السِّجن، تآلفا به، وأحبَّاه حبًّا شديدًا، وقالا له: والله لقد أحببناك حبًّا زائدًا. قال: بارك الله فيكما، إنَّه ما أَحَبَّني أحدٌ إلا دخل عليَّ مِن محبَّتِهِ ضررٌ، أَحَبَّتْنِي عَمَّتي فدخل علي الضرر بسببها، وأحبني أبي فأُوذِيتُ بسببه، وأحبتني امرأة العزيز فكذلك، فقالا: والله ما نستطيع إلا ذلك، ثم إنَّهما رأيا منامًا، فرأىٰ الساقي أنه يعصر خمرًا -يعني: عنبًا- وكذلك هي في قراءة عبد الله بن مسعود: «إنِّي أراني أَعْصِرُ عِنبًا»[2][3].

ورواه ابن أبي حاتم، عن أحمد بن سِنَان، عن يزيد بن هارون، عن شَرِيك، عن الأعمش، عن زيد ابن وهب، عن ابن مسعود: أنه قرأها: «أَعْصِرُ عِنبًا».

وقال الضَّحَّاك في قوله: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا﴾ يعني: عنبًا. قال: وأهل عمان يسمُّون العنب خمرًا.

وقال عكرمة: رأيت فيما يرىٰ النَّائم أني غرست حَبَلَة مِن عنب، فنبتت، فخرج فيه عناقيد، فعصَرْتُهُنَّ ثم سَقَيْتُهُنَّ الملك. قال تمكثُ في السجن ثلاثة أيَّام، ثم تخرج فتسقيه خمرًا.

وقال الآخر وهو الخباز: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

والمشهور عند الأكثرين ما ذكرناه، وأنهما رأيا منامًا وطلبا تعبيره.

وقال ابن جرير: حدَّثنا ابن وَكِيع وابن حميد قالا: حدَّثنا جرير، عن عمارة بن القعقاع، عن إبراهيم، عن عبد الله قال: ما رأىٰ صاحبا يوسف شيئًا، إنَّما كانا تحالما ليجربا عليه[4].

---

(١) في (ز): «بالجودة».

(٢) رواه ابن أبي حاتم (٧/ ١١٥٩٩)، وفيه شريك القاضي: صدوق سيئ الحفظ، وله متابعة، رواه الطبري (١٢/ ٢١٥)، والبخاري في «الكبير» (١/ ٢٧٤)، وفي إسناده أبو سلمة الصائغ، أورده البخاري في «التاريخ» وابن أبي حاتم في «الجرح والتعديل»، ولم يذكر فيه جرحًا ولا تعديلًا.
وبمجموع الروايتين يحسن الحديث، وقد حسَّنه الحافظ في «الفتح» (١٢/ ٣٨٢).

(٣) **قراءة:** قَرَأَ (عِنبًا) أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ وَعَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ، وَلَيْسَ فِي الْمُتَواتِرِ إِلَّا (خَمْرًا).

(٤) رواه الطبري (١٢/ ٢١٤)، وابن أبي حاتم (٧/ ١١٦٣٢)، وإسناده منقطع بين إبراهيم النخعي وابن مسعود، لكن ثبت موصولًا: رواه ابن جرير (١٢/ ٢١٤)، وابن أبي حاتم (١١٦٣١) لكن فيه انقطاع أيضًا.

﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾﴾

يخبرهما يوسف عليه السلام أنَّهما مهما رأيا في نومهما مِن حلم فإنَّه عارف بتفسيره، ويخبرهما بتأويله قبل وقوعه؛ ولهذا قال: ﴿لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا﴾.

قال مجاهد: يقول: ﴿لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ﴾ [في نَوْمِكُمَا][(١)] ﴿إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا﴾، وكذا قال السُّدِّي.

وقال ابن أبي حاتم رحمه الله: حدَّثنا علي بن الحسين، حدَّثنا محمَّد بن العلاء، حدَّثنا محمَّد بن يزيد -شيخ له- [حدَّثنا رشدين][(٢)]، عن [الحسن][(٣)] بن ثوبان، عن عِكْرِمة، عن ابن عبَّاس قال: ما أدري لعلَّ يوسف عليه السلام كان يعتاف[(٤)] وهو كذلك؛ لأنِّي أجد في كتاب الله حين قال للرجلين: ﴿لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ﴾ قال: إذا جاء الطعام حلوًا أو مرًّا اعتاف عند ذلك. [ثم][(٥)] قال ابن عبَّاس: إنَّما عُلِّم فعَلِمَ. وهذا أثر غريب[(٦)].

ثم قال: وهذا إنَّما هو مِن تعليم الله إيَّاي؛ لأني اجتنبت ملَّة الكافرين بالله واليوم الآخر، فلا يرجون ثوابًا ولا عقابًا في المعاد. ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ يقول: هَجَرْت طريق الكُفْر والشِّرك، وسلكت طريق هؤلاء المرسلين، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وهكذا يكون حال مَن سلك طريق الهُدَىٰ، واتَّبع المرسلين، وأعرض عَن طريق الظَّالمين؛ [فإنَّ الله][(٧)] يهدي قلبه، [ويعلِّمه][(٨)] ما لم يكن يَعْلَمُهُ، ويجعله إمامًا يُقْتَدَىٰ به في الخير، وداعيًا إلىٰ سبيل الرَّشاد[(٩)].

﴿مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ﴾ هذا التوحيد؛ وهو الإقرار

---

(١) سقط من (ز)، وهو مثبت من «تفسير ابن أبي حاتم».
(٢) سقط من (ز)، والصواب إثباته.
(٣) في (ز): «الحسين»، وهو خطأ.
(٤) العيافة: زجر الطير، والتَّفاؤل بأسمائها وأصواتها وممرِّها، وهو من عادة الجاهلية. وفي الحديث: «إِنَّ العِيَافَةَ، وَالطَّرْقَ، وَالطِّيَرَةَ مِنَ الجِبْتِ». رواه أحمد. والجبت: التَّكهُّن والسحر. ينظر «اللسان»: عيف، و«فتاوىٰ العثيمين» (٩/ ٥١٣). وهذا لا تفعله الأنبياء، أمَّا ما كان عند يوسف الكريم عليه السلام فهو آيات لتأْييده، وعِلْمٌ علَّمه الله.
(٥) سقط من (ز).
(٦) ضعيف: رواه ابن أبي حاتم (٧/ ١١٦٠٧)، وفيه رشدين بن سعد: ضعيف، ومعنىٰ «اعتاف» من العيافة، والمقصود هنا الظن والحدس.
(٧) في (ز): «فإنه».
(٨) في (ز): «يُعلِّم».
(٩) قال السعدي رحمه الله: والترك كما يكون للداخل في شيء ثم ينتقل عنه، يكون لمن لم يدخل فيه أصلًا. فلا يقال: إن يوسف كان -من قبل- علىٰ غير ملة إبراهيم.

بأنَّه لا إله إلا هو وحده لا شريك له، ﴿مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا﴾ أي: أوحاه إلينا، وأمرنا به، ﴿وَعَلَى ٱلنَّاسِ﴾ إذ جَعَلَنا دعاةً لهم إلىٰ ذلك، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ أي: لا يعرفون نعمة الله عليهم بإرسال الرُّسل إليهم؛ بل ﴿بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾ [إبراهيم: ٢٨].

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أحمد بن سِنَان، حدَّثنا أبو معاوية، حدَّثنا حجاج، عن عطاء، عن ابن عبَّاس؛ أنَّه كان يجعل الجد أبًا، ويقول: والله فمَن شاء لاعنَّاه عند الحِجْر، ما ذكر الله جدًّا ولا جدةً، قال الله تعالىٰ -يعني إخبارًا عن يوسف-: ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾(١).

﴿يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾﴾

ثُمَّ إنَّ يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ أقبل علىٰ الفتيَيْن بالمخاطبة، والدعاء لهما إلىٰ عبادة الله وحده لا شريك له، وَخَلْع ما سِوَاه من الأوثان التي يَعْبُدُها قومهما، فقال: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾.

أي: الَّذي وَلِيَ كلَّ شيءٍ بعزِّ جلاله، وعظمة سلطانه.

ثم بَيَّن لهما أنَّ التي يعبدونها ويسمُّونها آلهةً، إنَّما هو [جَهْلٌ](٢) منهم، وتسمية من تلقاءِ أنفسهم، تلقَّاها خَلَفُهُمْ عن سَلَفِهِمْ، وليس لذلك مستندٌ مِن عند الله؛ ولهذا قال: ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ أي: حُجَّة ولا برهان.

ثم أخبرهم أنَّ الحكم والتَّصرُّف والمشيئة والملك كلَّه لله، وقد أمر عبادَهُ -قاطبةً- ألا يعبدُوا إلا إيَّاه، ثم قال: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾؛ أي: هذا الَّذي أدعوكم إليه من تَوحيد الله، وإخلاصِ العمل له، هو الدِّين المستقيم، الذي أمر الله به، وأنزل به الحجة والبرهان الذي يُحِبُّه ويرضاه، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: فلهذا كان أكثرهم مشركين. ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣].

وقد قال ابن جريج: إنَّما عدَلَ بهم يوسف عن تعبير الرُّؤيا إلىٰ هذا؛ لأنَّه عَرَف أنَّها ضارَّةٌ لأحدهما، فأحب أن يُشْغِلَهُما بغير ذلك؛ لئلَّا يعاودوه فيها، فعاودوه، فأعاد عليهم الموعظة.

وفي هذا الذي قاله نظر؛ لأنَّه قد وَعَدَهما -أولًا- بتعبيرها، ولكن جعل سؤالهما له علىٰ وجه التَّعظِيم والاحترام وُصْلَةً وسببًا إلىٰ دعائهما إلىٰ التَّوحيد والإسلام؛ لما رأىٰ في سجِيَّتِهما من قبول الخير والإقبال [عليه](٣)، والإنصات إليه، ولهذا لما فرغ من دعوتهما، شَرَعَ في تعبير رُؤْيَاهُمَا مِن [غير](٤) تكرار سؤال، فقال:

---

(١) ضعيف: رواه الطبري (٧/ ١١٦١٢)، وفيه حجاج بن أرطأة، وهو صدوق كثير الخطإ والتدليس كما في «التقريب».
(٢) في (ز): «جعل». (٣) في (ز): «له». (٤) سقط من (ز).

﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ٤١﴾

يقول لهما: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗا﴾ وهو الَّذي رأىٰ أنه يعصر خمرًا، ولكنَّه لم يُعيِّنْه؛ لئلَّا يحزن ذاك، ولهذا أبهمه في قوله: ﴿وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦ﴾ وهو في نفس الأمر الذي رأىٰ أنه يحمل فوق رأسه خبزًا.

ثم أَعْلَمَهُمَا أنَّ هذا قد فُرِغَ منه، وهو واقعٌ لا محالة؛ لأنَّ الرُّؤيا علىٰ رِجْلِ طائرٍ ما لم تُعبَّر، فإذا عُبِّرت وَقَعت.

وقال الثوري: عن عمارة بن القعقاع، عن إبراهيم، عن عبد الله [بن مسعود](١) قال: لما قالا ما قالا وأخبرهما، قالا: ما رأينا شيئًا. فقال: ﴿قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ﴾(٢).

ورواه محمَّد بن فضيل عن عمارة، عن إبراهيم، عن علقمة، عن ابن مسعود به.

وكذا فَسَّره مجاهد، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغيرهم. وحاصله: أنَّ مَن تحلَّم بباطل وفَسَّره، فإنَّه يُلزَم بتأويله، والله أعلم، وقد ورد في الحديث الذي رواه الإمام أحمد، عن معاوية بن حَيْدَةَ، عن النَّبيِّ ﷺ: «الرُّؤْيَا عَلَىٰ رِجْلِ طَائِرٍ مَا لَمْ تُعبَّرْ، فَإِذَا عُبِّرَتْ وَقَعَتْ»(٣).

وفي «مسند أبي يَعْلَىٰ»، من طريق يزيد الرَّقاشي، عن أنس مرفوعًا: «الرُّؤْيَا لِأَوَّلِ عَابِرٍ»(٤).

﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٖ مِّنۡهُمَا ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ ٤٢﴾

لما ظَنَّ يوسف عليه السلام نجاة أحَدِهما -وهو الساقي- قال له يوسف خفيةً عن الآخر، والله أعلم؛ لئلَّا يُشعره أنَّه المصلوب؛ قال له: ﴿ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ يقول: اذكر [قضيتي](٥) عند ربك(٦) -وهو الملك- فنَسِيَ ذلك الموصَىٰ أن يُذَكِّر مولاه بذلك، وكان مِن جملة مكايد الشيطان؛ لئلَّا يطلع نبي الله من السجن.

هذا هو الصواب أنَّ الضمير في قوله: ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ﴾ عائدٌ علىٰ النَّاجي، كما قال مجاهد، ومحمَّد بن إسحاق وغير واحدٍ. ويقال: إنَّ الضمير عائدٌ علىٰ يوسف(٧) عليه السلام رواه ابن

---

(١) ليست في (ز). (٢) **صحيح**: رواه الطبري (١٢/ ٢١١)، والحاكم (٢/ ٣٤٦)، وصححه.

(٣) رواه أبو داود (٥٠٢٠)، والترمذي (٢٢٧٩)، وابن ماجة (٣٩١٤)، وقال الترمذي: حسن صحيح، وحسنه الحافظ في «الفتح» (١٢/ ٤٣٢)، وصححَّه الألباني كما في «صحيح أبي داود».

(٤) **حسن لغيره**: رواه أبو يعلىٰ (٤١٣١)، وابن ماجة (٣٩١٥)، وفي إسناده يزيد الرقاشي: ضعيف. قلت: ويشهد له الحديث السابق.

(٥) في بعض النسخ: «قصتي».

(٦) **قال القاسمي** رحمه الله: دلت الآية علىٰ جواز الاستعانة بمن هو مظنة كشف الغمة، ولو مشركًا.

(٧) قال أبو بكر الجزائري: عجبًا لبعض المفسرين كيف يرجعون الضمير في قوله: ﴿فَأَنسَىٰهُ﴾ إلىٰ الفتىٰ الخادم، ولم يرجعوه =

جرير، عن ابن عبَّاس (١)، ومجاهد أيضًا، وعِكْرِمة، وغيرهم. وأسند ابن جرير -هاهنا- حديثًا فقال:

حدَّثنا ابن وَكِيع، حدَّثنا عَمْرو بن محمَّد، عن إبراهيم بن يزيد، عن عمرو بن دينار، عن عِكْرِمة، عن ابن عبَّاس قال: قال النَّبيُّ ﷺ: «**لَوْ لَمْ يَقُلْ** -يعني: يوسف- **الكَلِمَةَ الَّتِي قَالَ: مَا لَبِثَ فِي السِّجْنِ طُولَ مَا لَبِثَ حَيْثُ يَبْتَغِي الفَرَجَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ**» (٢).

وهذا الحديث ضعيفٌ جدًّا؛ لأن سفيان بن وَكِيع ضعيف، وإبراهيم بن يزيد -هو الخُوزي- أضعف منه أيضًا. وقد رُوي عن الحسن وقتادة مرسلًا عن كلٍّ منهما، وهذه المرسَلات -هاهنا- لا تقبل لو قبل المرسل من حيث هو في غير هذا الموطن، والله أعلم.

وأما «البِضْعُ» فقال مجاهد وقتادة: هو ما بين الثَّلاث إلىٰ التِّسع. وقال وهب بن مُنَبِّه: مكث أيوب في البلاء سبعًا، ويوسف في السِّجن سبعًا، [وعذاب] (٣) بُخْتَنَصَّر سبعًا.

وقال الضَّحَّاك، عن ابن عبَّاس ﭭ: فلبث في السِّجن بضع سنين، قال: [ثنتا] (٤) عشرة سنة. وقال الضَّحَّاك: أربع عشرة سنة (٥).

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾

هذه الرُّؤيا من مَلِك مصر مما قَدَّر الله تعالىٰ [أنَّها] (٦) كانت سببًا لخروج يوسف ﷺ من السجن مُعزَّزًا مكرمًا، وذلك أنَّ المَلك رأىٰ هذه الرُّؤيا فهالته، وتَعجَّب من أمرها، وما يكون تفسيرها، فجمع

= إلىٰ يوسف ﷺ كما رجحه ابن جرير الطبري في «تفسيره»، إذ لو كان الضمير يصح رجوعه إلىٰ الخادم لكان النظم القرآني هكذا: فأنساه الشيطان ذكر يوسف عند ربه فلبث في السجن.

(١) رواه الطبري (١٢/ ٢٢٣)، وفي إسناده ابن وكيع: ضعيف.

(٢) ضعيف جـدًّا: رواه ابن جرير في «التفسير» (١٢/ ٢٢٣)، وفيه سفيان بن وكيع: ضعيف، وشيخه كذلك، وإبراهيم بن يزيد، قال ابن حبان: روىٰ مناكير كثيرة، وأوهامًا غليظة حتىٰ سبق إلىٰ القلب أنه المتعمد لها، انظر: «المجروحين» (١/ ٨٨)، وقال الحافظ: متروك الحديث (التقريب - ترجمة ٢٧٢)، ولذلك فقد ضعَّفه ابن كثير ﵀ بعد إيراده.

(٣) في (ز): «وعذب».

(٤) في (ز): «ثنتي».

(٥) ضعيف: رواه ابن أبي حاتم (٧/ ١١٦٤٥)، وفي إسناده بشر بن عمارة: ضعيف.

(٦) في (ز): «إنما».

الكهنة والحُزاة[(١)]، وكبراء دولته وأُمرَاءَهُ، وقَصَّ عليهم ما رأى، وسألهم عن تأويلها، فلم يعرفوا ذلك، واعتذرُوا إليه بأن هذه ﴿أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ﴾ أي: أخلاط اقتضت رؤياك هذه، ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ﴾ أي: ولو كانت رؤيا صحيحةً مِن أخلاط، لما كان لنا معرفة بتأويلِهَا، وهو تعبيرها. فعند ذلك تَذَكَّرَ ذلك الذي نجا من ذَيْنِك الفتيَيْن [اللَّذين][(٢)] كانا في السِّجن مع يوسف، وكان الشيطان قد أنساه ما وصَّاه به يوسف مِن ذكر أمره للمَلِكِ، فعند ذلك تذكَّر ﴿بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ أي: مدة -وقرأ بعضهم: «بعد أَمَهٍ»[(٣)] أي: بعد نسيان، فقال للملك والذين جمعهم لذلك: ﴿أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ﴾ أي: بتأويل هذا المنام، ﴿فَأَرْسِلُونِ﴾ أي: فابعثون إلىٰ يوسف الصِّدِّيق إلىٰ السِّجن. ومعنىٰ الكلام: [فبعثوه][(٤)] فجاءَه. فقال: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا﴾ وذكر المنام الذي رآه الملك، فعند ذلك ذكر له يوسف عليه السلام تعبيرها مِن غير تعنيفٍ لذلك الفتىٰ في نسيانه ما وصَّاه به، ومِن غير [اشتراط][(٥)] للخروج قبل ذلك، بل قال: ﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾ أي: يأتيكم الخَصْبُ والمطر سبع سنين متواليات، ففَسَّر البقر بالسِّنين؛ لأنَّها تثير الأرض التي تُسْتغل منها الثَّمرات والزُّروع، وهُنَّ السنبلات الخضر، ثم أرشدهم إلىٰ ما يعتمدونه في تلك السنين فقال: ﴿فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾ أي: مهما [استغللتم][(٦)] في هذه السبع [السنين][(٧)] الخصب فاخزنوه في سنبله، ليكون أبقىٰ له وأبعد عن إسراع الفساد إليه، إلا المقدار الذي تأكلونه، وليكن قليلًا قليلًا لا تُسْرِفُوا فيه، لتنتفعوا في السَّبع الشِّداد، وهُنَّ السَّبع السِّنين المُحْل التي تَعْقُب هذه السَّبع متواليات، وهُنَّ البقرات العجاف اللَّاتي يأكلن السِّمان؛ لأن [سني الجَدْب][(٨)] يُؤكَل فيها ما جَمَعوه في [سِني][(٩)] الخصب، وهن السنبلات اليابسات.

وأخبرهم أنهنَّ لا يُنْبِتْنَ شيئًا، وما بذروه فلا يرجعون منه إلىٰ شيءٍ؛ ولهذا قال: ﴿يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ﴾.

ثم بَشَّرَهُم بعد الجَدْب العام المتوالي بأنَّه يعقبهم بعد ذلك ﴿عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ﴾ أي: يأتيهم الغيث، وهو المَطرُ، [وتُغل][(١٠)] البلاد، [ويَعصرُ][(١١)] النَّاس ما كانوا يعصرون علىٰ عادتهم مِن زيت ونحوه، وسكر ونحوه، حتىٰ قال بعضهم: يدخل فيه حلب اللبن أيضًا[(١٢)].

قال علي بن أبي طلحة: عن ابن عبَّاس ﴿وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ يحلبون.

---

(١) **الحُزاة**: جمع حزاء، وهو المتكهن. (٢) في (ز): «الذين».

(٣) **شاذة**: قَرَأَ (أَمَهٍ) الْحَسَنُ، وَلَيْسَ فِي الْمُتَوَاتِرِ إِلَّا (أُمَّةٍ).

(٤) في (ز): «فبعثوا». (٥) في (ز): «أشراط». (٦) في (ز): «استغليتم».

(٧) في (ز): «سنين». (٨) في (ز): «سنين الجدب». (٩) في (ز): «سنين».

(١٠) في (ز): «وتقبل». (١١) في (ز): «وتعصر».

(١٢) **قال السعدي** رحمه الله: ولعل استدلاله علىٰ وجود هذا العام الخصب، مع أنه غير مصرح به في رؤيا الملك؛ لأنه فهم من التقدير بالسبع الشداد، أن العام الذي يليها يزول به شدتها ومن المعلوم أنه لا يزول الجدب المستمر سبع سنين متواليات، إلا بعام مخصب جدًّا، وإلا لما كان للتقدير فائدة، فلما رجع الرسول إلىٰ الملك والناس، وأخبرهم بتأويل يوسف للرؤيا، عجبوا من ذلك، وفرحوا بها أشد الفرح.

﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ ٥٠ قَالَ مَا خَطۡبُكُنَّ إِذۡ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفۡسِهِۦۚ قُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمۡنَا عَلَيۡهِ مِن سُوٓءٖۚ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٥١ ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ ٥٢ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥٣﴾

يقول تعالىٰ إخبارًا عن الملك لما رجعوا إليه بتعبير رؤياه التي كان رآها بما أعجبه وأَيْنَقَهُ[١]، فعرف فضل يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ وعلمه، [وحسن اطِّلاعه علىٰ رؤياه][٢]، وحسن أخلاقِهِ علىٰ مَن ببلده مِن رعاياه، فقال ﴿ٱئۡتُونِي بِهِۦ﴾ أي: أخرجوه من السجن وأحضروه. فلمَّا جاءه الرسول بذلك امتنع من الخروج حتىٰ يَتحقَّقَ الملك ورعيته براءة ساحَتِهِ، ونزاهة عرضه مما نسب إليه من جهة امرأةِ العزيز، [وأنَّ هذا][٣] السِّجن لم يكن عَلَىٰ أمرٍ يقتضيه، بل كان ظلمًا وعدوانًا، قال: ﴿ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ﴾.

وقد وردت السُّنَّة بمدحه علىٰ ذلك، والتَّنبيه علىٰ فضله وشرفه، [وعُلُوِّ][٤] قدره وصبره، صلوات الله وسلامه عليه، ففي «المسند» و«الصحيحين» من حديث الزهري، عن سعيد وأبي سلمة، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «نَحْنُ أَحَقُّ بِالشَّكِّ مِنْ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ قَالَ أَوَلَمۡ تُؤۡمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠]، وَيَرْحَمُ اللهُ لُوطًا لَقَدْ كَانَ يَأْوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ، وَلَوْ لَبِثْتُ فِي السِّجْنِ مَا لَبِثَ يُوسُفُ لَأَجَبْتُ الدَّاعِيَ»[٥].

وقال الإمام أحمد أيضًا: حدَّثنا عفان، حدَّثنا حمَّاد بن سلمة، حدَّثنا محمَّد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة، عن النَّبيِّ ﷺ في قوله: ﴿فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ﴾ فقال رسول الله ﷺ: «لَوْ كُنْتُ أَنَا لَأَسْرَعْتُ الإِجَابَةَ، وَمَا ابْتَغَيْتُ العُذْرَ»[٦].

وقال عبد الرزَّاق: أخبرنا ابن عُيَيْنَة، عن عمرو بن دينار، [عن عِكْرِمة][٧] قال: قال رسول الله ﷺ: «لَقَدْ عَجِبْتُ مِنْ يُوسُفَ وَصَبْرِهِ وَكَرَمِهِ -وَاللهُ يَغْفِرُ لَهُ- حِينَ سُئِلَ عَنْ البَقَرَاتِ العِجَافِ وَالسِّمَانِ، وَلَوْ كُنْتُ مَكَانَهُ مَا أَجَبْتُهُمْ حَتَّىٰ أَشْتَرِطَ أَنْ يُخْرِجُونِي، وَلَقَدْ عَجِبْتُ مِنْ يُوسُفَ وَصَبْرِهِ وَكَرَمِهِ -وَاللهُ يَغْفِرُ لَهُ- حِينَ أَتَاهُ الرَّسُولُ، وَلَوْ كُنْتُ مَكَانَهُ لَبَادَرْتُهُمُ البَابَ، وَلَكِنَّهُ أَرَادَ أَنْ يَكُونَ لَهُ العُذْرُ». هذا حديثٌ مرسلٌ[٨].

---

(١) أي: أعجبه. (٢) ليست في (ز).

(٣) في (ز): «وإن كان». (٤) في (ز): «وعليٍّ».

(٥) البخاري (٤٥٣٧)، ومسلم (١٥١، ٢٣٨)، وابن ماجة (٤٠٢٦)، وأحمد (٢/ ٣٢٦).

(٦) حسن: أحمد (٢/ ٣٤٦)، وابن جرير (١٢/ ٢٣٥)، والإسناد حسن من أجل محمَّد بن عمرو: صدوق.

(٧) سقط من (ز)، وإثباتها هو الصواب.

(٨) مرسل: وثبت موصولًا، رواه أحمد (٢/ ٣٢٣)، وابن جرير (١٢/ ٢٣٥).

وقوله تعالىٰ: ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ إخبار عن الملك حين جمع النِّسوة اللَّاتي قطَّعن أيديهنَّ عند امرأة العزيز، فقال مخاطبًا لهنَّ كلهنَّ -وهو يُرِيدُ امرأة وزيره، وهو العزيز-: ﴿مَا خَطْبُكُنَّ﴾ أي: شأنكنَّ وخبركنَّ ﴿إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ يعني: يوم الضِّيافة؟ ﴿قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾ أي: قالت النِّسوَة جوابًا للملك: حاش لله أَن يكون يوسف مُتَّهمًا، والله ما عَلِمْنَا عليه مِن سوءٍ. فعند ذلك ﴿قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ﴾.

قال ابن عبَّاس، ومجاهد، وغير واحدٍ: [تقول:](1) الآن تبيَّن الحقُّ وظهر وبرز.

﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أي: في قوله: ﴿هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى﴾. ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ﴾ تقول: إنَّما اعترفتُ بهذا علىٰ نفسي، ذلك ليعلم [زوجي](2) أنِّي لم أَخُنْهُ في نفس الأمر، ولا وقع المحذور الأكبر، وإنَّما راودت هذا الشَّاب مراودةً فامتنع؛ فلهذا اعترفتُ لِيَعْلَمَ أنِّي بريئةٌ، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾﴾.

﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ﴾ تقول المرأة: ولَسْتُ أُبرِّئُ نفسي، فإنَّ النَّفس تتحدَّث وتتمنَّىٰ؛ ولهذا راودته؛ لأنَّها أمَّارةٌ بالسُّوء ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ﴾ أي: إلا مَن عَصَمَه الله تعالىٰ ﴿إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(3).

وهذا القول هو الأشهر والأليق، والأنْسَب بسِيَاق القصَّة ومعاني الكلام. وقد حكاه الماوردي في «تفسيره»، وانتدب لنَصْرِهِ الإمام العلامة أبو العبَّاس ابن تَيميَّة رَحِمَهُ اللَّهُ فأفرده بتصنيفٍ علىٰ حِدَةٍ.

وقد قيل: إنَّ ذلك مِن كلام يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ من قوله: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ﴾ [في زوجته ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ الآيتين أي: إنما رَدَدْتُ الرَّسول لِيَعْلَم الملك براءتي وليعلم العزيز ﴿أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ﴾ في زوجته](4) ﴿بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ﴾ [إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ الآية](5) وهذا القول هو الَّذي لم يَحْكِ ابن جرير ولا ابن أبي حاتم سواه.

وقال ابن جرير: حدَّثنا أبو كُرَيْب، حدَّثنا وَكِيع، عن إسرائيل، عن سِمَاك، عن عِكْرِمة، عن ابن عبَّاس قال: لما جمع الملك النِّسوَة فسألهنَّ: هل راودتُنَّ يوسف عن نفسه؟ ﴿قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا

= لكن أشار الشيخ الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ إلىٰ الحديث موصولًا، وعزاه للكلاباذي في «مفتاح المعاني»، وساق سنده موصولًا، وقال: إسناده جيد. انظر: «الصحيحة» (١٩٤٥).

(١) في (ز): «يقول». (٢) سقط من (ز).

(٣) قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: فتأمل ما أعجب أمر هذه المرأة أقرت بالحق واعتذرت عن محبوبها، ثم اعتذرت عن نفسها، ثم ذكرت السبب الحامل لها علىٰ ما فعلت، ثم ختمت ذلك بالطمع في مغفرة الله ورحمته، وأنه إن لم يرحم عبده وإلا فهو عرضة للشر، فوازن بين هذا وبين تقدير كون هذا الكلام كلام يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ لفظًا ومعنًىٰ، وتأمل ما بين التقديرين من التفاوت، ولا يستبعد أن تقول المرأة هذا وهي علىٰ دين الشرك، فإن القوم كانوا يقرون بالرب تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وبحقه، وإن أشركوا معه غيره، ولا تنسَ قول سيدها لها في أول الحال ﴿وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ﴾ [يوسف: ٢٩].

(٤) ما بين المعقوفتين سقط من (ز). (٥) سقط من (ز).

عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ قَالَ يُوسُفُ: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ قال: فقال له جبريل عليه السلام: ولا يوم هَمَمْتَ بما هَمَمْتَ به. فقال: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾[1].

وهكذا قال مجاهد، وسعيد بن جُبَيْر، وعكرمة، وابن أبي الهُذَيل، والضَّحَّاك، والحسن، وقتادة، والسُّدِّي. والقول الأول أقوىٰ وأظهر؛ لأنَّ سياق الكلام كلَّه من كلام امرأة العزيز بحضرة الملك، ولم يكن يوسف عليه السلام عندهم، بل بَعْدَ ذلك أحضره الملك.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِىۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾﴾

يقول تعالىٰ إخبارًا عن الملك حين تَحقَّق براءة يوسف عليه السلام، ونزاهة عِرْضه مما نُسِبَ إليه، قال: ﴿ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى﴾ أي: أجعله من [خاصَّتي][2] وأهل مشورتي ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ﴾ أي: خاطبه الملك وعرفه، ورأىٰ فَضْلَهُ وبراعته، وعَلِمَ ما هو عليهِ من خَلْقٍ وخُلُقٍ وكمالٍ، قال له الملك: ﴿إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ أي: إنَّك عندنا قد بقيتَ ذا مكانةٍ وأمانةٍ، فقال يوسف عليه السلام: ﴿ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ مدح نفسه، ويجوز للرَّجل ذلك إذا جُهِل أمره للحاجَةِ. وذكر أنَّه ﴿حَفِيظٌ﴾ أي: خازن أمين، ﴿عَلِيمٌ﴾ ذو علمٍ وبصرٍ بما يتولاه.

قال شيبة بن نعامة: حفيظٌ لما استودعتني، عليمٌ [بِسِني الجَدْب][3]. رواه ابن أبي حاتم.

وسأل العمل لعلمِهِ بقدرته عليه، ولما في ذلك من [المصالح للنَّاس][4]، وإنَّما سأل أن يُجْعَل علىٰ خزائنِ الأرض، وهي الأهرام التي يجمع فيها الغلَّات؛ لما يستقبلونه من السِّنين التي أخبرهم بشَأْنِهَا؛ ليتصرف لهم علىٰ الوجه الأحوطِ والأصلح والأرشد، فأُجيب إلىٰ ذلك رغبةً فيه، وتكرِمَةً له؛ ولهذا قال تعالىٰ:

﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾

يقول تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: أرض مصر، ﴿يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ﴾.

قال السُّدِّي، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: يَتَصرَّف فيها كيف يشاء.

وقال ابن جرير: يتخذ منها منزلًا حيث يشاء بعد الضِّيق والحبس والإسار. ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن

(١) ضعيف: رواه الطبري (١٣/ ١)، وابن أبي حاتم (٧/ ١١٦٩٢)، ورواية سماك عن عكرمة مضطربة، وليس له حكم المرفوع؛ لأنَّ الصحابي إنَّما يحكم برفع كلامه في الأخبار الغيبيَّة إذا لم يأخذ مِن كتب أهل الكِتاب، ومعلوم أنَّ عبد الله بن عبَّاس ممَّن أخذوا من كتب أهل الكتاب.

(٢) في (ز): «أخصائي». (٣) في (ز): «بسنين الجذب». (٤) في (ز): «مصالح الناس».

﴿نَشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ أي: وما أضعنا صَبرَ يوسف علىٰ أذىٰ إخوته، وصبرهُ علىٰ الحَبْسِ بسببِ امرأةِ العزيز؛ فلهذا أعقبه الله ﷻ السَّلامة والنَّصر والتَّأييد، ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٥٦ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ يُخبِر تعالىٰ أنَّ ما ادَّخرَه الله لنبيِّه يوسف ﷺ في الدَّار الآخرة أعظم وأكثر وأَجلُّ ممَّا خوَّلَه من التَّصرُّف والنُّفوذ في الدُّنيا، كما قال تعالىٰ في حق سليمان ﷺ: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ٣٩ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ﴾ [ص: ٣٩، ٤٠].

والغرض أن يوسف ﷺ ولاه مَلك مصر الريانُ بن الوليد الوزارة في بلاد مصر، مكان الذي اشتراه مِن مصر زوج الَّتي راودته، وأسلم الملك علىٰ يَدَيْ يوسف ﷺ. قاله مجاهد.

وقال محمَّد بن إسحاق لما قال يوسف للملك: ﴿ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ﴾ قال الملك: قد فعلت. فولَّاه فيما ذكروا عملَ إطفير، وعزَلَ إطفير عمَّا كان عليه، يقول الله ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُۚ نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ فذكر لي -والله أعلم- أنَّ [إِطْفِير][(١)] هَلك في تلك اللَّيَالِي، وأنَّ الملك الرَّيَّان بن الوليد زوَّج يوسف امرأة إِطْفِير راعيل، وأنَّها حين دخلت عليه قال: أليس هذا خيْرًا مما كنت تُرِيدِين؟ قال: فيزعمون أنها قالت: أيها الصِّدِّيق، لا تَلُمْنِي، فإنِّي كنت امرأةً كما ترىٰ حسناءَ جميلةً، ناعمة في ملكٍ ودنيا، وكان صاحِبي لا يأتي النِّساء، وكنت كما جعلك الله في حسنك [وهيئتك][(٢)] علىٰ ما رأيت، فيَزْعُمُون أنه وجدها عذراء، فأصابها فولدت له رَجُلَيْن أفرائيم بن يوسف، وميشا بن يوسف، وولد لأفرائيم نون، والد يوشع بن نون، ورحمة امرأة أيوب ﷺ[(٣)].

وقال الفضيل بن عياض: وقفت امرأة العزيز علىٰ ظهر الطريق، حتىٰ مَرَّ يوسف، فقالت: الحمد لله الذي جعل العبيد ملوكًا بطاعته، والملوك عبيدًا بمعصيته.

﴿وَجَآءَ إِخۡوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَعَرَفَهُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ ٥٨ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ قَالَ ٱئۡتُونِي بِأَخٖ لَّكُم مِّنۡ أَبِيكُمۡۚ أَلَا تَرَوۡنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلۡكَيۡلَ وَأَنَا۠ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ ٥٩ فَإِن لَّمۡ تَأۡتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيۡلَ لَكُمۡ عِندِي وَلَا تَقۡرَبُونِ ٦٠ قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنۡهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ٦١ وَقَالَ لِفِتۡيَٰنِهِ ٱجۡعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ فِي رِحَالِهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَعۡرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ٦٢﴾

ذكر السُّدِّي، ومحمَّد بن إسحاق، وغيرهما من المفسرين: أنَّ السبب الذي أقدم إخوة يوسف بلاد مصر، أنَّ يوسف ﷺ لما باشر الوزارة بمصر، ومضت السبع سنين المخصبة، ثم تلتها سنينُ [الجدب][(٤)]، وعمَّ القحط بلاد مصر بكمالها، ووصل إلىٰ بلاد كَنْعَان، وهي [التي][(٥)] فيها يعقوب

---

(١) في (ز): «إظفير». (٢) في (ز): «هيئتك».

(٣) ضعيف: رواه الطبري (١٣/ ٦)، وابن أبي حاتم (٧/ ١١٧٢٣) من كلام ابن إسحاق، ولم يذكر له سندًا؛ فالإسناد معضل.

(٤) في (ز): «الجذب». (٥) سقط من (ز).

عَلَيْهِ السَّلَامُ وأولاده، وحينئذٍ احتاط يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ للنَّاس في غلاتهم، وجمعها أحسن جمع، فحصل مِن ذلك مبلغ عظيم، وأهْرَاء[1] متعددة هائلة، وورد عليه النَّاس مِن سائر الأقاليم والمعاملات، يَمْتَارُون لأنفسهم وعيالهم، فكان لا يُعْطِي الرجل أكثر من حمل بعير في السَّنَة. وكان عَلَيْهِ السَّلَامُ لا يشبع نفسه، ولا يأكل هو والملك وجنودهما إلا أكلةً واحدةً في وسط النَّهار، حتىٰ يتكفىٰ النَّاس بما في أيديهم مدَّة السبع سنين. وكان رحمةً مِن الله علىٰ أهل مصر.

وما ذكره بعض المفسِّرين من أنَّه باعهم في السَّنة الأولىٰ بالأموال، وفي الثانية بالمتاع، وفي الثالثة بكذا، وفي الرابعة بكذا، حتىٰ باعهم بأنفسهم وأولادهم بعدما [تَمَلَّكَ][2] عليهم جميع ما يملكون، ثم أعتقهم وردَّ عليهم أموالهم كلَّها، الله أعلم بصحَّة ذلك، وهو من الإسرائيليات التي لا تُصَدَّق ولا تُكَذَّب.

والغرض أنَّه كان في جملة من ورد للمِيرَةِ إخوةُ يوسف، عن أَمْرِ أبيهم لهم في ذلك، فإنَّه بلغهم أن عزيز مصر يُعْطِي النَّاس الطَّعام بثَمَنِهِ، فأخذوا معهم بضاعة يعتاضون بها [طعامًا][3]، وركبوا عشرة نفر، واحتبس يعقوبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ عنده بنيامين شقيق يوسف -عليهما السلام- وكان أحب ولده إليه بعد يوسف. فلمَّا دخلوا علىٰ يوسف، وهو جالسٌ في أُبَّهَتِهِ ورياسته وسيادته، عرفهم حين نظر إليهم، ﴿وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ أي: لا يعرفونه؛ لأنَّهم فارقوه وهو صغير حدَثٌ فباعوه للسَّيَّارة، ولم يدروا أين يذهبون به، ولا كانوا يَسْتَشْعِرُون في أنفسهم أن يصير إلىٰ ما صار إليه، فلهذا لم يعرفوه، وأما هو فعرفهم.

فذكر السُّدِّي وغيره: أنَّه شرع يخاطبهم، فقال لهم كالمنكر عليهم: ما أقدمكم بلادي؟ قالوا: أيُّها العزيز، إنَّا قَدِمْنَا للميرة. قال: فلعلَّكم عيون؟ قالوا: معاذ الله. قال: فمن أين أنتم؟ قالوا: مِن بلاد كنعان، وأبونا يعقوب نبيُّ الله. قال: وله أولاد غيركم؟ قالوا: نَعَم، كنا اثْنَيْ عشر، فذهب أصغرنا، هلكَ في البَرِّيَّة، وكان أحبَّنا إلىٰ أبيه، وبقي شقيقُهُ فاحتبسه أبوه ليَتَسَلَّىٰ به عنه. فأمر بإنزالهم وإكرامهم.

﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾ أي: وَفَّاهم كيلهم، وحمل لهم أحمالهم قال: ائتوني بأخيكم هذا الَّذِي ذكرتم، لأعلم صدقكم فيما ذكرتم، ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ يرغبهم في الرُّجوع إليه، ثم رَهَّبَهم فقال: ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ أي: إن لم تُقْدِمُوا به معكم في المَرَّة الثَّانية فليس لكم عندي ميرة، ﴿وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ﴾ أي: سنحرص علىٰ [مجيئه][4] إليكَ بكلِّ ممكنٍ، ولا نبقي مجهودًا لتعلم صدقنا فيما قلناه.

وذكر السُّدِّي: أنَّه أخذ منهم رهائنَ حتَّىٰ يقدموا به معهم. وفي هذا نظر؛ لأنه أحسن إليهم ورَغَّبَهُم كثيرًا، وهذا لحِرْصِهِ علىٰ رجوعهم.

---

(١) في (ز): (واهدآ)، والهُرِیٰ: بيت كبير ضخم يجمع فيه طعام السلطان، ويقال: بنىٰ الأَهْرَاء. وجمعه: أهراء.

(٢) في (ز): «يملك».

(٣) في (ز): «طعام»، والمثبت هو الصواب.

(٤) في (ز): «مجيبه».

﴿وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ﴾ أي: غلمانه ﴿ٱجْعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمْ﴾ وهي التي قدموا بها ليمتاروا عوضًا عنها ﴿فِي رِحَالِهِمْ﴾ أي: في أمتعتهم من حيث لا يشعرون، ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ بها.

قيل: خَشِيَ يوسف عليه السلام ألَّا يكون عندهم بضاعة أخرىٰ يرجعون للميرة بها. وقيل: تَذَمَّم أن يأخذ مِن أبيه وإخوته عوضًا عن الطَّعام. وقيل: أراد أن يَرُدَّهم إذا وجدوها في متاعهم تحرجًا وتورعًا؛ لأنَّه يعلم ذلك منهم، والله أعلم.

﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾﴾

يخبر تعالىٰ عنهم أنَّهم [لما][(١)] رجعوا إلىٰ أبيهم ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ﴾ يعنون بعد هذه المَرَّة، إن لم ترسل معنا أخانا بِنْيَامِين، فأرسله معنا نكتل.

وقرأ بعضهم: [بالياء[(٢)]؛ أي: يكتل][(٣)] هو، ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ أي: لا تخف عليه فإنَّه سيرجع إليك. وهذا كما قالوا له في يوسف: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾؛ ولهذا قال لهم: ﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ﴾ أي: هل أنتم صانعون به إلا كما صنعتم بأخيه مِن قبل، تُغَيِّبُونَه عني، وتَحُولون بيني وبينه؟ ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حِفْظًا[(٤)]﴾ وقرأ بعضهم: ﴿حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ أي: هو أرحم الراحمين بي، وسَيَرْحَم كِبَرِي وضعفي ووَجْدِي بوَلَدِي، وأرجو من الله أن يَرُدَّه عليَّ، ويجمع شملي به، إنه أرحم الراحمين.

﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِي هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾﴾

يقول تعالىٰ: ولما فتح إخوة يوسف متاعَهُم وجدوا بضاعتهم ردَّت إليهم، وهي التي كان أمر يوسف

---

(١) سقط من (ز).

(٢) متواترة: قَرَأَ (يَكْتَلْ) حَمْزَةُ وَالْكِسَائِيُّ وَخَلَفٌ (فِي اخْتِيَارِهِ)، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ (نَكْتَلْ).

(٣) سقط من (ز).

(٤) متواترة: قَرَأَ (خَيْرٌ حَافِظًا) حَمْزَةُ وَالْكِسَائِيُّ وَخَلَفٌ (فِي اخْتِيَارِهِ) وَحَفْصٌ وَوَافَقَهُمُ الشَّنَبُوذِيُّ وَابْنُ مُحَيْصِنٍ مِنَ الْمُفْرَدَةِ، وَقَرَأَ (خَيْرُ حَافِظٍ) الْمُطَّوِّعِيُّ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ (خَيْرٌ حِفْظًا).

فتيانه بوضعها في رحالهم، فلمَّا وجدوها في متاعهم ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي﴾ ؟ أي: ماذا نريد؟ ﴿هَٰذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾ كما قال قتادة. ما نَبْغِي وراء هذا؟ إنَّ بضاعتنا رُدَّت إلينا وقد أُوفِيَ لنا الكيل.

﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾ أي: إذا أرسلت أخانا معنا نأتي بالميرة إلىٰ أهلنا، ﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ وذلك أن يوسف عليه السلام كان يُعْطِي كلَّ رجلٍ حمل بعير. وقال مجاهد: حمل حمارٍ. وقد يسمَّىٰ في بعض اللغات «بعيرًا»، كذا قال.

﴿ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ هذا مِن تمام الكلام وتحسينه؛ أي: إنَّ هذا يسيرٌ في مقابلة أخذ أخيهم ما يعدل هذا هذا.

﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ﴾ أي: تحلفون بالعهود والمواثيق، ﴿لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ [إلا أن](١) تغلبوا كلكم ولا تَقْدِرُون علىٰ [تَخْلِيصِهِ](٢).

﴿فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ﴾ أكَّده عليهم فقال: ﴿اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾.

قال ابن إسحاق: وإنَّما فعل ذلك؛ لأنَّه لم يجد بدًّا مِن بعثهم لأجل الميرة، التي لا غنىٰ [لهم](٣) عنها، فبعثه معهم.

﴿وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ۖ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (٦٧) وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا ۚ وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٦٨)﴾

يقول تعالىٰ إخبارًا عن يعقوب عليه السلام: إنَّه أمر بَنِيهِ لما جَهَّزَهُم مع أخيهم بِنْيَامِين إلىٰ مصر، ألَّا يدخلوا كلهم مِن بابٍ واحدٍ، ولْيَدْخُلُوا مِن أبواب متفرِّقة، فإنَّه كما قال ابن عبَّاس(٤)، ومحمَّد بن كعب، ومجاهد، والضَّحَّاك، وقتادة، والسُّدِّي [وغير واحد]: إنه خشي عليهم العين، وذلك أنَّهم كانوا ذَوِي جمالٍ وهيئةٍ حسنةٍ، ومنظرٍ وبهاءٍ، فخَشِيَ عليهم أن يصيبهم النَّاس بعيونهم؛ فإنَّ العين حقٌّ، تستنزل الفارس عن فرسه(٥).

وروىٰ ابن أبي حاتم، عن إبراهيم النَّخعِي في قوله: ﴿وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾ قال: عَلِمَ أنَّه سيلقىٰ

---

(١) في (ز): «ألا». (٢) في (ز): «تحصيله». (٣) ليست في (ز).

(٤) ضعيف: رواه الطبري (١٣/ ١٣)، وفيه عطيَّة العوفي: شيعي مدلس.

(٥) قال الشوكاني رحمه الله: قد أنكر بعض المعتزلة كأبي هاشم والبلخي أن للعين تأثيرًا، وقالا: لا يمتنع أن صاحب العين إذا شاهد الشيء وأعجب به كانت المصلحة له في تكليفه أن يغير الله ذلك الشيء حتىٰ لا يبقىٰ قلب ذلك المكلف معلقًا به.
وليس هذا بمستنكر من هذين وأتباعهما، فقد صار دفع أدلة الكتاب والسنّة بمجرد الاستبعادات العقلية دأبهم وديدنهم، وأيّ مانع من إصابة العين بتقدير الله -سبحانه- لذلك؟ وقد وردت الأحاديث الصحيحة بأن العين حق، وأصيب بها جماعة في عصر النبوّة، ومنهم رسول الله ﷺ.

إخوته في بعض الأبواب.

وقوله: ﴿وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍ﴾ أي: هذا الاحتراز لا يرد قدر الله وقضاءه؛ فإنَّ الله إذا أراد شيئًا لا يخالف ولا يمانع ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَهُمۡ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغۡنِي عَنۡهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍ إِلَّا حَاجَةٗ فِي نَفۡسِ يَعۡقُوبَ قَضَىٰهَاۚ﴾ قالوا: هي دفع إصابة العين لهم، ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلۡمٖ لِّمَا عَلَّمۡنَٰهُ﴾ قال قتادة والثوري: لذو [عمل بعلمه][1]. وقال ابن جرير: لذو علم لتعليمنا إيَّاه، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾.

﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُۖ قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٦٩﴾﴾

يخبر تعالىٰ عن إِخْوَةِ يوسف لما قدموا علىٰ يوسف ومعهم أخوهُ شقيقه بنيامين، فأدخلهم دارَ كرامته ومنزل ضيافته، وأفاض عليهم الصِّلة والألطاف والإحسان، واختلىٰ بأخيه فأَطْلَعَه علىٰ شأنه وما جرىٰ له، وعرَّفه أنَّه أخوه، وقال له: «لَا تَبْتَئِسْ» أي: لا تأسف علىٰ ما صنعوا بي، وأمره بكتمان ذلك عنهم، وألا يُطْلِعَهُم علىٰ ما أطلعه عليه من أنَّه أخوه، وتواطأ معه أنه سيَحْتَالُ علىٰ أن يبقيه عنده مُعزَّزًا مكرمًا معظمًا.

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحۡلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلۡعِيرُ إِنَّكُمۡ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُواْ وَأَقۡبَلُواْ عَلَيۡهِم مَّاذَا تَفۡقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُواْ نَفۡقِدُ صُوَاعَ ٱلۡمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمۡلُ بَعِيرٖ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٞ ﴿٧٢﴾﴾

لما جهَّزهم وحَمَّل لهم أبعرتهم طعامًا، أمر بعضَ فتيانه أن يضع «السِّقَايَة»، -وهي: إناء مِن فضَّة- في قول الأكثرين. -وقيل: مِن ذهبٍ، قاله ابن زيد- كان يَشْرَب فيه ويكيل للناس به من عزَّة الطعام إذ ذاك، قاله ابن عبَّاس، ومجاهد، وقتادة، والضَّحَّاك، وعبد الرحمن بن زيد.

وقال شعبة، عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عبَّاس: ﴿صُوَاعَ ٱلۡمَلِكِ﴾ قالَ: كان من فضة يشربون فيه، وكان مثل [المكوك][2][3]، وكان للعبَّاس مثلُه في الجاهلية[4]، فوضعها في متاع بنيامين من حيث لا يشعر أحد، ثم نادىٰ منادٍ بينهم: ﴿أَيَّتُهَا ٱلۡعِيرُ إِنَّكُمۡ لَسَٰرِقُونَ﴾ فالتفتوا إلىٰ المنادي، وقالوا: ﴿مَّاذَا تَفۡقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُواْ نَفۡقِدُ صُوَاعَ ٱلۡمَلِكِ﴾ أي: صاعه الذي يكيل به، ﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمۡلُ بَعِيرٖ﴾، وهذا من باب الجُعالة[5]، ﴿وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٞ﴾ وهذا من باب الضَّمان[6] والكفالة.

---

(١) في بعض النسخ: «علم يعلمه»، والمثبت مقارب لما في «الطبري»، ولفظه: «... إنه لعامل بما علم».

(٢) في (ز): «المكول» مع العلم بأنَّ طريقة كتابة الكاف فيها هكذا (-ل)، فربما نسي الناسخ الخط فوق اللام.

(٣) **المكوك**: الصاع. (٤) **ضعيف**: رواه الطبري (١٣/١٨)، وابن أبي حاتم (٧/ ١١٨٠٠).

(٥) **الجعَالَةُ**: ما جعله له علىٰ عمله، وهو أعمُّ من الأُجْرةِ والثَّواب. «تاج العروس» (٢٨/ ٢٠٩).

(٦) **الضمان**: مصدر ضمن الشيء ضمانًا، فهو ضامن وضمين إذا كفل به، وهو مشتق من التَّضمن؛ لأنَّ ذمَّة الضَّامن تتضمن، وقيل: الضَّمان مأخوذ من الضمن، فتصير ذمَّة الضامن من ذمة المضمون. والكفالة: مصدر كفل، وهي التحمل.

﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ (٧٣) قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِن
كُنتُمْ كَاذِبِينَ (٧٤) قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٧٥) فَبَدَأَ
بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ
أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ (٧٦)﴾

لما اتَّهمَهُم أولئك الفِتْيان بالسَّرقة قال لهم إخوة يوسف: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾ أي: لقد تحقَّقْتم وعلمتم منذ عرفتمونا؛ لأنَّهم شاهدوا منهم سيرةً حسنةً، أنَّا ما جئنا للفساد في الأرض، وما كنَّا سارقين؛ أي: ليست سجايانا تقتضي هذه الصفة، فقال لهم الفتيان: ﴿فَمَا جَزَاؤُهُ﴾ أي: السارق، إن كان فيكم ﴿إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ﴾ أي: أيَّ شيء يكون عقوبته إن وجدنا [فيكم مَن أخذه][1]؟ ﴿قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾.

وهكذا كانت شريعة إبراهيم: أنَّ السَّارق يدفع إلىٰ المسروق منه. وهذا هو الذي أراد يوسف عليه السلام، ولهذا بدأ بأوعيتهم قبل وِعَاءِ أخيه؛ أي: فتشها قبله تَوْرِيَةً، ﴿ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ﴾ فأخذه منهم بحكم اعترافهم والتزامهم وإلزامًا لهم بما يعتقدونه؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ وهذا من الكيد المحبوب المراد الذي يُحِبُّه الله ويرضاه، لما فيه من الحكمة والمصلحة المطلوبة.

وقوله: ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾ أي: لم يكن له أخذه في حكم ملك مصرَ. قاله الضَّحَّاك وغيره.

وإنَّما قيَّض الله له أن التزَمَ له إخوته بما التزموه، وهو كان يعلم ذلك من شريعتهم؛ ولهذا مَدَحَهُ تعالىٰ فقال: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ﴾ كما قال تعالىٰ: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ قال الحسن البصري: ليس عالم إلا فوقه عالم، حتىٰ ينتهي إلىٰ الله عز وجل. وكذا رَوَىٰ عبد الرزَّاق، عن سفيان الثوري، عن عبد الأعلىٰ الثعلبي، عن سعيد بن جبير قال: كنَّا عند ابن عبَّاس فتحدث بحديثٍ عجيبٍ، فتعجب رجلٌ فقال: الحمد لله فوقَ كلِّ ذي علم عليم [فقال ابن عبَّاس: بئس ما قلت، الله العليم، وهو فوق كلِّ عالم. وكذا روىٰ سماك، عن عِكْرِمة، عن ابن عبَّاس: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾][2] قال: يكون هذا أعلم مِن هذا، وهذا أعلم مِن هذا، والله فوق كل عالِمٍ. [وهكذا][3] قال عكرمة[4].

---

(١) في (ز): «فيه من أخذها».
(٢) ما بين المعقوفتين سقط من (ز)، وهي مثبتة في مصادر التخريج.
(٣) في (ز): «وكذا».
(٤) الطريق الأولىٰ: رواها الطبري (١٣/ ٢٦)، وابن أبي حاتم (٧/ ١١٨٢٩)، وفيها عبد الأعلىٰ بن عامر الثعلبي: ضعيف.
والطريق الثانية: رواها الطبري (١٣/ ٢٧)، وفيها سماك عن عكرمة وهي مضطربة.

وقال قتادة: ﴿وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ﴾ حتىٰ ينتهي العلم إلىٰ الله، منه بُدئ وتعلَّمت العلماء، وإليه يعود، وفي قراءة عبد الله: «وَفَوْقَ كُلِّ عَالِمٍ[١] عليم».

﴿قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ٧٧﴾

وقال إخوة يوسف لما رأوا الصُّواع قد أخرج مِن متاع بنيامين: ﴿إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُ﴾ يَتنَصَّلون إلىٰ العزيز [من التَّشَبُّه][٢] به، ويذكرون أنَّ هذا فَعَلَ كما فَعَل أخٌ له مِن قبل، يعنون به يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ.

قال سعيد بن جبير، عن قتادة: كان يوسف قد سَرَقَ صنمًا لجَدِّه أبي أُمِّه، فكسره.

وقال محمَّد بن إسحاق، عن عبد الله بن أبي نَجِيح، عن مجاهد قال: كان أول ما دخل علىٰ يوسف من البلاء -فيما بلغني- أنَّ عمَّته ابنة إسحاق، وكانت أكبر ولد إسحاق، وكانت إليها مِنْطَقَة[٣] إسحاق، وكانوا يتوارثونها بالكِبَرِ، فكان من [اختانها][٤] ممن وَلِيَها كان له سَلَمًا لا ينازع فيه، يصنع فيه ما يشاء، وكان يعقوب حين وُلِدَ له يوسف قد حضنته عمته، فكان [منها][٥] وإليها، فلم يُحِب أحدٌ شيئًا من الأشياء حُبَّها إياه، حتىٰ إذا ترعرع وبلغ سنوات [وقعت][٦] نفس يعقوب عليه[٧] فأتاها، فقال: يا أخيَّة سلِّمىٰ إليَّ يوسف، فوالله ما أقدر علىٰ أن يغيب عني ساعةً. قالت: فوالله ما أنا بتاركته. ثم قالت: فدعه عندي أيَّامًا أنظر إليه وأسكن عنه، لعل ذلك يسلِّيني عنه -أو كما قالت. فلما خرج من عندها يعقوب، عَمَدَتْ إلىٰ مِنْطَقَةِ إسحاق، فحزمتها علىٰ يوسف مِن تحت ثيابه، ثم قالت: فقدت منطقة إسحاق ﷺ فانظروا مَن أخذها ومن أصابها؟ فالتمست ثم قالت: اكشفوا أهل البيت. فكَشَفُوهم فوجدوها مع يوسف. فقالت: والله إنَّه لِي لسَلَمٌ، أصنع فيه ما شئت. فأتاها يعقوب فأخبرته الخبر. فقال لها: أَنْتِ وذاك، إن كان فَعَلَ ذلك فهو سَلَم لك ما أستطيع غير ذلك. فأمسكته فما قدر عليه يَعْقُوب حتىٰ ماتت. قال: فهو الذي يقول إخوة يوسف حين صنع بأخيه ما صنع حين أخذه: ﴿إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُ﴾[٨].

وقوله: ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ﴾ يعني: الكلمة التي بعدها، وهي قوله: ﴿أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ أي: تذكرون. قال هذا فِي نَفْسِهِ، ولم يُبْدِهِ لهم، وهذا مِن باب الإضمارِ قبل الذِّكر،

---

(١) قراءة: قَرَأَ (عَالِمٍ) عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ، وَلَيْسَ فِي الْمُتَوَاتِرِ إِلَّا (ذي عِلْم).

(٢) في (ز): «بالتشبه». (٣) المِنْطَقة: كل ما شُدَّ به الوَسط.

(٤) في (ز): «اختبأها»، والمثبت موافق لما في «الطبري»، و«ابن أبي حاتم»، وهي بمعنىٰ سرقها.

(٥) في (ز): «معها». (٦) في نسخ: «تاقت إليه».

(٧) أي: اشتاق إليه اشتياقًا شديدًا. (٨) إسناده معضل، وهو من الإسرائيليَّات التي لا تُصدَّق ولا تُكذَّب.

وهو كثير، كقول الشاعر:

جَزَىٰ بَنُوهُ أَبَا الغِيلَانِ عَنْ كِبَرٍ ... وَحُسْنِ فِعْلٍ كَمَا يُجْزَىٰ سِنِمَّارُ(١)

وله شواهد كثيرة من القرآن والحديث واللُّغة، في منثورها وأخبارها وأشعارها.

قال العوفي، عن ابن عبَّاس: ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِۦ﴾ قال: أَسَرَّ في نفسه: ﴿أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًاۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾.

﴿قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ٧٨ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ٧٩﴾

لما تعيَّن أَخْذُ بنيامين، وتقرَّر تركه عند يوسف بمقتضىٰ اعترافهم، شرعوا يترققون له ويعطفونه عليهم، فـ﴿قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا﴾ يعنون: وهو يحبه حبًّا شديدًا ويتسلَّىٰ به عن ولده الذي فقده، ﴿فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ﴾ أي: بدله، يكون عندك عِوَضًا عنه، ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي: من العادلين المُنْصِفِين القابلين للخير. ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾ أي: كما قلتم واعترفتم، ﴿إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ﴾ أي: إن أخذنا بريئًا بسقيمٍ.

﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُواْ مِنْهُ خَلَصُواْ نَجِيًّاۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِيۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ٨٠ ٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ٨١ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقْبَلْنَا فِيهَاۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ٨٢﴾

يخبر تعالىٰ عن إخوة يوسف: أنَّهم لما يَئِسُوا مِن تخليص أخيهم بنيامين، الذي قد التَزَمُوا لأبيهم بِرَدِّه إليه، وعاهدوه علىٰ ذلك، فامتنع عليهم ذلك، ﴿خَلَصُواْ﴾ أي: انفردُوا عن النَّاس ﴿نَجِيًّا﴾(٢) يتناجون فيما بينهم.

﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ﴾ وهو رُوبيل، وقيل: يهوذا، وهو الذي أشار عليهم بإلقائه في البئر عندما هَمُّوا

---

(١) يقال: جَزَاني جزاءَ سِنِمَّار، وهو: رجل رومي بَنَىٰ قصرًا لملك، فلما فرغ منه ألقاه من أعلاه فَخَرَّ ميتًا، وإنَّما فعل ذلك لئلا يبني مثلَه لغيره، فضَرَبَت العربُ به المثلَ لمن يجزي بالإحسان الإساءة، قال الشاعر:

جَزَتْنَا بَنُو سَعْدٍ بِحُسْنِ فِعَالِنَا ... جَزَاءَ سِنِمَّارٍ وَمَا كَانَ ذَا ذَنْبِ

ويقال: هو الذي بنىٰ أطمَ أحَيْحَةَ بن الجُلَاح، فلما فرغ منه قال له أُحَيْحَة: لقد أحكمتَه!! قال: إني لأعرفُ فيه حجرًا لو نُزع لتقوَّض من عند آخره، فسأله عن الحجر؟ فأراه موضعه، فدفعه أُحيحةُ من الأطم فخرَّ ميتًا. ينظر: «مجمع الأمثال» (١/ ١٥٩ و١٧٧)، و«اللسان»: سنمر، و«تاج العروس» (١٢/ ٩٦).

(٢) سقط من (ز).

بقتله، قال لهم: ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ لتردنَّه إليه، فقد رأيتم كيف تعذَّر عليكم ذلك مع ما تقدَّم لكم مِن إضاعة يوسف عنه، ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ﴾ أي: لن أفارق هذه البلدة، ﴿حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ﴾ في الرجوع إليه راضيًا عني، ﴿أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى﴾ قيل: بالسَّيف. وقيل: بأن يمكنني من أخذ أخي، ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾.

ثم أَمَرَهُم أن يخبروا أباهم بصورة ما وقع، حتىٰ يكون عذرًا [لهم][1] عنده، ويَتَنَصَّلوا إليه، ويبرءوا مما وقع بقولهم.

وقوله: ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ﴾ قال عكرمة وقتادة: ما [كنا][2] نعلم أن ابنك يسرق[3].

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ما عَلِمْنَا في الغيب أنَّه يسرق له شيئًا، إنَّما سألنا ما جزاء السارق؟

﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا﴾ قيل: المراد مصر. قاله قتادة، وقيل: غيرها، ﴿وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ أي: التي رافقناها[4]، عن صِدْقِنَا وأمانتنا، وحفظنا وحراستنا، ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ فيما أخبرناك به، من أنَّه سَرَقَ، وأخذوه بسرقته.

﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾

قال لهم كما قال لهم حين جاءوا علىٰ قميصِ يوسف بدمٍ كذب: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾.

قال محمَّد بن إسحاق: لما جاءوا يعقوب وأخبروه بما جرىٰ اتَّهَمَهُم، وظَنَّ أنها كَفِعْلَتِهِمْ بيوسف فقال: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾.

[وقال بعض النَّاس: لما كان صنيعهم هذا مرتبًا علىٰ فعلهم الأول سُحب حكم الأول عليه، وصَحَّ قوله: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾][5].

ثم ترجَّىٰ مِن الله أن يَرُدَّ عليه أولاده الثَّلاثة: يوسف، [وأخاه][6] بنيامين، وروبيل الذي أَقام بديار مصر ينتظر أمر الله فيه، إمَّا أن يرضىٰ عنه [أبوه][7] فيأمره بالرجوع إليه، وإما أن يأخذ أخاه خُفْيَةً؛ ولهذا قال: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أي: العليم بحالي،

---

(١) سقط من (ز). (٢) سقط من (ز).
(٣) في بعض النسخ: «سرق»، والمثبت موافق لما في «الطبري».
(٤) في (ز): «وافقناها».
(٥) ما بين المعقوفتين سقط من (ز). (٦) في (ز): «وأخوه». (٧) سقط من (ز).

﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في أفعاله وقضائه وقدره.

﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ أي: أعرض عن بَنِيه، وقال متذكرًا حُزنَ يوسف القديم الأول: ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ جَدَّد له حزنُ الابنين الحزنَ الدَّفين.

قال عبد الرزَّاق: أخبرنا الثوري، عن سفيان العُصْفُريِّ(١)، عن سعيد بن جبير أنه قال: لم يُعْطَ أحدٌ غيرَ هذه الأُمَّة الاسترجاع(٢)، ألا تسمعون إلىٰ قول يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ أي: ساكتٌ لا يشكو أمره إلىٰ مخلوقٍ، قاله قتادة وغيره.

وقال الضَّحَّاك: ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ كميد حزين.

قال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، [حدَّثنا أبو سلمة](٣)، حدَّثنا حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن الحسن، عن الأحنف بن قيس، أن النَّبيَّ ﷺ قال: «**إِنَّ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: يَا رَبِّ، إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ يَسْأَلُونَكَ بِإِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ، فَاجْعَلْنِي لَهُمْ رَابِعًا. فَأَوْحَىٰ اللهُ تَعَالَىٰ إِلَيْهِ: أَنْ يَا دَاوُدُ، إِنَّ إِبْرَاهِيمَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ بِسَبَبِي فَصَبَرَ، وَتِلْكَ بَلِيَّةٌ لَمْ تَنَلْكَ، وَإِنَّ إِسْحَاقَ بَذَلَ مُهْجَةَ دَمِهِ فِي سَبَبِي فَصَبَرَ، وَتِلْكَ بَلِيَّةٌ لَمْ تَنَلْكَ، وَإِنَّ يَعْقُوبَ أَخَذْتُ مِنْهُ حَبِيبَهُ حَتَّىٰ ابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَصَبَرَ، وَتِلْكَ بَلِيَّةٌ لَمْ تَنَلْكَ**»(٤). وهذا [مرسل](٥)، وفيه نكارة؛ فإنَّ الصحيح أنَّ إسماعيل هو الذبيح(٦)، ولكن علي بن [زيد](٧) بن جُدْعَان له مناكير وغرائب كثيرة، والله أعلم.

وأقرب ما في هذا أن يكون قد حكاه الأحنف بن قيس رَحِمَهُ اللهُ عن بني إسرائيل ككعب ووهب ونحوهما، والله أعلم، فإنَّ الإسرائيليين ينقلون أن يعقوب كتب إلىٰ يوسف لما احتبس أخاه بسبب السَّرقة يتلطف له في رَدِّه، ويذكر له أنهم أهل بيت مصابون بالبَلَاء، فإبراهيم ابْتُلِيَ بالنَّار، وإسحاق بالذَّبح، ويعقوب بفرَاق يوسف، في حديثٍ طويل لا يصح، والله أعلم، فعند ذلك رَقَّ له بنوه، وقالوا له علىٰ سبيل الرِّفق به والشَّفقة عليه: ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ﴾ أي: لا تُفارِق تَذَكُّرَ يوسفَ ﴿حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا﴾ أي: ضَعِيفَ الجسم، ضعيف القوة، ﴿أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ﴾ يقولون: وإنِ استمرَّ بك هذا الحال خشينا عليك الهلاكَ والتَّلف.

---

(١) في (ز): «الصفري»، والصواب ما أثبتناه.

(٢) أي قول: «إِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ».

(٣) سقطت من (ز)، والصواب إثباتها.

(٤) منكر: رواه ابن أبي حاتم (٧/ ١١٨٨٢)، فيه علي بن زيد بن جدعان: ضعيف، والإسناد منكر، ووجه النَّكارة: أنَّ الذبيح هو إسماعيل وليس إسحاق.

(٥) في (ز): «منكر».

(٦) وسيأتي قول المؤلف في سورة الصافات: ذِكْر الآثار الواردة بأنَّه إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهو الصحيح المقطوع به. وانظر: «مجموع الفتاوىٰ» (٤/ ٣٣١)، و«منهاج السنة» (٥/ ٣٥٣)، و«إغاثة اللهفان» (٢/ ٣٥٥) ط. الفقي، و«زاد المعاد» (١/ ٧١)، و«البداية والنهاية» (١/ ٣٦٢- ٣٧٣، و٤٤٢)، و(٣/ ٨٣، و١٧٩)، و«فتح الباري» (١٢/ ٣٧٨)، و«الحاوي» للسيوطي (١/ ٣١٨).

(٧) في (ز): «يزيد»، وهو خطأ.

﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: أجابهم عمَّا قالوا بقوله: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ﴾ أي: هَمِّي وما أنا فيه ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ وحده ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: أرجو منه كلَّ خيرٍ.

وعن ابن عبَّاس: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يعني رؤيا يوسف أنَّها صدق، وأنَّ الله لا بدَّ أن يظهرها ويُنْجِزَها. وقال العوفي عن ابن عبَّاس: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾](١) أَعْلَم أنَّ رؤيا يوسف صادقة، وأنِّي سوف أسجد له.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا الحسن بن عرفة، حدَّثنا يحيىٰ بن عبد الملك بن أبي غَنِيَّة، عن حفص بن عمر بن أبي الزبير، عن أنس بن مالك ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «**كَانَ لِيَعْقُوبَ النَّبِيِّ** ﷺ **أَخٌ مُؤَاخٍ لَهُ، فَقَالَ لَهُ ذَاتَ يَوْمٍ: مَا الَّذِي أَذْهَبَ بَصَرَكَ وَقَوَّسَ ظَهْرَكَ؟ قَالَ: [أَمَّا](٢) الَّذِي أَذْهَبَ بَصَرِي الْبُكَاءُ عَلَىٰ يُوسُفَ، وَأَمَّا الَّذِي قَوَّسَ ظَهْرِي فَالْحُزْنُ عَلَىٰ بِنْيَامِينَ، فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ** ﷺ **فَقَالَ: يَا يَعْقُوبُ، إِنَّ اللهَ يُقْرِئُكَ السَّلَامَ، وَيَقُولُ لَكَ: أَمَا تَسْتَحْيِي أَنْ تَشْكُوَنِي إِلَىٰ غَيْرِي؟ فَقَالَ يَعْقُوبُ: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾. فَقَالَ جِبْرِيلُ** ﷺ: **اللهُ أَعْلَمُ بِمَا تَشْكُو**»(٣).

وهذا حديثٌ غريبٌ، فيه نكارةٌ.

﴿يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾﴾

يقول تعالىٰ مخبراً عن يعقوب ﷺ إنَّه نَدَب بَنِيهِ علىٰ الذَّهاب في الأرض، يَسْتَعْلِمُون أخبار يوسف وأخيه بنيامين. والتَّحسُّس يكون في الخير، والتَّجسُّس يُسْتَعْمَل في الشَّر، ونَهَّضهم وبَشَّرهم وأمرهم ألا يَيْأَسوا مِن روح الله؛ أي: لا يَقْطَعُوا [رجاءهم](٤) وأملهم من الله فيما يَرُومُونه ويقصدونه، فإنَّه لا يقطع الرجاء [ويقع في](٥) الإياس من [روح](٦) الله إلا القوم الكافرون.

وقوله: ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ﴾ تقدير الكلام: فذهبوا فدخلوا بلد مصر، ودخلوا علىٰ يوسف، ﴿قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ﴾ يعنون مِن الجدب والقحط وقلة الطعام، ﴿وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ﴾ أي: ومعنا ثمن الطَّعام الذي نمتاره، وهو ثمنٌ قليلٌ. قاله مجاهد، والحسن، وغير واحدٍ.

---

(١) ما بين المعقوفتين ليس في (ز)، وهو مثبت من «الطبري». (٢) سقط من (ز).

(٣) رواه ابن أبي حاتم (١١٨٨٣)، (١١٩٠١)، والحاكم (٢/ ٣٤٨)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٣١٣١)، وفيه حفص بن عمر بن أبي الزبير، قال الذهبي في «الميزان» (١/ ٥٦٦): ضعَّفه الأزدي، وانظر: «لسان الميزان» (٢/ ٣٢٩)، وفي متن الحديث نكارةٌ كما قال ابن كثير.

(٤) في (ز): «أرجاءهم». (٥) سقط من (ز). (٦) في (ز): (ويقطع).

وقال ابن عبَّاس: الرَّديء الذي لا يَنفُق[١]، مثل خَلَق[٢] الغرارة، والحبل، والشَّيء، وفي رواية عنه: الدَّراهم الرديئة التي لا تجوز إلا بنقصان.

وكذا قال قتادة، والسُّدِّي. وقال سعيد بن جبير: هي الدراهم الفُسُول[٣]. وقال أبو صالح: هو الصنوبر وحبة الخضراء. وقال الضَّحَّاك: كاسدة لا تنفق. وقال أبو صالح: جاءوا بحَبِّ البُطْم الأخضر والصنوبر. وأصل الإزجاء: الدَّفع لضعف الشيء، كما قال حاتم الطائي:

لِيَبْكِ عَلَىٰ مِلْحَانَ ضَيْفٌ مُدَفَّعٌ ... وَأَرْمَلَةٌ تُزْجِي مَعَ اللَّيْلِ أَرْمَلَا

وقال أعشىٰ بني ثعلبة:

الوَاهِبُ المِائَةَ الهِجَانَ وَعَبْدَهَا ... عُوذًا تُزَجِّي خَلْفَهَا أَطْفَالَهَا[٤]

وقوله إخبارًا عنهم: ﴿فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ﴾ أي: أعطنا بهذا الثَّمن القليل ما كنت تعطينا قبل ذلك. وقرأ ابن مسعود: «فَأَوْقِرْ رِكَابَنَا[٥] وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا».

وقال ابن جريج: ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ﴾ بردِّ أخينا إلينا.

وقال سعيد بن جبير والسُّدِّي: ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ﴾ يقولون: تَصَدَّقْ علينا بقبض هذه البضاعة المزجاة، وتَجَوَّز فيها.

وسئل سفيان بن عُيَيْنَة: هل حرمت الصدقة علىٰ أحدٍ من الأنبياء قبل النَّبيِّ ﷺ؟ فقال: ألم تسمع قوله: ﴿فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ﴾ رواه ابن جرير عن الحارث، عن القاسم عنه.

وقال ابن جرير: حدَّثنا الحارث، حدَّثنا القاسم، حدَّثنا مروان بن معاوية، عن عثمان بن الأسود: سمعت مجاهدًا وسئل: هل يكره أن يقول الرَّجل في دعائه: اللهم تصدق علي؟ فقال: نعم، إنَّما الصدقة لمن يبتغي الثواب.

﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾﴾

---

(١) لا ينفق: لا يروج، والخَلَق: البالي.

(٢) في (ز): «حلق».

(٣) الفسول: جمع فَسْل، وهو الرديء من كل شيء.

(٤) الهجان: الإبل البيض، وعوذ: جمع عائذ، وهي الناقة الحديثة النتاج.

(٥) قراءة: قَرَأَ (فَأَوْقِرْ رِكَابَنَا) عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ، وَلَيْسَ فِي الْمُتَوَاتِرِ إِلَّا (فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ).

يقول تعالىٰ مخبرًا[(١)] عن يوسف عليه السلام: أنَّه لما ذكر له إخوته ما أصابهم من الجَهْدِ والضِّيق وقلَّة الطعام وعموم [الجدب][(٢)]، وتَذَكَّر أباه وما هو فيه مِن الحُزْن لفقد وَلَدَيْه، مع ما [هو][(٣)] فيه من الملك والتَّصَرُّف والسَّعَة، فعند ذلك أخذته رِقَّةٌ ورأفةٌ ورحمةٌ وشفقةٌ علىٰ أبيه وإخوته، وبدره البُكَاءُ[(٤)]، فتعَرَّف إليهم، يقال: إنه رفع التَّاج عن جبهته، وكان فيها شامة، وقال: ﴿هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ﴾؟ يعني: كيف فرَّقوا بينه وبينه ﴿إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ﴾ أي: إنما حملكم علىٰ هذا الجهل بمقدار هذا الذي ارْتَكَبْتُمُوه، كما قال بعض السَّلف: كلُّ مَن عصىٰ الله فهو جاهلٌ، وقرأ: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ﴾ إلىٰ قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ١١٩].

والظاهر -والله أعلم- أنَّ يوسف عليه السلام إنَّما تعرَّف إليهم بنفسه، بإذن الله له في ذلك، كما أنَّه إنَّما أخفىٰ منهم نفسه في المَرَّتَيْن الأولَيين بأمر الله -تعالىٰ- له في ذلك، والله أعلم، ولكن لمَّا ضاق الحال واشْتَدَّ الأمر، فَرَّج الله تعالىٰ مِن ذلك الضِّيق، كما قال تعالىٰ: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥، ٦]، فعند ذلك قالوا: ﴿أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ﴾؟

وقرأ أُبيُّ بن كعب: «أَوَ أَنتَ[(٥)] يُوسُفُ» وقرأ ابن مُحَيْصِن: «[إنَّك لأنتَ][(٦)] يُوسُفُ»[(٧)]. والقراءة المشهورة هي الأولىٰ؛ لأن الاستفهام يدلُّ علىٰ الاستعظام؛ أي: إنَّهم تَعجَّبوا من ذلك أنهم يَتَرَدَّدُون إليه من سنتين وأكثر، وهم لا يعرفونه، وهو مع هذا يعرفهم ويكتم نفسه، فلهذا قالوا علىٰ سبيل الاستفهام: ﴿أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ﴾ أي: بجمعه بيننا بعد التفرقة وبعد المُدَّة، ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٩٠ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾ يقولون معترفين له بالفضل والأَثَرة عليهم في الْخَلقِ والخُلُق، والسَّعة والملك، والتَّصرف والنُّبوَّة أيضًا -علىٰ قول من لم يجعلهم أنبياء- وأَقَرُّوا له بأنَّهم أساءوا إليه، وأخطئوا في حقه.

﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ يقول: لا تأنيب عليكم، ولا عَتْبَ عليكم [اليوم][(٨)]، ولا أُعِيدُ ذنبكم في حقي بعد اليوم.

ثم زادهم الدُّعاء [لهم][(٩)] بالمغفرة فقال: ﴿يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾.

قال السُّدِّي: اعتذروا إلىٰ يوسف، فقال: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ يقول: لا أذكر لكم ذنبكم.

وقال ابن إسحاق والثوري: ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ أي: لا تأنيب عليكم اليوم عندي فيما صنعتم ﴿يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ أي: يَسْتُرُ الله عليكم فيما فعلتم، ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾.

---

(١) سقط م (ز). (٢) في (ز): «الجذب». (٣) سقط من (ز).
(٤) أي: عجل إليه. (٥) في (ز): «إنك». (٦) في (ز): «أنت».
(٧) متواترة: قَرَأَ (إِنَّكَ) ابْنُ كَثِيرٍ وَأَبُو جَعْفَرٍ وَوَافَقَهُمَا ابْنُ مُحَيْصِنٍ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ (أَإِنَّكَ).
(٨) سقط من (ز). (٩) سقط من (ز).

﴿ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَـٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ۖ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَـٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾﴾

يقول: اذهبوا بهذا القميص، ﴿فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا﴾ وكان قد عَمِيَ من [كثرة][1] البُكَاءِ، ﴿وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي: بجميع بني يعقوب.

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ﴾ أي: خرجت من مصر، ﴿قَالَ أَبُوهُمْ﴾ يعني: يعقوب عليه السلام لمن بَقِيَ عنده من بَنِيهِ: ﴿إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ۖ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾ تنسبوني إلى الفَنَد والكِبَر.

قال عبد الرزَّاق: أنبأنا إسرائيل، عن أبي سِنَان، عن عبد الله بن أبي الهُذَيْل قال: سمعت ابن عبَّاس يقول: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ﴾ قال: لما خرجت العير هَاجَت ريح، فجاءَتْ يعقوب بريح قميص يوسف، فقال: ﴿إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ۖ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾ قال: فَوَجَدَ رِيحَهُ مِن مسيرة ثمانية أيَّام[2].

وكذا رواه سفيان الثوري، وشعبة، وغيرهما عن أبي سِنَان به.

وقال الحسن وابن جُرَيْج: كان بينهما ثمانون فرسخًا، وكان بَيْنَه وبينه منذ افترقا ثمانُون سَنَةً.

وقوله: ﴿لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾ قال ابن عبَّاس، ومجاهد، وعطاء، وقتادة، وسعيد بن جُبَيْر: تُسَفِّهون.

وقال مجاهد أيضًا، والحسن: تُهرِّمون.

وقولهم: ﴿إِنَّكَ لَفِى ضَلَـٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾ قال ابن عبَّاس: لفي [خَطَئِكَ][3] القديم.

وقال قتادة: أي مِن حُبِّ يوسف لا تنساه ولا تسلاه، قالوا لوالدهم كلمةً غليظةً، لم يكن ينبغي لهم أن يقولوها لوالدهم، ولا لنبيِّ الله ﷺ، وكذا قال السُّدِّي وغيره.

﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَـٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾﴾

قال ابن عبَّاس والضَّحَّاك: ﴿ٱلْبَشِيرُ﴾: البريد.

وقال مجاهد والسُّدِّي: كان «يَهُوذَا بن يعقوب».

قال السُّدِّي: إنَّما جاء به؛ لأنَّه هو الذي جاء بالقميص، وهو مُلَطَّخٌ بدمٍ كَذِب، فأراد أن يَغْسِل ذاك

---

(١) في (ز): «أثرة».

(٢) إسناده صحيح: رواه الطبري (١٣/ ٥٧)، وابن أبي حاتم (٧/ ١١٩٥٩)، لكنه ليس في حكم المرفوع؛ لأنه من رواية ابن عبَّاس؛ وهو ممَّن أخذوا من كتب بني إسرائيل.

(٣) في (ز): «خطابك».

بهذا، فجاء بالقَمِيصِ فألقاه علىٰ وجه أبيه، فرجع بصيرًا.

وقال لبَنِيهِ عند ذلك: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: أعلم أن الله سَيَرُدُّه إليَّ، وقلت لكم: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾؟ فَعِنْدَ ذلك قالوا لأبيهم مُتَرَفِّقِين له: ﴿يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي: مَن تاب إليه تاب عليه.

قال ابن مسعود، وإبراهيم التَّيْمِيّ، وعمرو بن قيس، وابن جُرَيْج وغيرهم: أرجأهم إلىٰ وقت السَّحَر.

وقال ابن جرير: حدَّثني أبو السائب، حدَّثنا ابن إدريس، سمعت عبد الرحمن بن إسحاق، يذكر عن محارب بن دثار قال: [كان عمٌّ لي](١) يأتي المسجد فيسمع إنسانًا يقول: «اللَّهُمَّ دعوْتَني فأجبتُ، وأمرتني فأطعتُ، وهذا السَّحَرُ فاغفر لي». قال: فاستمع الصوت فإذا هو مِن دار عبد الله بن مسعود. فسأل عبد الله عن ذلك فقال: إن يعقوب أخَّر بَنِيهِ إلىٰ السَّحر بقوله: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ﴾(٢).

وقد ورد في الحديث أن ذلك كان ليلة جمعة، كما قال ابن جرير أيضًا: حدَّثني المثنىٰ، حدَّثنا سليمان بن عبد الرحمن أبو أيوب الدمشقي، حدَّثنا الوليد [بن مسلم](٣)، أنبأنا ابن جُرَيْج، عن عطاء وعِكْرِمة، عن ابن عبَّاس، عن رسول الله ﷺ: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ﴾ يقول: حتىٰ تأتي ليلة الجمعة، وهو قول أخي يعقوب لبنيه(٤).

وهذا غريبٌ مِن هذا الوجه، وفي [رفعه](٥) نظرٌ، والله أعلم.

﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِيٓ ۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾

يُخْبِرُ تعالىٰ عن وُرُودِ يعقوب ﷺ علىٰ يوسف ﷺ، وقدومه ببلاد مصر، لما كان يوسف قَد تَقَدَّم إلىٰ إخوته أن يأتوه بأهلهم أجمعين، [فتَحَمَّلُوا](٦) عن آخرهم، وترحلوا مِن بلاد كنعان قاصدين بِلَادَ مصر، فلما أخبر يوسف ﷺ باقترابهم خرج لتلقيهم، وأمر [الملك](٧) أُمَرَاءَهُ وأكابر النَّاس بالخروج [مع

---

(١) في (ز): «كان عمر ﷺ»، وهو خطأ، والمثبت هو الصواب كما في «الطبري» وابن أبي حاتم، وبقيَّة مصادر التخريج.

(٢) ضعيف: رواه الطبري (١٣/ ٦٤)، وابن أبي حاتم (٧/ ١١٩٨٣)، وفيه عبد الرحمن بن إسحاق أبو شيبة الواسطي: ضعيف.

(٣) سقط من (ز).

(٤) ضعيف: ابن جرير (١٣/ ٦٥)، والترمذي (٤٥٦٥)، والحاكم (١/ ٣١٦)، وصححه علىٰ شرط الشيخين، وعارضه الذهبي: فقال: هذا حديث منكرٌ شاذٌّ. اهـ.

(٥) في (ز): «وجهه». (٦) في (ز): «فتخلوا». (٧) في (ز): «بها».

يوسف][1]؛ لتلقِّي نبيِّ الله يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ ويقال: إنَّ الملك خرج أيضًا لتلَقِّيه، وهو الأشبه.

وقد أشكل قوله: ﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ وَقَالَ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ﴾ علىٰ كثير من المفسرين، فقال بعضهم: هذا من المُقدَّم والمؤَخَّر، ومعنىٰ الكلام: وقال: ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين وآوىٰ إليه أبويه، ورفعهما علىٰ العرش. وقد رَدَّ ابن جرير هذا؛ وأجاد في ذلك، ثم اختار ما حكاه عن السُّدِّي: أنَّ يوسف آوىٰ إليه أبويه لما تَلَقَّاهما، ثم لما وصلوا باب البلد قال: ﴿ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾.

وفي هذا نظر أيضًا؛ لأنَّ الإيواء إنَّما يكون في المنزل، [كقوله][2]: ﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُ﴾ وفي الحديث: «مَنْ آوَىٰ مُحْدِثًا...»[3]، وما المانع أن يكون قال لهم بعدما دخلوا عليه وآواهم إليه: ﴿ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ﴾ وضمَّنه: اسكنوا مصر ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ أي: مما كنتم فيه من الجَهْدِ والقحط، ويقال -والله أعلم-: إنَّ الله تعالىٰ رفع عن أهل مصر بَقِيَّة السِّنِين [المجدبة][4] ببركة قدوم يعقوب عليهم، كما رفع بَقِيَّة السنين التي دعا بها رسول الله ﷺ علىٰ أهل مَكَّة حين قال: «[اللَّهُمَّ][5] أَعِنِّي عَلَيْهِمْ بِسَبْعٍ كَسَبْعِ يُوسُفَ»، ثم لما تضرعوا إليه، واستشفعوا لديه، وأرسلوا أبا سفيان في ذلك، فدعا لهم، فَرُفِعَ عنهم بَقِيَّة ذلك ببركة دعائه عَلَيْهِ السَّلَامُ[6].

وقوله: ﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ﴾ قال السُّدِّي، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: إنَّما كان [أباه][7] وخالته، وكانت أُمُّه قد ماتت قديمًا.

وقال محمَّد بن إسحاق وابن جرير: كان أبوه وأُمُّه يعيشان.

قال ابن جرير: ولم يقم دَلِيلٌ علىٰ موت أُمِّه، وظاهر القُرآن يَدُلُّ علىٰ حياتها. وهذا الَّذي نصره هو المنصور الَّذي يَدُلُّ عليه السياق.

وقوله: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ قال ابن عبَّاس، ومجاهد، وغير واحد: يعني السَّرِير؛ أي: أجلسهما معه علىٰ سريره.

﴿وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗا﴾ أي: سجد له أبواه وإخوته البَاقُون، وكانوا أَحَدَ عَشَرَ رجلًا، ﴿وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ﴾ أي: الَّتِي كان قَصَّهَا علىٰ أبيه ﴿إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤].

وقد كان هذا سائغًا في شرائعهم إذا سلَّموا علىٰ الكَبِيرِ يسجدون له، ولم يزل هذا جائزًا من لدن آدم إلىٰ شريعة عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فحُرِّم هذا في هذه المِلَّة، وجُعِلَ السُّجود مختصًّا بجناب الرَّبِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ. هذا

---

(١) سقط من (ز). (٢) في (ز): «لقوله». (٣) رواه مسلم (١٩٧٨)، والنسائي (٧/ ٢٣٢).

(٤) في (ز): «المجذبة». (٥) سقط من (ز).

(٦) دعاء النَّبيِّ ﷺ علىٰ أهل مكة، ثم دعاؤه لهم برفع البلاء عنهم -ثابت في حديث صحيح: البخاري (٤٧٧٤)، ومسلم (٢٧٩٨)، والترمذي (٣٢٥١)، والنسائي في «الكبرىٰ» (١١٢٠٢).

(٧) في (ز): «أبوه».

مضمون قول قتادة وغيره.

وفي الحديث أنَّ معاذًا قَدِمَ الشَّام، فوجدهم يَسْجُدُون لأساقفتهم، فلما رجع سجد لرسول الله ﷺ، فقال: «مَا هَذَا يَا مُعَاذُ؟» فقال: إنِّي رأيتهم يسجدون لأساقفتهم، وأنت أَحَقُّ أن يُسْجَدَ لك يا رسول الله فقال: «لَوْ كُنْتُ آمِرًا أَحَدًا أَنْ يَسْجُدَ لِأَحَدٍ، لأَمَرْتُ الزَّوْجَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا مِنْ عِظَمِ حَقِّهِ عَلَيْهَا»[1].

وفي حديثٍ آخر: أنَّ سلمان لَقِيَ النَّبِيَّ ﷺ في بعض طُرُق المدينة، وكان سلمان حديث عهد بالإسلام، فسجد للنَّبِيِّ ﷺ، فقال: «لا تَسْجُدْ لِي يَا سَلْمَانُ، وَاسْجُدْ لِلْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ»[2].

والغَرَض: أنَّ هذا كان جائزًا في شريعتهم؛ ولهذا خرُّوا له سُجَّدًا، فعندها قال يوسف: ﴿يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗا﴾ أي: هذا ما آل إليه الأمر، فإنَّ التَّأويل يُطْلَقُ على ما يصير إليه الأمر، كما قال تعالىٰ: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ﴾ [الأعراف: ٥٣] أي: يوم القيامة يَأْتِيهِم ما وعدوا مِن خيرٍ وشرٍّ.

وقوله: ﴿قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗا﴾ أي: صحيحةً صِدْقًا، يذكر نعم الله عليه، ﴿وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ﴾ أي: البادية.

قال ابن جُرَيْج وغيره: كانوا أهل باديةٍ وماشيةٍ. وقال: كانوا يسكنون بالعَرَبَات من أرض فلسطين مِن غور الشَّام. قال: وبعض يقول: كانوا بالأولاج من ناحية شعب أسفل من حسمَىٰ، وكانوا أصحاب باديةٍ وشاءٍ وإبلٍ.

﴿مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ﴾ ثم قال: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ﴾ أي: إذا أراد أمرًا قَيَّضَ له أسبابًا ويسَّره وقدَّره[3]، ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [بمصالح][4] عباده ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ في أفعاله وأقواله، وقَضَائِهِ وقَدَرِهِ، وما يختاره ويريده. قال أبو عثمان النَّهدي، عن سلمان: كان بين رؤيا يوسف وتأويلها أربعون سنةً[5]. قال عبد الله بن شداد: وإليها يَنْتَهِي أقصىٰ الرُّؤْيَا. رواه ابن جرير[6].

---

(١) حسن: ابن ماجة (١٨٥٣)، وانظر: «الصحيحة» للألباني (١٢٠٣).

(٢) ضعيف: رواه ابن أبي حاتم (١٥٢٩١)، ورواه الديلمي (٨٥١٠)، فيه شهر بن حوشب: صدوق كثير الإرسال والأوهام، وبقية رجاله ثقات، والحديث عزاه لابن أبي حاتم، وساقه بسنده في تفسير سورة الفرقان.

(٣) قال الألوسي رحمه الله: (أي: لطيف التدبير له، إذ ما من صعب إلا وتنفذ فيه مشيئته تعالىٰ ويسهل دونها، كذا قاله غير واحد).

وقال السعدي رحمه الله: (يوصل بره وإحسانه إلىٰ العبد من حيث لا يشعر، ويوصله إلىٰ المنازل الرفيعة من أمور يكرهها).

ومن أجمع ما قيل في ذلك وأجمله قول الغزالي رحمه الله: (إنما يستحق هذا الاسم من يعلم دقائق المصالح وغوامضها، وما دق منها وما لطف، ثم يسلك في إيصالها إلىٰ المستحق سبيل الرفق دون العنف، فإذا اجتمع الرفق في الفعل واللطف في العلم تم معنىٰ اللطف، ولا يتصور ذلك في العلم والفعل إلا لله تعالىٰ).

(٤) سقط من (ز).

(٥) صحيح: رواه الطبري (١٣/ ٦٩)، وابن أبي حاتم (٧/ ١١٩٩٨)، والحاكم (٤/ ٣٩٦)، وصححه الحافظ في «الفتح» (١٢/ ٣٧٧).

(٦) رواه الطبري (١٣/ ٦٩)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٤/ ١٩٤).

وقال أيضًا: حدَّثنا عمرو بن علي، حدَّثنا عبد الوهاب الثقفي، حدَّثنا هشام، عن الحسن قال: كان منذ فَارَقَ يوسفُ يعقوبَ إلىٰ أن الْتَقَيَا ثمانُون سنةً، لم يُفَارِقِ الحزن قلبه، ودموعه تجري علىٰ خَدَّيْه، وما علىٰ وجهِ الأرض عبدٌ أَحَبُّ إلىٰ الله مِن يعقوب. وقال هُشَيْم، عن يونس، عن الحسن: ثلاث وثمانون سَنَةً. وقال مبارك بن فضالة، عن الحسن: أُلْقِيَ يوسف في الجُبِّ وهو ابن سبع عشْرَة سنةً، فغاب عن أبيه ثمانين سنةً، وعاش بعد ذلك ثلاثًا وعشرين [سنة][1]، فمات وله عشرون ومائة سنة. وقال قتادة: كان بينهما خمس وثلاثون سنة. وقال محمَّد بن إسحاق: ذُكر -والله أعلم- أن غيبة يوسف عن يعقوب كانت ثماني عشرة سنة -قال: وأهل الكتاب يزعمون أنها كانت أربعين سنة أو نحوها، وأن يعقوب عليه السلام بقي مع يوسف بعد أَن قَدِمَ عليه مصر سبع عشرة سنةً، ثم قبضه الله إليه.

وقال أبو إسحاق السَّبِيعي، عن أبي عبيدة، عن عبد الله بن مسعود قال: دخل بنو إسرائيل مصر، وهم ثلاثة وسِتُّون إنسانًا، وخرجوا منها وهم ستمائة ألف وسبعون ألفًا[2].

وقال أبو إسحاق، عن مسروق: دخلوا وهم ثلثمائة وتسعون مِن بين رجل وامرأةٍ. [والله أعلم][3].

وقال موسىٰ بن عبيدة، عن محمَّد بن كعب القُرَظي، عن عبد الله بنِ شَدَّاد: اجتمع آل يعقوب إلىٰ يُوسُف بمصر. وهم ستة وثمانون إنسانًا، صغيرهم وكبيرهم، وذكرهم وأنثاهم، وخرجوا منها وهم ستمائة ألفٍ ونَيِّفٍ.

﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾

هذا دعاء من يوسف الصديق، دعا به ربه عز وجل لما تمَّت النِّعمة عليه، باجتماعه بأبويه وإخوَتِه، وما مَنَّ الله به عليه من النُّبوَّة والملك، [سأل ربه][4] عز وجل كما أتمَّ نعمته عليه في الدُّنيا أن يَسْتَمِرَّ بها عليه في الآخرة، وأن يتوفَّاه مسلمًا حين يتوفَّاه -قاله الضَّحَّاك- وأن يُلْحِقَه بالصَّالحين، وهم إخوته من النَّبِيِّين والمرسلين، صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين.

وهذا الدُّعاء يحتمل أن يوسف عليه السلام قاله عند احتضاره، كما ثبت في «الصحيحين» عن عائشة رضي الله عنها؛ أن رسول الله ﷺ جعل يرفع أُصْبَعَهُ عند الموت، ويقول: «**اللَّهُمَّ فِي الرَّفِيقِ الأَعْلَىٰ، اللَّهُمَّ فِي الرَّفِيقِ الأَعْلَىٰ، اللَّهُمَّ فِي الرَّفِيقِ الأَعْلَىٰ**»[5].

ويحتمل أنَّه سأل الوفاة علىٰ الإسلام، واللحاق بالصَّالحين إذا حان أجله، وانقضىٰ عمره؛ لا أنَّه

---

(١) سقط من (ز).

(٢) **ضعيف**: رواه الطبري (١٣/ ٧٢)، وإسناده منقطع؛ لأن أبا عبيدة لم يسمع من أبيه عبد الله بن مسعود.

(٣) سقط من (ز).

(٤) في (ز): «سأل من ربه».

(٥) البخاري (٨٩٠، ٤٤٣٧)، ومسلم (٢٤٤٤).

سأل ذلك منجزًا، كما يقول الدَّاعي لغيره: «أَمَاتَك الله على الإسلام». ويقول الداعي: «اللَّهمَّ أَحْيِنَا مسلمين، وتَوَفَّنا مُسْلِمِين، وألحقنا بالصَّالحين».

ويحتمل أنَّه سأل ذلك منجزًا، وكان ذلك سائغًا في مِلَّتِهم، كما قال قتادة: قوله: ﴿تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ لما جمع الله شَمْلَهُ وأقرَّ عينه، وهو يومئذٍ [مغموس][1] في [نبت][2] الدُّنيا وملكها وغضارتها، فاشتاق إلى الصَّالحين قبله، وكان ابن عبَّاس يقول: ما تَمَنَّىٰ نبيٌّ قط الموت قبل يوسف عليه السلام.

وكذا ذكر ابن جرير والسُّدِّي عن ابن عبَّاس: أنَّه أوَّل نبيٍّ دعا بذلك. وهذا يحتمل أنَّه أوَّل مَن سأل الوفاة على الإسلام. كما أن نوحًا أوَّل من قال: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا﴾ [نوح: ٢٨]، ويحتمل أنه أوَّل مَن سأل نِجازَ ذلك، وهو ظاهر سياق قتادة، ولكن هذا لا يجوز في شَرِيعَتِنَا.

قال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله: حدَّثنا إسماعيل بن إبراهيم، حدَّثنا عبد العزيز بن صهيب، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمُ المَوْتَ لِضُرٍّ نَزَلَ بِهِ، فَإِنْ كَانَ لا بُدَّ مُتَمَنِّيًا المَوْتَ فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مَا كَانَتِ الحَيَاةُ خَيْرًا لِي، وَتَوَفَّنِي إِذَا كَانَتِ الوَفَاةُ خَيْرًا لِي»**[3].

ورواه البخاري ومسلم، وعندهما: **«لا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمُ المَوْتَ، لِضُرٍّ نَزَلَ بِهِ إِمَّا مُحْسِنًا فَيَزْدَادُ، وَإِمَّا مُسِيئًا فَلَعَلَّهُ يَسْتَعْتِبُ، وَلَكِنْ لِيَقُلْ: اللَّهُمَّ، أَحْيِنِي مَا كَانَتِ الحَيَاةُ خَيْرًا لِي، وَتَوَفَّنِي إِذَا كَانَتِ الوَفَاةُ خَيْرًا لِي»**[4].

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا أبو المغيرة، حدَّثنا مُعَان بن رفاعة، حدَّثني علي بن يزيد، عن القاسم، عن أبي أمامة قال: جلسنا إلى رسول الله ﷺ فذكَّرنا ورقَّقنا، فبكى سعد بن أبي وقَّاص فأكثر البكاء، فقال: يا ليتني مِتُّ! فقال النَّبيُّ ﷺ: **«يَا سَعْدُ أَعِنْدِي تَتَمَنَّىٰ المَوْتَ؟»** فردَّد ذلك ثلاث مراتٍ ثم قال: **«يَا سَعْدُ، إِنْ كُنْتَ خُلِقْتَ لِلجَنَّةِ، فَمَا طَالَ عُمُرُكَ -أَوْ: حَسُنَ [مِنْ][5] عَمَلِكَ- فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ»**[6].

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا حسن، حدَّثنا ابن لَهِيعة، حدَّثنا أبو يونس -هو سُلَيم بن جُبير- عن أبي هريرة، عن النَّبيِّ ﷺ أنه قال: **«لا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمُ المَوْتَ، ولا يَدْعُوَنَّ بِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ قَدْ وَثِقَ بِعَمَلِهِ، فَإِنَّهُ إِذَا مَاتَ أَحَدُكُمُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ، وَإِنَّهُ لا يَزِيدُ المُؤْمِنَ [عُمُرُهُ][7] إِلَّا خَيْرًا»** تفرد به أحمد[8].

---

(١) في (ز): «مغمور». (٢) سقط من (ز).

(٣) البخاري (٥٦٧٣)، ومسلم (٢٦٨٠)، وأحمد (٣/ ١٠١)، وأبو داود (٣١٠٨)، والترمذي (٩٧١)، والنسائي (٤/ ٣)، وابن ماجة (٤٢٦٥).

(٤) يعني من حديث أبي هريرة: رواه البخاري (٥٦٧٣)، ومسلم نحوه (٢٦٨٢).

(٥) سقط من (ز)، وهي مثبتة في «المسند».

(٦) ضعيف: أحمد (٥/ ٢٦٧)، وفيه علي بن يزيد الألهاني: ضعيف كما تقدم ذلك مرارًا.

(٧) في (ز): «عمله»، والمثبت موافق لما في «المسند».

(٨) أحمد (٢/ ٣٥٠)، قال شعيب الأرنؤوط: صحيح دون قوله: «**إلا أن يكون قد وثق بعمله**» فإنها زيادة منكرة.

وهذا فيما إذا كان الضُّرُّ خاصًّا به، أما إذا كان فتنةً في الدِّين فيجوز سؤال الموت، [كما][(١)] قال الله -تعالىٰ- إخبارًا عن السَّحَرَةِ لما أرادهم فرعون عن دِينِهم، وتهدَّدهم بالقتل قالوا: ﴿رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٦]، وقالت مريم [لما أجاءها][(٢)] المخاض -وهو الطَّلْق- إلىٰ جذع النَّخلة ﴿يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا﴾ [مريم: ٢٣] لما تَعْلَم مِن أنَّ النَّاس يَقْذِفُونَها بالفاحشة؛ لأنَّها لم تكن ذات زوج، وقد حملت وولدت، فيقول القائل: أنَّىٰ لها هذا؟ ولهذا وَاجَهُوهَا أَوَّلًا بأن قالوا: ﴿يَٰمَرۡيَمُ لَقَدۡ جِئۡتِ شَيۡـٔٗا فَرِيّٗا ٢٧ يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا﴾ [مريم: ٢٧، ٢٨] فجعل الله لها من ذلك الحال فرجًا ومخرجًا، وأنطقَ الصبيَّ في المهد بأنَّه عبد الله ورسوله، وكان آيةً عظيمةً، ومعجزةً باهرةً صلوات الله وسلامه عليه. وفي حديث معاذ الذي رواه الإمام أحمد والترمذي في قِصَّة المنام والدعاء الذي فيه: «**وَإِذَا أَرَدْتَ بِقَوْمٍ فِتْنَةً، فَتَوَفَّنِي إِلَيْكَ غَيْرَ مَفْتُونٍ**»[(٣)].

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا أبو سلمة، أنا عبد العزيز بن محمَّد، عن عمرو [عن][(٤)] عاصم [بن][(٥)] عمر بن قتادة، عن محمود بن لبيد؛ أن النَّبيَّ ﷺ قال: «**اثْنَتَانِ يَكْرَهُهُمَا ابْنُ آدَمَ: المَوْتُ، وَالمَوْتُ خَيْرٌ لِلْمُؤْمِنِ مِنَ الفِتْنَةِ، وَيَكْرَهُ قِلَّةَ المَالِ، وَقِلَّةُ المَالِ أَقَلُّ لِلْحِسَابِ**»[(٦)].

فعند حُلُول الفِتَن في الدِّين يجوز سؤال الموت؛ ولهذا قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه في آخر إمارَتِهِ لما رأىٰ أنَّ الأمور لا تجتمع له، ولا يَزْدَادُ الأمر إلا شِدَّةً قال: اللَّهمَّ، خُذْنِي إليك، فقد سَئِمْتُهُم وسَئِمُونِي[(٧)].

وقال البخاري رَحِمَهُ اللهُ لما وقعت له تلك المِحَن، وجرىٰ له ما جرىٰ مع أمير خراسان: «اللَّهُمَّ تَوَفَّنِي إليك».

وفي الحديث: «**إِنَّ الرَّجُلَ لَيَمُرُّ بِالقَبْرِ** – أي: في زمان الدجال- **فَيَقُولُ: يَا لَيْتَنِي مَكَانَكَ**»[(٨)] لما يرىٰ مِن الفِتَنِ والزَّلازل والبَلَابِلِ والأمور الهائلة التي هي فتنةٌ لكُلِّ مفتون.

قال أبو جعفر بن جرير: وذُكِرَ أن بني يعقوب الَّذِين فعلوا بـ«يوسف» ما فعلوا، استغفر [لهم][(٩)] أبوهم، فتاب الله عليهم وعفا عنهم، وغفر لهم ذنوبهم.

ذكر من قال ذلك:

حدَّثنا القاسم، حدَّثنا الحسن، حدَّثني حجاج، عن صالح [المري][(١٠)]، عن يزيد الرَّقاشي، عن أنس بن مالك قال: إن الله -تعالىٰ- لما جَمَع ليعقوب شمله، وأَقَرَّ عينه خلا ولدُه نجيًّا[(١١)]، فقال

---

(١) سقط من (ز). (٢) في (ز): «جاءها».

(٣) **صحيح**: أحمد (٥/ ٢٤٣)، والترمذي (٣٢٣٣)، وللحافظ ابن رجب رسالة بعنوان: «اختيار الأولىٰ في اختصام الملإ الأعلىٰ»؛ شرح فيه هذا الحديث شرحًا وافيًا.

(٤) في (ز): «بن»، وهو خطأ. (٥) في (ز): «عن»، وهو خطأ، فالراوي هو: عاصم بن عمر بن قتادة.

(٦) **صحيح**: أحمد (٥/ ٤٢٧، ٤٢٧). (٧) لم أقف علىٰ إسناده.

(٨) البخاري (٧١١٥)، ومسلم (١٥٧)، وابن ماجة (٤٠٣٧).

(٩) سقط من (ز). (١٠) في (ز): «المزي»، وهو خطأ.

(١١) أي: خلا بعضهم يتناجون ويتسارون الحديث.

بعضهم لبعض: أَلَسْتُم قد علمتم ما صنعتم، وما لَقِيَ منكم الشَّيخ، وما لَقِيَ منكم يوسف؟ قالوا: بلىٰ. قال: فيغرُّكم عفوهما عنكم، فكيف لكم بربكم؟ فاستقام أمرهم علىٰ أن أَتَوُا الشَّيخ فجلسوا بين يديه، ويُوسُف إلىٰ جَنْبِ أَبِيهِ قاعدًا، قالوا: يا أبانا، إنَّا أتيناك في أمرٍ، لم نأتِكَ في مِثْلِهِ قط، ونَزَل بنا أَمْرٌ لَمْ يَنْزِل بنا مثله حتىٰ حَرَّكوه، والأنبياء -عليهم السلام- أرحم البَرِيَّة، فقال: ما لكم يا بَنِيَّ؟ قالوا: أَلَسْتَ قد علمتَ ما كان منا إليكَ، وما كان مِنَّا إلىٰ أخينا يوسف؟ [قال](1): بلىٰ. قالوا: أَوَ لَسْتُمَا قد عَفَوتما؟ قالا: بلىٰ. قالُوا: فإنَّ عفوكما لا يُغْنِي عنَّا شيئًا، إن كان الله لم يعفُ عنَّا. قال: فما تُرِيدُون يا بَنِيَّ؟ قالوا: نُريدُ أن تدعوَ الله لنا، فإذا جاءَكَ الوحي مِن الله بأنَّه قد عفا [عمَّا](2) صنعنا قرَّت أعيننا، واطمأنت قلوبنا، وإلا فلا قُرَّة عينٍ في الدُّنيا أبدًا لنا. قال: فقام الشَّيخ فاستقبل القِبْلَة، وقام يوسف خلف أَبِيهِ، وقاموا خلفهما أذلَّةً خاشعين. قال: فدعا وأَمَّن يوسف، فلم يُجبْ فيهم عشرين سنة -قال صالح المري يخيفهم- قال: حتىٰ إذا كان رأس العشرين نزل جبريل ﷺ علىٰ يعقوب فقال: إنَّ الله بعثني إليك أُبَشِّرك بأنه قد أجاب دعوتك في ولدك، وأنَّه قد عفا عمَّا صنعوا، وأنَّه قد اعتقد مواثيقهم مِن بعدك علىٰ النُّبوَّة(3).

هذا الأثر موقوفٌ عن أنس، ويزيد الرقاشي وصالح المري: ضعيفان جدًّا.

وذكر السُّدِّي: أنَّ يعقوب ﷺ لما حضره الموت، أوصىٰ إلىٰ يوسف بأَن يُدْفَن عند إبراهيم وإسحاق، فلمَّا مات صَبَّره(4)، وأرسله إلىٰ الشَّام، فدُفِنَ عندهما عليهم السلام(5).

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾﴾

يقول تعالىٰ لعبده ورسوله محمَّد -صلوات الله وسلامه عليه- لما قَصَّ عليه نبأ إخوة يوسف، وكيف رفعه الله عليهم، وجعل له العَاقِبَة والنَّصر والملك والحكم، مع ما أرادوا به من السُّوء والهلاك والإِعْدَام: هذا وأمثاله -يا محمَّد- من أخبار الغيوب السابقة ﴿نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ ونُعَلِّمُك به لما فيه من العِبْرَة لك، والاتِّعاظ لمن خالفك، ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ﴾ حاضرًا عندهم ولا مشاهدًا لهم ﴿إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ﴾ أي: علىٰ إلقائِهِ في الجُبِّ، ﴿وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ به، ولكنَّا أعلمناكَ به وحيًا إليك، وإنزالًا عليك، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران: ٤٤]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [القصص: ٤٤] إلىٰ أن قال: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [القصص: ٤٦]، وقال: ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ [القصص:

---

(1) في (ز): «قالا». (2) في (ز): «عنا».

(3) **ضعيف**: رواه الطبري (١٣/ ٧٤)، وفيه يزيد الرقاشي، وصالح المري: كلاهما ضعيف.

(4) قال في «طبعة الشعب»: لفظ السُّدِّي كما في «تفسير الطبري»، (الأثر ١٩٩٥٠): «فلما مات نفخ فيه المر» وكأن معنىٰ صبره: دهنه بالصبر -بفتح فكسر- وهو: عصارة شجر مر؛ لحفظ جسده من التعفن.

(5) الطبري (١٣/ ٧٤) وهو من كلام السُّدِّي، لا مستند له، فمثل هذا أشبه بالإسرائيليات التي لا تُصدَّق ولا تُكذَّب.

٤٥]، وقال: ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ۝٦٩ إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [ص: ٦٩، ٧٠].

يُقرِّر تعالىٰ أنَّه رسوله، وأنَّه قد أطلعه علىٰ أنباء ما قد سبق ممَّا فيه عبرة للنَّاس، ونجاة لهم في دِينِهِم ودُنْيَاهُم؛ ومع هذا ما آمن أكثر النَّاس؛ ولهذا قال: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾، وقال: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦] إلىٰ غير ذلك من الآيات.

وقوله: ﴿وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ أي: وما تسألُهم -يا محمَّد- علىٰ هذا النُّصح والدُّعاء إلىٰ الخير والرُّشد مِن أجر؛ أي: من جُعالةٍ ولا أُجْرَةٍ علىٰ ذلك، بل تفعله ابتغاء وجه الله، ونصحًا لخلقه.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: يتذكرون به ويَهْتَدُون، [وينجون][1] به في الدُّنيا والآخرة.

﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ۝١٠٥ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ۝١٠٦ أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝١٠٧﴾

يخبر تعالىٰ عن [غفلةِ][2] أكثر النَّاس عن التَّفكُّر في آيات الله ودلائل تَوْحِيدِهِ، بما خلقه الله في السَّموات والأرض مِن كواكبَ زاهراتٍ، ثوابتَ وسيَّارات، وأفلاك دائرات، والجَمِيعُ مسخَّرات، وكم في الأرض من قِطَعٍ متجاورَات، وحدائق وجنَّات، وجبال راسِيَاتٍ، وبحار زاخِرَاتٍ، وأمواج متلاطماتٍ، وقفار شاسعاتٍ، وكم مِن أحياء وأموات، وحيوان ونبات، وثمراتٍ متشابهةٍ ومختلفاتٍ، في الطُّعوم والرَّوائح والألوان والصِّفات، فسبحان الواحد الأحد، خالق أنواع المخلوقات، المتفرِّد بالدَّوام والبقاء والصَّمديَّة ذي الأسماء والصفات.

وقوله: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ قال ابن عبَّاس: من إيمانهم، إذا قيل لهم: مَن خلق السموات؟ ومَن خلق الأرض؟ ومَن خلق الجبال؟ قالوا: «الله» وهم مشركون به[3]. وكذا قال مجاهد، وعطاء وعكرمة، والشعبي، وقتادة، والضَّحَّاك، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

وهكذا في «الصحيحين»: أن المشركين كانوا يقولون في تلبيتهم: لَبَّيْك لا شريك لك، إلا شريكًا هو لك، تَمْلِكُه وما ملك[4]. وفي «الصحيح»: أنهم كانوا إذا قالوا: لَبَّيْكَ لا شريك لك، يقول رسول الله ﷺ: «قَدْ قَدْ»[5] أي حَسْبُ حَسْبُ، لا تزيدوا علىٰ هذا.

وقال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣] وهذا هو الشرك الأعظم الذي يعبد مع الله غيره، كما في «الصحيحين» عن ابن مسعود قلتُ: يا رسول الله، أيُّ الذنب أعظم؟ قال: «أَنْ تَجْعَلَ للهِ

---

(١) في (ز): «ولينجوا». (٢) سقط من (ز).

(٣) قال السعدي رحمه الله: فهم وإن أقروا بربوبية الله تعالىٰ، وأنه الخالق الرازق المدبر لجميع الأمور، فإنهم يشركون في ألوهية الله وتوحيده، فهؤلاء الذين وصلوا إلىٰ هذه الحال لم يبقَ عليهم إلا أن يحل بهم العذاب، ويفجأهم العقاب وهم آمنون.

(٤) مسلم (١١٨٥)، ونسبته للصحيحين وهمٌ. (٥) مسلم (١١٨٥).

نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ»(١).

وقال الحسن البصري في قوله: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ قال: [ذلك](٢) المنافق يعمل إذا عَمِلَ رياءَ النَّاس، وهو مشركٌ بعمله [ذلك](٣)؛ يعني: قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢].

وثمَّ شِرْكٌ آخر خَفِيٌّ لا يشعر به غالبًا فاعله، كما روىٰ حماد بن سلمة، عن عاصم بن أبي النَّجُود، عن عُرْوَة قال: دخل حذيفة علىٰ مريض، فرأىٰ في عضده سيرًا فقطعه -أو: انتزعه- ثم قال: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾(٤).

وفي الحديث: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ أَشْرَكَ». رواه الترمذي وحسَّنَه من رواية ابن عمر(٥).

وفي الحديث الذي رواه أحمد وأبو داود وغيره، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الرُّقَىٰ وَالتَّمَائِمَ وَالتِّوَلَةَ(٦) شِرْكٌ»(٧). وفي لفظ لهما: «[الطِّيَرَةُ شِرْكٌ](٨)، وَمَا مِنَّا إِلَّا، وَلَكِنَّ اللهَ يُذْهِبُهُ بِالتَّوَكُّلِ»(٩).

ورواه الإمام أحمد [بأبسط](١٠) من هذا فقال: حدَّثنا أبو معاوية، حدَّثنا الأعمش، عن عمرو بن مُرَّة، عن يحيىٰ بن الجزار، عن ابن أخي زينب، [عن زينب](١١) امرأة عبد الله بن مسعود قالت: كان عبد الله إذا جاء مِن حاجةٍ فانتهىٰ إلىٰ الباب تنحنح وبَزَقَ كراهية أن يهجم مِنَّا علىٰ أمرٍ يكرهه، قالت: وإنَّه جاء ذات يوم فتَنَحْنَحَ وعندي عجوزٌ تَرْقِينِي من الحُمْرَة(١٢)(١٣) فأَدْخَلْتُها تحت السَّرير، قالت: فدخل فجلس إلىٰ جانبي، [فرأىٰ](١٤) في عُنُقِي خيطًا، قال: ما هذا الخيط؟ قالت: قلتُ: خيط رُقِيَ لي فيه. قالت: فأخذه فقَطَعَه، ثم قال: إنَّ آل عبد الله لأغنياءُ عن الشِّرك، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ الرُّقَىٰ وَالتَّمَائِمَ وَالتِّوَلَةَ شِرْكٌ». قالت: قلت له: لِمَ تقول هذا وقد كانت عيني [تَقْذِفُ](١٥)، فكنت أختلف إلىٰ

---

(١) البخاري (٦٨٦١)، ومسلم (٨٦، وأبو داود (٢٣١٠)، والترمذي (١٣٨١).

(٢) في (ز): «ذاك».

(٣) في (ز): «ذاك».

(٤) حسن: رواه ابن أبي حاتم (٧/ ١٢٠٤٠)، والإسناد حسن من أجل عاصم بن أبي النجود: صدوق.

(٥) صحيح: أبو داود (٣٢٥١)، والترمذي (١٥٣٥)، وقال: حديث حسن.

(٦) التِّوَلَة: ما يُحبِّب المرأة إلىٰ زوْجها من السِّحر وغيره، جعله من الشرك لاعتقادهم أنَّ ذلك يؤثر، ويَفْعل خلاف ما قدَّره الله تعالىٰ. «النهاية».

(٧) صحيح: رواه أبو داود (٣٨٨٣)، وأحمد (١/ ٣٨١)، وابن ماجة (٣٥٣٠).

(٨) سقط من (ز).

(٩) صحيح: رواه أبو داود (٣٨٨٣)، وابن ماجة (٣٥٣٠)، وأحمد (١/ ٣٨١).

(١٠) ف (ز): «بالبسط».

(١١) سقط من (ز).

(١٢) في (ز): «الخمرة»، والمثبت موافق للمسند.

(١٣) الحُمْرَة: داء يعتري الناس فيحمر موضعها.

(١٤) في (ز): «فرآني».

(١٥) في (ز): «تفرق».

فلان اليهودي يرقيها، فكان إذا رقاها سكنت؟ قال: إنَّما ذاك من الشَّيطان. كان ينخسها بِيَدِهِ، فإذا رقيتها كَفَّ عنها: إنَّما كان يكفيكِ أن تقولي كما قال رسول الله ﷺ: «أَذْهِبِ الْبَأْسَ رَبَّ النَّاسِ، اشْفِ وَأَنْتَ الشَّافِي، لا شِفَاءَ إِلَّا شِفَاؤُكَ، شِفَاءً لا يُغَادِرُ سَقَمًا»(١).

وفي حديثٍ آخر رواه الإمام أحمد، عن وَكِيع، عن ابن أبي ليلىٰ، عن عيسىٰ بن عبد الرحمن قال: دخلنا علىٰ عبد الله بن [عُكَيْم](٢) وهو مَرِيضٌ نعوده، فقيل له: لو تَعَلَّقت شيئًا؟ فقال: أَتَعَلَّق شيئًا! وقد قال رسول الله ﷺ: «مَنْ تَعَلَّقَ شَيْئًا وُكِلَ إِلَيْهِ». ورواه النَّسائي عن أبي هريرة(٣).

وفي «مسند الإمام أحمد» [من حديث](٤) عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ عَلَّقَ تَمِيمَةً فَقَدْ أَشْرَكَ»، وفي رواية: «مَنْ تَعَلَّقَ تَمِيمَةً فَلا أَتَمَّ اللهُ لَهُ، وَمَنْ تَعَلَّقَ وَدَعَةً(٥) فَلا وَدَعَ اللهُ لَهُ»(٦).

وعن العلاء، عن أبيه، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قَالَ اللهُ: أَنَا أَغْنَىٰ الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، وَمَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ». رواه مسلم(٧).

وعن أبي سعيد بن أبي فضالة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِذَا جَمَعَ اللهُ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ لِيَوْمٍ لا رَيْبَ فِيهِ، يُنَادِي مُنَادٍ: مَنْ كَانَ أَشْرَكَ فِي عَمَلٍ عَمِلَهُ للهِ فَلْيَطْلُبْ ثَوَابَهُ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ، فَإِنَّ اللهَ أَغْنَىٰ الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ»(٨). رواه أحمد.

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا يونس، حدَّثنا لَيْث، عن يزيد -يعني: ابن الهاد- عن عمرو، عن محمود ابن لبيد، أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ الشِّرْكُ الأَصْغَرُ». قالوا: وما الشِّرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: «الرِّيَاءُ، يَقُولُ اللهُ يَوْمَ القِيَامَةِ إِذَا جَزَىٰ النَّاسَ بِأَعْمَالِهِمْ: اذْهَبُوا إِلَىٰ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُرَاءُونَ فِي الدُّنْيَا، فَانْظُرُوا هَلْ تَجِدُونَ عِنْدَهُمْ جَزَاءً»(٩).

وقد رواه إسماعيل بن جعفر، عن عمرو بن أبي عمرو مولىٰ المطلب، عن عاصم بن [عمر بن

---

(١) **صحيح**: رواه أحمد (١/ ٣٨١)، وانظر: «الصحيحة» للألباني (١/ ٣٣١).

(٢) في (ز): «حكيم»، وهو خطأ.

(٣) **حسن لغيره**: أحمد (٤/ ٣١٠)، وإسناده مرسل، لكن له شواهد استوفاها الألباني في «غاية المرام» (٢٩٧) وحسن الحديث، ومن هذه الشواهد ما أشار إليه من رواية أبي هريرة عند النسائي (٧/ ١١٢)، وفي إسناده انقطاع.

(٤) في (ز): «عن».

(٥) **الوَدَع**: جمع وَدَعَة، وهو شيءٌ أبيضُ يُجْلَب من البحر يُعلَّق في حُلُوق الصِّبْيان وغَيْرِهم. وإنَّما نَهَىٰ عنها لأنهم كانوا يُعَلِّقُونها مَخافَةَ العَيْن. وقوله: «لا وَدَعَ اللهُ لَهُ»؛ أي: لا جعله في دَعَةٍ وسُكُونٍ، وقيل: هو لفظٌ مبنيٌّ من الوَدَعَة؛ أي: لا خَفَّفَ الله عنه ما يَخافُه. «النهاية».

(٦) **حسن**: الترمذي (٣١٥٢)، وابن ماجة (٤٢٠٣)، وأحمد (٣/ ٤٦٦)، وابن حبان (٤٠٤، ٧٣٤٥)، وإسناده حسن من أجل زياد ابن ميناء: ذكره ابن حبان في «الثقات»، وقال ابن المديني: سنده صالح، انظر: «الإصابة» (٤/ ٨٦)، ويشهد له الحديث السابق.

(٧) رواه مسلم (٢٩٨٥).

(٨) **صحيح**: رواه أحمد (٤/ ٢١٥)، وابن ماجة (٤٢٠٣)، والترمذي (٣١٥٤).

(٩) **حسن**: أحمد (٥/ ٤٢٨)، وفي إسناده ليث بن أبي سليم: اختلط ولم تتميَّز أحاديثه فترك، لكن للحديث طريق أخرىٰ عند أحمد وغيره، وجود الألباني إسناده في «الصحيحة» (٩٥١).

قتادة][1]، عن محمود بن لَبِيد به.

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا حسن، أنبأنا ابن لَهِيعة، أنبأنا ابن هُبَيْرة، عن أبي عبد الرحمن الحُبُلي، عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ رَدَّتْهُ الطِّيَرَةُ [عَنْ][2] حَاجَةٍ، فَقَدْ أَشْرَكَ**». قالوا: يا رسول الله، ما كفارة ذلك؟ قال: «**أَنْ يَقُولَ أَحَدُهُمْ: اللَّهُمَّ لا خَيْرَ إِلَّا خَيْرُكَ، وَلا طَيْرَ إِلَّا طَيْرُكَ، وَلا إِلَهَ غَيْرُكَ**»[3].

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا عبد الله بن نمير، حدَّثنا عبد الملك بن أبي سليمان [العَرْزَمي][4]، عن أبي علي -رجل من بني كاهل- قال: خَطَبَنَا أبو موسىٰ الأشعري فقال: [يا][5] أيُّها الناس، اتَّقوا هذا الشِّرك، فإنَّه أخفىٰ مِن دَبِيب النَّمل. فقام عبد الله بن حَزْن وقيس بن المضارب فقالا: والله لتَخْرُجَنَّ مما قُلْت أو لنأتين عُمر [مأذونًا][6] لنا أو غير مأذون، قال: بل أخرج مما قلت، خطبنا رسول الله ﷺ [ذات يوم][7] فقال: «[يا][8] **أَيُّهَا النَّاسُ، اتَّقُوا هَذَا الشِّرْكَ؛ فَإِنَّهُ أَخْفَىٰ مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ**». فقال له مَن شاء الله أن يقول: فكيف نَتَّقِيه وهو أخفىٰ مِن دبيب النَّمل يا رسول الله؟ قال: «**قُولُوا: اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنْ أَنْ نُشْرِكَ بِكَ شَيْئًا نَعْلَمُهُ، وَنَسْتَغْفِرُكَ لِمَا لا نَعْلَمُهُ**»[9].

وقد رُوِيَ مِن وجهٍ آخر، وفيه أنَّ السائل في ذلك هو الصِّدِّيق، كما رواه الحافظ أبو يعلىٰ الموصلي، مِن حديث عبد العزيز بن مسلم، عن لَيْث بن أبي سليم، عن أبي محمَّد، عن مَعْقِل بن يَسَار قال: شهدت النَّبيَّ ﷺ -أو قال: حدَّثني أبو بكر الصديق عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**الشِّرْكُ أَخْفَىٰ فِيكُمْ مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ**». فقال أبو بكر: وهل الشرك إلا مَن دعا مع الله إلهًا آخر؟ فقال رسول الله ﷺ: «**الشِّرْكُ فِيكُمْ أَخْفَىٰ مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ**». ثم قال: «**أَلا أَدُلُّكَ عَلَىٰ مَا يُذْهِبُ عَنْكَ صَغِيرَ ذَلِكَ وَكَبِيرَهُ؟ قُلِ: اللَّهُمَّ، أَعُوذُ بِكَ أَنْ أُشْرِكَ بِكَ وَأَنَا أَعْلَمُ، وَأَسْتَغْفِرُكَ [مِمَّا][10] لا أَعْلَمُ**»[11].

وقد رواه الحافظ أبو القاسم البغوي، عن شيبان بن [فَرُّوخ][12]، عن يحيىٰ بن كثير، عن الثوري،

---

(١) ما بين المعقوفتين في (ز): «عمرو عن قتادة»، وهو خطأ.

(٢) في (ز): «من»، والمثبت موافق لما في «المسند».

(٣) **صححه الألباني**: رواه أحمد (٢/ ٢٢٠)، وفيه ابن لهيعة، لكن رواه ابن السني (٢٨٧) من طريق عبد الله بن وهب عن ابن لهيعة وعليه فالإسناد صحيح، وانظر «الصحيحة» (٣٠٦٥).

(٤) في (ز): «العرزي»، وهو خطأ.

(٥) سقط من (ز).

(٦) في (ز): «مأذون»، والمثبت كما في «المسند».

(٧) سقط من (ز).

(٨) سقط من (ز).

(٩) **حسن لغيره**: رواه أحمد (٤/ ٤٠٣)، من حديث أبي موسىٰ الأشعري، ورواه بمعناه أبو يعلىٰ (٦٠، ٦١)، من حديث أبي بكر الصديق، وفيه ليث بن أبي سليم: لم تتميز أحاديثه فترك.

ولكن بمجموع ذلك فالحديث حسن، وبهذا رمز له الشيخ الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣٦).

(١٠) في (ز): «لما».

(١١) انظر التعليق السابق.

(١٢) في (ز): «فروج»، وهو خطأ.

عن إسماعيل بن أبي خالد، عن قيس بن أبي حازم، عن أبي بكر الصديق قال: قال رسول الله ﷺ: «الشِّرْكُ أَخْفَىٰ فِي أُمَّتِي مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ عَلَىٰ [الصَّفَا][1]». قال: فقال أبو بكر: يا رسول الله، فكيف النَّجاة والمخرج من ذلك؟ فقال: «أَلَا أُخْبِرُكَ بِشَيْءٍ إِذَا قُلْتَهُ بَرِئْتَ مِنْ قَلِيلِهِ وَكَثِيرِهِ وَصَغِيرِهِ وَكَبِيرِهِ؟». قال: بلىٰ، يا رسول الله، قال: «قُلِ: اللَّهُمَّ، إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أُشْرِكَ بِكَ وَأَنَا أَعْلَمُ، وَأَسْتَغْفِرُكَ لِمَا لَا أَعْلَمُ»[2] قال الدارقطني: «يحيىٰ بن كثير» هذا يقال له: «أبو النضر»: متروك الحديث.

وقد روىٰ الإمام أحمد، وأبو داود، والترمذي وصححه، والنَّسائي، من حديث يعلىٰ بن عطاء، سمعت عمرو بن عاصم سمعت أبا هريرة قال: قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: يا رسول الله، عَلِّمْنِي شيئًا أقوله إذا أصبحتُ، وإذا أمسيتُ، وإذا أخذتُ مضجعي. قال: «قُلِ: اللَّهُمَّ، فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ، عَالِمَ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، رَبَّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكَهُ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ نَفْسِي، وَمِنْ شَرِّ الشَّيْطَانِ وَشَرَكِهِ»[3].

وزاد أحمد في رواية له من حديث ليث بن أبي سليم، [عن مجاهد][4]، عن أبي بكر [الصديق][5] قال: أمرني رسول الله ﷺ أن أقول. فذكر هذا الدعاء وزاد في آخره: «وَأَنْ أَقْتَرِفَ عَلَىٰ نَفْسِي سُوءًا أَوْ أَجُرَّهُ إِلَىٰ مُسْلِمٍ»[6].

وقوله: ﴿أَفَأَمِنُوٓا۟ أَن تَأْتِيَهُمْ غَـٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: أفأمن هؤلاء المشركون أن يأتيهم أمر يغشاهم من حيث لا يشعرون، كما قال تعالىٰ: ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ٤٥ -٤٧]، وقال تعالىٰ: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَـٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٧ -٩٩].

﴿قُلْ هَـٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾

يقول [الله][7] تعالىٰ لعبده ورسوله إلىٰ الثَّقلين: الإنس والجنِّ، آمرًا له أن يخبر النَّاس: أنَّ هذه

---

(١) في (ز): «الصفاء».
(٢) إسناده ضعيف جدًّا: وعلّته يحيىٰ بن كثير أبو النضر: متروك الحديث، لكن الحديث حسن في الروايات الأخرىٰ السابقة.
(٣) صحيح: أبو داود (٥٠٦٧)، والترمذي (٣٣٨٩)، وابن حبان (٩٦٢).
(٤) في (ز): «مجالد»، وهو خطأ، والمثبت كما في «المسند».
(٥) سقط من (ز).
(٦) صحيح: رواه أحمد (١/ ١٤)، وفيه ليث بن أبي سليم: تركت أحاديثه، لكن للحديث شواهد، انظر: «الصحيحة» (٢٧٦٣).
(٧) سقط من (ز).

سبيله؛ أي: طريقه ومسلكه وسُنَّته، وهي الدعوة إلىٰ شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، يدعو إلىٰ الله بها علىٰ بَصِيرةٍ مِن ذلك، ويقينٍ وبرهانٍ، هو وكلُّ مَن اتَّبعه، يدعو إلىٰ ما دعا إليه رسول الله ﷺ علىٰ بصيرةٍ ويقينٍ، وبرهانٍ شرعيٍّ وعقليٍّ. وقوله: ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ﴾ أي: وأُنزِّهُ اللهَ وأُجِلُّه وأُعظِّمُهُ وأُقدِّسُهُ، عن أن يكون له شريك أو نظير، أو عديل أو نديد، أو ولد أو والد أو صاحبة، أو [وزير][1] أو مشير، تبارك وتعالىٰ وتقدَّس، وتنزَّه عن ذلك كلِّه علوًّا كبيرًا، ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤].

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٠٩)﴾

يخبر تعالىٰ أنَّه إنَّما أرسلَ رسُلَه من الرِّجال لا من النِّساء. وهذا قول جمهور العلماء، كما دلَّ عليه سياق هذه الآية الكريمة: أنَّ الله تعالىٰ لم يُوحِ إلىٰ امرأةٍ من بنات بني آدم وَحيَ تشريعٍ.

وزعم بعضهم: أنَّ سارَّة امرأة الخليل، وأمَّ موسىٰ، ومريمَ أمَّ عيسىٰ نَبيَّاتٌ، واحتجُّوا بأنَّ الملائكة بشَّرت سارَّة بإسحاق، ومن وراء إسحاق يعقوب، وبقوله: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ الآية. [القصص: ٧]، وبأنَّ المَلَك جاء إلىٰ مريم فبشَّرها بعيسىٰ عليه السلام، وبقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ (٤٢) يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [آل عمران: ٤٢، ٤٣].

وهذا القَدر حاصلٌ لهُنَّ، ولكن لا يلزم مِن هذا أن يَكُنَّ نَبيَّاتٍ بذلك، فإن أراد القائل بنُبُوَّتِهنَّ هذا القَدْرَ مِن التَّشريف، فهذا لا شَكَّ فيه، ويبقىٰ [الكلام][2] معه في أنَّ هذا: هل يكفي في الانتظام في سلك النُّبوَّة بمجرَّده أم لا؟ الذي عليه أئمَّة أهل السُّنَّة والجماعة، وهو الذي نقله الشيخ أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري عنهم: أنَّه ليس في النِّساء نَبيَّةٌ، وإنَّما فيهنَّ صِدِّيقاتٌ[3]، كما قال تعالىٰ مخبرًا عن أشرفهن مريمَ بنت عمران حيث قال: ﴿مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ [المائدة: ٧٥] فوصفها في أشرف مقاماتها بالصدِّيقيَّة، فلو كانت نبيَّةً لذَكَر ذلك في مقام التَّشريف والإعظام، فهي صدِّيقةٌ بنصِّ القرآن.

(١) سقط من (ز). (٢) سقط من (ز).

(٣) قال الشوكاني رحمه الله: وتدل الآية علىٰ أن الله -سبحانه- لم يبعث نبيًّا من النساء ولا من الجنّ، وهذا يردّ علىٰ من قال: إن في النساء أربع نبيات: حواء، وآسية، وأم موسىٰ، ومريم. وقد كان بعثة الأنبياء من الرجال دون النساء أمرًا معروفًا عند العرب، حتىٰ قال قيس بن عاصم في سجاح المتنبئة:

أضحت نبيتنا أنثىٰ نطيف بها ... وأصبحت أنبياء الله ذكرانا

فلعنة الله والأقوام كلهم ... علىٰ سجاح ومن باللوم أغرانا

وقال الضَّحَّاك، عن ابن عبَّاس في قوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ أي: ليسوا مِن أهل السَّماء كما قلتم. وهذا القَول مِن ابن عبَّاس يعتضد بقوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ الآية [الفرقان: ٢٠]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ۝٨ ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنبياء: ٨، ٩]، وقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ الآية [الأحقاف: ٩].

وقوله: ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ المراد[1] بالقرىٰ: المدن، لا أنَّهم مِن أهلِ البوادي، الذين هم أجفىٰ النَّاس طباعًا وأخلاقًا. وهذا هو المعهود المعروف أنَّ أهل المدن أرقُّ طباعًا، وألطفُ مِن أهل سوادهم[2]، وأهل الرِّيف والسَّواد أقرب حالًا من الَّذِين يسكنون في البوادي؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ [التوبة: ٩٧].

وقال قتادة في قوله: ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ لأنَّهم أعلم وأحلم مِن أهل العَمُود.

وفي الحديث الآخر: أنَّ رجلًا من الأعراب أهدىٰ لرسول الله ﷺ ناقةً، فلم يزل يعطيه ويزيده حتىٰ رضي، فقال رسول الله ﷺ: «**لَقَدْ هَمَمْتُ أَلَّا أَتَّهِبَ**[3] **هِبَةً إِلَّا مِنْ قُرَشِيٍّ، أَوْ أَنْصَارِيٍّ، أَوْ ثَقَفِيٍّ، أَوْ دَوْسِيٍّ**»[4].

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا حجاج، حدَّثنا شعبة، عن الأعمش، عن يحيىٰ بن وثاب، عن شيخ من أصحاب رسول الله ﷺ -قال الأعمش: هو [ابن][5] عمر- عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**الْمُؤْمِنُ الَّذِي يُخَالِطُ النَّاسَ وَيَصْبِرُ عَلَىٰ أَذَاهُمْ خَيْرٌ مِنَ الَّذِي لا يُخَالِطُهُمْ وَلا يَصْبِرُ عَلَىٰ أَذَاهُمْ**»[6].

وقوله: [﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يعني: هؤلاء المكذِّبين لك يا محمَّد في الأرض، ﴿فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: من الأمم المكذبة للرسل، كيف دمَّر الله عليهم، وللكافرين أمثالها، كقوله:][7] ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]، فإذا استمعوا خبر ذلك، رأوا أنَّ الله قد أهلك الكافرين ونَجَّىٰ المؤمنين، وهذه كانت سُنَّته تعالىٰ في خلقه؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟﴾ أي: وكما أنجينا المؤمنين في الدُّنيا، كذلك كتبنا لهم النَّجاة في الدَّار الآخرة أيضًا، وهي خيرٌ لهم منَ الدُّنيا بكثيرٍ، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ

---

(١) في (ز): «والمراد».

(٢) السَّواد: هو ما حول المدينة من القرىٰ، ومنه سواد الكوفة والبصرة؛ أي: قُراها.

(٣) أتهب: أقبل هدية.

(٤) صحيح: رواه أبو داود (٢٢٥٦)، والترمذي (٣٩٤٥)، والنسائي (٧/ ١٩٥).

(٥) سقط من (ز)، وإثباتها الصواب، وهو موافق لما في «المسند».

(٦) صحيح: أحمد (٢/ ٤٤)، ورواه الترمذي (٢٥٠٩).

(٧) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

﴿ٱلْأَشْهَٰدُ ۝٥١ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ [غافر: ٥٠، ٥١].

وأضاف الدَّار إلىٰ الآخرة فقال: ﴿وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ كما يقال: «صلاة الأُولَىٰ»، و«مسجد الجامع» و«عامُ الأوَّل»، و «بارحة الأولىٰ»، و«يوم الخميس». قال الشاعر:

أَتَمْـدَحُ فَقْعَسًا وَتَـذُمُّ عَبْسًا ... أَلَا للهِ أُمُّـكَ مِـنْ هَجِينِ (١)

وَلَـوْ [أَقْـوَتْ](٢)(٣) عَلَيْـكَ دِيَـارُ عَبْسٍ ... عَرَفْـتَ الـذُّلَّ عِرْفَـانَ اليَقِـينِ

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝١١٠﴾

يخبر تعالىٰ أنَّ نصره يَنْزِلُ علىٰ رسله -صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين- عند ضِيقِ الحال وانتظارِ الفرج منَ الله تعالىٰ في أحوج الأوقات إلىٰ ذلك، كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤]، وفي قوله: ﴿كُذِبُواْ﴾ قراءتان، [إحداهما](٤) بالتشديد: «قَدْ كُذِّبُوا»(٥)، وكذلك كانت عائشة ﵂ تقرؤها.

قال البخاري: حدَّثنا عبد العزيز بن عبد الله، حدَّثنا إبراهيم بن سعد، عن صالح، عن ابن شهاب قال: أخبرني عروة بن الزبير، عن عائشة قالت له وهو يسألها عن قول الله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ﴾ قال: قلتُ: أَكُذِبوا أم كُذِّبوا؟ فقالت عائشة: كُذِّبوا. فقلتُ: فقد استيقنوا أنَّ قومهم قد كَذَّبوهم فما هو بالظَّنِّ؟ [قالت](٦): أجل، لعمري لقد استيقنوا بذلك. فقلت لها: وظنُّوا أنهم قد كذبوا؟ قالت: معاذ الله، لم تكن الرسل تظن ذلك بربها. قلتُ: فما هذه الآية؟ قالت: هم أتباع الرُّسل الَّذِين آمنوا بربِّهم وصدَّقُوهم، فطال عليهم البلاء، واستأخر عنهم النَّصر، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ﴾ ممَّن كذَّبهم من قومهم، وظنَّت الرُّسل أنَّ أتباعهم قد كذَّبوهم، جاءهم نصرُ الله عند ذلك(٧).

حدَّثنا أبو اليمان، أنبأنا شعيب، عن الزهري قال: أخبرني عُرْوَة، فقلتُ: لعلها «قَدْ كُذِبُوا» مخففة؟ قالت: معاذ الله. انتهىٰ ما ذكره.

وقال ابن جُرَيْج: أخبرني ابن أبي مُلَيكة، أن ابن عبَّاس قرأها: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ﴾ -خفيفة- قال عبد الله -هو ابن [أبي](٨) مُلَيكة-: ثم قال لي ابن عبَّاس: كانوا بشرًا، وتلا ابن عبَّاس: ﴿حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤]، قال ابن جريج: وقال لي ابن أبي

---

(١) الهجين: ولد العربي من غير العربية.
(٢) في (ز): «أقرت».
(٣) أقوت الدار: خلت من سكانها.
(٤) في (ز): «أحديهما».
(٥) متواترة: قَرَأَ (كُذِبُوا) عَاصِمٌ وَحَمْزَةُ وَالْكِسَائِيُّ وَخَلَفٌ (فِي اخْتِيَارِهِ) وَأَبُو جَعْفَرٍ وَوَافَقَهُمُ الْأَعْمَشُ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ (كُذِّبُوا).
(٦) في (ز): «قال»، وهو خطأ.
(٧) البخاري (٤٦٩٥، ٤٦٩٦).
(٨) سقط من (ز).

مليكة: وأخبرني عروة عن عائشة: أنَّها خالفت ذلك وأَبَتْهُ، وقالت: ما وعد الله محمَّدًا ﷺ مِن شيءٍ إلَّا قد علم أنَّه سيكون حتىٰ مات، ولكنَّه لم يزل البلاء بالرُّسل حتىٰ ظنُّوا أنَّ مَن معهم من المؤمنين قد كذَّبوهم. قال ابن أبي مليكة في حديث عروة: كانت عائشة تقرؤها: «وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا» مثقَّلة، للتَّكذيب(١).

وقال ابن أبي حاتم: أنا يونس بن عبد الأعلىٰ قراءةً، أنا ابن وهب، أخبرني سليمان بن بلال، عن يحيىٰ ابن سعيد قال: جاء إنسان إلىٰ القاسم بن محمَّد فقال: إن محمَّد بن كعب القرظي يقول هذه الآية: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ﴾ فقال القاسم: أَخْبِرْهُ عَنِّي أنِّي سمعت عائشة زوج النَّبيِّ ﷺ تقول: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِّبُوا﴾ تقول: كذبتهم أتباعهم(٢). إسناد صحيح أيضًا.

والقراءة الثانية بالتَّخفيف، واختلفوا في تفسيرها، فقال ابن عبَّاس ما تقدم، وعن ابن مسعود، فيما رواه سفيان الثوري، عن الأعمش، عن أبي الضُّحىٰ، عن مسروق، عن عبد الله أنه قرأ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ﴾ مخففة، قال عبد الله: هو الذي تكره(٣).

وهذا عن ابن مسعود وابن عبَّاس ﵄ - مخالف لما رواه آخرون عنهما. أما ابن عبَّاس فروىٰ الأعمش، عن مسلم، عن ابن عبَّاس في قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ﴾ قال: لما أَيِسَت الرُّسل أن يَسْتَجِيب لهم قومهم، وظنَّ قومهم أنَّ الرُّسل قد كذَّبوهم، جاءهم النَّصر علىٰ ذلك، ﴿فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُ﴾(٤).

وكذا روي عن سعيد بن جبير، وعمران بن الحارث السلمي، وعبد الرحمن بن معاوية وعلي بن أبي طلحة، والعوفي عن ابن عبَّاس بمثله.

وقال ابن جرير: حدَّثني المثنىٰ، حدَّثنا عارم أبو النعمان، حدَّثنا حماد بن زيد، حدَّثنا شعيب، حدَّثنا إبراهيم بن أبي [حُرة الجزرِيّ](٥) قال: سأل فتًىٰ من قريشٍ سعيدَ بن جبير فقال له: يا أبا عبد الله، كيف هذا الحَرْف، فإنِّي إذا أتيت عليه تمنَّيت أني لا أقرأ هذه السورة: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ﴾؟ قال: نعم، حتىٰ إذا استيأس الرُّسل مِن قومهم أن يصدِّقوهم، وظَنَّ المرسَلُ إليهم أنَّ الرسل كَذَبوا. فقال الضَّحَّاك بن مزاحم: ما رأيت كاليوم قط رَجُلًا يُدْعَىٰ إلىٰ عِلْمٍ فيتلَكَّأ! لو [رَحلْتُ](٦) في هذه إلىٰ اليمن كان قليلًا(٧).

ثم روىٰ ابن جرير أيضًا من وجه آخر: أن مسلم بن يَسَار سأل سعيد بن جبير عن ذلك، فأجابه بهذا الجواب، فقام إلىٰ سعيد فاعتنقه، وقال: فرَّج الله عنك كما فَرجت عني.

---

(١) صحيح: رواه الطبري (١٣/ ٨٦-٨٧)، والبخاري (٤٥٢٤) (٤٥٢٥) مختصرًا.

(٢) صحيح: رواه ابن أبي حاتم (١٢٠٦٣).

(٣) رواه الطبري (١٣/ ٨٦). ورواه أيضًا عن ابن عبَّاس.

(٤) صحيح: الطبري (١٣/ ٨٢)، وله طرق عن ابن عبَّاس أوردها الطبري أيضًا.

(٥) في (ز): «حمزة الجزري»، وهو خطأ، والمثبت موافق لما في الطبري، وغيره.

(٦) في (ز): «دخلت».

(٧) الطبري (١٣/ ٨٤).

وهكذا روي من غير وجه عن سعيد بن جبير أنه فسَّرها كذلك، وكذا فسَّرها مجاهد بن جَبْر، وغير واحدٍ من السَّلف، حتىٰ إن مجاهدًا قرأها: «وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كَذَبُوا» بفتح الذَّال. رواه ابن جرير، إلا أن بعض من فسَّرها كذلك يعيد الضمير في قوله: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ﴾ إلىٰ أتباع الرُّسل من المؤمنين، ومنهم مَن يُعيدُه إلىٰ الكافرين منهم؛ أي: وظنَّ الكفَّار أنَّ الرسل قد كَذبوا -مخففة- فيما وعدوا به من النصر.

وأمَّا ابن مسعود فقال ابن جرير: حدَّثنا القاسم، حدَّثنا الحسين، حدَّثنا محمَّد بن [فضيل][(١)]، عن [جَحش][(٢)] بن زياد الضبي، عن تميم بن [حَذْلَم][(٣)] قال: سمعت عبد الله بن مسعود يقول في هذه الآية: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ﴾ من إيمان قومهم أن يؤمنوا بهم، وظَنَّ قومهم حين أبطأ الأمر أنهم قد كُذِبُوا، بالتخفيف[(٤)].

فهاتان الروايتان عن كل من ابن مسعود وابن عبَّاس، وقد أنكرت ذلك عائشة علىٰ من فسرها بذلك، وانتصر لها ابن جرير، ووَجَّهَ المشهورَ عن الجمهور، وزَيَّفَ [القول][(٥)] الآخر بالكليَّة، وردَّهُ وأباه، ولم يقبله ولا ارتضاه[(٦)]، والله أعلم.

﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ١١١﴾

يقول تعالىٰ: لقد كان في خبر المرسلين مع قومهم، وكيف أنجينا المؤمنين وأهلكنا الكافرين ﴿عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ وهي العقول، ﴿مَا كَانَ حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ﴾ أي: وما كان لهذا القرآن يُفترىٰ من دون الله؛ أي: يُكذبُ ويُختلَق، ﴿وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ أي: من الكتب المنزَّلة من السَّماء، هو يصدق ما فيها من الصحيح، وينفي ما وقع فيها من تحريفٍ وتبديلٍ وتغييرٍ، ويحكم عليها بالنَّسخ أو التَّقرير، ﴿وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ من تحليلٍ وتحريمٍ، ومحبوبٍ ومكروهٍ، وغير ذلك من الأمر بالطَّاعات الواجبات والمستحبَّات، والنَّهي عن المحرَّمات، وما شاكلها من المكروهات، والإخبار عن الأمور علىٰ الجليَّة، وعن الغيوب المستقبلة المجملة والتفصيليَّة، والإخبار عن الرب تبارك وتعالىٰ والصفات، وتنزيهه عن مماثلة المخلوقات، فلهذا كان: ﴿وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ تهتدي به قلوبهم من الغيِّ إلىٰ الرشاد، ومن الضَّلالة إلىٰ السَّداد، ويبتغون به الرَّحمة من رَبِّ العباد، في هذه الحياة الدنيا ويوم المعاد. فنسأل الله العظيم أن يجعلنا منهم في الدنيا والآخرة، يوم يفوز بالرِّبح المُبيَضَّة وجوههم النَّاضرة، ويرجع المسودَّة وجوهُهم بالصفقة الخاسرة.

آخر «سورة يوسف»، ولله الحمد والمنَّة، وبه المستعان، وعليه التُّكلان، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

---

(١) في (ز): «وصل»، وهو خطأ.
(٢) في (ز): «محش»، وهو تحريف، والمثبت موافق لما في «الطبري».
(٣) في (ز): «حدم»، وهو خطأ.
(٤) الطبري (١٣/ ٨٥).
(٥) في (ز): «المقول».
(٦) انظر: الطبري (١٣/ ٨٥، ٨٦، ٨٧).

سُورَةُ الرَّعْدِ

تفسير سورة الرعد وهي مكية[1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓمٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ①﴾

أمَّا الكلام علىٰ الحروف المقطعة في أوائل السور، فقد تقدَّم في أوَّل سورة البقرة، وقَدَّمنا أنَّ كل سورة تَبتدئ بهذه الحروف؛ ففيها الانتصار للقرآن، وتِبْيَان أنَّ نزوله[2] من عند الله حقٌّ لا شكَّ فيه ولا مِرْيةَ ولا ريب؛ ولهذا قال: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: هذه آيات الكتاب، وهو القرآن، وقيل: التوراة والإنجيل. قاله مجاهد وقتادة، وفيه نظرٌ، بل هو بعيدٌ.

ثم عطف علىٰ ذلك عطف صفات قوله: ﴿وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ أي: يا محمَّد، ﴿مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ﴾ خبر تقدم مبتدؤه، وهو قوله: ﴿وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ هذا هو الصحيح المطابق لتفسير مجاهد وقتادة. واختار ابن جرير أن تكون الواو زائدةً أو عاطفةً صفةً علىٰ صفةٍ كما قدمنا، واستشهد بقول الشاعر:

إِلَىٰ المَلِكِ القَرْمِ وَابْنِ الهُمَامِ ... وَلَيْثِ الكَتِيبَةِ[3] فِي المُزْدَحَمْ

وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ كقوله: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣] أي: مع هذا البيان والجلاء والوضوح، لا يُؤْمِن أكثرهم لما فيهم من الشِّقاق والعناد والنفاق.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَاۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّىۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ②﴾

يخبر الله تعالىٰ عن كمال قدرته وعظيم سلطانه: أنَّه[4] الذي بإذنه وأمرِهِ رَفَع السماوات بغيرِ عمَد، بل بإذنِهِ وأمره وتسخيره رفعها عن الأرض بُعدًا لا تُنَال ولا يدرك[5] مداها، فالسَّماء الدُّنيا محيطة بجميع الأرض وما حولها من المَاء والهواء مِن جميع نواحيها وجهاتها وأرجائها، مرتفعة عليها من كل جانبٍ علىٰ السواء، وبُعد ما بينها وبين الأرض مِن كلِّ ناحيةٍ مسيرة خمسمائة عام، وسمكها [في نفسها مسيرة][6] خمسمائة عام. ثم السَّماء الثانية محيطة بالسَّماء الدُّنيا وما حوت، وبينها وبينها من البعد مسيرة خمسمائة عام، وسمكها خمسمائة عام، ثم السماء الثالثة محيطة بالثانية، بما فيها، وبينها وبينها

---

(١) بعدها بياض في (ز) بمقدار سبعة أسطر.

(٢) في (ز): (أن نزول).

(٣) في (ز): بالثاء المثلثة.

(٤) سقط من (ز).

(٥) في (ز): تدرك.

(٦) سقط من (ز).

خمسمائة [عام][١]، وسمكها خمسمائة عام، وهكذا الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة، كما قال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق: ١٢] وفي الحديث: «مَا السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَمَا فِيهِنَّ وَمَا بَيْنَهُنَّ فِي الكُرْسِيِّ إِلَّا كَحَلْقَةٍ مُلْقَاةٍ بِأَرْضِ فَلَاةٍ، وَالكُرْسِيُّ فِي العَرْشِ كَتِلْكَ الحَلْقَةِ فِي تِلْكَ الفَلَاةِ»[٢] وفي رواية: «وَالعَرْشُ لَا يُقْدِرُ قَدْرَهُ إِلَّا اللهُ ﷻ»[٣]، وجاء عن بعض السلف أَنَّ بُعْدَ ما بين العرش إلىٰ الأرض مسيرة خمسين ألف سنة، وبعد ما بين قطريه مسيرة خمسين ألف سنة، وهو مِن ياقوتةٍ حمراء[٤].

وقوله: ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ روي عن ابن عبَّاس، ومجاهد، والحسن، وقتادة أنهم قالوا: لها عَمَدٌ ولكن لا ترىٰ[٥].

وقال إياس بن معاوية: السَّماء علىٰ الأرض مثل القبة؛ يعني: بلا عمد. وكذا رُوِيَ عن قتادة، وهذا هو اللائق بالسياق، والظاهر من قوله تعالىٰ: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ [الحج: ٦٥] فعلىٰ هذا يكون قوله: ﴿تَرَوْنَهَا﴾ تأكيدًا[٦] لنفي ذلك؛ أي: هي مرفوعةٌ بغير عمدٍ كما ترونها. وهذا هو الأكمل في القدرة. وفي شعر أمية بن أبي[٧] الصَّلْت الذي آمن شعره وكفر قلبه، كما ورد في الحديث[٨] ويروىٰ لزيد بن عمرو بن نُفَيل رحمه الله ورضي عنه:

وَأَنْتَ الَّذِي مِنْ فَضْلِ مَنٍّ وَرَحْمَةٍ ... بَعَثْتَ إِلَىٰ مُوسَىٰ رَسُولًا مُنَادِيَا
فَقُلْتَ لَهُ: فَاذْهَبْ وَهَارُونَ فَادْعُوَا ... إِلَىٰ اللهِ فِرْعَوْنَ الَّذِي كَانَ طَاغِيَا
وَقُولَا لَهُ: هَلْ أَنْتَ سَوَّيْتَ هَذِهِ ... بِلَا [وَتِدٍ حَتَّىٰ اطْمَأَنَّتْ كَمَا هِيَا؟
وَقُولَا لَهُ: أَأَنْتَ رَفَعْتَ هَذِهِ ... بِلَا][٩] عَمَدٍ أَرْفِقْ إِذًا بِكَ بَانِيَا؟
وَقُولَا لَهُ: هَلْ أَنْتَ سَوَّيْتَ وَسْطَهَا ... مُنِيرًا إِذَا مَا [جَنَّكَ][١٠] اللَّيْلُ هَادِيَا؟

---

(١) ليست في (ز).
(٢) **صححه الألباني**: رواه محمَّد بن أبي شيبة في «العرش» (٥٨)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (ص٢٩)، وانظر: «العظمة» لأبي الشيخ (٢٠٦، ٢٢٠، ٢٥٢، ٢٥٩)، وقد أورد الشيخ الألباني طرقه في «الصحيحة» (١٠٩) وحكم عليه بالصحة.
(٣) طرف الحديث السابق.
(٤) رواه أبو الشيخ في «العظمة» (٣/ ٢١٤)، ومحمَّد بن عثمان بن أبي شيبة في كتاب «العرش» (٤٧) عن سعد الطائي من قوله. وهو تابعي، ولا يصح ثبوت ذلك إلا بالأحاديث الصحيحة؛ لأنها من الأمور الغيبية.
(٥) رواه الطبري (١٣/ ٩٣)، وابن أبي حاتم (٧/ ١٢٠٨٩).
(٦) في (ز): (تأكيد)، وهو خطأ.
(٧) سقط من (ز).
(٨) **ضعيف جدًّا**: أخرجه ابن عبد البر (٤/ ٧) وفي إسناده أبو بكر الهُذَلي: متروك، والثابت في الحديث: «كاد أميةُ بنُ أبي الصَّلت أن يُسلمَ»: رواه البخاري (٣٨٤١)، ومسلم (٢٢٥٦).
(٩) سقط من (ز)، وهي مثبتة من «ابن هشام».
(١٠) في (ز): (جنه).

[وَقُـولا لَـهُ: مَـنْ يُرْسِـلُ الشَّمْسَ غُـدْوَةً فَيُصْبِحَ مَـا مَسَّتْ مِـنَ الأَرْضِ ضَـاحِيَا؟][(١)]
وَقُـولا لَـهُ: مَـنْ يُنْبِتُ الحَبَّ فِـي الثَّرَىٰ فَيُـصْبِحَ مِنْـهُ العُـشْبُ يَهْتَـزُّ رَابِيَـا؟
وَيُخْـرِجُ مِنْـهُ حَبَّـهُ فِـي رُءُوسِـهِ فَفِـي ذَاكَ آيَـاتٌ لِمَـنْ كَـانَ وَاعِيَـا

وقوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ تقدم تفسير ذلك في سورة «الأعراف» وأنه [يُمَرَّر][(٢)] كما جاء مِن غير تكييفٍ، ولا تشبيهٍ، ولا تعطيل، ولا تمثيل، تعالى الله علوًّا كبيرًا.

وقوله: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ قيل: المراد أنهما يجريان إلىٰ انقطاعهما بقيام الساعة، كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [يس: ٣٨].

وقيل: المراد: إلىٰ مستقرهما، وهو تحت العرش مما يَلِي بطن[(٣)] الأرض مِن الجانب الآخر، فإنَّهما وسائر الكواكب إذا وصلوا هنالك، يكونون أبعد ما يكون عن العرش؛ لأنَّه علىٰ الصحيح الذي تقومُ عليه الأدلَّة، قُبَّةٌ مما يلي العالم من هذا الوجه، وليس بمحيط كسائر الأفلاك؛ لأنَّه له قوائم وحَمَلَةٌ يحملونه. ولا يتصوَّر هذا في الفَلَكِ المستدير، وهذا واضحٌ لمن تَدَبَّر ما وَرَدَتْ به الآيات والأحاديث الصحيحة، ولله الحمد والمنة.

وذكر الشَّمس والقمر؛ لأنهما أظهر الكواكب السَّيَّارة السَّبعة، التي هي أشرف وأعظم مِن الثَّوابت، فإذَا كان قد سخَّر هذه، فَلأن يدخل في التَّسخير سائرُ الكواكب بطريق الأولىٰ والأحرىٰ، كما نَبَّه بقوله تعالىٰ: ﴿لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت: ٣٧] مع أنَّه قد صرَّح بذلك بقوله: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

وقوله: ﴿يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ أي: يُوَضِّح[(٤)] الآيات والدَّلالات الدالَّة [علىٰ][(٥)] أنَّه لا إله إلا هو، وأنه يعيد الخلق إذا شاء كما ابتدأ خلقه.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾

لما ذكر تعالىٰ العالم العُلْوِيَّ، شرع في ذكر قدرته وحكمته وأحكامه للعالم السفلي، فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ﴾ أي: جعلها متسعةً ممتدةً في الطُّول والعرض، وأرساها بجبالٍ راسياتٍ شامخات،

---

(١) سقط من (ز). (٢) في (ز): يمر. (٣) سقط من (ز).
(٤) في (ز): نوضح. (٥) سقط من (ز).

وأجرىٰ فيها الأنهار والجداوِل والعيون لسَقْيِ ما جعل فيها من الثَّمرات المختلفة الألوان والأشكال والطعوم والرَّوائح، مِن كلٍّ زوجين اثنين؛ أي: من كل شكلٍ صِنْفَان.

﴿يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ﴾ أي: جعل كلًّا منهما يطلب الآخر طلبًا حثيثًا، فإذا ذهب هذا غَشِيَهُ هذا، وإذا انقضىٰ هذا جاء الآخر، فيتصرف أيضًا في الزَّمان كما تصرف أيضًا في المكان والسكان.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي: في آلاءِ الله وحكمته ودلائله.

وقوله: ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ قِطَعٞ مُّتَجَٰوِرَٰتٞ﴾ أي: أراضٍ تجاور بعضها بعضًا، مع أن هذه طيبة[(١)] تُنْبِتُ ما ينتفع به الناس، وهذه سَبِخة مالحة لا تنبت شيئًا. هكذا روي عن ابن عبَّاس، ومجاهد، وسعيد بن جُبَيْر، والضَّحَّاك، وغيرهم.

وكذا يدخل في هذه الآية اختلاف ألوان بقاع الأرض، فهذه تربةٌ حمراء، وهذه بيضاء، وهذه صفراء، وهذه سوداء، وهذه محجرة وهذه سهلة، وهذه مرملة، وهذه سميكة، وهذه رقيقة، والكل متجاورات. فهذه بصفتها، وهذه بِصِفَتِهَا[(٢)] الأخرىٰ، فهذا كله ممَّا يدلُّ علىٰ الفاعل المختار، لا إله إلا هو، ولا رَبَّ سواه.

وقوله: ﴿وَجَنَّٰتٞ مِّنۡ أَعۡنَٰبٖ وَزَرۡعٞ وَنَخِيلٞ﴾ يحتمل أن تكون عاطفةً علىٰ ﴿وَجَنَّٰتٞ﴾ فيكون ﴿وَزَرۡعٞ وَنَخِيلٞ﴾ مرفوعين. ويحتمل أن يكون معطوفًا علىٰ ﴿أَعۡنَٰبٖ﴾، فيكون مجرورًا[(٣)]؛ ولهذا قرأ بكلٍّ منهما طائفة من الأئمَّة[(٤)].

وقوله: ﴿صِنۡوَانٞ وَغَيۡرُ صِنۡوَانٖ﴾ الصنوان: هي الأصول المجتمعة في مَنْبتٍ واحدٍ، كالرُّمان والتِّين وبعض النخيل، ونحو ذلك. وغير الصنوان: ما كان علىٰ أصلٍ واحدٍ، كسائر الأشجار، ومنه سُمِّي عم الرجل صِنْوَ أبيه، كما جاء في الحديث الصحيح: أن رسول الله ﷺ قال لعُمَر: «**أَمَا شَعَرْتَ أَنَّ عَمَّ الرَّجُلِ صِنْوُ أَبِيهِ؟**»[(٥)].

وقال سفيان الثوري، وشعبة، عن أبي إسحاق، عن البراء ؓ: «الصنوان»: هي النخلات في أصلٍ واحدٍ، وغير «الصنوان»: المُتَفَرِّقات[(٦)]. وقاله ابن عبَّاس، ومجاهد، والضَّحَّاك، وقتادة، وعبدُ الرحمن بن زيد بن أسلم.

وقوله: ﴿يُسۡقَىٰ بِمَآءٖ وَٰحِدٖ وَنُفَضِّلُ بَعۡضَهَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلۡأُكُلِ﴾ قال الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة ؓ عن النبيِّ ﷺ: ﴿وَنُفَضِّلُ بَعۡضَهَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلۡأُكُلِ﴾ قال: «**الدَّقَلُ**[(٧)] **وَالفَارِسِيُّ**،

---

(١) في (ز): مطيبة. (٢) في (ز): (بصفها). (٣) في (ز): (مجرور).

(٤) متواترة: قَرَأَ (وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ) ابْنُ كَثِيرٍ وَأَبُو عَمْرٍو وَيَعْقُوبُ وَحَفْصٌ وَوَافَقَهُمُ ابْنُ مُحَيْصِنٍ وَالْيَزِيدِيُّ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ (وَزَرْعٍ وَنَخِيلٍ).

(٥) البخاري (١٣٩٩)، ومسلم (٩٨٣)، والترمذي (٣٧٦١)، وأبو داود (٢/ ١١٥)، والنسائي (٥/ ٣٣).

(٦) صحيح: رواه الطبري (١٣/ ٩٩)، وابن أبي حاتم (٧/ ١٢١٢٤).

(٧) الدَّقَل: رديءُ التمر ويابسه، والفارسي: نوع من التمر.

وَالْحُلْوُ وَالْحَامِضُ». رواه الترمذي وقال: حسنٌ غريبٌ[١].

أي: هذا الاختلاف في أجناس الثمرات والزُّروع، في أشكالها وألوانها، وطعومها وروائحها، وأوراقها وأزهارها، فهذا في غاية الحلاوة، وذَا في غاية الحموضة، وذا في غاية المرارة وذا عَفِصٌ[٢]، وهذا عَذْبٌ وهذا جَمَعَ هذا وهذا، ثم يستحيل إلىٰ طَعْمٍ آخرَ بإذن الله تعالىٰ. وهذا أصفر وهذا أحمر، وهذا أبيض وهذا أسود وهذا أزرق. وكذلك الزهورات مع أن كلها يُسْتَمَدُّ مِن طبيعةٍ واحدةٍ، وهو الماء، مع هذا الاختلاف الكثير الذي لا يَنْحَصِر ولا يَنْضَبِطُ، ففي ذلك[٣] آياتٌ لمن كان واعيًا، وهذا من أعظم الدلالات علىٰ الفاعل المختار، الذي بقدرته فاوت بين الأشياء وخلقها علىٰ ما يريد؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝٥﴾

يقول تعالىٰ لرسوله محمَّد، صلوات الله وسلامه عليه: ﴿وَإِن تَعْجَبْ﴾ من تكذيب هؤلاء المشركين بأمر المعاد مع ما يشاهدونه من آيات الله سبحانه ودلالاته في خلقه علىٰ أنَّه القادر علىٰ ما يشاء، ومع ما يعترفون[٤] به من أنَّه ابتدأ خلق الأشياء، فكَوَّنها بعد أن لم تكُن شيئًا مذكورًا، ثم هُمْ بعد هذا يكذبون خبره في أنَّه سيعيد العالمين خلقًا جديدًا، وقد اعترفوا وشاهدوا ما هو أعجب مما[٥] كذبوا به، فالعَجَب من قولهم: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ وقد عَلِم كلُّ عالمٍ وعاقلٍ أن خلق السموات والأرض أكبر من خلق النَّاس، وأن مَن بدأ الخلق فالإعادة سهلةٌ عليه، كما قال تعالىٰ: [﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾][٦] [الأحقاف: ٣٣].

ثم نعت المكذبين بهذا فقال: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾: يُسْحَبُون بها في النار، ﴿وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أي: ماكثون فيها أبدًا، لا يحولون عنها ولا يزولون.

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ۝٦﴾

يقول تعالىٰ: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ﴾ أي: هؤلاء المكذبون ﴿بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ أي: بالعقوبة، كما

---

(١) موضوع: رواه الترمذي (٣١١٨) وقال حسن غريب، قلت: فيه سيف بن محمد، قال الحافظ في «التقريب»: كذبوه، وضعفه أبو حاتم في «العلل» (١٧٣٣)، وأورده ابن القَيْسَراني في «التذكرة» (٩٣٧) وقال: وسيفٌ هذا: كذاب خبيث، قال ابن معين: كان هاهنا شيخًا كذابًا خبيثًا. وانظر كذلك «العلل المناهية» (١٠٩٢).

(٢) العُفُوصَة: المرارة.

(٣) في (ز): (ذاك).

(٤) في (ز): (يعرفون).

(٥) في (ز): (ما).

(٦) في (ز): [«أوليس الذي خلق السموات والأرض بقادرٍ علىٰ أن يحيي الموتىٰ بلىٰ إنه علىٰ كل شيء قدير»] فخلطوا بين آية يس وآية الصافات.

أخبر عنهم في قوله: ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ۝ لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ۝ مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُّنظَرِينَ﴾ [الحجر: ٦-٨] وقال تعالىٰ: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٥٣، ٥٤] وقال: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ [المعارج: ١] وقال: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾ [الشورىٰ: ١٨] ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [ص: ١٦] أي: حسابنا وعقابنا، كما قال مخبراً عنهم: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢]، فكانوا يَطْلُبون من الرسول أن يأتيهم بعذاب الله، وذلك مِن شدَّة تكذيبهم وكفرهم وعنادهم.

قال الله تعالىٰ: ﴿وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ﴾ أي: قد أَوْقَعْنا نقمتنا بالأمم الخالية وجَعلْناهم مُثْلَةً وعِبْرَةً وعِظَةً لمن اتَّعظ بهم.

ثم أخبر تعالىٰ أنَّه لولا حلمه وعفوه لعالجهم بالعقوبة، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ﴾ [النحل: ٦١].

وقال تعالىٰ في هذه الآية الكريمة: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ أي: إنه ذو عفوٍ وصفحٍ وستر للنَّاس مع أنهم يظلمون ويخطئون باللَّيل والنَّهار. ثم قرن هذا الحكم بأنَّه شديد العقاب؛ ليعتدل الرجاء والخوف، كما قال تعالىٰ: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٧] وقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٦٧] وقال: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۝ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩، ٥٠] إلىٰ أمثال ذلك من الآيات التي تجمع الرجاء والخوف.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا موسىٰ بن إسماعيل، حدَّثنا حماد، عن علي بن زيد، عن سعيد بن المسيَّب قال: [لما][1] نزلت هذه الآية: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ قال رسول الله ﷺ: «**لَوْلَا عَفْوُ اللهِ وَتَجاوُزُهُ، ما هَنأَ أَحَدًا العَيْشُ[2] وَلَوْلا وَعِيدُهُ وَعِقابُهُ، لاتَّكَلَ كُلُّ أَحَدٍ**»[3].

وروىٰ الحافظ ابن عساكر في ترجمة الحسن بن عثمان أبي حسان الزيادي: أنَّه رأىٰ ربَّ العزَّة في النَّوم، ورسول الله ﷺ واقفٌ بين يدَيْه يشفع في رجل مِن أُمَّتِه، فقال له: أَلم يَكْفِكَ أَنِّي أَنْزَلْتُ عليك في سورة الرعد: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾؟ قال: ثم انْتَبهْتُ[4].

---

(١) سقط من (ز).

(٢) يقال: (هَنَأَني الطعامُ يَهْنَؤُني): ساغ لي، وأكلته هنيئًا مريئًا بلا مشقة.

(٣) **ضعيف بهذا السياق**: رواه ابن أبي حاتم (١٢١٤٥) (١٨٤٦٣) فيه علي بن زيد: ضعيف، والإسناد مرسل، لكن ثبت نحوه في «صحيح مسلم» (٢٧٥٦)، ولفظه: «**لو يعلمُ المؤمنُ ما عند اللهِ من العقوبةِ ما طمِعَ في جنته أحدٌ، ولو يعلمُ الكافرُ ما عندَ اللهِ من الرحمةِ ما قَنِطَ من جنتِهِ أحدٌ**».

(٤) انظر: «تاريخ دمشق» (١٣/ ١٣٦) ط: دار الفكر.

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ۝٧﴾

يقول تعالىٰ إخبارًا عن المشركين أنَّهم يقولون كفرًا وعنادًا: لولا يأتينا بآيةٍ [من ربه][1] كما أرسل الأولون، كما تَعَنَّتُوا عليه أن يجعل لهم الصَّفا ذهبًا، وأن يزيل عنهم الجبال، ويجعل مكانها مروجًا وأنهارًا، قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء: ٥٩].

قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ﴾ أي: إنَّما عليكَ أن تبلغ رسالة الله التي أمرك [بها][2]، ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢].

وقوله: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس؛ أي: ولِكُلِّ قوم داعٍ.

وقال العوفي، عن ابن عبَّاس في تفسيرها: يقول [الله][3] تعالىٰ: أنت يا محمَّدُ منذرٌ، وأنا هادِي كلِّ قومٍ، وكذا قال مجاهد، وسعيد بن جبير، والضَّحَّاك.

وعن مجاهد: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ أي: نبي. كما قال: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤] وبِهِ قال قتادة، وعبد الرحمن بن زيد.

وقال أبو صالح، ويحيىٰ بن رافع: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ أي: قائد.

وقال أبو العالية: الهادي: القائد، والقائد: الإمام، والإمام: العمل.

وعن عِكْرِمة، وأبي الضحىٰ: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ قالا: هو محمَّد [رسول الله][4] ﷺ.

وقال مالك: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ من يدعوهم إلىٰ الله ﷻ.

وقال أبو جعفر بن جرير: حدَّثني أحمد بن يحيىٰ الصوفي، حدَّثنا الحسن بن الحُسين الأنصاري، حدَّثنا معاذ بن مسلم بيَّاع الهروي، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عبَّاس ﵄ قال: لما نزلت: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ قال: وضع رسول الله ﷺ يده علىٰ صدره، وقال: «**أَنا المُنْذِرُ، وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ**». وأومأ بيده إلىٰ مَنْكِبِ عليٍّ، فقال: «**أَنْتَ الهَادِي يَا عَلِيُّ، بِكَ يَهْتَدِي المُهْتَدُونَ مِنْ بَعْدِي**»[5].

وهذا الحديث فيه نكارةٌ شديدةٌ.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا علي بن الحسين، حدَّثنا عثمان بن أبي شيبة، حدَّثنا المطلب بن زياد، عن السُّدِّي، عن عبدِ خَيْرٍ، عن علي: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ قال: الهادي: رجل من بني هاشم[6]: قال الجنيد:

---

(١) ليست في (ز).
(٢) في (ز): (الله).
(٣) سقط من (ز).
(٤) ليست في (ز).
(٥) منكر: كما قال ابن كثير: رواه ابن جرير (١٣/ ١٠٨)، وفيه الحسن بن الحسين الأنصاري، وهو من رؤساء الشيعة، والغالب أن هذا من وضع الشيعة، وفيه معاذ بن مسلم: مجهول.
(٦) منكر: رواه ابن أبي حاتم (٧/ ١٢١٥٢)، وفيه إسماعيل السُّدِّي: وهو صدوق يَهِم لكنه رمي بالتشيع كما قال الحافظ في «التقريب» (ترجمة ٤٦٣)، وهذا الأثر مما يوافق بدعة الشيعة، فمثل هذا لا يحتج به.

هو: علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

قال ابن أبي حاتم: وروي عن ابن عبَّاس، في إحدىٰ الروايات، وعن أبي جعفر محمَّد بن علي، نحو ذلك.

﴿ ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُۖ وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ ٨ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡكَبِيرُ ٱلۡمُتَعَالِ ٩ ﴾

يخبر تعالىٰ عن تمام علمِهِ الذي لا يخفىٰ عليه شيءٌ، وأنَّه محيطٌ بما تحمله الحوامل من كل إِنَاث الحيوانات، كما قال تعالىٰ: ﴿وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِ﴾ [لقمان: ٣٤] أي: ما حملت من ذكرٍ أو أنثىٰ، أو حَسَنٍ أو قَبِيحٍ، أو شَقِيٍّ أو سعيدٍ، أو طويل العمر أو قصيره، كما قال تعالىٰ: ﴿هُوَ أَعۡلَمُ بِكُمۡ إِذۡ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَإِذۡ أَنتُمۡ أَجِنَّةٞ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡۖ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم: ٣٢].

وقال تعالىٰ: ﴿يَخۡلُقُكُمۡ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ خَلۡقٗا مِّنۢ بَعۡدِ خَلۡقٖ فِي ظُلُمَٰتٖ ثَلَٰثٖ﴾ [الزمر:٦] أي: خلقكم طورًا من بعد طور، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ ١٢ ثُمَّ جَعَلۡنَٰهُ نُطۡفَةٗ فِي قَرَارٖ مَّكِينٖ ١٣ ثُمَّ خَلَقۡنَا ٱلنُّطۡفَةَ عَلَقَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡعَلَقَةَ مُضۡغَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡمُضۡغَةَ عِظَٰمٗا فَكَسَوۡنَا ٱلۡعِظَٰمَ لَحۡمٗا ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٢: ١٤] وفي «الصحيحين» عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ(١) خَلْقَ أَحَدِكُمْ يُجْمَعُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يُبْعَثُ إِلَيْهِ المَلَكُ فَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ: بِكَتْبِ رِزْقِهِ، وَعُمْرِهِ، وَعَمَلِهِ، وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ»(٢).

وفي الحديث الآخر: «فَيَقُولُ المَلَكُ: أَيْ رَبِّ، أَذَكَرٌ أَمْ أُنْثَىٰ؟ أَيْ رَبِّ، أَشَقِيٌّ أَمْ سَعِيدٌ؟ فَمَا الرِّزْقُ؟ فَمَا الأَجَلُ؟ فَيَقُولُ اللهُ، وَيَكْتُبُ المَلَكُ»(٣).

وقوله: ﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُ﴾ قال البخاري: حدَّثنا إبراهيم بن المنذر، حدَّثنا مَعْن، حدَّثنا مالك، عن عبد الله بن دينار، عن ابن عمر؛ أن رسول الله ﷺ قال: «مَفَاتِيحُ الغَيْبِ خَمْسٌ لا [يَعْلَمُهَا](٤) إِلَّا اللهُ: لا يَعْلَمُ مَا فِي غَدٍ إِلَّا اللهُ، وَلا يَعْلَمُ [مَا تَغِيضُ](٥) الأَرْحَامُ إِلَّا اللهُ، وَلا يَعْلَمُ مَتَىٰ يَأْتِي المَطَرُ أَحَدٌ إِلَّا اللهُ، وَلا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ، وَلا يَعْلَمُ مَتَىٰ تَقُومُ السَّاعَةُ إِلَّا اللهُ»(٦).

وقال العوفي، عن ابن عبَّاس: ﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ﴾ يعني: السَّقْط ﴿وَمَا تَزۡدَادُ﴾ يقول: ما زادت الرَّحم في الحمل علىٰ ما غَاضت حتىٰ ولدته تمامًا. وذلك أنَّ مِن النِّساء مَن تَحْمِلُ عشرة أشهرٍ، ومنهن

---

(١) في (ز): [إن الله خلق]، وهو مخالف لنص الحديث.

(٢) البخاري (٣١٥٤) (٦٢٢١) (٧٠١٦)، ومسلم (٢٠٣٦).

(٣) البخاري (٦٢٢٢)، ومسلم (٢٦٤٦). (٤) في (ز): [لا يعلمهن]، والمثبت موافق لما في «صحيح البخاري».

(٥) في (ز): [تغيظ]. (٦) البخاري (١٠٣٩)، (٤٦٩٧)، (٧٣٦٩)، وأحمد (٢/ ٨٥).

من تحمل تسعة أشهرٍ، ومنهن مَن تزيد في الحمل، ومنهن من تنقص، فذلك الغَيْضُ والزيادة التي ذكر الله تعالىٰ، وكل ذلك بعلمه تعالىٰ.

وقال الضَّحَّاك، عن ابن عبَّاس في قوله: ﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾ قال: ما نقصت مِن تسعةٍ وما زاد عليها(١).

وقال الضَّحَّاك: وَضَعَتْنِي أُمِّي وقد حملتني في بَطْنِهَا سنتين، وولدتني وقد نَبَتَتْ ثَنِيَّتِيَ.

وقال ابن جُرَيْج، عن جميلة بنت سعد، عن عائشة قالت: لا يكون الحمل أكثر من سَنَتَيْن، قدرَ ما يتحرَّكُ ظِل مغْزَلٍ(٢).

وقال مجاهد: ﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾ قال: ما ترىٰ مِن الدَّم في حملها، وما تزداد علىٰ تسعةِ أشهرٍ. وبه قال عطية العوفي وقتادة، والحسن البصري، والضَّحَّاك.

وقال مجاهد أيضًا: إذا رأت المرأة الدم دون التِّسعة زاد علىٰ التسعة، مثل أيام الحيض. وقاله عِكْرِمة، وسعيد بن جبير، وابن زيد.

وقال مجاهد أيضًا: ﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ﴾ إراقةُ المرأةِ حتىٰ [يخسَّ](٣) الولد ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾ إن لم تهرق المرأة تم الولد وعظم.

وقال مكحول: الجَنِينُ في بطن أمه لا يطلب، ولا يَحْزَن ولا يغتم، وإنَّما يأتيه رزقه في بطن أُمِّه من دم حيضتها فمن ثَمَّ لا تحيض الحامل. فإذا وقع إلىٰ الأرض استهلَّ، واستهلاله استنكارٌ لمكانه، فإذا قطعت سُرَّته حوَّل الله رزقه إلىٰ [ثَدْيَيْ](٤) أُمِّهِ حتىٰ لا يطلب ولا يحزن ولا يغتم، ثم يصير طفلًا يتناول الشَّيء بِكَفِّه فيأكله، فإذا هو بلغ قال: هو الموت أو القتل، أَنَّىٰ لِي بالرِّزق؟ فيقول مكحول: يا ويلك ! غذاك وأنت في بطن أمك، وأنت طفل صغير، حتىٰ إذا اشتددت وعقلت قلت: هو الموت أو القتل، أنَّىٰ لي بالرِّزق؟ ثم قرأ مكحول: ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾.

وقال قتادة: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ أي: بِأَجَلٍ، حفظ أرزاق خلقه وآجالهم، وجعل لذلك أجلًا معلومًا.

وفي الحديث الصحيح: أن إحدىٰ بنات النَّبيِّ ﷺ بعثت إليه: أنَّ ابنًا لها في الموت، وأنها تحب أن يَحضُرَه. فبعث إليها يقول: «**إِنَّ للهِ مَا أَخَذَ، وَلَهُ مَا أَعْطَىٰ، وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِأَجَلٍ مُسَمًّىٰ، فَمُرُوهَا فَلْتَصْبِرْ وَلْتَحْتَسِبْ**» الحديث بتمامه(٥).

---

(١) رواه ابن أبي حاتم (٧/ ١٢١٦٤).

(٢) ضعيف: رواه الطبري (١٣/ ١١٢)، والبيهقي (٧/ ٤٤٣)، وفيه جميلة بنت سعد أوردها ابن أبي حاتم ولم يذكر فيها جرحًا ولا تعديلًا. وفيه ابن جريج: مدلس.

(٣) في (ز): [يحسن].

(٤) في (ز): [ثدي].

(٥) البخاري (١٢٨٤)، ومسلم (٩٢٣)، وأبو داود (٣١٢٥)، والنسائي (٤/ ٢١)، وابن ماجه (١٥٨٨) من حديث أسامة ابن زيد ﵄.

وقوله: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ أي: يعلم كل شيءٍ مما يشاهده العباد ومما يغيب عنهم، ولا يخفىٰ عليه منه شيء. ﴿ٱلۡكَبِيرُ﴾ الذي هو أكبر من كل شيء، ﴿ٱلۡمُتَعَالِ﴾ أي: علىٰ كل شيء، قد أحاط بكل شيء علمًا، وقهر كل شيء، فخضعت له الرقاب ودَانَ له العباد طوعًا وكرهًا.

﴿سَوَآءٞ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنۡ هُوَ مُسۡتَخۡفِۭ بِٱلَّيۡلِ وَسَارِبُۢ بِٱلنَّهَارِ ۝١٠ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ[(١)] ۝١١﴾

يخبر تعالىٰ عن إحاطة علمه بجميع خلقه، سواء منهم مَن أسرَّ قوله أو جهر به، فإنه يسمعه لا يخفىٰ عليه شيء كما قال: ﴿وَإِن تَجۡهَرۡ بِٱلۡقَوۡلِ فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى﴾ [طه: ٧] وقال: ﴿وَيَعۡلَمُ مَا تُخۡفُونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ﴾ [النمل: ٢٥] وقالت عائشة رضي الله عنها: سبحان الذي وَسِعَ سمعُه الأصواتَ، والله لقد جاءت المجادِلَةُ تشتكي زوجها إلىٰ رسول الله ﷺ، [وأنا][(٢)] في جنب البيت، وإنه لَيَخْفَىٰ عليَّ بعض كلامِها، فأنزل الله: ﴿قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوۡجِهَا وَتَشۡتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسۡمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١][(٣)].

وقوله: ﴿وَمَنۡ هُوَ مُسۡتَخۡفِۭ بِٱلَّيۡلِ﴾ أي: مختفٍ في قَعْرِ بيته في ظلام الليل، ﴿وَسَارِبُۢ بِٱلنَّهَارِ﴾ أي: ظاهرٌ ماشٍ في بياض النَّهار وضيائِهِ، فإنَّ [كليهما][(٤)] في علم الله علىٰ السَّواء، كما قال تعالىٰ: ﴿أَلَا حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَ﴾ [هود: ٥] وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأۡنٖ وَمَا تَتۡلُواْ مِنۡهُ مِن قُرۡءَانٖ وَلَا تَعۡمَلُونَ مِنۡ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيۡكُمۡ شُهُودًا إِذۡ تُفِيضُونَ فِيهِۚ وَمَا يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ﴾ [يونس: ٦١].

وقوله: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾ أي: للعبد ملائكة يتعاقبون عليه، حَرَسٌ بالليل وحَرَسٌ بالنهار، يحفظونه من الأسواء والحادثات، كما يتعاقب ملائكة آخرون لحفظ الأعمال من خيرٍ أو شرٍّ، ملائكة باللَّيل وملائكة بالنَّهار، فاثنان عن اليمينِ وعن الشمال يكتبان الأعمال، صاحب اليمين يكتب الحسنات، وصاحب الشِّمال يكتب السَّيِّئات، وملكان آخران يحفظانه ويَحْرُسانه، واحدٌ مِن ورائه وآخر من قُدَّامه، فهو بين أربعة أملاك بالنهار، وأربعة آخرين بالليل بَدَلًا حافظان وكاتبان، كما جاء في «الصحيح»: «يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلَائِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلَائِكَةٌ بِالنَّهَارِ، وَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلَاةِ الصُّبْحِ وَصَلَاةِ العَصْرِ، فَيَصْعَدُ إِلَيْهِ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ فَيَسْأَلُهُمْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ: كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي؟

---

(١) **قال القاسمي** رحمه الله: في هذه الآية وعيد شديد وإنذار رهيب قاطع، بأنه إذا انحرف الآخذون بالدين والمنتمون إليه عن جادَّتِه المستقيمة، ومالوا مع الأهواء، وتركوا التمسك بآدابه وسننه القويمة؛ حل بهم ما ينقلهم إلىٰ المحن والبلايا، ويفرق كلمتهم، ويُوهِي قوتهم، ويسلط عدوهم!.

(٢) سقط من (ز).

(٣) رواه البخاري تعليقًا (١٣/ ٣٧٢)، ووصله النسائي (٨/ ١٦٨)، وابن ماجه (١٨٨)، وأحمد (٦/ ٤٦).

(٤) في (ز): [كلاهما].

فَيَقُولُونَ: أَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ، وَتَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ»[١]. وفي الحديث الآخر: «إِنَّ مَعَكُمْ مَنْ لا يُفَارِقُكُمْ إِلَّا عِنْدَ الخَلَاءِ وَعِنْدَ الجِمَاعِ، فَاسْتَحْيُوهُمْ[٢] وَأَكْرِمُوهُمْ»[٣][٤].

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾ والمعقبات من [أمر][٥] الله[٦] هي الملائكة[٧].

وقال عِكْرِمة، عن ابن عبَّاس: ﴿يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾ قال: ملائكة يحفظونه من بين يديه ومن خلفه، فإذا جاء قدر الله خلَّوا عنه.

وقال مجاهد: ما من عبدٍ إلا [له][٨] مَلَكٌ مُوَكَّل، يحفظه في نَومه ويَقظَتِه مِن الجِنِّ والإنس والهوام، فما منها شيء يأتيه يريده إلا قال الملك: وَرَاءَكَ! إلا شيءٌ يأذن الله فيه فيُصِيبُهُ.

وقال الثوري عن حبيب بن أبي ثابت، عن سعيد بن جبير، عن ابن عبَّاس: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ﴾ قال: [ذلك][٩] ملك مِن ملوك الدُّنيا، له حرسٌ من دونه حرس[١٠].

وقال العوفي، عن ابن عبَّاس: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ﴾ يعني: ولي الشيطان، يكون عليه الحرس[١١]. وقال عِكْرِمة في تفسيرها: هؤلاء الأمراء: المواكب من بين يديه ومن خلفه.

وقال الضَّحَّاك: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾ قال: هو السلطان [المحترس][١٢] مِن أمر الله، وهم أهل الشِّرك.

والظاهر، والله أعلم، أن مُراد ابن عبَّاس وعِكْرِمة والضَّحَّاك بهذا أنَّ حرس الملائكة للعبيد يُشْبِهُ حرس هؤلاء لملوكهم وأمرائهم.

وقد روىٰ الإمام أبو جعفر بن جرير هاهنا حديثًا غريبًا جدًّا فقال: حدَّثني المثنىٰ، حدَّثنا إبراهيم ابن عبد السلام بن صالح القُشَيري، حدَّثنا علي بن جرير، عن حماد بن سلمة، عن عبد الحميد بن

---

(١) البخاري (٥٥٥)، ومسلم (٦٣٢)، وأحمد (٢/ ٣١٢).

(٢) في (ز): (فاستحيوا)، والمثبت موافق لما في «الترمذي».

(٣) استحيوهم: استحيوا منهم، وأكرموهم: بالتغطي وغيره مما يوجب تعظيمهم وتكريمهم.

(٤) ضعيف: الترمذي (٢٨٠١)، وفيه ليث بن أبي سُلَيم: لم يتميز حديثه بعدما أدخل فيه ما ليس منه فترك.

(٥) سقط من (ز).

(٦) قال أبو بكر الجزائري حَفِظَهُ اللهُ: ذكر القرطبي أن العلماء -رحمهم الله تعالىٰ- ذكروا أن الله ﷻ جعل أوامره علىٰ وجهين. أحدهما: قضىٰ وقوعه وحلوله بصاحبه فهذا لا يدفعه أحد، والثاني: قضىٰ مجيئه ولم يقضِ حلوله ووقوعه بل قضىٰ صرفه بالتوبة والدعاء والصدقة.

(٧) رواه الطبري (١٣/ ١١٥) وابن أبي حاتم (٧/ ١٢١٩٨)، وفي سنده انقطاع.

(٨) في (ز): (به).

(٩) في (ز): (ذكر).

(١٠) ضعيف: رواه الطبري (١٣/ ١١٨)، وفيه حبيب ابن أبي ثابت: كثير الإرسال والتدليس.

(١١) ضعيف: رواه الطبري (١٣/ ١١٨)، وفيه عطية العوفي: شيعي مدلس.

(١٢) في (ز): (المحرس).

جعفر، عن كنانة العدوي قال: دخل عثمان بن عفان علىٰ رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، أخبرني عن العبد، كم معه من ملك؟[(١)] فقال: «مَلَكٌ [عَلَىٰ يَمِينِكَ عَلَىٰ حَسَنَاتِكَ][(٢)]، وَهُوَ آمِرٌ عَلَىٰ الَّذِي عَلَىٰ الشِّمَالِ، إِذَا عَمِلْتَ حَسَنَةً كُتِبَتْ عَشْرًا، فَإِذَا عَمِلْتَ سَيِّئَةً قَالَ الَّذِي عَلَىٰ الشِّمَالِ لِلَّذِي عَلَىٰ اليَمِينِ: أَكْتُبُ؟ قَالَ: لا؛ لَعَلَّهُ يَسْتَغْفِرُ اللهَ وَيَتُوبُ. فَإِذَا قَالَ ثَلاثًا قَالَ: نَعَمْ، [اكْتُبْ][(٣)]! أَرَاحَنَا اللهُ مِنْهُ، فَبِئْسَ القَرِينُ؛ مَا أَقَلَّ مُرَاقَبَتَهُ للهِ وَأَقَلَّ اسْتِحْيَاءَهِ مِنَّا. يقول الله: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨] وَمَلَكَانِ مِنْ بَيْنِ يَدَيْكَ وَمِنْ خَلْفِكَ، يَقُولُ اللهُ: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ وَمَلَكٌ قَابِضٌ عَلَىٰ نَاصِيَتِكَ، فَإِذَا تَوَاضَعْتَ للهِ رَفَعَكَ، وَإِذَا تَجَبَّرْتَ عَلَىٰ اللهِ قَصَمَكَ، وَمَلَكَانِ عَلَىٰ شَفَتَيْكَ، لَيْسَ يَحْفَظَانِ عَلَيْكَ إِلَّا الصَّلاةَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَمَلَكٌ قَائِمٌ عَلَىٰ فِيكَ [لا يَدَعُ الحَيَّةَ أَنْ تَدْخُلَ][(٤)] فِي فِيكَ، وَمَلَكَانِ عَلَىٰ عَيْنَيْكَ، فَهَؤُلاءِ عَشَرَةُ أَمْلاكٍ عَلَىٰ كُلِّ [آدَمِيٍّ يَنْزِلُونَ][(٥)] مَلائِكَةُ اللَّيْلِ عَلَىٰ مَلائِكَةِ النَّهَارِ؛ لأَنَّ مَلائِكَةَ اللَّيْلِ سِوَىٰ مَلائِكَةِ النَّهَارِ، فَهَؤُلاءِ عِشْرُونَ مَلَكًا عَلَىٰ كلِّ [آدَمِيٍّ][(٦)] وَإِبْلِيسُ بِالنَّهَارِ وَوَلَدُهُ بِاللَّيْلِ»[(٧)].

قال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ: حدَّثنا أسود بن عامر، حدَّثنا سفيان، حدَّثني منصور، عن سالم بن أبي الجعد عن أبيه، عن عبد الله، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ وُكِّلَ بِهِ قَرِينُهُ مِنَ الجِنِّ وَقَرِينُهُ مِنَ المَلائِكَةِ». قالوا: وإيَّاك يا رسول الله، قال: «وَإِيَّايَ، وَلَكِنْ أَعَانَنِي اللهُ عَلَيْهِ فَلا يَأْمُرُنِي إِلَّا بِخَيْرٍ».

انفرد بإخراجه مسلم[(٨)].

وقوله: ﴿يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [قيل: المراد حفظُهم له مِن أمر الله][(٩)]. رواه علي بن أبي طلحة، وغيره، عن ابن عبَّاس. وإليه ذهب مجاهد، وسعيد بن جبير، وإبراهيم النَّخعي، وغيرهم.

وقال قتادة: ﴿يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ قال: وفي بعض القراءات: «يحفظونه بأمر الله»[(١٠)].

وقال كعب الأحبار: لو تجلَّىٰ لابن آدم كل سهلٍ وحزنٍ، لرأىٰ علىٰ كل شيءٍ من ذلك شياطين[(١١)] لو لا أنَّ الله وكَّل بكم ملائكةً يَذُبُّون عنكم في مَطْعَمِكُم ومشربكم وعوراتكم، إذًا لتُخُطِّفتم.

---

(١) في (ز): [كم ملك معه؟]، والمثبت موافق لما في «الطبري».
(٢) في (ز): [عن يمينك وملك علىٰ حسناتك].
(٣) سقط من (ز).
(٤) في (ز): [لا يدع أن يدخل الحية].
(٥) في (ز): [بني آدم يبدلون]، والمثبت موافق لما في «الطبري».
(٦) في (ز): [بني آدم].
(٧) ابن جرير (١٣/ ١١٢)، واستغربه، وأورده السيوطي في «اللآلئ المصنوعة» (١/ ٣٥٨).
(٨) رواه مسلم (٢٨١٤)، وأحمد (١/ ٣٩٧).
(٩) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).
(١٠) قراءة: قَرَأَ (بِأَمْرِ) عَلِيٌّ وَابْنُ عَبَّاسٍ وَعِكْرِمَةُ وَزَيْدُ بْنُ عَلِيٍّ وَجَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ، وَلَيْسَ فِي الْمُتَوَاتِرِ إِلَّا (مِنْ أَمْرِ).
(١١) في (ز): (لرأىٰ كل شيءٍ عن ذلك ساء نفسه)، والمثبت من «تفسير الطبري» (١٦/ ٣٧٨).

وقال أبو أمامة: ما مِن آدميٍّ إلا ومعه ملكٌ يَذُود عنه، حتىٰ يُسْلِمَه للَّذي قُدِّر له.

وقال أبو مِجْلَز: جاء رجلٌ من «مُرَاد» إلىٰ علي رضي الله عنه وهو يصلي، فقال: احترس، فإن ناسًا من «مراد» يريدون قتلك. فقال: إن مع كل رجلٍ مَلَكين يحفظانه مِما لم يقدَّر، فإذا جاء القَدَرُ خَلَّيَا بينه وبينه، وإن الأجل جُنَّةٌ حَصِينةٌ.

وقال بعضهم: ﴿يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ بأمر الله، كما جاء في الحديث أنهم قالوا: يا رسول الله، أَرَأَيت رُقًىٰ نَسْتَرقِي بها، هل تَرُدُّ من قَدَر الله [شيئًا؟][١] فقال: «هِيَ مِنْ قَدَرِ اللهِ»[٢].

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبو سعيد الأشَجُّ، حدَّثنا حفص بن غياث، عن أشعث، عن جَهْم، عن إبراهيم قال: أَوْحَىٰ الله إلىٰ نبيٍّ مِن أنبياء بني إسرائيل: أن قُلْ لِقَوْمِك: إنَّه ليس مِن أهل قريةٍ ولا أهل بيتٍ يكونون علىٰ طاعة الله فيتحولون منها إلىٰ معصية الله، إلَّا تحول الله لهم مما يحبون إلىٰ ما يكرهون، ثم قال: إنَّ مصداق ذلك في كتاب الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[٣].

وقد ورد هذا في حديثٍ مرفوعٍ، فقال الحافظ محمَّد بن عثمان بن أبي شيبة في كتابه «صفة العرش»: حدَّثنا الحسن بن علي، حدَّثنا الهيثم بن [الأشعث][٤] السلمي، حدَّثنا أبو حنيفة اليمامي الأنصاري، عن عمير بن عبد الله قال: خَطَبَنَا علي بن أبي طالبٍ علىٰ منبر الكوفة، قال: كنت إذا سكتُّ عن رسول الله ﷺ ابتدأني، وإذا سألته عن [الخبر][٥] أنبأني، وإنه حدَّثني عن ربه عز وجل قال: «قَالَ الرَّبُّ: وَعِزَّتِي وَجَلالِي، وَارْتِفَاعِي فَوْقَ عَرْشِي، مَا مِنْ أَهْلِ قَرْيَةٍ وَلا أَهْلِ بَيْتٍ كَانُوا عَلَىٰ مَا كَرِهْتُ مِنْ مَعْصِيَتِي، ثُمَّ تَحَوَّلُوا عَنْهَا إِلَىٰ مَا أَحْبَبْتُ مِنْ طَاعَتِي، إِلَّا تَحَوَّلْتُ لَهُمْ عَمَّا يَكْرَهُونَ مِنْ عَذَابِي إِلَىٰ مَا يُحِبُّونَ مِنْ رَحْمَتِي». وهذا غريبٌ، وفي إسناده من لا أعرفه[٦].

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ[٧] ﴿١٣﴾﴾

---

(١) سقط من (ز).

(٢) رواه الترمذي (٢١٤٩) وحسنه، وابن ماجه (٣٤٣٧)، وضعفه الشيخ الألباني في «ضعيف سنن ابن ماجه»، ولكنه حسنه في تخريج «مشكلة الفقر» (١١) لشاهد له.

(٣) ضعيف: رواه ابن أبي حاتم (٧/ ١٢٢٠١)، وفيه أشعث بن سوار: ضعيف، والأثر مرسل.

(٤) في (ز): (الأشعب). (٥) في (ز): (الخير).

(٦) ضعيف: «صفة العرش» لابن أبي شيبة (١٩)، وفيه الهيثم بن الأشعث: مجهول كما في «اللسان» لابن حجر.

(٧) يقول السعدي رحمه الله: فإذا كان هو وحده الذي يسوق للعباد الأمطار والسحب التي فيها مادة أرزاقهم، وهو الذي يدبر الأمور، وتخضع له المخلوقات العظام التي يخاف منها، وتزعج العباد، وهو شديد القوة، فهو الذي يستحق أن يعبد وحده لا شريك له.

يخبر تعالىٰ أنَّه [هو][١] الذي يُسَخِّر البرق، وهو ما يرىٰ مِن النُّور اللامع ساطعًا من خَلَلِ السحاب.

وروىٰ ابن جرير أن ابن عبَّاس كتب إلىٰ أبي الجلد يسأله عن البرق، فقال: البرق: الماء.

وقوله: ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ قال قتادة: خوفًا للمُسَافِرِ، يخاف أذاه ومشقته، وطمعًا للمُقِيم يرجو بركته ومنفعته، ويطمع في رزق الله.

﴿وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾ أي: ويخلقها منشأةً جديدةً، وهي لكثرةِ مائِهَا ثقيلةٌ قريبةٌ إلىٰ الأَرْضِ.

قال مجاهد: والسَّحاب الثِّقال: الذي فيه الماء.

﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ﴾ كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤].

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا يزيد، حدَّثنا إبراهيم بن سعد، أخبرني أبي قال: كنت جالسًا إلىٰ جنب حُمَيْد بن عبد الرحمن في المسجد، فمرَّ شيخٌ مِن بني غِفَارٍ، فأرسل إليه حميد، فلما أقبل قال: يا ابن أخي، وسع له فيما بيني وبينك، فإنَّه قد صحب رسول الله ﷺ. فجاء حتىٰ جلس فيما بيني وبينه، فقال له حميد: ما الحديث الذي حدثتني عن رسول الله ﷺ؟ فقال الشيخ: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إِنَّ اللهَ يُنْشِئُ السَّحَابَ، فَيَنْطِقُ أَحْسَنَ النُّطْقِ، وَيَضْحَكُ أَحْسَنَ الضَّحِكِ**»[٢].

والمراد -والله أعلم- أن نطقَها الرعدُ، وضحكها البرقُ.

وقال موسىٰ بن عبيدة، عن سعد بن إبراهيم قال: يبعث الله الغَيْثَ، فلا أحسن منه مَضْحَكًا، ولا آنس منه منطِقًا، فضحكه البرق، ومنطقه الرَّعد[٣].

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا هشام بن عبيد الله الرازي، عن محمَّد بن مسلم قال: بلغنا أنَّ البرق مَلَكٌ له أربعة وجوه: وجه إنسان، ووجه ثور، ووجه نسر، ووجه أسد، فإذا مَصَع بذنَبِهِ فذاك البرق[٤].

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا عفان، حدَّثنا عبد الواحد بن زياد، حدَّثنا الحجاج، حدَّثني أبو مطر، عن سالم، عن أبيه قال: كان رسول الله ﷺ إذا سَمِعَ الرَّعْد والصواعق قال: «**اللَّهُمَّ، لا تَقْتُلْنَا بِغَضَبِكَ، وَلَا تُهْلِكْنَا بِعَذَابِكَ، وَعَافِنَا قَبْلَ ذَلِكَ**»[٥].

---

(١) سقط من (ز).

(٢) **صحيح:** رواه أحمد (٥/ ٤٣٢)، وابن أبي الدنيا في «المطر» (٩١)، وأبو الشيخ في «العظمة» (٤/ ١٢٤٣)، والرَّامَهُرْمُزِي في «أمثال الحديث» (١٢٥)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (ص٤٧٣)، وانظر: «الصحيحة» للألباني (١٦٦٥).

(٣) **ضعيف:** موسىٰ بن عبيدة، ضعيف، وأيضًا فالحديث لم يسنده.

(٤) **ضعيف:** لم نقف عليه في المطبوع من تفسير «ابن أبي حاتم»، والمصنف أورده في «البداية والنهاية» (١/ ٤١) كما هنا، وإسناده مرسل.

(٥) **ضعيف:** رواه أحمد (٣/ ١٠٠)، والترمذي (٣٤٤٦)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٧٢١)، وقال الترمذي: حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

قلت: فيه أبو مطر، قال الحافظ: مجهول، انظر: «تقريب التهذيب» (٨٣٧٥).

ورواه الترمذي، والبخاري في «كتاب الأدب»، والنسائي في «اليوم والليلة»، والحاكم في «مستدركه»، من حديث الحجاج بن أرطاة، عن أبي مطر -[ولم يسمَّ به][(١)].

وقال الإمام أبو جعفر بن جرير: حدَّثنا أحمد بن إسحاق، حدَّثنا أبو أحمد، حدَّثنا إسرائيل، عن أبيه عن رجل، عن أبي هريرة، رفع الحديث قال: إنه كان إذا سمع الرعد قال: «**سُبْحَانَ مَنْ يُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ**»[(٢)].

ورُوي عن علي رضي الله عنه: أنّه كان إذا سمع صوت الرعد قال: «**سُبْحَانَ مَنْ سَبَّحَتْ لَهُ**»[(٣)].

وكذا روي عن ابن عبَّاس، والأسود بن يزيد، وطاوس: أنهم كانوا يقولون كذلك.

وقال الأوزاعي: كان ابن أبي زكريا يقول: من قال حين يسمع الرعد: سبحان الله وبحمده، لَمْ تُصِبْهُ صاعقةٌ[(٤)].

وعن عبد الله بن الزبير أنَّه كان إذا سمع الرَّعد ترك الحديث وقال: سبحان الذي يسبِّح الرَّعدُ بحمده والملائكة مِن خِيفَتِهِ، ويقول: إنَّ هذا لوعيدٌ شديدٌ لأهل الأرض. رواه مالك في «الموطأ»، والبخاري في «كتاب الأدب».

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا سليمان بن داود الطيالسي، حدَّثنا صَدَقة بن موسىٰ، حدَّثنا محمَّد بن واسع، عن [شُتَيْر][(٥)] بن نهار، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**قَالَ رَبُّكُمْ عَزَّ وَجَلَّ: لَوْ أَنَّ عَبِيدِي أَطَاعُونِي لَأَسْقَيْتُهُمُ المَطَرَ بِاللَّيْلِ، وَأَطْلَعْتُ عَلَيْهِمُ الشَّمْسَ بِالنَّهَارِ، وَلَمَا أَسْمَعْتُهُمْ صُوتَ الرَّعْدِ**»[(٦)].

وقال الطبراني: حدَّثنا زكريا بن يحيىٰ الساجي، حدَّثنا أبو كامل الجَحْدري، حدَّثنا يحيىٰ بن كثير أبو النَّضر، حدَّثنا عبد الكريم، حدَّثنا عطاء، عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِذَا سَمِعْتُمُ الرَّعْدَ فَاذْكُرُوا اللهَ؛ فَإِنَّهُ لا يُصِيبُ ذَاكِرًا**»[(٧)].

وقوله: ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ﴾ أي: يرسلها نقمَةً يَنْتَقِم بها ممن يشاء، ولهذا تكثر في آخر الزمان، كما قال الإمام أحمد: حدَّثنا محمَّد بن مصعب، حدَّثنا عمارة عن أبي نضرة، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، أن النَّبيَّ ﷺ قال: «**تَكْثُرُ الصَّوَاعِقُ عِنْدَ اقْتِرَابِ السَّاعَةِ، حَتَّىٰ يَأْتِيَ الرَّجُلُ القَوْمَ فَيَقُولُ: مَنْ صُعِقَ [تِلْكُمُ][(٨)] الغَدَاةَ؟ فَيَقُولُونَ: صُعِقَ فُلَانٌ وَفُلَانٌ وَفُلَانٌ**»[(٩)].

---

(١) في (ز): (ولم يسر).

(٢) **ضعيف**: رواه ابن جرير (١٣/ ١٢٤)، وإسناده فيه رجل مجهول، لكن الحديث ثبت بإسناد حسن موقوفًا عن عبد الله ابن الزبير كما سيذكره المصنف، رواه مالك في «الموطأ»، والبخاري في «الأدب المفرد» (٣٢٤)، وثبت نحوه عن عليٍّ، رواه ابن جرير (١٣/ ١٢٤).

(٣) **ضعيف**: رواه الطبري (١٣/ ١٢٤)، وفيه مسعدة بن اليسع: ضعيف، انظر: «لسان الميزان» (٩/ ٢٨).

(٤) **حسن**: رواه الطبري (١٣/ ١٢٤).

(٥) في (ز): (معمر)، وهو خطأ، والصواب ما أثبتناه، ويقال: اسمه (سُمَيْر) انظر: «التاريخ الكبير» (٤/ ٢٠١).

(٦) **صحيح**: رواه أحمد (١٤/ ٣٢٧)، ومالك (٢/ ٢٩٢)، والبخاري في «الأدب المفرد» (١٢٤) وغيرهم.

(٧) **ضعيف**: رواه الطبراني في «الكبير» (١١/ ١٦٤)، وأحمد (٢/ ٣٥٩)، وفيه صدقة بن موسىٰ: ضعيف لسوء حفظه، والحديث ضعفه الألباني في «الضعيفة» (٨٨٣).

(٨) في (ز): (فيكم)، والمثبت موافق لما في «المسند».

(٩) رواه أحمد (٣/ ٦٤)، وفيه محمَّد بن مصعب، قال الحافظ في «التقريب»: صدوق كثير الخطأ، فعلىٰ هذا فالإسناد ضعيف.

وقد رُوِيَ في سبب نزولها ما رواه الحافظ أبو يعلىٰ الموصلي: حدَّثنا إسحاق، حدَّثنا علي بن أبي سارة الشَّيباني، حدَّثنا ثابتٌ، عن أنس: أنَّ رسول الله ﷺ بعث رجلًا مرةً إلىٰ رجل من فراعنة العرب فقال: «اذْهَبْ فَادْعُهُ لِي». قال: فذهب إليه فقال: يدعوك رسول الله ﷺ. فقال له: من رسول الله؟ وما الله؟ أَمِنْ ذهبٍ هو؟ أم مِنْ فِضَّةٍ هو؟ أم من نُحَاسٍ هو؟ قال: فرجع إلىٰ رسول الله ﷺ فأخبره، فقال: يا رسول الله، قد أخبرتك أنه أَعْتَىٰ من ذلك، قال لي كذا وكذا. فقال: «ارْجِعْ إِلَيْهِ الثَّانِيَةَ»، فذهب فقال له مثلها. فرجع إلىٰ رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، قد أخبرتك أنَّه أَعْتَىٰ مِن ذلك. قال: «ارْجِعْ إِلَيْهِ فَادْعُهُ». فرجع إليه الثالثة. قال: فأعاد عليه ذلك الكلام. فبينما هو يُكَلِّمه، إذ بعث الله ﷻ سحابةً حيال رأسه، فرعَدَت، فوقع منها صاعقةٌ، فذهبت بقِحْفِ[1] رأسه؛ فأنزل الله: ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾[2].

ورواه ابن جرير، من حديث علي بن أبي سارة به، ورواه الحافظ أبو بكر البزار، عن عبدة بن عبد الله، عن يزيد بن هارون، عن ديلم بن غَزْوان، عن ثابت، عن أنس، فذكر نحوه.

وقال: حدَّثنا الحسن بن محمَّد، حدَّثنا عفان، حدَّثنا أبان بن يزيد، حدَّثنا أبو عمران الجوني، عن عبد الرحمن بن صُحَار العبدي: أنه بلغه أنَّ نبيَّ الله بعثه إلىٰ جبَّار يدعوه، فقال: أرأيتم ربَّكم، أذهبٌ هو؟ أو فِضَّةٌ هو؟ أَلُؤْلُؤٌ هو؟ قال: فبَيْنَا هو يجادلهم، إذ بعث الله سحابةً فرعدت فأرسل عليه صاعقةً فذهبت بقحف رأسه، ونزلت هذه الآية[3].

وقال أبو بكر بن عياش، عن ليث بن أبي سليم، عن مجاهد قال: جاء يهوديٌّ فقال: يا محمَّد، أخبرني عن ربك، [من أي شيء هو][4] مِن نُحَاس هو؟ من لؤلؤٍ؟ أو ياقوتٍ؟ قال: فجاءت صاعقةٌ فأخذته، وأنزل الله: ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ﴾[5].

وقال قتادة: ذُكر لنا أنَّ رجلًا أنكر القرآن، وكذَّب النَّبيَّ ﷺ، فأرسل الله صاعقةً فأهلكته وأنزل الله: ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ﴾ الآية.

وذكروا في سبب نزولها قصة عامر بن الطفيل وأربد[6] بن ربيعة لما قدما علىٰ رسول الله ﷺ

---

(١) القِحْف: أعلىٰ الدماغ، والجمع: أقحاف.

(٢) صحيح من رواية البزار: رواه أبو يعلىٰ (٣٣٤١، ٣٣٤٢)، والطبري (١٣/ ١٢٥)، وفي إسناده علي بن أبي سارة الشيباني: ضعيف، وعزاه ابن كثير إلىٰ البزار (٣/ ٢٢٢١)، ورجال البزار رجال الصحيح غيرَ دَيْلم بن غزوان وهو ثقة، فالحديث صحيح.

تنبيه: أورد ابن كثير بعد ذلك رواية عن عبد الرحمن بن صُحَارٍ العبدي وأخرىٰ عن مجاهد، وكلاهما مرسل، وهما يتقوىٰ بهما الحديث السابق، وقد رواهما ابن جرير (١٣/ ١٢٥).

(٣) مرسل: لكنه شاهد للحديث السابق، رواه الطبري (١٣/ ١٢٥).

(٤) سقط من (ز).

(٥) مرسل كسابقه: وهو شاهد لما تقدم. رواه الطبري (١٣/ ١٢٥).

(٦) في (ز): (زايد)، وقال في نسخة الشعب بعد أن أثبتها (أربد): (كذا، والمعروف أنه أربد بن قيس، وأنه أخو لبيد لأمه، وسيأتي في =

المدينة، فسألاه أن يجعل لهما نصف الأمر فأبىٰ عليهما رسول الله ﷺ، فقال له عامر بن الطفيل - لعنه الله: أما والله لأملأنَّها عليك خيلًا جُرْدًا ورجالًا مُردًا(١). فقال له رسول الله ﷺ: «يَأْبَىٰ اللهُ عَلَيْكَ ذَلِكَ وَأَبْنَاءُ قَيْلَةَ(٢)» يعني: الأنصار، ثم إنهما همَّا بالفتك بالنَّبيِّ ﷺ، وجعل أحدهما يخاطبه، والآخر يَسْتَلُّ سيفه ليقتله من ورائه، فحماه الله منهما وعصمه، فخرجا من المدينة فانطلقا في أحياء العرب، [يجمعان](٣) الناس لحربه عليه السلام فأرسل الله علىٰ أربد سحابةً فيها صاعقةٌ فأحرقته. وأمَّا عامر بن الطفيل فأرسل الله عليه الطَّاعون، فخرجت فيه غُدَّةٌ عظيمةٌ، فجعل يقول: يا آل عامر، غُدَّة كغدَّة البَكْرِ(٤)، ومَوت في بيت سَلُولية؟ حتىٰ [مات](٥). لعنهما الله، وأنزل الله في مثل ذلك: ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ﴾(٦).

وفي ذلك يقول لَبِيدُ بن ربيعة، أخو أربد يَرْثِيه:

أَخْشَىٰ عَلَىٰ أَرْبَدَ الحُتُوفَ وَلَا ... أَرْهَبُ نَوْءَ السِّمَاكِ وَالأَسَدِ(٧)

فَجَعَنِي الرَّعْدُ وَالصَّوَاعِقُ بِالـ ... ـفَارِسِ يَوْمَ الكَرِيهَةِ النَّجُدِ(٨)

وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدَّثنا مَسْعَدة بن سعد(٩) العطار، حدَّثنا إبراهيم بن المنذر [الحِزَامِي](١٠)، حدَّثني عبد العزيز بن عمران، حدَّثني عبد الرحمن وعبد الله ابنا زيد بن أسلم، عن أبيهما، عن عطاء بن يسار، عن ابن عبَّاس، أن أربد بن قيس بن جَزْء بن جليد بن جعفر بن كلاب، وعامر ابن الطفيل بن مالك، قدما المدينة علىٰ رسول الله ﷺ، فانتهيا إليه وهو جالسٌ، فجلسا بين يديه، فقال عامر بن الطفيل: يا محمَّد، ما تجعل لي إن أسلمتُ؟ فقال رسول الله ﷺ: «لَكَ مَا لِلْمُسْلِمِينَ، وَعَلَيْكَ مَا عَلَيْهِمْ». قال عامر بن الطفيل: أتجعل لي الأمر إن أسلمت من بعدك؟ قال رسول الله ﷺ: «لَيْسَ ذَلِكَ لَكَ وَلَا

= ذلك رواية الطبراني. ينظر: «جمهرة أنساب العرب» لابن حزم (ص٢٦٨)، و«أسد الغابة» (٣/ ١٢٧).

(١) **الجُرْد**: جمع أجرد، وهو الذي يسبق الخيل وينجرد عنه لسرعته، والمُرْد: جمع أمرد، وهو الشاب الذي طرَّ شاربُه ولم تنبت لحيته؛ ويعني بهم: الفتيان الأقوياء.

(٢) **قَيْلة**: امرأة ينتسب إليها الأوس والخزرج.

(٣) في (ز): (يجمعون).

(٤) **البَكْر**: ولد الناقة، أو الفَتِيُّ منها. والغدة: طاعون الإبل، وقلما تسلم منه، وقيل: سلول أقل العرب وأذلهم. ينظر: (مجمع الأمثال): (٢/ ٥٧)، و(اللسان): غدد.

(٥) وهو الصواب؛ لأنها عائدةٌ علىٰ عامر بن الطفيل، وفي الشعب: (ماتا) ولم ينبه.

(٦) ضعيف جدًّا: رواه ابن جرير (١٣/ ١٢٦) مرسلًا، ورواه الطبراني (١٠/ ١٠٧٦٠)، وهو ما أورده ابن كثير بعد ذلك، وفي إسناده عبد العزيز بن عمران؛ قال الحافظ: منكر الحديث، كما قال البخاري وابن أبي حاتم، وقال الحافظ: متروك.

(٧) **الحتوف**: الآجال، والنوء: المطر.

(٨) **يوم الكريهة**: يوم الشدة في الحرب، والنَّجُد: الشجاع الشديد البأس، السريع الإجابة إلىٰ ما دُعِيَ إليه من خيرٍ أو شرٍّ، مع مِضَاء فيما يعجز عنه غيره.

(٩) في (ز): (سعيد)، وهو خطأ.

(١٠) في (ز): (الخزامي).

وَلَا لِقَوْمِكَ، وَلَكِنْ لَكَ أَعِنَّةُ الْخَيْلِ». قال: أنا الآن في أعنَّة خيل نجد، اجعل لي الوبرَ ولك المدَر. قال رسول الله: «لَا». فلما [قفلا](١) من عنده قال عامر: أما والله لأملأنَّها عليك خيلًا ورجالًا، فقال رسول الله ﷺ: «يَمْنَعُكَ اللهُ». فلما خرج أربد وعامر، قال عامر: يا أربد، أنا أشغل عنك محمَّدًا(٢) بالحديث، فاضربه بالسيف، فإن النَّاس إذا قتلتَ محمَّدًا لم يزيدوا علىٰ أن يَرضَوا بالدية، ويكرهوا الحرب، [فنعطيهم الدِّية](٣). قال أربد: أفعل. فأقبلا راجعين إليه، فقال عامر: يا محمَّد، قم معي أكلمك. فقام معه رسول الله ﷺ، فجلسا إلىٰ الجدار، ووقف معه رسول الله ﷺ يكلمه، وسَلَّ أربدُ السيف، فلما وضع يده علىٰ السيف يَبِسَت يده علىٰ قائم السيف، فلم يستطع سل السَّيف، فأبطأ أَرْبَدُ علىٰ عامر بالضرب، فالتفت رسول الله ﷺ فرأىٰ أربد، وما يصنع، فانصرف عنهما. فلما خرج عامرٌ وأربدُ من عند رسول الله ﷺ حتىٰ إذا كانا بالحَرَّة، حَرَّة واقم(٤) نزلا فخرج إليهما سعد بن معاذ وأُسَيد ابن حُضَيْر فقالا: اشْخَصَا يا عدوَّيِ اللهِ، لعنكما الله. فقال عامر: من هذا يا سعد؟ قال: هذا أُسَيد بن حُضَير الكاتب(٥) فخرجا حتىٰ إذا كانا بالرَّقم(٦)، أرسل الله علىٰ أربدَ صاعقةً فقتلته، وخرج عامر حتىٰ إذا كان [بِالْخَرِيمِ](٧)، أرسل الله قُرْحَةً فأخذته، فأدركه الليل في بيت امرأةٍ من بني سلول، فجعل يمس قرحته في حلقه ويقول: غُدَّة كغُدَّة الجمل في بيت سَلُولية ترغب أن يموت في بيتها! ثم ركب فرسه فَأَحْضَرَهُ(٨) حتىٰ مات عليه راجعًا، فأنزل الله فيهما: ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ﴾ إلىٰ قوله: ﴿وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ [الرعد: ٨-١١] -قال: المعقبات من أمر الله يحفظون محمَّدًا ﷺ، ثم ذكر أربد وما قتله به، فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾﴾(٩).

وقوله: ﴿وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ﴾ أي: يَشُكُّون في عظمته، وأنَّه لا إله إلا هو، ﴿وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾.

قال ابن جرير: شديدةٌ مُمَاحَلَته في عقوبة مَن طغىٰ عليه وعتا وتمادىٰ في كفره.

وهذه الآية شبيهة بقوله: ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النمل: ٥٠، ٥١].

وعن عليٍّ رضي الله عنه: ﴿وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾ أي: شديد الأخذ(١٠). وقال مجاهد: شديد القوة.

---

(١) في (ز): (قفا).

(٢) زاد بعضهم هنا: (ﷺ)، والأولىٰ حذفها؛ لأنه قول كافر.

(٣) سقط من (ز).

(٤) حَرَّةُ واقم: أُطُمٌ بجانب المدينة.

(٥) في (ز): (العاتب)، وعند «الطبراني»: (الكاتب).

(٦) الرَّقْم: موضع بالمدينة، وجبال بديار غطفان.

(٧) في (ز): (بالحريم).

(٨) ضعيف جدًّا: انظر التخريج السابق.

(٩) أي: جعله يعدو ويسرع.

(١٠) ضعيف: رواه الطبري (١٣/ ١٢٧)، إسناده ضعيف، فيه سيف بن عمر الضَّبِّي، قال ابن معين: ضعيف الحديث، وقال أبو حاتم: متروك الحديث، وقال أبو داود: ليس بشيء، وقال النسائي والدارقطني: ضعيف، وقال ابن عدي: =

﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَـٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَـٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ ﴿١٤﴾﴾

قال علي بن أبي طالب ﷺ: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ﴾ قال: التوحيد. رواه ابن جرير (١).

وقال ابن عبَّاس، وقتادة، ومالك عن محمَّد بن المنْكَدِر: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ﴾ لا إله إلا الله (٢).

﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ أي: ومثل الذين يعبدون آلهة غير الله ﴿كَبَـٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ﴾.

قال علي بن أبي طالب: كمثل الذي يتناول الماء مِن طرف البئر بيدِهِ، وهو لا يناله أبدًا بِيَدِهِ، فكيف يبلغ فاه؟!(٣).

وقال مجاهد: ﴿كَبَـٰسِطِ كَفَّيْهِ﴾ يدعو الماء بلسانِهِ، ويشير إليه [بيدِهِ](٤) فلا يأتيه أبدًا.

وقيل: المراد كقابض يدِهِ على الماء، فإنه لا يحكم منه على شيء، كما قال الشاعر:

فَـإِنِّي وَإِيَّـاكُمْ وَشَـوْقًا إِلَـيْكُمْ كَقَـابِضِ مَـاءٍ لَـمْ تَـسُقْهُ أَنَامِلُـهُ

وقال الآخر:

فَأَصْبَحْتُ [مِمَّـا](٥) كَـانَ بَيْنِـي وَبَيْنَهَـا مِـنَ الـوُدِّ مِثْـلَ القَـابِضِ المَـاءَ بِاليَـدِ

ومعنىٰ الكلام: أن هذا الذي يبسط يده إلىٰ الماء، إمَّا قابضًا وإما متناولًا له من بُعد، كما أنَّه لا ينتفع بالماء الَّذي لم يصل إلىٰ فِيهِ، الذي جعله محلًّا للشرب، فكذلك هؤلاء المشركون الَّذِين يعبدون مع الله إلهًا غيره، لا يَنْتَفِعُون بهم أبدًا في الدنيا ولا في الآخرة؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ﴾.

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَـٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ ﴿١٥﴾﴾

يخبر تعالىٰ عن عظمته وسلطانه الذي قهر كلَّ شيء، ودان له كل شيء. ولهذا يسجُد له كلُّ شيءٍ طوعًا من المؤمنين، وكرهًا من المشركين، ﴿وَظِلَـٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ﴾ أي: البُكَر (٦) ﴿وَٱلْـَٔاصَالِ﴾، وهو جمع أصيل وهو آخر النهار، كما قال تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَـٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ﴾ [النحل: ٤٨].

= بعض أحاديثه مشهورة، وعامتها منكرة لم يُتَابَعْ عليها، وهو إلىٰ الضعف أقرب منه إلىٰ الصدق، وقال أبو حاتم: يروي الموضوعات عن الأثبات «تهذيب الكمال» (١٢/ ٣٢٧)، وقال الحافظ: ضعيف الحديث.

(١) ضعيف كسابقه: رواه الطبري (١٣/ ١٢٨)، وفيه سيف بن عمر الضبي: ضعيف الحديث، لكن يشهد له أثر ابن عبَّاس الآتي.

(٢) رواه الطبري (١٣/ ١٢٨)، من طرق عن ابن عبَّاس لا يخلو كل منها من ضعف، لكن يتقوىٰ بمجموع الطرق.

(٣) رواه الطبري (١٣/ ١٢٩)، وفيه سيف بن عمر الضبي: ضعيف.

(٤) سقط من (ز). (٥) في (ز): ما.

(٦) البُكَر -جمع بُكْرة-: أول النهار.

﴿قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ ۚ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ (١) أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٢) ﴿١٦﴾﴾

يقرِّر تعالىٰ أنه لا إله إلا هو؛ لأنَّهم معترفون أنَّه هو الذي خلق السموات والأرض، وهو ربها ومدبرها، وهم مع هذا قد اتَّخذوا مِن دونه أولياء [يعبدونهم](٣)، وأولئك(٤) الآلهة لا تملك [لنفسها](٥) ولا لعَابِدِيهَا بطريق الأولىٰ ﴿نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ أي: لا تُحَصِّلُ منفعةً، ولا تدفع مضرةً. فهل يَستَوي من عبد هذه الآلهة مع الله، ومَن عبد الله وحده لا شريك له، وهو علىٰ نورٍ مِن ربه؟ ولهذا قال: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: أَجعَلَ هؤلاء المشركون مع الله آلهةً تُنَاظِرِ الرَّبَّ وتماثله في الخلق، فخَلَقُوا كخلقه، فتَشَابَه الخلق عليهم، فلا يدرون أنها مخلوقة من مخلوق غيره؟! أي: ليس الأمر كذلك، فإنَّه لا يشابهه شيء ولا يُماثِلُه، ولا ندَّ له ولا عِدْل له، ولا وزير له، ولا وَلَد، ولا صاحبة، تعالىٰ الله عن ذلك علوًّا كبيرًا. وإنَّما [عبد](٦) هؤلاء المشركون معه آلهة هم [يعترفون](٧) أنَّها مخلوقةٌ له عبيدٌ له، كما كانوا يقولون في تلبيتهم: لبيك لا شريك لك، إلَّا شريكًا هو لك، تملكه وما ملك(٨). وكما أخبر تعالىٰ عنهم في قوله: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر: ٣] فأنكر تعالىٰ ذلك عليهم، حيث اعتقدوا ذلك، وهو تعالىٰ لا يشفع عنده أحدٌ إلا بإذنه، ﴿وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبأ: ٢٣]، ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ﴾ [النجم: ٢٦] وقال: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ [مريم] فإذا كان الجميع عبيدًا، فلِمَ يعبد بعضهم بعضًا بلا دليلٍ ولا برهان!، بل بمجرَّد الرَّأي والاختراع والابتداع ثم قد أرسل رسله من أولهم إلىٰ آخرهم تزجرهم عن ذلك، وتنهاهم عن عبادةِ مَنْ سِوَىٰ الله، فكذَّبوهم وخالفوهم، فحقَّت عليهم كلمة العذاب لا محالة، ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

---

(١) قال أبو بكر الجزائري حَفِظَهُ اللهُ: «أم» للإضراب الانتقالي من قضية إلىٰ أخرىٰ، واختيار العمىٰ والبصر والنور والظلمات لبيان أن حال المؤمنين وحال الكافرين في تضاد، فالمؤمنون مبصرون يمشون في النور، والكافرون عميٌ يمشون في الظلمات.

(٢) قال أبو بكر الجزائري حَفِظَهُ اللهُ: هذا من تمام الاحتجاج والاستفهام للإضراب الانتقالي، وهو للتهكم بالمشركين، فالمعنىٰ: لو جعلوا لله شركاء يخلقون فخلقوا كما يخلق الله فتشابه الخلق عليهم لكانوا معذورين ولكنهم لم يخلقوا ولن يخلقوا.

(٣) في (ز): (يعبدوهم). (٤) في (ز): (وأولئك هم). (٥) في (ز): لأنفسها.

(٦) في (ز): (عبدوا). (٧) في (ز): (يعرفون). (٨) مسلم (١١٨٥).

﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًاۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءًۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ ﴾

اشتملت هذه الآية الكريمة علىٰ مَثَلَيْن مضروبين للحَقِّ في ثباته وبقائه، والباطل في اضمِحْلَالِهِ وفنائه، فقال تعالىٰ: ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾ أي: مطرًا، ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا ﴾ أي: أخذ كُلُّ وادٍ بحسبه، فهذا كبيرٌ وَسِعَ كثيرًا من الماء، وهذا صغيرٌ فوَسِعَ بقدره، وهو إشارةٌ إلىٰ القلوب وتفاوتها، فمِنْهَا ما يسع علمًا كثيرًا، ومنها ما لا يتسع لكثير من العلوم بل يضيق عنها، ﴿فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ﴾ أي: فجاء علىٰ وجه الماء الذي سَالَ في هذه الأودية زَبَدٌ عالٍ عليه، هذا مَثَلٌ، وقوله: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي ٱلنَّارِ ﴾ هذا هو المثل الثاني، وهو ما يُسْبَكُ في النار مِن ذهبٍ أو فضةٍ ﴿ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ ﴾ [أي: ليُجْعَل حلية](١)، أو نحاسٍ أو حديدٍ، فيجعل متاعًا، فإنَّه يعلوه زبدٌ منه، كما يعلو ذلك زبد منه. ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ﴾ أي: إذا اجتمعا لا ثَبَات للباطل ولا دوامَ له، كما أنَّ الزبد لا يَثْبُت مع الماء، ولا مع الذهب ونحوه مما يُسْبَك في النَّار، بل يذهب ويضمحل؛ ولهذا قال: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ﴾ أي: لا يَنْتَفِع به، بل يتفرق ويتمزق ويذهب في جانبي الوادي، ويَعْلَق بالشَّجر وتَنْسِفُه الرياح. وكذلك خبث الذهب والفِضَّة والحديد والنُّحاس يذهب، لا يرجع منه(٢) شيء، [ولا يبقىٰ إلا الماء وذلك](٣) الذَّهب ونحوه ينتفع به؛ ولهذا قال: ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ كما قال تعالىٰ: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

قال بعض السلف: كنت إذا قرأتُ مثلًا من القرآن فلم أفهمه بَكَيت علىٰ نفسي؛ لأن الله تعالىٰ يقول: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾.

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس: قوله تعالىٰ: ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا ﴾.

هذا مثلٌ ضربه الله، احتملت منه القلوب علىٰ قدرِ يَقِينِهَا وشَكِّها، فأمَّا الشَّكُّ فلا ينفع معه العَمَل، وأمَّا اليقين فينفع الله به أهله. وهو قوله: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ﴾ [وهو الشك](٤) ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ وهو اليقين، وكما يُجْعَل الحُلِيُّ في النار فيُؤْخَذُ خالِصُه ويترك خَبَثه في النَّار؛ فكذلك يقبل الله اليقين ويترك الشك.

وقال العوفي عن ابن عبَّاس قوله: ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ﴾ يقول: احتمل السيل ما في الوادي من عُودٍ ودِمْنَة(٥) ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي ٱلنَّارِ ﴾ فهو الذهب والفضة

---

(١) سقط من (ز).
(٢) في (ز): (منه إلىٰ شيء).
(٣) في (ز): (ويبقىٰ الماء وكذلك).
(٤) سقط من (ز).
(٥) الدِّمْنة: آثار الديار.

والحلية والمتاع والنحاس والحديد، فللنحاس والحديد خبث، فجعل الله مثل خبثه كزَبَد الماء، فأمَّا ما ينفع الناس فالذهب والفضة، وأمَّا ما ينفع الأرض فما شربت من الماء فأنبتت. فجعل ذاك مثل العمل الصالح يبقىٰ لأهله، والعمل السيئ يضمحل عن أهله، كما يذهب هذا الزبد، فكذلك الهدىٰ والحق جاءَا من عند الله، فمن عمل بالحَقِّ كان له، ويبقىٰ كما يبقىٰ ما ينفع النَّاس في الأرض. وكذلك الحديد لا يستطاع أن يُعْمَلَ منه سكين ولا سيف حتىٰ يدخلَ في النَّار فتأكل خبثَه، ويخرج جيده فينتفع به. كذلك يَضْمَحِل الباطل إذا كان يوم القيامة، وأقيم النَّاس، وعرضت الأعمال، فيزيغ البَاطل ويَهْلِكُ، ويَنْتَفِع أهل الحق بالحق.

وكذلك رُوِي في تفسيرها عن مجاهد، والحسن البصري، وعطاء، وقتادة، وغير واحدٍ من السلف والخلف.

وقد ضرب الله ﷻ[1] في أول «سورة البقرة» للمنافقين مثلَين: ناريًّا ومائيًّا، وهما قوله: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ﴾ الآية [البقرة: ١٧]، ثم قال: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾ الآية [البقرة: ١٩]. وهكذا ضرب للكافرين في سورة النور مثلين، أحدهما: قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً﴾ [النور: ٣٩] الآية، والسراب إنما يكون في شدة الحر؛ ولهذا جاء في «الصحيحين»: «فَيُقَالُ لِلْيَهُودِ يَوْمَ القِيَامَةِ: فَمَا تَرِيدُونَ؟ فَيَقُولُونَ: أَيْ رَبَّنَا، عَطِشْنَا فَاسْقِنَا. فَيُقَالُ: أَلَا تَرِدُونَ؟ فَيَرِدُونَ النَّارَ فَإِذَا هِيَ كَالسَّرَابِ يَحْطِمُ بَعْضُهَا بَعْضًا»[2].

ثم قال في المثل الآخر: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ﴾ الآية [النور: ٤٠]. وفي «الصحيحين» عن أبي موسىٰ الأشعري، قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ مَثَلَ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ مِنَ الهُدَىٰ وَالعِلْمِ، كَمَثَلِ غَيْثٍ أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَ مِنْهَا طَائِفَةٌ قَبِلَتِ المَاءَ فَأَنْبَتَتِ الكَلَأَ وَالعُشْبَ الكَثِيرَ، وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ المَاءَ، فَنَفَعَ اللهُ بِهَا النَّاسَ، فَشَرِبُوا وَرَعَوْا وَسَقَوا وَزَرَعُوا، وَأَصَابَتْ طَائِفَةٌ مِنْهَا [أُخْرَىٰ][3] إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لا تُمْسِكُ مَاءً وَلا تُنْبِتُ كَلَأً فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِينِ اللهِ وَنَفَعَهُ اللهُ بِمَا بَعَثَنِي وَنَفَعَ بِهِ، فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَىٰ اللهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ»[4]. فهذا مثلٌ مائيٌّ.

وقال في الحديث الآخر الذي رواه الإمام أحمد: حدَّثنا عبد الرزَّاق، حدَّثنا مَعْمَر، عن همام بن مُنَبِّه قال: هذا ما حدَّثنا أبو هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ، كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَوْقَدَ نَارًا، فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ جَعَلَ الفَرَاشُ وَهَذِهِ الدَّوَابُّ الَّتِي يَقَعْنَ فِي النَّارِ يَقَعْنَ فِيهَا، وَجَعَلَ يَحْجُزُهُنَّ وَيَغْلِبْنَهُ

---

(١) في (ز) هنا زيادة: (مثلًا).
(٢) البخاري (٤٥٨١)، ومسلم (١٨٢).
(٣) سقط من (ز).
(٤) البخاري (٧٩)، ومسلم (٢٢٨٢)، والنسائي في «الكبرىٰ» (٣/ ٤٢٧)، وأحمد (٤/ ٣٩٩).

[فَيَقْتَحِمْنَ][1] فِيهَا». قال: «فَذَلِكُمْ مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ، أَنَا آخِذٌ بِحُجَزِكُمْ عَنِ النَّارِ، هَلُمَّ عَنِ النَّارِ [هَلُمَّ عَنِ النَّارِ، هَلُمَّ][2] فَتَغْلِبُونِي فَتَقْتَحِمُونَ فِيهَا»[3]. وأخرجاه في «الصحيحين» أيضًا فهذا مثلٌ ناريٌّ.

﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٨﴾﴾

يخبر تعالىٰ عن مآل السعداء والأشقياء فقال: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ﴾ أي: أطاعوا الله ورسوله، وانقادوا لأوامره، وصدَّقوا أخباره الماضية والآتية، فلهم ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ وهو الجزاء الحسن كما قال تعالىٰ مخبرًا عن ذي القرنين أنَّه قال: ﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ [الكهف: ٨٧، ٨٨] وقال تعالىٰ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦].

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ﴾ أي: لم يطيعوا الله ﴿لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ أي: في الدَّار الآخرة، لو أَنْ يمكنهم أن يفتدوا من عذاب الله بملء الأرض ذهبًا ومثله معه لافتدوا به، ولكن لا يتقبل منهم؛ لأنَّه تعالىٰ لا يقبل منهم يوم القيامة صَرْفًا ولا عَدْلًا ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ﴾ أي: في الدار الآخرة؛ أي: يناقَشُون علىٰ النَّقير والقِطْمِير[4]، والجليل والحَقير، ومن نوقش الحساب عُذِّب[5]؛ ولهذا قال: ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾.

﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾﴾

يقول تعالىٰ: لا يستوي مَن يعلم من النَّاس أن الذي ﴿أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ يا محمَّد ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ هو ﴿ٱلْحَقُّ﴾ أي: الذي لا شَكَّ فيه ولا مرية ولا لَبْسَ فيه ولا اختلاف فيه، بل هو كله حق يصدق بعضه بعضًا، لا يضاد شيء منه شيئًا آخر، فأخباره كلها حق، وأوامره ونواهيه عدلٌ، كما قال تعالىٰ: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥] أي: صدقًا في الإخبار، وعدلًا في الطلب، فلا يستوي من تحقَّق صدقَ ما جئت به يا محمَّد، ومَن هو أعمىٰ لا يهتدي إلىٰ خير ولا يفهمه، ولو فهمه ما انقاد له، ولا صَدَّقه ولا اتَّبعه، كما قال تعالىٰ: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [الحشر: ٢٠] وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ﴾ أي: أفهذا [كهذا؟! لا استواء][6].

وقوله: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي: إنَّما يَتَّعِظ ويعتبر ويَعْقِل أولو العقول السليمة الصحيحة

---

(١) في بعض النسخ: (فيقتحمن)، والمثبت موافق لما في «الصحيح».
(٢) سقط من (ز)، وهي مثبتة في «الصحيح».
(٣) البخاري (٦٤٨٢)، ومسلم (٢٢٨٣)، والترمذي (٢٨٧٧)، وأحمد (١٣/ ٤٧٥).
(٤) النقير: النُّكتة التي في النواة، والقطمير: شق النواة، وقيل: القشرة التي علىٰ النواة والتمر.
(٥) البخاري (٤٩٣٩)، (٦٥٣٦)، ومسلم (٢٨٧٦)، وأحمد (٦/ ٤٧).
(٦) في (ز): (هكذا، الاستواء).

جعلنا الله منهم [بفضله وكرمه][(١)].

﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾

يقول تعالىٰ مخبرًا [عمَّن][(٢)] اتَّصف بهذه الصِّفات الحميدة، بأنَّ لهم ﴿عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ وهي العاقبة والنُّصرة في الدنيا والآخرة.

﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ﴾ وليسوا كالمنافقين الذين إذا عاهد أحدهم غدر، وإذا خاصم فجر، وإذا حدث كذب، وإذا ائتمن خان.

﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ من صلة الأرحام، والإحسان إليهم وإلىٰ الفقراء والمحاويج، وبذل المعروف، ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ أي: فيما يأتون وما يذرون من الأعمال، يراقبون الله في ذلك، ويخافون سوء الحساب في الدار الآخرة. فلهذا أمرهم علىٰ السَّداد والاستقامة في جميع حركاتهم وسكناتهم وجميع أحوالهم القاصرة والمتعدية.

﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ أي: عن المحارم والمآثم، ففطَمُوا نفوسهم عن ذلك لله عَجَّلَ ابتغاءَ مرضاته وجزيل ثوابه ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ بحدودها ومواقيتها وركوعها وسجودها وخشوعها علىٰ الوجه الشرعي المَرْضِيِّ، ﴿وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ أي: علىٰ الذين يجب عليهم الإنفاق لهم من [زوجات][(٣)] وقرابات وأجانب، من فقراء ومحاويج ومساكين، ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ أي: في السر والجهر، لم يمنعهم من ذلك حال من الأحوال، في آناء الليل وأطراف النهار، ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ أي: يدفعون القبيح بالحسن، فإذا آذاهم أحدٌ قابلوه بالجميل صبرًا واحتمالًا وصفحًا وعفوًا، كما قال تعالىٰ: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٤، ٣٥]؛ ولهذا قال مخبرًا عن هؤلاء السُّعداء المتَّصِفين بهذه الصفات الحسنة بأن لهم عقبىٰ الدار، ثم فسَّر ذلك بقوله: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ والعدن: الإقامة؛ أي: جنات إقامةٍ يخلدون فيها.

وعن عبد الله بن عمرو أنه قال: إن في الجنة قصرًا يقال له: «عدن»، حوله البروج والمروج، فيه خمسة آلاف باب، علىٰ كل بابٍ خمسة آلاف حِبَرة[(٤)] لا يدخله إلا نبيٌّ أو صِدِّيقٌ أو شهيدٌ[(٥)].

---

(١) سقط من (ز).
(٢) في (ز): (عن من).
(٣) في (ز): (زوجاتهم).
(٤) الحِبَرة: ضرب من برود اليمن.
(٥) رواه الطبري (١٣/ ١٤٢) موقوفًا علىٰ عبد الله بن عمرو، وهو ممن أخذوا من كتب أهل الكتاب، لذا فلا يصح رفعه إلىٰ النَّبيِّ ﷺ وإن كان مما لا يقال بالرأي لاحتمال كونه من كتبهم.

وقال الضَّحَّاك في قوله: ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ﴾ مدينة الجنة، فيها الرسل والأنبياء والشهداء وأئمة الهدىٰ، والناس حولهم بعدُ والجنات حولها. رواهما ابن جرير.

وقوله: ﴿وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡ﴾ أي: يجمع بينهم وبين أحبابهم فيها من الآباء والأهلين والأبناء، ممن هو صالحٌ لدخول الجنة من المؤمنين؛ لتقرَّ أعينهم بهم، حتىٰ [إنَّه][1] ترفع [درجة][2] الأدنىٰ إلىٰ درجة الأعلىٰ، مِن غير تنقيصٍ لذلك الأعلىٰ عن دَرَجَتِهِ، بل امتنانًا [من][3] الله وإحسانًا، كما قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖۚ كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ﴾ [الطور: ٢١].

وقوله: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾ أي: وتدخل عليهم الملائكة مِن هاهنا وهاهنا للتَّهنئة بدخول الجنَّة، فعند دخولهم إيَّاها تَفِدُ عليهم الملائكة مُسَلِّمين مُهَنِّئين لهم بما حصل لهم مِن الله مِن التَّقريب والإنعام، والإقامة في دَارِ السَّلام، في جوار الصِّدِّيقين والأنبياء والرُّسل الكرام.

وقال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ: حدَّثنا أبو عبد الرحمن، حدَّثني سعيد بن أبي أيوب، حدَّثنا معروف بن سُوَيْد [الجُذَامي][4] عن أبي عُشَّانة المَعَافِري، عن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**هَلْ تَدْرُونَ أَوَّلَ مَنْ يَدْخُلُ الجَنَّةَ مِنْ خَلْقِ اللهِ؟**» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «**أَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ الجَنَّةَ مِنْ خَلْقِ اللهِ الفُقَرَاءُ المُهَاجِرُونَ الَّذِينَ تُسَدُّ بِهِمُ الثُّغُورُ، وتُتَّقَىٰ بِهِمِ المَكَارِهُ، ويَمُوتُ أَحَدُهُمْ وَحَاجَتُهُ فِي صَدْرِهِ لا يَسْتَطِيعُ لَهَا قَضَاءً، فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَىٰ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ مَلائِكَتِهِ: ائْتُوهُمْ فَحَيُّوهُمْ. فَتَقُولُ المَلائِكَةُ: نَحْنُ سُكَّانُ سَمَائِكَ، وَخِيرَتُكَ مِنْ خَلْقِكَ، أَفَتَأْمُرُنَا أَنْ نَأْتِيَ هَؤُلَاءِ فَنُسَلِّمَ عَلَيْهِمْ؟ قَالَ: إِنَّهُمْ كَانُوا عِبَادًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا، وَتُسَدُّ بِهِمُ الثُّغُورُ، وَتُتَّقَىٰ بِهِمِ المَكَارِهُ، وَيَمُوتُ أَحَدُهُمْ وَحَاجَتُهُ فِي صَدْرِهِ فَلَا يَسْتَطِيعُ لَهَا قَضَاءً**». قال: «**فَتَأْتِيهِمُ المَلَائِكَةُ عِنْدَ ذَلِكَ، فَيَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ**، ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾»[5].

ورواه أبو القاسم الطبراني، عن أحمد بن رِشْدين، عن أحمد بن صالح، عن عبد الله بن وهب، عن

---

(١) في (ز): (إنهم).
(٢) في (ز): (درجته).
(٣) في (ز): (إلىٰ).
(٤) في (ز): (الجزاني)، وهو خطأ.
(٥) رواه أحمد (٢/ ١٦٨)، والبزار في «البحر الزخار» (٢١٤٩).

عَمْرو بن الحارث، عن أبي [عُشَّانة][(١)] سمع عبد الله بن عمرو، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «أَوَّلُ [ثُلَّةٍ][(٢)] يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ فُقَرَاءُ المُهَاجِرِينَ، الَّذِينَ تُتَّقَىٰ بِهِمُ المَكَارِهُ، وَإِذَا أُمِرُوا سَمِعُوا وَأَطَاعُوا، وَإِنْ كَانَتْ لِرَجُلٍ مِنْهُمْ حَاجَةٌ إِلَىٰ سُلْطَانٍ لَمْ تُقْضَ حَتَّىٰ يَمُوتَ وَهِيَ فِي صَدْرِهِ، وَإِنَّ اللهَ يَدْعُو يَوْمَ القِيَامَةِ الجَنَّةَ فَتَأْتِي بِزُخْرُفِهَا وَزِينَتِهَا، فَيَقُولُ: أَيْنَ عِبَادِي الَّذِينَ قَاتَلُوا فِي سَبِيلِي، وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي، وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِي؟ ادْخُلُوا الجَنَّةَ بِغَيْرِ عَذَابٍ وَلَا حِسَابٍ، وَتَأْتِي المَلَائِكَةُ فَيَسْجُدُونَ وَيَقُولُونَ: رَبَّنَا نَحْنُ نُسَبِّحُكَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، وَنُقَدِّسُ لَكَ، مَنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ آثَرْتَهُمْ عَلَيْنَا؟ فَيَقُولُ الرَّبُّ ﷻ: هَؤُلَاءِ عِبَادِيَ الَّذِينَ جَاهَدُوا فِي سَبِيلِي، وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي فَتَدْخُلُ عَلَيْهِمُ المَلَائِكَةُ مِنْ كُلِّ بَابٍ: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾»[(٣)].

وقال عبد الله بن المبارك، عن بَقِيَّة بن الوليد، حدَّثنا أرطاة بن المنذر، سمعت رجلًا من مشيخة الجند، يقال له: «أبو الحجاج» يقول: جلست إلىٰ أبي أمامة فقال: إن المؤمن ليكون متكئًا علىٰ أريكته إذا دخل الجنة، وعنده سِمَاطان[(٤)] من خدم، وعند طرف السماطين باب مبوَّبٌ، فيقبل الملك فيستأذن، فيقول [أقصىٰ الخدم][(٥)] للذي يليه: «مَلك يستأذن»، ويقول الذي يليه للذي يليه: «ملك يستأذن»، حتىٰ يبلغ المؤمن فيقول: ائذنوا. فيقول أقربهم إلىٰ المؤمن: ائذنوا، ويقول الذي يليه للذي يليه: ائذنوا حتىٰ يبلغ أقصاهم الذي عند الباب، فيفتح له، فيدخل فيسلم ثم ينصرف. رواه ابن جرير[(٦)].

ورواه ابن أبي حاتم من حديث إسماعيل بن عياش، عن أرطاة بن المنذر، عن أبي الحجاج يوسف الألهاني قال: سمعت أبا أمامة، فذكر نحوه.

وقد جاء في الحديث: أن رسول الله ﷺ كان يزور قبور الشهداء في رأس كل حول، فيقول لهم: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾ وكذا أبو بكر، وعمر وعثمان[(٧)].

﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ٢٥﴾

هذا حال الأشقياء وصفاتهم، وذكر مآلهم في الدَّار الآخرة ومصيرهم إلىٰ خلاف ما صار إليه

---

(١) في (ز): (عشابة)، وهو خطأ.

(٢) في (ز): (ثلاثة)، وهو خطأ.

(٣) **صحيح**: رواه الطبراني (٤/ ٢١٦)، والحاكم (٢/ ٧١) وصححه ووافقه الذهبي، وفيه أحمد بن رِشْدين متكلم فيه، قال ابن عدي: كان صاحب حديث كثير، حدث عنه الحفاظ بحديثِ مصر، وأنكرت عليه أشياء مما رواه، وكان آل رِشْدين خُصُّوا بالضعف من أحمد إلىٰ رشدين، وهو ممن يكتب حديثه مع ضعفه. انظر: «لسان الميزان» (١/ ٢٥٨) و«الكامل في ضعفاء الرجال» (١/ ٣٣٦)، لكنه توبع بالرواية السابقة.

(٤) السِّماط: الصف.

(٥) سقط من (ز).

(٦) رواه الطبري (١٣/ ١٤٢)، وابن المبارك في «الزهد» (٢٣٧)، وفيه أبو الحجاج لا يعرف حاله.

(٧) **ضعيف**: رواه ابن جرير (١٣/ ١٤٢)، ووصله البيهقي في «الدلائل» (٣/ ٣٠٦)، لكن بإسناد ضعيف مرسل، وقال الشيخ الألباني في «السلسلة الضعيفة» (٦٦٢٩): منكر.

المؤمنون، كما أنَّهم اتَّصفوا بخلاف صفاتهم في الدنيا، فأولئك كانوا يوفون بعهد الله ويَصِلُون ما أمر الله به أن يوصل، وهؤلاء ﴿يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ كما ثبت في الحديث: «آيَةُ المُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ»[(١)] وفي رواية: «وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ»[(٢)].

ولهذا قال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ﴾ وهي الإبعاد عن الرحمة، ﴿وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ وهي سوء العاقبة والمآل، ومأواهم جهنم وبئس القرار.

وقال أبو العالية في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ﴾ الآية، قال: هي ست خصالٍ في المنافقين إذا كان فيهم الظَّهرة[(٣)] علىٰ الناس أظهروا هذه الخصال: إذا حدَّثوا كذبوا، وإذا وعدوا أخلفوا، وإذا ائْتُمِنُوا خانوا، ونقضوا عهد الله مِن بعد ميثاقه، وقطعوا ما أمر الله به أن يُوصَل، وأفسدوا في الأرض. وإذا كانت الظَّهرة عليهم أظهروا الثلاث الخصال: إذا حدثوا كذبوا، وإذا وعدوا أخلفوا، وإذا ائتمنوا خانوا.

﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴿٢٦﴾﴾

يذكر تعالىٰ أنه هو الذي يوسع الرزق علىٰ مَن يشاء، ويُقْتِرُه علىٰ من يشاء، لما له في ذلك مِنَ الحكمة والعَدْل. وفَرِح هؤلاء الكفار بما أوتوا في الحياة الدنيا استدراجًا [لهم][(٤)] وإمهالًا كما قال تعالىٰ: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٥، ٥٦].

ثم حقَّر الحياة الدُّنيا بالنِّسبة إلىٰ ما ادَّخره تعالىٰ لعباده المؤمنين في الدَّار الآخرة فقال: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ﴾.

كما قال: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: ٧٧] وقال: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [الأعلىٰ: ١٦، ١٧].

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا وَكِيع ويحيىٰ بن سعيد قالا: حدَّثنا إسماعيل بن أبي خالد، عن قيس، عن [المستورد][(٥)] أخي بني فهر قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلَّا كَمَثَلِ مَا يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ أُصْبُعَهُ هَذِهِ فِي اليَمِّ، فَلْيَنْظُرْ بِمَ تَرْجِعُ» وأشار بالسبابة. ورواه مسلم في «صحيحه»[(٦)].

وفي الحديث الآخر: أن رسول الله ﷺ مر بِجَدْيٍ أَسَكَّ ميتٍ -والأسك الصغير الأذنين- فقال: «وَاللهِ لَلدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَىٰ اللهِ مِنْ هَذَا عَلَىٰ أَهْلِهِ حِينَ أَلْقَوْهُ»[(٧)].

---

(١) البخاري (٣٣)، ومسلم (٥٩)، والترمذي (٢٦٣٢)، والنسائي (٨/ ١١٧).
(٢) البخاري (٣٤)، ومسلم (٥٨)، والترمذي (٢٦٣٢)، والنسائي (٨/ ١١٦).
(٣) لعلها من الظهور والغلبة.
(٤) في (ز): (بهم).
(٥) في (ز): (المسور)، وهو خطأ.
(٦) مسلم (٢٨٥٨)، والترمذي (٢٣٢٤)، والنسائي، وابن ماجه (٤١٠٨)، وأحمد (٤/ ٢٢٨).
(٧) مسلم (٢٩٥٧)، وأبو داود (١٨٦).

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَنۡ أَنَابَ ٢٧ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ٢٨ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمۡ وَحُسۡنُ مَـَٔابٖ ٢٩﴾

يخبر تعالىٰ عن قيل المشركين: ﴿لَوۡلَآ﴾ أي: هلا ﴿أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ كما قالوا: ﴿فَلۡيَأۡتِنَا بِـَٔايَةٖ كَمَآ أُرۡسِلَ ٱلۡأَوَّلُونَ﴾ [الأنبياء: ٥] وقد تقدَّم الكلام علىٰ هذا غير مرة، وإن الله قادرٌ علىٰ إجابة ما سألوا. وفي الحديث: أن الله أوحىٰ إلىٰ رسوله لما سألوه أن يحول لهم الصفا ذهبًا، وأن يجري لهم ينبوعًا، وأن يزيح الجبال من حول مكَّة فيَصِيرَ مكانها مروجٌ وبساتينُ: «**إِنْ شِئْتَ يَا مُحَمَّدُ أَعْطَيْتُهُمْ ذَلِكَ، فَإِنْ كَفَرُوا فَإِنِّي أُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا لا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ العَالَمِينَ، وَإِنْ شِئْتَ فَتَحْتُ عَلَيْهِمْ بَابَ التَّوْبَةِ وَالرَّحْمَةِ**»، فقال: «**بَلْ تَفْتَحُ لَهُمْ بَابَ التَّوْبَةِ وَالرَّحْمَةِ**»(١)؛ ولهذا قال لرسوله: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَنۡ أَنَابَ﴾ أي: هو المضل والهادي، سواء بعث الرسول بآية علىٰ وفق ما اقترحوا، أو لم يجبهم إلىٰ سؤالهم؛ فإنَّ الهداية والإضلال ليس منوطًا بذلك ولا عدمه، كما قال: ﴿وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١] وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ ٩٦ وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧] وقال ﴿وَلَوۡ أَنَّنَا نَزَّلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَحَشَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ كُلَّ شَيۡءٖ قُبُلٗا مَّا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُوٓاْ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَجۡهَلُونَ﴾ [الأنعام: ١١١]؛ ولهذا قال: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَنۡ أَنَابَ﴾ أي: ويهدي من أناب إلىٰ الله، ورجع إليه، واستعان به، وتضرع لديه.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ أي: تطيب وتركن إلىٰ جانب الله، وتسكن عند ذكره، وترضىٰ به مولًىٰ ونصيرًا؛ ولهذا قال: ﴿أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾ أي: هو حقيقٌ بذلك.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمۡ وَحُسۡنُ مَـَٔابٖ﴾ قال ابن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس: فرحٌ وقُرَّةُ عينٍ. وقال عِكْرِمة: نِعْمَ ما لهم.

وقال الضَّحَّاك: غبطةٌ لَهُم. وقال إبراهيم النَّخعي: خيرٌ لهم.

وقال قتادة: هي كلمة عربية يقول الرجل: «طوبىٰ لك»؛ أي: أصبت خيرًا. وقال في رواية: ﴿طُوبَىٰ لَهُمۡ﴾ حسنىٰ لهم. ﴿وَحُسۡنُ مَـَٔابٖ﴾ أي: مرجع. وهذه الأقوال شيء واحد لا منافاة بينها.

وقال سعيد بن جبير، عن ابن عبَّاس: ﴿طُوبَىٰ لَهُمۡ﴾ قال: هي أرض [الجنة بالحبشية](٢)(٣).

وقال سعيد بن مَسْجُوح: طوبىٰ اسم الجنة بالهندية. وكذا روىٰ السُّدِّي، عن عِكْرِمة: ﴿طُوبَىٰ لَهُمۡ﴾

---

(١) صحيح: أحمد (١/ ٢٤٢)، والحاكم (١/ ٥٣)، (٤/ ٣١٤)، وصححه ووافقه الذهبي، ورواه أحمد (١/ ٢٥٨)، من طريق آخر والحاكم (٢/ ٣٦٢) نحوه، وانظر تفسير الآية (١٦٠) من سورة البقرة.

(٢) في (ز): (الحبشة).

(٣) ضعيف: رواه الطبري (٣/ ١٤٦)، وفيه أشعث بن سوار: ضعيف، وجعفر بن أبي أياس روايته عن سعيد بن جبير ضعيفة.

أي: الجنة. وبه قال مجاهد.

وقال العوفي، عن ابن عبَّاس: لما خلق الله الجنة وفرغ منها قال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ﴾ وذلك حين أعجبته[١].

وقال ابن جرير: حدَّثنا ابن حميد، حدَّثنا يعقوب، عن جعفر، عن شَهْر بن حَوْشَب قال: ﴿طُوبَىٰ﴾ شجرة في الجنة، كل شجر الجنة منها، أغصانها من وراء سور الجنة.

وهكذا رُوي عن أبي هريرة[٢]، وابن عبَّاس، ومغيث بن سُمَيٍّ، وأبي إسحاق السَّبِيعي وغير واحدٍ من السلف: أن طوبىٰ شجرة في الجنة، في كل دارٍ منها غصن منها.

وذكر بعضهم أن الرحمن -تبارك وتعالىٰ- غرسها بيده من حبة لؤلؤة، وأمرها أن تمتد، فامتدت إلىٰ حيث يشاء الله تبارك وتعالىٰ، وخرجت من أصلها ينابيع أنهار الجنة، من عسل وخمر وماء ولبن.

وقد قال عبد الله بن وهب: حدَّثنا عمرو بن الحارث، أن درَّاجا أبا السَّمْح حدثه، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيدٍ الخدري رضي الله عنه [مرفوعًا: «**طُوبَىٰ: شَجَرَةٌ فِي الجَنَّةِ مَسِيرَةُ مِائَةِ سَنَةٍ، ثِيَابُ أَهْلِ الجَنَّةِ تَخْرُجُ مِنْ أَكْمَامِهَا**»[٣].

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا حسن بن موسىٰ، سمعت عبد الله بن لَهِيعة، حدَّثنا دَرَّاج أبو السمح، أن أبا الهيثم حدثه، عن أبي سعيد الخدري][٤] عن رسول الله ﷺ: أن رجلًا قال: يا رسول الله، طوبىٰ لمن رآك وآمن بك. قال: «**طُوبَىٰ لِمَنْ رَآنِي وَآمَنَ بِي، ثُمَّ طُوبَىٰ، ثُمَّ طُوبَىٰ، ثُمَّ طُوبَىٰ لِمَنْ آمَنَ بِي وَلَمْ يَرَنِي**». قال له رجل: وما طوبىٰ؟ قال: «**شَجَرَةٌ فِي الجَنَّةِ مَسِيرَةُ مِائَةِ عَامٍ، ثِيَابُ أَهْلِ الجَنَّةِ تَخْرُجُ مِنْ أَكْمَامِهَا**»[٥].

ورَوىٰ البخاري ومسلم جميعًا، عن إسحاق بن راهويه، عن مغيرة المخزومي، عن وهيب، عن أبي حازم، عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ فِي الجَنَّةِ شَجَرَةً يَسِيرُ الرَّاكِبُ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ عَامٍ لَا يَقْطَعُهَا**» قال: فحدثت به النعمان بن أبي عياش الزُّرَقي، فقال: حدَّثني أبو سعيد الخُدْري، عن النَّبِيِّ ﷺ قال: «**إِنَّ فِي الجَنَّةِ شَجَرَةً يَسِيرُ الرَّاكِبُ الجَوَادَ المُضَمَّرَ[٦] السَّرِيعَ مِائَةَ عَامٍ مَا يَقْطَعُهَا**»[٧].

---

(١) ضعيف: رواه الطبري (١٣/ ١٤٧)، وفيه عطية العوفي: شيعي مدلس.

(٢) ضعيف: رواه الطبري (١٣/ ١٤٧)، وفيه شهر بن حوشب: صدوق كثير الأوهام والإرسال.

(٣) رواه الطبري (١٣/ ١٤٧) وفيه دراج أبو السمح في حديثه عن أبي الهيثم ضعف، لكن أورد الشيخ الألباني للجزء الأول من الحديث شواهد تصححه. انظر: «الصحيحة» (١٩٨٥).

(٤) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

(٥) رواه أحمد (٣/ ٧٠)، وإسناده ضعيف، فيه ابن لهيعة: اختلط، وكذلك دراج أبو السمح: في حديثه عن أبي الهيثم ضعف، وقد أورد الألباني شواهد لجزئه الأول وصححه. انظر: «الصحيحة» (١٩٨٥).

(٦) تضمِيرُ الخَيل: هو أن يُظاهِر عليها بالعَلَف حتىٰ تسمَن، ثم لا تُعْلف إلّا قُوتًا لتَخِفَّ. وقيل: تُشَدُّ عليها سُرُوجُها وتُجَلَّل بالأجِلَّة حتىٰ تَعْرَق تَحْتَها فيَذهبَ رَهَلُها ويَشْتَدَّ لحمُها. (النهاية).

(٧) رواه البخاري (٦٥٥٢)، ومسلم (٢٨٢٧)، وثبت الحديث أيضًا من حديث أبي هريرة: رواه البخاري (٣٢٥٢، ٤٨٨١)، ومسلم (٢٨٢٦).

وفي «صحيح البخاري» من حديث يزيد بن زُرَيع، عن سعيد، عن قتادة، عن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ في قول الله: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ [الواقعة: ٣٠] قال: «**فِي الجَنَّةِ شَجَرَةٌ يَسِيرُ الرَّاكِبُ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ عَامٍ لا يَقْطَعُهَا**»[(١)].

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا [سُرَيْج][(٢)]، حدَّثنا فُلَيْح، عن هلال بن علي، عن عبد الرحمن بن أبي عَمْرة، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**فِي الجَنَّةِ شَجَرَةٌ يَسِيرُ الرَّاكِبُ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ [سَنَةٍ]**[(٣)] **اقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ** ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾» أخرجاه في «الصحيحين»[(٤)].

وقال الإمام أحمد أيضًا: حدَّثنا محمَّد بن جعفر وحجاج قالا: حدَّثنا شعبة، سمعت أبا الضَّحَّاك يحدث عن أبي هريرة، عن النَّبيِّ ﷺ أنه قال: «**إِنَّ فِي الجَنَّةِ شَجَرَةً يَسِيرُ الرَّاكِبُ فِي ظِلِّهَا سَبْعِينَ -أو: مِائَةَ- سَنَةٍ هِيَ شَجَرَةُ الخُلْدِ**»[(٥)].

وقال محمَّد بن إسحاق، عن يحيىٰ بن عباد بن عبد الله بن الزبير، عن أبيه، عن أسماء بنت أبي بكر ﷺ قالت: سمعت رسول الله ﷺ، وذكر سدرة المنتهىٰ، قال: «**يَسِيرُ فِي ظِلِّ الفَنَنِ**[(٦)] **مِنْهَا الرَّاكِبُ مِائَةَ سَنَةٍ -أو: قَالَ-: يَسْتَظِلُّ فِي الفَنَنِ مِنْهَا مِائَةُ رَاكِبٍ، فِيهَا فَرَاشُ**[(٧)] **الذَّهَبِ، كَأَنَّ ثَمَرَهَا القِلَالُ**[(٨)]». رواه الترمذي[(٩)].

وقال إسماعيل بن عياش، عن سعيد بن يوسف، عن يحيىٰ بن أبي كثير، عن أبي سلام الأسود قال: سمعت أبا أمامة الباهلي قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ يَدْخُلُ الجَنَّةَ إِلَّا انْطُلِقَ بِهِ إِلَىٰ طُوبَىٰ، فَتَفَتَّحُ لَهُ أَكْمَامَهَا، فَيَأْخُذُ مِنْ أَيِّ ذَلِكَ شَاءَ، إِنْ شَاءَ أَبْيَضَ، وَإِنْ شَاءَ أَحْمَرَ، وَإِنْ شَاءَ أَصْفَرَ، وَإِنْ شَاءَ أَسْوَدَ، مِثْلَ شَقَائِقِ النُّعْمَانِ وَأَرَقَّ وَأَحْسَنَ**»[(١٠)].

وقال الإمام أبو جعفر بن جرير: حدَّثنا محمَّد بن عبد الأعلىٰ، حدَّثنا محمَّد بن ثور، عن مَعْمَر، عن أشعث بن عبد الله، عن شَهْر بن حَوْشَب، عن أبي هريرة ﷺ قال: طوبىٰ شجرة في الجنة، يقول الله لها: «**تَفَتَّقِي لِعَبْدِي [عَمَّا]**[(١١)] **شَاءَ؛ فَتَفَتَّقُ لَهُ عَنِ الخَيْلِ بِسُرُوجِهَا [وَلُجُمِهَا]**[(١٢)]**، وَعَنِ الإِبِلِ بِأَزِمَّتِهَا، وَعَمَّا**

---

(١) رواه البخاري (٣٢٥١)، وأحمد (٣/ ١١٠).
(٢) في (ز): (شريج)، وهو خطأ.
(٣) سقط من (ز).
(٤) البخاري (٣٢٥٢) (٤٨٨١)، ومسلم (٢٨٢٦).
(٥) أحمد (٢/ ٤٥٥/ ٤٦٢).
(٦) **الفَنَن**: الغصن.
(٧) **الفَرَاش**: جمع فراشة، وهي الحشرة المعروفة.
(٨) **القِلال**: جمع قُلَّة، وهي إناء للشرب كالجرة الكبيرة.
(٩) **حسن**: الترمذي (٢٥٤٤)، وقال: حسن صحيح، ورواه الحاكم (٢/ ٤٦٩)، وقال: صحيح علىٰ شرط مسلم ووافقه الذهبي وهناد في «الزهد» (١١٥)، ورواه أبو نعيم في «صفة الجنة» (٣/ ٤٣٥)، ومحمد بن إسحاق مدلس، لكنه صرح بالسماع عند هنَّاد في «الزهد» فالإسناد حسن.
(١٠) **ضعيف**: فيه سعيد بن يوسف: ضعيف كما في «التقريب»، ويحيىٰ بن أبي كثير: مشهور بالتدليس، وعزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٦٤٤)، إلىٰ ابن أبي شيبة في «صفة الجنة»، وابن أبي حاتم.
(١١) في (ز): (كما)، والمثبت موافق لما في «الطبري».
(١٢) في (ز): (بحملها)، والمثبت موافق لما في «الطبري».

شَاءَ مِنَ الكِسْوَةِ»[(١)].

وقد روىٰ ابن جرير عن وهب بن منبه هاهنا أثرًا غريبًا عجيبًا، قال وهب رَحِمَهُ اللَّهُ: إن في الجنَّة شجرة يقال لها: «طوبىٰ» يسير الرَّاكب في ظلِّها مائة عامٍ لا يقطعها، زهرها رِيَاط[(٢)]، وورقها بُرُود، وقضبانها عَنْبَر، وبطحاؤها ياقوت، وترابها كافور، وَوحَلها مِسْك، يخرج من أصلها أنهار الخمر واللبن والعسل، وهي مجلس لأهل الجنَّة، فبينا هم في مجلسهم إذ أتتهم ملائكة مِن رَبِّهم يقودون نُجُبًا مزمومةً بسلاسلَ مِن ذهب وجوهها كالمَصَابِيح حسنًا، ووَبَرُها كخزِّ المِرْعِزَّىٰ[(٣)] مِن لينِهِ، عليها رحال ألواحها من ياقوت، ودفوفها مِن ذهب، وثيابها مِن سندس وإستبرق، [فيُنِيخُونها ويقولون:][(٤)] إن ربنا أرسلنا إليكم لتَزُورُوه وتُسَلِّموا عليه قال: فيركبونها، فهِيَ أسرع من الطائر، وأوطأ من الفراش، نَجيًّا من غير مَهَنَة[(٥)]، يسير الرجل إلىٰ جنب أخيه وهو يُكَلِّمه ويناجيه، لا تصيب أذن راحلةٍ منها أذن الأخرىٰ، ولا بَرْك[(٦)] راحلة برك الأخرىٰ، حتىٰ إن شجرةً لتَتَنَحَّىٰ عن طريقهم؛ لئلَّا تفرِّق بين الرجل وأخيه. قال: فيأتون إلىٰ الرحمن الرحيم فيُسْفِر لهم عن وجهه الكريم حتىٰ ينظروا إليه، فإذا رأوه قالوا: اللَّهم، أنت السلام [ومنك السلام][(٧)]، وحق لك الجلال والإكرام. قال: فيقول تعالىٰ [عند ذلك][(٨)]: أنا السلام ومني السلام، وعليكم [حَقَّت][(٩)] رحمتي ومحبتي، مرحبًا بعبادي الذين خَشُونِي بغيبٍ وأطاعوا أمري.

قال: فيقولون: ربنا لم نعبدك حق عبادتك، ولم نقدرك حق قدرك، فأْذَنْ لنا في السُّجود قُدَّامك قال: فيقول الله: إنَّها ليست بدارِ نصبٍ ولا عبادةٍ، ولكنها دار مُلْك ونعيم، وإنِّي قد رفعت عنكم نصب العبادة، فسَلُوني ما شئتم، فإنَّ لكل رجلٍ منكم أمنيتَهُ، فيسألونه، حتىٰ إن أقصرهم أمنية ليقول: رَبِّ، تنافس أهل الدنيا في دنياهم فتضايقوا فيها، رَبِّ فآتنىٰ مثل كل شيءٍ كانوا فيه من يوم خلقتها إلىٰ أن انتهت الدنيا. فيقول الله تعالىٰ: لقد قصرت بك أمنيتك، ولقد سألت دون منزلتك، هذا لك مني، [وسأتحفك بمنزلتي][(١٠)]؛ لأنه ليس في عطائي نكدٌ ولا تَصْرِيدٌ[(١١)]. قال: ثم يقول: اعرضوا علىٰ عبادي ما لم يبلغ أمانيهم، ولم يخطِرْ لهم علىٰ بال. قال: فيعرِضُون عليهم حتىٰ تَقْصر بهم أمانيهم التي في أنفسهم، فيكون فيما يعرضون عليهم [براذين][(١٢)] مُقْرنة، علىٰ كل أربعةٍ منها سريرٌ من ياقوتةٍ واحدةٍ، علىٰ كل سرير منها قبةٌ مِن ذهبٍ مُفرَّغة، في كل قُبَّةٍ منها فُرُشٌ من فُرش الجنة مُتظاهرة، في كلِّ قُبَّة منها جاريتان من الحور العين، علىٰ كلِّ جارية منهنَّ ثوبان مِن ثياب الجنَّة، وليس في الجنَّة لون إلا وهو فيهما

---

(١) **ضعيف**: رواه ابن جرير (١٣/ ١٤٧)، وفيه شهر بن حوشب: كثير الإرسال والأوهام.

(٢) **الرياط**: جمع رَيْطة، وهي كل ثوب لين رقيق. والبرود: جمع بُرد، وهو الموشَّىٰ من الثياب.

(٣) **المِرْعِزَّىٰ**: الزغب الذي تحت شعر العنز، وهو ألين الصوف.

(٤) في (ز): (فيفتحونها يقولون).

(٥) **المَهَنَة**: جمع ماهن، مثل كاتب وكتبة، وهو الخادم.

(٦) **البَرْك**: الصدر.

(٧) في (ز): (وإليك).

(٨) سقط من (ز).

(٩) في (ز): (حفت).

(١٠) سقط من (ز).

(١١) **التصريد**: تقليل العطاء.

(١٢) في (ز): (براذين).

ولا ريح طيبة إلا قد عَبِقَتا به ينفذ ضوء وجوههما غلظ القبة، حتىٰ يظن من يراهما أنَّهما دون القبة، يُرَىٰ مُخُّهُمَا من فوق سوقهما، كالسِّلك الأبيض في ياقوتة حمراء، يريان له من الفضل علىٰ صاحبته كفضل الشمس علىٰ الحجارة أو أفضل، ويرىٰ هو لهما مثل ذلك، ويدخل إليهما فيُحَيِّيَانه ويُقَبِّلَانِهِ [ويَتَعَلَّقَانِ][(١)] به، ويقولان له: والله ما ظننا أن الله يخلق مثلك. ثم يأمر الله تعالىٰ الملائكة فيسيرون بهم صفًّا في الجنة، حتىٰ ينتهىٰ بكل رجلٍ منهم إلىٰ منزلته التي أعدت له[(٢)].

وقد روىٰ هذا الأثر ابن أبي حاتم بسنده، عن وهب بن منبه، وزاد: فانظروا إلىٰ موهوب ربكم الذي وهب لكم، فإذا هو بقباب في الرفيق الأعلىٰ، وغرف مبنية من الدُّرِّ والمَرْجان، وأبوابها من ذهبٍ، وسرُرُها مِن ياقوتٍ، وفرشها مِن سندسٍ وإستبرق، ومنابرها من نورٍ، يَفُورُ مِن أبوابها وعِراصها نور مثل شعاع الشمس عنده مثل الكوكب الدري في النهار المضيء، وإذا بقصورٍ شامخةٍ في أعلىٰ عليين من الياقوت يزهو نورها، فلولا أنه مُسَخرٌ، إذًا لَالْتَمَعَ[(٣)] الأبصارَ، فما كان مِن تلك القصور من الياقوت [الأبيض][(٤)]، فهو مفروش [بالحرير الأبيض، وما كان منها من الياقوت الأحمر فهو مفروشٌ بالعبقريِّ الأحمر، وما كان منها من الياقوت الأخضر فهو مفروش][(٥)] بالسُّنْدُسِ الأخضر، وما كان منها من الياقوت الأصفر، فهو مَفْرُوشٌ بالأرْجُوان الأصفر منَزَّه بالزُّمُرُّد الأخضر، والذهب الأحمر، والفضة البيضاء، قوائمها وأركانها من الجوهر، وشُرُفها قباب من لؤلؤ، وبروجها غُرَف من المرجان. فلما انصرفوا إلىٰ ما أعطاهم ربهم، قُرِّبت لهم [بَرَاذِين][(٦)] من ياقوت أبيض، منفوخ فيها الروح، تَجنبَها الولدان المخلدون بيد كل وليد منهم حَكَمَة[(٧)] [بِرْذَون][(٨)] من تلك البَرَاذِين، ولُجُمُهَا وأعنتها من فضةٍ بيضاء، منظومة بالدُّرِّ والياقوت، سُرُوجها سُرُرٌ موضونة[(٩)]، مفروشة بالسُّندس والإستبرق. فانطلقت بهم تلك البراذين تَزِفُّ[(١٠)] بهم ببطن رياض الجنة. فلما انتهوا إلىٰ منازلهم، وجدوا الملائكة قُعُودًا علىٰ منابر من نور، ينتظرونهم ليزورُوهُم ويُصَافِحُوهُم ويُهَنِّئُوهُم كرامَةَ ربِّهم. فلمَّا دخلوا قصورهم وجدوا فيها جميعَ ما تَطَاول[(١١)] به عليهم وما سألوا وتمنَّوْا، وإذا علىٰ باب كلِّ قصر من تلك القصور أربعة

---

(١) في (ز): (ويعلقا)، وفي «الطبري» (يعانقانه).

(٢) رواه الطبري (١٣/ ١٤٨) موقوفًا علىٰ وهب بن منبه، فلا يصح رفعه إلىٰ النَّبيِّ ﷺ والغالب علىٰ مرويات وهب بن منبه أنها من كتب أهل الكتاب، وقد روي نحوه مرفوعًا بسند ضعيف جدًّا، رواه أبو نعيم في «صفة الجنة» (١٤٩)، وإسناده معضل، وفيه إدريس بن سنان: ضعيف كما في «التقريب»، وقال عنه الدارقطني: متروك، وقال المنذري في «الترغيب والترهيب»: (ورفعه منكر).

(٣) أي: أذهب ضوءها.

(٤) في (ز): (الأحمر).

(٥) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

(٦) في (ز): (برادين).

(٧) **الحَكَمَة**: ما أحاط بحنكي الفرس من لجامه.

(٨) في (ز): (بردون)، وكذلك بالمهملة في بقية المواضع.

(٩) أي: منسوجة بالدر والجوهر، بعضها مداخل في بعض.

(١٠) أي: تسرع بهم.

(١١) أي: تفضل به.

جنان، [جنتان][(١)] ذواتا أفنان، وجنَّتانِ مُدْهامتان، وفيهما عينان نضَّاختان، وفيهما مِن كل فاكهةٍ زوجان، وحور مقصورات في الخيام، فلما تَبَيَّنُوا منازلهم واستقرُّوا قرارهم قال لهم ربهم: هل وجدتم ما وعدتكم حقًّا؟ قالوا: نعم وربِّنا. قال: هل رضيتم ثواب ربكم؟ قالوا: ربنا، رضينا فارض عنا، قال: برضاي عنكم حللتم داري، ونظرتم إلىٰ وجهي، وصافحتكم ملائكتي، فهنيئًا هنيئًا لكم، ﴿عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ﴾ [هود: ١٠٨] ليس فيه تنغيصٌ ولا تصريدٌ. فعند ذلك قالوا: الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن، وأدخلنا دار المقامة من فضله، لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب، إنَّ ربنا لغفور شكور[(٢)].

وهذا سياقٌ غريبٌ، وأثرٌ عجيبٌ، ولبعضه شواهد، ففي «الصحيحين»: أن الله تعالىٰ يقول لذلك الرجل الذي يكون آخر أهل الجنة دخولًا الجنة: «تَمَنَّ» فيتمنىٰ حتىٰ إذا انتهت به الأماني يقول الله تعالىٰ: «تَمَنَّ مِنْ كَذَا وَتَمَنَّ مِنْ كَذَا» يذكِّره، ثم يقول: «ذَلِكَ لَكَ، وَعَشَرَةُ أَمْثَالِهِ»[(٣)].

وفي «صحيح مسلم» عن أبي ذرٍّ عن رسول الله ﷺ عن الله ﷻ: «يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ، قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَسَأَلُونِي، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسأَلَتَهُ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا، إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ المَخِيطُ إِذَا أُدْخِلَ فِي البَحْرِ»، الحديث بطوله[(٤)].

وقال خالد بن مَعْدَان: إن في الجنة شجرةً يقال لها: طوبىٰ، لها ضروع، كلها ترضع صِبيَان أهل الجنة، وإن سَقَطَ المرأةِ يكون في نهرٍ من أنهار الجنة، يتقلب فيه حتىٰ تقوم القيامة، فيبعث ابن أربعين سنة. رواه ابن أبي حاتم[(٥)].

﴿كَذَٰلِكَ أَرۡسَلۡنَٰكَ فِيٓ أُمَّةٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهَآ أُمَمٞ لِّتَتۡلُوَاْ عَلَيۡهِمُ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَهُمۡ يَكۡفُرُونَ بِٱلرَّحۡمَٰنِۚ قُلۡ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ مَتَابِ ٣٠﴾

يقول تعالىٰ: وكما أرسلناك يا محمَّد في هذه الأمة: ﴿لِّتَتۡلُوَاْ عَلَيۡهِمُ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ أي: تبلغهم رسالة الله إليهم، كذلك أرسلنا في الأُمَمِ الماضية الكافرة بالله، وقد كُذِّب الرسل من قبلك، فلَكَ [بهم][(٦)] أسوةٌ، وكما أوقعنا بأسنا ونقمتنا بأولئك، فليحذر هؤلاء من حلول النقم بهم، فإن تكذيبهم لك أشدّ من تكذيب غيرك من المرسلين، قال الله تعالىٰ: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [النحل: ٦٣] وقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمۡ نَصۡرُنَاۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ وَلَقَدۡ جَآءَكَ مِن نَّبَإِيْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [الأنعام:

---

(١) سقط من (ز).
(٢) انظر ما قبله.
(٣) البخاري (٨٠٦)، ومسلم (١٨٢).
(٤) مسلم (٥٧٧)، والترمذي (٢٤٩٥)، وابن ماجه (٤٢٥٧).
(٥) لم نقف عليه في المطبوع من تفسير «ابن أبي حاتم»، وخالد بن معدان تابعي، وهذه من الأخبار الغيبية، فلا يحتج بما يروىٰ في هذا الباب إلا بما ثبت عن النَّبيِّ ﷺ، وعزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٦٤٥) إلىٰ ابن أبي حاتم وابن أبي الدنيا في «العزاء».
(٦) في (ز): فيهم.

٣٤] أي: كيف نصرناهم، وجعلنا العاقبة لهم ولأتباعهم في الدنيا والآخرة.

وقوله: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ﴾ أي: هذه الأمة التي بعثناك فيهم يكفرون بالرحمن، لا يقرون به؛ لأنهم كانوا [يأنفون][1] من وصف الله بالرحمن الرحيم؛ ولهذا أنفوا يوم الحديبية أن يكتبوا «بسم الله الرحمن الرحيم» وقالوا: ما نَدْرِي ما الرحمن الرحيم. قاله قتادة، والحديث في «صحيح البخاري»[2] وقد قال الله تعالىٰ: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠] وفي «صحيح مسلم» عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَحَبَّ الأَسْمَاءِ إِلَىٰ اللهِ عَبْدُ اللهِ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ»[3].

﴿قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [أي: هذا الذي تكفرون به أنا مؤمن به، معترفٌ مقرٌّ له بالربوبيَّة والإلهيَّة، هو رَبِّي لا إله إلا هو][4]، ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ أي: في جميع أموري، ﴿وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ أي: إليه أرجع وأنيب، فإنه لا يستحق ذلك أحدٌ سواه.

﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ (٣١)﴾

يقول تعالىٰ مادحًا للقرآن الذي أنزله علىٰ محمَّدٍ ﷺ، ومفضلًا له علىٰ سائر الكتب المنزلة قبله: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ﴾ أي: لو كان في الكتب الماضية كتابٌ تُسَيَّرُ به الجبال عن أماكنها، أو تقطع به الأرض وتنشق أو تُكَلَّم به الموتىٰ في قبورها، لكان هذا القرآن هو المتصف بذلك دون غيره، أو بطريق الأولىٰ أن يكون كذلك؛ لما فيه من الإعجاز الذي لا يستطيع الإنس والجن عن آخرهم إذا اجتمعوا أن يأتوا بمثله، ولا بسورةٍ من مثله، ومع هذا فهؤلاء المشركون كافرون به، جاحدون له، ﴿بَل لِّلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ أي: مرجع الأمور كلها إلىٰ الله ﷻ ما شاء الله كان، وما لَمْ يَشَأْ لم يكن، ومن يضلل الله فلا هادي له، ومن يهدِ الله فلا مضل له.

وقد يُطْلَق اسم «القرآن» علىٰ كل من الكتب المتقدمة؛ لأنَّه مشتقٌّ من الجميع، قال الإمام أحمد: حدَّثنا عبد الرزَّاق، حدَّثنا مَعْمَر، عن همام بن منبِّه قال: هذا ما حدَّثنا أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «[خُفِّفَتْ][5] عَلَىٰ دَاوُدَ القِرَاءَةُ، فَكَانَ يَأْمُرُ بِدَابَّتِهِ أَنْ تُسْرَجَ، فَكَانَ يَقْرَأُ القُرْآنَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُسْرَجَ دَابَّتُهُ، وَكَانَ لَا يَأْكُلُ إِلَّا مِنْ عَمَلِ يَدَيْهِ». انفرد بإخراجه البخاري[6].

---

(١) في (ز): يأبون.

(٢) البخاري (٢٧٣١)، وأبو داود (٢٧٦٥)، والنسائي (٥/ ١٦٩، ١٧٠).

(٣) مسلم (٢١٣٢)، وأبو داود (٤٩٤٩)، والترمذي (٢٨٣٥)، وابن ماجه (٣٧٢٨).

(٤) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

(٥) سقط من (ز)، وإثباتها موافق لما في «المسند».

(٦) البخاري (٣٤١٧)، وأحمد (٢/ ٣١٤).

والمراد بالقرآن هنا الزبور.

وقوله: ﴿أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ أي: من إيمان جميع الخلق ويعلموا أو يتبينوا ﴿أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ فإنه ليس ثم حجة ولا مُعجِزَة أبلغ ولا أنجع في النفوس والعقول من هذا القرآن، الذي لو أنزله الله علىٰ جبل لرأيته خاشعًا متصدعًا من خشية الله. وثبت في «الصحيح»: أن رسول الله ﷺ قال: «مَا مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا وَقَدْ أُوتِيَ مَا آمَنَ عَلَىٰ مِثْلِهِ البَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُهُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ القِيَامَةِ»(١) معناه: أنَّ معجزة كل نبيٍّ انقرضت بموته، وهذا القرآن حجَّةٌ باقيةٌ علىٰ الآباد، لا تنقضي عجائبه، ولا يَخْلَقُ عن كثرة الردِّ، ولا يشبع منه العلماء، هو الفصل ليس بالهَزْلِ. مَن تركه مِن جبَّارٍ قصَمَهُ الله، ومَنِ ابتغىٰ الهُدَىٰ من غيره أَضَلَّه الله.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبو زُرْعَة، حدَّثنا مِنْجاب بن الحارث، أنبأنا بشر بن عمارة، حدَّثنا عمر بن حسان، عن عطية العوفي قال: قلت له: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾ الآية، قالوا لمحمَّد ﷺ: لو سَيَّرت لنا جبال مكة حتىٰ تتسع فنَحْرُثَ فيها، أو قَطَّعْت لنا الأرض كما كان سليمان يقطع لقومه بالرِّيح، أو أحييت لنا الموتىٰ كما كان عيسىٰ يحيي الموتىٰ لقومه فأنزل الله هذه الآية. قال: قلت: هل تروون هذا الحديث عن أحدٍ من أصحاب النَّبيِّ ﷺ؟ قال: نعم، عن أبي سعيد، عن النَّبيِّ ﷺ(٢).

وكذا روي عن ابن عبَّاس(٣)، والشعبي، وقتادة، والثوري، وغير واحدٍ في سبب نزول هذه الآية، فالله أعلم.

وقال قتادة: لو فعل هذا بقرآن غير قرآنكم، فُعِلَ بقُرْآنِكم.

وقوله: ﴿بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ قال ابن عبَّاس: أي لا يصنع مِن ذلك إلا ما يشاء، ولم يكن ليفعل. رواه ابن إسحاق بسنده عنه، وقاله ابن جرير أيضًا.

وقال غير واحدٍ مِنَ السَّلف في قوله: ﴿أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ أفَلَمْ يعلم الذين آمنوا. وقرأ آخرون: «أفلم يَتَبيَّن الذين(٤) آمنوا أن لو يَشاء اللهُ لهدَىٰ النَّاس جميعًا».

[وقال أبو العالية: قد يَئِسَ الَّذِين آمنوا أن يَهْدُوا، ولو يشاء الله لهدىٰ الناس جميعًا](٥).

وقوله: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾ أي: بسبب تكذيبهم، لا تزال القَوارِع تصيبهم في الدُّنيا، أو تصيب مِن حولهم ليَتَّعِظُوا ويعتبروا، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٧] وقال: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا

---

(١) البخاري (٤٩٨١)، ومسلم (١٥٢).
(٢) ضعيف: فيه عطية العوفي: صدوق يخطئ كثيرًا وكان شيعيًّا مدلسًا، وبشر بن عمارة: ضعيف.
(٣) ضعيف: رواه الطبري (١٣/ ١٥١)، وإسناده مسلسل بالضعفاء.
(٤) قراءة: قَرَأَ (يَتَبَيَّنِ) عَلِيٌّ وَابْنُ عَبَّاسٍ، وَفِيهَا مِنَ الْمُتَوَاتِرِ قَرَأَ (يَايَسِ) الْبَزِّيُّ بِخُلْفٍ عَنْهُ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ (يَيْأَسِ).
(٥) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

﴿مِنْ أَطْرَافِهَآ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٤].

قال قتادة، عن الحسن: ﴿أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾ أي: القارعة. وهذا هو الظاهر من السياق.

قال أبو داود الطيالسي: حدَّثنا المسعودي، عن قتادة، عن سعيد بن جُبَيْر، عن ابن عبَّاس في قوله: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ﴾ قال: سرية، ﴿أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾ قال: محمَّد ﷺ، ﴿حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ﴾ قال: فتح مكة[1].

وهكذا قال عِكْرِمة، وسعيد بن جبير، ومجاهد، في رواية.

وقال العوفي، عن ابن عبَّاس: ﴿تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ﴾ قال: عذاب من السماء ينزل عليهم ﴿أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾ يعني: نزول رسول الله ﷺ بهم وقتاله إياهم[2].

وكذا قال مجاهد، وقتادة، وقال عِكْرِمة في رواية عنه، عن ابن عبَّاس: ﴿قَارِعَةٌ﴾ أي: نكبةٌ.

وكلهم قال: ﴿حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ﴾ يعني: فتح مكة. وقال الحسن البصري: يوم القيامة.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ أي: لا ينقض وعده لرسله بالنصرة لهم ولأتباعهم في الدنيا والآخرة، ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ [إبراهيم: ٤٧].

﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾﴾

يقول تعالىٰ مسليًا لرسوله ﷺ في تكذيب مَن كذَّبه مِن قومه: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ أي: فلك فيهم أسوة، ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: أنظرتهم وأجَّلتهم، ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ أخذةً رابيةً، فكيف بلغك ما صنعت بهم وعاقبتهم؟! كما قال تعالىٰ: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الحج: ٤٨].

وفي «الصحيحين»: «إِنَّ اللهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ» ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢][3].

﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ ۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾﴾

يقول تعالىٰ: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ أي: حفيظٌ عليمٌ رقيبٌ علىٰ كل نفسٍ منفوسةٍ، يعلم ما يَعْمَلُ العاملون من خيرٍ وشرٍّ، ولا يخفىٰ عليه خافية، ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا

---

(١) حسن: رواه الطبري (١٣/ ١٥٦)، من طرق والمسعودي به، ولا يضر اختلاطه، فمن روىٰ عنه وكيع وأبو قَطَنٍ، وقد رَوَيا عنه قبل الاختلاط.

(٢) رواه الطبري (١٣/ ١٥٧)، وفيه عطية العوفي: شيعي مدلس.

(٣) البخاري (٤٦٨٦)، ومسلم (٢٥٨٣)، والترمذي (٣١٠٩)، والنسائي (٦/ ٣٦٥)، وابن ماجه (٤٠١٨).

تعملونَ مِن عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [يونس: ٦١] وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ [الأنعام: ٥٩] وقال: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [هود: ٦] وقال: ﴿سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ [الرعد: ١٠] وقال: ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: ٧] وقال: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤] أفمن هو هكذا كالأصنام التي يعبدونها لا تسمع ولا تُبْصِر ولا تَعْقِل، ولا تملك نفعًا لأنفسها ولا لعابديها، ولا كشف ضرٍّ عنها ولا عن عابديها؟ وحذف هذا الجواب اكتفاء بدلالةِ السِّياق عليه، وهو قوله: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ﴾ أي: عبدوها معه، من أصنام وأندادٍ وأوثان.

﴿قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ أي: أَعْلِمُونا بهم، واكشفوا عنهم حتىٰ يُعرفوا، فإنهم لا حقيقة لهم؛ ولهذا قال: ﴿أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: لا وُجُود له؛ لأنَّه لو كان له وجودٌ في الأرض لعَلِمَهَا؛ لأنَّه لا تخفىٰ عليه خافية.

﴿أَم بِظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ﴾ قال مجاهد: بظَنٍّ من القول.

وقال الضَّحَّاك وقتادة: بباطلٍ من القول.

أي إنَّما عبدتم هذه الأصنام بظَنٍّ منكم أنها تنفع وتضر، وسميتموها آلهةً، ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ﴾ [النجم: ٢٣].

﴿بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ﴾ قال مجاهد: قولهم، أي: ما هم عليه من الضلال والدعوة إليه آناء الليل وأطراف النهار، كما قال تعالىٰ: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ [فصلت: ٢٥].

«وصَدُّوا عن السَّبيل»: من قرأها بفتح الصاد، معناه: أنَّهم لما زين لهم ما فيه وأنه حقٌّ، دَعوا إليه وصَدُّوا الناس عن اتِّباع طريق الرسل. ومن قرأها ﴿وَصُدُّوا﴾[1] أي: بما زُيِّن لهم مِن صحَّة ما هم عليه، صُدُّوا به عَن سبيل الله؛ ولهذا قال: ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ كَمَا قَالَ: ﴿وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ [المائدة: ٤١] وقال: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ [النحل: ٣٧].

﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ (٣٤) ۞ مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوا وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ (٣٥)﴾

---

(١) متواترة: قَرَأَ (وَصُدُّوا) عَاصِمٌ وَحَمْزَةُ وَالْكِسَائِيُّ وَخَلَفٌ (فِي اخْتِيَارِهِ) وَيَعْقُوبُ وَوَافَقَهُمُ الْحَسَنُ، وَقَرَأَ (وَصِدُّوا) الْأَعْمَشُ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ (وَصَدُّوا).

ذكر تعالىٰ عقاب الكفَّار وثواب الأبرار: فقال بعد إخباره عن حال المشركين وما هم عليه مِن الكفر والشرك: ﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: بأيدي المؤمنين قتلًا وأسرًا، ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ﴾ أي: المدَّخر مع هذا الخزي في الدنيا، ﴿أَشَقُّ﴾ أي: من هذا بكثيرٍ، كما قال رسول الله ﷺ للمتلاعنين: «إِنَّ عَذَابَ الدُّنْيَا أَهْوَنُ مِنْ عَذَابِ الآخِرَةِ»(١) وهو كما قال، صلوات الله وسلامه عليه، فإنَّ عذاب الدُّنيا له انقضاء، وذاك دائمٌ أبدًا في نارٍ هي بالنِّسبة إلىٰ هذه سبعون ضعفًا، ووثاق لا يتصور كثافته وشدَّته، كما قال تعالىٰ: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ [الفجر: ٢٥، ٢٦] وقال تعالىٰ: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا﴾ [الفرقان: ١١ -١٥].

ولهذا قرن هذا بهذا؛ فقال: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ أي: صفتها ونعتها، ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي: سارحة في أرجائِها وجوانبها، وحيث شاء أهلها، يفجرونها تفجيرًا؛ أي: يَصْرِفُونَها كيف شاءوا وأين شاءوا، كما قال تعالىٰ: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ [محمَّد: ١٥].

وقوله: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾ أي: فيها [المطاعم](٢) والفواكه والمشارب، لا انقطاع ولا فناء.

وفي «الصحيحين»، من حديث ابن عبَّاس في صلاة الكسوف، وفيه قالوا: يا رسول الله، رَأَيْناك تناولتَ شيئًا فِي مقامك هذا، ثم رأيناك تكعكعت(٣) فقال: «إِنِّي رَأَيْتُ الجَنَّةَ -أو: أُرِيتُ الجَنَّةَ- فَتَنَاوَلْتُ مِنْهَا عُنْقُودًا، وَلَوْ أَخَذْتُهُ لَأَكَلْتُمْ مِنْهُ مَا بَقِيَتِ الدُّنْيَا»(٤).

وقال الحافظ أبو يعلىٰ: حدَّثنا أبو خَيْثَمَةَ، حدَّثنا عبد الله بن جعفر، حدَّثنا عبيد الله، حدَّثنا أبو عَقيل، عن جابر قال: بينما نحن في صلاة الظهر، إِذْ تقدَّم رسولُ الله ﷺ فتقدَّمْنا، ثم تناول شيئًا ليأخذه ثم تأخَّر. فلما قضىٰ الصَّلاة قال له أبي بن كعب: يا رسول الله، صنعت اليوم في الصلاة شيئًا ما رأيناك كنت تصنعه. فقال: «إِنِّي عُرِضَتْ عَلَيَّ الجَنَّةُ وَمَا فِيهَا مِنَ الزَّهْرَةِ وَالنُّضْرَةِ، فَتَنَاوَلْتُ مِنْهَا قِطْفًا مِنْ عِنَبٍ لِآتِيَكُمْ بِهِ، فَحِيلَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ، وَلَوْ أَتَيْتُكُمْ بِهِ لَأَكَلَ مِنْهُ مَنْ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لا يَنْقُصُونَهُ»(٥).

وروىٰ مسلم مِن حديث أبي الزُّبير، عن جابر شاهدًا لبعضه(٦).

وعن عتبة بن عبدٍ السُّلَمي: أنَّ أعرابيًا سأل النَّبيَّ ﷺ عن الجنَّة، فقال: فيها عنبٌ؟ قال: «نَعَمْ». قال:

---

(١) البخاري (٤٧٤٥)، ومسلم (١٤٩٢) (١٤٩٦). (٢) في (ز): الطعام.
(٣) أي: توقفت وأحجمت. (٤) البخاري (٢٩) (١٠٥٢)، ومسلم (٢٠٧).
(٥) أحمد (٣/ ٣٥٢)، (٥/ ١٣٧)، وفيه عبد الله بن محمَّد بن عَقِيل. قال الحافظ: صدوق في حديثه لين، ويقال: تغير بآخرة.
(٦) رواه مسلم (٩٠٤)، وأبو داود (١١٧٩)، والنسائي (٣/ ١٣٦).

فما عِظَم العنقود؟ قال: «مَسِيرَةُ شَهْرٍ لِلْغُرَابِ الأَبْقَعِ[١]؛ وَلَا يَفْتُرُ». رواه أحمد[٢].

وقال الطبراني: حدَّثنا معاذ بن المثنىٰ، حدَّثنا علي بن المديني، حدَّثنا ريحان بن سعيد، عن عباد بن منصور، عن أيوب، عن أبي قِلابة، عن أبي أسماء، عن ثَوْبان قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الرَّجُلَ إِذَا نَزَعَ ثَمَرَةً مِنَ الجَنَّةِ عَادَتْ مَكَانَهَا أُخْرَىٰ»[٣].

وعن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «يَأْكُلُ أَهْلُ الجَنَّةِ وَيَشْرَبُونَ، وَلَا يَمْتَخِطُونَ وَلَا يَتَغَوَّطُونَ وَلَا يَبُولُونَ، طَعَامُهُمْ جُشَاءٌ[٤] كَرِيحِ المِسْكِ، وَيُلْهَمُونَ التَّسْبِيحَ وَالتَّقْدِيسَ كَمَا يُلْهَمُونَ النَّفَسَ». رواه مسلم[٥].

وروىٰ الإمام أحمد والنسائي، من حديث الأعمش، عن [ثُمامة][٦] بن عقبة سمعت زيد بن أرقم قال: جاء رجلٌ من أهل الكتاب فقال: يا أبا القاسم، تزعم أنَّ أهل الجنَّة يأكلون ويشربون؟ قال: «نَعَمْ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، [إِنَّ الرَّجُلَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ][٧] لَيُعْطَىٰ قُوَّةَ مِائَةِ رَجُلٍ فِي الأَكْلِ وَالشُّرْبِ وَالجِمَاعِ وَالشَّهْوَةِ». قال: فإنَّ الذي يأكل ويشرب تكون له الحاجة، وليس في الجنة أذىٰ؟ قال: «حَاجَةُ أَحَدِهِمْ رَشْحٌ يَفِيضُ مِنْ جُلُودِهِمْ، [كَرِيحِ][٨] المِسْكِ، فَيَضْمُرُ بَطْنُهُ»[٩].

وقال الحسن بن عرفة: حدَّثنا خلف بن خليفة، عن حميد الأعرج، عن [عبد][١٠] الله بن الحارث، عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: قال لي رسول الله ﷺ: «إِنَّكَ لَتَنْظُرُ إِلَىٰ الطَّيْرِ فِي الجَنَّةِ، فَيَخِرُّ بَيْنَ يَدَيْكَ مَشْوِيًّا»[١١].

وجاء في بعض الأحاديث: أنه إذا فُرغ منه عادَ طائرًا [كما كان][١٢] بِإِذْنِ الله تعالىٰ.

وقد قال تعالىٰ: ﴿وَفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ ٣٢ لَّا مَقۡطُوعَةٖ وَلَا مَمۡنُوعَةٖ﴾ [الواقعة: ٣٢، ٣٣] وقال: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيۡهِمۡ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتۡ قُطُوفُهَا تَذۡلِيلٗا﴾ [الإنسان: ١٤].

وكذلك ظلها لا يزول ولا يقلص، كما قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ

---

(١) الغراب الأبقع: هو ما جمع لونه بين السواد والبياض.

(٢) أحمد (٤/ ١٨٣، ١٨٤)، وابن حبان (٧٤١٦)، والطبراني في «الكبير» (١٧/ ١٢٨)، وصححه الألباني في «السنة» لابن أبي عاصم (٧١٦).

(٣) ضعيف: «المعجم الكبير» (٢/ ١٣٣٩)، وضعفه الألباني في «الضعيفة» (٣١٤٦)، وعلته عباد بن منصور: ضعيف مدلس.

(٤) الجُشَاء: تنفس المعدة من الامتلاء.

(٥) رواه مسلم (٢٨٣٥).

(٦) في (ز): (تمام)، والمثبت هو الصواب.

(٧) سقط من (ز).

(٨) في (ز): (كرشح)، وهو خطأ.

(٩) صحيح: أحمد (٤/ ٣٦٧)، وابن حبان (٧٤٢٤).

(١٠) في (ز): (عبيد).

(١١) ضعيف: رواه أبو نعيم في «صفة الجنة» (٣٤١)، وفي «زوائد الزهد» لابن المبارك (١٤٥٢)، وفيه حميد بن عطاء الأعرج: ضعيف، انظر ترجمته في «ميزان الاعتدال» (١/ ٢٣٥٣).

(١٢) ليست في (ز).

﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ [النساء: ٥٧].

وقد تقدم في «الصحيحين» مِن غير وجه أن رسول الله ﷺ قال: «**إِنَّ فِي الجَنَّةِ شَجَرَةً، يَسِيرُ الرَّاكِبُ [المُجِدُّ]**(١) **الجَوَادَ المُضَمَّرَ السَّرِيعَ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ عَامٍ لا يَقْطَعُهَا**» ثم قرأ: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ [الواقعة: ٣٠](٢).

وكثيرًا ما يقرن الله تعالىٰ بين صفة الجنَّة وصفة النَّار؛ لِيُرَغِّبَ في الجنة ويحذِّر من النَّار؛ ولهذا لما ذكر صفة الجنة بما ذكر، قال بعده: ﴿تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾ كما قال تعالىٰ: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [الحشر: ٢٠].

وقال بلال بن سعد خطيب دمشق في بعض خُطَبِهِ: عباد الله هل جاءكم مخبرٌ يخبركم أنَّ شيئًا مِن عبادتكم تُقُبِّلَتْ منكم، أو أن شيئًا من خطاياكم غُفِرَتْ لكم؟ ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥] والله لو عُجِّل لكم الثَّواب في الدُّنيا لاستقللتم كلُّكم ما افترض عليكم، أو ترغبون في طاعة الله [لِتَعْجِيل دنياكم](٣)، ولا تُنافِسُون في جنة ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾؟! رواه ابن أبي حاتم(٤).

﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ ۚ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾﴾

يقول تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ وهم قائمون بمقتضاه ﴿يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ أي: من القرآن لما في كتبهم من الشواهد علىٰ صدقه والبشارة به، كما قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [البقرة: ١٢١] وقال تعالىٰ: ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ [الإسراء: ١٠٧، ١٠٨] أي: إن كان ما وَعَدَنا الله به في كتبنا من إرسال محمَّدٍ ﷺ لَحقًّا وصدقًا مفعولًا لا محالة، وكائنًا، فسبحانه ما أصدقَ وعدَهُ! فله الحمد وحده، ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٩].

وقوله: ﴿وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ﴾ أي: ومن الطوائف من يكذِّب ببعض ما أنزل إليك.

وقال مجاهد: ﴿وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾ أي: اليهود والنَّصارىٰ، ﴿مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ﴾ أي: بعض ما جاءك من الحقِّ. وكذا قال قتادة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

---

(١) ليست في «الصحيحين» ولا أحدهما ولا في أي من ألفاظ الحديث ورواياته.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) في (ز): (للتعجيل).

(٤) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٧٥٢)، وأبو نعيم في «الحلية» (٥/ ٢٣١) ورجاله ثقات.

وهذا كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٩].

﴿قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ﴾ أي: إنما بُعِثْتُ بعبادة الله وحده لا شريك له، كما أُرسِل الأنبياء من قبلي، ﴿إِلَيْهِ أَدْعُوا۟﴾ أي: إلىٰ سبيله أدعو الناس، ﴿وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ﴾ أي: مرجعي ومصيري.

وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ أي: وكما أرسلنا قبلك المرسلين، وأنزلْنا عليهم الكتب من السماء، كذلك أنزلنا عليك القرآن محكمًا معربًا، شرَّفناك به وفَضَّلناك علىٰ مَن سواك بهذا الكتاب المبين الواضح الجليِّ الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ١١].

وقوله: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم﴾ أي: آراءهم، ﴿بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ أي: من الله تعالىٰ ﴿مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾ وهذا وَعِيدٌ لأهل العلم أن يَتَّبِعُوا سبُلَ أهل الضَّلالة بعدما صاروا إليه من سلوك السُّنَّة النبويَّة والمحجَّة المحمَّدية، علىٰ من جاء بها أفضل الصلاة والسلام.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً ۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ[(١)] ﴿٣٩﴾﴾

يقول تعالىٰ: وكما أرسلناك، يا محمَّد رسولًا بشريًّا كذلك قد بعثنا المرسلين قبلك بَشَرًا يأكلون الطعام، ويمشون في الأسواق، ويأتون الزَّوجات، ويُولَدُ لهم، وجعلنا لهم أزواجًا وذرِّيَّةً، وقد قال الله تعالىٰ لأشرف الرسل وخاتمهم: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ [الكهف: ١١٠].

وفي «الصحيحين»: أن رسول الله ﷺ قال: «**أَمَّا أَنَا فَأَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأَقُومُ وَأَنَامُ، وَآكُلُ الدَّسَمَ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي**»[(٢)].

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا يزيد، أنبأنا الحجاج بن أرطاة، عن مكحول قال: قال أبو أيوب: قال رسول الله ﷺ: «**أَرْبَعٌ مِنْ سُنَنِ الْمُرْسَلِينَ: التَّعَطُّرُ، وَالنِّكَاحُ، وَالسِّوَاكُ، وَالْحِنَّاءُ**»[(٣)].

وقد رواه أبو عيسىٰ الترمذي، عن سفيان بن وَكِيع عن حفص بن غِياث، عن الحجاج، عن مكحول، عن أبىٰ [الشمال][(٤)] عن أبي أيوب... فذكره، ثم قال: وهذا أصح من الحديث الذي لم يذكر فيه أبو الشمال[(٥)].

---

(١) قال القاسمي رَحِمَهُ اللَّهُ: تمسك جماعة بظاهر قوله تعالىٰ: ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾ فقالوا: إنها عامةٌ في كل شيءٍ كما يقتضيه ظاهر اللفظ. قالوا: يمحو الله من الرزق ويزيد فيه. وكذا القول في الأجل والسعادة والشقاوة والإيمان والكفر..

(٢) البخاري (٤٧٧٦)، ومسلم (١٤٠١)، والنسائي (٦/ ٦٠).

(٣) ضعيف: أحمد (٥/ ٣٢١)، وحجاج بن أرطأة: ضعيف، وفيه أيضًا انقطاع بين مكحول وأبي أيوب.

(٤) في (ز): (السماك)، وهو خطأ.

(٥) ضعيف: رواه الترمذي (١٠٨٠)، وحجاج بن أرطأة: ضعيف، وأبو الشمال مجهول كما في «التقريب».

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي: لم يكن يأتي قومه بخارق إلا إذا أُذِنَ له فيه، ليس ذلك إليه، بل إلىٰ الله ﷻ يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد.

﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ أي: لكل مدةٍ مضروبةٍ كتابٌ مكتوبٌ بها، وكل شيءٍ عنده بمقدار، ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠].

وكان الضَّحَّاك بن مزاحم يقول في قوله: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ أي: لكل كتاب أجلٌ يعني: لكل كتاب أنزله من السماء مدة مضروبة عند الله ومقدار معين، فلهذا يمحو ما يشاء منها ويُثْبِت؛ يعني: حتىٰ نسخت كلها بالقرآن الذي أنزله الله علىٰ رسوله، صلوات الله وسلامه عليه.

وقوله: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾ اختلف المُفسِّرون في ذلك، فقال الثوري، ووَكِيع، وهُشَيم، عن ابن أبي ليلىٰ، عن المنهال بن عمرو، عن سعيد بن جُبَيْر، عن ابن عبَّاس: يُدَبِّر أمر السَّنَةِ، فيمحو ما يشاء، إلا الشَّقاء والسَّعادة، والحياة والموت. وفي رواية: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾ قال: كل شيء إلا الحياة والموت، والشقاء والسعادة فإنهما قد فرغ منهما(١).

وقال مجاهد: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾ إلا الحياة والموت، والشقاء والسعادة، فإنهما لا يتغيَّران.

وقال منصور: سألت مجاهدًا فقلت: أرأيت دعاء أحدنا يقول: اللهم، إن كان اسمي في السعداء فأثبته فيهم، وإن كان في الأشقياء فَامحُه عنهم واجعله في السعداء. فقال: حسن. ثم لَقِيتَه بعد ذلك بحول أو أكثر، فسألته عن ذلك، فقال: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان: ٣، ٤] قال: يقضي في ليلةِ القدر ما يكون في السَّنَة من رزق أو مصيبة، ثم يُقَدِّم ما يشاء ويُؤَخِّر ما يشاء، فأما كتاب الشقاوة والسعادة فهو ثابتٌ لا يُغيَّر(٢).

وقال الأعمش، عن أبي وائل شَقِيق بن سلمة: أنَّه كان يكثر أن يدعوَ بهذا الدعاء: اللَّهمَّ، إن كنت كتبتنا أشقياء فامحُهُ، واكتبنا سعداء، وإن كنت كتبتنا سعداء فأثبتنا، فإنك تمحو ما تشاء وتُثْبِت وعندك أم الكتاب. رواه ابن جرير(٣).

وقال ابن جرير أيضًا: حدَّثنا عمرو بن علي، حدَّثنا معاذ بن هشام، حدَّثني أبي، عن أبي حكيمة عصمة، عن أبي عثمان النَّهْدي؛ أن عمر بن الخطاب ﷺ قال وهو يطوف بالبيت وهو يبكي [وهو يقول](٤): اللَّهمَّ، إن كنت كتبت عليَّ شِقْوة أو ذنبًا فامحه، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت، وعندك أم

---

(١) رواه الطبري (١٣/ ٦٦)، وابن نصر في «قيام الليل» (ص١٨١)، والبيهقي في «الشعب» (٣٣٩٤)، ورجاله ثقات عدا محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلىٰ قال الحافظ: صدوق سيئ الحفظ.

(٢) رواه الطبري (١٣/ ١٦٦ ـ ١٦٧)، واللَّالَكَائِي في «أصول الاعتقاد» (٣/ ٩٧٤)، وعبد الله بن أحمد في «السنة» (٢/ ٨٩٧، ١١٢٩)، وقوله الأول هو الموافق لما ذهب إليه عمر وابن مسعود كما سيأتي.

(٣) رواه الطبري (١٣/ ١٦٧) وسيأتي أن ذلك أيضًا كان من دعاء ابن مسعود وعمر.

(٤) ثابتة في (ز)، وسقطت من بعض النسخ.

الكتاب، فاجعله سعادةً ومغفرةً[١].

وقال حمّاد عن خالد الحذَّاء، عن أبي قلابة عن ابن مسعود أنَّه كان يدعو بهذا الدُّعاء أيضًا[٢].

ورواه شَرِيك، عن هلال بن حميد، عن عبد الله بن [عُكَيْم][٣]، عن ابن مسعود، بمثله[٤].

وقال ابن جرير: حدَّثني [المثنىٰ][٥]، حدَّثنا حجاج، حدَّثنا خصاف، عن أبي حمزة، عن إبراهيم؛ أنَّ كعبًا قال لعمر بن الخطاب: يا أمير المؤمنين، لولا آيةٌ في كتاب الله لأنبأتك بما هو كائنٌ إلىٰ يوم القيامة. قال: وما هي؟ قال: قول الله تعالىٰ: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾[٦].

ومعنىٰ هذه الأقوال: أن الأقدار ينسخ الله ما يشاء منها، ويُثْبِت منها ما يشاء، وقد يُسْتأْنس لهذا القول بما رواه الإمام أحمد: حدَّثنا وَكِيع، حدَّثنا سفيان، وهو الثوري، عن عبد الله بن عيسىٰ، عن عبد الله بن أبي الجَعْد، عن ثَوْبَان قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ الرَّجُلَ لَيُحْرَمُ الرِّزْقَ بِالذَّنْبِ يُصِيبُهُ، وَلَا يَرُدُّ القَدَرَ إِلَّا الدُّعَاءُ، وَلَا يَزِيدُ فِي العُمُرِ إِلَّا البِرُّ**»[٧].

ورواه النسائي وابن ماجه، من حديث سفيان الثوري به.

وثبت في «الصحيح»: أنَّ صلة الرحم تزيد في العمر[٨]، وفي الحديث الآخر: «**[إِنَّ][٩] الدُّعَاءَ وَالقَضَاءَ لَيَعْتَلِجَانِ[١٠] بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ**»[١١].

وقال ابن جرير: حدَّثني محمَّد بن سهل بن عسكر، حدَّثنا عبد الرزَّاق، أخبرنا ابن جُرَيْج، عن عطاء، عن ابن عبَّاس قال: إن لله ﷻ لوحًا محفوظًا مسيرة خمسمائة عام، من دُرَّة بيضاء لها دفَّتان

---

(١) حسن: رواه الطبري (١٣/ ١٦٧)، والبخاري في «الكبير» (٧/ ٦٣)، واللَّالَكَائِي في «أصول الاعتقاد» (٤/ ١٢٠٦، ١٢٠٧)، والأثر رجاله ثقات وأبو حكيمة وثَّقه ابن حبان، وقال فيه أبو حاتم: محلة الصدق.

(٢) حسن لغيره: رواه الطبري (١٣/ ١٦٨)، والطبراني في «الكبير» (٩/ ٨٨٤٧)، وفيه انقطاع؛ لأن أبا قلابة لم يدرك ابن مسعود، وله طريق أخرىٰ، رواه الطبري (١٣/ ١٦٨)، ورجاله ثقات، وفيه شريك النخعي: فهو صدوق يخطئ، وبمجموع الطريقين فالأثر حسن إن شاء الله.

(٣) في (ز): (عليم)، وهو خطأ. (٤) حسن لغيره: انظر ما قبله.

(٥) سقط من (ز).

(٦) ضعيف: رواه الطبري (١٣/ ١٦٨) وفيه أبو حمزة: ميمون الأعور النمار: ضعيف.

(٧) أحمد (٥/ ٢٧٧)، وابن ماجه (٢٠) (٤٠٢٢)، وحسنه العراقي، وصححه المنذري في «الترغيب والترهيب»، والراجح تضعيفه لجهالة عبد الله بن أبي الجعد، ولكن الجملتين الأخيرتين لهما شواهد، انظر: «الصحيحة» للألباني (١٥٤).

(٨) صحيح: رواه القضاعي في «مسند الشهاب» (١/ ٩٣) من حديث ابن مسعود، ورواه الطبراني في «الأوسط» (١/ ٢٨٩) رقم (٩٤٣) من حديث بَهْز بن حكيم عن أبيه عن جده. ورواه البخاري في «الأدب المفرد» (٥٥) من حديث عائشة ﵂، وثبت نحوه في «الصحيحين»: رواه البخاري (١٩٦١)، ومسلم (٢٥٥٧)، وأبو داود (١٦٩٣) من حديث أنس، ورواه البخاري (٥٦٣٩) من حديث أبي هريرة.

(٩) سقط من (ز). (١٠) أي: يتصارعان.

(١١) ضعيف: رواه من حديث عائشة الطبراني في «الأوسط» (٢٤٩٨)، والحاكم (١/ ٤٩٢)، وصححه، لكن تعقبه الذهبي فقال: زكريا مجمعٌ علىٰ ضعفه. وللحديث شاهدٌ من حديث أبي هريرة عند البزار، وفيه إبراهيم بن خثيم بن عِرَاك: متروك.

من ياقوت -والدَّفتان: لوحان- لله ﷻ [كلَّ يوم ثلاثمائة][(١)] وستون لحظةً، يمحو ما يشاء ويُثْبِت وعنده أم الكتاب[(٢)].

وقال اللَّيث بن سعد، عن [زيادة][(٣)] بن محمَّد، عن محمَّد بن كعب القُرظي، عن فَضَالة بن عُبَيد، عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «[إنَّ اللهَ][(٤)] **يَفْتَحُ الذِّكْرَ فِي ثَلَاثِ سَاعَاتٍ يَبْقَيْنَ مِنَ اللَّيْلِ، فِي السَّاعَةِ الأُولَىٰ مِنْهَا يَنْظُرُ فِي الذِّكْرِ الَّذِي لا يَنْظُرُ فِيهِ أَحَدٌ غَيْرُهُ، فَيَمْحُو مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ...**». وذكر تمام الحديث. رواه ابن جرير[(٥)].

وقال الكلبي: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾ قال: يَمْحُو مِن الرِّزق ويزيد فيه، ويمحُو من الأَجَل ويَزيد فيه. فقيل له: من حدَّثك بهذا؟ فقال: أبو صالح، عن جابر بن عبد الله بن رئاب، عن النَّبيِّ ﷺ. ثم سئل بعد ذلك عن هذه الآية فقال: يكتب القول كله، حتىٰ إذا كان يوم الخميس طرح منه كل شيءٍ لَيْسَ فيه ثواب ولا عقاب، مثل قولك: أكلت وَشَرِبْت، دخلت خرجت ونحوه من الكلام، وهو [صادق][(٦)]، ويثبت ما كان فيه الثواب، وعليه العقاب[(٧)].

وقال عِكْرِمة، عن ابن عبَّاس: الكتاب كتابان: فكتاب يَمْحُو الله منه ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب[(٨)].

[[(٩)] وقال العوفي، عن ابن عبَّاس في قوله: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ يقول: هو الرَّجل يعمل الزَّمانَ بطاعةِ الله، ثم يعود لمعصية الله فيموت علىٰ ضلالةٍ، فهو الذي يمحو -والذي يثبت: الرجل يعمل بمعصية الله، وقد كان سبق له خير حتىٰ يَمُوت وهو في طاعة الله، [فهو][(١٠)] الذي يثبت[(١١)].

وروي عن سعيد بن جُبَير: أنها بمعنىٰ: ﴿فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٨٤].

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾ يقول: يبدل ما يشاء فيَنْسَخُه، ويثبت ما يشاء فلا يبدله، ﴿وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ يقول: وجملة ذلك عنده في أم الكتاب، الناسخ،

---

(١) في (ز): (ثلاث).

(٢) ضعيف: ابن جرير (١٣/ ١٧٠)، ورجاله ثقات، لولا عنعنة ابن جريج، ثم هو من الموقوف الذي لا يقال بالرأي، والذي يشترط في قبوله أن يكون الصحابي لم يأخذ من كتب أهل الكتاب. وهذا الشرط لم يتحقق هنا.

(٣) في (ز): (زياد)، وهو خطأ.

(٤) سقط من (ز).

(٥) منكر: ابن جرير (١٣/ ١٧٠)، وإسناده ضعيف، فيه زيادة بن محمَّد وهو منكر الحديث، «المجروحين» لابن حبان.

(٦) في (ز): (صادر).

(٧) ضعيف جدًّا: ابن جرير (١٣/ ١٧١)، والكَلْبي: متهم بالكذب كما تقدم ذلك مرارًا.

(٨) رواه الطبري (١٣/ ١٦٧)، والحاكم (٢/ ٣٤٩)، وإسناده صحيح.

(٩) من هنا إلىٰ قوله: (فكان كتابًا) سقط من بعض النسخ المطبوعة حوالي عشرين سطرًا، وهو ثابت في (ز)، وغيرها من النسخ.

(١٠) في (ز): (وهو).

(١١) ضعيف: رواه الطبري (١٣/ ١٦٨)، وفيه عطية العوفي: شيعي مدلس.

[والمنسوخ] [(١)]، وما يبدل، وما يثبت كل ذلك في كتاب [(٢)].

وقال قتادة في قوله: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾ كقوله: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ [البقرة: ١٠٦].

وقال ابن أبي نَجيح، عن مجاهد في قوله: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾ قال: قالت كفار قريش [حين] [(٣)] أنزلت: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ ما نراك يا محمَّد تملك من شيء، ولقد فُرِغَ من الأمر. فأنزلت هذه الآية تخويفًا ووعيدًا لهم: إنَّا إن شئنا أحدثنا له من أمرنا ما شئنا، ونحدث في كل رمضان، [فنَمْحُو ونُثْبِت ما نشاء] [(٤)] من أرزاقِ النَّاس ومصائبهم، وما نعطيهم، وما نقسم لهم.

وقال الحسن البصري: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ قال: مَن جاءَ أجله، فذَهَب، ويثبت الذي هو حيٌّ يجري إلىٰ أجله.

وقد اختار هذا القول أبو جعفر بن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ.

وقوله: ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ قال: الحلال والحرام.

وقال قتادة: أي جملة الكتاب وأصله.

وقال الضَّحَّاك: ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ قال: كِتَابٌ عند رب العالمين.

وقال سُنَيد بن داود، حدَّثني معتمر، عن أبيه، عن سَيَّار، عن ابن عبَّاس؛ أنه سأل كعبًا عن «أمِّ الكتاب»، فقال: عَلِم الله ما هو خالق، وما خَلْقُه عاملون، ثم قال لعلمه: «كن كتابًا». فكان كتابًا [(٥)].

وقال ابن [جريج] [(٦)]، عن ابن عبَّاس: ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ قال: الذِّكْر [(٧)].

﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤١﴾﴾

يقول تعالىٰ لرسوله: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ﴾ يا محمَّد ﴿بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ﴾ أي: أعداءك من [الخزي] [(٨)] والنَّكال في الدنيا، ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ أي قبل ذلك، ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ﴾ أي: إنما أرسلناك لِتُبلِّغَهم رسالة الله وقد بلغتَ ما أُمِرتَ به، ﴿وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ أي: حسابهم وجزاؤهم، كما قال تعالىٰ: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ

---

(١) سقط من (ز).
(٢) ضعيف: رواه الطبري (١٣/ ١٧١) وفيه انقطاع.
(٣) سقط من (ز).
(٤) في (ز): (فيمحو ويثبت ما يشاء).
(٥) رواه الطبري (١٣/ ١٧١).
(٦) في (ز): (جرير).
(٧) ضعيف: رواه الطبري (١٣/ ١٧١)، الإسناد منقطع بين ابن جريج وابن عبَّاس.
(٨) في (ز): (الحزن).

مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ [الغاشية: ٢١ -٢٦].

وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ قال ابن عبَّاس: أو لم يروا أنَّا نفتح لمحمَّدٍ الأرض بعد الأرض؟[1] وقال في رواية: أو لم يروا إلىٰ القرية تخرب، حتىٰ يكون العمران في ناحيةٍ؟ وقال مجاهد وعِكْرِمة: ﴿نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ قال: خرابها. وقال الحسن والضَّحَّاك: هو ظهور المسلمين علىٰ المشركين. وقال العوفي عن ابن عبَّاس: نقصان أهلها وبركتها. وقال مجاهد: نقصان الأنفس والثمرات وخراب الأرض.

وقال الشَّعبي: لو كانت الأرض تنقص لضَاقَ عليك حُشُّك[2]، ولكن تنقص الأنفس والثمرات. وكذا قال عِكْرِمة: لو كانت الأرضُ تنقص لم تجد مكانًا تقعد فيه، ولكن هو الموت.

وقال ابن عبَّاس في رواية: خرابها بمَوتِ فُقَهَائِهَا وعلمائها وأهل الخير منها[3]. وكذا قال مجاهد أيضًا: هو موت العلماء.

وفي هذا المعنىٰ روىٰ الحافظ ابن عساكر في ترجمة أحمد بن عبد العزيز أبي القاسم المصري الواعظ سكن أصبهان، حدَّثنا أبو محمَّد طلحة بن أسد المرئي[4] بدمشق، أنشدنا أبو بكر الآجُرِّي بمكة قال: أنشدنا أحمد بن غزال لنفسه:

الأَرْضُ تَحْيَـا إِذَا مَـا عَـاشَ عَالِمُهَـا ... مَتَىٰ يَمُـتْ عَـالِمٌ مِنْهَـا يَمُـتْ طَـرَفُ

كَـالأَرْضِ تَحْيَـا إِذَا مَـا الغَيْـثُ حَـلَّ بِهَـا ... وَإِنْ أَبَـىٰ عَـادَ فِـي أَكْنَافِهَـا التَّلَـفُ

والقول الأول أولىٰ، وهو ظهور الإسلام علىٰ الشِّرك قريةً بعد قريةٍ، [وكَفْرًا بعد كَفْرٍ، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ﴾ [الأحقاف:٢٧] الآية، وهذا اختيار ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ][5].

﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٤٢﴾﴾

يقول: ﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ برسلهم، وأرادوا إخراجهم من بلادهم، فمكر الله بهم، وجعل العاقبة للمتقين، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠] وقال تعالىٰ: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا

(١) رواه الطبري (١٣/ ١٧٢) بإسناد صحيح.
(٢) **الحُشُّ**: البستان، ومكان قضاء الحاجة.
(٣) **ضعيف جدًّا**: رواه الطبري (١٣/ ١٧٤)، والحاكم (٢/ ٣٥٠)، وصححه، والخطيب في «الفقيه والمتفقه» (١٥٤، ١٥٥)، وفيه ابن عمرو متروك.
(٤) كذا في (ز) كما نبه عليه في «الشعب» وهو طلحة بن أسد بن عبد الله المختار أبو محمَّد الرقي، ولعلها اختلطت عليه في النسخ. انظر ترجمته في «تاريخ دمشق» لابن عساكر (٢٥/ ٢٢/ ٢٩٧٧).
(٥) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا﴾ الآية [النمل: ٥٠-٥٢].

وقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ أي: إنه تعالىٰ عالمٌ بجميع السرائر والضمائر، وسيَجْزِي كلَّ عاملٍ بعمله. ﴿وَسَيَعْلَمُ الْكَافِرُ﴾ وقرئ: ﴿الكُفَّارُ﴾(١) ﴿لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ أي: لمن تكون الدَّائرةُ والعاقبة، لهم أو لأتباع الرُّسل؟ كلا بل هي لأتباع الرسل في الدنيا والآخرة، ولله الحمد والمنة.

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴿٤٣﴾﴾

يقول: وَيُكَذِّبك هؤلاء الكفار ويقولون: ﴿لَسْتَ مُرْسَلًا﴾ أي: ما أرسلك الله، ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ أي: حسبي الله، وهُو الشاهد علي وعليكم، شاهدٌ عليَّ فيما بلغت عنه من الرسالة، وشاهدٌ عليكم أيها المُكَذِّبون فيما تفترونه من البهتان.

وقوله: ﴿وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ قيل: نزلت في عبد الله بن سلام قاله مجاهد(٢).

وهذا القول غريبٌ؛ لأن هذه الآية مكية، وعبد الله بن سلام إنما أسلم في أول مَقْدَم رسول الله ﷺ المدينةَ. والأظهر في هذا ما قاله العوفي، عن ابن عبَّاس قال: هم من اليهود والنصارىٰ(٣).

وقال قتادة: منهم ابن سلام، وسلمان، وتميم الداري.

وقال مجاهد -في رواية- عنه: هو الله تعالىٰ.

وكان سعيد بن جُبَيْر ينكر أَن يكون المراد بها عبدَ اللهِ بنَ سلَام، ويقول: هي مكية، وكان يقرؤها: «ومَن عنده عُلِمَ الكتابُ» ويقول: من عند الله.

وكذا قرأها مجاهد والحسن البصري.

وقد روىٰ ابن جرير من حديث، هارون الأعور، عن الزهري، عن سالم، عن ابن عمر؛ أن رسول الله ﷺ قرأها: «وَمِنْ عِنْدِهِ عُلِمَ الكِتَابُ» ثم قال: لا أصل له من حديث الزهري عند الثقات(٤).

قلتُ: وقد رواه الحافظ أبو يعلىٰ في «مسنده»، من طريق هارون بن موسىٰ هذا، عن سليمان بن أرقم -وهو ضعيف- عن الزهري، عن سالم، عن أبيه مرفوعًا كذلك. ولا يثبت. والله أعلم(٥).

---

(١) متواترة: قَرَأَ (الْكَافِرُ) نَافِعٌ وَابْنُ كَثِيرٍ وَأَبُو عَمْرٍو وَأَبُو جَعْفَرٍ وَوَافَقَهُمُ ابْنُ مُحَيْصِنٍ وَالْيَزِيدِيُّ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ (الْكُفَّارُ).

(٢) انظر الطبري (١٣/ ١٧٦)، وهو موقوف علىٰ مجاهد فالإسناد مرسل.

(٣) رواه الطبري (١٣/ ١٧٦) وفيه عطية العوفي: شيعي مدلس.

(٤) ضعيف: رواه أبو يعلىٰ (٥٥٧٤)، وابن جرير (١٣/ ١٧٨)، وفي إسناد أبي يعلىٰ: سليمانُ بنُ أرقمَ: متروك كما قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٥٨)، وفي إسناد ابن جرير انقطاع بين هارون الأعور والزهري، وفيه الحسين بن داود: ضعيف.

(٥) ضعيف: انظر ما قبله.

والصحيح في هذا: أن ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ﴾ اسم جنس يشمل علماء أهل الكتاب الذين يجدون صفة محمَّدٍ ﷺ ونعته في كتبهم المتقدمة، من بشارات الأنبياء به، كما قال تعالىٰ: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَالَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَىٰةِ وَالْإِنجِيلِ ...﴾ الآية [الأعراف: ١٥٦، ١٥٧] وقال تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ...﴾ الآية: [الشعراء: ١٩٧]. وأمثال ذلك مما فيه الإخبار عن علماء بني إسرائيل: أنهم يعلمون ذلك من كتبهم المُنَزَّلَةِ. وقد ورد في حديث الأحبار، عن عبد الله بن سلام بأنَّه أسلم بمكة قبل الهجرة. قال الحافظ أبو نعيم الأصبهاني في كتاب «دلائل النبوة»، وهو كتابٌ جليلٌ:

حدَّثنا سليمان بن أحمد الطبراني، حدَّثنا عَبْدان بن أحمد، حدَّثنا محمَّد بن مُصفًّىٰ، حدَّثنا الوليد بن مسلم، عن محمَّد بن حمزة بن يوسف بن عبد الله بن سلام، عن أبيه، أن عبد الله بن سلام قال لأحبار اليهود: إني أَرَدْتُ أن [أُجَدِّد][1] بمسجد أبينا إبراهيم وإسماعيل عهدًا فَانْطَلَقَ إلىٰ رسول الله ﷺ وهو بمكة، فوَافَاهُم وقد انصرفوا من الحج، فوجد رسول الله بمِنًىٰ، والناس حوله، فقام مع الناس، فلما نظر إليه رسول الله ﷺ قال: «أَنْتَ عَبْدُ اللهِ بْنُ سَلَامٍ؟» قال: قلت: نعم. قال: «ادْنُ». فدنوت منه، قال: «أَنْشُدُكَ بِاللهِ يَا عَبْدَ اللهِ بْنَ سَلَامٍ، أَمَا تَجِدُنِي فِي التَّوْرَاةِ رَسُولَ اللهِ؟» فقلت له: انعت ربنا. قال: فجاء جبريل حتىٰ وقف بين يدي رسول الله ﷺ فقال له: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ...﴾ إلىٰ آخرها [سورة الإخلاص] فقرأها علينا رسول الله ﷺ فقال ابن سلام: أشهد أَن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله. ثم انصرف ابن سلام إلىٰ المدينة فكتم إسلامه. فلما هاجر رسول الله ﷺ إلىٰ المدينة وأنا فوق نخلةٍ لي أَجُدُّها[2]، فألقيت نفسي، فقالت أمي: [لله][3] أنت، لو كان موسىٰ بن عمران ما كان [لك][4] أن تلقي نفسك من رأس النخلة. فقلت: والله [لأني][5] أَسَرُّ بقدوم رسول الله ﷺ من موسىٰ ابن عمران إذ بُعِث[6]. وهذا حديثٌ غريبٌ جدًّا.

آخر تفسير سورة الرعد، ولله الحمد.

---

(١) في (ز): (أحدث)، والمثبت موافق لما في «دلائل النبوة» للأصبهاني.
(٢) أي: أقطع ثمرها.
(٣) سقط من (ز).
(٤) في (ز): (يولك).
(٥) في (ز): (لأنا).
(٦) ضعيف: رواه أبو نعيم في «دلائل النبوة» (ص٣٠٠)، وفيه الوليد بن مسلم مدلس وقد عنعن.

سُورَةُ إِبْرَاهِيمَ

تفسير سورة إبراهيم عليه السلام وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٣﴾﴾

قد تقدَّم الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور.

﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ﴾ أي: هذا كتابٌ أنزلناه إليك يا محمَّد، وهو القرآن العظيم، الَّذي هو أشرف كتاب أنزله الله من السماء، على أشرف رسولٍ بعثه الله في الأرض، إلى جميع أهلها عَرَبِهِم وعجمهم.

﴿لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ أي: إنما بعثناك يا محمَّد بهذا الكتاب؛ لتخرج النَّاس مما هم فيه مِن الضَّلال والغيِّ إلى الهُدى والرشد، كما قال: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ الآية [البقرة: ٢٥٧]، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [الحديد: ٩].

وقوله: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ أي: هو الهادي لمن قَدَّر له الهداية على يدي رسوله المبعوث عن أمره يهديهم ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ﴾ أي: العزيز الذي لا يمانعُ ولا يغالَبُ، بل هو القاهر لكل ما سواه، ﴿ٱلْحَمِيدِ﴾ أي: المحمود في جميع [أفعاله وأقواله](١)، وشرعه وأمره ونهيه، الصادق في خبره.

وقوله: ﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ قرأه بعضهم مستأنفًا مرفوعًا، وقرأه آخرون على الإتْباع صفة للجلالة(٢)، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وقوله: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ أي: ويلٌ لهم يوم القيامة إذ خالفوك يا محمَّد وكذبوك.

ثم وصفهم بأنهم يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة؛ أي: يقدمونها ويُؤثرونها عليها، ويعملون

---

(١) في (ز): (أقواله وأفعاله).

(٢) متواترة: قَرَأَ (اللهُ) نَافِعٌ وَابْنُ عَامِرٍ وَأَبُو جَعْفَرٍ وَرُوَيْسٌ فِي الِابْتِدَاءِ خَاصَّةً وَوَافَقَهُمُ الْحَسَنُ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ (اللهِ).

للدنيا ونسُوا الآخرة، وتركوها وراء ظهورهم، ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وهي اتِّباع الرسل ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي: ويحبون [أن تكون][(١)] سبيل الله عوجًا مائلةً عائلةً[(٢)] وهي مستقيمةٌ في نفسها، لا يضرها من خالفها ولا مَن خذلها، فهُم في ابتغائهم ذلك في جهلٍ وضلالٍ بعيدٍ من الحق، لا يرجىٰ لهم -والحالة هذه- صلاح.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ[(٣)] فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ[(٤)] ﴿٤﴾﴾

هذا من لطفه تَعَالىٰ بخلقه: أنَّه يرسل إليهم رسلًا منهم بلغاتهم ليفهموا عنهم ما يريدون وما أرسلوا به إليهم، كما قال الإمام [أحمد][(٥)]:

حدَّثنا وكيع، عن عمر بن ذر قال: قال مجاهد: عن أبي ذرٍّ قال: قال رسول الله ﷺ: «لَمْ يَبْعَثِ اللهُ ﷻ نَبِيًّا إِلَّا بِلُغَةِ قَوْمِهِ»[(٦)].

وقوله: ﴿فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ أي: بعد البيان وإقامة الحجة عليهم يُضِلُّ تعالىٰ مَن يشاء عن وجه الهدىٰ، ويهدي من يشاء إلىٰ الحق، ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي ما شاء كان، ومَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُن، ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في أفعاله، فيضل من يَسْتَحِقُّ الإضلال، ويهدي مَن هو أهل لذلك.

وقَد كانت هذه سُنَّة الله في خلقه: أنَّه ما بعث نبيًّا في أُمَّةٍ إلَّا أن يكون بلغتهم، فاختصَّ كل نبيٍّ بإبلاغ رسالته إلىٰ أُمَّتِهِ دون غيرهم، واختص محمَّد بن عبد الله رسول الله بعُموم الرِّسالة إلىٰ سائر الناس[(٧)]، كما ثبت في «الصحيحين» عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الأَنْبِيَاءِ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا، وَأُحِلَّتْ لِيَ الغَنَائِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَىٰ قَوْمِهِ، وَبُعِثْتُ إِلَىٰ النَّاسِ عَامَّةً»[(٨)]. وله شواهد من وجوهٍ

---

(١) في (ز): (يكون). (٢) عائلة: أي جائرة.

(٣) قال أبو بكر الجزائري حَفِظَهُ اللهُ: لا حجة لغير العرب في هذه الآية إذ كل من تُرْجِم له الإسلامُ بلغته وجب عليه الدخول فيه والعمل بشرائعه ليكمل ويسعد، وقد استعمرت بريطانيا نصف العالم فتكلم الناس بلغتها وتعاملوا بها وهي لغة دنيا لا غير. فالواجب علىٰ غير العربي أن يتعلم لغة الإسلام ما أمكنه ذلك.

(٤) قال العلامة السعدي رَحِمَهُ اللهُ: ويستدل بهذه الآية الكريمة علىٰ أن علوم العربية الموصلة إلىٰ تبيين كلامه وكلام رسوله أمور مطلوبة محبوبة لله؛ لأنه لا يتم معرفة ما أنزل علىٰ رسوله إلا بها إلا إذا كان الناس بحالة لا يحتاجون إليها، وذلك إذا تمرنوا علىٰ العربية، ونشأ عليها صغيرهم وصارت طبيعةً لهم فحينئذ قد اكتفوا المؤنة، وصلحوا لأن يتلقَّوْا عن الله وعن رسوله ابتداءً كما تلقىٰ عنهم الصحابة ﷺ.

(٥) سقط من (ز).

(٦) أحمد (٥/ ١٥٨)، وفيه انقطاع بين مجاهد وأبي ذر، ويكفي في الاستدلال لذلك ذكر الآية.

(٧) ذكر الألوسي رَحِمَهُ اللهُ: أن تعدد نظم الكتاب المنزل بحسب تعدد اللغات أدعىٰ إلىٰ التنازع واختلاف الكلمة وتطرُّق أيدي التحريف، مع أن استقلال بعض من ذلك بالإعجاز مئنة لقدح القادحين، واتفاق الجميع فيه أمر قريب من الإلجاء المنافي للتكليف، وأما اتحاد النظم فهو ينبئ عن العزة وجلالة الشأن.

(٨) البخاري (٣٣٥، ٤٣٨، ٣١٢٢)، ومسلم (٥٢١)، والنسائي (١/ ٢٠٩-٢١١).

كثيرة، وقال تعالىٰ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝٥﴾

يقول تعالىٰ: وكما أرسلناك يا محمَّد وأنزلنا عليك الكتاب؛ لتخرج الناس كلهم، تدعوهم إلىٰ الخُروجِ مِن الظُّلمات إلىٰ النُّور، كذلك أرسلنا موسىٰ في بني إسرائيل بآياتنا.

قال مجاهد: وهي التسع الآيات.

﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ أي: أمرناه قائلين له: ﴿أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ أي: ادعُهُم إلىٰ الخير؛ ليخرجوا من ظلمات ما كانوا فيه من الجهل والضَّلال إلىٰ نور الهدىٰ [وبصيرة][(١)] الإيمان.

﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾ أي: بأياديه ونِعَمِهِ عليهم في إخراجه إيَّاهم من أسر فرعون، وقهره وظُلْمِه [وغُشْمِه][(٢)]، وإنجائه إيَّاهم مِن عدوهم، وفَلْقِهِ لهم البحرَ، وتظليلِهِ إيَّاهم بالغمام، وإنزاله عليهم المَنَّ والسلوىٰ، إلىٰ غير ذلك من النِّعَم. قال ذلك مجاهد، وقتادة، وغير واحدٍ.

وقد ورد فيه الحديث المرفوع الذي رواه عبد الله بن الإمام أحمد بن حنبل في [«مسند أبيه» حيث][(٣)] قال: حدَّثني يحيىٰ بن عبد الله مولىٰ بني هاشم، حدَّثنا محمَّد بن أبان الجُعْفِي، عن أبي إسحاق، عن سعيد بن جبير [عن ابن عبَّاس، عن أبي بن كعب، عن النَّبيِّ ﷺ في قوله تبارك وتعالىٰ: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾ قال: «بِنِعَمِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ»[(٤)].

ورواه ابن جرير][(٥)] وابن أبي حاتم، من حديث محمَّد بن أبان به، ورواه عبد الله ابنه أيضًا موقوفًا وهو أشبه.

وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أي: إنَّ فيما صنعنا بأوليائنا بني إسرائيل حين أنقذناهم مِنْ يَدِ فرعون، وأنجيناهم ممَّا كانوا فيه من العذاب المهين - لعبرةً لكلِّ صبَّار؛ أي: في الضَّرَّاء، شكور؛ أي: في السَّرَّاء، كما قال قتادة: نعم العبد عبد إذا ابتُلِي صَبَر، وإذا أُعْطِي شَكَر.

وكذا جاء في «الصحيح» عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**إِنَّ أَمْرَ الْمُؤْمِنِ كُلَّهُ عَجَبٌ، لا يَقْضِي اللهُ لَهُ قَضَاءً إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ، إِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ**»[(٦)].

---

(١) في (ز): (ونصر). (٢) في (ز): (وحسمه).

(٣) ما بين المعقوفتين سقط من (ز): (مسنده حديث).

(٤) رواه عبد الله بن الإمام أحمد في «زوائد المسند» (٥/ ١٢٢)، وفيه محمَّد بن أبان: ليس بالقوي، لكن يُكْتَب حديثه كما قال أبو حاتم. لكن أصل الحديث في «صحيح مسلم» (٢٣٨٠)، بلفظ: «**أيام الله: نعماؤه، وبلاؤه**».

(٥) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

(٦) مسلم (٢٩٩٩)، وأحمد (٤/ ٣٣٢)، (٦/ ١٥)، من حديث صهيب، ورواه أبو داود (١٣١٩) من حديث حذيفة.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾﴾

يقول تعالىٰ مخبرًا عن موسىٰ، حيث ذَكَّر قومه بأيام الله عندهم ونعمه عليهم، إذ أنجاهم من آل فرعون، وما كانوا يَسُومُونَهُم به مِن العذاب والإذْلال، حين كانوا يَذْبَحُون مَن وُجِد من أبنائهم، ويتركون إناثهم فأنقذ الله بني إسرائيل من ذلك، وهذه نعمةٌ عظيمةٌ؛ ولهذا قال: ﴿وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ أي: نعمةٌ عظيمةٌ منه عليكم في ذلك، أنتم عاجِزُون عن القيام بشُكْرِها.

وقيل: وفيما كان يَصْنَعُه بكم قوم فرعون من تِلْكَ الأفاعيل ﴿بَلَاءٌ﴾ أي: اختبارٌ عظيمٌ. ويحتمل أن يكون المراد هذا وهذا، والله أعلم، كما قال تعالىٰ: ﴿وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٨].

وقوله: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ﴾ أي: آذنكُم وأَعْلَمَكُم بوَعْدِه لكم. ويحتمل أن يكون المعنىٰ: وإذ أقسم رَبُّكم وآلَىٰ بعِزَّتِه وجلاله وكبريائه كما قال: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ [رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ [الأعراف: ١٦٧].

وقوله](١) ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ أي: لئن شكرتم [نعمتي عليكم](٢) لأزيدنكم منها، ﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ﴾ أي: كفرتم النِّعَم وسترتموها وجحدتموها، ﴿إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ وذلك بسَلْبِهَا عنهم، وعقابه إيَّاهم علىٰ كفرها.

وقد جاء في الحديث: «إِنَّ العَبْدَ لَيُحْرَمُ الرِّزْقَ بِالذَّنْبِ يُصِيبُهُ»(٣).

وفي «المسند»: أنَّ رسول الله ﷺ مَرَّ به سائلٌ فأعطاه تمرةً، فتَسَخَّطها ولم يقبلها، ثم مَرَّ به آخر فأعطاه إياها، فقبلها وقال: تمرة من رسول الله ﷺ، فأمَرَ له بأربعين درهمًا، أو كما قال.

قال الإمام أحمد: حدَّثنا أسود، حدَّثنا عمارة الصَّيدلاني، عن ثابت، عن أنس قال: أتىٰ النَّبيَّ ﷺ سائلٌ فأمر له بتمرةٍ فلم يأخذها -أو: وَحَش بها(٤)- قال: وأتاه آخر فأمر له بتَمْرَةٍ، فقال: سبحان الله! تمرةٌ من رسول الله ﷺ. فقال للجارية: «[اذْهَبِي](٥) إِلَىٰ أُمِّ سَلَمَةَ، فَأَعْطِيهِ الأَرْبَعِينَ دِرْهَمًا الَّتِي عِنْدَهَا».

---

(١) ما بين المعقوفتين سقط من (ز)، ووقع (ربكم) بدل (ربك).

(٢) في (ز): (نعم الله).

(٣) ضعيف: رواه أحمد (٥/ ٢٧٧)، وابن ماجه (٢٠)، (٤٠٢٢)، وصححه المنذري في «الترغيب والترهيب» والراجح أنه ضعيف لجهالة عبد الله بن أبي الجعد.

(٤) وَحَش بها: رماها.

(٥) في (ز): (اذهبوا)، وهو خطأ، والمثبت موافق لما في «المسند».

تفرد به الإمام أحمد[١].

و«عمارة بن زاذان» وثقه ابن حبَّان، وأحمد، ويعقوب بن سفيان وقال ابن معين: صالح. وقال أبو زُرْعَة: لا بأس به. وقال أبو حاتم: يكتب حديثه ولا يحتج به، ليس بالمتين. وقال البخاري: ربما يضطرب في حديثه. وعن أحمد أيضًا أنه قال: رُوِي عنه أحاديثُ منكرةٌ. وقال أبو داود: ليس [بذاك][٢]. وضعفه الدارقطني، وقال ابن عدي: لا بأس به ممن يكتب حديثه.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ أي: هو غنيٌّ عن شكر عباده، وهو الحميد المحمود، وإن كفره من كفره، كما قال: ﴿إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧] وقال تعالىٰ: ﴿فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ [التغابن: ٦].

وفي «صحيح مسلم» عن أبي ذر، عن رسول الله ﷺ فيما يروي عن ربه ﷻ أنه قال: «يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ، كَانُوا عَلَىٰ أَتْقَىٰ قَلْبِ رَجُلٍ مِنْكُمْ، مَا زَادَ ذَٰلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا. يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ، كَانُوا عَلَىٰ أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ مِنْكُمْ، مَا نَقَصَ ذَٰلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا. يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ، قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَسَأَلُونِي، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ، مَا نَقَصَ ذَٰلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا، إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ المِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ فِي البَحْرِ»[٣] فسبحانه وتعالىٰ الغني الحميد.

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ⑨﴾

قال ابن جرير: هذا من تمام قيل موسىٰ لقومه.

يعني: وَتَذْكارُه إيَّاهم بأيام الله، بانتقامه مِن الأمم المكذِّبة للرُّسل.

وفيما قال ابن جرير نظرٌ؛ والظاهر أنه خبرٌ مستأنَفٌ مِن الله تعالىٰ لهذه الأُمَّة، فإنَّه قد قيل: إنَّ قصَّة عادٍ وثمود ليست في التَّوراة، فلو كان هذا من كلام موسىٰ لقومه وقَصِّهِ عليهم ذلك [فلا][٤] شكَّ أن تكون هاتان [القصتان][٥] في «التوراة» والله أعلم. وبالجملة فالله تعالىٰ قَد قَصَّ علينا خبر قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم من الأمم المكذبة للرسل، مما لا يحصي عددهم إلا الله ﷻ أَتَتْهُم رسلهم بالبيِّنات؛

(١) أحمد (٣/ ١٥٥، ٢٦٠)، وفيه عمارة بن زاذان، قال الحافظ: صدوق كثير الخطأ، انظر: «التقريب»، وعليه فالحديث عندي ضعيف.

(٢) في (ز): (بذلك).

(٣) رواه مسلم (٢٥٧٧).

(٤) في (ز): (ولا)، والمثبت أليق بالسياق.

(٥) في (ز): (القضيتان).

أي: بالحجج والدَّلائل الوَاضِحَات الباهرات القاطعات.

وقال ابن إسحاق، عن عمرو بن ميمون، عن عبد الله أنَّه قال في قوله: ﴿لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ كذب النَّسَّابُون[١].

وقال عروة بن الزبير: ما وجدنا أحدًا يعرف ما بعد «مَعَدِّ بن [عدنان][٢]».

وقوله: ﴿فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ اختلف المفسرون في معناه، فقيل: معناه: أنهم أشاروا إلىٰ أفواه الرُّسل يَأْمُرونَهم بالسكوت عنهم، لما دَعَوْهم إلىٰ الله ﷻ.

وقيل: بل وضعوا أيديهم علىٰ أفواههم تكذيبًا لهم.

وقيل: بل هو عبارة عن سكوتهم عن جواب الرسل.

وقال مجاهد، ومحمَّد بن كعب، وقتادة: [معناه][٣]: أنهم كذبوهم وردوا عليهم قولهم بأفواههم.

قال ابن جرير: وتوجيهه أن «في» ها هنا بمعنىٰ «الباء» قال: وقد سُمِعَ من العرب: «أدخلك الله بالجَنَّة» يعنون: في الجنة، وقال الشاعر:

وَأَرْغَبُ فِيهَا عَنْ لَقِيطٍ وَرَهْطِهِ ... وَلَكِنَّنِي عَنْ سِنْبِسٍ لَسْتُ أَرْغَبُ

يريد: أرغب بها.

قلت: ويُؤَيِّد قولَ مجاهدٍ تفسيرُ ذلك بتمام الكلام: ﴿وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ فكأن هذا والله أعلم تفسير لمعنىٰ رَدِّ أيديهم في أفواههم.

وقال سفيان الثوري، وإسرائيل، عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص، عن عبد الله في قوله: ﴿فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ قال: عَضُّوا عليها [غيظًا][٤][٥].

وقال شعبة، عن أبي إسحاق، [عن هُبَيْرَة بن يَرِيم][٦]، عن عبد الله أنه قال ذلك أيضًا. وقد اختاره عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، ووجهه ابن جرير مختارًا له، بقوله تعالىٰ عن المنافقين: ﴿وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ [آل عمران: ١١٩].

وقال العوفي، عن ابن عبَّاس: لما سمعوا كتاب الله عَجبوا، ورجعوا بأيديهم إلىٰ أفواههم[٧].

وقالوا: ﴿إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ يقولون: لا نصدقكم فيما جِئْتُم به؛ فإنَّ عندنا فيه شكًّا قويًّا.

---

(١) رواه الطبري (١٣/ ١٨٧)، من طرق عن ابن إسحاق به.

(٢) في (ز): (معدان). (٣) سقط من (ز). (٤) في (ز): (عضًا).

(٥) رواه الطبري (١٣/ ١٨٨) ورجاله ثقات.

(٦) هذا هو الصواب، ووقع في (ز): (عن أبي هبيرة بن مريم)، وأثبته بعضهم: (أبي هبيرة بن مريم) بلا عنعنة، وحذف آخرون: (أبي)، وكل هذا خطأ، والصواب ما أثبتناه.

(٧) رواه الطبري (١٣/ ١٨٩)، وفيه عطية العوفي: شيعي مدلس، والإسناد مسلسَلٌ بالضعفاء.

﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾

يخبر تعالىٰ عما دَارَ بين الكفار وبين رسلهم من المجادلة، وذلك أَنَّ أُمَمَهُمْ لما واجهوهم بالشَّكِّ فيما جاءوهم به من عبادة الله وحده لا شريك له، قالت الرسل: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ﴾.

وهذا يحتمل شيئين، أحدهما: أفي وجوده شكٌّ، فإنَّ الفِطَر شاهدةٌ بوجوده، ومجبولةٌ علىٰ الإقْرار به، فإنَّ الاعتراف به ضروريٌّ في الفِطَر السَّلِيمَة، ولكن قد يعرض لبعضها شكٌّ واضطرابٌ، فتحتاج إلىٰ النظر في الدليل المُوصل إلىٰ وجوده؛ ولهذا قالت لهم الرسل تُرْشِدُهُم إلىٰ طريق معرفته بأنَّه ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الذي خلقَها وابتدعَها علىٰ غير مثالٍ سبق، فإن شواهد [الحدوث][1] والخلق والتَّسخير ظاهرٌ عليها، فلا بدَّ لها مِن صانع، وهو الله لا إله إلا هو، خالقُ كل شيءٍ وإلهه ومليكه.

والمعنىٰ الثاني في قولهم: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ أي: أفِي إِلَهِيَّته وتفرُّدِه بوجوب العبادة لهِ شَكٌّ، وهو الخالق لجميع الموجودات، ولا يستحقُّ العبادة إلا هو، وحده لا شريك له؛ فإنَّ غالب الأمم كانت مقرَّةً بالصانع، ولكن تعبدُ معه غيره من الوسائط التي يظنونها تَنْفَعُهُم أو تُقرِّبهم من الله زلفىٰ.

وقالت لهم [الرسل][2]: ندعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم؛ أي: في الدار الآخرة، ﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [أي: في الدنيا، كما قال تعالىٰ: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى][3]﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾ الآية [هود: ٣]، فقالت لهم الأُمَمُ محاجِّين في مقام الرسالة، بعد تقدير تسليمهم للمقام الأول، وحاصل ما قالوه: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ أي: كيف نتبعكم بمجرد قولكم، ولمَّا نَرَ منكم معجزةً؟ ﴿فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ أي: خارق نقترحه عليكم[4].

قالت لهم رسلهم: ﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ أي: صحيحٌ أنَّا بشرٌ مثلكم في البشريَّة ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ أي: بالرِّسالة والنُّبوَّة ﴿وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ﴾ علىٰ وَفْقِ ما سألتم ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي: بعد سؤالنا إياه، وإذنه لنا في ذلك، ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: في جميع أمورهم.

ثم قالت الرسل: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي: وما يمنعنا من التوكل عليه، وقد هدانا لأقوم الطرق [وأوضحها][5] وأبينها، ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا﴾ أي: من الكلام السَّيئ، والأفعال السخيفة، ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾.

---

(١) في (ز): (الحدث).
(٢) في (ز): (رسلهم).
(٣) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).
(٤) أي: معجزة.
(٥) في (ز): (وأصحها).

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ
رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي
وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ
صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ
بِمَيِّتٍۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾﴾

يخبر تعالىٰ عما تَوَعَّدت به الأمم الكافرة رسلهم، من الإخراج من أرضهم، والنفي من بين أظهرهم، كما قال قوم شعيبٍ له ولمن آمن به: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [الأعراف: ٨٨]، وقال قوم لوط: ﴿أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل: ٥٦]، وقال تعالىٰ إخبارًا عن مشركي قريش: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَاۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٦]، وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

وكان مِن صنعه تعالىٰ: أنَّه أظهر رسوله ونصره، وجعل له بسبب خروجه من مكة أنصارًا وأعوانًا وجندًا، يقاتلون في سبيل الله، ولم يزل يُرَقِّيه الله تعالىٰ مِن شيءٍ إلىٰ شيءٍ، حتىٰ فتح له مكة التي أخرجته، ومكن له فيها، وأرغم آناف أعدائِهِ منهم، ومن سائر أهل الأرض، حتىٰ دخل الناس في دين الله أفواجًا، وظهرت كلمة الله ودينه علىٰ سائر الأديان، في مشارق الأرض ومغاربها في أيسر زمانٍ؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧١ -١٧٣]، وقال تعالىٰ: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١]، وقال: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]، وقال: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨]، وقال تعالىٰ: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَاۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٧].

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ أي: [وعيدي][1] هذا لِمَنْ خاف مقامه بين يدي يوم القيامة، وخَشِي من وعيدي، وهو تَخْوِيفي وعذابي، كما قال تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٣٧ -٤١]، وقال: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦].

---

(١) في (ز): (وعدي)، وهو خطأ.

وقوله: ﴿وَٱسْتَفْتَحُواْ﴾ أي: استنصرت الرُّسل ربها علىٰ قومها. قاله ابن عبَّاس، ومجاهد، وقتادة.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: استفتحت الأمم علىٰ أنفسها، كما قالوا: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢].

ويُحْتَمَل أن يكون هذا مرادًا وهذا مرادًا، كما أنَّهم استفتحوا علىٰ أنفسهم يوم بدر، واستفتح رسول الله واستنصر، وقال الله تعالىٰ للمشركين: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ الآية [الأنفال: ١٩]، والله أعلم.

﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ أي: متجبرٌ في نفسه معاندٌ للحقِّ، كما قال تعالىٰ: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ﴾ [ق: ٢٤ -٢٦].

وفي الحديث: «إِنَّهُ يُؤْتَىٰ بِجَهَنَّمَ يَوْمَ القِيَامَةِ، فَتُنَادِي الخَلَائِقَ فَتَقُولُ: إِنِّي وُكِّلْتُ بِكُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ» الحديث(١).

خاب وخسر حين اجتهد الأنبياء في الابتهال إلىٰ رَبِّها العزيز المقتدر.

وقوله: ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ﴾ و«وراء» ها هنا بمعنىٰ «أمام» كما قال تعالىٰ: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ [الكهف: ٧٩]، وكان ابن عبَّاسٍ يقرؤها «وكانَ أمامَهُم ملك»(٢).

أي: مِن وراء الجبَّار العنيد جهنم؛ أي: [هي](٣) له بالمِرْصَاد، يسكنها مخلدًا يوم المَعَاد، ويعرض عليها غدوًّا وعشيًّا إلىٰ يوم التَّناد.

﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ﴾ أي: في النار ليس له شرابٌ إلَّا مِن حميمٍ أو غسَّاق، فهذا في غاية الحرارة، وهذا في غاية البرد والنَّتَن، كما قال: ﴿هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ﴾ [ص].

وقال مجاهد، وعكرمة: الصديد: من القيح والدم.

وقال قتادة: هو ما يَسِيلُ مِن لحمه وجلده. وفي رواية عنه: الصَّدِيد: ما يخرج من جَوْف الكافِرِ، قد خالط القيح والدم.

ومن حديث شَهْر بن حَوْشَب، عن أسماء بنت يزيد بن السَّكَن قالت: قلت: يا رسول الله، ما طينة الخَبَال؟ قال: «صَدِيدُ أَهْلِ النَّارِ» وفي روايةٍ: «عُصَارَةُ أَهْلِ النَّارِ»(٤).

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا علي بن إسحاق، أنبأنا عبد الله، أنبأنا صفوان بن عمرو، عن عبيد الله بن [بُسْر](٥)، عن أبي أمامة رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ في قوله: ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ﴾ قال:

---

(١) صحيح: أحمد (٢/ ٣٣٦)، والترمذي (٢٥٧٤) وقال: حسن غريب، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٦٣١٧)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٥١٢).

(٢) قراءة: قَرَأَ (أَمَامَهُم) ابْنُ عَبَّاسٍ، وَلَيْسَ فِي الْمُتَوَاتِرِ إِلَّا (وَرَاءَهُم).

(٣) سقط من (ز).

(٤) رواه ابن ماجه (٣٣٧٧)، وأحمد (٥/ ١٧١)، ورواه ابن حبان (٤٣٥٧)، وصحح إسناده شعيب الأرناؤوط والألباني، انظر: «صحيح ابن ماجه» وتعليق الأرناؤوط علىٰ ابن حبان.

(٥) في (ز): (بشر)، وهو تصحيف.

يُقَرَّبُ إليه فيتكرَّهه، فإذا أدنىٰ منه شَوىٰ وجهه، ووقعت فروة رأسه، فإذا شربه قَطَّع أمعاءه حتىٰ يخرج من دُبُرِهِ. يقول الله تعالىٰ ﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ [محمَّد: ١٥]، ويقول: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ﴾ [الكهف: ٢٩][(١)].

وهكذا رواه ابن جرير، من حديث عبد الله بن المبارك، به ورواه هو وابن أبي حاتم: من حديث بَقِيَّة ابن الوليد، عن صفوان بن عمرو به.

وقوله: ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ﴾ أي: يتغصَّصُه ويتكرَّهُه؛ أي: يشربه قهرًا وقسْرًا، لا يضعه في فيه حتىٰ يضربه الملَك بمطراقٍ من حديدٍ، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَهُم مَّقَـٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ﴾ [الحج: ٢١].

﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾ أي: يُرَدِّدُه لسوء لونِهِ وطعمه وريحِهِ، وحرارته أو برده الذي لا يستطاع.

﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ أي: يألم له جميع بدنه وجوارحه وأعضائه.

قال ميمون بن مِهْران: مِن كلِّ عظمٍ، وعِرقٍ، وعصبٍ.

وقال عكرمة: حتىٰ من أطراف شعره.

وقال إبراهيم التيمي: من موضع كل شعرة؛ أي: مِن جسده، حتىٰ من أطراف شعره.

وقال ابن جرير: ﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ أي: مِن أمامه وورائه، وعن يمينه وشماله، ومِن فوقه ومن تحت أرجله ومن سائر أعضاء جسده.

وقال الضَّحَّاك، عن ابن عبَّاس: ﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ قال: أنواع العذاب الذي يُعَذِّبُه الله بها يوم القيامة في نار جهنم، وليس منها نوعٌ إلا المَوت يأتيه منه لو كان يموت، ولكن لا يموت؛ لأن الله تعالىٰ قال: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ﴾ [فاطر: ٣٦].

ومعنىٰ كلام ابن عبَّاس رضي الله عنه: أنَّه ما من نوعٍ مِن هذه الأنواع مِن هذا العذاب إلا إذا ورد عليه اقتضىٰ أَن يَموت منه لو كان يموت، ولكنَّه لا يموتً ليخلد في دوام العذاب والنَّكال؛ ولهذا قال: ﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾.

وقوله: ﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ أي: وله مِن بعد هذا الحال عذابٌ آخر غليظٌ؛ أي: مؤلمٌ صعبٌ شديدٌ أغلظ مِن الذي قبله وأدهىٰ وأمر. وهذا كما قال تعالىٰ عن شجرة الزقوم: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَـٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَـَٔاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٦٤ -٦٨]، فأخبر أنَّهم تارةً يكونون في أَكْلِ زَقُّوم، وتارةً في شرب حميم، وتارةً يُرَدُّون إلىٰ الجحيم عياذًا بالله من ذلك، وهكذا قال تعالىٰ: ﴿هَـٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾ [الرحمن: ٤٣، ٤٤]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ

---

(١) ضعيف: رواه أحمد (٥/ ٣٦٥)، وابن جرير (١٣/ ١٩٥)، والترمذي (٢٥٨٦)، وفيه عبيد الله بن بُسْر، قال الحافظ في «التقريب»: مجهول.

شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ﴾ [الدخان: ٤٣ -٥٠]، وقال: ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾ [الواقعة: ٤١ -٤٤]، وقال تعالىٰ: ﴿هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ﴾ [ص: ٥٥ -٥٨]، إلىٰ غير ذلك من الآيات الدَّالَّة علىٰ تنوُّع العذاب عليهم، وتكْراره وأنواعه وأشكاله، مما لا يحصيه إلا الله ﷻ جزاءً وفاقًا، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦].

﴿مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿١٨﴾﴾

هذا مَثَلٌ ضربه الله تعالىٰ لأعمال الكفار الَّذين عبدوا مع الله غيره، وكذَّبوا رسله، وبنَوْا أعمالهم علىٰ غيرِ أساسٍ صحيحٍ؛ فانهارت وعدِمُوها أحوج ما كانوا إليها، فقال تعالىٰ: ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَالُهُمْ﴾ أي: مثل أعمال الَّذين كفروا يوم القيامة إذا طلبوا ثوابها من الله تعالىٰ؛ لأنهم كانوا يحْسَبُون أنَّهم علىٰ شيءٍ، فلم يجدوا شيئًا، ولا أَلْفَوْا حاصلًا إلا كما يتحصَّل من الرماد إذا اشتدَّت به الرِّيح العاصفة ﴿فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ أي: ذي رِيحٍ عاصفةٍ قويةٍ، فلا يقدرون [علىٰ شيءٍ من أعمالهم التي كسبوها في الدنيا إلا كما يقدرون][(١)] علىٰ جمع هذا الرَّماد في هذا اليوم، كما قال تعالىٰ: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣]، وقال تعالىٰ: ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ﴾ [آل عمران: ١١٧]، وقال تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

وقال في هذه الآية: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ أي: سَعْيُهُم وعملهم علىٰ غير أساسٍ ولا استقامةٍ حتىٰ فقدوا ثوابهم أحوجَ ما هُم إليه، ﴿ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾﴾

يقول تعالىٰ مخبرًا عن قدرته علىٰ مَعَادِ الأبدان يومَ القيامة، بأنَّه خلق السموات والأرض الَّتي هي أكبر من خَلْقِ النَّاس، أَفَلَيْسَ الَّذي قدَرَ علىٰ خلق هذه السموات، في ارْتِفاعِهَا واتِّساعها وعظمتها وما فيها من الكَواكِبِ الثَّوابت والسَّيَّارات، والحركات المختلفات، والآيات الباهرات، وهذه الأرض بما

---

(١) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

فيها مِن مِهادٍ ووِهادٍ وأوتادٍ، وبراري وصحاري وقفار، وبحار وأشجار، ونبات وحيوان، على اختلاف أصنافها ومنافعها، وأشكالها وألوانها؛ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف: ٣٣]، وقال تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۝٧٧ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۝٧٨ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۝٧٩ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ۝٨٠ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ۝٨١ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ۝٨٢ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: ٧٧ -٨٣].

وقوله: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ۝١٩ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ أي: بعظيمٍ ولا ممتنعٍ، بل هو سهلٌ عليه إذا خالفتم أمره، أن يُذْهِبكُم ويأتي بآخرين على غير صفتكُم، كما قال تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ۝١٥ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ۝١٦ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [فاطر: ١٥ -١٧]، وقال: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم﴾ [محمَّد: ٣٨]، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤]، وقال: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ۝١٣٣﴾ [النساء: ١٣٣].

﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ۝٢١﴾

يقول: ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ﴾ أي: برزت الخلائق كلُّها، برُّها وفاجرها لله وحده الواحد القهار؛ أي: اجْتَمَعُوا له في بَرَاز من الأرض، وهو المكان الذي ليس فيه شيء يَسْتُر أحدًا.

﴿فَقَالَ الضُّعَفَاءُ﴾ وهم الأتباع لقادتهم وسادتهم وكبرائهم الَّذِين استكبروا عن عبادة الله وَحْدَه لا شريك له، وعن موافقة الرُّسل، فقالوا لهم: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ أي: مهما أَمَرْتُمُونَا ائْتَمَرْنا وفعلنا، ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ أي: فهل تدفعون عنا شيئًا من عذاب الله، كما كنتم تَعِدُونَنا وتُمَنُّونَنا؟ فقالت القادة لهم: ﴿لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ﴾ ولكن حُقَّ علينا قول ربنا، وسَبَقَ فينا وفيكم قَدرُ الله، وحقت كلمة العذاب علىٰ الكافرين.

﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ أي: ليس لنا خَلاصٌ ممَّا نحن فيه إن صبرنا عليه أو جَزِعْنا منه.

قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: إن أهل النار قال بعضهم لبعض: تعالَوْا، فإنَّما أدرك أهل الجنَّة الجنَّة ببكائهم وتضرعهم إلىٰ الله عَجَلَّ تعالوا [نبكِ][1] ونتضرعْ إلىٰ الله فبكَوْا وتضرَّعوا، فلما رأوا ذلك

---

[1] في (ز): (نبكي).

لا ينفعهم قالوا: تعالَوْا، فإنَّما أدرك أهل الجنَّةِ الجنَّةَ بالصَّبر، تعالَوْا حتىٰ نَصْبِر؛ فصبروا صبرًا لم يُرَ مثله، فلم ينفعهم ذلك، فعند ذلك قالوا: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ أَمۡ صَبَرۡنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾.

قلتُ: والظَّاهر أنَّ هذه المراجعة في النَّار بعد دخولهم إليها، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِذۡ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا نَصِيبٗا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُلّٞ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ حَكَمَ بَيۡنَ ٱلۡعِبَادِ﴾ [غافر: ٤٧، ٤٨]، وقال تعالىٰ: ﴿قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِۖ كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعٗا قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابٗا ضِعۡفٗا مِّنَ ٱلنَّارِۖ قَالَ لِكُلّٖ ضِعۡفٞ وَلَٰكِن لَّا تَعۡلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتۡ أُولَىٰهُمۡ لِأُخۡرَىٰهُمۡ فَمَا كَانَ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلٖ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨، ٣٩]، وقال تعالىٰ: ﴿يَوۡمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيۡتَنَآ أَطَعۡنَا ٱللَّهَ وَأَطَعۡنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمۡ ضِعۡفَيۡنِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ وَٱلۡعَنۡهُمۡ لَعۡنٗا كَبِيرٗا﴾ [الأحزاب: ٦٦-٦٨].

وأما تخاصُمُهُم في المحشر: فقال تعالىٰ: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوۡقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمۡ يَرۡجِعُ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ ٱلۡقَوۡلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لَوۡلَآ أَنتُمۡ لَكُنَّا مُؤۡمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُوٓاْ أَنَحۡنُ صَدَدۡنَٰكُمۡ عَنِ ٱلۡهُدَىٰ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَكُمۖ بَلۡ كُنتُم مُّجۡرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ إِذۡ تَأۡمُرُونَنَآ أَن نَّكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجۡعَلَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَغۡلَٰلَ فِيٓ أَعۡنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [سبأ: ٣١-٣٣].

﴿وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّ إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٢﴾ وَأُدۡخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡۖ تَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾﴾

يخبر تعالىٰ عما خَطَبَ به إبليس -لعنه الله- أتباعه، بعدما قضىٰ الله بين عباده، فأدخل المُؤْمنِين الجنَّات، وأسكن الكافرين الدَّركات، فقام فيهم إبليس -لعنه الله- حينئذٍ خطيبًا لِيَزيدَهُم حزنًا إلىٰ حزنهم وغبنًا إلىٰ غَبْنِهم، وحسرةً إلىٰ حسرتهم، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ﴾ أي: علىٰ ألسِنة رسلِهِ، ووعدكم في اتِّباعهم النَّجاة والسَّلامة، وكان وعدًا حقًّا، وخبرًا صدقًا، وأمَّا أنا فوعدتكم وأخلفتكم، كما قال الله تعالىٰ: ﴿يَعِدُهُمۡ وَيُمَنِّيهِمۡۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: ١٢٠].

ثم قال: ﴿[illegible]﴾ أي: ما كان لي عليكم فِيمَا دعوتكم إليه من دليل ولا حجَّةٍ علىٰ صدقِ ما وعدتكم به، [illegible] بمجرَّد ذلك، هذا وقد أقامت علَيكم الرسل الحجج والأدلَّة الصحيحة علىٰ صِدْقِ ما جاءوكم به، فخالفتمُوهُمْ فصِرْتُم إلىٰ ما أنتم فيه،

﴿فَلَا تَلُومُونِي﴾ اليوم، ﴿وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم﴾ فإن الذَّنب لكم، لكونِكُم خالفتم الحجج واتَّبعْتُموني بمجرَّد ما دعوتكم إلىٰ الباطل، ﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ﴾ أي: بنافعكم [ومنقذكم][1] ومُخلِّصكم مما أنتم فيه، ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ﴾ أي: بنافِعِي بإنقاذي مما أنا فيه من العذاب والنكال، ﴿إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾.

قال قتادة: أي بسبب ما أشركتمون من قبل.

وقال ابن جرير: يقول: إنِّي جحدت أن أكونَ شريكًا لله ﷻ.

وهذا الذي قال هو الراجح كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٥، ٦]، وقال: ﴿كَلَّاۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨٢].

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: في إعراضِهم عن الحقِّ واتِّباعهم الباطل ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

والظَّاهر مِن سياق الآية: أنَّ هذه الخطبة تكون من إبليس بعد دخولهم النَّار، كما قدمنا. ولكن قد ورد في حديث رواه ابن أبي حاتم -وهذا لفظه- وابن جرير من رواية عبد الرحمن بن زياد: حدَّثني دُخين الحَجْري، عن عقبة بن عامر، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إِذَا جَمَعَ اللهُ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ، فَقَضَىٰ بَيْنَهُمْ، فَفَرَغَ مِنَ القَضَاءِ، قَالَ المُؤْمِنُونَ: قَدْ قَضَىٰ بَيْنَنَا رَبُّنَا، فَمَنْ يَشْفَعُ لَنَا؟ فَيَقُولُونَ: انْطَلِقُوا بِنَا إِلَىٰ آدَمَ» وذكر نوحًا، وإبراهيم، وموسىٰ، وعيسىٰ «فَيَقُولُ عِيسَىٰ: أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ. فَيَأْتُونِي، فَيَأْذَنُ اللهُ لِي أَنْ أَقُومَ إِلَيْهِ فَيَثُورُ مِنْ مَجْلِسِي مِنْ أَطْيَبِ رِيحٍ شَمَّهَا أَحَدٌ قَطُّ، حَتَىٰ آتِيَ رَبِّي فَيُشَفِّعَنِي، وَيَجْعَلَ لِي نُورًا مِنْ شَعَرِ رَأْسِي إِلَىٰ ظُفُرِ قَدَمِي، ثُمَّ يَقُولُ الكَافِرُونَ هَذَا: قَدْ وَجَدَ المُؤْمِنُونَ مَنْ يَشْفَعُ لَهُمْ، فَمَنْ يَشْفَعُ لَنَا؟ مَا هُوَ إِلَّا إِبْلِيسُ هُوَ الَّذِي أَضَلَّنَا، فَيَأْتُونَ إِبْلِيسَ فَيَقُولُونَ: قَدْ وَجَدَ المُؤْمِنُونَ مَنْ يَشْفَعُ لَهُمْ، فَقُمْ أَنْتَ فَاشْفَعْ لَنَا، فَإِنَّكَ أَنْتَ أَضْلَلْتَنَا. فَيَقُومُ فَيَثُورُ مِنْ مَجْلِسِهِ مِنْ أَنْتَنِ رِيحٍ شَمَّهَا أَحَدٌ قَطُّ، ثُم يَعْظُمُ [نَحِيبُهُمْ][2]» ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم﴾[3].

وهذا سياق ابن أبي حاتم، ورواه ابن المبارك عن [رِشْدين][4] بن سعد، عن عبد الرحمن بن زياد ابن أَنْعُم، عن دُخَيْن عن عُقْبَة به مرفوعًا.

وقال محمَّد بن كعب القُرظي ﵀: لما قال أهل النار: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ قال لهم إبليس: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ﴾ الآية، فلما سمعوا مقالته مَقَتُوا أنفسهم،

---

(١) في (ز): (فمنقذكم).
(٢) في (ز): (نحبهم)، وهو موافق لما عند «ابن أبي حاتم».
(٣) ضعيف: رواه ابن جرير (١٣/ ٢٠١) وابن أبي حاتم (١٢٢٤٥)، وابن المبارك في «الزهد» (٣٧٤)، ومداره علىٰ عبد الرحمن بن زياد بن أَنْعُم الأفريقي: ضعيف، وفي إسناد ابن المبارك: رِشْدين بن سعد وهو ضعيف أيضًا.
(٤) في (ز): (رشد)، وهو خطأ.

فنودوا: ﴿لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ﴾ [غافر: ١٠].

وقال عامر الشعبي: [يقوم خطيبان][١] يوم القيامة على رءوس النَّاس، يقول الله لعيسىٰ ابن مريم: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ إلىٰ قوله: ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ [المائدة: ١١٦، ١١٩]، قال: ويقوم إبليس -لعنه الله- فيقول: ﴿وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى﴾ الآية.

ثم لما ذكر تعالىٰ مآلَ الأشقياء وما صَارُوا إليهِ مِن الخِزْيِ والنَّكال. وأن خطيبهم إبليس، عطف بحال السعداء وأنَّهم يدخلون يوم القيامة جنَّاتٍ تجري من تحتها الأنهار سارحة فيها حيث ساروا وأين ساروا ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ ماكثين أبدًا لا يحولون ولا يزولون، ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ كما قال تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ [الزمر: ٧٣]، وقال تعالىٰ: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤] وقال تعالىٰ: ﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٧٥]، وقال: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [يونس: ١٠].

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾﴾

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس قوله: ﴿[مَثَلًا][٢] كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ شهادة أن لا إله إلا الله، ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ وهو المؤمن، ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾ يقول: لا إله إلا الله في قلب المؤمن، ﴿وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ يقول: يرفع بها عمل المؤمن إلىٰ السماء.

وهكذا قال الضَّحَّاك، وسعيد بن جُبَير، وعِكْرِمة وقتادة وغير واحد: إن ذلك عبارة عن المؤمن، وقوله الطيب، وعمله الصالح، وإن المؤمن كالشجرة من النخل، لا يزال يُرْفَع له عملٌ صالحٌ في كلِّ حين ووقت، وصباح ومساء.

وهكذا رواه السُّدِّي، عن مُرَّة، عن ابن مسعود قال: هي النَّخْلة.

وشعبة، عن معاوية بن قُرَّة، عن أنس: هي النَّخلة.

وحماد بن سلمة، عن شعيب بن الْحَبْحَاب، عن أنس: أن رسول الله ﷺ أتي بِقِنَاع بُسْر[٣] [فقال][٤]: «وَمَثَلُ كَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ» قال: «هِيَ النَّخْلَةُ»[٥].

---

(١) في (ز): (تقوم خطبتان).
(٢) في (ز): (ومثل)، وهو خطأ في الآية.
(٣) القِناع: الطبق الذي يؤكل عليه الطعام، والبُسْر: التمر قبل أن يرطب، وهو ما لم يلون ولم ينضَجْ.
(٤) في (ز): (فقرأ).
(٥) رواه الترمذي (٣١١٩)، وابن جرير (١٣/ ٢٠٥)، وأبو يعلىٰ (٤١٦٥)، وابن حبان (٤٧٠) كلهم من طريق حماد به.

ورُوِيَ مِن هذا الوجه ومن غيره، عن أنس موقوفًا وكذا نصَّ عليه مسروق، ومجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، والضَّحَّاك، وقتادة وغيرهم.

وقال البخاري: حدَّثنا عُبَيدُ بن إسماعيل، عن أبي أسامة، عن عبيد الله، عن نافع، عن ابن عمر قال: كنَّا عند رسول الله ﷺ فقال: «أَخْبِرُونِي عَنْ شَجَرَةٍ تُشْبِهُ -أو: كَالرَّجُلِ- المُسْلِمِ، لا يَتَحَاتُّ وَرَقُهَا [وَلا وَلا وَلا][(١)] تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ». قال ابن عمر: فوقع في نفسي أنَّها النَّخلة، ورأيت أبا بكر وعمر لا يتكلَّمان، فكرِهْتُ أن أتكلَّم، فلمَّا لم يَقُولُوا شيئًا، قال رسول الله ﷺ: «هِيَ النَّخْلَةُ». فلمَّا قُمْنا قلتُ لعمر: يا أبتا، والله لقد كان وقع في نفسِي أنَّها النَّخلة. قال: ما منعك أن تكلَّم؟ قال: لم أركم [تتكلمون][(٢)]، فكرهت أن أتكلَّم أو أقول شيئًا. قال عمر: لأنْ تكون قلتها أحبُّ إليَّ من كذا وكذا[(٣)].

وقال أحمد: حدَّثنا سفيان، عن ابن أبي نَجِيح، عن مجاهد: صَحِبْتُ ابن عمر إلىٰ المدينةِ، فلَمْ أَسْمَعْهُ يحدث عن رسول الله ﷺ إلا حديثًا واحدًا -قال: كنا عند رسول الله ﷺ فأتىٰ بجُمَّارٍ[(٤)]. فقال: «مِنَ الشَّجَرِ شَجَرَةٌ مِثْلُهَا مِثْلُ الرَّجُلِ المُسْلِمِ». فأردت أن أقول: هي النَّخلة، فنظرت فإذا أنا أصغر القوم، [فسكت][(٥)] فقال رسول الله ﷺ: «هِيَ النَّخْلَةُ» أخرجاه[(٦)].

وقال مالك وعبد العزيز، عن عبد الله بن دينار، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ يومًا لأصحابه: «إِنَّ مِنَ الشَّجَرِ شَجَرَةً لا يُطْرَحُ وَرَقُهَا[(٧)]، مِثْلُ المُؤْمِنِ». قال: فوقع النَّاس في شجر البوادي[(٨)]، ووقع في قلبي أنَّها النَّخلة [فاستحييت، حتىٰ قال رسول الله ﷺ: «هِيَ النَّخْلَةُ»][(٩)] أخرجاه أيضًا[(١٠)].

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا موسىٰ بن إسماعيل، حدَّثنا أبان -يعني ابن يزيد العطار- حدَّثنا قتادة: أنَّ رجلًا قال: يا رسول الله، ذهب أهل الدُّثُور[(١١)] بالأجور! فقال: «أَرَأَيْتَ لَوْ عَمَدَ إِلَىٰ مَتَاعِ الدُّنْيَا، فَرَكَّبَ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ أَكَانَ يَبْلُغُ السَّمَاءَ؟! أَفَلا أُخْبِرُكَ بِعَمَلٍ أَصْلُهُ فِي الأَرْضِ وَفَرْعُهُ فِي السَّمَاءِ؟». قال: ما هو يا رسول الله؟ قال: «تَقُولُ: لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ، وَسُبْحَانَ اللهِ، وَالحَمْدُ للهِ؛ عَشْرَ مَرَّاتٍ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلاةٍ، فَذَاكَ أَصْلُهُ فِي الأَرْضِ وَفَرْعُهُ فِي السَّمَاءِ»[(١٢)].

وعن ابن عبَّاس ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ قال: هي شجرةٌ في الجنَّة.

وقوله: ﴿تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ﴾ قيل: غُدوةً وعَشيًّا. وقيل: كل شهرٍ. وقيل: كل شهرين.

---

(١) سقط من (ز)، وهي مثبتة في «صحيح البخاري». (٢) في (ز): (تكلمون).

(٣) البخاري (٧٢)، (٤٦٩٨)، ومسلم (٢٨١١)، والترمذي (٢٨٧١)، وأحمد (٢/ ١٢).

(٤) الجُمَّار: قلب النخلة وشحمها.

(٥) سقط من (ز).

(٦) البخاري (٧٢)، ومسلم (٢٨١١)، وأحمد (٢/ ١٢).

(٧) أي: لا يسقط.

(٨) أي: ذهبت أفكارهم إلىٰ شجر البوادي.

(٩) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

(١٠) البخاري (١٣١)، والترمذي (٢٨٧١)، وأحمد (٢/ ٦١).

(١١) الدُّثُور: جمع دَثْر، وهو المال الكثير.

(١٢) مرسل: رواه ابن أبي حاتم (١٢٢٤٩).

وقيل: كل ستَّة أشهرٍ. وقيل: كل سبعة أشهرٍ. وقيل: كل سنةٍ.

والظاهر من السِّياق: أنَّ المؤمن مثله كمثل شجرةٍ، لا يَزَالُ يوجد منها ثمرٌ في كلِّ وقتٍ مِن صيفٍ أو شتاءٍ، أو ليلٍ أو نهارٍ، كذلك المؤمن لَا يزال يُرْفَع له عمل صالح آناءَ اللَّيل وأطراف النَّهار في كلِّ وقت وحين.

﴿بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ أي: كاملًا حسنًا كثيرًا طيبًا، ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

وقوله: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ هذا مثل كُفْر الكافر، لا أصل له ولا ثبات، وشبه بشجرَةِ الحَنْظل، ويقال [لها: «الشُّرْيان»](1). [رواه شعبة، عن معاوية بن قُرَّة، عن أنس بن مالك: أنها شجرة الحنظل(2)](3).

وقال أبو بكر البزار الحافظ: حدَّثنا يحيىٰ بن محمَّد بن السكن، حدَّثنا أبو زيد سعيد بن الربيع، حدَّثنا شعبة، عن معاوية بن قرة، عن أنس -أحسَبه رفعه- قال: «مثل كلمةٍ طيبةٍ كشجرةٍ طيبةٍ» قال: هي «النَّخْلَة»، ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ قال: هي [الشُّرْيان](4)(5).

ثم رواه عن محمَّد بن المثنىٰ، عن غُنْدَر، عن شعبة، عن معاوية، عن أنس موقوفًا(6).

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا موسىٰ بن إسماعيل، حدَّثنا حماد -هو ابن سلمة- عن شعيب بن الحَبْحاب عن أنس بن مالك؛ أن النَّبيَّ ﷺ قال: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾: «**هِيَ الحَنْظَلَةُ**». فأخبرت بذلك أبا العالية فقال: هكذا كنا نسمع(7).

ورواه ابن جرير، من حديث حماد بن سلمة به، ورواه أبو يعلىٰ في «مسنده» بأبسط من هذا فقال: حدَّثنا غسَّان، عن حمَّاد، عن شعيب، عن أنس؛ أنَّ رسول الله ﷺ أُتِيَ بقناعٍ عليه بُسْر، فقال: ومثل كلمةٍ طيبةٍ كشجرةٍ طيبةٍ، أصلها ثابتٌ وفرعها في السَّماء. تؤتي أكلها كل حينٍ بإذن ربها فقال: «**هِيَ النَّخْلَةُ**» ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ قال: «**هِيَ الحَنْظَلُ**» قال شعيب: فأخبرت بذلك أبا العالية فقال: كذلك كنَّا نسمع(8).

---

(١) في (ز): (له الشربان).

(٢) رواه الطبري (١٣/ ٢١٠)، وإسناده صحيح.

(٣) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

(٤) في (ز): (الشربان).

(٥) رجاله ثقات: رواه البزار (٢/ ٣٥٠)، ورواه ابن الجعد في «مسنده» (١١٠٧) وثبت موقوفًا وهو الآتي بعده.

(٦) رواه البزار (٢/ ٣٥٠)، والطبري (١٣/ ٢٠٥).

(٧) رجاله ثقات كسابقه: رواه ابن أبي حاتم (١٢٢٥٢)، ورواه الترمذي (٣١١٨)، والطبري (١٣/ ٢٠٥)، والحاكم (٢/ ٣٥٢)، وصححه ووافقه الذهبي.

(٨) حسن: رواه أبو يعلىٰ (٤١٦٥)، وابن حبان (٤١٨).

ورواه الطبري (١٣/ ٢٠٤)، موقوفًا علىٰ أنس قال الترمذي: (وهذا أصح من حديث حماد بن سلمة وروىٰ غير واحدٍ مثل هذا =

وقوله: ﴿ٱجۡتُثَّتۡ﴾ أي: استؤصلت ﴿مِن فَوۡقِ ٱلۡأَرۡضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٖ﴾ أي: لا أصل لها ولا ثبات، كذلك الكُفْر لا أصل له ولا فرع، ولا يصعد للكافِرِ عملٌ، ولا يتقبل منه شيء.

﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفۡعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ[(١)] (٢٧)﴾

قال البخاري: حدَّثنا أبو الوليد، حدَّثنا شعبة، أخبرني علقمة بن مَرْثَدٍ قال: سمعت سعد بن عبيدة، عن البراء بن عازب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «المُسْلِمُ إِذَا سُئِلَ فِي القَبْرِ، شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ»: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾[(٢)].

ورواه مسلم أيضًا وبقيَّة الجماعة كلهم، من حديث شعبة به.

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا أبو معاوية، حدَّثنا الأعمش، عن المِنْهَال بن عمرو، عن زاذان، عن البراء ابن عازب قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في جنازة رجل من الأنصار، فانتهينا إلىٰ القبر ولمَّا يُلْحَد، فجلس رسول الله ﷺ وجلسنا حوله، كأنَّ علىٰ رءوسنا الطَّير، وفي يدِهِ عود [يَنْكُت][(٣)][(٤)] به في الأرض، فرفع رأسه فقال: «اسْتَعِيذُوا بِاللهِ مِنْ عَذَابِ القَبْرِ» مرَّتين أو ثلاثًا، ثم قال: «إِنَّ العَبْدَ المُؤْمِنَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنَ الآخِرَةِ نَزَلَ إِلَيْهِ مَلَائِكَةٌ مِنَ السَّمَاءِ، بِيضُ الوُجُوهِ كَأَنَّ وُجُوهَهُمُ الشَّمْسُ، مَعَهُمْ كَفَنٌ مِنْ أَكْفَانِ الجَنَّةِ وَحَنُوطٌ[(٥)] مِنْ حَنُوطِ الجَنَّةِ، حَتَّىٰ يَجْلِسُوا مِنْهُ مَدَّ البَصَرِ. ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ

= موقوفًا، ولا نعلم أحدًا رفعه غير حماد بن سلمة، ورواه معمر وحماد بن زيد، وغير واحد ولم يرفعوه).

(١) قال العلامة ابن القيم رحمه الله: تحت هذه الآية كنز عظيم من وُفِّق لمعرفته وأحسن استخراجه واقتناءه وأنفق منه فقد غنم، ومن حُرِمَهُ فقد حُرِمَ، وذلك أن العبد لا يستغني عن تثبيت الله له طرفة عين، فإن لم يثبته وإلا زالت سماء إيمانه وأرضه عن مكانهما وقد قال تعالىٰ لأكرم خلقه عليه عبده ورسوله: ﴿وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ شَيۡـٔٗا قَلِيلًا (٧٤)﴾ [الإسراء] وقال تعالىٰ لأكرم خلقه: ﴿إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمۡ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [الأنفال:١٢]، وفي «الصحيحين» من حديث البَجَلي قال وهو يسألهم ويثبتهم وقال تعالىٰ لرسوله: ﴿وَكُلّٗا نَّقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [هود:١٢٠] فالخلق كلهم قسمان: مُوَفَّقٌ بالتثبيت ومخذولٌ بترك التثبيت ومادة التثبيت أصله ومنشأه من القول الثابت وفعل ما أمر به العبد فبهما يثبِّت الله عبده، فكل من كان أثبت قولًا وأحسن فعلًا كان أعظم تثبيتًا، قال تعالىٰ: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَشَدَّ تَثۡبِيتٗا﴾ [النساء:٦٦] فأثبت الناس قلبًا أثبتهم قولًا، والقول الثابت هو القول الحق والصدق وهو ضد القول الباطل الكذب، فالقول نوعان: ثابتٌ له حقيقةٌ، وباطلٌ لا حقيقة له، وأثبت القول كلمة التوحيد ولوازمها فهي أعظم ما يثبت الله بها عبده في الدنيا والآخرة، ولهذا ترىٰ الصادق من أثبت الناس وأشجعهم قلبًا، والكاذب من أَمْهَنِ الناس وأخبثهم وأكثرهم تلونًا وأقلهم ثباتًا وأهل الفراسة يعرفون صدق الصادق من ثبات قلبه وقت الإخبار وشجاعته ومهابته، ويعرفون كذب الكاذب بضد ذلك ولا يخفىٰ ذلك إلا علىٰ ضعيف البصيرة.

(٢) البخاري (٤٦٩٩)، ومسلم (٢٨٧١)، وأبو داود (٤٧٥٠)، والترمذي (٣١١٩)، والنسائي (٤/ ١٠١)، وابن ماجه (٤٢٦٩).

(٣) في (ز): (ينكث)، والمثبت موافق لما في «المسند». (٤) أي: يضرب الأرض به.

(٥) الحَنُوط: ما يطيب به الميت.

المَوْتِ حَتَّىٰ يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَيَقُولُ: أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ، اخْرُجِي إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٍ». قال: «فَتَخْرُجُ تَسِيلُ كَمَا تَسِيلُ القَطْرَةُ مِنْ فِي السِّقَاءِ[1] فَيَأْخُذُهَا، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ، حَتَّىٰ يَأْخُذُوهَا فَيَجْعَلُوهَا فِي ذَٰلِكَ الكَفَنِ وَفِي ذَٰلِكَ الحَنُوطِ، وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَطْيَبِ نَفْحَةِ مِسْكٍ وُجِدَتْ عَلَىٰ وَجْهِ الأَرْضِ. فَيَصْعَدُونَ بِهَا، فَلَا يَمُرُّونَ -يعني بها- عَلَىٰ مَلَأٍ مِنَ المَلَائِكَةِ إِلَّا قَالُوا: مَا هَذَا الرُّوحُ [الطَّيِّبُ][2] ؟ فَيَقُولُونَ: فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ، بِأَحْسَنِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانُوا يُسَمُّونَهُ بِهَا فِي الدُّنْيَا، حَتَّىٰ يَنْتَهُوا بِهِ إِلَىٰ السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيَسْتَفْتِحُونَ لَهُ، فَيُفْتَحُ لَهُ، فَيُشَيِّعُهُ مِنْ كُلِّ سَمَاءٍ مُقَرَّبُوهَا إِلَىٰ السَّمَاءِ الَّتِي تَلِيهَا، حَتَّىٰ يُنْتَهَىٰ بِهَا إِلَىٰ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، فَيَقُولُ اللهُ: اكْتُبُوا كِتَابَ عَبْدِي فِي عِلِّيِّينَ، وَأَعِيدُوهُ إِلَىٰ الأَرْضِ، فَإِنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ وَفِيهَا أُعِيدُهُمْ، وَمِنْهَا أُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ».

قال: «فَتُعَادُ رُوحُهُ فِي [جَسَدِهِ][3] فَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُجْلِسَانِهِ فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: رَبِّيَ اللهُ. فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: دِينِي الإِسْلَامُ. فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هُوَ رَسُولُ اللهِ. فَيَقُولَانِ لَهُ: وَمَا عِلْمُكَ؟ فَيَقُولُ: قَرَأْتُ كِتَابَ اللهِ، فَآمَنْتُ بِهِ وَصَدَّقْتُ. فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ: أَنْ صَدَقَ عَبْدِي، فَأَفْرِشُوهُ مِنَ الجَنَّةِ، وَأَلْبِسُوهُ مِنَ الجَنَّةِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَىٰ الجَنَّةِ -قَالَ: فَيَأْتِيهِ مِنْ رَوْحِهَا[4] وَطِيبِهَا، وَيُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ مَدَّ بَصَرِهِ. وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ حَسَنُ الوَجْهِ، حَسَنُ الثِّيَابِ، طَيِّبُ الرِّيحِ، فَيَقُولُ: أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُرُّكَ، هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ. فَيَقُولُ لَهُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَوَجْهُكَ الوَجْهُ يَجِيءُ بِالخَيْرِ. فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحُ. فَيَقُولُ: رَبِّ أَقِمِ السَّاعَةَ. رَبِّ أَقِمِ السَّاعَةَ، حَتَّىٰ أَرْجِعَ إِلَىٰ أَهْلِي وَمَالِي».

قال: «وَإِنَّ العَبْدَ الكَافِرَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنَ الآخِرَةِ، نَزَلَ إِلَيْهِ مِنَ السَّمَاءِ مَلَائِكَةٌ سُودُ الوُجُوهِ، مَعَهُمُ المُسُوحُ[5]، فَيَجْلِسُوا مِنْهُ مَدَّ البَصَرِ. ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ المَوْتِ حَتَّىٰ يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَيَقُولُ: أَيَّتُهَا النَّفْسُ الخَبِيثَةُ، اخْرُجِي إِلَىٰ سَخَطٍ مِنَ اللهِ وَغَضَبٍ». قال: «فَتُفَرَّقُ فِي جَسَدِهِ، فَيَنْتَزِعُهَا كَمَا يُنْتَزَعُ السَّفُّودُ مِنَ الصُّوفِ المَبْلُولِ، فَيَأْخُذُهَا، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ، حَتَّىٰ يَجْعَلُوهَا فِي تِلْكَ المُسُوحِ. وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَنْتَنِ رِيحِ جِيفَةٍ وُجِدَتْ عَلَىٰ وَجْهِ الأَرْضِ، فَيَصْعَدُونَ بِهَا فَلَا يَمُرُّونَ بِهَا عَلَىٰ مَلَأٍ مِنَ المَلَائِكَةِ إِلَّا قَالُوا: مَا هَذَا الرُّوحُ الخَبِيثُ؟ فَيَقُولُونَ: فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ، بِأَقْبَحِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانَ يُسَمُّونَهُ بِهَا فِي الدُّنْيَا [حَتَّىٰ يُنْتَهَىٰ بِهِ إِلَىٰ السَّمَاءِ الدُّنْيَا][6] فَيُسْتَفْتَحُ لَهُ فَلَا يُفْتَحُ لَهُ». ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠]، فيقول الله: «اكْتُبُوا كِتَابَهُ فِي سِجِّينٍ، فِي الأَرْضِ السُّفْلَىٰ، فَتُطْرَحُ رُوحُهُ طَرْحًا». ثم قرأ: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١].

---

(١) السقاء: القربة.

(٢) سقط من (ز)، وهي مثبتة في «المسند».

(٣) سقط من (ز)، وهي مثبتة في «المسند».

(٤) الرَّوح: برد نسيم الريح.

(٥) المُسُوح: جمع مِسْح، وهو كساء من الشعر.

(٦) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

«فَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ، وَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُجْلِسَانِهِ وَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: هَاهْ هَاهْ، لا أَدْرِي. فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: هَاهْ هَاهْ، لا أَدْرِي. فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هَاهْ هَاهْ، لا أَدْرِي. فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ: أَنْ كَذَبَ فَأَفْرِشُوهُ مِنَ النَّارِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَىٰ النَّارِ. فَيَأْتِيهِ مِنْ حَرِّهَا وَسَمُومِهَا، وَيُضَيَّقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ، حَتَّىٰ تَخْتَلِفَ فِيهِ أَضْلَاعُهُ، وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ قَبِيحُ الْوَجْهِ، قَبِيحُ الثِّيَابِ، مُنْتِنُ الرِّيحِ فَيَقُولُ: أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُوءُكَ، هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ. فَيَقُولُ: وَمَنْ أَنْتَ فَوَجْهُكَ [الْوَجْهُ][1] يَجِيءُ بِالشَّرِّ. فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الْخَبِيثُ، فَيَقُولُ: رَبِّ، لا تُقِمِ السَّاعَةَ»[2].

ورواه أبو داود من حديث الأعمش، والنَّسائي وابن ماجه من حديث المنهال بن عمرو به.

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا عبد الرزَّاق، حدَّثنا مَعْمَر، عن يونس بن [خبَّاب][3] عن المِنْهَال بن عمرو، عن زاذان، عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلىٰ جنازةٍ، فذكر نحوه. وفيه: «حَتَّىٰ إِذَا خَرَجَ رُوحُهُ صَلَّىٰ عَلَيْهِ كُلُّ مَلَكٍ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، [وَكُلُّ مَلَكٍ فِي السَّمَاءِ][4] وَفُتِحَتْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ، لَيْسَ مِنْ أَهْلِ بَابٍ إِلَّا وَهُمْ يَدْعُونَ اللهَ ﷻ أَنْ يُعْرَجَ بِرُوحِهِ مِنْ قِبَلِهِمْ».

وفي آخره: «ثُمَّ يُقَيَّضُ لَهُ أَعْمَىٰ أَصَمُّ أَبْكَمُ، وَفِي يَدِهِ مِرْزَبَّةٌ لَوْ ضُرِبَ بِهَا جَبَلٌ لَكَانَ تُرَابًا، فَيَضْرِبُهُ ضَرْبَةً فَيَصِيرُ تُرَابًا. ثُمَّ يُعِيدُهُ اللهُ ﷻ كَمَا كَانَ، فَيَضْرِبُهُ ضَرْبَةً أُخْرَىٰ فَيَصِيحُ صَيْحَةً يَسْمَعُهَا كُلُّ شَيْءٍ إِلَّا الثَّقَلَيْنِ». قال البراء: ثم يفتح له بابٌ إلىٰ النار، ويُمْهَد من فرش النار[5].

وقال سفيان الثوري، عن أبيه، عن خَيْثَمة، عن البراء في قوله تعالىٰ: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ قال: عذاب القبر[6].

وقال المسعودي، عن عبد الله بن مُخَارق، عن أبيه، عن عبد الله قال: إنَّ المؤمن إذا مات أُجْلِسَ في قبره، فيُقال له: من ربك؟ ما دينك؟ مَن نبيك؟ فيُثَبِّتُه الله، فيقول: ربي الله، وديني الإسلام، ونَبِيِّي محمَّد ﷺ. وقرأ عبد الله: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾[7].

وقال الإمام عبد بن حميد رَحِمَهُ اللَّهُ في «مسنده»: حدَّثنا يونس بن محمَّد، حدَّثنا شيبان بن عبد الرحمن، عن قتادة، حدَّثنا أنس بن مالك، قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ، وَتَوَلَّىٰ عَنْهُ أَصْحَابُهُ، إِنَّهُ لَيَسْمَعُ قَرْعَ نِعَالِهِمْ». قال: «فَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُقْعِدَانِهِ فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي

---

(١) سقط من (ز).

(٢) صحيح: رواه أبو داود (٤٧٥٣)، وأحمد (٤/ ٢٨٧)، والحاكم (١/ ٣٧).

(٣) في (ز): (حبيب)، وهو خطأ.

(٤) سقط من (ز)، وهي مثبتة في «المسند».

(٥) رواه أحمد (٤/ ٢٩٥)، وفي إسناده يونس بن خباب: ضعيف.

(٦) مسلم (٢٨٧١)، والنسائي (٤/ ١٠١).

(٧) حسن: رواه الطبري (١٢/ ٢١٦)، وفيه المسعودي اختلط، وهذا لا يضر؛ لأن الراوي عنه أبو قطن وهو عمرو بن الهيثم، روىٰ عنه قبل الاختلاط انظر: «نهاية الاغتباط» (ص٢١٠).

هَذَا الرَّجُلِ؟» قال: «فَأَمَّا المُؤْمِنُ فَيَقُولُ: أَشْهَدُ أَنَّهُ عَبْدُ اللهِ وَرَسُولِهِ». قال: «فَيُقَالُ لَهُ: انْظُرْ إِلَىٰ مَقْعَدِكَ مِنَ النَّارِ، قَدْ أَبْدَلَكَ اللهُ بِهِ مَقْعَدًا مِنَ الجَنَّةِ». قال نبي الله ﷺ: «[فَيَرَاهُمَا][1] جَمِيعًا»[2]. قال قتادة: وذكر لنا أنَّه يُفْسَح له في قبره سبعون ذراعًا، ويُمْلأُ عليه خَضِرًا إلىٰ يوم القيامة.

رواه مسلم عن عبد بن حميد، به وأخرجه النسائي من حديث يونس بن محمَّد المؤدب به.

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا يحيىٰ بن سعيد، عن ابن جُرَيْج، أخبرني أبو الزبير، أنه سأل جابر بن عبد الله عن فَتَّاني القبر، فقال: سمعت النَّبيَّ ﷺ يقول: «إِنَّ هَذِهِ الأُمَّةَ تُبْتَلَىٰ فِي قُبُورِهَا، فَإِذَا أُدْخِلَ المُؤْمِنُ قَبْرَهُ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُ أَصْحَابُهُ، جَاءَ مَلَكٌ شَدِيدُ الِانْتِهَارِ، فَيَقُولُ لَهُ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ؟ فَيَقُولُ المُؤْمِنُ: أَقُولُ: إِنَّهُ رَسُولُ اللهِ وَعَبْدُهُ. فَيَقُولُ لَهُ المَلَكُ: انْظُرْ إِلَىٰ مَقْعَدِكَ الَّذِي كَانَ لَكَ فِي النَّارِ، قَدْ أَنْجَاكَ اللهُ مِنْهُ، وَأَبْدَلَكَ بِمَقْعَدِكَ الَّذِي تَرَىٰ مِنَ النَّارِ مَقْعَدَكَ الَّذِي تَرَىٰ مِنَ الجَنَّةِ، فَيَرَاهُمَا كِلَيْهِمَا. فَيَقُولُ المُؤْمِنُ: دَعُونِي أُبَشِّرُ أَهْلِي. فَيُقَالُ لَهُ: اسْكُنْ. وَأَمَّا المُنَافِقُ فَيُقْعَدُ إِذَا تَوَلَّىٰ عَنْهُ أَهْلُهُ، فَيُقَالُ لَهُ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ؟ فَيَقُولُ: لَا أَدْرِي، أَقُولُ كَمَا يَقُولُ النَّاسُ. فَيُقَالُ لَهُ: لَا دَرَيْتَ، هَذَا مَقْعَدُكَ الَّذِي كَانَ لَكَ فِي الجَنَّةِ، قَدْ أُبْدِلْتَ مَكَانَهُ مَقْعَدَكَ مِنَ النَّارِ».

قال جابر: فسمعت النَّبيَّ ﷺ يقول: «يُبْعَثُ كُلُّ عَبْدٍ فِي القَبْرِ عَلَىٰ مَا مَاتَ، المُؤْمِنُ عَلَىٰ إِيمَانِهِ، وَالمُنَافِقُ عَلَىٰ نِفَاقِهِ»[3].

إسناده صحيح علىٰ شرط مسلم، ولم يخرجاه.

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا أبو عامر، حدَّثنا عباد بن راشد، عن داود بن أبي هند، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد الخدري قال: شَهِدنا مع رسول الله ﷺ جنازةً، فقال رسول الله ﷺ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ هَذِهِ الأُمَّةَ تُبْتَلَىٰ فِي قُبُورِهَا، فَإِذَا الإِنْسَانُ دُفِنَ وَتَفَرَّقَ عَنْهُ أَصْحَابُهُ، جَاءَهُ مَلَكٌ فِي يَدِهِ مِطْرَاقٌ فَأَقْعَدَهُ، قَالَ: مَا تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ؟ فَإِنْ كَانَ مُؤْمِنًا قَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، فَيَقُولُ لَهُ: صَدَقْتَ. ثُمَّ يَفْتَحُ لَهُ بَابًا إِلَىٰ النَّارِ، فَيَقُولُ: هَذَا كَانَ مَنْزِلَكَ لَوْ كَفَرْتَ بِرَبِّكَ، فَأَمَّا إِذْ آمَنْتَ فَهَذَا مَنْزِلُكَ. فَيَفْتَحُ لَهُ بَابًا إِلَىٰ الجَنَّةِ، فَيُرِيدُ أَنْ يَنْهَضَ إِلَيْهِ، فَيَقُولُ لَهُ: اسْكُنْ. وَيُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ، وَإِنْ كَانَ كَافِرًا أَوْ مُنَافِقًا يَقُولُ لَهُ: مَا تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ؟ فَيَقُولُ: لَا أَدْرِي، سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ شَيْئًا فَيَقُولُ: لَا دَرَيْتَ وَلَا تَلَيْتَ[4] وَلَا اهْتَدَيْتَ. ثُمَّ يَفْتَحُ لَهُ بَابًا إِلَىٰ الجَنَّةِ، فَيَقُولُ لَهُ: هَذَا مَنْزِلُكَ لَوْ آمَنْتَ بِرَبِّكَ، فَأَمَّا إِذْ

---

(١) في (ز): (فرآهما).

(٢) البخاري (١٣٣٨)، ومسلم (٢٨٧٠)، وأبو داود (٣٢٣١)، والنسائي (٤/ ٩٦، ٩٧)، وأحمد (٣/ ١٢٦).

(٣) الإسناد الذي ذكره المصنف صحيح، لكني لم أجده في «مسند أحمد» بهذا الإسناد، والذي في «المسند» (٣/ ٣٤٦): حدثنا موسىٰ بن داود، حدثنا ابن لهيعة، عن أبي الزبير به. فليحرَّرْ البحث، ويشهد له ما في الباب من أحاديث، وأما الفقرة الأخيرة فيشهد لصحتها ما ثبت في «صحيح مسلم» (٢٨٧٨).

(٤) قيل معناه: ولا تلوت، وإنما قالها بالياء للمؤاخاة والإتباع. وقيل: معناه ولا تبعت الحق. وقال ابنُ الأثير: ولا ائتليت؛ أي: لا استطعت، يقال: ما ألوت؛ أي: ما استطعت، وهي افتعلت منه. «هدي الساري»: (ص/ ٩٣).

كَفَرْتَ بِهِ فَإِنَّ اللهَ ﷻ أَبْدَلَكَ بِهِ هَذَا. فَيَفْتَحُ لَهُ بَابًا إِلَىٰ النَّارِ، ثُمَّ يَقْمَعُهُ قَمْعَةً بِالمِطْرَاقِ يَسْمَعُهَا خَلْقُ اللهِ ﷻ كُلُّهُمْ غَيْرَ الثَّقَلَيْنِ». فقال بعض القوم: يا رسول الله، ما أحدٌ يقوم عليه ملَكٌ في يده مطراقٌ إلا هيل(١) عند ذلك. فقال رسول الله ﷺ: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ ﴾(٢).

وهذا أيضًا إسنادٌ لا بأس به، فإن عباد بن راشد التميمي روىٰ له البخاري مقرونًا، ولكن ضعَّفه بعضهم.

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا حسين بن محمَّد، عن ابن أبي ذئب، عن محمَّد بن عمرو بن عطاء، عن سعيد بن يَسار، عن أبي هريرة، عن النَّبيِّ ﷺ «إِنَّ المَيِّتَ تَحْضُرُهُ المَلَائِكَةُ، فَإِذَا كَانَ الرَّجُلُ الصَّالِحُ قَالُوا: اخْرُجِي أَيَّتُهَا النَّفْسُ المُطْمَئِنَّةُ كَانَتْ فِي الجَسَدِ الطَّيِّبِ، اخْرُجِي حَمِيدَةً، وَأَبْشِرِي بِرَوْحٍ وَرَيْحَانٍ وَرَبٍّ غَيْرِ غَضْبَانَ». قال: «فَلَا يَزَالُ يُقَالُ لَهَا ذَلِكَ حَتَّىٰ تَخْرُجَ، ثُمَّ يُعْرَجُ بِهَا إِلَىٰ السَّمَاءِ، فَيُسْتَفْتَحُ لَهَا فَيُقَالُ: مَنْ هَذَا؟ فَيُقَالُ: فُلَانٌ. فَيَقُولُونَ: مَرْحَبًا بِالرُّوحِ الطَّيِّبَةِ كَانَتْ فِي الجَسَدِ الطَّيِّبِ، ادْخُلِي حَمِيدَةً، وَأَبْشِرِي بِرَوْحٍ وَرَيْحَانٍ، وَرَبٍّ غَيْرِ غَضْبَانَ» قال: «فَلَا يَزَالُ يُقَالُ لَهَا ذَلِكَ، حَتَّىٰ يُنْتَهَىٰ بِهَا إِلَىٰ السَّمَاءِ الَّتِي فِيهَا اللهُ ﷻ».

«وَإِذَا كَانَ الرَّجُلُ السُّوءُ قَالُوا: اخْرُجِي أَيَّتُهَا النَّفْسُ الخَبِيثَةُ كَانَتْ فِي الجَسَدِ الخَبِيثِ، اخْرُجِي ذَمِيمَةً، وَأَبْشِرِي بِحَمِيمٍ وَغَسَّاقٍ، وَآخَرَ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٍ. فَلَا يَزَالُ يُقَالُ لَهَا ذَلِكَ حَتَّىٰ تَخْرُجَ، ثُمَّ يُعْرَجُ بِهَا إِلَىٰ السَّمَاءِ، فَيُسْتَفْتَحُ لَهَا فَيُقَالُ: مَنْ هَذَا؟ فَيُقَالُ: فُلَانٌ، فَيُقَالُ: لَا مَرْحَبًا بِالنَّفْسِ الخَبِيثَةِ كَانَتْ فِي الجَسَدِ الخَبِيثِ، ارْجِعِي ذَمِيمَةً، فَإِنَّهُ لَا تُفْتَحُ لَكِ أَبْوَابُ السَّمَاءِ. فَيُرْسَلُ مِنَ السَّمَاءِ، ثُمَّ يَصِيرُ إِلَىٰ القَبْرِ» فيجلس الرجل الصالح فيقال له مثل ما قيل في الحديث الأول، ويجلس الرجل السوء فيقال له مثل ما قيل في الحديث الأول(٣).

ورواه النسائي وابن ماجه، من طريق ابن أبي ذئب بنحوه.

وفي «صحيح مسلم» عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «إِذَا خَرَجَتْ رُوحُ العَبْدِ المُؤْمِنِ، تَلَقَّاهَا مَلَكَانِ يُصْعِدَانِ بِهَا». قال حماد: فذكر من طيب ريحها وذكر المسك. قال: «وَيَقُولُ أَهْلُ السَّمَاءِ: رُوحٌ طَيِّبَةٌ جَاءَتْ مِنْ قِبَلِ الأَرْضِ، صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْكِ وَعَلَىٰ جَسَدٍ كُنْتِ تَعْمُرِينَهُ، فَيُنْطَلَقُ بِهِ إِلَىٰ رَبِّهِ ﷻ، فَيَقُولُ: انْطَلِقُوا بِهِ إِلَىٰ آخِرِ الأَجَلِ. وَإِنَّ الكَافِرَ إِذَا خَرَجَتْ رُوحُهُ». قال حماد: وذكر من نَتْنها وذكر مقتًا، «وَيَقُولُ أَهْلُ السَّمَاءِ: رُوحٌ خَبِيثَةٌ جَاءَتْ مِنْ قِبَلِ الأَرْضِ». قال: «فَيُقَالُ: انْطَلِقُوا بِهِ إِلَىٰ آخِرِ الأَجَلِ». قال أبو هريرة: فردَّ رسول الله ﷺ [رَيطَةً](٤) كانت عليه علىٰ أنفه هكذا(٥).

---

(١) أي: خاف ورعب. (٢) حسن: أحمد (٣/ ٤)، وابن جرير (١٣/ ٢١٤).

(٣) **صحيح**: رواه أحمد (٢/ ٣٦٤)، والنسائي (٤/ ١٨)، وابن ماجه (٤٢٦٢)، وابن حبان (٣٠١٣).

(٤) في (ز): (ربطة)، و(الرَّيْطة): كل ثوبٍ لينٍ رقيقٍ.

(٥) مسلم (٢٨٧٢).

وقال ابن حبان في «صحيحه»: حدَّثنا عمر بن محمَّد الهَمْداني، حدَّثنا زيد بن أخزم، حدَّثنا معاذ بن هشام، حدَّثني أبي، عن قتادة، عن [قَسامة][1] بن زهير، عن أبي هريرة، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا قُبِضَ، أَتَتْهُ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ بِحَرِيرَةٍ بَيْضَاءَ، فَيَقُولُونَ: اخْرُجِي إِلَىٰ رَوْحِ اللهِ. فَتَخْرُجُ كَأَطْيَبِ رِيحِ مِسْكٍ، حَتَّىٰ إِنَّهُ لَيُنَاوِلُهُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا يَشُمُّونَهُ حَتَّىٰ يَأْتُوا بِهِ بَابَ السَّمَاءِ، فَيَقُولُونَ: مَا هَذِهِ الرِّيحُ الطَّيِّبَةُ الَّتِي جَاءَتْ مِنْ قِبَلِ الأَرْضِ؟ وَلَا يَأْتُونَ سَمَاءً إِلَّا قَالُوا مِثْلَ ذَلِكَ، حَتَّىٰ يَأْتُوا بِهِ أَرْوَاحَ الْمُؤْمِنِينَ، فَلَهُمْ أَشَدُّ فَرَحًا بِهِ مِنْ أَهْلِ الغَائِبِ بِغَائِبِهِمْ، فَيَقُولُونَ: مَا فَعَلَ فُلَانٌ؟ فَيَقُولُونَ: دَعُوهُ حَتَّىٰ يَسْتَرِيحَ، فَإِنَّهُ كَانَ فِي غَمٍّ! فَيَقُولُ: قَدْ مَاتَ، أَمَا أَتَاكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: ذُهِبَ بِهِ إِلَىٰ أُمِّهِ الهَاوِيَةِ. وَأَمَّا الكَافِرُ فَيَأْتِيهِ مَلَائِكَةُ العَذَابِ بِمِسْحٍ[2] فَيَقُولُونَ: اخْرُجِي إِلَىٰ غَضَبِ اللهِ، فَتَخْرُجُ كَأَنْتَنِ رِيحِ جِيفَةٍ، فَيُذْهَبُ بِهِ إِلَىٰ بَابِ الأَرْضِ»[3].

وقد روىٰ أيضًا من طريق هَمَّام بن يحيىٰ، عن قتادة، عن أبي الجوزاء، عن أبي هريرة، عن النَّبيِّ ﷺ بنحوه. قال: «فَيُسْأَلُ: مَا فَعَلَ فُلَانٌ؟ مَا فَعَلَ فُلَانٌ؟ مَا فَعَلَتْ فُلَانَةُ؟» قال: «وَأَمَّا الكَافِرُ فَإِذَا قُبِضَتْ نَفْسُهُ، وَذُهِبَ بِهَا إِلَىٰ بَابِ الأَرْضِ تَقُولُ خَزَنَةُ الأَرْضِ: مَا وَجَدْنَا رِيحًا أَنْتَنَ مِنْ هَذِهِ. فَيُبْلَغُ بِهَا الأَرْضُ السُّفْلَىٰ»[4].

قال قتادة: وحدَّثني رجلٌ، عن سعيد بن المسيب، عن عبد الله بن عمرو قال: أرواح المؤمنين تجمع [بالجابية][5]. وأرواح الكفار تجمع بـ«بَرْهُوت»، سبخة بـ«حضرموت»[6].

وقال الحافظ أبو عيسىٰ الترمذي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: حدَّثنا يحيىٰ بن خلف، حدَّثنا بشر بن المفضل، عن عبد الرحمن بن إسحاق، عن سعيد ابن أبي سعيد المقْبُري، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا قُبِرَ المَيِّتُ -أو قال: أَحَدُكُمْ- أَتَاهُ مَلَكَانِ أَسْوَدَانِ أَزْرَقَانِ يُقَالُ لِأَحَدِهِمَا: المُنْكَرُ، وَالآخَرُ: النَّكِيرُ، فَيَقُولَانِ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ؟ فَيَقُولُ مَا كَانَ يَقُولُ[7]: هُوَ عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ. فَيَقُولَانِ: قَدْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُولُ هَذَا. ثُمَّ يُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ سَبْعُونَ ذِرَاعًا فِي سَبْعِينَ. ثُمَّ يُنَوَّرُ لَهُ فِيهِ، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: نَمْ. فَيَقُولُ: أَرْجِعُ إِلَىٰ أَهْلِي فَأُخْبِرُهُمْ، فَيَقُولَانِ: نَمْ نَوْمَةَ العَرُوسِ [الَّذِي][8] لَا يُوقِظُهُ إِلَّا أَحَبُّ أَهْلِهِ إِلَيْهِ، حَتَّىٰ يَبْعَثَهُ اللهُ مِنْ مَضْجَعِهِ ذَلِكَ. وَإِنْ كَانَ مُنَافِقًا قَالَ:

---

(١) في (ز): (قسام)، وهو خطأ. (٢) المِسْح: كساء من شعر.

(٣) **صحيح**: رواه ابن حبان (٣٠١٤)، والنسائي (٤/ ٨، ٩).

(٤) **صحيح**: رواه ابن حبان (٣٠١٣)، والحاكم (١/ ٣٥٣)، وصححه ووافقه الذهبي.

(٥) في (ز): (الجابيتين).

(٦) **ضعيف**: فيه جهالة شيخ قتادة، وأيضًا فهذا موقوف علىٰ عبد الله بن عمرو، وهو ممن أخذوا من كتب أهل الكتاب، فمثل هذا لا يقبل؛ لأنه من الأمور الغيبية التي لا تثبت إلا مرفوعة إلىٰ النَّبيِّ ﷺ أو في حكم المرفوع.

(٧) أي: يقول الميت ما كان يقوله قبل الموت، وهو: هو عبد الله ورسوله.

(٨) سقط من (ز).

سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ فَقُلْتُ مِثْلَهُمْ، لا أَدْرِي. فَيَقُولانِ: قَدْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُولُ ذَلِكَ، فَيُقَالُ لِلْأَرْضِ: الْتَئِمِي عَلَيْهِ. فَتَلْتَئِمُ عَلَيْهِ، فَتَخْتَلِفُ أَضْلاعُهُ، فَلا يَزَالُ فِيهَا مُعَذَّبًا حَتَّىٰ يَبْعَثَهُ اللهُ مِنْ مَضْجَعِهِ ذَلِكَ»[١].

ثم قال الترمذي: هذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ.

وقال حمَّاد بن سلمة، عن محمَّد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ قال: «ذَاكَ إِذَا قِيلَ لَهُ فِي الْقَبْرِ: مَنْ رَبُّكَ؟ وَمَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: رَبِّيَ اللهُ، وَدِينِيَ الإِسْلَامُ، وَنَبِيِّي مُحَمَّدٌ، جَاءَنَا بِالبَيِّنَاتِ مِنْ عِنْدِ اللهِ، فَآمَنْتُ بِهِ وَصَدَّقْتُ. فَيُقَالُ لَهُ: صَدَقْتَ، عَلَىٰ هَذَا عِشْتَ، وَعَلَيْهِ مِتَّ، وَعَلَيْهِ تُبْعَثُ»[٢].

وقال ابن جرير: حدَّثنا مجاهد بن موسىٰ والحسن بن محمَّد قالا: حدَّثنا يزيد، أنبأنا محمَّد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة: إن الميت ليسمع خفق نعالهم حين يولون عنه مدبرين، فإذا كان مؤمنًا كانت الصَّلاة عند رأسه، والزَّكاة عن يمينه، والصيام عن يساره، وكان فعل الخيرات من الصدقة والصلة والمعروف والإحسان إلىٰ الناس عند رجليه، فيؤتىٰ من عند رأسه فتقول الصلاة: ما قِبَلِي مدخل، فيؤتىٰ من عن يَمِينِه فتقول الزَّكاة: ما قبلي مدخل. فيؤتىٰ عن يساره فيقول الصيام: ما قِبَلي مَدخَلٌ. فيُؤْتَىٰ مِن عند رجليه فيقول فعل الخيرات: ما قِبَلي مدخل. فيقال له: اجلس.

فيجلس، قد [تَمثَّلت][٣] له الشمس، قد دنت للغروب، فيقال له: أخبرنا عما نسألك. فيقول: [دعوني][٤] حتىٰ أُصلِّيَ. فيقال: إنك ستفعل، فأخبرنا عما نسألك. فيقول: وعَمَّ تسألوني؟ فيقال: أرأيت هذا الرجل الذي كان فِيكُم، ماذا تقول فيه، وماذا تَشْهَد به عليه؟ فيقول: أَمُحمَّد؟ فيقال له: نعم. فيقول: أشهد أنَّه رسول الله، وأنَّه جاءنا بالبَيِّنَات من عند الله، فصدقناه. فيُقال له: علىٰ ذلك حَيِيتَ، وعلىٰ ذلك متَّ، وعلىٰ ذلك تُبعثُ إن شاء الله. ثم يُفْسَح له في قبره سبعون ذراعًا ويُنَوَّر له فيه، ويُفْتَح له بابٌ إلىٰ الجنَّة، فيُقال له: انظُر إلىٰ ما أَعَدَّ الله لك فيها. فيَزْدَاد غِبطةً [وسرورًا][٥] ثم يجعل نسمه في [النَّسم][٦] الطَّيِّب، [وهي][٧] طير خضر [تُعلَّق][٨] بشجر الجنَّة، ويُعادُ الجسد إلىٰ ما بدئ منه من التُّراب، وذلك قول الله: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾[٩].

ورواه ابن حبَّان، من طريق المعتمر بن سليمان، عن محمَّد بن عمرو، وذكر جواب الكافر وعذابه.

وقال البزار: حدَّثنا سعيد بن بحر القراطيسي، حدَّثنا الوليد بن القاسم، حدَّثنا يزيد بن كَيْسان، عن

---

(١) حسن: الترمذي (١٠٧١)، وانظر: «الصحيحة» للألباني (١٣٩١).
(٢) حسن: رواه ابن جرير (١٣/ ٢١٥)، ومحمَّد بن عمرو بن علقمة: صدوق.
(٣) في (ز): (مثلت)، والمثبت موافق لما في «الطبري».
(٤) في (ز): (دعني دعني)، والمثبت موافق لما في «الطبري».
(٥) سقط من (ز).
(٦) في (ز): (القسم).
(٧) في (ز): (وفي).
(٨) في (ز): (يعلق).
(٩) حسن كسابقه: رواه ابن جرير (١٣/ ٢١٥).

أبي حازم، عن أبي هريرة -أحسبه رفعه- قال: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ يَنْزِلُ بِهِ الْمَوْتُ، وَيُعَايِنُ مَا يُعَايِنُ، فَيَوَدُّ لَوْ خَرَجَتْ -يعني: نفسه- وَاللهُ يُحِبُّ لِقَاءَهُ، وَإِنَّ الْمُؤْمِنَ يُصْعَدُ بِرُوحِهِ إِلَى السَّمَاءِ، فَتَأْتِيهِ أَرْوَاحُ الْمُؤْمِنِينَ، فَتَسْتَخْبِرُهُ عَنْ مَعَارِفِهِمْ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ، فَإِذَا قَالَ: تَرَكْتُ فُلَانًا فِي الْأَرْضِ أَعْجَبَهُمْ ذَلِكَ. وَإِذَا قَالَ: إِنَّ فُلَانًا قَدْ مَاتَ، قَالُوا: مَا جِيءَ بِهِ إِلَيْنَا. وَإِنَّ الْمُؤْمِنَ يُجْلَسُ فِي قَبْرِهِ، فَيُسْأَلُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: رَبِّيَ اللهُ، وَيُسْأَلُ: مَنْ نَبِيُّكَ؟ فَيَقُولُ: مُحَمَّدٌ، نَبِيِّي فَيُقَالُ: مَاذَا دِينُكَ؟ قَالَ: دِينِيَ الْإِسْلَامُ. فَيُفْتَحُ لَهُ بَابٌ فِي قَبْرِهِ، فَيَقُولُ -أو: يُقَالُ- انْظُرْ إِلَى مَجْلِسِكَ. ثُمَّ يَرَى الْقَبْرَ فَكَأَنَّمَا كَانَتْ رَقْدَةً. وَإِذَا كَانَ عَدُوُّ اللهِ نَزَلَ بِهِ الْمَوْتُ وَعَايَنَ مَا عَايَنَ، فَإِنَّهُ لَا يُحِبُّ أَنْ تَخْرُجَ رُوحُهُ أَبَدًا، وَاللهُ يَبْغَضُ لِقَاءَهُ، فَإِذَا جَلَسَ فِي قَبْرِهِ -أو: أُجْلِسَ- يُقَالُ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: لَا أَدْرِي. فَيُقَالُ: لَا دَرَيْتَ. فَيُفْتَحُ لَهُ بَابٌ مِنْ جَهَنَّمَ، ثُمَّ يُضْرَبُ ضَرْبَةً يَسْمَعُهَا كُلُّ دَابَّةٍ إِلَّا الثَّقَلَيْنِ، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: نَمْ كَمَا يَنَامُ الْمَنْهُوشُ». قلتُ لأبي هريرة: ما المنهوش؟ قال: الذي تنهشه الدواب والحيات، ثم يُضيَّق عليه قبره[(١)].

ثم قال: لا نعلم رواه إلا الوليد بن [القاسم][(٢)].

وقال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: حدَّثنا حُجين بن المثنى، حدَّثنا عبد العزيز بن أبي سلمة المَاجِشُون، عن محمَّد بن المُنكَدِر قال: كانت أسماء -يعني بنت الصديق- رضي الله عنها تحدث عن النَّبيِّ ﷺ قالت: قال: «إِذَا دَخَلَ الْإِنْسَانُ قَبْرَهُ، فَإِنْ كَانَ مُؤْمِنًا أَحَفَّ بِهِ عَمَلُهُ: الصَّلَاةُ وَالصِّيَامُ» قال: «فَيَأْتِيهِ الْمَلَكُ مِنْ نَحْوِ الصَّلَاةِ فَتَرُدُّهُ، وَمِنْ نَحْوِ الصِّيَامِ فَيَرُدُّهُ» قال: «فَيُنَادِيهِ: اجْلِسْ. فَيَجْلِسُ. فَيَقُولُ لَهُ: مَاذَا تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ؟ -يَعْنِي النَّبِيَّ ﷺ- قَالَ: مَنْ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ. قَالَ: أَشْهَدُ أَنَّهُ رَسُولُ اللهِ، قَالَ: يَقُولُ: وَمَا يُدْرِيكَ؟ أَدْرَكْتَهُ؟ قَالَ: أَشْهَدُ أَنَّهُ رَسُولُ اللهِ. قَالَ: يَقُولُ: عَلَى ذَلِكَ عِشْتَ، وَعَلَيْهِ مِتَّ، وَعَلَيْهِ تُبْعَثُ. وَإِنْ كَانَ فَاجِرًا أَوْ كَافِرًا، جَاءَهُ الْمَلَكُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ شَيْءٌ يَرُدُّهُ، فَأَجْلَسَهُ يَقُولُ: اجْلِسْ، مَاذَا تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ؟ قَالَ: أَيُّ رَجُلٍ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ؟ قَالَ: يَقُولُ: وَاللهِ مَا أَدْرِي، سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ شَيْئًا فَقُلْتُهُ. قَالَ لَهُ الْمَلَكُ: عَلَى ذَلِكَ عِشْتَ، وَعَلَيْهِ مِتَّ، وَعَلَيْهِ تُبْعَثُ. قَالَ: [وَتُسَلَّطُ][(٣)] عَلَيْهِ دَابَّةٌ فِي قَبْرِهِ، مَعَهَا سَوْطٌ ثَمَرَتُه جَمْرَةٌ مِثْلُ [غَرْبِ][(٤)][(٥)] الْبَعِيرِ، تَضْرِبُهُ مَا شَاءَ اللهُ، صَمَّاءُ لَا تَسْمَعُ صَوْتَهُ فَتَرْحَمَهُ»[(٦)].

وقال العوفي، عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما في هذه الآية قال: إنَّ المؤمن إذا حضرَه الموت شهدته الملائكة،

---

(١) رواه البزار (١/ ٤١٣١-كشف الأستار)، قال الهيثمي في «المجمع» (٣/ ٥٥): في الصحيح طرف منه، رواه البزار ورجاله ثقات خلا سعد بن بحر القراطيسي، فإني لم أعرفه. وقال محققو طبعة أولاد الشيخ: (تعقبه ابن حجر في «مختصر الزوائد» فقال: وهو موثَّق، ولم ينفرد به). قلت: رواه الطبري في «تهذيب الآثار» (٢/ ٢١٦)، (٣/ ٥٠٣) من طرق عن الوليد به، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٢٦٣٨).

(٢) في (ز): (مسلم)، وهو خطأ.

(٣) في (ز): (ويسلط)، والمثبت موافق لما في «المسند».

(٤) في (ز): (عرق)، والمثبت موافق لما في «المسند».

(٥) الغرب: الدلو العظيمة.

(٦) صحيح: رواه أحمد (٦/ ٣٥٢).

فسلَّموا عليه وبشَّروه بالجنة، فإذا مات مَشوا مع جنازته، ثم صَلّوا عليه مع النَّاس، فإذا دُفِن أُجْلِس في قبره فيُقَال له: من ربك؟ فيقول: رَبِّي الله. فيقال له: من رسولك؟ فيقول: محمَّد ﷺ. فيقال له: ما شهادتك؟ فيقول: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أنَّ محمَّدًا رسول الله. فيوسَّع له في قبره مَدَّ بَصَره. وأمَّا الكافر فتنزل عليه الملائكة، فيَبْسُطُون أيديهم -«والبسط»: هو الضرب- يضربون وجوههم وأدبارهم عند الموت. فإذا أُدْخِلَ قبره أُقْعِد، فقيل له: من ربك؟ فلم يَرْجِع إليهم شيئًا، وأنساه الله ذكر ذلك. وإذا قيل: من الرَّسول الذي بُعثَ إليك؟ لم [يهتد](١) له، ولم يرجع إليه شيئًا، كذلك يضل الله الظالمين(٢).

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أحمد بن عثمان بن حكيم [الأَوْدي](٣)، حدَّثنا شريح بن مسلمة، حدَّثنا إبراهيم بن يوسف، عن أبيه، عن أبي إسحاق، عن عامر بن سعد البَجَلِي، عن أبي قتادة الأنصاري في قوله تعالىٰ: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ الآية، قال: إن المؤمن إذا مات أُجلِسَ في قبره، فيقال له: مَن ربك؟ فيقول: الله. فيقال له: مَن نبيك؟ فيقول: محمَّد بن عبد الله. فيقال له في ذلك مرات. ثم يُفْتَح له بابٌ إلىٰ النَّار، فيقال له: انظر إلىٰ منزلِكَ في النَّار لو زُغْت ثم يُفْتَحُ له باب إلىٰ الجنة، فيقال له: انظر إلىٰ منزلك [من الجنة إِذْ ثَبَتَّ. وإذا مات الكافر أُجلِس في قبره، فيُقَال له: مَن ربك؟ مَن نبيك؟ فيقول: لا أدري، كنت أسمع الناس يقولون. فيقال له: لا دريت. ثم يفتح له باب إلىٰ الجنة، فيقال له: انظر إلىٰ منزلك](٤) لو ثَبَتَّ، ثم يفتح له باب إلىٰ النار، فيقال له: انظر إلىٰ منزلك إذ زُغتَ، فذلك قوله تعالىٰ: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾(٥).

وقال عبد الرزَّاق، عن معمر، عن ابن طاوس، عن أبيه: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ قال: لا إله إلا الله، ﴿وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ المسألة في القبر.

وقال قتادة: أما الحياة الدنيا فيثبتهم بالخير والعمل الصالح، ﴿وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ في القبر. وكذا روي عن غير واحدٍ من السلف.

وقال أبو عبد الله الحكيم الترمذي في كتابه «نوادر الأصول»: حدَّثنا أبي، حدَّثنا عبد الله بن نافع، عن ابن أبي فُدَيْك، عن عبد الرحمن بن عبد الله، عن سعيد بن المسيب، عن عبد الرحمن بن سمرة قال: خرج علينا رسول الله ﷺ ذات يوم، ونحن في مسجد المدينة، فقال: «إِنِّي رَأَيْتُ البَارِحَةَ عَجَبًا، رَأَيْتُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتي [جَاءَهُ مَلَكُ المَوْتِ لِيَقْبِضَ رُوحَهُ، فَجَاءَهُ بِرُّهُ بِوَالِدَيْهِ فَرَدَّ عَنْهُ. وَرَأَيْتُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتي](٦) قَدْ بُسِطَ عَلَيْهِ

---

(١) في (ز): (يهش).

(٢) في الإسناد عطية العوفي، وهو شيعي مدلس، ولكن الأثر يشهد له ما تقدم من الأحاديث.

(٣) في (ز): (الأزدي)، وهو خطأ.

(٤) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

(٥) عزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٣٠)، إلىٰ ابن أبي حاتم (١٢٢٦٦) رواه الطبراني في «الأوسط» (١٣٤٧)، وفيه عامر بن سعد البجلي: مقبول، لكن يشهد لهذا الأثر ما تقدم.

(٦) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

عَذَابُ القَبْرِ، فَجَاءَهُ وُضُوءُهُ فَاسْتَنْقَذَهُ مِنْ ذَلِكَ. وَرَأَيْتُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي قَدْ احْتَوَشَتْهُ الشَّيَاطِينُ(١)، فَجَاءَهُ ذِكْرُ اللهِ فَخَلَّصَهُ مِنْ بَيْنِهِمْ. وَرَأَيْتُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي قَدِ احْتَوَشَتْهُ مَلَائِكَةُ العَذَابِ، فَجَاءَتْهُ صَلَاتُهُ فَاسْتَنْقَذَتْهُ مِنْ أَيْدِيهِمْ. وَرَأَيْتُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي يَلْهَثُ عَطَشًا، كُلَّمَا وَرَدَ حَوْضًا مُنِعَ مِنْهُ، فَجَاءَهُ صِيَامُهُ فَسَقَاهُ وَأَرْوَاهُ. وَرَأَيْتُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي وَالنَّبِيُّونَ قُعُودٌ حِلَقًا حِلَقًا، وَكُلَّمَا دَنَا لِحَلْقَةٍ طَرَدُوهُ، فَجَاءَهُ اغْتِسَالُهُ مِنَ الجَنَابَةِ، فَأَخَذَ بِيَدِهِ فَأَقْعَدَهُ إِلَىٰ جَنْبِي. وَرَأَيْتُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي [مِنْ](٢) بَيْنِ يَدَيْهِ ظُلْمَةٌ، وَمِنْ خَلْفِهِ ظُلْمَةٌ، وَعَنْ يَمِينِهِ ظُلْمَةٌ، وَعَنْ شِمَالِهِ ظُلْمَةٌ، وَمِنْ فَوْقِهِ ظُلْمَةٌ، وَمِنْ تَحْتِهِ ظُلْمَةٌ، وَهُوَ مُتَحَيِّرٌ فِيهَا، فَجَاءَتْهُ حِجَّتُهُ وَعُمْرَتُهُ، فَاسْتَخْرَجَاهُ مِنَ الظُّلْمَةِ وَأَدْخَلَاهُ النُّورَ، وَرَأَيْتُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي يُكَلِّمُ المُؤْمِنِينَ فَلَا يُكَلِّمُونَهُ، فَجَاءَتْهُ صِلَةُ الرَّحِمِ، فَقَالَتْ: يَا مَعْشَرَ المُؤْمِنِينَ، كَلِّمُوهُ، فَكَلَّمُوهُ. وَرَأَيْتُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي يَتَّقِي وَهَجَ النَّارِ أَوْ شَرَرَهَا بِيَدِهِ عَنْ وَجْهِهِ، فَجَاءَتْهُ صَدَقَتُهُ فَصَارَتْ سِتْرًا عَلَىٰ وَجْهِهِ وَظِلًّا عَلَىٰ رَأْسِهِ. وَرَأَيْتُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي قَدْ أَخَذَتْهُ الزَّبَانِيَةُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، فَجَاءَهُ أَمْرُهُ بِالمَعْرُوفِ وَنَهْيُهُ عَنِ المُنْكَرِ، فَاسْتَنْقَذَاهُ مِنْ أَيْدِيهِمْ، وَأَدْخَلَاهُ مَعَ مَلَائِكَةِ الرَّحْمَةِ. وَرَأَيْتُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي جَاثِيًا عَلَىٰ رُكْبَتَيْهِ، بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللهِ حِجَابٌ، فَجَاءَهُ حُسْنُ خُلُقِهِ، فَأَخَذَ بِيَدِهِ فَأَدْخَلَهُ عَلَىٰ اللهِ ﷻ. وَرَأَيْتُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي قَدْ هَوَتْ صَحِيفَتُهُ مِنْ قِبَلِ شِمَالِهِ، فَجَاءَهُ خَوْفُهُ مِنَ اللهِ فَأَخَذَ صَحِيفَتَهُ، فَجَعَلَهَا فِي يَمِينِهِ. وَرَأَيْتُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي [قَدْ خَفَّ مِيزَانُهُ، فَجَاءَتْهُ أَفْرَاطُهُ(٣) فَثَقَّلُوا مِيزَانَهُ وَرَأَيْتُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي](٤) قَائِمًا عَلَىٰ شَفِيرِ جَهَنَّمَ، فَجَاءَهُ وَجَلُهُ مِنَ اللهِ، فَاسْتَنْقَذَهُ مِنْ ذَلِكَ وَمَضَىٰ. وَرَأَيْتُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي هَوَىٰ فِي النَّارِ، فَجَاءَتْهُ دُمُوعُهُ الَّتِي بَكَىٰ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ فِي الدُّنْيَا فَاسْتَخْرَجَتْهُ مِنَ النَّارِ، [وَرَأَيْتُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي قَائِمًا عَلَىٰ الصِّرَاطِ يُرْعَدُ كَمَا تُرْعَدُ السَّعَفَةُ، فَجَاءَ حُسْنُ ظَنِّهِ بِاللهِ، فَسَكَّنَ رِعْدَتَهُ، وَمَضَىٰ](٥) وَرَأَيْتُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي عَلَىٰ الصِّرَاطِ يَزْحَفُ أَحْيَانًا وَيَحْبُو أَحْيَانًا، فَجَاءَتْهُ صَلَاتُهُ عَلَيَّ، فَأَخَذَتْ بِيَدِهِ فَأَقَامَتْهُ وَمَضَىٰ عَلَىٰ الصِّرَاطِ. وَرَأَيْتُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي انْتَهَىٰ إِلَىٰ أَبْوَابِ الجَنَّةِ، فَغُلِّقَتِ الأَبْوَابُ دُونَهُ، فَجَاءَتْهُ شَهَادَةُ: أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَفَتَحَتْ لَهُ الأَبْوَابَ وَأَدْخَلَتْهُ الجَنَّةَ»(٦).

---

(١) احتوش القومُ فلانًا: جعلوه وَسْطَهم.

(٢) سقط من (ز).

(٣) أفراطه: أولاده الذين ماتوا ولم يدركوا.

(٤) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

(٥) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

(٦) ضعفه الألباني: رواه الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» (الأصل مائتان وخمسون) (٣/ ٢٣١) ورواه ابن شاهين في «الترغيب» (٥٢٦)، وابن بشران في «الأمالي» (٢٤٩)، ولا يخلو أسانيده من ضعف، لذا قال الألباني: منكر جدًّا. اضطرب فيه الرواة سندًا ومتنًا، واتفق الحفاظ المتقدمون ومن سار علىٰ سيرهم من المتأخرين علىٰ استنكاره وتضعيفه، وخالفهم بعض المتأخرين، ثم شرع في الرد علىٰ من صححه. انظر: «ضعيف الجامع» (٢٠٨٥)، و«السلسلة الضعيفة» (٧١٢٩).

وقال ابن القيم: «سمعت شيخ الإسلام يعظِّم أمر هذا الحديث، وقال: أصول السنة تشهد له، وهو من أحسن الأحاديث، انظر: «الروح» (ص٨٣). قلت: ومقصوده بذلك التحسين اللغوي لا الاصطلاحي، والله أعلم.

قلت: لكن من حيث الإسناد فهو ضعيف كما ذكر الشيخ الألباني.

قال القرطبي بعد إيراده هذا الحديث من هذا الوجه: هذا حديث عظيم، ذكَرَ فيه أعمالًا خاصَّةً تنجي من أهوالٍ خاصةٍ. أورده هكذا في كتابه «التذكرة».

وقد رویٰ الحافظ أبو يعلىٰ الموصلي في هذا حديثًا غريبًا مطولًا فقال: حدَّثنا أبو [عبد الله][(١)] أحمد بن إبراهيم النُّكْرِي، حدَّثنا محمَّد بن بكر البُرْساني أبو عثمان، حدَّثنا أبو عاصم الحَبَطِي - وكان من خيار أهل البصرة، وكان من أصحاب حزم، وسلام بن أبي مطيع- حدَّثنا بكر بن [خُنَيْس][(٢)]، عن ضِرَار بن عمرو، عن يزيد الرَّقَاشي، عن أنس بن مالك، عن تميم الداري، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «يَقُولُ اللهُ ﷻ لِمَلَكِ المَوْتِ: انْطَلِقْ إِلَىٰ وَلِيِّي فَأْتِنِي بِهِ، فَإِنِّي قَدْ ضَرَبْتُهُ بِالسَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ، فَوَجَدْتُهُ حَيْثُ أُحِبُّ. ائْتِنِي بِهِ [فَلَأُرِيحَنَّهُ][(٣)]. فَيَنْطَلِقُ إِلَيْهِ مَلَكُ المَوْتِ وَمَعَهُ خَمْسُمِائَةٍ مِنَ المَلَائِكَةِ، مَعَهُمْ أَكْفَانٌ وَحَنُوطٌ مِنَ الجَنَّةِ، وَمَعَهُمْ ضَبَائِرُ[(٤)] الرَّيْحَانِ، أَصْلُ الرَّيْحَانَةِ وَاحِدٌ وَفِي رَأْسِهَا عِشْرُونَ لَوْنًا، لِكُلِّ لَوْنٍ مِنْهَا رِيحٌ سِوَىٰ رِيحِ صَاحِبِهِ، وَمَعَهُمُ الحَرِيرُ الأَبْيَضُ فِيهِ المِسْكُ الأَذْفَرُ[(٥)]. فَيَجْلِسُ مَلَكُ المَوْتِ عِنْدَ رَأْسِهِ، وَ[تَحُفُّ][(٦)] بِهِ المَلَائِكَةُ. وَيَضَعُ كُلُّ مَلَكٍ مِنْهُمْ يَدَهُ عَلَىٰ عُضْوٍ مِنْ أَعْضَائِهِ وَيُبْسَطُ ذَلِكَ الحَرِيرُ الأَبْيَضُ وَالمِسْكُ الأَذْفَرُ تَحْتَ ذَقَنِهِ، وَيُفْتَحُ لَهُ بَابٌ إِلَىٰ الجَنَّةِ، فَإِنَّ نَفْسَهُ لَتعَلَّلُ[(٧)] عِنْدَ ذَلِكَ بِطَرَفِ الجَنَّةِ تَارَةً، وَبِأَزْوَاجِهَا مَرَّةً وَمَرَّةً بِكِسْوَاتِهَا وَمَرَّةً بِثِمَارِهَا، كَمَا يُعَلَّلُ الصَّبِيَّ أَهْلُهُ إِذَا بَكَىٰ». قال: «وَإِنَّ أَزْوَاجَهُ [لَيَبْتَهِشْنَ][(٨)] عِنْدَ ذَلِكَ ابْتِهَاشًا»[(٩)].

قال: «وَتَنْزُو الرُّوحُ». قال البُرْساني: يريد أن تخرج من العَجَل إلىٰ ما تحب. قال: «وَيَقُولُ مَلَكُ المَوْتِ: اخْرُجِي يَا أَيَّتُهَا الرُّوحُ الطَّيِّبَةُ، إِلَىٰ سِدْرٍ مَخْضُودٍ، وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ، وَظِلٍّ مَمْدُودٍ، وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ». قال: «وَلَمَلَكُ المَوْتِ أَشَدُّ بِهِ لُطْفًا مِنَ الوَالِدَةِ بِوَلَدِهَا، يَعْرِفُ أَنَّ ذَلِكَ الرُّوحَ حَبِيبٌ لِرَبِّهِ، فَهُوَ يَلْتَمِسُ بِلُطْفِهِ تَحَبُّبًا لَدَيْهِ رِضَاءً لِلرَّبِّ عَنْهُ، فَتُسَلُّ رُوحُهُ كَمَا تُسَلُّ الشَّعَرَةُ مِنَ العَجِينِ». قال: وقال الله ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ﴾ [النحل: ٣٢]، وقال: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾ [الواقعة: ٨٨، ٨٩]، قال: «رَوْحٌ مِنْ جِهَةِ المَوْتِ، وَرَيْحَانٌ يُتَلَقَّىٰ بِهِ، وَجَنَّةُ نَعِيمٍ [تُقَابِلُهُ][(١٠)]». قال: «فَإِذَا قَبَضَ مَلَكُ المَوْتِ رُوحَهُ، قَالَتِ الرُّوحُ لِلْجَسَدِ: جَزَاكَ اللهُ عَنِّي خَيْرًا، فَقَدْ كُنْتَ سَرِيعًا بِي إِلَىٰ طَاعَةِ اللهِ، بَطِيئًا بِي عَنْ

---

(١) في (ز): (عبد الرحمن).

(٢) في (ز): (حبيش)، والمثبت هو الصواب.

(٣) في (ز): (فلأريحه).

(٤) الضبائر: جمع ضُبارة، وهي: الباقة والحُزْمة.

(٥) المسك الأذفر: الجيد إلىٰ الغاية.

(٦) في (ز): كلمة غير منقوطة وغير واضحة، والأقرب أنها «تحتويه» ؛ كما في «الهداية إلىٰ بلوغ النهاية» لمكيِّ بن أبي طالب (٦/ ٣٩٨٣)، وفي «الدر المنثور» (٨/ ٣٢): «تحتوشه»، وقد أثبتها في «الشعب» من الطبعات السابقة وقرأها «يحفو به».

(٧) أي: تتشاغل.

(٨) في (ز): (ليبتشهن)، وهو خطأ.

(٩) أي: يسرعن إليه، يقال للإنسان إذا نظر إلىٰ الشيء فأعجبه واشتهاه وأسرع نحوه: قد بَهَش إليه.

(١٠) في (ز): (مقابله).

مَعْصِيَةِ اللهِ، فَقَدْ نَجَيْتَ وَأَنْجَيْتَ». قال: «وَيَقُولُ الجَسَدُ لِلرُّوحِ مِثْلَ ذَلِكَ».

قال: «وَتَبْكِي عَلَيْهِ بِقَاعُ الأَرْضِ الَّتِي كَانَ يُطِيعُ اللهَ فِيهَا، وَكُلُّ بَابٍ مِنَ السَّمَاءِ يَصْعَدُ مِنْهُ عَمَلُهُ. وَيَنْزِلُ مِنْهُ رِزْقُهُ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً».

قال: «إِذَا قَبَضَ مَلَكُ المَوْتِ رُوحَهُ، أَقَامَتِ الخَمْسُمِائَةِ مِنَ المَلَائِكَةِ عِنْدَ جَسَدِهِ، فَلَا يَقْلِبُهُ بَنُو آدَمَ لِشِقٍّ إِلَّا قَلَبَتْهُ المَلَائِكَةُ قَبْلَهُمْ، وَغَسَّلَتْهُ وَكَفَّنَتْهُ بِأَكْفَانٍ قَبْلَ أَكْفَانِ بَنِي آدَمَ، وَحَنُوطٍ قَبْلَ حَنُوطِ بَنِي آدَمَ، وَيَقُومُ مِنْ بَيْنِ بَابِ بَيْتِهِ إِلَىٰ بَابِ قَبْرِهِ صَفَّانِ مِنَ المَلَائِكَةِ، يَسْتَقْبِلُونَهُ بِالاسْتِغْفَارِ، فَيَصِيحُ عِنْدَ ذَلِكَ إِبْلِيسُ صَيْحَةً تَتَصَدَّعُ مِنْهَا عِظَامُ جَسَدِهِ». قال: «وَيَقُولُ لِجُنُودِهِ: الوَيْلُ لَكُمْ. كَيْفَ خَلَصَ هَذَا العَبْدُ مِنْكُمْ، فَيَقُولُونَ إِنَّ هَذَا كَانَ عَبْدًا مَعْصُومًا».

قال: «فَإِذَا صَعِدَ مَلَكُ المَوْتِ بِرُوحِهِ، يَسْتَقْبِلُهُ جِبْرِيلُ فِي سَبْعِينَ أَلْفًا مِنَ المَلَائِكَةِ، كُلٌّ يَأْتِيهِ بِبِشَارَةٍ مِنْ رَبِّهِ سِوَىٰ بِشَارَةِ صَاحِبِهِ». قال: «فَإِذَا انْتَهَىٰ مَلَكُ المَوْتِ بِرُوحِهِ إِلَىٰ العَرْشِ، خَرَّ الرُّوحُ سَاجِدًا». قال: «يَقُولُ اللهُ ﷻ لِمَلَكِ المَوْتِ: انْطَلِقْ بِرُوحِ عَبْدِي فَضَعْهُ فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ، وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ، وَظِلٍّ مَمْدُودٍ، وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ».

قال: «فَإِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ، جَاءَتْهُ الصَّلَاةُ فَكَانَتْ عَنْ يَمِينِهِ، وَجَاءَهُ الصِّيَامُ فَكَانَ عَنْ يَسَارِهِ، وَجَاءَهُ القُرْآنُ فَكَانَ عِنْدَ رَأْسِهِ، وَجَاءَهُ مَشْيُهُ إِلَىٰ الصَّلَاةِ فَكَانَ عِنْدَ رِجْلَيْهِ، وَجَاءَهُ الصَّبْرُ فَكَانَ نَاحِيَةَ القَبْرِ». قال: «فَيَبْعَثُ اللهُ ﷻ عُنُقًا(١) مِنَ العَذَابِ». قال: «[فَيَأْتِيهِ](٢) عَنْ يَمِينِهِ» قال: «فَتَقُولُ الصَّلَاةُ: وَرَاءَكَ؛ وَاللهِ مَا زَالَ دَائِبًا عُمُرَهُ كُلَّهُ وَإِنَّمَا اسْتَرَاحَ الآنَ حِينَ وُضِعَ فِي قَبْرِهِ». قال: «فَيَأْتِيهِ عَنْ يَسَارِهِ، فَيَقُولُ الصِّيَامُ مِثْلَ ذَلِكَ». قال: «ثُمَّ يَأْتِيهِ مِنْ عِنْدِ رَأْسِهِ، فَيَقُولُ القُرْآنُ وَالذِّكْرُ مِثْلَ ذَلِكَ». قال: «ثُمَّ يَأْتِيهِ مِنْ عِنْدِ رِجْلَيْهِ، فَيَقُولُ مَشْيُهُ إِلَىٰ الصَّلَاةِ مِثْلَ ذَلِكَ. فَلَا يَأْتِيهِ العَذَابُ مِنْ نَاحِيَةٍ يَلْتَمِسُ هَلْ يَجِدُ إِلَيْهِ مَسَاغًا، إِلَّا وَجَدَ وَلِيَّ اللهِ قَدْ أَخَذَ جُنَّتَهُ». قال: «فَيَنْقَمِعُ العَذَابُ عِنْدَ ذَلِكَ فَيَخْرُجُ». قال: «وَيَقُولُ الصَّبْرُ لِسَائِرِ الأَعْمَالِ: أَمَا إِنَّهُ لَمْ يَمْنَعْنِي أَنْ أُبَاشِرَ أَنَا بِنَفْسِي إِلَّا أَنِّي نَظَرْتُ مَا عِنْدَكُمْ، فَإِنْ عَجَزْتُمْ كُنْتُ أَنَا صَاحِبَهُ، فَأَمَّا إِذْ أَجْزَأْتُمْ عَنْهُ فَأَنَا لَهُ ذُخْرٌ عِنْدَ الصِّرَاطِ وَالمِيزَانِ».

قال: «وَيَبْعَثُ [اللهُ](٣) مَلَكَيْنِ أَبْصَارُهُمَا كَالبَرْقِ الخَاطِفِ، وَأَصْوَاتُهُمَا كَالرَّعْدِ القَاصِفِ، وَأَنْيَابُهُمَا كَالصَّيَاصِي، وَأَنْفَاسُهُمَا كَاللَّهَبِ، [يَطَآنِ](٤) فِي أَشْعَارِهِمَا(٥)، بَيْنَ مَنْكِبِ كُلِّ وَاحِدٍ مَسِيرَةُ كَذَا وَكَذَا، وَقَدْ نُزِعَتْ مِنْهُمَا الرَّأْفَةُ وَالرَّحْمَةُ، يُقَالُ لَهُمَا: مُنْكَرٌ وَنَكِيرٌ، فِي يَدِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِطْرَقَةٌ، لَوِ اجْتَمَعَ عَلَيْهَا رَبِيعَةُ وَمُضَرُ لَمْ يُقِلُّوهَا(٦)». قال: «فَيَقُولَانِ لَهُ: اجْلِسْ». قال: «فَيَجْلِسُ فَيَسْتَوِي جَالِسًا». قال:

---

(١) أي: قطعة منه. (٢) في (ز): (فتأتيه). (٣) سقط من (ز).
(٤) في (ز): (يطنان). (٥) يعني: أن شعور الملكين طويلة إلىٰ الأرض.
(٦) أي: لم يرفعوها.

«وَتَقَعُ أَكْفَانُهُ فِي حِقْوَيْهِ(١)». قال: «فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ وَمَا دِينُكَ؟ وَمَنْ نَبِيُّكَ؟».

قال: قالوا: يا رسول الله، ومن [يطيق](٢) الكلام عند ذلك، وأنت تصف من المَلَكين ما تصف؟ قال: فقال رسول الله ﷺ: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ قال: «فَيَقُولُ: رَبِّيَ اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، وَدِينِيَ الإِسْلَامُ الَّذِي دَانَتْ بِهِ المَلَائِكَةُ، وَنَبِيِّي مُحَمَّدٌ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ». قال: «فَيَقُولَانِ: صَدَقْتَ». قال: «فَيَدْفَعَانِ القَبْرَ، فَيُوَسِّعَانِ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ أَرْبَعِينَ ذِرَاعًا، وَعَنْ يَمِينِهِ أَرْبَعِينَ ذِرَاعًا، وَعَنْ شِمَالِهِ أَرْبَعِينَ ذِرَاعًا، وَمِنْ خَلْفِهِ أَرْبَعِينَ ذِرَاعًا، وَمِنْ عِنْدِ رَأْسِهِ أَرْبَعِينَ ذِرَاعًا، وَمِنْ عِنْدِ رِجْلَيْهِ أَرْبَعِينَ ذِرَاعًا». قال: «فَيُوَسِّعَانِ لَهُ مِائَتَيْ ذِرَاعٍ».

قال البُرْساني: فأحسبه: «وَأَرْبَعِينَ ذِرَاعًا [تُحَاطُ بِهِ»](٣).

قال: «ثُمَّ يَقُولَانِ لَهُ: انْظُرْ فَوْقَكَ، فَإِذَا بَابٌ مَفْتُوحٌ إِلَى الجَنَّةِ». قال: «فَيَقُولَانِ لَهُ: وَلِيَّ اللهِ، هَذَا مَنْزِلُكَ إِذْ أَطَعْتَ اللهَ». فقال رسول الله ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ إِنَّهُ يَصِلُ إِلَى قَلْبِهِ عِنْدَ ذَلِكَ فَرْحَةٌ، وَلا تَرْتَدُّ أَبَدًا، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: انْظُرْ [إِلَى](٤) تَحْتِكَ». قال: «فَيَنْظُرُ تَحْتَهُ فَإِذَا بَابٌ مَفْتُوحٌ إِلَى النَّارِ» قال: «فَيَقُولَانِ: وَلِيَّ اللهِ نَجَوْتَ آخِرَ مَا عَلَيْكَ». قال: فقال رسول الله ﷺ: «إِنَّهُ [لَيَصِلُ](٥) إِلَى قَلْبِهِ عِنْدَ ذَلِكَ فَرْحَةٌ لا تَرْتَدُّ أَبَدًا».

قال: فقالت عائشة: يفتح له سبعة وسبعون بابًا إلى الجنَّة، يأتيه ريحها وبردها، حتى يبعثه الله ﷻ(٦).

وبالإسناد المتقدم إلى النَّبيِّ ﷺ قال: «وَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى لِمَلَكِ المَوْتِ: انْطَلِقْ إِلَى عَدُوِّي فَأْتِنِي بِهِ، فَإِنِّي قَدْ بَسَطْتُ لَهُ رِزْقِي، وَيَسَّرْتُ لَهُ نِعْمَتِي، فَأَبَى إِلَّا مَعْصِيَتِي، فَأْتِنِي بِهِ لِأَنْتَقِمَ [مِنْهُ](٧)».

قال: «فَيَنْطَلِقُ إِلَيْهِ مَلَكُ المَوْتِ فِي أَكْرَهِ صُورَةٍ مَا رَآهَا أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ قَطُّ، لَهُ [اثْنَتَا عَشْرَةَ](٨) عَيْنًا، وَمَعَهُ سَفُّودٌ مِنَ النَّارِ كَثِيرُ الشَّوْكِ، وَمَعَهُ خَمْسُمِائَةٍ مِنَ المَلَائِكَةِ، مَعَهُمْ نُحَاسٌ وَجَمْرٌ مِنْ جَمْرِ جَهَنَّمَ، وَمَعَهُمْ سِيَاطٌ مِنْ نَارٍ، لِينُهَا لِينُ السِّيَاطِ وَهِيَ نَارٌ تَأَجَّجُ». قال: «فَيَضْرِبُهُ مَلَكُ المَوْتِ بِذَلِكَ السَّفُّودِ ضَرْبَةً يَغِيبُ كُلُّ أَصْلِ شَوْكَةٍ مِنْ ذَلِكَ السَّفُّودِ فِي أَصْلِ كُلِّ شَعَرَةٍ وَعِرْقٍ وَظُفْرٍ». قال: «ثُمَّ يَلْوِيهِ لَيًّا شَدِيدًا». قال: «فَيَنْزِعُ رُوحَهُ مِنْ أَظْفَارِ قَدَمَيْهِ». قال: «فَيُلْقِيهَا فِي [عَقِبَيْهِ](٩) ثُمَّ يَسْكَرُ عِنْدَ ذَلِكَ عَدُوُّ اللهِ سَكْرَةً، فَيُرَفِّهُ مَلَكُ المَوْتِ عَنْهُ». قال: «وَتَضْرِبُ المَلَائِكَةُ وَجْهَهُ وَدُبُرَهُ [بِتِلْكَ](١٠) السِّيَاطِ». [قال: «فَيَشُدُّهُ مَلَكُ المَوْتِ شَدَّةً، فَيَنْزِعُ رُوحَهُ مِنْ عَقِبَيْهِ، فَيُلْقِيهَا فِي رُكْبَتَيْهِ، ثُمَّ يَسْكَرُ عَدُوُّ اللهِ عِنْدَ ذَلِكَ سَكْرَةً، فَيُرَفِّهُ مَلَكُ المَوْتِ عَنْهُ». قال:

---

(١) الحِقو: الخصر. (٢) في (ز): (يطق). (٣) في (ز): (يحاط).

(٤) سقط من (ز). (٥) في (ز): (لا يصل).

(٦) ضعيف: وعزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٨/ ٣٢) إلى ابن أبي الدنيا في «ذكر الموت» وأبي يعلى، وعزاه الحافظ ابن حجر في «المطالب العالية» (٤٥٥١) إلى أبي يعلى وضعفه. وعلته يزيد الرقاشي، وانظر تعليق ابن كثير بعد إيراده للحديث.

(٧) سقط من (ز). (٨) في (ز): (اثني عشر). (٩) في (ز): (ركبتيه).

(١٠) في (ز) مضروب على هذه الكلمة والسياق لا يحسن بدونها.

«فَتَضْرِبُ المَلَائِكَةُ وَجْهَهُ وَدُبُرَهُ بِتِلْكَ السِّيَاطِ»](١) قال: «ثُمَّ يَنْتُرُهُ(٢) مَلَكُ المَوْتِ نَتْرَةً، فَيَنْزِعُ رُوحَهُ مِنْ [عَقِبَيْهِ](٣) فَيُلْقِيهَا فِي [رُكْبَتَيْهِ، فَيُلْقِيهَا فِي حِقْوَيْهِ](٤)». قال: «فَيَسْكَرُ عَدُوُّ اللهِ عِنْدَ ذَلِكَ سَكْرَةً، فَيُرَفِّهُ مَلَكُ المَوْتِ عَنْهُ». قال: «وَتَضْرِبُ المَلَائِكَةُ وَجْهَهُ وَدُبُرَهُ بِتِلْكَ السِّيَاطِ». قال: «كَذَلِكَ إِلَىٰ صَدْرِهِ، ثُمَّ كَذَلِكَ إِلَىٰ حَلْقِهِ». قال: «ثُمَّ تَبْسُطُ المَلَائِكَةُ ذَلِكَ النُّحَاسَ وَجَمْرَ جَهَنَّمَ تَحْتَ ذَقَنِهِ». قال: «وَيَقُولُ مَلَكُ المَوْتِ: اخْرُجِي أَيَّتُهَا الرُّوحُ اللَّعِينَةُ المَلْعُونَةُ إِلَىٰ سَمُومٍ وَحَمِيمٍ، وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ، لا بَارِدٍ وَلا كَرِيمٍ».

قال: «فَإِذَا قَبَضَ مَلَكُ المَوْتِ رُوحَهُ قَالَ الرُّوحُ لِلْجَسَدِ: جَزَاكَ اللهُ عَنِّي شَرًّا، فَقَدْ كُنْتَ سَرِيعًا بِي إِلَىٰ مَعْصِيَةِ اللهِ، بَطِيئًا بِي عَنْ طَاعَةِ اللهِ، فَقَدْ هَلَكْتَ وَأَهْلَكْتَ» قال: «وَيَقُولُ الجَسَدُ لِلرُّوحِ مِثْلَ ذَلِكَ، وَتَلْعَنُهُ بِقَاعُ الأَرْضِ الَّتِي كَانَ يَعْصِي اللهَ عَلَيْهَا، وَتَنْطَلِقُ جُنُودُ إِبْلِيسَ إِلَيْهِ فَيُبَشِّرُونَهُ بِأَنَّهُمْ قَدْ أَوْرَدُوا عَبْدًا مِنْ وَلَدِ آدَمَ النَّارَ».

قال: «فَإِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ ضُيِّقَ عَلَيْهِ قَبْرُهُ حَتَّىٰ تَخْتَلِفَ أَضْلَاعُهُ، حَتَّىٰ تَدْخُلَ اليُمْنَىٰ فِي اليُسْرَىٰ، واليُسْرَىٰ فِي اليُمْنَىٰ» قال: «وَيَبْعَثُ اللهُ إِلَيْهِ أَفَاعِيَ دُهْمًا كَأَعْنَاقِ الإِبِلِ [يَأْخُذْنَ](٥) بِأَرْنَبَتِهِ(٦) وَإِبْهَامَيْ قَدَمَيْهِ فَيَقْرِضْنَهُ حَتَّىٰ يَلْتَقِينَ فِي وَسَطِهِ».

قال: «وَيَبْعَثُ اللهُ مَلَكَيْنِ أَبْصَارُهُمَا كَالبَرْقِ الخَاطِفِ، وَأَصْوَاتُهُمَا كَالرَّعْدِ القَاصِفِ، وَأَنْيَابُهُمَا كَالصَّيَاصِي، وَأَنْفَاسُهُمَا كَاللَّهَبِ يَطَآنِ فِي أَشْعَارِهِمَا، بَيْنَ مَنْكِبَيْ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مَسِيرَةُ كَذَا وَكَذَا، قَدْ نُزِعَتْ مِنْهُمَا الرَّأْفَةُ وَالرَّحْمَةُ، يُقَالُ لَهُمَا: مُنْكَرٌ وَنَكِيرٌ، فِي يَدِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِطْرَقَةٌ، لَوِ اجْتَمَعَ عَلَيْهَا رَبِيعَةُ وَمُضَرُ لَمْ يُقِلُّوهَا» قال: «فَيَقُولَانِ لَهُ: اجْلِسْ». قال: «فَيَسْتَوِي جَالِسًا» قال: «وَتَقَعُ أَكْفَانُهُ فِي حِقْوَيْهِ» قال: «فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ وَمَا دِينُكَ؟ وَمَنْ نَبِيُّكَ؟ فَيَقُولُ: لا أَدْرِي. فَيَقُولَانِ: لا دَرَيْتَ وَلا تَلَيْتَ». قال: «فَيَضْرِبَانِهِ ضَرْبَةً يَتَطَايَرُ [شَرَرُهَا](٧) فِي قَبْرِهِ، ثُمَّ يَعُودَانِ». قال: «فَيَقُولَانِ: انْظُرْ فَوْقَكَ. فَيَنْظُرُ، فَإِذَا بَابٌ مَفْتُوحٌ مِنَ الجَنَّةِ، فَيَقُولَانِ: [هَذَا - عَدُوَّ اللهِ](٨)- مَنْزِلُكَ لَوْ أَطَعْتَ اللهَ».

قال رسول الله ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّهُ لَيَصِلُ إِلَىٰ قَلْبِهِ عِنْدَ ذَلِكَ حَسْرَةٌ لا تَرْتَدُّ أَبَدًا».

قال: «وَيَقُولَانِ لَهُ: انْظُرْ تَحْتَكَ فَيَنْظُرُ تَحْتَهُ، فَإِذَا بَابٌ مَفْتُوحٌ إِلَىٰ النَّارِ، فَيَقُولَانِ: عَدُوَّ اللهِ، هَذَا مَنْزِلُكَ إِذْ عَصَيْتَ اللهَ».

قال رسول الله ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّهُ لَيَصِلُ إِلَىٰ قَلْبِهِ عِنْدَ ذَلِكَ حَسْرَةٌ لا تَرْتَدُّ أَبَدًا».

قال: وقالت عائشة: ويُفْتَحُ له سبعةٌ وسبعون بابًا إلىٰ النّـار، يأتيه من حَرِّها وسمومِها حتىٰ

---

(١) ما بين المعقوفتين سقط من (ز). (٢) النتر: الجذب بجفاء.

(٣) في بعض النسخ: (ركبتيه). (٤) في بعض النسخ: (حقويه).

(٥) في (ز): (يأخذون). (٦) الأرنبة: طرف الأنف. (٧) في (ز): (شراره).

(٨) في (ز): (هذا عدو الله) ووضع علامة تقديم وتأخير لتصبح (عدو الله هذا)، ووضع علىٰ (هذا) علامة ضرب.

يبعثه الله إليها(١).

هذا حديثٌ غريبٌ جدًّا، وسياقٌ عجيبٌ، ويزيد الرقاشي -راويه عن أنس- له غرائب ومنكرات، وهو ضعيف الرواية عند الأئمة، والله أعلم.

ولهذا قال أبو داود: حدَّثنا إبراهيم بن موسىٰ الرازي، حدَّثنا هشام -هو ابن يوسف- عن عبد الله ابن بَحير، عن هانئ مولىٰ عثمان، عن عثمان ﵁ قال: كان النَّبيُّ ﷺ إذا فرغ مِن دفن الرجل وقف عليه فقال: «اسْتَغْفِرُوا لِأَخِيكُمْ، وَاسْأَلُوا لَهُ بِالتَّثْبِيتِ، فَإِنَّهُ الآنَ يُسْأَلُ» انفرد به أبو داود(٢).

وقد أورد الحافظ أبو بكر بن مَردويه عند قوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ﴾ الآية [الأنعام: ٩٣] حديثًا مطولًا جدًّا، من طريقٍ غريبٍ، عن الضَّحَّاك، عن ابن عبَّاس مرفوعًا، وفيه غرائب أيضًا.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾﴾

قال البخاري: قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾: ألم تعلم؛ كقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ﴾، ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟﴾ البوار: الهَلَاك؛ بار يبورُ بورًا، وقومًا بُورًا: هالِكِين.

حدَّثنا علي بن عبد الله، حدَّثنا سفيان، عن عمرو، عن عطاء سمع ابن عبَّاس: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾ قال: وهم كفَّار أهل مكة(٣).

وقال العوفي، عن ابن عبَّاس في هذه الآية: هو جَبَلَة بن الأَيْهَم، والذين اتَّبعوه من العرب، فلَحِقُوا بالروم. والمشهور الصحيح عن ابن عبَّاس هو القول الأول، وإن كان المعنىٰ يَعُمُّ جميع الكفَّار؛ فإنَّ الله تعالىٰ بعث محمَّدًا ﷺ رحمةً للعالمين، ونعمةً للنَّاس، فمن قَبِلها وقام بشُكْرِها دخل الجنَّة، ومن رَدَّها وكفرها دخل النَّار.

وقد رُوِيَ عن علي نحوُ قول ابن عبَّاس الأول، قال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا مسلم بن إبراهيم، حدَّثنا شعبة، عن القاسم بن أبي بَزَّة، عن أبي الطفيل: أن ابن الكواء سأل عليًّا عن ﴿ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾ قال: كفَّار قريش يوم بدر(٤).

حدَّثنا المنذر بن شاذان، حدَّثنا يعلىٰ بن عبيد، حدَّثنا بسام -هو الصَّيْرفي- عن أبي الطفيل قال: جاء رجلٌ إلىٰ عليٍّ فقال: يا أمير المؤمنين، مَنِ الَّذين بدَّلوا نعمة الله كفرًا وأحلُّوا قومهم دار البوار؟

---

(١) ضعيف كسابقه.

(٢) حسن: رواه أبو داود (٣٢٢١)، والحاكم (١/ ٣٧١)، وإسناده حسن: رجاله ثقات عدا هاني مولىٰ عثمان قال الحافظ: صدوق وحسنه النووي في «الأذكار» (صفحة ١٣١) وصححه الحاكم ووافقه الذهبي وصححه الألباني في «المشكاة» (١٣٣).

(٣) البخاري (٤٧٠٠).

(٤) صحيح: رواه الطبري (١٣/ ٢٢٠).

قال: منافقو قريش(١).

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا ابن نفيل قال: قرأت على مَعْقِل، عن ابن أبي حسين قال: قام علي بن أبي طالب ﵁ فقال: ألا أحدٌ يسألني عن القرآن، فوالله لو أعلَم اليَوم أحدًا أعلم مِنِّي به وإن كان من وراء البحار لأتَيْتُه. فقام عبد الله بن الكواء فقال: مَنِ الَّذين بدَّلوا نعمة الله كفرًا وأَحَلُّوا قومهم دار البوار؟ فقال: مشركو قريش، أتتهم نعمة الله: الإيمان، فبدَّلوا نعمة الله كفرًا وأحلُّوا قومهم دار البوار(٢).

وقال السُّدِّي في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا ...﴾ الآية، ذكر مسلم [المستوفي](٣) عن عليٍّ أنَّه قال: هم الأفجران من قريش: بنو أمية، وبنو المغيرة، فأمَّا بنو المغيرة فأحَلُّوا قومهم دار البَوَارِ يوم بدر، وأما بنو أُمَيَّة فأحَلُّوا قومهم دار البوار يوم أُحُدٍ. وكان أبو جهل يوم بدر، وأبو سفيان يوم أحد. وأمَّا دار البوار فهي جهنَّم.

وقال ابن أبي حاتم ﵀: حدَّثنا محمَّد بن يحيىٰ، حدَّثنا الحارث بن منصور، عن إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن عمرو ذي مُرٍّ(٤) قال: سمعتُ عليًّا قرأ هذه الآية: ﴿وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾ قال: هم الأفجران مِن قريش: بنو أُميَّة وبنو المغيرة، فأمَّا بنو المغيرة فأُهْلِكوا يوم بدر، وأمَّا بنو أُميَّة فمُتِّعوا إلىٰ حين(٥). ورواه أبو إسحاق، عن عمرو [ذي مُرٍّ](٦)، عن علي نحوه، وروي من غير وجهٍ عنه. وقال سفيان الثوري، عن علي بن زيد، عن يوسف بن سعد، عن عمر بن الخطاب في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾ قال: هم الأفجران مِن قريش: بنو المغيرة وبنو أُمية، فأمَّا بنو المغيرةِ فكُفِيتمُوهُم يوم بدرٍ، وأمَّا بنو أُميَّة فمُتِّعُوا إلىٰ حين(٧).

وكذا رواه حمزة الزَّيَّات، عن عمرو بن مُرَّة قال: قال ابن عبَّاس لعمر بن الخطاب: يا أمير المؤمنين، هذه الآية: ﴿ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾ قال: هم الأفجران مِن قريش: أَخْوَالي وأَعْمَامِك فأما أخوالي فاستَأْصَلَهُمُ الله يوم بدر، وأمَّا أعمامك فأَمْلَىٰ الله لهم إلىٰ حين(٨).

وقال مجاهد وسعيد بن جبير والضَّحَّاك وقتادة بن زيد هم كفَّار قريش الذين قُتِلُوا يوم بدر، وكذا رواه مالك في «تفسيره» عن نافع، عن ابن عمر. وقوله: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ أي:

---

(١) رواه الطبري (١٣/ ٢٢٠)، وابن أبي حاتم (١٢٢٧٢)، وفيه مجهول، لكن يشهد له الرواية السابقة.

(٢) رواه ابن أبي حاتم (١٢٢٧٣)،، وفيه انقطاع بين علي وابن أبي حسين، لكن المعنىٰ يشهد له الروايات السابقة.

(٣) في (ز): (المستوف).

(٤) في ابن أبي حاتم: عمرو بن مرة، والمثبت من «المستدرك»، وهو الصواب.

(٥) رواه ابن أبي حاتم (١٢٢٧٤)، والطبري (١٣/ ٢٢١)، والحاكم (٢/ ٣٥٢)، وصححه ووافقه الذهبي، والطبراني في «الأوسط» (١/ ٧٧٦)، وفيه «عمرو ذو مر» قال البخاري: لا يعرف، وقال ابن عدي: هو في جملة مشايخ أبي إسحاق المجهولين «ميزان الاعتدال» (٣/ ٢٩٤ ـ ٢٩٥).

(٦) في بعض النسخ: (بن مرة)، وهو خطأ.

(٧) رواه الطبري (١٣/ ٢١٩)، وفيه علي بن زيد بن جُدْعان: ضعيف، لكن يشهد له الرواية الآتية ويشهد له أيضًا أثر عليٍّ المتقدم.

(٨) رواه الطبري (١٣/ ٢١٩)، ورجاله ثقات.

جعلوا له شركاء عبدُوهُم معه، ودَعَوُا الناس إلىٰ ذلك.

ثمَّ قال تعالىٰ متهدِّدًا لهم ومتوعدًا لهم علىٰ لسان نبيِّه ﷺ: ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾.

أي: مَهْمَا قدرتم عليه في الدُّنيا فافعلوا، فمهما يكن من شيءٍ ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ أي: مرجعكم ومَوْئلكُم إليها، كما قال تعالىٰ: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [لقمان: ٢٤]، وقال تعالىٰ: ﴿مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [يونس: ٧٠].

﴿قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ ﴿٣١﴾﴾

يقولُ تعالىٰ آمرًا العبادَ بطاعتِهِ والقيام بحقِّه، والإحسان إلىٰ خلقِهِ، بأَن يُقِيمُوا الصَّلاة وهي عبادة الله وحده لا شريك له، وأن يُنْفِقُوا مما رزقهم الله بأداء الزَّكوات، والنَّفقة علىٰ القرَابَات والإحسان إلىٰ الأَجَانِب.

والمراد بإقامتها هو: المحافظة علىٰ وقتها وحدُودِهَا، وركوعها وخشوعها وسجودها.

وأمر تعالىٰ بالإنفاق مما رزقَ في السِّرِّ؛ أي: في الخُفْيَة، والعلانيَةِ وهي: الجهر، وليبادروا إلىٰ ذلك لخلاص أنفسهم ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ﴾ وهو يوم القيامة، وهو يوم ﴿لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ﴾ أي: لا يقبل من أحد فدية بأن تُبَاع نفسُهُ، كما قال تعالىٰ: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الحديد: ١٥].

وقوله: ﴿وَلَا خِلَالٌ﴾ قال ابن جرير: يقول: ليس هناك مُخَالَّة خليل، فيَصْفَح عمَّن استوجب العقوبة عن العقاب [لمُخَالَّته][1]، بل هنالك العدل والقسط، فالخلال مصدر، من قول القائل: «خَالَلْت فلانًا، فأنا أخاله مخالَّة وخلالًا»، ومنه قول امرئ القيس:

صَرَفْتُ الهَوَىٰ عَنْهُنَّ مِنْ خَشْيَةِ الرَّدَىٰ ... وَلَسْتُ بِمَقْلِيِّ الخِلَالِ وَلَا قَالِ

وقال قتادة: إنَّ الله قد عَلِمَ أنَّ في الدنيا بيوعًا وخلالًا يتخالُّون بها في الدنيا، فينظر رجل مَن يُخَالِلُ وعلام [يصاحب][2]، فإن كان لله فَلْيُدَاوِم، وإن كان لغير الله فسيقطع عنه.

قلت: والمراد مِن هذا أنَّه يخبر تعالىٰ أنَّه لا يَنْفَعُ أحدًا بيعٌ ولا فديةٌ، ولو افتدىٰ بملءِ الأرضِ ذهبًا لو وَجدَهُ، ولا ينفعه صداقة أحدٍ ولا شفاعة أحدٍ إذا لَقِيَ الله كافرًا، قال الله تعالىٰ: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ [البقرة: ١٢٣]، وقال تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

---

(١) في (ز): (لمخاللته).

(٢) في (ز): (صاحب).

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ ﴾

يُعَدِّد تعالىٰ نعمه علىٰ خلقه، بأَن خلق لهم السَّماوات سقفًا محفوظًا والأرض فراشًا، وأنزل مِن السَّماء ماءً فأخرج به أَزْواجًا مِن نباتٍ شَتَّىٰ، ما بين ثِمارٍ وزروعٍ، مختلفة الألوانِ والأشكال، والطُّعوم والرَّوائح والمنَافع، وسخَّر الفلك بأَن جعلها طافيةً علىٰ تيارِ ماء البَحر، تجري عليه بأمر الله تعالىٰ، وسخَّر البحر يحملها لِيقْطَع المسافرون بها من إقليمٍ إلىٰ إقليمٍ آخر، لجَلْبِ ما هنا إلىٰ هناك، ومَا هناك إلىٰ هاهنا، وسَخَّر الأنهار تشق الأرض مِن قطرٍ إلىٰ قطرٍ، رزقًا للعباد من شربٍ وسقيٍ وغير ذلك من أنواعِ المنافع.

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ ﴾ أي: يسيران لا يقرّان ليلًا ولا نهارًا، ﴿ لَا الشَّمْسُ يَنۢبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا الَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [يس: ٤٠]، ﴿ يُغْشِي الَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٤]، فالشمس والقمر يتعاقبان، والليل والنهار عارضان فتارة يأخذ هذا مِن هذا فيطول، ثم يأخذ الآخر مِن هذا فيقصر، ﴿ يُولِجُ الَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي الَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [لقمان: ٢٩]، [وقال تعالىٰ: ﴿ يُكَوِّرُ الَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى الَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّٰرُ ﴾ [الزمر: ٥].][(١)]

وقوله: ﴿ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ﴾ يقول: هيأ لكم كل ما تحتاجون إليه في جميع أحوالِكُم مما تسألونه بحالِكُم وقالِكُم. وقال بعضُ السَّلف: مِن كل ما سألتموه وما لم تسألوا. وقرأ بعضهم: «وآتاكم من كلٍّ ما سألتموه»[(٢)]. وقوله: ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾ يُخْبِر عن عجز العباد عن تَعْداد النِّعم فضلًا عن القيام بشكرها، كما قال طَلْق بن حبيب رَحِمَهُ اللَّهُ: إنَّ حقَّ الله أثقلُ مِن أن يقومَ به العبادُ، وإنَّ نِعَمَ الله أكثر من أن يحصيها العباد، ولكن أَصْبِحُوا توّابين وأمسُوا توّابين. وفي «صحيح البخاري»: أنَّ رسول الله ﷺ كان يقول: «**اللَّهُمَّ لَكَ الحَمْدُ غَيْرَ مَكْفِيٍّ وَلَا مُوَدَّعٍ، وَلَا مُسْتَغْنًى عَنْهُ رَبَّنَا**»[(٣)].

وقال الحافظ أبو بكر البزار في «مسنده»: حدَّثنا إسماعيل بن أبي الحارث، حدَّثنا داود بن [المُحبّر][(٤)]، حدَّثنا صالح المُرِّيُّ عن جعفر بن زيد العَبْدِي، عن أنس، عن النَّبيِّ ﷺ أنه قال: «**يَخْرُجُ**

---

(١) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

(٢) قَرَأَ (كُلٍّ) الْحَسَنُ وَالْأَعْمَشُ، وَلَيْسَ فِي الْمُتَوَاتِرِ إِلَّا (كُلِّ).

البخاري (٥٤٥٨)، وأبو داود (٣٨٤٩)، والترمذي (٣٤٥٣)، وابن ماجه (٣٢٨٤).

في (ز): (المجير)، وهو خطأ.

لابنِ آدمَ يومَ القيامةِ [ثلاثةُ](١) دَواوينَ، دِيوانٌ فِيهِ العَمَلُ الصَّالِحُ، وَدِيوانٌ فِيهِ ذُنُوبُهُ، وَدِيوانٌ فِيهِ النِّعَمُ مِنَ اللهِ تَعالَىٰ عَلَيْهِ، فَيَقُولُ اللهُ لِأَصْغَرِ نِعَمِهِ -أحسبُه قال: فِي دِيوَانِ النِّعَمِ-: خُذِي ثَمَنَكِ مِنْ عَمَلِهِ الصَّالِحِ، فَتَسْتَوْعِبُ عَمَلَهُ الصَّالِحَ كُلَّهُ، ثُمَّ تَنَحَّىٰ وَتَقُولُ: وَعِزَّتِكَ مَا اسْتَوْفَيْتُ. وَتَبْقَىٰ الذُّنُوبُ وَالنِّعَمُ وَالعَمَلُ الصَّالِحُ [فَتَسْتَوْعِبَ](٢) عَمَلَهُ الصَّالِحَ كُلَّهُ، فَإِذَا أَرَادَ اللهُ أَنْ يَرْحَمَ قَالَ: يَا عَبْدِي، قَدْ ضَاعَفْتُ لَكَ حَسَنَاتِكَ وَتَجَاوَزْتُ عَنْ سَيِّئَاتِكَ -أحسبه قال: وَوَهَبْتُ لَكَ نِعَمِي» غريبٌ، وسنده ضعيفٌ(٣).

وقد رُوِي في الأثر: أنَّ داود عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: ياربِّ، كيف أشكرك وشكري لك نعمة منكَ عليَّ؟ فقال الله تعالىٰ: الآن شَكَرْتَنِي يا داود؛ أي: حِينَ اعترفْتَ بالتَّقصير عن أداء شُكْرِ النِّعم.

وقال الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ: الحمدُ لله الذي لا [تُؤَدَّىٰ](٤) شكر نعمةٍ مِن نِعَمِهِ، إلا بنعمةٍ حادثةٍ تُوجِب علىٰ مُؤَدي ماضي نِعَمه بأدائها، نعمةً حادثةً تُوجِب عليه شكره بها. وقال القائل في ذلك:

لَوْ [كُلُّ](٥) جَارِحَةٍ مِنِّي لَهَا لُغَةٌ ... تُثْنِي عَلَيْكَ بِمَا أَوْلَيْتَ مِنْ حَسَنِ
لَكَانَ مَا زَادَ شُكْرِي إِذْ شَكَرْتُ بِهِ ... إِلَيْكَ أَبْلَغَ فِي الإِحْسَانِ وَالمِنَنِ

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾

يذكر تعالىٰ في هذا المقام محتجًا علىٰ مشركي العَرَب، بأنَّ البلد الحرام مكَّة إنَّما وُضِعت أوَّل ما وُضِعَت علىٰ عبادة الله وحده لا شريك له، وأنَّ إبراهيم الذي كانت بسببِهِ آهلة عامرة [تبرَّأ](٦) ممن عبَدَ غير الله، وأنه دعا لمكَّة بالأمن فقال: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾ وقد استجاب الله له، فقال تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ [آل عمران: ٩٦، ٩٧]، وقال في هذه القصة: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾ فعرفه كأنَّه دعا به بعد بنائها؛ ولهذا قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾ [إبراهيم: ٣٩]، ومعلوم أن إسماعيل أكبر من إسحاق بثلاث عشرة سنة، فأما حين ذهب بإسماعيل وأُمِّه وهو رضيع إلىٰ مكان مكَّة، فإنَّه دعا أيضًا فقال: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾ [البقرة: ١٢٦]، كما ذكرناه هنالك في سورة البقرة مستقصًىٰ مطولًا.

وقال: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ ينبغي لكلِّ داعٍ أن يدعو لنفسه ولوالديه ولِذُرِّيَّته.

ثم ذكر أنَّه افْتُتِن بالأصنام خلائقُ مِن النَّاس وأنَّه بريءٌ ممَّن عبدها، ورد أمرهم إلىٰ اللهِ، إن شاء

---

(١) في (ز): (ثلاث)، وهو خطأ. (٢) في (ز): (ويستوعب).
(٣) ضعيف جدًّا: رواه البزار في «مسنده» (٤/ ١٦٠)، وفي إسناده داود بن المحبَّر: متروك كما في «التقريب» وضعفه المصنف بعد إيراده، وفيه أيضًا: صالح المري، قال الحافظ: ضعيف (تقريب – ٢٨٤٥).
في (ز): (نؤدي). في (ز): (كان). في (ز): (يبرأ).

عذَّبهم وإن شاءَ غفر لهم كما قال عيسىٰ عليه السلام: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨]، وليس في هذا أكثر مِن الرَّدِّ إلىٰ مشيئة الله تعالىٰ، لا تجويز وقوع ذلك.

قال عبد الله بن وهب: حدَّثنا عمرو بن الحارث، أن بكر بن سَوَادة حدثه، عن عبد الرحمن بن [جُبير][1] عن عبد الله بن عمرو، أن رسول الله ﷺ تلا قول إبراهيم: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وقول عيسىٰ عليه السلام: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ورفع يديه، ثم قال: «اللَّهُمَّ أُمَّتِي، اللَّهُمَّ أُمَّتِي، اللَّهُمَّ أُمَّتِي» وبكىٰ فقال الله: يا جبريل اذهب إلىٰ محمَّد -وربك أعلم- واسأله ما يُبْكِيكَ؟ فأتاه جبريل عليه السلام فسأله، فأخبره رسول الله ﷺ ما قال، قال: فقال الله: اذهب إلىٰ محمَّد، فقل له: «إِنَّا سَنُرْضِيكَ فِي أُمَّتِكَ وَلَا نَسُوءُكَ»[2].

﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (٣٧)﴾

وهذا يدل علىٰ أن هذا دعاءٌ ثانٍ بعد الدعاء الأول الذي دعا به عندما ولَّىٰ عن هاجر وولدها، وذلك قبل بناء البيت، وهذا كان بعد بنائه؛ تأكيدًا ورغبةً إلىٰ الله عز وجل ولهذا قال: ﴿عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾.

وقوله: ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ قال ابن جرير: هو متعلِّقٌ بقوله: «المحرم» أي: إنَّما جعلته محرمًا ليتمكَّن أهله مِن إقامة الصلاة عنده.

﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ قال ابن عبَّاس، ومجاهد، وسعيد بن جبير: لو قال: «أفئدة النَّاس» لازدحم عليه فارس والرُّوم واليهود والنَّصارىٰ والنَّاس كلهم، ولكن قال: ﴿مِّنَ النَّاسِ﴾ فاختصَّ به المسلمون.

وقوله: ﴿وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ﴾ أي: ليكون ذلك عونًا لهم علىٰ طاعتِكَ وكما أنه ﴿بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾ فاجعل لهم ثمارًا يأكلونها. وقد استجاب الله ذلك، كما قال: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ [القصص: ٥٧] وهذا من لُطْفِهِ تعالىٰ وكَرَمِهِ ورحمته وبركته: أنه ليس في البلد الحرام مكَّة شجرةٌ مثمرةٌ، وهي تجبىٰ إليها ثمرات ما حولها، استجابةً لخليله إبراهيم عليه السلام.

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ (٣٨) الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٩) رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ (٤٠) رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ (٤١)﴾

---

[1] في (ز): (جرير)، وهو خطأ.
[2] مسلم (٢٠٢)، وابن أبي حاتم (٤/ ١٢٥٤)، والطبري (١٣/ ٢٢٩).

قال ابن جرير: يقول تعالىٰ مخبرًا عن إبراهيم خليله أنَّه قال: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ﴾ أي: أنت تعلم قصدي في دُعَائِي وما أردت بدُعَائِي لأهل هذا البلد، وإنَّما هو القصد إلىٰ رضاكَ والإخلاص لك، فإنك تعلم الأشياء كلِّها ظاهرها وباطنها، ولا يخفىٰ عليك منها شيءٌ في الأرض ولا في السماء.

ثم حمد ربَّه ﷻ علىٰ ما رزقه من الولد بعد الكِبَرِ، فقال: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ أي: إنه ليستجيب لمن دعاه، وقد استجاب لي فيما سألْتُه من الولد.

ثم قال: ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ أي: محافظًا عليها مقيمًا لحدودها ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ﴾ أي: واجعلهم كذلك مقيمين الصلاةَ ﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ﴾ أي: فيما سألتك فيه كُلِّه.

﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ﴾ وقرأ بعضهم: «ولوالدي» علىٰ الإفراد[١] وكان هذا قبل أن يتبرأَ من أبيه لما تبيَّن له عداوته لله ﷻ ﴿وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أي: كلهم ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ﴾ أي: يوم تُحَاسِب عبادك فتجزيهم بأعمالهم، إن خيرًا فخيرٌ، وإن شرًّا فشرٌّ، والله أعلم.

﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعۡمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمۡ لِيَوۡمٖ تَشۡخَصُ فِيهِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهۡطِعِينَ مُقۡنِعِي رُءُوسِهِمۡ لَا يَرۡتَدُّ إِلَيۡهِمۡ طَرۡفُهُمۡۖ وَأَفۡـِٔدَتُهُمۡ هَوَآءٞ ﴿٤٣﴾ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوۡمَ يَأۡتِيهِمُ ٱلۡعَذَابُ ﴿٤٤﴾﴾

يقول تعالىٰ شأنه: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ﴾ يا محمَّد: ﴿غَٰفِلًا عَمَّا يَعۡمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ﴾ أي: لا تحسبه إذ أنظرهم وأَجَّلَهُم أنَّه غافلٌ عنهم مهملٌ لهم، لا يُعَاقِبُهم علىٰ صنعهم بل هو يُحْصِي ذلك عليهم ويَعُدُّه عدًّا؛ أي: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمۡ لِيَوۡمٖ تَشۡخَصُ فِيهِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ أي: من شدة الأهوال يوم القيام.

ثم ذكر تعالىٰ كيفيَّة قيامهم من قبورهم ومجيئهم إلىٰ قيام المحشر فقال: ﴿مُهۡطِعِينَ﴾ أي: مسرعين، كما قال تعالىٰ: ﴿مُّهۡطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِۖ يَقُولُ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَسِرٞ﴾ [القمر: ٨]، وقال تعالىٰ: ﴿يَوۡمَئِذٖ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِيَ [٢] لَا عِوَجَ لَهُۥۖ وَخَشَعَتِ ٱلۡأَصۡوَاتُ لِلرَّحۡمَٰنِ فَلَا تَسۡمَعُ إِلَّا هَمۡسٗا﴾ إلىٰ قوله: ﴿وَعَنَتِ ٱلۡوُجُوهُ لِلۡحَيِّ ٱلۡقَيُّومِۖ وَقَدۡ خَابَ مَنۡ حَمَلَ ظُلۡمٗا﴾ [طه: ١٩٨ - ١١١]، وقال تعالىٰ: ﴿يَوۡمَ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ سِرَاعٗا كَأَنَّهُمۡ إِلَىٰ نُصُبٖ يُوفِضُونَ﴾ [المعارج: ٤٣].

وقوله: ﴿مُقۡنِعِي رُءُوسِهِمۡ﴾ قال ابن عبَّاس، ومجاهد وغير واحدٍ: رافعي رءوسهم.

﴿لَا يَرۡتَدُّ إِلَيۡهِمۡ طَرۡفُهُمۡۖ﴾ أي: بل أبصارهم طائرةٌ شاخصةٌ، يُدِيمُون النَّظر لا يطرفون لحظةً لكثرة ما هم فيه من الهول والفكرة والمخافة لما يحل بهم، عياذًا بالله العظيم من ذلك؛ ولهذا قال: ﴿وَأَفۡـِٔدَتُهُمۡ

---

(١) قراءة: قَرَأَ (وَلِوَالِدِي) ابْنُ جُبَيْرٍ، وَلَيْسَ فِي الْمُتَوَاتِرِ إِلَّا (وَلِوَالِدَيَّ).
(٢) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

﴿هَوَآءٌ﴾ أي: وقلوبهم [خاوية][(١)] خاليةٌ [ليس فيها شيء لكثرة الفزع والوَجَلِ والخوف. ولهذا قال قتادة وجماعة: إنَّ أمكنَةَ أفئدتهم خاليةٌ][(٢)] لأنَّ القلوب لدى الحناجر قد خرجت من أماكنها من شدَّة الخوف. وقال بعضهم: ﴿هَوَآءٌ﴾ خرابٌ لا تَعِي شيئًا.

ولشدَّة ما أخبر الله تعالىٰ به عنهم، قال لرسوله: ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ﴾.

﴿فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾﴾

يقول تعالىٰ مخبرًا عَن قِيلِ الَّذين ظلموا أنفسهم، عند معاينة العذاب: ﴿رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ﴾ كما قال تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَـٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠]، وقال تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَـٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ [المنافقون: ٩، ١٠]، وقال تعالىٰ مخبرًا عنهم في حال محشرهم: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَـٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَـٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٧، ٢٨]، وقال تعالىٰ: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَـٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [فاطر: ٣٧].

وقال تعالىٰ رادًّا عليهم في قولهم هذا: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ أي: أو لم تكونوا تحلفون من قبل هذه الحال: أنَّه لا زوال لكم عما أنتم فيه، وأنه لا معاد ولا جزاء، فذوقوا هذا بذاك.

قال مجاهد وغيره: ﴿مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ أي: ما لكم من انتقال من الدُّنيا إلىٰ الآخرة، كما أخبر عنهم تعالىٰ: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ [النحل: ٣٨].

﴿وَسَكَنتُمْ فِى مَسَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ أي: قد رأيتم وبلغكم ما أحللنا بالأمم المكذبة قبلكم، ومع هذا لم يكن لكم فيهم مُعتبَرٌ،

(١) في (ز): (جارية).
(٢) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

ولم يكن فيما أوقعنا بهم [مُزْدَجَرٌ لكم] (١) ﴿حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾ [القمر: ٥].

وقد روىٰ شعبة، عن أبي إسحاق، عن عبد الرحمن أن عليًّا رضي الله عنه قال في هذه الآية: ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾ قال: أخذ ذاك الَّذي حاجَّ إبراهيم في ربه نِسْرَيْن صغيرين، فربَّاهما حتىٰ استغلظا [واستعلجا] (٢) وشَبَّا.

قال: فأوثق رِجْلَ كلِّ واحدٍ منهما بوتِدٍ إلىٰ تابوت، وجَوَّعَهُمَا، وقَعَدَ هو ورجل آخر في التابوت قال: -ورفع في التابوت عصا علىٰ رأسه اللحم- قال: فطارَا قال: وجعل يقول لصاحبه: انظر، ما ترىٰ؟ قال: أرىٰ كذا وكذا، حتىٰ قال: أرىٰ الدُّنيا كلها كأنَّها ذبابٌ. قال: فقال: صَوِّب العصا (٣)، فصَوَّبها، فهبطا. قال: فهو قول الله عز وجل: «وإن كادَ (٤) مكرُهُم لتزول منه الجبال». قال أبو إسحاق: وكذلك هي في قراءة عبد الله: «وإن كَادَ مكرُهُم» (٥).

قلتُ: وكذا رُوي عن أبي بن كعب، وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما أنَّهما قرآ: «وإن كاد» (٦) كما قرأ علي. وكذا رواه سفيان الثوري، وإسرائيل، عن أبي إسحاق، عن عبد الرحمن بن [أذنان] (٧) عن علي، فذكر نحوه (٨).

وكذا رُوي عن عكرمة أن [سياق] (٩) هذه القصة لنمرود ملك كنعان: أنه رام أسباب السماء بهذه الحيلة والمكر، كما رام ذلك بعده فرعون ملك القبط في بناء الصرح، فعجَزَا وضعُفَا. وهما أقَلُّ وأحقرُ، وأصغرُ وأدحرُ.

وذكر مجاهد هذه القصة عن بُخْتَنَصَّر، وأنَّه لما انقطع بصره عن الأرض وأهلها، نُودِيَ: أيُّها الطَّاغية: أين تريد؟ فَفَرِقَ، ثم سمع الصوت فوقه فصوب [الرماح] (١٠)، فصَوبت النُّسور، ففزعت الجبال من هدتها، وكادت الجبال أَن تزول مِن حِسِّ ذلك (١١)، فذلك قوله: ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾ (١٢).

ونقل ابن جُريج عن مجاهد أنه قرأها: «لَتَزُولُ (١٣) منه الجِبَال» بفتح اللام الأولىٰ، وضم الثانية.

---

(١) في (ز): (لكم مزدجر).

(٢) في (ز): (واستعجلا)، وهو خطأ، ومعنىٰ: (واستعلج)؛ أي: غلظ واشتد وضخم بدنه.

(٣) صوب العصا: خفضها وأنزلها.

(٤) قراءة: قَرَأَ (كَادَ) عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ وَعَلِيٌّ وَأُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ وَعَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ وَمُجَاهِدٌ، وَلَيْسَ فِي الْمُتَوَاتِرِ إِلَّا (كَانَ).

(٥) رواه الطبري (١٣/ ٢٤٤) وابن أبي حاتم (١٢٣٠٨)، وفيه عبد الرحمن بن دانيال، وقيل ابن أذنان: مجهول.

(٦) رواه الطبري (١٣/ ٢٤٥).

(٧) في (ز): (أرباب).

(٨) قال ابن عطية: (وذلك عندي لا يصح عن علي رضي الله عنه، وفي هذه القصة كلها ضعف من طريق المعنىٰ، وذلك أنه غير ممكن أن تصعد الأنسر كما وصف، وبعيد أن يغرر أحد بنفسه في مثل هذا). «المحرر الوجيز»: (٣/ ٣٤٦).

(٩) في (ز): (شأن).

(١٠) في (ز): (الرياح).

(١١) الحس: الصوت والحركة.

(١٢) رواه الطبري (١٣/ ٢٤٤).

(١٣) قراءة: قَرَأَ (لَتَزُولُ) الْكِسَائِيُّ وَوَافَقَهُ ابْنُ مُحَيْصِنٍ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ (لِتَزُولَ).

وروى العوفي عن ابن عبَّاس في قوله: ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ يقول: ما كان مكرُهُم لتزول منه الجبال. وكذا قال الحسن البصري، ووجهه ابن جرير بأنَّ هذا الذي فعلوه بأنفسهم مِن كفرهم بالله وشِرْكِهم به، ما ضرَّ ذلك شيئًا من الجبال ولا غيرها، وإنَّما عاد وبالُ ذلك على أنفسهم.

قلتُ: ويشبه هذا إذًا قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ [الإسراء: ٣٧].

والقول الثاني في تفسيرها: ما رواه علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس: ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ يقول: شركهم، كقوله: ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ۝٩٠ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا﴾ [مريم: ٩٠ -٩١]، وهكذا قال الضَّحَّاك وقتادة.

﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ۝٤٧ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ۝٤٨﴾

يقول تعالى مقررًا لوعده ومؤكدًا: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ﴾ أي: من نصرتهم في الحياة الدُّنيا ويوم يقوم الأشهاد.

ثم أخبر أنَّه ذو عزَّةٍ لا يمتنع عليه شيءٌ أراده، ولا يُغالَب، وذو انتقام ممن كفر به وجحده ﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [الطور: ١١]؛ ولهذا قال: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ﴾ أي: وَعْدُهُ هذا حاصلٌ يوم تُبدَّل الأرض [غير الأرض](١)، وهي هذه على غير الصفة المألوفة المعروفة، كما جاء في «الصحيحين»، من حديث أبي حازم، عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «**يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ القِيَامَةِ عَلَى أَرْضٍ بَيْضَاءَ عَفْرَاءَ، كَقُرْصَةِ النَّقِيِّ**(٢)**، لَيْسَ فِيهَا مَعْلَمٌ لِأَحَدٍ**»(٣).

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا محمَّد بن أبي عدي، عن داود، عن الشعبي، عن مسروق، عن عائشة أنَّها قالت: أنا أول الناس سأل رسول الله ﷺ عن هذه الآية: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ قالت: قلت: أين النَّاس يومئذٍ يا رسول الله؟ قال: «**عَلَى الصِّرَاطِ**»(٤).

رواه مسلم منفردًا به دون البخاري، والترمذي، وابن ماجه، من حديث داود بن أبي هند، به وقال الترمذي: حسن صحيح.

ورواه أحمد أيضًا، عن عفان، عن وُهَيْب، عن داود، عن الشعبي، عنها ولم يذكر مسروقًا.

وقال قتادة، عن حسان بن بلال المُزَني، عن عائشة ﵂: أنها سألت رسول الله ﷺ عن قول الله:

---

(١) سقط من (ز).

(٢) قُرْصة النَّقِيّ: الخبز الحُوَّارَى، وهو الذي نخل مرة بعد مرة.

(٣) البخاري (٦٥٢١)، ومسلم (٢٧٩٠)، وابن حبان (٧٣٢٠)، والطبراني (٥٩٠٨، ٥٨٣١).

(٤) رواه مسلم (٢٧٩١)، والترمذي (٣١٢١)، (٣٢٤٤)، وابن ماجه (٤٢٧٩)، وأحمد (٦/ ٣٥).

﴿ يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ﴾ قالت: قلتُ: يا رسول الله، فأين النَّاس يومئذٍ؟ قال: «لَقَدْ سَأَلْتِنِي عَنْ شَيْءٍ مَا سَأَلَنِي عَنْهُ أَحَدٌ مِنْ أُمَّتِي، ذَاكَ [أَنَّ النَّاسَ عَلَىٰ جِسْرِ جَهَنَّمَ][(١)]»[(٢)].

وروىٰ الإمام أحمد، من حديث حبيب بن أبي عمرة، عن مجاهد، عن ابن عبَّاس، حدثتني عائشة أنها سألت رسول الله ﷺ، عن قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ ﴾ [الزمر: ٦٧] فأين النَّاس يومئذٍ يا رسول الله؟ قال: «هُمْ عَلَىٰ مَتْنِ جَهَنَّمَ»[(٣)].

وقال ابن جرير: حدَّثنا الحسن، حدَّثنا علي بن الجعد، أخبرني القاسم، سمعت الحسن قال: قالت عائشة: يا رسول الله، ﴿ يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ ﴾ فأين الناس يومئذ؟ قال: «إِنَّ هَذَا شَيْءٌ مَا سَأَلَنِي عَنْهُ أَحَدٌ» قال: «عَلَىٰ الصِّرَاطِ يَا عَائِشَةُ»[(٤)].

ورواه أحمد، عن عفان، عن القاسم بن الفضل، عن الحسن به.

وقال الإمام مسلم بن الحجاج في «صحيحه»: حدَّثني الحسن بن علي الحُلْواني، حدَّثنا أبو تَوْبة الرَّبيع بن نافع، حدَّثنا معاوية ابن سلام، عن زيد -يعني: أخاه- أنَّه سمع أبا سلام، حدَّثني أبو أسماء الرَّحْبي؛ أن ثوبان مولىٰ رسول الله ﷺ حدَّثه قال: كنت قائمًا عند رسول الله ﷺ، فجاءه حَبرٌ من أحبار اليهود، فقال: السَّلام عليك يا محمَّد. فدفَعْتُه دفعةً كاد يُصرَع منها، فقال: لِمَ تدفعُني؟ فقلتُ: ألا تقول: يا رسول الله؟! فقال اليهودي: إنَّما ندعوه باسمه الذي سَمَّاه به أهله! فقال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اسْمِي مُحَمَّدٌ الَّذِي سَمَّانِي بِهِ أَهْلِي». فقال اليهودي: جئتُ أسألُكَ. فقال رسول الله ﷺ: «أَيَنْفَعُكَ شَيْءٌ إِنْ حَدَّثْتُكَ؟» فقال: أسمع بأُذُني. فنكت[(٥)] رسول الله ﷺ بعودٍ معه، فقال: «سَلْ». فقال اليهوديُّ: أين يكون النَّاس يوم تُبدَّل الأرض غير الأرض والسَّموات؟ فقال رسول الله ﷺ: «هُمْ فِي الظُّلْمَةِ دُونَ الجِسْرِ» قال: فمَن أوَّل النَّاس إجازة[(٦)]؟ قال: فقال: «فُقَرَاءُ المُهَاجِرِينَ». قال اليهودي: فما تُحْفَتُهُم حين يدخلون الجنة؟ قال: «زِيَادَةُ كَبِدِ [النُّونِ][(٧)] [(٨)]» قال: فما غذاؤهم في أَثَرِها؟ قال: «يُنْحَرُ لَهُمْ ثَوْرُ الجَنَّةِ الَّذِي كَانَ يَأْكُلُ مِنْ أَطْرَافِهَا». قال: فما شرابهم عليه؟ قال: «مِنْ عَيْنٍ [فِيهَا][(٩)] تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا». قال: صدقت. قال: وجئتُ أسألُك عن شيءٍ لا يعلمُهُ أحدٌ من أهل الأرض إلا نَبِيٌّ أو رجلٌ أو رجلان؟ قال: «أَيَنْفَعُكَ إِنْ حَدَّثْتُكَ؟» قال: أسمع بأذُني. قال: جئت أسألك عن الولد. قال: «مَاءُ الرَّجُلِ أَبْيَضُ وَمَاءُ

---

(١) ما بين المعقوفتين في (ز): (إذ الناس علىٰ خيرهم).
(٢) صحيح: رواه أحمد (٦/ ١٣٤).
(٣) صحيح: رواه أحمد (٦/ ١١٧)، والترمذي (٣٢٤٢)، وقال: حسن صحيح.
(٤) الطبري (١٣/ ٢٥٣)، وأحمد (٦/ ١٠١)، وإسناده منقطع فالحسن لم يسمع من عائشة، لكنه يشهد له ما تقدم.
(٥) أي: ضرب به الأرض.
(٦) أي: عبورًا ومرورًا.
(٧) في (ز): (الحوت)، والمثبت موافق لما في «مسلم».
(٨) أي: طرف كبد الحوت.
(٩) سقط من (ز).

الْمَرْأَةِ أَصْفَرُ، فَإِذَا اجْتَمَعَا فَعَلَا مَنِيُّ الرَّجُلِ مَنِيَّ الْمَرْأَةِ أَذْكَرَا[(١)] بِإِذْنِ اللهِ -تَعَالَىٰ- وَإِذَا عَلَا مَنِيُّ الْمَرْأَةِ مَنِيَّ الرَّجُلِ أَنَّثَا بِإِذْنِ اللهِ» قال اليهوديُّ: لقد صَدَقْتَ، وإنَّك لنبيٌّ. ثم انصرف، فقال رسول الله ﷺ: «لَقَدْ سَأَلَنِي هَذَا عَنِ الَّذِي سَأَلَنِي عَنْهُ، وَمَا لِي عِلْمٌ بِشَيْءٍ مِنْهُ، حَتَّىٰ أَتَانِي اللهُ بِهِ»[(٢)].

[وقال][(٣)] أبو جعفر بن جرير الطبري: حدَّثني ابن عوف، حدَّثنا أبو المغيرة، حدَّثنا ابن أبىٰ مريم، حدَّثنا سعيد بن ثوبان الكَلاعي، عن أبي أيوب الأنصاري، قال: أتىٰ النَّبيَّ ﷺ حَبْرٌ من اليهود فقال: أرأيت إذ يقول الله في كتابه: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ فأين الخَلْق عند ذلك؟ فقال: «أَضْيَافُ اللهِ، فَلَنْ يُعْجِزَهُمْ مَا لَدَيْهِ»[(٤)].

ورواه ابن أبي حاتم، من حديث أبي بكر بن عبد الله بن أبي مريم به.

وقال شعبة: أخبرنا أبو إسحاق، سمعت عمرو بن ميمون -وربما قال: قال عبد الله، وربما لم يقل- فقلت له: عن عبد الله؟ فقال: سمعت عمرو بن ميمون يقول: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ﴾ قال: أرض كالفضة البَيْضَاء نقيَّةٌ، لم يُسْفَك فيها دمٌ، ولم يُعْمَلْ عليها خطيئةٌ، يَنْفُذُهم البصر[(٥)]، ويُسْمِعُهم الدَّاعي، حفاةً عراةً كما خلقوا. قال: أراه قال: قيامًا حتىٰ يُلجِمَهم العرق[(٦)].

وروي مِن وجهٍ آخر عن شعبة وعن إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن عمرو بن ميمون، عن ابن مسعودٍ بنحوه. وكذا رواه عاصم، عن زرٍّ، عن ابن مسعود به. وقال سفيان الثوري، عن أبي إسحاق، عن عمرو بن ميمون لم يخبر به. أورد ذلك كله ابن جرير[(٧)].

وقد قال الحافظ أبو بكر البزار: حدَّثنا محمَّد بن عبد الله بن عُبَيد بن عَقِيل، حدَّثنا سهل بن حماد أبو [عتاب][(٨)]، حدَّثنا جرير بن أيوب، عن أبي إسحاق، عن عمرو بن ميمون، عن عبد الله، عن النَّبيِّ ﷺ في قول الله ﷻ: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ﴾ قال: «أَرْضٌ بَيْضَاءُ لَمْ يَسْقُطْ عَلَيْهَا دَمٌ وَلَمْ يُعْمَلْ عَلَيْهَا خَطِيئَةٌ». ثم قال: لا نعلم رفعه إلا جرير بن أيوب، وليس بالقوي[(٩)].

---

(١) أي: كان المولود ذكرًا، وأنَّثا -الآتية-: أي كان المولود أنثىٰ.

(٢) مسلم (٣١٥)، والنسائي في «عِشْرة النساء» (١٨٨)، وأبو نُعَيم في «صفة الجنة» (٣٣٧)، والحاكم (٣/ ٤٨١)، وابن حبان (٧٤٢٢).

(٣) سقط من (ز).

(٤) ضعيف: رواه ابن جرير (١٣/ ٢٥٣)، وفيه أبو بكر ابن أبي مريم: ضعيف: وشيخه مجهول.

(٥) ينفذهم: يخترقهم ويجاوزهم لاستواء الصعيد. وينفذهم؛ أي: يَبْلُغ أوّلَهم وآخرَهم حتىٰ يراهم كُلَّهم ويَسْتوعِبَهم، من نَفَذ.

(٦) صحيح: رواه الطبري (١٣/ ٢٤٩).

(٧) صحيح: رواه الطبري (١٣/ ٢٤٩)، والحاكم (٤/ ٥٧٠)، وصححه علىٰ شرطهما، وله حكم المرفوع وانظر حديث سهل بن سعد السابق، وقد ثبت في رواية الطبري أن عمرو بن ميمون سمعه من ابن هبيرة عن ابن مسعود.

(٨) في (ز): (غياث)، والمثبت هو الصواب.

(٩) ضعيف جدًّا: رواه البزار (٥/ ٢٤٦)، وفيه جرير بن أيوب، قال الذهبي: مشهور بالضعف، وقال البخاري: منكر الحديث، وقال النسائي: متروك [انظر: «ميزان الاعتدال» (١/ ٣٩١)]، ولكن معنىٰ الحديث صحيح، كما تقدم في الأحاديث السابقة.

ثم قال ابن جرير: حدَّثنا أبو كريب، حدثنا معاوية بن هشام، عن سنان عن جابر الجُعْفي، عن أبي جُبَيرة عن زيد قال: أرسل رسول الله ﷺ إلىٰ اليهود فقال: «هَلْ تَدْرُونَ لِمَ أَرْسَلْتُ إِلَيْهِمْ؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «أَرْسَلْتُ إِلَيْهِمْ أَسْأَلُهُمْ عَنْ قَوْلِ اللهِ: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ﴾ إِنَّهَا تَكُونُ يَوْمَئِذٍ بَيْضَاءَ مِثْلَ الْفِضَّةِ». فلما جاءوا سألهم فقالوا: تكون بيضاءَ مثل النَّقِيِّ[١].

وهكذا رَوىٰ عن علي، وابن عبَّاس، وأنس بن مالك[٢]، ومجاهد بن جَبْر: أنها تُبَدَّل يوم القيامة بأرضٍ مِن فضَّةٍ. وعن علي ﷺ أنَّه قال: تصير الأرض فضةً، والسموات ذهبًا. وقال الربيع: عن أبي العالية، عن أبي بن كعبٍ قال: تصير السموات جنانًا. وقال أبو مِعْشرٍ، عن محمَّد بن كعب القُرَظي، أو عن محمَّد بن قيس في قوله: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ﴾ قال: تبدل خُبْزَةً يأكل منها المؤمنون مِن تحت أقدامهم.

وكذا رَوىٰ وَكِيع، عن [عمر][٣] بن بشير الهَمْداني، عن سعيد بن جبير في قوله: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ﴾ قال: تبدل خبزة بيضاء، يأكل المؤمن مِن تحت قدميه.

وقال الأعمش، عن خَيْثَمة قال: قال عبد اللهِ -هو ابن مسعود-: الأرضُ كلُّها يوم القيامةِ نارٌ، والجنَّة مِن ورائها ترىٰ كواعبها وأكوابها، ويُلجِمُ النَّاسَ العرقُ[٤]، أو يبلغ منهم العرق، ولم يبلغوا الحساب[٥].

وقال الأعمش أيضًا، عن المِنْهَال بن عمرو، عن قيس بن السَّكَن قال: قال عبد الله: الأرض كلها نارٌ يومَ القيامة، والجنة من ورائها، ترىٰ أكوابها وكواعبها، والذي نفس عبد الله بيده، إنَّ الرَّجل لَيَفِيضُ عرقًا حتىٰ تَرسَخ في الأرض قدمُهُ، ثم يرتفع حتىٰ يبلغ أنفه، وما مسَّه الحساب. قالوا مِمَّ ذاك يا أبا عبد الرحمن؟ قال: مما يرىٰ النَّاس يَلْقَون[٦].

وقال أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن كعب في قوله: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ﴾ قال: تصير السموات جنانًا، ويصير مكان البحر نارًا، وتبدل الأرض غيرها.

وفي الحديث الذي رواه أبو داود: «لَا يَرْكَبُ الْبَحْرَ إِلَّا غَازٍ أَوْ حَاجٌّ أَوْ مُعْتَمِرٌ، فَإِنَّ تَحْتَ الْبَحْرِ نَارًا -أو: تَحْتَ النَّارِ بَحْرًا»[٧]. وفي حديث الصُّور المشهور المرويِّ عن أبي هريرة، عن النَّبيِّ ﷺ

---

(١) ضعيف: رواه ابن جرير (١٣/ ٢٥٠)، وفي إسناده جابر الجعفي: ضعيف.

(٢) أثر علي رواه الطبري (١٣/ ٢٥١).
وأثر ابن عبَّاس رواه الطبري (١٣/ ٢٥١)، وإسناده مسلسل بالضعفاء.
وأثر أنس رواه الطبري (١٣/ ٢٥١)، وفي إسناده ابن لهيعة: اختلط.

(٣) في (ز): (معمر)، وهو خطأ.

(٤) أي: يَصل إلىٰ أفواههم فيصير لهم بمنزلة اللِّجام يَمْنَعُهُم عن الكلام. «النهاية».

(٥) رواه الطبري (١٣/ ٢٥١)، ورجاله ثقات، وانظر ما بعده.

(٦) رواه الطبري (١٣/ ٢٥١) وإسناده صحيح.

(٧) ضعيف: رواه أبو داود (٢٤٨٩)، فيه بشر أبي عبد الله بن بشير بن مسلم: كلاهما مجهول كما في «التقريب».

أنه قال: «تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ، فَيَبْسُطُهَا وَيَمُدُّهَا مَدَّ الأَدِيمِ العُكَاظِيِّ، لا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلا أَمْتًا، ثُمَّ يَزْجُرُ اللهُ الخَلْقَ زَجْرَةً، فَإِذَا هُمْ فِي هَذِهِ المُبَدَّلَةِ»[1]. وقوله: ﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ﴾ أي: خرجت الخلائق جميعها من قبورهم لله ﴿ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ أي: الذي قهر كل شيءٍ وغلبه، ودانت له الرقاب، وخضعت له الألباب.

﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾﴾

يقول تعالىٰ: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ وتبرز الخلائق لديَّانها، ترىٰ يا محمَّد يومئذٍ المجرمين، وهم الَّذين أجرموا بكُفرِهم وفسادهم، ﴿مُّقَرَّنِينَ﴾ أي: بعضهم إلىٰ بعضٍ، قد جمع بين النُّظراء أو الأشكال منهم، كلُّ صِنْفٍ إلىٰ صنفٍ، كما قال تعالىٰ: ﴿ٱحْشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ [الصافات: ٢٢]، وقال: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ [التكوير: ٧]، وقال: ﴿وَإِذَآ أُلْقُواْ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ [الفرقان: ١٣]، وقال: ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ﴾ [ص: ٣٧، ٣٨].

والأصفاد: هي القيود، قاله ابن عبَّاس، وسعيد بن جبير، والأعمش، وعبد الرحمن بن زيد. وهو مشهور في اللغة، قال عمرو بن كلثوم:

فَآبُوا بِالنِّهَابِ وَبِالسَّبَايَا ... وَأُبْنَا بِالمُلُوكِ مُصَفَّدِينَا

وقوله: ﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ﴾ أي: ثيابهم التي يلبسونها عليهم مِن قطران، وهو الذي تُهْنَأُ به الإبل؛ أي: تُطْلَىٰ، قاله قتادة. وهو ألصق شيءٍ بالنار.

ويقال فيه: «قَطِران» بفتح القاف وكسر الطاء، وبفتح القاف وتسكين الطاء، وبكسر القاف وتسكين الطاء، ومنه قول أبي النجم:

كَأَنَّ قِطْرَانًا إِذَا تَلاهَا ... [تَرْمِي][2] بِهِ الرِّيحُ إِلَىٰ مَجْرَاهَا

وكان ابن عبَّاس يقول: «القَطِرَان» هو: النُّحاس المُذاب، وربَّما قرأها: «سَرابيلهم من قَطْرٍ آنٍ»[3] أي: مِن نُحاسٍ حارٍّ قد انتهىٰ حره. وكذا روي عن مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جُبَير، والحسن، وقتادة.

وقوله: ﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ كقوله: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٤].

وقال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: حدَّثنا يحيىٰ بن إسحاق، أنبأنا أبان بن يزيد، عن يحيىٰ بن أبي كثير، عن زيد، عن أبي سلام، عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «أَرْبَعٌ مِنْ أَمْرِ الجَاهِلِيَّةِ لا [يُتْرَكْنَ][4]:

---

(١) ضعيف: رواه الطبري (٢/ ٣٣٠)، والبيهقي في «البعث والنشور» (٦٠٩)، وقد تقدم. انظر الآية (٢٠٨) من سورة البقرة.

(٢) في (ز): (يرمي).

(٣) قراءة: قَرَأَ (قَطْرٍآنٍ) عِكْرِمَةُ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَقَتَادَةُ، وَلَيْسَ فِي الْمُتَوَاتِرِ إِلَّا (قَطِرَانٍ).

(٤) في (ز): (يتركهن)، والذي في «المسند» (٥/ ٣٤٣): «... ليسوا بتاركيهن».

الفَخْرُ بِالأَحْسَابِ، وَالطَّعْنُ فِي الأَنْسَابِ، وَالاسْتِسْقَاءُ بِالنُّجُومِ، وَالنِّيَاحَةُ، وَالنَّائِحَةُ إِذَا لَمْ تَتُبْ قَبْلَ مَوْتِهَا، تُقَامُ يَوْمَ القِيَامَةِ وَعَلَيْهَا سِرْبَالٌ مِنْ قَطِرَانٍ، وَدِرْعٌ مِنْ جَرَبٍ[١]». انفرد بإخراجه مسلم[٢]. وفي حديث القاسم عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «النَّائِحَةُ إِذَا لَمْ تَتُبْ، تُوقَفُ فِي طَرِيقٍ بَيْنَ الجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَسَرَابِيلُهَا مِنْ قَطِرَانٍ، وَتَغْشَىٰ [وَجْهَهَا][٣] النَّارُ»[٤].

وقوله: ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ [كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ][٥]﴾ أي: [يوم القيامة][٦]، كما قال[٧]: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١].

﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ يحتمل أن يكون كقوله تعالىٰ: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ ويحتمل أنه في حال مُحاسبته لعبده سريع النِّجاز؛ لأنه يعلم كل شيءٍ، ولا يخفىٰ عليه خافيةٌ، وإن جميع الخلق بالنسبة إلىٰ قُدْرَتِهِ كالواحد منهم، كقوله تعالىٰ: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨]، وهذا معنىٰ قول مجاهد: ﴿سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [إحصاء][٨]. ويحتمل أن يكون المعنيان مرادَيْنِ، والله أعلم.

﴿هَٰذَا بَلَاغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٥٢﴾﴾[٩]

يقول تعالىٰ: هذا القرآن بلاغٌ للناس، كقوله: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]؛ أي: هو بلاغٌ لجميع الخلق من إنسٍ وجانٍّ، كما قال في أول السورة: ﴿الر ۚ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾. ﴿وَلِيُنذَرُوا بِهِ﴾ أي: ليتعظوا به، ﴿وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ أي: يستدلوا بما فيه من الحُجَجِ والدَّلالات علىٰ أنه لا إله إلا هو ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ أي: ذوو العقول.

آخر تفسير سورة إبراهيم عليه السلام، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) أي: يسلط علىٰ أعضائها الجرب والحِكَّة بحيث يغطي جلدها تغطية الدرع، وهو القميص.

(٢) مسلم (٩٣٤)، وأحمد (٥/ ٣٤٢/ ٣٤٣).

(٣) في (ز): (وجوهها)، وهو خطأ.

(٤) ضعيف: رواه الطبراني في «الكبير» (٨/ ٧٨١٨)، في إسناده علي بن يزيد الألهاني، وعبيد الله بن زَحْر وهما ضعيفان، والحديث السابق كافٍ في بيان جزاء النائحة، والله أعلم.

(٥) ليست في (ز).

(٦) في (ز): (يقسم يوم القيامة).

(٧) ليست في (ز).

(٨) ليست في (ز).

(٩) قال أبو بكر الجزائري حفظه الله: ﴿هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ هذه الآية صالحةٌ لأن تكون عنوانًا للقرآن الكريم إذ دلت علىٰ مضمونه كاملًا مع وَجَازة اللفظ وجمال العبارة، والحمد لله أولًا وآخرًا.

سُورَةُ الحِجرِ

تفسير سورة الحجر وهي مكية

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ ۝١ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ ۝٢ ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ۝٣﴾

قد تقدَّم الكلام علىٰ الحروف المقطعة في أوائل السور.

وقوله: ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ[١] ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ ﴾ إخبارٌ عنَّهم أنهم سَيَنْدَمُون علىٰ ما كانوا فيه من الكُفْرِ، ويَتَمَنَّون لو كانوا مع المسلمين في الدَّار الدنيا.

ونقل السُّدِّي في «تفسيره» بسنده المشهور عن ابن عبَّاس، وابن مسعود، وغيرهما من الصحابة: أنَّ الكفَّار لما عُرِضُوا علىٰ النَّار، تمنَّوا أن لو كانوا مُسْلِمِين. وقيل: المراد أن كلَّ كافرٍ يودُّ عند [احتضاره][٢] أنْ لو كان مؤمنًا. وقيل: هذا إخبارٌ عَن يوم القيامة، كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأنعام:٢٧]. وقال سفيان الثوري: عن سلمة [ابن][٣] كُهَيْل، [عن][٤] أبي الزَّعْراء، عن عبد الله في قوله: ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ ﴾ قال: هذا في الجُهنميِّين إذا رأوهم يخرجون من النَّار[٥]. وقال ابن جرير: حدَّثنا المثنىٰ، حدَّثنا مسلم، حدَّثنا القاسم، حدَّثنا ابن أبي فَرْوة العَبْدي؛ أن ابن عبَّاسٍ وأنس بن مالك كانا يتأوَّلان هذه الآية: ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ ﴾ يتأوَّلانِها: يوم يحبس الله أهلَ الخطايا من المسلمين مع المشركين في النَّار. قال: فيقول لهم المشركون: ما أغنىٰ عنكم ما كُنتُم تعبدون في الدنيا. قال: فيغضب الله لهم بفضل رحمته، فيخرجهم، فذلك حين يقول: ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ ﴾[٦]. وقال عبد الرزَّاق: أخبرنا الثوري، عن حماد، عن إبراهيم، وعن خُصَيْف، عن مجاهد قالا: يقول أهل النَّار للموحِّدين: ما أغنىٰ عنكم إيمانكم؟ فإذا قالُوا ذلك. قال: أَخرِجُوا مَن كان في قلبه مثقالُ ذرَّةٍ. قال:

---

(١) رُبَّ: حرف جرٍّ يدخل علىٰ الأسماء، وإن أريد إدخالها علىٰ الأفعال لَحِقَتْ بها (ما) كما في الآية. وقرأ نافع ﴿ رُبَمَا ﴾ بالتخفيف، وشددها آخرون في هذه الآية (ربما يود الذين كفروا...) إلخ. وأصل استعمالها في التقليل، وقد تستعمل في التكثير.

(٢) في (ز): (احضاره). (٣) في (ز): (عن)، وهو خطأ. (٤) في (ز): (بن)، وهو خطأ.

(٥) رواه الطبري (١٤/ ٣)، ورجاله ثقات، ويشهد له الأحاديث الورادة بعده.

(٦) رواه الطبري (١٤/ ٣)، وابن المبارك في «الزهد» (١٦٠٢)، ورجاله ثقات، عدا ابن أبي فروة، لم يوثقه غير ابن حبان، ويشهد لصحته ما يأتي بعده من الأحاديث.

فعند ذلك قوله: ﴿ [رُبَمَا](١) يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴾.

وهكذا روي عن الضَّحَّاك، وقتادة، وأبي العالية، وغيرهم. وقد ورد في ذلك أحاديث مرفوعة، فقال الحافظ أبو القاسم الطبراني:

حدَّثنا محمَّد بن العبَّاس، هو الأخرم، حدَّثنا محمَّد بن منصور الطُّوسِي، حدَّثنا صالح بن إسحاق الجِهْبِذ [دلني عليه يحيىٰ بن معين](٢) حدَّثنا [مُعَرِّف](٣) بن واصل، عن يعقوب بن أبي نُبَاتة عن عبد الرحمن الأغر، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ نَاسًا مِنْ أَهْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ يَدْخُلُونَ النَّارَ بِذُنُوبِهِمْ، فَيَقُولُ لَهُمْ أَهْلُ اللَّاتِ وَالعُزَّىٰ: مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ قَوْلُكُمْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنْتُمْ مَعَنَا فِي النَّارِ؟ فَيَغْضَبُ اللهُ لَهُمْ، فَيُخْرِجُهُمْ، فَيُلْقِيهِمْ فِي نَهْرِ الحَيَاةِ، فَيَبْرَءُونَ مِنْ حَرْقِهِمْ كَمَا يَبْرَأُ القَمَرُ مِنْ [خُسُوفِهِ](٤)، فَيَدْخُلُونَ الجَنَّةَ، وَيُسَمَّوْنَ فِيهَا [الجُهَنَّمِيِّينَ](٥)» فقال رجل: يا أنس، أنت سمعتَ هذا من رسول الله ﷺ؟ فقال أنس: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا، فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ». نعم، أنا سمعت رسول الله ﷺ يقول هذا(٦).

ثم قال الطبراني: تفرَّد به الجِهْبِذ.

الحديث الثاني: وقال الطبراني أيضًا: حدَّثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل، حدَّثنا أبو الشَّعْثاء علي بن حسن الواسطي، حدَّثنا خالد بن نافع الأشعري، عن سعيد بن أبي بردة، عن أبيه، عن أبي موسىٰ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا اجْتَمَعَ أَهْلُ النَّارِ فِي النَّارِ، وَمَعَهُمْ مَنْ شَاءَ اللهُ مِنْ أَهْلِ القِبْلَةِ، قَالَ الكُفَّارُ لِلْمُسْلِمِينَ: أَلَمْ تَكُونُوا مُسْلِمِينَ؟ قَالُوا: بَلَىٰ. قَالُوا: فَمَا أَغْنَىٰ عَنْكُمُ الإِسْلَامُ! فَقَدْ صِرْتُمْ مَعَنَا فِي النَّارِ؟ قَالُوا: كَانَتْ لَنَا ذُنُوبٌ فَأُخِذْنَا بِهَا. فَسَمِعَ اللهُ مَا قَالُوا، فَأَمَرَ بِمَنْ كَانَ فِي النَّارِ مِنْ أَهْلِ القِبْلَةِ فَأُخْرِجُوا، فَلَمَّا رَأَىٰ ذَلِكَ مَنْ بَقِيَ مِنَ الكُفَّارِ قَالُوا: يَا لَيْتَنَا كُنَّا مُسْلِمِينَ فَنَخْرُجَ كَمَا خَرَجُوا». قال: ثم قرأ رسول الله ﷺ: «أَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ ۝١ رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴾(٧)».

---

(١) سقط من (ز).

(٢) في (ز): (رأىٰ عليه ابن موسىٰ)، والمثبت موافق لما في «الأوسط».

(٣) في (ز): (معروف). (٤) في (ز): (كسوفه).

(٥) كذا في معظم النسخ، ومصادر التخريج، وفي (ز): (الجهنميون) علىٰ أنها نائب فاعل.

(٦) صحيح لغيره: رواه الطبراني في «الأوسط» (٧/ ٧٢٩٣)، قال الهيثمي: (٩/ ٣٨٣)، وفيه من لم أعرفهم، وللحديث شواهد يتقوىٰ بها، لذا صححه الألباني في تعليقه علىٰ كتاب «السنة» لابن أبي عاصم (٨٤٣).

(٧) صحيح لغيره: رواه الطبراني كما في «المجمع» (٧/ ٤٥)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٨٤٣)، وفيه خالد بن نافع الأشعري: ضعيف، لم يوثقه غير ابن حبان، وقال أبو حاتم: ليس بالقوي، يكتب حديثه. انظر: «لسان الميزان» (٢/ ٢٨٨)، ويشهد له الروايات في الباب.

ورواه ابن أبي حاتم، من حديث خالد بن نافع، به، وزاد فيه: «بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ»، عِوَضَ الاستعاذة.

الحديث الثالث: وقال الطبراني أيضًا: حدَّثنا موسىٰ بن هارون، حدَّثنا إسحاق بن راهويه قال: قلت لأبي أسامة: أحدثكم أبو رَوْقٍ -واسمه عطية بن الحارث-: حدَّثني صالح بن أبي طريف قال: سألت أبا سعيدٍ الخدري فقلت له: هل سمعت رسول الله ﷺ يقول في هذه الآية: ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ ﴾؟ قال: نعم، سمعته يقول: «يُخرِجُ اللهُ نَاسًا مِنَ المُؤْمِنِينَ مِنَ النَّارِ بَعْدَ مَا يَأْخُذُ نِقْمَتَهُ مِنْهُمْ» وقال: «لَمَّا أَدْخَلَهُمُ اللهُ النَّارَ مَعَ المُشْرِكِينَ قَالَ لَهُمُ المُشْرِكُونَ: تَزْعُمُونَ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ اللهِ فِي الدُّنْيَا، فَمَا بَالُكُمْ مَعَنَا فِي النَّارِ؟ فَإِذَا سَمِعَ اللهُ ذَلِكَ مِنْهُمْ، أَذِنَ فِي الشَّفَاعَةِ لَهُمْ فَتَشْفَعُ المَلَائِكَةُ وَالنَّبِيُّونَ، وَيَشْفَعُ المُؤْمِنُونَ، حَتَّىٰ يَخْرُجُوا بِإِذْنِ اللهِ، فَإِذَا رَأَىٰ المُشْرِكُونَ ذَلِكَ، قَالُوا: يَا لَيْتَنَا كُنَّا مِثْلَهُمْ، فَتُدْرِكَنَا الشَّفَاعَةُ، فَنَخْرُجَ مَعَهُمْ». قال: فذلك قول الله: ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ ﴾ «فَيُسَمَّوْنَ فِي الجَنَّةِ الجُهَنَّمِيِّينَ مِنْ أَجْلِ سَوَادٍ فِي وُجُوهِهِمْ، فَيَقُولُونَ: يَا رَبِّ، أَذْهِبْ عَنَّا هَذَا الِاسْمَ، فَيَأْمُرُهُمْ فَيَغْتَسِلُونَ فِي نَهْرِ الجَنَّةِ، فَيَذْهَبُ ذَلِكَ الِاسْمُ عَنْهُمْ» فأقر به أبو أسامة، وقال: نعم[١].

الحديث الرابع: وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا علي بن الحسين، حدَّثنا العبَّاس [بن][٢] الوليد [النَّرْسي][٣] حدَّثنا مسكين أبو فاطمة، حدَّثني اليَمَان بن يزيد، عن محمَّد بن [حِمْير][٤] عن محمَّد [ابن][٥] علي، عن أبيه، عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «مِنْهُمْ مَنْ تَأْخُذُهُ النَّارُ إِلَىٰ رُكْبَتَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ تَأْخُذُهُ النَّارُ إِلَىٰ حُجْزَتِهِ[٦]، وَمِنْهُمْ مَنْ تَأْخُذُهُ النَّارُ إِلَىٰ عُنُقِهِ، عَلَىٰ قَدْرِ ذُنُوبِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْكُثُ فِيهَا شَهْرًا ثُمَّ يَخْرُجُ مِنْهَا، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْكُثُ فِيهَا سَنَةً ثُمَّ يَخْرُجُ مِنْهَا، وَأَطْوَلُهُمْ فِيهَا مُكْثًا بِقَدْرِ الدُّنْيَا مُنْذُ يَوْمِ خُلِقَتْ إِلَىٰ أَنْ تَفْنَىٰ، فَإِذَا أَرَادَ اللهُ أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا قَالَتِ اليَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ وَمَنْ فِي النَّارِ مِنْ أَهْلِ الأَدْيَانِ وَالأَوْثَانِ، لِمَنْ فِي النَّارِ مِنْ أَهْلِ التَّوْحِيدِ: آمَنْتُمْ بِاللهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ، فَنَحْنُ وَأَنْتُمُ اليَوْمَ فِي النَّارِ سَوَاءٌ، فَيَغْضَبُ اللهُ لَهُمْ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْهُ لِشَيْءٍ فِيمَا مَضَىٰ، فَيُخْرِجُهُمْ إِلَىٰ عَيْنٍ فِي الجَنَّةِ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ ﴾»[٧].

وقوله: ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ ﴾ تهديدٌ لهم شديدٌ، ووعيدٌ أكيدٌ، كقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ تَمَتَّعُواْ

---

(١) رواه ابن حبان (٧٤٣٢)، والطبراني في «الأوسط» (٨١١٠)، وفيه صالح بن أبي طريف لم يوثقه غير ابن حبان (انظر: «الثقات») (٤/ ٣٧٦). لكن يشهد للحديث ما تقدم.

(٢) في (ز): (عن)، وهو خطأ.

(٣) في (ز): (البرسني)، وهو خطأ.

(٤) في (ز): (جبر)، والمثبت هو الصواب من كتب الرجال.

(٥) في (ز): (أبو)، وهو خطأ.

(٦) **الحُجْزة**: معقدُ الإزار.

(٧) رواه ابن أبي حاتم (١٢٣٢٦)، وعزاه المتقي الهندي في «كنز العمال» إلىٰ ابن شاهين في السنة، والدَّيْلَمِي، قلت: وأورده ابن الجوزي في «العلل المتناهية» (١٥٦٨) وقال: هذا حديث لا يصح، وفيه جماعة مجاهيل.

﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ [إبراهيم: ٣٠] وقوله: ﴿كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ﴾ [المرسلات: ٤٦] ولهذا قال: ﴿وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ﴾ أي: عن التَّوبة والإنابة، ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ أي: عاقبة أمرهم.

﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤﴾ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٥﴾﴾

يقول تعالىٰ: إنَّه ما أهلك قريةً إلا بعد قيام الحُجَّة عليها وانتهاءِ أَجَلِهَا، وإنَّه لا يؤخر أمَّة حان هلاكها عن ميقاتها ولا يتقدَّمون عن مُدَّتِهِم. وهذا تنبيهٌ لأهل مكَّة، وإرشادٌ لهم إلىٰ الإقلاع عمَّا هم فيه من الشِّرك والعناد والإلحاد، الذي يستحقون به الهلاك.

﴿وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ[1] ﴿٧﴾ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾

يُخْبِر تعالىٰ عَن كُفْرِهِم وعُتُوِّهِم وعنادهم في قولهم: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ﴾ أي: الذي يَدَّعِي ذلك ﴿إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ أي: في دعائك إيَّانا إلىٰ اتِّباعِك وتَرْكِ ما وجدنا عليه آباءنا. ﴿لَّوْ مَا﴾ أي: هلَّا ﴿تَأْتِينَا بِٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ﴾ أي: يشهدون لك بصحة ما جئت به ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ كما قال فرعون: ﴿فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ [الزخرف: ٥٣] ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ [الفرقان: ٢١، ٢٢]. وكذا قال في هذه الآية: ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ﴾.

وقال مجاهد في قوله: ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ بالرِّسَالة والعذاب.

ثم قرَّر تعالىٰ أنَّه هو الذي أنزل الذِّكْر، وهو القرآن، وهو الحافظ له من التَّغيير والتَّبْدِيل.

ومنهم مَن أعاد الضَّمير في قوله تعالىٰ: ﴿لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾ علىٰ النَّبيِّ ﷺ، كقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧] والمعنىٰ الأول أولىٰ، وهو ظاهر السِّياق، والله أعلم.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾﴾

---

(١) قال العلامة السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وهذا من أعظم الظلم والجهل.
أما الظلم فظاهر فإن هذا تجرؤٌ علىٰ الله وتعنتٌ بتعيين الآيات التي لم يخترها، وحصل المقصود والبرهان بدونها من الآيات الكثيرة الدالة علىٰ صحة ما جاء به، وأما الجهل، فإنهم جهلُوا مصلحتهم من مضرتهم، فليس في إنزال الملائكة خيرٌ لهم، بل لا ينزل الله الملائكة إلا بالحق الذي لا إمهال علىٰ من لم يتبعه وينْقَدْ له.

يقول تعالىٰ مُسليًا لرسوله في تكذيب من كذَّبه من كفار قريش: إنَّه أرسل مِنْ قَبْله في الأمم الماضية، وإنَّه ما أتىٰ أمةً رسولٌ إلا كذَّبوه واستهزئوا به.

ثم أخبر أنَّه سلك التَّكذيب في قلوب المجرمين الذين عاندوا واستكبروا عن اتِّباع الهدىٰ.

قال أنس والحسن البصري: ﴿كَذَٰلِكَ نَسۡلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ يعني: الشرك.

وقوله: ﴿وَقَدۡ خَلَتۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ أي: قد علم ما فَعَلَ تعالىٰ بمَن كذَّب رسله من الهلاك والدَّمار، وكيف أنجىٰ الله الأنبياء وأتْباعَهُم في الدُّنيا والآخِرَةِ.

﴿وَلَوۡ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَابٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعۡرُجُونَ (١٤) لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتۡ أَبۡصَٰرُنَا بَلۡ نَحۡنُ قَوۡمٞ مَّسۡحُورُونَ (١٥)﴾

يخبر تعالىٰ عن قوَّةِ كفرهم وعنادهم ومكابرتهم للحقِّ: أنَّه لو فُتِح لهم بابٌ من السَّماء، فجعلوا يَصْعَدُون فيه، لما صدَّقوا بذلك، بل قالوا: ﴿سُكِّرَتۡ أَبۡصَٰرُنَا﴾. قال مجاهد وابن كثير، والضَّحَّاك: سُدَّت أبصارنا. وقال قتادة، عن ابن عبَّاس: أُخِذَت أبصارنا. وقال العوفي عن ابن عبَّاس: شُبِّه علينا، وإنَّما سحرنا. وقال الكلبي: عَمِيت أبصارنا. وقال ابن زيد: ﴿سُكِّرَتۡ أَبۡصَٰرُنَا﴾ السكران الذي لا يعقل.

﴿وَلَقَدۡ جَعَلۡنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ (١٦) وَحَفِظۡنَٰهَا مِن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٍ (١٧) إِلَّا مَنِ ٱسۡتَرَقَ ٱلسَّمۡعَ فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ مُّبِينٞ (١٨) وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡزُونٖ (١٩) وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسۡتُمۡ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ[(١)] (٢٠)﴾

يذكر تعالىٰ خلقه السَّماء في ارتفاعها وما زَيَّنَها به مِن الكواكب الثَّواقب، لمن تأملها، وكرر [نظره فيما يرىٰ فيها][(٢)] من العجائب والآيات الباهرات، ما يَحار نظره فيه. ولهذا قال مجاهد وقتادة: البروج هاهنا هي: الكواكب.

قلت: وهذا كقوله تعالىٰ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي جَعَلَ فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجٗا وَقَمَرٗا مُّنِيرٗا﴾ [الفرقان: ٦١] ومنهم مَن قال: البروج هي: منازل الشمس والقمر.

وقال عطية العوفي: «البروج» هاهنا هي: قصور الحرس.

وجعل الشُّهب حرسًا لها من مَرَدة الشياطين؛ لئلَّا يَسْمَعُوا إلىٰ الملأ الأعلىٰ، فمن تمرَّد منهم [وتقدَّم][(٣)] لاسْتِرَاقِ السمع، جاءه [﴿شِهَابٞ مُّبِينٞ﴾][(٤)] فأتْلَفَهُ، فرُبَّما يكون قد ألقىٰ الكلمة التي سَمِعَهَا قبل أن يدركه الشهاب إلىٰ الذي هو دُونه، فيأخذها الآخر، ويأتي بها إلىٰ وليه، كما جاء مصرحًا به في «الصحيح»، كما قال البخاري في تفسير هذه الآية:

---

(١) زاد هنا الآية (٢١) في (ز).
(٢) في (ز): (نظره فيها).
(٣) سقط من (ز).
(٤) سقط من (ز).

حدَّثنا علي بن عبد الله، حدَّثنا سفيان عن عمرو، عن عكرمة، عن أبي هريرة، يبلُغُ به النَّبيَّ ﷺ، قال: «إِذَا قَضَىٰ اللهُ الأَمْرَ فِي السَّمَاءِ، [ضَرَبَتِ](١) المَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَانًا(٢) لِقَوْلِهِ كَأَنَّهُ سِلْسِلَةٌ عَلَىٰ صَفْوَانٍ(٣)». قال عليٌّ: وقال [غيره](٤): «صَفْوَانٍ يَنفُذُهُم ذَلِكَ، فَإِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا: مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟ قَالُوا: لِلَّذِي قَالَ: الْحَقُّ، وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ. فَيَسْمَعُهَا مُسْتَرِقُو السَّمْعِ، [وَمُسْتَرِقُو](٥) السَّمْعِ، هَكَذَا وَاحِدٌ فَوْقَ آخَرَ» -وَوَصَفَ [سُفْيَانُ](٦) بِيَدِه فَفرَّج بينَ أصابعِ يدِهِ اليُمْنَىٰ، نَصبها بعضَها فوْقَ بعضٍ- «فَرُبَّمَا أَدْرَكَ الشِّهَابُ الْمُسْتَمِعَ قَبْلَ أَنْ [يَرْمِيَ](٧) بِهَا إِلَىٰ صَاحِبِهِ فَيُحْرِقَهُ، وَرُبَّمَا لَمْ يُدْرِكْه حَتَّىٰ يَرْمِيَ بِهَا [إِلَىٰ الَّذِي](٨) يَلِيهِ، إِلَىٰ الَّذِي هُوَ أَسْفَلَ مِنْهُ، حَتَّىٰ يُلْقُوهَا إِلَىٰ الأَرْضِ» -وَرُبَّمَا قال سُفيانُ: «حَتَّىٰ تَنْتَهِيَ إِلَىٰ الأَرْضِ [فَتُلْقَىٰ](٩) عَلَىٰ فَمِ السَّاحِرِ أَوِ الْكَاهِنِ-فَيَكْذِبُ مَعَهَا مِائَةَ كَذْبَة [فَيُصَدَّقُ](١٠) فيقُولُونَ: أَلَمْ يُخْبِرْنَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا يَكُونُ كَذَا وَكَذَا، فَوَجَدْنَاهُ حَقًّا؟ لِلْكَلِمَةِ الَّتِي سُمِعَتْ مِنَ السَّمَاءِ»(١١).

ثم ذكَّر تعالىٰ خلقَهُ الأرضَ ومدَّه إيَّاها [وتوسيعها](١٢) وبسطها، وما جعل فيها من الجِبَال الرَّواسي والأودية والأراضي والرِّمال، وما أنبت فيها من الزُّروع والثِّمار المُتَنَاسِبَة.

وقال ابن عبَّاس: ﴿مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ﴾ أي: معلوم. وكذا قال سعيد بن جبير، وعكرمة، وأبو مالك، ومجاهد، والحكم بن [عُتَيبة](١٣) والحسن بن محمَّد، وأبو صالح، وقتادة.

ومنهم من يقول: مُقَدَّرٌ بقدرٍ.

وقال ابن زيد: مِن كلِّ شيءٍ يُوزَن ويُقَدَّر بقدَرٍ. وقال ابن زيد: ما تَزِنُهُ أهل الأسواق.

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ﴾ يذكر تعالىٰ أنَّه صرفهم في الأرض في صنوف [من الأسباب](١٤) والمعايش، وهي جمع معيشة.

وقوله: ﴿وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ﴾ قال مجاهد: وهي الدَّواب والأنعام.

وقال ابن جرير: هم العَبيدُ والإماء والدَّوابُّ والأنعام.

والقصد أنَّه تعالىٰ يَمْتَنُّ عليهم بما يَسَّر لهم من أسباب المكاسب ووجوه الأسباب وصنوف المعايش، وبما سخَّر لهم من الدواب التي يركبونها والأنعام التي يأكلونها، والعبيد والإماء التي يستخدمونها، ورِزْقهم علىٰ خالقهم لا عليهم، فلَهُم هم المنفعة، والرزق علىٰ الله تعالىٰ.

---

(١) في (ز): (إلا ضربت)، والمثبت موافق لما في «الصحيح».
(٢) خَضَع خَضْعًا وخُضُوعًا وخُضْعَانًا: مال وانحنىٰ وذل وانقاد. «المعجم الوسيط»: (ص/ ٢٤١).
(٣) الصفوان: الحجر الأملس.
(٤) في (ز): (غير).
(٥) في (ز): (ومسيرو).
(٦) في (ز): (صفوان)، وهو خطأ.
(٧) في (ز): (يأتي).
(٨) سقط من (ز)، وهي مثبتة في «الصحيح».
(٩) في (ز): فيلقىٰ.
(١٠) سقط من (ز)، وهي مثبتة في «الصحيح».
(١١) البخاري (٤٧٠١، ٤٨٠٠)، وأبو داود (٣٩٨٩)، والترمذي (٣٢٢١)، وابن ماجة (١٩٤).
(١٢) في (ز): (وسعتها).
(١٣) في (ز): (قتيبة).
(١٤) في (ز): (الأصناف).

﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ [١] ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ [٢] ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ ﴾

يخبر تعالىٰ أنَّه مالكُ كلِّ شيءٍ، وأنَّ كلَّ شيءٍ سهل عليه، يسير لديه، وأنَّ عنده خزائن الأشياء مِن جميع الصُّنوف، ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ كما يشاءُ وكما يريد، ولما لَهُ في ذلك مِن الحكمة البالغة، والرَّحمة بعباده، لا علىٰ [جهة][٣] الوجوب، بل هو كتب علىٰ نفسه الرحمة.

قال يزيد بن أبي زياد، عن أبي جُحَيْفَةَ، عن عبد الله: مَا مِن عام بأَمْطَر مِن عام، ولكن الله يقسمه حيث شاء عامًا هاهنا، وعامًا هاهنا. ثم قرأ: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ رواه ابن جرير[٤].

وقال أيضًا: حدَّثنا القاسم، حدَّثنا الحسين[٥] حدَّثنا هُشَيْم، أخبرنا إسماعيل بن سالم، عن الحكم ابن [عُتَيْبَة][٦] في قوله: ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ قال: ما عامٌ بأكثر مطرًا مِن عامٍ ولا أقل، ولكنه يُمْطَر قوم ويُحْرَم آخرون [وربما][٧] كان في البحر. قال: وبلغنا أنَّه ينزل مع المطر من الملائكة أكثر مِن عدد ولد إبليس وولد آدم، يُحصُون كل قطرةٍ حيث تقع وما تُنْبِتُ[٨].

---

(١) قال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: متضمن لكنز من الكنوز وهو أن يطلب كل شيءٍ لا يطلب إلا ممن عنده خزائنه ومفاتيح تلك الخزائن بيديه وأن طلبه من غيره طلب ممن ليس عنده ولا يقدر عليه وقوله: ﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾﴾ [النجم] متضمن لكنز عظيم وهو أن كل مراد إن لم يُرَدْ لأجله ويتصلْ به وإلا فهو مضمحل منقطع فإنه ليس إليه المنتهىٰ وليس المنتهىٰ إلا إلىٰ الذي انتهت إليه الأمور كلها فانتهت إلىٰ خلقه ومشيئته وحكمته وعلمه، فهو غاية كل مطلوب وكل محبوب لا يُحَبُّ لأجله فمحبته عناء وعذاب، وكل عمل لا يراد لأجله فهو ضائعٌ وباطلٌ، وكل قلب لا يصل إليه فهو شقيٌّ محجوبٌ عن سعادته وفلاحه، فاجتمع ما يراد منه كله في قوله: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ﴾ واجتمع ما يراد له كلُّه في قوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾﴾ فليس وراءه سبحانه غاية تُطْلَب وليس دونه غاية إليها المنتهىٰ.

(٢) قال أبو بكر الجزائري حَفِظَهُ ٱللَّهُ: ويدخل في معنىٰ الآية المستقدمين في الطاعة والخير، والمستأخرين في المعصية والشر، كما يدخل أيضًا المستقدمين في صفوف الحرب والصلاة، وفي الحديث الصحيح: «لَوْ يعلمُ الناسُ ما في النِّداءِ والصَّفِّ الأولِ ثُمَّ لمْ يجِدُوا إلَّا أَنْ يَسْتَهِمُوا عليه لاستهموا».

(٣) سقط من (ز).

(٤) ضعيف: رواه الطبري (١٤/ ١٩)، وعلته يزيد بن أبي زياد: ضعيف.

(٥) كذا في (ز)، وهو الموافق لما في «الطبري»، وفي بعض النسخ: (الحسن).

(٦) في (ز): (عيينة)، وهو خطأ.

(٧) في (ز): (بما)، والمثبت موافق لما في «الطبري».

(٨) ضعيف: رواه الطبري (١٤/ ١٩)، وأورده السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٧١)، وعزاه إلىٰ ابن المنذر وابن أبي حاتم (١٢٣٥٤) وأبي الشيخ في «العظمة» (٤٩٢)، وإسناده ضعيف؛ لأن هشيمًا مدلسٌ، ثم إن الأثر مقطوع لم يرفع إلىٰ النبيِّ ﷺ، ومثله لا يقال بالرأي.

وقال البزار: حدَّثنا داود -[وهو][(١)] ابن بكر التُّسْتَري- حدَّثنا حبَّان بن أغلب بن تميم، حدَّثني أبي، عن هشام، عن محمَّد بن سيرين، عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «خَزَائِنُ اللهِ الكَلَامُ، فَإِذَا أَرَادَ شَيْئًا قَالَ لَهُ: كُنْ، فَكَانَ». ثم قال: لا يرويه إلا أغلبُ، ولم يكن بالقوي، وقد حدَّث عنه غير واحدٍ من المتقدمين، ولم يروه عنه إلا ابنه[(٢)].

وقوله: ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ ﴾ أي: تُلْقِح السحاب فتَدُرُّ ماءً، وتُلْقِح الشجر فتتفتح عن أوراقها وأكمامها.

وهذه «الرِّياح» ذكرها بصيغة الجمع؛ ليكون منها الإنتاج، بخلاف الرِّيح العقيم فإنَّه أفردها، ووصفها بالعَقِيم، وهو عدم الإنتاج؛ لأنَّه لا يكون إلَّا مِن شَيْئَيْن فصاعدًا.

وقال الأعمش، عن المِنْهَال بن عمرو، عن قيس بن [السكن][(٣)]، عن عبد الله بن مسعود في قوله: ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ ﴾ قال: [لواقِحَ][(٤)] ترسل[(٥)] الرياح[(٦)]، فتحمل الماء من السَّماء، ثم تَمْرِي السحاب[(٧)]، حتىٰ تدر كما تَدر اللَّقْحَة[(٨)][(٩)].

وكذا قال ابن عبَّاس، وإبراهيم النخعي، وقتادة.

وقال الضَّحَّاك: يبعثها الله علىٰ السَّحاب، فتُلَقِّحه، فيمتلئ ماء.

وقال عُبَيْد بن عُمَير اللَّيْثي: يبعث الله المُبَشِّرة فتَقُمُّ الأرض قَمًّا[(١٠)] ثم يبعث الله المثيرَة فتثير السحاب، ثم يبعث الله المُؤَلِّفة فتؤلِّف السحاب، ثم يبعث الله اللَّواقح فتلقح الشَّجر، ثم تلا ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ ﴾.

وقد روىٰ ابن جرير، من حديث عُبَيْس بن ميمون، عن أبي المُهَزِّم، عن أبي هريرة، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «الرِّيحُ الجَنُوبُ مِنَ الجَنَّةِ، وَهِيَ [الرِّيحُ اللَّوَاقِحُ، وَهِيَ الَّتِي][(١١)] ذَكَرَ اللهُ فِي كِتَابِهِ، وَفِيهَا مَنَافِعُ لِلنَّاسِ» وهذا إسنادٌ ضعيفٌ[(١٢)].

---

(١) في (ز): (بن مواء)، وهو خطأ.

(٢) ضعيف: رواه أبو الشيخ في «العظمة» (٢/ ٢٥٥)، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٢٨٢٤).
قلت: وعلته حبان بن أغلب: ضعيف، ضعفه أبو حاتم وغيره، وأبوه: أغلب بن تميم: قال ابن معين: ليس بشيء، وقال البخاري: منكر الحديث، وقال ابن عدي: يكتب حديثه «تاريخ ابن معين» (٤/ ١٢٧)، «التاريخ الكبير» (٢/ ٧٠)، «الكامل في الضعفاء» (٢/ ١٢٢).

(٣) في (ز): (المسكين)، وهو خطأ.

(٤) سقط من (ز).

(٥) في (ز): (يرسل).

(٦) كذا في (ز)، وفي بعض النسخ: (الريح).

(٧) مرىٰ الناقة: مسح ضرعها، فأَمْرَتْ هي: در لبنها.

(٨) اللِّقحة: الناقة القريبة العهد بالنتاج، واللَّقُوح أيضًا: غزيرة اللبن.

(٩) صحيح: رواه الطبري (١٤/ ٢٠).

(١٠) أي: تكنُس الأرض كَنْسًا.

(١١) ما بين المعقوفتين سقط من (ز)، وهي ثابتة في «الطبري».

(١٢) ضعيف جدًّا: رواه ابن جرير (١٤/ ٢٢)، وفيه أبو المهزم: قال الحافظ في «التقريب» (٨٣٩٧): متروك.

وقال الإمام أبو بكر عبد الله بن الزبير الحُمَيدي في «مسنده»: حدَّثنا سفيان، حدَّثنا عمرو بن دينار، أخبرني يزيد بن جُعْدبة اللَّيثي: أنَّه سمع عبد الله بن مِخْراق، يحدث عن أبي ذرٍّ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ خَلَقَ فِي الجَنَّةِ رِيحًا بَعْدَ الرِّيحِ بِسَبْعِ سِنِينَ، وَإِنَّ مِنْ دُونِهَا بَابًا مُغْلَقًا، وَإِنَّمَا يَأْتِيكُمُ الرِّيحُ مِنْ خَلَلِ ذَلِكَ البَابِ، وَلَوْ فُتِحَ [لَأَذْرَتْ]**(١) (٢) **مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ، وَهِيَ عِنْدَ اللهِ الأَزْيَبُ**(٣)**، وَهِيَ فِيكُمُ الجَنُوبُ**»(٤).

وقوله: ﴿فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ﴾ أي: أنزلناه لكم عَذْبًا يُمْكِنُكم أن تشربوا منه، ولو نشاء لجعلناه أجاجًا. كما يُنَبِّه الله علىٰ ذلك في الآية الأخرىٰ في سورة «الواقعة»؛ [وهو](٥) قوله: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ [الواقعة: ٦٨-٧٠]، وفي قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ [النحل: ١٠]

وقوله: ﴿وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾ قال سفيان الثوري: بِمَانِعِينَ.

ويحتمل أن المراد: وما أنتم له بحافظين، بل نحن ننزله ونحفظه عليكم، ونجعله مَعِينًا وينابيعَ في الأرض، ولو شاء تعالىٰ لأغاره وذهب به، ولكن مِن رحمته أنزله وجعله عذبًا، وحفِظَهُ في العيون والآبار والأنهار وغير ذلك؛ لِيَبْقَىٰ لهم في طول السَّنة، يشربون ويسقون أنعامهم وزروعهم وثمارهم.

وقوله: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ﴾ إخبارٌ عن قدرته تعالىٰ علىٰ بدء الخلق وإعادته، وأنَّه هو الذي أحيا الخلق من العدم، ثم يُمِيتُهم ثم يَبْعَثُهم كلهم ليوم الجمع.

وأخبر أنه تعالىٰ يَرِثُ الأرض ومَن عليها وإليه يرجعون.

ثم قال مخبرًا عن تمام علمه بهم، أولهم وآخرهم: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾: قال ابن عبَّاس ﵄ المستقدمون: كلُّ مَن هلك مِن لدن آدم ﵇، والمستأخرون: مَن هو حَيٌّ ومَن سيأتي إلىٰ يوم القيامة.

ورُوي نحوه عن عكرمة، ومجاهد، والضَّحَّاك، وقتادة، ومحمَّد بن كعب، والشعبي، وغيرهم. وهو اختيار ابن جرير ﵀.

وقال ابن جرير: حدَّثنا محمَّد بن عبد الأعلىٰ، حدَّثنا المعتمر بن سليمان، عن أبيه، [عن رجل](٦) عن مَرْوان بن الحكم أنه قال: كان أُناسٌ يستأخرون في الصفوف من أجل النِّساء فأنزل الله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا

---

(١) في (ز): (لأذرب). (٢) أي: لأطارته.

(٣) **الأزيب**: من أسماء ريح الجنوب.

(٤) موضوع: الحميدي (١٢٩) والبزار (٢٠٨٨)، وقال الهيثمي (٨/ ١٣٥)، فيه يزيد بن عياض بن جعدبة وهو متروك، وقال الحافظ في «التقريب»: كذبه مالك وغيره. والحديث حكم عليه الألباني بالوضع. انظر: «الضعيفة» (٣٠٧٤).

(٥) في (ز): (وهي). (٦) في (ز): (أخبرنا)، والمثبت موافق لما في «الطبري».

﴿ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾(١).

وقد ورد في هذا حديث غريبٌ جدًّا، فقال ابن جرير: حدَّثني محمَّد بن موسىٰ [الحَرَشي](٢)، حدَّثنا نوح بن قيس(٣)، حدَّثنا عمرو بن مالك، عن أبي الجوزاء، عن ابن عبَّاس ﵄ قال: كانت تُصلِّي خلف رسول الله ﷺ امرأةٌ -قال ابن عبَّاس: لا والله [ما](٤) إنْ رَأَيْتُ مثلها قط- وكان بعض المسلمين إذا صَلَّوا استقدموا؛ يعني: لئلَّا يراها وبعضٌ يستأخرون، فإذا سجدوا نظروا إليها مِن تحت أَيْدِيهِم!! فأنزل الله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾(٥).

وكذا رواه أحمد وابن أبي حاتم في «تفسيره»، والترمذي والنسائي في كتاب التفسير من «سننيهما» وابن ماجة من طرق عن نوح بن قيس الحُداني وقد وَثَّقه أحمد وأبو داود وغيرهما، وحكي عن ابن معين تضعيفه، وأخرج له مسلم وأهل السنن.

وهذا الحديث فيه نكارةٌ شديدةٌ، وقد رواه عبد الرزَّاق، عن جعفر بن سليمان، عن عمرو بن مالك وهو [النُّكْري](٦) أنه سمع أبا الجَوْزاء يقول في قوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ﴾ في الصفوف في الصلاة ﴿ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾ فالظاهر أنَّه من كلام أبي الجوزاء فقط، ليس فيه لابن عبَّاس ذكرٌ، وقد قال الترمذي: هذا أشبه من رواية نوح بن قيس والله أعلم.

وهكذا روىٰ ابن جرير عن محمَّد بن أبي معشر، عن أبيه: أنَّه سمع عون بن عبد الله [يُذاكر](٧) محمَّد بن كعب في قوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾ وأنَّها في صفوف الصلاة، فقال محمَّد بن كعب: ليس هكذا، ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ﴾ الميت والمقتول و ﴿ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾ من يُخلقُ بَعْدُ، ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ فقال عون بن عبد الله: وفقك الله وجزاك خيرًا(٨).

---

(١) ضعيف: رواه الطبري (١٤/ ٢٦)، وفيه رجل مجهول والإسناد مرسل لا يصح.

(٢) في (ز): (الجرشي)، وهو خطأ، والمثبت موافق للمطبوع من طبعة «الطبري» طبعة: الدكتور/ عبد الله بن المحسن التركي (١٤/ ٥٣).

(٣) في (ز): زيادة: (حدَّثنا عمرو بن قيس)، وهي خطأ.

(٤) سقط من (ز)، وهي مثبتة في الطبري (١٤/ ٥٤).

(٥) رواه ابن جرير (١٤/ ٢٦)، والترمذي (٣١٢١)، وابن ماجه (١٠٤٦)، وأحمد (١/ ٣٠٥)، والحاكم (٢/ ٣٥٣)، وصححه ووافقه الذهبي، وأعله الترمذي بأنه ثبت من طريق أخرىٰ دون ذكر ابن عبَّاس، وأعله ابن كثير بالنكارة في متنه، وقد ناقش الشيخ الألباني هذه العلل وحكم للحديث بالصحة، انظر: «الصحيحة» (٢٤٧٢)، ولكن تظل غرابة هذا الحديث أن الآية مكية؛ والقصة تشعر بأن ابن عبَّاس كان مدركًا لها، وهذا بعيد؛ لأنه يوم الهجرة لم يبلغ الثالثة من عمره، فكيف يقول: لا والله ما إن رأيت مثلها قط ـ يعني المرأة ـ؛ فهذا يدل علىٰ نكارة هذا الحديث، ثم إنه لم يكن بمكة مسجد يجتمع فيه الرجال والنساء. والله أعلم.

(٦) في (ز): (السكري)، وهو خطأ.

(٧) في (ز): (يذاكر عن).

(٨) رواه الطبري (١٤/ ٢٣)، وفيه أبو معشر ضعيف، وإن كان هذا هو الأقرب في معنىٰ الآية.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾

قال ابن عبَّاس، ومجاهد، وقتادة: المراد بـ«الصَّلصَال» هاهنا: التراب اليابس.

والظاهر أنه كقوله تعالىٰ: ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ [الرحمن: ١٤-١٥]. وعن مجاهد أيضًا: الصَّلْصَال: المنتن. وتفسير الآية بالآية أولىٰ.

وقوله: ﴿مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ أي: الصَّلصال من حمَإٍ، وهو: الطِّين. والمسنون: الأملس، كما قال الشاعر:

ثُمَّ خَاصَرْتُهَا إِلَىٰ القُبَّةِ الخَضْـ ... ـرَاءِ تَمْشِي فِي مَرْمَرٍ مَسْنُونِ

أي: أملس صقيل.

ولهذا رُوِي عن ابن عبَّاس: أنَّه قال: هو التُّراب الرَّطب. وعن ابن عبَّاس، ومجاهد، والضَّحَّاك أيضًا: أن «الحمأَ المسنُون» هو: المُنْتِن. وقيل: المراد بـ«المسنون» هاهنا: المَصْبُوب.

وقوله: ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ﴾ أي: من قَبْلُ الإنسان ﴿مِن نَّارِ السَّمُومِ﴾ قال ابن عبَّاس: هي السَّموم التي تَقْتُل.

وقال بعضهم: السَّموم باللَّيل والنَّهار. ومنهم مَن يقول: السَّموم باللَّيل، والحَرُور بالنَّهار.

وقال أبو داود الطيالسي: حدَّثنا شعبة، عن أبي إسحاق قال: دخلت علىٰ عَمْرو الأصم أعوده، فقال: ألا أحدِّثك حديثًا سمعته مِن عبد الله بن مسعود، يقول: هذه السَّموم جزءٌ مِن سبعين جزءًا من السَّموم التي خُلِقَ منها الجانُّ، ثم قرأ: ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ﴾[1].

وعن ابن عبَّاس: أنَّ الجانَّ خُلِقَ مِن لهب النَّار، وفي رواية: مِن أحسَنِ النَّار[2].

وعن عمرو بن دينار: مِن نارِ الشَّمْس، وقد ورد في «الصحيح»: «خُلِقَتِ المَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ، وَخُلِقَتِ الجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ، وَخُلِقَ بَنُو آدَمَ[3] مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ»[4] ومقصود الآية: التَّنبيه علىٰ شرف آدم عليه السلام وطيب عُنصُرِهِ، وطهارة مَحْتِدِهِ[5].

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾﴾

---

(١) صحيح: رواه الطبري (١٤/ ٣٠).

(٢) رواه الطبري (١٤/ ٣٠)، ورواه باللفظ الآخر ابن أبي حاتم (١٢٣٧٩).

(٣) كذا في (ز)، والذي في «الصحيح»: (وخُلِقَ آدم). (٤) مسلم (٢٩٩٦)، وأحمد (٦/ ١٥٣).

(٥) المَحْتِدُ: الأصل والطبع، «القاموس المحيط» (ص٣٤٠) (حتد).

يذْكُر تعالىٰ تَنْوِيهَهُ بذكر آدم في ملائكته قبل خلقِهِ [لَهُ][1]، وتشريفِهِ إيَّاه بأمره الملائكةَ بالسُّجود له. ويَذْكُر تخلُّف إبليسَ عدوِّه عن السُّجود له مِن بين سائر الملائكة، حَسَدًا وكفرًا، وعنادًا واستكبارًا، وافتخارًا بالباطل، ولهذا قال: ﴿لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ كما قال في الآية الأخرىٰ: [﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢] وقوله:][2] ﴿أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء:٦٢].

وقد روىٰ ابن جرير هاهنا أثرًا غريبًا عجيبًا، مِن حديث شبيب بن بشر، عن عِكْرِمة، عن ابن عبَّاس قال: لما خلق الله الملائكة قال: إنِّي خالقٌ بشرًا من طين، فإذا [أنا خلقته][3] فاسْجُدُوا له. قالوا: لا نفعل. فأرسل عليهم نارًا فأحرقتهم، ثم خلق ملائكةً فقال لهم مثل ذلك، [فقالوا: لا نفعل. فأرسل عليهم نارًا فأحرقتهم. ثم خلق ملائكة أخرىٰ فقال: إني خالقٌ بشرًا من طين، فإذا أنا خلقته فاسجدوا له فأبوا، فأرسل عليهم نارًا فأحرقتهم. ثم خلق ملائكة فقال: إنِّي خالقٌ بشرًا من طين، فإذا أنا خلقته فاسجدوا له][4] قالوا: سمعنا وأطعنا، إلا إبليس كان من الكافرين الأولين[5].

وفي ثبوت هذا عنه بعد، والظاهر أنه إسرائيلي، والله أعلم.

﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ[6] ﴿٣٨﴾﴾

يقول آمرًا لإبليس أمرًا كونيًّا لا يخالَفُ ولا يمانَعُ، بالخروج من المنزلة التي كان فيها من الملأ الأعلىٰ، وإنه ﴿رَجِيمٌ﴾ أي: مرجوم. وإنه قد أتبعه لعنةً لا تزال متصلةً به، لاحقةً له، متواترةً عليه إلىٰ يوم القيامة.

وعن سعيد بن جبير أنه قال: لما لعن الله إبليس، تغيَّرت صورته عن صورة الملائكة، ورَنَّ رَنَّةً[7] فكل رَنَّةٍ في الدنيا إلىٰ يوم القيامة منها. رواه ابن أبي حاتم[8].

---

(١) سقط من (ز). (٢) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

(٣) في (ز): (سويته)، والمثبت موافق لما في «الطبري».

(٤) ما بين المعقوفتين سقط من (ز)، وهو مثبت في «تفسير الطبري» (١٤/ ٦٦).

(٥) ضعيف: رواه الطبري (١٤/ ٣١)، وفيه شبيب بن بشر: صدوق يخطئ كما في «التقريب» والظاهر أن هذا الأثر من الإسرائيليات التي قرأها ابن عبَّاس من كتبهم، وهو متعارضٌ مع القرآن حيث أخبر الله عن الملائكة أنهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

(٦) يقول السعدي رحمه الله: وليس إجابة الله لدعائه كرامةً في حقه وإنما ذلك امتحانٌ وابتلاءٌ من الله له وللعباد؛ ليتبين الصادق الذي يطيع مولاه دون عدوه ممن ليس كذلك؛ ولذلك حذرنا منه غاية التحذير وشرح لنا ما يريده منا.

(٧) أي: صيحة شديدة.

(٨) ضعيف: رواه ابن أبي حاتم (١٣٢٤٢)، وأبو الشيخ في «العظمة» (١١٢٢)، وابن أبي الدنيا في «مكائد الشيطان» (٣٣) وعلته الإرسال.

وإنه لما تحقَّق الغضب الذي لا مَرَدَّ له، سأل مِن تمام حسده لآدم وذريته النظرة إلىٰ يوم القيامة، وهو يوم البعث وأنه أجيب إلىٰ ذلك استدراجًا له وإمهالًا فلمَّا تحقق النظرة قبحه الله.

﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾﴾

يقول تعالىٰ مخبرًا عن إبليس وتمرده وعتوه أنه قال للرَّبِّ: ﴿بِمَآ أَغْوَيْتَنِي﴾ قال بعضهم: أقسم بإِغْوَاءِ الله له.

قلت: ويُحْتمل أنَّه بسبب ما أغويتني وأضللتني ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ﴾ أي: لذرية آدم عليه السلام ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: أحبب إليهم المعاصي وأرغِّبهم فيها، وأَؤُزُّهم[1] إليها، وأُزْعِجُهُم إزعاجًا، ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ﴾ أي: كما أغويتني وقدَّرت علي ذلك، ﴿أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ كما قال: ﴿أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٢].

قال الله تعالىٰ له متهدِّدًا ومتوعدًا ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ أي: مرجعكم كلكم إلي، فأجازيكم بأعمالكم، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ١٤]. وقيل: طريق الحق مرجعها إلىٰ الله تعالىٰ، وإليه تنتهي. قاله مجاهد، والحسن، وقتادة كما قال: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ [النحل: ٩].

وقرأ قيس بن [عُباد][2]، ومحمَّد بن سيرين، وقتادة: «هَذَا صراطٌ عَلِيٌّ مستقِيم» كقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الزخرف: ٤] أي: رفيع. والمشهور القراءة الأولىٰ[3].

وقوله: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ أي: [الذين][4] قدرت لهم الهداية، فلا سَبِيلَ لك عليهم، ولا وصول لك إليهم، ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ استثناءٌ منقطعٌ.

وقد أورد ابن جَرير هاهنا من حديث عبد الله بن المبارك، عن عبد الله بن مَوْهَبٍ، حدَّثنا يزيد بن قُسَيْط قال: كانت الأنبياء يكون لهم مساجدُ خارجةٌ مِن قُراهُم، فإذا أراد النَّبيُّ أن يستنبئَ ربَّه عن شيءٍ، خرج إلىٰ [مسجده][5] فصلَّىٰ ما كتب الله له، ثم سأل ما بدا له، فبَيْنَا نبيٌّ في مسجده إذ جاء عدو الله - يعني: إبليس- حتَّىٰ جلس بينه وبين القبلة، فقال النَّبيُّ: «أَعوذُ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ». [فقال عدو الله:

---

(١) أَزَّهم: حركهم وأزعجهم.
(٢) في (ز): (عبادة)، وهو خطأ.
(٣) متواترة: قَرَأَ (عَلِيٌّ) يَعْقُوبُ وَوَافَقَهُ الْحَسَنُ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ (عَلَيَّ).
(٤) في (ز): (الذي).
(٥) في (ز): (مسجد)، والمثبت موافق لما في «الطبري».

أرأيت الَّذي تَعَوَّذُ منه؟ فهو هو. فقال النبيُّ: «أَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ[(١)] الرَّجِيم» قال: فردَّد ذلك ثلاث مراتٍ، فقال عدو الله: أخبرني بأيِّ شيءٍ تنجو مني؟ فقال النَّبيُّ: «بَلْ أَخْبِرْنِي [بِأَيِّ شَيْءٍ][(٢)] تَغْلِبُ ابْنَ آدَمَ؟» مرتين، فأخذ كل [واحدٍ][(٣)] منهما علىٰ صاحبه، فقال النَّبيُّ: «إِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ يَقُولُ: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾» قال عدو الله: قد سَمِعْتُ هذا قبل أن تولد. قال النَّبيُّ: «وَيَقُولُ اللهُ: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٢٠٠] وَإِنِّي وَاللهِ مَا أَحْسَسْتُ بِكَ قَطُّ إِلَّا اسْتَعَذْتُ بِاللهِ مِنْكَ». قال عدو الله: صدقت، بهذا تنجو مني. فقال النَّبيُّ: «[فَأَخْبِرْنِي][(٤)] بِأَيِّ شَيْءٍ تَغْلِبُ ابْنَ آدَمَ»؟ قال: آخذُهُ عند الغضب والهوىٰ[(٥)].

وقوله: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي: جهنم موعد جميع مَن اتَّبع إبليس، كما قال عن القرآن: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ [هود: ١٧].

ثم أخبر أن لجهنم سبعةَ أبوابٍ: ﴿لِكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ أي: قد كُتِبَ لكلِّ بابٍ منها جزءٌ مِن أتباع إبليس يدخلونه، لا محيد لهم عنه -أجارنا الله منها- وكل يدخل مِن باب بحسب عمله، ويستقر في دَرَكٍ بقدر فعله.

قال إسماعيل بن عُلَيَّة وشعبة كلاهما، عن أبي هارون الغَنَوِيِّ، عن حِطَّان بن عبد الله أنه قال: سمعت علي بن أبي طالبٍ وهو يخطب قال: إنَّ أبواب جهنم هكذا -قال أبو هارون: أطباقًا بعضها فوق بعض.

وقال إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن هُبَيْرة بن [يَرِيم][(٦)] عن علي رضي الله عنه قال: أبواب جهنَّم سبعة بعضها فوق بعض، فيمتلئ الأول، ثم الثَّاني، ثم الثَّالث، حتىٰ تُملأ كلُّها[(٧)].

وقال عِكْرِمة: ﴿سَبْعَةُ أَبْوَابٍ﴾ سبعة أطباق. وقال ابن [جريج][(٨)]: ﴿سَبْعَةُ أَبْوَابٍ﴾ أوَّلها جهنَّم، ثم لظَىٰ، ثم الحُطَمَة، ثم سعير، ثم سَقَر، ثم الجحيم، ثم الهاوية. [وروىٰ][(٩)] الضَّحَّاك عن ابن عبَّاس، نحوه. وكذا [روي][(١٠)] عن الأعمش بنحوه أيضًا.

وقال قتادة: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ وهي والله منازل بأعمالهم. رواهن ابن جرير.

وقال جويبر، عن الضَّحَّاك: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ قال: باب لليهود وباب

---

(١) ما بين المعقوفتين سقط من (ز)، وهو مثبت في «تفسير الطبري».
(٢) سقط من (ز). (٣) سقط من (ز). (٤) في (ز): (أخبرني).
(٥) ضعيف: رواه ابن جرير (١٤/ ٣٤)، وإسناده مرسل، وهذا من الأخبار التي تحتاج فيها إلىٰ ما يثبت عن النَّبيِّ ﷺ.
(٦) في (ز): (مريم)، وهو خطأ.
(٧) صحيح: الرواية الأولىٰ رواها الطبري (١٤/ ٣٥)، وأحمد في «الزهد» (ص١٦٣). وروىٰ الرواية الثانية: الطبري (١٤/ ٣٥)، وابن أبي شيبة (٨/ ٩٢)، بإسنادٍ حسن.
(٨) في (ز): (جرير). (٩) في (ز): (ورواية). (١٠) سقط من (ز).

للنَّصارىٰ، وباب للصَّابِئين، وباب للمجوس، وباب للذين أشركوا -وهم كفار العرب- وباب للمنافقين، وباب لأهل التَّوحيد، [فأهل التوحيد](١) يُرجىٰ لهم ولا يُرجىٰ لأولئك أبدًا.

وقال الترمذي: حدَّثنا عبد بن حُمَيْد، حدَّثنا عثمان بن عمر، عن مالك بن مِغْوَل، عن جُنَيْد عن ابن عمر، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «لِجَهَنَّمَ سَبْعَةُ أَبْوَابٍ: بَابٌ مِنْهَا لِمَنْ سَلَّ السَّيْفَ عَلَىٰ أُمَّتِي -أو قال: عَلَىٰ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ»(٢).

ثم قال: لا نعرفه إلا من حديث مالك بن مِغْوَل.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا عبَّاس بن الوليد الخلال، حدَّثنا زيد -يعني: ابن يحيىٰ- حدَّثنا سعيد بن بشير، عن قتادة، عن أبي نضرة، عن سَمُرَة بن جُنْدَب، عن النَّبيِّ ﷺ في قوله: ﴿لِكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ قال: «إِنَّ مِنْ أَهْلِ النَّارِ مَنْ تَأْخُذُهُ النَّارُ إِلَىٰ كَعْبَيْهِ، وَإِنَّ مِنْهُمْ مَنْ تَأْخُذُهُ النَّارُ إِلَىٰ حُجْزَتِهِ(٣)، وَمِنْهُمْ مَنْ تَأْخُذُهُ النَّارُ إِلَىٰ تَرَاقِيهِ، مَنَازِلُ بِأَعْمَالِهِمْ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿لِكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾»(٤).

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ (٤٥) ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ (٤٦) وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ (٤٧) لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ (٤٨) ۞ نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ (٤٩) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ (٥٠)﴾

لما ذكر تعالىٰ حالَ أهل النَّار، عطف علىٰ ذكر أهل الجنَّة، وأنَّهم في جنَّاتٍ وعيون.

وقوله: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ﴾ أي: سالمين مِن الآفات، مسلَّمٌ عليكم، ﴿ءَامِنِينَ﴾ من كلِّ خوفٍ وفزعٍ، ولا [تخشَوْا](٥) مِن إخراجٍ، ولا انقطاعٍ، [ولا](٦) فناءٍ.

وقوله: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ روىٰ القاسم، عن أبي أمامة قال: يدخل أهل الجنَّة الجنَّة علىٰ ما في صدورهم في الدُّنيا من الشحناء والضَّغائِن، حتىٰ إذا توافَوْا وتقابلوا نزع الله ما في صدورهم في الدُّنيا مِن غِلٍّ، ثم قرأ: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾(٧).

هكذا في هذه الرواية، والقاسم بن عبد الرحمن -في روايته عن أبي أمامة- ضعيف.

---

(١) سقط من (ز).

(٢) ضعيف: الترمذي (٣١٢٣)، وفيه جنيد، قال الحافظ: «قيل: لم يسمع من ابن عمر: مستور».
قلت: ويكفي للاستدلال لعدد أبواب جهنم: ذكر الآية من غير التفصيل الوارد في هذا الحديث.

(٣) **الحُجزة**: مَعقِدُ الإزار.

(٤) ضعيف بهذا اللفظ: رواه ابن أبي حاتم (١٢٣٩٦) وعلته سعيد بن بشير، قال الحافظ: ضعيف (تقريب التهذيب- ترجمة ٢٢٧٦): ولكن أصل الحديث في «صحيح مسلم» (٢٨٤٥)، دون قوله: «**فذلك قوله**: ﴿لِكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ (٤٤)﴾.

(٥) في (ز): (يخشوا). (٦) سقط من (ز).

(٧) رواه الطبري (١٤/ ٣٦)، ورواية القاسم عن أبي أمامة ضعيفة، لكن يشهد له الرواية الآتية، كما يكفي في صحة ذلك الحديث الآتي.

وقد روىٰ سُنَيْد في «تفسيره»: حدَّثنا ابن فَضَالة، عن لقمان، عن أبي أمامة قال: لا يدخل مؤمنٌ الجنَّة حتىٰ ينزع الله ما في صدرهم مِن غِلٍّ، حتىٰ ينزع منه مثل السبع الضاري(١).

وهذا موافقٌ لما في «الصحيح» من رواية قتادة، حدَّثنا أبو المتوكل الناجي: أن أبا سعيدٍ الخدرىٰ حدثهم: أن رسول الله ﷺ قال: «يَخْلُصُ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ، فَيُحْبَسُونَ عَلَىٰ قَنْطَرَةٍ بَيْنَ الجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَيُقْتَصُّ لِبَعْضِهِمْ مِنْ [بَعْضٍ](٢)، مَظَالِمُ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا، حَتَّىٰ إِذَا هُذِّبوا وَنُقُّوا، أُذِنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الجَنَّةِ»(٣).

وقال ابن جرير: حدَّثنا الحسن، حدَّثنا يزيد بن هارون، أخبرنا هشام، عن محمَّد -هو ابن سيرين- قال: استأذن الأشتر علىٰ عليٍّ رضي الله عنه وعنده ابنٌ لطلحة، فحبسه ثم أذن له. فلمَّا دخل قال: إنِّي لأراك إنما احتبستني لهذا؟ قال: أجل. قال: إنِّي لأُرَاهُ لو كان عندك ابنٌ لعثمان لحبستني؟! قال: أجل إني لأرجو أن أكون أنا وعثمان ممَّن قال الله تعالىٰ: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ [إِخْوَانًا](٤) عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾(٥).

وحدَّثنا الحسن: حدَّثنا أبو معاوية الضَّرير، حدَّثنا أبو مالك الأشجعي، عن أبي حبيبة -مولىٰ لطلحة- قال: دخل عمران ابن طلحة علىٰ عليٍّ رضي الله عنه بعدما فرغ من أصحابِ الجمل، فرحَّب به، وقال: إني لأرجو أن يجعلني الله وأباك من الذين قال الله: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ -قال: ورجلان جالسان علىٰ ناحية البُساط، فقالا: الله أعدل من ذلك، تقتلهم بالأمس، وتكونون إخوانًا! فقال عليٌّ رضي الله عنه: قُومَا أبعدَ أرضٍ وأَسْحَقَها! فمَن هو إذًا إنْ لم أكن أنا وطلحة، وذكر أبو معاوية الحديثَ بطوله(٦).

وروىٰ وَكِيعٌ، عن أبان بن عبد الله البجلي، عن نُعَيم بن أبي هند، عن رِبْعِي بن خِرَاش، عن علي، نحوه، وقال فيه: فقام رجلٌ من هَمْدان فقال: الله أعدل من ذاك يا أمير المؤمنين. قال: فصاح به علي صيحةً، فظننت أن القصر تَدهدَه لها، ثم قال: إذا لم نكن نحن فمن هو؟(٧).

وقال سعيد بن مسروق، عن [أبي](٨) طلحة [-وذكره- فيه](٩): فقال الحارث الأعور ذلك، فقام إليه علي رضي الله عنه فضربه بشيءٍ كان في يدِهِ في رأسه، وقال: فمن هم يا أعور إذا لم نكن نحن؟.

---

(١) رواه الطبري (١٤/ ٣٦)، وفيه فرج بن فضالة: ضعيف. وانظر ما قبله.

(٢) في (ز): (بعضهم)، والمثبت من «الصحيح».

(٣) البخاري (٢٤٤٠)، (٦٥٣٥)، وأحمد (٣/ ١٣، ٧٤)، وابن منده (٨٣٩)، وابن أبي عاصم (٨٥٨).

(٤) في (ز): (ويجعلنا) وهي ليست آية، وقد تكتب بلا رسم المصحف، ولكن المثبت موافق لما في «الطبري».

(٥) صحيح: رواه الطبري (١٤/ ٣٧)، وفيه انقطاع، بين محمَّد بن سيرين، وعلي، ولكن له طرق يشد بعضها بعضًا، بل إن بعضها صحيح، انظر: «الطبري» (١٤، ٣٧).

(٦) رواه الطبري (١٤/ ٣٧)، والبيهقي (٨/ ١٧٣)، والحاكم وصححه ووافقه الذهبي، وأحمد في «فضائل الصحابة» (١٢٩٨)، وانظر ما قبله.

(٧) رواه الطبري (١٤/ ٣٧)، ورواه الحاكم (٢/ ٣٥٣)، وانظر ما قبله.

(٨) في (ز): (ابن)، وهو خطأ.

(٩) في (ز): (فذكره، وفيه).

وقال سفيان الثوري: عن منصور، عن إبراهيم قال: جاء ابن جُرْمُوز قاتلُ الزبيرِ يستأذن علىٰ عليٍّ رضي الله عنه فحجبه طويلًا ثم أذن له، فقال له: أمَّا أهل البلاء فتجفوهم. فقال عليٌّ: بِفِيكَ الترابُ!! إني لأرجو أن أكون أنا وطلحة والزُّبير، ممن قال الله: ﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ إِخۡوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾[(١)].

وكذا روىٰ الثوري، عن جعفر بن محمَّد، عن أبيه، عن علي بنحوه.

وقال سفيان بن عُيَيْنة، عن إسرائيل، عن أبي موسىٰ، سمع الحسن البصري يقول: قال علي: فينا والله -أهلَ بدرٍ- نزلت هذه الآية: ﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ إِخۡوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾[(٢)].

وقال كثير [النَّوَّاء][(٣)]: دخلت علىٰ أبي جعفر محمَّد بن علي فقلت: وَلِيِّي وَلِيُّكم، وسِلْمِي سِلْمُكم، وعدُوِّي عدُوُّكم، وحَرْبِي حَرْبُكم. إنِّي أسألك بالله: أَتبرَأُ مِن أبي بكر وعمر؟ فقال: ﴿قَدۡ ضَلَلۡتُ إِذٗا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ [الأنعام: ٥٦] تَوَلَّهُما يا كثيرُ، فما أدركَكَ فهو في رقبتي هذه، ثم تلا هذه الآية: ﴿إِخۡوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ قال: أبو بكر، وعمر، وعلي رضي الله عنهم أجمعين[(٤)].

وقال الثوري، عن رجل، عن أبي صالح في قوله: ﴿إِخۡوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ قال: هم عشرة: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وطلحة، والزبير، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وسعيد ابن زيد، وعبد الله بن مسعود رضي الله عنهم أجمعين. وقوله: ﴿مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ قال مجاهد: لا ينظر بعضهم في قفَا بعض. وفيه حديثٌ مرفوعٌ.

قال ابن أبي حاتم: حدَّثنا يحيىٰ بن عبدك القَزْويني، حدَّثنا حسان بن حسان، حدَّثنا إبراهيم بن بشر، حدَّثنا يحيىٰ بن معين، عن إبراهيم [القرشي][(٥)]، عن سعيد بن شرحبيل، عن زيد بن أبي أوفىٰ قال: خرج علينا رسول الله ﷺ، فتلا هذه الآية: ﴿إِخۡوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ في الله، ينظر بعضهم إلىٰ بعض[(٦)].

وقوله: ﴿لَا يَمَسُّهُمۡ فِيهَا نَصَبٞ﴾ يعني: المشقة والأذىٰ، كما جاء في «الصحيحين»: «**إِنَّ اللهَ أَمَرَنِي أَنْ أُبَشِّرَ خَدِيجَةَ بِبَيْتٍ فِي الجَنَّةِ مِنْ قَصَبٍ، لا صَخَبَ فِيهِ وَلا نَصَبَ**»[(٧)(٨)].

وقوله: ﴿وَمَا هُم مِّنۡهَا بِمُخۡرَجِينَ﴾ كما جاء في الحديث: «**يُقَالُ: يَا أَهْلَ الجَنَّةِ، إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَصِحُّوا**

---

(١) رواه الطبري (١٤/ ٣٧)، وفيه سفيان بن وكيع: ضعيف.

(٢) ضعيف: رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٨٧٦)، والطبري (١٤/ ٣٦)، إسناده منقطع بين الحسن البصري وعليٍّ.

(٣) في (ز): (الفراد)، وهو خطأ؛ و(كثير النَّوَّاء): ضعيف.

(٤) رواه الطبري (١٤/ ٣٨)، وكثير النوّاء: ضعيف.

(٥) في (ز): (القومسي)، وهو خطأ.

(٦) ضعيف: رواه البخاري في «التاريخ الكبير» (٣/ ٣٨٦)، وفي «الصغير» (١/ ٢٥٠)، وقال: هذا إسناد مجهول لا يتابع عليه ولا يعرف سماع بعضهم من بعض، وقد روي من طريق أخرىٰ، رواه الطبراني في «الكبير» (٥/ ٥١٤٦) من طريق عبد الله بن شرحبيل عن رجل عن زيد به. قال الشيخ الألباني في «الضعيفة» (١٣٦٩): وهذا إسناد ضعيف مظلم. الرجل من قريش لم يسم واللذّان دونه لم يترجم لهما أحد. وحكم علىٰ هذه الرواية بالوضع.

(٧) القصب: اللؤلؤ المجوَّف، والصخب: الصوت المختلط المرتفع، والنصب: المشقة والتعب.

(٨) البخاري (١٧٩٢، ٣٨١٩)، ومسلم (٢٤٣٣).

فَلَا تَمْرَضُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَعِيشُوا فَلَا تَمُوتُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَشِبُّوا فَلَا تَهْرَمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تُقِيمُوا فَلَا تَظْعَنُوا أَبَدًا»[(١)]، وقال الله تعالىٰ: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ [الكهف:١٠٨].

وقوله: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ أي: أخبر يا محمَّد عبادي أنِّي ذو رحمةٍ وذو عقابٍ أليم.

وقد تقدَّم ذكر نظير هذه الآية الكريمة، وهي دالَّةٌ علىٰ مقامَي الرجاء والخوف، وذكر في سبب نزولها ما رواه موسىٰ بن عبيدة عن مصعب بن ثابت قال: مر رسول الله ﷺ علىٰ ناسٍ من أصحابه يضحكون، فقال: «اذْكُرُوا الجَنَّةَ، وَاذْكُرُوا النَّارَ». فنزلت: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ رواه ابن أبي حاتم. وهو مرسل[(٢)].

وقال ابن جرير، حدَّثني المثنىٰ، حدَّثنا إسحاق، أخبرنا ابن المكي، أخبرنا ابن المبارك، أخبرنا مصعب بن ثابت، حدَّثنا عاصم بن عبيد الله، عن ابن أبي رباح، عن رجل من أصحاب النَّبيِّ ﷺ قال: طلع علينا رسول الله ﷺ من الباب الذي يدخل منه بنو شيبة، فقال: «أَلَا أَرَاكُمْ تَضْحَكُونَ؟» ثم أدبر، حتىٰ إذا كان عند الحجر رجع إلينا القهقرىٰ، فقال: «إِنِّي لَمَّا خَرَجْتُ جَاءَ جِبْرِيلُ عليه السلام فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّ اللهَ يَقُولُ [لِمَ][(٣)] تُقَنِّطُ عِبَادِي؟ ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾»[(٤)].

وقال سعيد، عن قتادة في قوله تعالىٰ: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ قال: بلغنا أن رسول الله ﷺ قال: «لَوْ يَعْلَمُ العَبْدُ قَدْرَ عَفْوِ اللهِ لَمَا تَوَرَّعَ مِنْ حَرَامٍ، وَلَوْ يَعْلَمُ قَدْرَ عِقَابِهِ لَبَخَعَ نَفْسَهُ»[(٥)][(٦)].

﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾﴾

يقول تعالىٰ: وخبِّرهم يا محمَّد عن قصة ﴿ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ والضَّيف: يطلق علىٰ الواحد والجمع، كالزَّوْر والسَّفْر -وكيف ﴿دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾ أي: خائفون.

---

(١) مسلم (٢٨٣٧)، والترمذي (٣٢٣١)، والنسائي في «الكبرىٰ» (١١١٨٤).

(٢) ضعيف: رواه ابن أبي حاتم (١٣٢٥٩)، علته موسىٰ بن عبيدة، ومصعب بن ثابت، وكلاهما ضعيف.

(٣) سقط من (ز).

(٤) ضعيف: ابن جرير (١٤/ ٣٩)، وفيه مصعب بن ثابت، انظر الحديث السابق.

(٥) أي: قهرها وأذلها.

(٦) ضعيف بهذا السياق: فقد رواه ابن جرير (١٤/ ٣٩)، وإسناده مرسل ولكنه ثبت بلفظ آخر صحيح: «لو يعلمُ المؤمنُ ما عندَ اللهِ من العقوبةِ ما طَمِعَ في الجنةِ أحدٌ، ولو يعلمُ الكافرُ ما عندَ اللهِ منَ الرحمةِ ما قَنِطَ من الجنةِ أحدٌ»، وقد تقدم تخريجه، انظر الآية (٣) من سورة الفاتحة.

وقد ذكر سبب خوفه منهم لما رأىٰ أيديهم لا تصل إلىٰ ما قربه لهم ضيافة، وهو العِجْل السَّمين الحَنيذ. ﴿قَالُواْ لَا تَوْجَلْ﴾ أي: لا تخف، ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ [الذاريات: ٢٨] وهو إسحاق عليه السلام كما تقدَّم في «سورة هود». فـ﴿قَالَ﴾ متعجبًا مِن كِبَرِه وكِبَرِ زوجتِهِ ومُتحقِّقًا للوعد: ﴿أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ فأجابوه مُؤَكِّدين لما بَشَّروه به تحقيقًا وبشارةً بعد بشارةٍ، ﴿قَالُواْ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ﴾ وقرأ بعضهم: «القَنِطين»[1] -فأجابهم بأنَّه ليس يقنط، ولكن يرجو من الله الولد، وإن كان قد كبر وأسنَّت امرأته، فإنَّه يعلم مِن قدرةِ الله ورحمته ما هو أبلغ من ذلك.

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾

يقول تعالىٰ إخبارًا عن إبراهيم عليه السلام لما ذهب عنه الرَّوْع وجاءته البُشْرَىٰ: إنه شرع يسألهم عمَّا جاؤوا له، فقالوا: ﴿إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ يعنون: قوم لوط. وأخبروه أنَّهم سينجُّون آل لوط مِن بينهم إلا امرأته فإنَّها من المهلَكِين؛ ولهذا قالوا: ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ أي: الباقين المهلَكِين.

﴿فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُواْ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾﴾

يُخْبِرُ تعالىٰ عَن لوطٍ لما جاءته الملائكة في صورةِ شبابٍ حسانِ الوجوه، فدخلوا عليه داره، قال: ﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُواْ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ يعنون: بعَذابِهِم وهلاكهم ودمارهم الذي كانوا يَشُكُّون في وقوعه بهم، وحلوله بساحتهم، ﴿وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾ كما قال تعالىٰ: ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الحجر:٨]. وقوله: ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ تأكيدٌ لخبرهم إياه بما أخبروه به، من نجاته وإهلاك قومه، والله أعلم.

﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾﴾

يذكر تعالىٰ عن الملائكة أنَّهم أَمَرُوهُ أن يَسْرِي بأهله بعد مُضِيِّ جانب من الليل، وأن يكون لوط عليه السلام يَمْشِي وراءَهُم؛ لِيكُون أحفظ لهم. وهكذا كان رسول الله ﷺ يمشي في الغزاة بما كان يكون ساقة، يُزْجِي الضَّعيفَ[2]، ويحملُ المنقطِعَ.

وقوله: ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ أي: إذا سمعتم الصَّيحة بالقوم فلا تلتفتوا إليهم، وذروهم فيما حلَّ بهم مِن العذاب والنَّكال، ﴿وَٱمْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ كأنَّه كان معهم من يهديهم السَّبِيل.

---

(١) شاذة: قَرَأَ (القَنِطِينَ) الأَعْمَشُ، وَلَيْسَ فِي الْمُتَوَاتِرِ إِلَّا (الْقَانِطِينَ).

(٢) يُزْجِي الضعيف: أي يسوقه ليُلْحِقه بالرفقة، والمنقطع: المنفرد.

﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ﴾ أي: تقدمنا إليه في هذا ﴿أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾ أي: وقت: الصباح كما قال في الآية الأخرىٰ: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ [هود: ٨].

﴿وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾﴾[(١)]

يخبر تعالىٰ عن مجيءِ قوم لوط لَمَّا علموا بأضيافه وصَبَاحةِ وجوههم، وأنهم جاءوا مستبشرين بهم فرحين، ﴿قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ﴾.

وهذا إنَّما قاله لهم قبل أن يعلم بأنهم رسل الله كما قال في سياق سورة هود، وأمَّا هاهنا فتقدَّم ذِكرُ أنَّهم رسلُ الله، وعطف بذكر مجيءِ قومه ومُحَاجَّتِهِ لهم. ولكن الواو لا تقتضي التَّرتيب، ولا سيما إذا دَلَّ دليلٌ علىٰ خِلَافِهِ، فقالوا له مجيبين: ﴿أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: أو ما نهيناك أن تضيف أحدًا؟ فأرشدهم إلىٰ نِسَائِهِم، وما خلق لهم ربهم منهُنَّ من الفروج المباحة. وقد تقدم أيضًا القول في ذلك، بما أَغْنَىٰ عن إعادته.

هذا كله وهم غافلون عمَّا يُرَادُ بهم، وما قد أحاط بهم منَ البلاء، وماذا يُصبحهم من العذاب المستقر؛ ولهذا قال تعالىٰ لنبيه ﷺ: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[(٢)] أقسم تعالىٰ بحياة نبيه، صلوات الله وسلامه عليه، وفي هذا تشريفٌ عظيمٌ، ومقامٌ رفيعٌ وجاهٌ عريضٌ.

قال عمرو بن مالك [النُّكْري][(٣)] عن أبي الجوزاء، عن ابن عبَّاس، أنه قال: ما خلق الله وما ذَرَأَ وما بَرَأَ نفسًا أكرم عليه من محمَّد ﷺ، وما سمعت الله أقسم بحياة أحدٍ غيره، قال الله تعالىٰ: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[(٤)]. رواه ابن جرير[(٥)].

وقال قتادة: ﴿لَفِى سَكْرَتِهِمْ﴾ أي: في ضلالتهم، ﴿يَعْمَهُونَ﴾ أي: يلعبون.

---

(١) قال الشوكاني رَحِمَهُ اللهُ: قال القاضي عياض: اتفق أهل التفسير في هذا أنه قسم من الله ـ جلّ جلاله ـ بمدة حياة محمَّد ﷺ، وكذا حكىٰ إجماع المفسرين علىٰ هذا المعنىٰ أبو بكر بن العربي، فقال: قال المفسرون بأجمعهم: أقسم الله تعالىٰ ها هنا بحياة محمَّد ﷺ تشريفًا له.

(٢) قال أبو بكر الجزائري رَحِمَهُ اللهُ: هذا الإقسام بحياة النَّبيِّ ﷺ تشريفًا له، وأصل عمرك بضم العين وفتحت لكثرة الاستعمال، وجائز أن يكون القسم بحياة لوط أيضًا، وليس لأحدٍ أن يجيز القسم بغير الله محتجًّا بهذا القسم الإلهي فإن لله تعالىٰ أن يقسم بما شاء من خلقه، فقد أقسم بالشمس وضحاها، وأقسم بالسماء والليل وغيرها من مخلوقاته ولا اعتراض عليه، وأما العباد فقد أعلن الرسول ﷺ عن حرمة الحلف بغير الله فقد قال: «من حلفَ بغيرِ اللهِ فقدْ أشركَ» رواه الترمذي.

(٣) في (ز): (البكري)، وهو خطأ.

(٤) في بعض النسخ هنا زيادة: [يقول: وحياتك وعمرك وبقائك في الدنيا إنهم لفي سكرتهم يعمهون]، وهي غير مثبتة في «الطبري».

(٥) حسن: رواه الطبري (١٤/ ٤٤)، وأبو يعلىٰ (٢٧٥٤)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٥/ ٤٨٧).

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: [﴿لَعَمْرُكَ﴾][(١)] لعيشك، ﴿إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ قال: يتحيَّرون[(٢)].

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ[(٣)] ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾

يقول: تعالىٰ: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ﴾ وهي ما جاءهم من الصَّوت القَاصِف عند شروق الشمس، وهو طلوعها، وذلك مع رفع بلادهم إلىٰ عَنان السماء ثم قَلْبها، وجعْل عاليها سافلها، وإرسال حجارة السجيل عليهم. وقد تقدم الكلام علىٰ السجيل في سورة هود بما فيه كفاية.

وقوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ أي: إن آثار هذه النِّقم ظاهرةٌ علىٰ تلك البلاد لمن تأمَّل ذلك وتوسَّمه بعين بَصَرِه وبصيرته، كما قال مجاهد في قوله: ﴿لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ قال: المُتفرِّسين.

وعن ابن عبَّاس، والضَّحَّاك: للناظرين. وقال قتادة: للمعتبرين. وقال مالك عن بعض أهل المدينة: ﴿لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ للمتأملين.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا الحسن بن عرفة، حدَّثنا محمَّد بن كثير العَبْدي، عن عمرو بن قيس، عن عطية، عن أبي سعيدٍ قال: قال رسول الله ﷺ «اتَّقُوا فِرَاسَةَ المُؤْمِنِ، فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللهِ». ثم قرأ النَّبيُّ ﷺ: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾[(٤)].

رواه الترمذي، وابن جرير، من حديث عمرو بن قيس المُلَائي وقال الترمذي: لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

وقال ابن جرير أيضًا: حدَّثني أحمد بن محمَّد الطُّوسي، حدَّثنا الحسن بن محمَّد، حدَّثنا الفرات بن السائب، حدَّثنا ميمون بن مِهْران، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «اتَّقُوا فِرَاسَةَ المُؤْمِنِ؛ فَإِنَّ المُؤْمِنَ يَنْظُرُ بِنُورِ اللهِ»[(٥)].

وقال ابن جرير: حدَّثني أبو شرحبيل الحِمْصِيّ، حدَّثنا سليمان بن سلمة، حدَّثنا المُؤَمَّل بن سعيد بن يوسف الرَّحْبي، حدَّثنا أبو المُعَلَّىٰ أسد بن وداعة الطائي، حدَّثنا وهب بن مُنَبِّه، عن طاوس بن كَيْسَان، عن

---

(١) سقط من (ز).

(٢) في (ز): (يتميرون)، أو (يتميزون)، وفي بعض الطبعات: (يتمادون)، وكذا هو في «الطبري».

(٣) قال العلامة السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: أي: المتأملين المتفكرين، الذين لهم فكرٌ ورؤية وفراسةٌ، يفهمون بها ما أريد بذلك، من أن من تجرأ علىٰ معاصي الله، خصوصًا هذه الفاحشة العظيمة، وأن الله سيعاقبهم بأشنع العقوبات، كما تجرءوا علىٰ أشنع السيئات.

(٤) ضعيف: رواه الترمذي (٣١٢٦)، وابن جرير (١٤/ ٤٦)، وفيه عطية العوفي: قال الحافظ: صدوق يخطئ كثيرًا وكان شيعيًّا مدلسًا، والحديث ضعفه الألباني في «الضعيفة» (١٨٢١).

(٥) رواها ابن جرير (١٤/ ١٦)، وفيها الفرات بن السائب، قال فيه البخاري والدارقطني وغيرهما: منكر الحديث. «ميزان الاعتدال» (٣/ ٣٤١).

ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: «احْذَرُوا فِرَاسَةَ المُؤْمِنِ؛ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللهِ [وَيَنْطِقُ][1] بِتَوْفِيقِ اللهِ»[2].

وقال أيضًا: حدَّثنا عبد الأعلىٰ بن واصل، حدَّثنا سعيد بن محمَّد الجَرْمي، حدَّثنا عبد الواحد بن واصل، حدَّثنا أبو بشر المزلق، عن ثابت، عن أنس بن مالك قال: قال النَّبيُّ ﷺ: «إِنَّ للهِ عِبَادًا يَعْرِفُونَ النَّاسَ بِالتَّوَسُّمِ»[3].

ورواه الحافظ أبو بكر البزار: حدَّثنا سهل بن بحرٍ، حدَّثنا سعيد بن محمَّد الجرمي، حدَّثنا أبو بشر - يقال له: ابن المزلق، قال: وكان ثقة- عن ثابت، عن أنسٍ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ للهِ عِبَادًا يَعْرِفُونَ النَّاسَ بِالتَّوَسُّمِ»[4].

وقوله: ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ﴾ أي: وإن قرية سَدُوم التي أصابها [ما أصابها][5] من القلب الصُّوري والمَعْنَوِي، والقذف بالحِجَارَة، حتىٰ صارت بُحَيْرَةً منتنةً خبيثةً لَبِطَرِيق[6] مَهْيَع [مسالكه][7] مستمرة إلىٰ اليوم، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ۝١٣٧ وَبِٱلَّيْلِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات: ١٣٧، ١٣٨].

وقال مجاهد، والضَّحَّاك: ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ﴾ قال: مُعَلَّم. وقال قتادة: بطريقٍ واضح. وقال قتادة أيضًا: بصُقْعٍ من الأرض واحد. وقال السُّدِّي: بكتابٍ مبينٍ؛ يعني كقوله: ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ١٢] ولكن ليس المعنىٰ علىٰ ما قال هاهنا، والله أعلم.

وقوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: إنَّ الَّذِي صَنَعْنَا بقوم لوط من الهلاك والدَّمار وإنجائنا لوطًا وأهله - لدلالةٌ واضحةٌ جليَّةٌ للمؤمنين بالله ورسله.

﴿وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ۝٧٨ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ۝٧٩﴾

أصحاب الأَيْكَةِ: هم قوم شعيب. قال الضَّحَّاك، وقتادة، وغيرهما: الأيكة: الشجر الملتف.

وكان ظلمهم بشركهم بالله وقطعهم الطريق، ونقصهم المكيال والميزان. فانتقم الله منهم بالصَّيحة والرَّجفة وعذاب يوم الظُّلَّة، وقد كانوا قريبًا مِن قوم لوط، بَعْدَهم في الزَّمان، ومُسَامِتِين لهُم في المكان؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ أي: طريقٍ مُبِينٍ.

قال ابن عبَّاس، ومجاهد، والضَّحَّاك: طريق ظاهر؛ ولهذا لما أنذر شعيب قومه قال في نِذَارته إياهم: ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٩].

---

(١) سقط من (ز)، وهي مثبتة في «الطبري».

(٢) ضعيف جدًّا: رواه ابن جرير (١٤/ ٤٦)، وفيه المؤمل بن سعيد، قال ابن أبي حاتم: منكر الحديث، وكذلك سليمان ابن سلمة: متروك الحديث، أورد له الألباني شواهد أخرىٰ، وحكم عليه بالضعف، «الضعيفة» (١٨٢١).

(٣) حسنه الألباني: رواه ابن جرير (١٤/ ٤٦)، والبزار (٦٩٣٥)، وفيه أبو بشر، قال الحافظ: صدوق فيه لين، والحديث حسنه الشيخ الألباني في «الصحيحة» (١٦٩٣)، وحسنه الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٢٦٨).

(٤) انظر التعليق السابق.

(٥) سقط من (ز).

(٦) طريق مهيع: واضحة.

(٧) في (ز): (سالكة).

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾﴾

أصحاب الحِجْرِ هُم: ثمود الذين كذَّبوا صالحًا نبيَّهم، ومَن كذَّب برسولٍ فقد كذَّب بجميع المُرْسَلِين؛ ولهذا أطلق عليهم تكذيب المرسلين.

وذكر تعالىٰ أنَّه آتاهم مِن الآيات ما يَدُلُّهم علىٰ صدق ما جاءهم به صالح، كالنَّاقة التي أخرجها اللهُ لهُم بدُعَاءِ صالح مِن صخرة صمَّاء فكانت تسرح في بلادهم، لها شِرْبٌ ولهم شِرْبُ يوم معلومٍ. فلما عَتَوا وعقروها قال لهم: ﴿تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ [هود: ٦٥] وقال تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧].

وذكر تعالىٰ: أنهم ﴿وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ﴾ أي: من غير خوف ولا احتياج إليها، بل أشرًا وبطرًا وعبثًا، كما هو المشاهد من صنيعهم في بُيُوتِهم بوادي الحجر، الذي مَرَّ به رسول الله ﷺ وهو ذاهبٌ إلىٰ تبوك فقَنَّع رأسه[1] وأسرع دابته، وقال لأصحابه: «**لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ القَوْمِ المُعَذَّبِينَ إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ، فَإِنْ لَمْ تَبْكُوا فتَبَاكَوْا خَشْيَةَ أَنْ يُصِيبَكُمْ مَا أَصَابَهُمْ**»[2].

وقوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ﴾ أي: وقت الصباح من اليوم الرابع، ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ أي: ما كانوا [يستغلونه][3] من زُرُوعِهِم وثمارهم التي ضَنُّوا بمائها عن النَّاقة، حتىٰ عقروها لئلَّا [تضيِّق][4] عليهم في المياه، فما دفعت عنهم تلك الأموال، [ولا نفعتهم][5] لما جاء أمر ربك.

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾﴾

يقول تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بالعدل؛ ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١] وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [ص: ٢٧] وقال: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: ١١٥-١١٦].

ثم أخبر نبيَّه بقيام الساعة، وأنها كائنةٌ لا محالة، ثم أمره بالصَّفح الجميل عن المشركين، في أذاهم له وتكذيبهم ما جاءهم به، كما قال تعالىٰ: ﴿فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف:٨٩].

قال مجاهد وقتادة وغيرهما: كان هذا قبل القتال. وهو كما قالا فإنَّ هذه مكيَّةٌ، والقتال إنما

---

(١) أي: سجَّىٰ ثوبه علىٰ رأسه.

(٢) البخاري (٤٣٣)، ومسلم (٢٩٨٠)، وأحمد (٢/ ٧٤).

(٣) في (ز): (يشتغلونه).

(٤) في (ز): (يضيق).

(٥) في (ز): (ولا تنفعهم).

شرع بعد الهجرة.

وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ تقرير للمَعَاد، وأنَّه تعالىٰ قادرٌ علىٰ إقامة الساعة، فإنَّه الخلاق الذي لا يعجزه خلق ما يشاء، وهو العليم بما تمزق من الأجساد، وتفرق في سائر أقطار الأرض، كما قال تعالىٰ: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ۚ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: ٨١-٨٣].

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾

يقول تعالىٰ لنبيِّه: كما آتيناك القرآن العظيم، فلا تنظرنَّ إلىٰ الدُّنيا وزينتها، وما مَتَّعْنا به أهلها من الزَّهرة الفانية لنَفْتِنَهُم فيه، [فلا تَغْبِطْهُم بما هم فيه][1]، ولا تَذْهَبْ نفسُك عليهم حسرات حزنًا عليهم في تكذيبهم لك، ومخالفتهم دينك. ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٥] أي: أَلِنْ لهم جانبك كما قال تعالىٰ: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة:١٢٨].

وقد اختلف في السَّبع المثاني: ما هي؟

فقال ابن مسعود، وابن عمر، وابن عبَّاس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، والضَّحَّاك وغير واحدٍ: هي السَّبع الطُّوَل. يعنون: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، ويونس نَصَّ عليه ابن عبَّاس، وسعيد بن جبير. وقال [سعيد][2]: بيَّن فيهن الفَرائِض، والحدود، والقصص، والأحكام. وقال ابن عبَّاس: بيَّن الأمثال والخَبَر والعِبر. وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا ابن أبي عمر قال: قال سفيان: ﴿الْمَثَانِي﴾ الْمُثَنَّىٰ: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، والأنفال وبراءة سورة واحدة. قال ابن عبَّاس: ولم يُعْطَهُنَّ أحدٌ إلا النَّبيَّ ﷺ، وأُعْطِي موسىٰ منهنَّ ثِنْتَيْنِ. رواه هُشَيْم، عن الحجاج، عن الوليد بن العَيْزارِ عن سعيد بن جبير عنه[3].

وقال الأعمش، عن مسلم البَطِين، عن سعيد بن جبير، عن ابن عبَّاس قال: أوتي النَّبيُّ ﷺ سبعًا من المثاني الطُّوَل، وأوتي موسىٰ عليه السلام ستًّا، فلمَّا ألقىٰ الألواح ارْتَفَع اثْنَتَان وبقِيَت أربع[4]. وقال مجاهد: هي السَّبْعُ الطُّوَل. ويقال: هي القرآن العظيم.

---

(١) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

(٢) في (ز): (شعبة).

(٣) ضعيف: رواه ابن جرير (١٤/ ٥٢)، وفيه الحجاج بن أرطأة: ضعيف كما في «التقريب».

(٤) صحيح: رواه أبو داود (١٤٥٩)، والنسائي (٢/ ١٣٩)، وابن جرير (١٤/ ٥٢)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح أبي داود».

وقال خُصَيْف، عن زياد بن أبي مريم في قوله تعالىٰ: ﴿سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي﴾ قال: أعطيتك سبعة أجزاء: آمُرُ، وَأَنْهَىٰ، وَأُبَشِّرُ وَأُنْذِرُ، وَأَضْرِبُ الأَمْثَالَ، وَأُعَدِّدُ النِّعَمِ، وَأُنَبِّئُكَ بنبإِ القرآنِ. رواه ابن جرير، وابن أبي حاتم.

والقول الثاني: أنَّها الفاتحة، وهي سبع آيات. رُوي ذلك عن عُمَر، وعَلِي، وابن مسعود، وابن عبَّاس. قال ابن عبَّاس: والبسملة هي الآية السابعة، وقد خصَّكُم الله بها[١]. وبه قال إبراهيم النَّخَعِي، وعبد الله بن عبيد بن عُمَيْر، وابن أبي مُلَيْكة، وشَهْر بن حَوْشَب، والحسن البصري، ومجاهد.

وقال قتادة: ذكر لنا أنهن فاتحة الكتاب، وأنهن [يُثَنَّيْنَ][٢] في [كل][٣] قراءة. [وفي رواية: في كل][٤] ركعةٍ مكتوبةٍ أو تطوع.

واختاره ابن جرير، واحتج بالأحاديث الواردة في ذلك، وقد قدمناها في فضائل سورة «الفاتحة» في أول التفسير، ولله الحمد.

وقد أورد البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ هاهنا حديثين:

أحدهما: قال: حدَّثنا محمَّد بن بشار، حدَّثنا غُنْدر، حدَّثنا شعبة، عن [خُبيب][٥] بن عبد الرحمن، عن حفص بن عاصم، عن أبي سعيد بن المُعَلَّىٰ قال: مَرَّ بِيَ النَّبيُّ ﷺ وأنا أُصَلِّي، فدعاني فلَمْ آتِهِ حتىٰ صَلَّيتُ، ثم أَتَيْتُه فقال: «**مَا مَنعَكَ أَنْ تَأْتِيَنِي؟**». فقلت: كنت أُصَلِّي. فقال: «**أَلَمْ يَقُلِ اللهُ**: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]؟ **أَلَا أُعَلِّمُكَ أَعْظَمَ سُورَةٍ فِي القُرْآنِ قَبْلَ أَنْ أَخْرُجَ مِنَ المَسْجِدِ؟**» فذهب النَّبيُّ ﷺ ليخرج، [فذكَّرْتُه][٦]، فقال: «﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢] **هِيَ السَّبْعُ المَثَانِي وَالقُرْآنُ العَظِيمُ الَّذِي أُوتِيتُهُ**»[٧].

والثاني: قال: حدَّثنا آدم، حدَّثنا ابن أبي ذئب، حدَّثنا المَقْبُرِي، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أُمُّ القُرْآنِ هِيَ: السَّبْعُ المَثَانِي وَالقُرْآنُ العَظِيمُ**»[٨].

فهذا نصٌّ في أن «الفاتحة» السبع المثاني والقرآن العظيم، ولكن لا ينافي وصفَ غيرها من السبع الطُّوَل بذلك، لما فيها من [هذه][٩] الصفة، كما لا ينافي وصف القرآن بكماله بذلك أيضًا، كما قال

---

(١) رواه عبد الرزاق (١٤١٤)، والطبري (١٤/ ٥٥)، والحاكم (٢/ ٢٥٧)، وصححه ووافقه الذهبي، لكنه في إسناده عبد العزيز بن جريج: قال في «التقريب»: لين الحديث.

(٢) في (ز): (ثنتين).

(٣) سقط من (ز).

(٤) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

(٥) في (ز): (حبيب).

(٦) في (ز): (فذكرت).

(٧) رواه البخاري (٤٤٧٤)، وأبو داود (١٤٥٨)، والنسائي (٢/ ١٣٩)، وابن ماجه (٣٧٨٥).

(٨) البخاري (٤٧٠٤)، وأبو داود (١٤٥٧)، وأحمد (٢/ ٤٤٨).

(٩) سقط من (ز).

تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ﴾ [الزمر: ٢٣] فهو مثاني من وجهٍ، ومتشابه من وجهٍ، وهو القرآن العظيم أيضًا، كما أنَّه عَلَيْهِ السَّلَامُ لما سُئِل عن المسجد الذي أُسِّس علىٰ التَّقوىٰ، فأشار إلىٰ مسجِدِهِ، والآية نزلت في مسجد قُباء، فلا تَنافِي، فإنَّ ذِكْرَ الشَّيءِ لا ينفي ذكر ما عداه إذا اشتركا في تلك الصفة، والله أعلم.

وقوله: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ أي: اسْتَغْنِ بما آتاك الله من القرآن العظيم عمَّا هم فيه من المتاع والزهرة الفَانِيَةِ.

ومن هاهنا ذهب ابن عُيَيْنَة إلىٰ تفسير الحديث الصحيح: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَتَغَنَّ بِالقُرْآنِ»(١) إلىٰ أنَّه: يَستغنِي به عما عداه، وهو تفسيرٌ صحيحٌ، ولكن ليس هو المقصود من الحديث، كما تقدم في أول «التفسير».

وقال ابن أبي حاتم: ذكر عن وَكِيع بن الجراح، حدَّثنا موسىٰ بن عبيدة، عن يزيد بن عبد الله بن قُسَيط، عن أبي رافعٍ صاحب النَّبيِّ ﷺ قال: [ضاف](٢) النَّبيَّ ﷺ ضيفًا، ولم يكن عند النَّبيِّ ﷺ [شيءٌ](٣) يصلحه، فأرسل إلىٰ رجلٍ من اليهود: يقول لك محمَّد رسول الله: أَسْلِفْنِي دقيقًا إلىٰ هلالِ رجبٍ. قال: لا إلا برَهْنٍ. فأتيت النَّبيَّ ﷺ فأخبرته فقال: «أَمَا وَاللهِ إِنِّي لَأَمِينٌ مَنْ فِي السَّمَاءِ وَأَمِينٌ مَنْ فِي الْأَرْضِ وَلَئِنْ أَسْلَفَنِي أَوْ بَاعَنِي لَأُؤَدِّيَنَّ إِلَيْهِ». فلما خرجت من عنده نزلت هذه الآية: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ إلىٰ آخر الآية. [طه: ١٣١] كأنَّه يُعَزِّيه عن الدنيا(٤). وقال العوفي، عن ابن عبَّاس: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ قال: نهىٰ الرجل أن يَتمنَّىٰ مال صاحبه. وقال مجاهد: ﴿إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ هم الأغنياء.

﴿وَقُلْ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾

يأمر تعالىٰ نبيه، صلوات الله وسلامه عليه، [بأن] يقول للناس: إنه ﴿ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ﴾ [البيِّن](٥) النِّذَارَة، نذير للناس من عذابٍ أليمٍ أن يَحِلَّ بهم علىٰ تكذيبه كما حلَّ بمَنْ تقدَّمَهُم مِن الأمم المكذبة لرسلها، وما أنزل الله عليهم من العذاب والانتقام.

وقوله: ﴿ٱلْمُقْتَسِمِينَ﴾ أي: المتحالفين؛ أي: تحالفوا علىٰ مخالفةِ الأنبياء وتكذيبهم وأذاهم، كما قال تعالىٰ إخبارًا عن قوم صالحٍ أنهم: ﴿قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ﴾ [النمل: ٤٦] أي: نقتلهم ليلًا. قال مجاهد: تقاسموا: تحالفوا.

---

(١) البخاري (٧٥٢٧) من حديث أبي هريرة.
(٢) في (ز): (أضاف)، وهي كذلك في تفسير «ابن أبي حاتم».
(٣) في (ز): (أمرًا).
(٤) رواه ابن جرير (١٦/ ٢٣٥)، وفيه موسىٰ بن عبيدة: ضعيف.
(٥) سقط من (ز).

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾ [النحل: ٣٨] ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ [إبراهيم: ٤٤] ﴿أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾ [الأعراف: ٤٩] فكأنَّهم كانوا لا يُكذِّبون بشيءٍ [من الدنيا](١) إلا أقسموا عليه، فَسُمُّوا مُقْتَسِمِينَ. قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: المقتسمون أصحاب صالح، الذين تقاسموا بالله لَنُبَيِّتَنَّه وأهله.

وفي «الصَّحيحين»، عن أبي موسىٰ الأشعري عن النَّبيِّ ﷺ قال: «إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ، كَمَثَلِ رَجُلٍ أَتَىٰ قَوْمَهُ فَقَالَ: يَا قَوْمِ، إِنِّي رَأَيْتُ الجَيْشَ بِعَيْنَيَّ، وَإِنِّي أَنَا النَّذِيرُ العُرْيَانُ، فَالنَّجَاءَ النَّجَاءَ(٢)! فَأَطَاعَهُ طَائِفَةٌ مِنْ قَوْمِهِ فَأَدْلَجُوا، وَانْطَلَقُوا عَلَىٰ مَهْلِهِمْ فَنَجَوْا، وَكَذَّبَهُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ فَأَصْبَحُوا مَكَانَهُمْ، فَصَبَّحَهُمُ الجَيْشُ فَأَهْلَكَهُمْ وَاجْتَاحَهُمْ، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ أَطَاعَنِي وَاتَّبَعَ مَا جِئْتُ بِهِ، وَمَثَلُ مَنْ عَصَانِي وَكَذَّبَ مَا جِئْتُ بِهِ مِنَ الحَقِّ»(٣).

وقوله: ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ أي: جَزَّؤوا كتبهم المنزلة عليهم، فآمنوا ببعض وكفروا ببعضٍ.

قال البخاري: حدَّثنا يعقوب بن إبراهيم، حدَّثنا هشيم، أنبأنا أبو بشر، عن سعيد بن جُبير، عن ابن عبَّاس: ﴿جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ قال: هم أهل(٤) الكتاب، جَزَّءوه أجزاءً، فآمنوا ببعضه، وكفروا ببعضه.

حدَّثنا عبيد الله بن موسىٰ، عن الأعمش، عن أبي ظَبْيان، عن ابن عبَّاس: ﴿كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ﴾ قال: آمنوا ببعض، وكفروا ببعض: اليهُود والنصارىٰ(٥).

قال ابن أبي حاتم: وروي عن مجاهد، وعِكْرِمة، وسعيد بن جبير، والحسن، والضَّحَّاك، مثل ذلك.

وقال الحكم بن أبان، عن عكرمة، عن ابن عبَّاس: ﴿جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ قال: السِّحْر.

وقال عكرمة: العَضْه: السِّحر بلسان قريشٍ، تقول للساحرة: إنها [العاضهة](٦).

وقال مجاهد: عَضَّوْه أعضاءً(٧)، قالوا: سحر، وقالوا: كِهانة، وقالوا: أساطير الأولين.

وقال عطاء: قال بعضهم: ساحر، وقال بعضهم: مجنون. وقال بعضهم: كاهن. فذلك «العِضِين»، وكذا روي عن الضَّحَّاك وغيره.

وقال محمَّد بن إسحاق، عن محمَّد بن أبي محمَّد، عن سعيد أو عكرمة، عن ابن عبَّاس: أن الوليد ابن المغيرة اجتمع إليه نفرٌ من قريشٍ، وكان ذا شرفٍ فيهم، وقد حضر الموسم فقال لهم: يا معشر قريش، إنه قد حضر هذا الموسم، وإن وفود العرب سَتَقْدَمُ عليكم فيه، وقد سَمِعُوا بأمر صاحبكم هذا،

---

(١) سقط من (ز).
(٢) سقط من (ز)، وهو ثابت في «الصحيح».
(٣) البخاري (٦٤٨٢، ٧٢٨٣)، ومسلم (٢٢٨٣).
(٤) سقط من (ز).
(٥) البخاري (٤٧٠٥) (٤٧٠٦).
(٦) في (ز): (الكاهنة).
(٧) أي: فرقوه فرقًا.

فأَجْمِعُوا فيه رأيًا واحدًا ولا تختلفوا فيكذبَ بعضكم بعضًا، ويردَّ قولكم بعضه بعضًا. فقالوا: وأنت يا أبا عبد شمس، فقُلْ وأَقِم لنا رأيًا نقول به. قال: بل أنتم قولوا لأسمع. قالوا: نقول: «كاهن». قال: ما هو بكاهنٍ. قالوا: فنقول: «مجنون». قال: ما هو بمجنون! قالوا: فنقول: «شاعر». قال: ما هو بشاعرٍ! قالوا: فنقول: «ساحر». قال: ما هو بساحرٍ! قالوا: فماذا نقول؟ قال: والله إن لقوله حلاوةً، فما أنتم بقائلين من هذا شيئًا إلا عُرف أنَّه باطلٌ، وإن أقرب القول أن تقولوا: هو ساحرٌ. فتفرقوا عنه بذلك، وأنزل الله فيهم: ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾ أصنافًا ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [أولئك][1] النفر الذين قالوا ذلك لرسول الله[2].

وقال عطيـة العـوفي، عن ابن عمر في قوله: ﴿لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ قال: عن لا إله إلا الله.

وقال عبد الرزَّاق: أنبأنا الثوري، عن ليث -هو ابن أبي سليم- عن مجاهد، في قوله: ﴿لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ قال: عن «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ».

وقد روىٰ الترمذي، وأبو يعلىٰ المَوْصِلي، وابن جرير، وابن أبي حاتم، من حديث شَرِيك القاضي، عن ليث بن أبي سُلَيم، عن بَشِير بن نَهِيك، عن أنس، عن النَّبيِّ ﷺ: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ قال: «عَنْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»[3].

ورواه ابن إدريس، عن ليث، عن بشير عن أنس موقوفًا.

وقال ابن جرير: حدَّثنا أحمد، حدَّثنا أبو أحمد، حدَّثنا شريك، عن هلال، عن عبد الله بن عُكَيم قال: قال عبد الله -هو ابن مسعود-: والَّذي لا إله غيره، ما منكم من أحدٍ إلا سَيَخْلُو اللهُ به يوم القيامة، كما يخلو أحدكم بالقمر ليلةَ البَدْر، فيقول: ابنَ آدمَ، ماذا غَرَّكَ مِنِّي بِي؟ ابنَ آدمَ، ماذا عملتَ فيما علمتَ؟ ابنَ آدمَ، ماذا أجبت المرسلين[4]؟

وقال أبو جعفر: عن الربيع، عن أبي العالية: قال: يُسألُ العباد كلهم عن خَلَّتين يوم القيامة، عما كانوا يعبدون، وماذا أجابوا المرسلين؟

وقال ابن عيينة: عن عملك، وعن مالِكَ.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا أحمد بن أبي الحَوَارِي، حدَّثنا يونس الحَذَّاء، عن أبي حمزة

---

(١) في (ز): (دوينك).

(٢) ضعيف جدًا: رواه ابن هشام في «السيرة» (١/ ١٧٤)، فيه محمَّد بن أبي محمَّد: مجهول، لكنَّ القصة ثابتةٌ بغير هذا السياق، وليس فيها سبب النزول، انظر سورة المدثر [الآية: ١١].

(٣) ضعيف: رواه الترمذي (٣١٢٧)، وأبو يعلىٰ (٤٠٥٨)، وابن جرير (١٤/ ٦٧)، ومداره علىٰ ليث بن أبي سليم: أدخل في حديثه ما ليس منه، ولم تتميز أحاديثه فترك.

(٤) صحيح: رواه الطبري (١٤/ ٦٧)، وابن خزيمة في «التوحيد» (٢١٧)، وعبد الله بن أحمد في «السنة» (٤٧٥)، وأحمد في «الزهد» (ص٢٠٤)، والطبراني في «الكبير» (٩/ ٨٨٠٠)، من طرق عن هلال به.

الثُّمالي(١)، عن معاذ بن جبل قال: قال لي رسول الله ﷺ: «يَا مُعَاذُ، إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيُسْأَلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَنْ جَمِيعِ سَعْيِهِ، حَتَّىٰ كُحْلِ عَيْنَيْهِ، وَعَنْ فُتَاتِ الطِّينَةِ بِأُصْبُعِهِ، فَلَا أُلْفِيَنَّكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَحَدٌ أَسْعَدُ بِمَا آتَىٰ اللهُ مِنْكَ»(٢).

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ثُمَّ قَالَ ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرحمن: ٣٩] قال: لا يسألُهم: هل عملتم كذا؟ لأنَّه أعلم بذلك منهم، ولكن يقول: لِمَ عملتم كذا وكذا؟ (٣).

﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾

يقول تعالىٰ آمرًا رسوله، صلوات الله وسلامه عليه، بإبلاغ ما بعثه به [وبإنفاذه](٤) والصَّدع به، وهو مواجهة المشركين به، كما قال ابن عبَّاس: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ أي: أَمْضِهِ. وفي رواية: افعل ما تؤمر. وقال مجاهد: هو الجَهْرُ بالقُرْآن في الصلاة. وقال أبو عبيدة، عن عبد الله بن مسعود: ما زال النَّبيُّ ﷺ مُسْتَخْفِيًا، حتىٰ نزلت: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ فخرج هو وأصحابه.

وقوله: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ﴾ أي: بَلِّغْ ما أنزل إليك من ربك، ولا تَلْتَفِت إلىٰ المشركين [الذين](٥) يريدون أن [يَصُدُّوك](٦) عن آيات الله. ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم: ٩] ولا تخفْهُم؛ فإنَّ الله كافيك إيَّاهم، وحافِظُكَ منهم، كما قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦].

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدَّثنا يحيىٰ بن محمَّد بن السَّكَن، حدَّثنا إسحاق بن إدريس، حدَّثنا عون بن كَهْمَس، عن يزيد ابن درهم، قال: سمعت أنسًا يقول في هذه الآية: ﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ قال: مر رسول الله ﷺ، فغمزه بعضهم، فجاء جبريل -أحسبه قال: فغمزهم فوقع في أجسادهم- كهيئة الطَّعنة حتىٰ ماتوا(٧).

---

(١) في (ز): (الشيباني)، والمثبت هو الصواب.

(٢) ضعيف: رواه ابن أبي حاتم (١٣٣٠٥)، وأبو نُعَيم في «الحلية» (١٠/ ٣١)، ولم أقف علىٰ ترجمة يونس الحذاء، وأبو بشر الحذاء لم أعرفه أيضًا، وكذلك أبو حمزة الثمالي، وورد في بعض النسخ الشيباني، وهو خطأ وتصويبه «الثمالي» كما في مصادر التخريج.
والحديث ضعفه الألباني في «السلسلة الضعيفة» (٥٦٨٥).

(٣) ضعيف: رواه الطبراني في «الأوسط» (٧١٢٧)، وفيه يزيد بن درهم، قال الذهبي في «الميزان» (٤/ ٤٢١): وثقه الفَلَّاس. وقال ابن معين: ليس بشيء.

(٤) في (ز): (وإنفاذه).

(٥) سقط من (ز).

(٦) في (ز): (يصدون).

(٧) رواه الطبري (١٤/ ٦٧)، وإسناده منقطع.

وقال محمَّد بن إسحاق: كان عظماء المستهزئين -كما حدَّثني يزيد بن رُومَان، عن عروة بن الزبير- خمسةَ نفر، كانوا ذوي أسنان وشرف في قومِهم، من بني أسد بن عبد العزىٰ بن قُصي: الأسود ابن المطلب أبو زَمْعة، كان رسول الله ﷺ -فيما بلغني- قد دعا عليه، لِمَا كان يبلغه من أذاه واستهزائه به فقال: اللَّهمَّ، أَعْمِ بصره، وأَثْكِلْه ولدَه. ومن بني زُهْرة: الأسود بن عبد يغوث بن وهب بن عبد مناف بن زُهرة. ومن بني مخزوم: الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عُمَر بن مخزوم. ومن بني سهم بن [عمرو][1] ابن هُصيص بن كعب بن لؤي: العاص بن وائل بن هشام بن سعيد بن سعد. ومن خزاعة: الحارث بن الطُّلَاطِلَة بن عمرو بن الحارث بن عبد عمرو بن ملكان -فلما تمادَوْا في الشر وأكثروا برسول الله ﷺ الاستهزاء، أنزل الله تعالىٰ: ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ۝٩٤ إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ﴾ إلىٰ قوله: ﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾.

وقال ابن إسحاق: فحدث يزيد بن رومان، عن عروة بن الزبير، أو غيره من العلماء، أن جبريل أتىٰ رسول الله ﷺ وهو يطوف بالبيت، فقام وقام رسول الله ﷺ إلىٰ جنبه، فمر به الأسود [بن المطلب فرمىٰ في وجهه بورقة خضراء، فعَمِيَ، ومر به الأسود][2] بن عبد يغوث، فأشار إلىٰ بطنه، فاستسقىٰ بطنه، فمات منه [حَبَنًا][3]، ومر به الوليد بن المغيرة، فأشار إلىٰ أثر جُرح بأسفل كعب رجله -كان أصابه قبل ذلك بسنتين وهو يجر إزاره، وذلك أنه مر برجل من خزاعة يريش نبلًا له[4]، فتعلق سهم من نبله بإزاره، فخدش رجله ذلك الخدش، وليس بشيء، فانتقض به فقتله. ومر به العاص بن وائل، فأشار إلىٰ أَخْمَصِ قدمه، فخرج علىٰ حمار له يريد الطائف، فربض علىٰ شِبْرِقَةٍ[5] فدخلت في أخمص رجله منها شوكة فقتلته. ومر به الحارث بن الطُّلَاطِلَة، فأشار إلىٰ رأسه، فامتخط[6] قيحًا، فقتله[7].

قال محمَّد بن إسحاق: حدَّثني محمَّد بن أبي محمَّد، عن رجل، عن ابن عبَّاس قال: كان رأسُهم الوليد بن المغيرة، وهو الذي جمعهم[8].

وهكذا روي عن سعيد بن جبير وعكرمة، نحو سياق محمَّد بن إسحاق، عن يزيد، عن عروة، بطوله، إلا أن سعيدًا يقول: الحارث بن غيطلة. وعكرمة يقول: الحارث بن قيس. قال الزهري: وصدقا،

---

(١) في (ز): (عمر)، والمثبت موافق لما في «الطبري».

(٢) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

(٣) في (ز): (جنبًا)، والحَبَن: هو ما يعرف اليوم بالاستسقاء.

(٤) أي: يَنْحِتها ويعمل لها ريشًا.

(٥) أي: برك، والشِّبْرِقة: نبت حجازي يؤكل، وله شوك.

(٦) المُخاط: ما يسيل من الأنف.

(٧) حسن لغيره: رواه ابن جرير (١٤/ ٦٩)، وإسناده مرسل، لكن يتقوىٰ برواية ابن عبَّاس في «دلائل النبوة» (٢/ ٣١٦)، وإسناد رجاله ثقات عدا عمر بن عبد الله بن رزين: صدوق له غرائب كما في «التقريب» فالإسناد حسن إن شاء الله.

(٨) ضعيف: رواه الطبري (١٤/ ٧٠)، وفيه محمَّد بن أبي محمَّد: مجهول.

هو الحارث بن قيس، وأمه غيطلة. وكذا روي عن مجاهد، ومِقْسَم، وقتادة، وغير واحد، أنهم كانوا خمسة. وقال الشعبي: كانوا سبعة. والمشهور الأول.

وقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ يَجۡعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴾ تهديدٌ شديدٌ، ووعيدٌ أكيدٌ، لمن جعل مع الله معبودًا آخر.

وقوله: ﴿ وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ أي: وإنا لنعلم يا محمَّد أنك يحصل لك من أذاهم لك انقباضٌ وضيقُ صدرٍ. فلا يَهِيدَنَّكَ[1] ذلك، ولا يُثْنِيَنَّك عن إبلاغك رسالة الله، وتوكل علىٰ الله فإنَّه كافيك وناصرك عليهم، فاشتغل بذكر الله وتحميده وتسبيحه وعبادته التي هي الصلاة؛ ولهذا قال: ﴿وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد: حدَّثنا عبد الرحمن بن مَهْدِي، حدَّثنا معاوية بن صالح، عن أبي الزاهرية، عن كثير بن مُرَّة، عن نعيم بن هَمَّار أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**قَالَ اللهُ: يَا ابْنَ آدَمَ، لا تَعْجِزْ عَنْ أَرْبَعِ رَكَعَاتٍ مِنْ أَوَّلِ النَّهَارِ أَكْفِكَ آخِرَهُ**»[2].

ورواه أبو داود من حديث مكحول، عن كثير بن مرة، أي بنحوه.

ولهذا كان رسول الله ﷺ إذا حَزَبَهُ أمرٌ صلَّىٰ[3].

وقوله: ﴿ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴾ قال البخاري: قال سالم: الموت[4].

وسالم هذا هو: سالم بن عبد الله بن عمر، كما قال ابن جرير:

حدَّثنا محمَّد بن بشار، حدَّثنا يحيىٰ بن سعيد، عن سفيان، حدَّثني طارق بن عبد الرحمن، عن سالم ابن عبد الله: ﴿ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴾ قال: الموت.

وهكذا قال مجاهد، والحسن، وقتادة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغيره.

والدليل علىٰ ذلك قوله تعالىٰ إخبارًا عن أهل النار أنهم قالوا: ﴿لَمۡ نَكُ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمۡ نَكُ نُطۡعِمُ ٱلۡمِسۡكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلۡخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلۡيَقِينُ ﴾ [المدثر: ٤٣-٤٧].

وفي «الصحيح» من حديث الزهري، عن خارجة بن زيد بن ثابت، عن أم العلاء -امرأة من الأنصار-: أن رسول الله ﷺ لما دخل علىٰ عثمان بن مظعون -وقد مات- قلتُ: رحمة الله عليك أبا السائب، فشهادتي عليك لقد أكرمك الله. فقال رسول الله ﷺ: «**وَمَا يُدْرِيكِ أَنَّ اللهَ أَكْرَمَهُ؟**» فقلتُ: بأبي وأمي يا رسول الله، فمن؟! فقال: «**أَمَّا هُوَ: فَقَدْ جَاءَهُ الْيَقِينُ، وَإِنِّي لأَرْجُو لَهُ الْخَيْرَ**»[5].

---

(١) أي: لا يَهُمَّنَّكَ.

(٢) صحيح: رواه أبو داود (١٢٨٩)، وأحمد (٥/ ٢٨٦)، وابن حبان (٢٥٣٣).

(٣) حسن: رواه أبو داود (١٣١٩).

(٤) البخاري (٨/ ٣٨٣)، كتاب التفسير، باب ﴿ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴾.

(٥) البخاري (١٢٤٣)، وأحمد (٦/ ٤٣٦)، والنسائي في «الكبرىٰ» (٧٦٣٤).

ويستدل من هذه الآية الكريمة وهي قوله: ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾ -علىٰ أن العبادة كالصلاة ونحوها واجبةٌ علىٰ الإنسان ما دام عقله ثابتًا فيصلي بحسب حاله، كما ثبت في «صحيح البخاري»، عن عمران بن حصين ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: «**صَلِّ قَائِمًا، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَقَاعِدًا، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَعَلَىٰ جَنْبٍ**»[(١)].

ويستدل بها علىٰ تخطئة من ذهب من الملاحدة إلىٰ أن المراد باليقين المعرفة، فمتىٰ وصل أحدهم إلىٰ المعرفة سقط عنه التكليف عندهم. وهذا كفرٌ وضلالٌ وجهلٌ، فإن الأنبياء -عليهم السلام- كانوا هم وأصحابهم أعلم الناس بالله وأعرفهم بحقوقه وصفاته، وما يستحق من التعظيم، وكانوا مع هذا أَعْبَدَ الناس وأكثر الناس عبادةً ومواظبةً علىٰ فعل الخيرات إلىٰ حين الوفاة. وإنَّما المراد باليقين هاهنا الموت، كما قدمناه. ولله الحمد والمنة، والحمد لله علىٰ الهداية، وعليه الاستعانة والتوكل، وهو المسئول أن يتوفَّانا علىٰ أكمل الأحوال وأحسنها؛ فإنه جوادٌ كريمٌ.

آخر تفسير سورة الحجر والحمد لله رب العالمين.

---

(١) البخاري (٦٢٥١).

سُورَةُ النَّحْلِ

تفسير سورة النحل وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ١﴾[1]

يُخبِر تعالىٰ: عن اقتراب السَّاعة ودُنُوِّها معبرًا بصِيغَةِ الماضي الدَّالِّ علىٰ التَّحقيق والوقوع لا محالة كما قال تعالىٰ: ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ١]، وقال: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾ [القمر: ١].

وقوله: ﴿فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُ﴾ أي: قَرُبَ ما تباعد فلا تستعجلوه. يحتمل أَن يعود الضَّمير علىٰ الله، ويُحْتَمل أن يعود علىٰ العذاب، وكلاهما متلازِمٌ، كما قال تعالىٰ: ﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِۚ وَلَوۡلَآ أَجَلٞ مُّسَمّٗى لَّجَآءَهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَيَأۡتِيَنَّهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ٥٣ يَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٥٣، ٥٤].

وقد ذهب الضَّحَّاك في تفسير هذه الآية إلىٰ قولٍ عجيبٍ، فقال في قوله: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ أي: فرائضه وحدُودِهِ. وقد ردَّه ابن جرير فقال: لا نَعْلَم أحدًا استعجل الفرائض والشرائع قبل وجودِهَا بخلاف العذاب فإنَّهم استعجلوه قبل كونه استبعادًا وتكذيبًا.

قلتُ: كما قال تعالىٰ: ﴿يَسۡتَعۡجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهَاۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشۡفِقُونَ مِنۡهَا وَيَعۡلَمُونَ أَنَّهَا ٱلۡحَقُّۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِي ٱلسَّاعَةِ لَفِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٍ﴾ [الشورىٰ: ١٨].

وقال ابن أبي حاتم: ذُكر عن يحيىٰ بن آدم، عن أبي بكر بن عياش، عن محمَّد بن عبد الله -مولىٰ المغيرة بن شعبة- عن كعب بن علقمة، عن عبد الرحمن بن حُجيرة، عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «تَطْلُعُ عَلَيْكُمْ عِنْدَ السَّاعَةِ سَحَابَةٌ سَوْدَاءُ مِنَ المَغْرِبِ مِثْلَ التُّرْسِ، فَمَا تَزَالُ تَرْتَفِعُ فِي السَّمَاءِ، ثُمَّ يُنَادِي مُنَادٍ فِيهَا: يا أَيُّهَا النَّاسُ. [فَيُقْبِلُ][2] النَّاسُ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ: هَلْ سَمِعْتُمْ؟ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: نَعَمْ. وَمِنْهُمْ مَنْ يَشُكُّ. ثُمَّ يُنَادِي الثَّانِيَةَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ. فَيَقُولُ النَّاسُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: هَلْ سَمِعْتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ. ثُمَّ يُنَادِي الثَّالِثَةَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَتَىٰ أَمْرُ اللهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ». قال رسول الله ﷺ: «فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّ الرَّجُلَيْنِ لَيَنْشُرَانِ الثَّوْبَ فَمَا يَطْوِيَانِهِ أَبَدًا، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَمُدَّنَّ حَوْضَهُ فَمَا يَسْقِي فِيهِ شَيْئًا

---

(١) هذه السورة تسمَّىٰ سورة النِّعَم، فإنَّ الله ذكر في أوَّلها أصول النِّعم وقواعدها، وفي آخرها متمماتها ومكملاتها.

(٢) في (ز): «فيقتل»، وهو خطأ.

أَبَدًا، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَحْلِبُ نَاقَتَهُ فَمَا يَشْرَبُهُ أَبَدًا -قال- وَيَشْتَغِلُ النَّاسُ»(١).

ثمَّ إنَّه تعالىٰ: نزَّه نفسه عَن [شِرْكِهم](٢) به غيرَهُ، وعبادَتِهم معه ما سواه من الأوثان والأنداد، تعالىٰ وتقدَّس علوًّا كبيرًا، وهؤلاء هم المُكذِّبون بالسَّاعة، فقال: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ۝٢﴾

يقول تعالىٰ: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ﴾ أي: الوحي كما قال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورىٰ: ٥٢].

وقوله: ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ وهم الأنبياء، كما قال: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، وقال: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥]، وقال: ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ۝١٥ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٥، ١٦].

وقوله: ﴿أَنْ أَنذِرُوٓا۟﴾ أي: لِيُنْذِرُوا ﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾ فاعبدوني، وقال في هذه: ﴿فَٱتَّقُونِ﴾ أي: فاتَّقوا عقوبَتِي لمن خالَف أمري وعَبَدَ غيري.

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٣ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۝٤﴾

يُخْبِر تعالىٰ عن خلقه العالمَ العلويَّ: وهو السَّماوات، والعالمَ السُّفليَّ: وهو الأرض بما حوَتْ، وأنَّ ذلك مخلوقٌ بالحَقِّ لا للعبث، بل ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١]. ثم نَزَّه نفسه عَن شركِ مَن عَبَدَ معه غيرَهُ [مِن الأصنام الَّتي لا تخلق شيئًا وهم يُخلَقُون فكيف نَاسَب أن يعبد معه غيره](٣)، وهو المُسْتَقِلُّ بالخلق وحده لا شريك له، فلهذا يَسْتَحِقُّ أَن يُعْبَدَ وَحْدَهُ لا شريك له. ثم نبَّه علىٰ خَلْقِ جنس الإنسان ﴿مِن نُّطْفَةٍ﴾ أي: ضعيفةٍ مهينةٍ، فلمَّا استقلَّ ودَرَج إذا هو يخاصم ربه تعالىٰ ويُكذِّبه، ويحارب رسله، وهو إنَّما خُلِقَ ليكون عبدًا لا ضدًّا، كما قال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ۝٥٤ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٤، ٥٥]، وقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۝٧٧ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ۝٧٨ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٧-٧٩].

---

(١) رجاله ثقات: غير أبي بكر بن عياش فهو ثقة لكنَّه اختلط وساء حفظه لما كبر، والحديث رواه ابن أبي حاتم (١٣٣١٣)، والحاكم (٤/ ٥٣٩)، وصححه علىٰ شرط مسلم ووافقه الذهبي، ورواه الطبراني (١٧/ ٣٢٥)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٣٣١): رجاله رجال الصحيح غير محمَّد بن عبد الله مولىٰ المغيرة وهو ثقة.

(٢) في (ز): «شركتهم». (٣) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

وفي الحديث الذي رواه الإمام أحمد وابن ماجة عن بُسْر بن جَحَّاش قال: بصق رسول الله في كَفِّه، ثم قال: «يَقُولُ اللهُ: ابْنَ آدَمَ، أَنَّىٰ تُعْجِزُنِي وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ مِثْلِ هَذِهِ، حَتَّىٰ إِذَا سَوَّيْتُكَ فَعَدَّلْتُكَ مَشَيْتَ بَيْنَ بُرْدَيْكَ وَلِلْأَرْضِ مِنْكَ وَئِيدٌ، فَجَمَعْتَ وَمَنَعْتَ، حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَتِ الحُلْقُومَ قُلْتَ: أَتَصَدَّقُ. وَأَنَّىٰ أَوَانُ الصَّدَقَةِ؟»[١].

﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾﴾

يَمْتَنُّ تعالىٰ علىٰ عباده بما خلق[٢] لهم مِن الأنعام، وهي: الإبل والبقر والغنم، كما فصلها في سورة الأنعام إلىٰ ثمانية أزواج، وبما جعل لهم [فيها][٣] من المصالح والمنافِع، مِن أصوافِهَا وأَوْبَارِها وأشعارِهَا يلبَسُون ويفْترِشُونَ، ومِن ألبانها يَشْرَبُون، ويأكلون مِن أولادِهَا، وما لهم فيها من الجَمَالِ وهو الزِّينة؛ ولهذا قال: ﴿[وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ][٤] حِينَ تُرِيحُونَ﴾ وهو [وقت][٥] رجوعها عشيًّا من المَرْعَىٰ فإنَّها تكون أَمَدَّه خواصرَ، وأعظمه ضروعًا، وأعلاه أسنِمَةً، ﴿وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ أي: غُدْوَةً حين تبعثونها إلىٰ المرعىٰ.

﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ﴾ وهي الأحمال المثقَّلة التي تَعجِزُون عن نَقْلِهَا وحَمْلِهَا، ﴿إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ﴾ وذلك في الحَجِّ والعُمْرَة والغَزْوِ والتِّجارة، وما جرىٰ مجرىٰ ذلك، تَسْتَعْمِلُونها [في][٦] أنواع الاستعمال، من ركوبٍ وتحميل، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ [المؤمنون: ٢١، ٢٢]، وقال تعالىٰ: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنكِرُونَ﴾ [غافر: ٧٩ - ٨١]؛ ولهذا قال هاهنا بَعْدَ تَعْداد هذه النعم: ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: ربكم الذي قيَّض لكم هذه الأنعام وسخَّرَهَا لكم، كما قال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ [يس: ٧١، ٧٢]، وقال: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾ [الزخرف: ١٢ - ١٤].

---

(١) أحمد (٤/ ٢١٠)، وابن ماجة (٢٧٠٧)، وابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (٨٦٩)، والحاكم (٢/ ٥٤٥) وصححه، ورجاله ثقات عدا عبد الرحمن بن ميسرة، قال الحافظ: مقبول، والحديث صححه الألباني في «الصحيحة» (١٠٩٩) باعتبار قول أبي داود: شيوخ جرير كلهم ثقات، وكذا صحح إسناده البوصيري في «زوائد ابن ماجة».

(٢) في (ز): «خلق الله لهم».

(٣) في (ز): «منها». (٤) سقط من (ز).

(٥) سقط من (ز). (٦) سقط من (ز).

قال ابن عبَّاس: ﴿لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ﴾ أي: ثياب، والمنافع: ما تَنْتَفِعُون به من الأطعمة والأشربة. وقال عبد الرزاق: أخبرنا إسرائيل، عن سِمَاك، عن عكرمة، عن ابن عبَّاس: ﴿دِفْءٌ وَمَنَافِعُ﴾ نسلُ كلِّ دابَّةٍ. وقال مجاهد: ﴿لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ﴾ قال: لباسٌ يُنْسَجُ، ومنافع تُركَبُ، ولحم ولبن. وقال قتادة: ﴿دِفْءٌ وَمَنَافِعُ﴾ يقول: لكم فيها لباسٌ، ومنفعةٌ، وبُلْغةٌ. وكذا قال غير واحدٍ من المفسرين، بألفاظٍ متقاربةٍ.

﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (١) ﴿٨﴾﴾

هذا صِنْفٌ آخر مما خلَقَ تبارك وتعالىٰ لعباده، يَمْتَنُّ به عليهم، وهو: الخيل والبغال والحَمِير، التي جعلها للركوب والزِّينة بها، وذلك أكبر المقاصد منها، ولَمَّا [فضلها](٢) علىٰ الأنعام وأفردها بالذِّكر [استدل](٣) من استدل [من العلماء -ممَّن ذهب](٤) إلىٰ تحريم لحوم الخيل- بذلك علىٰ ما ذهب إليه فيها، كالإمام أبي حنيفة رَحِمَهُ اللَّهُ ومَن وافقه من الفقهاء؛ لأنَّه تعالىٰ قرنها بالبغال والحمير، وهي حرامٌ، كما ثبتت به السُّنَّة النبويَّة، وذهب [إليه](٥) أكثر العلماء.

وقد روىٰ الإمام أبو جعفر بن جرير: حدَّثني يعقوب، حدَّثنا ابن [عُلَيَّة](٦)، أنبأنا هشام الدَّسْتُوائي، حدَّثنا يحيىٰ بن أبي كثير، عن مولىٰ نافع بن علقمة، أن ابن عبَّاس كان يكره لحوم الخيل والبِغَال والحمير، وكان يقول: قال الله: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ فهذه للأكل، ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا﴾ فهذه للركوب(٧).

وكذا روي من طريق سعيد بن جُبَير وغيره، عن ابن عبَّاس، بمثله. وقال مثل ذلك [الحكم بن عتيبة](٨) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أيضًا، واستأنسوا بحديثٍ رواه الإمام أحمد في «مسنده»:

حدَّثنا يزيد بن عبد ربه، حدَّثنا بَقِيَّة بن الوليد، حدَّثنا ثور بن يزيد، عن صالح بن يحيىٰ بن المقدام بن مَعْدِي كَرِب، عن أبيه، عن جده، عن خالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «**نَهَىٰ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنْ أَكْلِ لُحُومِ الْخَيْلِ، وَالْبِغَالِ، وَالْحَمِيرِ**»(٩).

وأخرجه أبو داود والنسائي، وابن ماجة، من حديث صالح بن يحيىٰ بن المقدام -وفيه كلام- به.

---

(١) قال العلامة السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: مما يكون بعد نزول القرآن من الأشياء، التي يركبها الخلق في البرِّ والبحر والجو، ويستعملونها في منافعهم ومصالحهم، فإنَّه لم يذكرها بأعيانها؛ لأنَّ الله تعالىٰ لا يذكر في كتابه إلا ما يعرفه العباد، أو يعرفون نظيره، وأما ما ليس له نظير في زمانهم فإنَّه لو ذكر لم يعرفوه ولم يفهموا المراد منه، فيذكر أصلًا جامعًا يدخل فيه ما يعلمون وما لا يعلمون.

(٢) في (ز): «فَضَلها». (٣) في (ز): «دلَّ». (٤) في (ز): «ممن ذهب من العلماء».

(٥) سقط من (ز). (٦) في (ز): «عيينة»، وهو خطأ.

(٧) رواه الطبري (١٤/ ٨٢)، وفيه مولىٰ نافع بن علقمة لم أعرفه.

(٨) في (ز): «الحاكم بن عيينة»، وهو خطأ.

(٩) ضعيف: أحمد (٤/ ٨٩)، وأبو داود (٣٧٩٠)، والنسائي (٧/ ٢٠٢)، وابن ماجة (٣١٩٨)، فيه صالح بن يحيىٰ: لين الحديث كما في «التقريب» وأبوه: مستور.

ورواه أحمد أيضًا من وجه آخر بأبسط من هذا وأدَلّ منه فقال: حدَّثنا أحمد بن عبد الملك، حدَّثنا محمَّد ابن حرب، حدَّثنا سليمان بن سليم، عن صالح بن يحيىٰ بن المقدام، عن جَدِّه المقدام بن معدي كرب قال: غزونا مع خالد بن الوليد الصائفة[١]، [فقَرِم][٢] أصحابنا إلىٰ اللحم، فسألوني رَمَكَةً، فدفعتها إليهم فَحبَّلوها[٣] وقلتُ: مكانكم حتىٰ آتي خالدًا فأسأله. فأتيته فسألته، فقال: غزونا مع رسول الله ﷺ غزوة خيبر، فأسرع الناس في حظَائِرِ يهودَ، فأمرني أن أنادي: «**الصَّلَاةُ جَامِعَةٌ، وَلَا يَدْخُلُ [الجَنَّةَ]**[٤] **إِلَّا مُسْلِمٌ**» ثم قال: «**أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّكُمْ قَدْ أَسْرَعْتُمْ فِي حَظَائِرِ يَهُودَ، أَلَا لَا تَحِلُّ أَمْوَالُ المُعَاهَدِينَ إِلَّا بِحَقِّهَا، وَحَرَامٌ عَلَيْكُمْ لُحُومُ الأُتُنِ**[٥] **الأَهْلِيَّةِ وَخَيْلِهَا وَبِغَالِهَا، وَكُلُّ ذِي نَابٍ مِنَ السِّبَاعِ، وِكُلُّ ذِي مِخْلَبٍ مِنَ الطَّيْرِ**»[٦].

والرَّمَكَة: هي الحِجْرَة[٧]. وقوله: حَبَلوها؛ أي: أوثقوها في الحبل ليذبحوها. والحظائر: البَسَاتِين القريبة من العمران.

وكأنَّ هذا الصَّنيع وقع بعد إعطائهم العهد ومعاملتهم علىٰ الشَّطر، والله أعلم.

فلو صحَّ هذا الحديث لكان نصًّا في تحريم لحوم الخيل، ولكن لا يقاوِمُ ما ثبت في «الصحيحين»، عن جابر بن عبد الله قال: «**نَهَىٰ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنْ لُحُومِ الحُمُرِ الأَهْلِيَّةِ، وَأَذِنَ فِي لُحُومِ الخَيْلِ**»[٨].

ورواه [الإمام][٩] أحمد وأبو داود بإسنادين، كل منهما علىٰ شرط مسلم، عن جابر قال: ذبحنا يوم خيبر الخَيْل والبِغَال والحمير، فنهانا رسول الله ﷺ عن البغال والحمير، ولم ينهنا عن الخيل[١٠].

وفي «صحيح مسلم»، عن أسماء بنت أبي بكر ﵄، قالت: نحرنا علىٰ عهد رسول الله ﷺ فرسًا فأكَلْنَـــاهُ ونحن بالمدينة[١١].

فهذه أدلُّ وأقوىٰ وأثبتُ، وإلىٰ ذلك صار جمهورُ العلماء: مالك، والشافعي، وأحمد، وأصحابهم، وأكثر السلف والخلف، والله أعلم.

وقال عبد الرزاق: أنبأنا ابن جُرَيْج، عن ابن أبي مُلَيكَة، عن ابن عبَّاس قال: كانت الخيل وحشيةً، فذَلَّلَها الله لإسماعيل بن إبراهيم، عليهما السلام[١٢].

وذكر وهب بن منبِّه في إسرائيلياته: أنَّ الله خلق الخَيْل مِن رِيحِ الجنوب، والله أعلم.

---

(١) **الصَّائفة**: الغزوة في الصيف، والقَرَم: شدة الشهوة إلىٰ اللحم.

(٢) في (ز): «فقدم»، وهو خطأ.

(٣) أي: ربطوهابالحبال للذبح.

(٤) سقط من (ز).

(٥) **الأُتُن**: جمع أَتَانٍ، وهو الحِمَارة، الأنثىٰ خاصة.

(٦) **ضعيف**: انظر ما قبله، وفي المتن نكارة حيث إن خالد بن الوليد أسلم بعد فتح خيبر.

(٧) **الحجرة**: الفرس.

(٨) رواه البخاري (٤٢١٩)، ومسلم (١٩٤١).

(٩) سقط من (ز).

(١٠) **صحيح**: رواه أبو داود (٣٧٨٩)، وأحمد (٣/ ٣٥٦)، وانظر: «صحيح مسلم» (١٩٤١).

(١١) رواه مسلم (١٩٤٢).

(١٢) رجاله ثقات: وعزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ١١١)، إلىٰ ابن أبي حاتم، ولم أجده فيه.

فقد دلَّ النَّصُّ علىٰ جواز ركوب هذه الدَّواب، ومنها البغال. وقد أُهْدِيت إلىٰ رسول الله ﷺ بغلةٌ، فكان يركبها، مع أنَّه قد نَهَىٰ عن إنزاء الحمر علىٰ الخيل؛ لئلا ينقطع النسل.

قال الإمام أحمد: حدَّثني محمَّد بن عبيد، حدَّثنا عمر من آل حذيفة، عن الشعبي، عن دِحْية الكلبي قال: قلت: يا رسول الله، ألا أحمل لك حمارًا علىٰ فرس، فتنتج لك بغلًا فتركبها؟ قال: «إِنَّمَا يَفْعَلُ ذَلِكَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ»[(١)].

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩﴾

لما ذكر تعالىٰ من الحيوانات ما يُسَار عليه في السُّبُل الحسيَّة، نبَّه علىٰ الطُّرق المعنويَّة الدِّينيَّة، وكثيرًا ما يقع في القرآن العبور مِن الأمور الحسيَّة إلىٰ الأمور المعنويَّة النافعة الدينيَّة، كما قال تعالىٰ: ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ١٩٧]، وقال: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦].

ولما ذكر في هذه السورة الحيوانات من الأنعام وغيرها، التي يَرْكَبُونها ويبلغون عليها حاجةً في صدورهم، وتحمِلُ أثقالهم إلىٰ البلاد والأماكن البعيدة والأسفارِ الشَّاقَّة -شرع في ذكر الطرق التي يسلكها الناس إليه، فبيَّن أنَّ الحق منها [ما هي][(٢)] موصلة إليه، فقال: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ كما قال: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وقال: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ [الحجر: ٤١].

قال مجاهد: [في قوله][(٣)]: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ قال: طريق الحقِّ علىٰ الله.

وقال السُّدِّي: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ قال: الإسلام.

وقال العوفي عن ابن عبَّاس في قوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ يقول: وعَلَىٰ اللهِ البيَان؛ أي: تَبْيِين الهدىٰ [والضلال][(٤)].

وكذا روىٰ علي بن أبي طلحة، عنه، وكذا قال قتادة، والضَّحَّاك. وقولُ مجاهد هاهنا أقوىٰ مِن حيث السِّياق؛ لأنَّه تعالىٰ أخبر أن ثَمَّ طرقًا تسلك إليه، فليس يَصِل إليه منها إلا طريقُ الحقِّ، وهي الطَّريق التي شَرَعها ورَضِيَها وما عداها مسدودة، والأعمال فيها مردودة؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَمِنْهَا جَآئِرٌ﴾ أي: [خائر][(٥)] مائل زائغ عَن الحقِّ. قال ابن عبَّاس وغيره: هي الطُّرق المختلفة، والآراء والأهواء المتفرقة، كاليهودية، والنَّصرانيَّة، والمجوسيَّة، وقرأ ابن مسعود: «وَمِنكُم جائِرٌ»[(٦)]. ثم أخبر أن ذلك كله كائنٌ عن

---

(١) صحيح: رواه أحمد (٤/ ٣١١)، ورجاله ثقات، وله شواهد: فرواه أبو داود (٢٥٦٥)، والنسائي (٧/ ٢٢٤). من حديث علي وإسناده صحيح.

(٢) سقط من (ز).

(٣) سقط من (ز).

(٤) في (ز): «والضلالة».

(٥) في (ز): «ضائر»، وفي بعض النسخ: «حائد».

(٦) قراءة: قَرَأَ (وَمِنْكُمْ جَائِرٌ) عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ، وَلَيْسَ فِي الْمُتَوَاتِرِ إِلَّا (وَمِنْهَا جَائِرٌ).

قدرته ومشيئته، فقال: ﴿وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ كما قال: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩]، وقال: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩].

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾﴾

لما ذكر سبحانه ما أنعم به عليهم من الأنعام والدواب، شرع في ذكر نعمته عليهم، في إنزال المطر من السماء -وهو العلو- ممَّا لهم فيه بُلْغَةٌ ومتاعٌ لهم ولأنعامهم، فقال: ﴿لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ﴾ أي: جعله عذبًا زلالًا يسوغ لكم شرابه، ولم يجعله ملحًا أُجاجًا. ﴿وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ أي: وأخرج لكم به شجرًا ترعَوْن فيه أنعامكم. كما قال ابن عبَّاس، وعكرمة والضَّحَّاك، وقتادة وابن زيد، في قوله: ﴿فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ أي: ترعون. ومنه الإبل السائمة، والسَّوْم: الرعي.

وروىٰ ابن ماجة: أنَّ رسول الله ﷺ نهىٰ عن السَّوم قبل طلوع الشَّمس(١).

وقوله: ﴿يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ أي: يخرجها من الأرض بهذا الماء الواحد، علىٰ اختلاف صنوفها، وطعومها، وألوانها، وروائحها، وأشكالها؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي: دلالة وحجة علىٰ: أنَّه لا إله إلا الله، كما قال تعالىٰ: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ [النمل: ٦٠] ثم قال تعالىٰ:

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾

يُنَبِّه تعالىٰ عباده علىٰ آياتِهِ العظام، ومِنَنِهِ الجِسَام، في تسخيره الليلَ والنهارَ يتعاقبان، والشمسَ والقمرَ يدوران، والنجوم الثوابت والسيارات، في أرجاء السموات نورًا وضياءً للمهتدين بها في الظلمات، وكل منها يسير في فَلَكه الذي جعله الله تعالىٰ فيه، يسير بحركةٍ مُقدرةٍ، لا يزيد عليها ولا ينقص منها، والجميع تحت قهره وسلطانه وتسخيره وتقديره وتسييره، كما قال: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ

---

(١) ضعيف: رواه ابن ماجة (٢٢٠٦)، وإسناده ضعيف فيه نوفل بن عبد الملك: مستور، والربيع بن حبيب قال الحافظ: صدوق ضعف بسبب روايته عن نوفل.

وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي: لدَلَالات علىٰ قدرته الباهرة وسلطانه العظيم، لقوم يعقلون عن الله ويفهمون حججه.

وقوله: ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ﴾ لما نبَّه سبحانه علىٰ معالم السَّماوات نبَّه علىٰ ما خلق في الأرض مِن الأمور العجيبة والأشياء المختلفة، مِن الحيوانات والمعادن والنباتات والجمادات علىٰ اختلاف ألوانها وأشكالها، وما فيها من المنافع والخواص ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ أي: آلاء الله ونعمه فيشكرونها.

﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ[١] ﴿١٨﴾﴾

يخبر تعالىٰ: عَن تسخيرِهِ البحر المتلاطِمِ الأمواج، ويَمْتَنُّ علىٰ عباده بتَذْليلِهِ [لهم][٢]، [وتَيْسِيرِهِ][٣] للرُّكوب فيه، وجعله السَّمكَ والحِيتَان فيه، وإحلَالِهِ لعباده لحمَهَا حَيَّهَا وميتها، في الحِلِّ والإحرام وما يخلقه فيه من اللآلئ والجواهر النَّفِيسَة، وتسهيله للعباد استخراجها من قرارها حِلْيَةً يَلْبَسُونها، وتسخيره البحر لحمل السفن التي تَمْخُرُه؛ أي: تشقه.

وقيل: تَمْخُرُ الرِّياح، وكلاهما صحيح بِجُؤْجُئِهَا وهو صدرها المسنَّم -الذي أرشد العباد إلىٰ صنعتها، وهداهم إلىٰ ذلك، إرثًا عن أبيهم نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ فإنَّه أوَّل مَن رَكِبَ السفن، وله كان تعليم صنعتها، ثم أخذها الناس عنه قرنًا بعد قرنٍ، وجيلًا بعد جيل، يَسِيرُون مِن قطر إلىٰ قطر، وبلد إلىٰ بلد، وإِقْلِيم إلىٰ إِقْلِيم، تجلب ما هنا إلىٰ هنالك، وما هنالك إلىٰ هنا؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي: نعمه وإحسانه.

وقد قال الحافظ أبو بكر البزار في «مسنده»: وجدت في كتابي عن محمَّد بن معاوية البغدادي: حدَّثنا عبد الرحمن بن عبد الله بن [عمر][٤]، [عن سُهَيل][٥] بن أبي صالح، عن أبيه، عن أبي هريرة [رفعه][٦]

---

(١) قال الشوكاني رَحِمَهُ اللَّهُ: قال العقلاء: إنَّ كل جزءٍ من أجزاء الإنسان لو ظهر فيه أدنىٰ خللٍ وأيسر نقص لنغص النعم علىٰ الإنسان، وتمنىٰ أن ينفق الدُّنيا لو كانت في ملكه حتىٰ يزول عنه ذلك الخلل، فهو سبحانه يُدِير بدن هذا الإنسان علىٰ الوجه الملائم له، مع أنَّ الإنسان لا علم له بوجود ذلك فكيف يُطِيقُ حصر بعض نعم الله عليه أو يَقْدِر علىٰ إحصائها، أو يتمكَّن مِن شكر أدناها؟

(٢) في (ز): «له». (٣) في (ز): «وتيسيرهم». (٤) في (ز): «سهل».

(٥) سقط من (ز). (٦) سقط من (ز)، وهي ثابتة في «كشف الأستار».

قال: كلم الله هذا البحر الغربي، وكلَّم البحر الشَّرقيَّ، فقال للبحر الغربي: إني حاملٌ فيك عبادًا من عبادي، فكيف أنت صانع فيهم ؟ قال: أُغرِقُهُم. فقال: بأسك في نواحيك. وأحملهم علىٰ يَدِي. [وحَرَمه](١) الحلية والصيد. وكلَّم هذا البحر الشَّرقيَّ فقال: إنِّي حاملٌ فيك عبادًا مِن عبادي، فما أنت صانعٌ بهم؟ فقال: أحملهم علىٰ يَدِي، وأكون لهم كَالوَالِدَة لولدها. فأثَابَهُ الحِلْيَة والصيد.

ثمَّ قال البزار: لا نَعْلَم [من](٢) رواه عن [سهيل](٣) غير عبد الرحمن بن عبد الله بن [عمر](٤) وهو منكر الحديث(٥). وقد رواه [سهيل](٦) عن النعمان بن أبي عياش عن عبد الله بن عمرو موقوفًا.

ثمَّ ذكر تعالىٰ الأَرْض، وما جعل فيها من الرَّواسي الشَّامخات، والجبال الرَّاسيات؛ لتَقِرَّ الأرض ولا تَمِيد؛ أي: تَضْطَرِبَ بما عليها من الحيوان فلا يهنأ لهم عيش بسبب ذلك؛ ولهذا قال: ﴿وَٱلۡجِبَالَ أَرۡسَىٰهَا﴾ [النازعات: ٣٢].

وقال عبد الرزاق: أنبأنا مَعْمَر، عن قتادة، سمعت الحسن يقول: لما خُلِقَت الأرض كانت تميد، فقالوا ما هذه بِمُقِرَّة علىٰ ظهرها أحدًا فأصبحوا وقد خُلِقَت الجبال، لم تدرِ الملائكة مِمَّ خُلِقَتِ الجبال.

وقال سعيد عن قتادة، عن الحسن، عن قيس بن عُبَادة: أنَّ الله تعالىٰ لمَّا خلق الأرض جعلت تمور، فقالت الملائكة: ما هذه بمقرَّة علىٰ ظهرها أحدًا، فأصبحت صبحًا وفيها رواسيها(٧).

وقال ابن جرير: حدَّثني المثنىٰ، حدَّثنا حجاج بن مِنْهَال، حدَّثنا حماد، عن عطاء بن السائب، عن عبد الله بن حَبِيب، عن علي بن أبي طالب ﷺ قال: لمَّا خلق الله الأرض قَمَصَتْ(٨) وقالت: أي رَب، تجعل عليَّ بني آدم يعملون عليَّ الخطايا ويجعلون عليَّ الخبث؟ قال: فَأَرْسَىٰ الله فيها من الجبال ما ترون وما لا ترون، فكان إقرارها كاللَّحم يَتَرَجْرَجُ(٩).

وقوله: ﴿وَأَنۡهَٰرٗا وَسُبُلٗا﴾ أي: وجعل فيها أنهارًا تجري [من](١٠) مكانٍ إلىٰ مكانٍ آخر، رزقًا للعباد، يَنْبُع في موضعٍ وهو رزق لأهل موضعٍ آخر، فيقطع البقاع والبراري والقِفَار، ويخترق الجبال والآكام،

---

(١) في (ز): «حرمته».
(٢) سقط من (ز).
(٣) في (ز): «سهل»، وهو خطأ.
(٤) في (ز): «عمرو».
(٥) منكر: رواه البزار (١٦٦٩ـ كشف) وفيه عبد الرحمن العمري: متروك، وقال عنه المصنف ـ ابن كثير ـ: منكر الحديث.
قلت: وقد اضطرب فيه عن سهيل، فرواه عن أبي هريرة، ورواه عن عبد الله بن عمرو موقوفًا أيضًا، ويشبه أن يكون هذا من الإسرائيليات التي يرويها عبد الله بن عمرو.
(٦) في (ز): «سهل».
(٧) ضعيف: رواه الطبري (١٤/ ٩٠)، وفيه الحسن يرسل، وقتادة مدلس، وكلاهما قد عنعن، وفيه علة أخرىٰ وهي الإرسال، وعزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ١١٨) إلىٰ عبد بن حميد وابن المنذر.
(٨) أي: اضطربت.
(٩) رواه ابن جرير (١٤/ ٩٠) (٣٠/ ٤٧)، وفيه عطاء بن السائب: صدوق اختلط، لكن حمَّادًا روىٰ عنه قبل الاختلاط فالإسناد حسن، وحسنه الحافظ في «فتح الباري» (٨/ ٣٨٥).
(١٠) في (ز): «من كل».

فيَصِلُ إلىٰ البلد الذي سُخِّر لأهله. وهي سائرة في الأرضِ يَمْنَةً ويَسْرَةً، وجنوبًا وشمالًا وشرقًا وغربًا، [ما][1] بين صغارٍ وكبارٍ، وأوديةٍ تجري حينًا وتنقطع في وقت، وما بين نبع وجمع[2]، وقوي السَّير وبَطيئِه، بحسب ما أراد وقَدَّر، وسخَّر ويسَّر فلا إله إلا هو، ولا ربَّ سواه.

وكذلك [جعل][3] في الأرض سبلًا؛ أي: طرقًا يسلك فيها مِن بلاد إلىٰ بلاد، حتىٰ إنه تعالىٰ ليقطع الجبل حتىٰ يكون ما بينهما [ممرًّا][4] ومسلكًا، كما قال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا﴾ [الأنبياء: ٣١].

وقوله: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ﴾ أي: دلائل مِن جبالٍ كبارٍ وآكامٍ صغارٍ ونحو ذلك، يستدل بها المُسَافِرُون برًّا وبحرًا إذا [ضلوا الطريق][5].

وقوله: ﴿وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ أي: في ظلام الليل، قاله ابن عبَّاس. وعن مالك في قوله: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ﴾ يقولون: النُّجوم، وهي الجبال. ثم قال تعالىٰ منبهًا علىٰ عظمته، وأنَّه لا تنبغي العبادة إلا له دون ما سواه من الأوثان، التي لا تخلق شيئًا بل هم يخلقون؛ ولهذا قال: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾. ثم نبههم علىٰ كثرة نِعَمِهِ عليهم وإحسانِهِ إليهم، فقال: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: يتجاوز عنكم، ولو طالبكم بشكر جميع نعمه لعجزتُم عَن القِيَام بذلك، ولو أمركم به لضَعُفْتُم وتركتم، ولو عذَّبكم لعذَّبكم وهو غير ظالم لكم، ولكنَّه غفورٌ رحيم، يغفر الكثير، ويُجَازي علىٰ اليسير. وقال ابن جرير: يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لما كان منكم من تقصيرٍ في شكر بعض ذلك، إذا تبتم وأنبتم إلىٰ طاعته واتِّباع مرضاته، ﴿رَّحِيمٌ﴾ بكم أن يعذبكم؛ أي: بعد الإنابة والتوبة.

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾﴾

يُخْبِر تعالىٰ: أنَّه يعلم الضَّمائر والسَّرائر كما يعلم الظواهر، وسيجزي كل عاملٍ بعمله يوم القيامة، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر.

ثم أخبر أنَّ الأصنام التي يدعونها مِن دون الله لا يخلقون [شيئًا وهم يُخْلَقُون][6]، كما قال الخليل: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٥، ٩٦].

وقوله: ﴿أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ﴾ أي: هي جماداتٌ لا أرواح فيها فلا تسمع ولا تُبْصِر ولا تعقل.

﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ أي: لا يدرون متىٰ تكون الساعة، [فكيف][7] يُرْتَجَىٰ عند هذه نفع أو [ثواب][8] أو جزاء؟ إنَّما يُرْتَجَىٰ ذلك من الذي يَعْلَمُ كلَّ شيءٍ، وهو خالق كل شيء.

---

(١) سقط من (ز).
(٢) النَّبع: هو المتفجر، والجمع: السائل.
(٣) سقط من (ز).
(٤) في (ز): «مرًّا».
(٥) في (ز): «أضلوا الطريق».
(٦) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).
(٧) في (ز): «وكيف».
(٨) في (ز): «صواب».

﴿إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ (٢٢) لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ (٢٣)﴾

يخبر تعالىٰ: أنَّه لا إله إلا هو الواحد الأحد الفرد الصمد، وأخبر أنَّ الكافرين تُنكر قلوبهم ذلك، كما أخبر عنهم متعجبين من ذلك: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص:٥]، وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الزمر:٤٥].

وقوله: ﴿وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ أي: عن عبادة الله [مع][1] إنكار قلوبهم لتوحيده، كما قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر:٦٠]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿لَا جَرَمَ﴾ أي: حقًّا ﴿أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ أي: وسيجزيهم علىٰ ذلك أتم الجزاء، ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٢٤) لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ (٢٥)﴾

يقول تعالىٰ: وإذا قيل لهؤلاء المكذبين: ﴿مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا﴾ معرضين عن الجواب: ﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: لم ينزل شيئًا، إنما هذا الذي يتلىٰ علينا أساطير الأولين؛ أي: مأخوذٌ من كتب المتقدمين، كما قال تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان: ٥] أي: يفترون علىٰ الرسول، ويقولون أقوالًا مختلفةً متضادةً، كلها باطلةٌ كما قال تعالىٰ: ﴿انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٩]، وذلك أن كُلَّ مَن خرج عن الحقِّ فمهما قال أخطأ، وكانوا يقولون: ساحرٌ، وشاعرٌ، وكاهنٌ، ومجنونٌ. ثم استقرَّ أمرهم إلىٰ ما اختلقه لهم شيخهم الوحيد [المسمىٰ بالوَلِيدِ][2] بن المغيرة المخزومي، لما ﴿فَكَّرَ وَقَدَّرَ (١٨) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (١٩) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (٢٠) ثُمَّ نَظَرَ (٢١) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (٢٢) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (٢٣) فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ [المدثر: ١٨ -٢٤] أي: يُنقَل ويُحكىٰ، فتفرقوا عن قوله ورأيه، قبحهم الله.

قال الله تعالىٰ: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي: إنَّما قدَّرْنا عليهم أن يقولوا ذلك فيتحملوا أوزارهم ومِن أوزار الَّذِين يَتَّبِعُونهم ويوافقونهم؛ أي: يصير عليهم خطيئةُ ضلالهم في أنفسهم، وخطيئةُ إغوائهم لغيرهم واقتداء أولئك بهم، كما جاء في الحديث: «مَنْ دَعَا إِلَىٰ هُدًىٰ كَانَ لَهُ مِنَ الأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنِ اتَّبَعَهُ، لا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا، وَمَنْ دَعَا إِلَىٰ ضَلَالَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنِ اتَّبَعَهُ لا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا»[3]. وقال الله تعالىٰ:

---

(١) سقط من (ز). (٢) في (ز): «ابن الوليد»، وهو خطأ.
(٣) مسلم (٢٦٧٤)، وأبو داود (٤٦٠٩)، والترمذي (٢٦٧٤)، وابن ماجة (٢٠٦).

﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [العنكبوت: ١٣]. [وهكذا](١) روى العوفي عن ابن عبَّاس في قوله: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ إنها كقوله: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: ١٣]. وقال مجاهد: يَحْمِلُون أثقالهم: [ذنوبهم](٢) وذنوب مَن أطاعهم، ولا يُخَفِّفُ عمَّن أطاعهم من العذاب شيئًا.

﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ ۚ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٢٧﴾﴾

قال العوفي، عن ابن عبَّاس في قوله: ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ قال: هو نُمْرُود الذي بنىٰ الصرح.

قال ابن أبي حاتم: وروي عن مجاهد نحوه.

وقال عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن زيد بن أسلم: أوَّلُ جبَّارٍ كان في الأرض نمرود، فبعث الله عليه بَعُوضةً، فدخلت في مِنْخَرِة، فمكث أربعمائة سنة يضرب رأسَهُ بالمطارق، وأرحم الناس به من جَمَع يديه فضرب [بهما](٣) رأسه، وكان جبارًا أربعمائة سنة، فعذبه الله أربعمائة سنة كملكه، ثم أماته الله، وهو الذي كان بنىٰ صرحًا إلىٰ السَّماء، [وهو](٤) الذي قال الله: ﴿فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ﴾(٥).

وقال آخرون: بل هو بُخْتَنَصَّر. وذكروا من المكر الَّذِي حكىٰ الله هاهنا، كما قال في سورة إبراهيم: ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ [إبراهيم: ٤٦].

وقال آخرون: هذا من باب المثل، لإبطال ما صنعه هؤلاء الَّذين كفروا بالله وأَشْرَكُوا في عبادَتِهِ غيره، كما قال نوح عليه السلام: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا﴾ [نوح: ٢٢] أي: احْتالُوا في إضلال النَّاس بكلِّ حيلةٍ وأمالُوهُم إلىٰ شركهم بكل وسيلةٍ، كما يقول لهم أَتْبَاعُهُم يوم القيامة: ﴿بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا﴾ الآية [سبأ: ٣٣].

وقوله: ﴿فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ﴾ أي: اجتثه من أصله، وأَبْطَل عملهم، وأصلها كما قال تعالىٰ: ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾ [المائدة: ٦٤].

وقوله: ﴿فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [الحشر: ٢].

---

(١) في (ز): «ولهذا». (٢) في (ز): «وذنوبهم». (٣) في (ز): «بها».
(٤) سقط من (ز). (٥) رواه الطبري (١٤/ ٩٧)، وهذا مرسل لا يثبت في حديث صحيح.

وقال هاهنا: ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنۡيَٰنَهُم مِّنَ ٱلۡقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّقۡفُ مِن فَوۡقِهِمۡ وَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ۝٢٦ ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُخۡزِيهِمۡ﴾ أي: يُظْهِرُ فضائحهم، وما كانت تَجنُّه ضمائرهم، فيَجْعَله علانيةً، كما قال تعالىٰ: ﴿يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ [الطارق: ٩] أي: تظهر وتشتهر، كما في «الصحيحين» عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «**يُنْصَبُ لِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ يَوْمَ القِيَامَةِ عِنْدَ اسْتِهِ**[(١)] **بِقَدْرِ غَدْرَتِهِ، فَيُقَالُ: هَذِهِ غَدْرَةُ فُلَانِ بْنِ فُلَانٍ**»[(٢)].

وهكذا هؤلاء، يظهر للنَّاس ما كانوا يُسِرُّونه من المكر، ويخزيهم الله علىٰ رءوس الخلائق، ويقول لهم الرَّبُّ تبارك وتعالىٰ مقرِّعًا لهم وموبِّخًا: ﴿أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمۡ﴾ تُحارِبُون وتعادون في سبيلهم؛ أي: أَيْن هم عن نَصْرِكُم وخلاصكم هاهنا؟ ﴿هَلۡ يَنصُرُونَكُمۡ أَوۡ يَنتَصِرُونَ﴾ [الشعراء: ٩٣]، ﴿فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٖ وَلَا نَاصِرٖ﴾ [الطارق: ١٠]. فإذا تَوجَّهت عليهم الحُجَّة، وقامت عليهم الدَّلالة، وحقت عليهم الكلمة، وأَسْكتُوا عن الاعتذار حين لا فرار ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾ -وهم السَّادة في الدنيا والآخرة، والمخبرون عن الحقِّ في الدُّنيا والآخرة، فيقولون حينئذٍ: ﴿إِنَّ ٱلۡخِزۡيَ ٱلۡيَوۡمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ أي: الفَضِيحة والعذاب اليوم [محيط][(٣)] بمَن كفَرَ بالله، وأشرك به ما لا يضره ولا ينْفَعُه.

﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡۖ فَأَلۡقَوُاْ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعۡمَلُ مِن سُوٓءِۭۚ بَلَىٰٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝٢٨ فَٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَلَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ۝٢٩﴾

يُخْبِر تعالىٰ عَن حال المشركين الظَّالمي أنفسهم عند احتضارِهم ومجيء الملائكة إليهم لقبض أرواحهم: ﴿فَأَلۡقَوُاْ ٱلسَّلَمَ﴾ أي: أظهروا السمع والطاعة والانقياد قائلين: ﴿مَا كُنَّا نَعۡمَلُ مِن سُوٓءِۭ﴾ كمَا يقولُون يوم المَعاد: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] ﴿يَوۡمَ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعٗا فَيَحۡلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحۡلِفُونَ لَكُمۡ﴾ [المجادلة: ١٨].

قال الله مكذِّبًا لهم في قِيلِهم ذلك: ﴿بَلَىٰٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝٢٨ فَٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَلَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾ أي: بئس المَقِيلُ والمقام والمكان مِن دار هوانٍ، [لمن][(٤)] كان متكبرًا عن آيات الله واتِّباع رسله.

وهم يدخُلُون جهنَّم مِن يوم مماتهم بأرواحِهم، ويأتي أجسادَهُم في قبورها من حرِّها وسمُومِهَا، فإذا كان يوم القيامة سَلَكَت أرواحهم في أجسادهم، وخلَدَتْ في نار جهنم، ﴿لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَا﴾ [فاطر: ٣٦]، كما قال الله تعالىٰ: ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۖ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦].

---

(١) اللِّواء: الراية، وعند استه: خلف ظهره.
(٢) البخاري (٦١٧٧)، (٣١٨٨)، ومسلم (١٧٣٥).
(٣) سقط من (ز).
(٤) في (ز): «كمن».

﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَٰلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾﴾

هذا خبرٌ عن السُّعداء، بخلاف [ما أخبر](١) به عَن الأشقياء، فإنَّ أولئك قيل لهم: ﴿مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ﴾ فقالوا معرضين عن الجواب: لم يُنْزِل شيئًا، إنَّما هذا أساطير الأولين. وهؤلاء ﴿قَالُوا خَيْرًا﴾ أي: أنزل خيرًا؛ أي: رحمةً وبركةً وحسنًا لمن اتَّبعه وآمن به.

ثمَّ أخبروا عما وعد الله به عباده فيما أنزله علىٰ رسله فقالوا: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾ كما قال تعالىٰ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧]؛ أي: مَنْ أحسن عمله في الدُّنيا أحسن الله إليه في الدُّنيا والآخرة.

ثم أخبر بأنَّ دار الآخرة خيرٌ؛ أي: مِن الحياة الدُّنيا، والجزاء فيها أتمُّ من الجزاء في الدنيا، كما قال تعالىٰ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ﴾ [القصص: ٨٠]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٨]، وقال تعالىٰ: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [الأعلىٰ: ١٧]، وقال لرسوله ﷺ: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾ [الضحىٰ: ٤]. ثم وصفوا الدار الآخرة فقالوا: ﴿وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾.

وقوله: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ بدل من قوله: ﴿دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾ أي: لهم في الآخرة ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ أي: مقامة يدخلونها ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي: بين أشجارها وقصورها، ﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ﴾ كما قال تعالىٰ: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الزخرف: ٧١]، وفي الحديث: «**إِنَّ السَّحَابَةَ لَتَمُرُّ بِالمَلأِ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ وَهُمْ جُلُوسٌ عَلَىٰ شَرَابِهِمْ، فَلا يَشْتَهِي أَحَدٌ مِنْهُمْ شَيْئًا إِلَّا أَمْطَرَتْهُ عَلَيْهِمْ، حَتَّىٰ إِنَّ مِنْهُمْ لِمَنْ يَقُولُ: أَمْطِرِينَا كَوَاعِبَ أَتْرَابًا، فَيَكُونُ ذَلِكَ**»(٢).

﴿كَذَٰلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ﴾ أي: كذلك يجزي الله كلَّ مَن آمن به واتَّقاه وأحسن عمله.

ثمَّ أخبر تعالىٰ عن حالِهم عند الاحتضار، [أنَّهم طيِّبون](٣)؛ أي: مُخلَّصون من الشِّرك والدَّنس وكلِّ سوءٍ، وأنَّ الملائكة تُسلِّم عليهم، وتُبشِّرهم بالجنَّة، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ

(١) سقط من (ز).

(٢) أخرجه أبو نعيم في «تاريخ أصبهان» (١/ ١٩٥) برقم (٦٩٢) من طريق: عبد الرحمن بن عبد الله بن سعد، ثنا أبو سفيان عبد الرحمن بن عبد ربِّ بن تيم اليَشْكُرِي، عن عطية بن سليمان أبي الغيث، عن أبي عبد الرحمن القاسم بن أبي القاسم الدمشقي، عن أبي أمامة مرفوعًا به.

(٣) سقط من (ز).

ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾
نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾
نُزُلٗا مِّنۡ غَفُورٖ رَّحِيمٖ﴾ [فصلت: ٣٠-٣٢].

وقد قدَّمنا الأحاديث الواردة في قبض روح المؤمن وروح الكافرِ عند قوله تعالىٰ: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفۡعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ أَمۡرُ رَبِّكَۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٣٤﴾﴾

يقول تعالىٰ متهددًا للمشركين علىٰ تماديهم في الباطل واغترارهم بالدنيا: هل ينتظر هؤلاء إلا الملائكة أن تأتيهم بِقَبْضِ أرواحهم، قاله قتادة.

﴿أَوۡ يَأۡتِيَ أَمۡرُ رَبِّكَ﴾ أي: يوم القيامة وما [يعاينونه][1] من الأهوال.

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ أي: هكذا تمادىٰ في شِرْكِهم أسلافهم ونظراؤهم وأشباههم من المشركين حتىٰ ذاقوا بأس الله، وحَلُّوا فيما هم فيه من العذاب والنكال. ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ﴾؛ لأنَّه تعالىٰ أعذر إليهم، وأقام حججه عليهم بإرسال رسله وإنزال كتبه، ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ أي: بمخالفة الرسل والتَّكْذِيب بما جاءوا به، فلهذا أصابتهم عقوبة الله علىٰ ذلك، ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ أي: أحاط بهم مِن العَذابِ الأليم ﴿مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ أي: يَسْخَرون من الرسل إذا توعدوهم بعقاب الله؛ فَلِهَذَا يقال لهم يوم القيامة: ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [الطور: ١٤].

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ نَّحۡنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ إِن تَحۡرِصۡ عَلَىٰ هُدَىٰهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَن يُضِلُّۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾

يخبر تعالىٰ عن [اغترارِ][2] المشركينَ بِمَا هم فيه من الشِّرْك واعتذارهم محتجين بالقدر، في قولهم: ﴿لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ نَّحۡنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ﴾ أي: من البحائرِ والسَّوائِب والوَصَائِل وغير ذلك، مما كانوا ابتدعوه واخترعوه مِن تلقاء أنفسهم، ما لم ينزل الله به سلطانًا.

---

(١) في (ز): «يعاينوه».

(٢) سقط من (ز).

ومضمون كلامهم: أنَّه لو كان تعالىٰ كارهًا لما فعلنا، لأنكره علينا بالعقوبة ولما مَكَّنَّا منه. قال الله رادًّا عليهم [شبهتهم](١): ﴿فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾؟ أي: ليس الأمر كما تزعمون أنَّه لم [يُغَيِّره](٢) عليكم ولم ينكره، بل قد أنكره عليكم أَشَدَّ الإنكار، ونهاكم عنه آكد النهي، وبعث في كلِّ أمة رسولًا؛ أي: في كل قرنٍ مِنَ النَّاس وطائفة رسولًا وكلهم يدعو إلىٰ عبادةِ الله، ويَنْهَىٰ عن عبادة ما سواه: ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾، فلم يزل تعالىٰ يرسل إلىٰ الناس الرُّسل بذلك، منذ حدث الشِّرْك في بَنِي آدم، في قوم نوح الذين أُرْسِل إليهم نوحٌ، وكان أَوَّلَ رسولٍ بعثه الله إلىٰ أهل الأرض إلىٰ أن ختمهم بمحمَّد ﷺ الذي طَبَّقَت دعوتُه الإنس والجنَّ في المشارق والمغارب، وكلهم كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال تعالىٰ: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥]، وقال تعالىٰ في هذه الآية الكريمة: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾، فكيف يسوغ لأحدٍ مِن المشركين بعد هذا أن يقول: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ﴾، فمشيئته تعالىٰ الشَّرعيَّة [مُنْتَفِيَة](٣)؛ لأنَّه نهاهم عن ذلك علىٰ ألسنة رسله، وأمَّا مشيئته الكونية، وهي تمكينهم من ذلك قدرًا، فلا حُجَّة لهم فيها؛ لأنه تعالىٰ خلق النَّار وأهلها من الشياطين والكفرة، وهو لا يَرْضَىٰ لعباده الكفر، وله في ذلك حجةٌ بالغةٌ وحكمةٌ قاطعةٌ.

ثم إنَّه تعالىٰ قد أخبر أنَّه عَيَّر عليهم، وأنكر عليهم بالعُقُوبَةِ في الدُّنيا بعد إنذار الرسل؛ فلهذا قال: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي: اسألوا عمَّا كان من أمر من خالف الرسل وكذَّب الحق كيف ﴿دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا﴾ [محمَّد: ١٠]، ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [الملك: ١٨].

ثم أخبر [الله](٤) تعالىٰ: رسوله ﷺ أن حرصه علىٰ هدايتهم لا يَنْفَعُهم، إذا كان الله قد أراد إضلالهم، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ [المائدة: ٤١]، وقال نوح لقومه: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾ [هود: ٣٤]، وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ﴾ كما قال تعالىٰ: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٦]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧].

فقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ أي: شأنه وأمره أنَّه ما شاء كانَ وما لَمْ يَشَأْ لم يكن؛ فلهذا قال: ﴿لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ﴾ أي: مَن أَضلَّه فمَن الَّذي يهديه مِن بعدِ الله؟ أي: لا أحد ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ أي: يُنْقِذُونَهُم مِن عذابه وَوَثَاقِهِ، ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

---

(١) في (ز): «شبههم». (٢) في (ز): «يغير».
(٣) في (ز): «منفية». (٤) ليست في (ز).

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (١) ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾

يقول تعالىٰ: مخبرًا عن المشركين: أنَّهم حلفوا فأقسموا ﴿بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ أي: اجتهدوا في الحلف وغلَّظوا الأيمان علىٰ أنه ﴿لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾ أي: استبعدوا ذلك، فكذبوا الرُّسل في إخبارهم لهم بذلك، وحَلَفُوا علىٰ نقيضه. فقال تعالىٰ مكذبًا لهم وردًّا عليهم: ﴿بَلَىٰ﴾ أي: بلىٰ سيكون ذلك، ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ أي: لا بد منه، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: فَلِجَهْلهم يخالفون الرُّسل ويَقعُون في الكفر، ثم ذكر تعالىٰ حكمته في المَعَادِ وقيام الأجساد يوم التَّناد، فقال: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ﴾ أي: للناس ﴿الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ أي: من كل شيءٍ، و ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١]، ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ﴾ أي: في أيمانهم وأقسامهم: لا يَبْعَثُ الله مَن يموت؛ ولهذا يُدعُّون يوم القيامة إلىٰ نار جهنم دَعًّا(٢)، وتقول لهم الزبانية: ﴿هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١٤-١٦].

ثم أخبر تعالىٰ: عَن قُدرَتِهِ علىٰ ما يشاء، وأنه لا يعجزه شيءٌ في الأرض ولا في السماء، وإنَّما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له: «كُنْ» فيكون، [والمعاد مِن ذلك إذا أرادَ كونه فإنَّما يأمر به مرَّةً واحدةً، فيكون](٣) كما يشاء، كما قال: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠]، وقال: ﴿مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨]، وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾؛ أي: أن يأمر به دُفعَةً واحدةً فإذا هو كائنٌ، كما قال الشاعر:

إِذَا مَا أَرَادَ اللهُ أَمْرًا فَإِنَّمَا ... يَقُولُ لَهُ: «كُنْ»، قَوْلَةً فَيَكُونُ

أي: أنَّه تعالىٰ لا يَحْتَاج إلىٰ تأكيدٍ فيما يأمر به، فإنَّه تعالىٰ لا يُمَانَعُ ولا يُخَالَفُ؛ لأنَّه هو الواحد القهَّار العظيم، الذي قَهَر سلطانُهُ وجبروتُه وعزتُه كلَّ شيءٍ، فلا إله إلا هو؛ ولا رَبَّ سواه.

وقال ابن أبي حاتم: [ذكر الحسن](٤) بن محمَّد بن الصَّباح، حدَّثنا حجاج، عن ابن جُرَيْج، أخبرني عطاء: أنَّه سَمِعَ أبا هريرة يقول: قال الله تعالىٰ: سَبَّني ابن آدم ولم يكن يَنْبَغِي له أن يَسُبَّني، وكذَّبني ولم يكُن يَنبَغِي له أن يُكذِّبني، فأمَّا تكذِيبُه إيَّاي فقال: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾

---

(١) قال أبو بكر الجزائري حَفِظَهُ اللَّهُ: ذكر القرطبي عن قتادة أن رجلًا قال لابن عبَّاس: إنَّ ناسًا يزعمون أن عليًّا مبعوث بعدَ الموت قبل السَّاعة يتأوَّلون هذه الآية، فقال ابن عبَّاس: كَذَب أولئك إنَّما هذه الآية عامَّة للنَّاس فلو كان عليٌّ مبعوثًا قبل يوم القيامة ما نكحنا نساءه ولا قسمنا ميراثه.

(٢) الدَّعُّ: الطرد والدفع. (٣) ما بين المعقوفتين سقط من (ز). (٤) في (ز): «ذكره الحسين»، وهو خطأ.

قال: وقلت: ﴿بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وأما سَبُّه إيَّاي فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣]، وقلت: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾[1]. هكذا ذكره موقوفًا، وهو في الصحيحين مرفوعًا بلفظ آخر.

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ۝٤١ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٤٢﴾

يخبر تعالىٰ عن جزائِهِ للمُهَاجِرين في سبيله ابتغاءَ مَرْضَاتِهِ، الَّذِين فَارَقُوا الدَّار والإخوان والخِلَّان، رجاء ثواب الله وجزائه.

ويحتمل أَن يكون سبب نزول هذه الآية الكريمة في مُهَاجِرَة الحبشة الذين اشتدَّ أذىٰ قومهم لهم بمكَّة، حتىٰ خرجوا مِن بَيْنِ أَظْهُرِهِم إلىٰ بلاد الحبشة، لِيَتَمَكَّنُوا مِن عبادة ربهم، ومن أشرافهم: عثمان بن عفان، ومعه زوجته رقية بنت رسول الله ﷺ، وجعفر بن أبي طالب، ابن عم الرسول وأبو سلمة بن عبد الأسد في جماعة قريب من ثمانين، ما بين رجلٍ وامرأةٍ، صديق وصديقة، رضي الله عنهم وأرضاهم. وقد فعل فوعدهم تعالىٰ بالمجازاة الحسَنَة في الدنيا والآخرة فقال: ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾.

قال ابن عبَّاس والشعبي، وقتادة: المدينة. وقيل: الرزق الطيب، قاله مجاهد.

ولا منافاة بين القولين، فإنَّهم تركوا مساكنهم وأموالهم فعوَّضَهُم الله خيرًا [منها][2] في الدنيا، فإنَّ مَن ترك شيئًا لله عَوَّضَه الله بما هو خير له منه، وكذلك وقع فإنَّهم مكن الله لهم في البلاد وحَكَّمَهُم علىٰ رِقَاب العِبَاد، فصاروا أمراءَ حكامًا، وكل منهم للمُتَّقِين إمامًا، وأخبر أن ثوابه للمهاجرين في الدَّار الآخرة أعظم مما أعطاهم في الدنيا، فقال: ﴿وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ أي: مما أعطيناهم في الدُّنيا ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أي: لو كان المتخلفون عن الهِجْرَةِ معهم يعلمون ما ادَّخر الله لمن أطاعه واتَّبع رسوله؛ ولهذا قال هُشَيْم، عن العوام، عمَّن حدَّثه؛ أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان إذا أعطىٰ الرجل من المهاجرين عطاءه يقول: خُذْ بارك الله لك فيه، هذا ما وَعَدَكَ الله في الدنيا، وما ادَّخر لك في الآخرة أفضل، ثم قرأ هذه الآية: ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾.

ثم وصفهم تعالىٰ فقال: ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أي: صبروا علىٰ أَقَلِّ من آذاهم مِن قومهم، مُتوَكِّلين علىٰ الله الذي أحسن لهم العاقبة في الدنيا والآخرة.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٤٣ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ۝٤٤﴾

---

(١) رواه الطبري (١٤/ ١٠٥) موقوفًا، وفيه حجاج بن أرطاة: ضعيف: لكن الحديث ثبت مرفوعًا بغير هذا اللفظ كما أشار ابن كثير، رواه البخاري (٤٤٨٢) (٤٩٧٤)، والنسائي (٤/ ١١٢)، وأحمد (٢/ ٣١٧).

(٢) في (ز): «منه».

قال الضَّحَّاك، عن ابن عبَّاس: لما بعث الله محمَّدًا ﷺ رسولًا أنكرت العرب ذلك، أو من أنكر منهم، وقالوا: اللهُ أَعْظَم مِن أن يكون رسوله بشرًا. فأنزل الله: ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِنْهُمْ ﴾ [يونس: ٢][(١)]، وقال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ يعني: أَهْل الكتب الماضية: أبشرًا كانت الرسل التي إليهم[(٢)] أم ملائكة؟ فإن كانُوا ملائكةً أنكرتم، وإن كانوا بشرًا فلا تنكروا أن يكون محمَّدٌ ﷺ رسولًا؟ وقال تعالىٰ: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ﴾ [يوسف: ١٠٩] ليسوا من أهل السماء كما قلتم.

وهكذا روي عن مجاهد، عن ابن عبَّاس، أن المراد بأهل الذكر: أهل الكتاب. وقاله مجاهد، والأعمش.

وقول عبد الرحمن بن زيد -الذكر: القرآن، واستشهد بقوله: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩]- صحيح، لَكِن ليس هو المراد هاهنا؛ لأنَّ المخالف لا يرجع في إثباته بعد إنكارِهِ إليه.

وكذا قول أبي جعفر الباقر: «نَحْن أهل الذِّكر» -ومراده أنَّ هذه الأُمَّة أهل الذِّكر- صحيح، فإنَّ هذه الأُمَّة أعلم من جميع الأمم السالفة، وعلماء أهل بَيْتِ الرسول، عليهم السلام والرحمة، مِن خَيْرِ العلماء إذا كانوا علىٰ السنة المستقيمة، كعلي، وابن عبَّاس، [وبني][(٣)] عليٍّ: الحسن، والحسين، ومحمَّد ابن الحنفية، وعلي بن الحسين زين العابدين، وعلي بن عبد الله بن عبَّاس، وأبي جعفر الباقر -وهو: محمَّد ابن علي بن الحسين- وجعفر ابنه، وأمثالهم وأضرابهم وأشكالهم، ممَّن هو مُتَمَسِّكٌ بحبل الله المتين وصراطه المستقيم، وعُرِفَ لكلِّ ذي حَقٍّ حَقُّه، ونُزِّل كلٌّ المنزل الذي أعطاه الله ورسوله واجتمع إليه قلوب عباده المؤمنين.

والغرض: أن هذه الآية الكريمة أخبرت أن الرسل الماضين [قبل][(٤)] محمَّدٍ ﷺ كانوا بشرًا كما هو بشر، كما قال تعالىٰ: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ [الإسراء: ٩٣، ٩٤]. وقال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ﴾ [الفرقان: ٢٠]. وقال: ﴿ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨، ٩]، وقال: ﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [الأحقاف: ٩]، وقال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ﴾ [الكهف: ١١٠].

ثم أرشد الله تعالىٰ مِن شكٍّ في كون الرسل كانوا بشرًا، [إلىٰ سؤال][(٥)] أصحاب الكتب

---

(١) ضعيف:رواه الطبري (١٤/ ١٠٧)، وفي إسناده مجهول، وبشر بن عمارة: ضعيف.

(٢)في الطبري: «الشعب».

(٣)في (ز): «وابني»، وهو خطأ.

(٤)في (ز): «قبيل».

(٥)في (ز): «أن سألوا».

[المتقدمة](١) عن الأنبياء الذين سلفوا: هل كان أنبياؤهم بشرًا أو ملائكة؟

ثم ذكر تعالىٰ: أنَّه أرسلهم ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: بالدلالات والحجج، ﴿وَٱلزُّبُرِ﴾ وهي الكتب. قاله ابن عبَّاس، ومجاهد، والضَّحَّاك، وغيرهم.

والزبر: جمع زبور، تقول العرب: زَبَرْتُ الكتابَ إذا كتبتُهُ، وقال تعالىٰ: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ﴾ [القمر: ٥٢]. وقال: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

ثم قال تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ﴾ يعني: القرآن، ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ من ربهم؛ أي: لعلمك(٢) بمعنىٰ مَا أنزل عليك، وحرصِكَ عليه، واتِّباعِكَ له، ولعلمنا بأنك أفضل الخلائق وسيد ولد آدم، فتُفَصِّل لهم ما أُجْمِلَ، وتُبَيِّن لهم ما أُشْكِلَ: ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي: ينظرون لأنفسهم فيهتدون، فيفوزون بالنَّجاة في الدارين.

﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾﴾

يخبر تعالىٰ: عن [حلْمِه وإمهالِهِ](٣) وإنظاره العصاة الذين يَعْمَلُون السَّيِّئات ويدعون إليها، ويَمْكُرُون بالنَّاس في دعائهم إيَّاهم وحملهم عليها، مع قدرته علىٰ ﴿أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: من حيث لا يعلمون مَجيئَهُ إليهم، كما قال تعالىٰ: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ [الملك: ١٦، ١٧]، وقوله: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ﴾ أي: في تَقَلُّبِهِم في المعايش واشْتِغالِهم بها، مِن أسفارٍ ونحوها من الأشغال المُلْهِية.

قال قتادة والسُّدِّي: ﴿تَقَلُّبِهِمْ﴾ أي: أسفارهم.

وقال مجاهد، والضَّحَّاك: ﴿فِي تَقَلُّبِهِمْ﴾ في اللَّيل والنَّهار، كما قال تعالىٰ: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٧، ٩٨].

وقوله ﴿فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾ أي: لا يُعجِزُون الله علىٰ أيِّ حالٍ كانوا عليه.

وقوله: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾ أي: أو يَأْخُذَهُم الله في حَالِ خَوْفِهِم مِن أخذِهِ لهم، فإنَّه يكون أبلغَ وأشدَّ حالة الأخذ؛ فإنَّ حصولَ ما يتوقع مع الخوف شديدٌ؛ ولهذا قال العوفي، عن ابن عبَّاس: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾ يقول: إن [شئت أخذته علىٰ أثرِ موت صاحبه وتخوفه بذلِك. وكذا روي عن](٤) مجاهد، والضَّحَّاك، وقتادة وغيرهم.

---

(١) في (ز): «المقدمة».
(٢) في (ز) زيادة: «عما»، وحذفها أوفق للسياق.
(٣) في (ز): «حكمه».
(٤) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

ثم قال تعالىٰ: ﴿فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: حيث لم يُعَاجِلْكُم بالعقوبة، كما ثبت في «الصحيحين»: [«لا أَحَدَ أَصْبَرُ عَلَىٰ أَذًىٰ سَمِعَهُ مِنَ اللهِ، إِنَّهُمْ يَجْعَلُونَ لَهُ وَلَدًا وَهُوَ يَرْزُقُهُمْ وَيُعَافِيهِمْ»](١)(٢)، وفي «الصحيحين»: «إِنَّ اللهَ [لَيُمْلِي](٣) لِلظَّالِمِ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ» ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾(٤)[هود: ١٠٢]. وقال تعالىٰ: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الحج: ٤٨].

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ(٥) ﴿٥٠﴾﴾

يخبر تعالىٰ: عن عظمته وجلاله وكبريائه الذي خضع لَهُ كل شيءٍ، ودانت له الأشياء والمخلوقات بأَسْرِهَا: جمادها وحيواناتها، ومكلَّفُوها مِن الإنس والجن والملائكة، فأخبر أن كل ما له ظِلٌّ يَتفيأُ ذات اليمين وذات الشمال؛ أي: بُكْرَةً وعشيًّا، فإنَّه ساجدٌ بظلِّه لله تعالىٰ.

قال مجاهد: إذَا زالتِ الشَّمس سجد كلُّ شيءٍ لله عَزَّ وَجَلَّ. وكذا قال قتادة، والضَّحَّاك، وغيرهم.

وقوله: ﴿وَهُمْ دَٰخِرُونَ﴾ أي: صاغرون. قال مجاهد أيضًا: سجودُ كلِّ شيءٍ فيه. وذكر الجبال قال: سجودها فيها. وقال أبو غالب الشيباني: أمواجُ البَحْرِ صلاته. ونَزَّلَهم منزلة من يعقل إذ أسند السُّجود إليهم. ثم قال: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ﴾ كما قال: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ﴾ [الرعد: ١٥]، وقوله: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ [وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ](٦)﴾ أي: تسجدُ لله أي غير مستكبِرين عن عبادته، ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ أي: يسجدون خائفين وَجِلِين من الرَّبِّ جل جلاله، ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ أي: مُثَابِرين علىٰ طاعتِهِ تعالىٰ، وامْتِثَال أوامره، وتَرْكِ زَوَاجِرِه.

﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٥١﴾ وَلَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا ۚ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾﴾

---

(١) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).
(٢) البخاري (٦٠٩٩)، مسلم (٢٨٠٤)، والنسائي في «الكبرىٰ» (١١٣٢٣)، وأحمد (٤/ ٤٠٥).
(٣) في (ز): «يملي».
(٤) البخاري (٤٦٨٦)، ومسلم (٢٥٨٣)، والترمذي (٣١٠٩)، والنسائي، وابن ماجة (٤٠١٨).
(٥) قال العلامة السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: وسجود المخلوقات لله تعالىٰ قسمان: سجودُ اضطرارٍ ودلالةٍ علىٰ ما له من صفات الكمال، وهذا عامٌّ لكلِّ مخلوقٍ من مؤمنٍ وكافرٍ وبرٍّ وفاجرٍ وحيوانٍ ناطقٍ وغيره، وسجود اختيارٍ يختص بأوليائه وعباده المؤمنين من الملائكة وغيرهم من المخلوقات.
(٦) سقط من (ز).

يُقرِّر تعالىٰ: أنَّه لا إله إلا هو، وأنَّه لا ينبغي العبادة إلَّا له وحدَهُ لا شريك له، فإنَّه مالك كلِّ شيءٍ وخالقه وربه.

﴿وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا﴾ قال ابن عبَّاسٍ، ومجاهد، وعِكْرِمة، وميمون بن مِهْران، والسُّدِّي، وقتادة، وغير واحدٍ: أي: دائمًا.

وعن ابن عبَّاس أيضًا: واجبًا. وقال مجاهد: خالصًا؛ أي: له العبادة وحده ممَّن في السماوات والأرض، كقوله: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [آل عمران: ٨٣]. هذا علىٰ قول ابن عبَّاس وعكرمة، فيكُون مِن باب الخَبَر.

وأما [علىٰ][(١)] قول مجاهد فإنه يكون من باب [الطلب][(٢)]؛ أي: [ارهبوا][(٣)] أن تُشْرِكُوا به شيئًا، وأخلصوا له الطَّلَبَ، كما في قوله تعالىٰ: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣].

ثمَّ أخبر أنَّه مالكُ النفع والضرِّ، وأن ما بالعبد من نعمةٍ ورزقٍ وعافيةٍ ونصرٍ فمِنْ فَضْلِهِ عليه وإحسانه إليه ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾ أي: لِعلْمِكُم أنَّه لا يقدر علىٰ إزالته إلا هو، فإنكم عند الضَّرورَات تلجئون إليه، وتسألونه وتُلِحُّون في الرَّغبة مستغيثين به كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٧]، وقال هاهنا: ﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾.

قيل: «اللام» هاهنا لام العاقبة. وقيل: لام التعليل، بمعنىٰ: [قيضنا لهم ذلك][(٤)] ليكفروا؛ أي: يستروا ويجحدوا نعم الله عليهم، وأنه المُسْدِي إليهم النعمَ، الكاشفُ عنهم النقمَ.

ثم توعدهم قائلًا: ﴿فَتَمَتَّعُوا۟﴾ أي: اعملوا ما شئتم وتمتعوا بما أنتم فيه قليلًا ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أي: عاقبة ذلك.

﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ ۗ تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾﴾

يخبر تعالىٰ عَن قبائح المشركين الَّذين عبدوا مع الله غيرهِ مِن الأصنام والأوثان والأنداد، وجعلوا لها نصيبًا [مما][(٥)] رزقهم الله فقالوا: ﴿هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ﴾ [الأنعام: ١٣٦] أي: جعلوا

---

(١) سقط من (ز). (٢) سقط من (ز). (٣) في (ز): «ارهبون».
(٤) في (ز): «قيضناهم لذلك». (٥) سقط من (ز).

لآلهتهم نصيبًا مع الله وفضلوهم أيضًا على جانبه، فأقسم الله تعالىٰ بنفسه الكريمة ليسألنهم عن ذلك الَّذي افتروه، وائتفكوه، وليقابلنهم عليه وليُجازينَّهم أوفر الجزاء في نار جهنم، فقال: ﴿تَاللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ﴾.

ثم أخبر تعالىٰ: عنهم أنَّهم جعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثًا، وجعلوها بنات الله، وعبدوها معه، فأخطئوا خطًا كبيرًا في كل مقام من هذه المقامات الثلاث، فنسبوا إليه تعالىٰ أن له ولدًا، ولا ولد له! ثم أعطوه أخسَّ القسْمين من الأولاد وهو البنات، وهم لا يرضونها لأنفسهم، كما قال: ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ﴾ [النجم: ٢١، ٢٢] وقال هاهنا: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ﴾ أي: عن قولهم وإفكهم ﴿أَلَا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [الصافات: ١٥١ -١٥٤].

وقوله: ﴿وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾ أي: يختارون لأنفسهم الذكور ويأنفون لأنفسهم من البنات التي نسبوها إلىٰ الله، تعالىٰ الله عن قولهم علوًّا كبيرًا، فإنه ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا﴾ أي: كئيبًا من الهمِّ، ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ ساكتٌ من شدة ما هو فيه من الحزن، ﴿يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ﴾ أي: يكره أن يراه الناس ﴿مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ﴾ أي: إن أبقاها أبقاها مهانةً لا يُورِّثُها، ولا يعتني بها، ويفضل أولاده الذكور عليها، ﴿أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ﴾ أي: يئدها: وهو: أَنْ يَدْفِنَها [فيه][1] حيَّةً، كما كانوا يصنعون في الجاهلية، أفمن يكرهونه هذه الكراهة ويأنفون لأنفسهم عنه يجعلونه لله؟ ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي: بئس ما قالوا، وبئس ما قسموا، وبئس ما نسبوا إليه، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [الزخرف: ١٧]، وقال هاهنا: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ﴾ أي: النقص إنما ينسب إليهم، ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ﴾ أي: الكمال المطلق من كل وجهٍ، وهو منسوبٌ إليه، ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾﴾

يخبر تعالىٰ: عن [حلمه][2] بخلقه مع ظلمهم، وأنه لو يؤاخذهم بما كسبوا ما ترك علىٰ ظهر الأرض من دابَّة؛ أي: لأهلك جميع دواب الأرض تبعًا لإهلاك بني آدم، ولكن الرَّبَّ - جل جلاله - ، يَحْلُمُ ويَستُر، ويُنْظِر ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: لا يُعاجِلُهم بالعقوبة؛ إذ لو فعل ذلك بهم لما أبقىٰ أحدًا.

قال سفيان الثوري، عن [أبي][3] إسحاق، عن أبي الأحوص أنَّه قال: كاد الجُعَل[4] أن يُعذَّب بذنبِ

---

(١) سقط من (ز).
(٢) في (ز): «حكمه».
(٣) سقط من (ز)، وحذفها خطأ.
(٤) الجُعَل: حيوان كالخُنْفُساء.

بني آدم، وقرأ: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ﴾.

وكذا رَوَىٰ الأعمش، عن أبي إسحاق، عن أبي عُبَيدة قال: قال عبد الله: كاد الجُعَل أن يَهلِكَ في جُحْرِهِ بخطيئة بني آدم(١).

وقال ابن جرير: حدَّثني محمَّد بن المثنىٰ، حدَّثنا إسماعيل بن حكيم الخُزَاعي، حدَّثنا محمَّد بن جابر الحنفي، عن يحيىٰ ابن أبي كثير، عن أبي سلمة قال: سمع أبو هريرة رجلًا وهو يقول: إنَّ الظَّالم لا يَضُرُّ إلَّا نفسه. قال: فالتفت إليه فقال: بلىٰ والله، حتىٰ إنَّ الحُبَارَىٰ(٢) لتموتُ في وَكْرِهَا [هُزالًا](٣) بظلم الظالم(٤).

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا علي بن الحسين، أنبأنا الوليد بن عبد الملك [بن](٥) عبيد الله بن [مُسرِّح](٦)، حدَّثنا سليمان بن عطاء، عن [مسْلَمة](٧) بن عبد الله، عن عمه أبي مَشْجَعة بن رِبْعي، عن أبي الدرداء ﷺ قال: ذكرنا عند رسول الله ﷺ فقال: «**إنَّ اللهَ لا يُؤَخِّرُ شَيْئًا إِذَا [جَاءَ](٨) أَجَلُهُ، وَإِنَّمَا زِيَادَةُ العُمْرِ بِالذُّرِّيَّةِ الصَّالِحَةِ، يَرْزُقُهَا اللهُ العَبْدَ فَيَدْعُونَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ، فَيَلْحَقُهُ دُعَاؤُهُمْ فِي قَبْرِهِ، فَذَلِكَ زِيَادَةُ العُمْرِ**»(٩).

وقوله: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ أي: من البَنات، ومن الشُّركاء الذين هم من عبيده، وهم يَأْنفُون أن يكون عند أحدهم [شريك](١٠) له في ماله.

وقوله: ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ إنكارٌ عليهم في دعواهم مع ذلك أنَّ لهم الحسنىٰ في الدُّنيا، وإن كان ثَمَّ مَعادٌ ففيه أيضًا لهم الحسنىٰ، إخبار عن قِيلِ مَن قال منهم، كقوله:

---

(١) ضعيف: رواه الطبري (١٤/ ١٢٦)، والبيهقي في «الشعب» (٧٤٧٨)، وزاد السيوطي عزوه في «الدر المنثور» (٥/ ١٤٠)، إلىٰ ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم (١٣٤٠٧). قلت: والأثر منقطع بين أبي عبيدة وابن مسعود.

(٢) الحُبَارىٰ: طائر علىٰ شكل الإوَزَّة، برأسه وبطنه غبرة. وقوله: إنَّ الحُبَارىٰ لتموت هُزَالًا بذنب بني آدم؛ يعني: أنَّ الله يحبِس عنها القَطْر بعُقُوبة ذنوبهم، وإنما خصَّها بالذكر؛ لأنها أبْعَد الطير نُجْعَةً، فرُبَّما تُذْبح بالبصرة ويوجَد في حَوْصَلَتِها الحَبَّة الخضراء وبَيْن البَصْرة وبين مَنابِتها مَسِيرة أيام. «النهاية».

(٣) سقط من (ز)، وإثباتها موافقٌ لما في «الطبري».

(٤) ضعيف: رواه الطبري (١٤/ ١٢٦)، والبيهقي في «الشعب» (٧٤٧٩)، وزاد السيوطي عزوه في «الدر المنثور» (٥/ ١٤٠)، إلىٰ عبد بن حميد وابن أبي الدنيا في «العقوبات». قلت: فيه محمَّد بن جابر الحنفي: صدوق ذهبت كتبه فساء حفظه وخلط كثيرًا، وعمِيَ فصار يتلقن.
وقال أحمد: لا يُحدِّث عنه إلا شر منه، انظر: «التقريب» (٥٧٧٧)، و«ميزان الاعتدال» (٣/ ١٤٩).

(٥) في (ز): «ثنا»، وهو خطأ.

(٦) في (ز): «شرح»، وما ذكرناه هو الصواب.

(٧) في (ز): «سلمة»، والمثبت هو الصواب.

(٨) في (ز): «أجل».

(٩) منكر: رواه العُقَيلي في «الضعفاء» (٢/ ١١٣٤)، وفيه سليمان بن عطاء، قال ابن حبان: يروي أشياء موضوعة لا تشبه أحاديث الثِّقات، فلست أدري التخليط فيها منه أو من مسلمة بن عبد الله؟ (انظر المجروحين- ترجمة ٤١٢). وقال البخاري: في حديثه المناكير، وقال أبو زرعة: منكر الحديث (انظر تهذيب الكمال ١٢/ ٤٣) وقال الحافظ: منكر الحديث (تقريب - ٢٥٩٤)، والحديث أورده الشيخ الألباني في «السلسلة الضعيفة» (١٥٤٣)، وقال: منكر.

(١٠) في (ز): «شريكًا».

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَـٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ۝٩ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ [هود: ٩، ١٠]، وكقوله: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ]⁽¹⁾ لَيَقُولَنَّ هَـٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [فصلت: ٥٠]، وقوله: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ۝٧٧ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا﴾ [مريم: ٧٧، ٧٨] وقال إخبارًا عن أحد الرَّجلين: أنه ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَـٰذِهِۦٓ أَبَدًا ۝٣٥ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٥، ٣٦] -فجمَعَ هؤلاء بين عمل السوء وتَمَنِّي الباطل، بأَن يجازَوْا علىٰ ذلك حسنًا وهذا مستحيلٌ، كما ذكر ابن إسحاق: أنه وُجِدَ حجرٌ في أساس الكعبة حين نقضوها ليجددوها مكتوبٌ عليه حِكَم ومواعظ، فمن ذلك: تعملون السَّيِّئات وتجزون الحسنات؟! أجل كما يجتنىٰ من الشوك العنب⁽²⁾.

وقال مجاهد، وقتادة: ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي الغلمان.

وقال ابن جرير: ﴿أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي: يوم القيامة، كما قدَّمنا بيانَهُ، وهو الصواب، ولله الحمدُ.

ولهذا قال [الله]⁽³⁾ تعالىٰ رادًّا عليهم في تَمنِّيهم [ذلك]⁽⁴⁾: ﴿لَا جَرَمَ﴾ أي: حقًّا لا بد منه ﴿أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ أي: يوم القيامة، ﴿وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ﴾.

قال مجاهد، وسعيد بن جُبَير، وقتادة وغيرهم: مَنْسِيُّون فيها مضيعون.

وهذا كقوله تعالىٰ: [﴿فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَـٰذَا﴾]⁽⁵⁾[الأعراف: ٥١].

وعن قتادة أيضًا: ﴿مُّفْرَطُونَ﴾ أي: معجلون إلىٰ النَّار، من الفَرَط وهو السابق إلىٰ الوِرْد ولا منافاة؛ لأنهم يُعجل بِهِمْ يَوْمَ القِيَامَةِ إلىٰ النَّار، ويُنْسَوْنَ فيها؛ أي: يخلدون.

﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ⁽⁶⁾ ۝٦٣ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٦٤ وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ۝٦٥﴾

يذكر تعالىٰ: أنَّه أرسل إلىٰ الأُمَم الخالية رُسُلًا فكُذِّبت الرُّسل، فلك يا محمَّد في إخوانك مِن المُرْسَلين أسوةٌ، فلا يَهيدنَّك تكذيب قومك لك، وأمَّا المشركون الَّذين كذبوا الرسل، فإنَّما حملهم علىٰ ذَلِكَ تَزْيِينُ الشَّيطان لهم ما فعلوه، ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ أي: هم تَحْتَ العقوبة والنَّكال، والشيطان

---

(١) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).
(٢) والمعنىٰ: أن هذا مستحيل استحالةَ جَنْيِ العنب من الشوك.
(٣) ليست في (ز).
(٤) سقط من (ز).
(٥) في (ز): «فاليوم نناساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا».
(٦) قال أبو بكر الجزائري حفظه الله: الشَّيطان الذي زين للَّذين كفروا أعمالهم حتىٰ ضلوا وهلكوا هو ولي الذين كفروا اليوم يُزَيِّن لهم أعمالهم ليضلهم فيهلكوا كما هلك مَنْ قبلهم، وفي الآية تسليةٌ للرسول ﷺ.

وَلِيُّهم، ولا يملك لهم خلاصًا؛ ولا صريخ لهم ولهم عذابٌ أليم.

ثم قال تعالىٰ لرسوله: إنَّه إنَّما أنْزَلَ عليه الكتاب لِيُبيِّن للنَّاس الذي يختلفون فيه، فالقرآن فاصلٌ بين النَّاس في كل ما يتنازعون فيه ﴿وَهُدًى﴾ أي: للقلوب، ﴿وَرَحْمَةً﴾ أي: لمن تمسك به، ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

وكما جعل تعالىٰ القرآن حياةً للقلوب الميتة بكُفْرِها، كذلك يحيي الله الأرض بعد موتها بما ينزله عليها من السماء من ماء، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ أي: يفهمون الكلام ومعناه.

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ (٦٦) وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٦٧)﴾

يقول تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ﴾ أيها الناس ﴿فِي الْأَنْعَامِ﴾ وهي: الإبل والبقر والغنم، ﴿لَعِبْرَةً﴾ أي: لآيةً ودلالةً علىٰ قدرة خالقها وحكمته ولطفه ورحمته، ﴿نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ﴾ وأفرد هاهنا عَوْدًا علىٰ معنىٰ النِّعَم، أو الضمير عائد علىٰ الحيوان؛ فإن الأنعام حيوانات؛ أي: نسقيكم مما في بطن هذا الحيوان.

وفي الآية الأخرىٰ: ﴿مِّمَّا فِي بُطُونِهَا﴾ [المؤمنون: ٢١]، ويجوز هذا وهذا، كما في قوله تعالىٰ: ﴿كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ (٥٤) فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ﴾ [المدثر: ٥٤، ٥٥]، وفي قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ (٣٥) فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ﴾ [النمل: ٣٥، ٣٦] أي: المال.

وقوله: ﴿مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا﴾ أي: يتخلص الدم بياضه وطعمه وحلاوته من بين فرثٍ ودمٍ في باطن الحيوان، فيَسْرِي كلٌّ إلىٰ موطنه، إذا نَضِجَ الغذاء في معدته تصرَّف منه دم إلىٰ العروق، [ولبن إلىٰ الضِّرع][(١)] وبول إلىٰ المثانة، ورَوْث إلىٰ المخرج، وكلٌّ منها لا يشوب الآخر ولا يُمَازِجُه بعد انفصاله عنه، ولا يتغير به.

وقوله: ﴿لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ﴾ أي: لا يُغَصُّ أحدٌ به.

ولما ذكر اللَّبن وأنَّه تعالىٰ جعله شرابًا للنَّاس سائغًا، ثَنَّىٰ بذكر ما [يَتَّخِذُه][(٢)] النَّاس مِن الأشربة، مِن ثمرات النَّخيل والأعناب، وما كانوا يصنعونه من النَّبيذ المُسْكِر قبل تحريمه؛ ولهذا امْتَنَّ به عليهم فقال: ﴿وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا﴾ دلَّ علىٰ إباحَتِهِ شرعًا قبل تحريمه، ودلَّ علىٰ التَّسوِيَة بين السَّكَر المتخذ من العِنَب، والمُتَّخَذ مِن النَّخل كما هو مذهب مالك والشافعي وأحمد وجمهور العلماء، وكذا حُكْم سائر الأشربة المُتَّخَذَة مِن الحِنْطة والشَّعير والذُّرة والعسل، كما جاءت السنة بتفصيل ذلك، وليس هذا موضع بسط ذلك، كما قال ابن عبَّاس في قوله: ﴿سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ قال: السَّكَر: ما حرم مِن ثمرتيهما، والرِّزق الحسن ما أحلَّ مِن ثمرتيهما. وفي روايةٍ: السَّكر: حرامه، والرِّزق

(١) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

(٢) في (ز): «يتخذ».

الحَسَن: حلاله. يعني: ما يبس منهما مِن تَمْرٍ وزَبِيبٍ، وما عمل منهما من طلاء[١] -وهو الدِّبس- [وخَلٍّ][٢] ونَبِيذٍ، حلال يشرب قبل أَن يشتد، كما وردت السنة بذلك.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ ناسب ذكر العقل هاهنا، فإنَّه أشرف مَا في الإنسان؛ ولهذا حرم الله علىٰ هذه الأمة الأشربة المسكرة صيانةً لعقولها؛ قال الله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يس: ٣٤-٣٦].

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ[٣] ﴿٦٩﴾﴾

المراد بالوحي هاهنا: الإلهام والهداية والإرشاد إلىٰ النحل أَن تتخذ من الجبال بيوتًا تأوي إليها، ومن الشجر، ومما يعرشون. ثم هي محكمةٌ في غاية الإتْقَان في تسديسها ورصها، بحيث لا يكون بينها خلَلٌ.

ثم أذن لها تعالىٰ إذنًا قدريًّا تسخيريًّا أن تأكل من كل الثَّمَرات، وأَن تسلك الطرق التي جعلها الله تعالىٰ لها مذللةً؛ أي: سهلةً عليها حيث شاءت في هذا الجَوِّ العظيم والبراري الشاسعة، والأودية والجبال الشَّاهِقَةِ، ثم تعود كل واحدةٍ [منها][٤] إلىٰ موضعها وبَيْتِهَا، لا تحيد عنه يَمْنَةً ولا يَسْرَةً، بل إلىٰ بيتها وما لها فيه من فراخ وعسل، فتبني الشَّمع مِن أجنحتها، وتقيء العسل مِن فِيهَا وتَبِيضُ الفراخ من دبرها، ثم تصبح إلىٰ مراعيها.

وقال قتادة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا﴾ أي: مطيعةً. فجعلاه [حالًا][٥] من السالكة. قال ابن زيد: وهو كقول الله تعالىٰ: ﴿وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ [يس: ٧٢] قال: أَلَا تَرَىٰ أَنَّهم يَنْقُلُون النَّحل مِن بُيُوتِه مِن بلدٍ إلىٰ بلدٍ وهو يصحبهم.

والقول الأول أظهر، وهو أَنَّه حالٌ من الطريق؛ أي: فاسلكيها مذلَّلةً لك، نص عليه مجاهد.

وقال ابن جرير: كلا القولين صحيح.

وقد قال أبو يعلىٰ الموصلي: حدَّثنا شيبان بن فَرُّوخ، حدَّثنا [سُكَيْن][٦] بن عبد العزيز، عن أبيه، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «عُمْرُ الذُّبَابِ أَرْبَعُونَ يَوْمًا، وَالذُّبَابُ كُلُّهُ فِي النَّارِ إِلَّا النَّحلَ»[٧].

---

(١) الطِّلاء: الشراب المطبوخ من عصير العنب، أما الدِّبْس: فهو عسل التمر وعصارته.
(٢) في (ز): «والخل».
(٣) قال أبو بكر الجزائري حفظه الله: رُوِي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أَنَّه قال في تحقير الدنيا: أشرف لباس ابن آدم لُعاب دودة وأشرف شرابه فيها رَجِيع نحلة.
(٤) سقط من (ز). (٥) في (ز): «حالها». (٦) في (ز): «مسكين»، وهو خطأ.
(٧) ضعيف: رواه أبو يعلىٰ (٤٢٣١)، وفيه عبد العزيز بن قيس العبدي، قال الحافظ في «التقريب»: مقبول.

وقوله تعالىٰ ﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُۥ﴾ أي: ما بَيْنَ أبيض وأصفر وأحمر وغير ذلك من الألوان الحَسَنَةِ، علىٰ اختلاف مراعيها ومأكلها منها.

وقوله: ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾ أي: في العسل شفاء للنَّاس مِن أدواءٍ تَعْرِضُ لهم. قال بعض من تكلَّم علىٰ الطب النَّبويِّ: لو قال فيه: «الشِّفَاء للنَّاس» لكان دواءً لكلِّ داءٍ، ولكن قال: ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾ أي: يصلُح لكُلِّ أحدٍ مِن أدواءٍ باردةٍ، فإنَّه حارٌّ، والشَّيءُ يُدَاوَىٰ بضِدِّه.

وقال مجاهد بن جَبْر في قوله: ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾ يعني: القرآن.

وهذا قولٌ صحيحٌ في نفسه، ولكن ليس هو الظَّاهر هاهنا مِن سياق الآية؛ فإنَّ الآية إنَّما ذكر فيها العسل، ولم يُتَابع مجاهد علىٰ قوله هاهنا، وإنَّما الذي قاله ذكروه في قوله تعالىٰ: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ الآية [الإسراء: ٨٢]. وقوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧].

والدليل علىٰ أنَّ المراد بقوله تعالىٰ: ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾ هو العَسَل: الحديثُ الذي رواه البخاري ومسلم في «صحيحيهما» من رواية قتادة، عن أبي المتوكل علي بن داود الناجي، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: جاء رجلٌ إلىٰ رسول الله ﷺ فقال: إن أخي استَطْلَق[١] بطنُه؟ فقال: «**اسْقِهِ عَسَلًا**». فسقاهُ عسلًا ثم جاء فقال: يا رسول الله، سَقَيْتُهُ عَسَلًا فما زاده إلا استطلاقًا! قال: «**اذْهَبْ فَاسْقِهِ عَسَلًا**». فذهب فسقاه، ثم جاء فقال: يا رسول الله، ما زاده إلا استطلاقًا[٢]! فقال رسول الله ﷺ: «**صَدَقَ اللهُ، وَكَذَبَ بَطْنُ أَخِيكَ! اذْهَبْ فَاسْقِهِ عَسَلًا**». فذهب فسقاه فبَرِئَ[٣].

قال بعض العُلَمَاء بالطِّبِّ: كان هذا الرجل عنده فَضَلات، فلما سقاه عسلًا وهو حار تحلَّلت، فأسرعت في الاندفاع، فزَادَ إسهاله، فاعتقد الأعرابي أنَّ هذا يَضُرُّه وهو مصلحةٌ لأخيه، ثم سقاه فازداد التَّحْلِيلُ والدَّفع، ثم سقاه فكذلك، فلمَّا اندفعت الفضلات الفاسدة المُضِرَّة بالبدن استمسك بطنه، وصلح مزاجه، واندفعت الأسقام والآلام ببَرَكَةِ إِشَارَتِهِ، عليه من ربه أفضل الصلاة والسلام.

وفي «الصحيحين»، من حديث هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كان يُعْجِبُهُ الحَلْواءُ والعسل. هذا لفظ البخاري[٤].

وفي «صحيح البخاري»: من حديث سالم الأفطس، عن [سعيد بن جبير][٥]، عن ابن عبَّاس قال: قال رسول الله ﷺ: «**الشِّفَاءُ فِي ثَلَاثَةٍ: فِي شَرْطَةِ مِحْجَمٍ، أَوْ شَرْبَةِ عَسَلٍ، أَوْ كَيَّةٍ بِنَارٍ، وَأَنْهَىٰ أُمَّتِي عَنِ الكَيِّ**»[٦].

---

(١) الاستطلاق: الإسهال.
(٢) في (ز) زيادة: «له»، وهي ليست في «الصحيح».
(٣) البخاري (٥٦٨٤)، ومسلم (٢٢١٧).
(٤) البخاري (٥٦١٤)، ومسلم (١٤٧٤).
(٥) في (ز): «مجاهد بن جبر»، وهو خطأ، والمثبت موافق لما في «الصحيح».
(٦) البخاري (٥٦٨٠).

وقال البخاري: حدَّثنا أبو نُعيم، حدَّثنا عبد الرحمن بن الغَسِيل، عن عاصم بن عمر بن قتادة، سمعت جابر بن عبد الله قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنْ كَانَ فِي شَيْءٍ مِنْ أَدْوِيَتِكُمْ، أَوْ يَكُونُ فِي شَيْءٍ مِنْ أَدْوِيَتِكُمْ خَيْرٌ: فَفِي شَرْطَةِ مِحْجَمٍ، أَوْ شَرْبَةِ عَسَلٍ، أَوْ لَذْعَةٍ بِنَارٍ [تُوَافِقُ][1] الدَّاءَ، وَمَا أُحِبُّ أَنْ أَكْتَوِيَ»[2].

ورواه مسلم من حديث عاصم بن عمر بن قتادة، عن جابر [به][3].

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا علي بن إسحاق، أنبأنا عبد الله، أنبأنا سعيد بن أبي أيوب، حدَّثنا عبد الله ابن الوليد، عن أبي الخير، عن عقبة بن عامر الجُهَني قال: قال رسول الله ﷺ: «ثَلَاثٌ إِنْ كَانَ فِي شَيْءٍ شِفَاءٌ: فَشَرْطَةُ مِحْجَمٍ، أَوْ شَرْبَةُ عَسَلٍ، أَوْ كَيَّةٌ تُصِيبُ أَلَمًا، وَأَنَا أَكْرَهُ الكَيَّ وَلَا أُحِبُّهُ»[4].

ورواه الطبراني عن هارون بن [مَلُّول][5] المصري، عن أبي عبد الرحمن المقرئ، عن حيوة بن شُريح عن عبد الله بن الوليد به. ولفظه: «إِنْ كَانَ فِي شَيْءٍ شِفَاءٌ: فَشَرْطَةُ مِحْجَمٍ»... وذكره وهذا إسنادٌ صحيحٌ ولم يخرجوه.

وقال الإمام أبو عبد الله محمَّد بن يزيد بن ماجة القَزْوِيني في «سننه»: حدَّثنا علي بن سلمة -هو [اللَّبَقِي][6]- حدَّثنا زيد بن الحباب، حدَّثنا سفيان عن أبي إسحاق، عن أبي الأحوص، عن عبد الله -هو ابن مسعود- قال: قال رسول الله ﷺ: «عَلَيْكُمْ بِالشِّفَاءَيْنِ: [العَسَلِ وَالقُرْآنِ][7]»[8].

وهذا إسنادٌ جيدٌ، تفرد بإخراجه ابن ماجة مرفوعًا، وقد رواه ابن جرير، عن سفيان بن وَكِيع، عن أبيه، عن سفيان -هو الثوري- به موقوفًا: وَلَهو أشبه.

وروينا عَن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ أنَّه قال: إذا أراد أحدكم الشفاء فليكتب آيةً مِن كتاب الله في صَحْفَةٍ، ولْيَغْسِلْهَا بماءِ السَّماء، وليأخذ مِن امرأته درهمًا [عن][9] طيب نفسٍ مِنْهَا، فلْيَشْتَرِ بِهِ عسلًا فلْيَشْرَبْهُ بذلك، فإنه شفاء[10]. أي: من وجوه، قال الله: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ﴾ [الإسراء: ٨٢] وقال: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا﴾ [ق: ٩] وقال: ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾ [النساء: ٤]، وقال في العسل: ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾.

---

(١) في (ز): «يوافق»، والمثبت هو الصواب.
(٢) البخاري (٥٦٨٣)، ومسلم (٢٢٠٥).
(٣) سقط من (ز).
(٤) **صحيح**: رواه أحمد (٤/ ١٤٦)، وفيه عبد الله بن الوليد بن قيس: لين الحديث كما في «التقريب» لكن يشهد له رواية جابر السابقة وهي في «الصحيح».
(٥) في (ز): «سلول»، والمثبت هو الصواب.
(٦) في (ز): «الملقبي»، والمثبت هو الصواب.
(٧) في (ز): «القرآن والعسل» والمثبت موافق لما في «السنن».
(٨) ابن ماجة (٣٤٥٢)، ورجاله ثقات غير أنَّ أبا إسحاق مدلس وقد خالف وكيع في روايته حيث أوقفه على ابن مسعود: رواه الطبري (١٤/ ١٤١)، والحاكم (٤/ ٢٠٠)، وله طرق أخرى موقوفًا، ولذلك رجح الألباني الوقف، انظر: «السلسلة الضعيفة» (١٥١٤)، ورجح الوقف أيضًا البيهقي كما في «السنن» (٩/ ٣٤٤).
(٩) في (ز): «من».
(١٠) رواه ابن أبي حاتم (٤٧٧٩)، وقال الحافظ في «الفتح» (١٠/ ١٧٠): إسناده حسن.

وقال ابن ماجة أيضًا: حدَّثنا محمود بن خِدَاش، حدَّثنا سعيد بن زكريا القرشي، حدَّثنا الزبير بن سعيد الهاشمي، عن عبد الحميد بن سالم، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ لَعِقَ الْعَسَلَ ثَلَاثَ غَدَوَاتٍ فِي كُلِّ شَهْرٍ لَمْ يُصِبْهُ عَظِيمٌ مِنَ الْبَلَاءِ**»[١] الزبير بن سعيد متروك.

وقال ابن ماجة أيضًا: حدَّثنا إبراهيم بن محمَّد بن يوسف بن سَرْح الفريابي، حدَّثنا عمرو بن بكر السَّكْسَكي، حدَّثنا إبراهيم بن أبي [عبلة][٢]. سمعت أبا أُبَيٍّ ابن أم حَرَام -وكان قد صلىٰ القبلتين- قول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**عَلَيْكُمْ بِالسَّنَىٰ**[٣] **وَالسَّنُّوتِ، فَإِنَّ فِيهِمَا شِفَاءٌ مِنْ كُلِّ دَاءٍ إِلَّا السَّامُ**». قيل: يا رسول الله، وما السام؟ قال: «**الْمَوْتُ**»[٤].

قال عمرو: قال ابن أبي [عبلة][٥]: «السَّنُّوت»: الشِّبِتُّ[٦]. وقال آخرون: بل هو العسل الذي [يكون][٧] في زِقَاق السمن، وهو قول الشاعر:

هُمُ السَّمْنُ بِالسَّنُّوتِ لا [أَلْسَ][٨] فِيهِمُ ... وَهُمْ يَمْنَعُونَ الْجَارَ أَنْ [يُقَرَّدَا][٩][١٠]

كذا رواه ابن ماجة. وقوله: «لا أَلْسَ فيهم» أي: لا خلط. وقوله: «يمنعون الجار أن [يقَرَّدا]»، [أي: يضطهد ويظلم][١١].

وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي: إن في إلهام الله لهذه الدَّوابِّ الضَّعيفة الخِلْقة إلىٰ السلوك في هذه المَهامِهِ[١٢] والاجتناء مِن سائر الثِّمار، ثم جمعها للشمع والعسل، وهو من أطيب الأشياء، ﴿لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في عَظَمَةِ خالِقِهَا ومُقَدِّرِها ومسخِّرِهَا ومُيَسِّرِها، فيستدلون بذلك علىٰ أنَّه القَادِر، الحكيم العليم، الكريم الرحيم.

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾

يخبر تعالىٰ عن تصرفه في عباده، وأنَّه هو [الذي][١٣] أنشأهم مِن العدم، ثم بعد ذلك يتوفَّاهم، ومنهم مَن يتركه حتىٰ يدركه الهَرَم -وهو الضعف في الخلقة- كما قال الله تعالىٰ: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۖ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ [الروم: ٥٤].

---

(١) ضعيف: ابن ماجة (٣٤٥٠)، وفيه انقطاع بين عبد الحميد بن سالم وأبي هريرة، والزبير بن سعيد لين الحديث.
(٢) في (ز): «عميلة»، والمثبت هو الصواب.
(٣) السَّنَىٰ: نبات معروف من الأدوية له حَمْل، إذا يبِسَ وحرَّكَتْه الريحُ سَمِعت له زَجَلًا، الواحدة: سَناة. «النهاية».
(٤) ضعيف جدًّا: ابن ماجة (٣٤٥٧)، وفيه عمرو بن بكر السكسكي، قال الحافظ: متروك.
(٥) في (ز): «علية»، وهو خطأ.
(٦) الشِّبْت: البقلة المعروفة.
(٧) سقط من (ز)، وإثباتها موافق لما في «السنن».
(٨) الألس: أصله الولس، وهو الخيانة، والألس: الأصل السوء، والغدر والكذب.
(٩) في (ز): «ينفردا»، وفي نسخ: «يتفردا».
(١٠) التقريد: الخداع.
(١١) بياض في (ز).
(١٢) المفازة والصحراء البعيدة الأطراف.
(١٣) سقط من (ز).

وقد روي عن عليٍّ رضي الله عنه في أَرْذَلِ العُمُر قال: خمس وسبعون سنةً. وفي هذا السِّن يحصل له ضعف القُوىٰ والخَرَف وسوء الحفظ وقلة العِلْم؛ ولهذا قال: ﴿لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ أي: بعد ما كان عالمًا أصبح لا يَدْرِي شيئًا من الفَنَد[1] والخَرَف؛ ولهذا روىٰ البخاري عند تفسير هذه الآية:

حدَّثنا موسىٰ بن إسماعيل، حدَّثنا هارون بن موسىٰ أبو عبد الله الأعور، عن شُعَيب، عن أنس بن مالك؛ أنَّ رسول الله ﷺ كان يدعو: «أَعُوذُ بِكَ مِنَ البُخْلِ وَالكَسَلِ، وَالهَرَمِ وَأَرْذَلِ العُمُرِ، وَعَذَابِ القَبْرِ، وَفِتْنَةِ الدَّجَّالِ، وَفِتْنَةِ المَحْيَا وَالمَمَاتِ»[2]. ورواه [مسلم، من حديث هارون الأعور، به][3]. وقال زهير ابن أبي سُلْمَىٰ في معلقته المشهورة.

سَئِمْتُ تَكَالِيفَ الحَيَاةِ وَمَنْ يَعِشْ ... ثَمَانِينَ عَامًا -لا أَبَا لَكَ- يَسْأَمِ[4]

رَأَيْتُ [المَنَايَا][5] خَبْطَ عَشْوَاءَ مَنْ تُصِبْ ... تُمِتْهُ وَمَنْ تُخْطِئْ يُعَمَّرْ فَيَهْرَمِ[6]

﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ ۚ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ ۚ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾﴾

يُبَيِّن تعالىٰ للمشركين جهلهم وكفرهم فيما زعموه لله مِن الشركاء، وهم [يعترفون][7] أنها عبيد له، كما كانوا يقولون في تَلْبِيَاتِهِم في حجهم: «لبَّيكَ لا شريكَ لكَ، إلا شريكًا هو لك، تملكه وما مَلَكَ». فقال تعالىٰ منكرًا عليهم: إنكم لا ترضون أن تُساوُوا عبيدكم فيما رزقناكم، فكيف يرضىٰ هو تعالىٰ بمُسَاوَاةِ عبيدِهِ له في الإلهيَّة والتَّعظيم، كما قال في الآية الأخرىٰ: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ الآية [الروم: ٢٨].

قال العوفي، عن ابن عبَّاس في هذه الآية: يقول: لم يكونوا لِيُشرِكوا عبيدهم في أموالهم ونسائهم، فكيف يشركون عبيدي معي في سلطاني؟!، فذلك قوله: ﴿أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾.

وقال في الرواية الأخرىٰ، عنه: فكيف ترضون لي ما لَا ترضون لأنفسكم.

وقال مجاهد في هذه الآية: هذا مثلٌ للآلهة الباطلة.

وقال قتادة: هذا مثلٌ ضربَهُ الله، فهل منكم مِن أحدٍ شارك مملوكه في زوجته وفي فراشه، [فتعدلون][8] بالله خَلْقَهُ وعباده؟ فإن لم ترضَ لنَفْسِكَ هذا، فالله أحق أن يُنَزَّه منك.

---

(١) الفند في الأصل: الكذب، وأفند: تكلم بالكذب، ثم قالوا للشيخ إذا هَرِمَ: قد أفند؛ لأنه يتكلم بالمحرف من الكلام عن سَنَنِ الصحة.

(٢) البخاري (٤٧٠٧)، ومسلم (٢٧٠٦).

(٣) ما بين المعقوفتين بياض في (ز).

(٤) لا أبا لك: كلمة يستعملها العرب عند الغلظة وتشديد الأمر.

(٥) في (ز): «المنىٰ».

(٦) العشا: ضعف البصر، وخَبَطَه خَبْطَ عَشْواءَ: لم يتعمده، وأصله من الناقة العشواء؛ لأنها لا تبصر ما أمامها، فهي تخبط بيديها، وذلك أنها ترفع رأسها فلا تتعهد مواضع أخفافها.

(٧) في (ز): «يعرفون».

(٨) في (ز): «فيعدلون».

وقوله: ﴿أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ أي: أنهم جعلوا لله ممَّا ذرأ مِن الحرث والأنعام نصيبًا، فجحدوا نعمته وأشركوا معه غيره.

وعن الحسن البصري قال: كتب عمر بن الخطاب ﵁ هذه الرسالة إلىٰ أبي موسىٰ الأشعري: واقْنَع برزقك من الدنيا، فإنَّ الرحمن فَضَّل بعض عبادِهِ علىٰ بعضٍ في الرزق، بل يبتلي به كلًّا فيبتلي به مَن بَسَط له، كيف شُكره لله وأداؤه الحقَّ الذي افترض عليه فيما رزقه وخوَّله؟[١] رواه ابن أبي حاتم.

﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾

يذكر تعالىٰ نعمه علىٰ عبيده، بأن جعل لهم من أنفسهم أزواجًا مِن جنسهم وشكلهم، ولو جعل الأَزْوَاجَ مِن نوعٍ آخر لما حَصَل ائتلافٌ ومودةٌ ورحمةٌ، ولكن مِن رحمته خلق من بني آدم ذكورًا وإناثًا، وجعل الإناث أزواجًا للذكور.

ثم ذكر تعالىٰ أنَّه جعل مِن الأزواج البنين والحفدة، وهم أولاد البنين. قاله ابن عبَّاس، وعكرمة، والحسن، والضَّحَّاك، وابن زيد.

قال شعبة، عن أبي بشر، عن سعيد بن جُبير، عن ابن عبَّاس: ﴿بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ هم: الولد وولد الولد.

وقال سُنَيْد: حدَّثنا حجاج عن أبي بكر، عن عِكْرِمة، عن ابن عبَّاس، قال: بنوك حين يَحْفِدُونك ويَرْفِدُونك[٢] ويعينونك ويخدمونك. قال جميل:

[حفَد][٣] الولائدُ[٤] حَوْلهُن وأسلمَتْ ... بأكُفِّهن أزِمَّةَ الأجْمَال

وقال مجاهد: ﴿بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾: ابنه وخادمه. وقال في روايةٍ: الحَفَدَةُ: الأنصار والأعوان والخدَّام.

وقال طاوس: الحفدة: الخدم؛ وكذا قال قتادة، وأبو مالك، والحسن البصرىٰ.

وقال عبد الرزاق: أنبأنا مَعْمَر، عن الحكم بن أبان، عن عكرمة أنه قال: الحفدة: مَنْ خَدَمَك مِن ولدك وولد ولدك.

قال الضَّحَّاك: إنما كانت العرب يخدمها بنوها.

وقال العوفي، عن ابن عبَّاس قوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ يقول: بنو امرأة الرجل ليسوا منه. ويقال: الحفدة: الرجل يعمل بين يدي الرجل، يقال: فلان يحفِدُ لنا قال: ويزعم رجال أن الحفدة أَخْتَان الرجل[٥].

---

(١) رواه ابن أبي حاتم (١٢٥٨٣).
(٢) يرفدونك: يعينونك.
(٣) في (ز): «حفذ»، وكذلك في كل المواضع الآتية.
(٤) جمع وليدة، وهي الخادمة والأَمَة.
(٥) الأختان: جمع خَتَن، وهو كل ما كان من قِبَل المرأة، كالأب والأخ.

وهذا [القول](١) الأخير الذي ذكره ابن عبَّاس قاله ابن مسعود، ومسروق، وأبو الضُّحىٰ، وإبراهيم النَّخعيُّ، وسعيد بن جُبَيْر، ومجاهد، [والقُرَظي](٢). ورواه عكرمة، عن ابن عبَّاس.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس: هم الأصهار.

قال ابن جرير: وهذه الأقوال كلها داخلة في معنىٰ: «الحَفْد» وهو الخِدْمَةُ، الذي منه قوله في القنوت: «وَإِلَيْكَ نَسْعَىٰ وَنَحْفِدُ»، ولما كانت الخدمةُ قد تكون من الأولاد والأصهار والخدم فالنِّعمة حاصلةٌ بهذا كله؛ ولهذا قال: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾.

قلت: فمَن جعل ﴿وَحَفَدَةً﴾ متعلقًا بأزواجكم فلا بدَّ أن يكون المراد: الأولاد، وأولاد الأولاد، والأَصْهَار؛ لأنَّهم أزواج البنات وأولاد الزَّوجة، وكما قال الشعبي والضَّحَّاك، فإنَّهم غالبًا يكونون تحت كَنَف الرَّجل وفي حِجْره وفي خِدْمَتِهِ. وقد يكون هذا هو المراد من قوله ﷺ في حديث [بَصْرةَ](٣) بن أكثم: «وَالوَلَدُ عَبْدٌ لَكَ» رواه أبو داود(٤).

وأمَّا مَن جعل الحَفَدة هم الخَدَم فعنده أنَّه معطوف علىٰ قوله: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ أي: وجعل لكم الأَزْوَاج والأولاد.

[﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾](٥) من المطاعم والمشارب.

ثم قال تعالىٰ منكرًا علىٰ من أشرك في عبادة المُنْعِم غيره: ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾ وهم: الأصنام والأنداد، ﴿وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ أي: يستُرُون نعم الله عليهِمْ ويُضِيفُونها إلىٰ غيره.

وفي الحديث الصحيح: «إِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ يَقُولُ لِلْعَبْدِ يَوْمَ القِيَامَةِ مُمْتَنًّا عَلَيْهِ: أَلَمْ أُزَوِّجْكَ؟ أَلَمْ أُكْرِمْكَ؟ أَلَمْ أُسَخِّرْ لَكَ الخَيْلَ [وَالإِبِلَ](٦) وَأَذَرْكَ تَرْأَسُ وَتَرْبَعُ؟»(٧).

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾﴾

يقول تعالىٰ: إخبارًا عن المشركين الذين عبدوا معه غيره، مع أنَّه هو المنعم المُتَفضِّل الخالق الرَّازق وحده لا شريك له، ومع هذا يعبدون مِن دونه مِن الأصنام والأنداد والأوثان ﴿مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا﴾ أي: لا يقدر علىٰ إنزال مطرٍ ولا إنبات زرعٍ ولا شجرٍ، ولا يملكون ذلك؛ أي: ليس لهم ذلك ولا يقدرون عليه لو أرادوه، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ أي: [لا تجعلوا](٨) له أندادًا وأشباهًا وأمثالًا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: أنَّه يعلم ويشهد أنه لا إله إلا هو؛ وأنتم بجهلكم تُشْرِكُونَ به غيره.

---

(١) سقط من (ز).
(٢) في (ز): «القرطبي»، وهو خطأ.
(٣) في (ز): «نصرة»، وهو خطأ.
(٤) ضعيف: أبو داود (٢١٣١)، وفيه عنعنة ابن جريج وهو مدلس، والحديث ضعفه الألباني.
(٥) في (ز): «ورزقكم من طيبات الرزق».
(٦) سقط من (ز)، وهي مثبتة في «صحيح مسلم».
(٧) رواه مسلم (٢٩٦٨).
(٨) في (ز): «لا تجعلون».

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبۡدًا مَّمۡلُوكًا لَّا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَمَن رَّزَقۡنَٰهُ مِنَّا رِزۡقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنۡهُ سِرًّا وَجَهۡرًاۖ هَلۡ يَسۡتَوُۥنَۚ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٧٥﴾

قال العوفي، عن ابن عبَّاس: هذا مثلٌ ضربه الله للكافر والمؤمن: وكذا قال قتادة، واختاره ابن جرير. والعَبْدُ المملوكُ الَّذِي لا يَقْدِر علىٰ شيءٍ مثل الكافر، والمَرْزُوق الرِّزقَ الحسنَ، فهو يُنْفِق منه سرًّا وجهرًا هو المؤمن. وقال ابن أبي نَجِيح، عن مجاهد: هو مثلٌ مضروبٌ للوثن وللحق تعالىٰ، فهل يستوي هذا وهذا ؟!. ولما كان الفرق ما بينهما بيِّنًا واضحًا ظاهرًا لا يجهله إلا كل غَبِيٍّ، قال الله تعالىٰ: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾.

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيۡنِ أَحَدُهُمَآ أَبۡكَمُ لَا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوۡلَىٰهُ أَيۡنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأۡتِ بِخَيۡرٍ هَلۡ يَسۡتَوِي هُوَ وَمَن يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٧٦﴾

قال مجاهد: وهذا أيضًا المراد به الوثن والحق تعالىٰ؛ يعني: أنَّ الوثَنَ أبكم لا يتكلَّم ولا يَنْطِقُ بخيرٍ ولا بشيءٍ، ولا يقدر علىٰ شيءٍ بالكليَّة، فلا مقال، ولا فعال، وهو مع هذا ﴿كَلٌّ﴾ أي: عيالٌ ولُكْفَةٌ علىٰ مولاه، ﴿أَيۡنَمَا يُوَجِّههُّ﴾ أي: يبعثه ﴿لَا يَأۡتِ بِخَيۡرٍ﴾ ولا ينجح مسعاه ﴿هَلۡ يَسۡتَوِي﴾ مَن هذه صفاته، ﴿وَمَن يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ﴾ أي: بالقسطِ، فقالُهُ حقٌّ وفعَالُهُ مستقيمةٌ ﴿وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ وبهذا قال السُّدِّي، وقتادة وعطاء الخُراساني. واختار هذا القول ابن جرير.

وقال العوفي، عن ابن عبَّاس: هو مثلٌ للكافر والمؤمن أيضًا، كما تقدم.

وقال ابن جرير: حدَّثنا الحسن بن الصباح [البزار][١]، حدَّثنا يحيىٰ بن إسحاق، [السَّيْلحيني][٢]، حدَّثنا حماد، حدَّثنا عبد الله بن عثمان بن خُثَيْم عن إبراهيم، عن عِكْرِمة، عن يَعْلَىٰ بن أمية، عن ابن عبَّاس في قوله: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبۡدًا مَّمۡلُوكًا لَّا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ﴾ نزلت في رجلٍ من قريشٍ وعبده. وفي قوله: [﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ][٣] مَثَلًا رَّجُلَيۡنِ أَحَدُهُمَآ أَبۡكَمُ لَا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ﴾ إلىٰ قوله: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ قال: هو عثمان بن عفان. قال: والأَبْكَمُ الذي أينما يُوَجِّهْه لا يأت بخيرٍ قال هو: مولىٰ لعثمان بن عفان، كان عثمان ينفق عليه [ويكفله][٤] ويكفيه [المئونة][٥]، وكان الآخر يَكْرَه الإسلام ويأباه ويَنْهاه عن الصدقة والمعروف، فنزلت فيهما[٦].

---

(١) في (ز): «البزاز»، وهو خطأ.
(٢) في (ز): «السكحيني»، وهو خطأ.
(٣) سقط من (ز).
(٤) في (ز): «ويكلفه».
(٥) في (ز): «المؤنة».
(٦) حسن. رواه ابن جرير (١٤/ ١٥١)، وإسناده حسن، في يحيىٰ بن إسحاق وعبد الله بن عثمان، قال الحافظ في كلٍّ منهما: صدوق. وعبد الله بن عثمان بن خثيم قال فيه ابن معين: أحاديثه غير قوية، وقال النسائي: لين الحديث، ليس بالقوي فيه.

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ(١) ﴿٧٨﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾﴾

يُخْبِر تعالىٰ عَن [كمال علمِهِ](٢) وقدرته علىٰ الأشياء، في علمه غيب السماوات والأرض، واختصَاصِهِ بذلك، فلا اطِّلاع لأحدٍ علىٰ ذلك إلا أن يطلعه [الله](٣) تعالىٰ علىٰ ما يشاء -وفي قدرته التَّامَّة التي لا تخالَفُ ولا تمانَعُ، وأنه إذا أراد شيئًا فإنما يقول له: كن، فيكون، كما قال: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠] أي: فيكون ما يُرِيدُ كطَرْفِ العين. وهكذا قال هاهنا: ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ كما قال: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨].

ثم ذكر تعالىٰ مِنَّته علىٰ عباده، في إخراجه إياهم مِن بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئًا، ثم بعد هذا يرزقهم تعالىٰ السَّمع الذي به يدركون الأصوات، والأبصار اللَّاتي بها يحسون المرئيات، والأفئدة -وهي العقول- التي مركزها القلب علىٰ الصحيح، وقيل: الدِّماغ والعقل به يميز بين الأشياء ضارِّها ونافعها. وهذه القوىٰ والحواس تحصل للإنسان علىٰ التَّدريج قليلًا قليلًا كلما كبر زِيد في سَمْعِهِ وبصره وقَوِيَ عقله حتىٰ يبلغ أشده.

وإنما جعل تعالىٰ هذه في الإنسان؛ ليتمكن بها من عبادة ربه تعالىٰ، فيَسْتَعِين بكل جارحةٍ وعضوٍ وقوةٍ علىٰ طاعة مولاه، كما جاء في «صحيح البخاري»، عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**يَقُولُ تَعالَىٰ: مَنْ عَادَىٰ لِي وَلِيًّا فَقَدْ بَارَزَنِي بِالحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِمِثْلِ أَدَاءِ مَا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّىٰ أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَلَئِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ دَعَانِي [لَأُجِيبَنَّهُ](٤)، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَ بِي لَأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ فِي شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي فِي قَبْضِ نَفْسِ عَبْدِي المُؤْمِنِ، يَكْرَهُ المَوْتَ وَأَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ، وَلَا بُدَّ لَهُ مِنْهُ**»(٥).

فمعنىٰ الحديث: أنَّ العبد إذا أخلص الطَّاعة صارت أفعاله كلها لله ﷻ فلا يسمع إلا لله، ولا يُبْصِر

---

(١) قال العلامة الشنقيطي رحمه الله: لم يأتِ السمعُ فِي القُرْآنِ مجموعًا، وإنَّما يَأتِي فيه بِصِيغَةِ الإِفْرادِ دائمًا، مع أنَّه يَجْمَعُ ما يُذكر مَعَهُ كالأفئدةِ والأَبصارِ. وأظهرُ الأَقوالِ فِي نكتةِ إفرادِهِ دائمًا: أنَّ أصلهُ مَصْدَرُ «سَمِعَ سَمْعًا»، والمَصْدَرُ إِذَا جُعِلَ اسْمًا ذُكِّرَ وَأُفْرِدَ؛ كما قال في «الخُلاصَةِ»:

وَنَعَتُوا بِمَصْدَرٍ كَثِيرَا ... فَالْتَزَمُوا الإِفْرَادَ وَالتَّذْكِيرَا

(٢) في (ز): «كماله».

(٣) سقط من (ز).

(٤) في (ز): «لأجبته».

(٥) البخاري (٦٥٠٢).

إلا لله؛ أي: ما شرعه الله له، ولا يَبْطِشُ ولا يمشي إلا في طاعة الله ﷻ مستعينًا بالله في ذلك كله؛ ولهذا جاء في بعض رواية الحديث في غير الصحيح، بعد قوله: «وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، فَبِي يَسْمَعُ، وَبِي يُبْصِرُ، وَبِي يَبْطِشُ، وَبِي يَمْشِي»؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ كما قال في الآية الأخرىٰ: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الملك: ٢٣، ٢٤].

ثم نبَّه تعالىٰ عباده إلىٰ النَّظر إلىٰ الطَّير المسخَّر بين السَّماء والأرض، كيف جعله يَطِيرُ بجناحيه بين السَّماء والأرض، في جوِّ السَّماء ما يمسكه هناك إلَّا الله بقدرته تعالىٰ، الذي جعل فيها قوىٰ تفعل ذلك، وسخَّر الهواء يحملها ويَسَّر الطير لذلك، كما قال تعالىٰ في سورة الملك: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾ [الملك: ١٩]. وقال هاهنا: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٣﴾﴾

يذكر تبارك وتعالىٰ تمام نعمه علىٰ عبيده، بما جعل لَهُمْ مِن البيوت التي هي سكنٌ لهم، يأوون إليها، ويَسْتَتِرُون بها، وينتفعون بها سائر وجوه الانتفاع، وجعل لهم أيضًا ﴿مِّن جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا﴾ أي: مِن الأُدُم[(١)]، يَسْتَخِفُّون حملها في أسفارهم؛ لِيَضْرِبُوها لهم في إقامتهم في السفر [والحَضَر][(٢)] ولهذا قال: ﴿تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا﴾ أي: الغنم، ﴿وَأَوْبَارِهَا﴾ أي: الإبل، ﴿وَأَشْعَارِهَا﴾ أي: المعز -والضَّمير عائدٌ علىٰ الأنعام- ﴿أَثَاثًا﴾ أي: تتخذون منه أثاثًا، وهو المال. وقيل: المتاع. وقيل: الثِّياب. والصَّحيح أعمُّ مِن هذا كله، فإنَّه يُتَّخذ مِن الأثاث البُسُط والثِّياب وغير ذلك، ويُتَّخذ مالًا وتجارةً. وقال ابن عبَّاس: الأثاث: المتاع. وكذا قال مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، والحسن، وعطية العوفي، وعطاء الخُرَاساني، والضَّحَّاك، وقتادة.

وقوله: ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ أي: إلىٰ أجل مسمًّىٰ [و][(٣)] وقتٍ معلوم.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا﴾ قال قتادة: يعني: الشجر.

﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا﴾ [أي: حصونا][(٤)] ومعاقل ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ

---

(١) الأديم: الجلد، وجمعه: أُدُمٌ.
(٢) سقط من (ز).
(٣) في (ز): «إلىٰ».
(٤) سقط من (ز).

ٱلۡحَرَّ﴾ وهي الثِّياب مِن القطن والكتَّان والصُّوف، ﴿وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأۡسَكُمۡ﴾ كالدروع من الحديد المصفَّح والزَّرد وغير ذلك، ﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ﴾ أي: هكذا يجعل لكم ما تَسْتَعِينُون به علىٰ أمركم، وما تحتاجون إليه؛ ليكون عونًا لكم علىٰ طاعته وعبادته، ﴿لَعَلَّكُمۡ تُسۡلِمُونَ﴾.

هكذا فسَّره الجمهور، وقرءوه بكسر اللام من «تُسْلِمُونَ» أي: من الإسلام.

وقال قتادة [في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾][(١)] ﴿يُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡلِمُونَ﴾ هذه السورة تسمىٰ «سورة النِّعَم».

وقال عبد الله بن المبارك وعباد بن العوام، عن حَنْظَلَة السَّدُوسي، عن شَهْر بن حَوْشَب، عن ابن عبَّاس أنه كان يقرؤها «تَسْلَمُونَ» بفتح اللام[(٢)]؛ يعني: من الجِراح. رواه أبو عبيد القاسم بن سلام عن عباد، وأخرجه ابن جرير من الوجهين، [وردَّ][(٣)] هذه القراءة.

وقال عطاء الخراساني: إنَّما نزل القرآن علىٰ قدرِ معرفة العرب، ألا ترىٰ إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡجِبَالِ أَكۡنَٰنٗا﴾؟ وما جعل لكم من السهل أعظم وأكثر، ولكنهم كانوا أصحاب جبالٍ، ألا ترىٰ إلىٰ قوله: ﴿وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا وَأَوۡبَارِهَا وَأَشۡعَارِهَآ أَثَٰثٗا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ﴾؟ وما جعل لكم من غير ذلك أعظم منه وأكثر ولكنهم كانوا أصحاب وَبَرٍ وشَعَرٍ، ألا ترىٰ إلىٰ قوله: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٖ فِيهَا مِنۢ بَرَدٖ﴾ [النور: ٤٣]؟ لعَجَبِهم مِن ذلك، وما أنزل من الثلج أعظم وأكثر، ولكنَّهم كانوا لا يعرفونه، ألا ترىٰ إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ﴾؟ وما [تَقِي][(٤)] مِن البرد أعظم وأكثر ولكنهم كانوا أصحاب حَرٍّ.

وقوله ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾ أي: بعد هذا البيان وهذا الامتنان، فلا عليك منهم، ﴿فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ وقد أَدَّيْتُه إليهم.

﴿يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ أي: يعرفون أنَّ الله تعالىٰ هو المُسْدِي إليهم ذلك، وهو المتفضِّل به عليهم، ومع هذا ينكرون ذلك، ويعبدون معه غيره، ويُسْنِدُون النصر والرزق إلىٰ غيره، ﴿وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ كما قال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبو زُرْعَة، حدَّثنا صفوان، حدَّثنا الوليد، حدَّثنا عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، عن مجاهد؛ أن أعرابيًّا أتىٰ رسول الله ﷺ [فسأله][(٥)]، فقرأ عليه رسول الله ﷺ: [﴿وَٱللَّهُ﴾][(٦)] ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنٗا﴾ قال الأعرابي: نعم. قال: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتٗا تَسۡتَخِفُّونَهَا يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ﴾ قال الأعرابي: نعم. ثم قرأ عليه، كل ذلك يقول الأعرابي: نعم، حتىٰ بلغ: ﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡلِمُونَ﴾ فولىٰ الأعرابي، فأنزل الله: ﴿يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾[(٧)].

---

(١) سقط من (ز).
(٢) قراءة: قَرَأَ (تَسْلَمُونَ) ابْنُ عَبَّاسٍ، وَلَيْسَ فِي الْمُتَوَاتِرِ إِلَّا (تُسْلِمُونَ).
(٣) في (ز): «بورود».
(٤) في (ز): «يقي».
(٥) سقط من (ز).
(٦) سقط من (ز).
(٧) مرسل: رواه ابن أبي حاتم (١٣٤٧٩) وإسناده مرسل، وهكذا عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ١٥٥).

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَءَا الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا رَءَا الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾﴾

يُخْبِرُ تعالىٰ: عَن شأن المشركين يوم مَعَادهم في الدار الآخرة، وأنَّه يبعث من كل أمةٍ شهيدًا، وهو نبيها، يشهد عليها بما أجابته فيما بلغها عن الله تعالىٰ، ﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: في الاعتذار؛ لأنَّهم يعلمون بطلانه وكذبه، كما قال: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [المرسلات: ٣٥، ٣٦]. ولهذا قال: ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَءَا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي: أشركوا ﴿الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ﴾ أي: لا يُفتَّر عنهم ساعةً واحدةً، ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ أي: ولا يؤخر عنهم، بل يأخذهم سريعًا من الموقف بلا حسابٍ، فإنه إذا جيء بجهنم تُقَاد بسبعين ألفَ زمامٍ، مع كل زمام سبعون ألف ملك، فيُشْرِف عُنُقٌ منها علىٰ الخلائق، [وتَزْفر] (١) زفرة لا يبقىٰ أحدٌ إلا جَثَا لركبتيه، فتقول: إني وُكِّلْت بكل جبارٍ عنيدٍ، الَّذي جعل مع الله إلهًا آخر، وبكذا وكذا وتذكر أصنافًا من النَّاس، كما جاء في الحديث (٢). ثم تَنْطَوي عليهم وتلتقطهم من الموقف كما يتلقط الطَّائر الحبَّ قال الله تعالىٰ: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ [الفرقان: ١٢ -١٤]، وقال تعالىٰ: ﴿وَرَءَا الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ [الكهف: ٥٣]. وقال تعالىٰ: ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٩، ٤٠].

ثم أخبر تعالىٰ عن تبرُّؤ آلهتهم منهم أحوجَ ما يكونون إليها، فقال: ﴿وَإِذَا رَءَا الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ﴾ أي: الَّذين كانوا يعبدونهم في الدنيا، ﴿قَالُوا رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ أي: قالت لهم الآلهة: كذبتم، ما نحن [أمرناكم] (٣) بعبادتنا. كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٥، ٦] وقال تعالىٰ: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨١، ٨٢]. وقال الخليل عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٥]، وقال تعالىٰ: [﴿وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ﴾ [القصص: ٨٤]] (٤)

---

(١) في (ز): «ويزفر». (٢) انظر: «صحيح مسلم» (٢٨٤٢). (٣) في (ز): «ما أمرناكم».

(٤) في (ز): «وقيل ادعوا شركاءكم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم وجعلنا بينهم موبقًا»، وهذا خلط بين الآيتين (الكهف: ٥٢)، و(القصص: ٦٤).

والآيات في هذا كثيرةٌ.

وقوله: ﴿وَأَلْقَوْا۟ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ﴾: قال قتادة، وعكرمة: ذَلُّوا واستسلموا يومئذٍ؛ أي: استسلموا لله جميعهم، فلا أحد إلا سامعٌ مطيعٌ، كما قال: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ [مريم: ٣٨] أي: ما أسمعهم وما أَبْصَرَهُم يومئذ! وقال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢]، وقال: ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ﴾ [طه: ١١١] أي: خضعت وذلت واستكانت وأنابت واستسلمت.

﴿وَأَلْقَوْا۟ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ أي: ذهب واضْمَحَلَّ ما كانوا يعبدونه افتراءً علىٰ الله، فلا ناصر لهم ولا معين ولا مجير.

ثم قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ﴾ أي: عذابًا علىٰ كفرهم، وعذابًا علىٰ صدِّهِم النَّاس عن اتِّباع الحق، كما قال تعالىٰ: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٦] أي: ينهون [النَّاس](١)، عن اتِّباعه، ويبتعدون هم منه أيضًا ﴿وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأنعام: ٢٦].

وهذا دليلٌ علىٰ تفاوت الكفار في عذابهم، كما يتفاوت المؤمنون في منازلهم في الجنة ودرجاتهم، كما قال الله تعالىٰ: [﴿قَالَ لِكُلٍّ](٢) ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨].

وقد قال الحافظ أبو يعلىٰ: حدَّثنا سُرَيْجُ بن يونس، حدَّثنا أبو معاوية، حدَّثنا الأعمش، عن عبد الله ابن مُرَّة، عن مسروق، عن عبد الله في قول الله: ﴿زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ﴾ قال: زيدوا عقاربَ أنيابُها كالنخل الطوال(٣).

وحدَّثنا [سُرَيْجُ](٤) بن يونس، حدَّثنا إبراهيم بن سليمان، حدَّثنا الأعمش، عن الحسن، عن ابن عبَّاسٍ أنه قال: ﴿زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ﴾ قال: هي خمسة أنهارٍ [تَحْتَ](٥) العرش يعذبون ببعضها بالليل وببعضها بالنهار(٦).

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾

يقول تعالىٰ: مخاطبًا عبده ورسوله محمَّدًا ﷺ: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ يعني أُمَّته.

أي: اذكر ذلك اليوم وهوله وما منحك الله فيه من الشرف العظيم والمقام الرفيع. وهذه الآية شبيهةٌ

---

(١) سقط من (ز). (٢) سقطت من (ز).

(٣) صحيح: رواه الطبري (١٤/ ١٦٠)، وأبو يعلىٰ (٣٣٢).

(٤) في (ز): «شريح». (٥) في (ز): «فوق».

(٦) ضعيف: رواه أبو يعلىٰ (٣٣٣)، وفيه الحسن البصري يرسل، وقد عنعن والرَّاجح أنَّه لم يلقَ ابن عبَّاس ﵄.

بالآية التي انتهىٰ إليها عبد الله بن مسعود حين قرأ علىٰ رسول الله ﷺ صدر سورة «النساء» فلما وصل إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١]. فقال له رسول الله ﷺ: «حَسْبُكَ». قال ابن مسعود رضي الله عنه: فالتفتُّ فإذا عيناه تذرفان[١].

وقوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ قال ابن مسعود: قد بيَّن لنا في هذا القرآن كل علم، وكل شيءٍ. وقال مجاهد: كل حلالٍ وحرام. وقول ابن مسعود: أعم وأشمل؛ فإنَّ القرآن اشتمل علىٰ كلِّ علمٍ نافعٍ من خبر ما سبق، وعلم ما سيأتي، وحكم كلِّ حلالٍ وحرامٍ، وما الناس إليه محتاجُون في أمر دُنْيَاهم ودينهم، ومعاشهم ومَعَادهم.

﴿وَهُدًى﴾ أي: [للقلوب][٢]، ﴿وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾. وقال الأوزاعي: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: بالسُّنَّة. ووجه اقتران قوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ مع قوله: ﴿وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ﴾ أن المراد -والله أعلم-: أن الذي فرض عليك تَبْلِيغ الكتاب الذي أنزله عليك، سائِلُكَ عَن ذلك يوم القيامة، ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦]، ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢، ٩٣]، ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١٠٩]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص: ٨٥] أي: [أن][٣] الَّذِي أوجب [عليك][٤] تبليغ القُرآن لرادُّك إليه، ومُعِيدُك يوم القيامة، [وسائلك][٥] عن أداءِ ما فرض عليك. هذا أحد الأقوال، وهو مُتَّجه حسن.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ[٦] ﴿٩٠﴾﴾

يخبر تعالىٰ: أنَّه يأمر عباده بالعدل، وهو القسط والموازنة، ويندب إلىٰ الإحسان، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦]، وقال: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورىٰ: ٤٠]، وقال: ﴿وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ﴾ [المائدة: ٤٥]، إلىٰ غير ذلك من الآيات الدَّالَّة علىٰ هذا، من شرعية العدل والنَّدب إلىٰ الفضل.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾ قال: شهادة أن لا إله إلا الله.

---

(١) البخاري (٤٥٨٢، ٥٠٥٠)، ومسلم (٨٠٠)، وأبو داود (٣٦٦٨)، والترمذي (٣٠٢٥)، وأحمد (١/ ٣٨٠).
(٢) في (ز): «القلوب».
(٣) سقط من (ز).
(٤) سقط من (ز).
(٥) في (ز): «سايك».
(٦) قال العلامة السعدي رحمه الله: هذه الآية جامعةٌ لجميع المأمورات والمنهيات لم يبقَ شيءٌ إلا دخل فيها، فهذه قاعدة ترجع إليها سائر الجزئيات، فكل مسألة مشتملةٌ على عدلٍ أو إحسانٍ أو إيتاء ذي القربى فهي مما أمر الله به، وكل مسألةٍ مشتملةٌ على فحشاء أو منكر أو بغي فهي مما نهى الله عنه. وبها يعلم حسن ما أمر الله به وقبح ما نهى عنه، وبها يعتبر ما عند الناس من الأقوال وترد إليها سائر الأحوال، فتبارك من جعل في كلامه الهدى والشفاء والنور والفرقان بين جميع الأشياء.

وقال سفيان بن عيينة: العدل في هذا الموضع: [هو][(١)] استواءُ السَّريرة والعلانية من كلِّ عامل لله عملًا. والإحسان: أن تكون سَرِيرَته أحسن مِن علانيته. والفحشاء والمنكر: أن تكون علانيته أحسن من سريرته.

وقوله: ﴿وَإِيتَآيِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ أي: يأمر بصلة الأرحام، كما قال: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٦].

وقوله: ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ فالفواحش: المحرمات. والمنكرات: ما ظهر منها [من فاعلها؛ ولهذا قيل في الموضع الآخر: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا][(٢)] ﴿وَمَا بَطَنَ﴾ [الأعراف: ٣٣]. وأما البغي فهو: العدوان على الناس. وقد جاء في الحديث: «**مَا مِنْ ذَنْبٍ أَجْدَرَ أَنْ يُعَجِّلَ اللهُ عُقُوبَتَهُ فِي الدُّنْيَا، مَعَ مَا يُدَّخَرُ لِصَاحِبِهِ فِي الآخِرَةِ، مِنَ البَغْيِ وَقَطِيعَةِ الرَّحِمِ**»[(٣)].

وقوله: ﴿يَعِظُكُمْ﴾ أي: يأمركم بما يأمركم بِهِ مِن الخير، وينهاكم [عما ينهاكم][(٤)] عنه من الشر، ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

قال الشَّعبي، عن [شُتَيْر بن شَكَل][(٥)]: سمعت ابن مسعود يقول: إنَّ أجمعَ آيةٍ في القرآن فِي سورة النحل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ الآية. رواه ابن جرير[(٦)].

وقال سعيد عن قتادة: قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ الآية، ليس من خُلُقٍ حَسَنٍ كان أهل الجاهلية يعملون به ويستحسنونه إلا أمر الله به، وليس من خُلُقٍ سَيِّءٍ كانوا يتعايرونه بينهم إلا نهىٰ الله عنه وقدم فيه. وإنما نهىٰ عن [سَفَاسف][(٧)] الأخلاق [ومَذَامِّها][(٨)].

قلت: ولهذا جاء في الحديث: «**إِنَّ اللهَ يُحِبُّ مَعَالِيَ الأَخْلَاقِ، وَيَكْرَهُ سَفْسَافَهَا**»[(٩)].

وقال الحافظ أبو نُعَيم في كتابه «كتاب معرفة الصحابة»: حدَّثنا أبو بكر محمَّد بن الفتح الحنبلي، حدَّثنا يحيىٰ بن محمَّد مولىٰ بني هاشم، حدَّثنا الحسن بن داود المنْكَدري، حدَّثنا عمر بن علي المُقَدَّمي، عن علي ابن عبد الملك بن عمير عن أبيه قال: بلغ أكثَمَ بنَ صَيْفِيٍّ مخرج النَّبيِّ ﷺ، فأراد أن يأتيه فأبىٰ قومه أن يَدَعُوه وقالوا: أنت كبيرنا، لم تكن لِتَخِفَّ إليه! قال: فليأته من يبلغه عني ويبلغني عنه. فانتدب رجلان فأتيا النَّبيَّ ﷺ فقالا: نحن رسل أكثم بن صيفي، وهو يسألك: من أنت؟ [وما أنت][(١٠)]؟ فقال النَّبيّ ﷺ: «**أَمَّا مَنْ أَنَا؟ فَأَنَا: مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ، وَأَمَّا مَا أَنَا؟ فَأَنَا: عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ**». قال: ثم تلا عليهم هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ

---

(١) سقط من (ز).
(٢) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).
(٣) صحيح: رواه أبو داود (٤٩٠٢)، والترمذي (٢٥١١)، وابن ماجة (٤٢١١).
(٤) في (ز): «عن الذي ينهىٰ ذي».
(٥) في (ز): «بشير سكتل»، وهو خطأ.
(٦) صحيح: رواه الطبري (١٤/ ١٦٢)، من طرق عن الشعبي به.
(٧) في (ز): «سفاسفة».
(٨) في (ز): «ومذاقها».
(٩) رواه الحاكم (١/ ٤٨)، وصحّحه، وصححه الألباني، انظر: «الصحيحة» (١٣٧٨).
(١٠) في (ز): «جئت به».

﴿وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ قالوا: أُرْدُدْ علينا هذا القول. فردده عليهم حتىٰ حفظوه. فأتيا أكثم فقالا: أَبَىٰ أن يرفع نسبه، فسألنا عن نسبه، فوجدناه زاكي النسب، [وسطًا] [١] [٢] في مُضَرَ، وقد رَمَىٰ إلينا بكلماتٍ قد سمعناها، فلما سمعهنَّ أكثمُ قال: إني قد أراه يأمر بمكارم الأخلاق، وينهىٰ عن ملائمها، فكونوا في هذا الأمر رءوسًا، ولا تكونوا فيه أذنابًا [٣].

وقد ورد في نزول هذه الآية الكريمة حديث حَسن، رواه الإمام أحمد:

حدَّثنا أبو النضر، حدَّثنا عبد الحميد، حدَّثنا شَهْرُ، حدَّثني عبد الله بن عبَّاس قال: بينما رسول الله ﷺ بفِناءِ بيته جالسٌ، إذ [مر به] [٤] عثمان بن مظعون، فكَشَرَ [٥] إلىٰ رسول الله ﷺ فقال له رسول الله ﷺ: «أَلَا تَجْلِسُ؟» فقال: بلىٰ. قال: فجلس رسول الله ﷺ [مستقبله] [٦]، فبينما هو يحدثه إذ شَخَص [٧] رسول الله ﷺ ببصره في السماء، فنظر ساعةً إلىٰ [السماء] [٨] فأخذ يضع بصره حتىٰ وضعه علىٰ [يَمْنته] [٩] في الأرض، فتحرَّف [١٠] رسول الله ﷺ عن جليسه عثمان إلىٰ حيث وضع بصره فأخذ [ينغض] [١١][١٢] رأسه كأنه يَسْتَفْقِهُ ما يقال له، وابن مظعون ينظر فلما قضىٰ حاجته واستفقه ما يقال له، شخص بصر رسول الله ﷺ إلىٰ السماء كما شخص أول مرة. فأتبعه بصره حتىٰ توارىٰ في السماء. فأقبل إلىٰ عثمان بجلسته الأولىٰ فقال: يا محمَّد، فيما كنت أجالسك ما رأيتك تفعل كفعلك الغداة! قال: «وَمَا رَأَيْتَنِي فَعَلْتُ؟» قال: رأيتك شخص بصرك إلىٰ السماء ثم وضعته حيث وضعته علىٰ يمينك، فتحرفت إليه وتركتني، فأخذت [تنغض] [١٣] رأسك كأنك تستفقه شيئًا يقال لك. قال: «وَفَطِنْتَ لِذَلِكَ؟» فقال عثمان: نعم. قال رسول الله ﷺ: «أَتَانِي رَسُولُ اللهِ آنِفًا وَأَنْتَ جَالِسٌ». قال: رسولُ الله؟! قال: «نَعَمْ». قال: فما قال لك؟ قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ قال عثمان: فذلك حين استقرَّ الإيمان في قلبي، وأحببت محمَّدًا ﷺ [١٤]. إسناد جيد متصل حسن، قد بُيِّن فيه السماع المتصل. ورواه ابن أبي حاتم، من حديث عبد الحميد بن بَهرام مختصرًا.

---

(١) وَسَط ووسيط: إذا كان حسيبًا في قومه.
(٢) في (ز): «واسطًا».
(٣) رواه أبو نعيم في «معرفة الصحابة» (١٠٦٥ بتحقيقي)، وقال الحافظ: في «الإصابة» (١/ ١١١): وهو مرسل.
(٤) سقطت من بعض النسخ، وهي ثابتة في (ز)، وفي «المسند».
(٥) أي: ابتسم.
(٦) في (ز): «يستقبله»، والمثبت موافق لما في «المسند».
(٧) شخص الرجل ببصره: فتح عينيه لا يطرِفُ.
(٨) سقط من (ز)، وهي ثابتة في «المسند».
(٩) في «المسند»: «يمينه».
(١٠) أي: مال عنه وتحول.
(١١) أخذ ينغض رأسه كأنَّه يستفهم ما يقال له؛ أي: يحركه ويميله إليه.
(١٢) في (ز): «ينفض»، والمثبت موافق لما في «المسند».
(١٣) في (ز): «تنفض».
(١٤) أحمد (١/ ٣١٨)، ورجاله ثقات غير شهر بن حوشب: صدوق كثير الإرسال والأوهام، والحديث حسنه ابن كثير كما في متن الكتاب.

حديث آخر: عن عثمان بن أبي العاص الثقفي في ذلك، قال الإمام أحمد: حدَّثنا أسود بن عامر، حدَّثنا هُرَيْم، عن لَيْث، عن شَهْر بن حَوْشَب، عن عثمان بن أبي العاص قال: كنت عند رسول الله ﷺ جالسًا، إذ شَخَصَ بَصره فقال: «أَتَانِي جِبْرِيلُ، فَأَمَرَنِي أَنْ أَضَعَ هَذِهِ الآيَةَ بِهَذَا المَوْضِعِ مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ»: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ الآية. وهذا إسنادٌ لا بأس به، ولعله عند شهر بن حوشب من الوجهين، والله أعلم[١].

﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾﴾

وهذا [ممَّا][٢] يأمر الله تعالىٰ به وهو الوفاء بالعهود والمواثيق، والمحافظة علىٰ الأيمان المؤكدة؛ ولهذا قال: ﴿وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾.

ولا تعارض بين هذا وبين قوله: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟ [وَتُصْلِحُوا۟ بَيْنَ ٱلنَّاسِ][٣]﴾ [البقرة: ٢٢٤] وبين قوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ﴾ [المائدة: ٨٩] أي: لا تتركوها بلا تكفير، وبين قوله ﷺ فيما ثبت عنه في «الصحيحين»: «إِنِّي وَاللهِ إِنْ شَاءَ اللهُ لَا أَحْلِفُ عَلَىٰ يَمِينٍ فَأَرَىٰ غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا إِلَّا أَتَيْتُ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ وَتَحَلَّلْتُهَا». وفي رواية: «وَكَفَّرْتُ عَنْ يَمِينِي»[٤] لا تعارض [بين][٥] هذا كله ولا بين الآية المذكورة هاهنا [وهي][٦] قوله: ﴿وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا [وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا][٧]﴾؛ لأن هذه الأيمانَ، المرادُ بها [الداخلة][٨] في العهود والمواثيق، لا الأيمان التي هي واردةٌ علىٰ حَثٍّ أو منعٍ؛ ولهذا قال مجاهد في قوله: ﴿وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ يعني: الحِلْف؛ أي: حلْفَ الجاهلية؛ ويؤيده ما رواه الإمام أحمد:

حدَّثنا عبد الله بن محمَّد -هو ابن أبي شيبة- حدَّثنا ابن نُمَيْر وأبو أسامة، عن زكريا -هو ابن أبي زائدة- عن سعد بن إبراهيم، عن أبيه، عن جُبَيْر بن مطعم قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا حِلْفَ فِي الإِسْلَامِ، وَأَيُّمَا حِلْفٍ كَانَ فِي الجَاهِلِيَّةِ لَمْ يَزِدْهُ الإِسْلَامُ إِلَّا شِدَّةً»[٩].

وكذا رواه مسلم، عن ابن أبي شيبة به.

---

(١) أحمد (٤/ ٢١٨)، وهو أيضًا من طريق شهر بن حوشب، وهو مختلف فيه في توثيقه وتضعيفه، وقال الحافظ: صدوق كثير الإرسال والأوهام.

(٢) في (ز): «إنما». (٣) سقطت من (ز).

(٤) البخاري (٦٦٢٣)، (٦٧١٨)، ومسلم (١٦٤٩). (٥) في (ز): «من».

(٦) في (ز): «وفي». (٧) سقط من (ز). (٨) سقط من (ز).

(٩) صحيح: رواه مسلم (٢٥٣٠)، وأحمد (٤/ ٨٣).

ومعناه: أنَّ الإسلام لا يحتاج معه إلىٰ الحِلْف الذي كان أهل الجاهلية يفعلونه، فإن في التَّمسُّك بالإسلام كفاية عما كانوا فيه.

وأما ما ورد في «الصحيحين»، عن عاصم الأحول، عن أنس ﷺ أنه قال: حالف رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار في دارنا[١] -فمعناه: أنَّه آخىٰ بينهم، فكانوا يتوارثون به، حتىٰ نسخ الله ذلك. والله أعلم.

وقال ابن جرير: حدَّثني محمَّد بن عمارة الأسدي، حدَّثنا [عبيد][٢] الله بن موسىٰ، أخبرنا ابن أبي ليلىٰ، عن مَزِيدةَ في قوله: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ﴾ قال: نزلت في بيعة النَّبيّ ﷺ، كان من أسلم بايع النَّبيَّ ﷺ علىٰ الإسلام، فقال: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ﴾ هذه البيعة التي بايعتم. علىٰ الإسلام، ﴿وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ البيعة، لا يحملنكم قلة محمَّد وأصحابه وكثرة المشركين أن تنقضوا البيعة التي تبايعتم علىٰ الإسلام[٣].

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا إسماعيل، حدَّثنا صخر بن جُوَيرية، عن نافع قال: لما خلع الناس يزيد بن معاوية، جمع ابن عمر بنيه وأهله، ثم تشهد، ثم قال: أما بعد، فإنَّا قد بايعنا هذا الرجل علىٰ [بيعة][٤] الله ورسوله، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إِنَّ الغَادِرَ يُنْصَبُ لَهُ لِوَاءٌ يَوْمَ القِيَامَةِ، فَيُقَالُ هَذِهِ غَدْرَةُ فُلَانٍ وَإِنَّ مِنْ أَعْظَمِ الغَدْرِ -إِلَّا أَنْ يَكُونَ الإِشْرَاكُ بِاللهِ- أَنْ يُبَايِعَ رَجُلٌ رَجُلًا عَلَىٰ [بَيْعَةِ][٥] اللهِ وَرَسُولِهِ، ثُمَّ يَنْكُثُ بَيْعَتَهُ**»، فلا يخلعنَّ أحدٌ منكم يَزِيدَ ولا يُسْرِفنَّ أحدٌ منكم في هذا الأمر، فيكون صَيْلَم[٦] بَيْنِي وبينه[٧]. المرفوع منه في «الصحيحين».

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا يزيد، حدَّثنا حجاج، عن عبد الرحمن بن عابس، عن أبيه، عن حذيفة قال: سَمِعْتُ رسول الله ﷺ يقول: «**مَنْ شَرَطَ لِأَخِيهِ شَرْطًا، لا يُرِيدُ أَنْ يَفِيَ لَهُ بِهِ، فَهُوَ كَالمُدْلِي جَارَهُ إِلَىٰ غَيْرِ مَنْعَةٍ**»[٨].

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ تهديدٌ ووعيدٌ لمن نقض الأيمان بعد توكيدها.

وقوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا﴾ قال عبد الله بن كثير، والسُّدِّي: هذه امرأةٌ خرقاء كانت بمكة، كلما غزلت شيئًا نقضته بعد إبرامه.

---

(١) البخاري (٢٢٩٤)، (٦٠٨٣)، (٧٣٤٠)، ومسلم (٢٥٢٩).

(٢) في (ز) وأكثر النسخ المطبوعة: «عبد»، وهو خطأ، وكذلك في النسخ الخطية للطبري «عبد» علىٰ الخطأ، وهي علىٰ الصواب في طبعة هجر للطبري (١٤/ ٣٣٨).

(٣) الطبري (١٤/ ١٦٤)، وعبد الله بن موسىٰ لم أعرفه.

(٤) في (ز): «بيع»، والمثبت موافق لما في «المسند».

(٥) في (ز): «بيع». (٦) الصَّيْلم: القطيعة.

(٧) صحيح: أحمد (٢/ ٤٨)، والمرفوع في البخاري (٣١٨٨)، ومسلم (٧٣٩).

(٨) ضعيف: رواه أحمد (٥/ ٤٠٤)، وفيه حجاج بن أرطأة، قال الحافظ: صدوق كثير الخطإ والتدليس، وهو ضعيف.

وقال مجاهد، وقتادة، وابن زيد: هذا مثل لمن نقض عهده بعد توكيده.

وهذا القول أرجح وأظهر، وسواء كان بمكة امرأة تنقض غزلها أم لا.

وقوله: ﴿أَنكَٰثًا﴾ يحتمل أن يكون اسم مصدر: نقضت غزلها أنكاثًا؛ أي: أنقاضًا. ويحتمل أن يكون بدلًا عن خبر كان؛ أي: لا تكونوا أنكاثًا، جمع نِكث؛ من ناكث؛ ولهذا قال بعده: ﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ﴾ أي: خديعةً ومكرًا، ﴿أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ﴾ أي: تحلفون للناس إذا كانوا أكثر منكم ليطمئنوا إليكم، فإذا أمكنكم الغدر بهم غَدرتم. فنهىٰ الله عن ذلك، لِيُنبِّه بالأدنىٰ علىٰ الأعلىٰ؛ إذا كان قد نهىٰ عن الغَدْرِ والحالة هذه، فلأن ينهىٰ عنه مع التمكن والقدرة بطريق الأولىٰ.

وقد قدمنا -ولله الحمد- في سورة «الأنفال» قصَّة معاوية لما كان بينه وبين ملك الروم أمَدٌ، فسار معاوية إليهم في آخر الأجل، حتىٰ إذا انقضىٰ وهو قريبٌ من بلادهم، أغار عليهم وهم [غارُّون][1] ولا يشعرون، فقال له عمرو بن عَبَسَة: الله أكبر يا معاوية، وفاءً لا غدرًا، سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ قَوْمٍ أَجَلٌ فلَا يَحُلَّنَّ عُقْدَةً حَتَّىٰ يَنْقَضِيَ أَمَدُهَا». فرجع معاوية بالجيش، رضي الله عنه وأرضاه[2].

قال ابن عبَّاس: ﴿أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ﴾ أي: أكثر.

وقال مجاهد: كانوا يحالفون الحلفاء، فيجدون أكثر منهم وأعز، فينقضون حلف هؤلاء ويحالفون أولئك الذين هم أكثر وأعز. فنهوا عن ذلك. وقال الضَّحَّاك، وقتادة، وابن زيد نحوه.

وقوله: ﴿إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ﴾ قال سعيد بن جُبَير: يعني بالكثرة. رواه ابن أبي حاتم.

وقال ابن جرير: أي: بأمره إياكم بالوفاء بالعهد.

﴿وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ فيجازي كل عامل بعمله، من خيرٍ وشرٍّ.

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾[3]﴾

يقول الله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ﴾ أيُّها الناس ﴿أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ شَآءَ

---

(١) في (ز): «عارون».

(٢) صحيح: رواه أحمد (٤/ ١١١)، وأبو داود (٢٧٥٩)، والترمذي (١٥٨٠).

(٣) قال العلامة السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: وفي هذا الحث والترغيب علىٰ الزُّهد في الدنيا خصوصًا الزهد المتعين وهو الزهد فيما يكون ضررًا علىٰ العبد ويوجب له الاشتغال عما أوجب الله عليه وتقديمه [ص ٤٤٩] علىٰ حق الله فإنَّ هذا الزهد واجب

ومن الدواعي للزُّهد أن يُقابِل العبد لذَّات الدنيا وشهواتها بخيرات الآخرة فإنَّه يجد من الفرق والتفاوت ما يدعوه إلىٰ إيثار أعلىٰ الأمرين وليس الزُّهد الممدوح هو الانقطاع للعبادات القاصرة كالصلاة والصيام والذِّكر ونحوها بل لا يكون العبد زاهدًا زهدًا صحيحًا حتىٰ يقوم بما يقدر عليه من الأوامر الشرعية الظاهرة والباطنة ومن الدعوة إلىٰ الله وإلىٰ دينه بالقول والفعل؛ فالزُّهد الحقيقي هو الزهد فيما لا ينفع في الدِّين والدُّنيا والرَّغبة والسَّعي في كلِّ ما ينفع.

رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩] أي: لوفق بينكم ولما جعل اختلافًا ولا تباغضًا ولا شحناء ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩]، وهكذا قال هاهنا: ﴿وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾ ثم يسألكم يوم القيامة عن جميع أعمالكم، فيجازيكم عليها على الفَتِيل والنَّقِير والقِطْمِير.

ثمَّ حذَّر تعالىٰ عباده مِن اتِّخاذ الأيمان دخلًا؛ أي: خَدِيعةً ومكرًا؛ لئلا تَزِلَّ قدمٌ بعد ثبوتها: مثل لمن كان علىٰ [الاستقامة][(١)] فحاد عنها وزلَّ عن طريق الهدىٰ، بسبب الأيمان الحانثة المشتملة علىٰ الصَّدِّ عن سبيل الله؛ لأنَّ الكافر إذا رأىٰ أنَّ المؤمن قد عاهده ثم غَدَرَ به، لم يَبْقَ له وثوق بالدين، فانصد بسببه عَن الدُّخول في الإسلام؛ ولهذا قال: ﴿وَتَذُوقُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

ثم قال: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أي: لا تعتاضوا عن الأيمان بالله عَرَض الحياة الدنيا وزينتها، فإنَّها قليلةٌ، ولو حِيزَت لابن آدم الدنيا بحذافيرها لكان ما عند الله هو خير له؛ أي: جزاء الله وثوابه خيرٌ لمن رجاه وآمن به وطلبه، وحفظ [عهده][(٢)] رجاء موعوده؛ ولهذا قال: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ﴾ أي: يفرغ وينقضي، فإنَّه إلىٰ أجلٍ معدودٍ محصورٍ مقدَّرٍ مُتَناهٍ، ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ أي: وثوابه لكم في الجنة باقٍ لا انقطاع ولا نفاد له فإنه دائمٌ لا يحول ولا يزول، ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ قسم من الرب ﷻ مُتَلَقًّىٰ باللام، أنه يجازي الصابرين بأحسن أعمالهم؛ أي: ويتجاوز عن سيئها.

﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾

هذا وعدٌ مِنَ الله تعالىٰ لمن عَمِلَ صالحًا -وهو العمل المتابع لكتاب الله تعالىٰ وسُنَّة نبيِّه من ذَكَرٍ أو أُنثَىٰ من بني آدم، وقلبه مؤمنٌ بالله ورسوله، وإن هذا العمل المأمور به مشروع من عند الله- بأن يحييه الله حياةً طيِّبةً في الدُّنيا وأن [يجزيه][(٣)] بأحسن [ما عمله][(٤)] في الدَّار الآخرة.

والحياة الطَّيِّبة تشمل وجوه الرَّاحة من أيِّ جهةٍ كانت. وقد روي عن ابن عبَّاس وجماعة أنَّهم فسروها بالرزق الحلال الطيب. وعن علي بن أبي طالب ﷺ أنَّه فسَّرها بالقَنَاعَةِ. وكذا قال ابن عبَّاس، وعِكْرِمة، ووهب بن مُنَبِّه. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس: أنَّها السَّعادة.

وقال الحسن، ومجاهد، وقتادة: لا يطيب لأحدٍ حياةٌ إلا في الجنَّة. وقال الضَّحَّاك: هي الرزق الحلال والعِبادَة في الدنيا، وقال الضَّحَّاك أيضا: [هي][(٥)] العمل بالطاعة والانشراح بها. والصَّحيح: أن الحياة الطيبة تشمل هذا كله كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد: حدَّثنا عبد الله بن يزيد، حدَّثنا

(١) في (ز): «استقامة». (٢) في (ز): «عهد الله». (٣) في (ز): «يجزي».
(٤) سقط من (ز). (٥) في (ز): «هو».

سعيد بن أبي أيوب، حدَّثني شرحبيل بن شريك، عن أبي عبد الرحمن الحُبُلي، عن عبد الله بن عَمرو أن رسول الله ﷺ قال: «**قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ وَرُزِقَ كَفَافًا، وَقَنَّعَهُ اللهُ بِمَا آتَاهُ**»(١).

ورواه مسلم، من حديث عبد الله بن يزيد المقرئ به.

وروىٰ الترمذي والنسائي، من حديث أبي هانئ، عن أبي علي [الجنبي](٢) عن فضالة بن عُبَيد؛ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**قَدْ أَفْلَحَ مَنْ هُدِيَ إِلَىٰ الإِسْلَامِ، وَكَانَ عَيْشُهُ كَفَافًا، وَقَنِعَ بِهِ**». وقال الترمذي: [هذا](٣) حديث صحيح(٤).

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا يزيد، حدَّثنا هَمَّام، عن يحيىٰ، عن قتادة، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ لا يَظْلِمُ المُؤْمِنَ حَسَنَةً يُعْطَىٰ بِهَا فِي الدُّنْيَا [وَيُثَابُ عَلَيْهَا فِي الآخِرَةِ، وَأَمَّا الكَافِرُ فَيُعْطِيهِ حَسَنَاتِهِ فِي الدُّنْيَا](٥)؛ حَتَّىٰ إِذَا أَفْضَىٰ إِلَىٰ الآخِرَةِ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَةٌ يُعْطَىٰ بِهَا خَيْرًا**». انفرد بإخراجه مسلم(٦).

﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٧) ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾

هذا أمرٌ من الله تعالىٰ [لعباده](٨) علىٰ لسان نبيه ﷺ: إذا أرادوا قراءة القرآن أن يستعيذوا بالله من الشيطان الرجيم. وهو أمرُ ندبٍ ليس بواجبٍ، حكىٰ علىٰ ذلك الإجماع الإمام أبو جعفر بن جرير وغيره من الأئمة. وقد قدمنا الأحاديث الواردة في الاستعاذة مبسوطةً في أول التفسير، ولله الحمد والمنة.

والمعنىٰ في الاستعاذة عند ابتداء القراءة؛ لئلا يلبس علىٰ القارئ قراءته ويخلط عليه، ويمنعه من

---

(١) مسلم (١٠٥٤)، وأحمد (٢/ ٢٩٨).

(٢) في (ز): «الجهني»، والمثبت هو الصواب.

(٣) سقط من (ز).

(٤) **صحيح**: الترمذي (٢٣٤٩)، وقال: حسن صحيح، ورواه أحمد (٦/ ١٩)، والحاكم (٤/ ١٢٢)، وصححه علىٰ شرطهما ووافقه الذهبي، وأبو هانئ هو حميد بن هانئ، قال الحافظ: لا بأس به، لكن الحديث يقوىٰ بالحديث السابق فإنه في معناه.

(٥) ما بين المعقوفتين سقط من (ز)، وهو مثبت في «المسند».

(٦) رواه مسلم (٢٨٠٨).

(٧) قال ابن القيم رحمه الله: فإن قيل فقد أثبت له علىٰ أوليائه هاهنا سلطانًا فكيف نفاه بقوله تعالىٰ حاكيًا عنه مقررًا له: ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ﴾ وقال تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ ﴾ قيل: السلطان الذي أثبته له عليهم غير الذي نفاه من وجهين، أحدهما: أن السُّلطان الثَّابت هو سلطان التَّمكن منهم وتلاعبه بهم وسوقه إيَّاهم كيف أراد بتمكينهم إيَّاه من ذلك بطاعته وموالاته، والسلطان الذي نفاه سلطان الحجة فلم يكن لإبليس عليهم مِن حُجَّة يتسلط بها غير أنَّه دعاهم فأجابوه بلا حُجَّةٍ ولا برهانٍ.

الثَّاني: أنَّ الله لم يجعل له عليهم سلطانًا ابتداءً البتَّة ولكن هم سلطوه علىٰ أنفسهم بطاعته ودخولهم في جملة جنده وحزبه فلم يتسلطنَّ عليهم بقوَّتِهِ فإنَّ كيده ضعيف وإنَّما تسلطن عليهم بإرادتهم واختيارهم، والمقصود أنَّ مَن قصد أعظم أوليائه وأحبابه ونصحائه فأخذه وأخذ أولاده وحاشيته وسلمهم إلىٰ عدوه كان مِن عقوبته أن يسلط عليه ذلك العدو نفسه.

(٨) في (ز): «عباده».

التَّدبر والتَّفكر، ولهذا ذهب الجمهور إلىٰ أن الاستعاذة إنَّما تكون [قبل][1] التلاوة، وحكي عن حمزة وأبي حاتم السِّجِسْتاني: أنها تكون بعد التلاوة، واحتجا بهذه الآية. ونقل النووي في «شرح المهذب» مثل ذلك عن أبي هريرة أيضًا، ومحمَّد بن سيرين، وإبراهيم النَّخعي. والصحيح الأول، لما تقدم من الأحاديث الدالة علىٰ تقدمها علىٰ التلاوة، والله أعلم.

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾ قال الثوري: ليس له عليهم سلطان أن يوقعهم في ذنب[2] لا يتوبون منه.

وقال آخرون: معناه لا حجة له عليهم. [وقال آخرون: كقوله: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ [ص: ٨٣].

﴿إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ﴾ قال مجاهد: يطيعونه][3].

وقال آخرون: اتخذوه وليًّا من دون الله.

﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ﴾ أي: أشركوه في عبادة الله تعالىٰ. ويحتمل أن تكون الباء سببيةً؛ أي: صاروا بسبب طاعتهم للشيطان مشركين بالله تعالىٰ. وقال آخرون: معناه: أنه شركهم في الأموال والأولاد.

﴿وَإِذَا بَدَّلۡنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفۡتَرِۭۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ۝١٠١ قُلۡ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ۝١٠٢﴾

يخبر تعالىٰ: عن ضعف عقول المشركين وقلة ثباتهم وإيقانهم، وأنه لا يتصور منهم الإيمان وقد كتب عليهم الشَّقاوة، وذلك أنهم إذا رأوا تغيير الأحكام ناسخها بمنسوخها قالوا للرسول: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُفۡتَرِۭ﴾ أي: كذابٌ، وإنما هو الرَّبُّ تعالىٰ يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد.

وقال مجاهد: ﴿بَدَّلۡنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٖ﴾ أي: رفعناها وأثبتنا غيرها. وقال قتادة: هو كقوله تعالىٰ: ﴿مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ أَوۡ نُنسِهَا﴾ [البقرة:١٠٦]. فقال تعالىٰ مجيبًا لهم: ﴿قُلۡ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ﴾ أي: جبريل، ﴿مِن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّ﴾ أي: بالصِّدق والعدل، ﴿لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فيصدقوا بما أنزل أولًا وثانيًا وتُخبت له قلوبهم، ﴿وَهُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ﴾ أي: وجعله هاديًا مَهْدِيًا وبشارة للمسلمين الذين آمنوا بالله ورسله.

﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّهُمۡ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٞۗ لِّسَانُ ٱلَّذِي يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِيّٞ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيّٞ مُّبِينٌ ۝١٠٣﴾

يقول تعالىٰ: مخبراً عَن المشركين ما كانوا يقولونه من الكذب والافتراء والبَهْت: أن محمَّدًا إنَّما يُعَلِّمُهُ هذا الذي يتلوه علينا من القرآنِ بشر، ويشيرون إلىٰ رجل أعجميٍّ كان بين أظهرهم، غلام لبعض بطون قريش، وكان بياعًا يبيع عند الصفا، فربما كان رسول الله ﷺ يجلس إليه ويكلمه بعض الشيء،

---

(١) في (ز): «قبيل». (٢) في (ز): «ذنب أن لا». (٣) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

وذاك كان أعجميَّ اللِّسان لا يعرف العربية، أو أنه كان يعرف الشَّيء اليسير بقدر ما يَرُد جواب الخطاب فيما لا بد منه؛ فلهذا قال الله تعالىٰ رادًّا عليهم في افترائهم ذلك: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ يعني: القرآن؛ أي: فكيف يتعلم من جاء بهذا القرآن، في فَصَاحته وبلاغته ومعانيه التامة الشاملة، التي هي أكمل من معاني كل كتابٍ نزل علىٰ نبيٍّ أُرسل، كيف يتعلَّم من رجلٍ أعجميٍّ؟! لا يقول هذا من له أدنىٰ مُسْكة من العقل.

قال محمَّد بن إسحاق بن يَسَار في السيرة: كان رسول الله ﷺ -فيما بلغني- كثيرًا ما يجلس عند المروة إلىٰ مَبِيعة غلام نصراني يقال له: جبر، عبد لبعض بني الحَضْرَمِي، [فكانوا يقولون: والله ما يعلم محمَّدًا كثيرًا مما يأتي به إلا جبر النَّصراني، غلام ابن الحضرمي][١]؛ فأنزل الله: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾.

وكذا قال عبد الله بن كثير: وعن عِكْرِمة وقتادة: كان اسمه: يَعِيش.

وقال ابن جرير: حدَّثني أحمد بن محمَّد الطُّوسِي، حدَّثنا أبو عامر، حدَّثنا إبراهيم بن طَهْمَان، عن مسلم بن عبد الله المُلائي، عن مجاهد، عن ابن عبَّاس قال: كان رسول الله ﷺ [يعلم قَينًا][٢] بمكَّة، وكان اسمه بِلْعَام، وكان أعجميَّ اللسان، وكان المشركون يرون رسول الله ﷺ يدخل عليه ويخرج من عنده، قالوا: إنَّما يعلمه بلعام، فأنزل الله هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾[٣].

وقال الضَّحَّاك بن مُزَاحم: هو سلمان الفارسي، وهذا القول ضعيف؛ لأن هذه الآيةَ مكيَّةٌ، وسلمان إنَّما أسلم بالمدينة، وقال عبيد الله بن مسلم: كان لنا [غلامان][٤] روميان يقرآن [كتابًا][٥] لهما بلسانهما، فكان النَّبيُّ ﷺ يمر بهما، فيقوم فيسمع منهما، فقال المشركون: يتعلم منهما، فأنزل الله هذه الآية[٦].

وقال الزهري، عن سعيد بن المسيب: الذي قال ذلك من المشركين رجل كان يكتب الوحي لرسول الله ﷺ، فارتد بعد ذلك عن الإسلام، وافترىٰ هذه المقالة، قبَّحه الله![٧].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾﴾

---

(١) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).، وهو مثبت في «سيرة ابن هشام».

(٢) في (ز): «فينا»، والمثبت موافق لما في «الطبري».

(٣) ضعيف: ابن جرير (١٤/ ١٧٧)، والذي يترجح عندي أنه وقع تصحيف في الراوي عن مجاهد، والصَّحيح: أنَّه مسلم أبو عبد الله الملائي وهو مسلم بن كيسان الأعور: ضعيف، وقد سقطت [أبو] من الإسناد، والله أعلم.

(٤) في (ز): «عاملان».

(٥) سقط من (ز).

(٦) رواه ابن جرير (١٤/ ١٧٨)، ورجاله ثقات عدا المثنىٰ وهو ابن إبراهيم الأيلي شيخ ابن جرير: لم أقف له علىٰ ترجمته، لكنه توبع، فقد تابعه وكيع بن سفيان لكنه ضعيف.

(٧) رواه الطبري (١٤/ ١٧٩)، وهو مرسل أيضًا.

يُخْبِر تعالىٰ: أنَّه لا يهدي مَن أعرض عن ذكره وتَغافل عما أنزله علىٰ رسوله، ولم يكن له قصد إلىٰ الإيمان بمَا جاء مِن عند الله، فهذا الجنس من النَّاس لا يهديهم الله إلىٰ الإيمان بآياته وما أَرْسَلَ به رسله في الدنيا، ولهم عذاب أليمٌ موجعٌ في الآخرة.

ثم أخبر تعالىٰ: أنَّ رسوله ليس بمُفْتَرٍ ولا كَذَّابٍ؛ لأنه ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ﴾ علىٰ الله وعلىٰ رسوله شِرارُ الخلق، ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ مِن الكفرة والملحدين المعروفين بالكذب عند الناس. والرَّسول محمَّد ﷺ، كان أصدق الناس وأبرهم وأكملهم علمًا وعملًا وإيمانًا وإيقانًا، معروفًا بالصدق في قومه، لا يشك في ذلك أحدٌ منهم بحيث لا يُدْعىٰ بينهم إلا بالأمين محمَّد؛ ولهذا لما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان عن تلك المسائل التي سألها من صفة رسول الله ﷺ، كان فيما قال له: أَوَ كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال: لا. فقال هرقل: فما كان لِيَدع الكذب علىٰ الناس ويذهب فيكذب علىٰ الله ﷻ[(1)].

﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ[(2)] ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾﴾

أخبر تعالىٰ: عمَّن كفر به بعد الإيمان والتبصر، وشرح صدره بالكفر واطمأن به: أنه قد غَضِبَ عليه؛ لعِلْمِهِمْ بالإيمان ثم عدولهم عنه، وأن لهم عذابًا عظيمًا في الدار الآخرة؛ لأنهم اسْتَحَبُّوا الحياة الدنيا علىٰ الآخرة، فأقدموا علىٰ ما أقدموا عليه من الرِّدَّة لأجل الدنيا، ولم يهدِ الله قلوبهم ويثبتهم علىٰ الدِّين الحق، فطبع علىٰ قلوبهم فلا يعقلون بها شيئًا ينفعهم وختم علىٰ سمعهم وأبصارهم فلا ينتفعون بها، ولا أغنت عنهم شيئًا، فهم غافلون عما يراد بهم.

﴿لَا جَرَمَ﴾ أي: لا بد ولا عجب أنَّ مَنْ هذه صفته، ﴿أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ أي: الذين خسروا أنفسهم وأهاليهم[(3)] يوم القيامة.

وأما قوله: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ فهو استثناء [ممن][(4)] كفر بلسانه ووافق المشركين بلفظه مكرهًا لما ناله من ضربٍ وأذىٰ، وقلبه يأبىٰ ما يقول، وهو مطمئنٌ بالإيمان بالله ورسوله.

---

(١) البخاري (٧)، ومسلم (١٧٧٣)، وأبو داود (٥١٣٦)، والترمذي (٢٧١٨).

(٢) قال العلامة السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: ودلَّ ذلك علىٰ أن كلام المكره علىٰ الطَّلاق أو العَتَاق أو البيع أو الشراء أو سائر العقود أنَّه لا عبرة به، ولا يَترتَّب عليه حكم شرعيٌّ؛ لأنَّه إذا لم يعاقب علىٰ كلمة الكفر إذا أكره عليها فغيرها مِن باب أولىٰ وأحرىٰ.

(٣) الأهالي: جمع أهل، والمشهور في جمعها: الأهلون. (٤) في (ز): «فيمن».

وقد روىٰ العَوفِيُّ عن ابن عبَّاس: أن هذه الآية نزلت في عمَّار بن ياسر، حين عذبه المشركون حتىٰ يكفر بمحمَّدٍ ﷺ، فوافقهم علىٰ ذلك مُكرَهًا وجاء معتذرًا إلىٰ النَّبيِّ ﷺ، فأنزل الله هذه الآية[١]، وهكذا قال الشعبي، وأبو مالك وقتادة.

وقال ابن جرير: حدَّثنا ابن عبد الأعلىٰ، حدَّثنا محمَّد بن ثَور، عن مَعْمَر، عن عبد الكريم الجَزَريّ، عن أبي عبيدة [بن][٢] محمَّد بن عمار بن ياسر قال: أخذ المشركون عمار بن ياسر فعذبوه حتىٰ قاربهم في بعض ما أرادوا، فشكا ذلك إلىٰ النَّبيِّ ﷺ، فقال النَّبيُّ ﷺ: «**كَيْفَ تَجِدُ قَلْبَكَ؟**» قال: مطمئنًا بالإيمان؛ قال النَّبيُّ ﷺ: «**إِنْ عَادُوا فَعُدْ**»[٣].

ورواه البيهقي بأبسط من ذلك، وفيه: أنه سبَّ النَّبيَّ ﷺ وذكر آلهتهم بخيرٍ، وأنه قال: يا رسول الله، ما تُركتُ حتىٰ سَببتُك وذكرتُ آلهتهم بخيرٍ! قال: «**كَيْفَ تَجِدُ قَلْبَكَ؟**» قال: مطمئنًا بالإيمان. فقال: «**إِنْ عَادُوا فَعُدْ**»[٤]. وفي ذلك أنزل الله: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ﴾.

ولهذا اتَّفق العلماء علىٰ أنَّه يجوز أن يُوَاليَ المكرَه علىٰ الكفر؛ إبقاءً لمهجته، ويجوز له أن يستقتل[٥]، كما كان بلال رضي الله عنه يأبىٰ عليهم ذلك وهُم يفعلون به الأفاعيل، حتىٰ أنَّهم ليضعون الصَّخرة العظيمة علىٰ صدره في شدَّة الحر، ويأمرونَهُ أن يشرك بالله فيأبىٰ عليهم وهو يقول: أَحَدٌ، أَحَدٌ. ويقول: واللِه لو أعلم كلمة [هي][٦] أغيظ لكم منها لقلتها رضي الله عنه وأرضاه. وكذلك حبيب بن زيد الأنصاري لما قال له مسيلمة الكذاب: أتشهد أن محمَّدًا رسول الله؟ فيقول: نعم. فيقول: أتشهد أنِّي رسول الله؟ فيقول: لا أسمع. فلم يزل يقطعه إِرْبًا إِرْبًا وهو ثابتٌ علىٰ ذلك.

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا إسماعيل، حدَّثنا أيوب، عن عِكْرِمة، أن عليًّا رضي الله عنه حَرَّق ناسًا ارتَدُّوا عن الإسلام، فبلغ ذلك ابن عبَّاس فقال: لم أكن لأحرقهم بالنار، إن رسول الله ﷺ قال: «**لا تُعَذِّبُوا بِعَذَابِ اللهِ**». وكنت قاتِلَهُم بقول رسول الله ﷺ: «**مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ**» فبلغ ذلك عليًّا فقال: ويح [أم ابن عبَّاس][٧]. رواه البخاري[٨].

وقال الإمام أحمد أيضًا: حدَّثنا عبد الرزاق، أنبأنا مَعْمَر، عن أيوب، عن حُمَيْد بن هلال العَدَويّ، عن أبي بردة قال: قدم علىٰ أبي موسىٰ معاذُ بن جبل باليمن، فإذا رجلٌ عنده، قال: ما هذا؟ قال: رجلٌ كان يهوديًّا فأسلم، ثم تهوَّد، ونحن نريده علىٰ الإسلام منذ -قال: أحسب- شهرين فقال: والله لا أقعد حتىٰ تَضْرِبُوا عنقه. [فضربت عنقه][٩]. فقال: قضىٰ الله ورسوله أنَّ مَن رجع عن دينه فاقتلوه -أو قال:

---

(١) رواه الطبري (١٤/ ١٨٢)، وفي إسناده عطية العوفي: شيعي مدلس.
(٢) سقط من (ز)، وهي مثبتة في «الطبري».
(٣) رواه الطبري (١٤/ ١٨٢)، والبيهقي (٨/ ٢٠٨)، وإسناده مرسل.
(٤) انظر التعليق السابق. (٥) المستقتل: المستميت. (٦) سقط من (ز).
(٧) في (ز): «ابن أم عبَّاس». (٨) البخاري (٦٩٢٢)، وأحمد (١/ ٢١٧). (٩) سقط من (ز).

من بدل دينه فاقتلوه[(١)].

وهذه القصة في «الصحيحين» بلفظٍ آخرَ.

والأفضل والأولىٰ: أن يثبت المسلم علىٰ دينه، ولو أفضىٰ [إلىٰ][(٢)] قتله، كما قال الحافظ ابن عساكر، في ترجمة عبد الله بن حُذَافة السهمي أحد الصحابة: أنه أَسَرَتْهُ الرُّوم، فجاءوا به إلىٰ ملكهم، فقال له: تنصر وأنا أشركك في مُلْكِي وأزوجك ابنتي. فقال له: لو أعطيتني جميع ما تملك وجميع ما [تملكه][(٣)] العرب علىٰ أن أرجع عن دين محمَّدٍ طرفة عين، ما فعلت! فقال: إذًا أقتلك. قال: أنت وذاك! فأمر به فصلب، وأمر الرماة فرموه قريبًا من يديه ورجليه، وهو يعرض عليه دين النصرانية، فيأبىٰ ثم أمر به فأنزل، ثم أمر بِقِدْرٍ. وفي رواية: ببقرةٍ من نحاسٍ، فأحميت، وجاء بأسير من المسلمين فألقاه وهو ينظر، فإذا هو عظام تلوح. وعرض عليه فأبىٰ، فأمر به أن يُلْقَىٰ فيها، فرفع في البَكَرَة ليلقىٰ فيها، فبكىٰ فطَمِعَ فيه ودعاه فقال له: إني إنَّما بكيت؛ لأنَّ نفسي إنما هي نفسٌ واحدةٌ، تُلْقىٰ في هَٰذِهِ القدر الساعة في الله، فأحببت أن يكون لي بعدد كل شعرة في جسدي نفسٌ تُعَذَّب هذا العذاب في الله. وفي بعض الروايات: أنه سجنه ومنع عنه الطعام والشَّراب أيَّامًا، ثم أرسل إليه بخمرٍ ولحم خنزير، فلَمْ يَقْرَبه، ثم استدعاه فقال: ما منعك أن تأكل؟ فقال: أما إنه قد حَلَّ لي، ولكن لم أكن لِأُشَمِّتَكَ فِيَّ. فقال له الملك: فَقَبِّلْ رأسي وأنا أطلقك. فقال: وتطلق معي جميع أسارىٰ المسلمين؟ قال: نعم. فقبل رأسه، فأطلقه وأطلق معه جميع أسارىٰ المسلمين عنده، فلما رجع قال عمر بن الخطاب: حَقٌّ علىٰ كلِّ مسلمٍ أن يُقَبِّل رأس عبد الله بن حُذَافة، وأنا أبدأ. فقام فقبل رأسه[(٤)].

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾ ۞ يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾﴾

هؤلاء صنفٌ آخر كانوا مستضعفين بمكة، مهانين في قومهم قد وَاتَوهُم[(٥)] علىٰ الفتنة، ثم إنَّهم أمكنهم الخلاص بالهجرة، فتركوا بلادهم وأهليهم وأموالهم ابتغاء رضوان الله وغفرانه، وانتظموا في سلك المؤمنين، وجاهَدُوا معهم الكافرين، وصبروا، فأخبر الله تعالىٰ أنَّه ﴿مِنۢ بَعْدِهَا﴾ أي: تلك الفعلة، وهي الإجابة إلىٰ الفتنة لغفورٌ لهم، رحيمٌ بهم يوم معادهم.

﴿يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ﴾ أي: تحاج ﴿عَن نَّفْسِهَا﴾ ليس أحدٌ يحاج عنها لا أب ولا ابن ولا أخ

---

(١) صحيح: رواه أحمد (٥/ ٢٣١)، ورواه البخاري (٦٩١٣)، ومسلم (١٧٣٣).

(٢) سقط من (ز).

(٣) في (ز): «يملكه».

(٤) وهذا الأثر رواه أبو نعيم في «معرفة الصحابة» (٧/ ١٦١٩) رقم (٤٠٦٧)، وعزاه ابن حجر في «الإصابة» (٢/ ٢٩٦)، إلىٰ البيهقي، قال الحافظ: وأخرج ابن عساكر لهذه القضية شاهدًا من حديث ابن عبَّاس، وآخر من فوائد هشام بن عثمان من مرسل الزهري.

(٥) أي: وافقوهم.

ولا زوجة ﴿وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ أي: من خيرٍ وشرٍّ، ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي: [لا][1] ينقص من ثواب الخير ولا يزاد على ثواب الشر[2] ولا يظلمون نقيرًا.

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾﴾

هذا مثلٌ أريد به أهل مكة، فإنها كانت آمنةً مطمئنةً مستقرةً يُتخطَّف الناس من حولها، ومن دخلها آمن لا يخاف، كما قال تعالىٰ: ﴿وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ [القصص: ٥٧] وهكذا قال هاهنا: ﴿يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا﴾ أي: هنيئًا سهلًا ﴿مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ﴾ أي: جحدت آلاء الله عليها، وأعظمُ ذلك بعثةُ محمَّدٍ ﷺ إليهم، كما قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾ [إبراهيم: ٢٨، ٢٩]. ولهذا بدَّلهم الله بحالَيْهم الأوَّلَيْن خلافهما، فقال: ﴿فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ﴾ أي: ألبسها وأذاقها الجوع بعد أن كان يُجْبَىٰ إليهم ثمرات كل شيء، ويأتيها رزقها رغدًا من كل مكان، وذلك لما استعصَوْا علىٰ رسول الله ﷺ وأبوا إلا خلافه، فدعا عليهم بسبع كسَبع يوسف، فأصابتهم سَنةٌ أذهبت كل شيء لهم، فأكلوا [العِلْهِز][3][4] -وهو: وبر البعير، يجعل بدمه إذا نحرُوهُ.

وقوله: ﴿وَٱلْخَوْفِ﴾ وذلك بأنهم بُدِّلوا بأمنهم خوفًا من رسول الله ﷺ وأصحابه، حين هاجروا إلىٰ المدينة، مِن سطوة سراياه وجُيوشه، [وجعل][5] كل ما لهم في سَفَالٍ ودمارٍ، حتىٰ فتحها الله عليهم وذلك بسبب صنيعهم وبغيهم وتكذيبهم الرسول الذي بعثه الله فيهم منهم، وامتنَّ به عليهم في قوله: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، وقال تعالىٰ: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [الطلاق: ١٠، ١١] الآية، وقوله: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ إلىٰ قوله: ﴿وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥١، ١٥٢].

وكما أنَّه انعكس علىٰ الكافرين حالهم، فخافوا بعد الأمن، وجاعوا بعد الرغد، بَدَّل الله المؤمنين من بعد خوفهم أمنًا، ورزقهم بعد العَيْلَة، وجعلهم أمراء الناس وحكامهم، وسادتهم وقادتهم وأئمتهم.

[وهذا][6] الَّذِي قلناه من أن هذا المثل مضروبٌ لمكة، قاله العوفي، عن ابن عبَّاس. وإليه ذهب مجاهد، وقتادة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وحكاه مالك عن الزهري، رحمهم الله.

---

(١) سقط من (ز). (٢) الثواب يكون في الخير والشر، إلا أنه في الخير أخص.

(٣) العِلْهِز: شيء يَتَّخِذونه في سِنِي المجاعَة يَخْلِطون الدَّم بأوْبَارِ الإبِل ثم يَشْوُونه بالنَّار ويأكلونه. وقيل: كانوا يَخْلِطون فيه القِرْدَان. ويقال للقُرَاد الضَّخْم: عِلْهِز. وقيل: العِلْهِزُ: شيء يَنْبُت بِبلاد بني سُلَيم له أصْلٌ كأصل البَرْدِيِّ. «النهاية».

(٤) في (ز): «العهز». (٥) في (ز): «وهكذا».

(٦) في (ز): (وجعلوا).

وقال ابن جرير: حدَّثني ابن عبد الرحيم البَرْقي، حدَّثنا ابن أبي مريم، حدَّثنا نافع بن زيد، حدَّثنا عبد الرحمن بن شُرَيْح، أن عبد الكريم بن الحارث الحضرمي حدثه، أنه سمع [مِشْرَح][1] بن هاعان يقول: سمعت سليم بن عتر يقول: صدرنا من الحج مع حفصة زوج النَّبِيِّ ﷺ، وعثمان ﵁ محصورٌ بالمدينة، فكانت تسأل عنه: ما فعل؟ حتىٰ رأت راكبين، فأرسلت إليهما تسألهما، فقالا: قُتل. فقالت حفصة: والذي نفسي بيده، إنها القرية التي قال الله: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ﴾ قال أبو شريح: وأخبرني عبيد الله بن المغيرة، عمن حدثه: أنه كان يقول: إنها المدينة[2].

﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾

يقول تعالىٰ: آمرًا عباده المؤمنين بأكل رزقه الحلال الطَّيِّب، وبشكره علىٰ ذلك، فإنه المنعم المتفضل به ابتداءً، الذي يستحق العبادة وحده لا شريك له، ثمَّ ذكر ما حرَّمه عليهم [مما][3] فيه مضرَّةٌ لهم في دينهم ودنياهم، من الميتة والدم، ولحم الخنزير.

﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ أي: ذبح علىٰ غير اسم الله، ومع هذا ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ﴾ أي: احتاج في غير بغي ولا عدوانٍ، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

وقد تقدَّم الكلام علىٰ مثل هذه الآية في سورة «البقرة» بما فيه كفاية عن إعادته، ولله الحمد والمنة، ثم نهىٰ تعالىٰ عن سلوك سبيل المشركين، الذين حَلَّلُوا وحرَّمُوا بمجرد ما وضعوه واصطلحوا عليه مِن الأسماء بآرائهم، من البَحيرة والسَّائبة والوَصِيلة والحَام، وغير ذلك مما كان شرعًا لهم ابتدعوه في جاهليتهم، فقال: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ ويدخل في هذا كل من ابتدع بدعةً ليسَ له فيها مستندٌ شرعيٌّ، أو حلَّل شيئًا مما حرَّم الله، أو حرَّم شيئًا مما أباح الله، بمجرد رأيه وتشهِّيه. و «ما» في قوله: ﴿لِمَا﴾ مصدرية؛ أي: ولا تقولوا الكذب لوصف ألستكم، ثم توعد علىٰ ذلك فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ أي: في الدُّنيا ولا في الآخرة. أما في الدنيا فمتاعٌ قليلٌ، وأمَّا في الآخرة فلهم عذابٌ أليمٌ، كما قال: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [لقمان: ٢٤]. وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾ [يونس: ٦٩، ٧٠].

---

(١) في (ز): «شرح»، وهو خطأ.
(٢) رواه الطبري (١٤/ ١٨٦)، وزاد عزوه السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ١٧٤)، إلىٰ ابن أبي حاتم وفيه مِشْرح ابن هاعان، قال الحافظ: مقبول.
(٣) في (ز): «بما».

﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾ ﴾

لما ذكر تعالىٰ أنَّه إنَّما حرَّم علينا الميتة والدَّم ولحم الخنزير، وما أُهِلَّ لغير الله به، وأنَّه أرخص فيه عند الضرورة -وفي ذلك توسعةٌ لهذه الأمة، التي يريد الله بها اليسر ولا يريد بها العسر- ذكر ﷻ ما كان حَرَّمه علىٰ اليهودِ في شريعتهم قبل أن ينسخها، وما كانوا فيه من الآصار والأغلال والحرج والتَّضْيِيق، فقال: ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ﴾ يعني: في «سورة الأنعام» في قوله: ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ ﴾ إلىٰ قوله: ﴿ ﴾ [الأنعام: ١٤٦]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ ﴾ أي: فيما ضيقنا عليهم، ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ أي: [فاستحقوا][(١)] ذلك، كما قال: ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴾ [النساء: ١٦٠].

ثم أخبر تعالىٰ: تكرمًا وامتنانًا في حقِّ العصاة المُؤمِنِين: أنَّ مَن تاب منهم إليه تاب عليه، فقال: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ﴾ قال بعض السلف: كلُّ مَن عصىٰ الله فهو جاهلٌ.

﴿ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓاْ ﴾ أي: أقلعوا عما كانوا فيه مِن المعاصي، وأقبلوا علىٰ فعل الطَّاعات، ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا ﴾ أي: تلك الفعلة والذِّلَّة ﴿لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾

يَمْدَح تعالىٰ عبده ورسوله وخليله إبراهيم، إمام الحنفاء ووالد الأنبياء، ويبرئه من المشركين، ومِن اليهوديَّة والنصرانيَّة فقال: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا ﴾ فأما «الأُمَّة»، فالإمام الذي يقتدىٰ به. والقانت: هو الخاشع المطيع. والحنيف: المنحرف قصدًا عن الشِّرك إلىٰ التَّوحيد؛ ولهذا قال: ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ .

قال سفيان الثَّوري، عن سلمة بن كُهَيْل، عن مسلم البَطِين، عن أبي [العبيدين][(٢)] : أنه سأل عبد الله ابن مسعود عن الأُمَّة القانت، فقال: الأُمَّة: مُعَلِّم الخير، والقانت: المطيع لله ورسوله.

وعن مالك قال: قال ابن عمر: الأُمَّة: الذي يعلِّم النَّاسَ دينهم.

---

(١) في (ز): «فاستحبوا». (٢) في (ز): «العبديين».

وقال الأعمش، [عن الحكم][(١)] عن يحيىٰ بن الجزار، عن أبي العُبَيْدَيْنِ؛ أنه جاء إلىٰ عبد الله فقال: مَنْ نسأل إذا لم نسألك؟ فكأن ابن مسعود رَقَّ له، فقال: أخبرني عن الأُمَّة فقال: الذي يعلِّم النَّاسَ الخيرَ[(٢)].

وقال الشعبي: حدَّثني فروَة بن نوفل الأشجعي قال: قال ابن مسعود: إن معاذًا كان أمةً قانتًا لله حنيفًا، فقلت في نفسي: غَلِطَ أبو عبد الرحمن، إنَّما قال الله: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ فقال: [أتدري][(٣)] ما الأُمَّة وما القانت؟ قلت: الله ورسوله أعلم. قال: الأُمَّة: الذي يعلِّم النَّاس الخير. والقانت: المطيع لله ورسوله. [وكذلك][(٤)] كان معاذ معلمَ الخير. وكان مطيعًا لله ورسوله[(٥)]. وقد روي مِن غير وجهٍ، عن ابن مسعود؛ حرره ابن جرير. وقال مجاهد: ﴿أُمَّةً﴾ أي: أمةٌ وحده، والقانت: المطيع. وقال مجاهد أيضًا: كان إبراهيم أُمَّةً؛ أي: مؤمنًا وحده، والنَّاس كلهم إذ ذاك كفار. وقال قتادة: كان إمام هُدًىٰ، والقانت: المطيع لله.

وقوله: ﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ﴾ أي: قائمًا بشكر نعم الله عليه، كما قال: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾ [النجم: ٣٧]؛ أي: قام بجميع ما أمره الله تعالىٰ به.

وقوله: ﴿ٱجْتَبَىٰهُ﴾ أي: اختاره واصطفاه، كما قال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٥١].

ثم قال: ﴿وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وهو عبادة الله وحده لا شريك له علىٰ شرعٍ مرضيٍّ.

وقوله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ أي: جمعنا له خير الدُّنْيا من جميع ما يحتاج المؤمن إليه في إكمال حياتِهِ الطَّيِّبة، ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

وقال مجاهد في قوله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ أي: لسان صدق.

وقوله: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ أي: ومِن كماله وعظمته وصحةِ توحيده وطريقه، أنَّا أوحينا إليك يا خاتم الرسل وسيد الأنبياء: ﴿أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ كما قال: في «الأنعام»: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٦١]، ثم قال تعالىٰ منكرًا علىٰ اليهود.

﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٢٤)﴾

لا شكَّ أنَّ الله شرَع في كل ملةٍ يومًا من الأسبوع، يجتمع النَّاس فيه للعبادة، فشرع تعالىٰ لهذه الأمة

---

(١) سقط من (ز).
(٢) رواه الطبري (١٤/ ١٩١) وفيه أبو العبيديْنِ مقبول، ولكن يشهد له الأثر الذي بعده.
(٣) في (ز): «تدري». (٤) في (ز): «وكذا». (٥) صحيح: رواه الطبري (١٤/ ١٩١).

يوم الجمعة؛ لأنه [اليوم][1] السادس الذي أكمل الله فيه الخليقة، واجتمعت [النَّاس][2] فيه وتمت النعمة على عباده. ويقال: إنَّه تعالى شرع ذلك لبني إسرائيل على لسان موسى، فعدلوا عنه[3] واختاروا السبت؛ لأنَّه اليوم الذي لم يخلق فيه الرَّبُّ شيئًا من المخلوقات [الذي][4] كمل خلقها يوم الجمعة، فألزمهم تعالى به في شريعة التوراة، ووصَّاهم أن يتمسَّكوا به وأن يحافظوا عليه، مع أمره إيَّاهم بمتابعة محمَّدٍ ﷺ إذا بعثه. وَأَخْذِهِ مواثيقَهُم وعهودَهُم على ذلك؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾.

قال مجاهد: اتَّبعوه وتركوا الجمعة.

ثم إنهم لم يزالوا مُتَمَسِّكِين به، حتى بعث الله عيسى ابن مريم، فيقال: إنَّه حوَّلهم إلى يوم الأحد. ويقال إنَّه: لم [يترك شريعة التوراة إلا ما نُسِخَ مِن بعض أحكامها وإنه لم][5] يزل محافظًا على السَّبْتِ حتى رفع، وإن النَّصارى بعده في زمن قسطنطين هم الذين تحولوا إلى يوم الأحد، مخالفة لليهود، وتحولوا إلى الصلاة شرقًا عن الصخرة، والله أعلم.

وقد ثبت في «الصحيحين»، من حديث عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن همام، عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**نَحْنُ الآخِرُونَ السَّابِقُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ، بَيْدَ أَنَّهُمْ أُوتُوا الكِتَابَ مِنْ قَبْلِنَا، ثُمَّ هَذَا يَوْمُهُمُ الَّذِي فَرَضَ اللهُ عَلَيْهِمْ فَاخْتَلَفُوا فِيهِ، فَهَدَانَا اللهُ لَهُ، فَالنَّاسُ لَنَا فِيهِ تَبَعٌ، اليَهُودُ غَدًا، وَالنَّصَارَى بَعْدَ غَدٍ**»[6]. لفظ البخاري.

وعن أبي هريرة، وحذيفة رضي الله عنهما قالا: قال رسول الله ﷺ: «**أَضَلَّ اللهُ عَنِ الجُمُعَةِ مَنْ كَانَ قَبْلَنَا، فَكَانَ لِلْيَهُودِ يَوْمُ السَّبْتِ، وَكَانَ لِلنَّصَارَى يَوْمُ الأَحَدِ، فَجَاءَ اللهُ بِنَا فَهَدَانَا اللهُ لِيَوْمِ الجُمُعَةِ، فَجَعَلَ الجُمُعَةَ وَالسَّبْتَ وَالأَحَدَ، وَكَذَلِكَ هُمْ تَبَعٌ لَنَا يَوْمَ القِيَامَةِ، نَحْنُ الآخِرُونَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا وَالأَوَّلُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ، وَالمَقْضِيُّ بَيْنَهُمْ قَبْلَ الخَلَائِقِ**». رواه مسلم[7].

﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾[8]

---

(١) سقط من (ز). (٢) سقط من (ز). (٣) في (ز): «فعدلوا به عنه».

(٤) في (ز): «التي». (٥) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

(٦) البخاري (٢٣٨، ٨٧٦، ٢٩٠٦)، ومسلم (٨٥٥)، وأحمد (٢/ ٢/ ٢٧٤).

(٧) رواه مسلم (٨٥٦).

(٨) قال العلامة السعدي رحمه الله: ومِن الحكمة الدَّعوة بالعلم لا بالجهل والبداءة بالأهم فالأهم، وبالأقرب إلى الأذهان والفهم، وبما يكون قبوله أتَمّ، وبالرفق واللِّين، فإن انقاد بالحكمة، وإلا فينتقل معه بالدعوة بالموعظة الحسنة، وهو الأمر والنهي المقرون بالترغيب والترهيب، إمَّا بما تشتمل عليه الأوامر من المصالح وتَعْدادها، والنواهي من المضار =

يقول تعالىٰ آمرًا رسوله محمدًا ﷺ أن يدعوَ الخلق إلىٰ الله: ﴿بِٱلْحِكْمَةِ﴾.

قال ابن جرير: وهو ما أنزله عليه من الكتاب والسُّنَّة ﴿وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ أي: بما فيه من الزَّواجر والوقائع بالنَّاس ذكرهم بها؛ ليحذروا بأس الله تعالىٰ.

وقوله: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ أي: مَنِ احتاج منهم إلىٰ مناظرةٍ وجدالٍ، فليكن بالوجه الحسن برفقٍ ولينٍ وحُسْنِ خطاب، كما قال: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ﴾ [العنكبوت: ٤٦] فأمره تعالىٰ بلينِ الجانب، كما أمر موسىٰ وهارون -عليهما السلام- حين بعثهما إلىٰ فرعون فقال: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٤].

وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ أي: قد علم الشقي منهم والسعيد، وكتب ذلك عنده وفرغ منه، فادعهم إلىٰ الله، ولا تذهب نفسك علىٰ مَن ضلَّ منهم حسراتٍ، فإنه ليس عليك هداهم ﴿إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ﴾ [هود: ١٢]، ﴿عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠]، [فـ][1] ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦]، و﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢].

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ[2] ﴿١٢٨﴾﴾

يأمر تعالىٰ بالعدل في [القصاص][3] والمماثلة في استيفاءِ الحقِّ.

كما قال عبد الرزَّاق، عن الثوري، عن خالد، عن ابن سيرين: أنه قال في قوله تعالىٰ: ﴿فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾: إن أخذ منك رجلٌ شيئًا فخُذ [منه][4] مثله.

= وتَعْدادها، وإما بذكر إكرام من قام بدين الله وإهانة من لم يقم به، وإمَّا بذكر ما أعدَّ الله للطَّائعين من الثواب العاجل والآجل وما أعَدَّ للعاصين من العقاب العاجل والآجل، فإن كان المدعوُّ يرىٰ أن ما هو عليه حق. أو كان داعيه إلىٰ الباطل، فيجادَلُ بالتي هي أحسن، وهي الطرق التي تكون أدعىٰ لاستجابته عقلًا ونقلًا.

ومن ذلك الاحتجاج عليه بالأدلَّة التي كان يعتقدها، فإنَّه أقرب إلىٰ حصول المقصود، وأن لا تؤدي المجادلة إلىٰ خصامٍ أو مشاتمةٍ تذهب بمقصودها، ولا تحصل الفائدة منها بل يكون القصد منها هداية الخلق إلىٰ الحقِّ لا المغالبة ونحوها.

(١) ليست في (ز).

(٢) قال ابن تيمية رحمه الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ وَهَذَانِ الْأَصْلَانِ هُمَا جِمَاعُ الدِّينِ الْعَامِّ كَمَا يُقَالُ: التَّعْظِيمُ لِأَمْرِ اللهِ وَالرَّحْمَةُ لِعِبَادِ اللهِ. فَالتَّعْظِيمُ لِأَمْرِ اللهِ يَكُونُ بِالْخُشُوعِ وَالتَّوَاضُعِ وَذَلِكَ أَصْلُ التَّقْوَىٰ، وَالرَّحْمَةُ لِعِبَادِ اللهِ بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ، وَهَذَانِ هُمَا حَقِيقَةُ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ فَإِنَّ الصَّلَاةَ مُتَضَمِّنَةٌ لِلْخُشُوعِ لِلَّهِ وَالْعُبُودِيَّةِ لَهُ وَالتَّوَاضُعِ لَهُ وَالذُّلِّ لَهُ وَذَلِكَ كُلُّهُ مُضَادٌّ لِلْخُيَلَاءِ وَالْفَخْرِ وَالْكِبْرِ. وَالزَّكَاةُ مُتَضَمِّنَةٌ لِنَفْعِ الْخَلْقِ وَالْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ، وَذَلِكَ مُضَادٌّ لِلْبُخْلِ.

(٣) في (ز): الاقتصاص.

(٤) سقط من (ز)، وهي مثبتة في «الطبري».

وكذا قال مجاهد، وإبراهيم، والحسن البصري، وغيرهم. واختاره ابن جرير.

وقال ابن زيد: كانوا قد أُمِرُوا بالصَّفح عن المشركين، فأسلم رجالٌ ذَوُو منعةٍ، فقالوا: يا رسول الله، لو أذن الله لنا لانتصرنا من هؤلاء الكلاب! فنزلت هذه الآية، ثم نسخ ذلك بالجِهَاد.

وقال محمَّد بن إسحاق، عن بعض أصحابه، عن عطاء بن يَسَار قال: نزلت سورة «النحل» كُلُّها بمكة، وهي مكية إلا ثلاث آياتٍ من آخرها نزلت بالمدينة بعد أُحُدٍ، حيث قتل حمزة ﵁ ومُثِّل به، فقال رسول الله ﷺ: «**لَئِنْ ظَهَرْنَا عَلَيْهِمْ لَنُمَثِّلَنَّ بِثَلَاثِينَ رَجُلًا مِنْهُمْ**» فلما سمع المسلمون ذلك قالوا: والله لئن ظهرنا عليهم لنمثلن بهم مُثْلَةً لم يُمَثِّلْها أحدٌ من العرب بأحدٍ قَطُّ. فأنزل الله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ﴾ إلىٰ آخر السورة (١).

وهذا مرسلٌ، وفيه رجلٌ مبهمٌ لم يسمَّ، وقد رُوِيَ هذا مِن وجهٍ آخرَ متصل، فقال الحافظ أبو بكرٍ البزار:

حدَّثنا الحسن بن يحيىٰ، حدَّثنا عمرو بن عاصم، حدَّثنا صالح المُرِّي، عن سليمان التيمي، عن أبي عثمان، عن أبي هريرة ﵁ أنَّ رسول الله ﷺ وقف علىٰ (٢) حمزة بن عبد (٣) المطلب ﵁ حين اسْتُشْهِد، فنظر إلىٰ منظر لم ينظر أَوْجَعَ للقلب منه. أو قال: لقلبه [منه] [فنظر] إليه وقد مُثِّل به فقال: «**رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْكَ، إِنْ كُنْتَ - لما عَلِمْتُ -لَوَصُولًا لِلرَّحِمِ، فَعُولًا لِلْخَيْرَاتِ، وَاللهِ لَوْلَا حُزْنُ مَنْ بَعْدَكَ عَلَيْكَ لَسَرَّنِي أَنْ أَتْرُكَكَ حَتَّىٰ يَحْشُرَكَ اللهُ مِنْ بُطُونِ السِّبَاعِ** -أو كلمة نحوها- **أَمَا وَاللهِ عَلَيَّ ذَلِكَ، لَأُمَثِّلَنَّ بِسَبْعِينَ كَمُثْلَتِكَ**». فنَزَلَ جِبْرِيلُ ﵇ علَىٰ مُحَمَّدٍ ﷺ بِهَذِهِ السُّورَةِ، وقرأ: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ (٤) فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ﴾ إلىٰ آخر الآية، فكفَّر (٥) رسولُ الله ﷺ -يعني: عن يمينه- وأمسكَ عن ذلك. وهذا إسنادٌ فيه ضعفٌ؛ لأن صالحًا -هو [ابن] بشير المري- ضعيفٌ عند الأئمة، وقال البخاري: هو منكر الحديث. وقال الشعبي وابن جُرَيْج: نزلتْ في قول المسلمين يوم أُحدٍ فيمن مثَّل بهم: لنمثلنَّ بهم. فأنزل الله فيهم ذلك.

وقال عبد الله ابن الإمام أحمد في «مسند أبيه»: حدَّثنا هدِيَّة بن عبد الوهاب المَرْوَزِي، حدَّثنا الفضل ابن موسىٰ، حدَّثنا عيسىٰ بن عبيد، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، عن أبي بن كعب قال: لما كان يومُ أحدٍ، قُتِلَ من الأَنْصَار سِتُّون رجلًا (٦) ومن المهاجرين ستةٌ، فقال أصحاب رسول الله ﷺ: لئن كان لنا يومٌ مثلُ هذا مِن (٧) المشركين لَنُرْبِيَنَّ عليهم. فلما كان يوم الفتح قال رجل: تعرف قريش بعد اليوم. [فنادىٰ منادٍ]: إن رسول الله ﷺ آمن الأسود والأبيض إلا فلانًا وفلانًا -ناسًا سمَّاهم- فأنزل الله تبارك وتعالىٰ: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾ فقال

---

(١) مرسل: وفيه مجهول، رواه الطبري (١٤/ ١٩٥).
(٢) ليست في (ز).
(٣) في (ز): «ونظر».
(٤) ضعيف: رواه البزار (١٧٩٥)، وفيه صالح المُرِّي: وهو ضعيف، والحديث ضعفه ابن كثير ﵀.
(٥) سقط من (ز).
(٦) أي: لنزيدن ولنضاعفن.
(٧) في (ز): «فناد».

رسول الله ﷺ: «نَصْبِرُ وَلَا نُعَاقِبُ»(١).

وهذه الآية الكريمة لها أمثالٌ في القرآن، فإنها مشتملةٌ على مشروعية العدل والندب إلى الفضل، كما في قوله: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا﴾ ثُمَّ قَالَ: ﴿فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠]. وقال: ﴿وَٱلۡجُرُوحَ قِصَاصٞ﴾ ثُمَّ قَالَ: ﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٞ لَّهُۥ﴾ [المائدة: ٤٥]، وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦ﴾ ثُمَّ قَالَ: ﴿وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾.

وقوله: ﴿وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ تأكيدٌ للأمر بالصبر، وإخبارٌ بأن ذلك إنما يُنَال بمشيئة الله وإعانته، وحوله وقوته.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ﴾ أي: على مَن خالفك، لا تحزن عليهم؛ فإن الله قَدَّر ذلك، ﴿وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ﴾ أي: غمٍّ ﴿مِّمَّا يَمۡكُرُونَ﴾ أي: مما يجهدون(٢) [أنفسهم](٣) في عداوتك وإيصال الشَّرِّ إليك، فإنَّ الله كافيك وناصرك، ومؤيدك، ومُظهرك ومظفرك بهم.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ﴾ أي: معهم بتأييده ونصره ومعونته وهذه مَعِيَّةٌ خاصَّةٌ، كقوله: ﴿إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمۡ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [الأنفال: ١٢]، وقوله لموسى وهارون: ﴿قَالَ لَا تَخَافَآۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦]، وقول النَّبِيِّ ﷺ للصِّدِّيق وهما في الغار: ﴿لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠] وأما المعيَّة العامَّة فبالسَّمْع والبصر والعلم، كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ [الحديد: ٤]، وكقوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ وَلَا خَمۡسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمۡ وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمۡ أَيۡنَ مَا كَانُواْ﴾ [المجادلة: ٧]، وكما قال تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأۡنٖ وَمَا تَتۡلُواْ مِنۡهُ مِن قُرۡءَانٖ وَلَا تَعۡمَلُونَ مِنۡ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيۡكُمۡ شُهُودًا﴾ الآية [يونس: ٦١].

ومعنى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ﴾ أي: تركوا المحرمات، ﴿وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ﴾ أي: فعلوا الطاعات، فهؤلاء الله يحفظهم ويَكْلَؤُهم، وينصرهم ويُؤَيِّدُهم، ويُظْفِرُهُمْ على أعدائهم ومخالفيهم.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا محمَّد بن بشار، حدَّثنا أبو أحمد الزبيري، حدَّثنا مِسْعَرٌ، عن ابن عون، عن محمَّد بن حاطب قال: كان عثمان رضي الله عنه مِن الَّذِين آمنوا، والَّذين اتقوا، والذين هم محسنون(٤).

آخر تفسير سورة النحل؛ ولله الحمد أجمعه والمنَّة، وبه المستعان، وهو حسبنا ونِعْم الوكيل.

---

(١) حسن: رواه عبد الله بن الإمام أحمد (٥/ ١٣٥)، والترمذي (٥/ ٢٩٩)، ورواه ابن حبان (٤٨٧)، من أجل الربيع بن أنس: صدوق له أوهام كما قال الحافظ.

(٢) أي: يجدون. (٣) سقط من (ز).

(٤) لم أجده بهذا اللفظ عند ابن أبي حاتم، ولكن عنده عن عليٍّ رضي الله عنه (١٨٥٧١) بلفظ: كان عثمان من الذين قال الله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمۡ فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَعۡدَ ٱلصِّدۡقِ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ١٦﴾ [الأحقاف]. وثبت نحوُهُ بلفظ آخر: رواه ابن أبي شيبة (٣٢٧٢٣)، والآجُرِّي في «الشريعة»، و«حلية الأولياء» (١/ ٥٥)، واللَّالَكَائي في «أصول الاعتقاد» (٢٥٧٤) وهو إسنادٌ صحيحٌ.

سورة الإسراء

تفسير سورة الإسراء(1) وهي مكيَّة

قال الإمامُ [الحافظ المُتْقِن أبو عبد الله محمَّد بن إسماعيل](2) البخاري: حدَّثنا آدم بن أبي إياس، حدَّثنا شُعْبَة، عن أبي إسحاق قال: سمعتُ عبد الرحمن بن يزيد، سمعت ابن مسعود ﵁ قال في بني إسرائيل والكهف ومريم: إنَّهنَّ مِن العِتَاقِ(3) الأُوَلِ، وهُنَّ مِن تِلَادِي(4).

وقال الإمامُ أحمد: حدَّثنا عبد الرحمن، حدَّثنا حماد بن زيد، عن مروان أبي لبابة(5)، سمعتُ عائشةَ تقول: كان رسول الله ﷺ يصومُ حتىٰ نقولَ: ما يُريد أن يُفْطِر، ويُفْطِر حتىٰ نقول: ما يُرِيدُ أن يصوم، وكان يقرأ كل ليلةٍ: «بَنِي إِسْرَائِيلَ»، و«الزُّمَرَ»(6).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا(7) ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ①﴾

يمجِّد تعالىٰ نفسَهُ، ويعظِّم شأنه؛ لقدرته علىٰ ما لا يقدر عليه أحدٌ سواه، فلا إلَهَ غيره ﴿ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ يعني: محمَّدًا، صلواتُ الله وسلامُه عليه ﴿لَيْلًا﴾ أي: في جُنْحِ اللَّيل ﴿مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾(8) وهو مسجد مكَّة ﴿إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ وهو «بيت المَقْدِس» الذي بإِيلِيَاء(9)، معدن الأنبياء مِن لَدُن إبراهيم الخليل؛ ولهذا جُمِعُوا له هنالك كلهم، فَأَمَّهم في مَحِلَّتهم ودارهم،

---

(1) في (ز): «سبحان». (2) سقط من (ز).

(3) **العتاق**: جمع عتيق، والعتيق: القديم، أرادَ بالعِتَاق الأوَل: السُّوَرَ التي أُنْزِلت أوَلاً بمكة، وأنها من أوّل ما تَعلَّمه من القرآن، وتلادي، التالد: هو القديم أيضًا.

(4) البخاري (٤٧٠٨)، ومعنىٰ من «تلادي» أي: من أول ما أخذته وتعلمته.

(5) هكذا في (ز) وهو الصواب، ووقع في بعض المطبوعات: (مروان عن أبي لبابة)، وهو خطأ، مروان هو أبو لبابة الوراق مولىٰ عائشة ﵂، وانظر ترجمته في «تهذيب الكمال» (٢٧/ ٤١٢).

(6) حسن: أحمد (٦/ ١٨٩)، والترمذي (٢٩٢١، ٣٤٠٢)، وقال: حسن غريب.

(7) **قال الشيخ أبو بكر الجزائري** حَفِظَهُ اللهُ: حدثنا شيخنا الطيب العقبي خريج المسجد النبوي الشريف: أنه ألقىٰ كلمة في الروضة بالمسجد النبوي ففتح الله تعالىٰ عليه فذكر أنَّ المسجد النبوي أشير إليه في آية الإسراء فهو إذًا مذكور في القرآن بالإيماء كما ذكرت في التفسير.

(8) لوحة (١١٢ ب).

(9) **إيلياء والقدس**: اسمان لمسمىٰ واحد، وهو المدينة التي بها المسجد الأقصىٰ.

فدلَّ علىٰ أنه هو الإمام الأَعْظَم، والرَّئيس المقدَّم، صلواتُ الله وسلامُهُ عليه وعليهم أجمعين.

وقوله: ﴿ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ﴾ أي: في الزُّرُوع والثِّمار ﴿لِنُرِيَهُۥ﴾ أي: محمَّدًا ﴿مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ﴾ أي: العِظَام كما قال تعالىٰ: ﴿لَقَدۡ رَأَىٰ مِنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ﴾ [النجم: ١٨]. وسنذكر من ذلك مَا وردت به السُّنَّة من الأحاديث عنه، - صلواتُ الله عليه وسلامه -، وقوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ أي: السَّميع لأقوال عبادِهِ، مؤمِنِهِم وكافِرِهِم، مصدِّقِهِم ومكذِّبِهِم، البصير بهم؛ فيُعْطِي كلًّا ما يستحقه في الدنيا والآخرة.

ذكر الأحاديث الواردة في الإسراء

- رِوايَةُ أنس بن مَالِك:

[قال الإمام أبو عبد الله البخاري: حدَّثني عبد العزيز بن عبد الله، حدَّثنا سليمان -هو ابن بلال- عن شريك بن عبد الله قال: سمعتُ أنسَ بن مالك](١) يقول ليلة أُسْرِيَ برسول الله ﷺ من مسجد الكعبة:

إنَّه جاءَهُ ثلاثةُ نفرٍ قبلَ أن يوحَىٰ إليه وهو نائمٌ في المسجد الحرام فقال أوَّلُهُم: أيُّهم هُو؟ فقال أوسَطُهُم: هو خيرُهُم، فقال آخرُهُم: خذُوا خيرَهُم. فكانت تلك اللَّيلة فلم يَرَهُم حتىٰ أَتَوْهُ ليلةً أخرىٰ فيما يرىٰ قَلْبُهُ، وتنام عيناهُ ولا ينام قلبه -وكذلك الأنبياءُ تنامُ أعينُهُم ولا تنام قلُوبُهُم- فلم يكلِّمُوه حتىٰ احتمَلُوهُ فوضعوه عند بئرِ زمزَمَ، فتولَّاه منهم جبريل، فشَقَّ جبريل ما بَيْن نحرِهِ إلىٰ لَبَّتِهِ(٢) حتىٰ فرغ مِن صدرِهِ وجوفِهِ، فغسله من ماء زمزم بيده حتىٰ أَنْقَىٰ جوفه، ثم أُتِي بطَسْتٍ مِن ذهبٍ فيه تَوْرٌ(٣) من ذهبٍ محشوًّا إيمانًا وحكمةً، فحشا به صدرَهُ ولغادِيدَهُ -يعني عروق حلقه- ثم أَطْبَقَهُ. ثم عرج به إلىٰ السماء الدنيا، فضرب بابًا من أبوابها، فناداه أهلُ السَّماء: مَن هَذَا؟ فقال: جبريل. قالوا: ومَن مَعَكَ؟ قال: معي محمَّد، قالوا: وَقَدْ بُعِثَ إليه؟ قال: نعم، قالوا: مرحبًا به وأهلًا به، يَسْتَبْشِرُ به أهل السماء لا يعلم أهل السماء بما يُرِيدُ الله به في الأرض حتىٰ يُعْلِمَهُم، ووَجَدَ في السماء الدنيا آدَمَ، فقال له جبريل: هذا أبوكَ آدمُ فسلِّمْ عَلَيْه، فسلَّمَ عليه، وردَّ عليه آدم فقال: مرحبًا وأهلًا بابْنِي، نِعْم الابن أنت، فإذا هو في السَّماء الدُّنيا بنَهْرَيْن يَطَّرِدَانِ(٤)، فقال: «مَا هَذَانِ النَّهْرَانِ يَا جِبْرِيلُ؟» قال: هذا النِّيل والفُرَات عنصرهما(٥)، ثم مضىٰ به في السَّماء، فإذا هو بنهرٍ آخر عليه قصرٌ مِن لؤلؤٍ وزبرجدٍ، فضرب يدَهُ فإذا هو مسكٌ أَذْفر فقال: «مَا هَذَا يَا جِبْرِيلُ؟» قال: هذا الكوثَرُ(٦) الذي خبأَ لك ربُّك، ثم عرج إلىٰ السماء الثَّانية، فقالت الملائكة [له](٧) مثل ما قالت له الأُولَىٰ: مَنْ هذا؟ قال: جبريل، قالوا: ومَن معكَ؟ قال: محمَّد، قالوا: وَقَدْ بُعِثَ إليه؟ قال: نعم، قالوا: مرحبًا وأهلًا وسهلًا، ثم عرج به إلىٰ السَّماء الثَّالثة، فقالوا له مثل ما قالت الأولىٰ والثانية. ثم عرج به إلىٰ السَّماء الرَّابعة، فقالوا له: مثل ذلك. ثم عرج به إلىٰ السَّماء الخامسة، فقالوا له: مثل ذلك، ثم عرج به إلىٰ السَّماء السَّادسة، فقالوا له

---

(١) سقط من (ز).
(٢) اللَّبة: موضع النحر.
(٣) التَّوْر: إناء.
(٤) أي: يجريان.
(٥) العُنْصُر: الأصل.
(٦) لوحة (١١٣ أ).
(٧) سقط من (ز)، وهو مثبت من «البخاري».

مثل ذلك. ثم عرج به إلىٰ السَّماء السَّابعة، فقالوا له مثل ذلك. كل سماءٍ فيها أنبياء قد سمَّاهم، قد وَعَيْتُ منهم إدريسَ في الثَّانية وهارونَ في الرَّابعة، وآخرَ في الخامسة لم أحفظ اسمه، وإبراهيم في السَّادسة، وموسىٰ في السَّابعة بتفضيلِ كلام الله. فقال موسىٰ: ربِّ لم أظن أن يرفع عليَّ أحدٌ، ثم علا [به](١) فوق ذلك، بما لا يعلمه إلا الله ﷻ حتىٰ جاء «سِدْرَةَ المنتهىٰ»، ودنا الجبَّار ربُّ العزَّة فتدلَّىٰ، حتىٰ كان منه قاب قوسين أو أدنىٰ، فأوحىٰ الله إليه فيما يوحىٰ: خمسينَ صلاةً علىٰ أمَّتِك كل يوم وليلةٍ، ثم هبطَ به حتىٰ بلغ موسىٰ فاحتبسه موسىٰ فقال: يا محمَّد، ماذا عَهِدَ إليك ربُّك؟ قال: «**عَهِدَ إِلَيَّ خَمْسِينَ صَلَاةً كُلَّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ**» قال: إن أُمَّتَك لا تستطيع ذلك، فارْجِعْ فلْيُخَفِّف عنك ربُّك وعنهم، فالتفت النَّبيُّ ﷺ إلىٰ جبريل كأنَّه يَسْتَشِيرُه في ذلك، فأشار إليه جبريل: أَنْ نَعَم، إن شئتَ. فعلا به إلىٰ الجبَّار تعالىٰ، فقال وهو في مكانِه: يا رب، خَفِّفْ عنَّا، فإنَّ أُمَّتِي لا تستطيع هذا؛ فوضع عنه عشر صلوات، ثم رجع إلىٰ موسىٰ فاحتبسه، فلم يزل يردده موسىٰ [إلىٰ ربِّه](٢) حتىٰ صارت إلىٰ خمس صلوات. ثم احتبسه موسىٰ عند الخمس فقال: يا محمَّد، والله لقد رَاوَدْتُ بني إسرائيل قومي علىٰ أدنىٰ من هذا [فضَعُفُوا](٣) فتركوه، فأُمَّتك أضعف أجسادًا وقلوبًا وأبدانًا وأبصارًا وأسماعًا، فارجع فلْيُخَفِّف عنك ربُّك، كلُّ ذلك يلتفت النَّبيُّ ﷺ إلىٰ جبريل ليشير عليه، ولا يكره ذلك جبريل، فرفعه عند الخامسة فقال: «**يَا رَبِّ، إِنَّ أُمَّتِي ضُعَفَاءُ أَجْسَادُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ وَأَسْمَاعُهُمْ [وَأَبْصَارُهُمْ](٤) وَأَبْدَانُهُمْ فَخَفِّفْ عَنَّا**»، فقال. الجبَّار: يا محمَّد، قال: لبَّيك وسعدَيْكَ، قال: إنَّه لا يُبَدَّلُ القولُ لديَّ، كما فرضت عليكَ في أمِّ الكتاب: كلُّ حسنةٍ بعشر أمثالها، فهي خمسُونَ في أمِّ الكتاب وهي خمس عليكَ، فرجع إلىٰ موسىٰ فقال: كيف فعلتَ؟ فقال: خَفَّفَ عنَّا، أعطانا بكلِّ حسنةٍ عشر أمثالها قال موسىٰ: قد وَاللهِ رَاوَدْتُ بني إسرائيل [علىٰ](٥) أدنىٰ من ذلك فتركوه، فارجع إلىٰ ربِّك فليخفف(٦) عنك أيضًا، قال رسول الله ﷺ: «**يَا مُوسَىٰ، قَدْ وَاللهِ اسْتَحَيْتُ مِنْ رَبِّي مِمَّا أَخْتَلِفُ(٧) إِلَيْهِ**»؛ قال: فاهبط باسم الله، فاستيقظَ وهو في المسجد الحرام(٨).

هكذا ساقه البخاري في «كتاب التَّوحيد»، ورواه في «صفةِ النَّبيِّ ﷺ»، عن إسماعيل بن أبي أُوَيْس عن أخيه أبي بكر عبد الحميد، عن سليمان بن بلال. ورواه مسلم، عن هارون بن سعيد، عن ابن وَهْب، عن سليمان قال: «فزاد ونقص، وقدَّم وأَخَّر». وهو كما قاله مسلم رَحِمَهُ اللهُ؛ فإنَّ شريك بن عبد الله بن أبي نَمِر اضْطَرَب في هذا الحديث، وساء حفظه ولم يَضْبِطْه، كما سيأتي بيانه في الأحاديث الأُخَر، ومنهم من يجعل هذا منامًا؛ توطئةً لما وقع بعد ذلك، والله أعلم.

---

(١) سقط من (ز)، وهو مثبت من «البخاري».
(٢) ليست في (ز)، وهي مثبتة في «البخاري».
(٣) في (ز): «وضعفوا»، والمثبت موافق لما في «البخاري».
(٤) سقط من (ز)، وهي مثبتة في «البخاري».
(٥) سقط من (ز).
(٦) لوحة (١١٣ ب).
(٧) أي: أتردد عليه.
(٨) رواه البخاري (٧٥١٧)، (٢٧٥٠)، ومسلم (١٦٢)، ولكن وقع لرواية (شريك بن أبي نمر وهم في عشرة مواطن في هذا الحديث) وانظر إلىٰ ما قاله ابن كثير بعد إيراده الحديث.

وقال البيهقي: في حديث «شريك» زيادة تفرَّد بها، علىٰ مذهب من زعم أنه ﷺ رأىٰ ربَّه، يعني قوله: «ثُمَّ دَنَا الجَبَّارُ رَبُّ العِزَّةِ فَتَدَلَّىٰ، فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ» قال: وقول عائشة وابن مسعود وأبي هريرة في حملهم هذه الآيات علىٰ رؤيته جبريل -أصحُّ.

وهذا الذي قاله البيهقي هو الحق في هذه المسألة؛ فإن أبا ذرٍّ قال: يا رسول الله، [هل](١) رأيتَ ربَّك؟ قال: «نُورٌ أَنَّىٰ أَرَاهُ». وفي رواية «رَأَيْتُ نُورًا». أخرجه مسلم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢).

وقوله: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾ [النجم: ٨]، إنما هو جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، كما ثبت ذلك في «الصحيحين»، عن عائشة أمِّ المؤمنين، وعن ابن مسعود، وكذلك هو في «صحيح مسلم»، عن أبي هريرة رضي الله عنه، ولا يعرف لهم مخالفٌ من الصَّحابة في تفسير هذه [الآية](٣) بهذا.

وقال الإمامُ أحمدُ: حدَّثنا حسن بن موسىٰ، حدَّثنا حماد بن سلمة، أخبرنا ثابت البُناني، عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أُتِيتُ بِالبُرَاقِ وَهُوَ دَابَّةٌ أَبْيَضُ فَوْقَ الحِمَارِ وَدُونَ البَغْلِ، يَضَعُ حَافِرَهُ عِنْدَ مُنْتَهَىٰ طَرْفِهِ، فَرَكِبْتُهُ، فَسَارَ بِي حَتَّىٰ أَتَيْتُ بَيْتَ المَقْدِسِ، فَرَبَطْتُ الدَّابَّةَ بِالحَلْقَةِ الَّتِي يَرْبِطُ فِيهَا الأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ دَخَلْتُ فَصَلَّيْتُ فِيهِ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ خَرَجْتُ، فَأَتَانِي جِبْرِيلُ بِإِنَاءٍ مِنْ خَمْرٍ وَإِنَاءٍ مِنْ لَبَنٍ، فَاخْتَرْتُ اللَّبَنَ. قَالَ جِبْرِيلُ: أَصَبْتَ الفِطْرَةَ».

قال: «ثُمَّ عُرِجَ بِي إِلَىٰ السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ، فَقِيلَ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: جِبْرِيلُ. فَقِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ [قَالَ: قَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ](٤)، فَفُتِحَ لَنَا، فَإِذَا أَنَا بِآدَمَ، فَرَحَّبَ وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ، ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلَىٰ السَّمَاءِ الثَّانِيَةِ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ، فَقِيلَ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، فَقِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ(٥)، فَقِيلَ: وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنَا، فَإِذَا أَنَا بِابْنَيِ الخَالَةِ يَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ، فَرَحَّبَا بِي وَدَعَوَا لِي بِخَيْرٍ. ثُمَّ عُرِجَ [بِنَا](٦) إِلَىٰ السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ، فَقِيلَ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: جِبْرِيلُ. فَقِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ فَقَالَ: مُحَمَّدٌ. فَقِيلَ: وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنَا، فَإِذَا أَنَا بِيُوسُفَ، وَإِذَا هُوَ قَدْ أُعْطِيَ شَطْرَ الحُسْنِ، فَرَحَّبَ وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ. ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلَىٰ السَّمَاءِ الرَّابِعَةِ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ، فَقِيلَ: مَنْ أَنْتَ؟ فَقَالَ: جِبْرِيلُ. فَقِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ. فَقِيلَ: قَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ. فَفُتِحَ البَابُ، فَإِذَا أَنَا بِإِدْرِيسَ، فَرَحَّبَ وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ. ثُمَّ قَالَ: يَقُولُ اللهُ: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ [مريم: ٥٧]، ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلَىٰ السَّمَاءِ الخَامِسَةِ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ، فَقِيلَ: مَنْ أَنْتَ؟ فَقَالَ: جِبْرِيلُ. فَقِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ فَقَالَ: مُحَمَّدٌ. فَقِيلَ: قَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ. فَفُتِحَ لَنَا، فَإِذَا أَنَا بِهَارُونَ، فَرَحَّبَ وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ، ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلَىٰ السَّمَاءِ

---

(١) سقط من (ز).

(٢) مسلم (١٧٨)، والترمذي (٣٢٧٨)، والطبري (١٥/ ١٥)، وصحَّحه الألباني في «صحيح التِّرمذي».

(٣) سقط من (ز).

(٤) سقط من (ز)، والمثبت موافق لما في «المسند».

(٥) لوحة (١١٤ أ).

(٦) في (ز): «بي»، والمثبت كما في «المسند».

السَّادِسَةِ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ، فَقِيلَ: مَنْ أَنْتَ؟ فَقَالَ: جِبْرِيلُ. قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ. فَقِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ. فَفُتِحَ لَنَا، فَإِذَا أَنَا بِمُوسَىٰ فَرَحَّبَ وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ، ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلَىٰ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ، فَقِيلَ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: جِبْرِيلُ. قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ. فَقِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ. فَفُتِحَ لَنَا، فَإِذَا أَنَا بِإِبْرَاهِيمَ، وَإِذَا هُوَ مُسْتَنِدٌ إِلَىٰ البَيْتِ المَعْمُورِ، وَإِذَا هُوَ يَدْخُلُهُ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ ثُمَّ لا يَعُودُونَ إِلَيْهِ، ثُمَّ ذُهِبَ بِي إِلَىٰ سِدْرَةِ المُنْتَهَىٰ، فَإِذَا وَرَقُهَا كَآذَانِ الفِيَلَةِ، وَإِذَا ثَمَرُهَا كَالقِلَالِ. فَلَمَّا غَشِيَهَا مِنْ أَمْرِ اللهِ مَا غَشِيَهَا تَغَيَّرَتْ، فَمَا أَحَدٌ مِنْ خَلْقِ اللهِ تَعَالَىٰ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَصِفَهَا مِنْ حُسْنِهَا، قال: «فَأَوْحَىٰ اللهُ إِلَيَّ مَا أَوْحَىٰ، وَفَرَضَ عَلَيَّ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ خَمْسِينَ صَلَاةً، فَنَزَلْتُ حَتَّىٰ انْتَهَيْتُ إِلَىٰ مُوسَىٰ». قال: «مَا فَرَضَ رَبُّكَ عَلَىٰ أُمَّتِكَ؟» قال: «قُلْتُ: خَمْسِينَ صَلَاةً فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ». قال: «ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ؛ فَإِنَّ أُمَّتَكَ لا تُطِيقُ ذَلِكَ، وَإِنِّي قَدْ بَلَوْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَخَبَرْتُهُمْ». قال: «فَرَجَعْتُ إِلَىٰ رَبِّي، فَقُلْتُ: أَيْ رَبِّ، خَفِّفْ عَنْ أُمَّتِي، فَحَطَّ عَنِّي خَمْسًا. فَرَجَعْتُ إِلَىٰ مُوسَىٰ فَقَالَ: مَا فَعَلْتَ؟ قُلْتُ: قَدْ حَطَّ عَنِّي خَمْسًا». قال: «إِنَّ أُمَّتَكَ لا تُطِيقُ ذَلِكَ، فَارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ لِأُمَّتِكَ» قال: «فَلَمْ أَزَلْ أَرْجِعُ بَيْنَ رَبِّي وَبَيْنَ مُوسَىٰ، وَيَحُطُّ عَنِّي خَمْسًا خَمْسًا حَتَّىٰ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، هِيَ خَمْسُ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، بِكُلِّ صَلَاةٍ عَشْرٌ، فَتِلْكَ خَمْسُونَ صَلَاةً، وَمَنْ[1] هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ [لَهُ][2] حَسَنَةً، فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ عَشْرًا. وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ وَلَمْ يَعْمَلْهَا لَمْ تُكْتَبْ، فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ سَيِّئَةً وَاحِدَةً، فَنَزَلْتُ حَتَّىٰ انْتَهَيْتُ إِلَىٰ مُوسَىٰ فَأَخْبَرْتُهُ، فَقَالَ: ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ لِأُمَّتِكَ؛ فَإِنَّ أُمَّتَكَ لا تُطِيقُ ذَلِكَ». فقال رسول الله ﷺ: «لَقَدْ رَجَعْتُ[3] إِلَىٰ رَبِّي حَتَّىٰ اسْتَحْيَيْتُ»[4].

ورواه مسلم عن شَيْبَان بن فَرُّوخ، عن حمَّاد بن سلمة بهذا السِّياق، وهو أصحُّ من سياقِ شَرِيك، قال البيهقي: وفي هذا السياق دليلٌ علىٰ أنَّ المعراج كان ليلة أُسْرِي به ﷺ مِن مكَّة إلىٰ بيت المقدس. وهذا الذي قاله هو الحق الذي لا شكَّ فيه ولا مرية.

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا عبد الرزَّاق، حدَّثنا معمر، عن قتادة، عن أنس رضي الله عنه أنَّ النَّبيَّ ﷺ أُتِي بالبُراقِ ليلة أُسْرِيَ به مُسْرَجًا ملجمًا ليَرْكَبَهُ، فاستصعب عليه، فقال له جبريل: ما يحملك علىٰ هذا؟ فوالله ما رَكِبَكَ قطُّ أكرم علىٰ الله منه. قال: فارْفَضَّ عرقًا[5][6].

ورواه الترمذي عن إسحاق بن منصور، عن عبد الرزَّاق، وقال: غريب لا نعرفه إلا من حديثه.

وقال أحمد أيضًا: حدَّثنا أبو المغيرة، حدَّثنا صفوان، حدَّثني راشد بن سعد وعبد الرحمن بن جبير، عن

---

(١) لوحة (١١٤ ب). (٢) ليست في (ز)، والمثبت كما في «المسند».

(٣) في (ز): «راجعت»، والمثبت كما في «المسند».

(٤) مسلم (١٦٢)، وأحمد (٣/ ١٤٨، ١٥٣، ٢٨٦).

(٥) أرفض عرقًا: جرىٰ عرقه وسال. (٦) صحيح: رواه أحمد (٣/ ١٦٤)، والترمذي (٣١٣٠).

أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «لَمَّا عَرَجَ بِي رَبِّي ﷻ مَرَرْتُ بِقَوْمٍ لَهُمْ أَظْفَارٌ مِنْ نُحَاسٍ، يَخْمِشُونَ وُجُوهَهُمْ وَصُدُورَهُمْ، فَقُلْتُ: مَنْ هَؤُلَاءِ يَا جِبْرِيلُ؟ قَالَ: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ لُحُومَ النَّاسِ، وَيَقَعُونَ فِي أَعْرَاضِهِمْ» (١). وأخرجه أبو داود، من حديث صفوان بن عمرو به. ومن وجهٍ آخر ليس فيه أنس، فالله أعلم.

وقال أيضًا: حدَّثنا وكيع، حدَّثنا سفيان، عن سليمان التَّيْمِي، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «مَرَرْتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي عَلَىٰ مُوسَىٰ ﷺ قَائِمًا يُصَلِّي فِي قَبْرِهِ» (٢). ورواه مسلم من حديث حماد بن سلمة، عن سليمان بن طَرْخان التيمي وثابت البُناني، كلاهما عن أنس. قال النسائي: وهذا أصح من رواية من قال: سليمان عن ثابت، عن أنس.

وقال الحافظ أبو يعلىٰ الموصلي في «مسنده»: حدَّثنا وهب بن بقيَّة، حدَّثنا خالد، عن التيمي، عن أنس قال: أخبرني بعضُ أصحاب النَّبيِّ ﷺ: أن النَّبيَّ ﷺ ليلة أُسري به مرَّ علىٰ موسىٰ وهو يصلِّي في قبره (٣).

وقال أبو يعلىٰ: حدَّثنا إبراهيم بن محمَّد بن عَرْعَرة، حدَّثنا معتمر (٤)، عن أبيه قال: سمعت أنسًا: أن النَّبيَّ ﷺ ليلة أُسْرِي به مرَّ بموسىٰ وهو يصلِّي في قبره -قال أنس: ذكر أنَّه حُمِلَ علىٰ البراق- فأوثق الدَّابَّة -أو قال: الفرسَ- قال أبو بكر: صِفْهَا لي. فقال رسول الله ﷺ، [وذكر كَلِمَةً] (٥)، فقال: أشهد أنَّك رسول الله. وكان أبو بكر ؓ قد رآها (٦).

وقال الحافظ أبو بكر أحمد بن عمرو البزار في «مسنده»: حدَّثنا سلمة بن شبيب، حدَّثنا سعيد بن منصور، حدَّثنا الحارث بن عبيد، عن أبي عمران الجوني، عن أنس بن مالك ؓ، قال: قال رسول الله ﷺ: «[بَيْنَا أَنَا قَاعِدٌ] (٧) إِذْ جَاءَ جِبْرِيلُ ﷺ فَوَكَزَ بَيْنَ كَتِفَيَّ، فَقُمْتُ إِلَىٰ شَجَرَةٍ فِيهَا كَوَكْرَي الطَّيْرِ، فَقَعَدَ فِي أَحَدِهِمَا وَقَعَدْتُ فِي الآخَرِ، فَسَمَتْ وَارْتَفَعَتْ حَتَّىٰ سَدَّتِ الخَافِقَيْنِ وَأَنَا أُقَلِّبُ طَرْفِي، وَلَوْ شِئْتُ أَنْ أَمَسَّ السَّمَاءَ لَمَسِسْتُ، فَالْتَفَتُّ إِلَىٰ جِبْرِيلَ ﷺ كَأَنَّهُ حِلْسٌ لَاطٍّ (٨) فَعَرَفْتُ فَضْلَ عِلْمِهِ بِاللهِ عَلَيَّ، وَفُتِحَ لِي بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ السَّمَاءِ فَرَأَيْتُ النُّورَ الأَعْظَمَ، وَإِذَا دُونَ الحِجَابِ رَفْرَفُ الدُّرِّ وَاليَاقُوتِ، وَأَوْحَىٰ إِلَيَّ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يُوحِيَ». ثم قال: هذا الحديث لا نعلم رواه إلا أنس، ولا نعلم رواه عن أبي عمران الجوني إلا الحارث بن عبيد، وكان رجلًا مشهورًا من أهل البصرة (٩).

---

(١) حسن: رواه أبو داود (٤٨٧٨)، وأحمد (٣/ ٢٢٤).
(٢) مسلم (٢٣٧٥)، وأحمد (٣/ ١٢٠)، ورواه أبو يعلىٰ (٤٠٦٧).
(٣) رواه أبو يعلىٰ (٤٠٦٧). (٤) لوحة (١١٥ أ).
(٥) كذا في (ز)، وهو موافق لما في «مسند أبي يعلىٰ» مع وجود سقط لديه، وفي «الخصائص الكبرىٰ»: [هي كذه وذه].
(٦) صحيح: رواه أبو يعلىٰ (٤٠٨٤)، وابن حبان (٥٠).
(٧) سقط من (ز)، وفي «الشُّعب»: «بينا أنا نائم»، والمثبت موافق لما في «البزار».
(٨) الحِلْس: الكِسَاء الذي يَلِي ظَهْر البعير تحت القَتَب، ولَطَّ بالأمر يَلُطُّه لَطًّا: لزمه، والعرب تشبه بالحلس اذا أريد الدلالة علىٰ لزوم الأمر وعدم مفارقته، ومنه قوله ﷺ: كُونوا أحْلاس بُيوتِكم، أي: الزموها. والمعنىٰ: أن جبريل ﷺ لزم مكانه.
(٩) ضعيف: رواه البزار (٥٨ ـ كشف)، وفيه الحارث بن عبيد، قال أبو حاتم: ليس بالقوي يكتب حديثه ولا يحتج بِهِ،

ورواه الحافظ البيهقي في «الدلائل»، عن أبي بكر القاضي، عن أبي جعفر محمَّد بن علي بن دُحَيْم، عن محمَّد بن الحسين بن أبي الحسين، عن سعيد بن منصور... فذكر بسنده مثله، ثم قال: وقال غيره في هذا الحديث في آخره: «**وَلُطَّ دُونِي -أَوْ قَالَ: دُونَ الحِجَابِ- رَفْرَفُ الدُّرِّ وَاليَاقُوتِ**». ثم قال: هكذا رواه الحارث ابن عبيد. ورواه حماد(١) بن سلمة، عن أبي عمران الجَوْني، عن محمَّد بن عمير بن عطارد: أنَّ النَّبيَّ ﷺ كان في ملإٍ من أصحابه، فجاءه جبريلُ، فنكت في ظهره فذهب به إلىٰ الشَّجرة وفيها مثل وَكْري الطير، فقعد في أَحدِهِمَا، وَقَعَدَ جِبْرِيلُ في الآخر، «**فنَشَأَتْ(٢) بِنَا حَتَّىٰ بَلَغَتِ الأُفُقَ، فَلَوْ بَسَطْتُ يَدِي إِلَىٰ السَّمَاءِ لَنِلْتُهَا، فَدُلِّيَ بِسَبَبٍ وَهَبَطَ النُّورُ، فَوَقَعَ جِبْرِيلُ مَغْشِيًّا عَلَيْهِ كَأَنَّهُ حِلْسٌ، فَعَرَفْتُ فَضْلَ خَشْيَتِهِ عَلَىٰ خَشْيَتِي، فَأُوحِيَ إِلَيَّ: نَبِيًّا مَلِكًا أَوْ نَبِيًّا عَبْدًا؟ وَإِلَىٰ الجَنَّةِ مَا أَنْتَ؟ فَأَوْمَأَ إِلَيَّ جِبْرِيلُ وَهُوَ مُضْطَجِعٌ: أَنْ تَوَاضَعْ. قَالَ: قُلْتُ: لَا. بَلْ نَبِيًّا عَبْدًا**»(٣). قلتُ: وهذا إن صحَّ يقتضي أنَّها واقعة غير ليلة الإسراء، فإنه لم يذكر فيها بيتَ المقدس، ولا الصُّعود إلىٰ السَّماء، فهي كائنةٌ غير ما نحن فيه، والله أعلم(٤).

وقال البزَّار أيضًا: حدَّثنا عمرو بن عيسىٰ، حدَّثنا أبو بحر، حدَّثنا شُعْبَة، عن قتادة، عن أنس ﷺ أن محمَّدًا ﷺ رأىٰ ربه ﷻ. هذا غريبٌ(٥).

وقال أبو جعفر بن جرير: حدَّثنا يونس، حدَّثنا عبد الله بن وهب، حدَّثنا يعقوب بن عبد الرحمن الزهري، عن أبيه، عن عبد الرحمن بن هاشم بن عتبة بن أبي وقاص، عن أنس بن مالك قال: لما جاء جبريل إلىٰ رسول الله ﷺ بالبراق فكأنَّها أَمَرَّت ذنبها(٦)، فقال لها جبريل: مه يا براق، فوالله إن رَكِبَكَ مثله(٧). وسار رسول الله ﷺ، فإذا هو بعجوزٍ علىٰ جانب الطريق، فقال: «**مَا هَذِهِ يَا جِبْرِيلُ**»؟ قال: سِرْ يا محمَّد. قال: فسار ما شاء الله أن يسير، فإذا شيء يدعوه متنحيًا عن الطريق يقول: هلمَّ يا محمَّدٍ، فقال له جبريل: سِرْ يا محمَّد، فسار ما شاء الله أن يسير، قال: فلقيه خلق مِن الخلق فقالوا: السَّلام عليك يا أَوَّلُ، السلام عليك يا آخِرُ، السلام عليك يا حَاشِرُ، فقال له جبريل: اردد السلام يا محمَّد، فردَّ السَّلام، ثم لَقِيَه الثانية فقال له: مثل مقالته الأولىٰ، ثم الثالثة كذلك، حتىٰ انتهىٰ إلىٰ بيت المقدس. فعرض عليه الماء والخمر واللبن، فتناول رسول الله ﷺ اللبن، فقال له جبريل: أصبت الفطرة، ولو شربت الماء لَغَرِقْتَ وغَرِقَتْ أُمَّتُك، ولو شَرِبْتَ الخمرَ لَغَوَيْتَ ولَغَوَتْ أُمَّتُكَ. ثم بعث له آدم فمن دونه من الأنبياء -عليهم السلام- فأَمَّهم رسول الله ﷺ تلك الليلة. ثم قال له جبريل: أَمَّا العجوز التي رأيت علىٰ جانب الطَّريق، فلم يبقَ من الدنيا إلا ما بَقِيَ من عُمُرِ تلك العجوز، وأَمَّا الذي أراد أن تميل إليه، فذاكَ عدُوُّ الله إبليسَ أراد أن تَمِيلَ إليه، وأَمَّا الذين سلَّموا

= وقال النسائي: ليس بذاك القوي، وقال ابن معين: ضعيف الحديث (انظر: «تهذيب الكمال»:٥/ ٣٦٠).

(١) في (ز): «ابن حماد بن سلمة»، وهو خطأ.

(٢) أي: ارتفعت بهم.

(٣) **ضعيف**: رواه البيهقي في «الدلائل» (٢/ ٣٦٨-٣٦٩)، وانظر الحديث السابق.

(٤) لوحة (١١٥ ب).

(٥) رواه البزار (٧١٦٥).

(٦) أي: لوته وحركته.

(٧) أي: ما ركبك مثله.

عليك فإبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ -عليهم الصلاة والسلام-[(١)]. وهكذا رواه الحافظ البيهقي في «دلائل النبوة» من حديث ابن وهب، وفي بعض ألفاظه نكارةٌ وغرابةٌ.

- طريق أخرىٰ عن أنس بن مالك:

وفيها غرابةٌ ونكارةٌ جدًّا، وهي في «سنن النسائي المجتبىٰ»، ولم أرها في «الكبير» قال: أخبرنا عمرو بن هشام، حدَّثنا مَخْلَدٌ -هو ابن الحسين- عن سعيد بن عبد العزيز، حدَّثنا يزيد ابن أبي مالك، حدَّثنا أنس بن مالك: أن رسول الله ﷺ قال: «أُتِيتُ بِدَابَّةٍ فَوْقَ الحِمَارِ وَدُونَ البَغْلِ، خَطْوُهَا عِنْدَ مُنْتَهَىٰ طَرْفِهَا، فَرَكِبْتُ وَمَعِي جِبْرِيلُ عليه السلام فَسِرْتُ فَقَالَ: انْزِلْ فَصَلِّ. فَصَلَّيْتُ، فَقَالَ[(٢)]: أَتَدْرِي أَيْنَ صَلَّيْتَ؟ [صَلَّيْتَ بِطَيْبَةَ وَإِلَيْهَا المُهَاجَرُ[(٣)]، ثُمَّ قَالَ: انْزِلْ فَصَلِّ، فَصَلَّيْتُ، فَقَالَ: أَتَدْرِي أَيْنَ صَلَّيْتَ؟][(٤)] صَلَّيْتَ بِطُورِ سَيْنَاءَ، حَيْثُ كَلَّمَ اللهُ مُوسَىٰ، ثُمَّ قَالَ: انْزِلْ فَصَلِّ، فَصَلَّيْتُ، فَقَالَ: أَتَدْرِي أَيْنَ صَلَّيْتَ. صَلَّيْتَ بِبَيْتَ لَحْمٍ، حَيْثُ وُلِدَ عِيسَىٰ عليه السلام، ثُمَّ دَخَلْتُ بَيْتَ المَقْدِسِ فَجُمِعَ لِيَ الأَنْبِيَاءُ -عَلَيْهِمُ السَّلَامُ- فَقَدَّمَنِي جِبْرِيلُ حَتَّىٰ أَمَمْتُهُمْ [ثُمَّ صُعِدَ بِي إِلَىٰ السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَإِذَا فِيهَا آدَمُ عليه السلام][(٥)] ثُمَّ صُعِدَ بِي إِلَىٰ السَّمَاءِ الثَّانِيَةِ، فَإِذَا فِيهَا ابْنَا الخَالَةِ: عِيسَىٰ وَيَحْيَىٰ -عَلَيْهِمَا السَّلَامُ- ثُمَّ صُعِدَ بِي إِلَىٰ السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ، فَإِذَا فِيهَا يُوسُفُ عليه السلام، ثُمَّ صُعِدَ بِي إِلَىٰ السَّمَاءِ الرَّابِعَةِ، فَإِذَا فِيهَا هَارُونُ عليه السلام، ثُمَّ صُعِدَ بِي إِلَىٰ السَّمَاءِ الخَامِسَةِ، فَإِذَا فِيهَا إِدْرِيسُ عليه السلام، ثُمَّ صُعِدَ بِي إِلَىٰ السَّمَاءِ السَّادِسَةِ، فَإِذَا فِيهَا مُوسَىٰ عليه السلام. ثُمَّ صُعِدَ بِي إِلَىٰ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، فَإِذَا فِيهَا إِبْرَاهِيمُ عليه السلام، ثُمَّ صُعِدَ بِي فَوْقَ سَبْعِ سَمَوَاتٍ وَأَتَيْتُ سِدْرَةَ المُنْتَهَىٰ، فَغَشِيَتْنِي ضَبَابَةٌ فَخَرَرْتُ[(٦)] سَاجِدًا، فَقِيلَ لِي: إِنِّي يَوْمَ خَلَقْتُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ، فَرَضْتُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَّتِكَ خَمْسِينَ صَلَاةً، فَقُمْ بِهَا أَنْتَ وَأُمَّتُكَ [فَرَجَعْتُ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ فَلَمْ يَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ، ثُمَّ أَتَيْتُ مُوسَىٰ فَقَالَ: كَمْ فَرَضَ اللهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَّتِكَ؟][(٧)] قُلْتُ: خَمْسِينَ صَلَاةً. قَالَ: فَإِنَّكَ لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَقُومَ بِهَا، لَا أَنْتَ وَلَا أُمَّتُكَ، فَارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ، فَرَجَعْتُ إِلَىٰ رَبِّي فَخَفَّفَ عَنِّي عَشْرًا، ثُمَّ أَتَيْتُ مُوسَىٰ فَأَمَرَنِي بِالرُّجُوعِ، فَرَجَعْتُ فَخَفَّفَ عَنِّي عَشْرًا، ثُمَّ رُدَّتْ إِلَي خَمْسِ صَلَوَاتٍ، قَالَ: فَارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ، فَإِنَّهُ فَرَضَ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ صَلَاتَيْنِ، فَمَا قَامُوا بِهِمَا. فَرَجَعْتُ إِلَىٰ رَبِّي عز وجل فَسَأَلْتُهُ التَّخْفِيفَ، فَقَالَ: إِنِّي يَوْمَ خَلَقْتُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فَرَضْتُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَّتِكَ [خَمْسِينَ صَلَاةً][(٨)]، فَخَمْسٌ بِخَمْسِينَ، فَقُمْ بِهَا أَنْتَ وَأُمَّتُكَ. فَعَرَفْتُ أَنَّهَا مِنَ اللهِ عز وجل صِرَّىٰ فَرَجَعْتُ إِلَىٰ مُوسَىٰ عليه السلام

---

(١) رواه ابن جرير (١٥/ ٦)، والبيهقي في «الدلائل» (٢/ ٣٦٢)، ورجاله ثقات عدا عبد الرحمن بن هاشم لم أقف على ترجمةٍ له، وقال ابن كثير: وفي بعض ألفاظه نكارة وغرابة.

(٢) لوحة (١١٦ أ).

(٣) المُهَاجَر: بمعنىٰ المُهاجرة، وطيبة: هي مدينة النبي ﷺ.

(٤) ما بين المعقوفتين سقط من (ز)، وهو مثبت من «المجتبىٰ».

(٥) سقط من (ز)، وهي مثبتة في «المجتبىٰ».

(٦) في (ز): «خررت له»، والمثبت كما في «المجتبىٰ».

(٧) سقط من (ز)، وهي مثبتة في «المجتبىٰ».

(٨) في (ز): «خمس صلوات»، والمثبت كما في «المجتبىٰ».

فَقَالَ: ارْجِعْ، فَعَرَفْتُ أَنَّهَا مِنَ اللهِ صِرًّى(١) -يقول: أَيْ: حَتْمٌ- فَلَمْ أَرْجِعْ»(٢).

- طريق أخرىٰ:

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثني أبي، حدَّثنا هشام بن عمار، حدَّثنا خالد بن يزيد بن أبي مالك، عن أبيه، عن أنس بن مالك ﷺ، قال: لمَّا كان ليلةَ أُسْرِيَ برسول الله ﷺ إلىٰ بيتِ المقدس، أتاهُ جِبْرِيلُ بدابَّةٍ فوق الحمارِ ودُونَ البغل، حمله جبريلُ عليها، ينتهي خفُّها حيث ينتهي طَرْفها. فلما بلغ بيت المقدس وبلغ المكان الذي يقال له: «بابُ محمَّدٍ ﷺ»، أتىٰ إلىٰ الحجر الذي ثَمَّةَ، فغمزَهُ جبريلُ بأُصْبُعِهِ فثقَبَهُ، ثم ربَطَهَا. ثم صعد فلما استويا في صَرْحَة(٣) المسجد، قال جبريل: يا محمَّد، هل سألت ربَّك أن يُرِيَك(٤) الحور العين؟ فقال: «نَعَمْ». فقال: فانطلِقْ إلىٰ أولئك النِّسوة، فسَلِّم عليهنَّ وهُنَّ جلوس عن يسارِ الصَّخرة، قال: «فَأَتَيْتُهُنَّ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِنَّ، فَرَدَدْنَ عَلَيَّ السَّلَامَ، فَقُلْتُ: مَنْ أَنْتُنَّ؟ فَقُلْنَ: نَحْنُ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ، نِسَاءُ قَوْمٍ أَبْرَارٍ، نُقُّوا(٥) فَلَمْ يَدْرَنُوا، وَأَقَامُوا فَلَمْ يَظْعَنُوا، وَخُلِّدُوا فَلَمْ يَمُوتُوا». قال: «ثُمَّ انْصَرَفْتُ، فَلَمْ أَلْبَثْ إِلَّا يَسِيرًا حَتَّىٰ اجْتَمَعَ نَاسٌ كَثِيرٌ، ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ وَأُقِيمَتِ الصَّلَاةُ». قال: «فَقُمْنَا صُفُوفًا نَنْتَظِرُ مَنْ يَؤُمُّنَا، فَأَخَذَ بِيَدِي جِبْرِيلُ عليه السلام فَقَدَّمَنِي فَصَلَّيْتُ بِهِمْ. فَلَمَّا انْصَرَفْتُ قَالَ جِبْرِيلُ: يَا مُحَمَّدُ، أَتَدْرِي مَنْ صَلَّىٰ خَلْفَكَ»؟ قال: «قُلْتُ: لَا. قَالَ: صَلَّىٰ خَلْفَكَ كُلُّ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللهُ ﷻ».

قال: «ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِي جِبْرِيلُ فَصَعِدَ بِي إِلَىٰ السَّمَاءِ، فَلَمَّا انْتَهَيْنَا إِلَىٰ الْبَابِ اسْتَفْتَحَ فَقَالُوا: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: أَنَا جِبْرِيلُ، قَالُوا: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ. قَالُوا: وَقَدْ بُعِثَ؟ قَالَ: نَعَمْ». قال: «فَفَتَحُوا لَهُ وَقَالُوا: مَرْحَبًا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ». قال: «فَلَمَّا اسْتَوَىٰ عَلَىٰ ظَهْرِهَا إِذَا فِيهَا آدَمُ، فَقَالَ لِي جِبْرِيلُ: يَا مُحَمَّدُ، أَلَا تُسَلِّمُ عَلَىٰ أَبِيكَ آدَمَ؟». قال: «قُلْتُ: بَلَىٰ، فَأَتَيْتُهُ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَرَدَّ عَلَيَّ وَقَالَ: مَرْحَبًا بِابْنِي وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ». قال: «ثُمَّ عَرَجَ بِي إِلَىٰ السَّمَاءِ الثَّانِيَةِ فَاسْتَفْتَحَ، قَالُوا: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قَالُوا: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ. قَالُوا: وَقَدْ بُعِثَ؟ قَالَ: نَعَمْ، فَفَتَحُوا لَهُ وَقَالُوا: مَرْحَبًا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ، فَإِذَا فِيهَا عِيسَىٰ وَابْنُ خَالَتِهِ يَحْيَىٰ -عَلَيْهِمَا السَّلَامُ-». قال: «ثُمَّ عَرَجَ بِي إِلَىٰ السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ فَاسْتَفْتَحَ، قَالُوا: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: جِبْرِيلُ. قَالُوا: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ. قَالُوا: وَقَدْ بُعِثَ؟ قَالَ: نَعَمْ. فَفَتَحُوا وَقَالُوا: مَرْحَبًا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ، فَإِذَا فِيهَا يُوسُفُ عليه السلام ثُمَّ عَرَجَ بِي إِلَىٰ السَّمَاءِ الرَّابِعَةِ فَاسْتَفْتَحَ، قَالُوا: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: جِبْرِيلُ؟ قَالُوا: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ. قَالُوا: وَقَدْ بُعِثَ؟ قَالَ: نَعَمْ. فَفَتَحُوا وَقَالُوا: مَرْحَبًا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ، فَإِذَا فِيهَا إِدْرِيسُ عليه السلام». قال: «فَعَرَجَ بِي إِلَىٰ السَّمَاءِ الْخَامِسَةِ، فَاسْتَفْتَحَ، قَالُوا: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: جِبْرِيلُ. قَالُوا: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ. قَالُوا: وَقَدْ بُعِثَ؟ قَالَ:

---

(١) صِرًّى: أي عزيمة باقية لا تقبل النسخ.

(٢) النسائي (١/ ٢٢١) وفيه يزيد بن عبد الرحمن بن أبي مالك الدمشقي: صدوق يخطئ كثيرًا، وكان يدلس، وشيخه سعيد بن عبد العزيز التنوخي: ثقة لكنَّه اختلط في آخر عمره، وقال ابن كثير: وفيها غرابةٌ ونكارةٌ جدًّا.

(٣) صرحة المسجد: ساحته. (٤) لوحة (١١٦ ب). (٥) أي: طهروا.

نَعَمْ. قَالَ: فَفَتَحُوا وَقَالُوا: مَرْحَبًا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ فَإِذَا فِيهَا هَارُونُ عَلَيْهِ السَّلَامُ». قال: «ثُمَّ عَرَجَ بِي إِلَىٰ السَّمَاءِ السَّادِسَةِ فَاسْتَفْتَحَ، قَالُوا: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: جِبْرِيلُ. قَالُوا: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ. قَالُوا: وَقَدْ بُعِثَ؟ قَالَ: نَعَمْ. فَفَتَحُوا وَقَالُوا: مَرْحَبًا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ، فَإِذَا فِيهَا [مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ. ثُمَّ عَرَجَ بِي إِلَىٰ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ، فَقَالُوا: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: جِبْرِيلُ. قَالُوا: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ. قَالُوا: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ. فَفَتَحُوا لَهُ وَقَالُوا: مَرْحَبًا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ، فَإِذَا فِيهَا] (١) إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ. فَقَالَ جِبْرِيلُ: يَا مُحَمَّدُ، أَلَا تُسَلِّمُ عَلَىٰ أَبِيكَ إِبْرَاهِيمَ؟ قَالَ: قُلْتُ: بَلَىٰ. فَأَتَيْتُهُ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَرَدَّ عَلَيَّ السَّلَامَ وَقَالَ: مَرْحَبًا بِكَ يَا بُنَيَّ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ، ثُمَّ انْطَلَقَ بِي عَلَىٰ (٢) ظَهْرِ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، حَتَّىٰ انْتَهَىٰ [بِي] (٣) إِلَىٰ نَهْرٍ عَلَيْهِ خِيَامُ اليَاقُوتِ وَاللُّؤْلُؤِ وَالزَّبَرْجَدِ، وَعَلَيْهِ طَيْرٌ خُضْرٌ أَنْعَمُ طَيْرٍ رَأَيْتُ. فَقُلْتُ: يَا جِبْرِيلُ، إِنَّ هَذَا الطَّيْرَ لَنَاعِمٌ، قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، آكِلُهُ أَنْعَمُ مِنْهُ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أَتَدْرِي أَيُّ نَهْرٍ هَذَا؟» قال: «قُلْتُ: لَا. قَالَ: هَذَا الكَوْثَرُ الَّذِي أَعْطَاكَ اللهُ إِيَّاهُ. فَإِذَا فِيهِ آنِيَةُ الذَّهَبِ وَالفِضَّةِ، يَجْرِي عَلَىٰ رَضْرَاضٍ (٤) مِنَ اليَاقُوتِ وَالزُّمُرُّدِ، مَاؤُهُ أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ اللَّبَنِ» قال: «فَأَخَذْتُ مِنْهُ آنِيَةً مِنَ الذَّهَبِ، فَاغْتَرَفْتُ مِنْ ذَلِكَ المَاءِ فَشَرِبْتُ، فَإِذَا هُوَ أَحْلَىٰ مِنَ العَسَلِ، وَأَشَدُّ رَائِحَةً مِنَ المِسْكِ، ثُمَّ انْطَلَقَ بِي حَتَّىٰ انْتَهَيْتُ إِلَىٰ الشَّجَرَةِ، فَغَشِيَتْنِي سَحَابَةٌ فِيهَا مِنْ كُلِّ لَوْنٍ، فَرَفَضَنِي (٥) جِبْرِيلُ، وَخَرَرْتُ سَاجِدًا للهِ عَزَّ وَجَلَّ فَقَالَ اللهُ لِي: يَا مُحَمَّدُ، إِنِّي يَوْمَ خَلَقْتُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فَرَضْتُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَّتِكَ خَمْسِينَ صَلَاةً، فَقُمْ بِهَا أَنْتَ وَأُمَّتُكَ». قال: «ثُمَّ انْجَلَتْ عَنِّي السَّحَابَةُ وَأَخَذَ بِيَدِي جِبْرِيلُ، فَانْصَرَفْتُ سَرِيعًا فَأَتَيْتُ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ فَلَمْ يَقُلْ لِي شَيْئًا، ثُمَّ أَتَيْتُ عَلَىٰ مُوسَىٰ فَقَالَ: مَا صَنَعْتَ يَا مُحَمَّدُ؟ فَقُلْتُ: فَرَضَ رَبِّي عَلَيَّ وَعَلَىٰ أُمَّتِي خَمْسِينَ صَلَاةً. قَالَ: فَلَنْ تَسْتَطِيعَهَا أَنْتَ وَلَا أُمَّتُكَ، فَارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكَ. فَرَجَعْتُ سَرِيعًا حَتَّىٰ انْتَهَيْتُ إِلَىٰ الشَّجَرَةِ، فَغَشِيَتْنِي السَّحَابَةُ، وَرَفَضَنِي جِبْرِيلُ وَخَرَرْتُ سَاجِدًا وَقُلْتُ: رَبِّ، إِنَّكَ فَرَضْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ أُمَّتِي خَمْسِينَ صَلَاةً، وَلَنْ أَسْتَطِيعَهَا أَنَا وَلَا أُمَّتِي، فَخَفِّفْ عَنَّا. قَالَ: قَدْ وَضَعْتُ عَنْكُمْ عَشْرًا، قَالَ: ثُمَّ انْجَلَتْ عَنِّي السَّحَابَةُ، وَأَخَذَ بِيَدِي جِبْرِيلُ وَانْصَرَفْتُ سَرِيعًا حَتَّىٰ أَتَيْتُ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ فَلَمْ يَقُلْ لِي شَيْئًا، ثُمَّ أَتَيْتُ عَلَىٰ مُوسَىٰ، فَقَالَ لِي: مَا صَنَعْتَ يَا مُحَمَّدُ؟ فَقُلْتُ: وَضَعَ رَبِّي عَنِّي عَشْرًا، فَقَالَ: أَرْبَعُونَ صَلَاةً؟! لَنْ تَسْتَطِيعَهَا أَنْتَ وَلَا أُمَّتُكَ، فَارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ -فذكر الحديث كذلك إلىٰ خمسِ صلواتٍ، وخمسٍ بخمسين، ثم أمره موسىٰ أن يرجع فيسأل التخفيف، فقلت: «إِنِّي قَدْ اسْتَحْيَيْتُ مِنْهُ تَعَالَىٰ». قال: ثم انحدر، فقال رسول الله ﷺ لجبريل: «مَا لِي لَمْ آتِ عَلَىٰ سَمَاءٍ إِلَّا رَحَّبُوا بِي وَضَحِكُوا إِلَيَّ، غَيْرَ رَجُلٍ وَاحِدٍ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَرَدَّ عَلَيَّ السَّلَامَ فَرَحَّبَ بِي وَلَمْ يَضْحَكْ إِلَيَّ». قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، ذَاكَ مَالِكٌ خَازِنُ جَهَنَّمَ لَمْ يَضْحَكْ مُنْذُ خُلِقَ، وَلَوْ ضَحِكَ إِلَىٰ أَحَدٍ لَضَحِكَ إِلَيْكَ قال: ثم رَكِب منصرفًا، فبينا هو في بعض طريقه مرَّ بعيرٍ لقريشٍ تحمل طعامًا، منها جملٌ عليه غِرارتان: غِرارة سوداء، وغرارة بيضاء، فلمَّا

---

(١) ليست في (ز).
(٢) لوحة (١١٧ أ).
(٣) سقط من (ز).
(٤) الرَّضْرَاض: الحصىٰ الصغار.
(٥) أي: تركني.

حاذئ بالعير نفرت منه واستدارت، وصُرِعَ ذلك البعير وانكسر. ثم إنَّه مضىٰ فأصبح، فأخبر عما كان، فلما سمع المشركون قولَهُ أتَوْا أبا بكر فقالوا: يا أبا بكر[١]، هل لك في صاحبك؟ يخبر أنه أتىٰ في ليلتِهِ هذه مسيرة شهر، ثم رجع في ليلته، فقال أبو بكر ﷺ: إن كان قاله فقد صدق، وإنَّا لَنُصَدِّقُه فيما هو أبعد من هذا، نُصَدِّقُه علىٰ خبر السَّماء، فقال المشركون لرسول الله ﷺ: ما علامة ما تقول؟ قال: «مَرَرْتُ بِعِيرٍ لِقُرَيْشٍ، وَهِيَ فِي مَكَانِ كَذَا وَكَذَا، فَنَفَرَتِ العِيرُ مِنَّا وَاسْتَدَارَتْ، وَفِيهَا [بَعِيرٌ عَلَيْهِ][٢] غُرَارَتَانِ: غُرَارَةٌ سَوْدَاءُ، وَغُرَارَةٌ بَيْضَاءُ، فَصُرِعَ فَانْكَسَرَ». فلمَّا قدمت العير سألوهم، فأخبروهم الخبر علىٰ مثل ما حدَّثهم النَّبيُّ ﷺ ومن ذلك سُمِّي أبو بكر: الصديقَ. وسألوه وقالوا: هل كان معك فيمن حضر موسىٰ وعيسىٰ؟ قال: «نَعَمْ». قالوا: فصِفْهُمْ. قال: «نَعَم، أَمَّا مُوسَىٰ فَرَجُلٌ آدَمُ، كَأَنَّهُ مِنْ رِجَالِ أَزْدِ عُمَانَ، وَأَمَّا عِيسَىٰ فَرَجُلٌ رَبْعَةٌ، سَبْطٌ، تَعْلُوهُ حُمْرَةٌ كَأَنَّمَا يَتَحَادَرُ مِنْ شَعْرِهِ الجُمَانُ[٣]»[٤].

هذا سياق فيه غرائب عجيبة.

- رواية أنس ﷺ عن مالك بن صَعْصَعَة:

قال الإمام أحمد: حدَّثنا عفان، حدَّثنا همَّام، قال: سمعت قتادة يحدِّث عن أنس بن مالك: أنَّ مالك بن صعصعة حدَّثه: أنَّ نبي الله ﷺ حدَّثهم عن ليلة أسري به، قال: «بَيْنَمَا أَنَا فِي الحَطِيمِ -وربَّما قال قتادة: فِي الحِجْرِ- مُضْطَجِعًا إِذْ أَتَانِي آتٍ فَجَعَلَ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ الأَوْسَطُ بَيْنَ الثَّلاثَةِ» قَالَ: «فَأَتَانِي فَقَدَّ -وسمعت قتادة يقول:- فَشَقَّ مَا بَيْنَ هَٰذِهِ إِلَىٰ هَٰذِهِ». وقال قتادة: فقلت للجارود وهو إلىٰ جنبي: ما يعني؟ قال: من ثغرة نحره إلىٰ شِعْرته، وقد سمعته يقول: من قَصَّته[٥] إلىٰ شِعْرته قال: «فَاسْتَخْرَجَ قَلْبِي» قال: «فَأُتِيتُ بِطَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ مَمْلُوءَةٍ إِيمَانًا وَحِكْمَةً فَغُسِلَ قَلْبِي ثُمَّ حُشِيَ، ثُمَّ أُعِيدَ. ثُمَّ أُتِيتُ بِدَابَّةٍ دُونَ البَغْلِ وَفَوْقَ الحِمَارِ أَبْيَض» قال: فقال الجارود: وهو البراق يا أبا حمزة؟ قال: نعم، يقع خطوه عند أقصىٰ طَرْفه. قال: «فَحُمِلْتُ عَلَيْهِ، فَانْطَلَقَ بِي جِبْرِيلُ ﷺ حَتَّىٰ أَتَىٰ بِي إِلَىٰ السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَاسْتَفْتَحَ فَقِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ. قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ. قِيلَ: أَوَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، فَقِيلَ: مَرْحَبًا بِهِ، وَلَنِعْمَ المَجِيءُ جَاءَ» قال: «فَفُتِحَ فَلَمَّا خَلَصْتُ، فَإِذَا فِيهَا آدَمُ ﷺ فَقَالَ: هَذَا أَبُوكَ آدَمُ، فَسَلِّمْ عَلَيْهِ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَرَدَّ السَّلَامَ، ثُمَّ قَالَ: مَرْحَبًا بِالابْنِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ. ثُمَّ صَعِدَ حَتَّىٰ أَتَىٰ السَّمَاءَ الثَّانِيَةَ، فَاسْتَفْتَحَ فَقِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ. قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ. قِيلَ: أَوَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، قِيلَ: مَرْحَبًا بِهِ وَلَنِعْمَ المَجِيءُ جَاءَ»، قال: «فَفُتِحَ، فَلَمَّا خَلَصْتُ، فَإِذَا يَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَهُمَا ابْنَا الخَالَةِ. قَالَ: هَذَا يَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ، فَسَلِّمْ عَلَيْهِمَا، قَالَ: فَسَلَّمْتُ فَرَدَّا

---

(١) لوحة (١١٧ ب). (٢) سقطت من (ز). (٣) الجُمان: اللؤلؤ.

(٤) عزاه المصنِّف لابن أبي حاتم، وفيه خالد بن يزيد بن عبد الرحمن بن أبي مالك: ضعيف، وأبوه: صدوق له أوهام؛ ولذا قال ابن كثير بعده: هذا سياق فيه غرائب عجيبة.

(٥) القَصُّ والقَصَصُ: عَظْم الصَّدْر المَغْرُوزُ فيه شراسيفُ الأضلاع في وسَطِه. «النهاية»، والشراسيف واحدها شُرسُوف، وهي أطراف أضلاع الصدر التي تشرف علىٰ البطن.

السَّلَامَ ثُمَّ قَالَا: مَرْحَبًا بِالأَخِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ[(١)]. ثُمَّ صَعِدَ حَتَّىٰ أَتَىٰ السَّمَاءَ الثَّالِثَةَ فَاسْتَفْتَحَ، فَقِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ. قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ. قِيلَ: أَوَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ. قِيلَ: مَرْحَبًا بِهِ وَلَنِعْمَ المَجِيءُ جَاءَ». قال: «فَفُتِحَ فَلَمَّا خَلَصْتُ، فَإِذَا يُوسُفُ[(٢)] عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: هَذَا يُوسُفُ»[(٣)] قال: «فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَرَدَّ السَّلَامَ ثُمَّ قَالَ: مَرْحَبًا بِالأَخِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ». قال: «ثُمَّ صَعِدَ حَتَّىٰ أَتَىٰ السَّمَاءَ الرَّابِعَةَ، فَاسْتَفْتَحَ، فَقِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ. قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ. قِيلَ: أَوَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ. قِيلَ: مَرْحَبًا بِهِ، وَلَنِعْمَ المَجِيءُ جَاءَ» قال: «فَفُتِحَ فَلَمَّا خَلَصْتُ فَإِذَا إِدْرِيسُ، قَالَ: هَذَا إِدْرِيسُ [فَسَلِّمْ عَلَيْهِ][(٤)]». قال: «فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ. فَرَدَّ السَّلَامَ، [ثُمَّ][(٥)] قَالَ: مَرْحَبًا بِالأَخِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ» قال: «ثُمَّ صَعِدَ حَتَّىٰ أَتَىٰ السَّمَاءَ الخَامِسَةَ فَاسْتَفْتَحَ، فَقِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ. قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ. قِيلَ: أَوَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ. قِيلَ: مَرْحَبًا بِهِ وَلَنِعْمَ المَجِيءُ جَاءَ». [قال: «فَفُتِحَ][(٦)]، فَلَمَّا خَلَصْتُ، فَإِذَا هَارُونُ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: هَذَا هَارُونُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ. قَالَ: فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَرَدَّ السَّلَامَ، ثُمَّ قَالَ: مَرْحَبًا بِالأَخِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ» قال: «ثُمَّ صَعِدَ حَتَّىٰ أَتَىٰ السَّمَاءَ السَّادِسَةَ فَاسْتَفْتَحَ، فَقِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ. قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ. قِيلَ: أَوَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ. قِيلَ: مَرْحَبًا بِهِ وَلَنِعْمَ المَجِيءُ جَاءَ. فَفُتِحَ، فَلَمَّا خَلَصْتُ، فَإِذَا أَنَا بِمُوسَىٰ، قَالَ: هَذَا مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ [فَسَلِّمْ عَلَيْهِ][(٧)]، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَرَدَّ السَّلَامَ ثُمَّ قَالَ: مَرْحَبًا بِالأَخِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ». قال: «فَلَمَّا تَجَاوَزْتُهُ بَكَىٰ. قِيلَ لَهُ: مَا يُبْكِيكَ؟ قَالَ: أَبْكِي لِأَنَّ غُلَامًا بُعِثَ بَعْدِي، يَدْخُلُ الجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِهِ أَكْثَرُ مِمَّا يَدْخُلُهَا مِنْ أُمَّتِي» قال: «ثُمَّ صَعِدَ حَتَّىٰ أَتَىٰ السَّمَاءَ السَّابِعَةَ فَاسْتَفْتَحَ، قِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ. قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ. قِيلَ: أَوَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ. قِيلَ: مَرْحَبًا بِهِ وَلَنِعْمَ المَجِيءُ جَاءَ». قال: «فَفُتِحَ، فَلَمَّا خَلَصْتُ، فَإِذَا إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ: هَذَا إِبْرَاهِيمُ، فَسَلِّمْ عَلَيْهِ». قال: «فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَرَدَّ السَّلَامَ، ثُمَّ قَالَ: مَرْحَبًا بِالِابْنِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ» قال: «ثُمَّ رُفِعْتُ إِلَىٰ سِدْرَةِ المُنْتَهَىٰ فَإِذَا نَبِقُهَا مِثْلُ قِلَالِ هَجَرَ، وَإِذَا وَرَقُهَا مِثْلُ آذَانِ الفِيَلَةِ، فَقَالَ: هَذِهِ سِدْرَةُ المُنْتَهَىٰ». قال: «وَإِذَا أَرْبَعَةُ أَنْهَارٍ: نَهْرَانِ بَاطِنَانِ وَنَهْرَانِ ظَاهِرَانِ، فَقُلْتُ: مَا هَذَا يَا جِبْرِيلُ؟ قَالَ: أَمَّا البَاطِنَانِ: فَنَهْرَانِ فِي الجَنَّةِ، وَأَمَّا الظَّاهِرَانِ: فَالنِّيلُ وَالفُرَاتُ» قال: ثم رفع إلىٰ البيت المعمور.

قال قتادة: وحدَّثني الحسن، عن أبي هريرة، عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه رأىٰ البيت المعمور يدخله كل يوم سبعون ألف ملك، ثم لا يعودون فيه، ثمَّ رجع إلىٰ حديث أنس [قال: «ثُمَّ][(٨)] أُتِيتُ بِإِنَاءٍ مِنْ خَمْرٍ وَإِنَاءٍ مِنْ لَبَنٍ وَإِنَاءٍ مِنْ عَسَلٍ». قال: «فَأَخَذْتُ اللَّبَنَ، قَالَ: هَذِهِ الفِطْرَةُ وَأَنْتَ عَلَيْهَا وَأُمَّتُكَ» قال: «ثُمَّ فُرِضَتِ الصَّلَاةُ[(٩)]

---

(١) لوحة (١١٨ أ).

(٢) في (ز): «إدريس». وكتب في الحاشية: «لعله يوسف». وهذا هو الصواب، كما في «المسند» وغيره.

(٣) في (ز): «إدريس». وكتب في الحاشية: «لعله يوسف». وهذا هو الصواب، كما في «المسند» وغيره.

(٤) سقط من (ز)، وهي مثبتة في «المسند».

(٥) سقط من (ز)، وهي مثبتة في «المسند».

(٦) سقط من (ز)، وهو مثبت من «المسند».

(٧) سقط من (ز)، وهو مثبت من «المسند».

(٨) سقط من (ز)، وهو مثبت من «المسند».

(٩) لوحة (١١٨ ب).

خَمْسِينَ صَلاةً كُلَّ يَوْمٍ». قال: «فَنَزَلْتُ حَتَّىٰ انْتَهَيْتُ إِلَىٰ مُوسَىٰ، قَالَ: مَا فَرَضَ رَبُّكَ عَلَىٰ أُمَّتِكَ؟». قال: «قُلْتُ: خَمْسِينَ صَلاةً كُلَّ يَوْمٍ، قَالَ: إِنَّ أُمَّتَكَ لا تَسْتَطِيعُ خَمْسِينَ صَلاةً، وَإِنِّي قَدْ خَبَرْتُ النَّاسَ قَبْلَكَ، وَعَالَجْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَشَدَّ المُعَالَجَةِ، فَارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ عَنْ أُمَّتِكَ». قال: «فَرَجَعْتُ فَوَضَعَ عَنِّي عَشْرًا، قَالَ: فَرَجَعْتُ إِلَىٰ مُوسَىٰ، فَقَالَ: بِمَ أُمِرْتَ؟ قُلْتُ: بِأَرْبَعِينَ صَلاةً كُلَّ يَوْمٍ. قَالَ: إِنَّ أُمَّتَكَ لا تَسْتَطِيعُ أَرْبَعِينَ صَلاةً كُلَّ يَوْمٍ، وَإِنِّي قَدْ خَبَرْتُ النَّاسَ قَبْلَكَ وَعَالَجْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَشَدَّ المُعَالَجَةِ، فَارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ لِأُمَّتِكَ. قَالَ: فَرَجَعْتُ فَوَضَعَ عَنِّي عَشْرًا أُخَرَ. فَرَجَعْتُ إِلَىٰ مُوسَىٰ فَقَالَ: بِمَ أُمِرْتَ؟ فَقُلْتُ: أُمِرْتُ بِثَلاثِينَ صَلاةً. قَالَ: إِنَّ أُمَّتَكَ لا تَسْتَطِيعُ ثَلاثِينَ صَلاةً كُلَّ يَوْمٍ، وَإِنِّي قَدْ خَبَرْتُ النَّاسَ قَبْلَكَ، وَعَالَجْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَشَدَّ المُعَالَجَةِ، فَارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ لِأُمَّتِكَ». قال: «فَرَجَعْتُ فَوَضَعَ عَنِّي عَشْرًا أُخَرَ، فَرَجَعْتُ إِلَىٰ مُوسَىٰ فَقَالَ: بِمَ أُمِرْتَ؟ قُلْتُ: بِعِشْرِينَ صَلاةً كُلَّ يَوْمٍ. فَقَالَ: إِنَّ أُمَّتَكَ لا تَسْتَطِيعُ لِعِشْرِينَ صَلاةً كُلَّ يَوْمٍ، وَإِنِّي قَدْ خَبَرْتُ النَّاسَ قَبْلَكَ، وَعَالَجْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَشَدَّ المُعَالَجَةِ، فَارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ [لِأُمَّتِكَ][(١)]». قال: «فَرَجَعْتُ فَوَضَعَ عَنِّي عَشْرًا أُخَرَ، فَرَجَعْتُ إِلَىٰ مُوسَىٰ فَقَالَ: بِمَ أُمِرْتَ؟ فَقُلْتُ: أُمِرْتُ بِعَشْرِ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ، فَقَالَ: إِنَّ أُمَّتَكَ لا تَسْتَطِيعُ لِعَشْرِ صَلَوَاتٍ كُلَّ يَوْمٍ، وَإِنِّي قَدْ خَبَرْتُ النَّاسَ قَبْلَكَ، وَعَالَجْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَشَدَّ المُعَالَجَةِ، فَارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ لِأُمَّتِكَ». قال: «فَرَجَعْتُ فَأُمِرْتُ بِخَمْسِ صَلَوَاتٍ كُلَّ يَوْمٍ، فَرَجَعْتُ إِلَىٰ مُوسَىٰ فَقَالَ: بِمَ أُمِرْتَ؟ فَقُلْتُ: أُمِرْتُ بِخَمْسِ صَلَوَاتٍ كُلَّ يَوْمٍ، فَقَالَ: إِنَّ أُمَّتَكَ لا تَسْتَطِيعُ لِخَمْسِ صَلَوَاتٍ كُلَّ يَوْمٍ وَإِنِّي قَدْ خَبَرْتُ النَّاسَ قَبْلَكَ وَعَالَجْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَشَدَّ المُعَالَجَةِ، فَارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ لِأُمَّتِكَ». قال: «قُلْتُ: لَقَدْ سَأَلْتُ رَبِّي ﷻ حَتَّىٰ اسْتَحْيَيْتُ، وَلَكِنْ[(٢)] أَرْضَىٰ وَأُسَلِّمُ. فَنَفَذْتُ، فَنَادَانِي مُنَادٍ: قَدْ أَمْضَيْتُ فَرِيضَتِي وَخَفَّفْتُ عَنْ عِبَادِي»[(٣)].

وأخرجاه في «الصحيحين» من حديث قتادة بنحوه.

- رواية أنس، عن أبي ذرٍّ:

قال البخاري: حدَّثنا يحيىٰ بن بُكَير، حدَّثنا الليث، عن يونس، عن ابن شهاب، عن أنس بن مالك قال: كان أبو ذر ﵁ يحدِّث أنَّ رسول الله ﷺ قال: «فُرِجَ سَقْفُ بَيْتِي وَأَنَا بِمَكَّةَ، فَنَزَلَ جِبْرِيلُ فَفَرَجَ[(٤)] صَدْرِي [ثُمَّ غَسَلَهُ بِمَاءِ زَمْزَمَ، ثُمَّ جَاءَ بِطَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ مُمْتَلِئٍ حِكْمَةً وَإِيمَانًا، فَأَفْرَغَهُ فِي صَدْرِي][(٥)]، ثُمَّ أَطْبَقَهُ، ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِي فَعَرَجَ بِي إِلَىٰ السَّمَاءِ، فَلَمَّا جِئْتُ إِلَىٰ السَّمَاءِ [الدُّنْيَا][(٦)] قَالَ جِبْرِيلُ لِخَازِنِ السَّمَاءِ[(٧)]: افْتَحْ، قَالَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قَالَ: هَلْ مَعَكَ أَحَدٌ؟ قَالَ: نَعَمْ، مَعِي مُحَمَّدٌ، قَالَ: أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ. فَلَمَّا فُتِحَ

---

(١) سقط من (ز)، وهو مثبت من «المسند».

(٢) في (ز): «ولكني»، والمثبت موافق لما في «المسند».

(٣) البخاري (٣٢٠٧)، ومسلم (١٦٤)، والترمذي (٣٣٤٣)، والنسائي (١/ ٢١٧)، وأحمد (٤/ ٢٠٨).

(٤) في (ز): «ففرج في صدري»، والمثبت موافق لما في «البخاري».

(٥) سقط من (ز)، وهي مثبتة في «البخاري».

(٦) سقط من (ز)، وهي مثبتة في «البخاري».

(٧) لوحة (١١٩ أ).

عَلَوْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا وَإِذَا رَجُلٌ قَاعِدٌ عَلَىٰ يَمِينِهِ أَسْوِدَةٌ(١) وَعَلَىٰ يَسَارِهِ أَسْوِدَةٌ، فَإِذَا نَظَرَ قِبَلَ يَمِينِهِ ضَحِكَ، وَإِذَا نَظَرَ قِبَلَ شِمَالِهِ بَكَىٰ. فَقَالَ: مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ وَالِابْنِ الصَّالِحِ. قُلْتُ: لِجِبْرِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: هَذَا آدَمُ. وَهَذِهِ الْأَسْوِدَةُ عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ [نَسَمُ](٢)(٣) بَنِيهِ فَأَهْلُ الْيَمِينِ مِنْهُمْ أَهْلُ الْجَنَّةِ، وَالْأَسْوِدَةُ الَّتِي عَنْ شِمَالِهِ أَهْلُ النَّارِ، فَإِذَا نَظَرَ عَنْ يَمِينِهِ ضَحِكَ، وَإِذَا نَظَرَ عَنْ شِمَالِهِ بَكَىٰ. ثُمَّ عَرَجَ بِي إِلَىٰ السَّمَاءِ الثَّانِيَةِ فَقَالَ لِخَازِنِهَا: افْتَحْ. فَقَالَ لَهُ خَازِنُهَا مِثْلَ مَا قَالَ لَهُ الْأَوَّلُ، فَفَتَحَ». قال أنس: فذكر أنه وجد في السموات آدم، وإدريس، وموسىٰ، وعيسىٰ، وإبراهيم، ولم يُثْبِتْ كيف منازلُهم، غير أنه ذكر أنه وجد آدم في السماء الدنيا، وإبراهيم في السماء السادسة. قال أنس: فلما مرَّ جبريل بالنَّبيِّ ﷺ بإدريس قال: «مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ وَالْأَخِ الصَّالِحِ. فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ فَقَالَ: هَذَا إِدْرِيسُ. ثُمَّ مَرَرْتُ بِمُوسَىٰ فَقَالَ: مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ وَالْأَخِ الصَّالِحِ. قُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: مُوسَىٰ، ثُمَّ مَرَرْتُ بِعِيسَىٰ فَقَالَ: مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ وَالْأَخِ الصَّالِحِ. قُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: عِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ. ثُمَّ مَرَرْتُ بِإِبْرَاهِيمَ فَقَالَ: مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ وَالِابْنِ الصَّالِحِ. قُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: هَذَا إِبْرَاهِيمُ». قال الزُّهري: فأخبرني ابن حزم: أنَّ ابن عبَّاس وأبا حَبَّة الأنصاري كانا يقولان: قال النَّبيُّ ﷺ: «ثُمَّ عُرِجَ بِي حَتَّىٰ ظَهَرْتُ لِمُسْتَوَىٰ أَسْمَعُ فِيهِ صَرِيفَ الْأَقْلَامِ».

قال ابن حزم وأنس بن مالك: قال رسول الله ﷺ: «فَفَرَضَ اللهُ عَلَىٰ أُمَّتِي خَمْسِينَ صَلَاةً، فَرَجَعْتُ بِذَلِكَ حَتَّىٰ مَرَرْتُ عَلَىٰ مُوسَىٰ، فَقَالَ: مَا فَرَضَ اللهُ عَلَىٰ أُمَّتِكَ؟ قُلْتُ: فَرَضَ خَمْسِينَ صَلَاةً. قَالَ: فَارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ، فَإِنَّ أُمَّتَكَ لَا تُطِيقُ ذَلِكَ، فَرَجَعْتُ [فَوَضَعَ شَطْرَهَا، فَرَجَعْتُ إِلَىٰ مُوسَىٰ، قُلْتُ: وَضَعَ شَطْرَهَا. فَقَالَ: ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ، فَإِنَّ أُمَّتَكَ لَا تُطِيقُ ذَلِكَ. فَرَجَعْتُ فَوَضَعَ شَطْرَهَا. فَرَجَعْتُ إِلَيْهِ فَقَالَ: ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ، فَإِنَّ أُمَّتَكَ لَا تُطِيقُ ذَلِكَ. فَرَاجَعْتُهُ](٤) فَقَالَ: هِيَ خَمْسٌ وَهِيَ خَمْسُونَ، لَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ. فَرَجَعْتُ إِلَىٰ مُوسَىٰ فَقَالَ: ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ. قُلْتُ: قَدِ اسْتَحْيَيْتُ مِنْ رَبِّي. ثُمَّ انْطَلَقَ بِي حَتَّىٰ انْتَهَىٰ إِلَىٰ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ فَغَشِيَهَا أَلْوَانٌ لَا أَدْرِي مَا هِيَ، ثُمَّ أُدْخِلْتُ الْجَنَّةَ فَإِذَا فِيهَا جَنَابِذُ(٥) اللُّؤْلُؤِ وَإِذَا تُرَابُهَا الْمِسْكُ»(٦).

هذا لفظ البخاري في «كتاب الصلاة»، ورواه في ذكر بني إسرائيل، وفي الحج وفي أحاديث الأنبياء من طرق أخر، عن يونس، به ورواه مسلم في «صحيحه» في «كتاب الإيمان» منه، عن حَرْملة، عن ابن وهب، عن يونس به نحوه.

---

(١) أسودة: جمع سواد، وهو: كل شخص من إنسان وغيره.
(٢) النَّسَم: جمع نَسَمة، وهي النفس.
(٣) في (ز): «نُطف»، والمثبت موافق لما في «البخاري».
(٤) ما بين المعقوفتين سقط من (ز)، وفي البخاري نحوه.
(٥) الجنابِذُ: جَمْع جُنْبُذَة، وهي القُبَّة. «النهاية». وقال ابن الأثير أيضاً: وفي صِفة الجنة: (فإذا فيها حَبائل اللُّؤلُؤ)، هكذا جاء في كتاب البخاري، والمعروف: جَنابِذُ اللؤلؤ، وقد تقدم، فإن صحَّت الرواية فيكون أراد به: مواضع مُرْتفعة كحِبال الرَّمْل، كأنه جَمْع حِبالة، وحِبالةٌ: جمع حَبْل، وهو جمع علىٰ غير قياس. «النهاية».
(٦) البخاري (٣٤٩)، ومسلم (١٦٣).

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا عفان، حدَّثنا همام، عن قتادة، عن عبد الله بن شَقِيق قال: قلت لأبي ذرٍّ: لو رأيت رسول الله ﷺ (١) لسألته. قال: وما كنت تسأله؟ قال: كنت أسأله: هل رَأَىٰ ربَّه؟ فقال: إني قد سألته فقال: «إِنِّي قَدْ رَأَيْتُهُ نُورًا أَنَّىٰ أَرَاهُ» (٢).

هكذا قد وقع في رواية الإمام أحمد، وأخرجه مسلم في «صحيحه»، عن أبي بكر بن أبي شيبة، عن وكيع، عن يزيد بن إبراهيم، عن قتادة، عن عبد الله بن شقيق، [عن أبي ذرٍّ قال: سألت رسول الله ﷺ هل رأيت ربَّك؟ قال: «نُورٌ أَنَّىٰ أَرَاهُ».

وعن محمَّد بن بَشَّار، عن معاذ بن هشام، حدَّثنا أبي، عن قتادة، عن عبد الله بن شقيق] (٣) قال: قلت لأبي ذرٍّ: لو رأيت رسول الله ﷺ لسألته. فقال: عن أي شيءٍ كنت تسأله؟ قال: كنت أسأله: هل رأيت ربَّك؟ قال أبو ذرٍّ: قد سألت فقال: «رَأَيْتُ نُورًا» (٤).

- رواية أنس، عن أبي بن كعب الأنصاري رضي الله عنه:

قال عبد الله ابن الإمام أحمد: حدَّثنا محمَّد بن إسحاق بن محمَّد بن المُسَيِّبي، حدَّثنا أنس بن عياض، عن يونس بن يزيد قال: قال ابن شهاب: قال أنس بن مالك: كان أبي بن كعب يحدِّث: أن رسول الله ﷺ قال: «فُرِجَ سَقْفُ بَيْتِي وَأَنَا بِمَكَّةَ، فَنَزَلَ جِبْرِيلُ فَفَرَجَ صَدْرِي، ثُمَّ غَسَلَهُ مِنْ مَاءِ زَمْزَمَ، ثُمَّ جَاءَ بِطَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ مُمْتَلِئٍ حِكْمَةً وَإِيمَانًا، فَأَفْرَغَهَا فِي صَدْرِي ثُمَّ أَطْبَقَهُ، ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِي فَعَرَجَ بِي إِلَىٰ السَّمَاءِ. فَلَمَّا جَاءَ السَّمَاءَ [فَافْتَتَحَ فَقَالَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ. قَالَ: هَلْ مَعَكَ أَحَدٌ؟ قَالَ: نَعَمْ، مَعِي مُحَمَّدٌ، قَالَ: أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، فَافْتَحْ، فَلَمَّا عَلَوْنَا السَّمَاءَ] (٥) الدُّنْيَا إِذَا رَجُلٌ عَنْ يَمِينِهِ أَسْوِدَةٌ وَعَنْ يَسَارِهِ أَسْوِدَةٌ، فَإِذَا نَظَرَ قِبَلَ يَمِينِهِ ضَحِكَ، وَإِذَا نَظَرَ قِبَلَ شِمَالِهِ بَكَىٰ، قَالَ: مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ وَالِابْنِ الصَّالِحِ». قال: «قُلْتُ لِجِبْرِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: هَذَا آدَمُ وَهَذِهِ الأَسْوِدَةُ عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ نَسَمُ بَنِيهِ، فَأَهْلُ اليَمِينِ هُمْ أَهْلُ الجَنَّةِ، وَالأَسْوِدَةُ الَّتِي عَنْ شِمَالِهِ هُمْ أَهْلُ النَّارِ. فَإِذَا نَظَرَ [قِبَلَ] (٦) يَمِينِهِ ضَحِكَ، وَإِذَا نَظَرَ قِبَلَ شِمَالِهِ بَكَىٰ». قال: «ثُمَّ عَرَجَ بِي جِبْرِيلُ حَتَّىٰ أَتَىٰ السَّمَاءَ الثَّانِيَةَ، فَقَالَ لِخَازِنِهَا: افْتَحْ. فَقَالَ لَهُ خَازِنُهَا مِثْلَ مَا قَالَ خَازِنُ السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَفُتِحَ لَهُ».

قال أنس: فذكر أنَّه وجد في السَّموات: آدم، وإدريس، وموسىٰ، وعيسىٰ، وإبراهيم، ولم يُثْبِت لي كيف منازلهم؟ غير أنَّه ذكر أنه وجد آدم عليه السلام في السماء الدنيا، وإبراهيم في السَّماء السَّادسة. قال أنس: فلما مرَّ جبريل عليه السلام ورسول الله ﷺ بإدريس قال: «مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ وَالأَخِ الصَّالِحِ». قال: «قُلْتُ: مَنْ هَذَا

---

(١) لوحة (١١٩ ب).

(٢) صحيح: رواه أحمد (٥/ ١٤٧، ١٧٥)، ورواه مسلم كما سيأتي بعده.

(٣) سقط من (ز)، والمثبت موافق لما في «صحيح مسلم».

(٤) مسلم (١٧٨) من (كتاب الإيمان).

(٥) ما بين المعقوفتين سقط من (ز)، وهو سقط نظر، والمثبت موافق لما في «المسند».

(٦) في (ز): «عن»، والمثبت موافق فما في «المسند».

يا جِبْرِيلُ؟» قَالَ: هَذَا إِدْرِيسُ، قال: «ثُمَّ مَرَرْتُ بِمُوسَىٰ، فَقَالَ: مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ وَالأَخِ الصَّالِحِ. فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: هَذَا مُوسَىٰ، ثُمَّ مَرَرْتُ بِعِيسَىٰ فَقَالَ: مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ وَالأَخِ الصَّالِحِ. قُلْتُ: مَنْ هَذَا. قَالَ: هَذَا عِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ» قال: «ثُمَّ مَرَرْتُ بِإِبْرَاهِيمَ فَقَالَ: مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ وَالِابْنِ الصَّالِحِ. قُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: هَذَا إِبْرَاهِيمُ». قال ابن شهاب: وأخبرني ابن حزم: أنَّ ابن عبَّاس وأبا[١] حَبَّةَ الأنصاري كانا يقولان: قال رسول الله ﷺ: «ثُمَّ عَرَجَ بِي حَتَّىٰ ظَهَرْتُ لِمُسْتَوَىٰ أَسْمَعُ صَرِيفَ الأَقْلَامِ» قال ابن حزم وأنس بن مالك: قال رسول الله ﷺ: «فَرَضَ اللهُ عَلَىٰ أُمَّتِي خَمْسِينَ صَلَاةً» قال: «فَرَجَعْتُ بِذَلِكَ حَتَّىٰ أَمُرَّ عَلَىٰ مُوسَىٰ، فَقَالَ مُوسَىٰ: مَاذَا فَرَضَ رَبُّكَ عَلَىٰ أُمَّتِكَ؟ قُلْتُ: فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسِينَ صَلَاةً. فَقَالَ لِي مُوسَىٰ: رَاجِعْ رَبَّكَ؛ فَإِنَّ أُمَّتَكَ لا تُطِيقُ ذَلِكَ» قال: «فَرَاجَعْتُ رَبِّي فَوَضَعَ شَطْرَهَا، فَرَجَعْتُ إِلَىٰ مُوسَىٰ فَأَخْبَرْتُهُ فَقَالَ: ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَإِنَّ أُمَّتَكَ لا تُطِيقُ ذَلِكَ، فَرَجَعْتُ فَقَالَ: هِيَ خَمْسٌ وَهِيَ خَمْسُونَ، لا يُبَدَّلُ القَوْلُ لَدَيَّ». قال: «فَرَجَعْتُ إِلَىٰ مُوسَىٰ فَقَالَ: رَاجِعْ رَبَّكَ. فَقُلْتُ: قَدِ اسْتَحْيَيْتُ مِنْ رَبِّي» قال: «ثُمَّ انْطَلَقَ بِي حَتَّىٰ أَتَىٰ سِدْرَةَ المُنْتَهَىٰ». قال: «فَغَشِيَهَا أَلْوَانٌ مَا أَدْرِي مَا هِيَ»؟ قال: «ثُمَّ أُدْخِلْتُ الجَنَّةَ، فَإِذَا فِيهَا جَنَابِذُ اللُّؤْلُؤِ، وَإِذَا تُرَابُهَا المِسْكُ»[٢].

هكذا رواه عبد الله ابن الإمام أحمد في «مسند أبيه»؛ وليس هو في شيء من الكتب الستة، وقد تقدَّم في «الصحيحين» من طريق يونس، عن الزُّهري، عن أنس، عن أبي ذرٍّ، مثل هذا السِّياق سواء، فالله أعلم.

- رواية بُرَيدة بن الحُصَيْب الأسلميٰ:

قال الحافظ أبو بكر البزار: حدَّثنا عبد الرحمن بن المتوكل ويعقوب بن إبراهيم -واللفظ له- قالا: حدَّثنا أبو تُميلَة[٣]، أخبرنا الزبير بن جنادة، عن عبد الله بن بُرَيْدة، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «لَمَّا كَانَ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِهِ قَالَ: فَأَتَىٰ جِبْرِيلُ الصَّخْرَةَ الَّتِي بِبَيْتِ المَقْدِسِ، فَوَضَعَ إِصْبَعَهُ فِيهَا فَخَرَقَهَا فَشَدَّ بِهَا البُرَاقَ»[٤].

ثم قال البزَّار: لا نعلم رواه عن الزبير بن جنادة إلا أبو تُميلَة، ولا نعلم هذا الحديث [يروىٰ][٥] إلا عن بريدة. وقد رواه التِّرمذي في التَّفسير من «جامعه»، عن يعقوب بن إبراهيم الدَّوْرَقِي به، وقال: غريب.

- رواية جابر بن عبد الله ﷺ:

قال الإمام أحمد: حدَّثنا يعقوب، حدَّثنا أبي، عن صالح، عن ابن شهاب قال: قال أبو سلمة: سمعتُ جابرَ بن عبد الله يحدث: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لَمَّا كَذَّبَتْنِي قُرَيْشٌ حِينَ أُسْرِيَ بِي إِلَىٰ بَيْتِ

---

(١) لوحة (١٢٠ أ).

(٢) **صحيح**: رواه عبد الله ابن الإمام أحمد (٥/ ١٢٢)، (٥/ ١٤٣)، وأبو يعلىٰ (٣٦١٤)، والضياء في «المختارة» (١١٢٦)، ويشهد له ما تقدم من حديث أبي ذر من رواية «الصحيحين».

(٣) في (ز): «نميلة»، والمثبت من «البزار» وغيره، وهو الصواب، وأبو تميلة هو يحيىٰ بن واضح، وانظر: «تهذيب الكمال» (٣٢/ ٢٢)، و«الإكمال» (١/ ٥١٤).

(٤) **صحيح**: رواه الترمذي (٣١٣٢)، وقال: حسن غريب.

(٥) سقط من (ز)، وهو مثبت من «البزار».

المَقْدِسِ، قُمْتُ فِي الحِجْرِ فَجَلَّىٰ اللهُ لِيَ بَيْتَ المَقْدِسِ، فَطَفِقْتُ أُخْبِرُهُمْ عَنْ آيَاتِهِ وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَيْهِ»[١].

أخرجاه في «الصَّحيحين» من طرقٍ، عن الزهري به.

وقال البيهقيُّ: أخبرنا أحمد بن الحسن القاضي، حدَّثنا أبو العبَّاس الأصم، حدَّثنا العبَّاس ابن محمَّد الدُّوري، حدَّثنا يعقوب بن إبراهيم، حدَّثنا أبي، عن صالح بن كَيْسَان، عن ابن شهاب قال: سمعتُ [سعيدَ][٢] بن المسيّب[٣] يقول: إنَّ رسول الله ﷺ حين انتهىٰ إلىٰ بيت المقدس، لقي فيه إبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ، وإنه أُتِيَ بقَدَحَيْن: قدح من لبن وقدح خمر، فنظر إليهما، ثم أخذ قدح اللبن. فقال جبريل: أصبتَ، هديت للفطرة، لو اخترت الخمر لغوت أُمَّتُك. ثم رجع رسول الله ﷺ إلىٰ مكَّة، فأخبر أنه أُسْرِيَ به، فافتتِنَ ناسٌ كثيرٌ كانوا قد صلُّوا معه.

قال ابن شهاب: قال أبو سلمة بن عبد الرحمن: فتجهَّز -أو كلمة نحوها- ناس من قريش إلىٰ أبي بكر فقالوا: هل لك في صاحبك؟ يزعم أنَّه جاء إلىٰ بيت المقدس ثم رجع إلىٰ مكة في ليلةٍ واحدةٍ! فقال أبو بكر: أَوَقَالَ ذلك؟ قالوا: نعم. قال: فأَشْهَدُ لئن كان قال ذلك لقد صدق. قالوا: فتُصدِّقُه بأن يأتي الشَّام في ليلةٍ واحدةٍ، ثم يرجع إلىٰ مكة قبل أن يُصْبِحَ؟ قال: نعم، إنِّي أُصدِّقُه بأبعدَ من ذلك أُصدِّقُه بخبر السَّماء. قال أبو سلمة: فبِهَا سُمِّيَ أبو بكر: الصديقَ.

قال أبو سلمة: فسمعتُ جابر بنَ عبد الله يحدِّث أنَّه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**لَمَّا كَذَّبَتْنِي قُرَيْشٌ حِينَ أُسْرِيَ بِي إِلَىٰ بَيْتِ المَقْدِسِ، قُمْتُ فِي الحِجْرِ، فَجَلَّىٰ اللهُ لِيَ بَيْتَ المَقْدِسِ، فَطَفِقْتُ أُخْبِرُهُمْ عَنْ آيَاتِهِ وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَيْهِ**»[٤].

- **رواية حذيفة بن اليمان ﷺ:**

قال الإمام أحمد: ثنا أبو النَّضر، ثنا شيبان، عن عاصم، عن زِرِّ بن حُبَيْش، قال: أتيت علىٰ حذيفة بن اليمان وهو يحدِّث، عن ليلة أُسْرِيَ بمحمَّدٍ ﷺ، وهو يقول: «**فَانْطَلَقْنَا حَتَّىٰ أَتَيْنَا عَلَىٰ**[٥] **بَيْتِ المَقْدِسِ**». فلم يدخُلَاه. قال: قلت: بل دخلَهُ رسول الله ﷺ ليلتئذٍ وصلَّىٰ فيه، قال: ما اسمك يا أصلَعُ؟ فإنِّي أعرف وجهك ولا أدري ما اسْمُكَ؟ قال: قلت: أنا زِرُّ بن حُبَيْشٍ. قال: فما عِلْمُكَ بأنَّ رسول الله ﷺ صلَّىٰ فيه ليلتئذٍ؟ قال: قلت: القُرْآنُ يخبرني بذلك. قال: من تكلَّم بالقرآن فَلَجَ[٦]، اقرأ. قال: فقلتُ: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ قال: يا أصلع، هل تجد «صَلَّىٰ فِيهِ؟» قلت: لا. قال: والله ما صلَّىٰ فيه

---

(١) البخاري (٤٧١٠)، ومسلم (١٧٠)، والترمذي (٣١٣٣)، وأحمد (٣/ ٣٧٧).
(٢) ليست في (ز).		(٣) لوحة (١٢٠ ب).
(٤) رجاله ثقات، لكن الحديث مرسل، وهو في «الدلائل» للبيهقي (٢/ ٣٥٩)، والفقرة الأخيرة من الحديث موصولة، وهي صحيحة كما تقدم قبله.
(٥) كذا في (ز)، وهو موافق لما في «المسند»، وفي بعض المطبوعات: «حتىٰ أتيا بيت المقدس».
(٦) أي: غَلَب.

رسول الله ﷺ ليلتئذٍ، ولو صلَّىٰ فيه لكتب عليكم صلاة فيه، كما كتب عليكم صلاةً في البيت العتيق، والله ما زَايَلَا البراق حتىٰ فتحت لهما أبْوابُ السماء، فرأيا الجنة والنَّار ووعْدَ الآخرة أجمع، ثم عادا عَوْدَهما علىٰ بدئهما(١). قال: ثم ضَحِكَ حتىٰ رأيتِ نواجِذَهُ(٢)، قال: ويُحدِّثُون أنَّه ربطه لا يَفِرُّ منه، وإنَّما سخَّره له عالم الغيب والشهادة. قلت: أبا عبد الله، أي دابة البراق؟ قال: دابَّة أبيض طويل هكذا، خطوه مدُّ البصر(٣).

ورواه أبو داود الطيالسيُّ، عن حماد بن سلمة، عن عاصم به. ورواه التِّرمذي والنَّسائي في «التفسير» من حديث عاصم -وهو ابن أبي النَّجُود- به، وقال الترمذي: حسنٌ صحيحٌ.

وهذا الذي قاله حذيفة رضي الله عنه نفيٌ، وما أثبته غيره عن رسول الله ﷺ من ربط الدَّابَّة بالحلقة، ومِنَ الصَّلاة بالبيت المقدس، مما سبق وما سيأتي - مقدَّمٌ علىٰ قوله، والله أعلم بالصواب.

- **رواية أبي سعيد - سعد بن مالك بن سِنان الخدرىٰ:**

قال الحافظ أبو بكر البيهقي في كتاب «دلائل النبوَّة».

أخبرنا أبو عبد الله محمَّد بن عبد الله الحافظ، حدَّثنا أبو العبَّاس محمَّد بن يعقوب، حدَّثنا أبو بكر يحيىٰ ابن أبي طالب، حدَّثنا عبد الوهاب بن عطاء، أخبرنا أبو محمَّد راشد الحِمَّاني، عن أبي هارون العبدي، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ أنه قال له أصحابه: يا رسول الله، أخبرنا عن ليلةِ أُسْرِيَ بكَ فيها، قال: «قَالَ اللهُ عز وجل: **﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾**».

قال: فأخبرهم فقال: **«فَبَيْنَا أَنَا نَائِمٌ عِشَاءً فِي المَسْجِدِ الحَرَامِ، إِذْ أَتَانِي آتٍ فَأَيْقَظَنِي، فَاسْتَيْقَظْتُ فَلَمْ أَرَ شَيْئًا، وَإِذَا أَنَا بِكَهَيْئَةِ خَيَالٍ، فَأَتْبَعْتُهُ بَصَرِي حَتَّىٰ خَرَجْتُ مِنَ المَسْجِدِ، فَإِذَا أَنَا بِدَابَّةٍ أَدْنَىٰ فِي شَبَهِهِ(٤) بِدَوَابِّكُمْ هَذِهِ، بِغَالِكُمْ هَذِهِ، مُضْطَرِبِ الأُذُنَيْنِ يُقَالُ لَهُ: البُرَاقُ، وَكَانَتِ الأَنْبِيَاءُ تَرْكَبُهُ قَبْلِي، يَقَعُ حَافِرُهُ عِنْدَ مَدِّ بَصَرِهِ، فَرَكِبْتُهُ، فَبَيْنَمَا أَنَا أَسِيرُ عَلَيْهِ، إِذْ دَعَانِي دَاعٍ عَنْ يَمِينِي: يَا مُحَمَّدُ، انْظُرْنِي أَسْأَلْكَ، يَا مُحَمَّدُ، انْظُرْنِي أَسْأَلْكَ، فَلَمْ أُجِبْهُ وَلَمْ أَقُمْ عَلَيْهِ(٥)، [فَبَيْنَمَا أَنَا أَسِيرُ عَلَيْهِ، إِذْ دَعَانِي دَاعٍ، عَنْ يَسَارِي: يَا مُحَمَّدُ، انْظُرْنِي أَسْأَلْكَ، فَلَمْ أُجِبْهُ وَلَمْ أَقُمْ عَلَيْهِ](٦)، فَبَيْنَمَا أَنَا أَسِيرُ، إِذْ أَنَا بِامْرَأَةٍ حَاسِرَةٍ عَنْ ذِرَاعَيْهَا، وَعَلَيْهَا مِنْ كُلِّ زِينَةٍ خَلَقَهَا اللهُ، فَقَالَتْ: يَا مُحَمَّدُ، انْظُرْنِي أَسْأَلْكَ. فَلَمْ أَلْتَفِتْ إِلَيْهَا وَلَمْ أَقُمْ عَلَيْهَا، حَتَّىٰ أَتَيْتُ بَيْتَ المَقْدِسِ، فَأَوْثَقْتُ دَابَّتِي**

---

(١) يقال: رجع عودًا علىٰ بدء، وعوده علىٰ بدئه، أي: لم يقطع ذهابه حتىٰ وصله برجوعه.
(٢) لوحة (١٢١ أ).
(٣) حسن: رواه الترمذي (٣١٤٧)، وقال: حسن صحيح. والنسائي في «الكبرىٰ» (١١٢٨٠)، والطيالسي (٤١١)، ورواه أحمد (٥/ ٣٩٢).
(٤) في (ز): «أدنىٰ شبهة»، وفي «الدلائل»: أدنىٰ شبيهة.
(٥) قام فلان علىٰ الشيء: اذا ثبت عليه وتمسك به، يريد: لم أثبت في مكاني عنده.
(٦) ما بين المعقوفتين سقط من (ز)، والمثبت موافق لما في «الدلائل».

بِالحلْقَةِ الَّتِي كَانَتِ الأنْبِيَاءُ تُوثِقُهَا بِهَا. فَأَتَانِي جِبْرِيلُ عليه السلام بِإِنَاءَيْنِ: أَحَدُهُمَا خَمْرٌ، وَالآخَرُ لَبَنٌ، فَشَرِبْتُ اللَّبَنَ، وَتَرَكْتُ الخَمْرَ، فَقَالَ جِبْرِيلُ: أَصَبْتَ الفِطْرَةَ فَقُلْتُ: اللهُ أَكْبَرُ، اللهُ أَكْبَرُ. فَقَالَ جِبْرِيلُ: مَا رَأَيْتَ فِي وَجْهِكَ هَذَا[(١)]؟» قال: «فَقُلْتُ: بَيْنَمَا أَنَا أَسِيرُ، إِذْ دَعَانِي دَاعٍ عَنْ يَمِينِي: يَا مُحَمَّدُ، انْظُرْنِي أَسْأَلْكَ. فَلَمْ أُجِبْهُ وَلَمْ أَقُمْ عَلَيْهِ. قَالَ: ذَاكَ دَاعِي اليَهُودِ، أَمَا إِنَّكَ لَوْ أَجَبْتَهُ أَوْ وَقَفْتَ عَلَيْهِ لَتَهَوَّدَتْ أُمَّتُكَ». قال: «فَبَيْنَمَا أَنَا أَسِيرُ، إِذْ دَعَانِي دَاعٍ عَنْ يَسَارِي قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، انْظُرْنِي أَسْأَلْكَ. فَلَمْ أَلْتَفِتْ إِلَيْهِ[(٢)] وَلَمْ أَقُمْ عَلَيْهِ، قَالَ: ذَاكَ دَاعِي النَّصَارَىٰ، أَمَا إِنَّكَ لَوْ أَجَبْتَهُ لَتَنَصَّرَتْ أُمَّتُكَ». قال: «فَبَيْنَمَا أَنَا أَسِيرُ إِذَا أَنَا بِامْرَأَةٍ حَاسِرَةٍ عَنْ ذِرَاعَيْهَا عَلَيْهَا مِنْ كُلِّ زِينَةٍ خَلَقَهَا اللهُ تَقُولُ: يَا مُحَمَّدُ، انْظُرْنِي أَسْأَلْكَ. فَلَمْ أُجِبْهَا وَلَمْ أَقُمْ عَلَيْهَا». قال: «تِلْكَ الدُّنْيَا، أَمَا إِنَّكَ لَوْ أَجَبْتَهَا أَوْ أَقَمْتَ عَلَيْهَا، لاخْتَارَتْ أُمَّتُكَ الدُّنْيَا عَلَىٰ الآخِرَةِ».

قال: «ثُمَّ دَخَلْتُ أَنَا وَجِبْرِيلُ بَيْتَ المَقْدِسِ، فَصَلَّىٰ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَّا رَكْعَتَيْنِ».

«ثُمَّ أُتِيتُ بِالمِعْرَاجِ الَّذِي تَعْرُجُ عَلَيْهِ أَرْوَاحُ بَنِي آدَمَ، فَلَمْ يَرَ الخَلَائِقُ أَحْسَنَ مِنَ المِعْرَاجِ، أَمَا رَأَيْتَ المَيِّتَ حِينَ يَشُقُّ بَصَرُهُ طَامِحًا إِلَىٰ السَّمَاءِ، فَإِنَّمَا يَشُقُّ بَصَرُهُ طَامِحًا إِلَىٰ السَّمَاءِ عَجَبُهُ بِالمِعْرَاجِ». قال: «فَصَعِدْتُ أَنَا وَجِبْرِيلُ، فَإِذَا أَنَا بِمَلَكٍ يُقَالُ لَهُ: إِسْمَاعِيلُ. وَهُوَ صَاحِبُ السَّمَاءِ الدُّنْيَا، وَبَيْنَ يَدَيْهِ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ، مَعَ كُلِّ مَلَكٍ جُنْدُهُ مِائَةُ أَلْفِ مَلَكٍ». قال: «وَقَالَ اللهُ عز وجل: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾» [المدثر:٣١] «فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ بَابَ السَّمَاءِ، قِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ. قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ. قِيلَ: أَوَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، فَإِذَا أَنَا بِآدَمَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَهُ اللهُ عز وجل عَلَىٰ صُورَتِهِ، فَإِذَا هُوَ تُعْرَضُ عَلَيْهِ أَرْوَاحُ ذُرِّيَّتِهِ المُؤْمِنِينَ، فَيَقُولُ: رُوحٌ طَيِّبَةٌ، وَنَفْسٌ طَيِّبَةٌ، اجْعَلُوهَا فِي عِلِّيِّينَ، ثُمَّ تُعْرَضُ عَلَيْهِ أَرْوَاحُ ذُرِّيَّتِهِ الفُجَّارِ فَيَقُولُ: رُوحٌ خَبِيثَةٌ، وَنَفْسٌ خَبِيثَةٌ، اجْعَلُوهَا فِي سِجِّينٍ، ثُمَّ مَضَيْتُ هُنَيَّةً، فَإِذَا أَنَا بِأَخْوِنَةٍ[(٣)] عَلَيْهَا لَحْمٌ مُشَرَّحٌ لَيْسَ يَقْرَبُهَا أَحَدٌ، وَإِذَا [أَنَا][(٤)] بِأَخْوِنَةٍ أُخْرَىٰ عَلَيْهَا لَحْمٌ قَدْ أَرْوَحَ وَأَنْتَنَ، عِنْدَهَا أُنَاسٌ يَأْكُلُونَ مِنْهَا، قُلْتُ: يَا جِبْرِيلُ، مَنْ هَؤُلَاءِ؟ قَالَ: هَؤُلَاءِ مِنْ أُمَّتِكَ يَتْرُكُونَ الحَلَالَ وَيَأْتُونَ الحَرَامَ».

قال: «ثُمَّ مَضَيْتُ هُنَيَّةً، فَإِذَا أَنَا بِأَقْوَامٍ بُطُونُهُمْ أَمْثَالُ البُيُوتِ، كُلَّمَا نَهَضَ أَحَدُهُمْ خَرَّ يَقُولُ: اللَّهُمَّ، لا تُقِمِ السَّاعَةَ»، قال: «وَهُمْ عَلَىٰ سَابِلَةِ آلِ فِرْعَوْنَ». قال: «فَتَجِيءُ السَّابِلَةُ فَتَطَؤُهُمْ». قال: «فَسَمِعْتُهُمْ يَضِجُّونَ إِلَىٰ اللهِ عز وجل». قال: «قُلْتُ: يَا جِبْرِيلُ، مَنْ هَؤُلَاءِ؟ قَالَ: هَؤُلَاءِ مِنْ أُمَّتِكَ ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَوٰا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَٰنُ مِنَ الْمَسِّ﴾» [البقرة: ٢٧٥].

قال: «ثُمَّ مَضَيْتُ هُنَيَّةً، فَإِذَا أَنَا بِأَقْوَامٍ مَشَافِرُهُمْ كَمَشَافِرِ الإِبِلِ». قال: «فَتُفْتَحُ أَفْوَاهُهُمْ[(٥)] وَيُلْقَمُونَ مِنْ ذَلِكَ الجَمْرِ[(٦)]، ثُمَّ يَخْرُجُ مِنْ أَسَافِلِهِمْ. فَسَمِعْتُهُمْ يَضِجُّونَ إِلَىٰ اللهِ عز وجل فَقُلْتُ: مَنْ هَؤُلَاءِ يَا جِبْرِيلُ؟

---

(١) الوجه هنا بمعنىٰ الجهة والناحية.

(٢) لوحة (١٢١ ب).

(٣) الأخونة: جمع خوان، وهي المائدة التي يؤكل عليها.

(٤) سقط من (ز)، وهو مثبت من «الدلائل».

(٥) في (ز): (فتفتح علىٰ أفواههم).

(٦) في (ز): «اللحم»، وفي «الدلائل»: «الحجر».

قَالَ: هَؤُلَاءِ مِنْ أُمَّتِكَ ﴿الَّذِينَ(١) يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾» [النساء: ١٠].

قال: «ثُمَّ مَضَيْتُ هُنَيَّةً، فَإِذَا أَنَا بِنِسَاءٍ يُعَلَّقْنَ بِثُدِيِّهِنَّ، فَسَمِعْتُهُنَّ يَضْجِجْنَ إِلَىٰ اللهِ ﷻ قُلْتُ: يَا جِبْرِيلُ مَنْ هَؤُلَاءِ النِّسَاءُ؟ قَالَ: هَؤُلَاءِ الزُّنَاةُ مِنْ أُمَّتِكَ». قال: «ثُمَّ مَضَيْتُ هُنَيَّةً فَإِذَا أَنَا بِأَقْوَامٍ يُقْطَعُ مِنْ جُنُوبِهِمُ اللَّحْمُ، فَيُلْقَمُونَهُ، فَيُقَالُ لَهُ: كُلْ كَمَا كُنْتَ تَأْكُلُ مِنْ لَحْمِ أَخِيكَ. قُلْتُ: يَا جِبْرِيلُ، مَنْ هَؤُلَاءِ؟ قَالَ: هَؤُلَاءِ الْهَمَّازُونَ مِنْ أُمَّتِكَ اللَّمَّازُونَ». قال: «ثُمَّ صَعِدْنَا إِلَىٰ السَّمَاءِ الثَّانِيَةِ، فَإِذَا أَنَا بِرَجُلٍ أَحْسَنَ مَا خَلَقَ اللهُ ﷻ قَدْ فَضَلَ النَّاسَ فِي الْحُسْنِ كَالْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَىٰ سَائِرِ الْكَوَاكِبِ، قُلْتُ: يَا جِبْرِيلُ، مَنْ هَذَا؟ قَالَ: هَذَا أَخُوكَ يُوسُفُ وَمَعَهُ نَفَرٌ مِنْ قَوْمِهِ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَيَّ. ثُمَّ صَعِدْتُ إِلَىٰ السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ، فَإِذَا أَنَا بِيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ - عَلَيْهِمَا السَّلَامُ- وَمَعَهُمَا نَفَرٌ مِنْ قَوْمِهِمَا، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِمَا وَسَلَّمَا عَلَيَّ. ثُمَّ صَعِدْتُ إِلَىٰ السَّمَاءِ الرَّابِعَةِ، فَإِذَا أَنَا بِإِدْرِيسَ قَدْ رَفَعَهُ اللهُ مَكَانًا عَلِيًّا، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَيَّ». قال: «ثُمَّ صَعِدْتُ إِلَىٰ السَّمَاءِ الْخَامِسَةِ، فَإِذَا أَنَا بِهَارُونَ وَنِصْفُ لِحْيَتِهِ بَيْضَاءُ وَنِصْفُهَا سَوْدَاءُ، تَكَادُ لِحْيَتُهُ تُصِيبُ سُرَّتَهُ مِنْ طُولِهَا، قُلْتُ: يَا جِبْرِيلُ، مَنْ هَذَا؟ قَالَ: هَذَا الْمُحَبَّبُ فِي قَوْمِهِ، هَذَا هَارُونُ بْنُ عِمْرَانَ، وَمَعَهُ نَفَرٌ مِنْ قَوْمِهِ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَيَّ. ثُمَّ صَعِدْتُ إِلَىٰ السَّمَاءِ السَّادِسَةِ، فَإِذَا أَنَا بِمُوسَىٰ بْنِ عِمْرَانَ، رَجُلٌ آدَمُ كَثِيرُ الشَّعْرِ، لَوْ كَانَ عَلَيْهِ قَمِيصَانِ لَنَفَذَ شَعْرُهُ دُونَ الْقَمِيصِ، فَإِذَا هُوَ يَقُولُ: يَزْعُمُ النَّاسُ أَنِّي أَكْرَمُ عَلَىٰ اللهِ مِنْ هَذَا، بَلْ هَذَا أَكْرَمُ عَلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ مِنِّي».

قال: «قُلْتُ: يَا جِبْرِيلُ، مَنْ هَذَا؟ قَالَ: هَذَا أَخُوكَ مُوسَىٰ بْنُ عِمْرَانَ ﷺ وَمَعَهُ نَفَرٌ مِنْ قَوْمِهِ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَيَّ. ثُمَّ صَعِدْتُ إِلَىٰ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، فَإِذَا أَنَا بِأَبِينَا إِبْرَاهِيمَ خَلِيلِ الرَّحْمَنِ سَانِدٌ ظَهْرَهُ إِلَىٰ الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ كَأَحْسَنِ الرِّجَالِ، قُلْتُ: يَا جِبْرِيلُ، مَنْ هَذَا؟ قَالَ: هَذَا أَبُوكَ خَلِيلُ الرَّحْمَنِ وَمَعَهُ نَفَرٌ مِنْ قَوْمِهِ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَسَلَّمَ عَلَيَّ، وَإِذَا أَنَا بِأُمَّتِي شَطْرَيْنِ: شَطْرٌ عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ بِيضٌ كَأَنَّهَا الْقَرَاطِيسُ. وَشَطْرٌ عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ رُمْدٌ». قال: «فَدَخَلْتُ الْبَيْتَ الْمَعْمُورَ وَدَخَلَ مَعِي الَّذِينَ عَلَيْهِمُ الثِّيَابُ الْبِيضُ، وَحُجِبَ الْآخَرُونَ الَّذِينَ عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ رُمْدٌ، وَهُمْ عَلَىٰ خَيْرٍ. فَصَلَّيْتُ أَنَا وَمَنْ مَعِي فِي الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ، ثُمَّ خَرَجْتُ أَنَا وَمَنْ مَعِي». قال: «وَالْبَيْتُ الْمَعْمُورُ يُصَلِّي فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ، لا يَعُودُونَ فِيهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ». قال(٢): «ثُمَّ رُفِعْتُ إِلَىٰ(٣) سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ، فَإِذَا كُلُّ وَرَقَةٍ مِنْهَا تَكَادُ أَنْ تُغَطِّيَ هَذِهِ الْأُمَّةَ، وَإِذَا فِيهَا عَيْنٌ تَجْرِي يُقَالُ لَهَا: سَلْسَبِيلُ، فَيَنْشَقُّ مِنْهَا نَهْرَانِ، أَحَدُهُمَا: الْكَوْثَرُ، وَالْآخَرُ يُقَالُ لَهُ: نَهْرُ الرَّحْمَةِ. فَاغْتَسَلْتُ فِيهِ، فَغُفِرَ لِي مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِي وَمَا تَأَخَّرَ. ثُمَّ إِنِّي رُفِعْتُ إِلَىٰ الْجَنَّةِ، فَاسْتَقْبَلَتْنِي جَارِيَةٌ، فَقُلْتُ: لِمَنْ أَنْتِ يَا جَارِيَةُ؟ فَقَالَتْ: لِزَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ، وَإِذَا أَنَا بِأَنْهَارٍ [مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ، وَأَنْهَارٍ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ، وَأَنْهَارٍ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ، وَأَنْهَارٍ](٤) مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى، وَإِذَا رُمَّانُهَا كَأَنَّهُ الدِّلَاءُ(٥) عِظَمًا، وَإِذَا أَنَا بِطَيْرِهَا كَأَنَّهَا

---

(١) لوحة (١٢٢ أ). (٢) لوحة (١٢٢ ب).

(٣) في (ز): «رفعت لي» والمثبت موافق لما في «الدلائل».

(٤) سقط من (ز)، والمثبت كما في «الدلائل». (٥) الدلاء: جمع دلو.

بُخْتِيُّكُم[(١)] هَذِهِ». فقال عندها ﷺ: «إِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ قَدْ أَعَدَّ لِعِبَادِهِ الصَّالِحِينَ مَا لا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلا خَطَرَ عَلَىٰ قَلْبِ بَشَرٍ». قال: «ثُمَّ عُرِضَتْ عَلَيَّ النَّارُ، فَإِذَا فِيهَا غَضَبُ اللهِ وَزَجْرُهُ وَنِقْمَتُهُ، لَوْ طُرِحَ فِيهَا الحِجَارَةُ وَالحَدِيدُ لأَكَلَتْهَا، ثُمَّ [أُغْلِقَتْ][(٢)] دُونِي. ثُمَّ إِنِّي رُفِعْتُ إِلَىٰ سِدْرَةِ المُنْتَهَىٰ، فَتَغَشَّانِي فَكَانَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ قَابُ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ». قال: «وَنَزَلَ عَلَىٰ كُلِّ وَرَقَةٍ مَلَكٌ مِنَ المَلَائِكَةِ». قال: «وَفُرِضَتْ عَلَيَّ خَمْسُونَ، وَقَالَ: لَكَ بِكُلِّ حَسَنَةٍ عَشْرٌ، إِذَا هَمَمْتَ بِالحَسَنَةِ فَلَمْ تَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَكَ حَسَنَةً، فَإِذَا عَمِلْتَهَا كُتِبَتْ لَكَ عَشْرًا، وَإِذَا هَمَمْتَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَمْ تَعْمَلْهَا لَمْ يُكْتَبْ عَلَيْكَ شَيْءٌ، فَإِنْ عَمِلْتَهَا كُتِبَتْ عَلَيْكَ سَيِّئَةً وَاحِدَةً. ثُمَّ دَفَعْتُ إِلَىٰ مُوسَىٰ فَقَالَ: بِمَا أَمَرَكَ رَبُّكَ؟ قُلْتُ: بِخَمْسِينَ صَلَاةً. قَالَ: ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ لِأُمَّتِكَ، فَإِنَّ أُمَّتَكَ لا يُطِيقُونَ ذَلِكَ، وَمَتَىٰ لا [تُطِيقُهُ][(٣)] تَكْفُرُ، فَرَجَعْتُ إِلَىٰ رَبِّي ﷻ فَقُلْتُ: يَا رَبِّ، خَفِّفْ عَنْ أُمَّتِي، فَإِنَّهَا أَضْعَفُ الأُمَمِ. فَوَضَعَ عَنِّي عَشْرًا، وَجَعَلَهَا أَرْبَعِينَ. فَمَا زِلْتُ أَخْتَلِفُ بَيْنَ مُوسَىٰ وَرَبِّي كُلَّمَا أَتَيْتُ عَلَيْهِ قَالَ لِي مِثْلَ مَقَالَتِهِ، حَتَّىٰ رَجَعْتُ إِلَيْهِ فَقَالَ لِي: بِمَ أُمِرْتَ؟ فَقُلْتُ: أُمِرْتُ بِعَشْرِ صَلَوَاتٍ. قَالَ: ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ ﷻ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ لِأُمَّتِكَ. فَرَجَعْتُ إِلَىٰ رَبِّي ﷻ فَقُلْتُ: أَيْ رَبِّ، خَفِّفْ عَنْ أُمَّتِي، فَإِنَّها أَضْعَفُ الأُمَمِ. فَوَضَعَ عَنِّي خَمْسًا، وَجَعَلَهَا خَمْسًا. فَنَادَانِي مَلَكٌ عِنْدَهَا: تَمَّمْتُ فَرِيضَتِي، وَخَفَّفْتُ عَنْ عِبَادِي، وَأَعْطَيْتُهُمْ بِكُلِّ حَسَنَةٍ عَشْرَ أَمْثَالِهَا. ثُمَّ رَجَعْتُ إِلَىٰ مُوسَىٰ فَقَالَ: بِمَ أُمِرْتَ؟ فَقُلْتُ: بِخَمْسِ صَلَوَاتٍ. قَالَ: ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ، فَإِنَّه لا يَئُودُهُ شَيْءٌ، فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ لِأُمَّتِكَ». «فَقُلْتُ: رَجَعْتُ إِلَىٰ رَبِّي حَتَّىٰ اسْتَحْيَيْتُهُ» ثم أصبح بمكة يخبرهم بالأعاجيب: «إِنِّي أَتَيْتُ البَارِحَةَ بَيْتَ المَقْدِسِ، وَعُرِجَ بِي إِلَىٰ السَّمَاءِ، وَرَأَيْتُ كَذَا وَكَذَا». فقال أبو جهل -يعني ابن هشام-: ألا تعجبون مما يقول محمَّد؟ يزعُمُ أنَّه أتىٰ البارحة بيت المقدس، ثم أصبح فينا. وأحدنا يضرب[(٤)] مطيَّته مصعدة شهرًا، [ومقفلة][(٥)] شهرًا، فهذا مسيرة شهرين في ليلة واحدة! قال: فأخبرهم بعير لقريش: «لَمَّا كُنْتُ فِي مَصْعَدِي رَأَيْتُهَا فِي مَكَانِ كَذَا وَكَذَا، وَأَنَّهَا نَفَرَتْ، فَلَمَّا رَجَعْتُ رَأَيْتُهَا عِنْدَ العَقَبَةِ». وأخبرهم بكلِّ رجل وبعيرُهُ كذا وكذا، ومتاعُهُ كذا وكذا. فقال أبو جهل: يخبرنا بأشياء. فقال رجل من المشركين: أنا أعلم النَّاس ببيت المقدس، وكيف بناؤه؟ وكيف هيئته؟ وكيف قربه من الجبل؟ [فإن يكُ محمَّد صادقًا فسأخبركم، وإن يكُ كاذبًا فسأخبركم. فجاء ذلك المشركُ فقال: يا محمَّد، أنا أعلم الناس ببيت المقدس، فأخبرني كيف بناؤه؟ وكيف هيئته؟ وكيف قربه من الجبل][(٦)]. قال: فرفع لرسول الله ﷺ بيت المقدس مِن مقعده، فنظر إليه كنظرِ أحدنا إلىٰ بيتِهِ: بناؤه كذا وكذا، وهيئته كذا وكذا، وقربه من الجبل كذا وكذا. فقال الآخر: صدقت. فرجع إلىٰ أصحابه فقال: صدق محمَّد فيما قال، أو نحو هذا الكلام[(٧)].

---

(١) البُخْتي: جمل طويل العنق. (٢) في (ز): «علقت».

(٣) ليست في (ز)، وهي مثبتة في «الدلائل». (٤) لوحة (١٢٣ أ).

(٥) في (ز): «ومقبلة». (٦) ما بين المعقوفتين سقط من (ز)، وهو موافق لما في «الدلائل».

(٧) ضعيف جدًّا: رواه ابن جرير (١٥/ ١١)، والبيهقي في «الدلائل» (٢/ ٣٩٠)، وفيه أبو هارون العبدي، قال الحافظ: متروك، ومنهم من كذبه، شيعي. وقد أشار ابن كثير بعد إيراده الحديث إلىٰ غرابته وما فيه من النكارة.

وكذا رواه الإمام أبو جعفر بن جرير بطوله، عن محمَّد بن عبد الأعلىٰ، عن محمَّد بن ثور، عن معمر، عن أبي هارون العبدي، وعن الحسن بن يحيىٰ، عن عبد الرزَّاق، عن معمر، عن أبي هارون العبدي به. ورواه أيضًا من حديث محمَّد بن إسحاق: حدَّثني روح بن القاسم، عن أبي هارون به نحو سياقه المتقدم.

ورواه ابن أبي حاتم، عن أبيه، عن أحمد بن عبدة، عن أبي عبد الصمد عبد العزيز بن عبد الصمد، عن أبي هارون العبدي، عن أبي سعيد الخدري، فذكره بسياقٍ طويلٍ حسنٍ أنيقٍ، أجود مما ساقه غيره، علىٰ غرابته وما فيه من النكارة.

ثم ذكره البيهقي أيضًا، من رواية نوح بن قيس الحُدَّاني وهُشَيم ومعمر، عن أبي هارون العبدي -واسمه عمارة بن جوين، وهو مضعف عند الأئمة، وإنما سُقنا حديثه هاهنا لما في حديثه من الشواهد لغيره.

ولما رواه البيهقيٰ: أخبرنا الإمام أبو عثمان إسماعيل بن عبد الرحمن، أنبأنا أبو نعيم أحمد بن محمَّد ابن إبراهيم البزاز، حدَّثنا أبو حامد بن بلال، حدَّثنا أبو الأزهر، حدَّثنا يزيد بن أبي حكيم قال: رأيت في النوم رسول الله ﷺ قلت: يا رسول الله، رجل من أمتك يقال له: «سفيان الثوري» لا بأس به؟ فقال رسول الله ﷺ: «لَا بَأْسَ بِهِ»، حدَّثنا عن أبي هارون العبدي، عن أبي سعيد الخدري، عنك ليلة أسري بك، قلت: «رَأَيْتُ فِي السَّمَاءِ...» فحدَّثه بالحديث؟ فقال لي: «نَعَمْ». فقلت له: يا رسول الله، إنَّ ناسًا من أمَّتِكَ يحدِّثون عنك في المسرىٰ بعجائب؟ فقال لي: «ذَلِكَ حَدِيثُ القُصَّاصِ»(١).

- رواية شداد بن أوس:

قال الإمام(٢) أبو إسماعيل محمَّد بن إسماعيل الترمذي: حدَّثنا إسحاق بن إبراهيم بن العلاء بن الضَّحَّاك الزَّبيدي، حدَّثنا عمرو بن الحارث، عن عبد الله بن سالم(٣) الأشعري، عن محمَّد بن الوليد بن عامر الزبيدي، حدَّثنا الوليد بن عبد الرحمن، عن جبير(٤) بن نفير: حدَّثنا شداد بن أوس قال: قلنا: يا رسول الله، كيف أسري بك؟ قال: «**صَلَّيْتُ لِأَصْحَابِي صَلَاةَ العَتَمَةِ بِمَكَّةَ مُعْتِمًا**». قال: «**فَأَتَانِي جِبْرِيلُ عليه السلام بِدَابَّةٍ أَبْيَضَ -أَوْ قَالَ: بَيْضَاءَ- فَوْقَ الحِمَارِ وَدُونَ البَغْلِ، فَقَالَ: ارْكَبْ. فَاسْتَصْعَبَتْ عَلَيَّ، فَدَارَهَا(٥)(٦) بِأُذُنِهَا، ثُمَّ حَمَلَنِي عَلَيْهَا. فَانْطَلَقَتْ تَهْوِي بِنَا يَقَعُ حَافِرُهَا حَيْثُ أَدْرَكَ طَرْفُهَا، حَتَّىٰ بَلَغْنَا أَرْضًا ذَاتَ نَخْلٍ فَأَنْزَلَنِي فَقَالَ: صَلِّ. فَصَلَّيْتُ، ثُمَّ رَكِبْنَا فَقَالَ: أَتَدْرِي أَيْنَ صَلَّيْتَ؟ قُلْتُ: اللهُ أَعْلَمُ، قَالَ: صَلَّيْتَ بِيَثْرِبَ صَلَّيْتَ بِطَيْبَةَ. فَانْطَلَقَتْ تَهْوِي بِنَا يَقَعُ حَافِرُهَا حَيْثُ أَدْرَكَ طَرْفُهَا. ثُمَّ بَلَغْنَا أَرْضًا فَقَالَ: انْزِلْ. [فَنَزَلْتُ](٧) ثُمَّ قَالَ: صَلِّ.**

---

(١) «دلائل النبوة» للبيهقي (٢/ ٤٠٥)، والرؤىٰ لا تكون دليلًا علىٰ تصحيح وتضعيف الأحاديث؛ فالحديث ضعيفٌ جدًا كما تقدم.

(٢) لوحة (١٢٣ ب).

(٣) في (ز): «سلام»، والمثبت موافق لما في «الدلائل» وهو الصواب، انظر: «التاريخ الكبير» (١/ ٢٥٤)، و«التقريب» (٢/ ٣٠٤).

(٤) في (ز): «ابن جبير»، والمثبت كما في «الدلائل» وهو الصواب، انظر: «تهذيب الكمال» (٣/ ٤٢).

(٥) أي: اختبرها.

(٦) في (ز): (فرازها)، والمثبت كما في «الدلائل»، وفي «البزار»: فأدارها، وفي «تهذيب الآثار»: فردها.

(٧) سقط من (ز)، وهو مثبت من «الدلائل».

فَصَلَّيْتُ ثُمَّ رَكِبْنَا، فَقَالَ: أَتَدْرِي أَيْنَ صَلَّيْتَ؟ قُلْتُ: اللهُ أَعْلَمُ، قَالَ: صَلَّيْتَ بِمَدْيَنَ، صَلَّيْتَ عِنْدَ شَجَرَةِ مُوسَىٰ. ثُمَّ انْطَلَقَتْ تَهْوِي بِنَا يَقَعُ حَافِرُهَا حَيْثُ أَدْرَكَ طَرْفُهَا، ثُمَّ بَلَغْنَا أَرْضًا، بَدَتْ لَنَا قُصُورٌ، فَقَالَ: انْزِلْ. فَنَزَلْتُ، فَقَالَ: صَلِّ فَصَلَّيْتُ، ثُمَّ رَكِبْنَا فَقَالَ: أَتَدْرِي أَيْنَ صَلَّيْتَ؟ قُلْتُ: اللهُ أَعْلَمُ. قَالَ: صَلَّيْتَ بِبَيْتِ لَحْمٍ حَيْثُ وُلِدَ عِيسَىٰ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ. ثُمَّ انْطَلَقَ بِي حَتَّىٰ دَخَلْنَا الْمَدِينَةَ مِنْ بَابِهَا الْيَمَانِيِّ، فَأَتَىٰ قِبْلَةَ الْمَسْجِدِ، فَرَبَطَ فِيهِ دَابَّتَهُ وَدَخَلْنَا الْمَسْجِدَ مِنْ بَابٍ فِيهِ تَمِيلُ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ، فَصَلَّيْتُ مِنَ الْمَسْجِدِ حَيْثُ شَاءَ اللهُ، وَأَخَذَنِي مِنَ الْعَطَشِ أَشَدُّ مَا أَخَذَنِي، فَأُتِيتُ بِإِنَاءَيْنِ، فِي أَحَدِهِمَا لَبَنٌ وَفِي الْآخَرِ عَسَلٌ، أُرْسِلَ إِلَيَّ بِهِمَا جَمِيعًا، فَعَدَلْتُ بَيْنَهُمَا[(١)]، ثُمَّ هَدَانِي اللهُ ﷻ، فَأَخَذْتُ اللَّبَنَ فَشَرِبْتُ حَتَّىٰ قَرَعْتُ بِهِ جَبِينِي[(٢)]، وَبَيْنَ يَدَيَّ شَيْخٌ مُتَّكِئٌ عَلَىٰ مَثْوَاةٍ لَهُ، فَقَالَ: أَخَذَ صَاحِبُكَ الْفِطْرَةَ، إِنَّهُ لَيُهْدَىٰ. ثُمَّ انْطَلَقَ بِي حَتَّىٰ أَتَيْنَا الْوَادِيَ الَّذِي فِيهِ الْمَدِينَةُ، فَإِذَا جَهَنَّمُ [تَنْكَشِفُ][(٣)] عَنْ مِثْلِ الزَّرَابِيِّ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، كَيْفَ وَجَدْتَهَا؟ قَالَ: مِثْلَ الْحُمَةِ[(٤)] السُّخْنَةِ. ثُمَّ انْصَرَفَ بِي فَمَرَرْنَا بِعِيرٍ لِقُرَيْشٍ بِمَكَانِ كَذَا وَكَذَا، قَدْ أَضَلُّوا بَعِيرًا لَهُمْ، قَدْ جَمَعَهُ فُلَانٌ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: هَذَا صَوْتُ مُحَمَّدٍ. ثُمَّ أَتَيْتُ أَصْحَابِي قَبْلَ الصُّبْحِ بِمَكَّةَ، فَأَتَانِي أَبُو بَكْرٍ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَيْنَ كُنْتَ اللَّيْلَةَ؟ فَقَدِ الْتَمَسْتُكَ فِي مَظَانِّكَ». فقال: «عَلِمْتَ أَنِّي أَتَيْتُ بَيْتَ الْمَقْدِسِ اللَّيْلَةَ؟». فقال: يا رسول الله[(٥)]، إنَّه مسيرة شهر، فصِفْهُ لي. قال: «فَفُتِحَ لِي صِرَاطٌ كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ لَا يَسْأَلُنِي عَنْ شَيْءٍ إِلَّا أَنْبَأْتُهُ عَنْهُ». قال أبو بكر: أشهد أنَّك رسول الله. فقال المشركون: انظروا إلىٰ ابن أبي كَبْشَة يزعم أنه أتىٰ بيت المقدس الليلة!. قال: فقال: «إِنَّ مِنْ آيَةِ مَا أَقُولُ لَكُمْ أَنِّي مَرَرْتُ بِعِيرٍ لَكُمْ بِمَكَانِ كَذَا وَكَذَا، قَدْ أَضَلُّوا بَعِيرًا لَهُمْ، فَجَمَعَهُ فُلَانٌ، وَإِنَّ مَسِيرَهُمْ يَنْزِلُونَ بِكَذَا ثُمَّ بِكَذَا، وَيَأْتُونَكُمْ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا، يَقْدُمُهُمْ جَمَلٌ آدَمُ، عَلَيْهِ مِسْحٌ أَسْوَدُ وَغِرَارَتَانِ سَوْدَاوَانِ». فلما كان ذلك اليوم أشرف النَّاس ينظرون حتىٰ كان قريب من نصف النهار حتىٰ أقبلت العير يقدمهم ذلك الجمل الذي وصفه رسول الله ﷺ.

هكذا رواه البيهقي من طريقين عن أبي إسماعيل الترمذي به. ثم قال بعد تمامه: «هذا إسناد صحيح، وروىٰ ذلك مفرقًا في أحاديث غيره، ونحن نذكر من ذلك إن شاء الله ما حضرنا». ثم ساق أحاديث كثيرة في الإسراء كالشاهد لهذا الحديث[(٦)].

وقد روىٰ هذا الحديثَ عن شداد بن أوس بطوله الإمامُ أبو محمَّد عبد الرحمن بن أبي حاتم في «تفسيره» عن أبيه، عن إسحاق بن إبراهيم بن العلاء الزبيدي به. ولا شك أن هذا الحديث -أعني: الحديث

---

(١) أي: وازنت بينهما.
(٢) أي: ضربت به جبيني، وهذا كناية عن شرب جميع ما فيه.
(٣) سقط من (ز)، وهو مثبت من «الدلائل».
(٤) الحَمّة: عين ماء حار.
(٥) لوحة (١٢٤ أ).
(٦) رواه البيهقي في «الدلائل» (٢/ ٣٥٥)، وقال: هذا إسناد صحيح. وقد استنكر ابن كثير أشياء وردت في حديث شدَّاد؛ منها صلاته في بيت لحم، وسؤال الصديق عن نعت بيت القدس، ورواه البزار (٨/ ٣٤٨٤)، والطبراني في «الكبير» (٧/ ٧١٤٢)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ٧٨-٧٩): فيه إسحاق بن إبراهيم بن العلاء؛ وثقه يحيىٰ بن معين، وضعفه النسائي. ا.هـ قلت: وقال الحافظ: صدوق يهم كثيرًا.

المروي عن شداد بن أوس- مشتملٌ علىٰ أشياء منها ما هو صحيحٌ كما ذكره البيهقي، ومنها ما هو منكرٌ؛ كالصلاة في بيت لحمٍ، وسؤال الصدِّيق عن نعت بيت المقدس، وغير ذلك. والله أعلم.

- **رواية عبد الله بن عبَّاس رضي الله عنهما:**

قال الإمام أحمد: حدَّثنا عثمان بن محمَّد، حدَّثنا جرير، عن قابوس، عن أبيه قال: حدَّثنا ابن عبَّاسٍ قال: ليلة أُسْرِي بنبي الله ﷺ دخل الجنة، فسمع في جانبها وَجْسًا(١)(٢) فقال: «**يَا جِبْرِيلُ، مَا هَذَا؟**» قال: «**هَذَا بِلَالٌ الْمُؤَذِّنُ**». فقال رسول الله ﷺ حين جاء إلىٰ الناس: «**قَدْ أَفْلَحَ بِلَالٌ، قَدْ رَأَيْتُ لَهُ كَذَا وَكَذَا**». قال: فلَقِيَهُ موسىٰ عليه السلام فرحَّب به، وقال: «**مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الأُمِّيِّ**»، قال: «**وَهُوَ رَجُلٌ آدَمُ طَوِيلٌ، سَبْطٌ(٣) شَعَرُهُ مَعَ أُذُنَيْهِ أَوْ فَوْقَهُمَا**»، فقال: «**مَنْ هَذَا يَا جِبْرِيلُ**»؟ قال: «**هَذَا مُوسَىٰ**». [قال: فمضىٰ، فلقيه عيسىٰ فرحب به، وقال: «**مَنْ هَذَا يَا جِبْرِيلُ**»؟ قال: «**هَذَا عِيسَىٰ**»](٤) . قال فمضىٰ فلَقِيَه شيخ جليل مُتَهَيِّب، فرحَّب به وسلَّم عليه وكلهم يسلم عليه، قال: «**مَنْ هَذَا يَا جِبْرِيلُ**»؟ قال: «**هَذَا أَبُوكَ إِبْرَاهِيمُ**»، قال: ونظر في النَّار، فإذا قوم يأكلون الجيف، قال: «**مَنْ هَؤُلَاءِ يَا جِبْرِيلُ**»؟ قال: «**هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ لُحُومَ(٥) النَّاسِ**»، ورأىٰ رجلًا أحمرَ أزرق جدًّا، قال: «**مَنْ هَذَا يَا جِبْرِيلُ؟**» قال: «**هَذَا(٦) عَاقِرُ النَّاقَةِ**».

قال: فلمَّا أتىٰ رسول الله ﷺ المسجد الأقصىٰ قام يصلِّي، [ثم التفت](٧) فإذا النَّبيُّون أجمعون يصلُّون معه. فلما انصرف جيء بقَدَحين، أحدُهما عن اليمين والآخر عن الشمال، في أحدهما لبن وفي الآخر عسل، فأخذ اللَّبن فشرب منه، فقال الذي كان معه القدح: أصبت الفطرة. إسنادٌ صحيحٌ ولم يخرجوه(٨) .

- **طريق أخرىٰ:**

قال الإمام أحمد: حدَّثنا حسن، حدَّثنا ثابت أبو زيد، حدَّثنا هلال، حدَّثني عكرمة، عن ابن عبَّاس قال: أسري بالنَّبيِّ ﷺ إلىٰ بيت المقدس، ثم جاء من ليلته فحدَّثهم بمسيره وبعلامة بيت المقدس وبعيرهم، فقال ناس: نحن لا نصدِّق محمَّدًا بما يقول! فارتدوا كفارًا، فضرب الله رقابهم مع أبي جهلٍ، وقال أبو جهل: يخوِّفُنا محمَّد بشجرة الزَّقُّوم، هاتوا تمرًا وزُبدًا فتزَقَّموا(٩) ، ورأىٰ الدَّجَّال في صورته رؤيا عينٍ ليس برؤيا منام، وعيسىٰ وموسىٰ وإبراهيم. فسئل النَّبيُّ ﷺ عن الدَّجَّال فقال: «**رَأَيْتُهُ فَيْلَمَانِيًّا(١٠) أَقْمَرَ هِجَانًا، إِحْدَىٰ عَيْنَيْهِ**

---

(١) **الوجس:** الصوت الخفي، وتوجس بالشئ: أحس به فتسمع له.

(٢) في (ز): «وخشا»، والمثبت من «المسند».

(٣) **السبط من الشعر:** المنبسط المسترسل.

(٤) سقط من (ز)، والمثبت من «المسند».

(٥) في (ز): «لحم»، والمثبت من «المسند».

(٦) لوحة (١٢٤ ب).

(٧) سقط من (ز)، والمثبت من «المسند».

(٨) **ضعيف:** رواه أحمد (١/ ٢٥٧)، وفيها قابوس بن أبي ظَبْيان، قال الحافظ: فيه لين، وفي «تهذيب الكمال» أقوال لأهل العلم فيه، وخلاصة قولهم أنه لا يحتج به إذا انفرد، ويكتب حديثه، وقد اعترض الشيخ الألباني علىٰ تصحيح ابن كثير والسيوطي لهذا الحديث في رسالته عن الإسراء والمعراج.

(٩) أي: كلوا.

(١٠) **الفَيْلَماني:** صاحب الجثة العظيمة، والأقمر: الشديد البياض، والهجان: الأبيض.

قَائِمَةً[١] كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ، كَأَنَّ شَعَرَ رَأْسِهِ أَغْصَانُ شَجَرَةٍ. وَرَأَيْتُ عِيسَىٰ أَبْيَضَ، جَعْدَ الرَّأْسِ[٢]، حَدِيدَ البَصَرِ، مُبَطَّنَ الخَلْقِ[٣]، وَرَأَيْتُ مُوسَىٰ أَسْحَمَ[٤] آدَمَ، كَثِيرَ الشَّعرِ، شَدِيدَ الخَلْقِ، وَنَظَرْتُ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ فَلَمْ أَنْظُرْ إِلَىٰ إِرْبٍ[٥] مِنْهُ إِلَّا نَظَرْتُ إِلَيْهِ مِنِّي، حَتَّىٰ كَأَنَّهُ صَاحِبُكُمْ. قَالَ جِبْرِيلُ: سَلِّمْ عَلَىٰ مَالِكٍ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ». [ورواه النَّسائي من حديث أبي زيد ثابت بن يزيد عن هلال -وهو ابن خباب- به، وهو إسناد صحيح[٦].][٧]

- طريق أخرىٰ:

وقال البيهقي: أنبأنا أبو عبد الله الحافظ، أنبأنا أبو بكر الشَّافعي، أنبأنا إسحاق بن الحسن، حدَّثنا الحسين ابن محمَّد، حدَّثنا شيبان، عن قتادة، عن أبي العالية قال: حدَّثنا ابن عم نَبيِّكم ﷺ ابن عبَّاس قال: قال رسول الله ﷺ: «رَأَيْتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي مُوسَىٰ بْنَ عِمْرَانَ، رَجُلًا طُوَالًا جَعْدًا، كَأَنَّهُ مِنْ رِجَالِ شَنُوءَةَ، وَرَأَيْتُ عِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ مَرْبُوعَ الخَلْقِ، إِلَىٰ الحُمْرَةِ وَالبَيَاضِ، سَبْطَ الرَّأْسِ». وأُرِيَ مالكًا خازن جهنم والدجال، في آيات أراهن الله إياه، قال: ﴿فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾ [السجدة: ٢٣]، فكان قتادة يفسرها: أنَّ نبي الله ﷺ قد لقي موسىٰ عليه السلام ﴿وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ قال: جعل الله موسىٰ هدًىٰ لبني إسرائيل[٨]. رواه مسلم في «الصحيح» عن عبد بن حميد، عن يونس بن محمَّد، عن شيبان. وأخرجاه من حديث شُعْبَة عن قتادة مختصرًا.

- طريق أخرىٰ:

قال [البيهقي: أخبرنا علي بن أحمد بن عبدان، أنبأنا أحمد بن عبيد الصفَّار، حدَّثنا دُبَيْس المُعدَّل، حدَّثنا عفان قال: حدَّثنا][٩] حماد بن سلمة، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عبَّاس قال: قال رسول الله ﷺ: «لَمَّا أُسْرِيَ بِي، مَرَّتْ بِي رَائِحَةٌ طَيِّبَةٌ، فَقُلْتُ: مَا هَٰذِهِ الرَّائِحَةُ؟ قَالُوا: مَاشِطَةُ بِنْتِ فِرْعَوْنَ وَأَوْلَادُهَا[١٠]، سَقَطَ مُشْطُهَا مِنْ يَدِهَا فَقَالَتْ: بِاسْمِ اللهِ. فَقَالَتْ ابْنَةُ فِرْعَوْنَ: أَبِي؟ قَالَتْ: رَبِّي وَرَبُّكِ وَرَبُّ أَبِيكِ. قَالَتْ: أَوَلَكِ رَبٌّ غَيْرُ أَبِي؟ قَالَتْ: نَعَمْ، رَبِّي وَرَبُّكِ وَرَبُّ أَبِيكِ اللهُ». قال: «فَدَعَاهَا فَقَالَ: أَلَكِ رَبٌّ غَيْرِي؟ قَالَتْ: نَعَمْ، رَبِّي وَرَبُّكَ اللهُ ﷻ». قال: «فَأَمَرَ بِنُقْرَةٍ[١١] مِنْ نُحَاسٍ فَأُحْمِيَتْ، ثُمَّ أَمَرَ بِهَا لِتُلْقَىٰ فِيهَا،

---

(١)العين القائمة: هي الباقية في موضعها صحيحة، وانما ذهب نظرها وإبصارها.
(٢)أي: جعد الشعر، وهو ضد السبط المسترسل.
(٣)المبطن: الضامر البطن.
(٤)الأسحم: الأسود، وهو الآدم. (٥)الإِرْب: العضو، وجمعه: آراب.
(٦)رواه أحمد (١/ ٣٧٤)، وأبو يعلىٰ (٢٧٢٠)، وإسناده صحيح كما قال ابن كثير.
(٧)تأخرت هذه العبارة في (ز) بعد حديثين، وقدمناها وفقًا للمطبوع، وهو الصواب.
(٨)رواه البيهقي (٢/ ٣٨٦)، وهو في البخاري (٣٣٩٦)، ومسلم (١٦٥) مختصرًا.
(٩)سقط من (ز)، والمثبت موافق لما في «الدلائل». (١٠)لوحة (١٢٥ أ).
(١١)في (ز): «ببقرة»، وكذلك في «الدلائل» و«المسند» و«الطبراني»، والمثبت موافق لما في «الشعب» و«البزار» و«ابن حبان»، وهو أقرب.

قَالَتْ: إِنَّ لِي [إِلَيْكَ](١) حَاجَةً. قَالَ: مَا هِيَ؟ قَالَتْ: تَجْمَعُ عِظَامِي وَعِظَامَ وَلَدِي فِي مَوْضِعٍ، قَالَ: ذَاكَ لَكِ، لِمَا لَكِ عَلَيْنَا مِنَ الحَقِّ»، قال: «فَأَمَرَ بِهِمْ فَأُلْقُوا وَاحِدًا وَاحِدًا، حَتَّىٰ بَلَغَ رَضِيعًا فِيهِمْ، فَقَالَ: يَا أُمَّهْ، قَعِي وَلَا تَقَاعَسِي، فَإِنَّكِ عَلَىٰ الحَقِّ». قال: «وَتَكَلَّمَ أَرْبَعَةٌ وَهُمْ صِغَارٌ: هَذَا، وَشَاهِدُ يُوسُفَ، وَصَاحِبُ جُرَيْجٍ، وَعِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ». إسناد لا بأس به، ولم يخرجوه(٢).

- طريق أخرىٰ:

وقال الإمام أحمد أيضًا حدَّثنا محمَّد بن جعفر، ورَوحٌ المعنىٰ قالا: حدَّثنا عوف، عن زُرارة بن أوفىٰ، عن ابن عبَّاس قال: قال رسول الله ﷺ: «لَمَّا كَانَ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي وَأَصْبَحْتُ بِمَكَّةَ، فَظِعْتُ [بِأَمْرِي](٣)(٤) وَعَرَفْتُ أَنَّ النَّاسَ مُكَذِّبِيَّ» فقعد معتزلًا حزينًا، فمرَّ به عدوُّ الله أبو جهل فجاء حتىٰ جلس إليه، فقال له كالمستهزئ: [هل كان من شيء؟](٥) فقال له رسول الله ﷺ: «نَعَمْ» قال: وما هو؟ قال: «إِنِّي أُسْرِيَ بِيَ اللَّيْلَةَ». قال [إلىٰ أين؟ قال:](٦) «إِلَىٰ بَيْتِ المَقْدِسِ» قال: ثم أصبحت بين ظهرانينا؟! قال: «نَعَمْ». قال: فلم يره أنَّه يكذِّبه مخافة أن يجحده الحديث إن دعا قومه إليه، فقال: أرأيت إن دعوت قومك أتحدِّثهم بما حدَّثتني؟ فقال رسول الله ﷺ: «نَعَمْ». قال: هيَّا معشر بني كعب بن لؤي، قال: فانتفضَتْ إليه المجالس وجاءوا حتىٰ جلسوا إليهما. قال: حَدِّثْ قومك بما حدَّثتني. فقال رسول الله ﷺ: «إِنِّي أُسْرِيَ بِيَ اللَّيْلَةَ». فقالوا: إلىٰ أين؟ قال: «إِلَىٰ بَيْتِ المَقْدِسِ» قالوا: ثم أصبحت بين ظهرانينا؟ قال: «نَعَمْ». قال: فمِن بين مصفِّقٍ، ومن بين واضعٍ يده علىٰ رأسه متعجبًا للكذب -زعم- قالوا: وتستطيع أن تنعت لنا المسجد -وفي القوم مَن قد سافر إلىٰ ذلك البلد ورأىٰ المسجد- قال رسول الله ﷺ: «فَذَهَبْتُ أَنعتُ، فَمَا زِلْتُ أَنعتُ حَتَّىٰ التَبَسَ عَلَيَّ بَعْضُ النَّعْتِ» قال: «فَجِيءَ بِالمَسْجِدِ وَأَنَا أَنظُرُ إِلَيْهِ، حَتَّىٰ وُضِعَ دُونَ دَارِ عَقِيلٍ -أَوْ عِقَالٍ- فَنَعَتُّهُ وَأَنَا أَنظُرُ إِلَيْهِ». قال: وكان مع هذا نعت لم أحفظه -يقول عوف-: قال: فقال القوم: أمَّا النعت فوالله لقد أصاب(٧).

وأخرجه النَّسائي(٨) من حديث عوف [بن أبي جميلة -وهو الأعرابي- به. ورواه البيهقي من حديث النضر بن شميل وهوذة، عن عوف](٩) -وهو ابن أبي جميلة الأعرابي، أحد الأئمة الثقات- به.

---

(١) سقط من (ز)، وهو مثبت من «الدلائل».

(٢) **حسن**: رواه أحمد (١/ ٣١٠)، والطبراني (١٢٢٧٩)، وابن حبان (٢٩٠٤)، وحماد بن سلمة روىٰ عن عطاء قبل الاختلاط.

(٣) أي: اشتد عليَّ وهبته. (٤) سقط من (ز)، وهو مثبت من «المسند».

(٥) مكانها بياض في (ز) وهو مثبت من «المسند».

(٦) في (ز): «إلىٰ أن قال: هل كان من شيء»، والمثبت موافق لما في «المسند».

(٧) **صحيح**: رواه أحمد (١/ ٤٠٩)، والنسائي في «الكبرىٰ» (١١٨٥) من كتاب التفسير، وحسَّنه الحافظ (٧/ ١٩٩ - فتح)، والضياء في «المختارة» (١٠/ ٣٤)، وصحَّحه السيوطي (٤/ ٢٨٤ - الدُّر المنثور).

(٨) لوحة (١٢٥ ب). (٩) ليست في (ز).

- رواية عبد الله بن مسعود ﷺ:

قال الحافظ أبو بكر البيهقي: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، أخبرنا أبو عبد الله محمَّد بن يعقوب، حدَّثنا السري بن خزيمة، حدَّثنا يوسف بن بُهلول، حدَّثنا عبد الله بن نمير، عن مالك بن مِغْوَل، عن الزبير بن عدي، عن طلحة بن مُصَرِّف، عن مرة الهَمْدَاني، عن عبد الله بن مسعود قال: لما أسري برسول الله ﷺ، فانتهىٰ إلىٰ سدرة المنتهىٰ، وهي في السماء السادسة، وإليها ينتهي ما يصعد به حتىٰ يُقْبَض منها، وإليها ينتهي ما يهبط [به](١) من فوقها حتىٰ يقبض منها ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾ [النجم: ١٦] قال: غشيها فراش من ذهب، وأُعْطِي رسول الله ﷺ الصلواتِ الخمس، وخواتيمَ سورة البقرة، وغفر لمن لا يشرك بالله المُقْحِمات، يعني الكبائر(٢). ورواه مسلم في «صحيحه»، عن محمَّد بن عبد الله بن نمير وزهير بن حرب، كلاهما عن عبد الله ابن نمير، به. ثم قال البيهقي: «وهذا الذي ذكره عبد الله بن مسعود طرف من حديث المعراج، وقد رواه أنس ابن مالك، عن مالك بن صَعْصَعَة، عن النبيِّ ﷺ، ثم عن أبي ذرٍّ، عن النَّبيِّ ﷺ، ثم رواه مرَّة مرسلًا دون ذكرهما»، ثم إنَّ البيهقيَّ ساق الأحاديث الثلاثةَ كما تقدَّم(٣).

قلتُ: وقد روي عن ابن مسعود بأبسط من هذا، وفيه غرابة؛ وذلك فيما رواه الحسن بن عرفة في «جُزْئِهِ المشهور»: حدَّثنا مروان بن معاوية، عن قَنَان بن عبد الله النَّهْمي، حدَّثنا أبو ظَبْيان الجنبي قال: كنا جلوسًا عند أبي عبيدة بن عبد الله -يعني ابن مسعود- ومحمَّد بن سعد بن أبي وقاص، وهما جالسان، فقال محمَّد ابن سعد لأبي عبيدة: حَدِّثْنَا عن أبيك ليلة أسري بمحمَّدٍ ﷺ. فقال أبو عبيدة: لا، بل حدِّثْنَا أنت عن أبيك، فقال محمَّد: لو سَأَلْتَنِي قبل أن أسألك لفعلت! قال: فأنْشَأَ أبو عبيدة يحدِّث؛ يعني: عن أبيه كما سُئِلَ قال: قال رسول الله ﷺ: «**أَتَانِي جِبْرِيلُ بِدَابَّةٍ فَوْقَ الحِمَارِ وَدُونَ البَغْلِ، فَحَمَلَنِي عَلَيْهِ، ثُمَّ انْطَلَقَ يَهْوِي بِنَا كُلَّمَا صَعِدَ عَقَبَةً اسْتَوَتْ رِجْلَاهُ كَذَلِكَ مَعَ يَدَيْهِ، وَإِذَا هَبَطَ اسْتَوَتْ يَدَاهُ مَعَ رِجْلَيْهِ، حَتَّىٰ مَرَرْنَا بِرَجُلٍ طُوَالٍ سَبْطٍ آدَمَ، كَأَنَّهُ مِنْ رِجَالِ أَزْدِ شَنُوءَةَ، وَهُوَ يَقُولُ -فَيَرْفَعُ صَوْتَهُ يَقُولُ- أَكْرَمْتَهُ وَفَضَّلْتَهُ**». قال: «**فَدُفِعْنَا إِلَيْهِ**(٤) **فَسَلَّمْنَا عَلَيْهِ فَرَدَّ السَّلَامَ، فَقَالَ: مَنْ هَذَا مَعَكَ يَا جِبْرِيلُ؟ قَالَ: هَذَا أَحْمَدُ، قَالَ: مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الأُمِّيِّ العَرَبِيِّ، الَّذِي بَلَّغَ**(٥) **رِسَالَةَ رَبِّهِ، وَنَصَحَ لِأُمَّتِهِ**». قال: «**ثُمَّ انْدَفَعْنَا فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا يَا جِبْرِيلُ؟ قَالَ: هَذَا مُوسَىٰ بْنُ عِمْرَانَ**». قال: «**قُلْتُ: وَمَنْ يُعَاتِبُ؟**» قال: «**يُعَاتِبُ رَبَّهُ فِيكَ!**». «**قُلْتُ: فَيَرْفَعُ صَوْتَهُ عَلَىٰ رَبِّهِ؟!**» قال: «**إِنَّ اللهَ عَجَلَّ قَدْ عَرَفَ لَهُ حِدَّتَهُ**». قال: «**ثُمَّ انْدَفَعْنَا حَتَّىٰ مَرَرْنَا بِشَجَرَةٍ كَأَنَّ ثَمَرَهَا السُّرُجَ**(٦) **تَحْتَهَا شَيْخٌ وَعِيَالُهُ**». قال: «**فَقَالَ لِي جِبْرِيلُ: [اعْمِدْ]**(٧) **إِلَىٰ أَبِيكَ إِبْرَاهِيمَ. فَدُفِعْنَا إِلَيْهِ فَسَلَّمْنَا عَلَيْهِ فَرَدَّ السَّلَامَ، فَقَالَ إِبْرَاهِيمُ: مَنْ هَذَا**

---

(١) سقط من (ز)، وهو مثبت من «مسلم» و«الدلائل» وغيرهما.
(٢) مسلم (١٧٣)، والبيهقي في «الدلائل» (٢/ ٢٧٢).
(٣) وهذه الأحاديث تقدم تخريجها.
(٤) أي: ذهبنا اليه. ومنه: (دفع من عرفات)، أي: ابتدأ السير، ودفع نفسه منها ونحاها، أو دفع ناقته وحملها علىٰ السير.
(٥) لوحة (١٢٦ أ).
(٦) السُّرُج: جمع سِراج، وهو المصباح الزاهر الذي يسرج بالليل.
(٧) في (ز): «اعهد».

مَعَكَ يَا جِبْرِيلُ؟ قَالَ: هَذَا ابْنُكَ أَحْمَدُ». قال: «فَقَالَ: مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي بَلَّغَ رِسَالَةَ رَبِّهِ وَنَصَحَ لِأُمَّتِهِ، يَا بُنَيَّ، إِنَّكَ لَاقٍ رَبَّكَ اللَّيْلَةَ، وَإِنَّ أُمَّتَكَ آخِرُ الأُمَمِ وَأَضْعَفُهَا، فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَكُونَ حَاجَتُكَ أَوْ جُلُّهَا فِي أُمَّتِكَ فَافْعَلْ». قال: «ثُمَّ انْدَفَعْنَا حَتَّىٰ انْتَهَيْنَا إِلَىٰ المَسْجِدِ الأَقْصَىٰ، فَنَزَلْتُ فَرَبَطْتُ الدَّابَّةَ بِالحَلْقَةِ الَّتِي فِي بَابِ المَسْجِدِ الَّتِي كَانَتِ الأَنْبِيَاءُ تَرْبِطُ بِهَا. ثُمَّ دَخَلْتُ المَسْجِدَ فَعَرَفْتُ النَّبِيِّينَ مِنْ بَيْنِ رَاكِعٍ وَقَائِمٍ وَسَاجِدٍ». قال: «ثُمَّ أُتِيتُ بِكَأْسَيْنِ مِنْ عَسَلٍ وَلَبَنٍ فَأَخَذْتُ اللَّبَنَ فَشَرِبْتُ فَضَرَبَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَنْكِبِي وَقَالَ: أَصَبْتَ الفِطْرَةَ وَرَبِّ مُحَمَّدٍ». قال: «ثُمَّ أُقِيمَتِ الصَّلَاةُ فَأَمَمْتُهُمْ، ثُمَّ انْصَرَفْنَا فَأَقْبَلْنَا»[(١)].

إسناد غريب ولم يخرجوه، فيه من الغرائب سؤال الأنبياء عنه عليه السلام ابتداءً، ثم سؤاله عنهم بعد انصرافه. والمشهور في «الصِّحاح» كما تقدَّم: أن جبريل عليه السلام كان يُعْلِمُهُ بهم أولًا ليسلِّم عليهم سلامَ معرفةٍ. وفيه أنَّه اجتمع بالأنبياء عليهم السلام قبل دخولِهِ المسجد، والصَّحيح أنه إنَّما اجتمع بهم في السَّموات، ثم نزل إلىٰ بيت المقدس ثانيًا وهم معه، وصلَّىٰ بهم فيه، ثم إنَّه ركب البراق وكَرَّ راجعًا إلىٰ مكة، والله أعلم.

- طريق أخرىٰ:

قال الإمام أحمد: حدَّثنا هُشَيم، أخبرنا العوام، عن جَبَلَة بن سُحَيْم، عن مُوثِر بن عَفَازَة[(٢)]، عن ابن مسعود عن النَّبيِّ ﷺ قال: «لَقِيتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ، فَتَذَاكَرُوا أَمْرَ السَّاعَةِ» قال: «فَرَدُّوا أَمْرَهُمْ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ: لَا عِلْمَ لِي بِهَا. فَرَدُّوا أَمْرَهُمْ إِلَىٰ مُوسَىٰ. فَقَالَ: لَا عِلْمَ لِي بِهَا فَرَدُّوا أَمْرَهُمْ إِلَىٰ عِيسَىٰ فَقَالَ: أَمَّا وَجْبَتُهَا فَلَا يَعْلَمُ بِهَا أَحَدٌ إِلَّا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَفِيمَا عَهِدَ إِلَيَّ رَبِّي أَنَّ الدَّجَّالَ خَارِجٌ». قال: «وَمَعِي قَضِيبَانِ، فَإِذَا رَآنِي ذَابَ كَمَا يَذُوبُ الرَّصَاصُ». قال: «فَيُهْلِكُهُ اللهُ إِذَا رَآنِي، حَتَّىٰ إِنَّ الحَجَرَ وَالشَّجَرَ يَقُولُ: يَا مُسْلِمُ إِنَّ تَحْتِي كَافِرًا، فَتَعَالَ فَاقْتُلْهُ». قال: «فَيُهْلِكُهُمُ اللهُ، ثُمَّ يَرْجِعُ النَّاسُ إِلَىٰ بِلَادِهِمْ وَأَوْطَانِهِمْ». قال: «فَعِنْدَ ذَلِكَ يَخْرُجُ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ فَيَطَئُونَ بِلَادَهُمْ[(٣)]، فَلَا يَأْتُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ إِلَّا أَهْلَكُوهُ، وَلَا يَمُرُّونَ عَلَىٰ مَاءٍ إِلَّا شَرِبُوهُ» قال: «ثُمَّ يَرْجِعُ النَّاسُ إِلَيَّ فَيَشْكُونَهُمْ. فَأَدْعُو اللهَ عَلَيْهِمْ، فَيُهْلِكُهُمْ وَيُمِيتُهُمْ حَتَّىٰ تَجْوَىٰ الأَرْضُ مِنْ نَتْنِ رِيحِهِمْ -أَيْ: تُنْتِنُ» قال: «فَيُنْزِلُ اللهُ المَطَرَ فَيَجْتَرِفُ أَجْسَادَهُمْ حَتَّىٰ يَقْذِفَهُمْ فِي البَحْرِ. فَفِيمَا عَهِدَ إِلَيَّ رَبِّي: أَنَّ ذَلِكَ إِذَا كَانَ كَذَلِكَ أَنَّ السَّاعَةَ كَالحَامِلِ المُتِمِّ، لَا يَدْرِي أَهْلُهَا مَتَىٰ تَفْجَؤُهُمْ بِوِلَادِهَا، لَيْلًا أَوْ نَهَارًا»[(٤)].

---

(١) ضعيف: رواه الحسن بن عرفة (٦٩)، وفيه قَنَان بن عبد الله، قال الحافظ: مقبول، وفيه أيضًا انقطاع؛ لأن أبا عبيدة لم يسمع من أبيه، وجهالة قتادة بن عبد الله التيمي، فقد أورده ابن أبي حاتم في «الجرح والتعديل» (٧/ ١٣٥) (٧/ ٧٥٩)، ولم يذكر فيه جرحًا ولا تعديلًا، وأيضًا فالحديث فيه غرائب لا تتفق مع الروايات السابقة الصحيحة، راجع كلام ابن كثير بعد تعليقه علىٰ الحديث.

(٢) في (ز): «مرثد بن عفارة»، والمثبت موافق لما في «المسند»، وانظر ترجمته في «التهذيب».

(٣) لوحة (١٢٦ ب).

(٤) رواه ابن ماجه (٤٠٨١)، وأحمد (١/ ٣٧٥)، والحاكم (٤/ ٤٨٨) وصححه علىٰ شرط الشيخين ووافقه الذهبي، وقال البوصيري: هذا إسناد صحيح رجاله ثقات. وقال أحمد شاكر: إسناده صحيح. وقال الألباني: ضعيف. قلت: وعلته: مُؤْثِر بن عَفَازة، وقال الحافظ: مقبول.

وأخرجه ابن ماجه، عن بُنْدار، عن يزيد بن هارون، عن العوام بن حوشب.

رواية عبد الرحمن بن قُرْط، أخي عبد الله بن قرط الثُّمَالي:

قال سعيد بن منصور: حدَّثنا مسكين بن ميمون -مؤذن مسجد الرملة- حدَّثني عُروة بن رُوَيْم، عن عبد الرحمن بن قُرط، أن رسول الله ﷺ ليلة أسري به من المسجد الحرام إلىٰ المسجد الأقصىٰ كان بين زمزم والمقام، جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره، فطارا به حتىٰ بلغ السموات العلىٰ، فلما رجع قال: «**سَمِعْتُ تَسْبِيحًا فِي السَّمَوَاتِ العُلَىٰ مَعَ تَسْبِيحٍ كَثِيرٍ، سَبَّحَتِ السَّمَوَاتُ العُلَىٰ مِنْ ذِي المَهَابَةِ مُشْفِقَاتٍ مِنْ ذِي العُلُوِّ بِمَا عَلَا، سُبْحَانَ العَلِيِّ الأَعْلَىٰ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ**»(١).

ويذكر هذا الحديث عند قوله تعالىٰ من هذه السورة: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَٰتُ السَّبْعُ﴾ الآية [الإسراء: ٤٤].

- **رواية عمر بن الخطاب رضي الله عنه:**

قال الإمام أحمد: حدَّثنا أسود بن عامر، حدَّثنا حمَّاد بن سلمة، عن أبي سنان، عن عبيد بن آدم وأبي مريم وأبي شعيب؛ أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان بالجابية، فذكر فتح بيت المقدس قال: قال أبو سلمة: فحدَّثني أبو سنان، عن عبيد بن آدم قال: سمعت عمر بن الخطَّاب يقول لكعب: أين ترىٰ أن أصلي؟ قال: إن أخذت عني صليت خلف الصخرة، فكانت القدس كلها بين يديك، فقال عمر رضي الله عنه: ضاهيت اليهودية، [لا](٢) ولكن أصلي حيث صلَّىٰ رسول الله ﷺ فتقدَّم إلىٰ القبلة، فصلىٰ ثم جاء فبسط رداءه وكنس الكناسة في ردائه، وكنس الناس.

[فلم يعظم](٣) الصخرة تعظيمًا يصلي وراءها وهي بين يديه، كما أشار كعب الأحبار وهو مِن قومٍ يعظِّمونها حتىٰ جعلوها قبلتهم. ولكن منَّ الله عليه بالإسلام، فهُدي إلىٰ الحق؛ ولهذا لما أشار بذلك قال له أميرُ المؤمنين: ضاهيت اليهودية، ولا أهانها إهانة النصارىٰ الذين كانوا قد جعلوها مزبلة من أجل أنها قبلة اليهود، ولكن أماط الأذىٰ، وكنس عنها الكناسة بردائه(٤).

وهذا شبيه بما جاء في «صحيح مسلم» عن أبي مرثد الغَنَوِي قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَا تَجْلِسُوا عَلَىٰ القُبُورِ وَلَا تُصَلُّوا إِلَيْهَا**»(٥).

- **رواية أبي هريرة رضي الله عنه:**

وهي مطوَّلة(٦) جدًّا وفيها غرابةٌ. قال الإمام أبو جعفر بن جرير في تفسير «سورة سبحان»: حدَّثنا علي بن سهل، حدَّثنا حجاج، حدَّثنا أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية الرياحي، عن أبي هريرة أو

---

(١) منكر: رواه أبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٧)، وفي «معرفة الصحابة» (٤٦٥٨ ـ بتحقيقي)، وفيه مسكين بن ميمون، قال الذهبي في ترجمته عن هذا الحديث: أنَّه منكر.

(٢) سقطت من (ز)، وهي مثبتة في «المسند».

(٣) سقطت من (ز).

(٤) ضعيف: رواه أحمد (١/ ٣٨)، وفيه عيسىٰ بن سنان أبو سنان: ليِّن الحديث.

(٥) مسلم (٩٧٢).

(٦) لوحة (١٢٧ أ).

غيره -شك أبو جعفر- في قول الله ﷻ: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾. قال: جاء جبريل [إلى النبي ﷺ ومعه ميكائيل، فقال جبريل] (١) لميكائيل: ائتني بطَسْت من ماء زمزم، كيما أطهر قلبه وأشرح له صدره، قال: فشَقَّ عنه بطنه، فغسله ثلاثَ مرَّاتٍ. واختلف إليه ميكائيل بثلاث طِسَاس (٢) من ماء زمزم، فشرح صدره ونزع ما كان فيه من غلٍّ، وملأه حلمًا وعلمًا، وإيمانًا ويقينًا وإسلامًا، وختم بين كتفيه بخاتم النبوة.

ثم أتاه بفرسٍ فحمل عليه، كل خطوة [منه] (٣) منتهى بصره -أو: أقصى بصره- قال: فسار وسارَ معه جبريل - عليهما السلام - قال: فأتى على قوم يزرعون في يوم ويحصدون في يوم، كلما حصدوا عاد كما كان، فقال النبيُّ ﷺ: «يا جِبريلُ، ما هَذا»؟ قال: «هَؤُلاءِ المُجاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ، تُضاعَفُ لَهُمُ الحَسَنَةُ بِسَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ، وَمَا أَنْفَقُوا مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ، وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ».

ثم أتى على قوم تُرضَخ رءوسهم بالصخر، كلما رُضِخت عادت كما كانت، ولا يفتر عنهم من ذلك شيء، فقال: «مَا هَؤُلَاءِ يَا جِبْرِيلُ»؟ قال: «هَؤُلاءِ الَّذِينَ تَتَثَاقَلُ رُءُوسُهُمْ عَنِ الصَّلاةِ المَكْتُوبَةِ». ثم أتى على قوم على أقبالهم رقاع، وعلى أدبارهم رقاع يسرحون كما تسرح الإبل والنعم، ويأكلون الضَّريع (٤) والزَّقُّوم [ورضف] (٥) جهنم وحجارتها، قال: «مَا هَؤُلاءِ يَا جِبْرِيلُ»؟ قال: «هَؤُلاءِ الَّذِينَ لا يُؤَدُّونَ صَدَقَاتِ أَمْوَالِهِمْ، وَمَا ظَلَمَهُمُ اللهُ شَيْئًا، وَمَا اللهُ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ».

ثم أتى على قوم بين أيديهم لحمٌ نضيجٌ في قدْرٍ، ولحم آخر [نيءٌ] (٦) في قدْرٍ خبيثٍ، فجعلوا يأكلون من النَّيءِ الخبيث، ويدَعُون النَّضيج الطَّيب، فقال: «مَا هَؤُلاءِ يَا جِبْرِيلُ»؟ فقال: «هَذَا الرَّجُلُ مِنْ أُمَّتِكَ، تَكُونُ عِنْدَهُ المَرْأَةُ الحَلالُ الطَّيِّبَةُ، فَيَأْتِي امْرَأَةً خَبِيثَةً فَيَبِيتُ عِنْدَهَا حَتَّىٰ يُصْبِحَ، [وَالمَرْأَةُ تَقُومُ مِنْ عِنْدِ زَوْجِهَا حَلالًا طَيِّبًا، فَتَأْتِي رَجُلًا خَبِيثًا فَتَبِيتُ مَعَهُ حَتَّىٰ تُصْبِحَ»] (٧).

قال: ثم أتى على خشبةٍ على الطريق، لا يمرُّ بها ثوب إلا شقَّته، ولا شيء إلا خرقته، قال: «مَا هَذَا يَا جِبْرِيلُ»؟ قال: «هَذَا مَثَلُ أَقْوَامٍ مِنْ أُمَّتِكَ، يَقْعُدُونَ عَلَى الطَّرِيقِ يَقْطَعُونَهُ، ثُمَّ تَلَا ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾» [الأعراف: ٨٦].

قال: ثم أتى على رجل قد جمَع حُزْمة [حطب] (٨) عظيمة لا يستطيع حملها، وهو يزيد عليها، فقال: «مَا هَذَا يَا جِبْرِيلُ؟» فقال: «هَذَا الرَّجُلُ مِنْ أُمَّتِكَ يَكُونُ عَلَيْهِ أَمَانَاتُ النَّاسِ لا يَقْدِرُ عَلَىٰ أَدَائِهَا

(١) سقط من (ز)، وهو مثبت من «الطبري».
(٢) طساس: جمع طست.
(٣) سقط من (ز)، وهو مثبت من «الطبري».
(٤) الضريع: نبت بالحجاز له شوك كبار. والزَّقوم: ما وصفَ اللهُ في كتابه العزيز فقال: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ۝٦٤ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ۝٦٥﴾ [الصافات]، وهي: فَعُّول من الزَّقْم: اللَّقم الشديد والشُّرب المُفرِط. «النهاية».
(٥) في (ز): «ووصف».
(٦) سقط من (ز)، وهو مثبت من «الطبري».
(٧) سقط من (ز)، والمثبت من «الطبري».
(٨) سقط من (ز)، وهو مثبت من «الطبري».

وَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَحْمِلَ عَلَيْهَا».

ثم أتىٰ علىٰ قوم تُقْرَض [1] ألسنتهم وشفاههم بمقاريض من حديد، كلما قرضت عادت كما كانت لا يفتر عنهم من ذلك شيء، قال: «مَا هَؤُلَاءِ يَا جِبْرِيلُ؟» قال: «هَؤُلَاءِ خُطَبَاءُ الفِتْنَةِ».

ثم أتىٰ علىٰ جُحرٍ صغيرٍ يخرج منه ثورٌ عظيمٌ، فجعل الثَّور يريد أن يرجع من [حيث] [2] خرج، فلا يستطيع، فقال: «مَا هَذَا يَا جِبْرِيلُ؟» فقال: «هَذَا الرَّجُلُ يَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ العَظِيمَةِ ثُمَّ يَنْدَمُ عَلَيْهَا فَلَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَرُدَّهَا».

ثم أتىٰ علىٰ وادٍ فوجد ريحًا طيبةً باردةً، وريح مسك، وسمع صوتًا، فقال: «يَا جِبْرِيلُ، مَا هَذِهِ الرِّيحُ الطَّيِّبَةُ البَارِدَةُ؟ وَمَا هَذَا المِسْكُ؟ وَمَا هَذَا الصَّوْتُ»؟ قال: «هَذَا صَوْتُ الجَنَّةِ تَقُولُ: يَا رَبِّ آتِنِي مَا وَعَدْتَنِي، فَقَدْ كَثُرَتْ غُرَفِي، وَإِسْتَبْرَقِي وَحَرِيرِي وَسُنْدُسِي، وَعَبْقَرِيِّي [3] وَلُؤْلُئِي وَمُرْجَانِي، وَفِضَّتِيْ وَذَهَبِي وَأَكْوَابِي وَصِحَافِي، وَأَبَارِيقِي وَمَرَاكِبِي، وَعَسَلِي وَمَائِي، وَخَمْرِي وَلَبَنِي فَآتِنِي مَا وَعَدْتَنِي. فَقَالَ: لَكِ كُلُّ مُسْلِمٍ وَمُسْلِمَةٍ، وَمُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ، وَمَنْ آمَنَ بِي وَبِرُسُلِي وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَمْ يُشْرِكْ بِي، وَلَمْ يَتَّخِذْ مِنْ دُونِي أَنْدَادًا، وَمَنْ خَشِيَنِي فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ سَأَلَنِي أَعْطَيْتُهُ، وَمَنْ أَقْرَضَنِي جَزَيْتُهُ، وَمَنْ تَوَكَّلَ عَلَيَّ كَفَيْتُهُ، إِنِّي أَنَا اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا، لَا أُخْلِفُ المِيعَادَ، وَقَدْ أَفْلَحَ المُؤْمِنُونَ، وَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الخَالِقِينَ، قَالَتْ: قَدْ رَضِيتُ».

قال: ثم أتىٰ علىٰ وادٍ فسمع صوتًا منكرًا، ووجد ريحًا منتنةً، فقال: «مَا هَذِهِ الرِّيحُ يَا جِبْرِيلُ؟ وَمَا هَذَا الصَّوْتُ»؟ فقال: «هَذَا صَوْتُ جَهَنَّمَ تَقُولُ: يَا رَبِّ آتِنِي مَا وَعَدْتَنِي، فَقَدْ كَثُرَتْ سَلَاسِلِي وَأَغْلَالِي، وَسَعِيرِي وَحَمِيمِي، وَضَرِيعِي، وَغَسَّاقِي وَعَذَابِي، وَقَدْ بَعُدَ قَعْرِي، وَاشْتَدَّ حَرِّي، فَآتِنِي كُلَّ مَا وَعَدْتَنِي، فَقَالَ: لَكِ كُلُّ مُشْرِكٍ وَمُشْرِكَةٍ، وَكَافِرٍ وَكَافِرَةٍ، وَكُلُّ خَبِيثٍ وَخَبِيثَةٍ، وَكُلُّ جَبَّارٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الحِسَابِ. قَالَتْ: قَدْ رَضِيتُ».

قال: ثم سار حتىٰ أتىٰ بيت المقدس، فنزل فربط فرسه إلىٰ صخرة، ثم دخل فصلىٰ مع الملائكة، فلما قُضِيت الصلاةُ قالوا: «يَا جِبْرِيلُ، مَنْ هَذَا مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ ﷺ، قَالُوا: أَوَقَدْ أُرْسِلَ مُحَمَّدٌ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالُوا: حَيَّاهُ اللهُ مِنْ أَخٍ وَمِنْ خَلِيفَةٍ، فَنِعْمَ الأَخُ وَنِعْمَ الخَلِيفَةُ، وَنِعْمَ المَجِيءُ جَاءَ».

قال: ثم لقي أرواح الأنبياء، فأثنوا علىٰ ربهم، فقال إبراهيم: «الحَمْدُ للهِ الَّذِي اتَّخَذَنِي خَلِيلًا، وَأَعْطَانِي مُلْكًا عَظِيمًا، وَجَعَلَنِي أُمَّةً قَانِتًا يُؤْتَمُّ بِي، وَأَنْقَذَنِي مِنَ النَّارِ، وَجَعَلَهَا عَلَيَّ بَرْدًا وَسَلَامًا». ثمَّ إن موسىٰ عليه السلام أثنىٰ علىٰ ربِّه عز وجل فقال: «الحَمْدُ للهِ الَّذِي كَلَّمَنِي تَكْلِيمًا، وَجَعَلَ هَلَاكَ آلِ فِرْعَوْنَ وَنَجَاةَ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ يَدِي، وَجَعَلَ مِنْ أُمَّتِي قَوْمًا يَهْدُونَ بِالحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ». ثمَّ إنَّ داود عليه السلام أثنىٰ علىٰ ربِّه عز وجل فقال: «الحَمْدُ للهِ الَّذِي جَعَلَ لِي مُلْكًا عَظِيمًا، وَعَلَّمَنِي الزَّبُورَ، وَأَلَانَ لِيَ الحَدِيدَ، وَسَخَّرَ لِيَ الجِبَالَ يُسَبِّحْنَ [4] وَالطَّيْرَ، وَأَعْطَانِي الحِكْمَةَ وَفَصْلَ الخِطَابِ». ثم إن سليمان عليه السلام أثنىٰ علىٰ ربِّه عز وجل فقال: «الحَمْدُ للهِ الَّذِي سَخَّرَ لِيَ

---

(١) لوحة (١٢٧ ب).

(٢) في (ز): «موضع»، والمثبت من «الطبري».

(٣) العبقري: الديباج، وقيل: البسط الموشية.

(٤) لوحة (١٢٨ أ).

الرِّيَاحَ، وَسَخَّرَ لِيَ الشَّيَاطِينَ يَعْمَلُونَ لِي مَا شِئْتُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ، وَجِفَانٍ كَالجَوَابِ[١] وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ، وَعَلَّمَنِي مَنْطِقَ الطَّيْرِ، وَآتَانِي مِنْ كُلِّ شَيْءٍ فَضْلًا وَسَخَّرَ لِيَ جُنُودَ الشَّيَاطِينِ وَالإِنْسِ وَالطَّيْرِ، وَفَضَّلَنِي عَلَىٰ كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ المُؤْمِنِينَ، وَآتَانِي مُلْكًا عَظِيمًا لا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي، وَجَعَلَ مُلْكِي مُلْكًا طَيِّبًا لَيْسَ فِيهِ حِسَابٌ». ثم إن عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ أثنىٰ علىٰ ربِّه عَزَّوَجَلَّ فقال: «الحَمْدُ للهِ الَّذِي جَعَلَنِي كَلِمَتَهُ وَجَعَلَ مَثَلِي مَثَلَ آدَمَ، خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ: (كُنْ) فَيَكُونُ، وَعَلَّمَنِي الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ، وَجَعَلَنِي أَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ، فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللهِ، وَجَعَلَنِي أُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَأُحْيِي المَوْتَىٰ بِإِذْنِهِ، وَرَفَعَنِي وَطَهَّرَنِي، وَأَعَاذَنِي وَأُمِّيَ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، فَلَمْ يَكُنْ لِلشَّيْطَانِ عَلَيْنَا سَبِيلٌ». قال: ثم إن محمَّدًا ﷺ أثنىٰ علىٰ ربِّه عَزَّوَجَلَّ فقال: «فَكُلُّكُمْ أَثْنَىٰ عَلَىٰ رَبِّهِ، وَإِنِّي مُثْنٍ عَلَىٰ رَبِّي عَزَّوَجَلَّ فَقَالَ: الحَمْدُ للهِ الَّذِي أَرْسَلَنِي رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ، وَكَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا، وَأَنْزَلَ عَلَيَّ الفُرْقَانَ فِيهِ بَيَانٌ لِكُلِّ شَيْءٍ، وَجَعَلَ أُمَّتِي خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ، وَجَعَلَ أُمَّتِي أُمَّةً وَسَطًا، وَجَعَلَ أُمَّتِي هُمُ الأَوَّلِينَ وَهُمُ الآخِرِينَ، وَشَرَحَ لِي صَدْرِي، وَوَضَعَ عَنِّي وِزْرِي، وَرَفَعَ لِي ذِكْرِي، وَجَعَلَنِي فَاتِحًا وَخَاتِمًا» فقال إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: «بِهَذَا فَضَلَكُمْ مُحَمَّدٌ ﷺ». قال أبو جعفر الرازي: خاتم النُّبوَّة، فاتح بالشفاعة يوم القيامة. ثم أُتِي بآنيةٍ ثلاثةٍ مغطَّاةٍ أفواهها، فأتي بإناء منها فيه ماء فقيل: اشربْ. فشرب منه يسيرًا، ثم دفع إليه إناء آخر فيه لبن، فقيل له: اشرب، فشرب منه حتىٰ رَوِيَ. ثم دفع إليه إناء آخر فيه خمر فقيل له: اشرب فقال: «لا أُرِيدُهُ قَدْ رَوِيتُ». فقال له جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ: «أَمَا إِنَّهَا سَتُحَرَّمُ عَلَىٰ أُمَّتِكَ، وَلَوْ شَرِبْتَ مِنْهَا لَمْ يَتْبَعْكَ مِنْ أُمَّتِكَ إِلَّا قَلِيلٌ».

قال: ثم صعد به إلىٰ السماء فاستفتح، فقيل: «مَنْ هَذَا يَا جِبْرِيلُ؟ فَقَالَ: مُحَمَّدٌ، فَقَالُوا: أَوَقَدْ أُرْسِلَ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالُوا: حَيَّاهُ اللهُ مِنْ أَخٍ وَمِنْ خَلِيفَةٍ، فَنِعْمَ الأَخُ وَنِعْمَ الخَلِيفَةُ، وَنِعْمَ المَجِيءُ جَاءَ». فدخل فإذا هو برجلٍ تامِّ الخَلْق لم ينقص من خلقه شيء كما ينقص من خلق النَّاس، عن يمينه باب يخرج منه ريح طيبة، وعن شماله باب يخرج منه ريح خبيثة، إذا نظر إلىٰ الباب الذي عن يمينه ضحك واستبشر، وإذا نظر إلىٰ الباب الذي عن يساره بكىٰ وحزن، فقلت: «يَا جِبْرِيلُ مَنْ هَذَا الشَّيْخُ التَّامُّ الخَلْقِ الَّذِي لَمْ يَنْقُصْ مِنْ خَلْقِهِ شَيْءٌ؟ وَمَا هَذَانِ البَابَانِ؟»[٢] فقال: «هَذَا أَبُوكَ آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَهَذَا البَابُ الَّذِي عَنْ يَمِينِهِ بَابُ الجَنَّةِ، إِذَا نَظَرَ إِلَىٰ مَنْ يَدْخُلُهُ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ ضَحِكَ وَاسْتَبْشَرَ، وَالبَابُ الَّذِي عَنْ شِمَالِهِ بَابُ جَهَنَّمَ، إِذَا نَظَرَ إِلَىٰ مَنْ يَدْخُلُهُ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ بَكَىٰ وَحَزِنَ».

ثم صعد به جبريل إلىٰ السَّماء الثَّانية فاستفتح، فقيل: «مَنْ هَذَا مَعَكَ؟ فَقَالَ: مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ. قَالُوا: أَوَقَدْ أُرْسِلَ مُحَمَّدٌ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالُوا: حَيَّاهُ اللهُ مِنْ أَخٍ وَمِنْ خَلِيفَةٍ، فَلَنِعْمَ الأَخُ وَلَنِعْمَ الخَلِيفَةُ وَنِعْمَ المَجِيءُ جَاءَ». قال: فدخل فإذا هو بشابَّين فقال: «يَا جِبْرِيلُ، مَنْ هَذَانِ الشَّابَّانِ»؟ قال: «هَذَا عِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ، وَيَحْيَىٰ ابْنُ زَكَرِيَّا، ابْنَا الخَالَةِ - عَلَيْهِمَا السَّلَامُ -».

---

(١) الجوابي: الحياض الكبيرة.

(٢) لوحة (١٢٨ ب).

قال: فصعد به إلىٰ السماء الثالثة فاستفتح، فقالوا: «مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قَالُوا: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قَالُوا: أَوَقَدْ أُرْسِلَ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالُوا: حَيَّاهُ اللهُ مِنْ أَخٍ وَمِنْ خَلِيفَةٍ، فَنِعْمَ الأَخُ وَنِعْمَ الخَلِيفَةُ، وَنِعْمَ المَجِيءُ جَاءَ». قال: فدخل فإذا هو برجل قد فضل علىٰ الناس في الحسن كما فضل القمر ليلة البدر علىٰ سائر الكواكب، قال: «مَنْ هَذَا يَا جِبْرِيلُ الَّذِي قَدْ فَضُلَ عَلَىٰ النَّاسِ فِي الحُسْنِ»؟ قال: «هَذَا أَخُوكَ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ».

قال: ثم صُعد به إلىٰ السَّماء الرابعة فاستفتح، فقالوا: «مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قَالُوا: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قَالُوا: أَوَقَدْ أُرْسِلَ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالُوا: حَيَّاهُ اللهُ مِنْ أَخٍ وَمِنْ خَلِيفَةٍ، فَنِعْمَ الأَخُ وَنِعْمَ الخَلِيفَةُ، وَنِعْمَ المَجِيءُ جَاءَ». قال: فدخل، فإذا هو برجلٍ، قال: «مَنْ هَذَا يَا جِبْرِيلُ؟» قال: «هَذَا إِدْرِيسُ رَفَعَهُ اللهُ تَعَالَىٰ مَكَانًا عَلِيًّا».

ثم صُعد به إلىٰ السَّماء الخامسة فاستفتح، فقالوا: «مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ. قَالُوا: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ. قَالُوا: أَوَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالُوا: حَيَّاهُ اللهُ مِنْ أَخٍ وَمِنْ خَلِيفَةٍ، فَنِعْمَ الأَخُ وَنِعْمَ الخَلِيفَةُ، وَنِعْمَ المَجِيءُ جَاءَ». ثم دخل فإذا هو برجل جالسٍ وحوله قومٌ يقصُّ عليهم، قال: «مَنْ هَذَا يَا جِبْرِيلُ؟ وَمَنْ هَؤُلَاءِ حَوْلَهُ؟» قال: «هَذَا هَارُونُ المُحَبَّبُ [فِي قَوْمِهِ][(١)]، وَهَؤُلَاءِ بَنُو إِسْرَائِيلَ».

ثم صُعد به إلىٰ السماء السادسة فاستفتح، قيل: «مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ. قَالُوا: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قَالُوا: أَوَقَدْ أُرْسِلَ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالُوا: حَيَّاهُ اللهُ مِنْ أَخٍ وَمِنْ خَلِيفَةٍ، فَنِعْمَ الأَخُ وَنِعْمَ الخَلِيفَةُ، وَنِعْمَ المَجِيءُ جَاءَ». فإذا هو برجل جالس فجاوزه فبكىٰ الرجل، فقال: «يَا جِبْرِيلُ، مَنْ هَذَا؟» قال: «مُوسَىٰ»، قال: «فَمَا بَالُهُ يَبْكِي؟» قال: «زَعَمَ بَنُو إِسْرَائِيلَ أَنِّي أَكْرَمُ بَنِي آدَمَ عَلَىٰ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَهَذَا رَجُلٌ مِنْ بَنِي آدَمَ قَدْ خَلَفَنِي فِي دُنْيَا، وَأَنَا فِي أُخْرَىٰ، فَلَوْ أَنَّهُ بِنَفْسِهِ لَمْ أُبَالِ، وَلَكِنْ مَعَ كُلِّ نَبِيٍّ أُمَّتُهُ».

قال: ثم صعد به إلىٰ السَّماء السَّابعة فاستفتح، فقيل له: «مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ. قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟[(٢)] قَالَ: مُحَمَّدٌ، قَالُوا: أَوَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالُوا: حَيَّاهُ اللهُ مِنْ أَخٍ وَمِنْ خَلِيفَةٍ، فَنِعْمَ الأَخُ وَنِعْمَ الخَلِيفَةُ، وَنِعْمَ المَجِيءُ جَاءَ». قال: فدخل فإذا هو برجل أشمط[(٣)] جالس عند باب الجنة علىٰ كرسيٍّ، وعنده قوم جلوس بيضُ الوجوه أمثال القراطيس[(٤)]، وقومٌ في ألوانهم شيء، فقام هؤلاء الذين في ألوانهم شيء، فدخلوا نهرًا فاغتسلوا فيه، فخرجوا وقد خَلُصَ [من ألوانهم شيء ثم دخلوا نهرًا آخر فاغتسلوا فيه، فخرجوا وقد خَلُصَ من][(٥)] ألوانهم شيء ثم دخلوا نهرًا آخر فاغتسلوا فيه، فخرجوا وقد خَلُصَت ألوانهم فصارت مثل ألوان أصحابهم، فجاءوا فجلسوا إلىٰ أصحابهم، فقال: «يَا جِبْرِيلُ مَنْ هَذَا الأَشْمَطُ؟ ثُمَّ مَنْ هَؤُلَاءِ البِيضُ الوُجُوهِ؟

---

(١) سقط من (ز)، وهو مثبت من «الطبري». (٢) لوحة (١٢٩ أ).

(٣) أي: أشيب، والشَّمَط: بياض بالرأس يخالط سواده.

(٤) يشبه بالقرطاس في بياضه، ومنه قولهم: دابة قرطاسي؛ اذا كان أبيض بياضـًا لا يخالطه شِيَةٌ، ويقال للجارية البيضاء المديدة القامة: قرطاس.

(٥) سقط من (ز)، والمثبت من «الطبري».

وَمَنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ فِي أَلْوَانِهِمْ شَيْءٌ؟ وَمَا هَذِهِ الأَنْهَارُ الَّتِي دَخَلُوا فِيهَا فَجَاءُوا وَقَدْ صَفَتْ أَلْوَانُهُمْ؟» قال: «هَذَا أَبُوكَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَوَّلُ مَنْ شَمِطَ عَلَىٰ الأَرْضِ، وَأَمَّا هَؤُلَاءِ البِيضُ الوُجُوهِ: فَقَوْمٌ لَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ، وَأَمَّا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ فِي أَلْوَانِهِمْ شَيْءٌ: فَقَوْمٌ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا، فَتَابُوا فَتَابَ اللهُ عَلَيْهِمْ. وَأَمَّا الأَنْهَارُ: فَأَوَّلُهَا رَحْمَةُ اللهِ، وَالثَّانِي: نِعْمَةُ اللهِ، وَالثَّالِثُ: سَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا».

قال: ثم انتهىٰ إلىٰ السِّدرةِ فقيل له: «هَذِهِ السِّدْرَةُ يَنْتَهِي إِلَيْهَا كُلُّ أَحَدٍ خَلَا مِنْ أُمَّتِكَ عَلَىٰ سُنَّتِكَ». فإذا هي شجرةٌ يخرج من أصلها أنهارٌ من ماءٍ غير آسنٍ، وأنهارٌ من لبنٍ لم يتغيَّر طعمه، وأنهارٌ من خمرٍ لذَّةٍ للشَّاربين، وأنهارٌ مِن عسلٍ مصفًّىٰ، وهي شجرة يسيرُ الرَّاكب في ظِلِّها سبعين عامًا لا يقطعها، والورقةُ منها مغطية للأمَّة كلها. قال: فغَشِيَها نور الخلَّاق عَزَّ وَجَلَّ وغَشِيَتْها الملائكة أمثال الغِرْبان حين يقعن علىٰ الشجرة قال: فكلَّمه الله تعالىٰ عند ذلك، قال له: سَلْ، قال: «إِنَّكَ اتَّخَذْتَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا وَأَعْطَيْتَهُ مُلْكًا عَظِيمًا، وَكَلَّمْتَ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا، وَأَعْطَيْتَ دَاوُدَ مُلْكًا عَظِيمًا، وَأَلَنْتَ لَهُ الحَدِيدَ، وَسَخَّرْتَ لَهُ [الجِبَالَ، وَأَعْطَيْتَ سُلَيْمَانَ مُلْكًا عَظِيمًا، وَسَخَّرْتَ لَهُ الجِنَّ وَالإِنْسَ وَالشَّيَاطِينَ، وَسَخَّرْتَ لَهُ](١) الرِّيَاحَ، وَأَعْطَيْتَهُ مُلْكًا عَظِيمًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ، وَعَلَّمْتَ عِيسَىٰ التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ، وَجَعَلْتَهُ يُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَيُحْيِي المَوْتَىٰ بِإِذْنِكَ، وَأَعَذْتَهُ وَأُمَّهُ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، فَلَمْ يَكُنْ لِلشَّيْطَانِ عَلَيْهِمَا سَبِيلٌ». فقال له ربه عَزَّ وَجَلَّ: «وَقَدِ اتَّخَذْتُكَ خَلِيلًا -وَهُوَ مَكْتُوبٌ فِي التَّوْرَاةِ: حَبِيبُ الرَّحْمَنِ- وَأَرْسَلْتُكَ إِلَىٰ النَّاسِ كَافَّةً بَشِيرًا وَنَذِيرًا، وَشَرَحْتُ لَكَ صَدْرَكَ، وَوَضَعْتُ عَنْكَ وِزْرَكَ، وَرَفَعْتُ لَكَ ذِكْرَكَ، فَلَا أُذْكَرُ إِلَّا ذُكِرْتَ مَعِي، وَجَعَلْتُ أُمَّتَكَ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ، وَجَعَلْتُ أُمَّتَكَ أُمَّةً وَسَطًا، وَجَعَلْتُ أُمَّتَكَ هُمُ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ، وَجَعَلْتُ أُمَّتَكَ لَا تَجُوزُ لَهُمْ خُطْبَةٌ حَتَّىٰ يَشْهَدُوا أَنَّكَ عَبْدِي وَرَسُولِي، وَجَعَلْتُ مِنْ أُمَّتِكَ أَقْوَامًا قُلُوبُهُمْ(٢) أَنَاجِيلُهُمْ، وَجَعَلْتُكَ أَوَّلَ النَّبِيِّينَ خَلْقًا، وَآخِرَهُمْ بَعْثًا، [وَأَوَّلَهُمْ](٣) يُقْضَىٰ لَهُ، وَأَعْطَيْتُكَ سَبْعًا مِنَ المَثَانِي لَمْ يُعْطَهَا نَبِيٌّ قَبْلَكَ، وَأَعْطَيْتُكَ خَوَاتِيمَ سُورَةِ البَقَرَةِ مِنْ كَنْزٍ تَحْتَ العَرْشِ لَمْ أُعْطِهَا نَبِيًّا قَبْلَكَ، وَأَعْطَيْتُكَ الكَوْثَرَ، وَأَعْطَيْتُكَ ثَمَانِيَةَ أَسْهُمٍ: الإِسْلَامَ، وَالهِجْرَةَ، وَالجِهَادَ، [وَالصَّلَاةَ](٤)، وَالصَّدَقَةَ، وَصَوْمَ رَمَضَانَ، وَالأَمْرَ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ المُنْكَرِ، وَجَعَلْتُكَ فَاتِحًا وَخَاتِمًا». فقال النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَضَّلَنِي رَبِّي بِسِتٍّ: أَعْطَانِي فَوَاتِحَ الكَلَامِ وَخَوَاتِيمَهُ وَجَوَامِعَ الحَدِيثِ، وَأَرْسَلَنِي إِلَىٰ النَّاسِ كَافَّةً بَشِيرًا وَنَذِيرًا، وَقَذَفَ فِي قُلُوبِ عَدُوِّي الرُّعْبَ مِنْ مَسِيرَةِ شَهْرٍ، وَأُحِلَّتْ لِيَ الغَنَائِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَجُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ كُلُّهَا طَهُورًا وَمَسْجِدًا».

قال: وفرض عليه خمسين صلاة. فلما رجع إلىٰ موسىٰ قال: «بِمَ أُمِرْتَ يَا مُحَمَّدُ؟» قال: «بِخَمْسِينَ صَلَاةً» قال: «ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ، فَإِنَّ أُمَّتَكَ أَضْعَفُ الأُمَمِ، فَقَدْ لَقِيتُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ شِدَّةً»، قال: فرجع النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلىٰ ربِّه عَزَّ وَجَلَّ فسأله التَّخفيف، فوضع عنه عشرًا، ثم رجع إلىٰ مُوسَىٰ فقال: «بِكَمْ

---

(١) سقط من (ز)، وهو مثبت من «الطبري».
(٢) لوحة (١٢٩ ب).
(٣) في (ز): «وآخرهم»، والمثبت كما في «الطبري».
(٤) ليست في (ز)، وهي مثبتة من «الطبري».

أُمِرْتَ؟» قال: «بِأَرْبَعِينَ» قال: «ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ، فَإِنَّ أُمَّتَكَ أَضْعَفُ الأُمَمِ، وَقَدْ لَقِيتُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ شِدَّةً»، قال: فرجع النَّبيُّ إلىٰ ربِّه ﷻ فسأله التَّخفيف، فوضع عنه عشرًا، فرجع إلىٰ موسىٰ فقال: «بِكَمْ أُمِرْتَ؟» قال: «أُمِرْتُ بِثَلاثِينَ»، فقال له موسىٰ: «ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ، فَإِنَّ أُمَّتَكَ أَضعفُ الأُمَمِ، وَقَدْ لَقِيتُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ شِدَّةً»، قال: فرجع إلىٰ ربِّه ﷻ فسأله التَّخفيف، فوضع عنه عشرًا، فرجع إلىٰ موسىٰ فقال: «بِكَمْ أُمِرْتَ؟» قال: «أُمِرْتُ بِعِشْرِينَ». قال: «ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ ﷻ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ، فَإِنَّ أُمَّتَكَ أَضْعَفُ الأُمَمِ، وَقَدْ لَقِيتُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ شِدَّةً»، قال: فرجع إلىٰ ربِّه ﷻ فسأله التَّخفيف، فوضع عنه عشرًا، فرجع إلىٰ موسىٰ فقال: «بِكَمْ أُمِرْتَ؟» قال: «[أُمِرْتُ][1] بِعَشْرٍ»، قال: «ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ ﷻ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ، فَإِنَّ أُمَّتَكَ أَضْعَفُ الأُمَمِ، وَقَدْ لَقِيتُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ شِدَّةً»، قال: فرجع علىٰ حياءٍ إلىٰ ربِّه ﷻ فسأله التَّخفيف فوضع عنه خمسًا، فرجع إلىٰ موسىٰ ﵇ فقال: «بِكَمْ أُمِرْتَ؟» قال: «بِخَمْسٍ» فقال: «ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ، فَإِنَّ أُمَّتَكَ أَضْعَفُ الأُمَمِ، وَقَدْ لَقِيتُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ شِدَّةً»، قال: «قَدْ رَجَعْتُ إِلَىٰ رَبِّي حَتَّىٰ اسْتَحْيَيْتُ، فَمَا أَنَا بِرَاجِعٍ إِلَيْهِ»، قيل: «أَمَا إِنَّكَ كَمَا صَبَرْتَ نَفْسَكَ عَلَىٰ خَمْسِ صَلَوَاتٍ، فَإِنَّهُنَّ يَجْزِينَ عَنْكَ خَمْسِينَ صَلَاةً، فَإِنَّ كُلَّ حَسَنَةٍ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا». قال: فرضي محمَّد ﷺ كلَّ الرضا، قال: وكان موسىٰ ﵇ من أشدِّهم عليه حين[2] مرَّ به، وخيرِهم له حين رجع إليه[3].

ثم رواه ابن جرير، عن محمَّد بن عبيد الله، عن أبي النَّضر هاشم بن القاسم، عن أبىٰ جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية أو غيره -شكَّ أبو جعفر- عن أبي هريرة، عن النَّبيِّ ﷺ فذكره بمعناه.

وقد رواه الحافظ أبو بكر البيهقي، عن أبي سعيد الماليني، عن ابن عدي، عن محمَّد بن الحسن السَّكُوني البالسي بالرملة، حدَّثنا علي بن سهل، فذكر مثل ما رواه ابن جرير عنه، وذكر البيهقيُّ أنَّ الحاكم أبا عبد الله رواه عن إسماعيل بن محمَّد بن الفضل بن محمَّد الشَّعراني، عن جدِّه، عن إبراهيم بن حمزةَ الزُّبَيْري، عن حاتم بن إسماعيل، حدَّثني عيسىٰ بن ماهان -يعني أبا جعفر الرازي- عن الرَّبيع بن أنس، عن أبي العالية، عن أبي هريرة، عن النَّبيِّ ﷺ، فذكره[4].

وقال: ابن أبي حاتم: ذكر[5] أبو زُرْعَة، حدَّثنا محمَّد بن عبد الله بن نُمير، حدَّثنا يونس بن بكير، حدَّثنا عيسىٰ بن عبد الله التميمي -يعني: أبا جعفر الرازي- عن الربيع بن أنس البكري، عن أبي العالية أو غيره -شكَّ عيسىٰ-، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «قَالَ اللهُ: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾... فذكر الحديث بطوله كنحوِ مما سقناه.

---

(١) ليست في (ز). (٢) لوحة (١٣٠ أ).

(٣) ضعيف: رواه ابن جرير (١٤/ ٤٢٤) ط: تركي، والبيهقي في «الدلائل» (٢/ ٣٩٧)، وفيه أبو جعفر الرازي: صدوق سيئ الحفظ، وانظر تعليق الحافظ ابن كثير بعد إيراده الحديث.

(٤) انظر التعليق السابق.

(٥) في (ز): «ذكره»، وقد سقط هذا اللفظ من «تفسير ابن أبي حاتم».

قلتُ: «أبو جعفر الرَّازي» قال فيه الحافظ أبو زرعة: «الرَّازي يَهِم في الحديث كثيرًا» وقد ضعَّفه غيره أيضًا، ووثَّقه بعضهم، والأظهر أنَّه سَيِّئُ الحفظ، فَفِيما تفرَّد به نظر. وهذا الحديث في بعض ألفاظه غرابة ونكارة شديدةٌ، وفيه شيء من حديثِ المنام مِن رواية سمرة بن جندب في المنام الطَّويل عند البخاري، ويشبه أن يكون مجموعًا من أحاديث شتَّىٰ، أو منام أو قصة أخرىٰ غير الإسراء، والله أعلم.

وقد روىٰ البخاري ومسلم في «الصحيحين» من حديث عبد الرزَّاق: أنبأنا مَعْمَرُ، عن الزهري، أخبرني سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة قال: قال النَّبيُّ ﷺ حين أُسْرِيَ به: «لَقِيتُ مُوسَىٰ» قال: فنعته فإذا رجلٌ - حسبته قال:- «مُضْطَرِبٌ، رَجِلُ الرَّأْسِ، كَأَنَّهُ مِنْ رِجَالِ شَنُوءَةَ». قال: «وَلَقِيتُ عِيسَىٰ» -فنعتَهُ النَّبيُّ ﷺ- قال: «رَبْعَةٌ أَحْمَرُ كَأَنَّمَا خَرَجَ مِنْ دِيمَاسٍ»؛ يعني: الحَمَّامَ. قال: «وَرَأَيْتُ إِبْرَاهِيمَ، وَأَنَا أَشْبَهُ وَلَدِهِ بِهِ». قال: «وَأُتِيتُ بِإِنَاءَيْنِ فِي أَحَدِهِمَا لَبَنٌ وَفِي الآخَرِ خَمْرٌ، قِيلَ لِي: خُذْ أَيَّهُمَا شِئْتَ، فَأَخَذْتُ اللَّبَنَ، فَشَرِبْتُ، فَقِيلَ لِي: هُدِيتَ الفِطْرَةَ - أَوْ: أَصَبْتَ الفِطْرَةَ- أَمَا إِنَّكَ لَوْ أَخَذْتَ الخَمْرَ غَوَتْ أُمَّتُكَ»[(١)]، وأخرجاه من وجه آخر. عن الزهري - به نحوه.

وفي «صحيح مسلمٍ»، عن محمَّد بن رافع، عن حُجَيْن بن المثنىٰ، عن عبد العزيز بن أبي سلمة، عن عبد الله[(٢)] بن الفضل الهاشمي، عن أبي سلمة عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لَقَدْ رَأَيْتُنِي فِي الحِجْرِ، وَقُرَيْشٌ تَسْأَلُنِي عَنْ مَسْرَايَ، فَسَأَلُونِي عَنْ أَشْيَاءَ مِنْ بَيْتِ المَقْدِسِ لَمْ أُثْبِتْهَا[(٣)]، فَكُرِبْتُ كَرْبًا مَا كُرِبْتُ مِثْلَهُ قَطُّ، فَرَفَعَهُ اللهُ لِي أَنْظُرُ إِلَيْهِ مَا سَأَلُونِي عَنْ شَيْءٍ إِلَّا أَنْبَأْتُهُمْ بِهِ، وَقَدْ رَأَيْتُنِي فِي جَمَاعَةٍ مِنَ الأَنْبِيَاءِ، وَإِذَا مُوسَىٰ قَائِمٌ يُصَلِّي، وَإِذَا هُوَ رَجُلٌ ضَرْبٌ[(٤)] جَعْدٌ كَأَنَّهُ مِنْ رِجَالِ شَنُوءَةَ، وَإِذَا عِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ قَائِمٌ يُصَلِّي، أَقْرَبُ النَّاسِ بِهِ شَبَهًا عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ الثَّقَفِيُّ، وَإِذَا إِبْرَاهِيمُ قَائِمٌ يُصَلِّي، أَشْبَهُ النَّاسِ بِهِ صَاحِبُكُمْ - يعني نفسه- فَحَانَتِ الصَّلَاةُ فَأَمَمْتُهُمْ، فَلَمَّا فَرَغْتُ قَالَ قَائِلٌ: يَا مُحَمَّدُ، هَذَا مَالِكٌ صَاحِبُ النَّارِ، [فَسَلِّمْ عَلَيْهِ][(٥)]. فَالْتَفَتُّ إِلَيْهِ فَبَدَأَنِي بِالسَّلَامِ»[(٦)].

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا حجاج بن منهال، حدَّثنا حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن أبي الصلت، عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «رَأَيْتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي لَمَّا انْتَهَيْنَا إِلَىٰ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، فَنَظَرْتُ فَوْقُ فَإِذَا رَعْدٌ وَبَرْقٌ وَصَوَاعِقُ». قال: «وَأَتَيْتُ عَلَىٰ قَوْمٍ بُطُونُهُمْ كَالبُيُوتِ فِيهَا الحَيَّاتُ تُرَىٰ مِنْ خَارِجِ بُطُونِهِمْ فَقُلْتُ: مَنْ هَؤُلَاءِ يَا جِبْرِيلُ؟ قَالَ: هَؤُلَاءِ أَكَلَةُ الرِّبَا، فَلَمَّا نَزَلْتُ إِلَىٰ السَّمَاءِ الدُّنْيَا نَظَرْتُ أَسْفَلَ مِنِّي فَإِذَا أَنَا بِرَهْجٍ وَدُخَانٍ وَأَصْوَاتٍ، فَقُلْتُ: مَا هَذَا يَا جِبْرِيلُ؟ قَالَ: هَذِهِ الشَّيَاطِينُ [يَحُومُونَ][(٧)] عَلَىٰ

---

(١) البخاري (٣٤٣٧)، ومسلم (١٦٨).
(٢) لوحة (١٣٠ ب).
(٣) أي: لم أحفظها ولم أضبطها لانشغالي بأهم منها.
(٤) الضَّرْب من الرجال: الخفيف اللحم الممشوق.
(٥) سقط من (ز)، وأثبتناه من «مسلم».
(٦) مسلم (١٧٢).
(٧) في (ز): (يحرفون).

أَعْيُنِ بَنِي آدَمَ أَلَّا يَتَفَكَّرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَرَأَوُا العَجَائِبَ»[١].

ورواه الإمام أحمد عن حسن وعفَّان، كلاهما عن حماد بن سلمة به. ورواه ابن ماجه من حديث حماد به.

- رواية جماعة من الصحابة ﵃ ممن تقدم وغيرهم:

قال الحافظ البيهقي: أخبرنا أبو عبد الله -يعني الحاكم- أخبرنا عبدان بن يزيد بن يعقوب الدقاق بِهَمَذَانَ، حدَّثنا إبراهيم بن الحسين الهَمْداني، حدَّثنا أبو محمَّد هو إسماعيل بن موسىٰ الفزاري، حدَّثنا عمر ابن سعد النصري من بني نصر بن قُعَين[٢]، حدَّثني عبد العزيز، وليث بن أبي سليم وسليمان الأعمش، وعطاء بن السائب -بعضهم يزيد في الحديث علىٰ بعض- عن علي بن أبي طالب وعبد الله ابن عبَّاس - ومحمَّد بن إسحاق بن يسار، عمن حدثه عن ابن عبَّاس- وعن سليم بن مسلم العقيلي، عن عامر الشعبي، عن عبد الله بن مسعود -وجويبر، عن الضَّحَّاك بن مزاحم قالوا: كان رسول الله ﷺ في بيت أم هانئٍ راقدًا، وقد صلىٰ العشاء الآخرة. قال أبو عبد الله الحاكم: قال لنا هذا الشيخ... وذكر الحديث، فكتبت المتن[٣] من نسخةٍ مسموعةٍ منه، فذكر حديثًا طويلًا يذكر فيه عدد الدَّرَج، والملائكة، وغير ذلك مما لا ينكر شيء منها في قدرة الله إن صحَّت الرواية[٤].

قال البيهقي: فيما ذكرنا قبلُ في حديثِ أبي هارون العبدي في إثبات الإسراء والمعراج كفاية، وبالله التوفيق.

قلتُ: وقد أَرْسَل هذا الحديث غير واحدٍ من التابعين وأئمة المفسرين، رحمة الله عليهم أجمعين.

- رواية عائشة أم المؤمنين ﵂:

قال الإمام البيهقي: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، أخبرني مكرم بن أحمد القاضي، حدَّثنا إبراهيم بن الهيثم البلدي، حدَّثنا محمَّد بن كثير الصَّنْعاني، حدَّثنا معمر[٥] بن راشد، عن الزهري، عن عروة، عن عائشة ﵂ قالت: لما أُسْرِيَ بالنَّبيِّ ﷺ إلىٰ المسجد الأقصىٰ، أصبح يحدِّث النَّاس بذلك، فارتدَّ ناسٌ ممن كانوا آمنوا به وصدَّقوه، وسعَوْا بذلك إلىٰ أبي بكر، فقالوا: هل لَكَ في صاحِبِكَ[٦]؟ يزعم أنَّه أُسْرِيَ به اللَّيلة إلىٰ بيتِ المقدس! فقال: أوقال ذلك؟ قالوا: نَعَم، قال: لَئِن كان قال ذلك لَقَدْ صدق، قالوا: تُصَدِّقُه أنَّه ذهب اللَّيلة إلىٰ بيت المقدس، وجاء قبل أن يُصْبِح؟ قال: نعم، إنِّي لأُصَدِّقُه بما هو أبعد مِن ذلك، أُصَدِّقُه بخبر السَّماء

---

(١) ضعيف: رواه ابن ماجه (٢٢٧٣)، وأحمد (٣/ ٣٥٣، ٣٦٣)، وفيه علي بن زيد بن جدعان: ضعيف، وشيخه أبو الصلت: مجهول.

(٢) في (ز): «النضري من بني نصر بن معين»، والمثبت كما في «الجرح والتعديل» (٦/ ١١٢).

(٣) لوحة (١٣١ أ).

(٤) ضعيف: رواه البيهقي (٢/ ٤٠٤)، فقد أدخل رواية بعضهم في بعض، وفيهم من لم يتميز حديثه فترك، وهو ليث بن أبي سليم، وفي مثل هذا يُحكم علىٰ الحديث كله بالضعف.

(٥) في (ز): «محمد بن راشد»، والصواب ما أثبتناه وهو موافق لما في «الدلائل» و«المستدرك»، ولا يعرف لـ«محمد بن راشد» رواية عن الزهري، ولا لـ«محمد بن كثير الصنعاني» رواية عن «محمد بن راشد».

(٦) في (ز): «في صاحب»، والمثبت كما في «الدلائل».

في غَدْوةٍ أو رَوْحةٍ؛ فلذلك سُمِّي أبو بكر: الصِّديقَ رضي الله عنه[(١)].

- رواية أم هانئ بنت أبي طالب رضي الله عنها:

قال محمَّد بن إسحاق: حدَّثني محمَّد بن السائب الكلبي، عن أبي صالح باذان، عن أم هانئ بنت أبي طالب رضي الله عنها في مسرىٰ رسول الله ﷺ أنَّها كانت تقول: ما أُسْرِيَ برسول الله ﷺ إلا وهُو في بيتي، نائمٌ عندي تلك اللَّيلة، فصلىٰ العشاء الآخرة ثم نام ونمنا، فلمَّا كان قُبَيْلَ الفجرِ أهبَّنا[(٢)] رسول الله ﷺ، فلما صلَّىٰ الصبح وصلَّينا معه قال: «**يَا أُمَّ هَانِئٍ، لَقَدْ صَلَّيْتُ مَعَكُمُ العِشَاءَ الآخِرَةَ كَمَا رَأَيْتِ بِهَذَا الوَادِي، ثُمَّ جِئْتُ بَيْتَ المَقْدِسِ فَصَلَّيْتُ فِيهِ، ثُمَّ صَلَّيْتُ صَلاةَ الغَدَاةِ مَعَكُمُ الآنَ كَمَا تَرَيْنَ**»[(٣)].

الكلبي: متروكٌ بمَرَّةٍ ساقطٌ.

لكن رواه أبو يعلىٰ في «مسنده» عن محمَّد بن إسماعيل الأنصاري، عن ضَمْرَة بن ربيعة، عن يحيىٰ بن أبي عمرو السيباني[(٤)]، عن أبي صالح، عن أم هانئٍ بأبسط من هذا السياق، فليكتب هاهنا[(٥)].

---

(١) ضعيف: رواه البيهقي في «الدلائل» (٢/ ٣٦٠)، وفيها محمد بن كثير الصنعاني قال الحافظ: صدوق كثير الغلط.

(٢) أي: نبهنا، أيقظنا. انظر: تاج العروس، مادة: «هبب».

(٣) ضعيف جدًّا: رواه ابن جرير (١٥/ ٢)، وفيها باذان أبو صالح: ضعيف يرسل، ومحمد بن السائب الكلبي: متهم بالكذب، والرواية الثانية من طريق أبي يعلىٰ لا تصح كذلك، فإنها من طريق باذان.

(٤) في (ز): «الشيباني» بالشين المعجمة، والصواب ما أثبتناه بالمهملة كما فى «مسند أبى يعلىٰ»، وانظر: «الإكمال» (٥/ ١١٢).

(٥) قال في نسخة «طيبة» (٥/ ٤١): [كذا ولم أجد في النسخ إثباته، وقد رواه أبو يعلىٰ في معجم شيوخه برقم (١٠) قال: «حدثنا محمد بن إسماعيل الوساوسي، حدثنا ضمرة بن ربيعة، حدثنا يحيىٰ بن أبى عمرو السيباني، عن أبى صالح مولىٰ أم هانئ، عن أم هانئ قالت: دَخَلَ عليَّ رسول الله ﷺ بغَلَس، فجلس، وأنا علىٰ فراشى، فقال: «**شَعُرتِ أني بت الليلة في المسجد الحرام، فأتاني جبريل، فذهب بى إلىٰ باب المسجد، فإذا بدابة أبيض، فوقَ الحمارِ، ودونَ البغل، مضطَرِب الأذنين، فركبت وكان يضع حافره مدَّ بصره، إذا أخذني في هبوطٍ طالت يداه وقَصُرت رجلاه، وإذا أخذني في صعودٍ طالت رجلاه وقَصُرت يداه، وجبريلُ لا يفوتني، حتىٰ انتهينا إلىٰ بيت المقدس، فأوثقتُه بالحَلْقة التي كانت الأنبياء توثق بها، فنُشر لي رهط من الأنبياء، منهم إبراهيم، وموسىٰ، وعيسىٰ، فصليت بهم، وكلّمتهم، وأُتيت بإناءين أحمر وأبيض، فشربت الأبيض، فقال لي جبريل: شربت اللبن، وتركت الخمر، لو شربت الخمر لارتدَّت أمتك. ثم ركبته، فأتيت المسجد الحرام وصليت به الغَدَاة**». قالت: فعلقتُ بردائه: أنشدك الله يا ابن عمي! أن تحدثَ بهذا قريشًا، فيكذّبك من صدّقك. فضرب بيده علىٰ ردائه، فانتزعه من يدي، فارتفع عن بطنه، فنظرت إلىٰ عُكَنه، فوق إزاره كأنها طي القراطيس، فإذا نورٌ ساطعٌ عند فؤاده، كاد يخطف بصري، فخررت ساجدة، فلما رفعتُ رأسي إذا هو قد خرج، فقلت لجاريتي نَبْعَة: ويحكِ اتبعيه، فانظري ماذا يقول، وماذا يقال له؟ فلما رجعت نَبْعَةُ، أخبرتني أن رسول الله ﷺ انتهىٰ إلىٰ نفر من قريش، في الحطيم، فيهم المطعم بن عَدِي، وعَمْرو بن هشام، والوليد بن المغيرة، فقال: «**إني صليت الليلة العشاء في هذا المسجد، وصليت به الغَدَاة، وأتيتُ فيما دون ذلك بيت المقدس، فنُشر لي رهط من الأنبياء منهم إبراهيم، وموسىٰ، وعيسىٰ، وصليت بهم وكلّمتهم**».

فقال عمرو بن هشام كالمستهزئ به: صِفْهم لي، فقال: «**أما عيسىٰ، ففوق الرَّبْعَة، ودون الطول، عريض الصدر، ظاهر الدم، جعد، أشعر تعلوه صُهبة، كأنه عروة بن مسعود الثَّقَفي. وأما موسىٰ، فضخم آدم، طُوالٌ، كأنه من رجال شَنوءة، متراكب الأسنان، مقلّص الشفة، خارج اللثة، عابس. وأما إبراهيم فوالله إنه لأشبه الناس بي، خَلْقًا، وخُلقًا**». قال: فضجّوا، وأعظموا ذلك، فقال المطعم بن عدي: كل أمرك كان قبل اليوم، كان أَمَمًا غير قولك اليوم، أمّا أنا، فأشهد

=

وروىٰ الحافظ أبو القاسم الطبراني من حديث عبد الأعلىٰ بن أبي المُسَاور، عن عكرمة، عن أم هانئ قالت: بات رسول الله ﷺ ليلةَ أُسْرِيَ به في بيتي، ففَقَدْتُه منَ اللَّيل، فامتنع مني النَّوم مخافة أن يكون عرض له بعض قريش، فقال رسول الله ﷺ: «إِنَّ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَتَانِي فَأَخَذَ بِيَدِي فَأَخْرَجَنِي، فَإِذَا عَلَىٰ[(١)] البَابِ [دَابَّةٌ][(٢)] دُونَ البَغْلِ وَفَوْقَ الحِمَارِ، فَحَمَلَنِي عَلَيْهَا، ثُمَّ انْطَلَقَ حَتَّىٰ انْتَهَىٰ بِي إِلَىٰ بَيْتِ المَقْدِسِ، فَأَرَانِي إِبْرَاهِيمَ يُشْبِهُ خَلْقُهُ خَلْقِي، وَيُشْبِهُ خَلْقِي خَلْقَهُ، وَأَرَانِي مُوسَىٰ آدَمَ طَوِيلًا سَبْطَ الشَّعْرِ، شَبَّهْتُهُ بِرِجَالِ أَزْدِ شَنُوءَةَ[(٣)]، وَأَرَانِي عِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ رَبْعَةً أَبْيَضَ يَضْرِبُ إِلَىٰ الحُمْرَةِ، شَبَّهْتُهُ بِعُرْوَةَ بْنِ مُسْعُودِ الثَّقَفِيِّ، وَأَرَانِي الدَّجَّالَ مَمْسُوحَ العَيْنِ اليُمْنَىٰ، شَبَّهْتُهُ بِقَطَنِ بْنِ عَبْدِ العُزَّىٰ».

قال: «وَأَنَا أُرِيدُ أَنْ أَخْرُجَ إِلَىٰ قُرَيْشٍ فَأُخْبِرَهُمْ بِمَا رَأَيْتُ». فأَخَذْتُ بثوبِهِ فقلتُ: إنِّي أُذَكِّرُك الله، إنَّك تأتي قومًا يكذِّبُونَك ويُنْكِرُون مقالَتَكَ، فأخاف أن يسْطُوا بِكَ. قالت: فضَرَبَ ثوبَهُ مِن يدي، ثم خرج إليهم فأتاهم وهُمْ جلوسٌ، فأخبرهم ما أَخبَرَني، فقام جُبَيْر بن مطعمٍ فقال: يا محمَّد لو[(٤)] كنت شابًّا كما كنت، ما تكلَّمْتَ بما تكلَّمْتَ به وأنتَ بين ظهرانينا، فقال رجلٌ من القَوْمِ: يا محمَّد، هل مَرَرْتَ بإبلٍ لنا في مكانِ كذا وكذا؟ قال: «نَعَمْ، وَاللهِ قَدْ وَجَدْتُهُمْ أَضَلُّوا بَعِيرًا لَهُمْ فَهُمْ فِي طَلَبِهِ».

قال: فهل مررت بإبلٍ لبني فلان؟ قال: «نَعَمْ، وَجَدْتُهُمْ فِي مَكَانِ كَذَا وَكَذَا، وَقَدِ انْكَسَرَتْ لَهُمْ نَاقَةٌ حَمْرَاءُ، وَعِنْدَهُمْ قَصْعَةٌ مِنْ مَاءٍ، فَشَرِبْتُ مَا فِيهَا». قالوا: فأخبرنا عدتها وما فيها من الرُّعاة [قال: «قَدْ كُنْتُ عَنْ عِدَّتِهَا مَشْغُولًا». فقام[(٥)] فأوتي بالإبل فعدَّها وعلم ما فيها من الرعاة][(٦)]، ثم أتىٰ قريشًا فقال لهم:

= أنك كاذب، نحن نضرب أكباد الإبل إلىٰ بيت المقدس، نصعد شهرًا، ونحدر شهرًا، تزعم أنك أتيته في ليلة، واللاتِ والعُزَّىٰ لا أُصدِّقك، وما كان الذي تقول قَطُّ. وكان للمطعم بن عدي حوض علىٰ زمزم أعطاه إياه عبدُ المطلب، فهدمه وأقسم باللاتِ والعُزَّىٰ لا يسقىٰ قطرة أبدًا، فقال أبو بكر رضي الله عنه: يا مطعم، بئسَ ما قلتَ لابن أخيك جبهتَه وكذبته، أنا أشهد أنه صادق، فقالوا: يا محمد، فصِفْ لنا بيت المقدس، قال: «دخلت ليلًا وخرجت منه ليلًا». فأتاه جبريل بصورته في جناحه، فجعل يقول: «باب منه كذا، في موضع كذا، وباب منه كذا، في موضع كذا»، وأبو بكر يقول: صدقت، قالت نَبْعة: فسمعت رسول الله ﷺ يقول يومئذٍ: «يا أبا بكر، إني قد سمّيتك (الصديق)». قالوا: يا مطعم، دعنا نسأله عَمَّا هو أغنىٰ لنا من بيت المقدس. يا محمد، أخبرنا عن عيرنا؟ فقال: «أتيت علىٰ عير بني فلان بالروحاء، قد أضلوا ناقةً لهم، فانطلقوا في طلبها، فانتهيتُ إلىٰ رحالهم، ليس بها منهم أحد، وإذا قدح ماء، فشربت منه، فاسألوهم عن ذلك». قالوا: هذه والإله آية. «ثم انتهيتُ إلىٰ عير بني فلان، فنفرتْ مني الإبلُ، وبرك منها جمل أحمر، عليه جوالق محيط ببياض، لا أدري أكسر البعير، أم لا، فاسألوهم عن ذلك». قالوا: هذه والإله آية، «ثم انتهيتُ إلىٰ عير بني فلان في التنعيم، يقدُمها جمل أورق، وها هي ذه يطلع عليكم من الثَّنِيَّة». فقال الوليد بن المغيرة: ساحر، فانطلقوا فنظروا، فوجدوا الأمر كما قال. فرموه بالسحر، وقالوا: صدق الوليد بن المغيرة فيما قال، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِي ٱلْقُرْءَانِ﴾ [الإسراء: ٦٠]. قلت لأم هانئ: ما الشجرة الملعونة في القرآن؟ قالت: الذين خُوِّفوا فلم يزدهم التخويف إلا طغيانًا وكفرًا].

(١) لوحة (١٣١ ب). (٢) سقط من (ز). (٣) فقد كان طوالًا.

(٤) في (ز): «أن لو». (٥) كذا في «الطبراني» وغيره من المصادر، وفي بعض المطبوعات: «فنام».

(٦) سقط من (ز)، وهو مثبت من «الطبراني».

«سَأَلْتُمُونِي عَنْ إِبِلِ بَنِي فُلَانٍ، فَهِيَ كَذَا وَكَذَا، وَفِيهَا مِنَ الرُّعَاةِ فُلَانٌ وَفُلَانٌ، وَسَأَلْتُمُونِي عَنْ إِبِلِ بَنِي فُلَانٍ، فَهِيَ كَذَا وَكَذَا، وَفِيهَا مِنَ الرُّعَاةِ ابْنُ أَبِي قُحَافَةَ وَفُلَانٌ وَفُلَانٌ، وَهِيَ مُصَبِّحَتُكُمْ مِنَ الغَـدَاةِ عَلَىٰ الثَّنِيَّةِ». قال: فغدوا إلىٰ الثَّنية ينظرون أصدقهم ما قال؟ فاستقبلوا الإبل فسألوهم: هل ضلَّ لكم بعير؟ قالوا: نعم. فسألوا الآخر: هل انكسرت لكم ناقةٌ حمراء؟ قالوا: نعم. قالوا: فهل كان عندكم قصعة؟ قال أبو بكر: أنا والله وضعتها فما شربها أحد، ولا أهراقوه في الأرض. فصدقه أبو بكر رضي الله عنه وآمَنَ به، فسُمِّي يومئذ الصديق[1].

فَصْلٌ

وإذا حصل الوقوف علىٰ مجموع هذه الأحاديث صحيحها وحسنها وضعيفها، يحصل مضمون ما اتفقت عليه من مسرىٰ رسول الله ﷺ من مكة إلىٰ بيت المقدس، وأنَّه مرَّة واحدة، وإن اختلفت عبارات الرُّواة في أدائه، أو زاد بعضهم فيه أو نقص منه، فإنَّ الخطأ جائزٌ علىٰ مَن عدا الأنبياء -عليهم السلام-. ومن جعل من النَّاس كل رواية خالَفَتْ الأخرىٰ مرة علىٰ حدةٍ، فأثبت إسراءات متعددة فقد أبعدَ وأغرب، وهَرَبَ إلىٰ غير مهربٍ ولم يحصل علىٰ مطلبٍ.

وقد صرَّح بعضهم من[2] المتأخِّرين بأنه عليه السلام أُسْرِيَ به مرَّة من مكة إلىٰ بيت المقدِسِ فقط، ومرَّة من مكَّة إلىٰ السَّماء فقط، ومرَّة إلىٰ بيتِ المقدس ومنه إلىٰ السَّماء. وفرح بهذا المسلك، وأنَّه قد ظفر[3] بشيءٍ يخلص به من الإشكالات، وهذا بعيد جدًّا، ولم ينقل هذا عن أحدٍ منَ السَّلف، ولو تعدَّد هذا التَّعدُّد لأخبرَ النَّبيُّ ﷺ به أمَّته، ولنقلته النَّاسُ علىٰ التَّعدُّد والتَّكرُّر.

قال موسىٰ بن عقبة، عن الزهري: كان الإسراء قبل الهجرة بسنةٍ. وكذا قال عروة. وقال السُّدِّي: بستَّة عشرَ شهرًا.

والحقُّ أنه عليه السلام: أُسْرِيَ به يقظةً لا منامًا من مكَّة إلىٰ بيت المقدس، راكبًا البراق، فلما انتهىٰ إلىٰ باب المسجد ربط الدَّابَّة عند الباب، ودخله فصلَّىٰ في قبلته تحيَّة المسجد ركعتين. ثم أتىٰ المعراج -وهو كالسُّلَّم ذو درج يُرْقَىٰ فيها- فصعد فيه إلىٰ السَّماء الدُّنيا، ثم إلىٰ بقية السَّموات السَّبع، فتلقَّاه مِن كُلِّ سماءٍ مُقَرَّبُوها، وسلَّم عليه الأنبياء عليهم السلام الَّذين في السَّماوات بحسب منازلهم ودرجاتهم، حتىٰ مرَّ بموسىٰ الكليم في السَّادسة، وإبراهيم الخليل في السابعة، ثم جاوز منزلتهما ﷺ وعليهما وعلىٰ سائر الأنبياء، حتىٰ انتهىٰ إلىٰ مستوىٰ يسمع فيه صريفَ الأقلام؛ أي: أقلام القدر بما هو كائنٌ، ورأىٰ سدرة المنتهىٰ وغَشِيَهَا مِن أمر الله تعالىٰ عظمةٌ عظيمةٌ، من فراش من ذهب، وألوان متعدِّدة، وغشيتها الملائكة، ورأىٰ هنالك جبريلَ علىٰ صورته، وله ستمائة جناحٍ، ورأىٰ رفرفًا أخضر قد سَدَّ الأفق، ورأىٰ البيتَ المعمور وإبراهيم الخليل باني الكعبةِ الأرضيَّة مسندًا ظهره إليه؛ لأنَّه الكعبة السَّماويَّة يدخلُهُ كلَّ يوم سبعون ألفًا من الملائكة يتعبَّدون فيه،

(١) ضعيف جدًّا: رواه الطبراني (٢٤/ ١٠٩٥) وفيه عبد الأعلىٰ بن أبي المساور، قال الحافظ: متروك، كذبه ابن معين.
(٢) لوحة (١٣٢ أ). (٣) في (ز): «ظهر».

ثم لا يعُودُون إليه إلىٰ يوم القِيَامَةِ. ورأىٰ الجنَّة والنَّار، وفرض الله ﷻ عليه هنالك الصلوات خمسين، ثم خففها إلىٰ خمس؛ رحمةً منه ولطفًا بعباده. وفي هذا اعتناء عظيم بشرف الصلاة وعظمتها، ثم هبط إلىٰ بيت المقدس، وهبط معه الأنبياء فصلَّىٰ بهم فيه لما حانت الصَّلاة، ويحتمل أنها الصبح من يومئذٍ، ومنَ النَّاس مَن يزعم أنه أَمَّهُمْ في السماء، والذي تظاهرت به الرِّوايات أنه بِبَيْتِ المقدس، ولكن في بعضها أنه كان أول دخوله إليه، والظَّاهر أنَّه بعد رجوعه إليه؛ لأنَّه لما مرَّ بهم في منازلهم جعل يسأل عنهم جبريل واحدًا واحدًا وهو يخبره بهم، وهذا هو اللائق؛ لأنه كان أولًا مطلوبًا إلىٰ الجناب العلوي ليفرض عليه وعلىٰ [أمته][(١)] ما يشاءُ الله تعالىٰ. ثم لما فرغ من الذي أريد به، اجتمع هو وإخوانه من النَّبِيِّين صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين، ثم أظهر شرفَهُ وفَضْلَهُ عليهم بتقديمه في الإمامةِ، وذلك عن إشارة جبريل[(٢)] ﵇ له في ذلك. ثم خرج مِن بيت المقدس فركب البراق وعاد إلىٰ مكَّة بغلَسٍ، والله ﷾ أعلم.

وأمَّا عرض الآنيةِ عليه منَ اللَّبن والعسل، أو اللَّبن والخمر، أو اللَّبن والماء، أو الجميع - فقد ورد أنه في بيت المقدس، وجاء أنَّه في السَّماء. ويحتمل أن يكون هاهنا وهاهنا؛ لأنَّه كالضِّيافة للقَادِمِ، والله أعلم.

ثمَّ اختلف النَّاس: هل كان الإسراء ببدنه ﵇ وروحه؟ أو بروحه فقط؟ علىٰ قولين، فالأكثرون من العلماء علىٰ أنَّه أُسْرِي ببدنه وروحه يقظةً لا منامًا، ولا يُنْكَر أن يكون رسول الله ﷺ رأىٰ قبل ذلك منامًا، ثم رآه بعده يقظةً؛ لأنه ﵇ كان لا يرىٰ رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح؛ والدَّليلُ علىٰ هذا قوله ﷻ: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾؛ فالتَّسبيحُ إنَّما يكون عند الأمور العظام، ولو كان منامًا لم يكن فيه كبيرُ شيءٍ، ولم يكن مستعظمًا، ولَمَا بادرت كفَّار قريش إلىٰ تكذيبه، ولَمَا ارتدَّ جماعةٌ ممن كان قد أسلم. وأيضًا فإن العبدَ عبارة عن مجموع الرُّوحِ والجَسَدِ، وقد قال عزَّ شأنه: ﴿أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾، وقد قال تعالىٰ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ [الإسراء: ٦٠] قال ابن عبَّاس ﵄ هي رؤيا عين أُرِيهَا رسول الله ﷺ [ليلة أسري به، والشَّجرة الملعونة: شجرة الزَّقُّوم][(٣)] رواه البخاري[(٤)]. وقال تعالىٰ: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ [النجم: ١٧]، والبصر مِن آلات الذَّات لا الروح. وأيضًا فإنه حُمِل علىٰ البراق، وهو دابةٌ بيضاء برَّاقة لها لمعَان، وإنَّما يكون هذا للبدن لا للرُّوح؛ لأنَّها لا تحتاج في حركتها إلىٰ مركبٍ تركب عليه، والله أعلم.

وقال آخرون: بل أُسرِيَ برسول الله ﷺ بروحه لا بجسده. قال محمَّد بن إسحاق بن يسار في «السِّيرة»: حدَّثني يعقوب بن عتبة بن المغيرة بن الأخنس؛ أن معاوية بن أبي سفيان ﵁ كان إذا سُئل عن مسرىٰ رسول الله ﷺ قال: كانت رؤيا من الله صادقة[(٥)].

---

(١) سقط من (ز).
(٢) لوحة (١٣٢ ب).
(٣) سقط من (ز)، وهو مثبت من «البخاري».
(٤) رواه البخاري (٤٧١٦).
(٥) منقطع: رواه الطبري (١٥/ ١٦)، وفيه انقطاع بين يعقوب ومعاوية، ولا يعارض هذا الروايات الثابتة الصحيحة السابقة، وكذلك الرواية الآتية عن عائشة.

وحدَّثني بعض آل أبي بكر أن عائشة كانت تقول: ما فُقِدَ جسد رسول الله ﷺ، ولكن أسري بروحه[(١)].

قال ابن إسحاق: فلم ينكر ذلك من قولها؛ لقول الحسن: إن هذه الآية نزلت ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ ولقول الله في الخبر عن إبراهيم: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ [الصافات: ١٠٢]، ثم مضىٰ علىٰ ذلك. فعرفت أن الوحي يأتي للأنبياء من الله أيقاظًا ونيامًا.

فكان رسول الله ﷺ يقول: «تَنَامُ عَيْنَايَ، وَقَلْبِي يَقْظَانُ»[(٢)] فالله أعلم أي ذلك كان قد جاءه، وعاين فيه من الله ما عاين، علىٰ أي حالاته[(٣)] كان، نائمًا أو يقظانَ، كل ذلك حقٌّ وصدقٌ. انتهىٰ كلام ابن إسحاق.

وقد تعقبه أبو جعفر بن جرير في «تفسيره» بالرد والإنكار والتَّشنيع، بأن هذا خلافُ ظاهرِ سياق القرآن، وذكر من الأدلة علىٰ رده بعض ما تقدَّم، والله أعلم.

- فائدةٌ حسنةٌ جليلةٌ:

روىٰ الحافظ أبو نُعَيم الأصبهاني في كتاب «دلائل النبوة» من طريق محمَّد بن عمر الواقدي: حدَّثني مالك بن أبي الرجال، عن عمرو بن عبد الله، [عن محمَّد][(٤)] بن كعب القرظي، قال: بعثَ رسول الله ﷺ دِحْية بن خليفة إلىٰ قيصر -فذكر وروده عليه وقدومه إليه، وفي السياق دلالة عظيمة علىٰ وُفُور عقل هرقل- ثم استدعىٰ من بالشام من التجار، فجيء بأبي سفيانَ صخرِ بنِ حربٍ وأصحابه، فسألهم عن تلك المسائل المشهورة التي رواها البخاري ومسلم، كما سيأتي بيانه، وجعل أبو سفيان يجهد أن يحقر أمره ويصغره عنده. قال في هذا السياق عن أبي سفيان: والله ما يمنعني أن أقول عليه قولًا أسقطه من عينه إلا أني أكره أن أكذب عنده كذبةً يأخذها عليَّ، ولا يصدقني بشيءٍ. قال: حتىٰ ذكرتُ قوله ليلة أسري به، قال: فقلت: أيها الملك، ألا أخبرك خبرًا تعرف أنه قد كذب؟ قال: وما هو؟ قال: قلت: إنه يزعم لنا أنه خرج من أرضنا -أرض الحرم- في ليلةٍ فجاء مسجدكم هذا -مسجد إيلياء- ورجع إلينا تلك الليلة قبل الصباح. قال: وبَطْرِيقُ إيلياء عند رأس قيصر، فقال بَطْرِيق إيلياء: قد علمت تلك الليلة، قال: فنظر قيصر، وقال: وما علمك بهذا؟ قال: إني كنت لا أنام ليلةً حتىٰ أغلق أبواب المسجد، فلما كان تلك الليلة أغلقت الأبواب كلها غير بابٍ واحدٍ غلبني، فاستعنت عليه بعُمالي ومن يحضرني كلهم فعالجته فغلبني، فلم نستطع أن نحركه، كأنما نزاول به جبلًا فدعوت إليه النجاجرة، فنظروا إليه [فقالوا][(٥)]: إن هذا الباب سقط عليه النجاف[(٦)] والبنيان ولا نستطيع أن نحركه حتىٰ نصبح فننظر من أين أتىٰ. قال: فرجعت وتركت البابين مفتوحين. فلما أصبحت غدوت عليهما فإذا الحجر الذي [في زاوية الباب][(٧)] مثقوب، وإذا فيه أثر مربط الدابة، قال: فقلت

---

(١) **ضعيف**: رواه الطبري (١٥/ ١٦)، وفيه جهالة آل أبي بكر.

(٢) البخاري (١١٤٧)، ومسلم (٧٣٨).

(٣) لوحة (١٣٣ أ).

(٤) سقط من (ز)، والصواب إثباته، وانظر: «الدر المنثور» (٣/ ٢٢٣).

(٥) سقط من (ز)، وهو مثبت من «الدر المنثور».

(٦) **النِّجاف**: أسكفة الباب، وهي عتبته، والنجاف -أيضًا-: أعلىٰ الباب، وهو المقصود هنا.

(٧) في (ز): «من ورائه المسجد»، والمثبت موافق لما في «الدر المنثور».

لأصحابي: ما حُبس هذا الباب الليلة إلا على نبيٍّ، وقد صلى[(1)] الليلة في مسجدنا.. وذكر تمام الحديث[(2)].

- فائدة:

قال الحافظ أبو الخطاب عمر بن دِحْيَة في كتابه «التَّنوير في مولد السراج المنير» وقد ذكر حديث الإسراء من طريق أنس، وتكلَّم عليه فأجاد وأفاد، ثم قال: وقد تواترت الروايات في حديث الإسراء عن عمر ابن الخطاب، وعلي [بن أبي طالب][(3)] وابن مسعود، وأبي ذرٍّ، ومالك بن صَعْصَعة، وأبي هريرة، وأبي سعيد[(4)]، وابن عبَّاس، وشداد بن أوس، وأُبَيِّ بن كعب، وعبد الرحمن بن قُرْط، وأبي حَبَّةَ وأبي ليلى الأنصاريين، وعبد الله بن عمرو، وجابر، وحذيفة، وبريدة، وأبي أيوب، وأبي أُمَامة، وسمرة بن جُنْدُب، وأبي الحمراء، وصهيب الرومي، وأم هانئ، وعائشة وأسماء ابنتي أبي بكر الصديق، رضي الله عنهم أجمعين، منهم من ساقه بطوله، ومنهم من اختصره على ما وقع في «المسانيد»، وإن لم تكن رواية بعضهم على شرط الصحة، فحديث الإسراء أجمع عليه المسلمون، واعترض فيه الزنادقة الملحدون ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [الصف: ٨].

﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُواْ مِن دُونِى وَكِيلًا ۝٢ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ۝٣﴾

لما ذكر تعالى: أنَّه أَسْرَى بعبده محمَّد -صلوات الله وسلامه عليه- عطف بذكر موسى عبده وكليمه ﵇ أيضًا؛ فإنَّه تعالى كثيرًا ما يَقْرِنُ بين ذكرِ موسى ومحمَّد -عليهما السَّلام- وبين ذكر التَّوراة والقرآن؛ ولهذا قال بعد ذكر الإسراء: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ يعني: التوراة ﴿وَجَعَلْنَٰهُ﴾ أي: الكتاب ﴿هُدًى﴾ أي: هاديًا ﴿لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُواْ﴾ أي: لئلا تتخذوا ﴿مِن دُونِى وَكِيلًا﴾ أي: وليًّا ولا نصيرًا ولا معبودًا دوني؛ لأنَّ الله تعالى أنزل على كلِّ نبيٍّ أرسله أن يعبده وحده لا شريك له.

ثم قال: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ تقديره: يا ذرية مَن حملنا مع نوح. فيه تهييج وتنبيهٌ على المِنَّة؛ أي: يا سُلالَة مَن نجَّينا فحملنا مع نوح في السَّفينة، تشبَّهوا بأبيكم، ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ فاذكروا أنتم نعمتي عليكم بإرْسَالي إليكم محمَّدًا ﷺ. وقد ورد في الحَدِيثِ وفي الأثر عن السلف: أن نوحًا ﵇ كان يحمد الله تعالى على طعامه وشرابه ولباسه وشأنه كله؛ فلهذا سمي عبدًا شكورًا[(5)].

---

(١) في (ز): «وصل»، والمثبت كما في «الدر المنثور».

(٢) **ضعيف جدًّا:** إسناده مرسل، ومحمد بن عمر الواقدي متروك كما في «التقريب».

(٣) ليست في (ز). (٤) لوحة (١٣٣ ب).

(٥) أما الحديث: فرواه البيهقي في «الشعب» (٤٤٦٩)، نحوه، وفيه الحارث بن شبل: ضعيف.

وأما الآثار: فقد عزاه السيوطي في «الدُّر المنثور» إلى الفِرْيابي وابن جرير (١٥/ ١٩)، وابن المنذر وابن أبي حاتم، وابن مردويه والحاكم (٢/ ٣٦٠) وصحَّحه ووافقه الذهبي، والبيهقي في «الشعب» (٤/ ١١٣)، عن سلمان.

=

قال الطبراني: حدَّثنا علي بن عبد العزيز، حدَّثنا أبو نعيم، حدَّثنا سفيان، عن أبي حُصَين، عن عبد الله بن سنان، عن سعد بن مسعود الثقفي قال: إنَّما سُمِّي «نوحٌ» عبدًا شكورًا؛ لأنَّه كان إذا أكل أو شرب حمد الله(١).

وقد قال الإمام أحمد: حدَّثنا أبو أسامة، حدَّثنا زكريا بن أبي زائدة، عن سعيد بن أبي بُرْدَة، عن أنس ابن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ لَيَرْضَىٰ عَنِ العَبْدِ أَنْ يَأْكُلَ الأَكْلَةَ، أَوْ يَشْرَبَ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدَ اللهَ عَلَيْهَا»(٢).

وهكذا رواه مسلم والترمذي والنسائي من طريق أبي أسامة به.

وقال مالك، عن زيد بن أسلم: كان يحمد الله علىٰ كل حال.

وقد ذكر البخاري هنا حديث أبي زُرْعَة، عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله(٣) ﷺ قال: «أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ القِيَامَةِ -بطوله، وفيه-: فَيَأْتُونَ نُوحًا فَيَقُولُونَ: يَا نُوحُ، أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَىٰ أَهْلِ الأَرْضِ، وَقَدْ سَمَّاكَ اللهُ عَبْدًا شَكُورًا، اشْفَعْ لَنَا إِلَىٰ رَبِّكَ...» وذكر الحديث بكماله(٤).

﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِي ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ۝٤ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ۝٥ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ۝٦ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ۝٧ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ۝٨﴾

يقول تعالىٰ: إنَّه قضىٰ إلىٰ بني إسرائيل في الكتاب؛ أي: تقدَّم إليهم وأخبرهم في الكتاب الَّذي أنزله عليهم أنَّهم سيُفْسِدُون في الأرض مرَّتين ويعلون(٥) علوًّا كبيرًا؛ أي: [يتجبَّرون ويطغَوْن ويفجرون](٦) علىٰ النَّاس، كما قال تعالىٰ: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾ [الحجر: ٦٦] أي: تقدَّمنا إليه وأخبرناه بذلك وأعلَمْناه به.

وقوله: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا﴾ أي: أُولَىٰ الإفسادتين ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ أي:

= وعزاه السُّيوطي إلىٰ الوسطي عن كعب، وإلىٰ ابن أبي الدنيا والبيهقي عن عائشة، وإلىٰ ابن جرير (١٥/ ١٩) وابن أبي حاتم والطبراني عن سعيد بن مسعود الثقفي الصحابي، وغيرهم ممن عزا إليهم السيوطي في «الدُّر المنثور».

(١) صحيح: رواه الطبراني في «الكبير» (٥٤٢٠)، والطبري (١٥/ ١٩) وابن أبي حاتم (١٣١٨٦).

(٢) مسلم (٢٧٣٤)، والترمذي (١٨١٦)، وأحمد (٣/ ١١٧).

(٣) لوحة (١٣٤ أ).

(٤) البخاري (٣٣٤٠، ٣٣٦١، ٤٧١٢)، ومسلم (١٩٤)، والترمذي (٢٤٣٤).

(٥) في (ز): «ويعلن». (٦) في (ز): «يتجبروا ويطغوا ويفجروا».

سلَّطنَا عليكم جندًا من خلقنا أولي بأسٍ شديدٍ؛ أي: قوَّة وعدَّة وسلطة شديدةٍ ﴿فَجَاسُوا خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ﴾ أي: تملَّكُوا بلادكم وسلكوا خلال بُيُوتِكم؛ أي: بينها ووسطها، وانصرفوا ذاهبين وجائين لا يخافون أحدًا ﴿وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾.

وقد اختلف المفسِّرون من السَّلف والخلف في هؤلاء المسلَّطِين عليهم: من هم؟ فعن ابن عبَّاس وقتادة: أنَّه جالوت الجَزَرِيُّ وجنوده، سُلِّطَ عليهم أولًا ثم أُدِيلُوا عليه بعد ذلك. وقتل داودُ جالوت؛ ولهذا قال: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾.

وعن سعيد بن جبير: أنَّه مَلِكُ الموصل سنجاريب وجنوده. وعنه أيضًا، وعن غيره: أنه بُخْتَنَصَّر؛ ملك بابل.

وقد ذكر ابن أبي حاتم له قصةً عجيبةً في كيفية ترقِّيه من حالٍ إلىٰ حالٍ، إلىٰ أن ملك البلاد، وأنه كان فقيرًا مقعدًا ضعيفًا يستعطي الناس ويستطعمهم، ثم آل به الحال إلىٰ ما آل، وأنه سار إلىٰ بلاد بيت المقدس، فقتل بها خلقًا كثيرًا من بني إسرائيل[(١)].

وقد روىٰ ابن جرير في هذا المكان حديثًا أسنده عن حذيفة مرفوعًا مطولًا، وهو حديثٌ موضوعٌ لا محالة، لا يستريب في ذلك من عنده أدنىٰ معرفة بالحديث! والعجب كل العجب[(٢)] كيف راج عليه مع إمامته وجلالة قدره! وقد صرح شيخنا الحافظ العلامة أبو الحجَّاج المِزِّي رَحِمَهُ اللَّهُ بأنه موضوع مكذوب، وكتب ذلك علىٰ حاشية الكتاب.

وقد وردت في هذا آثار كثيرة إسرائيلية لم أر تطويل الكتاب بذكرها؛ لأن منها ما هو موضوع، مِن وَضْع بعض زنادقتهم، ومنها ما قد يحتمل أن يكون صحيحًا، ونحن في غُنْيَة عنها، ولله الحمد. وفيما قص الله تعالىٰ علينا في كتابه غنية عما سواه من بقية الكتب قبله، ولم يحوجنا الله ولا رسوله إليهم، وقد أخبر الله تعالىٰ أنهم لما بَغَوا وطَغَوْا سلَّط الله عليهم عدوَّهم، فاستباح بَيْضَتَهم، وسلك خلال بيوتهم وأذلَّهم وقهَرَهُم، جزاءً وفاقًا، وما ربك بظلَّامٍ للعبيد؛ فإنَّهم كانوا قد تمردوا وقتلوا خلقًا من الأنبياء والعلماء.

وقد روىٰ ابن جرير: حدَّثني يونس بن عبد الأعلىٰ، أخبرنا ابن وهب، أخبرني سليمان بن بلال، عن يحيىٰ بن سعيد قال: سمعت سعيد بن المسيب يقول: ظهر بُختنَصَّر علىٰ الشَّام، فخرب بيت المقدس وقتلهم، ثم أتىٰ دمشق فوجد بها دمًا يغلي علىٰ كِبًا[(٣)]، فسألهم: ما هذا الدم؟ فقالوا: أدركنا آباءنا علىٰ هذا، وكلَّما ظهر عليه الكبا ظهر. قال: فقتل علىٰ ذلك الدم سبعين ألفًا من المسلمين[(٤)] وغيرهم، فسكن[(٥)].

وهذا صحيحٌ إلىٰ سعيد بن المسيب، وهذا هو المشهور، وأنَّه قتل أشرافهم وعلماءهم، حتىٰ إنه لم يبقَ

---

(١) ابن أبي حاتم (١٣١٨٥).
(٢) لوحة (١٣٤ ب).
(٣) الكِبا: الكناسة، وجمعه: أكباء.
(٤) يعني بالمسلمين هنا: مؤمني اليهود.
(٥) رواه الطبري (١٥/ ٢٩ ـ ٣٠)، وهو صحيح إلىٰ سعيد بن المسيب كما ذكر الإمام ابن كثير، ولكن لم يسنده بعد ذلك، فلا يصح.

مَن يحفظ التوراة، وأخذ معه خلقًا منهم أسرىٰ من أبناء الأنبياء وغيرهم، وجرت أمور وكوائن يطول ذكرها، ولو وجدنا ما هو صحيح أو ما يقاربه، لجاز كتابته وروايته، والله أعلم.

ثم قال تعالىٰ: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ أي: فعليها، كما قال تعالىٰ: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت: ٤٦].

وقوله: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ﴾ أي: المرة الآخرة؛ أي: إذا أفسدتم المرة الثانية وجاء أعداؤكم ﴿لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ﴾ أي: يهينوكم ويقهروكم ﴿وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ﴾ أي: بيت المقدس ﴿كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي: في التي جاسوا فيها خلال الديار ﴿وَلِيُتَبِّرُوا﴾ أي: يُدَمِّرُوا ويخربوا ﴿مَا عَلَوْا﴾ أي: ما ظهروا عليه ﴿تَتْبِيرًا ۝٧ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ﴾ أي: فيصرفهم عنكم ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ﴾ أي: متىٰ عدتم إلىٰ الإفساد ﴿عُدْنَا﴾ إلىٰ الإدالة عليكم في الدنيا مع ما نَدَّخِرُهُ لكم في الآخرة من العذاب والنَّكال؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ أي: مستقرًّا ومحصرًا وسجنًا لا محيدَ لهم عنه. قال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: ﴿حَصِيرًا﴾ أي: سجنًا. وقال مجاهد: يحصرون فيها. وكذا قال غيره[1]. وقال الحسن: فراش ومهاد. وقال قتادة: قد عاد[2] بنو إسرائيل، فسلَّط الله عليهم هذا الحي، محمَّدًا ﷺ وأصحابه، يأخذون منهم الجزية عن يدٍ وهم صاغِرُون.

﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝٩ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝١٠﴾

يمدح تعالىٰ كتابه العَزيز الذي أنزله علىٰ رسوله محمَّد ﷺ وهو القرآن، بأنه يهدي لأقوم الطرق، وأوضح السُّبل ﴿وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ به ﴿الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ﴾ علىٰ مقتضاه ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ أي: يوم القيامة.

﴿وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ أي: ويبشر الذين لا يؤمنون بالآخرة أن ﴿لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي: يوم القيامة، كما قال تعالىٰ: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١].

﴿وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ ۖ وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا ۝١١﴾

يخبر تعالىٰ: عن عجلة الإنسان، ودعائه في بعض الأحيانِ علىٰ نفسه أو ولده أو ماله ﴿بِالشَّرِّ﴾ أي: بالموت أو الهلاك والدَّمار واللَّعنة ونحو ذلك، فلَو استجاب له ربه لهلكَ بدعائه، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ [يونس: ١١]، وكذا فسَّره ابن عبَّاس، ومجاهد، وقتادة، وقد تقدَّم في هذا الحديث: «**لا تَدْعُوا عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ وَلا عَلَىٰ أَمْوالِكُم، أَنْ تُوافِقُوا مِنَ اللهِ سَاعَةَ إِجَابَةٍ يَسْتَجِيبُ فِيهَا**»[3].

---

(١) لوحة (١٣٥ أ). (٢) في (ز): «عاينوا»، والمثبت موافق لما في «الطبري».

(٣) **صحيح**: رواه أبو داود (١٥٣٢)، وصحَّحه الألباني في «صحيح أبي داود» (١٥٣٢).

وإنَّما يَحْمِلُ ابن آدم علىٰ ذلك عجلته وقلقه؛ ولهذا قال تعالىٰ ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾ .

وقد ذكر سلمان الفارسي وابن عبَّاس ﷺ هاهنا قصَّة آدم ﷺ حين همَّ بالنُّهُوض قائمًا قبل أن تصلَ الرُّوحُ إلىٰ رِجْلَيْه؛ وذلك أنَّه جاءَتْهُ النَّفخة مِن قِبَلِ رأسِهِ، فلما وصلت إلىٰ دماغه عَطَس، فقال: الحمدُ لله، فقال الله: يرحمُكَ ربُّكَ يا آدم، فلما وصلت إلىٰ عينيه فتحهُمَا، فلما سرت إلىٰ أعضائه وجسده جعل ينظر إليه ويعجبه، فهمَّ بالنهوض قبل أن تصل إلىٰ رجليه فلم يستطع(١)، وقال: يا ربِّ عجِّل قبل الليل(٢).

﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾﴾

يمتنُّ تعالىٰ علىٰ خلقِهِ بآياته العظام؛ فمنها مخالفتُهُ بين اللَّيل والنَّهار، ليسكنوا في اللَّيل وينتشرُوا في النَّهار للمَعَايِش والصَّنائع والأعمال والأسفار، وليَعْلَمُوا عدد الأيام والجُمَع والشهور والأعوام(٣)، ويعرفوا مُضِي الآجال المضروبة للدُّيُون والعبادات والمعاملات والإجارات وغير ذلك؛ ولهذا قال: ﴿لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: في معايشكم وأسفارِكُم ونحو ذلك ﴿وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ فإنَّه لو كان الزمان كله نسقًا واحدًا وأسلوبًا متساويًا لما عرف شيء من ذلك، كما قال تعالىٰ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [القصص: ٧١ -٧٣]، وقال تعالىٰ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: ٦١، ٦٢]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ [المؤمنون: ٨٠]، وقال: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾ [الزمر: ٥]، وقال تعالىٰ: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ(٤) ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [الأنعام: ٩٦]، وقال تعالىٰ: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [يس: ٣٧، ٣٨].

ثم إنَّه تعالىٰ جعل للَّيل آية؛ أي: علامة يعرف بها وهي الظَّلام وظهور القمر فيه، وللنهار علامة، وهي النُّور وظهور الشَّمس النَّيِّرة فيه، وفاوت بين ضِيَاء القمر وبرهان الشمس ليعرف هذا من هذا، كما قال

---

(١) في (ز): «قبل أن يستطيع».

(٢) **صحيحان**: رواهما الطبري (١٥/ ٤٨)، ورواية سلمان إسنادها صحيح.

(٣) لوحة (١٣٥ ب).

(٤) في (ز): جاعل. وهي قراءة متواترة: قَرَأَ (وَجَعَلَ اللَّيْلَ) عَاصِمٌ وَحَمْزَةُ وَالْكِسَائِيُّ وَخَلَفٌ (فِي اخْتِيَارِهِ) وَوَافَقَهُمُ الْأَعْمَشُ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ (وَجَاعِلِ اللَّيْلِ).

تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ إلىٰ قوله: ﴿لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٥، ٦]، كما قال تعالىٰ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾ الآية [البقرة: ١٨٩].

قال ابن جُرَيْج، عن عبد الله بن كثير في قوله: ﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ قال: ظُلمة اللَّيل وسُدفة[1] النهار.

وقال ابن جريج عن مجاهد: الشمس آية النهار، والقمر آيةُ اللَّيل ﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ﴾ قال: السواد الذي في القمر، وكذلك خلقه الله تعالىٰ.

وقال ابن جريج: قال ابن عبَّاس: كان القمر يضيء كما تضيء الشَّمس، والقمر آية الليل، والشمس آيةُ النهار ﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ﴾ السواد الذي في القمر.

وقد رویٰ أبو[2] جعفر بن جرير من طرق متعددة جيدة: أنَّ ابن الكوَّاء سأل أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب فقال: يا أمير المؤمنين، ما هذه اللَّطخة التي في القمر؟ فقال: ويحك أما تَقرأ القرآن؟ ﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ﴾ فهذه محوه[3]. وقال قتادة في قوله: ﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ﴾ كنَّا نحدث أنَّ محو آية اللَّيل سواد القمرِ الَّذي فيه، وجعلنا آية النهار مبصرةً؛ أي: منيرةً، وخلق الشمس أنور من القمر وأعظم. وقال ابن أبي نَجيح عن ابن عبَّاس: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ﴾ قال: ليلا ونهارًا، كذلك خلقهما الله ﷻ.

﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾

يقول تعالىٰ بعد ذكر الزَّمان [وذكر ما][4] يقع فيه مِن أعمال بني آدم: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾ وطائره: هو ما طار عنه مِن عَمَلِه، كما قال ابن عبَّاس ومجاهد وغير واحدٍ: مِن خيرٍ وشرٍّ، يُلزَمُ به ويجازىٰ عليه؛ ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨]، وقال تعالىٰ: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٧، ١٨]. وقال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٠ -١٤]، قال: ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١٦]، وقال: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النساء: ١٢٣].

والمقصود: أنَّ عمل ابن آدم محفوظٌ عليه، قليلَه وكثيرَه، ويكتب عليه ليلًا ونهارًا، صباحًا ومساءً.

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا قتيبة، حدَّثنا ابن لَهِيعة، عن أبي الزُّبير، عن جابر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لَطائِرُ كُلِّ إِنْسَانٍ فِي عُنُقِهِ»[5]. قال ابن لهيعة: يعني الطِّيَرة.

---

(١) السُّدْفَة: الضوء في لغة قيس، وأما في لغة تَميم فهي الظلمة، فهي من الأضداد.

(٢) لوحة (١٣٦ أ). (٣) الطبري (١٥/ ٤٩). (٤) سقط من (ز).

(٥) رواه أحمد (٣/ ٣٤٢، ٣٤٩، ٣٦٠)، وفي إسناده ابن لهيعة: اختلط، وأبو الزبير يدلس وقد عنعن، لكن للحديث طريق أخرىٰ رواها الطبري (١٥/ ٥٠) وفيها انقطاع، وصحَّحه الألباني في «الصحيحة» (١٩٠٧).

وهذا القول من ابن لهيعة في تفسير هذا الحديث، غريبٌ جدًّا، والله أعلم.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾ أي: نجمع له عمله كله في كتابٍ يعطاه يوم القيامة، إما بيمينه إن كان سعيدًا، أو بشماله إن كان شقيًّا ﴿مَنشُورًا﴾ أي: مفتوحًا يقرؤه هو وغيره، فيه جميع عمله من أول عمره إلىٰ آخره ﴿يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾ [القيامة: ١٣ -١٥]؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ أي: إنك تعلم أنك لم تُظلَم ولم يُكتب عليك غيرُ ما عملت؛ لأنك ذكرت جميع ما كان منك، ولا ينسىٰ أحدٌ شيئًا مما كان منه، وكل أحد يقرأ كتابه من كاتب وأُميٍّ.

وقوله تعالىٰ: ﴿أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾ إنما ذكر العنق؛ لأنَّه عضوٌ لا نظير[1] له في الجسد، ومن أُلزم بشيء فيه فلا محيد له عنه، كما قال الشاعر:

اذْهَبْ بِهَا اذْهَبْ بِهَا طُوِّقْتَهَا طَوْقَ الحَمَامَةْ

قال قتادة، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه عن نبيِّ الله ﷺ أنَّه قال: «**لا عَدْوَىٰ، وَلا طِيَرَةَ، وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرُهُ فِي عُنُقِهِ**». كذا رواه ابن جرير[2].

وقد رواه الإمام عبد بن حميد رحمه الله في «مسنده» متصلًا فقال: حدَّثنا الحسن بن موسىٰ، حدَّثنا ابن لهيعة، عن أبي الزبير، عن جابر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**طَيْرُ كُلِّ عَبْدٍ فِي عُنُقِهِ**»[3].

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا علي بن إسحاق، حدَّثنا عبد الله، حدَّثنا ابن لهيعة، حدَّثني يزيد: أنَّ أبا الخير حدَّثه: أنَّه سَمِعَ عقبة بن عامر رضي الله عنه، يحدِّث عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**لَيْسَ مِنْ عَمَلِ يَوْمٍ إِلَّا وَهُوَ يُخْتَمُ عَلَيْهِ، فَإِذَا مَرِضَ الْمُؤْمِنُ قَالَتْ [الْمَلَائِكَةُ]**[4]**: يَا رَبَّنَا، عَبْدُكَ فُلَانٌ، قَدْ حَبَسْتَهُ؟ فَيَقُولُ الرَّبُّ جَلَّ جَلَالُهُ: اخْتِمُوا لَهُ عَلَىٰ مِثْلِ عَمَلِهِ، حَتَّىٰ يَبْرَأَ أَوْ يَمُوتَ**»[5].

إسنادٌ جيِّدٌ قويٌّ، ولم يخرجوه.

وقال مَعْمَر، عن قتادة: ﴿أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾ قال: عمله. ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ قال: نُخرِج ذلك العمل ﴿كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾ قال معمر: وتلا الحسن البصري: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ [ق: ١٧] يا ابن آدم، بسطت لك صحيفةً ووُكِّل بك ملكان كريمان، أحدهما عن يمينك والآخر عن يسارك، فأمَّا الذي عن

---

(١) لوحة (١٣٦ ب).

(٢) صحيح لغيره: رواه الطبري (١٥/ ٥٠)، وفي إسناده انقطاع بين قتادة وجابر، لكن يتقوَّىٰ الطريق الأول من الحديث بما ثبت في «الصحيحين»: «لَا عَدْوَىٰ وَلَا طِيَرَةَ»، والشطر الأخير منه يتقوَّىٰ بما تقدَّم في التعليق السابق.

(٣) في إسناده ابن لهيعة وقد اختلط، ورواية أبي الزبير عن جابر ضعيفة، إلا إذا صرح بالسَّماع؛ لأنَّه مدلِّس، ولم يتحقَّق سماعه في هذه الرواية، فالإسناد ضعيف.

(٤) سقط من (ز)، وهو مثبت من «المسند».

(٥) صحيح: رواه أحمد (٤/ ١٤٦).

يمينك فيحفظ حسناتك، وأمَّا الذي عن يسارك فيحفظ سيئاتك، فاعمل [1] ما شئت، أقلل أو أكثر، حتىٰ إذا مِتَّ طُوِيَت صحيفتك فجُعِلَتْ في عُنُقِكَ معك في قبرك، حتىٰ تخرج يوم القيامة كتابًا تلقاه منشورًا ﴿ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ قد [عدل -والله-] [2] عليك من جعلك حسيب نفسك. هذا من حُسنِ كلام «الحسن» رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

﴿ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ ﴾ [3][4]

يخبر تعالىٰ: أنَّ مَن اهتدىٰ واتَّبع الحقَّ واقتفىٰ آثار النُّبوَّة، فإنما يحصِّل عاقبة ذلك الحميدةَ لنفسه ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ أي: عن الحق، وزاغ عن سبيل الرَّشاد، فإنما يجني علىٰ نفسه، وإنما يعود وبال ذلك عليه، ثم قال: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أي: لا يحمل أحد ذنب أحد، ولا يجني جانٍ إلا علىٰ نفسه، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ﴾ [فاطر: ١٨].

ولا منافاة [5] بين هذا وبين قوله تعالىٰ: ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: ١٣]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [النحل: ٢٥]، فإنَّ الدُّعاة عليهم إثمُ ضلالهم في أنفسهم، وإثمٌ آخر بسببِ ما أضلوا [مَنْ أضلوا] [6] من غير أن ينقص من أوزار أولئك، ولا يحملوا عنهم شيئًا، وهذا مِن عدل الله ورحمته بعباده.

وكذا قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ إخبار عن عدله تعالىٰ، وأنه لا يعذب أحدًا إلا بعد قيام الحجة عليه بإرسال الرسول إليه، كما قال تعالىٰ: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ﴾ [الملك: ٨، ٩]، وكذا قوله تعالىٰ: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الزمر: ٧١]، وقال تعالىٰ: ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ

---

(١) في (ز): «فاملك»، والمثبت كما في «الطبري». (٢) في (ز): «عدل الله» بدون واو القسم.

(٣) قال العلامة السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: والله تعالىٰ أعدل العادلين لا يعذب أحدًا حتىٰ تقوم عليه الحجة بالرسالة ثم يعاند الحجة.

وأما من انقاد للحجة أو لم تبلغه حجة الله تعالىٰ فإن الله تعالىٰ لا يعذبه.

واستدل بهذه الآية علىٰ أن أهل الفترات وأطفال المشركين، لا يعذبهم الله حتىٰ يبعث إليهم رسولًا؛ لأنه منزه عن الظلم.

(٤) قال العلامة الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وَهَذَا الْخِلَافُ مَشْهُورٌ بَيْنَ أَهْلِ الْأُصُولِ: هَلِ الْمُشْرِكُونَ الَّذِينَ مَاتُوا فِي الْفَتْرَةِ وَهُمْ يَعْبُدُونَ الْأَوْثَانَ -فِي النَّارِ لِكُفْرِهِمْ، أَوْ مَعْذُورُونَ بِالْفَتْرَةِ؟ وَعَقَدَهُ فِي «مَرَاقِي السُّعُودِ» بِقَوْلِهِ:

ذُو فَتْرَةٍ بِالْفَرْعِ لَا يُرَاعُ وَفِي الْأُصُولِ بَيْنَهُمْ نِزَاعُ

(٥) لوحة (١٣٧ أ). (٦) سقط من (ز).

فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾ [فاطر: ٣٧].

إلىٰ غير ذلك من الآيات الدَّالَّة علىٰ أن الله تعالىٰ لا يُدْخِلُ أحدًا النَّار إلا بعد إرسال الرسول إليه، ومن ثَمَّ طعن جماعة من العلماء في اللَّفظة التي جاءت مقحمة في «صحيح البخاري» عند قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٦].

حدَّثنا [عبيد الله][(١)] بن سعد، حدَّثنا يعقوب، حدَّثنا أبي، عن صالح بن كَيْسَان، عن الأعرج عن أبي هريرة، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**اخْتَصَمَتِ الجَنَّةُ وَالنَّارُ...**» فذكر الحديث إلىٰ أن قال: «**وَأَمَّا الجَنَّةُ فَلَا يَظْلِمُ اللهُ مِنْ خَلْقِهِ أَحَدًا، وَأَنَّهُ يُنْشِئُ لِلنَّارِ خَلْقًا فَيُلْقَوْنَ فِيهَا، فَتَقُولُ: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ[(٢)]؟ ثَلَاثًا...**» وذكر تمام الحديث[(٣)].

فإنَّ هذا إنَّما جاء في الجنَّة؛ لأنَّها دار فضل، وأمَّا النَّار فإنَّها دار عدل، لا يدخلها أحد إلا بعد الإعذار إليه وقيام الحجَّة عليه. وقد تكلَّم جماعة من الحفاظ في هذه اللَّفظة وقالوا: لعلَّه انقلب علىٰ الرَّاوي بدليل ما أخرجاه في «الصَّحيحين» واللفظ للبخاري من حديث عبد الرزَّاق عن مَعْمَر، عن همام، عن أبي هريرة قال: قال النَّبيُّ ﷺ: «**تَحَاجَّتِ الجَنَّةُ وَالنَّارُ...**» فذكر الحديث إلىٰ أن قال: «**فَأَمَّا النَّارُ فَلَا تَمْتَلِئُ حَتَّىٰ يَضَعَ فِيهَا قَدَمَهُ، فَتَقُولُ: قَطْ، قَطْ، فَهُنَالِكَ تَمْتَلِئُ وَيُزْوَىٰ بَعْضُهَا إِلَىٰ بَعْضٍ[(٤)]، وَلَا يَظْلِمُ اللهُ مِنْ خَلْقِهِ أَحَدًا، وَأَمَّا الجَنَّةُ فَيُنْشِئُ اللهُ لَهَا خَلْقًا**»[(٥)].

بقي هاهنا مسألة قد اختلف الأئمَّة - رحمهم الله تعالىٰ - فيها قديمًا وحديثًا وهي: الولدان الذين ماتوا وهم صغار وآباؤهم كفار، ماذا حكمهم؟ وكذا المجنون والأصم والشَّيخ الخَرِف، ومن مَات في الفَتْرة ولم[(٦)] تبلغه الدَّعوة؟ وقد ورد في شأنهم أحاديث أنا ذاكرها لك بعون الله تعالىٰ وتوفيقه. ثم نذكر فصلًا ملخصًا من كلام الأئمة في ذلك، والله المستعان.

- فالحديث الأول: عن الأسود بن سَرِيع:

قال الإمام أحمد: حدَّثنا علي بن عبد الله، حدَّثنا معاذ بن هشام، حدَّثنا أبي، عن قتادة، عن الأحنف بن قيس، عن الأسود بن سريع رضي الله عنه أنَّ نَبِيَّ الله ﷺ قال: «**أَرْبَعَةٌ يَحْتَجُّونَ يَوْمَ القِيَامَةِ: رَجُلٌ أَصَمُّ لَا يَسْمَعُ شَيْئًا، وَرَجُلٌ أَحْمَقُ، وَرَجُلٌ هَرِمٌ، وَرَجُلٌ مَاتَ فِي فَتْرَةٍ، فَأَمَّا الأَصَمُّ فَيَقُولُ: رَبِّ، قَدْ جَاءَ الإِسْلَامُ وَمَا أَسْمَعُ شَيْئًا، وَأَمَّا الأَحْمَقُ فَيَقُولُ: رَبِّ، لَقَدْ جَاءَ الإِسْلَامُ وَالصِّبْيَانُ يَحْذِفُونِي[(٧)(٨)] بِالبَعْرِ، وَأَمَّا الهَرِمُ فَيَقُولُ: رَبِّ، لَقَدْ جَاءَ الإِسْلَامُ وَمَا أَعْقِلُ شَيْئًا، وَأَمَّا الَّذِي مَاتَ فِي الفَتْرَةِ فَيَقُولُ: رَبِّ، مَا أَتَانِي لَكَ رَسُولٌ. فَيَأْخُذُ مَوَاثِيقَهُمْ**

---

(١) في (ز): «عبد الله»، والمثبت كما في «البخاري»، وهو الصواب.

(٢) زاد بعدها في (ز): «ويلقون فيها وتقول: هل من مزيد».

(٣) البخاري (٧٤٤٩)، وقد وقع في هذه الرواية قلب كما ذكر ابن كثير، والراجح الرِّواية التي بعدها.

(٤) لوحة (١٣٧ ب).

(٥) البخاري (٤٨٥٠)، ومسلم (٢٨٤٦).

(٦) في (ز): «ومن لم».

(٧) أي: يضربوني به.

(٨) في (ز): «يقذفوني»، والمثبت موافق لما في «المسند».

لِيُطِيعُنَّهُ، فَيُرْسِلُ إِلَيْهِمْ أَنِ ادْخُلُوا النَّارَ، فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْ دَخَلُوهَا لَكَانَتْ عَلَيْهِمْ بَرْدًا وَسَلَامًا»(١).

وبالإسناد عن قتادة، عن الحسن، عن أبي رافع، عن أبي هريرة، مثل هذا الحديث غير أنه قال في آخره: «مَنْ دَخَلَهَا كَانَتْ عَلَيْهِ بَرْدًا وَسَلَامًا، وَمَنْ لَمْ يَدْخُلْهَا يُسْحَبْ إِلَيْهَا»(٢).

وكذا رواه إسحاق بن راهويه، عن معاذ بن هشام، ورواه البيهقي في كتاب الاعتقاد، من حديث حنبل بن إسحاق، عن علي بن عبد الله المديني به، وقال: هذا إسناد صحيح. وكذا رواه حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن أبي رافع، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أَرْبَعَةٌ كُلُّهُمْ يُدْلِي عَلَىٰ اللهِ بِحُجَّةٍ...» فذكر نحوه.

ورواه ابن جرير، من حديث مَعْمَر، عن همام، عن أبي هريرة، فذكره موقوفًا، ثم قال أبو هريرة: اقرءوا إن شئتم: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾(٣).

وكذا رواه معمر عن عبد الله بن طاوس، عن أبيه، عن أبي هريرة موقوفًا.

- **الحديث الثاني: عن أنس بن مالك:**

قال أبو داود الطيالسي: حدَّثنا الربيع، عن يزيد بن أبان قال: قلنا لأنس: يا أبا حمزة، ما تقول في أطفال المشركين؟ فقال: قال رسول الله ﷺ: «لَمْ يَكُنْ لَهُمْ سَيِّئَاتٌ فَيُعَذَّبُوا بِهَا فَيَكُونُوا مِنْ أَهْلِ النَّارِ(٤)، وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ حَسَنَاتٌ فَيُجَازَوا بِهَا فَيَكُونُوا مِنْ مُلُوكِ أَهْلِ الجَنَّةِ؛ هُمْ مِنْ خَدَمِ أَهْلِ الجَنَّةِ»(٥).

- **الحديث الثالث: عن أنس أيضًا:**

قال الحافظ أبو يعلىٰ: حدَّثنا أبو خَيْثَمَةَ، حدَّثنا جرير، عن لَيْث، عن عبد الوارث، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «يُؤْتَىٰ بِأَرْبَعَةٍ يَوْمَ القِيَامَةِ: بِالمَوْلُودِ، وَالمَعْتُوهِ، وَمَنْ مَاتَ فِي الفَتْرَةِ، وَالشَّيْخِ الفَانِي [الهَرِمِ](٦)، كُلُّهُمْ يَتَكَلَّمُ بِحُجَّتِهِ، فَيَقُولُ الرَّبُّ - تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ - لِعُنُقٍ(٧) [مِنَ النَّارِ](٨): ابْرُزْ، وَيَقُولُ لَهُمْ: إِنِّي كُنْتُ أَبْعَثُ إِلَىٰ عِبَادِي رُسُلًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ، وَإِنِّي رَسُولُ نَفْسِي إِلَيْكُمْ؛ ادْخُلُوا هَذِهِ. قَالَ: فَيَقُولُ مَنْ كُتِبَ عَلَيْهِ الشَّقَاءُ: يَا رَبِّ، أَنَّىٰ نَدْخُلُهَا وَمِنْهَا كُنَّا نَفِرُّ؟ قَالَ: وَمَنْ كُتِبَتْ [عَلَيْهِ](٩) السَّعَادَةُ يَمْضِي فَيَقْتَحِمُ فِيهَا مُسْرِعًا، قَالَ: فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَىٰ: أَنْتُمْ لِرُسُلِي أَشَدُّ تَكْذِيبًا وَمَعْصِيَةً، فَيُدْخِلُ هَؤُلَاءِ الجَنَّةَ، وَهَؤُلَاءِ النَّارَ»(١٠).

---

(١) صحيح: رواه أحمد (٤/ ٢٤)، وانظر: «صحيح ابن حبان» (٧٣٥٧) والتعليق عليه.

(٢) صحيح كسابقه: رواه أحمد (٤/ ٢٤)، والبزار (٢١٧٥)، وصححه الألباني في تعليقه علىٰ «السنة» لابن أبي عاصم (٤٠٤).

(٣) صحيح: رواه الطبري (١٥/ ٥٤).

(٤) لوحة (١٣٨ أ).

(٥) ضعيف: رواه الطيالسي (٢١١١)، وفيه يزيد بن أبان: ضعيف.

(٦) ليست في (ز)، ولا في «مسند أبي يعلىٰ».

(٧) أي: طائفة.

(٨) سقط من (ز)، وهو مثبت من «مسند أبي يعلىٰ».

(٩) سقط من (ز)، وهو مثبت من «مسند أبي يعلىٰ».

(١٠) ضعيف: رواه أبو يعلىٰ (٤٢٢٤)، والبزار (٢١٧٧)، وفيه ليث هو ابن أبي سليم: اختلط ولم تتميز أحاديثه فتُرِكَ، وعبد الوارث مولىٰ أنس: ضعيف.

وهكذا رواه الحافظ أبو بكر البزار، عن يوسف بن موسىٰ، عن جرير بن عبد الحميد، بإسناده مثله.

- الحديث الرابع: عن البراء بن عازب ﷺ:

قال الحافظ أبو يعلىٰ الموصلي في «مسنده» أيضًا: حدَّثنا قاسم بن أبي شيبة، حدَّثنا عبد الله -يعني ابن داود- عن عمر بن ذر، عن يزيد [بن أمية][(١)]، عن البراء قال: [سُئل][(٢)] رسول الله ﷺ عن أطفال المسلمين قال: «**هُمْ مَعَ آبَائِهِمْ**». وسئل عن أولاد المشركين فقال: «**هُمْ مَعَ آبَائِهِمْ**». فقيل: يا رسول الله، ما يعملون؟ قال: «**اللهُ أَعْلَمُ [بِهِمْ]**[(٣)]»[(٤)].

ورواه عمر بن ذرٍّ، عن يزيد بن[(٥)] أمية، عن رجل، عن البراء، عن عائشة، فذكره.

- الحديث الخامس: عن ثوبان:

قال الحافظ أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار في «مسنده»: حدَّثنا إبراهيم بن سعيد الجوهري، حدَّثنا ريحان بن سعيد، حدَّثنا عباد بن منصور، عن أيوب، عن أبي قِلابة، عن أبي أسماء، عن ثوبان؛ أن نبي الله ﷺ عظَّم شأن المسألة، قال: «**إِذَا كَانَ يَوْمُ القِيَامَةِ، جَاءَ أَهْلُ الجَاهِلِيَّةِ يَحْمِلُونَ أَوْثَانَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ فَيَسْأَلُهُمْ رَبُّهُمْ، فَيَقُولُونَ: رَبَّنَا لَمْ تُرْسِلْ إِلَيْنَا رَسُولًا وَلَمْ يَأْتِنَا لَكَ أَمْرٌ، وَلَوْ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا لَكُنَّا أَطْوَعَ عِبَادِكَ، فَيَقُولُ لَهُمْ رَبُّهُمْ: أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ تُطِيعُونِي؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، فَيَأْمُرُهُمْ أَنْ يَعْمِدُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ فَيَدْخُلُوهَا، فَيَنْطَلِقُونَ حَتَّىٰ إِذَا دَنَوْا مِنْهَا وَجَدُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا، فَرَجَعُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ فَيَقُولُونَ: رَبَّنَا أَخْرِجْنَا -أَوْ: أَجِرْنَا- مِنْهَا، فَيَقُولُ لَهُمْ: أَلَمْ تَزْعُمُوا أَنِّي إِنْ أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ تُطِيعُونِي؟ فَيَأْخُذُ عَلَىٰ ذَلِكَ مَوَاثِيقَهُمْ. فَيَقُولُ: اعْمِدُوا إِلَيْهَا، فَادْخُلُوهَا، فَيَنْطَلِقُونَ حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْهَا فَرِقُوا**[(٦)] **وَرَجَعُوا، فَقَالُوا: رَبَّنَا فَرِقْنَا مِنْهَا، وَلَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَدْخُلَهَا فَيَقُولُ: ادْخُلُوهَا دَاخِرِينَ**»[(٧)]. فقال نبي الله ﷺ: «**لَوْ دَخَلُوهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ كَانَتْ عَلَيْهِمْ بَرْدًا وَسَلَامًا**». ثم قال البزَّار: [ومتن هذا الحديث غير معروفٍ إلَّا من هذا الوجه، لم يروِهِ عن أيوب إلا عبَّاد، ولا عن عبَّاد إلا ريحان بن سعيد.

قلتُ: وقد ذكره ابن حبَّان في «ثقاته»، وقال يحيىٰ بن معين والنَّسائي: لا بأس به، ولم يَرْضَهُ أبو داود.

---

(١) في (ز): «بن أبي أمية»، والصَّواب ما أثبتناه، وانظر: «خلاصة تهذيب التهذيب» (١/ ٤٣٠).

(٢) سقط من (ز)، وهو مثبت من «مسند أبي يعلىٰ»، وانظر: «إتحاف الخيرة المهرة» (٨/ ١٠٠).

(٣) سقط من (ز).

(٤) ضعيف: في الإسناد يزيد بن أمية القرني: جهَّله الحافظ الذهبي وابن حجر، وقد اضطرب في روايته أيضًا، ولم أقف عليه في «المسند»، وقد عزاه إليه البوصيري في «اتحاف الخيرة المهرة» (٨/ ١٠٠).

(٥) في (ز): «عن»، والصواب ما أثبتناه.

(٦) لوحة (١٣٨ ب).

(٧) صحيح: رواه البزار، والحاكم (٤/ ٤٤٩)، وقال: صحيح علىٰ شرط الشيخين ولم يخرجاه بهذه السياقة.

قلت: وفي الإسناد ريحان بن سعيد، قال الحافظ: صدوق ربما وهم.

ويشهد له حديث أبي هريرة المتقدم والأحاديث المذكورة بعده، فالحديث صحيح إن شاء الله، قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٣٥٠): رواه البزار بإسنادين ضعيفين.

وقال أبو حاتم: شيخ لا بأس به يكتب حَدِيثَه ولا يحتج به][1].

- الحديث السادس: عن أبي سعيد سعد بن مالك بن سنان الخدري:

قال الإمام محمَّد بن يحيىٰ الذُّهلي: حدَّثنا سعيد[2] بن سليمان، عن فضيل بن مرزوق، عن عطية، عن أبي سعيدٍ قال: قال رسول الله ﷺ: «الهَالِكُ فِي الفَتْرَةِ وَالمَعْتُوهُ وَالمَوْلُودُ: يَقُولُ الهَالِكُ فِي الفَتْرَةِ: لَمْ يَأْتِنِي كِتَابٌ، وَيَقُولُ المَعْتُوهُ: رَبِّ، لَمْ تَجْعَلْ لِي عَقْلًا أَعْقِلُ بِهِ خَيْرًا وَلَا شَرًّا، وَيَقُولُ المَوْلُودُ: رَبِّ لَمْ أُدْرِكِ العَقْلَ، فَتُرْفَعُ لَهُمْ نَارٌ؛ فَيُقَالُ لَهُمْ: رِدُوهَا»، قال: «فَيَرِدُهَا مَنْ كَانَ فِي عِلْمِ اللهِ سَعِيدًا لَوْ أَدْرَكَ العَمَلَ، وَيُمْسِكُ عَنْهَا مَنْ كَانَ فِي عِلْمِ اللهِ شَقِيًّا لَوْ أَدْرَكَ العَمَلَ، فَيَقُولُ: إِيَّايَ عَصَيْتُمْ، فَكَيْفَ لَوْ أَنَّ رُسُلِي أَتَتْكُمْ؟»[3]

وكذا رواه البزار، عن محمَّد بن عمر بن هَيَّاج الكوفي، عن [عبيد الله][4] بن موسىٰ، عن فضيل ابن مرزوق به، ثم قال: لا يعرف من حديث أبي سعيد إلا من طريقه، عن عطية عنه، وقال في آخره: «فَيَقُولُ اللهُ: إِيَّايَ عَصَيْتُمْ فَكَيْفَ بِرُسُلِي بِالغَيْبِ؟».

- الحديث السابع: عن معاذ بن جبل رضي الله عنه:

قال هشام بن عَمَّار ومحمَّد بن المبارك الصوري حدَّثنا عمرو بن واقد، عن يونس بن حلبس، عن أبي إدريس الخولاني، عن معاذ بن جبل، عن نبيِّ الله ﷺ قال: «يُؤْتَىٰ يَوْمَ القِيَامَةِ بِالمَمْسُوخِ عَقْلًا وَبِالهَالِكِ فِي الفَتْرَةِ، وَبِالهَالِكِ صَغِيرًا؛ فَيَقُولُ المَمْسُوخُ: يَا رَبِّ، لَوْ آتَيْتَنِي عَقْلًا مَا كَانَ مَنْ آتَيْتَهُ عَقْلًا بِأَسْعَدَ مِنِّي -وذكر في الهالك في الفترة والصغير نحو ذلك- فَيَقُولُ الرَّبُّ ﷻ: إِنِّي آمُرُكُمْ بِأَمْرٍ فَتُطِيعُونِي؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، فَيَقُولُ: اذْهَبُوا فَادْخُلُوا النَّارَ -قَالَ: وَلَوْ دَخَلُوهَا مَا ضَرَّتْهُمْ- فَتَخْرُجُ عَلَيْهِمْ قَوَابِصُ[5]، فَيَظُنُّونَ أَنَّهَا قَدْ أَهْلَكَتْ مَا خَلَقَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ، فَيَرْجِعُونَ [سِرَاعًا][6]، ثُمَّ يَأْمُرُهُمُ الثَّانِيَةَ فَيَرْجِعُونَ [كَذَلِكَ][7]، فَيَقُولُ الرَّبُّ ﷻ: قَبْلَ أَنْ أَخْلُقَكُمْ عَلِمْتُ مَا أَنْتُمْ عَامِلُونَ، وَعَلَىٰ عِلْمِي خَلَقْتُكُمْ، وَإِلَىٰ عِلْمِي تَصِيرُونَ، ضُمِّيهِمْ، فَتَأْخُذُهُمُ[8] النَّارُ»[9].

- الحديث الثامن: عن أبي هريرة رضي الله عنه[10]:

قد تقدَّم روايته مندرجة مع رواية الأسود بن سريع رضي الله عنه:

وفي «الصحيحين»، عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَىٰ الفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ

---

(١) جاءت هذه الفقرة في (ز) بعد قوله: (الحديث السادس عن أبي سعيد سعد بن مالك بن سنان الخدري).

(٢) في (ز): «منصور»، والمثبت هو الصواب، وهو «سعدُويه» روىٰ عنه الذهلي، وانظر: «تهذيب التهذيب» (٤/ ٣٨).

(٣) ضعيف: رواه البزار (١٦١٦ -مختصر الزوائد)، وفي إسناده عطية العوفي: وهو ضعيف، شيعي مدلس.

(٤) في (ز): «عبد الله»، والصواب ما أثبتناه، وانظر: «تهذيب الكمال» (٢٦/ ١٧٨).

(٥) في (ز): «فرايض» وكذلك في «المعجم الكبير» والمثبت كما في «الأوسط»، وفي غيرهما من المصادر «قوابس».

(٦) سقط من (ز)، وليست في «الطبراني».

(٧) سقط من (ز)، وهو مثبت من «الطبراني». (٨) لوحة (١٣٩ أ).

(٩) ضعيف جدًّا: رواه الطبراني (٢٠/ ٨٤٠٣)، وفي «الأوسط» (٧٩٥٥)، في إسناده عمرو بن واقد: متروك.

(١٠) تقدم: انظر حديث الأسود بن سريع.

يُهَوِّدَانِهِ وَيُنَصِّرَانِهِ وَيُمَجِّسَانِهِ، كَمَا تُنْتَجُ(١) **الْبَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ، هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ؟**».

وفي روايةٍ قالوا: يا رسول الله، أفرأيت من يموت صغيرًا؟ قال: «**اللهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا عَامِلِينَ**»(٢).

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا موسىٰ بن داود، حدَّثنا عبد الرحمن بن ثابت، عن عطاء بن قُرَّة، عن عبد الله ابن ضمرة، عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ -فيما أعلم، شك موسىٰ- قال: «**ذَرَارِيُّ الْمُسْلِمِينَ فِي الْجَنَّةِ، يَكْفُلُهُمْ إِبْرَاهِيمُ عليه السلام**»(٣).

وفي «صحيح مسلم»، عن عياض بن حمار، عن رسول الله ﷺ، عن الله عز وجل أنه قال: «**إِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ**»(٤) وفي رواية لغيره: «**مُسْلِمِينَ**».

- الحديث التاسع: عن سمرة رضي الله عنه:

رواه الحافظ أبو بكر البَرْقاني في كتابه «المستخرج علىٰ البخاري» من حديث عوف الأعرابي، عن أبي رجاء العُطَارِدي، عن سَمُرَة رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَىٰ الْفِطْرَةِ**» فناداه النَّاس: يا رسول الله، وأولاد المشركين؟ قال: «**وَأَوْلَادُ الْمُشْرِكِينَ**»(٥).

وقال الطبراني: حدَّثنا عبد الله بن أحمد، حدَّثنا عقبة بن مكرم الضَّبِّي، عن عيسىٰ بن شعيب، عن عباد بن منصور، عن أبي رَجَاء، عن سمرة قال: سألنا رسول الله ﷺ عن أطفال المشركين فقال: «**هُمْ خَدَمُ أَهْلِ الْجَنَّةِ**»(٦).

- الحديث العاشر: عن عم حسناء(٧):

قال الإمام أحمد: حدَّثنا [إسحاق، يعني الأزرق](٨)، حدَّثنا عوف، عن حسناء بنت معاوية من بني صريم قالت: حدَّثني عمي قال: قلت: يا رسول الله، من في الجنة؟ قال: «**النَّبِيُّ فِي الْجَنَّةِ، وَالشَّهِيدُ فِي الْجَنَّةِ، وَالْمَوْلُودُ فِي الْجَنَّةِ، وَالْوَئِيدُ [فِي الْجَنَّةِ]**(٩)»(١٠).

فمن العلماء من ذهب إلىٰ التَّوقُّف فيهم لهذا الحديث، ومنهم مَن جزم لهم بالجنة؛ لحديث سَمُرَة بن

---

(١) في (ز): «تولد»، والمثبت كما في «الصحيحين».

(٢) البخاري (١٣٨٤)، ومسلم (٢٦٥٩)، وأبو داود (٤١٦٩)، والترمذي (٢٧٨٦)، والنسائي (٨/ ١٤٦)، وابن ماجة (١٩٨٩)، وأما الزيادة: فهي عند البخاري (٦٦٠٠)، ومسلم (٢٦٥٨).

(٣) حسن: أحمد (٢/ ٣٢٦)، والحاكم (١/ ٣٨٤)، والبيهقي في «البعث» (٢١٠).

(٤) مسلم (٢٨٦٥)، وأما الزيادة المذكورة بعده فقد رواها الطبراني في «الكبير» (١٧/ ٣٦٣)، وابن عساكر (٣٤/ ٤٥١)، وفي إسناده محمد بن إسحاق: صدوق ولكنه يدلس وقد عنعن.

(٥) لم أقف علىٰ تخريجه، ويشهد له ما تقدم.

(٦) ضعيف: رواه الطبراني (٦٩٩٣)، وفي «الأوسط» (٢٠٤٥)، وفي إسناده عباد بن منصور: صدوق رمي بالقدر وكان يدلس، وتغير بآخره.

(٧) في (ز): «خنساء»، والمثبت كما في «المسند»، و«أبي داود».

(٨) في (ز): «حدثنا روح»، والمثبت كما في «المسند»، وفي بعض الطبعات: «حدثنا إسحق أجزنا روح» وهو خطأ.

(٩) سقط من (ز)، والمثبت كما في «المسند».

(١٠) صحيح: رواه أبو داود (٢٥٢١)، وأحمد (٥/ ٥٨).

جندب في «صحيح البخاري»: أنه ﷺ قال في جملة ذلك المنام، حين مرَّ علىٰ ذلك الشيخ تحت الشجرة وحوله ولدان، فقال له جبريل: هذا إبراهيم عليه السلام وهؤلاء أولاد المسلمين وأولاد المشركين، قالوا: يا رسول الله، وأولاد المشركين؟. قال «نَعَمْ، وَأَوْلَادُ الْمُشْرِكِينَ»(١).

ومنهم من جزم لهم بالنَّار، لقوله عليه السلام: «هُمْ مَعَ آبَائِهِمْ»(٢).

ومنهم مَن ذهب إلىٰ أنَّهم يُمْتَحَنُون يوم القيامة في العَرَصَات، فمَن أطاع دخل الجنَّة، وانكشف(٣) علمُ الله فيهم بسابق السَّعادة، ومن عصىٰ دخل النَّار داخرًا، وانكشف علم الله فيه بسابق(٤) الشَّقاوة.

وهذا القول يجمع بين الأدلَّة كلِّها، وقد صرَّحت به الأحاديث المتقدمة المتعاضدة الشَّاهد بعضها لبعض. وهذا القول هو الذي حكاه الشيخ أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري رحمه الله عن أهل السُّنَّة والجماعة، وهو الذي نصره الحافظ أبو بكر البيهقي في «كتاب الاعتقاد» وكذلك غيره من محققي العلماء والحفاظ النقاد.

وقد ذكر الشيخ أبو عمر بن عبد البر النَّمَري بعد ما تقدَّم من أحاديث الامتحان، ثم قال: وأحاديث هذا الباب ليست قويةً، ولا تقوم بها حجةٌ وأهل العلم ينكرونها؛ لأن الآخرة دار جزاء وليست دار عمل ولا ابتلاء، فكيف يكلَّفون دخول النار وليس ذلك في وسع المخلوقين، والله لا يكلِّف نفسًا إلا وسعها؟!.

والجواب عمَّا قال: أنَّ أحاديث هذا الباب منها ما هو صحيح، كما قد نص علىٰ ذلك غير واحدٍ من أئمَّة العلماء، ومنها ما هو حسن، ومنها ما هو ضعيف يَقْوَىٰ بالصَّحيح والحسن. وإذا كانت أحاديث الباب الواحد متعاضدة علىٰ هذا النمط، أفادت الحجة عند الناظر فيها، وأما قوله: «إن الآخرة دار جزاء». فلا شك أنها دار جزاء، ولا ينافي التكليف في عرصاتها قبل دخول الجنة أو النار، كما حكاه الشيخ أبو الحسن الأشعري عن مذهب أهل السنة والجماعة من امتحان الأطفال، وقد قال الله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ﴾ [ن: ٤٢]، وقد ثبتت السنة في «الصحاح» وغيرها: أن المؤمنين يسجدون لله يوم القيامة، وأما المنافق فلا يستطيع ذلك ويعود ظهره طبقًا(٥) [واحدًا](٦) كلما أراد السجود(٧) خرَّ لقفاه.

وفي «الصحيحين» في الرجل الذي يكون آخر أهل النار خروجًا منها أن الله يأخذ عهوده ومواثيقه ألَّا يسأل غير ما هو فيه، ويتكرر ذلك مرارًا، ويقول الله تعالىٰ: «يَا ابْنَ آدَمَ، مَا أَغْدَرَكَ!» ثم يأذن له في دخول الجنَّة.

وأمَّا قوله: «وكيف يكلفهم دخول النار، وليس ذلك في وسعهم؟» فليس هذا بمانع من صحَّة الحديث، فإنَّ الله يأمر العباد يوم القيامة بالجواز علىٰ الصِّراط، وهو جسر علىٰ جهنم أحدُّ مِن السَّيف وأدقُّ مِن

---

(١) البخاري (٧٠٤٧)، ومسلم (٢٢٧٥)، والترمذي (٢٢٩٤).

(٢) رواه أبو داود (٤٧١٢)، وأحمد (٦/ ٨٤)، وصححه الألباني.

(٣) لوحة (١٣٩ ب). (٤) في (ز): «بتقدم».

(٥) الطَّبَق: فَقَار الظهر، واحدتها طبقة، يريد انه صار فقارهم كله كالفَقَارة الواحدة، فلا يقدرون علىٰ السجود.

(٦) ليست في (ز). (٧) في (ز): «سجودها».

الشعرة، ويمرُّ المؤمنون عليه بحسب أعمالهم، كالبرق، وكالريح، وكأجاويد الخيل والركاب، ومنهم الساعي ومنهم الماشي، ومنهم من يحبو حبوًا، ومنهم المكدوش[١] علىٰ وجهه[٢] في النار، وليس ما ورد في أولئك بأعظم من هذا بل هذا أطمُّ وأعظم، وأيضًا فقد ثبتت السنة بأن الدَّجَّال يكون معه جنَّة ونار، وقد أمر الشَّارع المؤمنين الذين يدركونه أن يشرب أحدهم من الذي يَرَىٰ أنَّه نار، فإنه يكون عليه بردًا وسلامًا، فهذا نظير ذلك، وأيضًا فإن الله تعالىٰ أمر بني إسرائيل أن يقتلوا أنفسهم، فقتل بعضهم بعضًا حتىٰ قتلوا فيما قيل في غداةٍ واحدةٍ سبعين ألفًا، يقتل الرجل أباه وأخاه وهم في عماية غمامة أرسلها الله عليهم، وذلك عقوبة لهم علىٰ عبادتهم العجل، وهذا أيضًا شاقٌّ علىٰ النُّفوس جدًّا لا يتقاصر عما ورد في الحديث المذكور، والله أعلم.

فصل

فإذا تقرر هذا، فقد اختلف الناس في ولدان المشركين علىٰ أقوال:

أحدها: أنَّهم في الجنَّة، واحتجُّوا بحديث سَمُرَة أنَّه ﷺ رأىٰ مع إبراهيم أولاد المسلمين وأولاد المشركين، وبما تقدَّم في رواية أحمد عن حسناء[٣] عن عمها أن رسول الله ﷺ قال: «**وَالمَوْلُودُ فِي الجَنَّةِ**». وهذا استدلالٌ صحيحٌ، ولكن أحاديث الامتحان أخصُّ منه. فمَن عَلِمَ الله ﷻ منه أنه يُطِيع جعل رُوحَه في البرزخ مع إبراهيم وأولاد المسلمين الذين ماتوا علىٰ الفطرة، ومَن عَلِمَ منه أنَّه لا يجيب، فأمره إلىٰ الله تعالىٰ، ويومَ القيامَةِ يكون في النَّار كما دلَّت عليه أحاديث الامتحان، ونقله الأشعري عن أهل السُّنَّة [والجماعة][٤] ثم من هؤلاء القائلين بأنَّهم في الجنَّة من يجعلهم مستقلين فيها، ومنهم من يجعلهم خَدَمًا لهم، كما جاء في حديث علي بن زيد، عن أنس، عند أبي داود الطيالسي وهو ضعيف، والله أعلم.

القول الثَّاني: أنهم مع آبائهم في النار، واستدل عليه [بما رواه][٥] الإمام أحمد بن حنبل عن أبي المغيرة، حدَّثنا عتبة بن ضمرة بن حبيب، حدَّثني عبد الله بن أبىٰ قيس مولىٰ غُطَيْف، أنه أتىٰ عائشة فسألها عن ذراري الكفار فقالت: قال رسول الله ﷺ: «**هُمْ تَبَعٌ لِآبَائِهِمْ**». فقلت: يا رسول الله، بلا عمل؟ فقال: «**اللهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا عَامِلِينَ**». وأخرجه أبو داود من حديث محمَّد بن حرب، عن محمَّد ابن زياد الألْهَاني، سمعت عبد الله ابن أبي قيس، سمعت عائشة تقول: سألت رسول الله ﷺ عن ذراري المؤمنين قال: «**هُمْ مِنْ آبَائِهِمْ**». قلت: فذراريُّ المشركين؟ قال: «**هُمْ مَعَ آبَائِهِمْ**» قلت: بلا عمل؟ قال: «**اللهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا عَامِلِينَ**»[٦].

ورواه الإمام أحمد أيضًا، عن وكيع، عن أبي عَقِيل يحيىٰ بن المتوكل -وهو متروك- عن مولاته بُهَيَّة عن

---

(١) المكدوش: المطرود، ويروىٰ: المكدوس، وهو المدفوع. (٢) لوحة (١٤٠ أ).
(٣) في (ز): «خنساء». (٤) سقط من (ز). (٥) ليست في (ز).
(٦) رواه أبو داود (٤٧١٢)، وأحمد (٦/ ٨٤) وصححه الألباني.

عائشة؛ أنها ذكرت لرسول الله[(١)] ﷺ أطفال المشركين فقال: «**إِنْ شِئْتِ أَسْمَعْتُكَ تَضَاغِيَهُمْ[(٢)] فِي النَّارِ**»[(٣)].

وقال عبد الله ابن الإمام أحمد: حدَّثنا عثمان بْن أبي شيبة، عن محمَّد بن فضيل بن غزوان، عن محمَّد بن عثمان، [عن زاذان][(٤)] عن علي رضي الله عنه قال: سألت خديجة رسول الله ﷺ عن ولدين لها ماتا في الجاهلية فقال: «**هُمَا فِي النَّارِ**». قال: فلما رأى الكراهية في وجهها قال: «**لَوْ رَأَيْتِ مَكَانَهُمَا لَأَبْغَضْتِهِمَا**». قالت: فولدي منك؟ قال: [«**فِي الْجَنَّةِ**». قال: ثمَّ قال رسول الله ﷺ:][(٥)] «**إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ وَأَوْلَادَهُمْ فِي الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْمُشْرِكِينَ وَأَوْلَادَهُمْ فِي النَّارِ**» ثم قرأ: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الطور: ٢١][(٦)]. وهذا حديثٌ غريبٌ؛ فإن محمَّد بن عثمان هذا مجهول الحال، وشيخه زاذان لم يدرك عليًّا، والله أعلم.

وروى أبو داود من حديث ابن أبي زائدة، عن أبيه، عن الشعبي قال: قال رسول الله ﷺ: «**الْوَائِدَةُ[(٧)] وَالْمَوْءُودَةُ فِي النَّارِ**». ثم قال الشعبي: حدَّثني به علقمة[(٨)]، عن ابن مسعود[(٩)].

وقد رواه جماعة عن داود بن أبي هند، عن الشعبي، عن علقمة، عن سلمة بن قيس الأشجعي قال: أتيت أنا وأخي النبيَّ ﷺ فقلنا: إن أمَّنا ماتت في الجاهلية، وكانت تَقْرِي الضَّيف وتصل الرحم، وأنها وأدت أختًا لنا في الجاهلية لم تبلغ الحِنث[(١٠)]؟ فقال: «**الْوَائِدَةُ وَالْمَوْءُودَةُ فِي النَّارِ، إِلَّا أَنْ تُدْرِكَ الْوَائِدَةُ الْإِسْلَامَ، فَتُسْلِمَ**»[(١١)]. وهذا إسناد حسن.

والقول الثالث: التَّوقُّف فيهم، واعتمدوا على قوله ﷺ: «**اللهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا عَامِلِينَ**». وهو في «الصَّحيحين» من حديث جعفر بن إياس، عن سعيد بن جبير، عن ابن عبَّاس: سئل رسول الله ﷺ عن أولاد المشركين قال: «**اللهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا عَامِلِينَ**»[(١٢)] [وكذلك هو في «الصحيحين»، من حديث الزهري، عن

---

(١) لوحة (١٤٠ ب).
(٢) أي: صياحهم وبكاءهم.
(٣) **ضعيف**: رواه أحمد (٦/ ٢٠٨)، وفيه أبو عقيل، قال الحافظ: ضعيف.
(٤) في (ز): «بن زاذان»، والمثبت موافق لما في «المسند»، وانظر: «تهذيب التهذيب» (٣/ ٢٦١).
(٥) سقطت من (ز) وهي مثبتة من «المسند».
(٦) **ضعيف**: عبد الله بن أحمد في «زوائد المسند» (١/ ١٣٤)، وإسناده ضعيف كما قال ابن كثير في تعقيبه على الحديث.
(٧) في (ز): «العائدة»، والمثبت كما في «أبي داود».
(٨) في (ز): «علقمة بن أبي وائل»، وفي بعض المطبوعات: «علقمة عن أبي وائل»، والمثبت موافق لما في «أبي داود» وغيره، والصَّواب أنه: «علقمة بن قيس» كما في «النسائي» و«ابن حبان».
(٩) **صحيح**: أبو داود (٤٧١٧) من حديث ابن مسعود، وصححه الألباني.
(١٠) أي: الادراك.
(١١) رواه أحمد (٣/ ٤٧٨) من حديث مسلمة بن قيس، وحسنه الحافظ ابن كثير، وهو شاهد لحديث ابن مسعود.
(١٢) البخاري (١٣٨٣)، ومسلم (٢٦٦٠) من حديث ابن عباس.

عطاء بن يزيد، وعن أبي سلمة، عن أبي هريرة، عن النَّبيِّ ﷺ: أنه سئل عن أطفال المشركين، فقال: «اللهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا عَامِلِينَ»(١)](٢).

ومنهم من جعلهم من أهل الأعراف. وهذا القول يرجع إلىٰ قول من ذهب إلىٰ أنهم من أهل الجنَّة؛ لأنَّ الأعراف ليس دار قرار، ومآلُ أهلها إلىٰ الجنَّة كما تقدَّم تقرير ذلك في «سورة الأعراف»، والله أعلم.

فصل

وليعلم أن هذا الخلاف مخصوص بأطفال المشركين، فأمَّا ولدان المؤمنين فلا خلاف بين العلماء كما حكاه القاضي أبو يعلىٰ [بن](٣) الفرّاء الحنبلي، عن الإمام أحمد أنه قال: لا يختلف فيهم أنَّهم مِن أهل الجنَّة. وهذا هو المشهور بين النَّاس، وهو الذي نقطع به إن شاء الله ﷻ. فأما ما ذكره الشيخ أبو عمر بن عبد(٤) البر، عن بعض العلماء: أنهم توقفوا في ذلك، وأن الولدان كلهم تحت مشيئة الله ﷻ. قال أبو عمر: ذهب إلىٰ هذا القول جماعة مِن أهل الفقه والحديث منهم: حماد بن زيد، وحماد بن سلمة، وابن المبارك، وإسحاق بن راهويه وغيرهم قالوا: وهو يشبه ما رسم مالك في مُوَطَّئِهِ في أبواب القدر، وما أورده من الأحاديث في ذلك، وعلىٰ ذلك أكثر أصحابه. وليس عن مالك فيه شيء منصوص، إلا أن المتأخرين من أصحابه ذهبوا إلىٰ أن أطفال المسلمين في الجنة وأطفال المشركين خاصة في المشيئة. انتهىٰ كلامه؛ وهو غريب جدًّا.

وقد ذكر أبو عبد الله القرطبي في كتاب «التذكرة» نحو ذلك أيضًا، والله أعلم.

وقد ذكروا في ذلك حديث عائشة بنت طلحة، عن عائشة أم المؤمنين قالت: دُعِيَ النَّبيُّ ﷺ إلىٰ جنازةِ صبي من الأنصار، فقلتُ: يا رسول الله، طوبىٰ له عصفور من عصافير الجنة لم يَعْمَل السوء ولم يدركه، فقال: «أَوَ غَيْرَ ذَلِكَ يَا عَائِشَةُ، إِنَّ اللهَ خَلَقَ الجَنَّةَ وَخَلَقَ لَهَا أَهْلًا وَهُمْ فِي أَصْلَابِ آبَائِهِمْ، وَخَلَقَ النَّارَ وَخَلَقَ لَهَا أَهْلًا وَهُمْ فِي أَصْلَابِ آبَائِهِمْ»(٥). رواه أحمد ومسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجه.

ولما كان الكلام في هذه المسألة يحتاج إلىٰ دلائل صحيحة جيِّدة، وقد يتكلَّم فيها من لا علم عنده عن الشارع، كره جماعة [من العلماء](٦) الكلام فيها، روي ذلك عن ابن عبَّاس، والقاسم بن محمَّد بن أبي بكر الصديق، ومحمَّد بن الحنفية وغيرهم. وأخرج ابن حبان في صحيحه، عن جرير بن حازم سمعت أبا رجاء العُطَاردي، سمعت ابن عبَّاس وهو علىٰ المنبر يقول: قال رسول الله ﷺ: «لَا يَزَالُ أَمْرُ هَذِهِ الأُمَّةِ مُوَاتِيًا - أَوْ

---

(١) حسن: رواه أحمد (٢/ ٣٢٦)، والحاكم (١/ ٣٨٤)، والبيهقي في «البعث» (٢٦٠).

(٢) ليست في (ز)، والذي وجدته في «الصحيحين» من طريق الزهري عن عطاء فقط، وأما أبو سلمة ففي «المسند» وغيره من طريق محمد بن عمرو عنه.

(٣) ليست في (ز)، وهو القاضي أبو يعلىٰ محمد بن الحسين بن الفراء الحنبلي وانظر: «سير أعلام النبلاء» (٣٨/ ٥٩).

(٤) لوحة (١٤١ أ).

(٥) مسلم (٢٦٦٢)، وأبو داود (٤٧١٣)، والنسائي (٤/ ٥٧)، وابن ماجة (٨٢).

(٦) سقط من (ز).

مُقَارِبًا- مَا لَمْ يَتَكَلَّمُوا فِي الوِلْدَانِ وَالقَدَرِ» (١)

قال ابن حبان: يعني أطفال المشركين.

وهكذا رواه أبو بكر البزار من طريق جرير بن حازم به. ثم قال: وقد رواه جماعة عن أبي رجاء، عن ابن عبَّاس موقوفًا (٢).

﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ ﴾

اختلف القرَّاء في قراءة قوله: ﴿أَمَرْنَا﴾ فالمشهور قراءة التَّخفيف (٣)، واختلف المفسرون في معناها، فقيل: معناها: أمرنا مترفيها ففسقوا فيها أمرًا قدريًّا، كقوله تعالىٰ: ﴿أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا﴾ [يونس: ٢٤]، فإن الله لا يأمر بالفَحْشَاء، قالوا: معناه: أنه سخرهم إلىٰ فعلِ الفواحشِ فاستحقوا العذاب.

وقيل: معناه (٤): أمرناهم بالطاعات ففعلوا الفواحشَ فاستحقُّوا العقوبة. رواه ابن جريج عن ابن عبَّاس، وقاله سعيد بن جبير أيضًا.

وقال ابن جرير: وقد يحتمل أن يكون معناه جعلناهم أمراء.

قلتُ: إنما يجيء هذا علىٰ قراءة من قرأ «أَمَّرْنَا (٥) مُتْرَفِيهَا» قال علي بن طلحة، عن ابن عبَّاس قوله: ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا﴾ يقول: سلَّطْنا أشرارها فعصَوْا فيها، فإذا فعلوا ذلك أهلكتهم بالعذاب، وهو قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُواْ فِيهَا﴾ [الأنعام:١٢٣]، وكذا قال أبو العالية ومجاهد والربيع بن أنس.

وقال العَوْفِي عن ابن عبَّاس: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا﴾ يقول: أكثرنا عددهم (٦)، وكذا قال عكرمة، والحسن، والضَّحَّاك، وقتادة، وعن مالك عن الزهري: ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾: أكثرنا.

وقد استشهد بعضهم بالحديث الذي رواه الإمام أحمد حيث قال: حدَّثنا رَوْح بن عبادة، حدَّثنا أبو نعامة العدوي، عن مسلم بن بُدَيْل، عن إياس بن زهير، عن سُوَيْد بن هُبَيْرة، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**خَيْرُ مَالِ امْرِئٍ لَهُ مُهْرَةٌ مَأْمُورَةٌ أَوْ سِكَّةٌ مَأْبُورَةٌ**» (٧).

قال الإمام أبو عبيد القاسم بن سلام رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه «الغريب»: المأمورة: كثيرة النسل. والسِّكَّة: الطريقة المصطفَّة من النَّخل، والمأبورة: من التَّأبير، وقال بعضهم: إنَّما جاء هذا متناسبًا كقوله: «**مَأْزُورَاتٍ غَيْرَ مَأْجُورَاتٍ**» (٨).

---

(١) **صحيح**: رواه ابن حبان (٦٧٢٤)، والحاكم (١/ ٣٣)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٥١٥).

(٢) انظر: «السنة» (٣-٧)، لعبد الله ابن الإمام أحمد، و«أصول الاعتقاد» للَّالَكَائِي (١١٢٧)، وإسناده صحيح.

(٣) **متواترة**: قَرَأَ (آمَرْنَا) يَعْقُوبُ وَوَافَقَهُ الْحَسَنُ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ (أَمَرْنَا). (٤) لوحة (١٤١ ب).

(٥) قراءة: قَرَأَ (أَمَّرْنا) أَبُو عُثْمَانَ النَّهْدِيُّ، وَسَبَقَ بَيَانُ مَا فِيهَا مِنَ الْمُتَوَاتِرِ.

(٦) في (ز): «عدوهم»، والمثبت كما في «الطبري» وغيره.

(٧) **ضعيف**: رواه أحمد (٣/ ٤٦٨)، وإسناده مرسل، وفيه مسلم بن بديل، وإياس بن زهير: لم يوثقهما غير ابن حبان.

(٨) **ضعيف**: رواه ابن ماجة (١٥٧٨)، وفي إسناده دينار بن عمر: ضعيف.

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿١٧﴾ ﴾

يقول تعالىٰ منذرًا كفَّار قريشٍ في تكذيبهم رسوله محمَّدا ﷺ بأنَّه قد أهلك أممًا من المكذِّبين للرُّسُل من بعد نوح، ودلَّ هذا علىٰ أنَّ القرون التي كانت بين آدم ونوح علىٰ الإسلام، كما قاله ابن عبَّاس: كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم علىٰ الإسلام(١).

ومعناه: أنَّكم أيها المكذِّبون لستم أكرم علىٰ الله منهم، وقد كذَّبتم أشرف الرسل وأكرم الخلائق، فعقوبتكم أولىٰ وأحرىٰ.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ أي: هو عالمٌ بجميع أعمالهم، خيرِها وشرِّها، لا يخفىٰ عليه منها خافية ﷻ.

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾

يخبر تعالىٰ: أنَّه ما كل من طلب الدنيا وما فيها من النَّعيم يحصل [له](٢)، بل إنما يحصل لمن أراد الله ما يشاء.

وهذه مقيدةٌ لإطلاق(٣) ما سواها من الآيات فإنه قال: ﴿عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا﴾ أي: في الدار الآخرة ﴿يَصْلَاهَا﴾ أي: يدخلها حتىٰ تغمره من جميع جوانبه ﴿مَذْمُومًا﴾ أي: حال كونه مذمومًا علىٰ سوءِ تصرُّفِهِ وصنيعه إذ اختار الفاني علىٰ الباقي ﴿مَدْحُورًا﴾: مبْعَدًا مقصيًا حقيرًا ذليلًا مهانًا.

قال الإمام أحمد: حدَّثنا حسين، حدَّثنا ذُوَيد، عن أبي إسحاق، عن زُرْعَة، عن عائشة ﵂ قالت: قال رسول الله ﷺ: «الدُّنْيَا دَارُ مَنْ لا دَارَ لَهُ، وَمَالُ مَنْ لا مَالَ لَهُ، وَلَهَا يَجْمَعُ مَنْ لا عَقْلَ لَهُ»(٤).

وقوله: ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ ﴾ أي: أراد الدار الآخرة وما فيها من النَّعيم والسُّرور ﴿وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا﴾ أي: طلب ذلك من طريقه وهو متابعة الرَّسول ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ أي: وقلبه مؤمن؛ أي: مصدِّقٌ موقِنٌ بالثَّواب والجزاءِ ﴿فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾.

﴿ كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾﴾

[يقول تعالىٰ: ﴿ كُلًّا ﴾ أي: كلَّ واحدٍ من الفريقين الَّذِين أرادوا الدُّنيا والَّذين أرادوا الآخرة، نمدُّهم فيما

---

(١) صحيح: تقدم في سورة البقرة (٢١٣)، والأعراف (٥٩).

(٢) سقط من (ز).

(٣) لوحة (١٤٢ أ).

(٤) ضعيف: رواه أحمد (٦/ ٧١)، وفيه أبو إسحاق السبيعي وهو مدلس، وقد عنعن.

هم فيه ﴿مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ﴾ أي: هو المتصرِّف الحاكم الذي لا يجور، فيعطي كلًّا ما يستحقُّه من الشَّقاوة والسَّعادة، ولا رادَّ لحكمه ولا مانع لما أَعْطَىٰ، ولا مُغيِّر لما أراد؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ أي: ممنوعًا؛ أي: لا يمنعه أحد ولا يرده رادٌّ.

قال قتادة: ﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ أي: منقوصًا.

وقال الحسن وابن جريج وابن زيد: ممنوعًا.

ثم قال تعالىٰ: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ في الدنيا، فمنهم الغَنِيُّ والفقير وبَيْن ذلك، والحسن والقبيح وبَيْنَ ذلك، ومن يموت صغيرًا، ومن يُعَمَّر حتىٰ يبقىٰ شيخًا كبيرًا، وبين ذلك ﴿وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ أي: ولَتَفاوتُهم في الدار الآخرة أكبرُ من الدنيا؛ فإن منهم من يكون في الدَّركات في جهنَّم وسلاسلها وأغلالها، ومنهم من يكون في الدرجات العُلَىٰ ونعيمها وسرورها، ثم أهل الدركات يتفاوتون فيما هم فيه، كما أنَّ أهل الدرجات يتفاوتون، فإن الجنَّة مائة درجة ما بين كل درجتين كما بين السَّماء والأرض. وفي «الصحيحين»: «**إِنَّ أَهْلَ الدَّرَجَاتِ العُلَىٰ لَيَرَوْنَ أَهْلَ عِلِّيِّينَ، كَمَا تَرَوْنَ الكَوْكَبَ الغَابِرَ فِي أُفُقِ السَّمَاءِ**»[١]؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾.

﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾﴾][٢]

يقول تعالىٰ: والمراد المكلَّفون من الأُمَّة، لا تجعل أيُّها المكلَّف في عبادتك ربك له شريكًا ﴿فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا﴾ علىٰ إشراكك ﴿مَّخْذُولًا﴾ لأن الرَّبَّ تعالىٰ لا ينصرك، بل يكلك إلىٰ الذي عبدت معه، وهو لا يملك لك ضرًّا ولا نفعًا؛ لأنَّ مالكَ الضُّرِّ والنَّفع هو الله وحده لا شريك له. وقد قال الإمام أحمد:

حدَّثنا أبو أحمد الزبيري، حدَّثنا بشير بن سلمان، عن سَيَّار أبي الحكم، عن طارق بن شهاب، عن عبد الله -هو ابن مسعود- قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ أَصَابَتْهُ فَاقَةٌ فَأَنْزَلَهَا بِالنَّاسِ**[٣] **لَمْ تُسَدَّ فَاقَتُهُ، وَمَنْ أَنْزَلَهَا بِاللهِ أَوْشَكَ اللهُ لَهُ بِالغِنَىٰ، إِمَّا أَجَلٌ [عَاجِلٌ]**[٤] **وَإِمَّا غِنًىٰ عَاجِلٌ**»[٥].

ورواه أبو داود والترمذي من حديث بشير بن سلمان به، وقال الترمذي: حسن صحيح [غريب][٦].

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾

---

(١) البخاري (٣٢٥٦)، ومسلم (٢٨٣١). (٢) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

(٣) أي: عرضها عليهم وأظهرها بطريق الشكاية لهم، وطلب ازالة فاقته منهم.

(٤) سقط من (ز)، وهي مثبتة من «المسند».

(٥) **صحيح**: أبو داود (١٦٤٥)، والترمذي (٢٤٢٦)، وأحمد (١/ ٤٠٧).

(٦) سقط من (ز)، والمثبت موافق لما في «المسند» و«أبي داود»، والذي في «الترمذي»: «بِرِزْقٍ عَاجِلٍ أَوْ آجِلٍ» وفي غيرهم: «إِمَّا غِنًىٰ عَاجِلٌ وَإِمَّا مَوْتٌ آجِلٌ».

يقول تعالىٰ آمرًا بعبادته وحده لا شريك له؛ فإنَّ القضاء هاهنا بمعنىٰ الأمر.

قال مجاهد: ﴿وَقَضَىٰ﴾ يعني: وصىٰ، وكذا قرأ أُبيُّ بن كعب، وعبد الله بن مسعود، والضَّحَّاك بن مزاحم: «ووصَّىٰ[(١)] ربك ألا تعبدوا إلا إيَّاه»؛ ولهذا قرن بعبادته بر الوالدين فقال: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ أي: وأمر بالوالدين إحسانًا، كما قال في الآية الأخرىٰ: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾[(٢)] [لقمان: ١٤].

وقوله: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ﴾ [أي: لا تُسمعهما قولًا سيئًا، حتَّىٰ ولا التَّأفيف الذي هو أدنىٰ مَرَاتِب القول السَّيِّئ][(٣)] ﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ أي: ولا يصدر منك إليهما فعلٌ قبيحٌ، كما قال عطاء بن أبي رباح في قوله: ﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ أي: لا تنفض يدك علىٰ والديك.

ولما نهاه عن القَولِ القبيح والفعل القبيح، أمره بالقولِ الحسنِ والفعلِ الحسنِ فقال: ﴿وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ أي: لينًا طيبًا حسنًا بأدبٍ وتوقيرٍ وتعظيمٍ.

﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ أي: تواضع لهما بِفِعْلِكَ ﴿وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا﴾ أي: في كبرهما وعند وفاتهما ﴿كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾.

قال ابن عبَّاس: ثم أنزل الله تعالىٰ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ﴾ [التوبة: ١١٣].

وقد جاء في بر الوالدين أحاديث كثيرة؛ منها الحديث المروي من طرق عن أنس وغيره: أن رسول الله ﷺ لما صعد المنبر قال: «آمِينَ، آمِينَ، آمِينَ»: فقالوا: يا رسول الله، علام أمَّنت؟ قال: «**أَتَانِي جِبْرِيلُ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ رَغِمَ أَنْفُ امْرِئٍ ذُكِرْتَ عِنْدَهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيْكَ، قُلْ: آمِينَ. فَقُلْتُ: آمِينَ. ثُمَّ قَالَ: رَغِمَ أَنْفُ امْرِئٍ دَخَلَ عَلَيْهِ شَهْرُ رَمَضَانَ ثُمَّ خَرَجَ وَلَمْ يُغْفَرْ لَهُ، قُلْ: آمِينَ. فَقُلْتُ: آمِينَ. ثُمَّ قَالَ: رَغِمَ أَنْفُ امْرِئٍ أَدْرَكَ أَبَوَيْهِ أَوْ أَحَدَهُمَا فَلَمْ يُدْخِلَاهُ الجَنَّةَ، قُلْ: آمِينَ. فَقُلْتُ: آمِينَ**»[(٤)].

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدَّثنا هُشَيْم، حدَّثنا علي بن زيد، أخبرنا زُرَارَة بن أَوْفَىٰ، عن مالك ابن الحارث - رجل منهم- أنَّه سمع النَّبيَّ ﷺ يقول: «**مَنْ ضَمَّ يَتِيمًا**[(٥)] **بَيْنَ أَبَوَيْنِ مُسْلِمَيْنِ إِلَىٰ طَعَامِهِ وَشَرَابِهِ حَتَّىٰ يَسْتَغْنِيَ عَنْهُ، وَجَبَتْ لَهُ الجَنَّةُ البَتَّةَ، وَمَنْ أَعْتَقَ امْرَأً مُسْلِمًا كَانَ فِكَاكَهُ مِنَ النَّارِ، يُجْزَىٰ بِكُلِّ عُضْوٍ مِنْهُ عُضْوًا مِنْهُ**»[(٦)].

ثم قال: حدَّثنا محمَّد بن جعفر، حدَّثنا شُعْبَة، سمعت علي بن زيد -فذكر معناه، إلا أنه قال: عن رجل

---

(١) قراءة: قَرَأَ (وَوَصَّىٰ) أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ وَعَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ وَالضَّحَّاكُ بْنُ مُزَاحِمٍ، وَلَيْسَ فِي الْمُتَوَاتِرِ إِلَّا (وَقَضَىٰ).

(٢) لوحة (١٤٢ ب).

(٣) ليست في (ز).

(٤) رواه البزار (٢١٧٤ - مختصر الزوائد)، وإسناده ضعيف، وعلته: سلمة بن وردان: ضعيف، لكن الحديث صحَّ مِن حديث أبي هريرة وسيذكره المصنف قريبًا.

(٥) في (ز): «من ضم ما بين»، والمثبت كما في «المسند».

(٦) حسن لغيره: أحمد (٤/ ٣٤٤)، وفيه علي بن زيد: ضعيف الحديث، لكن يشهد له روايات أخرىٰ في الباب.

من قومه يقال له: مالك أو ابن مالك، وزاد: «وَمَنْ أَدْرَكَ وَالِدَيْهِ[1] أَوْ أَحَدَهُمَا فَدَخَلَ النَّارَ، فَأَبْعَدَهُ اللهُ»[2].

حديثٌ آخر: وقال الإمام أحمد: حدَّثنا عفان، حدَّثنا حمَّاد بن سلمة، أخبرنا علي بن زيد، عن زرارة بن أوفى عن مالك بن عمرو القشيري: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ أَعْتَقَ رَقَبَةً مُسْلِمَةً فَهِيَ فِدَاؤُهُ مِنَ النَّارِ، مَكَانَ كُلِّ عَظْمٍ مِنْ عظام مُحَرَّرِهِ بِعَظْمٍ مِنْ عِظَامِهِ، وَمَنْ أَدْرَكَ أَحَدَ وَالِدَيْهِ ثُمَّ[3] لَمْ يُغْفَرْ لَهُ فَأَبْعَدَهُ اللهُ ﷻ، وَمَنْ ضَمَّ يَتِيمًا بَيْنَ أَبَوَيْنِ مُسْلِمَيْنِ إِلَى طَعَامِهِ وَشَرَابِهِ حَتَّى يُغْنِيَهِ [اللهُ][4] وَجَبَتْ لَهُ الجَنَّةُ»[5].

حديث آخر: وقال الإمام أحمد: حدَّثنا حجاج ومحمَّد بن جعفر قالا: حدَّثنا شُعْبَة، عن قتادة سمعت زرارة بن أوفى يحدث عن [أبي بن][6] مالك[7] القشيري[8] قال: قال النَّبيُّ ﷺ: «مَنْ أَدْرَكَ وَالِدَيْهِ أَوْ أَحَدَهُمَا ثُمَّ دَخَلَ النَّارَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ، فَأَبْعَدَهُ اللهُ وَأَسْحَقَهُ»[9].

ورواه أبو داود الطيالسي، عن شُعْبَة به وفيه زيادات أخر.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدَّثنا عفان، حدَّثنا أبو عوانة، حدَّثنا سهيل بن أبي صالح، عن أبيه، عن أبي هريرة ؓ عن النَّبيِّ ﷺ قال: «رَغِمَ أَنْفُ، ثُمَّ رَغِمَ أَنْفُ، ثُمَّ رَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ أَدْرَكَ وَالِدَيْهِ أَحَدَهُمَا أَوْ [كِلَيْهِما][10] عِنْدَ الكِبَرِ وَلَمْ يَدْخُلِ الجَنَّةَ»[11].

صحيحٌ مِن هذا الوجه، ولم يخرجه سوى مسلمٌ، من حديث أبي عوانة وجرير وسليمان بن بلال، عن سهيل به.

حديث آخر: وقال الإمام أحمد: حدَّثنا رِبعيّ بن إبراهيم -قال أحمد: وهو أخو إسماعيل ابن عُلَيَّة، وكان يفضل على أخيه- عن عبد الرحمن بن إسحاق، عن سعيد بن أبي سعيد، عن أبي هريرة ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: «رَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ ذُكِرْتُ عِنْدَهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيَّ! وَرَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ دَخَلَ عَلَيْهِ شَهْرُ رَمَضَانَ، فَانْسَلَخَ قَبْلَ أَنْ يُغْفَرَ لَهُ! وَرَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ أَدْرَكَ عِنْدَهُ أَبَوَاهُ الكِبَرَ فَلَمْ يُدْخِلَاهُ الجَنَّةَ» قال رِبعِيٌّ: لا أعلمه إلا قال: «أَوْ أَحَدُهُمَا»[12].

---

(١) في (ز): «واحد»، والمثبت كما في «المسند».

(٢) رواه أحمد (٥/ ٢٩)، وأبو يعلى (٩٢٦)، وفيه علي بن زيد: ضعيف، لكن يشهد له روايات أخرى في الباب.

(٣) في (ز): «و»، والمثبت كما في «المسند».

(٤) سقط من (ز)، وهو مثبت من «المسند».

(٥) **حسن لغيره**: أحمد (٤/ ٣٤٤)، فيه علي بن زيد: انظر الحديث السابق.

(٦) ليست في (ز)، والمثبت موافق لما في «المسند». وهناك خلاف في أبي بن مالك هذا، وفي صحبته ونسبة الحديث إليه، انظر: «الاستيعاب» (١/ ٣٣)، و«الإصابة» (١/ ٢٩).

(٧) لوحة (١٤٣ أ).

(٨) كذا وقع في (ز) وليست في «المسند» وفي ترجمته خلاف في النسبة فيقال: «الحرش» و«العامري» و«القشيري» أيضًا، انظر: «الاستيعاب» (١/ ٥٣٣)، و«الإصابة» (١/ ٢٩).

(٩) **صحيح**: أحمد (٤/ ٣٤٤)، والطيالسي (١٣٢١).

(١٠) في (ز): (كلاهما)، والمثبت موافق لما في «المسند».

(١١) رواه مسلم (٢٥٥١)، وأحمد (٢/ ٣٤٦).

(١٢) رواه أحمد (٢/ ٣٥٤)، والترمذي (٣٥٤٥)، وإسناده حسن، وهو شاهد لما قبله.

ورواه التِّرمذي، عن أحمد بن إبراهيم الدَّوْرَقِي، عن ربعي بن إبراهيم، ثم قال: غريب من هذا الوجه.

حديث آخر: وقال الإمام أحمد: حدَّثنا يونس بن محمَّد، حدَّثنا عبد الرحمن بن الغَسِيل، حدَّثنا أسيد بن علي، عن أبيه علي(١) بن عبيد، عن أبي أسيد(٢) وهو مالك بن ربيعة [الساعدي](٣)، قال: بينما أنا جالسٌ عند رسول الله ﷺ إذ جاءه رجل من الأنصار فقال: يا رسول الله، هل بقي عليَّ من برِّ أبويَّ شيء بعد موتهما أَبَرُّهُمَا به؟ قال: «**نَعَم، خِصَالٌ أَرْبَعٌ: الصَّلَاةُ عَلَيْهِمَا(٤)، وَالِاسْتِغْفَارُ لَهُمَا، وَإِنْفَاذُ عَهْدِهِمَا، وَإِكْرَامُ صَدِيقِهِمَا، وَصِلَةُ الرَّحِمِ الَّتِي لا رَحِمَ لَكَ إِلَّا مِنْ قِبَلِهِمَا، فَهُوَ الَّذِي بَقِيَ عَلَيْكَ بَعْدَ مَوْتِهِمَا مِنْ بِرِّهِمَا**»(٥).

ورواه أبو داود وابن ماجه، من حديث عبد الرحمن بن سليمان -وهو ابن الغسيل- به.

حديث آخر: وقال الإمام أحمد: حدَّثنا روح، حدَّثنا ابن جريج، أخبرني محمَّد بن طلحة ابن عبد الله بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن معاوية بن جاهمة السلمي؛ أن جاهمة جاء إلىٰ النَّبيِّ ﷺ فقال: يا رسول الله، أردت الغزو، وجئتك أستشيرك؟ فقال: «**فَهَلْ لَكَ مِنْ أُمٍّ؟**» قال: نعم. فقال: «**الْزَمْهَا؛ فَإِنَّ الجَنَّةَ عِنْدَ رِجْلَيْهَا**» ثم الثَّانية، ثم الثَّالثة في مقاعد شتَّىٰ، كمثل هذا القول(٦).

ورواه النسائي وابن ماجه، من حديث ابن جريج به.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدَّثنا خلف بن الوليد، حدَّثنا [ابن](٧) عياش، عن بَحِير بن(٨) سعد، عن خالد بن معدان، عن المقدام بن معد يكرب الكندي، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**إِنَّ اللهَ يُوصِيكُمْ بِآبَائِكُمْ، إِنَّ اللهَ يُوصِيكُمْ بِأُمَّهَاتِكُمْ، إِنَّ اللهَ يُوصِيكُمْ بِأُمَّهَاتِكُمْ، إِنَّ اللهَ يُوصِيكُمْ بِأُمَّهَاتِكُمْ، إِنَّ اللهَ يُوصِيكُمْ بِالأَقْرَبِ فَالأَقْرَبِ**»(٩).

وقد أخرجه ابن ماجه، من حديث إسماعيل(١٠) بن عياش به.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدَّثنا يونس، حدَّثنا أبو عَوَانة، عن الأشعث بن سليم، عن أبيه، عن رجل من بني يربوع قال: أتيت النَّبيَّ ﷺ فسمعته وهو يكلم الناس يقول: [«**يَدُ المُعْطِي العُلْيَا**](١١) **أُمَّكَ وَأَبَاكَ وَأُخْتَكَ وَأَخَاكَ، ثُمَّ أَدْنَاكَ أَدْنَاكَ**»(١٢).

---

(١) في (ز): «عن ابن عبيد»، والمثبت موافق لما في «المسند».

(٢) في (ز): «أسيل»، وهو خطأ. (٣) سقط من (ز)، وانظر ترجمته في «الاستيعاب» (٢/ ٧).

(٤) الصلاة هنا مقصود بها الدعاء، أي: الدعاء لهما.

(٥) **ضعيف**: رواه أبو داود (٥١٤٢)، وابن ماجة (٣٦٦٤)، وأحمد (٣/ ١٢٧)، وفيه علي بن عبيد: مقبول.

(٦) **حسن**: النسائي (٦/ ١١)، وابن ماجة (٢٧٨١)، وأحمد (٣/ ٤٢٩)، وحسنه الألباني في «الإرواء» (١١٩٩).

(٧) ليست في (ز)، والمثبت كما في «المسند».

(٨) لوحة (١٤٣ ب). (٩) **صحيح**: رواه ابن ماجة (٣٦٦١)، وأحمد (٤/ ١٣١).

(١٠) كذا في (ز) و«ابن ماجه» وهو الصواب، وانظر تعليق الأرنؤوط علىٰ «المسند»، وفي بعض المطبوعات: «عبد الله بن عياش».

(١١) سقط من (ز)، وهو مثبت من «المسند».

(١٢) **صحيح**: رواه أحمد (٤/ ٦٤)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد»: (٦/ ٣٨٦): رجاله رجال الصحيح.

حديثٌ آخر: قال الحافظ أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار في «مسنده»: حدَّثنا إبراهيم بن المستمر العُرُوقي، حدَّثنا عمرو بن سفيان، حدَّثنا الحسن بن أبي جعفر، عن ليث بن أبي سليم، عن علقمة ابن مرثد عن سليمان بن بُرَيدة، عن أبيه؛ أن رجلًا كان في الطواف حاملًا أمه يطوف بها، فسأل النَّبيَّ ﷺ: هل أدَّيتُ حقَّها؟ قال: «لا، وَلا بِزَفْرَةٍ وَاحِدَةٍ»(١) أو كما قال. ثم قال البزَّار: لا نعلمه يروىٰ إلا من هذا الوجه.

قلتُ: والحسن بن أبي جعفر ضعيفٌ، والله أعلم.

﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾﴾

قال سعيد بن جبير: هو الرجل تكون منه البادرة إلىٰ أبويه، وفي نيته وقلبه أنه لا يؤخذ به -وفي رواية: لا يريد إلا الخير بذلك- فقال: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ﴾.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا﴾ قال قتادة: للمطيعين أهل الصلاة.

وعن ابن عبَّاس: المسبِّحين. وفي رواية عنه: المطيعين المحسنين.

وقال بعضهم: هم الذين يصلون بين العِشاءين. وقال بعضهم: هم الذين يصلُّون الضحىٰ.

وقال شُعْبَة، عن يحيىٰ بن سعيد، عن سعيد بن المسيب في قوله: ﴿فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا﴾ قال: الذي يُصِيبُ الذَّنب ثم يتوب، ويُصِيب الذَّنب ثم يتوب.

وكذا رواه عبد الرزَّاق، عن الثوري ومعمر، عن يحيىٰ بن سعيد، عن ابن المسيب به، وكذا رواه الليث وابن جريج، عن يحيىٰ بن سعيد، عن ابن المسيب به، وكذا قال عطاء بن يسار.

وقال مجاهد، وسعيد بن جبير: هم الراجعون إلىٰ الخير.

وقال مجاهد عن عبيد بن عمير في قوله: ﴿فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا﴾ قال: هو الذي يذكر ذنوبه في الخَلاء فيستغفر الله منها. ووافقه علىٰ ذلك مجاهد.

وقال عبد الرزَّاق: أخبرنا محمَّد بن مسلم، عن عمرو بن دينار، عن عبيد بن عمير، في قوله: ﴿فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا﴾ قال: كنَّا نَعُدُّ الأوَّاب الحفيظ، أن يقول: اللَّهم اغفر لي ما أصبت في مجلسي هذا.

وقال ابن جرير: والأوْلىٰ في ذلك(٢) قول مَن قال: هو التَّائب من الذنب، الراجع عن المعصية إلىٰ الطاعة، مما يكره الله إلىٰ ما يحبه ويرضاه.

وهذا الذي قاله هو الصواب؛ لأن الأوَّاب مشتقٌّ من الأوْب وهو الرجوع، يقال: آب فلان إذا رجع، قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ﴾ [الغاشية: ٢٥]، وفي الحديث الصحيح: أن رسول الله ﷺ كان إذا رجع من سفر قال: «آيِبُونَ تَائِبُونَ عَابِدُونَ، لِرَبِّنَا حَامِدُونَ»(٣).

---

(١) ضعيف: رواه البزار (١٧٧٧ -مختصر البزار)، في إسناده ليث بن أبي سليم، اختلط ولم تتميز أحاديثه فترك، والحسن ابن أبي جعفر: ضعيف.

(٢) لوحة (١٤٤ أ).

(٣) صحيح: رواه أحمد (٤/ ٢٨١، ٢٨٩)، والتِّرمذي (٣٤٤٠)، والنَّسائي في «الكبرىٰ» (١٣٨٤).

﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ ﴾

لمَّا ذكر تعالىٰ برَّ الوالدين عطفَ بذكْرِ الإحسانِ إلىٰ القرابة وصلة الأرحام، كما تقدَّم في الحديث: «أُمَّكَ وَأَبَاكَ، ثُمَّ أَدْنَاكَ أَدْنَاكَ» وفي رواية: «ثُمَّ الأَقْرَبُ فَالأَقْرَبُ»[١].

وفي الحديث: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ وَيُنْسَأَ[٢] لَهُ فِي أَجَلِهِ، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ»[٣].

وقال الحافظ أبو بكر البزَّار: حدَّثنا عباد بن يعقوب، حدَّثنا أبو يحيىٰ[٤] التيمي، حدَّثنا فضيل بن مرزوق، عن عطية، عن أبي سعيد قال: لما نزلت، هذه الآية ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ ﴾ دعا رسول الله ﷺ فاطمة فأعطاها «فدك»[٥][٦]. ثم قال: لا نعلم حدَّث به عن فضيل بن مرزوق إلا أبو يحيىٰ[٧] التيمي وحميد بن حماد بن أبي الخوار.

وهذا الحديث مشكلٌ لو صحَّ إسناده؛ لأن الآية مكية، و«فدك» إنما فتحت مع «خيبر» سنة سبع من الهجرة، فكيف يلتئم هذا مع هذا؟!.

وقد تقدَّم الكلام علىٰ المساكين وابن السبيل في «سورة براءة» بما أغنىٰ عن إعادته هاهنا.

قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴾ لما أمر بالإنفاق نهىٰ عن الإسراف فيه، بل يكون وسطًا، كما قال في الآية الأخرىٰ: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾ [الفرقان: ٦٧].

ثم قال مُنفِّرًا عن التَّبذير والسَّرف: ﴿ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴾ أي: أشباههم في ذلك.

وقال ابن مسعود: التَّبذير: الإنفاق في غير حقٍّ[٨]. وكذا قال ابن عبَّاس[٩]. وقال مجاهد: لو أنفق

---

(١) صحيح: رواه أحمد (٢/ ٢٢٦)، والحاكم (٣/ ٦٤٢) (٤/ ١٥٠).

(٢) النَّسءُ: التأخير، يقال: نَسَأْتُ الشيءَ نَسْأً وأنْسَأْتُه إنساءً: إذا أخَّرْتَه، والنَّساء: الاسمُ، ويكون في العُمْر والدَّيْن. «النهاية».

(٣) البخاري (٢٠٦٧)، ومسلم (٢٥٥٧)، وأبو داود (١٦٩٣).

(٤) في (ز): (أبو نجي)، ولم نجده بهذه الكنية، وصوابه كما أثبتناه، وهو إسماعيل بن إبراهيم الأحول أبو يحيىٰ التيمي، كما ذكر الشيخ الألباني في «الضعيفة» (٦٥٧٠)، وهو شيعي مجمع علىٰ ضعفه، وانظر: «المغني» للذهبي، و«التقريب» للحافظ ابن حجر.

(٥) فَدَك: قرية بينها وبين المدينة يومان.

(٦) ضعيف منكر: فيه عطية العوفي وهو شيعي مُدَلِّس، وحميد بن حماد وأبو يحيىٰ ضعيفان، وسياق الحديث يدل علىٰ نكارته كما قرر ذلك ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ.

(٧) في (ز): (أبو نجي)، وقد تقدم ما فيه.

(٨) [illegible]: رواه الطبري (١٥/ ٧٣)، والحاكم في «المستدرك» (٢٠/ ٣٦١)، وصححه علىٰ شرط الشيخين، ووافقه الذهبي.

(٩) [illegible]: رواه الطبري (١٥/ ٧٣)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٦٥٤٧).

إنسانٌ مالَهُ كلَّه في الحقِّ، لم يكن مبذرًا، ولو أنفق مدًّا في غيرِ حقِّه كان تبذيرًا. وقال قتادة: التَّبذِيرُ: النَّفقة في معصية الله تعالىٰ، وفي غير الحقِّ وفي الفساد.

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا هاشم بن القاسم، حدَّثنا لَيْث، عن خالد بن يزيد، عن سعيد ابن أبىٰ هلال، عن أنس بن مالك أنه قال: أتىٰ رجل من بني تميم إلىٰ(١) رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إني ذو مالٍ كثيرٍ، وذو أهلٍ وولدٍ وحاضرةٍ(٢)، فأَخْبِرْنِي كيف أنفق وكيف أصنع؟ فقال رسول الله ﷺ: «تُخْرِجُ الزَّكَاةَ مِنْ مَالِكَ، فَإِنَّهَا طُهْرَةٌ تُطَهِّرُكَ، وَتَصِلُ أَقْرِبَاءَكَ، وَتَعْرِفُ حَقَّ السَّائِلِ وَالجَارِ وَالمِسْكِينِ». فقال: يا رسول الله، أقلل لي؟ فقال: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ فقال: حسبي يا رسول الله، إذا أدَّيت الزَّكاة إلىٰ رسولك فقد بَرِئْت منها إلىٰ الله وإلىٰ رسوله؟ فقال رسول الله ﷺ: «نَعَمْ، إِذَا أَدَّيْتَهَا إِلَىٰ رَسُولِي فَقَدْ بَرِئْتَ مِنْهَا، فَلَكَ أَجْرُهَا، وَإِثْمُهَا عَلَىٰ مَنْ بَدَّلَهَا»(٣).

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ أي: في التَّبذير والسَّفه وترك طاعة الله وارتكاب معصيته؛ ولهذا قال: ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا﴾ أي: جحودًا؛ لأنه أنكر نعمة الله عليه ولم يعمل بطاعته؛ بل أقبل علىٰ معصيته ومخالفته.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾ أي: وإذا سألك أقاربك ومَن أمرنا بإعطائهم وليس عندك شيء، وأعرضت عنهم لفقد النفقة ﴿فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾ أي: عِدْهُم وعدًا بسهولةٍ، ولينٍ إذا جاء رزق الله فسنصلكم إن شاء الله، هكذا فسَّر قولَهُ: ﴿فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾ بالوعد: مجاهدٌ، وعكرمة، وسعيد بن جبير، والحسن، وقتادة وغير واحدٍ.

﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾﴾

يقول تعالىٰ آمرًا بالاقتصاد في العيش ذامًّا للبخل ناهيًا عن السَّرَف: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ أي: لا تكن بخيلًا منوعًا، لا تعطي أحدًا شيئًا، كما قالت اليهود - عليهم لعائن الله -: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة: ٦٤] أيْ: نسبوه إلىٰ البخل، تعالىٰ وتقدَّس الكريم الوهَّاب.

وقوله: ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ أي: ولا تُسْرِف في الإنفاق فتعطِي فوق طاقتك، وتخرج أكثر مِن دَخْلِك، فتقعد ملومًا محسورًا.

وهذا مِن باب اللَّفِّ والنَّشر؛ أي: فتقعد إن بَخِلْت ملومًا؛ يلومُكَ النَّاس ويذمُّونك ويستغنون عنك كما

---

(١) لوحة (١٤٤ ب). (٢) الحاضرة هنا بمعنىٰ: القرابة.

(٣) ضعيف: رواه أحمد (٣/ ١٣٦)، والحاكم (٢/ ٣٦١) وقال: صحيح علىٰ شرط الشيخين. ووافقه الذهبي، قلت: فيه انقطاع بين سعيد بن أبي هلال وبين أنس.

قال زهير بن أبي سُلمىٰ في «المعلقة»:

وَمَــنْ كَــانَ ذَا مَــالٍ وَيَبْخَــلْ بِمَالِــهِ عَلَــىٰ قَوْمِــهِ يُسْتَغْنَ عَنْــهُ وَيُــذْمَمِ [١]

ومتىٰ بسطت يدكَ فوق طاقتك، قعدت بلا شيءٍ تنفقه، فتكون كالحَسِيرِ، وهو: الدَّابَّة التي قد عجزت عن السَّير، فوقفت ضعفًا وعجزًا؛ فإنَّها تسمَّىٰ الحسير، وهو مأخوذٌ من الكَلَالِ، كما قال تعالىٰ: ﴿فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [الملك: ٣، ٤] أي: كليلٌ عن أن يرىٰ عيبًا. هكذا فسَّر هذه الآيةَ بأن المراد هنا: البخل والسَّرف - ابنُ عبَّاس، والحسنُ، وقتادة، وابن جريج، وابن زيد وغيرهم.

وقد جاء في «الصحيحين»، من حديث أبي الزِّناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة؛ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**مَثَلُ البَخِيلِ وَالمُنْفِقِ كَمَثَلِ رَجُلَيْنِ عَلَيْهِمَا جُبَّتَانِ مِنْ حَدِيدٍ مِنْ ثُدِيِّهِمَا إِلَىٰ تَرَاقِيهِمَا** [٢]؛ **فَأَمَّا المُنْفِقُ: فَلَا يُنْفِقُ إِلَّا سَبَغَتْ -أَوْ: وَفَرَتْ** [٣] **- عَلَىٰ جِلْدِهِ، حَتَّىٰ تُخْفِيَ بَنَانَهُ وَتَعْفُوَ** [٤] **أَثَرَهُ. وَأَمَّا البَخِيلُ: فَلَا يُرِيدُ أَنْ يُنْفِقَ شَيْئًا إِلَّا لَزِقَتْ كُلُّ حَلَقَةٍ مِنْهَا مَكَانَهَا، فَهُوَ يُوسِعُهَا فَلَا تَتَّسِعْ**». هذا لفظ البخاري في (الزكاة) [٥]. وفي «الصحيحين» من طريق هشام بن عُرْوَةَ، عن زوجته فاطمة بنت المنذر، عن جدتها أسماء بنت أبي بكر قالت: قال رسول الله ﷺ: «**أَنْفِقِي هَكَذَا وَهَكَذَا وَهَكَذَا، وَلَا تُوعِي فَيُوعِيَ** [٦] **اللهُ عَلَيْكِ، وَلَا تُوكِي فَيُوكِيَ اللهُ عَلَيْكِ**» وفي لفظ: «**وَلَا تُحْصِي فَيُحْصِيَ اللهُ عَلَيْكِ**» [٧]. وفي «صحيح مسلم» من طريق عبد الرزَّاق، عن معمر، عن همام، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ قَالَ لِي: أَنْفِقْ أُنْفِقْ عَلَيْكَ**» [٨].

وفي «الصحيحين» من طريق معاوية بن أبي مُزَرِّد، عن سعيد بن يسار، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَا مِنْ يَوْمٍ يُصْبِحُ العِبَادُ فِيهِ إِلَّا وَمَلَكَانِ يَنْزِلَانِ مِنَ السَّمَاءِ يَقُولُ أَحَدُهُمَا: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا، وَيَقُولُ الآخَرُ: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا**» [٩]. وروىٰ مسلمٌ، عن قتيبة، عن إسماعيل بن جعفر، عن العلاء، عن أبيه، عن أبي هريرة مرفوعًا: «**مَا نَقَصَ مَالٌ مِنْ صَدَقَةٍ، وَمَا زَادَ اللهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا، وَمَنْ تَوَاضَعَ للهِ رَفَعَهُ اللهُ**» [١٠]. وفي حديث أبي كثير، عن عبد الله بن عمرو مرفوعًا: «**إِيَّاكُمْ وَالشُّحَّ، فَإِنَّهُ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، أَمَرَهُمْ بِالبُخْلِ فَبَخِلُوا، وَأَمَرَهُمْ بِالقَطِيعَةِ فَقَطَعُوا، وَأَمَرَهُمْ بِالفُجُورِ فَفَجَرُوا**» [١١]. وروىٰ البيهقي من

---

(١) لوحة (١٤٥ أ).

(٢) التراقي: جمع تَرْقُوَة، وهي: العظم الذي بين ثُغْرة النحر والعاتق، وهما ترقوتان من الجانبين.

(٣) أي: كملت واتسعت. (٤) أي: تمحو أثر مشيته وتطمسه؛ لفضلها عن قامته.

(٥) البخاري (١٤٤٣)، ومسلم (١٠٢١)، والنسائي (٥/ ٧٠).

(٦) أي: لا تَجْمَعِي وَتَشِحِّي بالنَّفقة فَيُشَحَّ عليك وتُجَازَيْ بِتَضْيِيق رِزْقِك. «النهاية».

(٧) البخاري (١٤٣٣)، ومسلم (١٠٢٥)، والنسائي (٥/ ٧٣).

(٨) مسلم (٩٩٣)، وثبت نحوه في «الصحيحين».

(٩) البخاري (١٤٤٢)، ومسلم (١٠١٠) من حديث أبي هريرة.

(١٠) رواه مسلم (٢٥٨٨).

(١١) رواه أبو داود (١٦٩٨)، وأحمد (٢/ ١٥٩) من حديث عبد الله بن عمرو، ورواه مسلم (٢٥٧٨) من حديث جابر.

طريق سعدان بن نصر، عن أبي معاوية، عن الأعمش، عن [ابن بريدة، عن][1] أبيه[2] قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا يُخرِجُ رَجُلٌ صَدَقَةً حَتَّىٰ يَفُكَّ لَحْيَ سَبْعِينَ شَيْطَانًا»[3]. وقال الإمام أحمد: حدَّثنا أبو عبيدة الحداد[4]، حدَّثنا سُكَين بن عبد العزيز، حدَّثنا إبراهيم الهَجَري، عن أبي الأحوص، عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا عَالَ مَنِ اقْتَصَدَ»[5].

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ إخبارٌ أنَّه تعالىٰ هو الرزَّاق، القابض الباسط، المتصرِّف في خلقه بما يشاء، فيغني من يشاء، ويفقر من يشاء، بما له في ذلك من الحكمة؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ أي: خبيرٌ بصيرٌ بمن يستحق الغنىٰ ومن يستحق الفقر، كما جاء في الحديث: «إِنَّ مِنْ عِبَادِي مَنْ لا يُصْلِحُهُ إِلَّا الفَقْرُ، وَلَوْ أَغْنَيْتُهُ لَأَفْسَدْتُ عَلَيْهِ دِينَهُ، وَإِنَّ مِنْ عِبَادِي لَمَنْ لا يُصْلِحُهُ إِلَّا الغِنَىٰ، وَلَوْ أَفْقَرْتُهُ لَأَفْسَدْتُ عَلَيْهِ دِينَهُ»[6].

وقد يكون الغنىٰ في حق بعض الناس استدراجًا، والفقر عقوبة؛ عياذًا بالله من هذا وهذا.

﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾﴾

هذه الآية الكريمة دالةٌ علىٰ أن الله تعالىٰ أرحم بعباده من الوالد بولده؛ لأنه تعالىٰ ينهىٰ عن قتل الأولاد، كما أوصىٰ بالأولاد في الميراث، وقد كان أهل الجاهلية لا يورثون البنات، بل كان أحدهم ربما قتل ابنته؛ لئلا تكثر عيلته، فنهىٰ الله تعالىٰ عن ذلك فقال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾ أي: خوف أن تفتقروا في ثاني الحال؛ ولهذا قدَّم الاهتمام برزقهم فقال: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ وقال في سورة الأنعام: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ﴾ أي: من فقر ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ [الأنعام: ١٥١]. وقوله: ﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا﴾ أي: ذنبًا عظيمًا. وقرأ بعضهم: «كان خَطَأً[7] كبيرًا»؛ وهو بمعناه.

وفي «الصحيحين» عن عبد الله بن مسعود: قلت: يا رسول الله، أيُّ الذنب أعظم؟ قال: «أَنْ تَجْعَلَ للهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ». قلت: ثم أي؟ قال: «أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ خَشْيَةَ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ». قلت: ثم أي؟ قال: «أَنْ تُزَانِيَ بِحَلِيلَةِ جَارِكَ»[8][9].

---

(١) سقط من (ز) وهو مثبت من «البيهقي»، و«المسند» وغيرهما.
(٢) لوحة (١٤٥ ب).
(٣) صححه الألباني: البيهقي (٤/ ١٨٧)، وانظر: «الصحيحة» للألباني (١٢٦٨).
(٤) في (ز): «الجعاد»، والمثبت كما في «المسند»، وانظر: «تهذيب التهذيب» (٦/ ٣٩٠).
(٥) ضعيف: رواه أحمد (١/ ٤٤٧) وفي إسناده إبراهيم بن مسلم الهجري: ضعيف.
(٦) ضعيف: رواه البغوي في «شرح السنة» (٥/ ٢٣)، من حديث أنس، وفيه صدقة بن عبد الله: ضعيف، يروي عن هشام الكناني وهو مجهول، والحديث رواه الخطيب (٦/ ١٥) من حديث عمر بن الخطاب، وفيه يحيىٰ بن عيسىٰ الرَّمْلي: ضعيف.
(٧) متواترة: قَرَأَ (خِطَاءً) ابْنُ كَثِيرٍ وَوَافَقَهُ ابْنُ مُحَيْصِنٍ، وَقَرَأَ (خَطَأً) أَبُو جَعْفَرٍ وَابْنُ ذَكْوَانَ وَهِشَامٌ بِخُلْفٍ عَنْهُ، وَقَرَأَ (خَطْئًا) الْحَسَنُ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ (خِطْئًا) وَهُوَ الْوَجْهُ الثَّانِي لِهِشَام.
(٨) البخاري (٦٨٦١)، ومسلم (٨٦)، وأبو داود (٢٣٠١)، والترمذي (١٣٨١).
(٩) انظر هامش (٩٣) من سورة البقرة.

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾

يقول تعالىٰ ناهيًا عباده عن الزنا وعن مقاربته، وهو مخالطة أسبابه ودواعيه: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً ﴾ أي: ذنبًا عظيمًا ﴿وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ أي: وبئس طريقًا ومسلكًا.

وقد قال الإمام أحمد: حدَّثنا يزيد بن هارون، حدَّثنا جرير، حدَّثنا سليم بن عامر، عن أبي أمامة قال: إنَّ فتىً شابًّا[١] أتىٰ إلىٰ النَّبيِّ ﷺ فقال: يا رسول الله، ائْذَنْ لي بالزِّنا. فأقبل القوم عليه فزجروه، وقالوا: مَهْ مَهْ. فقال: «ادْنُهْ». فدنا منه قريبًا؛ فقال: «اجْلِسْ». فجلس، قال: «أَتُحِبُّهُ لِأُمِّكَ؟» قال: لا والله، جعلني الله فداك. قال: «وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأُمَّهَاتِهِمْ». قال: «أَفَتُحِبُّهُ لِابْنَتِكَ؟» قال: لا والله يا رسول الله، جعلني الله فداك. قال: «وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِبَنَاتِهِمْ»، قال: «أَتُحِبُّهُ لِأُخْتِكَ؟» قال: لا والله، جعلني الله فداك. قال: «وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأَخَوَاتِهِمْ»، قال: «أَفَتُحِبُّهُ لِعَمَّتِكَ؟» قال: لا والله جعلني الله فداك. قال: «وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِعَمَّاتِهِمْ»، قال: «أَفَتُحِبُّهُ لِخَالَتِكَ؟» قال: لا والله، جعلني الله فداك. قال: «وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِخَالَاتِهِمْ»، قال: فوضع يده عليه وقال: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ ذَنْبَهُ وَطَهِّرْ قَلْبَهُ وَحَصِّنْ فَرْجَهُ». قال: فلم يكن بعد ذلك الفتىٰ يلتفت إلىٰ شيء[٢]. وقال ابن أبي الدنيا: حدَّثنا عمار بن نصر، حدَّثنا بقيَّةُ، عن أبي بكر بن أبي مريم، عن الهيثم ابن مالك الطائي، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «مَا مِنْ ذَنْبٍ بَعْدَ الشِّرْكِ أَعْظَمَ عِنْدَ اللهِ مِنْ نُطْفَةٍ وَضَعَهَا رَجُلٌ فِي رَحِمٍ لَا يَحِلُّ لَهُ»[٣].

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ ﴾

يقول تعالىٰ ناهيًا عن قتل النفس بغير حقٍّ شرعيٍّ، كما ثبت في «الصحيحين»؛ أن رسول الله ﷺ قال: «لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ إِلَّا بِإِحْدَىٰ ثَلَاثٍ: النَّفْسُ بِالنَّفْسِ، وَالزَّانِي الْمُحْصَنُ، وَالتَّارِكُ لِدِينِهِ الْمُفَارِقُ لِلْجَمَاعَةِ»[٤]. وفي «السنن»: «لَزَوَالُ الدُّنْيَا أَهْوَنُ عِنْدَ اللهِ مِنْ قَتْلِ مُسْلِمٍ»[٥].

---

(١) لوحة (١٤٦ أ).

(٢) صحَّحه الألباني: رواه أحمد (٥/ ٢٥٦)، والطبراني في «مسند الشاميين» (٢/ ١٤٠)، وفي «الكبير» (٨/ ١٦٢)، وقال العراقي: إسناده جيد. وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ٣٤١): رجاله رجال الصحيح. وانظر «الصحيحة» (٣٧٠).

(٣) ضعيف: رواه ابن أبي الدنيا في «الورع» (١٣٧)، ومن طريقه رواه ابن الجوزي في «ذم الهوىٰ» (ص١٩٠)، والإسناد ضعيف فيه أكثر من علة:

الأولىٰ: الإسناد مرسل.

الثانية: بقية: مدلس.

الثالثة: ابن أبي مريم: ضعيف.

والحديث ضعَّفه الألباني في «الضعيفة» (١٥٨٠).

(٤) البخاري (٦٨٧٨)، ومسلم (١٦٧٦).

(٥) أبو داود (٣٤٥٢)، والترمذي (١٤٠٢)، والنسائي (٧/ ٩٠)، وابن ماجة (٢٥٣٤).

وقوله: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَانًا﴾ أي: سلطة على القاتل، فإنَّه بالخيار فيه إن شاء قتلَهُ قَوَدًا، وإن شاء عفا عنه على الدِّية، وإن شاء عفا عنه مجانًا، كما ثبتت السُّنَّة بذلك. وقد أخذ الإمامُ الحبرُ ابن عبَّاس من عموم هذه الآية الكريمة ولاية معاوية السلطنةَ، وأنه سيملك؛ لأنه كان وليّ عثمان، وقد قُتِلَ عثمان مظلومًا رضي الله عنه وكان معاوية يطالب عليًّا رضي الله عنه أن يسلمه قتلته حتى يقتصَّ منهم؛ لأنَّه أموي، وكان علي رضي الله عنه يستمهله في الأمر حتى يتمكن ويفعل ذلك، ويطلب علي من معاوية أن يسلمه الشام فيأبَى معاوية ذلك حتى يسلمه[1] القتلة، وأبى أن يبايع عليًّا هو وأهل الشام، ثم مع المطاولة تمكَّن معاوية وصار الأمر إليه كما تفاءَلَ ابن عبَّاس واستنبط من هذه الآية الكريمة. وهذا من الأمر العجيب.

وقد روى ذلك الطبراني في «معجمه» حيث قال: حدَّثنا يحيى بن عبد الباقي، حدَّثنا أبو عمير بن النحاس، حدَّثنا ضَمْرَةُ بن ربيعة، عن ابن شوذب، عن مطر الوراق، عن زَهْدَم الجَرْمي قال: كنَّا في سَمَر ابن عبَّاس فقال: إني محدثكم حديثًا ليس بسرٍّ ولا علانيةٍ؛ إنه لما كان من أمر هذا الرجل ما كان -يعني: عثمان- قلتُ لعليٍّ: اعتزِلْ؛ فلو كنت في جحر طلبت حتى تستخرج، فعصاني، وايم الله ليتأمرنَّ عليكم معاويةُ، وذلك أن الله تعالى يقول: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِف فِّي ٱلْقَتْلِ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾ الآية وليحملنَّكم قريش على سنَّة فارس والروم، وليتمنن[2] عليكم النصارى واليهود والمجوس، فمن أخذ منكم يومئذ بما يعرف نجا، ومن ترك وأنتم تاركون، كنتم كقَرْنٍ من القرون، هلك فيمن هلك[3].

وقوله تعالى: ﴿فَلَا يُسْرِف فِّي ٱلْقَتْلِ﴾ قالوا: معناه: فلا يسرف الولي في قتل القاتل بأن يمثِّل به أو يقتص من غير القاتل. وقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾ أي: أن الوليَّ منصورٌ على القاتل شرعًا، وغالبًا قدرًا.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾﴾

يقول تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ أي: لا تتصرفوا له إلا بالغبطة ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ [النساء: ٢] و﴿وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟ ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ٦].

وقد جاء في «صحيح مسلم»؛ أن رسول الله ﷺ قال لأبي ذرٍّ: **«يَا أَبَا ذَرٍّ، إِنِّي أَرَاكَ ضَعِيفًا، وَإِنِّي أُحِبُّ لَكَ مَا أُحِبُّ لِنَفْسِي: لا تَأَمَّرَنَّ عَلَى اثْنَيْنِ، وَلا تَوَلَّيَنَّ مَالَ يَتِيمٍ»**[4].

---

(١) لوحة (١٤٦ ب).

(٢) كذا في (ز) و«الطبراني»، وفي «مجمع الزوائد»: «ولتؤمنن»، وفي بعض المطبوعات: «وليقيمن».

(٣) ضعيف: رواه الطبراني في «الكبير» (١٠٦١٣) (١٠/ ٢٦٣)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٢٣٩): وفيه من لم أعرفهم.
قلت: فيه مطر الورَّاق: صدوق كثير الخطإ.

(٤) مسلم (١٥٩)، وأبو داود (٢٨٦٨)، والنسائي (٦/ ٢٥٥).

وقوله تعالىٰ: ﴿وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِ﴾ أي: الذي تعاهدون عليه النَّاس والعقود التي تعاملونهم بها، فإنَّ العهد والعقد كل منهما يُسْأَلُ صاحبه عنه ﴿إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا﴾ أي: عنه.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ إِذَا كِلۡتُمۡ﴾ أي: من غيرِ تطفيفٍ، ولا تبخسوا الناس أشياءهم. ﴿وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ﴾ قرئ بضم القاف وكسرها (١)، كالقرطاس وهو: الميزان. وقال مجاهد: هو العدل - بالروميَّة (٢).

وقوله: ﴿ٱلۡمُسۡتَقِيمِ﴾ أي: الذي لا اعوجاج فيه ولا انحراف ولا اضطراب.

﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٞ﴾ أي: لكم في معاشكم ومعادكم؛ ولهذا قال: ﴿وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلٗا﴾ أي: مآلًا ومنقلبًا في آخرتكم.

قال سعيد، عن قتادة: ﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلٗا﴾ أي: خير ثوابًا وعاقبة. وأُخبِرْنا أن (٣) ابن عبَّاس كان يقول: يا معشر الموالي، إنكم وُلِّيتم أمرين بهما هلك الناس قبلكم: هذا المكيال، وهذا الميزان. قال: وذُكِرَ لنا أن نبي الله ﷺ كان يقول: «**لَا يَقْدِرُ رَجُلٌ عَلَىٰ حَرَامٍ ثُمَّ يَدَعُهُ، لَيْسَ بِهِ إِلَّا مَخَافَةُ اللهِ، إِلَّا أَبْدَلَهُ اللهُ فِي عَاجِلِ الدُّنْيَا قَبْلَ الآخِرَةِ مَا هُوَ خَيْرٌ لَهُ مِنْ ذَلِكَ**» (٤).

﴿وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا ٣٦﴾ (٥)(٦)

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس: يقول: لا تقل. وقال العوفي عنه: لا تَرْمِ أحدًا بما ليس لكَ به علم. وقال محمَّد ابن الحَنفية: يعني شهادة الزُّور. وقال قتادة: لا تقل: «رأيتُ» ولم تَرَ، و«سمعتُ» ولم تَسْمَع، و«علمتُ» ولم تَعْلَم؛ فإنَّ الله سائِلُك عن ذلك كله.

ومضمون ما ذكروه: أن الله تعالىٰ نهىٰ عن القَوْلِ بلا علمٍ، بل بالظَّنِّ الذي هو التوهُّم والخيال، كما قال تعالىٰ: ﴿ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞ﴾ [الحجرات:١٢]، وفي الحديث: «**إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ؛ فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الحَدِيثِ**» (٧).

---

(١) متواترة: قَرَأَ (بِالْقِسْطَاسِ) حَفْصٌ وَحَمْزَةُ وَالْكِسَائِيُّ وَخَلَفٌ (فِي اخْتِيَارِهِ) وَوَافَقَهُمُ الْأَعْمَشُ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ (بِالْقُسْطَاسِ).

(٢) لوحة (١٤٧ أ).

(٣) في (ز): «وأما ابن عباس»، والمثبت موافق لما في «تفسير ابن أبي حاتم» و«تفسير الطبري» وغيرهما.

(٤) رواه ابن جرير (١٥/ ٨٥) وإسناده مرسل، وقد رواه أحمد (٥/ ٧٨) عن رجلٍ من أهل البادية، وقال الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ٢٩٦): رواه أحمد بأسانيد رجالها رجال الصحيح، ورواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٥٣٦٤) ولفظه: «**إِنَّكَ لَا تَدَعُ شَيْئًا اتِّقَاءَ اللهِ إِلَّا أَعْطَاكَ اللهُ خَيْرًا مِنْهُ**». وهذا حديثٌ صحيحٌ بهذا اللَّفظ.

(٥) قال العلامة السعدي رحمه الله: وهذا أمر بكل كلام يقرب إلىٰ الله من قراءة وذكر وعلم وأمر بمعروف ونهي عن منكر وكلام حسن لطيف مع الخلق علىٰ اختلاف مراتبهم ومنازلهم، وأنه إذا دار الأمر بين أمرين حسنين فإنه يأمر بإيثار أحسنهما إن لم يمكن الجمع بينهما. والقول الحسن داع لكل خلق جميل وعمل صالح فإن من ملك لسانه ملك جميع أمره.

(٦) قال الشيخ القاسمي رحمه الله: قال المهايمي: قدم السمع ؛ لأن أكثر ما ينسب الناس أقوالهم إليه . وأخّر الفؤاد ؛ لأنه منتهىٰ الحواس . ولم يذكر بقيتها ؛ لأنه لا يخالفها قول أو فعل .

(٧) البخاري (٦٠٦٦)، ومسلم (٢٥٦٣)، وأبو داود (٤٩١٧).

وفي «سنن أبي داود»: «بِئْسَ مَطِيَّةُ الرَّجُلِ: زَعَمُوا»[(١)]، وفي الحديث الآخر: «إِنَّ أَفْرَىٰ الفِرَىٰ أَنْ يُرِيَ عَيْنَيْهِ مَا لَمْ تَرَيَا»[(٢)]. وفي «الصحيح»: «مَنْ تَحَلَّمَ حُلْمًا[(٣)] كُلِّفَ يَوْمَ القِيَامَةِ أَنْ يَعْقِدَ بَيْنَ شَعِيرَتَيْنِ، وَلَيْسَ بِعَاقِدٍ»[(٤)].

وقوله: ﴿كُلُّ أُولَٰئِكَ﴾ أي: هذه الصفات من السَّمع والبصر والفؤاد ﴿كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ أي: سيسأل العبد عنها يوم القيامة، وتُسأل عنه وعمَّا عَمِلَ فيها. ويصح استعمال «أولئك» مكان «تلك»، كما قال الشاعر:

ذُمَّ المَنَازِلَ بَعْدَ مَنْزِلَةِ اللِّوَىٰ ... وَالعَيْشَ بَعْدَ أُولَئِكَ الأَيَّامِ

﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾﴾

يقول تعالىٰ ناهيًا عباده، عن التَّجبُّر والتبختُرِ في المشية: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ أي: متبخترًا متمايلًا مشي الجبَّارين ﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ﴾ أي: لن تقطع الأرض بمشيتكَ، قاله ابن جرير، واستشهد عليه بقول رُؤبة بن العَجَّاج:

وقَاتِمِ[(٥)] الأَعْمَاقِ خَاوِي المُخْتَرَقْ

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ أي: بتمايُلكَ[(٦)] وفخرك وإعجابك بنفْسِك، بل قد يُجازَىٰ فاعل ذلك بنقيض قصده. كما ثبت في «الصحيح»: «بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ وَعَلَيْهِ بُرْدَانِ يَتَبَخْتَرُ فِيهِمَا، إِذْ خُسِفَ بِهِ الأَرْضُ، فَهُوَ يَتَجَلْجَلُ[(٧)] فِيهَا إِلَىٰ يَوْمِ القِيَامَةِ»[(٨)].

وكذلك أخبر الله تعالىٰ عن قارون أنه خرج علىٰ قومه في زينته، وأنَّ الله تعالىٰ خُسِفَ به وبداره الأرض، وفي الحديث: «مَنْ تَوَاضَعَ للهِ رَفَعَهُ اللهُ، فَهُوَ فِي نَفْسِهِ حَقِيرٌ وَعِنْدَ النَّاسِ كَبِيرٌ، وَمَنِ اسْتَكْبَرَ وَضَعَهُ اللهُ، فَهُوَ فِي

---

(١) صححه الألباني: رواه أبو داود (٤٩٧٢)، وانظر: «الصحيحة» (٨٦٦).

(٢) البخاري (٧٠٤٣).

(٣) أي: قال إنه رأىٰ في النوم ما لم يَرَهُ، يقال: حَلَم - بالفتح - إذا رأىٰ، وتَحَلَّم: إذا ادَّعىٰ الرؤيا كاذبا. إن قيل: إنَّ كَذِب الكاذب في منامه لا يزيد علىٰ كَذِبه في يَقَظَتِه، فَلِمَ زادت عُقوبته ووعيده وتكليفه عَقْدَ الشَّعيرتَين ؟ قيل: قد صَحَّ الخبر (إن الرؤيا الصادقة جُزءٌ من النُّبُوَّة). والنبوّةُ لا تكون إلاَّ وَحيًا، والكاذب في رُؤياه يَدَّعي أن الله تعالىٰ أراه ما لم يُرِهِ وأعطاه جُزءًا من النبوّة لم يُعْطِه إيّاه، والكاذِب علىٰ الله تعالىٰ أعظم فِرْية ممن كذب علىٰ الخلق أو علىٰ نفْسه. «النهاية». وقال ابن حجر: والمراد بالتكلف نوع من التعذيب. «فتح الباري». فليتعظ الكذاب المأجور القائل: تواترت الرؤىٰ من قِبَل رسول الله ﷺ بتأييدكم!!!. وإنه ليعلم أننا نعلم أنه كذاب.

(٤) البخاري (٧٠٤٢)، وأبو داود (٥٠٢٤)، والترمذي (١٧٥١)، والنسائي (٨/ ٢١٥)، وابن ماجة (٣٩١٦).

(٥) قاتم: من القتمة، وهي: الغبرة الىٰ الحمرة، والاعماق: جمع عُمق، وهو ما بعد من اطراف المفازة، والخاوي: الخالي، والمُخْتَرَق: مكان الاختراق، وأصله من: (خرقت القميص): اذا قطعته. وقد استعمل في قطع المفازة، فقيل: (خرقت الارض): اذا جبّها.

(٦) لوحة (١٤٧ ب).

(٧) أي: يغوص في الارض حين يخسف به.

(٨) البخاري (٥٧٨٩)، ومسلم (٢٠٨٨).

نَفْسِهِ كَبِيرٌ وَعِنْدَ النَّاسِ صَغِيرٌ، حَتَّىٰ لَهُوَ أَبْغَضُ إِلَيْهِمْ مِنَ الكَلْبِ أَوِ الخِنْزِيرِ»(١).

وقال أبو بكر بن أبي الدنيا في كتاب «الخمول والتَّواضع»: حدَّثنا أحمد بن إبراهيم بن كثير، حدَّثنا حجاج بن محمَّد، عن أبي بكر الهذلي قال: بينما نحن مع الحسن، إذ مَرَّ عليه ابن الأهتم(٢) -يريد المقصورة(٣)- وعليه جبابُ خزٍّ قد نُضِّدَ بعضها فوق بعض على ساقه، وانفرج عنها قَبَاؤُه، وهو يمشي ويتبختر؛ إذ نظر إليه الحسن نظرةً فقال: أُفٍّ أُفٍّ، شامخٌ بأنفه، ثانٍ عطفه، مُصَعِّرٌ خدَّه، ينظر في عطفيه، أيْ حُمَيْقٌ أنت ينظر في عطفه في نِعَم غير مشكورةٍ ولا مذكورةٍ، غير المأخوذ بأمر الله فيها، ولا المؤدِّي حقُّ الله منها! والله إن يمش أحدُهُم طبيعتَهُ يتلجلج تلجلج المجنون، في كلِّ عضو منه نعمةٌ، وللشيطان به لعنةٌ، فسمعه ابن الأهتم(٤) فرجع يعتذر إليه، فقال: لا تعتذر إليَّ، وتب إلىٰ ربِّك، أما سمعت قول الله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾(٥).

ورأى البختريُّ العابدُ رجلًا من آل عليٍّ يمشي وهو يخطِر في مشيته، فقال له: يا هذا، إن الذي أكرمك بِهِ لم تكن هذه مشيته! قال: فتركها الرجل بعد(٦).

ورأىٰ ابن عمر رجلًا يخطر في مشيته، فقال: إنَّ للشياطين إخوانًا(٧).

وقال خالد بن مَعْدان: إيَّاكم والخَطْر، فإن الرَّجل يَدُه من سائر جسده(٨).

رواهما ابن أبي الدنيا(٩).

وقال ابن أبي الدنيا: حدَّثنا خلف بن هشام البزار، حدَّثنا حماد بن زيد، عن يحيىٰ، عن سعيد، عن يُحَنِّس قال: قال رسول الله ﷺ: **«إِذَا مَشَتْ أُمَّتِي المُطَيْطَاءَ(١٠)، وَخَدَمَتْهُمْ فَارِسُ وَالرُّومُ، سُلِّطَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ»**(١١).

---

(١) رواه أبو نعيم (٧/ ١٢٩)، وفيه سعيد بن سلام العطار: كذاب، لكن الجملة الأولىٰ صحيحة، وهي قوله: «مَنْ تَوَاضَعَ للهِ رَفَعَهُ اللهُ». انظر: «السلسلة الصحيحة» للألباني (٢٣٢٨).

(٢) في (ز): «الأهم»، والمثبت موافق لما في «التواضع والخمول».

(٣) في (ز): «المنصور»، والمثبت كما في «التواضع والخمول» وغيره.

(٤) في (ز): «الأهم»، والمثبت موافق لما في «التَّواضع والخمول».

(٥) ضعيف: رواه ابن أبي الدنيا في «التواضع والخمول» (٢٣٧)، وفيه أبو بكر الهذلي: متروك الحديث.

(٦) رواه ابن أبي الدنيا في «التواضع والخمول» (٢٤٢)، وفيه غسان بن المفضل. أورده ابن أبي حاتم في «الجرح والتعديل» (٧/ ٥٣) ولم يذكر فيه جرحًا ولا تعديلًا.

(٧) رواه ابن أبي الدنيا في «التواضع والخمول» (٢٤٧) نحوه.

(٨) رواه ابن أبي الدنيا في «التواضع والخمول» (٢٤٦)، وفيه جميل بن يزيد الطائي: ضعيف. انظر: «لسان الميزان» (٢/ ١٣٦)، و«ميزان الاعتدال» (١/ ٥٣٣).

(٩) رواه ابن أبي الدنيا (٢٤٧)، ولفظه: «إِيَّاكُمْ وَالخَطَرَاتِ، فَإِنَّ الرَّجُلَ قَدْ نَبَا فُؤَادُهُ مِنْ سَائِرِ جَسَدِهِ».

(١٠) المطيطاء: مشية فيها تبختر ومد اليدين.

(١١) صحيح: الطبراني في «الأوسط» (١٣٢) من حديث أبي هريرة، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٢٣٧): إسناده حسن.

=

وقوله تعالىٰ: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ أمَّا من قرأ «سَيِّئَةً» أي: فاحشة؛ فمعناه عنده: كلُّ هذا الذي نهينا عنه، من قوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ﴾[1] خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾ إلىٰ هاهنا، فهو سيئة مؤاخذ عليها ﴿مَكْرُوهًا﴾ عند الله، لا يحبه ولا يرضاه.

وأما من قرأ ﴿سَيِّئُهُۥ﴾[2] علىٰ الإضافة فمعناه عنده: كلُّ هذا الذي ذكرناه من قوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ إلىٰ هاهنا فسيئه؛ أي: فقبيحه مكروه عند الله، هكذا وجَّه ذلك ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾﴾

يقول تعالىٰ: هذا الذي أمرناك به من الأخلاق الجميلة، ونَهَيْناك عنه من الصفات الرذيلة، مما أوحينا إليك يا محمَّد لتأمر به الناس.

﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا﴾ أي: تلومك نفسك [ويلومك الله][3] والخلق. ﴿مَّدْحُورًا﴾. قال ابن عبَّاس وقتادة: مطرودًا.

والمراد مِن [هذا][4] الخطاب: الأمة بواسطة الرسول ﷺ؛ فإنَّه - صلوات الله وسلامه عليه - معصوم.

﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾

يقول تعالىٰ رادًّا علىٰ المشركين الكاذبين الزاعمين -عليهم لعائن الله- أنَّ الملائكة بناتُ الله، فجعلوا الملائكة الَّذين هم عباد الرحمن إناثًا، ثم ادَّعَوْا أنَّهم بنات الله، ثم عبدوهم فأخطئوا في كلٍّ من المقامات الثلاث خطأً عظيمًا، فقال تعالىٰ منكرًا عليهم: ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ﴾ أي: خصصكم بالذكور ﴿وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا﴾ أي: اختار لنفسه علىٰ زعمكم البنات؟ ثمَّ شدَّد الإنكار عليهم فقال: ﴿إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ أي: في زعمكم أن لله ولدًا، ثم جَعْلِكم[5] ولده الإناث التي تأنفون أن يَكُنَّ لكم، وربَّما قتلتموهُنَّ بالوأد، فتلك إذًا قسمة ضِيزَىٰ. وقال الله تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٨٨-٩٥].

= ورواه الترمذي (٢٢٦١) من حديث ابن عمر وقال: غريب، وابن أبي الدنيا في «التواضع» (٢٤٩) عن يحنس، ورواه ابن حبان (٦٧١٦) من حديث خَوْلة بنت قيس، وانظر: «السلسلة الصحيحة» للألباني (٩٥٦).

(١) لوحة (١٤٨ أ).

(٢) متواترة: قَرَأَ (سَيِّئَةً) نَافِعٌ وَابْنُ كَثِيرٍ وَأَبُو عَمْرٍو وَأَبُو جَعْفَرٍ وَيَعْقُوبُ وَوَافَقَهُمُ ابْنُ مُحَيْصِنٍ وَالْيَزِيدِيُّ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ (سَيِّئُهُ).

(٣) سقط من (ز). (٤) سقط من (ز). (٥) في (ز): «جعلتم».

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾﴾

يقول تعالىٰ: [﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا﴾][(١)] أي: صرفنا فيه من الوعيد لعلهم يذكرون ما فيه من الحجج والبينات والمواعظ، فينزجروا عمَّا هم فيه من الشرك والظلم والإفك، ﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ﴾ أي: الظالمين منهم ﴿إِلَّا نُفُورًا﴾ أي: عن الحق، وبعدًا منه[(٢)].

﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾﴾

يقول تعالىٰ: قل يا محمَّد لهؤلاء المشركين الزاعمين أنَّ لله شريكًا من خلقه، العابدين معه غيره ليقربهم إليه زلفىٰ: لو كان الأمر كما تقولون، وأنَّ معه آلهة تعبد لتقرب إليه وتشفع لديه -لكان أولئك المعبودون يعبدونه ويتقربون إليه ويبتغون إليه الوسيلة والقربة، فاعبدوه أنتم وحده كما يعبده من تدعونه من دونه، ولا حاجة لكم إلىٰ معبودٍ يكون واسطةً بينكم وبينه؛ فإنَّه لا يحب ذلك ولا يرضاه، بل يكرهه ويأباه. وقد نهىٰ عن ذلك علىٰ ألسنةِ جميع رسلِهِ وأنبيائِهِ.

ثم نزَّه نفسه الكريمة وقدَّسها فقال: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ﴾ أي: هؤلاء المشركون المعتدون الظالمون في زعمهم أن معه آلهةً أخرىٰ ﴿عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ أي: تعاليًا كبيرًا، بل هو الله الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كُفُوًا أحد.

﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾

يقول تعالىٰ: تُقدِّسه ﴿السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾؛ أي: من المخلوقات، وتنزهه وتعظمه وتجلُّه وتكبره عما يقول هؤلاء المشركون، وتشهد له بالوحدانية في ربوبيته وإلهيته:

فَفِي كُلِّ شَيءٍ لَهُ آيَةٌ ... تَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُ وَاحِدُ

كما قال تعالىٰ: ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ [مريم: ٩٠ -٩٢].

وقال أبو القاسم الطبراني: حدَّثنا علي بن عبد العزيز، حدَّثنا سعيد بن منصور، حدَّثنا مسكين بن ميمون مؤذِّن مسجد الرملة، حدَّثنا عروة بن رُوَيم، عن عبد الرحمن بن قرط؛ أن رسول الله ﷺ ليلة أسري به إلىٰ المسجد الأقصىٰ، فلمَّا رجع كان بين المقام وزمزم، جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره، فطار به حتىٰ بلغ

---

(١) في (ز): ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾.
(٢) لوحة (١٤٨ ب).

السموات السبع، فلما رجع قال: «**سَمِعْتُ تَسْبِيحًا فِي السَّمَوَاتِ الْعُلَىٰ مَعَ تَسْبِيحٍ كَثِيرٍ: سَبَّحَتِ السَّمَوَاتُ الْعُلَىٰ مِنْ ذِي الْمَهَابَةِ مُشْفِقَاتٍ لِذِي الْعُلُوِّ بِمَا عَلَا سُبْحَانَ الْعَلِيِّ الأَعْلَىٰ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ**»(١).

وقوله: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ أي: وما مِن شيءٍ من المخلوقات إلا يسبح بحمد الله ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ أي: لا تفهمون تسبيحهم أيُّها النَّاس؛ لأنها بخلاف لغتكم. وهذا عام في الحيوانات والنبات والجماد، وهذا(٢) أشهر القولين، كما ثبت في «صحيح البخاري»، عن ابن مسعود أنه قال: كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يُؤكل(٣).

وفي حديث أبي ذرٍّ: أن النَّبيَّ ﷺ أخذ في يده حصيات، فسمع لهن تسبيح كحنين النحل، وكذا يد أبي بكر وعمر وعثمان - رضي الله عنهم أجمعين - وهو حديثٌ مشهورٌ في «المسانيد»(٤).

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا حسن، حدَّثنا ابن لَهيعة، حدَّثنا زبَّان، عن سهل بن معاذ بن أنس، عن أبيه ﵁ عن رسول الله ﷺ أنه مرَّ علىٰ قوم وهم وقوفٌ علىٰ دوابَّ لهم ورواحل، فقال لهم: «**ارْكَبُوهَا سَالِمَةً، وَدَعُوهَا سَالِمَةً، وَلَا تَتَّخِذُوهَا كَرَاسِيَّ لِأَحَادِيثِكُمْ فِي الطُّرُقِ وَالأَسْوَاقِ، فَرُبَّ مَرْكُوبَةٍ خَيْرٌ مِنْ رَاكِبِهَا، وَأَكْثَرُ ذِكْرًا لله مِنْهُ**»(٥).

وفي «سنن النَّسائي» عن عبد الله بن عمرو قال: نهىٰ رسول الله ﷺ عن قتل الضِّفْدَع، وقال: «**نَقِيقُهَا تَسْبِيحٌ**»(٦).

وقال قتادة، عن عبد الله بن بَابِي(٧)، عن عبد الله بن عمرو: أنَّ الرجل إذا قال: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»، فهي كلمة الإخلاص التي لا يقبل الله من أحدٍ عملًا حتىٰ يقولها. وإذا قال: «الحَمْدُ للهِ» فهي كلمة الشُّكر التي لم يشكر الله عبد قط حتىٰ يقولها، وإذا قال: «اللهُ أَكْبَرُ» فهي تملأ ما بين السماء والأرض، وإذا قال: «سُبْحَانَ اللهِ» فهي صلاة الخلائق التي لم يَدَع الله أحدًا من خلقه إلا قرَّره بالصَّلاة والتَّسبيح، وإذا قال: «لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ» قال: أسلمَ عبدي واستسلم(٨).

---

(١) منكر: رواه أبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٧)، وفي «معرفة الصحابة» (٤٦٥٨ بتحقيقي)، وفيه مسكين بن ميمون، قال الذَّهبي في ترجمته عن هذا الحديث: هذا حديث منكر.

(٢) لوحة (١٤٩ أ). (٣) البخاري (٣٥٧٩).

(٤) رواه البيهقي في «الدلائل» (٦/ ٦٤)، وعزاه الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ٣٠٢) إلىٰ البزار والطبراني في «الأوسط» وقال الهيثمي: رواه البزار بإسنادين ورجال أحدهما ثقات، وفي بعضهم ضعف.

(٥) صحيح دون الجملة الأخيرة: رواه أحمد (٣/ ٤٣٩)، وفيه ابن لهيعة: اختلط، وفيه زبان، قال الحافظ: ضعيف الحديث مع صلاحه وعبادته، [تقريب: ترجمة (١٩٨٦)]، وقال ابن حبان: منكر الحديث جدًّا يتفرد عن سهل بن معاذ بنسخة كأنها موضوعة لا يحتج به [المجروحين: (٣٧٨)].

- لكن الحديث ثبت صحيحًا من غير الجملة الأخيرة «فَرُبَّ مَرْكُوبَةٍ ... إلخ» انظر: «الصَّحيحة» للألباني (٢١).

(٦) رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٣٧١٦)، قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٤/ ٤٤): فيه المسيب بن واضح، وفيه كلام، وقد وثق.

قلت: تفرَّد به المسيب بن واضح، ورواه البيهقي موقوفًا، وضعفه الألباني في «الضعيفة» (٤٧٨٨).

(٧) في (ز): «باني»، والصواب ما أثبتناه. انظر: «تهذيب الكمال» (١٤/ ٣٢١).

(٨) رواه الطبري (١٥/ ٩٣)، وإسناده صحيح.

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا وهب بن جرير، حدَّثنا أبي، سمعت الصَّقْعَبَ بن زُهير يحدث عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن عبد الله بن عمرو قال: أتىٰ النَّبيَّ ﷺ أعرابيٌّ عليه جُبَّة من طيالسة مكفوفة بديباج [-أو: مزورةٍ بديباج-][1] فقال: إن صاحبكم هذا يريد أن يرفع كلَّ راعٍ ابن راع، ويضع كل رأس ابن رأس. فقام إليه النَّبيُّ ﷺ مغضبًا، فأخذ بمجامع جبته فاجتذبه، فقال: «**لا أَرَىٰ عَلَيْكَ ثِيَابَ مَنْ لا يَعْقِلُ**». ثم رجع رسول الله ﷺ فجلس فقال: «**إِنَّ نُوحًا عليه السلام لَمَّا حَضَرَتْهُ الوَفَاةُ دَعَا ابْنَيْهِ فَقَالَ: إِنِّي [قَاصِرٌ][2] عَلَيْكُمَا الوَصِيَّةَ: آمُرُكُمَا بِاثْنَتَيْنِ وَأَنْهَاكُمَا عَنِ اثْنَتَيْنِ: أَنْهَاكُمَا عَنِ الشِّرْكِ بِاللهِ وَالكِبْرِ، وَآمُرُكُمَا بِـ: لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَإِنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَوْ وُضِعَتْ فِي كِفَّةِ المِيزَانِ، وَوُضِعَتْ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ فِي الكِفَّةِ الأُخْرَىٰ، كَانَتْ أَرْجَحَ، وَلَوْ أَنَّ السَّموَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا حَلْقَةً، فَوُضِعَتْ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ عَلَيْهِمَا لَفَصَمَتْهُمَا أَوْ لَقَصَمَتْهُمَا. وَآمُرُكُمَا بِسُبْحَانَ[3] اللهِ وَبِحَمْدِهِ، فَإِنَّهَا صَلاةُ كُلِّ شَيْءٍ، وَبِهَا يُرْزَقُ كُلُّ شَيْءٍ**»[4].

ورواه الإمام أحمد، أيضًا، عن سليمان بن حرب، عن حماد بن زيد، عن الصَّقْعَب بن زهير به أطول من هذا. تفرد به.

وقال ابن جرير: حدَّثني نصر بن عبد الرحمن الأَوْدِيُّ، حدَّثنا محمَّد بن يَعْلىٰ، عن موسىٰ بن عبيدة، عن زيد بن أسلم، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أَلا أُخْبِرُكُمْ بِشَيْءٍ أَمَرَ بِهِ نُوحٌ ابْنَهُ؟ إِنَّ نُوحًا عليه السلام قَالَ لِابْنِهِ: يَا بُنَيَّ، آمُرُكَ أَنْ تَقُولَ: سُبْحَانَ اللهِ، فَإِنَّهَا صَلاةُ الخَلْقِ وَتَسْبِيحُ الخَلْقِ، وَبِهَا يُرْزَقُ الخَلْقُ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾**»[5] إسناده فيه ضعفٌ، فإن «الرَّبذي» ضعيفٌ عند الأكثرين.

وقال عكرمة في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ قال: الأسطوانة تسبح، والشجرة تسبح -الأسطوانة: السارية.

وقال بعض السَّلف: إن صَرِير الباب تسبيحه، وخَرِير الماء تسبيحه، قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾.

وقال سفيان الثوري، عن منصور، عن إبراهيم قال: الطَّعام يُسَبِّح.

ويشهد لهذا القول آية السجدة في أول الحج.

وقال آخرون: إنَّما يُسَبِّح ما كان فيه روح. يعنون من حيوان أو نبات.

وقال قتادة في قوله: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ قال: كلُّ شيءٍ فيه الرُّوح يسبِّح من شجرٍ أو شيءٍ فيه روح.

---

(١) سقط من (ز)، وهو مثبت من «المسند».

(٢) في (ز): (قاصٌّ)، والمثبت موافق لما في «المسند» ط: الرسالة، و«مجمع الزوائد» وغيرهما من المصادر.

(٣) لوحة (١٤٩ ب). (٤) صحيح: رواه أحمد (٢/ ٢٢٥)، (٢/ ١٦٩).

(٥) رواه ابن جرير (١٥/ ٩٢)، وفيه موسىٰ بن عبيدة: ضعيف، لكن يشهد له رواية الحديث السابق.

وقال الحسن والضَّحَّاك في قوله: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ قالا: كل شيء فيه الروح.

وقال ابن جرير: حدَّثنا محمَّد بن حميد، حدَّثنا يحيىٰ بن واضح وزيد بن حباب قالا: حدَّثنا جرير أبو الخطَّاب قال: كنَّا مع يزيد الرَّقاشي ومعه الحسن في طعام، فقدموا الخِوان، فقال يزيد الرقاشي: يا أبا سعيد، يسبِّحُ هذا الخِوَانُ؟ فقال: كان يسبح مرَّةً[1].

قلتُ: «الخِوَان» هو المائدة من الخشب. فكأن الحسن رَحِمَهُ اللَّهُ ذهب إلىٰ أنه لما كان حيًّا فيه خضرة، كان يسبح، فلما قطع وصار خشبةً يابسةً انقطع تسبيحه.

وقد يستأنس لهذا القول بحديث ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنَّ رسول الله ﷺ مر بقبرين فقال: «**إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ، وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ، أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ لا يَسْتَتِرُ مِنَ البَوْلِ، وَأَمَّا الآخَرُ فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ**». ثم أخذ جريدة رَطْبَةً، فشقها نصفين، ثم غرز في كل قبرٍ واحدةً، ثم قال: «**لَعَلَّهُ يُخَفَّفُ عَنْهُمَا مَا لَمْ يَيْبَسَا**». أخرجاه في «الصَّحيحين»[2].

قال بعض من تكلَّم علىٰ هذا الحديث من العلماء: إنما قال: «**مَا لَمْ يَيْبَسَا**» لأنَّهما يسبِّحان ما دام فيهما خضرة، فإذا يبسا انقطع تسبيحُهما[3]، والله أعلم.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ أي: أنه تعالىٰ لا يُعَاجِل مَن عصاه بالعقوبة، بل يؤجِّله ويُنْظِرُه، فإنِ استمرَّ علىٰ كفره وعناده أخذه أخذَ عزيزٍ مقتدرٍ، كما جاء في «الصحيحين»: «**إِنَّ اللهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ، حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ**». ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾[4] [هود: ١٠٢]، وقال الله تعالىٰ: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الحج: ٤٨]، ومن أقلع عمَّا هو فيه مِن كفرٍ أو عصيانٍ، ورجع إلىٰ الله وتاب إليه، تاب عليه، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠].

وقال هاهنا: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ كما قال في آخر فاطر: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ إلىٰ أن قال: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا﴾ [فاطر: ٤١-٤٥].

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾﴾

---

(١) رواه الطبري (١٥/ ٩٢).
(٢) البخاري (٢١٦)، ومسلم (١١٠) وأبو داود (٢٠)، والترمذي (٧٠)، والنسائي (١/ ٢٨) وابن ماجة (٣٤٧).
(٣) لوحة (١٥٠ أ).
(٤) البخاري (٤٦٨٦)، ومسلم (٣٥٨٣)، والترمذي (٣١٠٩)، وابن ماجة (٤٠١٨).

يقول تعالىٰ لرسوله محمَّد ﷺ: وإذا قرأت -يا محمَّد- علىٰ هؤلاء المشركين القرآن، جعلنا بينك وبينهم حجابًا مستورًا.

قال قتادة، وابن زيد: هو: الأكنَّة علىٰ قلوبهم، كما قال تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ [فصلت: ٥]. أي: مانع حائل أن يصل إلينا مما تقول شيء.

وقوله: ﴿حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ أي: بمعنىٰ «ساتر»، كـ: «ميمونٍ» و«مشئومٍ»، بمعنىٰ: «يامنٍ» و«شائمٍ»؛ لأنه من يَمنهم وشأمَهم.

وقيل: مستورًا عن الأبصار فلا تراه، وهو مع ذلك حجاب بينهم وبين الهدىٰ، ومال إلىٰ ترجيحه ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ.

وقال الحافظ أبو يعلىٰ الموصلي: حدَّثنا أبو موسىٰ الهَرَوي إسحاق بن إبراهيم، حدَّثنا سفيان، عن الوليد بن كثير، عن يزيد بن تَدْرُس، عن أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنها قالت: لما نزلت ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [سورة المسد:١] جاءت العوراء أم جميل ولها ولوَلةٌ، وفي يدها فِهْر[(١)] وهي تقول: مُذَمَّما أتينا -أو: أبينا، قال أبو موسىٰ: الشك مني- ودينهُ قَلَيْنَا، وأمرهُ عصينا. ورسول الله جالس، وأبو بكر إلىٰ جنبه -أو قال: معه- قال: فقال أبو بكر: لقد أقبلت هذه وأنا أخاف أن تراك، فقال[(٢)]: «إِنَّهَا لَنْ تَرَانِي»، وقرأ قرآنًا اعتصم به: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾. قال: فجاءت حتىٰ قامت علىٰ أبي بكر، فلم ترَ النَّبيَّ ﷺ، فقالت: يا أبا بكر، بلغني أن صاحبَكَ هجاني. فقال أبو بكر: لا وربِّ هذا البيت ما هجاك. قال: فانصرَفَتْ وهي تقول: لقد عَلِمَتْ قريشٌ أني بنت سيدها[(٣)].

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾: جمع «كنان»، الذي يغشىٰ القلب ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾ أي: لئلا يفهموا القرآن ﴿وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ وهو الثُّقْل الذي يمنعهم من سماع القرآن سماعًا ينفعهم ويهتدون به.

وقوله: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ﴾ أي: إذا وحَّدت الله في تلاوتك وقلتَ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» ﴿وَلَّوْا۟﴾ أي: أدبروا راجعين ﴿عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا﴾ ونفور: جمع نافر، كقعود جمع قاعد، ويجوزُ أن يكون مصدرًا من غير الفعل، والله أعلم، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الزمر: ٤٥].

---

(١) الفِهْر: الحجر ملء الكف، وقيل: الحجر مطلقًا، وقد ذكر القُرطبيُّ عدة وقائع قريبة من واقعة أم قبيح هذه، منها ما حدث له هو، فقد قال: (ولقد اتفق لي ببلادنا الأندلس بحصن منثور من أعمال قرطبة مثلُ هذا، وذلك أني هربتُ أمام العدو وانحزتُ إلىٰ ناحية عنه، فلم ألبث أن خرج في طلبي فارسان وأنا في فضاء من الأرض قاعد ليس يسترني عنهما شيء، وأنا أقرأُ أول سورة يس وغير ذلك من القرآن، فعبرا عَلَيَّ ثم رجعا من حيث جاءا، وأحدهما يقول للآخر: هذا ديبله، يعنون: شيطانًا. وأعمىٰ الله عَجَّلَ أبصارهم فلم يروني). «تفسيره»: (١٣/ ٩٣- ٩٤).

(٢) لوحة (١٥٠ ب).

(٣) صحيح بشواهده: رواه الحميدي (٣٢٣)، والحاكم (٢/ ٣١١) وصححه، ووافقه الذهبي، وللحديث شواهد، انظر تعليق شعيب الأرنؤوط علىٰ «صحيح ابن حبان» (٦٥١١).

قال قتادة في قوله: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْاْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا﴾ إن المسلمين لما قالوا: «لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللهُ»، أنكر ذلك المشركون، وكَبُرت عليهم، وضاقها إبليس وجنوده، فأبىٰ الله إلا أن يُمْضِيَهَا وينصرها ويُفْلِجها ويظهرها علىٰ مَن نَاوأَهَا، إنَّها كلمة مَن خاصَمَ بهَا فَلَجَ، ومن قاتل بها نُصِرَ، إنَّما يعرفها أهل هذه الجزيرة من المسلمين، التي يقطعها الرَّاكب في ليالٍ قلائل، ويسير الدهر في فِئَامٍ مِنَ النَّاس، لا يعرفونها ولا يقرُّون بها.

- قولٌ آخرُ في الآية:

وروىٰ ابن جرير: حدَّثني الحسين بن محمَّد الذارع، حدَّثنا روح بن المسيب أبو رجاء الكلبي، حدَّثنا عمرو بن مالك، عن أبي الجوزاء، عن ابن عبَّاس في قوله: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْاْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا﴾ هم الشياطين[(١)].

هذا غريبٌ جدًّا في تفسيرها، وإلا فالشياطين إذا قُرِئَ القرآن، أو نوديَ بالأذان، أو ذُكِرَ الله انصرفوا.

﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ الظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾﴾

يخبر تعالىٰ نبيه - صلوات الله وسلامه عليه-: بما تناجىٰ به رؤساء كفار قريش، حين جاءوا يستمعون قراءة رسول الله ﷺ سرًّا من قومهم، بما قالوا من أنه رجلٌ[(٢)] مسحورٌ، من السِّحر علىٰ المشهور، أو من «السَّحْر»، وهو الرئة؛ أي: إن تتبعون -إن اتبعتم محمَّدًا- [﴿إِلَّا بَشَرًا﴾][(٣)] يأكل [ويشرب][(٤)]، كما قال الشاعر:

فَــإِنْ تَــسْأَلِينَا فِــيمَ نَحْــنُ فَإِنَّنَــا عَــصَافِيرُ[(٥)] مِــنْ هَــذَا الأَنَــامِ المُــسَحَّرِ

وقال الرَّاجز: ونُسْحَر بالطَّعام وبالشَّراب؛ أي: نُغذىٰ.

وقد صوَّب هذا القولَ ابنُ جرير، وفيه نظرٌ؛ لأنَّهم إنَّما أرادوا هاهنا أنه مسحورٌ له رِئِيٌ يأتيه بما استمعوه من الكلام الذي يتلوه، ومنهم من قال: «شاعر»، ومنهم من قال: «كاهن»، ومنهم من قال: «مجنون»، ومنهم من قال: «ساحر»؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ الْأَمْثَٰلَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ أي: فلا يهتدون إلىٰ الحق، ولا يجدون إليه مَخْلصًا.

قال محمَّد بن إسحاق في «السيرة»: حدَّثني محمَّد بن مسلم بن شهاب الزهري، أنه حُدِّث أنَّ أبا سفيان ابن حرب، وأبا جهل بن هشام، والأخنس بن شَرِيق بن عمرو بن وهب الثقفي، حليف بني زهرة، خرجوا ليلةً ليستمعوا من رسول الله ﷺ، وهو يصلي بالليل في بَيْتِهِ، فأخذ كلُّ واحدٍ منهم مجلسًا يستمع فيه، وكلٌّ لا

---

(١) رواه الطَّبَري (١٥/ ٩٥)، والطبراني في «الكبير» (١٢/ ١٧٥)، قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٥٣): وفيه روح بن المسيب، قال ابن معين: صويلح وضعفه، وقال ابن حبان: لا تحل الرواية عنه، وبقية رجاله ثقات.

(٢) لوحة (١٥١ أ). (٣) ليست في (ز). (٤) ليست في (ز).

(٥) عصافير: أي صغار ضعاف، أي: نحن أولاد قوم قد ذهبوا، والمسحَّر: المعلَّل بالطعام والشراب.

يعلم بمكان صاحبه، فباتوا يستمعون له، حتىٰ إذا طلع الفجر تفرَّقوا. حتىٰ إذا جمعتهم الطَّريق، فتلاوموا، وقال بعضهم لبعض: لا تعودوا، فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئًا، ثم انصرفوا. حتىٰ إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجلٍ منهم إلىٰ مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتىٰ إذا طلع الفجر تفرقوا حتىٰ إذا جمعتهم الطريق فقال بعضهم لبعضٍ مثل ما قال أول مرة، ثم انصرفوا، حتىٰ إذا كانت الليلة الثالثة، أخذ كل رجلٍ منهم مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتىٰ إذا طلع الفجر تفرقوا، فجَمعهم الطريق فقال بعضهم لبعض: لا نبرح حتىٰ نتعاهد لا نعود، فتعاهدوا علىٰ ذلك، ثم تفرقوا.

فلما أصبح الأخنس بن شَريق أخذ عصاه، ثم خرج حتىٰ أتىٰ أبا سفيان بن حرب في بيته، فقال: أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمَّد؟ قال: يا أبا ثعلبة، والله لقد سمعتُ أشياء أعرفها وأعرف ما يُراد بها، وسمعتُ أشياء ما عرفتُ معناها، ولا ما يراد بها. قال الأخنس: وأنا والذي حَلَفْت به. قال: ثم خرج من عنده حتىٰ أتىٰ أبا جهل، فدخل عليه بيته، فقال[1]: يا أبا الحكم، ما رأيك فيما سمعت من محمَّد؟ قال: ماذا سمعتُ؟! قال: تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف: أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتىٰ إذا تجاثينا علىٰ الرُّكب، وكنا كفرَسي رِهانٍ قالوا: منَّا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتىٰ ندرك هذه؟ والله لا نؤمن به أبدًا ولا نصدقه. قال: فقام عنه الأخنس وتركه[2].

﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدٗا ﴿٤٩﴾ ۞قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوۡ خَلۡقٗا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖۚ فَسَيُنۡغِضُونَ إِلَيۡكَ رُءُوسَهُمۡ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَۖ قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبٗا ﴿٥١﴾ يَوۡمَ يَدۡعُوكُمۡ فَتَسۡتَجِيبُونَ بِحَمۡدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٥٢﴾﴾

يقول تعالىٰ مخبرًا عن الكفار المستبعدين وقوع المعاد، القَائِلِينَ استفهامَ إنكارٍ منهم لذلك: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا﴾ أي: ترابًا. قاله مجاهد.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس: غبارًا.

﴿أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ﴾ أي: يوم القيامة ﴿خَلۡقٗا جَدِيدٗا﴾ أي: بعد ما بَلِينا وصرنا عدمًا لا يذكر. كما أخبر عنهم في الموضع الآخر: ﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرۡدُودُونَ فِي ٱلۡحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا نَّخِرَةٗ ﴿١١﴾ قَالُواْ تِلۡكَ إِذٗا كَرَّةٌ خَاسِرَةٞ﴾ [النازعات: ١٠ -١٢]، وقال تعالىٰ: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلٗا وَنَسِيَ خَلۡقَهُۥۖ قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ ﴿٧٨﴾ قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٨، ٧٩].

وهكذا أمر رسوله هاهنا أن يجيبهم فقال: ﴿قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا﴾ وهما أشد امتناعًا من العظام والرُّفات.

---

(١) لوحة (١٥١ ب).

(٢) رواه البيهقي في «الدلائل» (٢/ ٢٠٦) من طريق ابن إسحاق وهو مدلس، لكنه صرح بالسماع، وبقيت علة الإرسال في الإسناد.

﴿أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾، قال ابن إسحاق عن ابن أبي نَجِيح، عن مجاهد: سألتُ ابنَ عبَّاس عن ذلك فقال: هو الموت[(١)].

وروىٰ عطيَّة، عن ابن عمر أنَّه قال في تفسير هذه الآية: لو كنتم موتىٰ لأحييتكم[(٢)]. وكذا قال سعيد بن جبير، وأبو صالح، والحسن، وقتادة، والضَّحَّاك.

ومعنىٰ ذلك: أنَّكم لو فرضتم أنكم لو صِرْتُم مَوْتًا -الذي هو ضد الحياة- لأحياكم الله إذا شاء؛ فإنه لا يمتنع عليه شيء إذا أراده.

وقد ذكر ابن جرير [هاهنا][(٣)] حديث: «يُجَاءُ بِالمَوْتِ [يَوْمَ القِيَامَةِ][(٤)] كَأَنَّهُ كَبْشٌ أَمْلَحُ، فَيُوقَفُ بَيْنَ الجَنَّةِ وَالنَّارِ، ثُمَّ يُقَالُ: يَا أَهْلَ الجَنَّةِ، أَتَعْرِفُونَ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ. ثُمَّ يُقَالُ: يَا أَهْلَ النَّارِ، أَتَعْرِفُونَ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ. فَيُذْبَحُ بَيْنَ الجَنَّةِ وَالنَّارِ، ثُمَّ يُقَالُ: يَا أَهْلَ الجَنَّةِ، خُلُودٌ بِلَا مَوْتٍ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ، خُلُودٌ بِلَا مَوْتٍ»[(٥)].

وقال مجاهد: ﴿أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾[(٦)] يعني: السماء والأرض والجبال.

وفي رواية: ما شئتم فكونوا، فسيعيدكم الله بعد موتكم.

وقد وقع في التَّفسير المروي عن الإمام مالك، عن الزهري في قوله: ﴿أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ قال: النَّبيُّ ﷺ، قال مالكٌ: ويقولون: هو الموت.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا﴾ أي: مَن يُعيدنا إذا كنَّا حجارةً أو حديدًا أو خلقًا آخر شديدًا ﴿قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي: الذي خلقكم ولم تكونوا شيئًا مذكورًا، ثم صِرْتُم بشرًا تنتشرون؛ فإنَّه قادرٌ علىٰ إعادتكم ولو صِرْتُم إلىٰ أي حالٍ ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧].

وقوله تعالىٰ: ﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾: قال ابن عبَّاس وقتادة: يحرِّكُونها استهزاء.

وهذا الذي قالاه هو الذي تفهمه العرب من لُغَاتِها؛ لأنَّ الإنغاض هو: التَّحرُّك من أسفلَ إلىٰ أعلىٰ، أو مِن أعلىٰ إلىٰ أسفلَ، ومنه قيل للظَّلِيم -وهو ولد النَّعامة-: نَغْضًا؛ لأنَّه إذا مشىٰ عَجِلَ في مشيته وحَرَّك رأسه. ويقال: «نَغَضت سنُّه»: إذا تحرَّكتْ وارتفعتْ من مَنْبِتها؛ قال الراجز:

ونَغَضَتْ مِنْ هَـرَمٍ أَسْـنَانُهَا

وقوله: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ﴾ إخبارٌ عنه بالاستبعاد منهم لوقوع ذلك، كما قال تعالىٰ: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا

---

(١) حسن: رواه الحاكم (٢/ ٣٦٢) وصححه علىٰ شرط مسلم، ووافقه الذهبي، ورواه الطبري (١٥/ ٩٨) من طريق أخرىٰ.
(٢) رواه الطبري (١٥/ ٩٨)، وفيه عطية العوفي: شيعي مدلس.
(٣) ليست في (ز). (٤) ليست في (ز)، وهي مثبتة في «مسلم»، و«الطبري».
(٥) رواه البخاري (٤٧٣٠)، ومسلم (٢٨٤٩)، وابن جرير (١٥/ ٩٨)، ونسبته للصحيحين أولىٰ من الاقتصار علىٰ الطبري.
(٦) لوحة (١٥٢ أ).

﴿ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الملك: ٢٥]، وقال تعالىٰ: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ [الشورى: ١٨].

وقوله: ﴿قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾ أي: احذروا ذلك؛ فإنَّه قريبٌ إليكم، سيأتيكم لا محالةَ، فكلُّ ما هو آتٍ آتٍ.

وقوله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ﴾ أي: الرب تعالىٰ: ﴿إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ [الروم: ٢٥] أي: إذا أمركم بالخروج منها فإنَّه لا يُخالَف ولا يُمانَع، بل كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠]، ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠] وقال: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ١٣، ١٤] أي: إنَّما هو أمرٌ واحدٌ بانتهار، فإذا الناس قد خرجوا مِن باطن الأرض إلىٰ ظاهِرِهَا كما قال: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ﴾ أي: تقومون كلُّكُم إجابةً لأمرِهِ وطاعةً لإرادتِهِ.

قال عليُّ بن أبي طلحةَ، عن ابن عبَّاس: ﴿فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ﴾ أي: بأمره. وكذا قال ابن جريج.

وقال قتادة: بمعرفَتِهِ وطاعتِهِ.

وقال بعضهم: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ﴾ أي: وله الحمدُ في كل حالٍ، وقد جاء في الحديث: «لَيْسَ عَلَىٰ أَهْلِ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْشَةٌ(١) فِي قُبُورِهِمْ، وَكَأَنِّي بِأَهْلِ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ يَقُومُونَ مِنْ قُبُورِهِمْ يَنْفُضُونَ التُّرَابَ عَنْ رُءُوسِهِمْ، يَقُولُونَ: لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ». وفي رواية: يقولون: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾(٢) [فاطر: ٣٤]؛ وسيأتي في سورة فاطر إن شاء الله تعالىٰ.

وقوله: ﴿وَتَظُنُّونَ﴾ أي: يوم تقومون من قبوركم ﴿إِن لَّبِثْتُمْ﴾ أي: في الدار الدنيا ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾، وكما قال: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ [النازعات: ٤٦]، وقال تعالىٰ: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ [طه: ١٠٢-١٠٤]، وقال تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ﴾ [الروم: ٥٥]، وقال تعالىٰ: ﴿قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٢-١١٤].

﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾﴾

---

(١) لوحة (١٥٢ ب).

(٢) رواه الطبراني في «الأوسط» (٩٤٤٥)، والخطيب في «تاريخ بغداد» (١/ ٢٦٦)، وابن عدي في «الكامل» (٤/ ١٥٨٣)، قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٨٩): رواه الطبراني في «الأوسط» من طريقين، وفي الأولىٰ: يحيىٰ الحِمَّاني، وفي الأخرىٰ: مُجاشِع بن عمرو وكلاهما ضعيف. وضعفه العراقي في «تخريج الإحياء»، ورواه البيهقي في «البعث والنُّشور» (٨٢) من حديث ابن عمر، وإسناده ضعيف جدًّا؛ به بُهْلُول بن عبيد: ذاهب الحديث، بل اتُّهم بالوضع وضعَّفه الألباني في «السِّلسلة الضَّعيفة» (٤٨٩٨).

يأمر تعالىٰ رسوله ﷺ أن يأمر عباد الله المؤمنين، أن يقولوا في مخاطبَاتِهِم ومحاوراتهم الكلامَ الأحسنَ والكلمةَ الطَّيبَةَ؛ فإنَّه إذا لم يفعلوا ذلك، نزغ الشَّيطان بينهم، وأخرج الكلام إلىٰ الفِعَال، ووقع الشَّرُّ والمخاصمة والمقاتلة؛ فإنَّ الشيطان عدوٌّ لآدمَ وذُرِّيتِهِ من حين امتنعَ مِنَ السُّجود لآدم، فعداوته ظاهرةٌ بيِّنةٌ؛ ولهذا نُهِيَ أَن يُشِيرَ الرَّجل إلىٰ أخيه المسلم بحديدةٍ؛ فإنَّ الشَّيطان [ينزع](١) فِي يده؛ أي: فرُبَّما أصابه بها.

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا عبد الرزَّاق، حدَّثنا مَعْمر، عن همام، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يُشِيرَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَىٰ أَخِيهِ بِالسِّلَاحِ، فَإِنَّهُ لا يَدْرِي أَحَدُكُمْ لَعَلَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ**(٢) **فِي يَدِهِ، فَيَقَعُ فِي حُفْرَةٍ مِنْ نَارٍ**»(٣).

أخرجاه من حديثِ عبد الرزَّاق.

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا عفان، حدَّثنا حماد، أنبأنا علي بن زيد، عن الحسن قال: حدَّثني رجلٌ من بني سَلِيط قال: أتيت النَّبيَّ ﷺ وهو في أزفَلَةٍ(٤)(٥) من النَّاس، فسمعته يقول: «**المُسْلِمُ أَخُو المُسْلِمِ؛ لا يَظْلِمُهُ وَلا يَخْذُلُهُ، التَّقْوَىٰ هَاهُنَا**» [-قال حمَّاد: وقال بيده(٦) إلىٰ صدره- «**مَا تَوَادَّ رَجُلَانِ فِي اللهِ فَتَفَرَّقَ بَيْنَهُمَا إِلَا بِحَدَثٍ يُحْدِثُهُ أَحَدُهُمَا**](٧)، **وَالمحْدِثُ شَرٌّ، وَالمُحْدِثُ شَرٌّ، وَالمُحْدِثُ شَرٌّ**»(٨).

﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّۦنَ عَلَىٰ بَعْضٍ(٩) وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾ ﴾

يقول الله تعالىٰ: ﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ﴾ أيها الناس، مَن يستحقُّ منكم الهداية ومن لا يستحقُّ ﴿إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ﴾ بأن يُوَفِّقكُم لطاعَتِهِ والإنابة إليه ﴿أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ ﴾ [يا محمَّد](١٠) ﴿عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴾ أي: إنَّما أرسلناك نذيرًا، فمن أطاعَكَ دخل الجنة، ومَن عصاكَ دَخَلَ النَّار.

وقوله: ﴿ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أي: بمراتبهم في الطَّاعة والمعصية ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّۦنَ ﴾، كَمَا قَالَ: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

---

(١) في (ز): (ينزغ)، والمثبت موافق للفظ الحديث في مصادر التخريج، وقال الشيخ محمد فؤاد عبد الباقي: [يَنْزِعُ]: ضبطناه بالعين المهملة، وكذا نقله القاضي عن جميع روايات مسلم وكذا هو في نسخ بلادنا، ومعناه: يرمي في يده ويحقق ضربته ورميته].

(٢) في (ز): (ينزغ)، والمثبت موافق لما في «المسند».

(٣) البخاري (٧٠٧٢)، ومسلم (٢٦١٧)، وأحمد (٢/ ٣١٧).

(٤) أي: جماعة.

(٥) في (ز): «رفلة»، والمثبت من «المسند».

(٦) أي: أشار بيده.

(٧) سقط من (ز)، وهي مثبتة من «المسند».

(٨) حسن لشواهده: رواه أحمد (٥/ ٢٥) (٥/ ٧١) (٥/ ٣٧٩) من طرق عن الحسن به، وفي أسانيدها ضعف، لكن يقوي بعضها بعضًا، وحسنه الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ١٨٧) (١٠/ ٢٧٨).
قلت: ولألفاظه شواهد، فالفقرة الأولىٰ لها شاهد عند البخاري (٥٨)، ومسلم (٢٥٨٠).

(٩) لوحة (١٥٣ أ).

(١٠) سقط من (ز).

وهذا لا ينافي ما [ثبت][(١)] في «الصحيحين» عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا تُفَضِّلُوا بَيْنَ الأَنْبِيَاءِ»[(٢)]؛ فإنَّ المراد من ذلك هو التَّفضيل بمجرد التَّشهِّي والعصبية، لا بمقتضى الدَّليل، [فإنَّه إذا دلَّ الدَّليل][(٣)] على شيءٍ وجبَ اتِّباعه، ولا خلافَ أن الرُّسُل أفضل مِن بقيَّة الأنبياءِ، وأنَّ أولي العزم منهم أفضلهم، وهم الخمسة المذكورون نصًّا في آيتين مِن القرآن في سورة الأحزاب: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ [الأحزاب: ٧]، وفي الشورى في قوله: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ۖ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣]. ولا خلاف أنَّ محمَّدًا ﷺ أفضلهم، ثم بعده إبراهيم، ثم موسى على المشهورِ، وقد بسطنا هذا بدلائلِه في غير هذا الموضع، والله الموفق.

وقوله: ﴿وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾ تنبيهٌ على فضلِهِ وشرفِهِ.

قال البخاريُّ: حدَّثنا إسحاق بن نصر، أخبرنا عبد الرزَّاق، أخبرنا مَعْمر، عن هَمَّام، عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ قال: «خُفِّفَ عَلَىٰ دَاوُدَ القُرْآنُ، فَكَانَ يَأْمُرُ بِدَابَّتِهِ لِتُسْرَجَ، فَكَانَ يَقْرَأُ قَبْلَ أَنْ يَفْرُغَ»[(٤)]. يعني: القُرْآنَ.

﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾[(٥)]

يقول تعالى: ﴿قُلِ﴾ يا محمَّد لهؤلاء المشركين الذين عبدوا غير الله: ﴿ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ﴾ من الأصنام والأنداد، فارغبوا إليهم، فإنهم «لا يملكون كشف الضر عنكم» أي: بالكلِّيَّة، ﴿وَلَا تَحْوِيلًا﴾ أي: أن يحولوه إلى غيركم.

والمعنى: أنَّ الَّذي يقدر على ذلك هو الله وحدَهُ لا شريكَ له؛ الذي له الخلق والأمر.

قال العَوْفي، عن[(٦)] ابن عبَّاس في قوله: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ قال: كان أهل الشِّرك يقولون: نعبدُ الملائكة والمسيح وعزيرًا، وهم الذين يدعون؛ يعني: الملائكة والمسيح وعزيرًا.

وقوله: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾. روى البخاري من حديث سليمان بن مِهْران الأعمش، عن إبراهيم، عن أبي مَعْمر، عن عبد الله في قوله: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾ قال: ناسٌ من الجنِّ، كانوا يُعبدون، فأسلموا[(٧)]. وفي روايةٍ قال: كان ناسٌ من

---

(١) سقط من (ز).
(٢) البخاري (٤٦٣٨)، ومسلم (٢٣٧٤)، وأبو داود (٤٦٧١).
(٣) سقط من (ز).
(٤) البخاري (٤٤٣٦).
(٥) قال العلامة السعدي رحمه الله: وهذه الأمور الثلاثة الخوف والرجاء والمحبة التي وصف الله بها هؤلاء المقربين عنده هي الأصل والمادة في كل خير.
(٦) لوحة (١٥٣ ب).
(٧) البخاري (٤٧١٥)، ومسلم (٣٠٣٠).

الإنس، يعبدون ناسًا من الجنِّ، فأسلم الجنُّ وتمسَّك هؤلاء بدينهم[(١)].

وقال قتادة، عن معبد بن عبد الله الزِّمَّاني، عن عبد الله بن عتبة بن مسعود، عن ابن مسعود في قوله: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾ قال: نزلت في نفرٍ منَ العرب، كانوا يعبدون نفرًا من الجنِّ، فأسلم الجنِّيُّون، والإنس الذين كانوا يعبدونهم لا يشعرون بإسلامهم، فنزلت هذه الآية[(٢)].

وفي رواية عن ابن مسعود: كانوا يعبدون صنفًا من الملائكة يقال لهم: الجن... فذكره[(٣)].

وقال السُّدِّي، عن أبي صالح، عن ابن عبَّاس في قوله: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ قال: عيسىٰ وأمه، وعُزير[(٤)].

وقال مغيرة، عن إبراهيم: كان ابن عبَّاس يقول في هذه الآية: هم عيسىٰ، وعُزير، والشمس، والقمر[(٥)].

وقال مجاهد: عيسىٰ، والعُزير، والملائكة.

واختار ابن جرير قول ابن مسعود؛ لقوله: ﴿يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾، وهذا لا يعبر به[(٦)] عن الماضي، فلا يدخل فيه عيسىٰ والعُزيرُ. قال: والوسيلة هي القربة، كما قال قتادة؛ ولهذا قال: ﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾.

وقوله: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾: لا تتم العبادة إلا بالخوف والرجاء؛ فبالخوف ينكف عن المناهي، وبالرجاء ينبعث علىٰ الطاعات.

وقوله: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ أي: ينبغي أن يُحْذَر منه، ويخاف من وقوعه وحصوله، عياذًا بالله منه.

﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾﴾

هذا إخبارٌ من الله ﷻ بأنَّه قد حتَمَ وقضىٰ بما قد كتبه عنده في اللَّوحِ المحفوظ: أنَّه ما مِن قريةٍ إلا سيهلكها، بأن يبيد أهلها جميعهم أو يعذبهم ﴿عَذَابًا شَدِيدًا﴾؛ إمَّا بقتل، أو ابتلاءٍ بما[(٧)] يشاء، وإنَّما يكون ذلك بسبب ذنوبهم وخطاياهم، كما قال عن الأمم الماضين: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ [هود: ١٠١] وقال تعالىٰ: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا﴾ [الطلاق: ٨، ٩].

﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ۚ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾﴾

---

(١) البخاري (٤٧١٤)، ومسلم (٣٠٣٠).
(٢) مسلم (٣٠٣٠).
(٣) رواه الطبري (١٥/ ٧٥)، وفيه يحيىٰ بن السكن: ضعيف.
(٤) ضعيف كسابقه.
(٥) رواه الطبري (١٥/ ١٠٦).
(٦) في (ز): «لا يعني».
(٧) لوحة (١٥٤ أ).

قال سُنَيْد، عن حماد بن زيد، عن أيوب، عن سعيد بن جُبَيْر قال: قال المشركون: يا محمَّد، إنَّك تزعم أنَّه كان قبلك أنبياء، فمنهم من سُخِّرت له الرِّيح، ومنهم مَن كان يُحْيِي الموتىٰ، فإنْ سَرَّك أن نؤمِن بك ونصدقك، فادْعُ ربَّك أن يكون لنا الصَّفا ذهبًا. فأوحىٰ الله إليه: إنِّي قد سمعت الذي قالوا، فإن شئت أن نفعل الَّذي قالوا، فإن لم يؤمنوا نزل العذاب؛ فإنَّه ليس بعد نزولِ الآية مناظرة، وإن شئت أن نَستأني بقومك استأنيتُ بهم؟ قال: «يَا رَبِّ، اسْتَأْنِ بِهِمْ»[١] . وكذا قال قتادة، وابن جريج، وغيرهما.

قال الإمام أحمد: حدَّثنا عثمان بن محمَّد، حدَّثنا جرير، عن الأعمش، عن جعفر بن إياس، عن سعيد ابن جبير، عن ابن عبَّاس قال: سأل أهل مكة النَّبيَّ ﷺ أن يجعل لهم الصَّفا ذهبًا، وأن يُنَحِّي الجبال عنهم فيزرعوا، فقِيلَ له: إن شئت أن نستأني بهم، وإن شئت أن نُؤتيهم الذي سألوا، فإن كفروا أهلكوا كما أهلكتُ من كان قبلهم من الأمم: قال: «لَا، بَلِ اسْتَأْنِ بِهِمْ». وأنزل الله: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾، رواه النَّسائي من حديث جرير به[٢] .

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا عبد الرحمن، حدَّثنا سفيان، عن سَلَمة بن كُهيل، عن عمران أبىٰ الحكم[٣] ، عن ابن عبَّاس قال: قالت قريشٌ للنَّبيِّ ﷺ: ادعُ لنَا ربَّك أن يجعل لنا الصَّفا ذهبًا، ونؤمن بك. قال: «وَتَفْعَلُونَ؟» قالوا: نعم. قال: فدعا فأتاه جبريل فقال: «**إِنَّ رَبَّكَ يَقْرَأُ عَلَيْكَ السَّلَامَ وَيَقُولُ لَكَ: إِنْ شِئْتَ أَصْبَحَ الصَّفَا لَهُمْ ذَهَبًا فَمَنْ كَفَرَ مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ عَذَّبْتُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ العَالَمِينَ، وَإِنْ شِئْتَ فَتَحْتُ لَهُمْ بَابَ التَّوْبَةِ وَالرَّحْمَةِ**». فقال: «**بَلْ بَابَ التَّوْبَةِ وَالرَّحْمَةِ**»[٤] .

وقال الحافظ أبو يعلىٰ في «مسنده»: حدَّثنا محمَّد بن إسماعيل بن علي الأنصاري، حدَّثنا خلف ابن تميم المِصِّيصِي، عن عبد الجبار بن عمر الأيلِيِّ، عن عبد الله بن عطاء بن إبراهيم، عن جدَّتِهِ أمِّ عطاء مولاة الزبير بن العوام قالت: سمعت الزبير يقول: لما نزلت: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ[٥] ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] صاح رسول الله ﷺ علىٰ أبي قُبيس: «يَا آلَ عَبْدِ مَنَافٍ، إِنِّي نَذِيرٌ!» فجاءته قريش فحذَّرَهم وأنذرَهُم، فقالوا: تزعم أنَّك نبيٌّ يوحَىٰ إليك، وأنَّ سليمان سُخِّر له الرِّيح والجبال، وأنَّ موسىٰ سُخِّر له البحر، وأن عيسىٰ كان يحيي الموتىٰ، فادع الله أن يسيِّر عنَّا هذه الجبال، ويفجِّر لنا الأرض أنهارًا، فنتَّخِذها محارث فنزرع ونأكل، وإلا فادع الله أن يحيي لنا موتَانَا فنكلمهم ويكلمونا، وإلا فادع الله أن يَصِيرَ لنا هذه الصخرة التي تحتك ذهبًا، فنَنْحَتُ منها، وتُغْنِينَا عن رحلة الشِّتاء والصَّيف، فإنَّك تزعم أنَّك كهيئتهم! قال: فبينا نحن حوله، إذ نزل عليه الوحي، فلما سري عنه قال: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَقَدْ أَعْطَانِي مَا سَأَلْتُمْ، وَلَوْ شِئْتُ لَكَانَ، وَلَكِنَّهُ خَيَّرَنِي بَيْنَ أَنْ تَدْخُلُوا بَابَ**

---

(١) رواه الطبري (١٥/ ١٠٨)، وإسناده مرسل، لكن ثبت موصولًا، انظر ما بعده.

(٢) **صحيح**: رواه أحمد (١/ ٢٥٨)، والنسائي في «الكبرىٰ» (١١٢٩٠)، وصححه الحاكم (٢/ ٣٦٢)، ووافقه الذَّهبي.

(٣) في (ز): «عمران بن حكيم»، وهو خطأ، والصواب ما أثبتناه من «المسند»، وهو عمران بن الحارث السلمي أبو الحكم الكوفي، وانظر: «تهذيب التهذيب» (٨/ ١١٠) وغيره.

(٤) رواه أحمد (١/ ٢٤٢)، والحاكم (١/ ٥٣) (٤/ ٣١٤) وصححه، ووافقه الذهبي.

(٥) لوحة (١٥٤ ب).

الرَّحْمَةِ، فيُؤْمِنَ مُؤْمِنكُمْ، وَبَيْنَ أَنْ يَكِلَكُمْ إِلَىٰ مَا اخْتَرْتُمْ لِأَنْفسِكُمْ، فَتَضِلُّوا عَنْ بَابِ الرَّحْمَةِ، فَلا يُؤْمِنُ مِنْكُمْ أَحَدٌ، فَاخْتَرْتُ بَابَ الرَّحْمَةِ، فيُؤْمِنُ مُؤْمِنُكُمْ. وَأَخْبَرَنِي أَنَّهُ إِنْ أَعْطَاكُمْ ذَلِكَ ثُمَّ كَفَرْتُمْ، أَنَّهُ يُعَذِّبُكُمْ عَذَابًا لا يُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ العَالَمِينَ» ونزلت: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾.

حتىٰ قرأ ثلاث آياتٍ ونزلت: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [الرعد: ٣١](١).

ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَٰتِ﴾ أي: نبعث الآيات ونأتي بها علىٰ ما سأل قومُكَ منك، فإنَّه سهلٌ علينا يسير لدينا، إلا أنَّه قد كذَّب بها الأولون بعدما سألوها، وجرتْ سُنَّتُنا فيهم وفي أمثالهم أنَّهم لا يُؤَخَّرون إذا كَذَّبُوا بها بعد نزولها، كما قال الله تعالىٰ في المائدة: ﴿قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المائدة: ١١٥]، وقال تعالىٰ عن ثمود، حين سألوا آيةً ناقةً تخرج من صخرة عَيَّنُوها، فدعا صالح ربه، فأخرج له منها ناقة علىٰ ما سألوا: ﴿فَظَلَمُواْ بِهَا﴾ أي: كفروا بمن خلقها، وكذَّبوا رسوله وعقروا الناقة فقال: ﴿تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ [هود: ٦٥]؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾ أي: دالَّة علىٰ وحدانية مَن خلقها وصِدْقِ الرَّسول الذي أجيب دعاؤه فيها ﴿فَظَلَمُواْ بِهَا﴾ أي: كفروا بها ومنعوها شِرْبها وقتلوها، فأبادهم الله عن آخرهم، وانتقم منهم، وأخذهم أخذ عزيزٍ مقتدرٍ.

وقوله: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ قال قتادة: إن الله(٢) يخوِّف النَّاس بما يشاء من آياته لعلَّهم يعتبرون ويذَّكَّرُون ويرجعون، ذُكر لنا أنَّ الكوفة رجفت علىٰ عهد ابن مسعود فقال: يا أيُّها الناس، إنَّ ربَّكم يَسْتَعْتِبُكم فأَعْتِبُوه(٣).

وهكذا رُوي أنَّ «المدينة» زُلزِلَت علىٰ عهد عمر بن الخطاب مرَّات، فقال عمر: أحدثتم، والله لئن عادت لأفعلنَّ ولأفعلنَّ. وكذا قال رسول الله ﷺ في الحديث المتفق عليه: «إِنَّ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللهِ، وَإِنَّهُمَا لا يَنْكَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلا لِحَيَاتِهِ، وَلَكِنَّ اللهَ ﷻ يُرْسِلُهُمَا يُخَوِّفُ بِهِمَا عِبَادَهُ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ ذَلِكَ فَافْزَعُوا إِلَىٰ ذِكْرِهِ وَدُعَائِهِ وَاسْتِغْفَارِهِ». ثم قال: «يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ، وَاللهِ مَا مِنا أَحَدٍ أَغْيَرُ مِنَ اللهِ أَنْ يَزْنِيَ عَبْدُهُ أَوْ تَزْنِيَ أَمَتُهُ، يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ، وَاللهِ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ، لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا»(٤).

﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِي ٱلْقُرْءَانِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا ٦٠﴾

---

(١) ضعيف: رواه أبو يعلىٰ (٦٧٩)، وفيه عبد الجبار بن عمر الأيلي: ضعيف، وعبد الله بن عطاء، قال ابن معين: لا شيء، وقال الحافظ: صدوق يخطىء ويدلس.

(٢) لوحة (١٥٥ أ).

(٣) أي: يطلب منكم الرجوع عن الإساءة واسترضاءه، فافعلوا ذلك.

(٤) البخاري (١٠٤٤)، ومسلم (٩٠١).

يقول تعالىٰ لرسوله ﷺ محرِّضًا له علىٰ إبلاغ رسالته، ومخبرًا له بأنَّه قد عصمه من النَّاس؛ فإنَّه القادر عليهم، وهم فِي قبضتِهِ وتحت قهرِهِ وغلبتِهِ.

قال مجاهد، وعروة بن الزُّبير، والحسن، وقتادة، وغيرهم في قوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾ أي: عصمك منهم.

وقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّءْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ قال البخاري: حدَّثنا علي بن عبد الله، حدَّثنا سفيان، عن عمرو، عن عكرمة، عن ابن عبَّاس: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّءْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ قال: هي رؤيا عين أُرِيهَا رسول الله ﷺ ليلةَ أُسْرِيَ به ﴿وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ﴾ شجرة الزقوم(١).

وكذا رواه أحمد، وعبد الرزَّاق(٢)، وغيرهما، عن سفيان بن عيينة به، وكذا رواه العوفي، عن ابن عبَّاس، وهكذا فسر ذلك بليلة الإسراء: مجاهد، وسعيد بن جبير، والحسن، ومسروق، وإبراهيم، وقتادة، وعبد الرحمن بن زيد، وغير واحدٍ. وقد تقدمت أحاديث الإسراء في أوَّل السورة مستقصاةً، ولله الحمد والمنة. وتقدَّم أنَّ ناسًا رجعوا عن دينهم بعدما كانوا علىٰ الحق؛ لأنه لم تحمل قلوبهم وعقولهم ذلك، فكذبوا بما لم يحيطوا بعلمه، وجعل الله ذلك ثباتًا(٣) ويقينًا لآخرين؛ ولهذا قال: ﴿إِلَّا فِتْنَةً﴾ أي: اختبارًا وامتحانًا. وأمَّا ﴿وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ﴾ فهي شجرة الزقوم، كما أخبرهم رسول الله ﷺ أنه رأىٰ الجنَّة والنَّار، ورأىٰ شجرة الزَّقُّوم، فكذبوا بذلك حتىٰ قال أبو جهلٍ(٤) لعنه اللهُ بقوله: هاتوا لنا تمرًا وزُبْدًا، وجعل يأكل هذا بهذا ويقول: تزَقَّموا، فلا نعلم الزَّقُّوم غير هذا.

حكىٰ ذلك ابن عبَّاس، ومسروق، وأبو مالك، والحسن البصري، وغير واحدٍ، وكل من قال: إنَّها ليلة الإسراء، فسَّرهُ كذلك بشجرة الزَّقُّوم.

وقد قيل: المراد بالشَّجرة الملعونة: بنو أميَّة. وهو غريب ضعيف(٥).

---

(١) البخاري (٤٧١٦)، والترمذي (٣١٣٤)، والنسائي في «الكبرىٰ» (١١٢٩١).

(٢) في (ز): «عبد الرحمن»، والصواب ما أثبتناه من بعض النسخ، فالحديث عند عبد الرزاق في «مصنفه»، وانظر: «الدُّر المنثور» (٩/ ٣٨٩).

(٣) في (ز): «بيانًا».

(٤) لوحة (١٥٥ ب).

(٥) قال ابنُ تيمية رحمه الله رادًّا علىٰ من قال هذا ونحوه: (فهذه التأويلات من باب تحريف الكلم عن مواضعه، والإلحاد في آيات الله، وهي من باب الكذب علىٰ الله وعلىٰ رسوله وكتابه، ومثل هذه لا تُجْعَل حقا حتىٰ يقال إن الله استأثر بعلمها، بل هي باطل مثل شهادة الزور وكفر الكفار، يعلم الله أنها باطل، والله يُعْلِم عباده بطلانَها بالأسباب التي بها يعرف عباده من نصب الأدلة وغيرها، وأصل وقوع أهل الضلال في مثل هذا التحريف: الإعراض عن فهم كتاب الله تعالىٰ كما فهمه الصحابة والتابعون، ومعارضة ما دل عليه بما يناقضه، وهذا هو من أعظم المحادة لله ولرسوله، لكن علىٰ وجه النفاق والخداع، وهو حال الباطنية وأشباههم ممن يتظاهر بالإسلام واتباع القرآن والرسالة، بل بموالاة أولياء الله تعالىٰ من أهل بيت النبوة وغيرهم من الصالحين، وهو في الباطن من أعظم الناس مناقضة للرسول فيما أخبر به وما أمر به، لكنه يتكلم بألفاظ القرآن والحديث ويضم إلىٰ ذلك من المكذوبات ما لا يحصيه إلا الله، ثم يتأول ذلك من التأويلات بما يناسب ما أبطنه من الأمور المناقضة لخبر الله ورسوله وأمر الله ورسوله، ويُظهر تلك التأويلات لمستجيبيه بحسب ما يراه من قَبُولهم وموافقتهم له). «درء التعارض»، وانظر: (شبهات بني أمية) للدكتور/ السيد الشحات حَفِظَهُ اللهُ.

قال ابن جرير: حُدِّثت عن محمَّد [بن الحسن][(١)] بن زَبَالة، حدَّثنا عبد المهيمن بن عبَّاس بن سهل بن سعد[(٢)]، حدَّثني أبي عن جدي قال: رأىٰ رسول الله ﷺ بني فلان ينزون علىٰ منبره نزوَ القرود فساءَهُ ذلك، فما استجمع ضاحكًا حتىٰ مات. قال: وأنزل الله في ذلك: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّءْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾ الآية[(٣)].

وهذا السند ضعيفٌ جدًّا؛ فإن «محمَّد بن الحسن بن زَبَالة» متروك، وشيخه أيضًا ضعيف بالكُلِّيَّة. ولهذا اختار ابن جرير: أن المراد بذلك ليلة الإسراء، وأن الشجرة الملعونة هي شجرة الزَّقُّوم، قال: لإجماع الحجَّة من أهل التَّأويل علىٰ ذلك؛ أي: في الرُّؤيا والشَّجرة.

وقوله: ﴿وَنُخَوِّفُهُمْ﴾ أي: الكفَّار بالوعيد والعذاب والنَّكال ﴿فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾ أي: تماديًا فيما هم فيه من الكفر والضَّلال. وذلك مِن خِذْلانِ الله لهم.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾﴾

يذكر تعالىٰ عَدَاوَةَ إبليس -لعنه الله- لآدم ﵇ وذريته، وأنَّها عداوةٌ قديمةٌ منذ خلقَ آدم، فإنَّه تعالىٰ أمر الملائكةَ بالسجود، فسجدوا كلُّهم إلا إبليس استكبر وأبىٰ أن يسجد له؛ افتخارًا عليه واحتقارًا له ﴿قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ كما قال في الآية الأخرىٰ: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢].

وقال أيضًا: ﴿أَرَأَيْتَكَ﴾، يقول للرب جراءة وكفرًا، والرَّبُّ يحلم ويُنْظِر ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس يقول: لأستولين علىٰ ذريته ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾.

وقال مجاهد: لأحتوينَّ. وقال ابن زيد: لأُضلنَّهم.

وكلها متقاربة، والمعنىٰ: أنَّه يقول: أرأيتك هذا الَّذي شرَّفته وعظَّمْته عليَّ، لئن أنظرتني لأُضِلَنَّ ذرِّيَّته إلا قليلًا منهم!.

﴿قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَاسْتَفْزِزْ مَنِ[(٤)] اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾

لما سأل إبليس [عليه اللَّعنة][(٥)] النَّظرة قال الله له: ﴿اذْهَبْ﴾ فقد أنظرتك. كما قال في الآية الأخرىٰ: ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ [الحجر: ٣٧، ٣٨]، ثم أوعده ومَن تَبِعه مِن ذُرِّيَّة آدم جهنَّم،

---

(١) سقط من (ز)، وهو مثبت من «الطبري».
(٢) في (ز): «سعيد»، والمثبت هو الصواب، وانظر ترجمة «سهل بن سعد» في «السيرة» (٥/ ٤١٧).
(٣) ضعيفٌ جدًّا: رواه الطبري (١٥/ ١١٢)، وفيه محمد بن الحسن بن زبالة: متروك، وشيخه مثله، والإسناد منقطع.
(٤) لوحة (١٥٦ أ).
(٥) ليست في (ز).

فقال: ﴿فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ﴾ أي: على أعمالكم ﴿جَزَآءً مَّوْفُورًا﴾.

قال مجاهد: وافرًا. وقال قتادة: مُوَفَّرًا عليكم، لا ينقص لكم منه.

وقوله: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ﴾ قيل: هو الغناء. قال مجاهد: باللَّهو والغناء؛ أي: استخفَّهُم بذلك.

وقال ابن عبَّاس في قوله: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ﴾ قال: كلُّ داعٍ دعا إلى معصيةِ الله عَزَّ وَجَلَّ وقاله قتادة، واختاره ابن جرير.

وقوله: ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ يقول: واحمل عليهم بجنودك خيَّالتهم[1] ورجَّالتهم؛ فإن «الرَّجْل» جمع «رَاجِل»، كما أنَّ «الرَّكب» جمع «راكب» و«صحب» جمع «صاحب».

ومعناه: تسلَّط عليهم بكلِّ ما تقدر عليه. وهذا أمرٌ قدريٌّ، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ [مريم: ٨٣] أي: تزعجهم إلى المعاصي إزعاجًا، وتسوقهم إليها سوقًا. وقال ابن عبَّاس، ومجاهد في قوله: ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ قال: كلُّ راكبٍ وماشٍ في معصيةِ اللهِ.

وقال قتادة: إنَّ له خيلًا ورجالًا منَ الجنِّ والإنس، وهم الَّذين يُطِيعُونَهُ.

وتقول العرب: «أَجْلَبَ فلان على فلان»: إذا صاح عليه. ومنه: «نهى في المسابقةِ عن الجَلَب[2] والجَنَب»[3] ومنه اشتقاق «الجلبة» وهي: ارتفاع الأصوات.

وقوله: ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ قال ابن عبَّاس ومجاهد: هو ما أمرهم به من إنفاق الأموال فِي معاصي [الله][4].

وقال عطاء: هو الرِّبا. وقال الحسن: هو جمعُها مِن خبيثٍ، وإنفاقها في حرام. وكذا قال قتادة.

وقال العوفي، عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما: أمَّا مشاركتُهُ إيَّاهُم في أموالهم، فهو ما حرَّموه من أنْعَامِهِم؛ يعني: من البحائر والسَّوَائِبِ ونحوها. وكذا قال الضَّحَّاك وقتادة.

ثم قال ابن جرير: والأَولى أن يقال: إن الآية تَعُمُّ ذَلِكَ كله.

وقوله: ﴿وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ قال العوفي عن ابن عبَّاس، ومجاهد، والضَّحَّاك: يعني: أولاد الزِّنا.

وقال علي بن أبي طلحة، عن[5] ابن عبَّاس: هو ما كانوا قتَلُوهُ مِن أولادِهِمْ سفهًا بغير علمٍ.

---

(١) **الخيالة**: أصحاب الخيول.

(٢) **الجَلَب في السباق**: أن يتبع الرجل فرسه فيزجره، ويجلب عليه ويصيح حثًّا له على الجري، والجَنَب: أن يَجْنُب فرسًا إلى فرسه الذي يسابق عليه، فإذا فتر المركوب تحول إلى المَجْنُوب.

(٣) رواه أبو داود (٢٩٨١)، والترمذي (١١٢٣)، والنسائي (٦/ ١١١) (٦/ ٢٢٧)، وقال الترمذي: حسن صحيح.

(٤) ليست في (ز).

(٥) لوحة (١٥٦ب).

وقال قتادة، عن الحسن البصري: قد والله شارَكَهُمْ في الأموال والأولاد مَجَّسُوا وهوَّدُوا ونَصَّرُوا وصُبِغُوا غير صبغةِ الإسلام، وجَزَّءوا من أموالهم جزءًا للشيطان[1]، وكذا قال قتادة سواء.

وقال أبو صالح، عن ابن عبَّاس: هو تسميتهم أولادهم «عبد الحارث» و«عبد شمس» و«عبد فلان».

قال ابن جرير: وأَولىٰ الأقوال بالصواب أن يقال: كلُّ مولودٍ ولدته أنثىٰ، عُصِيَ الله فيه؛ بتسميته ما يكرهه الله، أو بإدخاله في غير الدين الذي ارتضاه الله، أو بالزنا بأمه، أو بقتله ووأده، وغير ذلك من الأمور التي يعصي الله بفعله به أو فيه، فقد دخل في مشاركة إبليس فيه من ولد ذلك الولد له أو منه؛ لأنَّ الله لم يخصص بقوله: ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ معنىٰ الشركة فيه بمعنىٰ دون معنىٰ، فكل ما عصي الله فيه -أو به، وأطيع فيه الشيطان- أو به، فهو مشاركة.

وهذا الذي قاله مُتَّجه، وكل من السلف رحمهم الله فسر بعض المشاركة، فقد ثبت في «صحيح مسلم»، عن عياض بن حمار، أن رسول الله ﷺ قال: «**يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: إِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ، فَجَاءَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ**[2] **عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ**»[3].

وفي «الصَّحيحين»: أن رسول الله ﷺ قال: «**لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَأْتِيَ أَهْلَهُ قَالَ: بِسْمِ اللهِ، اللَّهُمَّ جَنِّبْنَا الشَّيْطَانَ وَجَنِّبِ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنَا، فَإِنَّهُ إِنْ يُقَدَّرْ بَيْنَهُمَا وَلَدٌ فِي ذَلِكَ، لَمْ يَضُرَّهُ الشَّيْطَانُ أَبَدًا**»[4].

وقوله: ﴿وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ كما أخبر تعالىٰ عن إبليس أنه يقول إذا حَصْحَصَ[5] الحقُّ يوم يقضىٰ بالحق: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ﴾ الآية [إبراهيم: ٢٢].

وقوله: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾: إخبار بتأييدِهِ تعالىٰ عباده المؤمنين، وحفظه إيَّاهم، وحراسته لهم من الشَّيطان الرجيم؛ ولهذا قال: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ أي: حافظًا ومؤيدًا وناصرًا.

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا قتيبة، حدَّثنا ابن لَهيعة، عن موسىٰ بن وَرْدَان، عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيُنْضِي شَيَاطِينَهُ كَمَا**[6] **يُنْضِي أَحَدُكُمْ بَعِيرَهُ فِي السَّفَرِ**»[7].

---

(١) في (ز): «للشياطين»، والمثبت كما في «الطبري».

(٢) أي: اسْتَخفَّتْهم، فجَالُوا معهم في الضَّلال. يقال: جَال واجْتَال: إذا ذهب وجاء، ومنه الجَوَلانُ في الحرْب، واجْتالَ الشَّيءَ: إذا ذَهَب به وسَاقَه، والجَائِل: الزَّائلُ عن مكانه، ورُوي بالحاء المهملة. «النهاية»: (١/ ٣١٧)، وانظر: «اللسان»: جول.

(٣) مسلم (٢٨٦٥).

(٤) البخاري (١٤١)، ومسلم (١٤٣٤).

(٥) أي: ظهر وبان.

(٦) لوحة (١٥٧ أ).

(٧) ضعيف: رواه أحمد (٢/ ٣٨٠)، وابن أبي الدنيا في «مكائد الشيطان»، وفيه ابن لهيعة، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (١٧٧٢).

«ينضي»: أي: يأخذ بناصيته ويقهره (١).

﴿ رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ ﴾

يخبر تعالىٰ عن لُطفِهِ بخلقه في تسخيره لعباده الفلكَ في البحر، وتسهيلها لمصالح عبادِهِ لابتغائهم مِن فضله في التِّجارة من إقليمٍ إلىٰ إقليمٍ؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ أي: إنَّما فعل هذا بكم من فضله عليكم، ورحمتِهِ بكم.

﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ ﴾

يخبر تعالىٰ: أنَّه إذا مسَّ النَّاسَ ضرٌّ دعوه مُنيبينَ إليه مخلصين له الدِّين؛ ولهذا قال: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ أي: ذهب عن قلوبكم كل ما تَعْبُدُون غير الله، كما اتَّفق لعكرمة بن أبي جهل لما ذهب فارًّا من رسولِ الله ﷺ حين فتح مكة، فذهب هاربًا، فرَكِبَ في البحر ليدخل الحبشة، فجاءتهم ريحٌ عاصفٌ، فقال القوم بعضهم لبعض: إنه لا يغنِي عنكم إلَّا أن تدعو الله وحده. فقال عكرمة في نفسه: والله لئن كان لا ينفع في البحر غيره، فإنَّه لا ينفع في البر غيره، اللَّهم لك عليَّ عهد، لئِن أخرجتني منه لأذهبنَّ فَأضعنَّ يدي في يديه، فلأجدنَّه رءوفًا رحيمًا. فخرجوا من البحر، فرجع إلىٰ رسول الله ﷺ فأسلم وحسن إسلامه، رضي الله عنه وأرضاه (٢).

وقوله: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾ أي: نَسِيتُم ما عرفتم مِن توحيده في البحر، وأعرضتم عَن دعائِهِ وحده لا شريك له.

﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾ أي: سَجِيَّتُه هذا، ينسىٰ النِّعم ويجحدها، إلَّا مَن عصم الله.

﴿ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ ﴾

يقول تعالىٰ: أفحسبتم [بخروجكم] (٣) إلىٰ البر أمنتم من انتقامه وعذابه!

﴿أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾، وهو: المطر الَّذي فيه حجارة. قاله مجاهد، وغير واحدٍ، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ ۖ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ﴾ [القمر: ٤] وقد قال في الآية الأخرىٰ: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ [هود: ٨٢] وقال: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ [الملك: ١٦، ١٧].

وقوله: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا﴾ أي: ناصرًا يرد ذلك عنكم، وينقذكم منه والله تعالىٰ أعلم.

---

(١) أي يُهْزِله ويَجْعله نِضْوا. والنِّضْو: الدابة التي أهْزَلَتْها الأسفار وأذْهَبَت لَحْمَها. «النهاية».

(٢) رواه البيهقي في «دلائل النبوة» (٥/ ٥٩)، والحاكم (٣/ ٢٤١)، وعزاه الحافظ في «الإصابة» (٢/ ٤٩٧) إلىٰ الدارقطني وابن مردويه.

(٣) في (ز): (أن نخرجكم).

﴿أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ (١) فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾﴾

يقول تعالىٰ: ﴿أَمْ أَمِنتُمْ﴾ أيُّها المعرضون عنَّا بعدما اعترفوا بتوحيدِنَا في البحر، وخرجوا إلىٰ البرِّ ﴿أَن يُعِيدَكُمْ﴾ في البحر مرَّة ثانيةً ﴿فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ﴾ أي: يقصفُ الصَّوارِي ويغرق المراكب.

قال ابن عبَّاس وغيره: «القاصف»: ريح البحار التي تكسر المَرَاكِبَ وتغرقها.

وقوله: ﴿فَيُغْرِقَكُم (٢)(٣) بِمَا كَفَرْتُمْ﴾ أي: بسبب كُفْرِكُمْ وإعراضكم عن الله تعالىٰ.

وقوله: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا﴾ قال ابن عبَّاس: نصيرًا. وقال مجاهد: نصيرًا ثائرًا؛ أي: يأخذ بثأرِكُم بعدَكُم. وقال قتادة: ولا نخاف أحدًا يتبعنا(٤) بشيءٍ مِن ذلك.

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾

يخبر تعالىٰ عن تشريفه لبني آدم، وتكريمه إيَّاهم، في خلقِهِ لهم علىٰ أحسنِ الهيئاتِ وأكملِهَا، كما قال: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤] أي: يمشي قائمًا منتصبًا علىٰ رجليه، ويأكل بيديه -وغيرُه من الحيوانات يمشي علىٰ أربع ويأكل بفمه- وجعل له سمعًا وبصرًا وفؤادًا، يفقه بذلك كله وينتفع به، ويفرق بين الأشياء، ويعرف منافعها وخواصها ومضارَّها في الأمور الدنيوية والدينية.

﴿وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ﴾ أي: علىٰ الدَّوابِّ من الأنعام والخيل والبغال، وفي ﴿وَالْبَحْرِ﴾ أيضًا علىٰ السفن الكبار والصغار.

﴿وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ أي: من زروع وثمار، ولحوم وألبانٍ، من سائر أنواع الطعوم والألوان، المشتهاة اللَّذيذة، والمناظر الحسنة، والملابس الرفيعة(٥) مِن سائر الأنواع، علىٰ اختلاف أصنافها وألوانِهَا وأشكالها، مما يصنعونه لأنفسهم، ويَجْلِبُهُ إليهم غيرهم من أقطار الأقاليم والنَّواحيْ.

﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ أي: مِن سائر الحيوانات وأصناف المخلوقات.

وقد استُدلَّ بهذه الآيَة علىٰ أفضليَّة جنس البشرِ علىٰ جنس الملائكة(٦)، قال عبد الرَّزَّاق: أخبرنا مَعْمَر،

---

(١) لوحة (١٥٧ ب). (٢) في (ز): «فنغرقكم».

(٣) متواترة: قَرَأَ (فَنُغْرِقَكُم) ابْنُ كَثِيرٍ وَأَبُو عَمْرٍو وَوَافَقَهُمَا ابْنُ مُحَيْصِنٍ، وَقَرَأَ (فَتُغْرِقَكُم) رُوَيْسٌ وَأَبُو جَعْفَرٍ بِخُلْفِ ابْنِ وَرْدَانَ، وَقَرَأَ (فَتُغَرِّقَكُم) ابْنُ وَرْدَانَ فِي وَجْهِهِ الثَّانِي، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ (فَيُغْرِقَكُم).

(٤) في (ز): «اتبعنا»، والذي في «الطبري» و«ابن أبي حاتم» و«تفسير عبد الرزاق» و«الدُّر المنثور»: «لا يتبعنا أحد بشيءٍ من ذلك»، وعند «الطبري» أيضًا عنه: «أي لا نخاف أن نتبع بشيء من ذلك».

(٥) في (ز): «المرتفعة».

(٦) سُئِلَ شَيْخُ الإِسْلام عن صالحي بني آدم، والملائكة، أيهما أفضل؟ فَأَجاب: بأن صالحي البشر أفضل باعتبار كمال النهاية، =

عن زيد بن أسلم قال: قالت الملائكة: يا ربنا، إنَّك أعطيت بني آدم الدُّنيا، يأكلونَ منها ويتنعَّمُونَ، ولم تعطنا ذلك فأعطناه في الآخرة. فقال الله: «**وَعِزَّتِي وَجَلالِي [لا أَجْعَلُ]**[١] **صَالِحَ ذُرِّيَّةِ مَنْ خَلَقْتُ بِيَدَيَّ، كَمَنْ قُلْتُ لَهُ: كُنْ فَكَانَ**»[٢].

وهذا الحديثُ مرسلٌ من هذا الوجه، وقد روي من وجه آخر متصلًا.

وقال الحافظ[٣] أبو القاسم الطبراني: حدَّثنا أحمد بن محمَّد بن صَدَقَة البغدادي، حدَّثنا إبراهيم بن عبد الله بن خالد المِصِّيصِيّ، حدَّثنا حجاج بن محمَّد، حدَّثنا أبو غسَّان محمَّد بن مطرف، عن صفوان بن سُليم، عن عطاء بن يسار، عن عبد الله بن عمرو، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**إِنَّ المَلائِكَةَ قَالَتْ: يَا رَبَّنَا، أَعْطَيْتَ بَنِي آدَمَ الدُّنْيَا، يَأْكُلُونَ فِيهَا وَيَشْرَبُونَ وَيَلْبَسُونَ، وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَلا نَأْكُلُ وَلا نَشْرَبُ وَلا نَلْهُو، فَكَمَا جَعَلْتَ لَهُمُ الدُّنْيَا فَاجْعَلْ لَنَا الآخِرَةَ. قَالَ: لا أَجْعَلُ صَالِحَ ذُرِّيَّةِ مَنْ خَلَقْتُ بِيَدَيَّ، كَمَنْ قُلْتُ لَهُ: كُنْ، فَكَانَ**»[٤].

وقد روىٰ ابن عساكر من طريق محمَّد بن أيوب الرَّازي، حدَّثنا الحسن بن علي بن خلف الصيدلاني، حدَّثنا سليمان بن عبد الرحمن، حدَّثني عثمان بن حصن بن عبيدة بن عَلَّاق، سمعت عروة بن رُوَيْم اللخمي، حدَّثني أنس بن مالك، عن رسول الله ﷺ قال: «**إِنَّ المَلائِكَةَ قَالُوا: رَبَّنَا، خَلَقْتَنَا وَخَلَقْتَ بَنِي آدَمَ، فَجَعَلْتَهُمْ يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ، وَيَشْرَبُونَ الشَّرَابَ، وَيَلْبَسُونَ الثِّيَابَ، وَيَتَزَوَّجُونَ النِّسَاءَ، وَيَرْكَبُونَ الدَّوَابَّ، وَيَنَامُونَ وَيَسْتَرِيحُونَ، وَلَمْ تَجْعَلْ لَنَا مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا، فَاجْعَلْ لَهُمُ الدُّنْيَا وَلَنَا الآخِرَةَ. فَقَالَ اللهُ ﷻ: لا أَجْعَلُ مَنْ خَلَقْتُهُ بِيَدَيَّ، وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي، كَمَنْ قُلْتُ لَهُ: كُنْ، فَكَانَ**»[٥].

وقال الطَّبراني: حدَّثنا عبدان بن أحمد، حدَّثنا عمر بن سهل، حدَّثنا عبيد الله بن تمام، عن خالد الحذَّاء،

= والملائكة أفضل باعتبار البداية؛ فإن الملائكة الآن في الرفيق الأعلىٰ متزهون عما يلابسه بنو آدم، مستغرقون في عبادة الرب، ولا ريب أن هذه الأحوال الآن أكمل من أحوال البشر، وأما يوم القيامة بعد دخول الجنة، فيصير صالحو البشر أكمل من حال الملائكة. قال ابنُ القيم: وبهذا التفصيل يتبين سر التفضيل، وتتفق أدلة الفريقين، ويصالح كل منهم علىٰ حقه. «مجموع الفتاوىٰ»: (٤/ ٣٤٣)، وانظر: (٤/ ٣٥٠) ومابعدها. وقال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ: وَأَحْسَنُ مَا يُسْتَدَلُّ بِهِ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ مَا رَوَاهُ عُثْمَانُ ابْنُ سَعِيدٍ الدَّارِمِيُّ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو مَرْفُوعًا، - وَهُوَ أَصَحُّ- قَالَ: لَمَّا خَلَقَ اللهُ الْجَنَّةَ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ: يَا رَبَّنَا اجْعَلْ لَنَا هَذِهِ نَأْكُلْ مِنْهَا وَنَشْرَبْ، فَإِنَّكَ خَلَقْتَ الدُّنْيَا لِبَنِي آدَمَ. فَقَالَ اللهُ: لَنْ أَجْعَلَ صَالِحَ ذُرِّيَّةِ مَنْ خَلَقْتُ بِيَدِي كَمَنْ قُلْتُ لَهُ: كُنْ، فَكَانَ. «البداية والنهاية»: (١/ ١٢٧)، وانظر: (١/ ١٢٦)، و«فتح الباري»: (١٣/ ٣٨٦).

(١) في (ز): «لأجعلن»، والمثبت كما في «تفسير عبد الرزاق».

(٢) **ضعيف**: رواه الطبري (١٥/ ١٢٦)، والإسناد مرسل.

(٣) لوحة (١٥٨ أ).

(٤) **موضوع**: رواية حديث عبد الله بن عمرو، رواها الطبراني في «الأوسط» (٦/ ١٩٦) وهو في الجزء المفقود من «الكبير»، وفيها طلحة بن زيد: كذَّاب. عزاه ابن كثير إلىٰ ابن أبي حاتم من طريقٍ أخرىٰ فيه خارجة بن مصعب: متروك. انظر الحديث (٥٠٤٣) الآتي.

(٥) **موضوع**: رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (١٤٩)، وفيه محمد بن أيوب الرازي: كذَّاب.

عن بشر بن شِغَاف عن أبيه، عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَا شَيْءٌ أَكْرَمُ عَلَىٰ اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنِ ابْنِ آدَمَ**». قيل: يا رسول الله، ولا الملائكة؟ قال: «**وَلَا الْمَلَائِكَةُ، الْمَلَائِكَةُ مَجْبُورُونَ بِمَنْزِلَةِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ**». وهذا حديثٌ غريبٌ جدًّا[(١)].

﴿ يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسِۭ بِإِمَٰمِهِمْۖ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلٗا ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْأٓخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ﴿٧٢﴾ ﴾[(٢)]

يخبر تبارك وتعالىٰ عن يوم القيامة: أنَّه يُحَاسِبُ كلَّ أمةٍ بإمامهم.

وقد اختلفوا في ذلك؛ فقال مجاهد وقتادة: أي بِنَبِيِّهِم. وهذا كقوله: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولٞۖ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [يونس: ٤٧].

وقال بعض السَّلف: هذا أكبر شرف لأصحابِ الحديث؛ لأنَّ إمامهم النَّبيُّ ﷺ.

وقال ابن زيد: بكتابهم الذي أُنْزِلَ علىٰ نبيِّهم، من التَّشريع.

واختاره ابن جرير، وروي عن[(٣)] ابن أبي نَجِيح، عن مجاهد أنَّه قال: بِكُتُبِهِم. فيحتمل أن يكون أرادَ هذا، وأن يكون أراد ما رواهُ العوفي عن ابن عبَّاس في قوله: ﴿ يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسِۭ بِإِمَٰمِهِمْ ﴾ أي: بكتاب أعمالِهِم، وكذا قال أبو العالية، والحسن، والضَّحَّاك. وهذا القول هو الأرجح؛ لقوله تعالىٰ: ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ ﴾ [يس: ١٢]، وقال تعالىٰ: ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا ﴾ [الكهف: ٤٩].

[ويحتمل أنَّ المراد بإمامهم: أي: كل قوم بمَنْ يأتمُّون به؛ فأهل الإيمان ائتموا بالأنبياء - عليهم السلام- وأهل الكفر ائتموا بأئمتهم، كما قال: ﴿ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةٗ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾، وفي «الصحيحين»: «**لِتَتْبَعْ كُلُّ أُمَّةٍ مَا كَانَتْ تَعْبُدُ، فَيَتْبَعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الطَّوَاغِيتَ الطَّوَاغِيتَ...**» الحديث][(٤)(٥)].

وقال تعالىٰ: ﴿ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٖ جَاثِيَةٗۚ كُلُّ أُمَّةٖ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الجاثية: ٢٨، ٢٩].

وهذا لا ينافي أن يجاء بالنَّبيِّ إذا حكم الله بين أُمَّتِه، فإنَّه لا بد أن يكون شاهدًا عليها بأعمالها، كما قال: ﴿ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ ﴾ [الزمر: ٦٩]، وقال تعالىٰ: ﴿ فَكَيْفَ

---

(١) ضعيف: رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (١/ ١٧٤)، وفيه عبيد الله بن تمام: ضعيف.

(٢) قال العلامة السعدي رحمه الله: وفي هذه الآية دليل علىٰ أن كل أمة تدعىٰ إلىٰ دينها وكتابها، هل عملت به أم لا؟ وأنهم لا يؤاخذون بشرع نبي لم يؤمروا باتباعه، وأن الله لا يعذب أحدًا إلا بعد قيام الحجة عليه ومخالفته لها.

(٣) لوحة (١٥٨ ب). (٤) سقط من (ز).

(٥) البخاري (٨٠٦)، ومسلم (١٨٢).

إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١].

ولكن المراد هاهنا بالإمام هو: كتاب الأعمال؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَٰئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ﴾ أي: من فرحته وسروره بما فيه من العمل الصالح، يقرؤه ويحب قراءته، كما قال تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ (١٩) إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ﴾ إلىٰ أن قال: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ (٢٥) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ﴾ [الحاقة: ١٩ -٢٦].

وقوله: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ قد تقدم أن «الفتيل» هو: الخيط المستطيل في شقِّ النَّواة.

وقد روىٰ الحافظ أبو بكر البزار حديثًا[١] في هذا فقال: حدَّثنا محمَّد بن مَعْمَر ومحمَّد بن عثمان ابن كَرامةَ قالا: حدَّثنا عبيد الله بن موسىٰ، عن إسرائيل، عن السُّدِّي، عن أبيه، عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ في قول الله: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾ قال: «**يُدْعَىٰ أَحَدُهُمْ فَيُعْطَىٰ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ، وَيُمَدُّ لَهُ فِي جِسْمِهِ، وَيُبَيَّضُ وَجْهُهُ، وَيُجْعَلُ عَلَىٰ رَأْسِهِ تَاجٌ مِنْ لُؤْلُؤَةٍ تَتَلَألأُ فَيَنْطَلِقُ إِلَىٰ أَصْحَابِهِ فَيَرَوْنَهُ مِنْ بَعِيدٍ، فَيَقُولُونَ: اللَّهُمَّ ائْتِنَا**[٢] **بِهَذَا، وَبَارِكْ لَنَا فِي هَذَا. فَيَأْتِيهِمْ فَيَقُولُ لَهُمْ: أَبْشِرُوا، فَإِنَّ لِكُلِّ رَجُلٍ مِنْكُمْ مِثْلَ هَذَا. وَأَمَّا الكَافِرُ فَيَسْوَدُّ وَجْهُهُ، وَيُمَدُّ لَهُ فِي جِسْمِهِ، وَيَرَاهُ أَصْحَابُهُ فَيَقُولُونَ: نَعُوذُ بِاللهِ مِنْ هَذَا -أَوْ: مِنْ شَرِّ هَذَا- اللَّهُمَّ لا تَأْتِنَا بِهِ. فَيَأْتِيهِمْ فَيَقُولُونَ: اللَّهُمَّ اخْزِهِ. فَيَقُولُ: أَبْعَدَكُمُ اللهُ**[٣]**، فَإِنَّ لِكُلِّ رَجُلٍ مِنْكُمْ مِثْلَ هَذَا**»[٤].

ثم قال البزار: لا يروىٰ إلا من هذا الوجه.

وقوله: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ قال ابن عبَّاس، ومجاهد، وقتادة، وابن زيد: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِ﴾ أي: في الحياة الدُّنيا ﴿أَعْمَىٰ﴾ عن حجج اللهِ وآياته وبيناته ﴿فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ﴾ أي: كذلك يكون ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ أي: وأضلُّ منه كما كان في الدنيا، عياذًا بالله من ذلك.

﴿وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ ۖ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا (٧٣) وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا (٧٤) إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا (٧٥)﴾

يخبر تعالىٰ: عن تأييد رسوله - صلوات الله عليه وسلامه-، وتثبيتِه، وعصمتِه وسلامتِه من شرِّ الأشرار وكيدِ الفجَّار، وأنَّه تعالىٰ هو المتولِّي أمره ونصرَهُ، وأنَّه لا يَكِلُهُ إلىٰ أحدٍ من خلقه، بل هو وَلِيُّه وحافظُهُ وناصره ومُؤيِّدُهُ ومظفره، ومظهر دينه علىٰ مَن عاداه وخالفه وناوأَهُ، في مشارق الأرض ومغاربها، صلىٰ الله عليه وسلم تسليمًا كثيرًا إلىٰ يوم الدين.

---

(١) في (ز): «حدثنا».
(٢) في (ز): «اعترينا»، والمثبت موافق لما في «البزار» و«الترمذي» وغيرهما.
(٣) لوحة (١٥٩ أ).
(٤) أخرجه البزار في «مسنده» (٩٧١٧)، ورواه الترمذي (٣١٣٦)، والحاكم (٢/ ٢٤٢)، وفيه عبد الرحمن بن أبي كريمة، قال الحافظ: مجهول الحال.

﴿وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾﴾

قيل: نزلت في اليهود؛ إذ أشاروا على رسول الله ﷺ بسُكْنَى الشَّام بلاد الأنبياء، وترك سكنى المدينة.

وهذا القول ضعيفٌ؛ لأن هذه الآية مكيةٌ، وسكنى المدينة بعد ذلك.

وقيل: إنها نزلت بتبوك. وفي صحته نظر.

قال البيهقي: عن الحاكم، عن الأصم، عن أحمد بن عبد الجبار العُطاردي، عن يونس بن بُكَيْر، عن عبد الحميد بن بَهْرَام، عن شَهْر بن حَوْشَب، عن عبد الرحمن بن غَنْم؛ أن اليهود أتوا رسول الله ﷺ يومًا فقالوا: يا أبا القاسم، إن كنت صادقًا أنك نبيٌّ فَالْحَقْ بالشَّام؛ فإنَّ الشام أرض المحشر وأرض الأنبياء. فصدَّق ما قالوا، فغزا غزوة تبوك، لا يريد إلا الشَّام. فلما بلغ تبوك أنزل الله عليه آيات من سورة «بني إسرائيل» بعد ما ختمت السورة: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾ إلى قوله: ﴿تَحْوِيلًا﴾ فأمره الله بالرجوع إلى المدينة، وقال: فيها محياك ومماتك، ومنها تبعث[(١)].

وفي هذا الإسناد[(٢)] نظرٌ. والأظهر: أن هذا ليس بصحيح؛ فإنَّ النَّبيَّ ﷺ لم يغزُ تبوكَ عن قول اليهود، إنَّما غزاها امتثالًا لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ﴾ [التوبة: ١٢٣]، وقوله تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩]. وغزاها ليقتص وينتقم ممَّن قتل أهل مؤتة، من أصحابه، والله أعلم. ولو صحَّ هذا لحمل عليه الحديث الذي رواه الوليد بن مسلم، عن عُفَير بن معدان، عن سُليم بن عامر، عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أُنزِلَ القُرْآنُ فِي ثَلَاثَةِ أَمْكِنَةٍ: مَكَّةَ، وَالمَدِينَةِ، وَالشَّامِ**»[(٣)]. قال الوليد: يعني: بيت المقدس. وتفسير الشام بتبوك أحسن مما قال الوليد: إنه بيت المقدس، والله أعلم.

وقيل: نزلت في كفَّار قريش، همُّوا بإخراج الرَّسول مِن بين أظهرهم، فتوعدهم الله بهذه الآية، وأنَّهم لو أخرجوه لما لبثوا بعده بمكَّة إلا يسيرًا. وكذلك وقع؛ فإنه لم يكن بعد[(٤)] هجرته مِن بين أظهرهم، بعد ما اشتدَّ أذاهم له، إلا سنة ونصف. حتى جمعهم اللهُ وإيَّاه ببدرٍ على غير ميعادٍ، فأمكنه منهم وسلَّطه عليهم وأظفره بهم، فقتل أشرافهم وسَبَى سَرَاتَهم؛ ولهذا قال: ﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا﴾ أي: هكذا عادتنا في الَّذين كفروا برُسُلنا وآذَوْهم: يخرج الرَّسول مِن بين أظهرهم: ويأتيهم العذابُ. ولولا أنَّه ﷺ

---

(١) ضعيف: رواه البيهقي في «دلائل النبوة» (٥/ ٢٥٤)، وفيه شهر بن حوشب كثير التدليس والأوهام، وأحمد بن عبد الجبار: ضعيف، وانظر تعليق المصنِّف بعد الحديث.

(٢) لوحة (١٥٩ ب).

(٣) ضعيف: في إسناده الوليد بن مسلم، وهو كثير التدليس والتسوية، وفيه عفير بن معدان: ضعيف.

(٤) في (ز): «بين».

رسول الرحمة، لجاءهم من النِّقَم في الدنيا ما لا قِبَلَ لأحدٍ به؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣].

﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾﴾

يقول تعالىٰ لرسوله ﷺ آمرًا له بإقامةِ الصَّلَوات المكتوباتِ في أوقاتها: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ﴾ قيل: لِغُرُوبِهَا. قاله ابن مسعود[١]، ومجاهد، وابن زيد.

وقال هُشَيْم، عن مغيرة، عن الشعبي، عن ابن عبَّاس: «دلوكها»: زوالها[٢]. ورواه نافع، عن ابن عمر[٣]. ورواه مالك في «تفسيره»، عن الزهري، عن ابن عمر. وقاله أبو بَرْزَة الأسلمي[٤] وهو رواية أيضًا عن ابن مسعود. ومجاهد. وبه قال الحسن، والضَّحَّاك، وأبو جعفر الباقر، وقتادة. واختاره ابن جرير، ومما استشهد عليه ما رواه عن ابن حميد، عن الحكم بن بشير[٥]، حدَّثنا عمرو بن قيس، عن ابن أبي ليلىٰ، [عن رجل][٦]، عن جابر بن عبد الله قال: دعوت رسول الله ﷺ ومن شاء من أصحابه فطَعِمُوا عندي، ثم خرجوا حين زالت الشمس، فخرج النَّبيُّ ﷺ فقال: «**اخْرُجْ يَا أَبَا بَكْرٍ، فَهَذَا حِينَ دَلَكَتِ الشَّمْسُ**»[٧].

ثم رواه عن سهل بن بكار، عن أبي عَوَانة، عن الأسود بن قيس، عن نُبَيْح العَنَزِي، عن جابر عن رسول الله ﷺ نحوه[٨]. فعلىٰ هذا تكون هذه الآية دخل فيها أوقات الصلاة الخمسة فمن قوله: ﴿لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ﴾ وهو: ظلامه، وقيل: غروب الشمس، أخذ منه الظهر والعصر والمغرب والعشاء، وقوله تعالىٰ: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾ يعني: صلاة الفجر.

وقد ثبتت السُّنَّة عن رسول الله ﷺ تواترًا من أفعالِهِ وأقوالِهِ بتفاصيل هذه الأوقات، علىٰ ما عليه عمل أهل الإسلام اليوم، مما تلقَّوْهُ خلفًا عن سلف، وقرنًا بعد قرن، كما هو مقررٌ في مواضعه، ولله الحمد.

﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ قال الأعمش، عن إبراهيم، عن ابن مسعود -وعن أبي صالح، عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ في هذه الآية: ﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ قال: «**تَشْهَدُهُ مَلَائِكَةُ اللَّيْلِ وَمَلَائِكَةُ النَّهَارِ**»[٩].

وقال البخاري: حدَّثنا عبد الله بن محمَّد، حدَّثنا عبد الرزَّاق، أخبرنا مَعْمَر، عن الزهري، عن أبي سلمة -

---

(١) رواه الطبراني في «الكبير» (٩/ ٢٢٠) (٩/ ٢٣١)، والحاكم (٢/ ٣٦٣) وصححه، وقال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح.
(٢) رواه الطبري (١٥/ ١٣٥). (٣) رواه الطبري (١٥/ ١٣٥).
(٤) رواه الطيالسي (٩٢١)، والطبري (١٥/ ١٣٥)، والطبراني في «مسند الشاميين» (١/ ١٠٥).
(٥) في (ز): «الحكم بن هشيم»، والمثبت كما في «الطبري»، وانظر ترجمته في «تهذيب الكمال» (٧/ ٨٩).
(٦) سقط من (ز)، وهو مثبت من «الطبري».
(٧) ضعيف: رواه الطبري (١٥/ ١٣٧)، وفيه ابن حميد: ضعيف، وابن أبي ليلىٰ: سيئ الحفظ.
(٨) رواه الطبري (١٥/ ١٣٧)، ورجاله ثقات عدا شيخ الطبري فلم أعرفه.
(٩) صحيح: رواه الترمذي (٣١٣٥)، وابن ماجة (٦٧٠).

وسعيد بن المسيب، عن أبي هريرة، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**فَضْلُ صَلاةِ الجَمِيعِ عَلَىٰ صَلاةِ الوَاحِدِ خَمْسٌ وَعِشْرُونَ دَرَجَةً، وَتَجْتَمِعُ مَلَائِكَةُ اللَّيْلِ وَمَلَائِكَةُ النَّهارِ فِي صَلَاةِ الفَجْرِ**». ويقول أبو هريرة: اقرءُوا إن شئتم: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾[(١)].

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا أَسباط، حدَّثنا الأعمش، عن إبراهيم، عن ابن مسعود، عن النَّبيِّ ﷺ -وحدَّثنا الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، عن النَّبيِّ ﷺ في قوله: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ قال: «**تَشْهَدُهُ مَلَائِكَةُ اللَّيْلِ، وَمَلَائِكَةُ النَّهارِ**»[(٢)].

ورواه التِّرمذي، والنسائي، وابن ماجه، ثلاثتهم عن عُبَيْد بن أسباط بن محمَّد، عن أبيه به، وقال التِّرمذي: حسن صحيح.

وفي لفظ في «الصحيحين»، من طريق مالك، عن أبي الزِّناد[(٣)]، عن الأعرج، عن أبي هريرة، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلَائِكَةُ اللَّيْلِ وَمَلَائِكَةُ النَّهارِ، وَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلَاةِ الصُّبْحِ وَفِي صَلَاةِ العَصْرِ، فَيَعْرُجُ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ فَيَسْأَلُهُمْ -وَهُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ- كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي؟ فَيَقُولُونَ: أَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ، وَتَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ**»[(٤)].

وقال عبد الله بن مسعود: يجتمع الحرسان في صلاة الفجر، فيصعد هؤلاء ويقيم هؤلاء. وكذا قال إبراهيم النَّخَعي، ومجاهد، وقتادة، وغير واحدٍ في تفسير هذه الآية[(٥)].

وأمَّا الحديث الذي رواه ابن جرير هاهنا -من حديث الليث بن سعد، عن زيادة، عن محمَّد بن كعب القرظي، عن فضالة بن عُبيد، عن أبي الدرداء، عن رسول الله ﷺ فذكر حديث النزول، وأنه تعالىٰ يقول: «**مَنْ يَسْتَغْفِرْنِي أَغْفِرْ لَهُ، مَنْ يَسْأَلْنِي أُعْطِهِ، مَنْ يَدْعُنِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ حَتَّىٰ [يَطْلُعَ]**[(٦)] **الفَجْرُ**». فلذلك يقول[(٧)]: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ فيشهده الله، وملائكة الليل، وملائكة النهار[(٨)]. فإنه تفرَّد به زيادة، وله بهذا حديث في «سنن أبي داود».

وقوله: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾ أمرٌ له بقيام اللَّيل بعد المكتوبة، كما ورد في «صحيح مسلم»، عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ أنَّه سُئِلَ: أي الصلاة أفضل بعد المكتوبة؟ قال: «**صَلَاةُ اللَّيْلِ**»[(٩)].

ولهذا أمر تعالىٰ رسوله بعد المكتوبات بقيام الليل؛ فإنَّ التَّهجُّد: ما كان بعد نومٍ. قاله علقمة، والأسود

---

(١) البخاري (٤٧١٧)، ومسلم (٦٤٩).
(٢) انظر الروايات السابقة.
(٣) لوحة (١٦٠ ب).
(٤) انظر التخريج السابق.
(٥) الطبراني في «الكبير» (٩/ ٢٦٥)، والطبري (١٥/ ١٣٩)، وفيه المسعودي اختلط بآخره، لكنه توبع في رواية الطبري؛ فقد تابعه قتادة عن عقبة به.
(٦) ليست في (ز).
(٧) كذا في (ز)، والذي في «الطبري»: «فذلك حين يقول».
(٨) ضعيف بهذا السياق: رواه الطبري (١٥/ ١٣٩)، وفيه زيادة بن محمد الأنصاري: منكر الحديث.
(٩) مسلم (١١٦٣).

وإبراهيم النخعي، وغير واحدٍ وهو المعروف في لغة العرب. وكذلك ثبتت الأحاديث عن رسول الله ﷺ: أنه كان يتهجد بعد نومه، عن ابن عبَّاس، وعائشة، وغير واحدٍ من الصحابة ﷺ كما هو مبسوط في موضعه، ولله الحمد والمنَّة.

وقال الحسن البصري: هو ما كان بعد العشاء. ويُحمل علىٰ ما بعد النوم.

واختُلف في معنىٰ قوله: ﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾ فقيل: معناه أنَّك مخصوصٌ بوجوب ذلك وحدك، فجعلوا قيام اللَّيل واجبًا في حقِّه دون الأُمَّةِ. رواه العوفي عن ابن عبَّاس، وهو أحد قولي العلماء، وأحد قولي الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ واختاره ابن جرير.

وقيل: إنَّما جعل قيام اللَّيل في حَقِّه نافلةً علىٰ الخصوص؛ لأنَّه قد غُفِرَ له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخَّر، وغيرهُ مِن أُمَّتِه إنَّما يكفر عنه صلواتُهُ النَّوافل الذُّنوبَ التي عليه، قاله مجاهد، وهو في «المسند» عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه(١).

وقوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ (٢) مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ أي: افعل هذا الذي أمرتك به، لنُقِيمَك يوم القيامة مقامًا يحمدك(٣) فيه الخلائِقُ كلُّهُم، وخالقهم تبارك وتعالىٰ.

قال ابن جرير: قال أكثر أهل التأويل: ذلك هو المقام الذي يقومه ﷺ يوم القيامة للشفاعة للنَّاس؛ لِيُريحَهُم ربهم من عظيم ما هم فِيهِ مِن شدَّة ذلك اليوم.

- ذِكْر من قال ذلك:

حدَّثنا ابن بشار، حدَّثنا عبد الرحمن، حدَّثنا سفيان، عن أبي إسحاق، عن صِلَةَ بن زُفَر، عن حذيفة قال: يجمع الناس في صعيدٍ واحدٍ، يُسمِعُهم الدَّاعي ويَنْفُذُهم البصرُ، حفاةً عُراةً كما خُلقوا، [قيامًا](٤)، لا تَكلَّمُ نفس إلا بإذنه، ينادي: يا محمَّد، فيقول: «**لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ، وَالخَيْرُ فِي يَدَيْكَ، وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ، وَالمَهْدِيُّ مَنْ هَدَيْتَ، وَعَبْدُكَ بَيْنَ يَدَيْكَ، وَبِكَ وَإِلَيْكَ، لا مَنْجَىٰ وَلا مَلْجَأَ مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ، تَبَارَكْتَ وَتَعَالَيْتَ، سُبْحَانَكَ رَبَّ البَيْتِ**»(٥)، فهذا المقام المحمود الذي ذكره الله عَزَّ وَجَلَّ.

ثم رواه عن بُنْدَار، عن غُنْدَر، عن شُعْبَة، عن أبي إسحاق به. وكذا رواه عبد الرزَّاق عن معمر والثوري، عن أبي إسحاق، به. وقال ابن عبَّاس: هذا المقام المحمود مقام الشفاعة. وكذا قال ابن أبي نَجِيح، عن مجاهد. وقاله الحسن البصرِيُّ. وقال قتادة: هو أول مَن تنشقُّ عنه الأرض، وأول شافعٍ، وكان أهل العلم يَرَوْنَ أنَّه المقام المحمود الذي قال الله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾.

---

(١) حسن لغيره: رواه أحمد (٥/ ٢٥٥)، وفيه شهر بن حوشب كثير الإرسال والأوهام، ورواه عبد الرزاق (٤٨٤٢)، وفيه أبو غالب الراسبي: صدوق يخطئ، وبمجموع الطريقين فالإسناد حسن، قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٥٣): رواه أحمد بإسنادين في أحدهما شهر، وفي الآخر أبو غالب، وقد وُثِّقا، وفيهما ضعف لا يضر.

(٢) لوحة (١٦١ أ).

(٣) كذا في (ز) وفي بعض المطبوعات: «يحسدك» وهو خطأ.

(٤) ليست في (ز)، وهي مثبتة في «الطبري».

(٥) صحيح: رواه الطبري (١٥/ ١٤٤)، والنسائي في «الكبرىٰ» (١٢٩٤) وهو في حكم المرفوع.

قلت: لرسول الله صلىٰ الله عليه وسلم تسليمًا، تشريفات [يوم القيامة](١) لا يَشْرَكُه فيها أحدٌ، وتشريفاتٌ لا يساويه فيها أحدٌ؛ فهو أوَّل مَن تنشقُّ عنه الأرضُ ويبعث راكبًا إلىٰ المحشر، وله اللواء الذي آدم فمن دُونَه تحت لوائه، وله الحوض الذي ليس في الموقف أكثرُ واردًا منه، وله الشَّفاعة العظمىٰ عند الله ليأتيَ لفصل القضاء بين الخلائق، وذلك بعدما يسأل النَّاس آدم ثم نوحًا ثم إبراهيم ثم موسىٰ ثم عيسىٰ، فكلٌّ يقول: «لَسْتُ لَهَا»، حتىٰ يأتوا إلىٰ محمَّد ﷺ فيقول: «أَنَا لَهَا، أَنَا لَهَا» كما سنذكر ذلك مفصلًا في هذا الموضع، إن شاء الله تعالىٰ. ومن ذلك: أنَّه يشفع في أقوامٍ قد أمر بِهِم إلىٰ النَّار، فيُرَدُّون عنها. وهو أوَّل الأنبياء يُقْضَىٰ بين أُمَّتِه، وأولهم إجازة علىٰ الصراط بأمته. وهو أول شفيعٍ في الجنة، كما ثبت في «صحيح مسلم»(٢).

وفي حديث الصُّور(٣): أن المؤمنين كلهم لا يدخلون الجنَّة إلا بشفاعته وهو أول داخلٍ إليها وأُمَّتُهُ قبل الأمم كلِّهم. ويشفع في رفع درجات أقوامٍ لا تبلغها أعمالهم. وهو صاحب الوسيلة التي هي أعلىٰ منزلةٍ في الجنَّة، لا تليق إلا له(٤). وإذا أذن الله تعالىٰ في الشفاعة للعُصَاة شفع الملائكة والنَّبيُّون والمؤمنون، فيشفع هو في خلائقَ لا يعلم عدَّتَهم إلا الله، ولا يشفع أحدٌ مثله ولا يساويه في ذلك. وقد بسطتُ ذلك مستقصًىٰ في آخر (كتاب السيرة) في (باب: الخصائص)، ولله الحمد والمنَّة.

- ولنذكر الآن الأحاديث الواردة في المقام المحمود، وبالله المستعان:

قال البخاري: حدَّثنا إسماعيل بن أبان، حدَّثنا أبو الأحوص، عن آدم بن علي، سمعت ابن عمر يقول: إنَّ النَّاس يصيرون يوم القيامة جُثًا، كلُّ أمةٍ تتبع نبيَّها، يقولون: يا فلان اشْفَعْ، يا فلان اشْفَعْ. حتىٰ تنتهي الشَّفاعة إلىٰ النَّبيِّ ﷺ؛ فذلك يوم يبعثُهُ الله مقامًا محمودًا(٥).

ورواه حمزة بن عبد الله، عن أبيه، عن النَّبيِّ ﷺ.

قال ابن جرير: حدَّثني محمَّد بن عبد الله بن عبد الحكم، حدَّثنا شعيب بن الليث، حدَّثنىٰ اللَّيث، عن عبيد الله بن أبي جعفر أنه قال: سمعتُ حمزة بن عبد الله بن عمر يقول: سمعت عبد الله بن عمر يقول: قال رسول الله ﷺ: **«إِنَّ الشَّمْسَ لَتَدْنُو حَتَّىٰ يَبْلُغَ العَرَقُ نِصْفَ الأُذُنِ، فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ اسْتَغَاثُوا بِآدَمَ، فَيَقُولُ: لَسْتُ صَاحِبَ ذَلِكَ، ثُمَّ بِمُوسَىٰ فَيَقُولُ كَذَلِكَ، ثُمَّ بِمُحَمَّدٍ فَيَشْفَعُ بَيْنَ الخَلْقِ، فَيَمْشِي حَتَّىٰ يَأْخُذَ بِحَلْقَةِ بَابِ الجَنَّةِ، فَيَوْمَئِذٍ يَبْعَثُهُ اللهُ مَقَامًا مَحْمُودًا»**(٦).

وهكذا رواه البخاري في «الزكاة» عن يحيىٰ بن بُكَيْر، وعبد الله بن صالح(٧)، كلاهما عن اللَّيث بن سعد

---

(١) سقط من (ز). (٢) مسلم (١٩٦).

(٣) تقدَّم ذكر حديث الصور. انظر رقم (٨٥١) من سورة البقرة.

(٤) لوحة (١٦١ ب). (٥) البخاري (٤٧١٨).

(٦) الطبري (١٥/ ١٤٢)، وهو عند البخاري كما في الرواية التي بعده.

(٧) في (ز): «وعلقمة بن عبد الله بن صالح»، وما أثبتناه موافق لما في «البخاري»، فإنه قال: «وزاد عبد الله». قال البدر العيني: هو عبد الله بن صالح كاتب الليث، دلسه البخاري. وانظر: «عمدة القاري» (١٤/ ١٣).

=

به، وزاد: «فَيَوْمَئِذٍ يَبْعَثُهُ اللهُ مَقَامًا مَحْمُودًا، يَحْمَدُهُ أَهْلُ الجَمْعِ كُلُّهُمْ»[(١)].

قال البخاري: وحدَّثنا علي بن عيَّاش، حدَّثنا شعيب بن أبي حَمْزة، عن محمَّد بن المُنْكَدِر، عن جابر بن عبد الله؛ أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ قَالَ حِينَ يَسْمَعُ النِّدَاءَ: اللَّهُمَّ رَبَّ هَذِهِ الدَّعْوَةِ التَّامَّةِ، وَالصَّلَاةِ القَائِمَةِ، آتِ مُحَمَّدًا الوَسِيلَةَ وَالفَضِيلَةَ، وَابْعَثْهُ مَقَامًا مَحْمُودًا الَّذِي وَعَدْتَهُ، حَلَّتْ لَهُ شَفَاعَتِي يَوْمَ القِيَامَةِ». انفرد به دون مسلم[(٢)].

- حديث أُبَيٍّ:

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا أبو عامر الأزدي، حدَّثنا زهير بن محمَّد، عن عبد الله بن محمَّد بن عَقِيل، عن الطُّفَيل بن أبي بن كعب، عن أبيه، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «إِذَا كَانَ يَوْمُ القِيَامَةِ، كُنْتُ إِمَامَ الأَنْبِيَاءِ وَخَطِيبَهُمْ، وَصَاحِبَ شَفَاعَتِهِمْ غَيْرَ فَخْرٍ»[(٣)].

وأخرجه التِّرمذي من حديث أبي عامر عبد الملك بن عَمْرو العَقَديّ، وقال: «حسن صحيح». وابن ماجة من حديث عبد الله بن محمَّد بن عقيل به. وقد قدمنا في حديث: «أبي بن كعب» في قراءة القرآن على سبعة[(٤)] أحرف، قال رسول الله ﷺ في آخره: «فَقُلْتُ: اللَّهُمَّ، اغْفِرْ لِأُمَّتِي، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِأُمَّتِي، وَأَخَّرْتُ الثَّالِثَةَ لِيَوْمٍ يَرْغَبُ إِلَيَّ فِيهِ الخَلْقُ، حَتَّى إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ»[(٥)].

- حديث أنس بن مالك رضي الله عنه:

قال الإمام أحمد: حدَّثنا يحيى بن سعيد، حدَّثنا سعيد بن أبي عَرُوبة، حدَّثنا قتادة، عن أنس، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «يَجْتَمِعُ المُؤْمِنُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ، فَيُلْهَمُونَ ذَلِكَ فَيَقُولُونَ: لَوِ اسْتَشْفَعْنَا عَلَى رَبِّنَا، فَأَرَاحَنَا مِنْ مَكَانِنَا هَذَا. فَيَأْتُونَ آدَمَ فَيَقُولُونَ: يَا آدَمُ، أَنْتَ أَبُو البَشَرِ، خَلَقَكَ اللهُ بِيَدِهِ، وَأَسْجَدَ لَكَ مَلَائِكَتَهُ، وَعَلَّمَكَ أَسْمَاءَ كُلِّ شَيْءٍ، فَاشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ حَتَّى يُرِيحَنَا مِنْ مَكَانِنَا هَذَا. فَيَقُولُ لَهُمْ آدَمُ: لَسْتُ هُنَاكُمْ، وَيَذْكُرُ ذَنْبَهُ الَّذِي أَصَابَ، فَيَسْتَحْيِي رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ ذَلِكَ، وَيَقُولُ: وَلَكِنِ ائْتُوا نُوحًا، فَإِنَّهُ أَوَّلُ رَسُولٍ بَعَثَهُ اللهُ إِلَى أَهْلِ الأَرْضِ. فَيَأْتُونَ نُوحًا فَيَقُولُ: لَسْتُ هُنَاكُمْ، وَيَذْكُرُ خَطِيئَةَ سُؤَالِهِ رَبَّهُ مَا لَيْسَ لَهُ بِهِ عِلْمٌ، فَيَسْتَحْيِي رَبَّهُ مِنْ ذَلِكَ، وَلَكِنِ ائْتُوا إِبْرَاهِيمَ خَلِيلَ الرَّحْمَنِ. فَيَأْتُونَهُ فَيَقُولُ: لَسْتُ هُنَاكُمْ، وَلَكِنِ ائْتُوا مُوسَى، عَبْدًا كَلَّمَهُ اللهُ، وَأَعْطَاهُ التَّوْرَاةَ. فَيَأْتُونَ مُوسَى فَيَقُولُ: لَسْتُ هُنَاكُمْ، وَيَذْكُرُ لَهُمُ النَّفْسَ الَّتِي قَتَلَ بِغَيْرِ نَفْسٍ فَيَسْتَحْيِي رَبَّهُ مِنْ ذَلِكَ، وَلَكِنِ ائْتُوا

= * وعبارة العيني: «أما عبد الله بن صالح ففيه مقال: قال ابن عدي: سقيم الحديث، ولكن البخاري روى عنه في «صحيحه» على الصحيح، ولكنه يدلس [يقصد البخاري]، فيقول: حدثنا عبد الله ولا ينسبه، وهو هو...».

- وهذا الكلام على أقصى تقدير يتعلق بتدليس الشيوخ، وليس هذا بمطعن عند المحققين، وإلا فنسبة البخاري للتدليس مردودة، وراجع كلام العراقي وابن الصلاح كما في «التبيين لأسماء المدلسين» (ص٤٨، ٤٩) لسبط ابن العجمي الشافعي.

(١) البخاري (١٤٧٤، ١٤٧٥).

(٢) البخاري (٥٢٩)، وأبو داود (٥٢٩)، والترمذي (٢١١)، والنَّسائي (٢/ ٢٦)، وابن ماجة (٧٢٢).

(٣) ضعيف: رواه أحمد (٥/ ١٣٧)، والترمذي (٣٦١٣)، وابن ماجة (٤٣١٤)، ومداره على عبد الله بن محمد بن عقيل: صدوق في حديثه لين، وحديثه مختلف فيه، والراجح: تضعيفه.

(٤) لوحة (١٦٢ أ).

(٥) مسلم (٨٢٠).

عِيسَىٰ عَبْدَ اللهِ وَرَسُولَهُ، وَكَلِمَتَهُ وَرُوحَهُ، فَيَأْتُونَ عِيسَىٰ فَيَقُولُ: لَسْتُ هُنَاكُمْ، وَلَكِنِ ائْتُوا مُحَمَّدًا عَبْدًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ فَيَأْتُونِي». قال الحسن هذا الحرف[١]: «فَأَقُومُ فَأَمْشِي بَيْنَ سِمَاطَيْنِ[٢] مِنَ الْمُؤْمِنِينَ». قال أنس: «حَتَّىٰ أَسْتَأْذِنَ عَلَىٰ رَبِّي، فَإِذَا رَأَيْتُ رَبِّي وَقَعْتُ لَهُ -أَوْ: خَرَرْتُ- سَاجِدًا لِرَبِّي، فَيَدَعُنِي مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَدَعَنِي». قال: «ثُمَّ يُقَالُ: ارْفَعْ مُحَمَّدُ، قُلْ يُسْمَعْ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، وَسَلْ تُعْطَهْ. فَأَرْفَعُ رَأْسِي، فَأَحْمَدُهُ بِتَحْمِيدٍ يُعَلِّمُنِيهِ، ثُمَّ أَشْفَعُ فَيَحُدُّ لِي حَدًّا، فَأُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ. ثُمَّ أَعُودُ إِلَيْهِ الثَّانِيَةَ، فَإِذَا رَأَيْتُ رَبِّي وَقَعْتُ -أَوْ: خَرَرْتُ- سَاجِدًا لِرَبِّي، فَيَدَعُنِي مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَدَعَنِي. ثُمَّ يُقَالُ: ارْفَعْ مُحَمَّدُ، قُلْ يُسْمَعْ، وَسَلْ تُعْطَهْ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ. فَأَرْفَعُ رَأْسِي فَأَحْمَدُهُ بِتَحْمِيدٍ يُعَلِّمُنِيهِ، ثُمَّ أَشْفَعُ فَيَحُدُّ لِي حَدًّا، فَأُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ، ثُمَّ أَعُودُ فِي الثَّالِثَةِ؛ فَإِذَا رَأَيْتُ رَبِّي وَقَعْتُ -أَوْ: خَرَرْتُ- سَاجِدًا لِرَبِّي، فَيَدَعُنِي مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَدَعَنِي، ثُمَّ يُقَالُ: ارْفَعْ مُحَمَّدُ، قُلْ يُسْمَعْ، وَسَلْ تُعْطَهْ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ. فَأَرْفَعُ رَأْسِي فَأَحْمَدُهُ بِتَحْمِيدٍ يُعَلِّمُنِيهِ ثُمَّ أَشْفَعُ فَيَحُدُّ لِي حَدًّا فَأُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ. ثُمَّ أَعُودُ فِي الرَّابِعَةِ فَأَقُولُ: يَا رَبِّ، مَا بَقِيَ إِلَّا مَنْ حَبَسَهُ الْقُرْآنُ»[٣]. فحدَّثنا أنس بن مالك[٤] أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «فَيَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ: لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ. وَكَانَ فِي قَلْبِهِ مِنَ الْخَيْرِ مَا يَزِنُ شَعِيرَةً، ثُمَّ يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ: لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ. وَكَانَ فِي قَلْبِهِ مِنَ الْخَيْرِ مَا يَزِنُ بُرَّةً ثُمَّ يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ: لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ. وَكَانَ فِي قَلْبِهِ مِنَ الْخَيْرِ مَا يَزِنُ ذَرَّةً». أخرجاه [في «الصَّحيح»][٥] من حديث سعيد به، وهكذا رواه الإمام أحمد عن عفان، عن حمَّاد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس بطوله[٦].

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا يونس بن محمَّد، حدَّثنا حرب بن ميمون أبو الخطاب الأنصاري، عن النَّضر ابن أنس، عن أنس قال: حدَّثني نبي الله ﷺ قال: «إِنِّي لَقَائِمٌ أَنْتَظِرُ أُمَّتِي تَعْبُرُ الصِّرَاطَ، إِذْ جَاءَنِي عِيسَىٰ عليه السلام فَقَالَ: هَذِهِ الأَنْبِيَاءُ قَدْ جَاءَتْكَ يَا مُحَمَّدُ يَسْأَلُونَ -أَوْ قَالَ: يَجْتَمِعُونَ إِلَيْكَ- وَيَدْعُونَ اللهَ أَنْ يُفَرِّقَ بَيْنَ جَمِيعِ الأُمَمِ إِلَىٰ حَيْثُ يَشَاءُ اللهُ، لِغَمِّ مَا هُمْ فِيهِ، فَالْخَلْقُ مُلْجَمُونَ بِالْعَرَقِ، فَأَمَّا الْمُؤْمِنُ فَهُوَ عَلَيْهِ كَالزُّكْمَةِ، وَأَمَّا الْكَافِرُ فَيَغْشَاهُ الْمَوْتُ، فَقَالَ: انْتَظِرْ حَتَّىٰ أَرْجِعَ إِلَيْكَ. فَذَهَبَ نَبِيُّ اللهِ ﷺ فَقَامَ تَحْتَ الْعَرْشِ، فَلَقِيَ مَا لَمْ يَلْقَ مَلَكٌ مُصْطَفَىٰ وَلا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ. فَأَوْحَىٰ اللهُ عز وجل إِلَىٰ جِبْرِيلَ: أَنِ اذْهَبْ إِلَىٰ مُحَمَّدٍ، وَقُلْ لَهُ: ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَسَلْ تُعْطَهْ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ. فَشَفَعْتُ فِي أُمَّتِي: أَنْ أُخْرِجَ مِنْ كُلِّ تِسْعَةٍ وَتِسْعِينَ إِنْسَانًا وَاحِدًا. فَمَا زِلْتُ أَتَرَدَّدُ إِلَىٰ رَبِّي عز وجل فَلا أَقُومُ مِنْهُ مَقَامًا إِلَّا شَفَعْتُ، حَتَّىٰ أَعْطَانِي اللهُ مِنْ ذَلِكَ، أَنْ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أَدْخِلْ [مِنْ أُمَّتِكَ][٧] مِنْ خَلْقِ اللهِ عز وجل مَنْ شَهِدَ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ يَوْمًا وَاحِدًا مُخْلِصًا وَمَاتَ عَلَىٰ ذَلِكَ»[٨].

---

(١) في (ز): «الخوف»، والمثبت موافق لما في «المسند». (٢) قال السندي: أي: بين صفين من الناس.

(٣) قال النووي رحمه الله: (أي: وجب عليه الخلود [كما فسره قتادة في بعض الطرق]، ومعناه: من أخبر القرآن أنه مخلد في النار، وهم الكفار). اهـ.

(٤) لوحة (١٦٢ ب). (٥) ليست في (ز).

(٦) البخاري (٤٤٧٦، ٦٥٦٥)، ومسلم (١٩٣)، وأحمد (٣/ ١١٦)، وابن ماجة (٤٣١٢).

(٧) سقط من (ز)، وهو مثبت من «المسند». (٨) حسن: رواه أحمد (٣/ ١٧٨).

- حديث بريدة رضي الله عنه:

قال الإمام أحمد بن حنبل: حدَّثنا الأسود بن عامر، أخبرنا أبو إسرائيل، عن الحارث بن حَصِيرة، عن ابن بُرَيْدة، عن أبيه: أنَّه دخل على معاوية، فإذا رجل يتكلَّم، فقال بريدةُ: يا معاويةُ، تأذن لي في الكلام؟ فقال: نعم - وهو يرى أنَّه يتكلَّم بمثل ما قال الآخر- فقال بريدة: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ أَشْفَعَ يَوْمَ القِيَامَةِ عَدَدَ مَا عَلَىٰ الأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ وَمَدَرَةٍ»[1]. قال: فترجوها أنت يا معاويةُ، ولا يرجوها عليٌّ رضي الله عنه؟![2].

- حديث ابن مسعود رضي الله عنه:

قال الإمام أحمد: حدَّثنا عارم بن الفضل[3]، حدَّثنا سعيد بن زيد، حدَّثنا علي بن الحكم البُنَاني، عن عثمان، عن إبراهيم، عن علقمة والأسود، عن ابن مسعود قال: جاء ابنا مُلَيكة إلى النَّبيِّ ﷺ فقالا: إنَّ أُمَّنا [كانت][4] تُكْرِمُ الزَّوج، وتَعْطِفُ على الولد -قال: وذكرا الضَّيف- غير أنها كانت[5] وَأَدَتْ[6] في الجاهلية؟ فقال: «أُمُّكُمَا فِي النَّارِ». قال: فأدبرا والسوء يُرَىٰ في وجوههما، فأمر بهما فرُدَّا، فَرَجَعَا والسُّرور[7] يُرَىٰ في وجوههما؛ رجاءَ أن يكون قد حدثَ شيءٌ، فقال: «أُمِّي مَعَ أُمِّكُمَا». فقال رجلٌ من المنافقين: وما يغني هذا عن أُمِّه شيئًا! ونحن نطأُ عَقِبَيْهِ[8]. فقال رجل من الأنصار - ولم أرَ رجلًا قطُّ أكثر سؤالًا منه-: يا رسول الله، هل وعدك ربك فيها أو فيهما؟ قال: فظَنَّ أنَّه مِن شيءٍ قد سمعه، فقال: «مَا شَاءَ اللهُ رَبِّي وَمَا أَطْمَعَنِي فِيهِ، وَإِنِّي لَأَقُومُ المَقَامَ المَحْمُودَ يَوْمَ القِيَامَةِ». فقالَ الأنصاريُّ: يا رسول الله، وما ذاك المقام المحمود؟ قال: «ذَاكَ إِذَا جِيءَ بِكُمْ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا[9] فَيَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُكْسَىٰ إِبْرَاهِيمُ عليه السلام فَيَقُولُ: اكْسُوا خَلِيلِي. فَيُؤْتَىٰ بِرَيْطَتَيْنِ[10] بَيْضَاوَيْنِ، فَيَلْبَسُهُمَا ثُمَّ يُقْعِدُهُ مُسْتَقْبِلَ العَرْشِ، ثُمَّ أُوتَىٰ بِكِسْوَتِي فَأَلْبَسُهَا، فَأَقُومُ عَنْ يَمِينِهِ مَقَامًا لَا يَقُومُهُ أَحَدٌ، فَيَغْبِطُنِي فِيهِ الأَوَّلُونَ وَالآخِرُونَ. وَيُفْتَحُ نَهْرٌ[11] مِنَ الكَوْثَرِ إِلَىٰ الحَوْضِ». فقال المنافقون: إنه ما جرى ماءٌ قطُّ إلا على حالٍ أو رضراض[12]. فقال رسول الله ﷺ: «حَالُهُ المِسْكُ، وَرَضْرَاضُهُ التُّومُ[13]»[14]. [قال المنافق: لم أسمع كاليوم. قلَّما جرى ماء قطُّ على حالٍ أو رضراضٍ، إلا كان له نبتةٌ. فقال الأنصاري: يا رسول الله، هل له نبت؟ قال «نَعَمْ، قُضْبَانُ الذَّهَبِ»][15]. قال المنافق: لم أسمع كاليَوْمِ، فإنَّه قلَّما ينبت قضيب إلا أورقَ[16]،

---

(١) المَدَر: قطع الطين اليابس، واحده: مدرة.

(٢) ضعيف: رواه أحمد (٥/ ٣٤٧)، وفيه الحارث بن حصيرة: صدوق يخطئ، وأبو إسرائيل إسماعيل بن خليفة: سيئ الحفظ مع أنه صدوق.

(٣) زاد هنا في (ز): «عن سعيد بن الفضل»، والمثبت كما في «المسند».

(٤) سقط من (ز)، وهو مثبت من «المسند».

(٥) لوحة (١٦٣ أ).

(٦) الوأد: دفن البنت حية.

(٧) في (ز): «والسوء»، والمثبت كما في «المسند».

(٨) أي: نتبعه في الدِّين.

(٩) أي: غير مختونين.

(١٠) الريطة: الثوب الرقيق اللين.

(١١) في (ز): «ويفتح لهم».

(١٢) الرَّضراض: الحصىٰ أو صغارها.

(١٣) اللؤلؤ.

(١٤) التُّوم: الدر.

(١٥) سقط من (ز)، وهو مثبت من «المسند».

(١٦) الأورق من كل شيء ما كان لونه لون الرماد. وأَوْرق -أيضًا: ما كان له أوراق.

وإلا كان له ثمر! قال الأنصاري: يا رسول الله، هل له ثمرةٌ؟ قال: «**نَعَمْ، أَلْوَانُ الجَوْهَرِ، وَمَاؤُهُ أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ اللَّبَنِ، وَأَحْلَىٰ مِنَ العَسَلِ، مَنْ شَرِبَ مِنْهُ شَرْبَةً لا يَظْمَأْ بَعْدَهُ، وَمَنْ حُرِمَهُ لَمْ يَرْوَ بَعْدَهُ**»(١).

وقال أبو داود الطيالسي: حدَّثنا يحيىٰ بن سَلَمَة بن كُهَيْل، عن أبيه، عن أبي الزَّعْرَاء، عن عبد الله قال: ثم يأذن الله عَجَّلَ في الشَّفاعة، فيقوم روح القدس جبريل، ثم يقوم إبراهيم خليل الله، ثم يقوم عيسىٰ أو موسىٰ - قال أبو الزعراء: لا أدري أيُّهما- قال: ثمَّ يقوم نبيكم ﷺ رابعًا، فيشفع لا يشفع أحدٌ بعده أكثر مما شفع، وهو المقام المحمود الَّذي قال الله عَجَّلَ: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾(٢).

- حديث كعب بن مالك رضي الله عنه:

قال الإمام أحمد: حدَّثنا يزيد بن عبد ربه، حدَّثنا محمَّد بن حرب، حدَّثنا الزبيدي، عن الزهري، عن عبد الرحمن بن عبد الله [بن كعب](٣) بن مالك، عن كعب بن مالك، أن رسول الله ﷺ قال: «**يُبْعَثُ النَّاسُ يَوْمَ القِيَامَةِ، فَأَكُونُ أَنَا وَأُمَّتِي عَلَىٰ تَلٍّ، وَيَكْسُونِي رَبِّي عَجَّلَ حُلَّةً خَضْرَاءَ(٤) ثُمَّ يُؤْذَنُ لِي فَأَقُولُ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ أَقُولَ، فَذَلِكَ المَقَامُ المَحْمُودُ**»(٥).

- حديث أبي الدرداء رضي الله عنه:

قال الإمام أحمد: حدَّثنا حسن، حدَّثنا ابن(٦) لَهِيعة، حدَّثنا يزيد بن أبي حبيب، عن عبد الرحمن بن جُبَير، عن أبي الدرداء، قال: قال رسول الله ﷺ: «**أَنَا أَوَّلُ مَنْ يُؤْذَنُ لَهُ بِالسُّجُودِ يَوْمَ القِيَامَةِ، وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ يُؤْذَنُ لَهُ أَنْ يَرْفَعَ رَأْسَهُ، فَأَنْظُرُ إِلَىٰ مَا بَيْنَ يَدَيَّ، فَأَعْرِفُ أُمَّتِي مِنْ بَيْنِ الأُمَمِ، وَمِنْ خَلْفِي مِثْلُ ذَلِكَ، وَعَنْ يَمِينِي مِثْلُ ذَلِكَ، وَعَنْ شِمَالِي مِثْلُ ذَلِكَ**». فقال رجلٌ: يا رسول الله، كيف تعرف أُمَّتك مِن بين الأمم، فيما بين نوح إلىٰ أمتك؟ قال: «**هُمْ غُرٌّ مُحَجَّلُونَ، مِنْ أَثَرِ الوُضُوءِ، لَيْسَ أَحَدٌ كَذَلِكَ غَيْرُهُمْ، وَأَعْرِفُهُمْ أَنَّهُمْ يُؤْتَوْنَ كُتُبَهُمْ بِأَيْمَانِهِمْ، وَأَعْرِفُهُمْ تَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ذُرِّيَّتُهُمْ**»(٧).

- حديث أبي هريرة رضي الله عنه:

قال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ: حدَّثنا يحيىٰ بن سعيد، حدَّثنا أبو حَيَّان، حدَّثنا أبو زُرْعَة بن عمرو بن جرير، عن أبي هريرة، قال: أُتِيَ رسول الله ﷺ بلحمٍ، فَرُفع إليه الذراع -وكانت تعجبه- [فنهَسَ(٨) منها نَهسةً](٩)، ثم قال: «**أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ القِيَامَةِ، وَهَلْ تَدْرُونَ مِمَّ ذَاكَ؟ يَجْمَعُ اللهُ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ فِي**

---

(١) ضعيف: رواه أحمد (١/ ٣٩٨)، فيه عثمان وهو ابن عمير البَجَلي: ضعيف.

(٢) ضعيف: رواه الطيالسي (٣٨٩٠)، والطبري (١٥/ ١٢٤)، وفيه أبو الزعراء: ضعيف.

(٣) ليست في (ز)، وهي مثبتة من «المسند»، وانظر: «تهذيب الكمال» (٣٤/ ٤٧١).

(٤) في (ز): «حمراء»، والمثبت كما في «المسند».

(٥) صحيح: رواه أحمد (٣/ ٤٥٦)، وابن حبان (٦٤٧٩).

(٦) لوحة (١٦٣ ب).

(٧) حسن لغيره: رواه أحمد (٥/ ١٩٩)، وفي سنده ابن لهيعة: اختلط، لكن تابعه الليث بن سعد عند الحاكم (٢/ ٤٨٧)، وفي إسناده عبد الله بن صالح كاتب الليث: صدوق كثير الغلط، وبمجموعهما فالحديث حسن لغيره.

(٨) أي: أخذ بمقدَّم أسنانه منها.

(٩) في (ز): «فنهشَ منها نهشةً»، قال النووي: كلاهما صحيح.

صَعِيدٍ وَاحِدٍ، يُسْمِعُهُمُ الدَّاعِي وَيَنْفُذُهُمُ البَصَرُ، وَتَدْنُو الشَّمْسُ فَيَبْلُغُ النَّاسَ مِنَ الغَمِّ وَالكَرْبِ مَا لَا يُطِيقُونَ وَلَا يَحْتَمِلُونَ. فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ: [أَلَا تَرَوْنَ إِلَىٰ مَا أَنْتُمْ فِيهِ؟ أَلَا تَرَوْنَ إِلَىٰ مَا قَدْ بَلَغَكُمْ؟ أَلَا تَنْظُرُونَ مَنْ يَشْفَعُ لَكُمْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ ﷻ؟ فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ](١): أَبُوكُمْ آدَمُ!.

فَيَأْتُونَ آدَمَ، فَيَقُولُونَ: يَا آدَمُ، أَنْتَ أَبُو البَشَرِ، خَلَقَكَ اللهُ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ، وَأَمَرَ المَلَائِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ؛ فَاشْفَعْ لَنَا إِلَىٰ رَبِّكَ، أَلَا تَرَىٰ مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَىٰ مَا قَدْ بَلَغَنَا؟ فَيَقُولُ آدَمُ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ اليَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنَّهُ نَهَانِي عَنِ الشَّجَرَةِ فَعَصَيْتُهُ، نَفْسِي، نَفْسِي، نَفْسِي!(٢) اذْهَبُوا إِلَىٰ غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَىٰ نُوحٍ.

فَيَأْتُونَ نُوحًا فَيَقُولُونَ: يَا نُوحُ، أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَىٰ أَهْلِ الأَرْضِ، وَسَمَّاكَ اللهُ عَبْدًا شَكُورًا، اشْفَعْ لَنَا إِلَىٰ رَبِّكَ، أَلَا تَرَىٰ مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَىٰ مَا قَدْ بَلَغَنَا؟ فَيَقُولُ نُوحٌ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ اليَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنَّهُ كَانَتْ لِيَ دَعْوَةٌ عَلَىٰ قَوْمِي، نَفْسِي، نَفْسِي، نَفْسِي! اذْهَبُوا إِلَىٰ غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ.

فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ فَيَقُولُونَ: يَا إِبْرَاهِيمُ، أَنْتَ نَبِيُّ اللهِ وَخَلِيلُهُ مِنْ أَهْلِ الأَرْضِ، [اشْفَعْ لَنَا إِلَىٰ رَبِّكَ](٣) أَلَا تَرَىٰ مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَىٰ مَا قَدْ بَلَغَنَا؟ فَيَقُولُ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ اليَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، فَذَكَرَ كَذَبَاتِهِ(٤)، نَفْسِي، نَفْسِي، نَفْسِي [اذْهَبُوا إِلَىٰ غَيْرِي](٥)، اذْهَبُوا إِلَىٰ مُوسَىٰ.

فَيَأْتُونَ مُوسَىٰ فَيَقُولُونَ: يَا مُوسَىٰ، أَنْتَ رَسُولُ اللهِ، اصْطَفَاكَ اللهُ بِرِسَالَاتِهِ وَبِتَكْلِيمِهِ عَلَىٰ النَّاسِ، اشْفَعْ لَنَا إِلَىٰ رَبِّكَ، أَلَا تَرَىٰ مَا نَحْنُ فِيهِ؟(٦) أَلَا تَرَىٰ مَا قَدْ بَلَغَنَا؟ فَيَقُولُ لَهُمْ مُوسَىٰ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ اليَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنِّي قَتَلْتُ نَفْسًا لَمْ أُومَرْ بِقَتْلِهَا، نَفْسِي، نَفْسِي، نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَىٰ غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَىٰ عِيسَىٰ.

فَيَأْتُونَ عِيسَىٰ فَيَقُولُونَ: يَا عِيسَىٰ، أَنْتَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ -قَالَ: هَكَذَا هُوَ- وَكَلَّمْتَ النَّاسَ فِي المَهْدِ، فَاشْفَعْ لَنَا إِلَىٰ رَبِّكَ، أَلَا تَرَىٰ مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَىٰ مَا قَدْ بَلَغَنَا؟ فَيَقُولُ لَهُمْ عِيسَىٰ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ اليَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَلَمْ يَذْكُرْ ذَنْبًا، اذْهَبُوا إِلَىٰ غَيْرِي؛ اذْهَبُوا إِلَىٰ مُحَمَّدٍ.

---

(١) سقط من (ز)، وهي مثبتة من «المسند».

(٢) كذا في (ز) كررت كلمة «نفسي» ثلاث مرات، وهو موافق لما في «البخاري»، وفي «مسلم» مرتان، وفي «المسند» أربع مرات.

(٣) سقط من (ز)، وهي مثبتة من «المسند».

(٤) وهي قوله لقومه: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾، وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾، وقوله في الكوكب: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾، وقوله للنمرود عن زوجه سارة: إنها أختي. وكلام الخليل ﷺ هذا من باب المعاريض، وفي المعاريض مندوحة عن الكذب. ينظر: «تلخيص الاستغاثة» لابن تيمية: (٢/ ٧٢٤)، و«فتح الباري»: (٦/ ٣٩١) وما بعدها.

(٥) سقط من (ز)، وهي مثبتة من «المسند».

(٦) لوحة (١٦٤ أ).

فَيَأْتُونِي فَيَقُولُونَ: يَا مُحَمَّدُ، أَنْتَ رَسُولُ اللهِ، وَخَاتَمُ الأَنْبِيَاءِ، غَفَرَ اللهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ، فَاشْفَعْ لَنَا إِلَىٰ رَبِّكَ، أَلَا تَرَىٰ مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَىٰ مَا قَدْ بَلَغَنَا؟ فَأَقُومُ فَآتِي تَحْتَ الْعَرْشِ، فَأَقَعُ سَاجِدًا لِرَبِّي ﷿ ثُمَّ يَفْتَحُ اللهُ عَلَيَّ، وَيُلْهِمُنِي مِنْ مَحَامِدِهِ وَحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ مَا لَمْ يَفْتَحْهُ عَلَىٰ أَحَدٍ قَبْلِي. فَيُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ، ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَسَلْ تُعْطَهْ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ. فَأَقُولُ: يَا رَبِّ، أُمَّتِي أُمَّتِي، يَا رَبِّ، أُمَّتِي أُمَّتِي، يَا رَبِّ، أُمَّتِي أُمَّتِي! فَيُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ: أَدْخِلْ مِنْ أُمَّتِكَ مَنْ لَا حِسَابَ عَلَيْهِ مِنَ الْبَابِ الأَيْمَنِ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ، وَهُمْ شُرَكَاءُ النَّاسِ فِيمَا سِوَاهُ مِنَ الأَبْوَابِ». ثم قال: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَمَا بَيْنَ مِصْرَاعَيْنِ مِنْ مَصَارِيعِ الْجَنَّةِ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَهَجَرٍ(١)، أَوْ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَبُصْرَىٰ». أخرجاه في «الصَّحيحين»(٢).

وقال مسلم ﵀: حدَّثنا الحكم بن موسىٰ، حدَّثنا هِقْل بن زياد، عن الأوزاعي، حدَّثني أبو عمار، حدَّثني عبد الله بن فرُّوخ، حدَّثني أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَوَّلُ مَنْ يَنْشَقُّ عَنْهُ الْقَبْرُ، وَأَوَّلُ شَافِعٍ، وَأَوَّلُ مُشَفَّعٍ»(٣).

وقال ابن جرير: حدَّثنا أبو كُرَيْب، حدَّثنا وَكِيع، عن داود بن يزيد الزَّعافري، عن أبيه، عن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾، سئل عنها فقال: «هِيَ الشَّفَاعَةُ»(٤).

رواه الإمام أحمد عن وكيع [و](٥) عن محمَّد بن عبيد، عن داود، عن أبيه، عن أبي هريرة، عن النَّبيِّ ﷺ في قوله تعالىٰ: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ قال: «هُوَ الْمَقَامُ الَّذِي أَشْفَعُ لِأُمَّتِي فِيهِ»(٦).

وقال عبد الرزَّاق: أخبرنا معْمَر، عن الزهري، عن علي بن الحسين قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، مَدَّ اللهُ الأَرْضَ(٧) مَدَّ الأَدِيمِ، حَتَّىٰ لَا يَكُونَ لِبَشَرٍ مِنَ النَّاسِ إِلَّا مَوْضِعُ قَدَمِهِ». قال النَّبيُّ ﷺ: «فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُدْعَىٰ(٨)، وَجِبْرِيلُ عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ وَاللهِ مَا رَآهُ قَبْلَهَا، فَأَقُولُ: رَبِّ، إِنَّ هَذَا أَخْبَرَنِي أَنَّكَ أَرْسَلْتَهُ إِلَيَّ. فَيَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: صَدَقَ، ثُمَّ أَشْفَعُ. فَأَقُولُ: يَا رَبِّ عِبَادُكَ عَبَدُوكَ فِي أَطْرَافِ الأَرْضِ»، قال: «فَهُوَ الْمَقَامُ الْمَحْمُودُ»(٩)، وهذا حديثٌ مرسلٌ.

﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ۝٨٠ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ۝٨١﴾

---

(١) هَجَر: مدينة هي قاعدة البحرين، وقيل: ناحية البحرين كلها هجر، وقيل: الهجر بلد باليمن، وبُصْرَىٰ: قصبة كُورَة حُوران بالشام.

(٢) البخاري (٣٣٤٠)، ومسلم (١٩٤)، وأحمد (٢/ ٤٣٥).

(٣) مسلم (٢٢٧٨)، وأبو داود (٤٦٧٣).

(٤) حسن لغيره: رواه الطبري (١٥/ ١٤٥)، وأحمد (٢/ ٤٤٤)، والترمذي (٣١٣٧) وحسنه، يعني (حسن لغيره)؛ ففي إسناده داود بن يزيد: ضعيف، وأبوه: مقبول، لكن يشهد له الأحاديث المذكورة في الباب.

(٥) سقطت الواو من (ز) والصواب إثباتها، فالحديث رواه أحمد في «مسنده» عن وكيع مرة بلفظ رواية الطبري، وعن محمد بن عبيد أخرىٰ بهذا اللفظ.

(٦) انظر التخريج السابق.

(٧) لوحة (١٦٤ ب). (٨) في (ز): «أدعىٰ»، والمثبت كما في «تفسير عبد الرزاق».

(٩) ضعيف: رواه الطبري (١٥/ ١٤٢)، والحاكم (٤/ ٥٧١)، وإسناده مرسل.

قال الإمام أحمد: حدَّثنا جرير، عن قابوس بن أبي ظَبْيَان، عن أبيه، عن ابن عبَّاس قال: كان النَّبيُّ ﷺ بمكَّة ثم أمر بالهجرة، فأنزل الله: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَـٰنًا نَّصِيرًا ﴾(١).

وقال الحسن البصري في تفسير هذه الآية: إنَّ كفَّار أهل مكَّة لما ائتمروا برسول الله ﷺ ليقتُلُوه أو يطرُدُوه أو يُوثِقُوه، وأراد الله قتال أهل مكَّة، فأمره أن يخرج إلىٰ المدينة، فهو الذي قال الله ﷻ: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ ﴾.

وقال قتادة: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ ﴾ يعني: المدينة ﴿وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ ﴾ يعني: مكَّة.

وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وهذا القول هو أشهر الأقوال.

وقال العوفي عن ابن عبَّاس: ﴿أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ ﴾ يعني: الموت ﴿وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ ﴾ يعني: الحياة بعد الموت. وقيل غير ذلك من الأقوال. والأول أصح، وهو اختيار ابن جرير.

وقوله: ﴿وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَـٰنًا نَّصِيرًا ﴾ قال الحسن البصري في تفسيرها: وعدَهُ ربه لينزعن مُلْك فارِسَ، وعِزَّ فارس، وليجعلنَّه [له](٢)، ومُلْك الروم، وعِزَّ الروم، وليجعلنَّه له.

وقال قتادة فيها: إنَّ نبيَّ الله ﷺ عَلِمَ ألَّا طاقة له بهذا الأمر إلا بسلطانٍ، فسأل سلطانًا نصيرًا لكتاب الله، ولحدودِ الله، ولفرائضِ الله، ولإقامةِ دين الله؛ فإنَّ السُّلطان رحمةٌ من الله جعله بين أظهر عبادِهِ، ولولا ذلك لأغار بعضُهم علىٰ بعضٍ، فأكل شديدُهُم ضعيفَهُم.

وقال مجاهد: ﴿سُلْطَـٰنًا نَّصِيرًا ﴾ حجَّةً بيِّنَةً.

واختار ابن جرير قول الحسن وقتادة، وهو الأرجح؛ لأنَّه لا بدَّ مع الحقِّ من قهرٍ لمن عاداه وناوأه؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن(٣) يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ﴾ [الحديد: ٢٥] وفي الحديث: «إنَّ اللهَ لَيَزَعُ بِالسُّلْطَانِ مَا لا يَزَعُ بِالقُرْآنِ»(٤) أي: ليمنع بالسُّلطان عن ارتكابِ الفواحش والآثام، ما لا يمتنع كثيرٌ من النَّاس بالقرآن، وما فيه مِن الوعيد الأكيدِ، والتَّهديد الشَّديد، وهذا هو الواقع.

وقوله: ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ ۚ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ تهديدٌ ووعيدٌ لكفارِ قريشٍ؛ فإنَّه قد جاءَهُم من الله الحقُّ الذي لا مرية فيه ولا قِبَلَ لهم به، وهو مَا بعثه الله بِهِ من القُرْآن والإيمان والعلم النَّافع. وزَهَقَ

---

(١) ضعيف: رواه أحمد (١/ ٢٢٣)، والترمذي (٣١٣٩) وقال: حسن صحيح.

قلت: فيه قابوس بن أبي ظبيان: لَيِّن الحديث؛ فقد ضعَّفه النَّسائي وابن معين في رواية، وقال ابن سعد: ضعيف لا يُحتَجُّ به، وقال الدَّارقطني: ضَعيفٌ ولكن لا يُترَك.

(٢) سقط من (ز)، وهو في «الطبري». (٣) لوحة (١٦٥ أ).

(٤) لم أقف علىٰ تخريجه، وهو ليس حديثًا، إنما هو أثر لسيدنا عثمان ؓ قال: «إنَّ الله لمَا يزع بالسلطان أعظم مما يزع بالقرآن»، عزاه في «الدر المنثور» (٥/ ٣٢٩) إلىٰ الخطيب.

باطلُهم؛ أي: اضمحلَّ وهلك؛ فإنَّ الباطل لا ثباتَ[(١)] له مع الحقِّ ولا بقاءَ ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨].

وقال البخاري: حدَّثنا الحميدي، حدَّثنا سفيان، عن ابن أبي نَجِيح، عن مجاهد، عن أبي مَعْمر، عن عبد الله بن مسعود قال: دخل النَّبيُّ ﷺ مكَّة وحولَ البيتِ ستُّون وثلاثُمائةِ نُصُبٍ[(٢)]، فجعل يطعنها بعودٍ في يده، ويقول: «﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾، ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾»[(٣)].

وكذا رواه البخاريُّ أيضًا في غير هذا الموضع، ومسلمٌ، والترمذي، والنسائي، كلهم من طرقٍ عن سفيان ابن عيينة به، [وكذا رواه عبد الرزَّاق عن الثوري عن ابن أبي نجيح][(٤)].

وكذا رواه الحافظ أبو يعلىٰ: حدَّثنا زهير، حدَّثنا شَبَابة، حدَّثنا المغيرة، حدَّثنا أبو الزبير، عن جابر رضي الله عنه قال: دخلنا مع رسول الله ﷺ مكة، وحول البيت ثلاثمائة وستون صنمًا يُعْبَدُونَ من دون الله. فأمر بها رسول الله ﷺ فأكبت لوجهها، وقال: ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾[(٥)].

﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا (٨٢)﴾

يقول تعالىٰ مخبراً عن كتابه الذي أنزله علىٰ رسوله محمَّد ﷺ - وهو القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيلٌ من حكيمٍ حميدٍ- إنه: ﴿شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: يذهب ما في القلوب من أمراض، من شكٍّ ونفاقٍ، وشركٍ وزيغٍ وميلٍ، فالقرآن يشفي مِن ذلك كلِّه. وهو أيضًا رحمةٌ يحصل فيها الإيمان والحكمة وطلب الخيرِ والرَّغبة فيه، وليس هذا إلا لمن آمنَ به وصدَّقه واتَّبعه، فإنَّه يكون شفاء في حقِّه ورحمةً. وأمَّا الكافر الظَّالم نفسَهُ بذلك، فلا يَزِيدُهُ سماعه القرآنَ إلا بُعدًا[(٦)] وتكذيبًا وكفرًا. والآفةُ من الكافر لا من القرآن، كما قال تعالىٰ: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن[(٧)] مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤] وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (١٢٤) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤، ١٢٥]. والآيات في ذلك كثيرة.

قال [قتادة][(٨)] في قوله: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ إذا سمعه المؤمن انتفع به

(١) في (ز): «لا ساق»، والمثبت من الطبعات السابقة، وهو الأولىٰ بالسياق.
(٢) النُّصُب: حَجَرٌ كانوا يَنصِبونه في الجاهلية ويتَّخِذونه صَنَمـًا فيعبدونه، والجمع: أنصاب. «النهاية».
(٣) البخاري (٤٧٢٠)، ومسلم (١٧٨١)، والترمذي (٣١٣٨)، والنسائي في «الكبرىٰ» (١١٢٩٧).
(٤) سقط من (ز)، والمثبت من الطبعات السابقة، وهو موافق لما في «مصنف عبد الرزاق» (٧/ ٤٠٣).
(٥) عزاه السُّيوطي في «الدُّر المنثور» (٥/ ٣٢٩) إلىٰ أبي يعلىٰ وابن المنذر، وهو في «مصنف ابن أبي شيبة» (١٤/ ٤٨٧)، وحسَّن إسناده الحافظ في «المطالب العالية» (٤٣٠٦)، وحسَّنه أيضًا البوصيري.
(٦) في (ز): «هَدًا». (٧) لوحة (١٦٥ ب).
(٨) في (ز): «تعالىٰ»، وهو سبق قلم.

وحفظه ووعاه ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ إنه لا ينتفع به ولا يحفظه ولا يَعِيه، فإنَّ الله جعل هذا القرآن شفاءً، ورحمةً للمؤمنين.

﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾﴾(١)

يخبر تعالىٰ عن نقصِ الإنسان مِن حيث هو، إلا مَن عصم الله تعالىٰ في حَالَتَيْ سرَّائه وضرَّائه، بإنَّه إذا أنعم الله عليه بمالٍ وعافيةٍ، وفتحٍ ورزقٍ ونصرٍ، ونالَ ما يريدُ، أعرض عنِ طاعة الله وعبادته، ونأىٰ بجانبِهِ.

قال مجاهد: بَعُد عنَّا.

قلتُ: وهذا كقوله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾ [يونس: ١٢]، وقوله: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾ [الإسراء: ٦٧].

وبأنَّه إذا مسَّه الشَّرُّ -وهو المصائب والحوادث والنَّوائب- ﴿كَانَ يَـُٔوسًا﴾ أي: قَنطَ أن يعود يحصل له بعد ذلك خير، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [هود: ١٠، ١١].

وقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ قال ابن عبَّاس: علىٰ ناحيته. وقال مجاهد: علىٰ حدَّتِهِ وطبيعَتِهِ. وقال قتادة: علىٰ نِيَّته. وقال ابن زيد: دِينِهِ.

وكل هذه الأقوال متقاربة في المعنىٰ. وهذه الآية -والله أعلم- تهديدٌ للمشركين ووعيدٌ لهم، كقوله تعالىٰ: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَـٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ [هود: ١٢١، ١٢٢]؛ ولهذا قال: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا﴾ أي: منَّا ومنكُم، وسيجزي كلَّ عاملٍ بعملِهِ، فإنَّه لا تخفىٰ عليه خافيةٌ.

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾

---

(١) قال الإمام القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: وحكي أن الصحابة - رضوان الله عليهم - تذاكروا القرآن فقال أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قرأت القرآن من أوله إلىٰ آخره فلم أَرَ فيه آية أرجىٰ وأحسنَ من قوله تبارك وتعالىٰ: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ [الإسراء: ٨٤]، فإنه لا يشاكل بالعبد إلا العصيان ولا يشاكل بالرب إلا الغفران، وقال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قرأت القرآن من أوله إلىٰ آخره فلم أرَ فيه آية أرجىٰ وأحسن من قوله تعالىٰ: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ﴾ [غافر] قدم غفران الذنوب علىٰ قبول التوبة وفي هذا إشارة للمؤمنين وقال عثمان بن عفان رضي الله عنه: قرأت جميع القرآن من أوله إلىٰ آخره فلم أر آية أحسن وأرجىٰ من قوله تعالىٰ: ﴿۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾﴾ [الحجر] وقال علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قرأت القرآن من أوله إلىٰ آخره فلم أر آية أحسن وأرجىٰ من قوله تعالىٰ: ﴿۞ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزمر]، قلت: وقرأت القرآن من أوله إلىٰ آخره فلم أر آية أحسن وأرجىٰ من قوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام].

قال الإمام أحمد: حدَّثنا وكيع، حدَّثنا الأعمش، عن إبراهيم، عن عَلْقَمة، عن عبد الله - هو ابن مسعود رضي الله عنه- قال: كنت أمشي مع النَّبيِّ ﷺ في حرثٍ في المدينة، وهو متوكئ علىٰ عَسِيب[1][2]، فمر بقومٍ من اليهود، فقال بعضهم لبعض: سلوه عن الروح. فقال بعضهم: لا تسألوه. قال: فسألوه عن الروح فقالوا: يا محمَّد، ما الروح؟ فما زال متوكئًا علىٰ العسيب، قال: فظننت أنه يوحىٰ إليه، فقال: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾. فقال بعضهم لبعض: قد قلنا لكم: لا تسألوه. وهكذا رواه البخاري ومسلم من حديث الأعمش به. ولفظ البخاري عند تفسير هذه الآية، عن عبد الله بن مسعود قال: بينا أنا مع النَّبيِّ ﷺ في حَرْثٍ، وهو متوكئٌ علىٰ عسيبٍ، إذ مرَّ اليهودُ فقال بعضهم لبعض: سلوه عن الرُّوح، فقال: ما رَابَكُم[3] إليه. وقال بعضهم: لا يستقبلنَّكم بشيءٍ تكرهونه. فقالوا: سلوه فسألُوهُ عن الروح، فأمسك النَّبيُّ ﷺ فلم يردَّ عليه شيئًا، فعلمت أنه يوحىٰ إليه، فقمت مقامي، فلمَّا نزل الوحي قال: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ...﴾ الآية[4].

وهذا السِّياق يقتضي فيما يظهر بادي الرأي: أنَّ هذه الآية مدنيةٌ، وأنَّها إنَّما أُنْزِلَتْ حينَ سأله اليهودُ، عن ذلك بالمدينة، مع أنَّ السُّورة كلَّها مكيَّةٌ. وقد يجاب عن هذا: بأنه قد يكون نزلت عليه بالمدينة مرةً ثانيةً كما نزلت عليه بمكَّة قبل ذلك، أو أنَّه نزل عليه الوحي بأنَّه يُجِيبُهُم عما سألوا بالآية المتقدم إنزالها عليه، وهي هذه الآية: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ﴾ ومما يدل علىٰ نزول هذه الآية بمكة ما قال الإمام أحمد: حدَّثنا قتيبة، حدَّثنا يحيىٰ بن زكريا، عن داود، عن عكرمة، عن ابن عبَّاس قال: قالت قريشٌ ليهودَ: أعطونا شيئًا نسأل عنه هذا الرجل. فقالوا: سلوه عن الروح. فسألوه، فنزلت: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ قالوا: أوتينا علمًا كثيرًا، أوتينا التوراة، ومن أوتي التوراة فقد أُوتِيَ خيرًا كثيرًا. قال: وأنزل الله: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ [الكهف:١٠٩][5].

وقد روىٰ ابن جرير، عن محمَّد بن المثنىٰ، عن عبد الأعلىٰ، عن داود، عن عكرمة قال: سأل أهلُ الكتاب رسولَ الله ﷺ عن الروح، فأنزل الله: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ فقالوا: يزعم أنَّا لم نؤتَ مِنَ العلم إلَّا قليلًا وقد أوتينا التَّوراة، وهي الحكمة ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾؟ [البقرة: ٢٦٩] قال: فنزلت: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ[6] مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ﴾ [لقمان: ٢٧]. قال: ما أوتيتم من علمٍ، فنجاكم الله به من

(١) أي: جريدة من النخل، وهي: السَّعَفَة مما لا ينبت عليه الخوص.
(٢) لوحة (١٦٦ أ).
(٣) ما رابكم إليه، أي: ما دعاكم إلىٰ سؤاله، أو: ما شككم فيه حتىٰ احتجتم إلىٰ سؤاله، أو: ما دعاكم إلىٰ سؤال تخشون سوء عقباه. «شرح مسلم» للنووي.
(٤) البخاري (١٢٥)، ومسلم (٢٧٩٤)، وأحمد (١/ ٤٤٤).
(٥) صحيح: رواه أحمد (١/ ٢٥٥)، والتِّرمذي (٣١٤٠).
(٦) لوحة (١٦٦ ب).

النار، فهو كثيرٌ طيبٌ وهو في علم الله قليلٌ(١).

وقال محمَّد بن إسحاق، عن بعض أصحابه، عن عطاء بن يسار قال: نزلت بمكة: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ فلما هاجر رسول الله ﷺ إلىٰ المدينة، أتاه أحبار يهود. وقالوا: يا محمَّد، ألم يبلغنا عنك أنك تقول: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أفعنيتنا أم عنيت قومك؟ فقال: «**كُلًّا قَدْ عَنَيْتُ**». قالوا: إنَّك تتلو أنَّا أوتينا التَّوراة، وفيها تبيانُ كلِّ شيءٍ؟ فقال رسول الله ﷺ: «**هِيَ فِي عِلْمِ اللهِ قَلِيلٌ، وَقَدْ آتَاكُمُ اللهُ مَا إِنْ عَمِلْتُمْ بِهِ اسْتَقَمْتُمْ**»، وأنزل الله: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمان: ٢٧](٢).

وقد اختلف المفسرون في المراد بـ«الروح» هاهنا علىٰ أقوال: أحدها: أن المراد [بـ«الروح»:](٣) أرواح بني آدم. قال العوفي، عن ابن عبَّاس في قوله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ﴾ الآية؛ وذلك أن اليهود قالوا للنبي ﷺ: أَخْبِرْنَا عن الروح؟ وكيف تعذب الروح التي في الجسد، وإنما الروح من الله؟ ولم يكن [نزل عليه فيه](٤) شيء، فلم يُحِرْ إليهم شيئًا. فأتاه جبريل فقال له: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ فأخبرهم النَّبيُّ ﷺ بذلك، فقالوا: من جاءك بهذا؟ فقال: «**جَاءَنِي بِهِ جِبْرِيلُ مِنْ عِنْدِ اللهِ؟**» فقالوا: والله ما قاله لك إلا عدو لنا. فأنزل الله: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ الآية [البقرة: ٩٧](٥).

وقيل: المراد بـ«الروح» هاهنا: جبريل. قاله قتادة، قال: وكان ابن عبَّاس يكتمه. وقيل: المراد به هاهنا: ملَكٌ عظيمٌ بقدر المخلوقات كُلِّها، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس قوله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ﴾ يقول: الروح: مَلَكٌ(٦).

وقال الطبراني: حدَّثنا محمَّد بن عبد الله بن عُرْس المصري، حدَّثنا وهب الله بن رزق أبو هريرة(٧) حدَّثنا بشر بن بكر(٨)، حدَّثنا الأوزاعي، حدَّثنا عطاء، عن عبد الله بن عبَّاس قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إِنَّ للهِ مَلَكًا، لَوْ قِيلَ لَهُ: الْتَقِمِ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ وَالْأَرْضِينَ بِلُقْمَةٍ وَاحِدَةٍ، لَفَعَلَ، تَسْبِيحُهُ: سُبْحَانَكَ حَيْثُ كُنْتَ**»(٩). وهذا حديثٌ غريبٌ، بل منكرٌ.

---

(١) إسناده مرسل: رواه الطبري (١٥/ ١٥٥)، لكن يشهد له الرواية السابقة.

(٢) رواه الطبري (١٥/ ١٥٧) من طريق ابن إسحاق به، وفيه جهالة أصحابه، والإسناد مرسل.

(٣) سقط من (ز). (٤) في (ز): «تراءىٰ عليه في»، والمثبت كما في «الطبري».

(٥) رواه الطبري (١٥/ ١٥٦)، وفيه عطية العوفي: شيعي مدلس، وقد عنعن.

(٦) رواه الطبري، وإسناده منقطع.

(٧) في (ز): «وهب الله بن روق أبو هبيرة»، والمثبت كما في «الطبراني»، وانظر: «المقتنىٰ» للذهبي (٣/ ١٣).

(٨) في (ز): بكير، والمثبت من «الطبراني»، وانظر ترجمته في «الجرح والتعديل» (٢/ ٣٥٢).

(٩) رواه الطبراني في «الكبير» (١١/ ١٩٥/ ١١٤٧٦)، وضعفه الشيخ الألباني في «ضعيف الجامع» (١٩٥٣)، وقال المؤلف بعده: منكر.

وقال أبو جعفر بن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ: حدَّثني علي، حدَّثني عبد الله، حدَّثني أبو هزان[١] يزيد بن سَمُرَة صاحب قيسارية، عمن حدثه عن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّه قال في قوله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ﴾ قال: هو مَلَكٌ من الملائكة[٢]، له سَبعُون ألف وجهٍ، لكل وجهٍ منها سبعون ألف لسانٍ، لكلِّ لسانٍ منها [سبعون][٣] ألف لغةٍ، يسبِّح الله تعالىٰ بتلك اللُّغات كلها، يخلق الله من كل تسبيحةٍ مَلَكًا يطير مع الملائكة إلىٰ يوم القيامة[٤].

وهذا أثرٌ غريبٌ عجيبٌ، والله أعلم.

وقال السهيلي: روي عن عليّ أنه قال: هو ملك، له مائة ألفِ رأسٍ، لكلِّ رأسٍ مائةُ ألفِ وجهٍ، في كلِّ وجهٍ مائة ألف فمٍ، في كلِّ فمٍ مائة ألف لسانٍ، يسبِّح الله تعالىٰ بلغاتٍ مختلفةٍ.

قال السُّهيلي: وقيل المراد بذلك: طائفةٌ من الملائكةِ علىٰ صُوَرِ بني آدم.

وقيل: طائفةٌ يرونَ الملائكةَ ولا تَرَاهُم، فهم للمَلَائِكَةِ كالملائكةِ لبني آدم.

وقوله: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ أي: من شأنه، ومما استأثر بعلمِهِ دونكم؛ ولهذا قال: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: وما أطلعكم مِن علمهِ إلا علىٰ القَليلِ، فإنَّه لا يحيط أحدٌ بشيءٍ مِن علمِهِ إلَّا بما شاء تبارك وتعالىٰ.

[والمعنىٰ: أنَّ عِلْمَكُم في علم الله قليلٌ، وهذا الذي تسألون عنه مِن أمرِ الرُّوح مما استأثر به تعالىٰ، ولم يُطْلِعْكُم عليه، كما أنه لم يُطْلِعْكُمْ إلا علىٰ القليل مِن علمه تعالىٰ][٥]. وسيأتي إن شاء الله في قصة موسىٰ والخَضِر: أنَّ الخَضِرَ نظر إلىٰ عصفور وقع عَلَىٰ حافَّة السَّفينة، فنَقَرَ في البحر نقرةً؛ أي: شَرِبَ منه بمنقارِهِ، فقال: يا موسىٰ، ما عِلْمِي وعِلْمُكَ وعلم الخلائق في علمِ الله إلَّا كما أخذ هذا العصفورُ مِن هذا البحر. أو كما قال صلوات الله وسلامه عليه؛ ولهذا قال تبارك وتعالىٰ: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

وقال السُّهيلي: قال بعض النَّاس: لم يجبهم عمَّا سألوا؛ لأنَّهم سألوا علىٰ وجه التَّعنُّت. وقيل: أجابهم، وعوَّل السهيلي علىٰ أن المراد بقوله: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ أي: من شرعه؛ أي: فادخلوا فيه، وقد علمتم ذلك؛ لأنه لا سبيل إلىٰ معرفة هذا من طبعٍ ولا فلسفةٍ، وإنَّما ينال من جهة الشرع. وفي هذا المسلك الذي طرقه وسلكه نظر، والله أعلم.

ثم ذكر السهيليُّ الخلافَ بين العلماء في أنَّ الرُّوح هي النَّفس، أو غيرها، وقرَّر أنَّها ذاتٌ لطيفةٌ كالهواء،ساريةٌ في الجسد كسريانِ الماء في عروقِ الشَّجر. وقرَّرَ أنَّ الرُّوح التي ينفخها الملك في الجَنين هي النَّفس بشرط اتِّصالها بالبدنِ، واكتسابها بسببه صفاتِ مدحٍ أو ذمٍّ، فهي إمَّا نفس مطمئنة أو أمَّارة بالسُّوء. قال: كما

---

(١) في (ز): «أبو نمران»، والمثبت كما في «الطبري»، و«الجرح والتعديل» (٩/ ٢٦٨).

(٢) لوحة (١٦٧ أ). (٣) سقط من (ز)، وهو مثبت من «الطبري» وغيره.

(٤) ضعيف: رواه الطبري (١٥/ ١٥٦)، وفيه أبو هزان: لم يوثِّقه غير ابن حبان، وقد ذكره البخاري في «التاريخ» (٨/ ٢٣٧)، وابن أبي حاتم في «الجرح والتعديل» (٩/ ٢٦٨)، ولم يذكرا فيه جرحًا ولا تعديلًا.

(٥) سقط من (ز)، وهو سقط نظر، والمثبت من الطبعات السابقة.

أنَّ الماء هو حياة الشجر، ثم يكسب بسبب اختلاطه معها اسمًا خاصًّا، فإذا اتَّصل بالعنبة وعصر منها صار إما مُصْطَارًا (١) أو خمرًا، ولا يقال له: «ماء» حينئذٍ إلا علىٰ سبيل المجازِ، وهكذا لا يقال للنفس: «روح» إلا علىٰ هذا النَّحو، وكذلك لا يقال للروح: نفسٌ إلا باعتبار ما تئول إليه.

فحاصلُ ما يقول: أنَّ الروح أصل النَّفس ومادتها، والنَّفس مركَّبة منها ومن اتِّصالها بالبدن، فهي هي مِن وجهٍ لا من كل وجه (٢)، وهذا معنًىٰ حسنٌ، والله أعلم.

قلتُ: وقد تكلَّم النَّاس في ماهيَّةِ الرُّوح وأحكامِها وصنَّفوا في ذلك كتبًا. ومِنْ أحسنِ مَنْ تكلَّم علىٰ ذلك الحافظ ابن مَنْدَه، في كتاب سمعناه في: الروح.

﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾﴾

يذكر تعالىٰ نعمته وفضله العظيم علىٰ عبده ورسولِهِ الكريم، فيما أوحاه إليه من القرآنِ المجيدِ، الَّذي لا يأتيه الباطل من بين يديْهِ ولا مِن خلفه، تنزيلٌ من حكيمٍ حميدٍ.

قال ابن مسعود ﷺ: يطرق النَّاسَ ريحٌ حمراءُ -يعني في آخر الزَّمان- مِن قِبَلِ الشَّام، فلا يبقىٰ في مصحفِ رجلٍ ولا في قلبه آيةٌ، ثم قرأ ابن مسعود: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ الآية (٣).

ثم نبَّه تعالىٰ علىٰ شرف هذا القرآن العظيم، فأخبر أنَّه لو اجتمعت الإنس والجن كلهم، واتَّفقوا علىٰ أن يأتوا بمثل ما أنزله علىٰ رسوله، لما أَطَاقُوا ذلك ولما استطاعوه، ولو تعاونوا وتساعدوا وتظافروا؛ فإن هذا أمرٌ لا يستطاع، وكيف يشبه كلامُ المخلوقين كلامَ الخالق، الذي لا نَظِيرَ له، ولا مثال له، ولا عديل له؟!

وقد روىٰ محمَّد بن إسحاق عن محمَّد بن أبي محمَّد، عن سعيد [بن جبير] (٤) أو عكرمة، عن ابن عبَّاس: أنَّ هذه الآية نزلت في نفرٍ من اليهود، جاءوا رسول الله ﷺ فقالوا له: إنَّا نأتيك بمثل ما جئتنا به، فأنزل الله هذه الآية (٥).

وفي هذا نظرٌ؛ لأنَّ هذه السُّورةَ مكيَّةٌ، وسياقها كله مع قُرَيْشٍ، واليهود إنَّما اجتمعوا به في «المدينة». فالله أعلم.

---

(١) المُصْطار: نوع من الخَمْر. (٢) لوحة (١٦٧ ب).

(٣) رواه الطبري (١٥/ ١٥٨)، وفيه إسحاق بن يحيىٰ بن طلحة وهو ضعيف، بل متروك، انظر: «تهذيب الكمال» (٢/ ٤٩١)، لكن للحديث طرق نحوه: رواه عبد الرزاق (٥٩٨٠)، والطبراني (٨٦٩٨)، والحاكم (٤/ ٥٤)، وصححه علىٰ شرطهما ووافقه الذهبي، ورواه الدارمي (٢٣٤٦) بدون ذكر الآية بإسنادٍ صحيحٍ.

(٤) سقط من (ز)، وهو مثبت من «الطبري».

(٥) ضعيف: رواه الطبري (١٥/ ١٥٨)، وفي إسناده محمد بن أبي محمد: مجهول.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ أي: بيَّنَّا لهم الحجج والبراهين القاطعة، ووضَّحنا لهم الحقَّ وشرحناه وبسطناه، ومع هذا ﴿فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ أي: جحودًا وردًّا للصواب.

﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾﴾

قال ابن جرير: حدَّثنا أبو كُرَيْب، حدَّثنا يونس بن بُكَيْر، حدَّثنا[١] محمَّد بن إسحاق، حدَّثني شيخٌ مِن أهلِ مصرَ[٢]، قَدِمَ منذ بضع وأربعين سنةً، عن عكرمة، عن ابن عبَّاس: أنَّ عتبةَ وشيبةَ ابنيْ ربيعةَ، وأبا سفيان بن حربٍ، ورجلًا[٣] من بني عبد الدار، وأبا البَخْتَري أخا بني أسد، والأسود بن المطلب بن أسد، وزمعة بن الأسود، والوليد بن المغيرة، وأبا جهل بنَ هشام وعبد الله بن أبي أمية، وأمية بن خلف، والعاص بن وائل، ونُبيها ومُنبِّها ابني الحجاج السَّهْمِيَّين، اجتمعوا، أو: مَن اجتمع منهم، بعد غروب الشَّمس عند ظهر الكعبةِ، فقال بعضهم لبعض: ابعثوا إلىٰ محمَّدٍ فكلِّموه وخاصِمُوه حتىٰ تُعْذَرُوا [فيه][٤][٥] فبعثوا إليه: أنَّ أشرافَ قومكَ قد اجتمعوا لك ليُكلِّمُوك. فجاءهم رسول الله ﷺ سريعًا وهو يظنُّ أنَّه قد بدا لهم في أمره بَدَاءٌ[٦]، وكان عليهم حريصًا، يحب رُشْدَهم، ويَعِزُّ عليه عَنَتُهم[٧]، حتىٰ جلس إليهم، فقالوا: يا محمَّد، إنَّا قد بعثنا إليك لنُعْذَر فيك، وإنا والله ما نعلم رجلًا منَ العرب أَدْخَلَ علىٰ قومه ما أَدْخلْتَ علىٰ قومك! لقد شتمت الآباء، وعِبتَ الدِّين، وسَفَّهت الأحلام، وشَتَمْتَ الآلهة، وفرَّقْت الجماعة، فما بقي من [أمرٍ][٨] قبيحٍ إلا وقد جئتَهُ فيما بيننا وبينك! فإن كنت إنَّما جئتَ بهذا الحديث تطلب به مالًا جمعنا لك مِن أموالنا حتىٰ تكون أكثرَنا مالًا، وإن كنت إنَّما تطلب الشَّرف فينا سوَّدْناك علينا، وإن كنت تريد مُلْكًا مَلَّكْناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك بما يأتيك رِئِيًّا تراه قد غلب عليك -وكانوا يُسمُّون التَّابع من الجن: الرَّئِيّ- فرُبَّما كان ذلك، بذلنا أموالنا في طلب الطِّبِّ، حتىٰ نُبرِئَكَ منه، أو نُعْذَر فيك.

فقال رسول الله ﷺ: «مَا بِي مَا تَقُولُونَ، مَا جِئْتُكُمْ بِمَا جِئْتُكُمْ بِهِ أَطْلُبُ أَمْوَالَكُمْ، وَلَا الشَّرَفَ فِيكُمْ، وَلَا الْمُلْكَ عَلَيْكُمْ، وَلَكِنَّ اللهَ بَعَثَنِي إِلَيْكُمْ رَسُولًا وَأَنْزَلَ عَلَيَّ كِتَابًا، وَأَمَرَنِي أَنْ أَكُونَ لَكُمْ بَشِيرًا وَنَذِيرًا، فَبَلَّغْتُكُمْ

---

(١) لوحة (١٦٨ أ).

(٢) كذا في (ز) و«الطبري» و«الدلائل» وغيرها، والذي في «السيرة» لابن إسحاق (٤/ ١٧٨): «من أهل مكة».

(٣) كذا في (ز) و«الطبري» وفي «سيرة ابن إسحاق»: «النضر بن الحارث أخا بني عبد الدار».

(٤) أي: حتىٰ تقدموا العذر فيه، فلا تلامون علىٰ ما يكون بينكم وبينه بعد لقائكم هذا.

(٥) في (ز): «إليه»، والمثبت كما في «الطبري» وغيره.

(٦) أي: ظهر لهم ما لم يكن ظهر أولًا، بأن تحولوا عن موقفهم من رسول الله، هكذا ظن ﷺ.

(٧) العَنَت: ما يشق علىٰ الانسان فعله.

(٨) سقط من (ز)، وهو مثبت من «الطبري» وغيره.

رِسَالَةَ رَبِّي، وَنَصَحْتُ لَكُمْ، فَإِنْ تَقْبَلُوا مِنِّي مَا جِئْتُكُمْ بِهِ، فَهُوَ حَظُّكُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَإِنْ تَرُدُّوهُ عَلَيَّ أَصْبِرْ [لِأَمْرِ اللهِ](١)، حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللهُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ». أو كما قال رسول الله صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وسلم تسليمًا.

فقالوا: يا محمَّد، فإن كنت غير قابلٍ منَّا ما عرضنا عليك، فقد علمتَ أنه ليس أحد من النَّاس أضيق منَّا بلادًا، ولا أقلَّ مالًا ولا أشدَّ عيشًا منا، فاسأل لنا ربك الذي بعثك بما بعثك به، فليسير عنا هذه الجبال التي قد ضَيَّقت علينا، وَلْيبسُط لنا بلادنا، وليُجْرِ(٢) فيها أنهارًا كأنهار الشام(٣) والعراق، وليبعث لنا مَن مضىٰ من آبائنا، وليكن فيمن يُبْعث لنا قُصيُّ بن كلاب؛ فإنه كان شيخًا صدوقًا، فنسألهم عمَّا تقول حق هو أم باطل؟ فإن صنعت ما سألناك وصَدَّقُوكَ، صَدَّقْنَاك، وعرفنا منزلتك عند الله، وأنَّه بعثك رسولًا كما تقول!

فقال لهم رسول الله ﷺ: «مَا بِهَذَا بُعِثْتُ، إِنَّمَا جِئْتُكُمْ مِنْ عِنْدِ اللهِ بِمَا بَعَثَنِي بِهِ، فَقَدْ بَلَّغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ، فَإِنْ تَقْبَلُوهُ فَهُو حَظُّكُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَإِنْ تَرُدُّوهُ عَلَيَّ أَصْبِرْ لِأَمْرِ اللهِ، حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللهُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ».

قالوا: فإن لم تَفْعَلْ لنا هذا فخُذْ لنفْسِكَ، فاسأل ربَّك أن يبعث ملكًا يصدقك بما تقول ويراجعنا عنك، وتسأله فيجعل لك جنانًا وكنوزًا وقصورًا من ذهبٍ وفضةٍ، ويغنيك بها عمَّا نراك تبتغي، فإنَّك تقوم بالأسواق، وتلتمس المعاش كما نلتمسه، حتىٰ نعرف فضل منزلتك مِن ربِّك، إن كنت رسولًا كما تزعم.

فقال لهم رسول الله ﷺ: «مَا أَنَا بِفَاعِلٍ، مَا أَنَا بِالَّذِي يَسْأَلُ رَبَّهُ هَذَا، وَمَا بُعِثْتُ إِلَيْكُمْ بِهَذَا، وَلَكِنَّ اللهَ بَعَثَنِي بَشِيرًا وَنَذِيرًا، فَإِنْ تَقْبَلُوا مَا جِئْتُكُمْ بِهِ فَهُوَ حَظُّكُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَإِنْ تَرُدُّوهُ عَلَيَّ أَصْبِرْ لِأَمْرِ اللهِ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللهُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ».

قالوا: فأسقط السماء، كما زعمت أنَّ ربَّك إن شاء فعَلَ، فإنَّا لن نؤمن لك إلا أن تفعل.

فقال لهم رسول الله ﷺ: «ذَلِكَ إِلَىٰ اللهِ إِنْ شَاءَ فَعَلَ بِكُمْ ذَلِكَ».

فقالوا: يا محمَّد، أما عَلِمَ رَبُّكَ أَنَّا سنجلس معَكَ، ونسألك عمَّا سألناك عنه، ونطلب منك ما نطلب فيتقدم إليك [ويُعْلِمُكَ](٤) ما تراجعنا به، ويخبرك ما هو صانع في ذَلِكَ بنا، إذا لم نقبل منك ما جئتنا به، فقد بَلَغَنَا أَنَّه إنما يعلِّمُك هذا رجل باليمامة، يقال له: الرحمن، وإنَّا والله لا نؤمن بالرَّحمن أبدًا، فقد أعذرنا إليك يا محمَّد، أما والله لا نتركك وما فعلت بنا حتىٰ نهلكك أو تُهْلِكَنَا. وقال قائلهم: نحن نعبد الملائكة وهي بناتُ الله. وقال قائلهم: لن نؤمن لك حتىٰ تَأْتِيَ بالله والملائكة قبيلًا.

فلما قالوا ذلك قام رسول الله ﷺ عنهم، وقام معه عبد الله بن أبي أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، وهو ابن عمته، ابن عاتكة ابنة عبد المطلب، فقال: يا محمَّد، عرض عليك قومك ما عرضوا، فلم تقبله منهم، ثم سألوك لأنفسهم أمورًا ليعرفوا بها منزلتك من الله، فلم تفعل ذلك، ثم سألوك أن تعجل

---

(١) في (ز): «لحكم الله»، وهي مثبتة من «الطبري».
(٢) كذا في (ز) وفي «سيرة ابن إسحاق» وفي «الطبري»: «وليفجر».
(٣) لوحة (١٦٨ ب).
(٤) سقط من (ز)، وهو مثبت من «الطبري».

[لهم][(١)] ما تخوفهم به من العذاب، فوالله لا أُؤْمِنُ لك أبدًا حتىٰ تتخذ إلىٰ السماء[(٢)] سُلَّمًا، ثم ترقىٰ فيه، وأنا أنظر حتىٰ تأتيها، وتأتي معك بنسخةٍ منشورةٍ، معك أربعة من الملائكة، يشهدون أنك كما تقول. وايم الله، لو فعلت ذلك لظننت أني لا أصدقك. ثم انصرف عن رسول الله ﷺ، وانصرف رسول الله ﷺ إلىٰ أهله حزينًا أَسِفًا لما فاته، مما كان طمع فيه من قومه حين دعوه، ولِمَا رأىٰ من مباعدتهم إياه[(٣)].

وهكذا رواه زياد بن عبد الله البَكَّائي، عن ابن إسحاق، حدَّثني بعض أهل العلم، عن سعيد بن جبير وعكرمة، عن ابن عبَّاس، فذكر مثله سواء.

وهذا المجلس الذي اجتمع هؤلاء له، [لو][(٤)] علم اللهُ منهم أنهم يسألون ذلك استرشادًا لأُجِيبُوا إليه، ولكن عَلِمَ أَنَّهم إنَّما يطلبون ذلك كفرًا وعنادًا، فقيل للرسول: إن شئت أعطيناهُم ما سألوا فإن كفروا عذبتهم عذابًا لا أُعذِّبُه أحدًا من العالمين، وإن شئت فتحت عليهم باب التَّوبة والرَّحمة، فقال: «بَلْ تَفْتَحُ عَلَيْهِمْ بَابَ التَّوْبَةِ وَالرَّحْمَةِ» كما تقدم ذلك في حديثي ابن عبَّاس والزُّبير بن العوَّام أيضًا، عند قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء: ٥٩]، وقال تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًۢا ﴿١٠﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ [الفرقان: ٧-١١].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا﴾ الينبوع: العين الجارية، سألوه أن يُجْرِيَ لهم عينًا[(٥)] مَعِينًا[(٦)] في أرض الحجاز هاهنا وهاهنا، وذلك سهلٌ يسيرٌ علىٰ الله تعالىٰ، لو شَاءَ لفعله ولأجابهم إلىٰ جميع ما سألوا وطلبوا، ولكنْ عَلِمَ أَنَّهم لا يهتدون، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ [الأنعام: ١١١].

وقوله تعالىٰ: ﴿أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ﴾ أي: أنَّك وعدتنا أنَّ يوم القيامة تنشقُّ [فيه][(٧)] السَّماء وتَهِي[(٨)]، وتدلَّىٰ أطرافها، فعجِّلْ ذلك[(٩)] في الدنيا، وأسقطها كِسَفًا [أي: قطعًا، كقولهم: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ الآية [الأنفال: ٣٢]، وكذلك

---

(١) ليست في (ز)، وهي مثبتة في «سيرة ابن إسحاق».
(٢) لوحة (١٦٩ أ).
(٣) ضعيف: رواه الطبري (١٥/ ١٦٤)، وفيه رجل مجهول.
(٤) ليست في (ز).
(٥) في (ز): «عيونًا».
(٦) أي: جارية، يقال: معن الماء، إذا جرىٰ.
(٧) سقط من (ز).
(٨) أي: تسقط.
(٩) لوحة (١٦٩ ب).

سأل قوم شعيب منه فقالوا: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا] مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٧]. فعَاقَبَهُم الرَّبُّ بعذاب يوم الظُّلَّة، إنَّه كان عذاب يوم عظيم. وأمَّا نبيُّ الرَّحمة، ونبيُّ التَّوبة المبعوث رحمةً للعالمين، فسأل إنظارَهُم وتأجيلهم، لعلَّ الله أن يخرج من أصلابهم مَن يعبده لا يشرك به شيئًا. وكذلك وقع، فإنَّ مِن هؤلاء الذين ذكروا من أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه حتىٰ «عبد الله بن أبي أمية» الذي تبع النَّبيَّ ﷺ وقال له ما قال، أَسْلَمَ إسلامًا تامًّا، وأناب إلىٰ الله ﷻ.

﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ﴾ قال ابن عبَّاس، ومجاهد، وقتادة: هو الذهب. وكذلك هو في قراءة ابن مسعود: «أو يكون لك بيت من ذهب[١]»، ﴿أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: تصعد في سُلَّمٍ ونحن ننظر إليك ﴿وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ﴾ قال مجاهد: أي مكتوب فيه إلىٰ كلِّ واحدٍ واحدٍ صحيفة: هذا كتاب من الله لفلانِ بن فلانٍ، تصبح موضوعةً عند رأسه.

وقوله: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ أي: سبحانه وتعالىٰ وتقدَّس أن يتقدَّم أحد بين يديه في أمرٍ من أمورِ سلطانِهِ وملكوتِهِ، بل هو الفعَّال لما يشاء، إن شاء أجابكم إلىٰ ما سألتم، وإن شاء لم يجبكم، وما أنا إلا رسولٌ إليكم أُبَلِّغُكُم رسالات ربي وأَنْصَحُ لكم، وقد فعلتُ ذلك، وأمرُكم فيما سألتم إلىٰ الله ﷻ.

قال الإمام أحمد بن حنبل: حدَّثنا علي بن إسحاق، حدَّثنا ابن المبارك، حدَّثنا يحيىٰ بن أيوب، عن عبيد الله بن زَحر، عن علي بن يزيد، عن القاسم عن أبي أمامة، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «عَرَضَ [عليَّ][٢] رَبِّي ﷻ لِيَجْعَلَ لِي بَطْحَاءَ مَكَّةَ ذَهَبًا، فَقُلْتُ: لا يَا رَبِّ، وَلَكِنْ أَشْبَعُ يَوْمًا، وَأَجُوعُ يَوْمًا -أو نحو ذلك- فَإِذَا جُعْتُ تَضَرَّعْتُ إِلَيْكَ وَذَكَرْتُكَ، وَإِذَا شَبِعْتُ حَمِدْتُكَ وَشَكَرْتُكَ»[٣].

ورواه الترمذي في «الزهد» عن سُوَيْد[٤] بن نصر عن ابن المبارك، به، وقال: هذا حديثٌ حسنٌ. وعلي ابن يزيد: يُضَعَّفُ في الحديث.

﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾﴾

يقول تعالىٰ: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ﴾ أي: أكثرهم ﴿أَن يُؤْمِنُوٓاْ﴾ ويتابعوا الرسل، إلا استعجابهم من بعثَتِهِ البشرَ رسلًا كما قال تعالىٰ: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [يونس: ٢].

وقال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْ[٥] وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ [التغابن: ٦]، وقال فرعون وملَؤه: ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ﴾ [المؤمنون: ٤٧]، وكذلك

---

(١) قراءة: قَرَأَ (ذَهَبٍ) عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ، وَلَيْسَ فِي الْمُتَوَاتِرِ إِلَّا (زُخْرُفٍ).

(٢) سقط من (ز).

(٣) ضعيف: رواه أحمد (٥/ ٢٥٤)، والترمذي (٢٣٤٧)، وفيه علي بن زيد الألهاني، وعبيد الله بن زحر: كلاهما ضعيف.

(٤) في (ز): «يزيد»، والمثبت كما في «الترمذي»، وانظر: «الجرح والتَّعديل» (٤/ ٢٣٩).

(٥) لوحة (١٧٠ أ).

قالت الأمم لرسلهم: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ [إبراهيم: ١٠]، والآيات في هذا كثيرةٌ.

ثم قال تعالىٰ منبهًا علىٰ لطفِهِ ورحمتِهِ بعبادِهِ: أنَّه يبعث إليهم الرَّسول مِن جنسِهِمْ ليفقهوا عنه ويَفْهَمُوا منه، لتمَكُّنِهِم من مخاطبتِهِ ومكالمتِهِ، ولو بعث إلىٰ البشر رسولًا من الملائكة لما استطاعُوا مواجهته ولا الأخذ عنه، كما قال تعالىٰ: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، وقال تعالىٰ: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨]، وقال تعالىٰ: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥١، ١٥٢]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ﴾ أي: كما أنتم فيها ﴿لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾ أي: من جنسهم، ولما كُنْتُم أنتم بشرًا، بعثنا فيكم رسلنا منكم لطفًا ورحمةً.

﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾﴾

يقول تعالىٰ مرشدًا نبيَّه إلىٰ الحجَّة علىٰ قومِهِ، في صدقِ ما جاءهم به: أنَّه شاهدٌ عليَّ وعليكم، عالمٌ بما جئتكم به، فلو كنتُ كاذبًا عليه انتقم منِّي أشدَّ الانتقام، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤-٤٦].

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ أي: عليم بهم بمَنْ يستحقُّ الإنعام والإحسان والهداية، ممن يستحق الشَّقاء والإضلال والإزاغة؛ ولهذا قال:

﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾﴾

يقول تعالىٰ مخبرًا عن تصرُّفِهِ في خلقه، ونفوذِ حكمِهِ، وأنَّه لا معقِّب له، بأنَّه من يهده فلا مضلَّ له ﴿وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ﴾ أي: يهدونهم، كما قال: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [الكهف: ١٧].

وقوله: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ قال الإمام أحمد:

حدَّثنا ابن نُمير، حدَّثنا إسماعيل، عن نُفَيْع، قال: سمعت أنس بن مالك يقول: قيل: يا رسول الله، كيف يُحْشَر الناس علىٰ وجوههم؟[1] قال: «الَّذِي أَمْشَاهُمْ عَلَىٰ أَرْجُلِهِمْ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يُمْشِيَهُمْ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ»[2].

وأخرجاه في «الصحيحين».

وقال الإمام أحمد أيضًا: [حدَّثنا يزيد][3]، حدَّثنا الوليد بن جُمَيْع القرشي، عن أبيه، حدَّثنا أبو الطفيل

---

(١) لوحة (١٧٠ ب). (٢) رواه البخاري (٤٧٦٠)، ومسلم (٢٨٠٦)، وأحمد (٣/ ٢٢٩).

(٣) سقط من (ز)، وهو مثبت من «المسند».

عامر بن واثلة، عن حذيفة بن أسيد قال: قام أبو ذرٍّ فقال: يا بني غِفَار، قولوا ولا تحلفوا، فإن الصادق المصدوق حدَّثني: أنَّ الناس يحشرون علىٰ ثلاثة أفواج: فوج راكبين طاعمين كاسين، وفوج يمشون ويسعَوْن، وفوج تسحبهم الملائكة علىٰ وجوههم وتحشرهم إلىٰ النار. فقال قائل منهم: هذان قد عرفناهما، فما بال الذين يمشون ويسعون؟ قال: يلقي الله عَجَّلَ الآفة[1] علىٰ الظَّهر حتىٰ لا يبقىٰ ظهر[2]، حتىٰ إنَّ الرَّجل لتكون له الحديقة المعجِبةُ، فيعطيها بالشَّارف[3] ذات القَتَب، فلا يقدر عليها[4].

وقوله: ﴿عُمۡيٗا﴾ أي: لا يبصرون ﴿وَبُكۡمٗا﴾ يعني: لا ينطقون ﴿وَصُمّٗا﴾: لا يسمعون. وهذا يكون في حالٍ دون حال جزاءً لهم كما كانوا في الدنيا بكمًا وعميًا وصمًّا عن الحق فَجُوزُوا في محشرهم بذلك أحوجَ ما يحتاجون إليه ﴿مَّأۡوَىٰهُمۡ﴾ أي: منقلبهم[5] ومصيرهم ﴿جَهَنَّمُۖ كُلَّمَا خَبَتۡ﴾ قال ابن عبَّاس: سكنت. وقال مجاهد: طفئت ﴿زِدۡنَٰهُمۡ سَعِيرٗا﴾ أي: لهبًا ووَهَجًا وجمرًا، كما قال: ﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمۡ إِلَّا عَذَابًا﴾ [النبأ: ٣٠].

﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۡ وَجَعَلَ لَهُمۡ أَجَلٗا لَّا رَيۡبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورٗا ﴿٩٩﴾﴾

يقول تعالىٰ: هذا الذي جازيناهم به، مِنَ البعثِ علىٰ العمىٰ والبكم والصَّمم، جزاؤهم الَّذِي يستحقُّونَهُ؛ لأنَّهم كذَّبوا ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي: بأدلَّتِنا وحُجَجِنا، واستبعدوا وقوع البعث ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا﴾ بالية نخرةً ﴿أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدًا﴾ أي: بعد ما صرنا إلىٰ ما صرنا إليه من البِلَىٰ والهلاك، والتَّفرُّق والذَّهاب في الأرض نُعادُ مرَّةً ثانية؟ فاحتج تعالىٰ عليهم، ونبَّههُم علىٰ قدرتِهِ علىٰ ذلك، بأنَّه خلق السموات والأرض، فقدرته علىٰ إعادتهم أسهلُ من ذلك كما قال: ﴿لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧] وقال: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَلَمۡ يَعۡيَ بِخَلۡقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰۚ بَلَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [الأحقاف: ٣٣]، وقال: ﴿أَوَلَيۡسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ[6] كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ [يس: ٨١، ٨٣].

وقال هاهنا: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۡ﴾ أي: يوم القيامةِ يُعيدُ

---

(١) في (ز): «الأئمة»، والمثبت كما في «المسند». (٢) الظَّهر: ما يركب.

(٣) الشارف: الناقة المسنة، والقتب للبعير: شبه الرحل.

(٤) رواه أحمد (٥/ ١٦٤)، والنسائي (٤/ ١١٦)، والحاكم (٢/ ٣٦٧)، وفيه الوليد بن عبد الله بن جُميع: وثقه ابن معين والعِجْلي، وقال أبو زرعة وأبو داود: ليس به بأس. وقال أبو حاتم: صالح الحديث. وأما ابن حبان فقد قال فيه: فَحُشَ تفرده. فبطل الاحتجاج به.

(٥) في (ز): «تقبلهم». (٦) لوحة (١٧١ أ).

أبدانهم ويُنشِئُهم نشأةً أخرىٰ، ويُعِيدُهم كما بدأهم.

وقوله: ﴿وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي: جعل لإعادتهم وإقامتهم من قبورهم أجلًا مضروبًا ومدةً مقدَّرةً لا بدَّ من انقضائها، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ [هود: ١٠٤].

وقوله: ﴿فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [أي: بعد قيام الحجة عليهم] (١) ﴿إِلَّا كُفُورًا﴾ إلا تماديًا في باطلهم وضلالهم.

﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾﴾

يقول تعالىٰ لرسوله - صلوات الله عليه وسلامه- قل لهم يا محمَّد: لو أنكم -أيها الناس- تملكون (٢) التَّصرُّف في خزائن الله، لأمسكتم خشيةَ الإنفاق.

قال ابن عبَّاس، وقتادة؛ أي: الفقر؛ أي: خشية أن تذهبوها، مع أنها لا تفرغ ولا تنفد أبدًا؛ لأنَّ هذا من طباعكم وسجاياكم؛ ولهذا قال: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا﴾ قال ابن عبَّاس، وقتادة: أي: بخيلًا منوعًا. وقال الله تعالىٰ: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا﴾ [النساء: ٥٣] أي: لو أن لهم نصيبًا من ملك الله لما أعطَوْا أحدًا شيئًا، ولا مقدار نَقِير، والله تعالىٰ يصف الإنسان من حيث هو، إلا مَن وفَّقَهُ الله وهداه؛ [فإن البخل] (٣) والجزع والهلَع صفة له، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾ [المعارج: ١٩ -٢٢]. ولهذا نظائرُ كثيرةٌ في القرآن العزيز، ويدلُّ هذا علىٰ كرمه وجوده وإحسانه، وقد جاء في «الصحيحين»: «يَدُ اللهِ مَلْأَىٰ لا يَغِيضُهَا نَفَقَةٌ، سَحَّاءُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مِنْذُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ؛ فَإِنَّهُ لَمْ يَغِضْ مَا فِي يَمِينِهِ» (٤).

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾﴾

يخبر تعالىٰ: أنَّه بعث موسىٰ بتسع آياتٍ بيِّناتٍ، وهي الدَّلائل القاطعة علىٰ صحَّة نبوتِهِ وصِدْقِهِ فيما أَخْبَر به عمن أرسله إلىٰ فرعون، وهي: العصا، واليد، والسِّنين (٥)، والبحر، والطُّوفان، والجراد، والقمَّل، والضَّفادع، والدَّم (٦)، آيات مفصَّلات. قاله ابن عبَّاس.

وقال محمَّد بن كعب: هي اليد، والعصا، والخمس في «الأعراف»، والطَّمْسَة والحجر.

---

(١) ليست في (ز)، والمثبت من الطبعات السابقة.

(٢) زاد هنا كلمة «خزائن».

(٣) في (ز): «بالبخل».

(٤) البخاري (٤٦٨٤)، ومسلم (٩٩٣)، والترمذي (٣٠٤٥)، وابن ماجة (١٩٧).

(٥) في (ز): «ولسانه».

(٦) لوحة (١٧١ ب).

وقال ابن عبَّاس أيضًا، ومجاهد، وعكرمة والشعبي، وقتادة: هي يده، وعصاه، والسِّنين، ونقص الثَّمرات، والطُّوفان، والجراد، والقمَّل، والضَّفادع، والدَّم.

وهذا القول ظاهرٌ جليٌّ حسنٌ قويٌّ. وجعل الحسن البصري السِّنين ونقصَ الثَّمرات واحدة، وعنده أنَّ التَّاسعة هي: تلقُّفُ العصا ما يأفكون.

﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٣]. أي: ومع هذه الآيات ومشاهدتهم لها، كفروا بها وجحدوا بها، واستيقنتها أنفسهم ظلمًا وعلوًّا، وما نجعت فيهم، فكذلك لو أجبنا هؤلاء الذين سألوا منك سألوا، وقالوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا﴾ [الإسراء: ٩٠] إلىٰ آخرها، لما استجابوا ولا آمنوا إلا أن يشاء الله، كما قال فرعون لموسىٰ -وقد شاهد منه ما شاهد من هذه الآيات-: ﴿إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ قيل: بمعنىٰ: ساحرًا. والله تعالىٰ أعلم.

فهذه الآيات التِّسع التي ذكرها هؤلاء الأئمَّة هي المرادة هاهنا، وهي المَعْنِيَّة في قوله تعالىٰ: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ [النمل: ١٠ -١٢]. فذكر هاتين الآيتَيْنِ: العصا واليد، وبيَّن الآياتِ الباقياتِ في «سورة الأعراف» وفصَّلها.

وقد أوتي موسىٰ عليه السلام آياتٍ أخرَ كثيرةً، منها ضربُه الحجر بالعصا، وخروج الأنهار منه، ومنها تظليلهم بالغَمَام، وإنزال المنِّ والسَّلوىٰ، وغير ذلك مما أُوتوه بنو إسرائيل بعد مفارقتهم بلادَ مصرَ، ولكن ذكر هاهنا التسع الآيات التي شَاهَدَهَا فرعون وقومه من أهل مصر، وكانت حجَّةً عليهم فخالفوها وعاندوها كفرًا وجحودًا.

فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد: حدَّثنا يزيد، حدَّثنا شُعْبَة، عن عمرو بن مُرَّة قال: سمعت عبد الله ابن سلمة يحدث، عن صفوان بن عَسَّال المرادي رضي الله عنه قال: قال يهوديٌّ لصاحبه: اذهب بنا إلىٰ هذا النَّبيِّ حتىٰ نسأله عن هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ فقال: لا تقل له: نبي فإنَّه لو سمعك لصارت له أربع أعين(١). فسألاه، فقال النَّبيُّ ﷺ: «**لا تُشْرِكُوا بِاللهِ [شَيْئًا]**(٢)**، وَلا تَسْرِقُوا**(٣)**، وَلا تَزْنُوا، وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالحَقِّ، وَلا تَسْحَرُوا، وَلا تَأْكُلُوا الرِّبَا، وَلا تَمْشُوا بِبَرِيءٍ إِلَىٰ ذِي سُلْطَانٍ لِيَقْتُلَهُ، وَلا تَقْذِفُوا مُحْصَنَةً** -أو قال: **لا تَفِرُّوا مِنَ الزَّحْفِ**- شُعْبَةُ الشَّاكُّ- **وَأَنْتُمْ يَا يَهُودُ، عَلَيْكُمْ خَاصَّةً أَنْ لا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ**». فَقَبَّلَا يديه ورجليه، وقالا: نشهد أنَّك نبيٌّ. [قال: «**فَمَا يَمْنَعُكُمَا أَنْ تَتْبَعَانِي؟**» قالا: لأنَّ داود عليه السلام دعا أَلَّا يزالَ مِن ذُرِّيَّتِهِ نبيٌّ](٤)، وإنَّا نخشىٰ إن أسلمنا أن تقتلنا يهودُ(٥).

---

(١) أي: يسر بقولك هذا النبيُّ سرورًا يمد الباصرة، فيزداد به نورًا علىٰ نور، كذي عينين أصبح يبصر بأربع؛ فإن الفرح يمد الباصرة، كما أن الهم والحزن يُخِلّ بها؛ ولذا يقال لمن أحاطت به الهموم: أظلمت عليه الدنيا.

(٢) سقط من (ز)، وهو مثبت من «المسند».

(٣) لوحة (١٧٢ أ).

(٤) سقط من (ز)، وهو مثبت من «المسند».

(٥) منكر: رواه أحمد (٤/ ٢٣٩)، والترمذي (٢٧٣٣)، والنسائي (٧/ ١١١)، وابن ماجة (٣٧٠٥)، وهو عند الطبري في «التفسير» =

فهذا الحديثُ رواه هكذا الترمذي، والنسائي، وابن ماجه، وابن جرير في «تفسيره» من طرق عن شُعْبَة بن الحجاج به، وقال الترِّمذي: حسن صَحيح.

وهو حديثٌ مشكلٌ، وعبد الله بن سلمة في حفظِهِ شيءٌ، وقد تكلّموا فيه، ولعلَّه اشتبه عليه التِّسعُ الآياتِ بالعَشْرِ الكلماتِ، فإنَّها وصايا في التَّوراة لا تَعَلُّقَ لها بقيام الحجة علىٰ فرعون، والله أعلم.

ولهذا قال موسىٰ لفرعون: ﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ ﴾ أي: حججًا وأدلَّةً علىٰ صدقِ ما جئتكَ به ﴿ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴾ أي: هالكًا. قاله مجاهد وقتادة. وقال ابن عبَّاس ملعونًا. وقال أيضًا هو والضَّحَّاك: ﴿مَثْبُورًا ﴾ أي: مغلوبًا. والهالك -كما قال مجاهد- يشمل هذا كله، قال عبد الله بن الزِّبَعْرَىٰ:

إِذْ أُجَارِي الشَّيْطَانَ فِي سَنَنِ الغيْـ ... ـيِ وَمَنْ مَالَ مَيْلَهُ مَثْبُورُ

يعني: هالك.

وقرأ بعضُهم برفع التَّاء مِن قوله: «علمت»[(١)]، وروي ذلك عن علي بن أبي طالب. ولكنَّ قراءة الجمهور بفتح التاء علىٰ الخطاب لفرعون، كما قال تعالىٰ: ﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [النمل: ١٣، ١٤].

فهذا كله ممَّا يدلُّ علىٰ أنَّ المراد بالتِّسع الآيات إنَّما هي ما تقدَّم ذكره من العصا، واليدِ، والسِّنين، ونقصٍ مِن الثَّمرات، والطُّوفان، والجراد، والقُمَّل، والضَّفادع، والدَّم، التي فيها حججٌ وبراهين علىٰ فرعون وقومِهِ، وخوارقُ ودلائلُ علىٰ صدق موسىٰ ووجودِ الفاعلِ المختار الذي أرسله. وليس المراد منها كما ورد في هذا الحديث، فإن هذه الوصايا ليس فيها حججٌ علىٰ فرعون وقومه، وأيُّ مناسبة بينَ هذا وبينَ إقامة البراهين علىٰ فرعون؟ وما جاء هذا الوهم إلا من قبل «عبد الله بن سلمة» فإن له بعض ما يُنكر. والله أعلم. ولعلَّ ذَيْنِكَ اليهوديين إنما سألا عن العشر الكلمات، فاشتبه علىٰ الرَّاوي بالتِّسع الآيات، فحصل وَهْمٌ في ذلك. والله أعلم.

وقوله: ﴿ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ﴾ أي: [يخليهم منها][(٢)] ويزيلهم[(٣)] عنها ﴿فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ ﴾ وفي هذا بشارة لمحمَّد ﷺ بفتح مكَّة مع أنَّ هذه السُّورة نزلت قبل الهجرةِ، وكذلك وقع؛ فإنَّ أهل مكَّة هَمُّوا بإخراج الرَّسول منها، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴾ [الإسراء: ٧٦، ٧٧]؛ ولهذا أورث الله رسوله «مكَّة»، فدخلها عَنْوَةً علىٰ أشهر القولين، وقهر أَهْلَهَا، ثم أطلقهم حلمًا وكرمًا، كما أورث الله القوم الذين كانوا يُسْتَضْعَفُون مِن بني إسرائيل

= (١٥/ ١٧٢، ١٧٣)، والحديث فيه نكارةٌ، كما ذكر المصنف، وقال النَّسائي: هذا حديث منكرٌ. وضعَّفه الشَّيخ الألباني.
قلت: وعِلَّته عبد الله بن سلمة الأفطس؛ قال فيه النسائي: متروك الحديث.

(١) متواترة: قَرَأَ (عَلِمْتُ) الْكِسَائِيُّ وَوَافَقَهُ الْأَعْمَشُ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ (عَلِمْتَ).

(٢) في (ز): «يجليهم». (٣) لوحة (١٧٢ ب).

مشارِقَ الأرض ومغاربها، وأورثَهم بلاد فرعون وأموالهم وزُرُوعَهُم وثمارهم وكنوزهم، كما قال: ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء: ٥٩] وقال هاهنا: ﴿وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ أي: جميعكم أنتم وعدوكم.

قال ابن عبَّاس ومجاهد وقتادة والضَّحَّاك: ﴿لَفِيفًا﴾ أي: جميعًا.

﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾﴾

يقول تعالىٰ مخبرًا عن كتابه العزيز، وهو القرآن المجيد، أنَّه بالحقِّ نزل؛ أي: متضمنًا للحقِّ، كما قال تعالىٰ: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ﴾ [النساء: ١٦٦] أي: متضمنًا علم الله الذي أراد أن يُطْلِعكم عليه، مِن أحكامه وأمْرِهِ ونهيه.

وقوله: ﴿وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾ أي: ووصل إليك -يا محمَّد- محفوظًا محروسًا، لم يُشَب بغيره، ولا زِيدَ فيه ولا نُقِصَ منه، بل وصل إليك بالحقِّ، فإنَّه نزل به شديد القُوىٰ، [القَوِيُّ][1] الأمينُ المكينُ المطاعُ في الملإِ الأعلىٰ.

وقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ﴾ أي: يا محمَّد ﴿إِلَّا مُبَشِّرًا﴾ لمن أطاعك من المؤمنين ﴿وَنَذِيرًا﴾ لمن عصاك من الكافرين.

وقوله: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ﴾ أما قراءة من قرأ بالتخفيف، فمعناه: فصَّلْنَاه من اللَّوح المحفوظ إلىٰ بيت العزَّة من السماء الدنيا، ثم نزل مُفرَّقًا منجَّمًا علىٰ الوقائع إلىٰ رسول الله ﷺ في ثلاثٍ وعشرين سنة. قاله عكرمة عن ابن عبَّاس[2].

[وعن ابن عبَّاس][3][4] أيضًا أنه قرأه: ﴿فَرَّقْنَاهُ﴾ بالتَّشديدِ[5]؛ أي: أنزلناه آيةً آيةً، مبينًا مفسرًا؛ ولهذا قال: ﴿لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ أي: لتبلغه النَّاس وتتلوه عليهم ﴿عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ أي: مَهَلٍ ﴿وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ أي: شيئًا بعد شيءٍ.

﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ[6] سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾﴾

---

(١) سقط من (ز). (٢) رواه الطبري (١٥/ ١٧٨)، والنسائي في «الكبرىٰ» (١١٣٧٢).

(٣) سقط من (ز)، وهو سقط نظر.

(٤) رواه الطبري (١٥/ ١٧٨)، وفي إسناده أبو جعفر الرازي: صدوق سيئ الحفظ، ويروىٰ عن الربيع بن أنس. قال ابن حبان في «الثقات»: الناس ينقون من حديثه ما كان من رواية أبي جعفر عنه؛ لأن في أحاديثه عنه اضطرابًا كثيرًا.

(٥) شاذة: قَرَأَ (فَرَّقْنَاهُ) ابْنُ مُحَيْصِنٍ، وَلَيْسَ فِي الْمُتَوَاتِرِ إِلَّا (فَرَقْنَاهُ).

(٦) لوحة (١٧٣ أ).

يقول تعالىٰ لنبيِّه محمَّد ﷺ: ﴿قُلْ﴾ يا محمَّد لهؤلاء الكافرين بما جئتهم به من هذا القرآن العظيم: ﴿ءَامِنُوا بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟﴾ أي: سواء آمنتم به أم لا فهوَ حقٌّ في نفسه، أنزله الله ونوَّه بذكره في سالفِ الأزمان في كتبهِ المنزَّلةِ علىٰ رسله؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ﴾ أي: من صالحِ أهل الكتاب الَّذِين يُمَسِّكُون بكتابهم ويقيمونه، ولم يُبَدِّلُوه ولا حرَّفُوه ﴿إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ هذا القرآن، ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ﴾ جمع ذَقَن، وهو أسفل الوجه ﴿سُجَّدًا﴾ أي: لله عَزَّوَجَلَّ شكرًا علىٰ ما أنعم به عليهم، من جعله إيَّاهم أهلًا أن أدركوا هذا الرَّسول الذي أنزل عليه هذا الكتاب؛ ولهذا يقولون: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ﴾ أي: تعظيمًا وتوقيرًا علىٰ قدرته التَّامة، وأنَّه لا يُخْلِف الميعادَ الذي وعدهم علىٰ ألسنة الأنبياء [المتقدِّمين عن بعثةِ محمَّد ﷺ؛ ولهذا قالوا: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾][1]. وقوله: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ﴾ أي: خضوعًا لله عَزَّوَجَلَّ وإيمانًا وتصديقًا بكتابهِ ورسولِه، ويزيدهم الله خشوعًا؛ أي: إيمانًا وتسليمًا كما قال: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ [محمَّد:١٧].

وقوله: ﴿وَيَخِرُّونَ﴾ عطف صفةٍ علىٰ صفةٍ لا عطف سجودٍ علىٰ سجودٍ، كما قال الشاعر:

إلَـىٰ المَلِـكِ القَـرْمِ وَابْـنِ الهُمَـام ... وَلَيْـثِ الكَتِيبَـةِ فِـي المُـزْدَحَمْ

﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا[2] ﴿١١٠﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴿١١١﴾﴾

يقول تعالىٰ: قل يا محمَّد، لهؤلاء المشركين المنكرين صفة الرحمة لله عَزَّوَجَلَّ المانعين من تسميتِهِ بالرَّحمن: ﴿ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي: لا فرق بين دعائِكُم له باسم «الله» أو باسم «الرحمن»، فإنَّه ذو الأسماء الحسنىٰ، كما قال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ إلىٰ أن قال: ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ٢٢-٢٤].

وقد روىٰ مكحول: أنَّ رجلًا من المشركين سَمِعَ النَّبيَّ ﷺ وهو يقول في سجوده: «يَا رَحْمَنُ يَا رَحِيمُ». فقال: إنه يزعم أنَّه يدعو واحدًا، وهو يدعو اثنين. فأنزل الله هذه الآية. وكذا روي عن ابن عبَّاس، رواهما ابن جرير[3].

---

(١) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

(٢) قال الشيخ القاسمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قال القاضي: استعار لهما الدعاء والاستجابة؛ للتنبيه علىٰ سرعتهما وتيسر أمرهما، وإن المقصود منهما الإحضار للمحاسبة والجزاء. انتهىٰ.

(٣) ضعيف: رواهما ابن جرير (١٥/ ١٨٢)، والرواية الأولىٰ مرسلة، والثانية فيها محمد بن كثير: صدوق كثير الغلط، وأبو الجوزاء، قال البخاري: في إسناده نظر.

وقوله: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ ...﴾[1] الآية، قال الإمام أحمد: حدَّثنا هُشَيْم، حدَّثنا أبو بشر، عن سعيد ابن جبير، عن ابن عبَّاس قال: نزلت هذه الآية وهو مُتَوارٍ بمكَّة ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ قال: كان إذا صلَّىٰ بأصحابه رفع صوته بالقرآن، فلما سمع ذلك المشركون سبُّوا القرآن، وسبُّوا مَن أنزلَهُ، ومَن جاءَ به. قال: فقال الله تعالىٰ لنبيِّه ﷺ: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾ أي: بقراءتِكَ فيسمع المشرِكُونَ فيَسُبُّوا القرآن ﴿وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ عن أصحابك فلَا تُسْمِعُهُمُ القرآن حتىٰ يأخذُوهُ عنك ﴿وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾[2].

أخرجاه في «الصحيحين» من حديث أبي بشر جعفر بن إياس به، وكذا روىٰ الضَّحَّاك عن ابن عبَّاس، وزاد: «فلما هاجر إلىٰ المدينة، سقط ذلك، يفعل أيَّ ذلك شاء».

وقال محمَّد بن إسحاق: حدَّثني داود بن الحصين، عن عكرمة، عن ابن عبَّاس قال: كان رسول الله ﷺ إذا جهر بالقرآن وهو يصلِّي، تفرَّقوا عنه وأَبَوْا أن يسمعوا منه، فكان الرَّجُل إذا أراد أن يستَمِعَ مِن رسول الله ﷺ بعضَ ما يتلو وهو يصلِّي، استرَقَ السَّمع دونَهُم فَرَقًا منهم، فإن رأىٰ أنهم قد عرفوا أنَّه يستمع، ذهب خشيةَ أذاهُم فلم يستمع، فإن خفض صوته ﷺ لم يستمع الَّذِين يستمعون مِن قراءته شيئًا، فأنزل الله ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾ فيتفرقوا عنك ﴿وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ فلا تُسمع مَن أراد أن يسمعها ممن يسترق ذلك [دونهم][3]، لعلَّه يرعوي إلىٰ بعض ما يسمع، فينتفع به ﴿وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾[4].

وهكذا قال عكرمة، والحسن البصري، وقتادة: نزلت هذه الآية في القراءة في الصلاة.

وقال شُعْبَة عن [أشعث بن][5] سليم عن الأسود بن هلال، عن ابن مسعود: لم يُخافتْ بها مَنْ أسمع أذنيه[6].

قال ابن جرير: حدَّثنا يعقوب، حدَّثنا ابن عُلَيَّة، عن سلمة بن علقمة، عن محمَّد بن سيرين قال: نُبِّئْتُ أن أبا بكر كان إذا صلىٰ فقرأ خفضَ صوته، وأنَّ عُمرَ كان يرفع صوتَهُ، فقيل لأبي بكر: لِمَ تصنع هذا؟ قال: أناجي رَبِّي ﷻ وقد علم حاجتي. فقيل: أحسنْتَ. وقيل لعُمَر: لِمَ تصنع هَذَا؟ قال: أطرد الشَّيطان، وأُوقِظُ

---

(١) لوحة (١٧٣ ب).

(٢) البخاري (٤٧٢٢)، ومسلم (٤٤٦)، وأحمد (١/ ٢٣).

(٣) سقط من (ز)، وهو مثبت من «الطبري».

(٤) رواه الطبري (١٥/ ١٨٥)، وفيه داود بن الحصين وهو ضعيف في روايته عن عكرمة، والصحيح في ذلك رواية «الصحيحين» السابقة.

(٥) في (ز): «وقال شعبة عن ... أبي سليم» والمثبت كما في «الطبري» وهو الصواب، وورد في بعض النسخ: (أشعث بن أبي سليم) وهو خطأ، وأشعث هو ابن أبي الشعثاء واسمه سليم.

(٦) صحيح: رواه الطبري (١٥/ ١٨٨)، وعزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٣٥٢) إلىٰ ابن أبي شيبة.

الوَسْنَان[١]. قيل: أحسنتَ. فلما نزلت: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ قيل لأبي بكر: ارفعْ شيئًا، وقيل لعُمر: اخفضْ شيئًا[٢].

وقال أشعث بن سَوَّار، عن عكرمة، عن ابن عبَّاس: نزلَتْ في الدُّعاء[٣]. وهكذا روىٰ الثَّوري، ومالك، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة: نزلت في الدعاء[٤]. وكذا قال مجاهد، وسعيد[٥] بن جبير، وأبو عِياض، ومكحول، وعروة بن الزبير.

وقال الثوري عن عياش العامري[٦]، عن عبد الله بن شدَّاد قال: كان أعراب من بني تميم إذا سلَّم النَّبيُّ ﷺ قالوا: اللَّهم ارزقنا إبلًا وولدًا. قال: فنزلت هذه الآية: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾[٧].

قولٌ آخرُ: قال ابن جرير: حدَّثنا أبو السائب حدَّثنا أبو حفص بن غياث، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة ﵂: نزلت هذه الآيةُ في التشهد: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾[٨].

وبه قال حفص، عن أشعث بن سوار[٩]، عن محمَّد بن سيرين، مثله.

قولٌ آخرُ: قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس في قوله: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ قال: لا تُصَلِّ مراءَاةَ النَّاس، ولا تدعها مخافة النَّاس[١٠].

وقال الثَّوري، عن منصور، عن الحسن البصري: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ قال: لا تُحْسِن علانيتَهَا وَتُسِيْءْ سَرِيرَتَها. وكذا رواه عبد الرزَّاق، عن معمر، عن الحسن به. وهُشَيْم، عن عوف عنه به. وسعيد، عن قتادة، عنه كذلك.

قولٌ آخرُ: قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله: ﴿وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ قال: أهل الكتاب يخافتون، ثم يجهر أحدهم بالحرفِ فيصيح به، ويصيحون هم به وراءه، فنهَاهُ أن يَصِيحَ كما يصيحُ هؤلاء،

---

(١) الوَسْنَان: النائم الذي ليس بمستغرق في نومه.

(٢) **ضعيف**: رواه الطبري (١٥/ ١٨٦)، وفيه انقطاع.

(٣) رواه الطبري (١٥/ ١٨٣)، وفيه أشعث بن سوار: ضعيف، لكن يشهد له رواية عائشة الآتية.

(٤) البخاري (٤٧٢٣)، ومسلم (٤٤٧).

(٥) لوحة (١٧٤ أ).

(٦) كذا في (ز) وفي «الطبري» ط. دار هجر، وهو الصواب كما في «الجرح والتعديل» (٧/ ٦) وفي بعض الطبعات «ابن عياش».

(٧) **ضعيف**: رواه الطبري (١٥/ ١٨٤)، والحديث مرسل.

(٨) رواه الطبري (١٥/ ١٨٧)، وصححه ابن خزيمة (٧٠٧)، والحاكم (١/ ١٣٠) وصححه ووافقه الذهبي.

(٩) في (ز): «أشعث بن بندار»، والصواب ما أثبتناه، وانظر: «الجرح والتعديل» (٢/ ٢٧١)، وهي مثبتةٌ من «الطبري».

(١٠) منقطع: عزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٣٥١) إلىٰ ابن أبي حاتم والطبراني.

وأَن يخافِتَ كما يُخَافِت القوم، ثم كان السبيل الَّذِي بين ذلك، الذي سَنَّ له جبريل من الصلاة.

وقوله: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ لما أثبت تعالىٰ لنفسه الكريمة الأسماء الحسنىٰ، نزَّه نفسه عن النَّقائص فقال: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ بل هو الله الأحد الصَّمد، الَّذي لم يَلِدْ ولم يُولَدْ، ولم يكن له كفوًا أحد.

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾ أي: ليس بذليلٍ فيحتاج أن يكون له وليٌّ أو وزيرٌ أو مشيرٌ، بل هو تعالىٰ شأنه خالق الأشياء وحده لا شريكَ له، ومُقدِّرها ومدبِّرُها بمشيئته وحده لا شريك له.

قال مجاهد في قوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾ لم يحالِف أحدًا ولا يبتغي نصرَ أحدٍ.

﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ أي: عظِّمه وأَجِلَّه عمَّا يقول الظَّالمون المعتَدُون علوًّا كبيرًا.

قال ابن جرير: حدَّثني يونس، أنبأنا ابن وهب، أخبرني أبو صخر، عن القرظي أنه كان يقول في هذه الآية: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا...﴾ الآية، قال: إنَّ اليهود والنَّصارىٰ قالوا: اتَّخذ الله ولدًا، وقال العرب: لبَّيكَ [لبَّيكَ](١)، لا شريك لك؛ إلا شريكًا(٢) هو لكَ، تَمْلِكُهُ وما مَلَكَ. وقال الصابئون والمجوس: لولَا أولياء الله لذَلَّ. فأنزل الله هذه الآية: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾(٣).

وقال أيضًا: حدَّثنا بشر، حدَّثنا يزيد، حدَّثنا سعيد، عن قتادة: ذُكِرَ لنا أنَّ النَّبيَّ ﷺ كان يعلِّم أهلَهُ هذه الآية ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ الصَّغير مِن أهلِهِ والكبير(٤).

قلتُ: وقد جاء في حديثٍ: أن رسول الله ﷺ سمَّاها آية العِزِّ(٥) وفي بعض الآثار: أنها ما قُرِئَت في بيتٍ في ليلةٍ فيُصِيبُهُ سَرَقٌ أو آفةٌ. والله أعلم.

وقال الحافظ أبو يعلىٰ: حدَّثنا بشر بن سيحان البصري، حدَّثنا حرب بن ميمون، حدَّثنا موسىٰ بن عبيدة الرَّبَذي، عن محمَّد بن كعبٍ القُرَظي، عن أبي هريرة قال: خرجت أنا ورسول الله ﷺ ويدي في يده، فأتىٰ علىٰ رجلٍ رَثِّ الهيئة، فقال: «أَيْ فُلَانُ، مَا بَلَغَ بِكَ مَا أَرَىٰ؟». قال: السَّقَم والضُّرُّ يا رسول الله. قال: «أَلَا

---

(١) ليست في (ز).

(٢) لوحة (١٧٤ ب).

(٣) مرسل: رواه الطبري (١٥/ ١٨٩).

(٤) مرسل: رواه الطبري (١٥/ ١٨٧).

(٥) ضعيف: رواه أحمد (٣/ ٤٣٩)، وفيه رِشْدِين بن سعد، وله طريق أخرىٰ فيها ابن لهيعة: اختلط، كلاهما يرويه عن زبان بن فائد وهو ضعيف.

أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ تُذْهِبُ عَنْكَ السَّقَمَ وَالضُّرَّ؟». قال: لا. قال: ما يسرُّني بها أن شهدت معك بدرًا وأُحدًا. قال: فضَحِكَ رسول الله ﷺ وقال: «وَهَلْ يُدْرِكُ أَهْلُ بَدْرٍ وَأَهْلُ أُحُدٍ مَا يُدْرِكُ الفَقِيرُ القَانِعُ؟!». قال: فقال أبو هريرة: يا رسول الله، إيَّاي فعَلِّمْنِي. قال: «فَقُلْ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ: تَوَكَّلْتُ عَلَىٰ الحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ، الحَمْدُ لِله الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي المُلْكِ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ، وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا». قال: فأتىٰ عليَّ رسولُ الله وقد حَسُنَت حالي، قال: فقال لي: «مَهْيَمْ[1]؟». قال: قلتُ: يا رسول الله، لم أَزَلْ أقولُ الكلماتِ التي علَّمْتني[2]. إسناده ضعيفٌ، وفي متنه نكارةٌ. [والله أعلم][3].

آخر تفسير سورة سبحان.

---

(١) مَهْيَمْ؟ أي: ما أَمْرُك وشَأنك. وهي كَلِمةٌ يمانيَّة. «النهاية».

(٢) ضعيف: رواه أبو يعلىٰ (٦٦٧١)، وفيه موسىٰ بن عبيدة: ضعيف. والحديث ضعفه ابن كثير، وقال: في متنه نكارة.

(٣) ليست في (ل).

سُورَةُ الكَهْفِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سورة الكهف وهي مكية

ذكر ما ورد في فضلها، والعشر الآيات من أولها وآخرها، وأنَّها عصمة من الدجال:

قال الإمام أحمد: حدَّثنا محمَّد بن جعفر، حدَّثنا شعبة، عن أبي إسحاق قال: سمعت البراء يقول: قرأ رجلٌ الكهف، وفي الدَّار دابَّة، فجعلت تنفر، فنظر فإذا ضبابةٌ -أو: سحابةٌ- قد غشيته، فذكر ذلك للنَّبيِّ ﷺ فقال: «**اقْرَأْ فُلَانُ، فَإِنَّهَا السَّكِينَةُ تَنَزَّلَتْ عِنْدَ القُرْآنِ، أَوْ تَنَزَّلَتْ لِلْقُرْآنِ**»(١). أخرجاه في «الصحيحين»، من حديث شعبة به.

وهذا الرَّجل الذي كان يتلوها هو: أُسَيْدُ بن الحُضَيْر(٢)، كما تقدم في تفسير البقرة.

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا يزيد، أخبرنا هَمّام بن يحيىٰ، عن قتادة، عن سالم بن أبي الجعد، عن مَعْدان بن أبي طلحة، عن أبي الدَّرداء، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**مَنْ حَفِظَ عَشْرَ آيَاتٍ مِنْ أَوَّلِ سُورَةِ الكَهْفِ، عُصِمَ مِنَ الدَّجَّالِ**»(٣).

رواه مسلم، وأبو داود، والنسائي، والترمذي من حديث قتادة به. ولفظ الترمذي: «**مَنْ حَفِظَ الثَّلَاثَ الآيَاتِ مِنْ أَوَّلِ الكَهْفِ...**» وقال: حسنٌ صحيحٌ.

طريق أخرىٰ: قال الإمام أحمد: حدَّثنا حجاج، حدَّثنا شعبة، عن قتادة، سمعت سالم بن أبي الجعد يحدِّث عن معدان، عن أبي الدرداء، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**مَنْ قَرَأَ العَشْرَ الأَوَاخِرَ مِنْ سُورَةِ الكَهْفِ عُصِمَ مِنْ فِتْنَةِ الدَّجَّالِ**»(٤).

ورواه مسلم أيضًا، والنسائي، من حديث قتادة به. وفي لفظ النسائي: «**مَنْ قَرَأَ عَشْرَ آيَاتٍ مِنَ الكَهْفِ...**» فذكره.

حديثٌ آخر: وقد رواه النسائي في «اليوم والليلة» عن محمَّد بن عبد الأعلىٰ، عن خالد، عن شعبة، عن قتادة، عن سالم بن أبي الجعد، عن ثَوْبان عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**مَنْ قَرَأَ العَشْرَ الأَوَاخِرَ مِنْ سُورَةِ الكَهْفِ، فَإِنَّهُ عِصْمَةٌ لَهُ مِنَ الدَّجَّالِ**»(٥). فيحتمل أنَّ سالمًا سمعه من ثوبان ومِن أبي الدرداء.

---

(١) البخاري (٣٦١٤)، ومسلم (٧٩٥)، وأحمد (٤/ ٢٥١). (٢) لوحة (١٧٥ أ).

(٣) مسلم (٨٠٩)، وأبو داود (٤٣٢٣)، والنسائي في «الكبرىٰ»، والترمذي (٢٨٨٦)، وأحمد (٦/ ٤٤٩).

(٤) مسلم (٨٠٩)، وأحمد (٦/ ١٤٦) من حديث أبي الدرداء.

(٥) صحيح: رواه النسائي في «الكبرىٰ» (١٠٧٨٤).

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا حسن، حدَّثنا ابن لَهِيعة، حدَّثنا زبَّان بن فائد عن سهل بن معاذ بن أنس الجهني، عن أبيه، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**مَنْ قَرَأَ أَوَّلَ سُورَةِ الكَهْفِ وَآخِرَهَا، كَانَتْ لَهُ نُورًا مِنْ قَدَمِهِ إِلَىٰ رَأْسِهِ، وَمَنْ قَرَأَهَا كُلَّهَا كَانَتْ لَهُ نُورًا مَا بَيْنَ [السَّمَاءِ إِلَىٰ الأَرْضِ]**[(١)]»[(٢)] انفرد به أحمد ولم يخرجوه.

وروىٰ الحافظ أبو بكر بن مَرْدويْه [في تفسيره][(٣)] بإسنادٍ له غريب، عن خالد بن سعيد بن أبي مريم، عن نافع، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الكَهْفِ فِي يَوْمِ الجُمُعَةِ، سَطَعَ لَهُ نُورٌ مِنْ تَحْتِ قَدَمِهِ إِلَىٰ عَنَانِ السَّمَاءِ، يُضِيءُ لَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ، وَغُفِرَ لَهُ مَا بَيْنَ الجُمُعَتَيْنِ**»[(٤)]. وهذا الحديث في رفعه نظر، وأحسنُ أحوالِه الوقفُ.

وهكذا روىٰ الإمام: «سعيد بن منصور» في «سننه»، عن هُشَيْم بن بَشِيرٍ، عن أبي هاشم، عن أبي مِجْلَزٍ، عن قيس بن عباد عن أبي سعيدٍ الخدري رضي الله عنه أنَّه قال: من قرأ سورة الكهف في يوم الجمعة، أضاء له مِنَ النور ما بينه وبين البيت العتيق. هكذا وقع موقوفًا، وكذا رواه الثوري، عن أبي هاشم به، من حديث أبي سعيد الخدرىٰ[(٥)].

وقد أخرجه الحاكم في «مستدركه» عن أبي بكر محمَّد بن المؤمل، حدَّثنا الفضيل بن محمَّد الشَّعراني، حدَّثنا نُعَيم بن حمَّاد، حدَّثنا[(٦)] هُشَيْم، حدَّثنا أبو هاشم، عن أبي مِجْلَز، عن قيس بن عُبَاد، عن أبي سعيد، عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الكَهْفِ فِي يَوْمِ الجُمُعَةِ، أَضَاءَ لَهُ مِنَ النُّورِ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الجُمُعَتَيْنِ**»، ثم قال: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه[(٧)]. وهكذا رواه الحافظ أبو بكر البيهقي في «سننه»، عن الحاكم، ثم قال البيهقي: ورواه يحيىٰ بن كثير، عن شعبة، عن أبي هاشم بإسناده أن النَّبيَّ

---

(١) في (ز): (الأرض إلىٰ السماء)، والمثبت موافق لمنا في «المسند».

(٢) ضعيف: رواه أحمد (٣/ ٤٣٩)، وفيه ابن لهيعة: اختلط. وزبان بن فائد، قال الحافظ: ضعيف الحديث مع صلاحه وعبادته [تقريب - ترجمة (١٩٨٦)]، وقال ابن حبان: منكر الحديث جدًّا، ينفرد عن سهل بن معاذ بنسخة كأنها موضوعة، لا يحتج به [المجروحين: ترجمة (٧٣٨)].

(٣) ليست في (ز).

(٤) قال المنذري في «الترغيب والترهيب» (١/ ٢٦٠): إسناده لا بأس به، قال الحافظ ابن حجر في «أماليه» معترضًا علىٰ المنذري: فيه محمد بن خالد تكلم فيه ابن مَنْده وغيره، وقد خفي حاله علىٰ المنذري. قلت: محمد بن خالد هذا قال ابن الجوزي في «الموضوعات»: كذبوه، وقال ابن منده: صاحب مناكير «التلخيص الحبير» (٢/ ٢٤٤) «ميزان الاعتدال» (٣/ ٥٣٤)، وقال ابن كثير: إسناده غريب ثم قال: وأحسن أحواله الوقف. قلت: ولم أقف علىٰ سندٍ له موقوفًا، والله أعلم.

(٥) رواه الدارمي (٢/ ٤٥٤) موقوفًا وليس فيه ذكر الجمعة، قال الألباني: وهذا سند صحيح، وله طريق أخرىٰ موقوفًا علىٰ أبي سعيد الخُدْرِي. قال الألباني: وله حكم المرفوع؛ لأنَّه مما لا يقال بالرأي، انظر: «إرواء الغليل» (٣/ ٩٤)، وقد رجح الدارقطني والبيهقي رواية الوقف هذه.

(٦) لوحة (١٧٥ ب).

(٧) ضعيف مرفوعًا: رواه الحاكم (٢/ ٣٩٩) وقال: صحيح الإسناد. قلت: فيه نعيم بن حماد: صاحب مناكير. والراجح أنه موقوف كما تقدم. ومن رجح الوقف: النسائي في «الكبرىٰ» (٦/ ٢٥)، والطبراني كما في «الدعاء» (٢/ ٩٧٦)، والبيهقي في «الشعب» (٢/ ٧٤)، والذهبي كما في «فيض القدير» (٦/ ١٩٩)، وابن حجر «الأمالي».
قلت: وله حكم الرفع، وهو أصح ما ورد في هذا الباب.

ﷺ قال: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الكَهْفِ كَمَا أُنزِلَتْ كَانَتْ لَهُ نُورًا يَوْمَ القِيَامَةِ»[(١)]. والله أعلم. وفي «المختارة» للحافظ الضِّياء المقدسي من حديث عبد الله بن مصعب بن منظور بن زيد بن خالد الجُهَني، عن علي ابن الحسين، عن أبيه، عن علي مرفوعًا: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الكَهْفِ يَوْمَ الجُمُعَةِ، فَهُوَ مَعْصُومٌ إِلَىٰ ثَمَانِيَةِ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ فِتْنَةٍ، وَإِنْ خَرَجَ الدَّجَّالُ عُصِمَ مِنْهُ»[(٢)].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا ۜ (١) قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ
وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا (٢) مَّاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا
(٣) وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا (٤) مَّا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً
تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا (٥)﴾

قد تقدَّم في أوَّل التَّفسير أنَّه تعالىٰ يحمد نفسه المقدَّسة عند فواتح الأمُورِ وخواتيمها، فإنَّه المحمود علىٰ كلِّ حالٍ، وله الحمد في الأولىٰ والآخِرَة؛ ولهذا حَمِدَ نفسَهُ علىٰ إنزاله كتابه العزيز علىٰ رسوله الكريم محمَّد -صلوات الله وسلامه عليه- فإنَّه أعظم نعمةٍ أنعمها الله علىٰ أهل الأرضِ؛ إذ أخرجَهُم به مِن الظُّلُمات إلىٰ النُّور، حيث جعله كتابًا مستقيمًا لا اعوجاج فيه ولا زَيْغَ، بل يهدي إلىٰ صراطٍ مستقيمٍ، بيِّنًا واضحًا جليًّا نذيرًا للكافرين وبشيرًا للمؤمنين؛ ولهذا قال: ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا﴾ أي: لم يجعل فيه اعوجاجًا ولا زيغًا ولا ميلًا بل جعله معتدلًا مستقيمًا؛ ولهذا قال: ﴿ ﴾ أي: مستقيمًا.

﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ﴾ أي: لمن خالفه وكذَّبه ولم يُؤْمِن به، يُنْذِرُه ﴿بَأْسًا شَدِيدًا﴾، عقوبةً عاجلةً في الدُّنيا وآجلةً في الآخرة ﴿مِّن لَّدُنْهُ﴾ أي: مِن عندِ الله الَّذي لا يُعذِّب عذابه أحد، ولا يُوثِق وثاقه أحد.

﴿وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: بهذا القرآن الذين صدقوا إيمانهم بالعَمَل الصَّالح ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ أي: مثوبةً عند الله جميلةً ﴿مَّاكِثِينَ فِيهِ﴾ في ثوابهم عندَ الله، وهو الجنَّة، خالدين فيه ﴿ ﴾ دائمًا لا زوالَ له[(٣)] ولا انقضاءَ.

﴿وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ قال ابن إسحاق: وهم مشركُو العرب في قولهم: نحن نعبد الملائكة، وهم بَنَاتُ الله.

---

(١) انظر «سنن البيهقي» (٣/ ٢٤٩)، ورجاله ثقات، وإن صحت الرواية فليس فيها ذكر الجمعة.

(٢) ضعيف جدًا: رواه في «المختارة» (١/ ١٥٥)، وفي إسناده عبد الله بن مصعب بن خالد الجهني قال الذهبي في «الميزان»: عن أبيه عن جده وفيهم جهالة، وضعفه الشيخ الألباني في «الضعيفة» (٥/ ٢٦).

تنبيه: يتلخص من الروايات أن أصح ما ورد فيها رواية أبي سعد الموقوفة، ولها حكم الرفع، وأن الثواب الحاصل في قراءة السورة يوم الجمعة أنه أضاء له ما بينه وبين البيت العتيق.

(٣) لوحة (١٧٦ أ).

﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ﴾ أي: بهذا القول الَّذي افترَوْهُ وائتفكُوهُ، مِن علمٍ ﴿وَلَا لِآبَآئِهِمْ﴾ أي: أسلافهم.
﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً﴾: نُصِبَ علىٰ التَّمييز، تقديره: كبُرت كلمتهم هذه كلمة.

وقيل: علىٰ التَّعجُّب، تقديره: أَعْظِمْ بكَلِمَتِهم كلمةً، كما تقول: أكرم بزيدٍ رجلًا، قاله بعض البصريِّين. وقرأ ذلك بعض قرَّاء مكة: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةٌ﴾[١] كما يقال: عَظُم قولُك، وكبر[٢] شأنُك.

والمعنىٰ علىٰ قراءة الجمهور أظهر؛ فإن هذا تبشيعٌ لمقالَتِهم واستعظامٌ لإفْكِهِم؛ ولهذا قال: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ أي: ليس لَهَا مستندٌ سِوَىٰ قولهم، ولا دَليلَ لهم عليهَا إلَّا كذبهم وافتراؤُهم؛ ولهذا قال: ﴿إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾.

وقد ذكر محمَّد بن إسحاق سبب نزول هذه السورة الكريمة، فقال: حدَّثني شيخٌ من أهل مصر قَدِمَ علينا منذ بضع وأربعين سنةً، عن عكرمة، عن ابن عبَّاسٍ قال: بعثت قريش النضر بن الحارث، وعقبة بن أبي مُعَيط، إلىٰ أحبار يهود بالمدينة، فقالوا لهم: سَلُوهُم عن محمَّد، وصِفُوا لهم صفته، وأخبروهم بقوله؛ فإنهم أهل الكتاب الأول، وعندهم ما ليس عندنا من علم الأنبياء. فخرجا حتىٰ قدما المدينة، فسألوا أحبار يهود عن رسول الله ﷺ، ووصفوا لهم أمره وبعض قوله، وقالا: إنَّكم أهل التوراة، وقد جئناكم لتُخْبِرُونا عن صاحبنا هذا. قال: فقالت لهم: سلوه عن ثلاثٍ نأمركم بهنَّ، فإن أخبركم بِهِنَّ، فهو نبيٌّ مرسلٌ، وإن لم يفعل فالرَّجل مُتَقَوِّلٌ فرَوْا فيه رأيكم: سلُوهُ عن فتيةٍ ذهبوا في الدَّهر الأوَّل، ما كان مِن أمرهم؟ فإنَّهم قد كان لهم حديثٌ عجيبٌ. وسلُوهُ عن رجلٍ طوَّافٍ بلغ مشارق الأرضِ ومغاربها، ما كان نبَؤه؟ وسلوهُ عَن الرُّوح، ما هو؟ فإن أخبركم بذلك فهو نبيٌّ فاتَّبِعوه، وإن لم يخبركم فإنَّه رجلٌ متقوِّلٌ، فاصنعوا في أمره ما بَدَا لكم، فأقبل النَّضر وعقبة حتَّىٰ قَدِمَا علىٰ قريشٍ، فقالا: يا معشر قريش، قد جِئْنَاكُم بفصلِ ما بينكم وبين محمَّد، قد أمرنا أحبارُ يهودَ أَن نسأله عَن أمورٍ، فأخبروهم بها، فجاءوا رسول الله ﷺ فقالوا: يا محمَّد، أخبرنا: فسألوه عمَّا أمروهم به، فقال لهم رسول الله ﷺ: «**أُخْبِرُكُمْ غَدًا بِمَا سَأَلْتُمْ عَنْهُ**» ولم يستثنِ[٣]، فانصرفوا عنه، ومكث رسول الله ﷺ[٤] خمس عشرة ليلةً، لا يُحْدِثُ الله إليه في ذلك وحيًا، ولا يأتيه جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ حتَّىٰ أرجف أهل مكة وقالوا: وَعَدَنا محمَّدٌ غدًا، واليوم خمسَ عشرةَ قد أصبَحْنَا فيها، لا يُخبرنا بشيءٍ عمَّا سألناه عنه. وحتىٰ أحزنَ رسول الله ﷺ مكثُ الوحي عنه، وشقَّ عليه ما يتكلَّم به أهلُ مكَّة، ثمَّ جاءه جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ مِن عند الله عَزَّوَجَلَّ بسورة أصحاب الكهف، فيها معاتبته إيَّاه علىٰ حُزْنِهِ عليهم، وخَبَر ما سألُوهُ عنهُ مِن أمر الفِتْيَة والرَّجل الطَّوَّاف، وقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[٥] [الإسراء: ٨٥].

---

(١) شاذة: قَرَأَ (كَلِمَةٌ) الْحَسَنُ وَابْنُ مُحَيْصِنٍ، وَلَيْسَ فِي الْمُتَوَاتِرِ إِلَّا (كَلِمَةً).
(٢) في (ز): وعظم شأنك. (٣) أي: لم يقل: (إن شاء الله). (٤) لوحة (١٧٦ ب).
(٥) ضعيف: رواه ابن جرير (١٥/ ١٩١)، وفيها جهالة الشيخ من أهل مصر. والله أعلم.

﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ٦ إِنَّا جَعَلۡنَا مَا عَلَى ٱلۡأَرۡضِ زِينَةٗ لَّهَا لِنَبۡلُوَهُمۡ أَيُّهُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا ٧ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيۡهَا صَعِيدٗا جُرُزًا ٨﴾

يقول تعالىٰ مسليًّا رسولَهُ ﷺ في حُزْنه علىٰ المُشركِين؛ لتركهم الإيمان وبُعْدِهم عنه، كما قال تعالىٰ: ﴿فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر:٨]، وقال: ﴿وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ﴾ [النحل:١٢٧]، وقال: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ [الشعراء:٣].

باخع: أي مهلك نَفْسك بحُزْنك عَلَيْهِم؛ ولهذا قال: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ﴾ يعني: القرآن ﴿أَسَفًا﴾ يقول: لا تُهلِك نفسَكَ أسفًا.

قال قتادة: قَاتِل نَفْسَكَ غضبًا وحزنًا عليهم. وقال مجاهد: جزعًا. والمعنىٰ [متقارب، أي][(١)]: لا تأسَف عليهم، بل أبلغهم رسالة الله، فمَنِ اهتدَىٰ فلنَفْسِه، ومَن ضلَّ فإنَّما يضلُّ عليها، فلا تذهب نفسُك عليهم حسرات.

ثم أخبر تعالىٰ أنَّه جعل الدنيا دارًا فانيةً مُزيَّنةً بزينةٍ زائلةٍ. وإنَّما جعلها دارَ اختبارٍ لا دارَ قرارٍ، فقال: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا مَا عَلَى ٱلۡأَرۡضِ زِينَةٗ لَّهَا لِنَبۡلُوَهُمۡ أَيُّهُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا﴾.

قال قتادة، عن أبي نَضْرة، عن أبي سعيدٍ، عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «إِنَّ الدُّنْيَا خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ وَإِنَّ اللهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا فَنَاظِرٌ مَاذَا تَعْمَلُونَ، فَاتَّقُوا الدُّنْيَا، وَاتَّقُوا النِّسَاءَ، فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ»[(٢)].

ثم أخبر تعالىٰ بزوَالِها وفنَائِها، وفراغِهَا وانقضائِهَا، وذَهَابِها وخرابِهَا، فقال: ﴿وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيۡهَا صَعِيدٗا جُرُزًا﴾ [أي: وإنَّا لمصيِّروها بعد الزِّينة إلىٰ الخَراب والدَّمار، فنجعل كلَّ شيءٍ عليها هالكًا ﴿صَعِيدٗا جُرُزًا﴾: لا يُنْبت ولا ينتفع به، كما قال العوفي، عن ابن عبَّاس في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيۡهَا صَعِيدٗا جُرُزًا﴾][(٣)] يقول: يهلك كل شيءٍ عليها ويَبِيد. وقال مجاهد: ﴿صَعِيدٗا جُرُزًا﴾ بلقعًا.

وقال قتادة: الصَّعيد: الأرضُ الَّتي ليس فيها شجرٌ ولا نباتٌ.

وقال ابن زيد: الصَّعيد: الأرضُ الَّتي ليس فيها شيءٌ، ألا[(٤)] ترَىٰ إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا نَسُوقُ ٱلۡمَآءَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡجُرُزِ فَنُخۡرِجُ بِهِۦ زَرۡعٗا تَأۡكُلُ مِنۡهُ أَنۡعَٰمُهُمۡ وَأَنفُسُهُمۡۚ أَفَلَا يُبۡصِرُونَ﴾ [السجدة:٢٧].

وقال محمَّد بن إسحاق: ﴿وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيۡهَا صَعِيدٗا جُرُزًا﴾ يعني: الأرض، إنَّ ما عليها لفانٍ وبائدٌ، وإنَّ المرجعَ لإلَىٰ اللهِ فلا تأسَ ولا يَحْزُنْك ما تسمعُ وترَىٰ.

---

(١) ليست في (ز).

(٢) مسلم (٢٧٤٢)، والنسائي في «الكبرىٰ» (٩٢٩٩)، وأحمد (٣/ ٢٢، ٤٠، ٩٨).

(٣) سقط من (ز).

(٤) لوحة (١٧٧ أ).

﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾ ﴾

هذا إخبارٌ عن قصَّة أصحاب الكهف [والرَّقيم(١)](٢) علىٰ سبيل الإجمالِ والاختصارِ، ثم بسطها بعد ذلك فقال: ﴿أَمْ حَسِبْتَ﴾ يعني: يا محمَّد ﴿أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا﴾ أي: ليسَ أمرهم عجيبًا في قدرتنا وسلطانِنَا، فإنَّ خلْقَ السَّموات والأرض، واختلافَ اللَّيل والنهار، وتسخيرَ الشَّمس والقمر والكواكب، وغيرَ ذلك منَ الآيات العظيمةِ الدَّالَّة علىٰ قدرةِ الله تعالىٰ، وأنَّه علىٰ ما يشاءُ قادرٌ ولا يُعْجِزُه شيءٌ- أعجبُ مِن أخبار أصحابِ الكهف [والرَّقيم](٣) كما قال ابن جريج(٤) عن مجاهد: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا﴾ يقول: قد كان مِن آياتِنَا ما هو أعجب مِن ذلك.

وقال العوفي، عن ابن عبَّاس: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا﴾ يقول: الَّذي آتيتك مِن العلم والسُّنَّة والكتاب، أفضل مِن شأن أصحاب الكهف والرَّقيم.

وقال محمَّد بن إسحاق: ما أظهرت من حُجَجِي علىٰ العباد، أعجب مِن شأن أصحاب الكهف والرَّقيم. [وأما «الكهف» فهو: الغار في الجبل، وهو الَّذي لجأ إليه هؤلاء الفِتْيَة المذكورون.

وأمَّا «الرَّقيم»](٥) فقال العوفي، عن ابن عبَّاس: هو وادٍ قريبٌ مِن أيلَة(٦). وكذا قال عطية العوفي، وقتادة. وقال الضَّحَّاك: أمَّا «الكهف» فهو: غارُ الوادي، و «الرَّقيم»: اسم الوَادِي.

وقال مجاهد: «الرقيم»: [كتاب تبيانهم](٧) ويقول بعضهم: هو الوادي الَّذِي فيه كهفهم.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا الثوري، عن سِمَاك، عن عكرمة، عن ابن عبَّاسٍ في قوله: «الرقيم»، قال: يزعم كعب أنَّها القرية(٨). وقال ابن جريج عن ابن عبَّاس: «الرقيم» الجبل الذي فيه الكهف.

وقال ابن إسحاق، عن عبد الله بن أبي نجيح، [عن مجاهد](٩) عن ابن عبَّاس قال: اسم ذلك

---

(١) قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَالرَّقِيم) بمعنىٰ المرقوم: أي المكتوب لأنه كتب في حجر علىٰ هذا الكهف قصتُهم من أولها إلىٰ آخرها.

(٢) ليست في (ز). (٣) ليست في (ز).

(٤) في (ز): ابن جرير، والصواب ما أثبتناه، وهذا القول عند ابن جرير هو قول سعيد عن قتادة، وأما قول ابن جريج عن مجاهد فهو: «كانوا يقولون هم عجب»، ولعله سقط نظر.

(٥) ليست في (ز).

(٦) أيلة: مدينة علىٰ ساحل البحر الأحمر مما يلي الشام، قيل: هي آخر الحجاز وأول الشام، وهي مدينة اليهود الذين اعتدوا في السبت.

(٧) في (ز): «كان بنيانهم»، والمثبت كما في «الطبري».

(٨) صحيح: رواه أحمد (٦/ ١٤٧). (٩) سقط من (ز)، وهو مثبت من «الطبري».

الجبل «بنجلوس»(١).

وقال ابن جريج: أخبرني وهب بن سليمان، عن(٢) شعيب الجُبَّائي: أنَّ اسم جبل الكهف «بنجلوس»، واسم الكهف «حيزم»، والكلب «حمران».

وقال عبد الرزاق: أنبأنا إسرائيل، عن سماك، عن عكرمة، عن ابن عبَّاس قال: القرآنُ أعلَمُهُ إلا حَنَانًا، والأوَّاه، والرقيم(٣).

وقال ابن جريج: أخبرني عمرو بن دينار، أنه سمع عكرمة يقول: قال ابن عبَّاس: ما أدري ما الرقيم؟ أكتاب أم بنيان؟ وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس: الرقيم: الكتاب(٤).

وقال سعيد بن جبير: [الرقيم لوح من](٥) حجارة، كتبوا فيه قَصَصَ أصحابِ الكهفِ ثم وَضَعُوه علىٰ باب الكهف. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: الرَّقيم: الكتاب. ثم قرأ: ﴿كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ﴾ [المطففين:٩].

وهذا هو الظَّاهر من الآية، وهو اختيار ابن جرير قال: «الرقيم» فعيل؛ بمعنىٰ مرقوم، كما يقول للمقتول: قتيل، وللمجروح: جريح. والله أعلم.

وقوله: ﴿إِذۡ أَوَى ٱلۡفِتۡيَةُ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةٗ وَهَيِّئۡ لَنَا مِنۡ أَمۡرِنَا رَشَدٗا﴾ يخبر تعالىٰ عن أولئك الفِتية، الَّذين فرُّوا بدينِهِم من قومهم؛ لئلَّا يفتنُوهم عنه(٦)، فَهَرَبوا منهم فَلَجَئُوا إلىٰ غارٍ في جبلٍ ليختَفُوا عن قومهم، فقالوا حين دخلوا سائِلين منَ الله تعالىٰ رحمته ولطفِهِ بهم: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةٗ﴾ أي: هَب لنا مِن عندك رحمةً ترحمنا بِهَا وتسترنا عَن قومنا ﴿وَهَيِّئۡ لَنَا مِنۡ أَمۡرِنَا رَشَدٗا﴾ أي: وقدِّر لنا من أمرنا هذا رشدًا؛ أي: اجعل عاقبتنا رشدًا كما جاء في الحديث: «**وَمَا قَضَيْتَ لَنَا مِنْ قَضَاءٍ، فَاجْعَلْ عَاقِبَتَهُ رَشَدًا**»(٧)، وفي «المسند» من حديث بُسْر بن أبي أرطاة، عن رسول الله ﷺ أنه كان يدعو: «**اللَّهُمَّ أَحْسِنْ عَاقِبَتَنَا فِي الأُمُورِ كُلِّهَا، وَأَجِرْنَا مِنْ خِزْيِ الدُّنْيَا وَعَذَابِ الآخِرَةِ**»(٨).

وقوله: ﴿فَضَرَبۡنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمۡ فِي ٱلۡكَهۡفِ سِنِينَ عَدَدٗا﴾ أي: ألقينا عليهم النَّوم حين دخلوا إلىٰ

---

(١) ابن إسحاق: مدلِّس وقد عنعن، فالرِّواية ضعيفة، وعلىٰ فرض صحَّة الإسناد، فمعلوم أنَّ شرط قبول مثل هذه الآثار أن يكون الصَّحابيُّ لم يأخذ مِن كتب أهل الكتاب، وهذا لا يتوفَّر هنا.

(٢) لوحة (١٧٧ ب).

(٣) رواه الطبري (١٥/ ١٩٩)، ورواية سماك عن عكرمة مضطربة كما تقدَّم.

(٤) منقطعٌ بين عليٍّ بن أبي طلحة وابن عبَّاس.

(٥) في (ز): لوح حجارة. والمثبت كما في «الطبري».

(٦) قال العلامة السعدي رحمه الله: وفي هذه القصة دليل علىٰ أن من فر بدينه من الفتن، سلمه الله منها، وأن من حرص علىٰ العافية عافاه الله ومن أوىٰ إلىٰ الله، آواه الله، وجعله هداية لغيره، ومن تحمل الذل في سبيله وابتغاء مرضاته، كان آخر أمره وعاقبته العز العظيم من حيث لا يحتسب.

(٧) **صححه الألباني**: رواه أحمد (٦/ ١٤٧)، وابن ماجه (٣٨٤٦)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٦٣٩)، وانظر: «السلسلة الصحيحة» (٤/ ١٥٤٢).

(٨) **ضعفه الألباني**: رواه أحمد (٤/ ١٨١)، والحاكم (٣/ ٥٩١)، وابن حبان (٤٩)، وانظر: «السلسلة الضعيفة» (٢٩٠٧).

الكهف، فناموا سِنينَ كثيرةً ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ ﴾ أي: مِن رَقْدَتِهِم تلك، وخرج أحدهم بِدَرَاهِم معه ليشتري لهم بها شيئًا يأكلونه، كما سيأتي بيانه وتفصيله؛ ولهذا قال: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ ٱلْحِزْبَيْنِ ﴾ أي: المختلفين فيهم ﴿أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدًا ﴾ قيل: عددًا، وقيل: غايةً؛ فإن الأمد الغاية كقوله:

سَبَقَ الجَوَادُ إِذَا اسْتَوْلَىٰ عَلَى الأَمَدِ

﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا (١) ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓاْ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾ ﴾

مِن هاهنا شَرَعَ في بَسْطِ القِصَّة وشرحها، فذكر تعالىٰ أَنَّهم فتيةٌ -وهم الشباب- وهم أقبل للحقِّ، وأهدىٰ للسَّبيل من الشُّيوخ، الَّذين قد عتَوْا[٢] وعَسَوا في دين الباطل؛ ولهذا كان أكثر المُسْتَجِيبين لله ولرسوله ﷺ شبابًا، وأما المشايخ من قريش، فعامتهم بَقُوا علىٰ دينهم، ولم يسلم منهم إلا القليل. وهكذا أخبر تعالىٰ عن أصحاب الكهف أَنَّهم كانوا فِتيةً شبابًا.

قال مجاهد: بلَغني أنَّه كان في آذانِ بعضهم القِرَطة[٣]؛ يعني: الحِلَق، فألهمهمَ الله رشدهم وآتاهم تقواهم، فآمنوا بربِّهم؛ أي: اعترفوا له بالوحدانية، وشهدوا أنَّه لا إله إلا هو.

﴿وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴾: استدلَّ بهذه الآية وأمثالها غيرُ واحدٍ من الأئمَّة كالبخاري وغيره ممَّن ذهب إلىٰ زيادةِ الإيمان وتفاضله، وأنَّه يزيد وينقص؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴾ كما قَالَ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴾ [محمَّد:١٧]، وقال: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا ﴾ [التوبة:١٢٤]، وقال: ﴿لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ﴾ [الفتح:٤] إلىٰ غير ذلك من الآيات الدَّالَّة علىٰ ذلك.

وقد ذكر أَنَّهم كانوا علىٰ دين عيسىٰ ابن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ والله أعلم -والظَّاهر أنهم كانوا قبل ملة النَّصرانيَّة بالكليَّة، فإنَّه لو كانوا علىٰ دين النَّصرانيَّة، لما اعتنىٰ أحبار اليهود بحفظِ خبرهم وأمرهم، لمباينتهم لهم. وقد تقدَّم عن ابن عبَّاس: أنَّ قريشًا بعثوا إلىٰ أحبار اليهود بالمدينة يطلبون منهم أشياءَ يمتحنون بها رسول الله ﷺ، فبَعَثُوا إليهم أن يسألوه عَن خبر هؤلاءِ، وعن خبر ذِي القَرْنَين، وعن الروح، فدلَّ هذا علىٰ أنَّ هذا أمرٌ محفوظٌ في كتب أهل الكتاب، وأنَّه متقدِّمٌ علىٰ دين النَّصرانيَّة، والله أعلم.

وقوله: ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ يقول تعالىٰ: وصَبَّرناهم علىٰ

---

(١) لوحة (١٧٨ أ). (٢) يقال للشيخ إذا ولىٰ وكبر: عتا يعتو عتيًّا، وعسا يعسو، مثله.

(٣) القِرَطة: جمع قُرْط، وهو ما يعلق في الأذن من الذهب والفضة.

مخالفة قومِهم ومَدِينتِهم، ومفارقة ما كانوا فيه من العَيْشِ الرَّغيد والسَّعادة والنِّعمة، فإنَّه قد ذكر غيرُ واحدٍ من المفسِّرين من السَّلف والخلف أنَّهم [كانوا][(١)] من أبناء ملوك الرُّوم وسادتهم، وأنَّهم خرجوا يومًا[(٢)] في بعض أعيادِ قومِهم، وكان لهم مجتمعٌ في السَّنة يجتمعون فيه في ظاهر البلدِ، وكانوا يعبدون الأصنام والطَّواغيت، ويذبحون لها، وكان لهم ملكٌ جبَّارٌ عنيدٌ يقال له: «دِقْيانُوس»، وكان يأمر النَّاس بذلك، ويحثُّهم عليه، ويدعوهم إليه. فلما خرج النَّاس لمجْتَمَعِهِم ذلك، وخرج هؤلاء الفتية مع آبائِهم وقومهم، ونظروا إلىٰ ما يصنع قومهم بعَيْنِ بصيرتهم، عرفوا أنَّ هذا الَّذِي يصنعه قومهم من السُّجود لأصنامِهم والذَّبح لها، لا ينبغِي إلا لله الَّذِي خلق السَّمواتِ والأرضَ، فجعل كلُّ واحدٍ منهم يتخلَّص من قومه، وينحاز منهم، ويتبرَّز عنهم ناحية. فكان أول من جلس منهم [وحده][(٣)] أحدهم، جلس تحت ظل شجرةٍ، فجاء الآخر فجلس عنده، وجاء الآخر فجلس إليهما، وجاء الآخر فجلس إليهم، وجاء الآخر، وجاء الآخر، وجاء الآخر، ولا يعرف واحدٌ منهم الآخر، وإنَّما جمعهم هناك الذي جمع قلوبهم علىٰ الإيمان، كما جاء في الحديث الذي رواه البخاري تعليقًا، من حديث يحيىٰ بن سعيد، عن عمرة، عن عائشة ﵂ قالت: قال رسول الله ﷺ: «**الأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ، فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ، وَمَا تَنَاكَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ**». وأخرجه مسلم في «صحيحه» من حديث سهيلٍ [عن أبيه][(٤)]، عن أبي هريرة عن النَّبيِّ ﷺ[(٥)].

والناس يقولون: الجنسيَّة علَّة الضَّم.

والغرض أنَّه جعل كلُّ أحدٍ منهم يكتم ما هو فِيهِ عن أصحابِهِ؛ خوفًا منهم، ولا يدري أنهم مثله، حتىٰ قال أحدهم: تعلمون -والله يا قوم- إنَّه ما[(٦)] أخرجكم من قومكم وأفردكم عنهم، إلا شيءٌ، فليُظهر كلُّ واحدٍ منكم ما بأمره، فقال آخر: أما أَنَا فإنِّي [واللهِ][(٧)] رأيتُ ما قومي عليه، فعرَفْتُ أنَّه باطلٌ، وإنَّما الَّذِي يستحق أن يُعْبَد [وحده][(٨)] ولا يُشْرَك به شيءٌ هو الله الذي خلق كلَّ شيءٍ: السَّموات والأرض وما بينهما، وقال الآخر: وأنا وَاللهِ وقع لي كذلك، وقال الآخر كذلك، حتىٰ توافقوا كلهم علىٰ كلمةٍ واحدةٍ، فصاروا يدًا واحدةً وإخوان صِدْقٍ، فاتَّخذوا لهم معبدًا يعبدُونَ الله فيه، فعرف بهم قومهم، فوَشَوْا بأمرهم إلىٰ مَلِكِهِم، فاستحضرهم بين يديه فسألهم عن أمرهم وما هم عليه فأجابوه بالحقِّ، ودعوه إلىٰ الله ﷻ؛ ولهذا أخبر تعالىٰ عنهم بقوله: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا﴾ ولَن: لِنَفْيِ التَّأبيد؛ أي: لا يقع منا هذا[(٩)] أبدًا؛ لأنَّا لو فعلنا ذلك لكان باطلًا؛ ولهذا قال عنهم: ﴿لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا﴾ أي: باطِلًا وكذبًا وبهتانًا.

﴿هَٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ﴾ أي: هَلَّا أقاموا علىٰ

---

(١) ليست في (ز).
(٢) لوحة (١٧٨ ب).
(٣) ليست في (ز).
(٤) سقط من (ز)، وهو مثبت من «مسلم».
(٥) البخاري تعليقًا (٣٣٣٦)، ومسلم (٢٦٣٨).
(٦) في (ز): إنما.
(٧) ليست في (ز).
(٨) ليست في (ز).
(٩) لوحة (١٧٩ أ).

صحَّة ما ذهبوا إليه دليلًا واضحًا صحيحًا؟! ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ يقولون: بل هم ظالمون كَاذِبُون في قولهم ذلك، فيقال: إنَّ مَلِكَهُم لما دَعَوْه إلىٰ الإيمان بالله، أبَىٰ عليهم، وتَهَدَّدهم وتوعَّدَهُم، وأمر بنزع لباسهم عنهم الَّذِي كان عليهم مِن زينة قومهم، وأجَّلهم لينظروا في أَمْرِهِم، لعلهم يراجعون دينَهُم الَّذِي كانوا عليه. وكان هذا مِن لطف الله بهم؛ فإنَّهم في تلك النظرة توصلوا إلىٰ الهرب منه، والفرار بدِينِهِم من الفتنة.

وهذا هو المشْرُوعُ عند وقوع الفِتَنِ في النَّاس، أن يفرَّ العبد منهم خوفًا علىٰ دينه، كما جاء في الحديث: «يُوشِكُ أَنْ يَكُونَ خَيْرُ مَالِ أَحَدِكُمْ غَنَمًا يَتْبَعُ بِهَا شَعَفَ الجِبَالِ وَمَوَاقِعَ القَطْرِ؛ يَفِرُّ بِدِينِهِ مِنَ الفِتَنِ»[(١)]؛ ففي هذه الحال تُشرع العُزلة عن النَّاس، ولا تشرع فيما عداها؛ لما يفوت بها من ترك الجَمَاعَات والجُمَع.

فلما وقع عزمهم علىٰ الذَّهاب والهَرَب من قومِهِم، واختار الله تعالىٰ لهُم ذلك، وأخبر عنهم بذلك في قوله: ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ أي: وإذ فارقتموهم وخالفتموهم بأَدْيَانِكُم في عبادتهم غير الله، ففارقوهم أيضًا بأبدانكم[(٢)] ﴿فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ أي: يَبْسُط عليكم رحمةً يستركم بها مِن قومِكُم ﴿وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم﴾ الَّذِي أنتم فيه، ﴿مِّرْفَقًا﴾ أي: أمرًا ترتفقون به. فعند ذَلِك خرجوا هُرابًا إلىٰ الكهف، فأَوَوْا إليه، ففقدهم قومُهُم مِن بين أظهُرِهِم، وتَطَلَّبهم الملك فيقال: إنه لم يظفر بِهِم، وعَمَّىٰ الله عليه خبرهم. كما فعل بنبيه محمَّد ﷺ وصاحبه الصدِّيق، حين لجأ إلَىٰ غارِ ثور، وجاء المشركون من قريش في الطَّلب، فلَمْ يهتدوا إليه مع أنَّهم[(٣)] يمرُّون عليه، وعندها قال النَّبيُّ ﷺ حين رأىٰ جَزَعَ الصِّدِّيق في قوله: يا رسول الله، لو أنَّ أحدهم نظر إلىٰ موضع قدميه لأبصرنا، فقال: «يَا أَبَا بَكْرٍ، مَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللهُ ثَالِثُهُمَا؟»[(٤)]، وقد قال تعالىٰ: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ[(٥)] وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٤٠] فقصة هذا

---

(١) البخاري (١٩) (٣٣٠٠) (٦٤٩٥) (٧٠٨٨).

(٢) قال الشيخ القاسمي رحمه الله: زعم قوم أن الآية تفيد مشروعية العزلة واستحبابها مطلقًا، وهو خطأ، فإنها تشير إلىٰ التأسي بأهل الكهف في الاعتزال، إذا اضطُهد المرء في دينه وأريد علىٰ الشرك. وممن رد الاحتجاج بهذه الآية علىٰ تفضيل العزلة، الإمام الغزالي حيث قال في «إحيائه»: وأهل الكهف لم يعتزل بعضهم بعضا وهم مؤمنون، وإنما اعتزلوا الكفار؛ أي: ولا ريب في مشروعيته فراراً من الفتن، فقول السيوطي في «الإكليل»: في الآية مشروعية العزلة والفرار من الظلمة وسكون الغِيرانِ والجبال عند فساد الزمانِ - كلام مجمل لا بد من التفصيل فيه، وأي عصر خلا من الفساد؟! وسياق الآية في الاضطهاد فحسب، فافهم ولا تغلُ.

(٣) في (ز): ثم إنهم.

(٤) رواه البخاري (٤٦٦٣)، ومسلم (٢٣٨١).

(٥) لوحة (١٧٩ ب).

الغار أشرفُ وأجلُّ وأعظمُ وأعجبُ مِن قصَّة أصحاب الكهف، وقد قيل: إنَّ قومهم ظَفِروا بهم، وقفوا علىٰ باب الغَارِ الَّذي دخلوه، فقالوا: ما كنَّا نُريدُ منهم مِن العقوبة أكثر ممَّا فعلوا بأنفسِهم، فأمَرَ الملك برَدْمِ بابه عليهم ليهلكوا مكانَهُم ففعل لهم ذلك، وفي هذا نظر، والله أعلم؛ فإنَّ الله تعالىٰ قد أخبر أنَّ الشَّمس تدخل عليهم في الكهف بُكْرَةً وعشيَّةً، كما قال تعالىٰ:

﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾﴾

هذا دليلٌ علىٰ أنَّ باب هذا الكهف من نحو الشمال؛ لأنَّه تعالىٰ أخبر أنَّ الشَّمس إذا دخلته عند طُلُوعِهَا تزاورُ عنه ﴿ذَاتَ ٱلْيَمِينِ﴾ أي: يتقلَّص الفيءُ يُمْنَةً كما قال ابن عبَّاس، وسعيد بن جبير، وقتادة: ﴿تَّزَٰوَرُ﴾ أي: تميل؛ وذلك أنَّها كلَّما ارتفعت فِي الأفق تقلص شعاعها بِارْتِفَاعِهَا حتَّىٰ لا يبقىٰ منه شيءٌ عند الزَّوال في مثل ذلك المكانِ؛ ولهذا قال: ﴿وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ أي: تدخلُ إلىٰ غارهم مِن شمالِ بابه، وهو مِن ناحية المشرق، فدَلَّ علىٰ صِحَّة ما قلناه، وهذا بيِّنٌ لمَن تأمَّله وكان له علمٌ بمعرفة الهيئة، وسير الشَّمس والقمر والكواكب، وبيانه أنَّه لو كان باب الغارِ مِن ناحية الشَّرق لما دخل إليه منها شيء عند الغُرُوب، ولو كان مِن ناحية القِبْلَةِ لما دخل منها شيءٌ عند الطُّلوع ولا عند الغُرُوب، ولا تزاور الفيءُ يمينًا ولا شمالًا، ولو كان من جهة الغرب لما دخلته وقت الطلوع، بل بعد الزَّوال ولم تزل فيه إلىٰ الغروب، فتعيَّن ما ذكرناه ولله الحمد.

وقال ابن عبَّاس ومجاهد وقتادة: ﴿تَّقْرِضُهُمْ﴾(١) تتركهم.

وقد أخبر الله تعالىٰ بذَٰلِكَ وأراد منَّا فهمه وتدبُّره، ولم يُخْبِرْنا بمكانِ هذا الكهف فِي أيِّ البلاد من الأرض؛ إذ لا فائدة لنا فيه ولا قصد شرعي.

وقد تكلَّف بعض المفسِّرين فذكَرُوا فيه أقوالًا فتقدَّم عن ابن عبَّاس أنَّه قال: هو قريب من أيلة. وقال ابن إسحاق: هو عند نِينَوَىٰ. وقيل: ببلاد الرُّوم. وقيل: ببلاد البلقاء. والله أعلم بأيِّ بلادِ الله هو. ولو كان لنا فيه مصلحةٌ دينيَّةٌ لأرشدنا الله ورسوله إليه، فقد قال رسول الله ﷺ: «مَا تَرَكْتُ شَيْئًا يُقَرِّبُكُمْ إِلَىٰ الجَنَّةِ(٢) وَيُبَاعِدُكُمْ مِنَ النَّارِ، إِلَّا(٣) وَقَدْ أَعْلَمْتُكُمْ بِهِ»(٤). فأعلمنا تعالىٰ بِصِفَتِهِ، ولم يعلمنا بمكانه، فقال: ﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ﴾ قال مالك، عن زيد بن أسلم: تميل ﴿ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا

---

(١) قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: وقوله: ﴿تَّقْرِضُهُمْ﴾ قيل: المعنىٰ تتركهم وقيل: تصيب منهم، وهو الأقرب أنها تصيب منهم، وفائدة هذه الإصابة أن تمنع أجسامَهم من التغيُّر لأن الشمس كما يقول الناس: إنها صحة وفائدة للأجسام.

(٢) في (ز): «إلىٰ الله»، والمثبت موافق لما في «شعب الإيمان».

(٣) لوحة (١٨٠ أ).

(٤) رواه الطبراني في «الكبير» (٢/ ١٥٥/ ١٦٤٧) وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٨٠٣)، وله شواهد أخرىٰ. راجع «الصحيحة» للألباني.

غَرَبَت تَّقۡرِضُهُمۡ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمۡ فِي فَجۡوَةٖ مِّنۡهُۚ﴾ أي: في متسع منه داخلًا بحيث لا تمسهم؛ إذ لو أصابتْهم لأحرقت أبدانَهم وثيابهم؛ قاله ابن عبَّاس.

﴿ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِۗ﴾ حيث أرشدهم تعالىٰ إلىٰ هذا الغار الَّذِي جعلهم فيه أحياء، والشَّمس والرِّيح تدخل عليهم فيه لتبقىٰ أبدانهم؛ ولهذا قال: ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِۗ﴾.

ثم قال: ﴿مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيّٗا مُّرۡشِدٗا﴾ أي: هو الذي أرشد هؤلاء الفتية إلىٰ الهداية مِن بين قومِهِم، فإنَّه مَن هداه الله اهتَدَىٰ، ومن أضلَّه فلا هَادِيَ له.

﴿وَتَحۡسَبُهُمۡ أَيۡقَاظٗا وَهُمۡ رُقُودٞۚ وَنُقَلِّبُهُمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِۖ وَكَلۡبُهُم بَٰسِطٞ ذِرَاعَيۡهِ بِٱلۡوَصِيدِۚ لَوِ ٱطَّلَعۡتَ عَلَيۡهِمۡ لَوَلَّيۡتَ مِنۡهُمۡ فِرَارٗا وَلَمُلِئۡتَ مِنۡهُمۡ رُعۡبٗا ١٨﴾

ذكر بعض أهل العلم أنَّهم لما ضرب الله علىٰ آذانِهِم بالنَّوم، لم تنطبق أعينهم؛ لئلَّا يسرع إليها البِلَىٰ، فإذا بَقِيَت ظاهرة للهواء كان أبقىٰ لها؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَتَحۡسَبُهُمۡ أَيۡقَاظٗا وَهُمۡ رُقُودٞۚ﴾. وقد ذكر عن الذِّئب أنَّه ينام فيطبق عينًا ويفتح عينًا، ثم يفتح هذه ويطبق هذه وهو راقد، كما قال الشاعر:

يَنَـــامُ بِإِحْــــدَىٰ مُقْلَتَيْـــهِ وَيَتَّقِـــي ... بِـــأُخْرَىٰ الرَّزَايَـــا فَهْـــوَ يَقْظَـــانُ نَـــائِمُ

وقوله تعالىٰ: ﴿وَنُقَلِّبُهُمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِۖ﴾ قال بعض السَّلف: يقلبون في العام مرَّتين. قال ابن عبَّاس: لو لم يقلبوا لأكلتهم الأرضُ.

وقوله: ﴿وَكَلۡبُهُم بَٰسِطٞ ذِرَاعَيۡهِ بِٱلۡوَصِيدِۚ﴾ قال ابن عبَّاس وقتادة ومجاهد وسعيد بن جبير: الوَصِيد: الفناء. وقال ابن عبَّاس: بالباب. وقيل: بالصَّعيد، وهو التُّراب. والصَّحيح أنَّه بالفناء، وهو البَاب، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّهَا عَلَيۡهِم مُّؤۡصَدَةٞ﴾ [الهمزة: ٨] أي: مُطْبَقَة مغلقة. ويقال: «وَصِيد» و«أصيد». ربض كلبهم علىٰ الباب كما جرت به عادة الكلاب. قال ابن جريج يحرس عليهم البَاب. وهذا مِن سجيَّتِه وطبيعته، حيث يربض ببابِهِم كأنَّه يحرسهم، وكان جلوسه خارج الباب؛ لأنَّ الملائكة لا تدخل بيتًا فيه كلب؛ كما ورد في «الصحيح» «وَلَا صُورَةٌ»(١) «وَلَا جُنُبٌ»(٢) ولا كافر، كما ورد به الحديث الحسن وشملت كلبهم بركتهم، فأصابه ما أصابهم من النَّوم علىٰ تلك الحال. وهذا فائدة صحبة الأخيار؛ فإنه صار لهذا الكلب ذِكر وخبر وشأن.

وقد قيل: إنَّه كان كلب صيدٍ لأحدهم(٣)، وهو الأشبه. وقيل: كان كلب طبَّاخ الملك، وقد كان وافقهم علىٰ الدِّين(٤) فَصَحِبه كلبهُ فالله أعلم.

---

(١) البخاري (٣٢٢٥).

(٢) رواه أبو داود (٢٢٧) والتِّرمذي والنَّسائي (١/ ١٤١) (٧/ ١٨٥) وفيها نُجَيّ الحضرمي.
قال الحفَّاظ: مقبول، وله شاهد مِن حديث ابن عبَّاس رواه البزار (٢٩٣٠ - كشف).

(٣) لوحة (١٨٠ ب).

(٤) يعني: أن الذي وافقهم علىٰ الدين هو الطباخ.

وقد روىٰ الحافظ ابن عساكر في ترجمة «همام بن الوليد الدمشقي»: حدَّثنا صَدَقَة بن عمر الغَسَّاني، حدَّثنا عباد المِنْقَري، سمعت الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: كان اسم كبش إبراهيم: جرير، واسم هدهد سليمان: عَنْقَز، واسم كلب أصحاب الكهف: قطمير، واسم عجل بني إسرائيل الذي عبدوه: بهموت. وهبط آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ بالهند، وحوَّاء بجدة، وإبليس بدست بيسان، والحية بأصبهان(١).

وقد تقدَّم عن شعيب الجُبَّائي أنه سماه: حمران.

واختلفوا في لونه علىٰ أقوال لا حاصل لها، ولا طائل تحتها ولا دليل عليها، ولا حاجة إليها؛ بل هي مما يُنهىٰ عنه، فإن مستندها رَجْمٌ بالغيب.

وقوله تعالىٰ: ﴿لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾ أي: أنه تعالىٰ ألقىٰ عليهم المهابة بحيث لا يقع نظر أحدٍ عليهم إلا هابهم؛ لما ألبسوا من المَهَابَة والذُّعر؛ لئلَّا يدنو منهم أحدٌ ولا تمسهم يدُ لامسٍ، حتىٰ يبلغ الكتابُ أجلَهُ، وتنقضي رقدتهم التي شاء تبارك وتعالىٰ فيهم، لما له في ذلك من الحُجَّة والحكمة البالِغَة، والرَّحمَةِ الوَاسِعَة.

﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ۝١٩ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ۝٢٠﴾

يقول تعالىٰ: وكَمَا أرقدناهم بعَثْنَاهُم صحيحةً أبدانُهم وأشعارُهم وأبشارُهم، لم يفقدوا من أحوالهم وهَيْئَاتِهِم شيئًا، وذلك بعد ثلاثمائة سنة وتسع سنين؛ ولهذَا تساءَلُوا بينهم: ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ﴾؟ أي: كم رقدتم؟ ﴿قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ كأنه كان دُخولُهم إلىٰ الكهف في أوَّل نهار، واستيقاظهم كان في آخر نهار؛ ولهذا استدركوا فقالوا: ﴿أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ أي: الله أعلم بأمركم، وكأنه حصل لهم نوع تَرَدُّدٍ في كثرة نومهم، فالله أعلم.

ثم عدلوا إلىٰ الأهمِّ في أمرهم إذ ذاك وهو احتياجهم إلىٰ الطَّعام والشَّراب، فقالوا: ﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ﴾ أي: فضَّتِكُم هذه؛ وذلك أنَّهم كانوا قد استصحبوا معهم دراهم من(٢) منازلهم لحاجتهم إليها، فتصدَّقوا منها وبَقِيَ منها؛ فلهذا قالوا: ﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ﴾ أي: مَدِينَتِكُم التي خرجْتُم منهَا، والألف واللَّام للعهد.

﴿فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا﴾ أي: أطيب طعامًا، كقوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ

---

(١) هذا من كلام الحسن البصري، وهو لا يعتمد علىٰ مستندٍ صحيحٍ، فلا طائلَ تحتَهُ، ولا حاجة إليه، وأشبه أن يكون هذا مما نُقِلَ من كُتُب بني إسرائيل.

(٢) في (ز): (في).

أبدًا﴾ [النور:٢١]، وقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [الأعلى:١٤] ومنه الزَّكاة التي تُطَيِّبُ المال وتطهِّره. وقيل: أكثر طعامًا، ومنه زكا الزَّرع إذا كثر، قال الشاعر:

تَبَائِلُنَا سَبْعٌ وَأَنْتُمْ ثَلَاثَةٌ وَلَلسَّبْعُ أَزْكَىٰ مِنْ ثَلَاثٍ وَأَطْيَبُ

والصحيح الأول؛ لأن مقصودهم إنَّما هو الطَّيِّب الحلال، سواء كان قليلًا أو كثيرًا.

وقوله ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾ أي: في خروجه وذهابه، وشرائه وإيابه، يقولون: وَلْيَتَخَفَّ كل ما يقدر عليه ﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ﴾ أي: ولا يُعْلِمَنَّ ﴿بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ﴾ أي: إن علِمُوا بمكانكم، ﴿يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ﴾ يعنون أصحاب «دِقْيانوس»، يخافون منهم أن يطَّلعوا علىٰ مكانِهم، فلا يزَالُون يعذِّبونهم بأنواع العذاب إلىٰ أن يُعِيدُوهُم في مِلَّتِهم التي هم عليها أو يموتوا، وإن واتوهم علىٰ العَوْدِ في الدِّين فلا فلاح لهم(١) في الدُّنيا ولا في الآخِرَةِ، ولهذا قال: ﴿وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾﴾

يقول تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ أي: أطْلَعْنَا عليهم النَّاس ﴿لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾.

ذكر غير واحدٍ مِن السَّلف أنَّه كان قد حصل لأهل ذلك الزَّمان شكٌّ في البعث وفي أمر القِيامَةِ.

وقال عكرمة: كان منهم طائفةٌ قد قالوا: تبعث الأرواح ولا تبعث الأجساد، فبعث الله أهل الكهف حجَّةً ودلالةً وآيةً علىٰ ذلك.

وذكروا أنَّه لما أراد أحدهم الخروج ليذهب إلىٰ المدينة، في شراء شيءٍ لهم ليأكلوه، تنكَّر وخرج يمشِي في غير الجادة، حتىٰ انتهىٰ إلىٰ المدينة، وذكروا أن اسمها «دقسوس»، وهو يظن أنَّه قريب العهد بها، وكان النَّاس قد تبدلوا قرنًا بعد قرنٍ، وجيلًا بعد جيلٍ، وأمةً بعد أمةٍ، وتغيَّرت البلاد ومَن عليها، كما قال الشاعر:

أَمَّا الدِّيَارُ فَإِنَّهَا كَدِيَارِهِمْ وَأَرَىٰ رِجَالَ الحَيِّ غَيْرَ رِجَالِهِ

فجعل لا يرىٰ شيئًا من معالم البلد الَّتِي يعرفها، ولا يَعْرِف أحدًا من أهلها، لا خواصها ولا(٢) عوامها، فجعل يتحيَّر في نفسه ويقول: لعلَّ بِي جنونًا أو مسًّا، أو أنا حالمٌ، ويقول: والله مَا بي شيءٌ مِن ذلك، وإن عهدي بهذه البلدة عشيَّةَ أمس علىٰ غيرِ هذه الصِّفة، ثم قال: إنَّ تعجيل الخروج مِن هاهنا لأولىٰ لي، ثم عمد إلىٰ رجلٍ ممن يَبِيع الطَّعام، فدفع إليه ما معه من النَّفقة، وسأله أن يَبِيعه بها طعامًا، فلما رآها

---

(١) في (ز): (لكم).

(٢) لوحة (١٨١ ب).

ذلك الرجل أنكرَهَا وأنكر ضَرْبَها، فدفعها إلىٰ جارِهِ، وجعلوا يتداولُونها بينهم ويقولون: لعلَّ هذا قد وجد كنزًا، فسألوه عَن أمرِهِ، ومِن أين له هذِهِ النَّفقة؟ لعلَّه وجدها مِن كنزٍ، ومَن أنت؟ فجعل يقول: أنا مِن أهل هذه المدينةِ وعهدِي بها عشيَّة أمس وفيها «دقيانوس»، فنسبوه إلىٰ الجُنُون، فحملوه إلىٰ وليِّ أمرِهم، فسأله عن شأنِهِ وعن أمرِهِ حتَّىٰ أخبرَهُمْ بأمره، وهو متحيِّرٌ في حاله، وما هو فيه، فلمَّا أعلمهم بذلك قاموا معه إلىٰ الكهف: مُتولِّىٰ البلد وأهلها، حتىٰ انتهىٰ بهم إلىٰ الكهف، فقال: دَعُوني حتىٰ أتقدمكم في الدُّخول لأعلم أصحَابِيٰ، فيقال: إنَّهم لا يدرون كيف ذهب فيه، وأخفىٰ الله عليهم خبَرَهُ ويقال: بل دخلوا عليهم، ورأوهم وسلَّم عليهم الملك واعتنقهم، وكان مسلمًا فيما قيل، واسمه «تيدوسيس» ففرحوا به وآنَسُوهُ بالكلام، ثم ودعوه وسَلَّمُوا عليه، وعادوا إلىٰ مَضاجِعِهم، وتوفاهم الله ﷻ، فالله أعلم.

قال قتادة: غَزَا ابن عبَّاس مع حبيب بن مسلمة، فمَرُّوا بكهفٍ في بلاد الرُّوم، فرَأَوْا فيه عظامًا، فقال قائلٌ: هذه عظَامُ أصحاب الكهف؟ فقال ابن عبَّاس: لقد بَلِيَت عظامُهُم مِن أكثر مِن ثلاثمائة سنة. رواه ابن جرير[(١)].

وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعۡثَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ﴾ أي: كما أَرْقَدْنَاهُم وأيقظناهم بهيَآتِهِم، أطلعنا عليهم أهل ذلك الزَّمان ﴿لِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيۡبَ فِيهَآ إِذۡ يَتَنَٰزَعُونَ بَيۡنَهُمۡ أَمۡرَهُمۡ﴾ أي: في أمر القِيَامَة، فمن مثبتٍ لها ومن مُنْكِرٍ، فجعل الله ظهورهم علىٰ أصحاب الكهف حجَّةً لهم وعليهم ﴿فَقَالُواْ ٱبۡنُواْ عَلَيۡهِم بُنۡيَٰنٗاۖ رَّبُّهُمۡ أَعۡلَمُ بِهِمۡ﴾ أي: سدوا عليهم باب كهفهم، وذروهم علىٰ حالهم ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِمۡ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيۡهِم مَّسۡجِدٗا﴾.

حكىٰ ابن جرير في القائلين ذلك قولين: أحدهما: إنَّهم المسلمون منهم. والثَّاني: أهل الشِّرك منهم، فالله أعلم.

والظَّاهر أنَّ الَّذِين قالوا ذلك هم أصحاب الكَلِمَة والنُّفوذ، ولكن هل هم محمودون أم لا؟ فيه نظر؛ لأن النَّبيَّ ﷺ قال[(٢)]: «لَعَنَ اللهُ اليَهُودَ وَالنَّصارَىٰ، اتَّخذُوا قُبُورَ أَنْبِيائِهِمْ وَصَالِحِيهِمْ مَسَاجِدَ» يحذِّر ما فعلوا[(٣)]. وقد روينا عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ أنَّه لما وجد قبر دانيال في زمَانِهِ بالعراق، أمر أن يخفىٰ عن النَّاس، وأن تدفن تلك الرُّقعة التي وجدوها عنده، فيها شيء من الملاحم وغيرها.

﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٞ رَّابِعُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ وَيَقُولُونَ خَمۡسَةٞ سَادِسُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ رَجۡمَۢا بِٱلۡغَيۡبِۖ وَيَقُولُونَ سَبۡعَةٞ وَثَامِنُهُمۡ كَلۡبُهُمۡۚ قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا قَلِيلٞۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمۡ إِلَّا مِرَآءٗ ظَٰهِرٗا وَلَا تَسۡتَفۡتِ فِيهِم مِّنۡهُمۡ أَحَدٗا ٢٢﴾

---

(١) انظر الطبري (١٥/ ٢١٦ - ٢١٧).

(٢) لوحة (١٨٢ أ).

(٣) رواه مسلم (٥٣٢) بهذا اللَّفظ. ورواه النَّسائي في «الكبرىٰ» (٦/ ١١٢٣).

يقول تعالىٰ مخبرًا عنِ اختلافِ النَّاس في عدة أصحاب الكهف، فحكىٰ ثلاثة أقوال، فدل علىٰ أنَّه لا قائل برابعٍ، ولما ضَعَّف القولين الأولين بقوله: ﴿رَجْمَۢا بِٱلْغَيْبِ﴾ أي: قولًا بلا علمٍ، كمن يرمي إلىٰ مكان لا يعرفه، فإنَّه لا يكاد يصيب، وإن أصاب فبِلَا قصدٍ، ثم حكىٰ الثالث وسكت عليه أو قرَّره بقوله: ﴿وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ فدلَّ علىٰ صحَّتِهِ، وأنَّه هو الواقع في نفس الأمر.

وقوله: ﴿قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم﴾ إرشادٌ إلىٰ أن الأحسن في مثل هذا المقام رد العلم إلىٰ الله تعالىٰ؛ إذ لا احتياجَ إلىٰ الخَوْضِ في مثل ذلك بلا علمٍ، لكن إذا أطلعنا علىٰ أمر قلنا به، وإلا وَقَفْنَا حيث وقفنا.

وقوله: ﴿مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ أي: من الناس. قال قتادة: قال ابن عبَّاس: أنا من القليل الذي استثنىٰ الله ﷻ، كانوا سبعةً. وكذا روىٰ ابن جريج[1]، عن عطاء الخُرَاساني عنه أنَّه كان يقول: أنا ممَّن استثنىٰ الله، ويقول: عدتهم سبعة[2].

وقال ابن جرير: حدَّثنا ابن بشار حدَّثنا عبد الرحمن، حدَّثنا إسرائيل، عن سِمَاك، عن عكرمة، عن ابن عبَّاس: ﴿مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ قال: أنا من القليلِ، كانوا سبعة[3].

فهذه أسانيد صحيحة إلىٰ ابن عبَّاس: أنَّهم كانوا سبعة، وهو موافق لما قدمناه.

وقال محمَّد بن إسحاق بن يَسَار عن عبد الله بن أبي نَجِيح، عن مجاهد قال: لقد حُدِّثْتُ أنَّه كان علىٰ بعضهم من حداثَةِ سنِّه وَضَح الوَرِق[4].

قال ابن عبَّاس: فكانوا كذلك ليلهم ونهارهم في عبادة الله، يبكون ويستغيثون بالله، وكانوا ثمانية نفر: «مكسلمينا»[5] وكان أكبرهم وهو الَّذِي كلَّم الملك عنهم، و «مجسيميلنينا» و«تمليخا» و«مرطونس» و«كشطونس» و«بيرونس» و«ديموس» و«يطونس» و«قالوش»[6].

هكذا وقع في هذه الرِّواية، ويحتمل هذا من كلام ابن إسحاق، أو من بينه وبينه؛ فإن الصحيح عن ابن عبَّاس أنَّهم كانوا سبعةً، وهو ظاهر الآية. وقد تقدَّم عن شعيب الجُبَّائي أنَّ اسم كلبهم «حمران»، وفي تسميتهم بهذه الأسماء واسم كلبهم نظر في صحَّته، والله أعلم؛ فإن غالب ذلك مُتَلَقَّىٰ من أهل الكتاب، وقد قال تعالىٰ: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا﴾ أي: سهلًا هينًا؛ فإنَّ الأمر في معرفة ذلك لا يترتب عليه كبير فائدةٍ ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾ أي: فإنَّهم لا علم لهم بِذَلِكَ إلَّا ما يقولونه مِن تلقاءِ

---

(١) في (ز): «ابن جرير»، والمثبت كما في «الطبري».

(٢) رواه الطبري (١٥/ ١٢٦)، وفيه انقطاع بين عطاء الخراساني وابن عبَّاس، ويشهد له الرواية الآتية وإن كان فيها ضعف.

(٣) رواه الطبري (١٥/ ٢٢٦)، ورواية سماك عن عكرمة مضطربة وله طرق أخرىٰ لا تخلو من ضعف، وبالجملة فالأثر يتقوَّىٰ بمجموعها.

(٤) الوَضَح: البياض، والوَرِق: الفضة.

(٥) في (ز): «مكيلينينا»، والمثبت من «الطبري».

(٦) ضعيف: رواه الطبراني في «الأوسط» (٦١١٣)، والعقيلي في «الضعفاء» (٤/ ٤٢٢) من طريق يحيىٰ بن أبي روق عن أبيه، عن الضحاك عن ابن عباس، وفيه انقطاع بين الضحاك وابن عباس، ويحيىٰ بن أبي روق: ضعيف.

أنفسهم ﴿رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ﴾؛ أي: مِن غيرِ استنادٍ إلىٰ كلامٍ معصومٍ، وقد جاءك اللهُ يا محمَّد بالحقِّ الَّذي لا شَكَّ فيه ولا مِرْيَةَ، فهو المقدَّم الحاكم علىٰ كلِّ ما تَقَدَّمه من الكُتب والأقوال.

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾﴾

هذا إرشادٌ مِن الله لرسوله صلوات الله وسلامه عليه، إلىٰ الأدَبِ فيما إذا عزم علىٰ شيءٍ ليفعله في المستقبل، أن يرد ذلك إلىٰ مشيئة الله، ﷻ علام الغيوب، الَّذي يعلم ما كان ومَا يكون، وما لَمْ يكُن لو كان كيف كان يكون، كما ثبت في «الصحيحين» عن أبي هريرة ﵁ عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «قَالَ سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ: لَأَطُوفَنَّ اللَّيْلَةَ عَلَىٰ سَبْعِينَ امْرَأَةً -وفي رواية: تِسْعِينَ امْرَأَةً. وفي رواية: مِائَةِ امْرَأَةٍ- تَلِدُ كُلُّ امْرَأَةٍ مِنْهُنَّ غُلَامًا يُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللهِ، فَقِيلَ لَهُ -وفي رواية: فَقَالَ لَهُ المَلَكُ- قُلْ: إِنْ شَاءَ اللهُ. فَلَمْ يَقُلْ، فَطَافَ بِهِنَّ فَلَمْ يَلِدْ مِنْهُنَّ إِلَّا امْرَأَةٌ وَاحِدَةٌ نِصْفَ إِنْسَانٍ».فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ قَالَ: «إِنْ شَاءَ اللهُ» لَمْ يَحْنَثْ، وَكَانَ دَرَكًا[1] لِحَاجَتِهِ» وفي رواية: «وَلَقَاتَلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ فُرْسَانًا أَجْمَعُونَ»[2].

وقد تقدَّم في أوَّل السُّورة ذكر سبب نزول هذه الآية في قول النَّبيِّ ﷺ، لما سُئل عن قصة أصحاب الكهف: «غَدًا أُجِيبُكُمْ». فتأخَّر الوحيُ خمسةَ عشرَ يومًا، وقد ذكرناه بطوله في أوَّل السُّورة، فأغنىٰ عَن إعادَتِهِ[3].

وقوله: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ قيل: معناه إذا نَسِيتَ الاستثناء، فاسْتَثْنِ عند ذكرك له. قاله أبو العالية، والحسن البصريُّ.

وقال هشيم، عن الأعمش، عن مجاهد، عن ابن عبَّاسٍ في الرَّجل يحلف؟ قال: له أن يستثني ولو إلىٰ سنة، وكان يقول: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ في ذلك. قيل للأعمش: سمعته عن مجاهد؟ قال: حدَّثني به ليث بن أبي سليم يرىٰ ذهب كسائي هذا.

ورواه الطَّبراني من حديث أبي معاوية، عن الأعمش به[4].

ومعنىٰ قول ابن عبَّاس: «أنَّه يستثني ولو بعدَ سنةٍ» أي: إذا نَسِيَ أن يقول في حلفه أو كلامه

---

(١) الدَّرَك: اللحاق والوصول إلىٰ الشيء.

(٢) البخاري (٢٨١٩، ٣٤٢٤، ٥٢٤٢، ٦٦٣٩، ٦٧٢٠، ٧٤٦٢)، ومسلم (١٦٥٤).

(٣) انظر الآية رقم (٥) من السورة.

(٤) ضعيف: رواه الطبري (١٥/ ٢٢٩)، والطبراني (١١/ ٦٨/ ١١٠٦٩) والحاكم (٤/ ٣٠٣)، وصححه علىٰ شرط الشيخين ووافقه الذهبي. والأثر رجاله ثقات، لولا تدليس الأعمش، فقد صرَّح في الرِّواية بينه وبين مجاهد: ليث بن أبي سليم، وليث هذا، وإن كان صدوقًا إلَّا أنَّه أدخل في حديثه ما ليس منه، ولم يتميَّز فترُكَ، وعلىٰ فرض صحة هذا الأثر فهو محمول علىٰ ما ذكره الطَّبري فيما نقله عنه ابن كثير: أن يذكر الاستثناء متىٰ تذكره؛ ليأتي بالمشيئة، ولا يعني ذلك أنه رافعٌ للحنث.

«إن شاء الله»[١] وذكر ولو بعد سنة، فالسُّنَّة له أن يقول ذلك؛ ليكون آتيًا بسُنَّةِ الاستثناء، حتىٰ ولو كان بعد الحنث.

قاله ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ ونصَّ علىٰ ذلك، لا أن يكون ذلك رافعًا لحنث اليمين ومسقطًا للكفارة. وهذا الذي قاله ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ هو الصحيح، وهو الأليق بحمل كلام ابن عبَّاس عليه، والله أعلم.

وقال عكرمة: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ أي: إذا غَضِبْتَ، وهذا تفسيرٌ باللَّازم.

وقد قال الطَّبراني: حدَّثنا أحمد بن يحيىٰ الحُلْواني، حدَّثنا سعيد بن سليمان، عن عباد بن العوام، عن سفيان بن حسين، عن يعلىٰ بن مسلم، عن جابر بن زيد، عن ابن عبَّاس: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيۡءٍ إِنِّي فَاعِلٞ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ أن تقول: إن شاء الله[٢]. [وهذا تفسيرٌ باللَّازم][٣].

وقال الطَّبراني: حدَّثنا محمَّد بن الحارث الجُبيلي[٤] حدَّثنا صفوان بن صالح، حدَّثنا الوليد بن مسلم، عن عبد العزيز بن حُصَيْن، عن ابن أبي نَجِيح، عن مجاهد، عن ابن عبَّاس في قوله[٥]: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ الاستثناء، فاستثن إذا ذكرت. وقال: هي خاصَّة برسول الله ﷺ، وليس لأحدٍ منَّا أن يستثني إلا في صلة مِن يمينه ثم قال: تفرَّد به الوليد، عن عبد العزيز بن الحصين[٦].

ويحتمل في الآية وجهٌ آخر، وهو أن يكون الله ﷻ قد أرشد مَن نَسِيَ الشَّيءَ في كلامه إلىٰ ذكرِ الله تعالىٰ؛ [لأنَّ النِّسيان منشؤُهُ مِن الشَّيطان، كما قال فتىٰ موسىٰ: ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيۡطَٰنُ أَنۡ أَذۡكُرَهُۥ﴾ [الكهف: ٦٣] وذِكْر الله تعالىٰ يطرد الشَّيطان، فإذا ذَهَب الشَّيطان ذهب النِّسيان، فذِكْرُ الله][٧] سببٌ للذِّكر؛ ولهذا قال: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾.

وقوله: ﴿وَقُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَهۡدِيَنِ رَبِّي لِأَقۡرَبَ مِنۡ هَٰذَا رَشَدٗا﴾ أي: إذا سُئِلْت عن شيءٍ لا تعلمه، فاسألِ الله فيه، وتوجَّه إليه في أَن يُوفِّقَكَ للصَّواب والرُّشد في ذلك، وقيل غير ذلك في تفسيرِهِ، والله أعلم.

﴿وَلَبِثُواْ فِي كَهۡفِهِمۡ ثَلَٰثَ مِاْئَةٖ سِنِينَ وَٱزۡدَادُواْ تِسۡعٗا ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْۖ لَهُۥ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَبۡصِرۡ بِهِۦ وَأَسۡمِعۡۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ وَلَا يُشۡرِكُ فِي حُكۡمِهِۦٓ أَحَدٗا ﴿٢٦﴾﴾[٨]

---

(١) لوحة (١٨٣ أ).

(٢) رواه الطبراني في «الكبير» (١٦/ ٩٠/ ١١١٤٣)، و«الأوسط» (٧/ ٦٨/ ٦٨٧٢)، وفي «الصغير» (٢/ ٤١). وفيه عبد العزيز بن حصين: ضعيف، والوليد بن مسلم: مدلس، لكن يشهد له ما تقدم.

(٣) ليست في (ز).

(٤) في (ز): «الجبلي»، والمثبت كما في «المعجم الصغير» للطبراني.

(٥) في بعض المطبوعات تم إدراج متن الحديث السابق بعد هذا السند تبعًا لبعض النسخ وهو خطأ مخالف لما في «الطبراني».

(٦) ضعيف: تفرد به الوليد -وهو مدلس- عن عبد العزيز بن حصين -وهو ضعيف-.

(٧) ليست في (ز).

(٨) قال العلامة الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ: اعْلَمْ، أَنَّهُ يَجِبُ التَّفْصِيلُ بَيْنَ النِّظَامِ الْوَضْعِيِّ الَّذِي يَقْتَضِي تَحْكِيمُهُ الْكُفْرَ بِخَالِقِ =

هذا خبرٌ من الله تعالىٰ لرسوله ﷺ بمقدارِ ما لَبِثَ أصحاب الكهف في كَهْفِهِم، منذ أرقدهم الله إلىٰ أن بعثهم وأَعْثَرَ عليهم أهلَ ذلك الزَّمان، وأنَّه كان مقداره ثلاثمائة سنة وتسع سنين بالهلاليَّة، وهي ثلاثمائة سنة بالشَّمسيَّة، فإنَّ تفاوت ما بين كل مائةِ [سنة][1] بالقمريَّة إلىٰ الشمسيَّة ثلاث سنين؛ فلهذا قال بعد الثلاثمائة: ﴿وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا﴾[2].

وقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ﴾ أي: إذا[3] سُئِلْت عن لبثهم وليس عندك علمٌ في ذلك وتوقيفٌ[4] مِن الله ﷻ فلا تتقدَّم فيه بشيءٍ، بل قل في مثل هذا: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: لا يعلم ذلك إلا هو أو مَن أطلَعَهُ الله عليه مِن خَلْقِهِ، وهذا الَّذي قُلْناه، عليه[5] غير واحدٍ من علماء التَّفسير كمجاهد، وغير واحدٍ من السَّلف والخلف.

وقال قتادة في قوله: ﴿وَلَبِثُواْ فِي كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا﴾ هذا قول أهل الكتاب، وقد ردَّه الله تعالىٰ بقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ﴾ قال: وفي قراءة عبد الله: «وقالوا: ولبثوا»؛ يعني: أنَّه قاله النَّاس.

وهكذا قال -كما قال قتادة- مُطَرف بن عبد الله.

= السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَبَيْنَ النِّظَامِ الَّذِي لَا يَقْتَضِي ذَلِكَ.وَإِيضَاحُ ذَلِكَ أَنَّ النِّظَامَ قِسْمَانِ: إِدَارِيٌّ، وَشَرْعِيٌّ، أَمَّا الْإِدَارِيُّ: الَّذِي يُرَادُ بِهِ ضَبْطُ الْأُمُورِ وَإِتْقَانُهَا عَلَىٰ وَجْهٍ غَيْرِ مُخَالِفٍ لِلشَّرْعِ، فَهَذَا لَا مَانِعَ مِنْهُ، وَلَا مُخَالِفَ فِيهِ مِنَ الصَّحَابَةِ، فَمَنْ بَعْدَهُمْ، وَقَدْ عَمِلَ عُمَرُ رضي الله عنه مِنْ ذَلِكَ أَشْيَاءَ كَثِيرَةً مَا كَانَتْ فِي زَمَنِ النَّبِيِّ ﷺ، كَكَتْبِهِ أَسْمَاءَ الْجُنْدِ فِي دِيوَانٍ لِأَجْلِ الضَّبْطِ، وَمَعْرِفَةِ مَنْ غَابَ وَمَنْ حَضَرَ كَمَا قَدَّمْنَا إِيضَاحَ الْمَقْصُودِ مِنْهُ فِي سُورَةِ «بَنِي إِسْرَائِيلَ» فِي الْكَلَامِ عَلَىٰ الْعَاقِلَةِ الَّتِي تَحْمِلُ دِيَةَ الْخَطَأِ، مَعَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يَفْعَلْ ذَلِكَ، وَلَمْ يَعْلَمْ بِتَخَلُّفِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ عَنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ إِلَّا بَعْدَ أَنْ وَصَلَ تَبُوكَ ﷺ، وَكَاشْتِرَائِهِ - أَعْنِي عُمَرَ رضي الله عنه دَارَ صَفْوَانَ بْنِ أُمَيَّةَ وَجَعْلِهِ إِيَّاهَا سِجْنًا فِي مَكَّةَ الْمُكَرَّمَةِ، مَعَ أَنَّهُ ﷺ لَمْ يَتَّخِذْ سِجْنًا هُوَ وَلَا أَبُو بَكْرٍ، فَمِثْلُ هَذَا مِنَ الْأُمُورِ الْإِدَارِيَّةِ الَّتِي تُفْعَلُ لِإِتْقَانِ الْأُمُورِ مِمَّا لَا يُخَالِفُ الشَّرْعَ لَا بَأْسَ بِهِ، كَتَنْظِيمِ شُئُونِ الْمُوَظَّفِينَ، وَتَنْظِيمِ إِدَارَةِ الْأَعْمَالِ عَلَىٰ وَجْهٍ لَا يُخَالِفُ الشَّرْعَ، فَهَذَا النَّوْعُ مِنَ الْأَنْظِمَةِ الْوَضْعِيَّةِ لَا بَأْسَ بِهِ، وَلَا يَخْرُجُ عَنْ قَوَاعِدِ الشَّرْعِ مِنْ مُرَاعَاةِ الْمَصَالِحِ الْعَامَّةِ.

وَأَمَّا النِّظَامُ الشَّرْعِيُّ الْمُخَالِفُ لِتَشْرِيعِ خَالِقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَتَحْكِيمُهُ كُفْرٌ بِخَالِقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، كَدَعْوَىٰ أَنَّ تَفْضِيلَ الذَّكَرِ عَلَىٰ الْأُنْثَىٰ فِي الْمِيرَاثِ لَيْسَ بِإِنْصَافٍ، وَأَنَّهُمَا يَلْزَمُ اسْتِوَاؤُهُمَا فِي الْمِيرَاثِ. وَكَدَعْوَىٰ أَنَّ تَعَدُّدَ الزَّوْجَاتِ ظُلْمٌ، وَأَنَّ الطَّلَاقَ ظُلْمٌ لِلْمَرْأَةِ، وَأَنَّ الرَّجْمَ وَالْقَطْعَ وَنَحْوَهُمَا أَعْمَالٌ وَحْشِيَّةٌ لَا يَسُوغُ فِعْلُهَا بِالْإِنْسَانِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ.

(١) ليست في (ز).

(٢) قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: فمن أجل تناسب رءوس الآيات قال: ﴿ثَلاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾، وليس كما قال بعضهم بأن السنين الثلاثمائة بالشمسية وازدادوا تسعًا بالقمرية، فإنه لا يمكن أن نشهد علىٰ الله بأنه أراد هذا، من الذي يشهد علىٰ الله أنه أراد هذا المعنىٰ؟ حتىٰ لو وافق أن ثلاث مائة سنين شمسية هي ثلاث مائة وتسع سنين بالقمرية فلا يمكن أن نشهد علىٰ الله بهذا، لأن الحساب عند الله تعالىٰ واحد، وما هي العلامات التي يكون بها الحساب عند الله؟

الجواب: هي الأهلَّة، ولهذا نقول: إن القول بأن «ثلاث مائة سنين» شمسية، «وازدادوا تسعًا» قمرية قول ضعيف.

(٣) في (ز): إنما سئلت.

(٤) في (ز): وليس عندك في ذلك توقيف.

(٥) لوحة (١٨٣ ب).

وفي هذا الَّذِي زعمه قتادة نظر؛ فإنَّ الَّذي بأيدِي أهلِ الكتاب أنَّهم لَبِثُوا ثلاثمائة سنة مِن غير تسع، يعنون بالشمسيَّة، ولو كان الله قد حكىٰ قولهم لما قال: ﴿وَٱزۡدَادُواْ تِسۡعٗا﴾ وظاهر الآية إنَّما هو إخبارٌ مِن الله، لا حكاية عنهم، وهذا اختيار ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ. ورواية قتادة قراءة ابن مسعود منقطعة، ثم هي شاذَّةٌ بالنِّسبة إلىٰ قراءَةِ الجمهور؛ فلا يحتجُّ بها، والله أعلم.

وقوله: ﴿أَبۡصِرۡ بِهِۦ وَأَسۡمِعۡ﴾ [أي: إنَّه لبصيرٌ بهم سَمِيعٌ لهم.

قال ابن جرير: وذلك في معنىٰ المبالغة في المَدْحِ، كأنَّه قيل: ما أَبْصَرَهُ وأَسْمَعَهُ][(١)]، وتأويل الكلام: ما أبصرَ الله لكلِّ موجود، وأسمعه لكلِّ مسموع، لا يخفىٰ عليه من ذلك شيء.

ثم رُوِي عن قتادة في قوله: ﴿أَبۡصِرۡ بِهِۦ وَأَسۡمِعۡ﴾ فلا أحد أبْصَر مِن الله ولا أَسْمَع.

وقال ابن زيد: ﴿أَبۡصِرۡ بِهِۦ وَأَسۡمِعۡ﴾ يرىٰ أعمالهم، ويَسْمَعُ ذلك منهم سميعًا بصيرًا.

وقوله: ﴿مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ وَلَا يُشۡرِكُ فِي حُكۡمِهِۦٓ أَحَدٗا﴾ أي: أنَّه تعالىٰ هو الَّذي له الخلقُ والأمر، الَّذي لا معقِّب لحكمه، وليس له وزيرٌ ولا نصيرٌ[(٢)] ولا شريكٌ ولا مشيرٌ، تعالىٰ وتقدَّس.

﴿وَٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدٗا ٢٧ وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا ٢٨﴾

يقول تعالىٰ آمرًا رسوله ﷺ بتلاوةِ كتابِهِ العزيزِ وإبلاغِهِ إلىٰ النَّاس: ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ أي: لا مغيِّرَ[(٣)] لها ولا محرِّف ولا مؤوِّل.

وقوله: ﴿وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدٗا﴾ [عن مجاهد: ﴿مُلۡتَحَدٗا﴾ قال: ملجأً. وعن قتادة: وليًّا ولا مولًىٰ][(٤)]. قال ابن جرير: يقول: إن أنتَ يا محمَّد لم تتْلُ ما أُوحِي إليك مِن كتاب ربِّك، فإنَّه لا ملجأَ لك من الله، كما قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِي فَرَضَ عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٖ﴾ [القصص: ٨٥] أي: سائلك عمَّا فرض عليكَ مِن إبلاغ الرِّسالة.

وقوله: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥ﴾ أي: اجلس مع الَّذين يذكرون الله ويُهَلِّلُونه، ويحمدونه[(٥)] ويسبِّحونه ويكبِّرونه، ويسألونَهُ بكرةً وعشيًّا مِن عباد الله، سواء كانوا فقراء أو أغنياء، أو أقوياء أو ضُعَفَاء.

يقال: إنَّها نزلت في أشرافِ قريشٍ، حين طلبوا من النَّبيِّ ﷺ أن يجلس معهم وحدَهُ ولا

---

(١) ليست في (ز)، وقول ابن جرير ثابت في «تفسيره». (٢) في (ز): ولا نظير.
(٣) في (ز): غير مغير. (٤) ليست في (ز). (٥) لوحة (١٨٤ أ).

يجالسهم بضعفاءِ أصحابه كبِلال وعمَّار وصهيب [وخبَّاب][(١)] وابن مسعود، وليفرد أولئك بمجلسٍ علىٰ حِدَةٍ. فنهاهُ الله عن ذلك، فقال: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ...﴾ الآية [الأنعام:٥٢]، وأمره أن يَصْبِر نفسه في الجلوس مع هؤلاء، فقال: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾.

وقال مسلم في «صحيحه»: حدَّثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدَّثنا محمَّد بن عبد الله الأسدي، عن إسرائيل، عن المقدام بن شُرَيْح، عن أبيه، عن سعد -هو ابن أبي وقاص- قال: كنا مع النَّبيِّ ﷺ ستَّةَ نفرٍ، فقال المشركون للنَّبيِّ ﷺ: اطرد هؤلاءِ لا يجترئُونَ علينا! قال: وكنتُ أنا وابن مسعود، ورجلٌ من هذيلٍ، وبلالٌ ورجلان لَسْتُ أسَمِّيهمَا[(٢)] فوقع في نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع، فحدَّث نفسه، فأنزل الله ﷻ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾؛ انفرد بإخراجه مسلم دون البخاري[(٣)].

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا محمَّد بن جعفر، حدَّثنا شعبة، عن أبي التَّيَّاح قال: سمعت أبا الجعد يحدِّث عن أَبِي أمامَةَ قال: خرج رسول الله ﷺ علىٰ قاصٍّ يقصُّ، فأمْسَك، فقال رسول الله ﷺ: «**قُصَّ، فَلأَنْ أَقْعُدَ غَدْوَةً إِلَىٰ أَنْ تُشرِقَ الشَّمْسُ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أُعْتِقَ أَرْبَعَ رِقَابٍ**»[(٤)].

وقال الإمام أحمد أيضًا: حدَّثنا هاشم، حدَّثنا شعبة، عن عبد الملك بن مَيْسَرة قال: سمعت كُرْدُوس بن قيس -وكان قاصَّ العامةِ بالكوفة- يقول: أخبرني رجلٌ من أصحاب بدر: أنَّه سَمِعَ النَّبيَّ ﷺ يقول: «**لأَنْ أَقْعُدَ فِي مِثْلِ هَذَا المَجْلِسِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أُعْتِقَ أَرْبَعَ رِقَابٍ**». قال شعبة: فقلت: أيُّ مجلسٍ؟ قال: كان قاصًّا[(٥)].

وقال أبو داود الطَّيالسي في«مسنده»: حدَّثنا محمَّد، حدَّثنا يزيد بن أبان، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «**لأَنْ أُجَالِسَ قَوْمًا يَذْكُرُونَ اللهَ مِنْ صَلاةِ الغَدَاةِ إِلَىٰ طُلُوعِ الشَّمْسِ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ، وَلأَنْ أَذْكُرَ اللهَ مِنْ صَلاةِ العَصْرِ إِلَىٰ غُرُوبِ الشَّمْسِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أُعْتِقَ ثَمَانِيَةً مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ دِيَةُ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمُ اثْنَا عَشَرَ أَلْفًا**». فحسبنا دياتهم ونحن في مجلس أنس[(٦)]، فبلغت ستَّةً وتسعين ألفًا، وهاهنا من يقول: «**أَرْبَعَةٌ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ**» والله ما قال إلَّا ثمانية، دية كلِّ

---

(١) ليست في (ز).

(٢) في (ز): (نسيت اسميهما)، والمثبت موافق لما في «صحيح مسلم».

(٣) رواه مسلم (٢٤١٣).

(٤) رواه أحمد (٥/ ٢٦١) من حديث أبي أمامة، وفيه أبو الجعد غير معروف. قال الهيثمي (١/ ١٩٥): إن كان هو الغَطَفَاني فهو من رجال الصَّحيح، وإن كان غيره فلم أعرفه.

(٥) رواه أحمد (٣/ ٤٧٤)، والدارمي (٢٧٨٠)، والبيهقي (١٠/ ٨٨)، وفي «الشعب» (٧٥٢٩)، ورجاله ثقات عدا كردوس لم يوثقه إلا ابن حبان، قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ١٩٥): وفيه كردوس بن قيس؛ وثقه ابن حبان، وبقية رجاله رجال الصحيح.

(٦) لوحة (١٨٤ ب).

واحدٍ منهم اثنا عشر ألفًا[(١)].

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدَّثنا أحمد بن إسحاق الأهوازي، حدَّثنا أبو أحمد الزبيري، حدَّثنا عمرو بن ثابت، عن علي بن الأقمر، عن الأغر أبي مسلم -وهو الكوفي- أنَّ رسول الله ﷺ مرَّ برجل يقرأُ سورة الكهف، فلمَّا رأىٰ النَّبيَّ ﷺ سَكَتَ، فقال رسول الله ﷺ: «**هَذَا الْمَجْلِسُ الَّذِي أُمِرْتُ أَنْ أَصْبِرَ نَفْسِي مَعَهُمْ**»[(٢)].

هكذا رواه أبو أحمد، عن عمرو بن ثابت، عن علي بن الأقمر، عن الأغر مرسلًا.

وحدَّثناه يحيىٰ بن المعلىٰ، عن منصور، حدَّثنا محمَّد بن الصلت، حدَّثنا عمرو بن ثابت، عن علي بن الأقمر، عن الأغر أبي[(٣)] مسلم عن أبي هريرة وأبي سعيد قالا: جاء رسولُ الله ﷺ، ورجلٌ يقرأ سورة الحِجْر أو سورة الكهف، فسَكَتَ، فقال رسول الله ﷺ: «**هَذَا الْمَجْلِسُ الَّذِي أُمِرْتُ أَنْ أَصْبِرَ نَفْسِي مَعَهُمْ**»[(٤)].

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا محمَّد بن بكر، حدَّثنا ميمون المَرئي، حدَّثنا ميمون بن سِيَاه، عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «**مَا مِنْ قَوْمٍ اجْتَمَعُوا يَذْكُرُونَ اللهَ، لا يُرِيدُونَ بِذَلِكَ إِلَّا وَجْهَهُ، إِلَّا نَادَاهُمْ مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ: أَنْ قُومُوا مَغْفُورًا لَكُمْ، قَدْ بُدِّلَتْ سَيِّئَاتُكُمْ حَسَنَاتٍ**»؛ تفرَّد به أحمد رحمه الله[(٥)].

وقال الطبراني: حدَّثنا إسماعيل بن الحسن، حدَّثنا أحمد بن صالح، حدَّثنا ابن وهب، عن أسامة بن زيد، عن أبي حازم، عن عبد الرحمن بن سهل بن حُنيف قال: نزلت علىٰ رسول الله ﷺ، وهو في بعضِ أبياتِهِ: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَوٰةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ...﴾ الآية، فخرج يلتمسهم، فوجد قومًا يذكرون الله تعالىٰ، منهم ثائرُ الرَّأس، وجافي الجلدِ، وذو الثَّوب الواحِدِ، فلمَّا رآهم جلس معهم، وقال: «**الحَمْدُ للهِ الَّذِي [جَعَلَ]**[(٦)] **فِي أُمَّتِي مَنْ أَمَرَنِي اللهُ أَنْ أَصْبِرَ نَفْسِي مَعَهُمْ**»[(٧)].

---

(١) **ضعيف**: رواه الطيالسي (٢٠١٤) وفيه يزيد بن أبان: ضعيف.

(٢) **ضعيف جدًّا**: رواه البزار (٢٣٢٦، ٥٢٣٢) «كشف الأستار» وهو في «البحر الزخار» (١٨/ ٨٩) رقم (٢١) وفي إسناده عمرو بن ثابت: متروك.

(٣) في (ز): «عن الأغر عن أبي مسلم»، والمثبت موافق لما في «مسند البزار» وهو الصواب، وانظر ترجمته في «الجرح والتعديل» (٢/ ٣٠٨).

(٤) **ضعيف جدًّا**: انظر التخريج السابق، فالإسناد ضعيف سواء المرسل أو المتصل.

(٥) **صحيح لغيره**: رواه أحمد (٣/ ١٤٢)، وفيه ميمون المرئي؛ قال الحافظ: صدوق يدلس، وانظر ترجمته في «تهذيب الكمال» (٢٩/ ٢٢٧ - ٢٢٩)، وللحديث شواهد: فقد رواه الطبراني من حديث سهل بن الحنظلية، ورواه البيهقي (٥٣٤) من حديث عبد الله بن مغفل، وصححه لغيره الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٢/ ٩٨)، وصححه لغيره كذلك الشيخ شعيب الأرناؤوط في تعليقه علىٰ المسند.

(٦) سقط من (ز)، وهو مثبت من «معرفة الصحابة» (٤٦١٧) لأبي نعيم، وقد أخرجه من طريق الطبراني.

(٧) رواه الطبري (١٥/ ٢٣٥) وإسناده صحيح، وعزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٣٩٧) إلىٰ الطبراني وابن جرير وابن مردويه، وقال الهيثمي في «المجمع» (٧/ ٢٤): «رواه الطبراني ورجاله رجال «الصحيح»». وقد ذكر الطبراني

عبد الرحمن هذا، ذكره أبو بكر بن أبي داود في «الصحابة»، وأمَّا أبُوهُ فمِن سادات الصَّحابة رضي الله عنهم.

وقوله: ﴿وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ قال ابن عبَّاس: ولا تجاوزهم إلىٰ غيرهم: يعني: تطلب بَدَلَهُم أصحاب الشَّرف والثَّروَة.

﴿وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا﴾ أي: شُغِلَ عن الدِّين وعبادة رَبِّه بالدُّنيا ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا﴾ أي: أعمالُه وأفعالُه سَفَهٌ وتفريطٌ وضَياعٌ، ولا [تكن](١) مُطِيعًا له ولا محبًّا لطَرِيقَتِهِ(٢)، ولا تَغبطْهُ بما هو فيه، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ زَهۡرَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا لِنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ وَرِزۡقُ رَبِّكَ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ﴾ [طه:١٣١].

﴿وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ(٣) إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَاۚ وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۚ بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقًا ٢٩﴾

يقول تعالىٰ لرسوله محمَّد ﷺ: وقل يا محمَّد للنَّاس: هذا الذي جئتكم بِهِ مِن ربِّكم هو الحقُّ الَّذِي لا مِرْيَة فيه ولا شكَّ ﴿فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡ﴾ هذا مِن باب التَّهديد والوعيدِ الشَّديد؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا﴾ أي: أرصدنا ﴿لِلظَّٰلِمِينَ﴾ وهُم الكافرُونَ بالله ورسوله وكتابه ﴿نَارًا أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَا﴾ أي: سُورها.

قال الإمام أحمد: حدَّثنا حسن بن موسىٰ، حدَّثنا ابن لَهيعة، حدَّثنا دَرَّاج، عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري، عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «لَسُرَادِقُ النَّارِ أَرْبَعَةُ جُدُرٍ، كَثَافَةُ كُلِّ جِدَارٍ مَسَافَةُ أَرْبَعِينَ سَنَةً»(٤).

وأخرجه التِّرمذي في «صفة النَّار» وابن جرير في «تفسيره»، من حديث دراج أبي السَّمح به.

[وقال ابن جريج: قال ابن عبَّاس: ﴿أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَا﴾ قال: حائطٌ مِن نارٍ](٥).

وقال ابن جرير: حدَّثني الحسين بن نصر والعبَّاس بن محمَّد قالا: حدَّثنا أبو عاصم، عن عبد الله بن أمية، حدَّثني محمَّد بن حيي بن يعلىٰ، عن صفوان بن يعلىٰ، عن يعلىٰ بن أمية قال: قال رسول الله ﷺ: «البَحْرُ هُوَ جَهَنَّمُ» قال: فقيل له: كيف ذلك؟ فتلا هذه الآية -أو: قرأ هذه الآية-: ﴿نَارًا أَحَاطَ بِهِمۡ

= عبد الرحمن في الصحابة» اهـ.

وقد ذكر الحافظ ابن كثير في «جامع المسانيد» تحت ترجمة (١١٤٦) عبد الرحمن بن سهل بن حنيف تحت حديث (٦٩٤١)، وقال: «روىٰ أبو نعيم عن الطبراني...» فذكره، وسبق ذكر رقمه عند أبي نعيم (٤٦١٧).

(١) سقط من (ز). (٢) لوحة (١٨٥ أ).

(٣) قال العلامة السعدي رحمه الله: أي: لم يبق إلا سلوك أحد الطريقين، بحسب توفيق العبد، وعدم توفيقه، وقد أعطاه الله مشيئة بها يقدر علىٰ الإيمان والكفر، والخير والشر، فمن آمن فقد وفق للصواب، ومن كفر فقد قامت عليه الحجة، وليس بمكره علىٰ الإيمان.

(٤) ضعيف: رواه أحمد (٣/ ٢٩)، والترمذي (٢٥٨٧) وفيه ابن لهيعة، وكذلك درَّاج أبو السَّمح: أحاديثه ضعيفة خاصَّة عن أبي الهيثم، وقد تقدَّم مثل ذلك مرارًا.

(٥) سقط من (ز)، وهو مثبت من «الطبري».

سُرَادِقُهَا﴾ ثم قال: «وَاللهِ لا أَدْخُلُهَا أَبَدًا -أو: مَا دُمْتُ حَيًّا- وَلا تُصِيبُنِي مِنْهَا قَطْرَةٌ»[(١)].

وقوله: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ قال ابن عبَّاس: «المهل»: ماءٌ غليظٌ مثل دُرْدِيِّ الزَّيت[(٢)]. وقال مجاهد: هو كالدَّم والقيح. وقال عكرمة: هو الشَّيءُ الَّذِي انتهىٰ حَرُّه. وقال آخرون: هو كلُّ شيءٍ أُذِيبَ. وقال قتادة: أذاب ابنُ مسعودٍ شيئًا من الذَّهب في أخدودٍ، فلمَّا انماعَ وأَزْبَدَ، قال: هذا أشبه شيء بالمهل[(٣)]. وقال الضَّحَّاك: ماء جهنَّم أسود، وهي سوداء وأهلها سودٌ.

وهذه الأقوال ليس شيء منها ينفي الآخر؛ فإنَّ المهل يجمع هذه الأوصاف الرَّذيلَة كلها، فهو أسودُ منتنٌ غليظٌ حارٌّ؛ ولهذا قال: ﴿يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ﴾ أي: من حرِّه، إذا أراد الكافر أن يشربَهُ وقرَّبه مِن وجهه، شواه حتىٰ يسقط جِلْدُ وجهه فيه، كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد بإسناده المتقدم في «سُرادِق النار» عن أبي سعيد الخدري، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مَاءٌ كَالمُهْلِ»: قال: «كَعَكَرِ الزَّيْتِ[(٤)] فَإِذَا قَرَّبَهُ إِلَيْهِ سَقَطَتْ فَرْوَةُ وَجْهِهِ فِيهِ»[(٥)]؛ وهكذا رواه التِّرمذي في «صفة النَّار» من «جامعه»، من حديث رِشْدِين بن سعد عن عمرو بن الحارث، عن درَّاج به، ثم قال: لا نعرفه إلا من حديث «رشدين»، وقد تُكلِّم فيه مِن قِبَلِ حفظِهِ، هكذا قال، وقد رواه الإمام أحمد كما تقدَّم عن حسن الأشيب، عن ابن لَهِيعة، عن دَرَّاج، والله أعلم.

وقال عبد الله بن المبارك، وبقيَّة بن الوليد، عن صفوان بن عمرو، عن عبيد الله بن بُسْر[(٦)]، عن أبي أمامة رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ في قوله: ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ﴾ [إبراهيم:١٦، ١٧] قال: «يُقَرَّبُ إِلَيْهِ فَيَتَكَرَّهُهُ، فَإِذَا قُرِّبَ مِنْهُ شَوَىٰ وَجْهَهُ وَوَقَعَتْ فَرْوَةُ رَأْسِهِ، فَإِذَا شَرِبَهُ قَطَّعَ أَمْعَاءَهُ، يَقُولُ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ﴾»[(٧)].

وقال سعيد بن جبير: إذا جاع أهل النار استغاثوا بشجرةِ الزَّقُّوم، فأكلوا منها فاختلست جلودَ وجوهِهِم، فلو أنَّ مارًّا [مرَّ بِهِم يعرفهم][(٨)]، لعرف جلود وجوههم فيها. ثم يُصب عليهم العطش

(١) ضعيف: رواه ابن جرير (١٥/ ٢٣٩)، وأحمد (٤/ ٢٣٣) وفيه محمَّد بن حيي لم يوثقه غير ابن حبان، وقال الحافظ: مقبول، والحديث ضعَّفه الألباني، انظر: «السلسلة الضعيفة» (١٠٢٣).

(٢) رواه الطبري (١٥/ ٢٤٠)، وفيه عطية العوفي: شيعي مدلس؛ فالإسناد ضعيف.

(٣) رواه الطبري (١٥/ ٢٣٩)، وفيه انقطاع بين قتادة وابن مسعود، ورواه الطبراني في «الكبير» (٩/ ٢٥٤/ ٩٠٨٢، ٩٠٨٣) وفي إسناده علىٰ الجِمَّاني وهو ضعيف.

(٤) لوحة (١٨٥ ب).

(٥) ضعيف: رواه أحمد (٣/ ٧٠)، والترمذي (٢٥٨٤) وهو نفس الإسناد في الحديث قبل الماضي، وليست العلَّة فيه رشدين بن سعد، وإنَّما العلَّة فيه دراج أبو السَّمح كما تقدَّم.

(٦) في (ز): «عبيد الله بن بشر»، والمثبت موافق لما في «المسند»، وهو الصواب، وانظر ترجمته في «تهذيب الكمال» (١٩/ ١٣).

(٧) ضعيف: تقدَّم. انظر تفسير الآية (١٦) من سورة إبراهيم.

(٨) مكانه في (ز): «بهم»، والمثبت موافق لما في «تفسير ابن أبي حاتم» و«الطبري».

فيَسْتَغِيثُون. فيُغَاثُون بماءٍ كالمُهْل، وهو الَّذِي قد انتهىٰ حرُّه، فإذا أدنَوْه من أفواههم اشتوَىٰ مِن حرِّه لحوم وجوهِهم الَّتِي قد سقطت عنها الجلود.

ولهذا قال تعالىٰ بعد وصفه هذا الشَّراب بهذه الصِّفات الذَّميمة القبيحة: ﴿بِئْسَ ٱلشَّرَابُ﴾ أي: بئس هذا الشَّراب، كما قال في الآية الأخرىٰ: ﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ [محمَّد:١٥]، وقال تعالىٰ: ﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ﴾ [الغاشية:٥] أي: حارَّة، كما قال: ﴿وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾ [الرحمن:٤٤].

﴿وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [أي: وساءت النَّار][1] منزلًا ومَقِيلًا ومجتمعًا وموضعًا للارْتِفَاق، كما قال في الآية الأخرىٰ: ﴿إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان:٦٦].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾﴾

لما ذكر تعالىٰ حال الأشقياء، ثنىٰ بذكر السعداء، الَّذين آمنُوا بالله وصدَّقوا المرسلين فيما جاءُوا به، وعَمِلُوا بما أمروهم به مِن الأعمال الصَّالحة، فلَهُم ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ والعدن: الإقامة.

﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي: مِن تحتِ غُرَفِهِم ومنازِلِهم، قال فرعون: ﴿وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ﴾ [الزخرف:٥١].

﴿يُحَلَّوْنَ﴾ أي: من الحِلْيَة ﴿فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾ وقال في المكان الآخر: ﴿وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [الحج:٢٣] وفصَّله هاهنا فقال: ﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن[2] سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ فالسُّندسُ: لباس رقاع رقاق كالقُمْصان وما جرىٰ مجراها، وأما الإستبرق فغليظ الدِّيباج وفيه بريقٌ.

وقوله: ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ الاتِّكاء قيل: الاضطجاع، وقيل: التَّربُّع في الجلوس، وهو أشبه بالمراد هاهنا، ومنه الحديث الصحيح: «أَمَّا أَنَا فَلَا آكُلُ مُتَّكِئًا»[3] فيه القولان.

والأرائك: جمع أريكة، وهي السَّرير تحت الحَجَلة[4]، والحَجَلَة كما يعرفه النَّاس في زماننا هذا بالبَاشخَانَاه، والله أعلم.

قال عبد الرزَّاق: أخبرنا مَعْمَرٌ، عن قتادة: ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ قال: هي الحِجَال. قال معمر: وقال غيره: السُّرُر في الحِجَال.

وقوله: ﴿نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [أي: نعمت الجنة ثوابًا علىٰ أعمالهم ﴿وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ أي: حسنت منزلًا ومقيلًا ومقامًا، كما قال في النار: ﴿بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾][5] [الكهف:٢٩]،

---

(١) ليست في (ز). (٢) لوحة (١٨٦ أ). (٣) البخاري (٥٣٩٨).

(٤) الحَجَلة: سَاتِرٌ كالقُبة، يُضْرَب للعروس في جوف البيت، وقال الأفاضل محققو طبعة الشعب: وتعرف في زماننا هذا بالناموسية.

(٥) سقط من (ز)، وهو سقط نظر.

وهكذا(١) قابل بينهما في سورة الفرقان في قوله: ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان:٦٦] ثم ذكر صفات المؤمنين فقال: ﴿أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا ﴿٧٥﴾ خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان:٧٥، ٧٦].

﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾﴾

يقول الله تعالىٰ بعد ذِكْر المشركِين المستكبِرينَ عن مجالسَةِ الضُّعفاء والمساكين مِن المسلمين، وافتخروا عليهِمْ بأموالِهم وأحسابِهم، فضَرَب لهم مثلًا برجُلَيْن، جعل الله ﴿لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ﴾ أي: بستانين من أعناب، محفوفتين بالنَّخل المحدقة في جنباتهما، وفي خلالهما الزُّروع، وكلٌّ من الأشجار والزُّروع مثمرٌ مُقبلٌ في غايةِ الجود؛ ولهذا قال: ﴿كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا﴾ أي: أخرجت ثمرها ﴿وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا﴾ أي: ولم تنقص منه شيئًا ﴿وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا﴾ أي: والأنهار تتخرَّق فيهما هاهنا وهاهنا.

﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ﴾ قيل: المراد به: المال. رُوي عن ابن عبَّاس، ومجاهد، وقتادة.

وقيل: الثِّمار، وهو أظهر هاهنا، ويؤيده القراءة الأخرىٰ: «وكان له ثُمْر» بضم الثاء وتسكين الميم، فيكون جمع ثَمَرَة، كَخَشَبَة وخُشب، وقرأ آخرون: ﴿ثَمَرٌ﴾ بفتح الثاء والميم(٢).

فقال -أي صاحب هاتين [الجنتين](٣)- ﴿لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ﴾ أي: يجادله ويخاصمه، يفْتخِرُ عليه ويترأَّس: ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ أي: أكثر خدمًا وحشمًا وولدًا.

قال قتادة: تلك -والله- أمنية الفاجر: كثرة المال وعزَّة النَّفر.

وقوله: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ(٤) ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾ أي: بكفره وتمرُّدِه وتكبُّره وتجبُّره وإنكاره المعاد ﴿قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا﴾ وذلك اغترارٌ منه، لِمَا رأىٰ فيها من الزُّروع والثِّمار والأشجار والأنهار المطردة في جوانبها وأرجائها، ظنَّ أنَّها لا تفنىٰ ولا تفرغ ولا تهلك ولا تتلف؛ وذلك لقلَّة عقله، وضعفِ يقينِهِ بالله، وإعجابِهِ بالحياة الدُّنيا وزينتِها، وكفرِهِ بالآخرة؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ أي: كائنةً ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ أي: ولئن كان معادٌ ورجعةٌ ومَرَدٌّ إلىٰ الله، ليكونَنَّ لي

---

(١) في (ز): وهذا.

(٢) متواترة: قَرَأَ (ثَمَرٌ) عَاصِمٌ وَأَبُو جَعْفَرٍ وَيَعْقُوبُ وَوَافَقَهُمُ ابْنُ مُحَيْصِنٍ مِنَ الْمُفْرَدَةِ، وَقَرَأَ (ثُمْرٌ) أَبُو عَمْرٍو وَوَافَقَهُ الْيَزِيدِيُّ وَالْحَسَنُ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ (ثُمُرٌ) وَهُوَ الْوَجْهُ الثَّانِي لِابْنِ مُحَيْصِنٍ.

(٣) ليست في (ز). (٤) لوحة (١٨٦ ب).

هناك أحسن مِن هذا؛ لأنِّي مُحظًى[1] عند ربي، ولولا كرامتي[2] عليه ما أعطاني هذا، كما قال في الآية الأخرىٰ: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: ٥٠]، وقال: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ٧٧﴾ [مريم: ٧٧] أي: في الدَّار الآخرة، تألَّىٰ علىٰ الله ﷻ وكان سبب نزولها في العاص بن وائل، كما سيأتي بيانه في موضعه إن شاء الله تعالىٰ، وبه الثقة.

﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ٣٧ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ٣٨ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ٣٩ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ٤٠ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ٤١﴾

يقول تعالىٰ مخبرًا عمَّا أجابه به صاحبُهُ المؤمن، واعظًا له وزاجرًا عمَّا هو فيه من الكُفْر بالله والاغترار: ﴿أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾؟ وهذا إنكارٌ وتعظيمٌ لما وقعَ فيه مِن جحود ربِّه، الَّذي خلقه وابتدأ خلق الإنسانِ مِن طينٍ ـ وهُو آدمُ ـ ثم جعل نَسْلَهُ مِن سلالةٍ مِنْ ماءٍ مهينٍ، كما قال تعالىٰ: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨] أي: كيف تجحَدُون ربَّكم، ودلالَتُه عليكم ظاهرةٌ جليَّةٌ، كل أحدٍ يعلمها مِن نفسه، فإنَّه ما مِن أحدٍ مِن المخلوقات إلا ويعلم أنَّه كان معدومًا ثم وجد، وليس وجوده مِن نفسه، ولا مستندًا إلىٰ شيءٍ من المخلوقات؛ لأنَّه بمثابتِهِ، فعلم إسناد إيجاده إلىٰ خالقه، وهو الله، لَا إلَهَ إلَّا هو، خالق كلِّ شيءٍ؛ ولهذا قال: ﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى﴾ أي: أنا لا أقول بمقالَتِكَ، بل أعترف لله بالرُّبُوبيَّة والوحدانيَّة ﴿وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ[3] أَحَدًا﴾ أي: بل هو الله المعبود وحدَهُ لا شَريكَ له.

ثم قال: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾ هذا تحضيضٌ وحثٌّ علىٰ ذلك[4]؛ أي: هلَّا إذَا أعجبتك حين دَخلتها ونظرت إليها حمدت الله علىٰ ما أنعم به عَلَيْك، وأعطاك من المال و الوَلَدِ ما لم يُعْطِهُ غيرك، وقلت: ﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾؛ ولهذا قال بعض السَّلَف: مَن أعجبه شيءٌ من حاله أو ولده أو ماله، فليقل: ﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ وهذا مأخوذٌ من هذه الآيةِ الكريمة.

وقد روي فيه حديثٌ مرفوعٌ أخرجه الحافظ أبو يعلىٰ الموصلي في «مسنده»: حدَّثنا جَرَّاح بن مَخْلَد، حدَّثنا عمر بن يونس، حدَّثنا عيسىٰ بن عَوْن، حدَّثنا عبد الملك بن زُرَارَة، عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَا أَنْعَمَ اللهُ عَلَى عَبْدٍ نِعْمَةً مِنْ أَهْلٍ أَوْ مَالٍ أَوْ وَلَدٍ، فَيَقُولُ: ﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ فَيَرَى فِيهِ آفَةً دُونَ**

---

(١) أحظيت فلانًا علىٰ فلان -من الحظوة والتفضيل- أي: فضلته عليه.
(٢) في (ز): إكرامي عليه. (٣) لوحة (١٨٧ أ). (٤) في (ز): أعاد الآية كاملة في هذا الموضع.

المَوْتِ». وكان يتأوَّل هذه الآية: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾[(١)].

قال الحافظ أبو الفتح الأزدي: عيسىٰ بن عون، عن عبد الملك بن زرارة، عن أنس: لا يصحُّ حديثه.

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا محمَّد بن جعفر، حدَّثنا شعبة وحجاج، حدَّثني شعبة، عن عاصم بن عبيد الله، [عن عبيد][(٢)] مولىٰ أبي رُهْم، عن أبي هريرة، عن النَّبيِّ ﷺ أنه قال: «أَلَا أَدُلُّكَ عَلَىٰ كَنْزٍ مِنْ كُنُوزِ الجَنَّةِ؟ لا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ». تفرَّد به أحمد[(٣)].

وقد ثبت في «الصَّحيح» عن أبي موسىٰ أن رسول الله ﷺ قال له: «أَلَا أَدُلُّكَ عَلَىٰ كَنْزٍ مِنْ كُنُوزِ الجَنَّةِ؟ لا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ»[(٤)].

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا بكر بن عيسىٰ، حدَّثنا أبو عَوانة، عن أبي بَلْج، عن عَمْرو بن ميمون قال: قال أبو هريرة: قال لي نبي الله ﷺ: «يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، أَلَا أَدُلُّكَ عَلَىٰ كَنْزٍ مِنْ كُنُوزِ الجَنَّةِ تَحْتَ العَرْشِ؟». قال: قلت: نعم، فداك أبي وأمي. قال: «أَنْ تَقُولَ: لا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ» قال أبو بَلْج: وأحسب أنه قال: «فَإِنَّ اللهَ يَقُولُ: أَسْلَمَ عَبْدِي وَاسْتَسْلَمَ». قال: فقلت لعمرو -قال أبو بَلْج: قال عَمْرو: قلت لأبي هريرة: لا حول ولا قوَّة إلا بالله؟ فقال: لا، إنَّها في سورة الكهف: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾[(٥)].

وقوله: ﴿فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ﴾ أي: في الدَّار الآخرة ﴿وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا﴾ أي: علىٰ جنَّتك في الدُّنيا الَّتي ظننت أنَّها لا تبيد ولا تفنىٰ ﴿حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ قال ابن عبَّاس، والضَّحَّاك، وقتادة، ومالك عن[(٦)] الزُّهري: أي عذابًا من السَّماء.

والظاهر أنَّه مطرٌ عظيمٌ مزعجٌ، يقلع زرعها وأشجارها؛ ولهذا قال: ﴿فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾ أي: بَلْقعًا ترابًا أملس، لا يثبت فيه قَدم.

وقال ابن عبَّاس: كالجُرز الذي لا يُنبت شيئًا.

وقوله: ﴿أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا﴾ أي: غائرًا في الأرض، وهو ضد النَّابع الَّذي يطلب وجه الأرض، فالغائر يطلب أسفلها كما قال تعالىٰ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ﴾ [الملك: ٣٠] أي:

---

(١) ضعيف: رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الشكر (١)، وابن السني في «عمل اليوم والليلة» (٣٥٧)، وفيه عبد الملك بن زرارة: ضعيف.

(٢) سقط من (ز)، وهو مثبت من «المسند»، وانظر ترجمته في «الجرح والتعديل» (٥/ ٤١١).

(٣) صحيح لغيره؛ أي بهذا الإسناد، وإلا فالحديث صحيح كما سيأتي: رواه أحمد (٢/ ٤٦٩)، وفيه عاصم بن عبد الله: ضعيف، وعبيد مولىٰ إبراهيم: ضعيف، لكن صح الحَدِيث من طرق أخرىٰ سيذكرها المصنِّف؛ منها ما رواه أحمد (٢/ ٣٣٥)، والحاكم (١/ ٢١) وصححه، ووافقه الذَّهبي.

(٤) رواه البخاري (٤٢٠٥، ٦٤٠٩).

(٥) رواه أحمد (٢/ ٣٣٥)، والطَّيالسي (٢٤٩٤)، والحاكم (١/ ٢١) وصحَّحه، ووافقه الذَّهبي، ووافقهما الألباني؛ وللحديث طرق أخرىٰ. انظر: «الصحيحة» للألباني (١٥٢٨).

(٦) لوحة (١٨٧ ب).

جارٍ وسائح. وقال هاهنا: ﴿أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا﴾ والغور: مصدر بمعنى غائر، وهو أبلغ منه، كما قال الشاعر:

تَظَلُّ جِيَادُهُ نَوْحًا عَلَيْهِ ... تُقَلِّدُهُ أَعِنَّتَهَا صُفُوفًا

بمعنى: نائحات عليه.

﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾﴾

يقول تعالىٰ: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾ بأمواله، أو بثماره علىٰ القولِ الآخر. والمقصود أنَّه وقع بهذا الكافر ما كان يَحْذَر، مما خوَّفه به المؤمن من إرسالِ الحسبان علىٰ جنَّته، التي اغترَّ بها وألْهتْهُ عن الله عَجَّلَ ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا﴾ وقال قتادة: يُصفِّق كفَّيه متأسِّفًا متلهفًا علىٰ الأموال الَّتي أذهبها عليه ﴿وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ﴾ أي: عشيرةٌ أو وَلَدٌ، كما افتخرَ بِهِم واسْتعزَّ ﴿يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ﴾ اختلف القرَّاء هاهنا، فمِنهُم مَن يقف علىٰ قوله: ﴿وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ﴾ أي: في ذلك الموطن الذي حلَّ به عذاب الله، فلا منقذ منه ويبتدئ بقوله: ﴿ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ﴾ [ومنهم مَن يقف علىٰ: ﴿وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾ ويبتدئُ بقوله: ﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ﴾][(١)].

ثم اختلفوا في قراءة ﴿ٱلْوَلَٰيَةُ﴾؛ فمنهم مَن فتح الوَاو، فيكون المعنىٰ: هنالك الموالاة لله؛ أي: هنالك كلُّ أحدٍ مِن مؤمنٍ أو كافرٍ يرجع إلىٰ الله وإلىٰ موالاتِهِ والخضوع له إذا وقع العذاب، كقوله: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوٓا ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ﴾ [غافر:٨٤] وكقوله إخبارًا عن فرعون: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس:٩٠، ٩١].

ومنهم مَن كسَر الواو من «﴿الوِلَايَةُ﴾[(٢)]» أي: هنالك الحكم للهِ الحقِّ.

ثم منهم مَن رفع «﴿الْحَقُّ﴾» علىٰ أنَّه نعت للولاية، كقوله تعالىٰ[(٣)]: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾ [الفرقان:٢٦].

ومنهم مَن خفض القاف[(٤)]، علىٰ أنه نعتٌ لله عَجَّلَ كقوله: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓا إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ﴾ [الأنعام:٦٢]؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا﴾ أي: جزاءً ﴿وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ أي:

---

(١) ليست في (ز).

(٢) متواترة: قَرَأَ (الوِلَايَةُ) حَمْزَةُ وَالْكِسَائِيُّ وَخَلَفٌ (فِي اخْتِيَارِهِ) وَوَافَقَهُمُ الأَعْمَشُ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ (الْوَلَايَةُ).

(٣) لوحة (١٨٨ أ).

(٤) متواترة: قَرَأَ (الْحَقُّ) أَبُو عَمْرٍو وَالْكِسَائِيُّ وَوَافَقَهُمَا الْيَزِيدِيُّ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ (الْحَقِّ).

الأعمال التي تكون لله عَزَّوَجَلَّ ثوابها خير، وعاقبتها حميدةٌ رشيدةٌ، كلُّها خير.

﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ السَّمَآءِ فَاخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا ۖ (١) وَالْبَٰقِيَٰتُ الصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ ﴾

يقول تعالىٰ: ﴿وَاضْرِبْ﴾ يا محمَّد للناس ﴿مَّثَلَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا﴾ في زوالها وفنائها وانقضائها (٢) ﴿كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ السَّمَآءِ فَاخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ الْأَرْضِ﴾ أي: ما فِيهَا من الحبِّ، فَشَبَّ وحَسُنَ، وعلاه الزَّهر والنَّور والنُّضرة ثمَّ بعد هذا كله ﴿فَأَصْبَحَ هَشِيمًا﴾ يابسًا ﴿تَذْرُوهُ الرِّيَٰحُ﴾ أي: تفرِّقُه وتطرَحُهُ ذات اليَمِين وذات الشِّمال ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ أي: هو قادرٌ علىٰ هذه الحال، وهذه الحال وكثيرًا ما يضرب الله مثل الحياة الدُّنيا بهذا المثَل كما في سورة يُونُس: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ السَّمَآءِ فَاخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ ...﴾ الآية [يونس:٢٤]، وقال في سورة الزُّمر: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِى الْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر:٢١]، وقال في سورة الحديد: ﴿اعْلَمُوٓا أَنَّمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى الْأَمْوَٰلِ وَالْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى الْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ الْغُرُورِ﴾ [الحديد:٢٠]، وفي الحديث الصَّحيح: «الدُّنيا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ» (٣).

وقوله: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا﴾ كقوله: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَٰتِ مِنَ النِّسَآءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَٰطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَٰمِ وَالْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا ۖ وَاللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ الْمَـَٔابِ﴾ [آل عمران:١٤]، وقال تعالىٰ: ﴿أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُۥٓ

---

(١) قال الشيخ القاسمي رَحِمَهُ اللَّهُ: لطائف:
١ - تقديم المال علىٰ البنين لعراقته فيما نِيطَ به من الزينة والإمداد. ولكون الحاجة إليه أمسَّ. ولأنه زينة بدونهم، من غير عكس.
٢ - إفراد الزينة مع أنها مسندة إلىٰ الاثنين، لما أنها مصدر في الأصل. أطلق علىٰ المفعول مبالغة. كأنها نفس الزينة. وإضافتها إلىٰ الحياة اختصاصية، لأن زينتها مختصة بها.
(٢) قال الشيخ أبو بكر الجزائري رَحِمَهُ اللَّهُ: بعض الحكماء شبه الحياة الدنيا بالماء للاتصالات الآتية:
١- الماء لا يستقر في موضع والحياة كذلك.
٢- الماء يتغيّر والدنيا كذلك.
٣- الماء لا يبقىٰ والدنيا كذلك.
٤- الماء لا يقدر أحد أن يدخله ولا يبتل والدنيا لا يدخلها أحد ويسلم من فتنها وآفاتها.
٥- الماء إذا كان بقَدَر كان نافعًا منبتًا وإذا جاوز المقدار كان ضارًّا مهلكًا وكذلك الدنيا الكفاف منها ينفع وفضولها يضر.
وفي الصحيح: «قد أفلح من أسلم ورزق كفافًا وقنّعه الله بما آتاه» رواه مسلم.
(٣) رواه مسلم (٢٧٤٢)، والنَّسائي في «الكبرىٰ» (٩٢٦٩)، وأحمد (٣/ ٢٢، ٤٠، ٩٨).

أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التغابن:١٥] أي: الإقبال عليه والتَّفرُّغ لعبادتِهِ، خيرٌ لكم مِن اشتغالكم بهم والجَمْعُ لهم، والشَّفقة المفرطة[١] عليهم؛ ولهذا قال: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ قال ابن عبَّاس، وسعيد بن جبير، وغير واحدٍ من السلف: «الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ» الصلوات الخمس.

وقال عطاء بن أبي رباح، وسعيد بن جُبَير، عن ابن عبَّاس: «الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ»: سُبحَان الله والحَمدُ لله، ولَا إِلَهَ إِلَّا الله، والله أكبر[٢].

وهكذا سُئل أمير المؤمنين عثمان بن عفان، رضي الله عنه عن: «الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ» ما هي؟ فقال: هي: لَا إِلَهَ إِلَّا الله، وسُبحَان الله، والحَمدُ لله، والله أَكْبَر، ولا حولَ ولا قوَّة إلَّا بالله. رواه الإمام أحمد:

حدَّثنا أبو عبد الرحمن المقرئ، حدَّثنا حَيْوَة، أنبأنا أبو عقيل، أنَّه سمع الحارث مولىٰ عثمان رضي الله عنه يقول: جلس عثمان يومًا وجلسنا معه، فجاءَهُ المؤذِّن، فدعا بماءٍ في إناءٍ، أظنُّه أنَّه سيكون فيه مُدٌّ[٣]، فتوضَّأ ثمَّ قال: رأيت رسول الله ﷺ يتوضَّأ وُضوئي هذا، ثم قال: «**مَنْ تَوَضَّأَ وُضُوئِي هَذَا، ثُمَّ قَامَ فَصَلَّىٰ صَلَاةَ الظُّهْرِ، غُفِرَ لَهُ مَا كَانَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الصُّبْحِ، ثُمَّ صَلَّىٰ العَصْرَ غُفِرَ لَهُ مَا بَيْنَهَا وَبَيْنَ الظُّهْرِ، ثُمَّ صَلَّىٰ المَغْرِبَ غُفِرَ لَهُ مَا بَيْنَهَا وَبَيْنَ العَصْرِ، ثُمَّ صَلَّىٰ العِشَاءَ غُفِرَ لَهُ مَا بَيْنَهَا وَبَيْنَ المَغْرِبِ، ثُمَّ لَعَلَّهُ يَبِيتُ يَتَمَرَّغُ لَيْلَتَهُ، ثُمَّ إِنْ قَامَ فَتَوَضَّأَ وَصَلَّىٰ صَلَاةَ الصُّبْحِ، غُفِرَ لَهُ مَا بَيْنَهَا وَبَيْنَ صَلَاةِ العِشَاءِ، وَهِيَ الحَسَنَاتُ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ**» قالوا: هذه الحسنات، فما الباقيات الصَّالحات يا عثمان؟ قال: هي: لَا إِلَهَ إِلَّا الله، وسبحَان الله، والحَمدُ لله، واللهُ أَكْبَرُ، ولا حَولَ ولا قوَّة إلَّا بالله، تفرَّد به[٤].

وروىٰ مالك، عن عمارة بن عبد الله بن صياد عن سعيد بن المسيب قال: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾: سبحان الله، والحمدُ لله، ولَا إِلَهَ إِلَّا الله، واللهُ أَكْبَر، ولا حَول ولَا قوَّة إلَّا بالله.

وقال محمَّد بن عَجْلان، عن عمارة قال: سألني سعيد بن المسيب عن «الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ» فقلت: الصَّلاة والصِّيام. قال: لم تُصِب. فقلت: الزَّكاة والحج. فقال: لم تُصِب، ولكنهنَّ الكلمات الخمس: لَا إِلَهَ إِلَّا الله، واللهُ أكبَر، وسبحَان الله، والحَمدُ لله، ولا حَول ولَا قوَّة إلَّا بالله.

وقال ابن جريج: أخبرني عبد الله[٥] بن عثمان بن خُثَيْم، عن نافع عن سَرْجَس، أنه أخبره أنه سأل ابن عمر عن: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ قال: لَا إِلَهَ إِلَّا الله، واللهُ أَكْبَر، [وسبحَان الله، ولا حَول ولَا قوَّة إلَّا بالله. قال ابن جريج: وقال عطاء بن أبي رباح مثل ذلك[٦].

---

(١) لوحة (١٨٨ ب). (٢) رواه الطبري (١٥/ ٢٥٤) (١٥/ ٢٥٦).

(٣) المُد: مجموع كفي الرجل المتوسط، وهو ربع الصاع.

(٤) صحيح: رواه أحمد (١/ ٧١)، وروىٰ الموقوف منه الطبري (١٥/ ٢٥٤).

(٥) كذا في (ز) وهو الصواب، وفي «الطبري» زاد «مجاهد» بين ابن جريج وعبد الله ولا يصح، وانظر: «تهذيب الكمال» (١٥/ ٢٨٠).

(٦) حسن: رواه ابن جرير (١٥/ ٢٥٥)، وإسناده حسن من أجل ابن عجلان؛ فإنه صدوق.

وقال مجاهد: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ سبحان الله، والحمدُ لله، ولَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، والله أكبر](١).

وقال عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمر، عن الحسن وقتادة في قوله: «الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ» قال: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، واللهُ أكبَر، والحمدُ لله(٢)، وسبحَان الله، هُنَّ الباقيات الصَّالحات.

قال ابن جرير: وجدت في كتابي عن الحسن بن الصباح البزّار، عن أبي نصر التمار، عن عبد العزيز ابن مسلم، عن محمَّد بن عجلان، عن سعيد المَقْبُري، عن أبيه، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «سُبْحَانَ اللهِ، وَالحَمْدُ للهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ، مِنَ البَاقِيَاتِ الصَّالِحَاتِ»(٣).

قال: وحدَّثني يونس، أخبرنا ابن وهب، أخبرنا عمرو بن الحارث أنَّ درَّاجًا أبا السمح حَدَّثه، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيدٍ أن رسول الله ﷺ قال: «اسْتَكْثِرُوا مِنَ البَاقِيَاتِ الصَّالِحَاتِ». قيل: وما هي يا رسول الله؟ قال: «المِلَّةُ». قيل: وما هي يا رسول الله؟ قال: «التَّكْبِيرُ، وَالتَّهْلِيلُ، وَالتَّسْبِيحُ، وَالحَمْدُ للهِ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ». وهكذا رواه أحمد، من حديث درَّاج به(٤).

وبه قال ابن وهب: أخبرني أبو صَخْر أن عبد الله بن عبد الرحمن، مولىٰ سالم بن عبد الله حَدَّثه قال: أَرْسَلَنِي سالم إلىٰ محمَّد بن كعب القُرَظي، فقال: قل له: الْقَنِي عند زاوية القبر فإنَّ لي إليك حاجة. قال: فالْتَقَيَا، فسلَّم أحدهما علىٰ الآخر، ثم قال سالم: ما تَعُدُّ الباقيات الصَّالحات؟ فقال: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وسبحَان الله، والله أكْبَر، ولا حَول ولَا قوَّة إلَّا بالله، فقال له سالم: متىٰ جَعَلَتَ فيها: لَا حَول ولَا قوَّة إلَّا بالله؟ فقال: ما زِلْت أجعلها. قال: فراجعه مرَّتَين أو ثلاثًا، فلَمْ يَنْزِع، قال فأثبت(٥) قال سالم: أجل فأَثْبَت(٦) فإنَّ أبا أيوب الأنصاري حدَّثني؛ أنَّه سَمِع رسولَ الله ﷺ وهو يقول: «عُرِجَ بِي إِلَىٰ السَّمَاءِ فَأُرِيتُ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام فَقَالَ: يَا جِبْرِيلُ مَنْ هَذَا مَعَكَ؟ فَقَالَ: مُحَمَّدٌ فَرَحَّبَ بِي وَسَهَّلَ، ثُمَّ قَالَ: مُرْ أُمَّتَكَ فَلْتُكْثِرْ مِنْ غِرَاسِ الجَنَّةِ، فَإِنَّ تُرْبَتَهَا طَيِّبَةٌ وَأَرْضَهَا وَاسِعَةٌ. فَقُلْتُ: وَمَا غِرَاسُ الجَنَّةِ؟ قَالَ: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ»(٧).

---

(١) سقط من (ز)، والمثبت موافق لما في «الطبري». (٢) لوحة (١٨٩ أ).

(٣) حسن: رواه الطبري (١٥/ ٢٥٥)، والحاكم (١/ ٥٤١) وقال: صحيح علىٰ شرط مسلم. ووافقه الذهبي، ورواه الطبراني في «الصغير» (١٤٥)، وفي «الأوسط» (٤٠٢٧)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٩٢): ورجاله في الصغير رجال الصحيح غير داود بن بلال، وهو ثقة. وقال المنذري في «الترغيب والترهيب»: إسناده جيد قوي.
قلت: ويشهد له أيضًا الروايات الآتية بعده، وحسنه الألباني في «الصحيحة» (٣٢٦٤).

(٤) إسناده ضعيف [حسن لغيره]: رواه ابن جرير (١٥/ ٢٥٥)، وأحمد (٣/ ٧٥)، والحاكم (١/ ٥١٢) وصححه، ووافقه الذهبي. قلت: بل هو إسناد ضعيف، وفيه دراج أبو السمح وروايته عن أبي الهيثم ضعيفة، لكن له شواهد:
فله شاهد من حديث ابن مسعود، قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٩١): رواه الطبراني في «الصغير» و«الأوسط»، وفيه عبد الرَّحمن بن إسحاق أبو شيبة الكوفي وهو ضعيف. ويشهد له الحديث السابق.

(٥) في (ز): «فأبيت»، والمثبت من «الطبري». (٦) في (ز): «فأبيت»، والمثبت من «الطبري».

(٧) حسن لغيره: رواه ابن جرير (١٥/ ٢٥٥)، وأحمد (٥/ ٤١٨)، وليس فيهما قصة سالم مع محمَّد بن كعب، ورجاله ثقات غير أنَّ عبد الله بن عبد الرحمن لم يوثِّقه غير ابن حبان، ورواه الطبراني في «الكبير» (١٣٣٥٤)، وله شاهد من حديث ابن عمر عنه وآخر من حديث أبي هريرة عند أحمد (٢/ ٣٣٣) والترمذي (٣٦٠١)، وبهما يتقوىٰ الحديث.

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا محمَّد بن يزيد، عن العوام، حدَّثني رجلٌ من الأنصار، من آل النعمان بن بشير، عن النعمان بن بشير قال: خرج علينا رسول الله ﷺ، ونحن في المسجد بعد صلاة العشاء، فرفع بصره إلىٰ السَّماء ثم خفض، حتىٰ ظننَّا أنَّه قد حَدَثَ في السَّماء شيءٌ، ثم قال: «أَمَا إِنَّهُ سَيَكُونُ بَعْدِي أُمَرَاءُ، يَكْذِبُونَ وَيَظْلِمُونَ، فَمَنْ صَدَّقَهُمْ بِكَذِبِهِمْ وَمَالأَهُمْ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ، فَلَيْسَ مِنِّي وَلا أَنَا مِنْهُ، وَمَنْ لَمْ يُصَدِّقْهُمْ بِكَذِبِهِمْ وَلَمْ يُمَالِئْهُمْ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ فَهُوَ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُ. أَلَا وَإِنَّ سُبْحَانَ اللهِ، وَالحَمْدُ للهِ، وَلا إِلَهَ إِلَّا اللهُ(١)، وَاللهُ أَكْبَرُ هُنَّ البَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ»(٢).

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا عفان، حدَّثنا أبان، حدَّثنا يحيىٰ بن كثير، عن زيد، عن أبي سلام [عن](٣) مولىٰ لرسول الله ﷺ [أنَّ رسول الله ﷺ](٤) قال: «بَخٍ بَخٍ لَخَمْسٌ مَا أَثْقَلَهُنَّ فِي المِيزَانِ: لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ، وَسُبْحَانَ اللهِ، وَالحَمْدُ للهِ، وَالوَلَدُ الصَّالِحُ يُتَوَفَّىٰ فَيَحْتَسِبُهُ وَالِدُهُ». وقال: «بَخٍ بَخٍ لَخَمْسٌ مَنْ لَقِيَ اللهَ مُسْتَيْقِنًا بِهِنَّ، دَخَلَ الجَنَّةَ: يُؤْمِنُ بِاللهِ، وَاليَوْمِ الآخِرِ، وَبِالجَنَّةِ وَبِالنَّارِ، وَبِالبَعْثِ بَعْدَ المَوْتِ، وَبِالحِسَابِ»(٥).

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا رَوْح، حدَّثنا الأوزاعي، عن حسَّان بن عطيَّة قال: كان شدَّاد بن أوس ﵁ [في سفرٍ](٦) فنزل منزلًا فقال لغلامه: «ائتِنا بالشَّفرة نعبث بها». فأنكرت عليه، فقال: ما تكلَّمت بكلمةٍ منذ أسلمت إلا وأنا أَخْطِمُها وأزمُّها غير كلمتي هذه. فلا تحفظوها علي واحفظوا ما أقول لكم: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِذَا كَنَزَ النَّاسُ الذَّهَبَ وَالفِضَّةَ فَاكْنِزُوا هَؤُلَاءِ الكَلِمَاتِ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الثَّبَاتَ فِي الأَمْرِ، وَالعَزِيمَةَ عَلَىٰ الرُّشْدِ، وَأَسْأَلُكَ شُكْرَ نِعْمَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ حُسْنَ عِبَادَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ قَلْبًا سَلِيمًا، وَأَسْأَلُكَ لِسَانًا صَادِقًا، وَأَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ مَا تَعْلَمُ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا تَعْلَمُ، وَأَسْتَغْفِرُكَ لِمَا تَعْلَمُ، إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الغُيُوبِ»(٧).

ثم رواه أيضًا النسائي من وجهٍ آخر عن شداد بنحوه.

وقال الطبراني: حدَّثنا عبد الله بن ناجية، حدَّثنا محمَّد بن سعد العوفي، حدَّثني أبي، حدَّثنا عمي الحسين(٨)، عن يونس بن نفيع الجدلي، عن سعد بن جنادة ﵁ قال: كنتُ في أوَّل من أتىٰ النَّبيَّ ﷺ من

---

(١) لوحة (١٨٩ ب).

(٢) إسناده ضعيف: رواه أحمد (٤/ ٢٦٧)، وفيه رجل لم يسم.

(٣) سقط من (ز)، وهو مثبت من «المسند». (٤) سقط من (ز)، وهو مثبت من «المسند».

(٥) صححه الألباني: انظر: «السلسلة الصحيحة» (١٢٠٤).

(٦) سقط من (ز)، وهو مثبت من «المسند».

(٧) رواه أحمد (٤/ ١٢٣)، وفيه انقطاعٌ بين حسَّان بن عطيَّة وشدَّاد ابن أوس، ووصله ابن حبَّان (٩٣٥)، وجعل الوَاسِطَة بينهما أبا عبيد بن مسلم بن مِشْكَم، لكنَّ الطريق إليه فيه ضَعْف.

ورواه الترمذي (٣٤٠٧)، والنسائي (٣/ ٥٤) من طرق عن شداد بن أوس به، وبالجملة فالحديث لا ينزل عن درجة الحسن، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٣٢٢٨)، وحسنه شعيب الأرناؤوط في تعليقه علىٰ «المسند». والله أعلم.

(٨) كذا في (ز)، وفي بعض المطبوعات: «عمر بن الحسن»، والصواب ما أثبتناه وانظر: «الإصابة» (٣/ ٤٩).

أهل الطَّائف، فخرجت من أهلي مِن السَّراة غدوةً، فأتيتُ مِنًى عند العصر، فتصاعدت في الجبل ثم هبطتُ، فأتيتُ النَّبيَّ ﷺ فأسلمتُ، وعلَّمَني: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ و﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾ وعلَّمَني هؤلاء الكلمات: سُبحَانَ الله، والحَمدُ لله، ولا إلَه إلَّا الله، واللهُ أكبر، وقال: «هُنَّ البَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ»(١).

وبهذا الإسناد: «مَنْ قَامَ مِنَ اللَّيْلِ فَتَوَضَّأَ وَمَضْمَضَ فَاهُ، ثُمَّ قَالَ: سُبْحَانَ اللهِ مِائَةَ مَرَّةٍ، وَالحَمْدُ للهِ مِائَةَ مَرَّةٍ، وَاللهُ أَكْبَرُ مِائَةَ مَرَّةٍ، وَلا إِلَهَ إِلَّا اللهُ مِائَةَ مَرَّةٍ، غُفِرَتْ ذُنُوبُهُ، إِلَّا الدِّمَاءُ فَإِنَّهَا لا تُبْطَلُ»(٢).

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس قوله: ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾ قال: هي ذكر الله، قول: لَا إلَه إلَّا الله، واللهُ أكبَر، وسبحَان الله، والحمدُ لله، وتبارَكَ اللهُ، ولَا حَول ولَا قوَّة إلَّا بالله، وأستَغْفِر الله، وصلَّىٰ الله علىٰ رسول الله، والصِّيام، والصَّلاة، والحجُّ، والصَّدقة، والعِتْق، والجهَاد، والصِّلة، وجميع أعمال الحسنَات. وهنَّ الباقيات الصَّالحات، التي تَبْقَىٰ لأهلها في الجنَّة، ما دامَتِ(٣) السَّموات والأرض(٤). وقال العوفي، عن ابن عبَّاس: هُنَّ الكَلام الطَّيِّب. وقال عبد الرَّحمن بن زيد بن أسلم: هيَ الأعمَال الصَّالحة كلها. واختاره ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ.

﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾

يخبر تعالىٰ عن أهوال يوم القِيَامَة، وما يكون فيه مِن الأمور العظام، كما قال تعالىٰ: ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا﴾ [الطور:٩، ١٠] أي: تذهب مِن أماكنها وتزُول، كما قال تعالىٰ: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ [النمل:٨٨]، وقال تعالىٰ: ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ﴾ [القارعة:٥] وقال: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ [طه:١٠٥-١٠٧] يقول تعالىٰ: إنه تذهب الجبال، وتتساوىٰ المهاد، وتبقىٰ الأرض ﴿قَاعًا صَفْصَفًا﴾ أي: سطحًا مستويًا لا عوج فيه ﴿وَلَا أَمْتًا﴾ أي: لا وَادِي ولا جَبَل؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ [أي: باديةً ظاهرةً، ليس فيها مَعْلَمٌ لأحدٍ، ولا مكانٌ يوارِي أحدًا، بل الخلق كلهم ضاحُون لربِّهم لا تخفىٰ عليه منهم خافية.

(١) رواه الطبراني في «الكبير» (٦/ ٥١/ ٥٤٨٣)، وفيه الحسن بن الحسن العوفي: ضعيف.
(٢) إسناده ضعيف: الطبراني (٥٤٨٤) ولفظه: «... إلا الدماء والأموال...»، وفيه الحسن بن الحسن العوفي: ضعيف.
(٣) لوحة (١٩٠ أ).
(٤) رواه الطبراني (١٥/ ٢٥٦)، وإسناده منقطع بين علي بن أبي طلحة وابن عبَّاس.

قال مجاهد، وقتادة: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً﴾][1] لا خَمَرَ[2] فيها ولا غَيابة. قال قتادة: لا بناءَ ولا شَجَر.

وقوله: ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ أي: وجمعناهم، الأوَّلين منهم والآخرين، فلم نترك منهم أحدًا، لا صغيرًا ولا كبيرًا، كما قال: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الواقعة: ٥٠، ٤٩]، وقال: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هود: ١٠٣].

وقوله: ﴿وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا﴾ يحتمل أن يكون المراد: أن جميع الخلائق يقومون بين يدي الله صفًّا واحدًا، كما قال تعالىٰ: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبأ: ٣٨]، ويحتمل أنَّهم يقومون صفوفًا صفوفًا، كما قال: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢].

وقوله: ﴿لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ﴾ هذا تقريعٌ للمُنْكِرين للمعَاد، وتوبيخٌ لهم علىٰ رءوس الأشهاد؛ ولهذا قال مخاطبًا لهم: ﴿بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾ أي: ما كان ظنُّكم أنَّ هذا واقعٌ بكم، ولا أنَّ هذا كائنٌ.

وقوله: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ أي: كتاب الأعمال، الَّذي فيه الجَليل والحقيرُ، والفتيلُ والقِطميرُ[3]، والصَّغيرُ والكبيرُ ﴿فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾ أي: مِن أعمالهم السَّيِّئة وأفعالِهم[4] القبيحة، ﴿وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا﴾ أي: يا حسرتنا ووَيْلَنا علىٰ ما فرَّطنا في أعمارنا ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ أي: لا يترك ذنبًا صغيرًا ولا كبيرًا ولا عملًا وإن صَغُر ﴿إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ أي: ضبطها، وحفظها.

وروىٰ الطبراني، بإسناده المتقدِّم في الآية قبلها، إلىٰ سعد بن جنادة قال: لما فرغ رسول الله ﷺ من غزوة حُنَين، نزلنا قفرًا من الأرض، ليس فيه شيء، فقال النَّبيُّ ﷺ: **«اجْمَعُوا، مَنْ وَجَدَ عُودًا فَلْيَأْتِ بِهِ، وَمَنْ وَجَدَ حَطَبًا أَوْ شَيْئًا فَلْيَأْتِ بِهِ»** قال: فما كان إلا ساعة حتىٰ جعلناه رُكامًا، فقال النَّبيُّ ﷺ: **«أَتَرَوْنَ هَذَا؟ فَكَذَلِكَ تُجْمَعُ الذُّنُوبُ عَلَىٰ الرَّجُلِ مِنْكُمْ كَمَا جَمَعْتُمْ هَذَا. فَلْيَتَّقِ اللهَ رَجُلٌ وَلَا يُذْنِبُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً، فَإِنَّهَا مُحْصَاةٌ عَلَيْهِ»**[5].

وقوله: ﴿وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا﴾ أي: من خيرٍ أو شرٍّ كما قال تعالىٰ: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠]، وقال تعالىٰ: ﴿يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة: ١٣]، وقال تعالىٰ: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ [الطارق: ٩] أي: تظهر المخبآت والضَّمائر.

قال الإمام أحمد: حدَّثنا أبو الوليد، حدَّثنا شعبة، عن ثابت، عن أنس، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «لِكُلِّ

---

(١) سقط من (ز)، ويبدو أنه سقط نظر.

(٢) الخَمَر: كل ما سترك من شجر أو بناء أو غيره، والغَيابة: الجب والوادي، يقال: وقعوا في غيابة من الأرض، أي: في منهبط منها.

(٣) الفَتِيل: ما يكون في شَقِّ النَّواة، وقيل: ما يُفتَل بين الأصْبَعين من الوَسخ. «النهاية»، والقِطْمِير: القشرة الرقيقة علىٰ النواة كاللفافة لها، والشيء الهين الحقير، يقال: ما أصبت منه قطميرًا.

(٤) لوحة (١٩٠ ب).

(٥) رواه الطبراني (٦/ ٥٢/ ٥٤٨٥)، وفيه الحسين بن الحسن العوفي: ضعيف، لكن يشهد له الحديث الصحيح «إِيَّاكُمْ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ، فَإِنَّهُنَّ يَجْتَمِعْنَ عَلَىٰ العَبْدِ حَتَّىٰ يُهْلِكْنَهُ»، رواه أحمد (٥/ ٣٣١) بسندٍ صحيحٍ وله شواهد أخرىٰ كثيرة: انظر: «السلسلة الصحيحة» (٣١٠٢).

غَادِرٍ لِوَاءٌ يَوْمَ القِيَامَةِ [يُعْرَفُ بِهِ». أخرجاه في «الصحيحين»، وفي لفظ: «يُرْفَعُ لِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ يَوْمَ القِيَامَةِ][(١)] عِنْدَ اسْتِهِ بِقَدْرِ غَدْرَتِهِ، يُقَالُ: هَذِهِ غَدْرَةُ فُلَانِ ابْنِ فُلَانٍ»[(٢)].

وقوله: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ أي: فيحكم بين عباده في أعمالهم جميعًا، ولا يظلم أحدًا من خلقه، بل يغفر ويصفح ويرحم ويعذِّب من يشاء، بقُدْرَتِهِ وحكمته وعدلِهِ، ويملأُ النَّار مِن الكفَّار وأصحاب المعاصي، [ثم ينجِّي أصحاب المعاصي][(٣)] ويُخلَّد فيها الكافرون وهو الحاكم الذي لا يجُور ولا يَظْلِم، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٤٠] وقال: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء:٤٧] والآياتُ في هذا كثيرةٌ.

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا يزيد، أخبرنا همام بن يحيىٰ، عن القاسم بن عبد الواحد المكي، عن عبدالله بن محمَّد بن عَقِيل، أنَّه سَمِعَ جابرَ بن عبد الله يقول: بلغَني حديثٌ عن رجلٍ سَمِعَه مِن رسول الله ﷺ، فاشتريت بعيرًا ثم شَدَدْت عليه رَحْلِيْ، فسِرْتُ عليه شهرًا، حتَّىٰ قَدِمْت[(٤)] عليه الشَّام، فإذا عبد الله بن أنيس فقُلْتُ للبوَّاب: قل له: جابرٌ علىٰ الباب. فقال: ابن عبد الله؟ فقلت: نعم. فخرج يَطَأُ ثوبه، فاعتنقني واعتنقتُه، فقلت: حديثٌ بلغني عنك أنك سمعتَه مِن رسول الله ﷺ في القصاص، فخشيت أن تموت أو أموت قبل أن أسمَعه فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يَحْشُرُ اللهُ، عَزَّ وَجَلَّ النَّاسَ يَوْمَ القِيَامَةِ -أو قال: العِبادَ- عُرَاةً غُرْلًا بُهْمًا» قلت: وما بهمًا؟ قال: «لَيْسَ مَعَهُمْ شَيْءٌ، ثُمَّ يُنَادِيهِمْ بِصَوْتٍ يَسْمَعُهُ مَنْ بَعُدَ، كَمَا يَسْمَعُهُ مَنْ قَرُبَ: أَنَا المَلِكُ، أَنَا الدَّيَّانُ، لا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ أَنْ يَدْخُلَ النَّارَ، وَلَهُ عِنْدَ أَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ حَقٌّ، حَتَّىٰ أُقِصَّهُ[(٥)] مِنْهُ، وَلا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ أَنْ يَدْخُلَ الجَنَّةَ، وَلَهُ عِنْدَ أَحَدٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ حَقٌّ، حَتَّىٰ أُقِصَّهُ مِنْهُ حَتَّىٰ اللَّطْمَةَ». قال: قلنا: كيف، وإنما نأتي الله عَزَّ وَجَلَّ عُراةً غُرْلًا بُهْمًا؟ قال: «بِالحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ»[(٦)]. وعن شعبة، عن العوام بن مُزَاحم، عن أبي عثمان، عن عثمان بن عفان رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ الجَمَّاءَ لَتَقْتَصُّ مِنَ القَرْنَاءِ يَوْمَ القِيَامَةِ». رواه عبد الله بن الإمام أحمد[(٧)]، وله شواهدُ مِن وجوهٍ أُخَر، وقد ذكرناها عند قوله: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ [الأنبياء:٤٧]، وعند قوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام:٣٨].

---

(١) سقط من (ز)، والمثبت موافق لما في «المسند» و«الصحيحين».

(٢) البخاري (٣١٨٧)، ومسلم (١٧٣٧) وأحمد (٣/ ١٤٢) من حديث أنس.

(٣) سقط من (ز). (٤) لوحة (١٩١ أ). (٥) أي: حتىٰ أمكنه من أخذ القصاص.

(٦) رواه أحمد (٣/ ٤٩٥). قال الحافظ في «الفتح» (١/ ١٧٤). إسناده حسن وقد اعتضد.

(٧) صحيح: هذا اللفظ رواه في «المسند» (١/ ٧٢) وفي سنده ضعف، لكن الحديث صحيح، يشهد له حديث أبي هريرة: «لَتُرَدُّنَّ الْحُقُوقَ إِلَىٰ أَهْلِهَا، حَتَّىٰ يُقْتَصَّ لِلشَّاةِ الْجَمَّاءِ مِنَ الشَّاةِ الْقَرْنَاءِ» رواه مسلم (٢٥٨٢)، والترمذي (٢٤٢٠).

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ ﴾

يقول تعالىٰ منبهًا بني آدم علىٰ عداوةِ إبليس لهم ولأَبِيهِم مِن قبلهم، ومقرِّعًا لمن اتَّبعه منهم وخالف خالِقَه ومولاه، الَّذي أنشأَهُ وابتداَهُ، وبألطافه ورزقه وغذَّاه، ثم بعد هذا كله وَالَىٰ إبليس وعادىٰ الله، فقال تعالىٰ: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ﴾ أي: لجميع الملائكة، كما تقدَّم تقريره في أول سورة «البقرة».

﴿ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾ أي: سجود تشريفٍ وتكريم وتعظيم[(١)]، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ [الحجر: ٢٨، ٢٩].

وقوله ﴿فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾ أي: خانه أصله؛ فإنَّه خُلِق مِن مارجٍ مِن نارٍ، وأصل خلق الملائكة من نور، كما ثبت في «صحيح مسلم» عن عائشة، عن رسول الله ﷺ، أنَّه قال: «خُلِقَتِ المَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ، وَخُلِقَ إِبْلِيسُ مِنْ[(٢)] مَارِجٍ مِنْ نَارٍ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ»[(٣)]. فعند الحاجَة نَضَحَ كلُّ وعاءٍ بما فيه، وخانه الطَّبع عند الحاجة، وذلك أنَّه كان قد تَوَسَّم بأفعالِ الملائكة وتشبَّه بهم، وتعبَّد وتنسَّك؛ فلهذا دخل في خِطَابِهم، وعصىٰ بالمخَالَفةِ.

ونبَّه تعالىٰ هاهنا علىٰ أنَّه ﴿مِنَ ٱلْجِنِّ﴾ أي: إنه خُلِقَ مِن نارٍ، كما قال: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢].

قال الحسن البصري: ما كان إبليس من الملائكةِ طرفةَ عينٍ قطُّ، وإنَّه لأصل الجنِّ، كما أنَّ آدم عليه السلام أصلُ البشَرِ. رواه ابن جرير بإسنادٍ صحيحٍ عنه.

وقال الضَّحَّاك، عن ابن عبَّاس: كانَ إبليس من حيٍّ مِن أحياء الملائكةِ، يقال لهم: الجن[(٤)]، خلقوا مِن نار السَّموم من بين الملائكة - قال: وكان اسمه الحارث، وكان خازنًا من خُزَّانِ الجنة، وخُلقت الملائكة من نورٍ غير هذا الحي- قال: وخُلِقَت الجنُّ الَّذين ذُكروا في القرآن من مارجٍ مِن نارٍ. وهو

(١) قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: قال بعضهم: سجود تحية، وليس سجوداً علىٰ الجبهة، قالوا ذلك فراراً من كونه سجوداً علىٰ الجبهة، لأن السجود علىٰ الجبهة لا يصح إلا لله، ولكن الذي يجب علينا أن نأخذ الكلام علىٰ ظاهره ونقول: الأصل أنه سجود علىٰ الجبهة. وإذا كان امتثالاً لأمر الله لم يكن شركاً كما أن قتل النفس بغير حق من كبائر الذنوب، وإذا وقع امتثالاً لأمر الله كان طاعة من الطاعات، فإن إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام أُمر بذبح ابنه فامتثل أمر الله وشرع في تنفيذ الذبح، ولا يخفىٰ ما في ذبح الابن من قطيعة الرحم، لكن لما كان هذا امتثالاً لأمر الله صار طاعة، ولما تحقق مراد الله تعالىٰ من الابتلاء نسخ الأمر ورفع الحرج، إذاً فالسجود لآدم لولا أمر الله لكان شركاً، لكن لما كان بأمر الله كان طاعة لله.

(٢) لوحة (١٩١ ب).

(٣) مسلم (٢٩٩٦)، وأحمد (٦/ ١٥٣)، وابن حبان (٦١٥٥).

(٤) كذا في (ز)، وفي «الطبري»: «الحن» بالحاء، وانظر تعليق الشيخ شاكر عليه.

لسان النَّار الذي يكون في طرَفِهَا إذَا التهبت[(١)].

وقال الضَّحَّاك أيضًا، عن ابن عبَّاس: كان إبليس مِن أشرف الملائكةِ وأكرمهم قبيلةً، وكان خازنًا علىٰ الجِنَان، وكان له سلطان السَّماء الدُّنيا وسلطان الأرض، وكان ممَّا سوَّلت له نفسه، من قضاء اللهِ أنَّه رأىٰ أنَّ له بذلك شرفًا علىٰ أهل السَّماء، فوقع مِن ذلك في قلبِهِ كِبرٌ لا يعلمه إلا اللهُ، فاستخرجَ الله ذلك الكِبْر منهُ حين أمرَهُ بالسُّجود لآدَمَ فاستكبر، وكان من الكافرين[(٢)]. قال ابن عبَّاس: وقوله: ﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾ أي: من خزان [الجنان، كما يقال للرجل: مكيٌّ، ومدنيٌّ، وبصريٌّ، وكوفيٌّ. وقال ابن جريج، عن ابن عبَّاس، نحو ذلك.

وقال سعيد بن جُبَير، عن ابن عبَّاس قال: هو مِن خزَّان][(٣)] الجنَّة، وكان يدبِّر أمر السَّماء الدُّنيا؛ رواه ابن جرير من حديث الأعمش، عن حبيب بن أبي ثابت، عن سعيد به[(٤)].

وقال سعيد بن المسيب: كان رئيس ملائكة سماء الدنيا.

وقال ابن إسحاق، عن خَلاد بن عطاء، عن طاوس، عن ابن عبَّاس قال: كان إبليس -قبل أن يركب المعصية- من الملائكة، [اسمه][(٥)] «عزازِيل»، وكان مِن سكَّان الأرض. وكان من أشدِّ الملائكةِ اجتهادًا وأكثرهم علمًا، فذلك دعاه إلىٰ الكبر، وكان من حي يسمون «جنًّا»[(٦)].

وقال ابن جُرَيْج، عن صالح مولىٰ التَّوْأمة وشريك بن أبي نَمِر، أحدهما أو كلاهما عن ابن عبَّاس قال: إنَّ من الملائكةِ قبيلةً مِن الجن، وكان إبليس منها، وكان يَسُوسُ مَا بين السَّماء والأرض، فعَصَىٰ، فسَخِطَ الله عليه، فمَسَخَهُ شيطانًا رجيمًا -لعنه الله- ممسوخًا، قال: وإذا كانت خطيئةُ الرَّجل في كِبْرٍ فلا تَرْجُه، وإذا كَانَت في معصيةٍ فَارْجُه[(٧)].

وعن سعيد بن جُبَيْر أنَّه قال: كان من[(٨)] الجنانين؛ الَّذِين يعملون في الجنَّة.

---

(١) **ضعيف**: رواه الطبري (١٥/ ١٥٩)، وفي إسنادِهِ بشر بن عمارة: ضعيف، وفيه انقطاع بين الضَّحَّاك بن مزاحم وابن عبَّاس.

(٢) **ضعيف**: رواه الطبري (١٥/ ١٦٠) معلقًا، وفيه انقطاع بين الضَّحَّاك وابن عبَّاس، ورواه الطبري أيضًا (١٥/ ١٦٠) من طريق ابن جريج عن ابن عبَّاس. وابن جريج: مدلس، والإسناد منقطع. وعلىٰ فرض صحَّة إسناده فمِثْل هذا لا يُقْبَل؛ لأنَّه مما لا يُقال بالرَّأي. ويُشترَط في قبوله أن يكون الصَّحابي لم يأخذ من كتب أهل الكتاب، وهذا لا يتوفر هنا؛ لأن ابن عبَّاسٍ ﷺ ممن أخذوا منها، وهكذا يُقال في الروايات الآتية.

(٣) ليست في (ز)، والمثبت موافق لما في «الطبري».

(٤) **ضعيف**: رواه الطبري (١٥/ ١٥٩) وفيه ابن وكيع: ضعيف، والأعمش وحبيب بن أبي ثابت كلاهما مدلس وقد عنعنا.

(٥) سقط من (ز)، وهو مثبت من «الطبري».

(٦) رواه الطبري (١٥/ ١٥٩) من طريق أبي إسحاق، وهو مدلس وقد عنعن، وخلَّاد بن عطاء إن كان هو مولىٰ القُرَشِيِّين فهو منكر الحديث كما قال البخاري، وإن كان غيره فلم أعرفه.

(٧) رواه الطبري (١٥/ ١٦٠). وصالح مولىٰ التوأمة: صدوق لكنه اختلط، وبعضهم تركه، وشريك بن أبي نمر: قال الحافظ: صدوق يخطئ، وابن جريج: مدلس وقد عنعن؛ فالإسناد لا يصح.

(٨) لوحة (١٩٢ أ).

وقد رُوي في هذا آثارٌ كثيرةٌ عَن السَّلف، وغالبها من الإسرائيليَّات التي تُنقل ليُنْظَرَ فيها، والله أعلم بحالِ كثيرٍ منها. ومنها ما قد يُقطع بكذبِهِ لمخالفته للحقِّ الذي بأَيْدينا، وفي القرآن غُنْيَةٌ عَن كلِّ ما عداه من الأخبار المتقدِّمة؛ لأنَّها لا تكادُ تخلُو مِن تبديلٍ وزيادةٍ ونقصانٍ، وقد وُضعَ فيها أشياء كثيرة، وليس لهم مِن الحفَّاظ المتقِنِينَ الَّذين يَنْفُون عنها تحريفَ الغَالِين وانتحالَ المبطِلِينَ، كما لهذه [الأمَّة مِن][(١)] الأئمَّة والعُلَمَاءِ، والسَّادة الأتقياء، والأبرار والنُّجَباء من الجهابذةِ النُّقَّاد، والحفَّاظ الجِيَاد، الَّذين دوَّنُوا الحديثَ وحَرَّرُوهُ، وبيَّنوا صحيحه مِن حسَنِهِ، مِن ضعيفِهِ، من منكرِهِ وموضوعِهِ، ومتروكِهِ، ومكذوبِهِ، وعرفوا الوضَّاعين والكذَّابين والمجهولين، وغير ذلك مِن أصناف الرِّجال، كلُّ ذلك صيانةً للجَناب النَّبويِّ والمقام المحمَّديِّ، خاتَمِ الرُّسُل، وسيِّدِ البشَرِ [عليه أفضلُ التَّحيَّات والصَّلوات والتَّسليمات][(٢)]، أن يُنسب إليه كذب، أو يُحدَّثَ عنه بما ليس منه، فرضي الله عنهم وأرضاهم، وجعل جنَّات الفردوس مأواهم، وقد فعَل.

وقوله: ﴿فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓ﴾ أي: فخرج عن طاعةِ الله؛ فإنَّ الفسق هو الخُرُوجُ، يقال: فَسَقَتِ الرُّطَبَة: إذا خَرَجَت مِن أكمامها، وفَسَقَتِ الفأرة من جُحْرها: إذا خرجت منه للعَيْثِ والفساد.

ثم قال تعالىٰ مقرِّعًا وموبِّخًا لمن اتَّبعه وأطاعَهُ: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي﴾ أي: بدلًا عنِّي؛ ولهذا قال: ﴿بِئۡسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلٗا﴾.

وهذا المقام كقوله بعد ذكر القيامة وأهوالها ومصير كل من الفريقَيْن السُّعداء والأشقياء في سورة «يس»: ﴿وَٱمۡتَٰزُواْ ٱلۡيَوۡمَ أَيُّهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٥٩ ۞أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٦٠ وَأَنِ ٱعۡبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ٦١ وَلَقَدۡ أَضَلَّ مِنكُمۡ جِبِلّٗا كَثِيرًاۖ أَفَلَمۡ تَكُونُواْ تَعۡقِلُونَ﴾ [يس].

﴿۞مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا ٥١﴾

يقول تعالىٰ: هؤلاء الَّذين اتَّخذتموهم أولياء مِن دوني -عبيدٌ أمثالُكُم، لا يملكون شيئًا، ولا أشهدتُهُم خلقِي للسَّموات والأرض، ولا كانُوا إذ ذاك موجودين، يقول تعالىٰ: أنا المستقلُّ بخلق الأشياءِ كلِّها، ومدبِّرها ومقدِّرها وَحْدِي، ليس معِي في ذلك شريكٌ ولا وزيرٌ، ولا مشيرٌ ولا نظيرٌ، كما قال: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ[(٣)] مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ ٢٢ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥ﴾ الآية [سبا: ٢٢، ٢٣]؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا﴾ قال مالك: أعوانًا.

﴿وَيَوۡمَ يَقُولُ نَادُواْ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُمۡ فَدَعَوۡهُمۡ فَلَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُمۡ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُم مَّوۡبِقٗا ٥٢ وَرَءَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمۡ يَجِدُواْ عَنۡهَا مَصۡرِفٗا ٥٣﴾

---

(١) سقط من (ز). (٢) ليست في (ز). (٣) لوحة (١٩٢ ب).

يقول تعالىٰ مخبرًا عما يُخاطب به المشركين يومَ القِيامَة علىٰ رءُوس الأشهادِ تقريعًا لهم وتوبيخًا: ﴿نَادُوا شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ أي: في دار الدُّنيا، ادعُوهُم اليوم، يُنْقِذُونكم ممَّا أنتم فيه، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام:٩٤].

وقوله: ﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ﴾ [كما قال: ﴿وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ﴾][(١)] ﴿وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ﴾ [القصص:٦٤]، وقال: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ [الأحقاف]، وقال تعالىٰ: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم].

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا﴾ قال ابن عبَّاس، وقتادة وغير واحدٍ: مَهْلِكًا.

وقال قتادة: ذكر لنا أنَّ عمرًا البكالي حدَّث عن عبد الله بن عمرو قال: هو وادٍ عميقٌ، فُرِّق به يوم القيامة بين أهلِ الهُدَىٰ وأهل الضَّلالة[(٢)].

وقال قتادة: ﴿مَّوْبِقًا﴾ واديًا في جهنَّم.

وقال ابن جرير: حدَّثني محمَّد بن سِنان القزاز، حدَّثنا عبد الصَّمد، حدَّثنا يزيد بن درهم سمعت أنس بن مالك يقول في قول الله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا﴾ قال: وادٍ في جهنَّم، من قيحٍ ودمٍ[(٣)].

وقال الحسن البصري: ﴿مَّوْبِقًا﴾: عداوة.

والظَّاهر من السِّياق هاهنا: أنَّه المهلك، ويجوزُ أن يكونَ واديًا في جهنَّم أو غيرِه، إلَّا أنَّ الله تعالىٰ أخبرَ أنَّه لا سَبِيلَ لهؤلاءِ المشركين، ولا وصولَ لهم إلىٰ آلهتِهم الَّتي كانُوا يَزْعُمُون في الدُّنيا، وأنَّه يفرِّق بينهم وبينها في الآخرة، فلا خلاصَ لواحدٍ مِن الفَرِيقَيْن إلىٰ الآخر، بَلْ بَيْنَهُمَا مهلكٌ وهَوْلٌ عظيمٌ وأمرٌ كبيرٌ.

وأمَّا إن جعل الضَّمير في قوله: ﴿بَيْنَهُم﴾ عائدًا[(٤)] إلىٰ المؤمنين والكافرين، كما قال عبد الله بن عمرو: إنَّه يفرِّق بين أهل الهدىٰ والضلالة به، فهو كقوله تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾ [الروم:١٤]، وقال: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ [الروم:٤٣]، وقال تعالىٰ: ﴿وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [يس:٥٩]، وقال تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ ۚ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ۖ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُوا۟ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ

(١) سقط من (ز).
(٢) رواه الطبري (١٥/ ١٦٤)، وفي إسناده جهالة؛ لقولِ قتادة: ذُكِر لنا، وعزاه السُّيوطي في «الدُّرِّ المنثور» (٥/ ٤٠٥) إلىٰ أحمد في «الزهد» وابن أبي حاتم والبيهقي.
(٣) رواه الطبري (١٥/ ٢٦٥)، والبيهقي في «الشُّعب» (٤٧٢)، وفي الإسناد يزيد بنِ درهم أبو العلاء؛ قال ابن معين: ليس بشيء. انظر: «ميزان الاعتدال» (٤/ ٤٢١). والأثر زاد عزوه السيوطي في «الدُّر المنثور» (٥/ ٤٠٥) إلىٰ عبد الله بن أحمد في «زوائد الزهد» وابن المنذر وابن أبي حاتم.
(٤) لوحة (١٩٣ أ).

وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ [يونس].

وقوله: ﴿ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴾ أي: إنهم لما عاينوا جهنم حين جيءَ بها تُقاد بسبعينَ ألفَ زمام، مع كلِّ زمامٍ سبعون ألفَ ملَكٍ، فإذا رأىٰ المجرمون النَّار، تحقَّقوا لا محالةَ أنَّهم مواقعوها؛ ليكونَ ذَلِكَ مِن باب تعجيلِ الهَمِّ والحُزْن لهم؛ فإنَّ توقُّع العذاب والخوف منه قبل وقوعه عذابٌ ناجزٌ.

﴿وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ أي: ليس لهم طريق يعدل بهم عنها، ولا بدَّ لهم منها.

قال ابن جرير: حدَّثني يونس، أخبرنا ابن وهب، أخبرني عمرو بن الحارث، عن درَّاج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيدٍ، عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «**إنَّ الكافِرَ يَرَىٰ جَهنَّم، فَيَظُنُّ أَنَّها مُواقِعَتُهُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ سَنَةً**»(١).

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا حسن، حدَّثنا ابن لهيعة، حدَّثنا دراج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيدٍ الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «**يُنْصَبُ الكافِرُ مِقْدَارَ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، كَمَا لَمْ يَعْمَلْ فِي الدُّنْيا، وَإِنَّ الكَافِرَ لَيَرَىٰ جَهنَّم، وَيَظُنُّ أَنَّها مُواقِعَتُهُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ سَنَةً**»(٢).

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾﴾

يقول تعالىٰ: ولقد بيَّنَّا للنَّاس في هذا القُرْآن، وَوَضَّحْنا لهم الأمور، وفصَّلناها؛ كيلا يضلُّوا عن الحق، ويخرُجوا عن طريق الهُدَىٰ. ومع هذا البيان وهذا الفُرْقَان، الإنسانُ كثيرُ المجادلَةِ والمخاصَمَةِ والمعارضة للحقِّ بالباطل، إلا مَن هَدَىٰ الله وبصَّره لطريقِ النَّجاة.

قال الإمام أحمد: حدَّثنا أبو اليمان، أخبرنا شعيب، عن الزهري، أخبرني علي بن الحسين، أن حسين بن علي أخبره، أن علي بن أبي طالب أخبره، أنَّ رسول الله ﷺ طرَقه(٣) وفاطمة بنت رسول الله ﷺ ليلةً، فقال: «أَلَا تُصَلِّيانِ؟» فقلت: يا رسول الله، إنَّما(٤) أنفسنا بيد الله، فإذا شاء أن يبعثنا(٥) بعَثَنا، فانصرف حين قلتُ ذلك، ولم يرجع إليَّ شيئًا، ثم سمعته وهو مولٍّ يضرب فَخِذَهُ ويقول: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾ أخرجاه في «الصحيحين»(٦).

﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ ۖ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوًا ﴿٥٦﴾﴾

---

(١) ضعيف: رواه ابن جرير (١٥/ ٢٦٥) وأحمد (٣/ ٧٥)، وأبو يعلىٰ (١٣٨٥) من رواية دراج عن أبي الهيثم، وهي رواية ضعيفة كما تقدم.

(٢) ضعيف: رواه أحمد (٣/ ٧٥)، وأبو يعلىٰ (١٣٨٥)، والحاكم (٥٩٧)، وإسناده ضعيف كسابقه.

(٣) أي: أتاهما من الليل. (٤) لوحة (١٩٣ ب). (٥) أي: يوقظنا.

(٦) رواه أحمد (١/ ٩١، ١١٢)، والبخاري (١١٢٧)، ومسلم (٧٧٥).

يخبر تعالىٰ عن تمرُّد الكفَرَةِ في قديم الزَّمان وحديثه، وتكذيبهم بالحقِّ البيِّن الظَّاهر مع ما يُشاهِدُون مِن الآيات [والآثار][1] والدَّلالات الواضحات، وأنَّه ما منعهم من اتِّباع ذلك إلا طلبهم أنْ يشاهدوا العذابَ الَّذي وُعدوا به عيانًا، كما قال أولئك لنبيِّهم: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الشعراء:١٨٧]، وآخرون قالوا: ﴿ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [العنكبوت:٢٩]، وقالت قريش: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال:٣٢]، ﴿وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ۝٦ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الحجر:٦، ٧] إلىٰ غير ذلك من الآيات الدَّالَّة علىٰ ذلك.

ثم قال: ﴿إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ من غشيانهم بالعذابِ وأخذهم عَن آخرِهِم، ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا﴾ أي: يرونه عيانًا مواجهةً [ومقابلةً][2].

ثم قال: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ ۖ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا ۝٥٦﴾ أي: قبل العذاب مبشرين مَن صدَّقهم وآمَنَ بهم، ومنذرين مَنْ كذَّبهم وخالفهم.

ثم أخبر عن الكفَّار بأنَّهم يجادلون بالباطل[3] ﴿لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ﴾ أي: ليُضْعِفُوا به ﴿ٱلْحَقَّ﴾ الذي جاءَتْهم به الرُّسل، وليس ذلك بحاصلٍ لهم. ﴿وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا﴾ أي: اتَّخذوا الحُجج والبراهين وخوارِقَ العادات التي بعث بها الرُّسل، وما أنذرُوهم وخوَّفوهم به مِن العذاب ﴿هُزُوًا﴾ أي: سَخِرُوا منهم في ذلك، وهو أشد التَّكذيب.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ۝٥٧ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ۝٥٨ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ۝٥٩﴾

يقول تعالىٰ: وأيُّ عبادِ الله أظلم ممَّن ذُكِّر بآيات الله فأعرض[4] عنها؟! أي: تناسَاها وأعرض عنها، ولم يُصْغِ لها، ولا ألقىٰ إليها بالًا ﴿وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ أي: مِن الأعمال السَّيِّئة والأفعال القَبيحة. ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أي: قلوب هؤلاء ﴿أَكِنَّةً﴾ أي: أغطيةً وغشاوةً، ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾ أي: لئلَّا يفهمُوا هذا القُرْآن والبيَان، ﴿وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ أي: صَمَمٌ معنويٌّ عن الرَّشادِ، ﴿وَإِن تَدْعُهُمْ

---

(١) ليست في (ز). (٢) ليست في (ز).

(٣) قال العلامة السعدي رحمه الله: ومن حكمة الله ورحمته، أن تقييضه المبطلين المجادلين الحق بالباطل، من أعظم الأسباب إلىٰ وضوح الحق وتبين شواهده وأدلته، وتبين الباطل وفساده، فبضدها تتبين الأشياء.

(٤) لوحة (١٩٤ أ).

إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ﴾.

وقوله: ﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ﴾ أي: ربك -يا محمَّد- غفورٌ ذو رحمةٍ واسعةٍ، ﴿لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ﴾، كَمَا قَالَ: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ ﴾ [فاطر:٤٥]، وقال: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [الرعد:٦]. والآياتُ في هذا كثيرةٌ.

ثم أخبر أنه يحلُم ويستُر ويغفِرُ، وربَّما هدىٰ بعضهُم مِن الغيِّ إلىٰ الرَّشاد، ومَنِ استمرَّ منهم فلَهُ يومٌ يَشِيبُ فيه الوليدُ، وتضعُ كلُّ ذاتِ حمل حملها؛ ولهذا قال: ﴿بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴾ أي: ليس لهم عنه محيدٌ ولا محيصٌ ولاَ مَعْدِلٌ.

وقوله: ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ ﴾ أي: الأمم السَّالفة والقرون الخالية، أهلكناهم بسبب كفرهم وعنادهم ﴿وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴾ أي: جعلناه إلىٰ مدَّةٍ معلومةٍ ووقتٍ معلوم معيَّنٍ؛ لا يزيدُ ولا ينقص؛ أي: وكذلك أنتم أيُّها المشركون، احذَرُوا أن يُصِيبَكُم ما أصابَهُم، فقد كذَّبتم أشرف رسولٍ وأعظم نبيٍّ، ولستم بأعزَّ علينا منهم، فخَافُوا عذابِي ونُذُرِ.

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا[1] لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ ﴾

سبب قول موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ لفتاه -وهو يوشع بن نُون- هذا الكلام: أنَّه ذكر له أنَّ عبدًا من عباد الله بمَجْمَعِ البحرين، عنده مِن العلم ما لم يحط به موسىٰ، فأحبَّ الذَّهاب إليه، وقال لفتاه ذلك: ﴿لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ ﴾ أي لا أزال سائرًا حتىٰ أبلغ هذا المكان الَّذِي فيه مجمع البَحْرَيْنِ[2]، قال الفرزدق:

فَمَـا بَرِحُـوا حَتَّـىٰ تَهَـادَتْ نِـسَاؤهُم ... بِبَطْحَـاءَ ذِي قَـارٍ[3] عِيَـابَ[4] اللَّطَـائِمِ

---

(١) قال الشيخ أبو بكر الجزائري رَحِمَهُ اللَّهُ: في الآية دليل علىٰ وجوب حمل الزاد في السفر ففي هذا رد علىٰ المتصوفة الذين يخرجون بلا زاد بدعوىٰ التوكل ثمَّ هم يسألون الناس، وشاهد هذا آية البقرة إذ نزلت في أناس من اليمن كانوا يحجون ولا يتزودون فنزل قوله تعالىٰ: ﴿وَتَزَوَّدُواْ ...﴾ [البقرة:١٩٧] الآية.

(٢) لوحة (١٩٤ ب).

(٣) ذو قار: ماء لبني بكر بن وائل، قريب من الكوفة، و(عياب): الواحدة: عيبة، وهي ما يجعل فيه الثياب وغيرها، واللطائم: جمع لطيمة، وهي المسك.

(٤) في (ز): «ذي قارعات»، وهو خطأ، والمثبت كما في «الطبري».

قال قتادة وغير واحدٍ: وهما بحر فارس ممَّا يَلِي المشرِق، وبحر الرُّوم ممَّا يَلِي المغرِبَ.

وقال محمَّد بن كعب القُرظي: مجمع البحرين عند طَنْجَة؛ يعني: في أقصىٰ بلاد المغرب، فالله أعلم.

وقوله: ﴿أَوۡ أَمۡضِيَ حُقُبًا﴾ أي: ولو أنِّي أسير حقبًا مِن الزَّمان.

قال ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ: ذكر بعض أهل العلم بكلام العرب أن الحُقُب في لغة «قيس»: سنة، ثم قد رُوي عن عبد الله بن عمرو أنَّه قال: الحُقُب ثمانُون سنة. وقال مجاهد: سبعون خريفًا، وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس قوله: ﴿أَوۡ أَمۡضِيَ حُقُبًا﴾ قال: دهرًا. وقال قتادة، وابن زيد، مثل ذلك.

وقوله: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجۡمَعَ بَيۡنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾، وذلك أنَّه كان قد أُمر بحمل حوتٍ مملوحٍ معه، وقيل له: متىٰ فقدتَ الحوت فهو ثَمَّة[1]، فسارا حتىٰ بلغا مجمع البحرين؛ وهناك عين يقال لها: «عين الحياة»، فناما هنالك، وأصاب الحوت مِن رشاش ذلك الماء فاضطرب، وكان فِي مكتل مع «يوشع» عَلَيْهِ السَّلَامُ وطَفَر من المَكْتل إلىٰ البحر، فاستيقظ يُوشع عَلَيْهِ السَّلَامُ وسقط الحوت في البَحْر وجعل يسير فيه، والماء له مثل الطَّاق لا يلتئم بعده؛ ولهذا قال: ﴿فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلۡبَحۡرِ سَرَبٗا﴾ أي: مثل السَّرَب في الأرض.

قال ابن جريج: قال ابن عبَّاس: صار أثره كأنه حَجَر.

وقال العوفي، عن ابن عبَّاس: جعل الحوت لا يمس شيئًا من البحر إلا يَبِس حتىٰ يكون صخرة.

وقال محمَّد بن إسحاق عن الزهري، عن عُبيد الله بن عبد الله، عن ابن عبَّاس، عن أبيِّ بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ حين ذكر حديث ذلك: «**مَا انْجَابَ[2] مَاءٌ مُنْذُ كَانَ النَّاسُ غَيْرُهُ، ثَبَتَ مَكَانُ الْحُوتِ الَّذِي[3] فِيهِ، فَانْجَابَ كَالْكُوَّةِ حَتَّىٰ رَجَعَ إِلَيْهِ مُوسَىٰ فَرَأَىٰ مَسْلَكَهُ، فَقَالَ: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبۡغِ﴾**»[4].

وقال قتادة: سَرَب مِن الجد[5]، حتىٰ أفضىٰ إلىٰ البحر، ثم سلك فيه فجعل لا يسلك فيه طريقًا إلا جُعِلَ ماءً جامدًا.

وقوله: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا﴾ أي: المكان الذي نَسِيَا الحوت فيه، ونُسِب النِّسيان إليهما، وإن كان يُوشَع هو الذي نَسِيَه، كقوله تعالىٰ: ﴿يَخۡرُجُ مِنۡهُمَا ٱللُّؤۡلُؤُ وَٱلۡمَرۡجَانُ﴾ [الرحمن:٢٢]، وإنما يخرج من المالح في أحد القولين.

فلما ذهبا عن المكان الَّذِي نسياه فيه مَرْحَلَةً ﴿قَالَ﴾ موسىٰ ﴿لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدۡ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبٗا﴾ أي[6]: الَّذِي جاوزا فيه المكان ﴿نَصَبٗا﴾ يعني: تعبًا. قال: ﴿أَرَءَيۡتَ إِذۡ أَوَيۡنَآ إِلَى ٱلصَّخۡرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلۡحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيۡطَٰنُ أَنۡ أَذۡكُرَهُۥ﴾ قال قتادة: وقرأ ابن مسعود: [وما أنسانيه أن أذكره إلا

---

(١) أي: في هذا المكان. (٢) أي: ما تجمع وصار جامدًا.

(٣) في (ز): «الحوت الكوىٰ»، والمثبت من «الطبري».

(٤) ضعيف: رواه ابن جرير (١٥/ ٢٧٣)، وابن إسحاق: مدلس وقد عنعن.

(٥) كذا في (ز)، وقد اختلفت المواضع في «الطبري» فجاءت هكذا «الجُدِّ، الجرِّ، الجسر». والجد في اللغة هو البئر حولها الكلأ، أو الأرض التي لا ماء فيها.

(٦) لوحة (١٩٥ أ).

الشَّيطان] (١)(٢)، ولهذا قال: ﴿وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ﴾ أي: طريقه ﴿فِي ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ۝٦٣ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ﴾ أي: هذا الَّذي نطلب ﴿فَٱرْتَدَّا﴾ أي: رَجعا ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا﴾ أي: طريقهما ﴿قَصَصًا﴾ أي: يقصَّان أثَرَ مَشْيِهِمَا، ويقفوان أثرهما.

﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ وهذا هو الخَضِرُ عَلَيْهِ السَّلَامُ كما دلَّت عليه الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ بذلك.

قال البخاريُّ: حدَّثنا الحُمَيْدي، حدَّثنا سفيان، حدَّثنا عمرو بن دينار، أخبرني سعيد بن جبير قال: قلت لابن عبَّاس: إن نَوْفًا البِكَالِيّ يزعم أنَّ موسىٰ صاحب الخَضِرِ ليس هو موسىٰ صاحب بني إسرائيل. قال ابن عبَّاس: كذب عَدُوُّ الله، حدَّثنا أُبي بن كعب رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ مُوسَىٰ قَامَ خَطِيبًا فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ فَسُئِلَ: أَيُّ النَّاسِ أَعْلَمُ؟ قَالَ: أَنَا. فَعَتَبَ اللهُ عَلَيْهِ إِذْ لَمْ يَرُدَّ العِلْمَ إِلَيْهِ، فَأَوْحَىٰ اللهُ إِلَيْهِ: إِنَّ لِي عَبْدًا بِمَجْمَعِ البَحْرَيْنِ هُوَ أَعْلَمُ مِنْكَ. فَقَالَ مُوسَىٰ: يَا رَبِّ، وَكَيْفَ لِي بِهِ؟ قَالَ: تَأْخُذُ مَعَكَ حُوتًا، تَجْعَلُهُ بِمِكْتَلٍ، فَحَيْثُمَا فَقَدْتَ الحُوتَ فَهُوَ ثَمَّ. فَأَخَذَ حُوتًا، فَجَعَلَهُ بِمِكْتَلٍ ثُمَّ انْطَلَقَ وَانْطَلَقَ مَعَهُ بِفَتَاهُ يُوشَعَ بْنِ نُونٍ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا الصَّخْرَةَ وَضَعَا رُءُوسَهُمَا فَنَامَا، وَاضْطَرَبَ الحُوتُ فِي المِكْتَلِ، فَخَرَجَ مِنْهُ، فَسَقَطَ فِي البَحْرِ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي البَحْرِ سَرَبًا، وَأَمْسَكَ اللهُ عَنِ الحُوتِ جِرْيَةَ المَاءِ، فَصَارَ عَلَيْهِ مِثْلَ الطَّاقِ. فَلَمَّا اسْتَيْقَظَ نَسِيَ صَاحِبُهُ أَنْ يُخْبِرَهُ بِالحُوتِ، فَانْطَلَقَا بَقِيَّةَ يَوْمِهِمَا وَلَيْلَتِهِمَا، حَتَّىٰ إِذَا كَانَ مِنَ الغَدِ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ: ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾ وَلَمْ يَجِدْ مُوسَىٰ النَّصَبَ حَتَّىٰ جَاوَزَا المَكَانَ الَّذِي أَمَرَهُ اللهُ بِهِ. قَالَ لَهُ فَتَاهُ: ﴿أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلْبَحْرِ عَجَبًا﴾ قَالَ: فَكَانَ لِلْحُوتِ سَرَبًا وَلِمُوسَىٰ وَفَتَاهُ عَجَبًا، فَقَالَ: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا﴾. قَالَ: فَرَجَعَا يَقُصَّانِ أَثَرَهُمَا حَتَّىٰ انْتَهَيَا إِلَىٰ الصَّخْرَةِ، فَإِذَا رَجُلٌ مُسَجًّىٰ (٣) بِثَوْبٍ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ مُوسَىٰ، فَقَالَ الخَضِرُ: وَأَنَّىٰ بِأَرْضِكَ (٤) السَّلَامُ! قَالَ: أَنَا مُوسَىٰ. قَالَ: مُوسَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ؟ قَالَ: نَعَمْ، أَتَيْتُكَ لِتُعَلِّمَنِي مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا. ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾، يَا مُوسَىٰ إِنِّي عَلَىٰ عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللهِ عَلَّمَنِيهِ، لا تَعْلَمُهُ أَنْتَ، وَأَنْتَ عَلَىٰ عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللهِ عَلَّمَكَهُ اللهُ لا أَعْلَمُهُ. فَقَالَ مُوسَىٰ: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ قَالَ لَهُ الخَضِرُ: ﴿فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْـَٔلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾.

فَانْطَلَقَا يَمْشِيَانِ عَلَىٰ سَاحِلِ البَحْرِ، فَمَرَّتْ سَفِينَةٌ فَكَلَّمُوهُمْ أَنْ يَحْمِلُوهُم، فَعَرَفُوا الخَضِرَ، فَحَمَلُوهُمْ بِغَيْرِ نَوْلٍ (٥)، فَلَمَّا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ لَمْ يَفْجَأْ إِلَّا وَالخَضِرُ قَدْ قَلَعَ لَوْحًا مِنْ أَلْوَاحِ

---

(١) في (ز): «أن أذكركه»، والمثبت من «الطبري».

(٢) قراءة: قَرَأَ (أَنْ أَذْكُرَهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ) عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ، وَلَيْسَ فِي الْمُتَوَاتِرِ إِلَّا (إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ).

(٣) أي: مغطىٰ. (٤) لوحة (١٩٥ ب). (٥) أي: بغير أجرة.

السَّفِينَةِ بِالقَدُّومِ، فَقَالَ لَهُ مُوسَىٰ: قَدْ حَمَلُونَا بِغَيْرِ نَوْلٍ، فَعَمَدْتَ إِلَىٰ سَفِينَتِهِمْ فَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا؟ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا[١]. ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾» قال: وقال رسول الله ﷺ: «كَانَتِ الأُولَىٰ مِنْ مُوسَىٰ نِسْيَانًا». قال: «وَجَاءَ عُصْفُورٌ فَنَزَلَ عَلَىٰ حَرْفِ السَّفِينَةِ فَنَقَرَ فِي البَحْرِ نَقْرَةً، [أَوْ نَقْرَتَيْنِ][٢] فَقَالَ لَهُ الخَضِرُ: مَا عِلْمِي وَعِلْمُكَ فِي عِلْمِ اللهِ إِلَّا مِثْلُ مَا نَقَصَ هَذَا العُصْفُورُ مِنَ هَذَا البَحْرِ.

ثُمَّ خَرَجَا مِنَ السَّفِينَةِ، فَبَيْنَمَا هُمَا يَمْشِيَانِ عَلَىٰ السَّاحِلِ إِذْ أَبْصَرَ الخَضِرُ غُلَامًا يَلْعَبُ مَعَ الغِلْمَانِ، فَأَخَذَ الخَضِرُ رَأْسَهُ فَاقْتَلَعَهُ بِيَدِهِ فَقَتَلَهُ، فَقَالَ لَهُ مُوسَىٰ: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾؟!» قال: «وَهَذِهِ أَشَدُّ مِنَ الأُولَىٰ»، ﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾[٣] قال: «مَائِلٌ. فَقَالَ الخَضِرُ بِيَدِهِ[٤]: ﴿فَأَقَامَهُ﴾، فَقَالَ مُوسَىٰ: قَوْمٌ أَتَيْنَاهُمْ فَلَمْ يُطْعِمُونَا وَلَمْ يُضَيِّفُونَا، ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾» فقال رسول الله ﷺ: «وَدِدْنَا أَنَّ مُوسَىٰ كَانَ صَبَرَ حَتَّىٰ يَقُصَّ اللهُ عَلَيْنَا مِنْ خَبَرِهِمَا».

قال سعيد بن جبير: كان ابن عبَّاسٍ يقرأ: «وكانَ أمَامَهُم ملكٌ يأخذُ كلَّ سفينةٍ صالحةٍ غصبًا»[٥] وكان يقرأ: «وأمَّا الغلام فكان كافرًا وكان أبواه مُؤْمِنَيْن»[٦][٧].

ثم رواه البخاري عن قتيبة[٨]، عن سفيان بن عُيينة... فذكر نحوه، وفيه: «فَخَرَجَ مُوسَىٰ وَمَعَهُ فَتَاهُ يُوشَعُ بْنُ نُونٍ، وَمَعَهُمَا الحُوتُ حَتَّىٰ انْتَهَيَا إِلَىٰ الصَّخْرَةِ، فَنَزَلَا عِنْدَهَا -قال: فَوَضَعَ مُوسَىٰ رَأْسَهُ فَنَامَ-

---

(١) قال الشيخ القاسمي رحمه الله: ذكر الناصر في «الانتصاف»:... ومما يدل على أن موسىٰ عليه السلام إنما حمله على المبادرة بالإنكار، الالتهابُ والحميّة للحق، أنه قال حين خرق السفينة: ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾، ولم يقل لتغرقنا فنسي نفسه واشتغل بغيره، في الحالة التي كل أحد فيها يقول: نفسي نفسي، لا يلوي على مال ولا ولد. وتلك حالة الغرق. فسبحان من جبل أنبياءه وأصفياءه على نصح الخلق والشفقة عليهم والرأفة بهم. صلوات الله عليهم أجمعين وسلامه.

(٢) ليست في (ز)، وهي مثبتة في «البخاري».

(٣) قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: فإن قيل: هل للجدار إرادة؟

فالجواب: نعم له إرادة، فإن ميله يدل على إرادة السقوط، ولا تتعجب إن كان للجماد إرادة فها هو (أُحُد) قال عنه النبي ﷺ إنه: «يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ» والمحبة وصف زائد على الإرادة، أما قول بعض الناس الذين يجيزون المجاز في القرآن: إنَّ هذا كناية وأنه ليس للجماد إرادة فلا وجه له.

(٤) القول هنا المراد به الفعل.

(٥) قراءة: قَرَأَ (أَمَامَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ صَالِحَةٍ غَصْبًا) ابْنُ عَبَّاسٍ، وَلَيْسَ فِي الْمُتَوَاتِرِ إِلَّا (وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا).

(٦) البخاري (٤٧٢٥)، ومسلم (٢٣٨٠)، ورواه البخاري (٤٧٢٦) (٤٧٢٧).

(٧) قراءة: قَرَأَ (وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ كَافِرًا وَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ) ابْنُ عَبَّاسٍ، وَلَيْسَ فِي الْمُتَوَاتِرِ إِلَّا (وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ).

(٨) لوحة (١٩٦ أ).

قال سفيان: وفي حديث غير عمرو قال: وَفِي أَصْلِ الصَّخْرَةِ عَيْنٌ يُقَالُ لَهَا: الحَيَاةُ، لا يُصِيبُ مِنْ مَائِهَا شَيْءٌ إِلَّا حَيِيَ: فَأَصَابَ الحُوتُ مِنْ مَاءِ تِلْكَ العَيْنِ، قَالَ، فَتَحَرَّكَ وَانْسَلَّ مِنَ المِكْتَلِ(١)، فَدَخَلَ البَحْرَ، فَلَمَّا اسْتَيْقَظَ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ: ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا﴾ كذا قال وساق الحديث... وَوَقَعَ عُصْفُورٌ عَلَىٰ حَرْفِ السَّفِينَةِ، فَغَمَسَ مِنْقَارَهُ فِي البَحْرِ، فَقَالَ الخَضِرُ لِمُوسَىٰ: مَا عِلْمِي وَعِلْمُكَ وَعِلْمُ الخَلَائِقِ فِي عِلْمِ اللهِ إِلَّا مِقْدَارُ مَا غَمَسَ هَذَا العُصْفُورُ مِنْقَارَهُ» وذكر تمامه بنحوه(٢).

وقال البخاري أيضًا: حدَّثنا إبراهيم بن موسىٰ، حدَّثنا هشام بن يوسف، أن ابن جُرَيج أخبرهم قال: أخبرني يعلىٰ بن مسلم وعمرو بن دينار، عن سعيد بن جبير -يزيد أحدهما علىٰ صاحبه- وغيرهما قد سمعته يحدِّث عن سعيد بن جبير قال: إنَّا لعند ابن عبَّاس في بيته، إذ قال: سلوني. فقلْتُ: أي أبا عبَّاس، جعلني الله فداك، بالكوفة رجلٌ قاصٌّ، يقال له: «نوف» يزعم أنه ليس بموسىٰ بني إسرائيل -أما عمرو فقال لي: قال: كذب عدو الله!- وأمَّا يعلىٰ فقال لي: قال ابن عبَّاس: حدَّثني أبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «مُوسَىٰ رَسُولُ اللهِ، ذَكَّرَ النَّاسَ يَوْمًا، حَتَّىٰ إِذَا فَاضَتِ العُيُونُ، وَرَقَّتِ القُلُوبُ، وَلَّىٰ فَأَدْرَكَهُ رَجُلٌ فَقَالَ: أَيْ رَسُولَ اللهِ، هَلْ فِي الأَرْضِ أَحَدٌ أَعْلَمُ مِنْكَ؟ قَالَ: لا. فَعَتَبَ اللهُ عَلَيْهِ إِذْ لَمْ يَرُدَّ العِلْمَ إِلَىٰ اللهِ، قِيلَ: بَلَىٰ. قَالَ: أَيْ رَبِّ، وَأَيْنَ؟ قَالَ: بِمَجْمَعِ البَحْرَيْنِ. قَالَ: أَيْ رَبِّ، اجْعَلْ لِي عِلْمًا أَعْلَمُ ذَلِكَ بِهِ». قال لي عمرو: قال: «حَيْثُ يُفَارِقُكَ الحُوتُ»، وقال لي يعلىٰ: «خُذْ حُوتًا مَيِّتًا حَيْثُ يُنْفَخُ فِيهِ الرُّوحُ. فَأَخَذَ حُوتًا فَجَعَلَهُ فِي مِكْتَلٍ، فَقَالَ لِفَتَاهُ: لا أُكَلِّفُكَ إِلَّا أَنْ تُخْبِرَنِي حَيْثُ يُفَارِقُكَ الحُوتُ، قَالَ: مَا كَلَّفْتَ كَبِيرًا. فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ﴾ يُوشَعَ بْنِ نُونٍ»، ليست عن سعيد بن جبير، قال: «فَبَيْنَا هُوَ فِي ظِلِّ صَخْرَةٍ فِي مَكَانٍ ثَرْيَانَ(٣) إِذْ تَضَرَّبَ الحُوتُ وَمُوسَىٰ نَائِمٌ. فَقَالَ فَتَاهُ: لا أُوقِظُهُ، حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْقَظَ نَسِيَ أَنْ يُخْبِرَهُ، وَتَضَرَّبَ الحُوتُ حَتَّىٰ إِذَا دَخَلَ البَحْرَ، فَأَمْسَكَ اللهُ عَنْهُ(٤) جِرْيَةَ المَاءِ حَتَّىٰ كَأَنَّ أَثَرَهُ فِي حَجَرٍ». [قال: فقال لي عمرو: هكذا كأنَّ أثره في حجر](٥)، وحلَّق بين إبهاميه اللتين تليانهما: ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾ قال: «وَقَدْ قَطَعَ اللهُ مِنْهُ النَّصَبَ» ليست هذه عن سعيد -أخبره، «فَرَجَعَا فَوَجَدَا خَضِرًا». قال: قال عثمان بن أبي سليمان: «عَلَىٰ طِنْفِسَةٍ خَضْرَاءَ عَلَىٰ كَبِدِ(٦) البَحْرِ». قال سعيد بن جبير: «مُسَجًّىٰ بِثَوْبٍ، قَدْ جَعَلَ طَرَفَهُ تَحْتَ رِجْلَيْهِ، وَطَرَفَهُ تَحْتَ رَأْسِهِ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ مُوسَىٰ، فَكَشَفَ عَنْ وَجْهِهِ، وَقَالَ: هَلْ بِأَرْضٍ مِنْ سَلَامٍ؟ مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: أَنَا مُوسَىٰ. قَالَ: مُوسَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: فَمَا شَأْنُكَ؟ قَالَ: جِئْتُكَ لِتُعَلِّمَنِي مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا. قَالَ: يَكْفِيكَ التَّوْرَاةُ بِيَدِكَ، وَأَنَّ الوَحْيَ يَأْتِيكَ! يَا مُوسَىٰ، إِنَّ لِي عِلْمًا لا يَنْبَغِي لَكَ أَنْ تَعْلَمَهُ، وَإِنَّ لَكَ عِلْمًا لا يَنْبَغِي لِي أَنْ أَعْلَمَهُ.

---

(١) في (ز): «تلك المكتل»، والمثبت من «الصحيح». (٢) البخاري (٤٧٢٧).

(٣) مكان ثريان، وأرض ثريا: اذا كان في ترابهما بلل وندى، وتضرب: اضطرب وتحرك.

(٤) لوحة (١٩٦ ب). (٥) سقط من (ز)، وهو مثبت من «البخاري». (٦) أي: وسطه.

فَأَخَذَ طَائِرٌ بِمِنْقَارِهِ مِنَ البَحْرِ [فقال: واللهِ مَا عِلْمِي وَعِلْمُكَ فِي جَنْبِ عِلْمِ اللهِ إِلَّا كَمَا أَخَذَ هَذَا الطَّائِرُ بِمِنْقَارِهِ مِنَ البَحْرِ][١]، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ﴾ وَجَدَا مَعَابِرَ صِغَارًا[٢] تَحْمِلُ أَهْلَ هَذَا السَّاحِلِ إِلَىٰ أَهْلِ هَذَا السَّاحِلِ الآخَرِ، عَرَفُوهُ، فَقَالُوا: عَبْدُ اللهِ الصَّالِحِ؟.» قال: فقلنا لسعيد: خضر؟ قال: نعم. «لا نَحْمِلُهُ بِأَجْرٍ. فَخَرَقَهَا، وَوَتَدَ فِيهَا وَتِدًا. قَالَ مُوسَىٰ: ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا﴾». قال مجاهد: مُنكرًا. قال: «﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ كَانَتِ الأُولَىٰ نِسْيَانًا، وَالوُسْطَىٰ شَرْطًا، وَالثَّالِثَةُ عَمْدًا ﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ۝٧٣ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَـٰمًا فَقَتَلَهُۥ﴾. قال يعلىٰ: قال سعيد: «وَجَدَ غِلْمَانًا يَلْعَبُونَ، فَأَخَذَ غُلَامًا كَافِرًا ظَرِيفًا فَأَضْجَعَهُ، ثُمَّ ذَبَحَهُ بِالسِّكِّينِ، فَقَالَ: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةَۢ﴾ لَمْ تَعْمَلْ بِالحِنْثِ». وابن عبَّاس قرأها ﴿ ﴾ «زَاكِيَة»[٣] مُسْلِمَة، كقولك: «غلامًا زكيًّا» فانطلقا، فوجدا جدارًا يريد أن ينقض فأقامه، قال [سعيد][٤]: بيده هكذا، ورفع يده فاستقام، قال يعلىٰ: حَسِبتُ أنَّ سعيدًا قال: فمَسَحه بيَدِهِ فاستقام قال: ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ قال سعيدٌ: أجرًا نأكله[٥] ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ﴾ وكان أمامهم، قرأها ابن عبَّاس: «أمامهم ملك»[٦] يزعمون عن غير سعيد أنه «هُدَدُ[٧] بن بُدَدَ»، والغلام المقتول اسمه -يزعمون- «جَيسُور» ﴿مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ فأردت إذا هي مرَّت به أن يدعها بِعَيبِها، فإذا جاوزه أصلحوها فانتفعوا بها. ومنهم مَن يقول: سدُّوها بقارورةٍ. ومنهم من يقول: بالقار. ﴿فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ﴾ وكان كافرًا، ﴿فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَـٰنًا وَكُفْرًا﴾. أن يحملهما حُبُّه علىٰ أن يُتَابِعَاه علىٰ دينه ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً﴾ كقوله: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةَۢ﴾، ﴿وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾: هما به أرحم منهما بالأوَّل[٨] الَّذي قتله الخضر. وزعم غير سعيد بن جبير أنَّهما أُبْدِلا جاريةً. وأما داود ابن أبي عاصم فقال عن غير واحدٍ: إنها جاريةٌ[٩].

وقال عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَر، عن أبي إسحاق، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عبَّاسٍ قال: خطب موسىٰ عليه السلام بني إسرائيل فقال: ما أحدٌ أعلمُ بالله وبأمرِهِ منِّي، فأمرَ أن يَلْقَىٰ هذا الرَّجل. فذكر نحو ما تقدَّم بزيادةٍ ونقصانٍ، والله أعلم[١٠].

وقال محمَّد بن إسحاق: عن الحسن بن عمارة، عن الحكم بن عتيبة[١١]، عن سعيد بن جبير قال:

---

(١) سقط من (ز)، وهو مثبت من «البخاري».

(٢) في (ز): «وجدا مغاير صغايرًا»، والمثبت كما في «البخاري».

(٣) متواترة: قَرَأَ (زَاكِيَةً) نَافِعٌ وَابْنُ كَثِيرٍ وَأَبُو عَمْرٍو وَأَبُو جَعْفَرٍ وَرُوَيْسٌ وَوَافَقَهُمُ ابْنُ مُحَيْصِنٍ وَالْيَزِيدِيُّ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ (زَكِيَّةً).

(٤) سقط من (ز)، وهو مثبت من «البخاري». (٥) أي: نأكل به.

(٦) قراءة: قَرَأَ (أَمَامَهُم) ابْنُ عَبَّاسٍ، وَلَيْسَ فِي الْمُتَوَاتِرِ إِلَّا (وَرَاءَهُم).

(٧) في (ز): «هود بن بدد»، والمثبت كما من «البخاري».

(٨) لوحة (١٩٧ أ). (٩) البخاري (٤٧٢٦).

(١٠) انظر: «تفسير الطبري» (١٥/ ٢٧٧ - ٢٧٨). (١١) في (ز): «عيينة»، والصواب ما اثبتناه من «الطبري».

جلست عند ابن عبَّاس وعنده نفر من أهل الكتاب فقال بعضهم: يا أبا العبَّاس[١]، إن نوفًا ابن امرأة كعب، يزعُم عن كعب أن موسىٰ النَّبيَّ الَّذِي طلب العلم إنَّما هو موسىٰ بن ميشا؟ قال سعيد: فقال ابن عبَّاس: أنوفٌ يقول هذا؟! قال سعيد: فقلت له: نعم، أنا سمعت نوفًا يقول ذلك. قال: أنت سمعته يا سعيد؟ قال: قلت: نعم. قال: كذَبَ نوف، ثم قال ابن عبَّاسٍ: حدَّثني أبيُّ بن كعب، عن رسول الله ﷺ: «أَنَّ مُوسَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ سَأَلَ رَبَّهُ فَقَالَ: أَيْ رَبِّ، إِنْ كَانَ فِي عِبَادِكَ أَحَدٌ هُوَ أَعْلَمُ مِنِّي، فَدُلَّنِي عَلَيْهِ، فَقَالَ لَهُ: نَعَمْ، فِي عِبَادِي مَنْ هُوَ أَعْلَمُ مِنْكَ، ثُمَّ نَعَتَ لَهُ مَكَانَهُ وَأَذِنَ لَهُ فِي لُقِيِّهِ. فَخَرَجَ مُوسَىٰ وَمَعَهُ فَتَاهُ، وَمَعَهُ حُوتٌ مَلِيحٌ[٢]، قَدْ قِيلَ لَهُ: إِذَا حَيِيَ هَذَا الحُوتُ فِي مَكَانٍ، فَصَاحِبُكَ هُنَالِكَ، وَقَدْ أَدْرَكْتَ حَاجَتَكَ.

فَخَرَجَ مُوسَىٰ وَمَعَهُ فَتَاهُ، وَمَعَهُ ذَلِكَ الحُوتُ يَحْمِلَانِهِ، فَسَارَ حَتَّىٰ جَهَدَهُ السَّيْرُ، وَانْتَهَىٰ إِلَىٰ الصَّخْرَةِ وَإِلَىٰ ذَلِكَ المَاءِ، وَذَلِكَ المَاءُ مَاءُ الحَيَاةِ، مَنْ شَرِبَ مِنْهُ خُلِّدَ، وَلا يُقَارِبُهُ شَيْءٌ مَيِّتٌ إِلَّا حَيِيَ، فَلَمَّا نَزَلَا وَمَسَّ الحوتَ المَاءُ حَيِيَ ﴿فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا﴾ فانطَلَقَا، فَلَمَّا جَاوَزَا بمَنْقَلَةٍ[٣] قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ: ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾ قَالَ الفَتَىٰ -وَذَكَرَ-: ﴿أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا﴾». قال ابن عبَّاس: فظهر موسىٰ علىٰ الصخرة حتىٰ إذا انتهيا إليها، فإذا رجلٌ متلففٌ في كساءٍ له، فسلم موسىٰ، فردّ عليه السلام ثم قال له: ما جاء بك إن كان لك في قومك لَشُغل؟ قال له موسىٰ: جئتك لتعلمني مما عُلِّمْتَ رشدًا ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾ وكان رجلًا يعلم علم الغيب، قد عُلِّم ذلك، فقال موسىٰ: بلىٰ. قال: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾؟ أي: إنما تعرف ظاهر ما ترىٰ من العدل، ولم تحط من علم الغيب بما أعلم. ﴿قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا﴾ وإن رأيتُ ما[٤] يخالفني، قال: ﴿فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ﴾ [وإن أنكرته][٥] ﴿حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾﴾ ﴿فَٱنطَلَقَا﴾.

أي: فانطلقا يمشيان علىٰ ساحل البحر يتعرّضان الناس، يَلتمِسَان مَن يحملهما، حتىٰ مرَّت بهما سفينةٌ جديدةٌ وثيقةٌ، لم يمرَّ بهما شيءٌ مِن السُّفُن أحسن ولا أكمل ولا أوثق منها. فسألا أهلها أن يحملوهما، فحملوهما، فلمَّا اطمأنا فيها وَلجَّجَت[٦] بهما مع أهلها، أخرج منقارًا[٧] له ومطرقةً، ثم عمد إلىٰ ناحيةٍ منها فضرب فيها بالمنقار حتىٰ خرقها. ثم أخذ لوحًا فطبقه عليها، ثم جلس عليها

---

(١) في (ز): «يا أبا الكتاب»، وهو خطأ، والصواب ما أثبتناه من «الطبري».

(٢) أي: مملوح.

(٣) كذا في (ز) وفي «الطبري» ط. هجر، والذي في ط. شاكر: «منقلبه»، والصحيح ما أثبتناه، والمنقلة: المرحلة من مراحل السفر. وانظر: «المعجم الوسيط» (٢/ ٩٤٩).

(٤) لوحة (١٩٧ ب).

(٥) سقط من (ز)، وهو مثبت من «الطبري».

(٦) أي: دخلت اللجة، وهي: معظم البحر.

(٧) المنقار: حديدة كالفأس ينقر بها.

يرقعها، فقال له موسىٰ -ورأىٰ أمرًا أفظع به(١) -: ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ۝٧١ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ۝٧٢ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ﴾ أي: بما تركت من عهدك، ﴿وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾. ثم خرجا من السَّفينةِ فانطلقا، حتىٰ أَتَيَا أهل قريةٍ، فإذا غلمانٌ يَلْعَبُون خلفها، فيهم غلام ليس في الغلمان غلام أظرف منه ولا أَثْرىٰ ولا أَوْضأَ منه، فأخذه بِيَدِهِ، وأخذ حجرًا فضرب به رأسه حتىٰ دمغه(٢) فقتله، قال: فرأىٰ موسىٰ أمرًا فظيعًا لا صبر عليه؛ صبيٌّ صغيرٌ قتله لا ذنب له، قال: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً﴾ أي: صغيرةً ﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا ۝٧٤ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ۝٧٥ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا﴾ أي: قد أعذرتَ في شأني. ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾، فهدمه ثم قعد يَبْنِيه، فضَجِرَ موسىٰ مما يراه يصنع من التَّكليف، وما ليس له عليه صبر، قال: ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ أي: قد استطعمناهم فلم يطعمونا، وضِفْناهم(٣) فلم يُضَيِّفونا، ثم قعدتَ تعملُ مِن غير صنيعةٍ، ولو شئتَ لأُعْطِيتَ عليه أجرًا في عمله؟ قال: ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ۝٧٨ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا(٤)﴾ -وفي قراءة أبيِّ بن كعب: «كلَّ سفينةٍ صالحةٍ»- وإنما عِبْتُها لأردَّه عنها، فسَلِمت حين رأىٰ العَيبَ الَّذي صنعتُ بها. ﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ۝٨٠ فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ۝٨١ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا(٥) وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾ أي: ما فعلته عَن نَفْسِي، ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ وكان ابن عبَّاسٍ يقول: ما كان الكنز إلا علمًا(٦).

وقال العوفي، عن ابن عبَّاسٍ قال: لما ظهر موسىٰ وقومه علىٰ مِصْر، أنزل قومه، فلما استقرت بهم الدَّار، أنزل الله: أن ذَكِّرْهُم بأيَّام الله فخطب قومَهُ، فذكر ما آتاهم الله من الخير والنِّعمة، وذَكَّرَهُمْ إِذْ نجَّاهم الله مِن آل فرعون، وذَكَّرَهُمْ هلاك عدوهم، وما استخلفهم الله في الأرض، وقال: كلَّم الله نَبِيَّكم تكليمًا، واصطفاني لنفسِهِ، وأنزل عليَّ محبَّةً منهُ، وآتاكم الله مِن كلِّ ما سَأَلْتُمُوه؛ فنَبِيُّكُم أفضل أهل الأرض، وأنتم تقرءُون التَّوراة، فلم يترك نعمةً أنعمها عليهم إلا وعرَّفهم إيَّاها. فقال له رجلٌ من بني إسرائيل: هم كذلك يا نبيَّ الله، قد عرفنا الَّذي تقول، فهل علىٰ الأرض أحدٌ أعلم منكَ يا نبيَّ اللهِ؟ [قال: لا](٧). فبعَثَ الله جبرائيلَ إلىٰ موسىٰ، عليهما السلام، فقال: إن الله ﷻ يقول: وما يُدْرِيك أينَ أَضعُ

---

(١) أي: اشتد عليه. (٢) أي: أصاب دماغه. (٣) أي: نزلنا عليهم ضيوفًا.
(٤) في (ز): كل سفينة صالحة. (٥) لوحة (١٩٨ أ).
(٦) ضعيف جدًّا: رواه ابن جرير (١٥/ ٢٧٩)، وفيه الحسن بن عمارة: متروك.
(٧) سقط من (ز)، وهو مثبت من «الطبري».

عِلْمِي؟ بلىٰ؛ إنَّ علىٰ شطِّ البحر رجلًا هو أعلم منك -قال ابن عبَّاس: هو الخضر- فسأل مُوسَىٰ ربَّه أن يُريَهُ إيَّاه، فأوحىٰ إليه: أنِ ائتِ البحر، فإنَّك تجد علىٰ شطِّ البحر حوتًا، فخُذْهُ فادْفَعْهُ إلىٰ فَتاك، ثم الْزَم شطَّ البحر، فإذا نسيت الحوت وهلك منك، فثَمَّ تجد العبد الصالح الَّذِي تطلب. فلمَّا طال سفر موسىٰ نبيِّ الله ونَصِبَ فيه، سأل فتاه عن الحوتِ، فقال له فتاه وهو غلامه: ﴿أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَـٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾ لك، قال الفتىٰ: لقد رأيت الحوت حين اتَّخذ سبيله في البحر سَربًا فأعجب ذلك مُوسَىٰ، فرجع حتىٰ أتىٰ الصَّخرة، فوجد الحوتَ، فجعل الحوتُ يضرب في البحر ويتبعه موسَىٰ، وجعل موسىٰ يقدِّم عصاه يفرج بها عنه الماء يتبع الحوت، وجعل الحوت لا يمس شيئًا من البحر إلا يبس، حتىٰ يكون [صخرة][(١)]، فجعل نبي الله يعجب من ذلك، حتىٰ انتهىٰ به الحوت إلىٰ جزيرةٍ مِن جزائر البحر، فلَقِيَ الخَضِرَ بها فسلَّم عليه، فقال الخَضِرُ: وعليك السَّلام، وأنىٰ يكون السَّلام بهذه الأرض؟ ومَن أنت؟ قال: أنا موسىٰ. فقال الخَضِرُ: أصاحب بني إسرائيل؟ [قال: نَعَمْ][(٢)]، فرحَّب به وقال: ما جاء بك؟ قال: جئتك ﴿عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ۝٦٦ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾ يقول: لا تطيق ذلك. قال موسىٰ: ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا﴾ قال: فانطلق به، وقال له: لا تسألني عن شيءٍ أصنعه حتىٰ أُبيِّنَ لك شأنه؛ فذلك قوله: ﴿حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾[(٣)].

وقال الزُّهري، عن عبيد الله[(٤)] بن عبد الله بن عُتبة بن مسعود عن ابن عبَّاس: أنَّه تمارىٰ هو والحرُّ ابن قيس بن حِصْن[(٥)] الفَزاري في صاحب موسىٰ، فقال ابن عبَّاس: هو خَضِر. فمرَّ بهما أبي بن كعب فدعاه ابن عبَّاس فقال: إني تماريت أنا وصاحبي هذا في صاحب موسىٰ الذي سأل السبيل إلىٰ لُقِيِّه، فهل سمعت رسول الله ﷺ يذكر شأنه؟ قال: إنِّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«بَيْنَا مُوسَىٰ فِي مَلَإٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُ رَجُلٌ فَقَالَ: تَعْلَمُ مَكَانَ رَجُلٍ أَعْلَمَ مِنْكَ؟ قَالَ: لَا؛ فَأَوْحَىٰ اللهُ إِلَىٰ مُوسَىٰ بَلَىٰ عَبْدُنَا خَضِرٌ. فَسَأَلَ مُوسَىٰ السَّبِيلَ إِلَىٰ لُقِيِّهِ، فَجَعَلَ اللهُ لَهُ الحُوتَ آيَةً وَقِيلَ لَهُ: إِذَا فَقَدْتَ الحُوتَ فَهُوَ ثَمَّةَ فَارْجِعْ، فَإِنَّكَ سَتَلْقَاهُ. فَكَانَ مُوسَىٰ يَتْبَعُ أَثَرَ الحُوتِ فِي البَحْرِ. فَقَالَ فَتَىٰ مُوسَىٰ لِمُوسَىٰ: ﴿أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ﴾ قَالَ مُوسَىٰ: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ فَوَجَدَا عَبْدَنَا خَضِرًا فَكَانَ مِنْ شَأْنِهِمَا مَا قَصَّ اللهُ فِي كِتَابِه»**[(٦)].

---

(١) سقط من (ز)، وهو مثبت من «الطبري».

(٢) سقط من (ز)، وهو مثبت من «الطبري».

(٣) رواه ابن جرير (١٥/ ٢٨١)، وفيه عطيَّة العوفي: يخطئ كثيرًا وكان شيعيًّا مدلسًا.

(٤) لوحة (١٩٨ ب).

(٥) في (ز): «خضر»، والمثبت كما في «الطبري»، وانظر ترجمته في «الاستيعاب» (١/ ١٢٠).

(٦) البخاري (٧٤).

﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾﴾

يخبر تعالىٰ عن قِيلِ موسىٰ عليه السلام لذلك الرَّجل العالِم، وهو الخَضِر، الَّذي خصَّه الله بعلم لم يُطْلِعْ عليه موسَىٰ، كما أنَّه أعطىٰ موسىٰ من العلم ما لم يُعطِه الخضرَ، ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ﴾ سؤالُ بتلطُّفٍ، لا علىٰ وجه الإلزام والإجبار. وهكذا ينبغي أن يكون سؤال المتعلِّم من العالم. وقوله: ﴿أَتَّبِعُكَ﴾ أي: أصحبك وأرافقك، ﴿عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ أي: مما علَّمك الله شيئًا، أسترشِدُ به في أمري، من علمٍ نافعٍ وعملٍ صالحٍ. فعندها ﴿قَالَ﴾ الخضر لموسىٰ: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾ أي: أنت لا تقدر أَن تصاحبني لما ترىٰ منِّي مِن الأفعال التي تخالف شَريعتَك؛ لأنِّي علىٰ علمٍ مِن علمِ الله، ما علَّمَكَهُ الله، وأنت علىٰ علمٍ مِن علم الله، ما عَلَّمَنِيهِ الله، فكُلٌّ منَّا مكلَّفٌ بأمورٍ[1] من الله دون صاحبِه، وأنت لا تقدرُ علىٰ صُحبَتِي. ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾ فأنا أعرف أنَّك ستُنكِر عليَّ ما أنت معذورٌ فيه، ولكنْ ما اطَّلعت علىٰ حكمتِهِ ومصلحته الباطنة الَّتي اطَّلعت أنا عليها دونكَ ﴿قَالَ﴾ له موسىٰ: ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا﴾ أي: علىٰ ما أرىٰ من أمورك[2]، ﴿وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا﴾ أي: ولا أخالفُكَ في شيءٍ. فعند ذلك شَارَطَهُ الخَضِرُ ﴿قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ﴾ أي: ابتداءً ﴿حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ أي: حتىٰ أبدأك أنا به قبل أن تسألني.

قال ابن جرير: حدَّثنا ابن حميد، حدَّثنا يعقوب، عن هارون بن[3] عنترة، عن أبيه، عن ابن عبَّاس قال: سأل موسىٰ ربه عز وجل فقال: ربِّ، أيُّ عبادك أحبُّ إليك؟ قال: الَّذي يَذْكُرُنِي ولا ينساني. قال: فأيُّ عبادك أقْضىٰ؟ قال: الَّذي يقضي بالحقِّ ولا يتَّبع الهوىٰ. قال: أيْ ربِّ، أيُّ عبادِك أعلم؟ قال الَّذي يَبْتَغِي علمَ النَّاس إلىٰ علمه، عسىٰ أن يُصِيبَ كلمةً تهديه إلىٰ هدًىٰ أو تردُّه عَن رَدًىٰ. قال: أيْ رَبِّ هل في أرضك أحدٌ أعلمُ مِنِّي؟ قال: نعم. قال: فمَنْ هو؟ قال: الخَضِرُ. قال: فأين أطلبه؟ قال علىٰ السَّاحل عند الصَّخرة، التي يَنْفَلِت عندها الحوت. قال: فخرج موسىٰ يطلبه، حتىٰ كان ما ذكر الله.

وانتهىٰ موسىٰ إليه عند الصَّخرة، فسلَّم كلُّ واحدٍ منهما علىٰ صاحبه. فقال له موسىٰ: إنِّي أُريدُ أن تَصْحَبَنِي. قال: إنَّك لن تطيق صحبتي. قال: بلىٰ. قال: فإِن صَحِبْتَنِي ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ قال: فسار به في البحر حتىٰ انتهىٰ إلىٰ مجمع البحور، وليس في الأرضِ[4] مكانٌ أكثر ماءً منه.

---

(١) في (ز): «مكلف مأمور»، ولا يصح لقوله: «دون صاحبه».
(٢) لوحة (١٩٩ أ).
(٣) في (ز): «هارون عن عنترة»، والمثبت من «الطبري»، وهو الصواب، وانظر: «الجرح والتعديل» (٧/ ٣٥).
(٤) في (ز): «البحر»، والمثبت كما في «الطبري».

قال: وبعث الله الخُطَّاف(١)، فجعل يستقي منه بمنقاره، فقال لموسىٰ: كم ترىٰ هذا الخطاف رَزأً من هذا الماء؟ قال: ما أقلَّ ما رزأ! قال: يا موسىٰ فإنَّ علمي وعلمك في علم الله كقَدْرِ ما استقىٰ هذا الخطَّاف مِن هذا الماء. وكان موسىٰ قد حدَّث نفسه أنَّه ليس أحدٌ أعلم منه، أو تكلَّم به، فمِنْ ثَمَّ أُمِرَ أن يأتيَ الخضر. وذَكر تمام الحديث في خَرْقِ السَّفينة، وقتْلِ الغلام، وإصلاح الجِدارِ، وتفسيره له ذلك(٢).

﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾ ﴾

يقول تعالىٰ مخبرًا عن موسىٰ وصاحبه، وهو الخضر، أنَّهما انطلقا لما توافَقَا واصطحبا، واشترط عليه ألَّا يسأله عن شيءٍ أنكره حتَّىٰ يكون هو الَّذي يبتدئه مِن تلقاءِ نفسِهِ بشرحِهِ وبيانِهِ، فرَكِبَا في السَّفينة. وقد تقدَّم في الحديث كيف رَكِبَا في السَّفينة، وأنَّهم عَرَفُوا الخَضِر، فحملوهما بغير نولٍ -يعني: بغير أجرةٍ- تكرمةً للخَضِرِ. فلمَّا استقلَّت بهم السَّفينة في البَحْر، ولَجْجَت؛ أي: دَخلَت اللُّجَّةَ، قام الخَضِرُ فخَرَقَها، واستخرج لوحًا من ألواحها ثمَّ رقعها. فلم يملك موسىٰ ﷺ نفسه أن قال منكرًا عليه: ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾. وهذه اللَّام(٣) لام العَاقِبَة لا لام التَّعليل، كما قال الشاعر:

لِدُوا لِلْمَوْتِ وَابْنُوا لِلْخَرَابِ

﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا﴾ قال مجاهد: منكرًا. وقال قتادة عجبًا. فعندها قال له الخضر مُذَكِّرًا بما تقدَّم مِن الشَّرط: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾ يعني: وهذا الصَّنيع فعلته قصدًا، وهو من الأمُورِ الَّتي اشترطت معك ألَّا تنكر عليَّ فيها؛ لأنَّك لم تحطْ بها خبرًا، ولها داخل هو مصلحةٌ ولم تعلمه أنت. ﴿قَالَ﴾ أي: موسىٰ: ﴿لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا﴾ أي: لا تُضيِّق عليّ وتُشدِّد عليَّ؛ ولهذا تقدم في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «كَانَتِ الأُولَىٰ مِنْ مُوسَىٰ نِسْيَانًا».

﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴿٧٦﴾ ﴾

يقول تعالىٰ: ﴿فَانطَلَقَا﴾ أي: بعد ذلك، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ﴾، وقد تقدَّم أنَّه كان يلعب مع

---

(١) الخُطَّاف: العصفور الأسود، وهو الذي تدعوه العامة: عصفور الجنة.

(٢) رواه الطبري (١٥/ ٢٧٧)، ورجاله ثقات عدا شيخ الطبري: محمَّد بن حميد الرازي: حافظ ضعيف، لكن يشهد للقِصَّة ما تقدَّم، والأثر عزاه السيوطي في «الدُّر المنثور» (٥/ ٤١٩) إلىٰ ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم (١٢٨٧٨) ولم يذكر أول الإسناد، والخطيب وابن عساكر، فإن كانت هذه المصنَّفات روت الحديثَ مِن غير طريق ابن حميد فالإسناد حسن.

(٣) لوحة (١٩٩ ب).

الغِلْمان في قريةٍ من القُرىٰ، وأنَّه عَمَدَ إليه مِن بينهم، وكان أحسنهم وأجملهم وأوْضأهم[١] فقتلَه، فرُوِيَ أنَّه احتزَّ رأسه، وقيل: رضخه[٢] بحَجَرٍ. وفي رواية: اقتطفه بِيَدِهِ. والله أعلم.

فلما شاهد موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ هذا أنكره أشد من الأوَّل، وبادر فقال: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً﴾ أي: صغيرةً لم تَعْمَل الحِنْث[٣]، ولا حملت إثمًا بعدُ، فقتلته؟! ﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ أي: بغير مستندٍ لقتله ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾ أي: ظاهر النَّكارة.

﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ فأكَّد أيضًا في التَّذكار بالشَّرط الأوَّل؛ فلهذا قال له موسىٰ: ﴿إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا﴾ أي: إن اعترضت عليك بشيءٍ بعد هذه المرَّة ﴿فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا﴾ أي: قد أعذرت إليَّ مرَّة بعد مرَّة.

قال ابن جرير: حدَّثنا عبد الله بن زياد، حدَّثنا حجَّاج بن محمَّد، عن حمزة الزَّيَّات، عن أبي إسحاق، عن سعيد بن جبير، عن ابن عبَّاس، عن أبي بن كعب قال: كان النَّبيُّ ﷺ إذا ذكر أحدًا فدعا له، بَدَأَ بنفسِهِ، فقال ذات يوم: «رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْنَا وَعَلَىٰ مُوسَىٰ، لَوْ لَبِثَ مَعَ صَاحِبِهِ لَأَبْصَرَ العَجَبَ، وَلَكِنَّهُ قَالَ: إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا» [مثقلة][٤][٥].

﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي[٦] وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾﴾

يقول تعالىٰ مخبراً عنهما: إنَّهما انطلقا بعد المرَّتين الأوليين ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ﴾ روىٰ ابن جرير عن ابن سيرين أنَّها الأيلة[٧] وفي الحديث: «حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ لِئَامًا» أي: بخلاء[٨] ﴿فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ إسناد الإرادة هاهنا إلىٰ الجدارِ علىٰ سبيل الاستعارة، فإنَّ الإرادة في المحدثات بمعنىٰ الميل. والانقضاض هو: السُّقوط.

وقوله: ﴿فَأَقَامَهُۥ﴾ أي: فردَّه إلىٰ حالة الاستقامةِ، وقد تقدَّم في الحديث أنَّه ردَّه بيدَيْهِ، ودعمه حتىٰ ردَّ ميله. وهذا خارقٌ، فعند ذلك قال موسىٰ له: ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ أي: لأجل أنَّهم لم يضيفونا كان ينبغي ألَّا تعمل لهم مجانًا ﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ [أي: لأنَّك شرطتَ عند قتلِ الغلام أنَّك إن سألتني عن شيءٍ بعدها فلا تصاحِبْني؛ فهو فراق بيني وبينك][٩]، ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ﴾ أي: بتفسيرِ ﴿مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾.

---

(١) الوَضَاءة: الحسن والنظافة. (٢) الرَّضْخ: كسر الرأس. (٣) الحِنْث: الإثم والمعصية.

(٤) ليست في (ز)، وهي مثبتة من «الطبري»، والمراد: أنه ثَقَّل النون من «لدنِّي» وهي قراءة عَشْريَّة متواترة.

(٥) مسلم (٢٣٨٠)، وابن جرير (١٥/ ٢٨٨). (٦) لوحة (٢٠٠ أ).

(٧) أيلة: مدينة علىٰ ساحل البحر الأحمر مما يلي الشام، قيل: هي آخر الحجاز وأول الشام.

(٨) رواه مسلم (٢٣٨٠). (٩) ليست في (ز).

﴿ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِي ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ ﴾

هذا تفسير ما أُشْكِل أمرُه علىٰ موسىٰ عليه السلام وما كان أنكر ظاهره وقد أظهر الله الخضر عليه السلام علىٰ باطنه، فقال: إنَّ السَّفينة إنَّما خرقتها لأَعِيبها؛ [لأنَّهم كانوا يمرُّون بها علىٰ ملك من الظَّلمة ﴿يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ﴾ صالحةٍ؛ أي: جيِّدة ﴿غَصْبًا﴾ فأردت أَن أَعِيبها](١) لأرده عنها لعَيْبِها، فينتفع بها أصحابُها المساكين الَّذِين لم يكن لهم شيءٌ ينتفعون بِهِ غيرها. وقد قيل: إنَّهم أيتام.

وقد روىٰ ابن جريج عن وهب بن سليمان، عن شعيب الجُبَّائي؛ أنَّ اسم ذلك الملك «هُدَدَ بن بُدَدَ»، وقد تقدَّم أيضًا في رواية البخاري، وهو مذكورٌ في التوراة في ذرية «العيص بن إسحاق» وهو من الملوك المنصوص عليهم في التوراة، والله أعلم.

﴿ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ ﴾

قد تقدَّم أنَّ هذا الغلام كان اسمه جَيْسُور. وفي الحديث عن ابن عبَّاس، عن أبي بن كعب، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «الغُلَامُ الَّذِي قَتَلَهُ الخَضِرُ طُبِعَ يَوْمَ طُبِعَ كَافِرًا»(٢). رواه ابن جرير من حديث ابن إسحاق، عن سعيد، عن ابن عبَّاس، به؛ ولهذا قال: ﴿فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾ أي: يحملهما حبه علىٰ متابعته علىٰ الكفر.

قال قتادة: قد فَرِحَ به أبَوَاه حين وُلِدَ، وحَزِنا عليه حين قُتل، ولَو بَقِيَ كانَ فيهِ هلاكهما، فليَرْضَ امرؤٌ بقضاء الله، فإنَّ قضاء الله للمُؤْمِن فيما يَكْرَهُ خيرٌ له مِن قضائه فيما يحب.

وصح في الحديث: «لَا يَقْضِي اللهُ لِلْمُؤْمِنِ قَضَاءً إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ»(٣). وقال تعالىٰ: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة:٢١٦].

وقوله تعالىٰ: ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ أي(٤): ولدًا أزكىٰ من هذا، وهما أرحم به منه، قاله ابن جريج. وقال قتادة: أبر بوالديه، وقد تقدَّم أنهما بُدِّلَا جارية. وقيل: لما قتله الخضر كانت أمُّه حاملًا بغلامٍ مسلمٍ. قاله ابن جريج.

﴿ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ ﴾

---

(١) سقط من (ز).	(٢) مسلم (٢٦٦١)، وابن جرير (١٦/ ٣).

(٣) رواه مسلم (٢٩٩٩)، وأحمد (٤/ ٣٣٢) (٦/ ١٥، ١٦) من حديث صهيب، ورواه أبو داود (١٣١٩) من حديث حذيفة.

(٤) لوحة (٢٠٠ ب).

في هذه الآية دليلٌ علىٰ إطلاق القرية علىٰ المدينة؛ لأنَّه قال أولًا: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ﴾ [الكهف:٧٧] وقال هاهنا: ﴿فَكَانَ لِغُلَٰمَيۡنِ يَتِيمَيۡنِ فِي ٱلۡمَدِينَةِ﴾ كما قال تعالىٰ: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرۡيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَتۡكَ﴾ [محمَّد:١٣]، ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف:٣١] يعني: مكَّة والطَّائف.

ومعنىٰ الآية: أنَّ هذا الجدار إنَّما أصلحه؛ لأنَّه كان لغلامَيْنِ يتيمينِ في المدينة وكان تحته كنزٌ لهما.

قال عكرمة، وقتادة، وغير واحدٍ: كان تحته مالٌ مدفونٌ لهما. وهذا ظاهر السِّياق من الآية، وهو اختيار ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ.

وقال العوفي عن ابن عبَّاس: كان تحته كَنْزُ عِلْمٍ. وكذا قال سعيد بن جبير.

وقال مجاهد: صحفٌ فيها عِلْمٌ. وقد ورد في حديثٍ مرفوعٍ ما يقوِّي ذلك، قال الحافظ أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار في «مسنده» المشهور: حدَّثنا إبراهيم بن سعيدٍ الجوهري، حدَّثنا بشر بن المنذر، حدَّثنا الحارث بن عبد الله اليَحْصَبيِّ عن عياش بن عبَّاس القِتْباني عن ابن[(١)] حُجَيرة، عن أبي ذرٍّ رضي الله عنه رَفَعَه قال: «**إِنَّ الكَنْزَ الَّذِي ذَكَرَ اللهُ فِي كِتَابِهِ لَوْحٌ مِنْ ذَهَبٍ مُصْمَتٍ [مَكْتُوبٌ فِيهِ]**[(٢)]: **عَجِبْتُ لِمَنْ أَيْقَنَ بِالقَدَرِ لِمَ نَصِبَ؟! وَعَجِبْتُ لِمَنْ ذَكَرَ النَّارَ لِمَ ضَحِكَ؟ وَعَجِبْتُ لِمَنْ ذَكَرَ المَوْتَ لِمَ غَفَلَ؟! لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ**»[(٣)].

بشر بن المنذر هذا يقال له: قاضي المِصِّيصة. قال الحافظ أبو جعفر العقيلي: في حديثِهِ وَهْمٌ.

وقد رُوي في هذا آثار عن السَّلف، فقال ابن جرير في «تفسيره»: حدَّثني يعقوب، حدَّثنا الحسن بن حبيب بن نَدَبَة، حدَّثنا سلمة، عن نعيم العنبري -وكان من جلساء الحسن- قال: سمعت الحسن -يعني البصري- يقول في قوله: ﴿وَكَانَ تَحۡتَهُۥ كَنزٞ لَّهُمَا﴾ قال: لوحٌ مِن ذهبٍ مكتوبٌ فيه: بسمِ الله الرَّحمن الرَّحيم، عَجِبْتُ لمن يُؤْمِن بالقدرِ كيف يحزَنُ؟! وعَجِبتُ لمن يُوقِن بالموت كيف يَفْرَح؟! وعَجِبْت لمن يعرف الدُّنيا وتقلُّبها بأهلِها كيف يطمئن إليها؟! لَا إلهَ إلَّا الله، محمَّدٌ رسولُ الله.

وحدَّثني يونس، أخبرنا ابن وهب، أخبرني عبد الله[(٤)] بن غياش عن عُمَر[(٥)] مولىٰ غُفْرَة قال: إن الكنز الَّذِي قال الله في السورة التي يذكر فيها الكهف: ﴿وَكَانَ تَحۡتَهُۥ كَنزٞ لَّهُمَا﴾ قال: كان لوحًا من ذهبٍ مُصْمَتٍ مكتوبًا فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، عجبٌ لمَن عَرف النَّار[(٦)] ثم ضَحِكَ! عَجَبٌ لمن أيقَن بالقدر ثم

---

(١) في (ز): «أبي حجيرة»، والمثبت من «البزار».
(٢) ليست في (ز) ولا «البزار»، وقد وقعت في روايات أخرىٰ في «شعب البيهقي» وغيره.
(٣) ضعيف: فيه بشر بن المنذر قاضي المصيصة، قال العقيلي: في حديثه وهم، وفي الإسناد أيضًا الحارث بن عبد الله قال الهيثمي: (لم أعرفهما) يعني: الحارث وبشر بن المنذر.
(٤) لوحة (٢٠١ أ).
(٥) في (ز): «عفير»، والمثبت موافق لما في «الطبري»، وانظر ترجمته في «الجرح والتعديل» (٦/ ١١٩).
(٦) في (ز): الموت.

نصب! عجب لمن أيقَن بالموت ثم أَمِن! أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمَّدًا عبده ورسوله.

وحدَّثني أحمد بن حازم الغِفاري، حدَّثتنا هَنَّادَة بنت مالك الشيبانية قالت: سمعت صاحبي حماد ابن الوليد الثقفي يقول: سمعت جعفر بن محمَّد يقول في قول الله تعالىٰ: ﴿وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا﴾ قال: سطرانِ ونصف لم يتم الثالث: عَجِبتُ للمُوقِن بالرِّزق كيف يتعَبُ؟! وعجبتُ للموقِن بالحساب كيف يغفُلُ؟! وعجبتُ للموقِن بالموت كيف يفرَحُ؟! وقد قال تعالىٰ: ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء:٤٧] قالت: وذكر أنَّهما حُفِظَا بصلاح أبيهما، ولم يذكر منهما صلاح، وكان بينهُما وبين الأب الَّذي حُفظا به سبعة آباء، وكان نساجًا.

وهذا الَّذي ذكرَه هؤلاءِ الأئمَّة، وورد به الحديث المتقدِّم وإن صح، لا ينافي قول عكرمة: أنَّه كان مالًا؛ لأنَّهم ذكروا أنه كان لوحًا من ذهب، وفيه مالٌ جزيلٌ، أكثر ما زادوا أنه كان مُودَعًا فيه علم، وهو حِكَم ومواعظ، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ فيه دليلٌ علىٰ أنَّ الرَّجل [الصَّالح][(١)] يُحفَظ في ذرِّيَّته، وتشمل بركة عبادته لهم في الدُّنيا والآخرة بشَفَاعَتِه فيهم، ورفع درجتهم إلىٰ أعلىٰ درجةٍ في الجنَّة؛ لتقرَّ عينُهُ بهم، كما جاء في القرآن ووردت السُّنَّة به. قال سعيد بن جبير عن ابن عبَّاس: حُفِظَا بصلاحِ أبيهِمَا، ولم يُذكر لهما صلاح، وتقدَّم أنَّه كان الأب السَّابع، فالله أعلم.

وقوله: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا﴾: هاهنا أسند الإرادة إلىٰ الله تعالىٰ؛ لأنَّ بلوغهما الحُلُم لا يَقْدِر عليه إلا الله؛ وقال في الغلام: ﴿فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ﴾ وقال في السفينة: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾، فالله أعلم.

وقوله: ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِي﴾[(٢)] أي: هذا الَّذي فعلته في هذه الأحوال الثلاثة، إنما هو مِن رحمة الله بمَن ذكرنا من أصحاب السَّفينة، ووَالِدَي الغلام، ووَلَدَي الرجل الصالح، ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِي﴾ لكني أمرت به ووقفت عليه، وفيه دلالة لمن قال بنبوة الخضر عليه السلام مع ما تقدَّم من قوله: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾.

وقال آخرون: كان رسولًا. وقيل: بل كان ملكًا. نقله الماوردي في «تفسيره».

وذهب كثيرون إلىٰ أنَّه لم يكن نبيًّا. بل كان وليًّا. فالله أعلم.

وذكر ابن قتيبة في[(٣)] «المعارف» أن اسم الخضر «بلْيَا بن مَلْكان بن فالغ بن عابر[(٤)] بن شالخ بن

---

(١) ليست في (ز).

(٢) قال العلامة الشنقيطي رحمه الله: قَتْلُ الْخَضِرِ لِلْغُلَامِ ، وَخَرْقُهُ لِلسَّفِينَةِ ، وَقَوْلُهُ: وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي -دَلِيلٌ ظَاهِرٌ عَلَىٰ نُبُوَّتِهِ . وَعَزَا الْفَخْرُ الرَّازِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ الْقَوْلَ بِنُبُوَّتِهِ لِلْأَكْثَرِينَ ، وَمِمَّا يُسْتَأْنَسُ بِهِ لِلْقَوْلِ بِنُبُوَّتِهِ تَوَاضُعُ مُوسَىٰ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَهُ .

(٣) لوحة (٢٠١ ب).

(٤) في (ز): «غابر» بالمعجمة، والمثبت بالمهملة من «شرح مسلم» للنووي (٨/ ١١٤) وفي بعض المصادر «عامر».

أرفخشذ بن سام بن نوح عليه السلام».

قالوا: وكان يكنىٰ أبا العبَّاس، ويلقب بالخضر، وكان من أبناء الملوك، ذكره النَّووي في «تهذيب الأسماء»، وحكىٰ هو وغيره في كونه باقيًا إلىٰ الآن ثمَّ إلىٰ يوم القيامة قولين، ومال هو وابن الصَّلاح إلىٰ بقائه، وذكروا في ذلك حكاياتٍ وآثارًا عن السَّلف وغيرهم، وجاء ذكره في بعض الأحاديثِ، ولا يصح شيءٌ من ذلك، وأشهرها حديث التَّعزية، وإسناده ضعيف (١).

ورجَّح آخرون من المحدِّثين وغيرهم خلاف ذلك، واحتجوا بقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ﴾ [الأنبياء:٣٤]، وبقول النَّبيِّ ﷺ يوم بدر: «**اللَّهُمَّ إِنْ تَهْلِكْ هَذِهِ العِصَابَةُ لا تُعْبَدْ فِي الأَرْضِ**» (٢)، وبأنَّه لم ينقل أنه جاء إلىٰ رسول الله ﷺ [ولا حضر عنده، ولا قاتل معه. ولو كان حيًّا لكان من أتباع النَّبيِّ ﷺ] (٣) وأصحابه؛ لأنَّه عليه السلام كان مبعوثًا إلىٰ جميع الثَّقلين: الجنِّ والإنسِ، وقد قال: «**لَوْ كَانَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ حَيَّيْنِ مَا وَسِعَهُمَا إِلَّا اتِّبَاعِي**» (٤) وأخبر قبل موته بقليل: أنَّه لا يبقىٰ ممن هو علىٰ وجه الأرضِ إلىٰ مائة سنةٍ مِن ليلتِهِ تلك عين تَطْرِفُ، إلىٰ غير ذلك من الدَّلائل.

قال الإمام أحمد: حدَّثنا يحيىٰ بن آدم، حدَّثنا ابن المبارك، عن مَعْمَر، عن همام بن مُنبِّه، عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ [في الخَضِر قال:] (٥) «**إِنَّمَا سُمِّيَ (خَضِرًا) لِأَنَّهُ جَلَسَ عَلَىٰ فَرْوَةٍ بَيْضَاءَ، فَإِذَا هِيَ تَحْتَهُ [تَهْتَزُّ] (٦) خَضْرَاءَ**».

ورواه أيضًا عن عبد الرزاق (٧). وقد ثبت أيضًا في «صحيح البخاري» عن همام، عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «**إِنَّمَا سُمِّيَ (الخَضِرُ) لِأَنَّهُ جَلَسَ عَلَىٰ فَرْوَةٍ، فَإِذَا هِيَ تَهْتَزُّ [مِنْ خَلْفِهِ] (٨) خَضْرَاءَ**» (٩).

---

(١) يشير الحافظ ابن كثير بذلك إلىٰ الحديث المَرْوي عن عليِّ بن الحسين قال: لما تُوفي رسول الله ﷺ وجاءت التعزية، سمعوا قائلًا يقول: إن في الله عزاءً من كل مصيبة، وخَلَفًا من كلِّ هَالكٍ، ودَرَكًا من كلِّ فائتٍ، فبالله فثقوا، وإيَّاه فارجوا؛ فإن المُصاب من حُرِمَ الثواب. قال علي بن الحسين: أتدرون من هذا، هذا الخضر.

وهذا خبر باطل، وحكم عليه جمع من أهل العلم بالوضع، وانظر: «الزهر النضر في أخبار الخضر» (١/ ٤٤ ـ ٦٥) للحافظ ابن حجر العسقلاني رحمه الله، و«الرد علىٰ من زعم أن الخضر حي» (١/ ٤٤، ٤٥) جمع/ علي بن نايف الشحود.

(٢) **حسن صحيح**: رواه الطبراني (٩/ ١٩٤)، وفيه أبو إسحاق؛ اختلط، لكن رواية إسرائيل عنه ثابتة في «الصحيحين»، فتحمل علىٰ الاتصال والسماع قبل الاختلاط.

ويشهد له حديث ابن عباس نحوه؛ رواه مسلم (١٧٦٣)، وأبو داود (٢٦٩٠)، وأحمد (١/ ٣٠).

(٣) ليست في (ز).

(٤) **ضعيف بهذ السياق**: والصَّحيح في ذلك ذكر موسىٰ عليه السلام فقط، انظر ما قاله الألباني في «الإرواء» (١٥٨٩).

(٥) زيادة من «المسند».

(٦) زيادة من «المسند».

(٧) البخاري (٣٤٠٢)، وأحمد (٢/ ٣١٢)، والترمذي (٣١٥١).

(٨) زيادة من «البخاري».

(٩) انظر التعليق السابق.

والمراد بالفروة هاهنا الحشيش اليابس، وهو الهشيم من النبات، قاله عبد الرزاق. وقيل: المراد بذلك وجه الأرض.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾[1] أي: هذا تفسير ما ضِقْتَ به ذرعًا، ولم تصبر حتىٰ أُخبرك به ابتداءً، ولما أن فسَّره له وبيَّنه ووضَّحه وأزال المشكل قال: ﴿مَا لَمْ تَسْطِع﴾ وقبل ذلك كان الإشكال قويًّا ثقيلًا فقال: ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ فقابل الأثقل بالأثقل، والأخف بالأخف، كما قال تعالىٰ: ﴿فَمَا اسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ﴾ وهو الصُّعود إلىٰ أعلاه، ﴿وَمَا اسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا﴾ [الكهف:٩٧]، وهو أشق من ذلك، فقابل كُلًّا بما يُنَاسِبه لفظًا ومعنًىٰ، والله أعلم.

فإن قيل: فما بال فتَىٰ موسىٰ ذُكر في أوَّل القصَّة ثمَّ لَمْ يُذْكَر بعد ذلك.

فالجواب: أنَّ المقصود بالسِّياق إنَّما هو قصة موسَىٰ مع الخضر وذكر ما كان بينهما، وفتىٰ موسىٰ

---

(١) قال العلامة السعدي رحمه الله: وفي هذه القصة العجيبة الجليلة، من الفوائد والأحكام والقواعد شيء كثير، ننبه علىٰ بعضه بعون الله. فمنها فضيلة العلم، والرحلة في طلبه، وأنه أهم الأمور، فإن موسىٰ عليه السلام رحل مسافة طويلة، ولقي النصب في طلبه، وترك القعود عند بني إسرائيل، لتعليمهم وإرشادهم، واختار السفر لزيادة العلم علىٰ ذلك.

ومنها: البداءة بالأهم فالأهم، فإن زيادة العلم وعلم الإنسان أهم من ترك ذلك، والاشتغال بالتعليم من دون تزود من العلم، والجمع بين الأمرين أكمل.

ومنها: إضافة الشر وأسبابه إلىٰ الشيطان، علىٰ وجه التسويل والتزيين، وإن كان الكل بقضاء الله وقدره، لقول فتىٰ موسىٰ: ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾.

ومنها: جواز إخبار الإنسان عما هو من مقتضىٰ طبيعة النفس، من نصب أو جوع، أو عطش، إذا لم يكن علىٰ وجه التسخط وكان صدقًا، لقول موسىٰ: ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾﴾.

ومنها: استحباب كون خادم الإنسان ذكيًّا فطنًا كيسًا، ليتم له أمره الذي يريده... ومنها: استحباب إطعام الإنسان خادمه من مأكله، وأكلهما جميعًا، لأن ظاهر قوله: ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا﴾ إضافة إلىٰ الجميع، أنه أكل هو وهو جميعًا...

ومنها: أن ذلك العبد الذي لقياه، ليس نبيًّا، بل عبدًا صالحًا، لأنه وصفه بالعبودية، وذكر منة الله عليه بالرحمة والعلم، ولم يذكر رسالته ولا نبوته، ولو كان نبيًّا، لذكر ذلك كما ذكره غيره.

ومنها: التأدب مع المعلم، وخطاب المتعلم إياه ألطف خطاب... بخلاف ما عليه أهل الجفاء أو الكبر، الذي لا يظهر للمعلم افتقارهم إلىٰ علمه، بل يدعي أنه يتعاون هم وإياه، بل ربما ظن أنه يعلِّم معلمه، وهو جاهل جدًّا، فالذل للمعلم، وإظهار الحاجة إلىٰ تعليمه، من أنفع شيء للمتعلم.... ومنها: أن من ليس له قوة الصبر علىٰ صحبة العالم والعلم، وحسن الثبات علىٰ ذلك، أنه يفوته بحسب عدم صبره كثير من العلم فمن لا صبر له لا يدرك العلم، ومن استعمل الصبر ولازمه، أدرك به كل أمر سعىٰ فيه...

ومنها: القاعدة الكبيرة الجليلة وهو أنه «يُدْفع الشر الكبير بارتكاب الشر الصغير»، ويُرَاعَىٰ أكبرُ المصلحتين، بتفويت أدناهما، فإن قتل الغلام شر، ولكن بقاءه حتىٰ يفتن أبويه عن دينهما، أعظم شرًّا منه...

ومنها: القاعدة الكبيرة أيضًا وهي أن «عمل الإنسان في مال غيره، إذا كان علىٰ وجه المصلحة وإزالة المفسدة، أنه يجوز، ولو بلا إذن حتىٰ ولو ترتب علىٰ عمله إتلاف بعض مال الغير» كما خرق الخضر السفينة لتعيب، فتسلم من غصب الملك الظالم... ومنها: أن موافقة الصاحب لصاحبه، في غير الأمور المحذورة، مدعاة وسبب لبقاء الصحبة وتأكدها، كما أن عدم الموافقة سبب لقطع المرافقة.

معه تَبَع، وقد صرَّح في الأحاديث المتقدِّمة في[١] الصِّحاح وغيرها أنه يوشع بن نون، وهو الَّذِي كان يَلِي بني إسرائيل بعد موسىٰ عليهما السلام. وهذا يدل علىٰ ضعف ما أورده ابن جرير في «تفسيره» حيث قال: حدَّثنا ابن حميد، حدَّثنا سلمة، حدَّثني ابن إسحاق، عن الحسن بن عمارة، عن أبيه، عن عكرمة قال: قيل لابن عبَّاس: لم نسمع لفتىٰ موسىٰ بذكر من حديث وقد كان مَعَه؟ فقال ابن عبَّاس فيما يذكر من حديث الفتىٰ قال: شرب الفتىٰ من الماء [فخُلِّد، فأخذه][٢] العالم، فطَابَق به سفينة ثم أرسله في البَحْر، فإنَّها تموج به إلىٰ يوم القيامة؛ وذلك أنه لم يكن له أن يشرب منه فشرب[٣].

إسناد ضعيف، والحسن متروك، وأبوه غير معروف.

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾﴾

يقول تعالىٰ لنبيِّه ﷺ: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ﴾ يا محمَّد ﴿عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ﴾[٤] أي: عن خَبَره. وقد قدَّمنا أنَّه بعث كفَّار مكَّة إلىٰ أهل الكتاب يسألون منهم ما يمتحنون به النَّبيَّ ﷺ، فقالوا: سلُوهُ عن رجلٍ طوَّافٍ في الأرض، وعن فتيةٍ لا يدرىٰ ما صنعوا، وعن الروح؛ فنزلت سورة الكهف.

وقد أورد ابن جرير هاهنا، والأموي في «مغازيه»، حديثًا أسنده وهو ضعيفٌ، عن عقبة بن عامر، أن نفرًا من اليهود جاءوا يسألون النَّبيَّ ﷺ عن ذي القرنين، فأخبرهم بما جاءوا له ابتداءً، فكان فيما أخبرهم به: «أَنَّهُ كَانَ شَابًّا مِنَ الرُّومِ، وَأَنَّهُ بَنَىٰ الإِسْكَنْدَرِيَّةَ، وَأَنَّهُ عَلَا بِهِ مَلَكٌ فِي السَّمَاءِ، وَذَهَبَ بِهِ إِلَىٰ السَّدِّ، وَرَأَىٰ أَقْوَامًا وُجُوهُهُمْ مِثْلُ وُجُوهِ الكِلَابِ»[٥] وفيه طولٌ ونكارةٌ، وَرَفْعُهُ لا يصح، وأكثر ما فيه أنه من أخبار بني إسرائيل.

والعجب أن أبا زُرْعَة الرازي، مع جلالة قدره، ساقَهُ بتمامه في كتابه «دلائل النبوة»، وذلك غريبٌ منه،

---

(١) لوحة (٢٠٢ أ).

(٢) في (ز): «فحار»، والمثبت من «الطبري».

(٣) ضعيف جدًّا: رواه ابن جرير (١٥/ ٢٨١) وفيه الحسن بن عمارة: متروك، وأبوه غير معروف.

(٤) قال الشيخ القاسمي رحمه الله: قد أشار نبأ ذي القرنين الإسكندر إلىٰ فوائد شتىٰ... منها: أن علىٰ الملك، إذا اشتكي إليه جور مجاورين، أن يبذل وسعه في الراحة والأمن، دفاعاً عن الوطن العزيز، وصيانة للحرية والتمدن، من مخالب التوحش والخراب، قياماً بفريضة دفع المعتدين وإمضاء العدل بين العالمين. كما لبّىٰ الإسكندر دعوة الشاكين في بناء السد. وقد أطبق المؤرخون علىٰ أنه بنىٰ عدة حصون وأسوار، لرد غارات البرابرة، وصد هجماتهم.
ومنها: أن علىٰ الملك التعفف عن أموال رعيته، والزهد في أخذ أجرة، في مقابلة عمل يأتيه، ما أغناه الله عنه، ففي ذلك حفظ كرامته وزيادة الشغف بمحبته. كما تأبّىٰ الإسكندر تفضلاً وتكرماً.

(٥) ضعيف: رواه ابن جرير (١٦/ ٨) فيه ابن لهيعة: اختلط، وعبد الرحمن بن زياد بن أَنْعُم الإفريقي: ضعيف، عن شيخين مجهولين.

وفيه من [النكارة][(١)] أنَّه من الروم، وإنَّما الَّذي كان من الروم «الإسكندرُ الثاني ابن فيليس المقدوني»، الذي تُؤرخ به الروم، فأمَّا الأوَّل فقد ذكره الأزرقي وغيره أنه طاف بالبيت مع إبراهيم الخليل ﷺ أوَّل ما بناه وآمن به واتَّبعه، وكان معه الخضر ﷺ وأمَّا الثاني فهو: «إسكندر بن فيليبس» المقدوني اليوناني، وكان وزيره «أرسطاطاليس» [الفيلسوف][(٢)] المشهور، والله أعلم. وهو الذي تؤرِّخ به من مملكته ملَّة الرُّوم. وقد كان قبل المسيح ﷺ بنحوٍ مِن ثلثمائة سنة، فأمَّا الأوَّل المذكور في القرآن فكان في زمن الخليل، كما ذكره الأزرقي وغيره، وأنَّه طاف مع الخليل[(٣)] بالبيت العتيق لمَّا بناه إبراهيم ﷺ وقَرَّبَ إلىٰ الله قربانًا، وقد ذكرنا طرفًا من أخباره في كتاب «البداية والنهاية» بما فيه كفاية، ولله الحمد.

وقال وهب بن منبه: كان ملكًا، وإنَّما سُمِّيَ «ذا القرنين»؛ لأنَّ صفحتي رأسه كانتا من نحاس، قال: وقال بعض أهل الكتاب: لأنَّه ملك الرُّوم وفارس. وقال بعضهم: كان في رأسه شبه القرنين، وقال سفيان الثوري عن حبيب بن أبي ثابت، عن أبي الطفيل قال: سُئل علي ﷺ عن ذي القرنين، فقال: كان عبدًا ناصحَ الله[(٤)] فناصَحَه، دعَا قومه إلىٰ الله فضربوه علىٰ قرنه فمات، فأحياه الله، فدعا قومه إلىٰ الله فضربوه علىٰ قرنه فمات، فسُمِّيَ ذا القرنين[(٥)].

وكذا رواه شعبة، عن القاسم بن أبي بَزَّة عن أبي الطفيل، سمع عليًّا يقول ذلك.

ويقال: إنه إنما سُمِّيَ ذا القرنين؛ لأنه بلغ المشارق والمغارب، من حيث يطلع قرن الشمس ويغرب.

وقوله ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: أعطيناه مُلكًا عظيمًا مُمَكنًا فيه، له من جميع ما يؤتىٰ الملوك؛ من التَّمكين والجنود وآلات الحرب والحصارات؛ ولهذا ملك المشارق والمغارب من الأرض، ودانت له البلاد، وخضعت له ملوك العباد، وخدمته الأُمَم، من العرب والعجم؛ ولهذا ذكر بعضهم أنَّه إنَّما سُمِّيَ ذا القرنين؛ لأنَّه بلغ قرني الشَّمس مشرقها ومغربها.

وقوله: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ مِن كُلِّ شَيۡءٖ سَبَبٗا﴾: قال ابن عبَّاس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وعكرمة، والسُّدِّي، وقتادة، والضَّحَّاك، وغيرهم: يعني علمًا.

وقال قتادة أيضًا في قوله: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ مِن كُلِّ شَيۡءٖ سَبَبٗا﴾ قال: منازل الأَرْضِ وأعلامها.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ مِن كُلِّ شَيۡءٖ سَبَبٗا﴾ قال: تعليم الألسنة، كان لا يغزو قومًا إلَّا كلَّمهم بلسانهم.

وقال ابن لَهيعة: حدَّثني سالم بن غَيْلان، عن سعيد بن أبي هلال؛ أن معاوية بن أبي سفيان قال لكعب الأحبار: أنتَ تقول: إن ذا القرنين كان يربط خيله بالثُّريا؟ فقال له كعب: إن كنتُ قلتُ ذلك،

---

(١) سقط من (ز).

(٢) ليست في (ز).

(٣) لوحة (٢٠٢ ب).

(٤) في (ز): «ناصحًا لله»، والمثبت كما في «الطبري» وغيره.

(٥) صحيح: رواه ابن جرير (١٦/ ٩) وإسناده صحيح موقوف، ومثله لا يقال بالرأي، وهذا أحسن ما قيل في سبب تسميته.

فإن الله تعالىٰ قال: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾.

وهذا الذي أنكره معاوية رضي الله عنه علىٰ كعب الأحبار هو الصَّواب، والحقُّ مع معاوية في الإنكار؛ فإنَّ معاوية كان يقول عن كعب: «إن كنَّا لنبلُو عليه الكَذِب» يعني: فيما ينقله، لا أنه كان يتعمَّد نقل ما ليس في صحيفته، ولكن الشَّأن في صحيفته، أنَّها من الإسرائيليات التي غالبها[١] مُبَدَّلٌ مُصَحَّفٌ مُحرَّفٌ مُختلَقٌ ولا حاجة لنا مع خبر الله ورسول الله ﷺ إلىٰ شيءٍ منها بالكليَّة، فإنَّه دخل منها علىٰ النَّاس شرٌّ كثيرٌ وفسادٌ عريضٌ.

وتأويل كعب قول الله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ واستشهاده في ذلك علىٰ ما يجده في صحيفته من أنَّه كان يربط خيله بالثُّريَّا -غير صحيح ولا مطابقٍ؛ فإنَّه لا سبيل للبشرِ إلىٰ شيءٍ مِن ذلك، ولا إلىٰ التَّرقِّي في أسباب السَّموات. وقد قال الله في حقِّ بلقيس: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٢٣] أي: ممَّا يُؤْتَىٰ مثلها من الملوك، وهكذا ذو القرنين يسَّر الله له الأسباب؛ أي: الطُّرق والوسائل إلىٰ فتح الأقاليم والرَّساتيق[٢] والبلاد والأراضي وكسر الأعادي، وكبت مُلُوك الأرض، وإذلالِ أهلِ الشِّرك. قد أُوتي مِن كلِّ شيءٍ مما يحتاج إليه مثله سببًا، والله أعلم.

وفي «المختارة» للحافظ الضياء المقدسي، من طريق قتيبة، عن أبي عوانة عن سماك بن حرب، عن حبيب بن حماز قال: كنت عند علي رضي الله عنه وسأله رجلٌ عن ذي القرنين: كيف بلغ المشارق والمغارب؟ فقال: سبحان الله سخَّر له السَّحاب، وقدَّر له الأسباب، وبسط له اليد[٣].

﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾﴾

[قال ابن عبَّاس: ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾ يعني: بالسبب المنزَّل. و][٤] قال مجاهد: ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾: منزلًا وطريقًا ما بين المشرق والمغرب. وفي رواية عن مجاهد: ﴿سَبَبًا﴾ قال: طرفي الأرض[٥]. وقال قتادة: أي أَتْبَعَ منازل الأرض ومعالمها. وقال الضَّحَّاك: ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾ أي: المَنَازِل. وقال سعيد بن جبير في قوله: ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾ قال: علمًا. وهكذا قال عكرمة وعبيد بن يعلىٰ، والسدىٰ. وقال مطر: معالم وآثار كانت قبل ذلك.

وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ﴾ أي: فسلك طريقًا حتىٰ وصل إلىٰ أقصىٰ ما يسلك فيه من الأرض

---

(١) لوحة (٢٠٣ أ).
(٢) الرَّساتيق: جمع رُستَاق، وهي: السواد والقرىٰ.
(٣) رواه في «المختارة» (٤٠٩)، وابن أبي شيبة (٣٢٥٧٨)، وحبيب بن حماد: ذكره البخاري في «الكبير» (٢/ ٣١٥) ولم يذكر فيه جرحًا، وأدخله ابن حبان في «ثقاته» (٤/ ١٦٩)، وقال العِجْلي: كوفي تابعي ثقة. كما في «التعجيل» (ص٨٤).
(٤) ليست في (ز)، والمثبت موافق لما في «الطبري».
(٥) كذا في (ز)، وفي «الطبري» ط. هجر، والذي في ط. الشيخ شاكر: «طريقًا في الأرض».

من ناحية المَغْرِب، وهو مغرب الأرض. وأما الوصول إلىٰ مَغْرِب الشمس من السماء فمتعذِّرٌ، وما يذكره أصحاب القصص والأخبار من أنَّه سار في الأرض مدَّة والشمس تغرب من ورائِهِ فشيءٌ لا حقيقة له. وأكثرُ ذلك من خرافات أهل الكتاب، واختلاق[(١)] زنادقتهم وكذبهم.

وقوله: ﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ أي: رأىٰ الشمس في مَنْظَرِه تغرب في البحر المحيط، وهذا شأن كل مَنِ انتهىٰ إلىٰ ساحله، يراها كأنَّها تغرب فيه، وهي لا تفارق الفَلَكَ[(٢)] الرابع؛ الذي هي مثبتةٌ فيه لا تفارقه.

والحمئة: مشتقَّة علىٰ إحدىٰ القراءتين[(٣)] من «الحمْأة» وهو الطِّين، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنِّي خَالِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٢٨] أي: طين أملس. وقد تقدَّم بيانه.

وقال ابن جرير: حدَّثني يونس، أخبرنا [ابن][(٤)] وهب حدثنىٰ نافع بن أبي نعيم، سمعت عبد الرحمن الأعرج يقول: كان ابن عبَّاس يقول: ﴿فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ ثم فسَّرها: ذات حَمْأة. قال نافع: وسئل عنها كعب الأحبار فقال: أنتم أعلم بالقرآن منِّي، ولكنِّي أجدها في الكتاب تغيب في طينةٍ سوداء[(٥)]. وكذا روىٰ غير واحدٍ عن ابن عبَّاس، وبه قال مجاهد وغير واحدٍ.

وقال أبو داود الطيالسي: حدَّثنا محمَّد بن دينار، عن سعد بن أوس، عن مِصْدَع، عن ابن عبَّاس، عن أبيِّ بن كعب؛ أن النَّبيَّ ﷺ أقرأه ﴿حَمِئَةٍ﴾[(٦)].

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عبَّاس: «وجدها تغرب في عينٍ حَامِيَةٍ» يعني: حارة. وكذا قال الحسن البصرىٰ.

وقال ابن جرير: والصَّواب أنهما قراءتان مشهورتان وأيّهما قرأ القارئ فهو مصيبٌ.

قلت: ولا منافاة بين معنييهما؛ إذ قد تكون حارةً لمجاورتها وَهْج الشمس عند غروبها، وملاقاتها الشُّعاع بلا حائلٍ و﴿حَمِئَةٍ﴾ في ماءٍ وطينٍ أسود، كما قال كعب الأحبار وغيره.

وقال ابن جرير: حدَّثنا محمَّد بن المثنىٰ، حدَّثنا يزيد بن هارون، أخبرنا العوام، حدَّثني مولىٰ لعبد الله بن عمرو، عن عبد الله قال: نظر رسول الله ﷺ إلىٰ الشَّمس حين غابت، فقال: «**فِي نَارِ اللهِ الحَامِيَةِ فِي نَارِ اللهِ الحَامِيَةِ، لَوْلا مَا يَزَعُهَا**[(٧)] **مِنْ أَمْرِ اللهِ، لأَحْرَقَتْ مَا عَلَىٰ الأَرْضِ**»[(٨)].

---

(١) في (ز): واختلاف. (٢) لوحة (٢٠٣ ب).

(٣) متواترة: قَرَأَ (حَمِئَةٍ) نَافِعٌ وَابْنُ كَثِيرٍ وَأَبُو عَمْرٍو وَيَعْقُوبُ وَحَفْصٌ وَوَافَقَهُمُ الْيَزِيدِيُّ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ (حَامِيَةٍ).

(٤) سقط من (ز)، وهو مثبت من «الطبري» وهو عبد الله بن وهب الإمام، وانظر ترجمته في «السير» (١٧/ ٢٣٢).

(٥) رواه الطبري (١٦/ ١١) وانظر: «الأثر» (١٠٦، ١٠٧).

(٦) صحيح: رواه الطيالسي (٥٣٦)، وأبو داود (٣٩٨٦)، والترمذي (٢٩٣٤).

(٧) أي: يمنعها.

(٨) ضعيف: رواه ابن جرير (١٦/ ١٢)، وأحمد (٢/ ٢٠٧)، وفيه جهالة، ورواه أحمد (٢/ ٢٠٧)، وفيه من لم يُسَم.

قلت: ورواه الإمام أحمد، عن يزيد بن هارون. وفي صحَّة رفع هذا الحديث نظر، ولعله من كلام عبد الله بن عمرو، من زاملتيه اللتين وجدهما يوم اليرموك، والله أعلم.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا حجاج بن حمزة، حدَّثنا محمَّد -يعني ابن بشر- حدَّثنا عمرو بن ميمون، أنبأنا ابن حاضر، أن ابن عبَّاس ذكر له أن معاوية بن أبي سفيان قرأ الآية التي في سورة الكهف «تغْرُبُ في عينٍ حاميةٍ» قال ابن عبَّاس: فقلت لمعاوية: ما نقرؤها إلا ﴿حَمِئَةٍ﴾، فسأل معاوية عبد الله بن عمرو كيف تقرؤها: فقال عبد الله: كما قرأتَها. قال ابن عبَّاس: فقلت لمعاوية: في بيتي نزل القرآن؟ فأرسل إلىٰ كعبٍ فقال له: أين تجد الشمس تغرب في التَّوراة؟ [فقال له كعب: سل أهل العربيَّة، فإنَّهم أعلم بها، وأما أنا فإني أجد الشمس تغرب في التَّوراة][1] في ماءٍ وطينٍ، وأشار بيده إلىٰ المغرب. قال ابن حاضر: لو أني عندكما أفدتك بكلام تزدادُ فيه بصيرةً في «حمئةٍ». قال ابن عبَّاس: وإذًا[2] ما هو؟ قلت: فيما يؤثر من قول تُبَّع، فيما ذكر به ذَا القرنين في تخلُّقِه بالعلم واتِّباعه إيَّاه:

بَلَــغَ المَـشَارِقَ وَالمَغَــارِبَ يَبْتَغِــي ... أَسْبَابَ أَمْــرٍ مِــنْ حَكِــيمٍ مُرْشِــدِ
فَــرَأَىٰ مَغِيــبَ[3] الــشَّمْسِ عِنْـدَ غُرُوبِهَــا ... فِــي عَــيْنِ ذِي خُلَــبٍ وَثَــأْطٍ حَرْمَــدِ

قال ابن عبَّاس: ما الخُلَب؟ قلت: الطين بكلامهم. يعنىٰ بكلام حِمْيَر. قال: ما الثَّاط؟ قلت: الحمأة. قال: فما الحرْمَد؟ قلت: الأسود. قال: فدعا ابن عبَّاس رجلًا أو غلامًا فقال: اكتب ما يقول هذا الرَّجل[4].

وقال سعيد بن جبير: بينا ابن عبَّاس يقرأ سورة الكهف فقرأ: ﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ فقال كعب: والَّذي نفسُ كعبٍ بيده، ما سمعت أحدًا يقرؤها كما أنزلت في التوراة غير ابن عبَّاس، فإنَّا نجدها في التَّوراة: تغرُبُ في مدرةٍ سوداءَ[5].

وقال أبو يعلىٰ الموصلي: حدَّثنا إسحاق بن أبي إسرائيل، حدَّثنا هشام بن يوسف قال: في تفسير ابن جريج ﴿وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا﴾ قال: مدينة لها اثنا عَشَرَ ألفَ بابٍ، لولا أصوات أهلها لسَمِعَ النَّاس وُجُوب[6] الشَّمس حين تجب[7].

---

(١) سقط من (ز)، وهو مثبت من «تفسير ابن أبي حاتم». (٢) لوحة (٢٠٤ أ).

(٣) في (ز): «فوجد مغار»، والمثبت موافق لما في «ابن أبي حاتم» و«الدر المنثور».

(٤) حسن: رواه ابن أبي حاتم (١٢٩٤٧) (١٢٩٥٤)، ورجاله ثقات عدا شيخ المصنِّف فلم أقف علىٰ ترجمته، لكن رواه الطبري (١٦/ ١١) من طريق أخرىٰ عن عثمان بن حاضر به، وإسناده حسن.
والأثر زاد السيوطي عزوه في «الدر المنثور» (٥/ ٤٥٠) إلىٰ عبد الرزاق وسعيد بن منصور وابن المنذر.

(٥) عزاه السُّيوطي في «الدُّر المنثور» (٥/ ٤٥٠) إلىٰ سعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبي حاتم (١٢٩٥٠).

(٦) أي: سقوطها مع المغيب.

(٧) ورد في (ز) بعد هذه الكلمة: «فحدث الحسن عن سمرة قال: قال النبي ﷺ: سِترًا ... الشمس». وسيأتي بعد بنصه من قول ابن جريج، وبلفظ آخر من رواية الحسن عن سمرة. والذي وجدته في «ابن أبي حاتم» الحديث الأول من رواية ابن جريج عن الحسن عن سمرة، والحديث الثاني من رواية الطيالسي عن الحسن عن سمرة وسأشير إلىٰ كل حديثٍ في موضعه إن شاء الله، وانظر: «ابن أبي حاتم» و«الدر المنثور» (٩/ ٦٧٠).

وقوله: ﴿وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا﴾ أي: أمَّةً من الأمم، ذكروا أنَّها كانت أمةً عظيمةً من بني آدم.

وقوله: ﴿قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ معنىٰ هذا: أن الله تعالىٰ مكَّنه منهم وحكَّمه فيهم، وأظفره بهم وخيَّره؛ إن شاء قتل وسبىٰ، وإن شاء منَّ أو فدىٰ. فعُرِفَ عدله وإيمانه فيما أبداه عدله، وبيانه في قوله: ﴿أَمَّا مَن ظَلَمَ﴾ أي: من استمرَّ علىٰ كفرِهِ وشركِهِ بربِّه ﴿فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ﴾ قال قتادة: بالقتل. وقال السُّدِّي: كان يحمِي لهم بقر النُّحاس ويضعهم فيها حتىٰ يذوبُوا. وقال وهب بن منبِّه: كان يسلط الظُّلْمَة، فتدخُلُ أفواههم وبيوتهم، وتغشاهم من جميع جهاتهم، والله أعلم.

وقوله: ﴿ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا﴾ أي: شديدًا بليغًا وجيعًا أليمًا، وفيه إثبات المعاد والجزاء.

وقوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ﴾ أي: تابعنا علىٰ ما ندعوه إليه من عبادةِ الله وحده لا شريك له ﴿فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي: في الدَّار الآخرة عند الله ﷻ، ﴿وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ قال مجاهد: معروفًا.

﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ(١) وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾﴾

يقول: ثم سلك طريقًا فسار من مغرب الشمس إلىٰ مطلعها، وكان كُلَّما مرَّ بأُمَّةٍ قهرهم وغلبهم ودعاهم إلىٰ الله ﷻ فإن أطاعُوهُ وإلَّا أذلَّهم وأرغم آنافهم، واستباح أموالهم، وأمْتِعَتَهم واستخدم مِن كلِّ أمَّةٍ ما يستعين به مع جيوشه علىٰ أهل الإقليم المتاخِمِ لهم.

وذُكر في أخبار بني إسرائيل أنَّه عاش ألفًا وستمائة سنة يجوبُ الأرض طولها والعرض حتَّىٰ بلغ المشَارِق والمغارِبَ. ولما انتهىٰ إلىٰ مطلع الشَّمس من الأرض كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ﴾ أي: أمة ﴿لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾ أي: ليس لهم بناءٌ يُكِنُّهُم(٢)، ولا أشجار تظلُّهم وتسترهم من حرِّ الشَّمس.

قال سعيد بن جبير: كانوا حُمْرًا قصارًا، مساكنهم الغِيران(٣)، أكثرُ معيشتِهِم من السَّمك.

وقال أبو داود الطيالسي: حدَّثنا سهل بن أبي الصلت، سمعت الحسن وسُئل عن قوله تعالىٰ: ﴿لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾ قال: إن أرضهم لا تحملُ البناء فإذا طلعت الشمس تغوروا في المياه، فإذا غربت خرجوا يتراعون كما ترعىٰ البهائم. قال الحسن: هذا حديث سمرة(٤)(٥).

وقال قتادة: ذُكر لنَا أنَّهم بأرضٍ [لا يثبت لهم فيها شيءٌ](٦)، فهم إذا طلعت الشَّمس

---

(١) لوحة (٢٠٤ ب).

(٢) أي: يسترهم.

(٣) الغيران: جمع غار، وهو الكهف.

(٤) هذا هو الحديث الثاني الذي أشرنا إليه.

(٥) رواه الطبري (١٦/ ١٤) وإسناده حسن إلىٰ الحسن البصري، لكنَّه لا يصلح للاستدلال لعدم رفعه إلىٰ النَّبيِّ ﷺ، وأمَّا كونه وَصَلَه إلىٰ سمرة فأحاديث الحسن عن سمرة منقطعة، والأثر رواه أبو الشيخ في «العظمة» (٩٧٠) وزاد السيوطي عزوه في «الدر المنثور» (٥/ ٤٥٤) إلىٰ البزَّار في «أماليه» وأبي المنذر وابن أبي حاتم (١٢٩٦١).

(٦) في (ز): «لا تنبت لهم شيئًا»، والمثبت كما في «ابن أبي حاتم»، و«الدر المنثور».

[دخلوا][(١)] في أسراب، حتىٰ إذا زالت الشَّمس خرجوا إلىٰ حروثهم ومعايشهم.

وعن سلمة بن كُهَيْل أنَّه قال: ليس لهم أكنان[(٢)]، إذا طلعت الشَّمس طلعت عليهم، فلأحدهم أُذُنان يفترِشُ إحداهما ويلبس الأخرىٰ.

قال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن قتادة في قوله: ﴿وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾ قال: هم الزنج.

وقال ابن جريج في قوله: ﴿وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾ قال: لم يبنوا فيها بناءً قط، ولم يُبْنَ عليهم فيها بناء قط، كانوا إذا طلعت الشمس دخلوا أسرابًا لهم[(٣)] حتىٰ تزول الشمس[(٤)]، أو دخلوا البحر؛ وذلك أن أرضهم ليس فيها جبل، جاءهم جيش مرَّة فقال لهم أهلها: لا تطلعنَّ عليكم الشَّمس وأنتم بها. قالوا: لا نبرح حتىٰ تطلع الشمس، ما هذه العظام؟ قالوا: هذه جِيَفُ جيشٍ طلعت عليهم الشمس هاهنا فماتوا. قال: فذهبوا هاربين في الأرض.

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾ قال مجاهد، والسُّدِّي: علمًا؛ أي: نحن مطَّلِعُون علىٰ جميع أحوالِه وأحوالِ جيشه، لا يخفىٰ علينا منها شيء، وإن تفرَّقت أممُهم وتقطَّعت بهم الأرض، فإنه تعالىٰ: ﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ [آل عمران: ٥].

﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ[(٥)] مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾﴾

يقول تعالىٰ مخبرًا عن ذِي القرنين: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾ أي: ثم سلك طريقًا من مشارق الأرض. ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ﴾ وهما جبلان متناوحان[(٦)] بينهما ثُغْرةٌ يخرج مِنْهَا يأجوج ومأجوج علىٰ بلاد الترك، فيَعيثُون فيهم فسادًا، ويهلكون الحرث والنَّسل.

ويأجوج ومأجوج من سلالة آدم ﷺ كما ثبت في «الصحيحين»: «إِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ يَقُولُ: يَا آدَمُ. فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ. فَيَقُولُ: ابْعَثْ بَعْثَ النَّارِ. فَيَقُولُ: وَمَا بَعْثُ النَّارِ؟ فَيَقُولُ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعُمِائَةٍ وَتِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ إِلَىٰ النَّارِ، وَوَاحِدٌ إِلَىٰ الجَنَّةِ؟ فَحِينَئِذٍ يَشِيبُ الصَّغِيرُ، وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا، فَيَقَالُ: إِنَّ فِيكُمْ أُمَّتَيْنِ، مَا كَانَتَا فِي شَيْءٍ إِلَّا كَثَّرَتَاهُ: يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ»[(٧)].

---

(١) سقط من (ز)، وهو مثبت من «ابن أبي حاتم» و«الدر المنثور».

(٢) الأكنان: جمع كِن، وهو: البيت والوقاء.

(٣) في (ز): «أسراباتهم»، والمثبت كما في «ابن أبي حاتم».

(٤) هذا هو الحديث الأول الذي أشرنا إليه.

(٥) لوحة (٢٠٥ أ).

(٦) أي: متقابلان.

(٧) البخاري (٦٥٣٠)، ومسلم (٢٢٢).

وقد حكىٰ النَّووي رَحِمَهُ اللَّهُ في «شرح مسلم» عن بعض النَّاس: أنَّ يأجوج ومأجوج خُلِقوا مِن مَنِيٍّ خرج من آدم فاختَلَط بالتُّراب، فخلقوا من ذلك؛ فعلىٰ هذا يكونون مخلوقين من آدم، وليسوا مِن حوَّاء؛ وهذا قولٌ غريبٌ جدًّا !، ثم لا دليل عليه لا من عقلٍ ولا من نقلٍ، ولا يجوز الاعتماد هاهنا علىٰ ما يحكيه بعض أهل الكتاب؛ لما عندهم من الأحاديث المُفتعلة، والله أعلم.

وفي «مسند الإمام أحمد»، عن سَمُرَة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «**وَلَدُ نُوحٍ ثَلَاثَةٌ: سَامُ أَبُو العَرَبِ، وَحَامُ أَبُو السُّودَانِ، وَيَافِثُ أَبُو التُّرْكِ**»(١). قال بعض العلماء: هؤلاء مِن نسل يافث أبي التُّرك، قال: إنَّما سُمُّوا هؤلاء تركًا؛ لأنَّهم تُركوا من وراء السَّدِّ من هذه الجهة، وإلا فهم أقرباء أولئك، ولكِن كان في أولئك بغيٌ وفسادٌ وجراءةٌ. وقد ذكر ابن جرير هاهنا عن وهب بن منبه أثرًا طويلًا عجيبًا في سير ذي القرنين، وبنائه السَّدَّ، وكيفيَّة ما جرىٰ له، وفيه طولٌ وغرابةٌ ونكارةٌ في أشكالهم وصفاتهم، [وطولهم](٢) وقصر بعضهم، وآذانهم. وروىٰ ابن أبي حاتم أحاديث غريبة في ذلك لا تصح أسانيدها، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ أي: لاستعجَام كلامِهم وبُعْدِهم عن النَّاس.

﴿قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا﴾ قال ابن جريج عن عطاء، عن ابن عبَّاس: أجرًا عظيمًا؛ يعني: أنهم أرادوا أن يجمعوا له مِن بينهم مالًا يعطونَهُ إيَّاه، حتىٰ يجعل بينهم وبينهم سدًّا، فقال ذو القرنين بعفَّةٍ، وديانةٍ، وصلاحٍ، وقصدٍ للخَيْر: ﴿مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾ أي: إن الذي أعطاني الله من الملك(٣) والتَّمكين خيرٌ لي مِن الَّذِي تجمعونه، كما قال سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ [النمل: ٣٦]، وهكذا قال ذو القرنين: الَّذي أنا فيه خيرٌ من الذي تبذلونه، ولكن ساعدوني ﴿بِقُوَّةٍ﴾ أي: بعملكم وآلات البناء، ﴿أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ۝٩٥ آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ﴾ والزُّبَرُ: جمع زُبْرَة، وهي القطعة منه؛ قاله ابن عبَّاس، ومجاهد، وقتادة. وهي كاللَّبِنة، يقال: كل لبنةٍ [زنة](٤) قنطار بالدمشقي، أو تزيد عليه.

﴿حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ﴾ أي: وضع بعضه علىٰ بعض من الأَسَاسِ حتىٰ إذا حاذىٰ به رءوس الجبلين طولًا وعرضًا، واختلفوا في مساحة عرضه وطوله علىٰ أقوال. ﴿قَالَ انفُخُوا﴾ أي: أجج عليه النار حتىٰ صار كله نارًا، ﴿قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ قال ابن عبَّاس، ومجاهد، وعكرمة، والضَّحَّاك، وقتادة، والسُّدِّي: هو النحاس. وزاد بعضهم: المذاب. ويستشهد بقوله تعالىٰ: ﴿وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ﴾ [سبأ: ١٢]؛ ولهذا يشبه بالبُرْدِ المحبَّر(٥).

قال ابن جرير: حدَّثنا بشر، حدَّثنا يزيد، حدَّثنا سعيد، عن قتادة قال: ذُكر لنا أن رجلًا قال: يا رسول الله، قد رأيتُ سدَّ يأجوج ومأجوج، قال: «انْعَتْهُ لِي» قال: كالبرد المحبر، طريقة سوداء.

---

(١) ضعيف: رواه أحمد (٥/ ٩)، والترمذي (٣١٣٠)، (٣٩٣١)، والحاكم (٢/ ٥٤٦) وصححه، ووافقه الذهبي، وفيه انقطاع بين الحسن وسمرة، وضعَّفه الشيخ الألباني كما في «ضعيف الجامع» (٣٢١٤).

(٢) ليست في (ز). (٣) لوحة (٢٠٥ ب).

(٤) ليست في (ز). (٥) **البُرد المحبر**: الثوب الملون.

وطريقة حمراء. قال: «قَدْ رَأَيْتَهُ». هذا حديث مرسل(١).

وقد بعث الخليفة الواثق في دولته بعض أمرائِهِ، ووجَّه معه جيشًا سرية؛ لينظروا إلىٰ السد ويعاينوه وينعتوه لَهُ إذا رجعوا. فتوصلوا من بلادٍ إلىٰ بلادٍ، ومن مُلْكٍ إلىٰ مُلْكٍ، حتىٰ وصلوا إليه، ورأوا بناءه من الحَدِيدِ ومن النُّحاس، وذكروا أنَّهم رأَوْا فيه بابًا عظيمًا، وعليه أقفالٌ عظيمةٌ، ورأوا بقيَّة اللَّبِن والعمل في برجٍ هناك. وأن عنده حرسًا من الملوك المتاخمة له، وأنه مُنِيفٌ عالٍ، شاهقٌ، لا يُستطاع ولا ما حوله من الجبال. ثم رجعوا إلىٰ بلادهم، وكانت غيبتهم أكثر من سنتين، وشاهدوا أهوالًا وعجائب.

ثم قال الله تعالىٰ:

﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾﴾

يقول تعالىٰ مخبرًا عن يأجوج ومأجوج أنَّهم ما قَدرُوا علىٰ أن يصعدوا فوق هذا السَّدِّ، ولا قدروا علىٰ نَقْبِه من أسفله. ولما كان الظهور عليه أسهل من نقبه قابل كُلًّا بما يناسبه؛ فقال: ﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا﴾؛ وهذا دليلٌ علىٰ أنهم لم يقدروا علىٰ نقبه، ولا علىٰ شيءٍ منه.

فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد: حدَّثنا روح، حدَّثنا سعيد بن أبي عَرُوبَة، عن قتادة، حدَّثنا أبو(٢) رافع، عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ لَيَحْفِرُونَ السَّدَّ كُلَّ يَوْمٍ، حَتَّىٰ إِذَا كَادُوا يَرَوْنَ شُعَاعَ الشَّمْسِ قَالَ الَّذِي عَلَيْهِمْ(٣): ارْجِعُوا فَسَتَحْفِرُونَهُ غَدًا، فَيَعُودُونَ إِلَيْهِ كَأَشَدِّ مَا كَانَ، حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَتْ مُدَّتُهُمْ، وَأَرَادَ اللهُ أَنْ يَبْعَثَهُمْ عَلَىٰ النَّاسِ [حَفَرُوا، حَتَّىٰ إِذَا كَادُوا يَرَوْنَ شُعَاعَ الشَّمْسِ](٤) قَالَ الَّذِي عَلَيْهِمْ: ارْجِعُوا فَسَتَحْفِرُونَهُ غَدًا إِنْ شَاءَ اللهُ، وَيَسْتَثْنِي(٥)، فَيَعُودُونَ إِلَيْهِ وَهُوَ كَهَيْئَتِهِ حِينَ تَرَكُوهُ، فَيَحْفِرُونَهُ وَيَخْرُجُونَ عَلَىٰ النَّاسِ، فَيُنَشِّفُونَ(٦) المِيَاهَ، وَيَتَحَصَّنُ النَّاسُ مِنْهُمْ فِي حُصُونِهِمْ، فَيَرْمُونَ بِسِهَامِهِمْ إِلَىٰ السَّمَاءِ، [فَتَرْجِعُ وَعَلَيْهَا كَهَيْئَةِ الدَّمِ، فَيَقُولُونَ: قَهَرْنَا أَهْلَ الأَرْضِ وَعَلَوْنَا أَهْلَ السَّمَاءِ](٧). فَيَبْعَثُ اللهُ عَلَيْهِمْ نَغَفًا(٨) فِي أَقْفَائِهِمْ، فَيَقْتُلُهُمْ بِهَا». قال رسول الله ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّ دَوَابَّ الأَرْضِ لَتَسْمَنُ، وَتَشْكَرُ شَكَرًا(٩) مِنْ لُحُومِهِمْ وَدِمَائِهِمْ»(١٠).

---

(١) مرسل: رواه ابن جرير (١٦/ ٢٣). وزاد السيوطي عزوه (٥/ ٤٥٨) إلىٰ ابن مردويه.

(٢) لوحة (٢٠٦ أ).

(٣) سقط من (ز)، وهو مثبت من «المسند».

(٤) أي: الذي هو أمير عليهم.

(٥) أي يقول: إن شاء الله.

(٦) أصلُ النَّشْفِ: دخول الماء في الأرض والثَّوب، يقال: نَشِفَت الأرضُ الماءَ تَنْشَفُه نَشْفًا: شَرِبَتْه، ونَشَفَ الثوبُ العَرَقَ وتَنَشَّفَه. «النهاية».

(٧) سقط من (ز)، وهو مثبت من «المسند».

(٨) النَّغَف: جمع نغفة، وهو: دود يكون في أنوف الإبل والغنم.

(٩) شكرت الناقة - من باب: سمع -: امتلأ ضرعها لبنًا، والدابة: سمنت.

(١٠) رواه أحمد (٣/ ٥١٠)، والترمذي (٣١٥٣)، وابن ماجه (٤٠٨٠) وقال: حسن غريب، وصححه الحاكم =

ورواه أحمد أيضًا عن حسن -هو ابن موسىٰ الأشيب- عن سفيان، عن قتادة به. وكذا رواه ابن ماجه، عن أزهر بن مروان، عن عبد الأعلىٰ، عن سعيد بن أبي عَرُوبَة، عن قتادة قال: حدث أبو رافع. وأخرجه الترمذي، من حديث أبي عوانة، عن قتادة. ثم قال: غريبٌ لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

وهذا إسناده جيدٌ قويٌّ، ولكن في رفعه نكارةٌ؛ لأن ظاهر الآية يقتضي أنَّهم لم يتمكَّنُوا من ارتقائِهِ ولا مِن نقبِهِ، لإحكام بنائِهِ وصلابتِهِ وشدتِهِ. ولكن هذا قد روي عن كعب الأحبار: أنهم قبل خروجهم يأتونَه فيلحسونه حتىٰ لا يبقىٰ منه إلا القَلِيل، فيقولون: غدًا نفتحه. فيأتون من الغَدِ وقد عادَ كما كانَ، فيَلْحَسُونَه حتىٰ لا يبقىٰ منه إلَّا القليل، فيقولون كذلك، ويصبحون وهو كمَا كَانَ، فيَلْحَسُونه ويقولون: غدًا نفتحه. ويلهمون أن يقولوا: إن شاء الله، فيصبحون وهو كما فارقوه، فيفتحونه. وهذا مُتَّجِهٌ، ولعل أبا هريرة تلقَّاه من كعبٍ. فإنه كثيرًا ما كان يجالسه ويحدِّثه، فحدَّث به أبو هريرة، فتوَهَّم بعضُ الرُّوَاة عنه أنَّه مرفوع، فرفعه، والله أعلم.

ويؤكد ما قلناه -من أنهم لم يتمكنوا من نقبه ولا نقب شيء منه، ومن نكارة هذا المرفوع- قول الإمام أحمد:

حدَّثنا سفيان، عن الزهري، عن عروة، عن زينب [بنت أبي سلمة، عن حبيبة بنت أم حبيبة بنت أبي سفيان، عن أمِّها أم حبيبة، عن زينب][1] بنت جحش زوج النَّبيِّ ﷺ -قال سفيان: أربع نسوة- قالَتْ: استيقظَ النَّبيُّ ﷺ من نومه. وهو محمرٌّ وجهُهُ، وهو يقول: «**لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ! وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدِ اقْتَرَبَ! فُتِحَ اليَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هَذَا**». وحَلَّق. قلت: يا رسول الله، أَنَهْلِكُ وفينا الصَّالحون؟ قال: «**نَعَمْ إِذَا كَثُرَ الخَبَثُ**[2]»[3].

هذا حديثٌ صحيحٌ، اتَّفق البخاري ومسلم علىٰ إخراجه، من حديث الزُّهري، ولكن سقط في رواية البخاري ذكر حبيبة، وأثبتها مسلم. وفيه أشياء عزيزة نادرة قليلة الوقوع في صناعة الإسناد؛ منها رواية الزُّهري عن عروة[4]، وهما تابعيان، ومنها اجتماع أربعِ نسوةٍ في سنده؛ كلهن يروي بعضهنَّ عن بعضٍ. ثمَّ كلٌّ منهنَّ صحابيةٌ، ثم ثِنْتَان رَبِيبَتَان وثنتان زوجتان رضي الله عنهنَّ.

وقد رُوِي نحو هذا عن أبي هريرة أيضًا، فقال البزار: حدَّثنا محمَّد بن مرزوق، حدَّثنا مُؤَمَّل بن إسماعيل، حدَّثنا وُهَيْب، عن ابن طاوس، عن أبيه، عن أبي هريرة، عن النَّبيِّ ﷺ أنه قال: «**فُتِحَ اليَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هَذَا**» وعقد التِّسعين. وأخرجه البخاري ومسلم[5] من حديث وهيب به.

= (٤/ ٥٣٤) علىٰ شرط الشيخين، وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٧٣٥)، وورد فيه علىٰ استنكار المصنف له، وقد ضعفه بعض المحققين في بحثٍ مطولٍ وهو الدكتور حاكم المطيري (انظر موقع الشيخ حاكم المطيري).

(١) سقط من (ز)، وهو مثبت من «المسند».
(٢) **الخبث**: الفسوق والفجور.
(٣) البخاري (٣٣٤٦) (٣٥٩٨) (٧٠٥٩)، ومسلم (٢٨٨٠).
(٤) لوحة (٢٠٦ ب).
(٥) البخاري (٣٣٤٧)، ومسلم (٢٨٨١).

وقوله: ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي﴾ أي: لما بناه ذو القرنين ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي﴾ أي: بالناس حيث جعل بينهم وبين يأجوج ومأجوج حائلًا يمنعهم من العيث في الأرض والفَساد. ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي﴾ أي: إذا اقترب الوعدُ الحقُّ ﴿جَعَلَهُ دَكَّاءَ﴾ أي: ساوَاهُ بالأرضِ. تقول العرب: ناقةٌ دكَّاء: إذا كان ظهرها مستويًا لا سَنام لها. وقال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا﴾ [الأعراف: ١٤٣] أي: مساويًا للأرضِ.

وقال عكرمة في قوله: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ﴾ قال: طريقًا كما كانَ.

﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ أي: كائنًا لا محالة.

وقوله: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ أي: الناس يومئذ؛ أي: يوم يُدَكُّ هذا السد ويخرج هؤلاء فيَمُوجُون في الناس ويُفْسدون علىٰ النَّاس أموالهم ويُتْلِفون أشياءهم، وهكذا قال السُّدِّي في قوله: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ قال: ذاك حين يخرجون علىٰ النَّاس. وهذا كله قبل يوم القيامة وبعد الدَّجَّال، كما سيأتي بيانه -إن شاء الله تعالىٰ- عند قوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ﴾ [الأنبياء: ٩٦، ٩٧]، وهكذا قال هاهنا: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ۖ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾ قال ابن زيد في قوله: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ قال: هذا أوَّل يوم القيامة، ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ علىٰ أثر ذلك ﴿فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾.

وقال آخرون: بل المراد بقوله: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ أي: يوم القيامة يختلط الإنس والجن.

وروىٰ ابن جرير، عن محمَّد بن حميد، عن يعقوب القُمِّي، عن هارون بن عنترة، عن شيخ من بني فَزارة في قوله: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ قال: إذا ماج الإنس والجن قال إبليس: أنا أعلم لكم علم هذا الأمر. فيظْعَنُ إلىٰ المشرق فيجد الملائكة قد بطنوا[1] الأرض، ثم يظعن إلىٰ المغرب فيجد الملائكة بطنوا الأرض فيقول: «ما من محيصٍ». ثم يظعن يمينًا وشمالًا إلىٰ أقصىٰ الأرض فيجد الملائكة[2] بطنوا الأرض فيقول: «ما من محيصٍ» فبينما هو كذلك، إذ عرض له طريق كالشِّراك، فأخذ عليه هو وذريته، فبينما هم عليه إذ هجموا علىٰ النَّار، فأخرج الله خازنًا من خُزَّانِ النَّار، فقال: يا إبليس، ألم تكن لك المنزلة عند ربك؟! ألم تكن في الجنان؟! فيقول: ليس هذا يوم عتابٍ، لو أنَّ الله فرض عليَّ فريضةً لعبدته فيها عبادةً لم يعبده مثلها أحدٌ من خلقه. فيقول: فإنَّ الله قد فرض عليك فريضةً. فيقول: ما هي؟ فيقول: يأمرك أن تدخل النار. فيتلكأ عليه، فيقول به وبذُرِيَّته بجناحيه فيقذفهم في النار. فتزفر النَّار زفرةً لا يبقىٰ ملكٌ مقربٌ ولا نبيٌّ مُرسلٌ إلا جثا لركبتيه[3]. وهكذا رواه ابن أبي حاتم من حديث يعقوب القمي به. ثم رواه من وجه آخر عن يعقوب، عن هارون بن عنترة، عن أبيه، عن ابن عبَّاس:

---

(١) بطنت الوادي: دخلته. (٢) لوحة (٢٠٧ أ).

(٣) رواه الطبري (١٦/ ٢٨- ٢٩)، وابن أبي حاتم (١٢٩٨٩)، وفيه محمَّد بن حميد الرازي: حافظ ضعيف، وكان ابن معين حسن الرأي فيه، وجهالة الشَّيخ من بني فزارة، ثم إن هذا الأثر لا يصلح الاعتماد عليه؛ لأنَّه لم يرفع إلىٰ النَّبيِّ ﷺ.

﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ قال: الجن والإنس، يموج بعضهم في بعض[(١)].

وقال الطبراني: حدَّثنا عبد الله بن محمَّد بن العبَّاس الأصفهاني، حدَّثنا أبو مسعود أحمد بن الفرات، حدَّثنا أبو داود الطيالسي، حدَّثنا المغيرة بن مسلم، عن أبي إسحاق، عن وهب بن جابر، عن عبد الله بن عمرو، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِنْ وَلَدِ آدَمَ، وَلَوْ أُرْسِلُوا لأَفْسَدُوا عَلَىٰ النَّاسِ مَعَايِشَهُمْ، وَلَنْ يَمُوتَ مِنْهُمْ رَجُلٌ إِلَّا تَرَكَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ أَلْفًا فَصَاعِدًا، وَإِنَّ مِنْ وَرَائِهِمْ ثَلاثَ أُمَمٍ: تَاوِيلَ، وَتَارِيسَ، وَمَنْسَكَ**»[(٢)]. هذا حديث غريب، بل منكر ضعيف.

وروىٰ النسائي من حديث شعبة عن النعمان بن سالم، عن بن عمرو بن أوس[(٣)]، عن أبيه، عن جده أوس بن أبي أوس مرفوعًا: «**إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ لَهُمْ نِسَاءٌ، يُجَامِعُونَ مَا شَاءُوا، وَشَجَرٌ يُلَقِّحُونَ مَا شَاؤُوا، وَلا يَمُوتُ مِنْهُمْ رَجُلٌ إِلَّا تَرَكَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ أَلْفًا فَصَاعِدًا**»[(٤)].

وقوله: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾: والصُّور كما جاء في الحديث: «**قَرْنٌ يُنْفَخُ فيه**» والذي يَنفُخ فيه إسرافيل عَلَيْهِ السَّلَامُ كما قد تقدَّم في الحديث بطوله[(٥)]، والأحاديث فيه كثيرةٌ.

وفي الحديث عن عطية، عن ابن عبَّاس وأبي سعيد مرفوعًا: «**كَيْفَ أَنْعَمُ**[(٦)]**، وَصَاحِبُ القَرْنِ قَدْ الْتَقَمَ القَرْنَ، وَحَنَىٰ جَبْهَتَهُ**[(٧)] **وَاسْتَمَعَ مَتَىٰ يُؤْمَرُ**». قالوا: كيف نقول؟ قال: «**قُولُوا: حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ، عَلَىٰ اللهِ تَوَكَّلْنَا**»[(٨)].

وقوله ﴿فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا﴾ أي: أحضرنا الجميع للحساب ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الواقعة: ٤٩، ٥٠]، ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٧].

﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾ أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن يَتَّخِذُوا۟ عِبَادِي مِن دُونِيٓ[(٩)] أَوْلِيَآءَ إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾﴾

يقول تعالىٰ مخبرًا عمَّا يفعله بالكفار يوم القيامة: أنَّه يعرض عليهم جهنَّم؛ أي: يُبرزها لهم ويُظهرها،

---

(١) رواه ابن أبي حاتم (٢٩٩١)، ولم يذكر أول السند.

(٢) رواه الطبراني في «الأوسط» (٨/ ٢٦٧)، والطيالسي (٢٢٨٢)، وابن عساكر (٢/ ٢٣٢)، وابن جرير (١٦/ ٨٨)، وفيه وهب بن جابر، قال ابن المديني: مجهول، وقال الذهبي: لا يكاد يعرف تفرد عنه أبو إسحاق. وضعفه المصنف بقوله: غريب، بل منكر ضعيف، وقال الألباني في «الضعيفة» (٤١٤٢): منكر.

(٣) كذا في (ز)، وهو عثمان بن عمرو بن أوس بن أبي أوس. وانظر: «معاني الأخبار» للعيني (٥/ ٣٦٨).

(٤) **ضعفه الألباني**: رواه النسائي في «الكبرىٰ» (١١٣٣٤)، وانظر: «ضعيف الجامع» (٢٠٢٧)، و«السلسلة الضعيفة» (٣٢٠٩).

(٥) تقدَّم تخريجه. انظر تفسير الآية (٩٧، ٩٨) من سورة البقرة.

(٦) أنعم: أي أفرح وأتنعم.

(٧) حنىٰ جبهته: أمالها، وهو كناية عن المبالغة في التوجه لإصغاء السمع.

(٨) **صحيح**: أما حديث ابن عباس، فإسناده ضعيف، وأما حديث أبي سعيد فإسناده صحيح وللحديث شواهد أخرىٰ، وقد تقدم تخريجه، وشواهده في سورة آل عمران الآية (١٧٣).

(٩) لوحة (٢٠٧ ب).

ليرَوْا ما فيها من العذاب والنَّكال قبل دخولها، ليكون ذلك أبلغ في تعجيل الهَمِّ والحزن لهم.

وفي «صحيح مسلم»، عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «يُؤْتَىٰ بِجَهَنَّمَ تُقَادُ يَوْمَ القِيَامَةِ بِسَبْعِينَ أَلْفَ زِمَامٍ، مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ [يَجُرُّونَهَا][(١)]»[(٢)].

ثم قال مخبرًا عنهم: ﴿ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكْرِي﴾ أي: تعامَوا وتغافَلُوا وتصامُّوا عن قبول الهُدَىٰ واتِّباع الحق، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ [الزخرف:٣٦] وقال هاهنا: ﴿وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ أي: لا يعقلون عن الله أمرَهُ ونهيَهُ.

ثم قال: ﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن يَتَّخِذُوا۟ عِبَادِي مِن دُونِيٓ أَوْلِيَآءَ﴾ أي: اعتقدوا أنَّهم يصحُّ لهم ذلك، وينتفعون بذلك؟ ﴿كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨٢]؛ ولهذا أخبر أنه قد أعدَّ لهم جهنَّم يوم القيامة منزلًا.

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا۟ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾﴾

قال البخاري: حدَّثنا محمَّد بن بشار، حدَّثنا محمَّد بن جعفر، حدَّثنا شعبة، عن عَمْرو، عن مُصْعَب قال: سألت أبي - يعني سعد بن أبي وقاص -: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا﴾ أهم الحَرُورية؟ قال: لا، هُم اليهود والنَّصارىٰ؛ أمَّا اليهود فكذَّبوا محمَّدًا ﷺ، وأمَّا النَّصارىٰ كفروا بالجنَّة، وقالوا: لا طعام فيها ولا شراب. والحرورية الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه. وكان سعد رضي الله عنه يُسمِّيهم الفاسقين[(٣)].

وقال علي بن أبي طالب والضَّحَّاك، وغير واحدٍ: هم الحرورية.

ومعنىٰ هذا عن علي رضي الله عنه: أنَّ هذه الآية الكريمة تشمل الحروريَّة كما تشمل اليهود والنَّصارىٰ وغيرهم، لا أنَّها نزلت في هؤلاء علىٰ الخصوص ولا هؤلاء بل هي أعم من هذا؛ فإن هذه الآية مكيَّةٌ قبل خطاب اليهود والنَّصارىٰ، وقبل وجود الخوارج بالكليَّة، وإنَّما هي عامَّةٌ في كل مَن عبد الله علىٰ غيرِ طريقةٍ مرضيَّةٍ يحسب أنَّه مصيبٌ فيها، وأنَّ عمله مقبولٌ، وهو مخطئٌ، وعمله مردودٌ، كما قال تعالىٰ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾ [الغاشية: ٢-٤] وقوله تعالىٰ: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ[(٤)] فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣] وقال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾ [النور: ٣٩].

---

(١) سقط من (ز)، وهو مثبت من «مسلم».
(٢) مسلم (٢٨٤٢)، وثبت موقوفًا أيضًا علىٰ ابن مسعود، ورواه الترمذي (٢٥٧٦)، والطبري (٣٠/ ١٨٠).
(٣) البخاري (٤٧٢٨)، والنسائي في «الكبرىٰ» (١١٣١٣).
(٤) لوحة (٢٠٨ أ).

وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم﴾ أي: نخبركم ﴿بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾؟ ثم فسرهم فقال: ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: عملوا أعمالًا باطلةً على غيرِ شريعةٍ مشروعةٍ مرضيَّةٍ مقبولةٍ، ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ أي: «يعتقدون أنَّهم على شيءٍ، وأنَّهم مقبولون محبوبونَ».

وقوله: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ﴾ أي: جحَدُوا آيات الله في الدُّنيا، وبراهينه الَّتي أقام على وحدانيَّته، وصدق رسله، وكذَّبوا بالدَّار الآخرة، ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ أي: لا نُثْقِل موازينهم؛ لأنَّها خاليةٌ عن الخير.

قال البخاري: حدَّثنا محمَّد بن عبد الله، حدَّثنا سعيد بن أبي مريم، أخبرنا المغيرة، حدَّثني أبو الزِّناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**إِنَّهُ لَيَأْتِي الرَّجُلُ العَظِيمُ السَّمِينُ يَوْمَ القِيامَةِ، لا يَزِنُ عِنْدَ اللهِ جَناحَ بَعُوضَةٍ**[١]» وقال: «**اقْرَءُوا إِنْ شِئْتُم: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾**»[٢].

وعن يحيىٰ بن بُكَيْر، عن مغيرة بن عبد الرحمن، عن أبي الزناد مثله.

هكذا ذكره عن يحيىٰ بن بكير معلقًا. وقد رواه مسلم عن أبي بكر محمَّد بن إسحاق، عن يحيىٰ ابن بكيرٍ به.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا أبو الوليد، حدَّثنا عبد الرحمن بن أبي الزناد، عن صالح مولىٰ التَّوأمة، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يُؤْتَىٰ بِالرَّجُلِ الأَكُولِ الشَّرُوبِ العَظِيمِ، فَيُوزَنُ بِحَبَّةٍ فَلا يَزِنُها**». قال: وقرأ: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾[٣].

وكذا رواه ابن جرير، عن أبي كريب، عن أبي الصلت، عن ابن أبي الزناد، عن صالح مولىٰ التوأمة، عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا، فذكره بلفظ البخاري سواء[٤].

وقال أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار: حدَّثنا العبَّاس بن محمَّد، حدَّثنا عون بن عُمارة[٥] حدَّثنا هشام بن حسان، عن واصل، عن عبد الله بن بريدة، عن أبيه قال: كنا عند رسول الله ﷺ فأقبل رجلٌ مِن قريشٍ يَخْطِر في حُلَّةٍ له. فلمَّا قام على النَّبيِّ ﷺ قال: «**يا بُرَيْدَةُ، هَذا مِمَّنْ لا يُقِيمُ اللهُ لَهُ يَوْمَ القِيامَةِ وَزْنًا**»[٦].

---

(١) أي: لا يعدله في القدر والمنزلة، أي: لا قدر له. «شرح مسلم» للنووي.

(٢) البخاري (٤٧٢٩)، ومسلم (٢٧٨٥).

(٣) ضعيف بهذا السياق: في إسناده صالح مولىٰ التوأمة: ضعيف. ولكنَّ الرِّواية الصَّحيحة الثَّابتة في الحديث المتقدِّم قبله، والأثر رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٥٦٧٠).

(٤) الطبري (١٦/ ٣٥).

(٥) في (ز): «عامر»، والمثبت كما في «مسند البزار»، وانظر: «تهذيب التهذيب» (٨/ ١٥٤).

(٦) ضعيف: رواه البزار (٢٩٥٦-كشف)، وفي «البحر الزخار» (٤٤٤٩) وضعفه الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٥/ ٢١٩)، والألباني في «ضعيف الترغيب والترهيب» (٢/ ١٥)، وفيه عون بن عمارة: ضعيف.

ثم قال: تفرَّد به واصل مولىٰ أبي عنبسة وعون بن عُمَارة[١] وليس بالحافظ، ولم يتابع عليه.

وقد قال ابن جرير أيضًا: حدَّثنا محمَّد بن بشار، حدَّثنا عبد الرحمن، حدَّثنا سفيان، عن الأعمش، عن شِمر[٢] عن أبي يحيىٰ، عن كعب قال: يؤتىٰ يوم القيامة[٣] [برجلٍ][٤] عظيمٍ طويلٍ، فلا يزن عند الله جناح بعوضة، اقرءوا: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾[٥].

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا۟﴾ أي: إنما جازيناهم بهذا الجزاء جهنم، بسبب كفرهم واتِّخاذهم آيات الله ورسله هُزُوًا، استهزءوا بهم، وكذَّبوهم أشدَّ التَّكذيب.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾﴾

يخبر تعالىٰ عن عبادِهِ السعداء، وهمُ الَّذِين آمنوا بالله ورسوله، وصدَّقوهم فيما جاءوا به بأن لهم جنَّات الفردوس. قال مجاهد: الفردوس هو: البستان بالروميَّة. وقال كعب، والسُّدِّي، والضَّحَّاك: هو البستان الذي فيه شجر الأعناب. وقال أبو أمامة الفردوس: سُرَّة الجنَّة. وقال قتادة: الفردوس: رَبْوَةُ الجنَّة وأوسطها وأفضلها. وقد روي هذا مرفوعًا من حديث سعيد بن بشير، عن قتادة، عن الحسن، عن سَمُرَة، عن النَّبيِّ ﷺ: «**الفِرْدَوْسُ رَبْوَةُ الجَنَّةِ، أَوْسَطُهَا وَأَحْسَنُهَا**»[٦]. وهكذا رواه إسماعيل بن مسلم، عن الحسن، عن سمرة مرفوعًا. وروي عن قتادة، عن أنس بن مالك مرفوعًا بنحوه[٧]. وقد نقله ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وفي «الصحيحين»: «**إِذَا سَأَلْتُمُ اللهَ الجَنَّةَ فَاسْأَلُوهُ الفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَعْلَىٰ الجَنَّةِ وَأَوْسَطُ الجَنَّةِ، وَمِنْهُ تُفَجَّرُ أَنْهارُ الجَنَّةِ**»[٨].

وقوله: ﴿نُزُلًا﴾ أي ضيافةً، فإنَّ النُّزُل هو الضِّيافة.

وقوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي: مقيمين ساكنين فيها، لا يَظْعَنُون عنها أبدًا، ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ أي: لا يختارون غيرها، ولا يحبون سواها، كما قال الشاعر:

فَحَلَّتْ سُوَيْدَا القَلْبِ لا أَنَا بَاغِيًا ... سِوَاهَا وَلا عَنْ حُبِّهَا أَتَحَوَّلُ

---

(١) في (ز): «عمار»، والمثبت كما في «مسند البزار».

(٢) في (ز): «سمرة»، والمثبت كما في «الطبري». وانظر: «تهذيب الكمال» (١٢/ ٥٦٠).

(٣) لوحة (٢٠٨ ب).

(٤) سقط من (ز)، وهو مثبت من «الطبري».

(٥) رواه الطبري (١٦/ ٣٥).

(٦) **صحيح**: رواه ابن جرير (١٦/ ٣٨)، والبزار (٤٥٨٢)، والطبراني في «الكبير» (٧/ ٣١٢)، وسعيد بن بشير قال الحافظ: ضعيف «تقريب» (٢٢٧٦)، ولكن للحديث شواهد بعضها في «الصَّحيح»؛ منها حديث أنس عند الترمذي (٣١٧٤) وقال: حسن صحيح غريب؛ فأصله في البخاري (٢٦٥٤)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٩٢١)، (٢٠٠٣).

(٧) انظر التعليق السابق.

(٨) البخاري (٢٧٩٠)، (٧٤٢٣)، وأحمد (٢/ ٣٣٥)، ونسبته للصحيحين وهمٌ؛ فالحديث من أفراد البخاري.

وفي قوله: ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ تنبيهٌ علىٰ رغبتهم فيها، وحبِّهم لها، مع أنَّه قد يتوهَّم فيمن هو مقيمٌ في المكان دائمًا أنَّه يسأمه أو يمله، فأخبر أنَّهم مع هذا الدَّوام والخلود السَّرمدي، لا يختارُون عن مقامهم ذلك متحولًا ولا انتقالًا ولا ظعنًا [(١)] ولا رحلةً ولا بدلًا.

﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾

يقول تعالىٰ: قل يا محمَّد: لو كان ماء البحرِ مدادًا للقَلَم الَّذي تُكْتَبُ به كلماتُ ربي وَحِكَمُهُ وآياتُهُ الدالة [(٢)] عليه، ﴿لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ﴾ [أي: لفرغ البحر] [(٣)] قبل أن يفرغ من كتابةِ ذلك ﴿وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ أي: بمثل البحر آخر، ثم آخر، وهلم جرًّا، بحور تمدُّه ويكتب بها، لَمَا نفِدَت كلمات الله [(٤)]، كما قال تعالىٰ [(٥)]: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمان: ٢٧].

قال الربيع بن أنس: إن مثل علم العباد كلهم في علم اللهِ كقطرةٍ مِن ماء البحور كلها، وقد أنزل الله ذلك: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾.

يقول: لو كان البحر مدادًا [لكلمات الله] [(٦)]، والشَّجر كله أقلام، لَانْكَسَرت الأقلام وفنِيَ ماء البَحْرِ، وبَقِيَت كلمات اللهِ قائمةً لا يُفْنِيهَا شيءٌ؛ لأنَّ أحدًا لا يستطيع أن يَقْدِرَ قَدْرَهُ. ولا يثني عليه كما ينبغي، حتىٰ يكون هو الَّذي يُثْنِي علىٰ نفسه، إنَّ ربنا كما يقول وفوق ما نقول، إن مثل نعيم الدنيا أولها وآخرها فِي نعيم الآخرة، كحَبَّةٍ مِن خردلٍ في خلال الأرض [كلِّها] [(٧)].

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾

روىٰ الطبراني من طريق هشام بن عمار، عن إسماعيل بن عياش، عن عمرو بن قيس الكوفي، أنه سمع معاوية بن أبي سفيان أنه قال: هذه آخر آية أنزلت [(٨)].

يقول لرسوله محمَّدٍ ﷺ: ﴿قُلْ﴾ لهؤلاء المشركين المكذبين برسالتك إليهم: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾

---

(١) في (ز): ضيقًا. (٢) في (ز): وآياته والدلالات عليه. (٣) ليست في (ز).

(٤) قال الشيخ القاسمي رحمه الله: دلت الآية علىٰ أنه تعالىٰ لم يزل متكلمـًا إذا شاء وكما شاء. وأن كلماته لا نهاية لها. وقد قال الإمام أحمد رحمه الله وغيره من الأئمة: لم يزل الله متكلمـًا إذا شاء وهو يتكلم بمشيئته وقدرته يتكلم بشيء بعد شيء. وهو مذهب سلف الأمة، وأئمة السنة.

(٥) لوحة (٢٠٩ أ). (٦) ليست في (ز). (٧) ليست في (ز).

(٨) ضعيف: رواه الطبراني (١٩/ ٣٩٢/ ٩٢١)، وابن جرير (١٥/ ٤٠)، فيه إسماعيل بن عياش، وروايته عن غير أهل بلده ضعيفة، وهذه منها. وفي متن الحديث إشكالٌ بَيَّنَه الحافظ ابن كثير في آخر السورة.

فمَن زَعَم أنّي كاذبٌ، فليأتِ بمثل ما جئتُ به، فإنّي لا أعلم الغَيْب فيما أخبرتكم به من الماضي، عمّا سألتم مِن قصّة أصحاب الكهف، وخبر ذِي القرنين، مما هو مطابقٌ في نفسِ الأمر، لولا ما أطْلَعني الله عليه، وأنا أخبركم ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ﴾ الذي أدعوكم إلىٰ عبادته، ﴿إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ﴾ لا شريك له، ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ أي: ثوابه وجزاءه الصالح، ﴿فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا﴾، ما كان موافقًا لشرع الله ﴿وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾ وهو الذِي يُرَاد به وجهُ الله وحدَهُ لا شريكَ له، وهذانِ ركنَا العمل المتقبل. لا بد أن يكون خالصًا لله، صوابًا علىٰ شريعة رسول الله ﷺ.

وقد روىٰ ابن أبي حاتم من حديث معمر، عن عبد الكريم الجَزَري، عن طاوس قال: قال رجلٌ: يا رسول الله، إنّي أقف المواقف أريدُ وجه الله، وأُحِبُّ أن يُرَىٰ موطِني. فلم يرد عليه رسول الله ﷺ [شيئًا][(١)] . حتىٰ نزلت هذه الآية: ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾[(٢)] .

وهكذا أرسل هذا مجاهد، وغير واحدٍ.

وقال الأعمش: حدَّثنا حمزة أبو[(٣)] عمارة مولىٰ بني هاشم، عن شَهْر بن حَوْشَب قال: جاء رجلٌ إلىٰ عبادة بن الصامت فقال: أنبئني عما أسألك[(٤)] عنه: أرأيت رجلًا يصلي، يبتغي وجه الله، ويحب أن يُحْمَد، ويصوم ويبتغي وجه الله، ويحب أن يُحْمَد، ويتصدق ويبتغي وجه الله، ويحب أن يُحْمَد، ويحج ويبتغي وجه الله، ويحب أن يُحْمَد، فقال عبادة: ليس له شيءٌ، إن الله تعالىٰ يقول: «**أَنَا خَيْرُ شَرِيكٍ، فَمَنْ كَانَ لَهُ مَعِي شَرِيكٌ**[(٥)] **فَهُوَ لَهُ كُلُّهُ، لا حَاجَةَ لِي فِيهِ**»[(٦)] .

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا محمَّد بن عبد الله بن الزبير، ثنا كثير بن زيد، عن رُبَيْحِ بن عبد الرحمن بن أبي سعيد الخدري، عن أبيه، عن جده قال: كنا نتناوب رسول الله ﷺ، فنبيت عنده، تكون له الحاجة، أو يطرقه أمرٌ من الليل، فيبعثنا. فكثر المحتسبون[(٧)] وأهل النُّوَب، فكنا نتحدث، فخرج علينا رسول الله ﷺ فقال: «**مَا هَذِهِ النَّجْوَىٰ؟ [أَلَمْ أَنْهَكُمْ عَنِ النَّجْوَىٰ**»؛ قال][(٨)]: فقلنا: تُبنا إلىٰ الله، أَيْ نبيَّ الله، إنما كنا في ذكر المسيح، وفرِقْنا منه، فقال: «**أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِمَا هُوَ أَخْوَفُ عَلَيْكُمْ مِنَ المَسِيحِ عِنْدِي؟**» قال: قلنا: بلىٰ.

---

(١) ليست في (ز)، وهي مثبتة في «تفسير ابن أبي حاتم».
(٢) مرسل: رواه ابن جرير (١٦/ ٤٠)، والحاكم (٤/ ٣٢٩ - ٣٣٠).
(٣) في (ز): «حمزة أو عمارة»، والمثبت كما في «الطبري».
(٤) لوحة (٢٠٩ ب).
(٥) في (ز): «شرك»، والمثبت كما في «الطبري».
(٦) رواه الطبري (١٦/ ٤٠)، وفيه شهر بن حوشب: صدوق كثير الإرسال والأوهام.
(٧) المحتسبون: طالبو القِرىٰ، يعني: الضيوف.
(٨) سقط من (ز)، وهو مثبت من «المسند».

قال: «الشِّرْكُ الخَفِيُّ، أَنْ يَقُومَ الرَّجُلُ يُصَلِّي لِمَكَانِ الرَّجُلِ»(١).

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا أبو النضر، حدَّثنا عبد الحميد - يعني ابن بَهْرَام- قال: قال شَهْر بن حَوْشَب: قال ابن غنم: لما دخلنا مسجد الجابية(٢) أنا وأبو الدرداء، لَقِينا عبادة بن الصامت، فأخذ يميني بشمالِهِ، وشمال أبي الدرداء بيمينه، فخرج يمشي بيننا ونحن نتناجىٰ، والله أعلم بما نتناجَىٰ به، فقال عبادة بن الصامت: إن طال بكما عمرُ أحدكما أو كليكما، لتوشكانٍّ أن تريَا الرَّجل من ثَبَجِ المسلمين -يعني من وسط- قرأ القرآن علىٰ لسان محمَّدٍ ﷺ فأعاده وأبدأه، وأحل حلاله وحرَّم حرامه، ونزَل عند منازله، لا يَحُورُ فيكم إلا كما يَحُور رأس الحمار الميت (٣). قال: فبينما نحن كذلك، إذ طلع شدَّاد بن أوس رضي الله عنه وعوف بن مالك، فجلسا إلينا، فقال شداد: إن أخوفَ ما أخاف عليكم أيها الناس لما سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مِنَ الشَّهْوَةِ الخَفِيَّةِ وَالشِّرْكِ». فقال عبادة بن الصامت، وأبو الدَّرداء: اللَّهم غفرًا. أو لم يكن رسول الله ﷺ قد حدَّثنا أنَّ الشيطان قد يَئِس أن يُعْبَد في جزيرة العرب. وأمَّا الشَّهوة الخفية فقد عرفناها، هي شهوات الدنيا مِن نسائها وشهواتها، فما هذا الشرك الذي تخوفنا به يا شداد؟ فقال شداد: أرأيتكم لو رأيتم رجلًا يصلِّي لرجل، أو [يصوم لرجل، أو يتصدَّق له، أترون أنه قد أشرك؟ قالوا: نعم، والله إنَّه مَن صلَّىٰ لرجل أو](٤) صام له أو تصدقَ له، لقد أشرك. فقال شداد: فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ صَلَّىٰ يُرَائِي فَقَدْ أَشْرَكَ، وَمَنْ(٥) صَامَ يُرَائِي فَقَدْ أَشْرَكَ، وَمَنْ تَصَدَّقَ يُرَائِي فَقَدْ أَشْرَكَ» فقال عوف بن مالك عند ذلك: أفلا يعمدُ الله إلىٰ ما ابْتُغِيَ به وجهه من ذلك العمل كلِّه، فيقبل ما خلص له ويدع ما أشرك به؟ فقال شدَّاد عند ذلك: فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ اللهَ يَقُولُ: أَنَا خَيْرُ قَسِيمٍ لِمَنْ أَشْرَكَ بِي، مَنْ أَشْرَكَ بِي شَيْئًا فَإِنَّ [حَشْدَهُ](٦) عَمَلَهُ قَلِيلَهُ وَكَثِيرَهُ لِشَرِيكِهِ الَّذِي أَشْرَكَ بِهِ، وَأَنَا عَنْهُ غَنِيٌّ»(٧).

طريق أخرىٰ لبعضه: قال الإمام أحمد: حدَّثنا زيد بن الحُبَاب، حدَّثني عبد الواحد بن زيد، أخبرنا عبادة بن نُسيٍّ، عن شداد بن أوس رضي الله عنه أنَّه بكىٰ، فقيل له: ما يُبكيك؟ قال: شيء سمعته عن رسول الله ﷺ يقوله فذكرته فأبكاني، سمعت رسول الله يقول: «أَتَخَوَّفُ عَلَىٰ أُمَّتِي الشِّرْكَ وَالشَّهْوَةَ

---

(١) ضعيف: رواه أحمد (٣/ ٣٠)، وفيه رُبَيْح بن عبد الرحمن: مقبول: وكثير بن زيد: صدوق يخطئ.

(٢) الجَابية: قرية من أعمال دمشق.

(٣) أي: لا يرجع فيكم بخير، ولا ينتفع بما حفظه من القرآن، كما لا ينتفع بالحمار الميت صاحبه.

(٤) سقط من (ز)، وهو مثبت من «المسند».

(٥) لوحة (٢١٠ أ).

(٦) سقط من (ز)، وهو مثبت من «المسند».

(٧) رواه أحمد (٤/ ١٢٥)، وفيه شهر بن حوشب: صدوق كثير الأوهام والتدليس، وله طريق آخر لبعضه كما ذكر المصنف، رواه أحمد (٤/ ١٢٤)، وفيه عبد الواحد بن زيد: متروك.

الخَفِيَّة». قلت: يا رسول الله، أتشرك أمتك [من بعدك][(١)]؟ قال: «نَعَمْ، أَمَا إِنَّهُمْ لا يَعْبُدُونَ شَمْسًا وَلا قَمَرًا، وَلا حَجَرًا وَلا وَثَنًا، وَلَكِنْ يُرَاءُونَ بِأَعْمَالِهِمْ، وَالشَّهْوَةُ الخَفِيَّةُ أَنْ يُصْبِحَ أَحَدُهُمْ صَائِمًا فَتَعْرِضَ لَهُ شَهْوَةٌ مِنْ شَهَوَاتِهِ فَيَتْرُكَ صَوْمَهُ».

ورواه ابن ماجة من حديث الحسن بن ذَكْوَان، عن عبادة بن نُسيٍّ به. وعبادة فيه ضعف وفي سماعه من شدَّاد نظر[(٢)].

حديث آخر: قال الحافظ أبو بكر البزار: حدَّثنا الحسين[(٣)] بن عليِّ بن جعفر الأحمر، حدَّثنا عليّ ابن ثابت، حدَّثنا قيس بن أبي حصين، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يَقُولُ اللهُ يَوْمَ القِيَامَةِ: أَنَا خَيْرُ شَرِيكٍ، مَنْ أَشْرَكَ بِي أَحَدًا فَهُوَ لَهُ كُلُّهُ»[(٤)].

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا محمَّد بن جعفر، حدَّثنا شعبة، سمعت العلاء يحدث عن أبيه، عن أبي هريرة، عن النَّبيِّ ﷺ، يرويه عن ربه ﷻ أنَّه قال: «أَنَا خَيْرُ الشُّرَكَاءِ، فَمَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ غَيْرِي، فَأَنَا مِنْهُ بَرِيءٌ، وَهُوَ لِلَّذِي أَشْرَكَ». تفرَّد به من هذا الوجه[(٥)].

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدَّثنا يونس، حدَّثنا لَيْث، عن يزيد -يعني ابن الهاد- عن عمرو، عن محمود بن لَبيد؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ الشِّرْكُ الأَصْغَرُ». قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: «الرِّيَاءُ، يَقُولُ اللهُ يَوْمَ القِيَامَةِ إِذَا جَزَىٰ النَّاسَ بِأَعْمَالِهِمْ: اذْهَبُوا إِلَىٰ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُرَاءُونَ فِي الدُّنْيَا، فَانْظُرُوا هَلْ تَجِدُونَ عِنْدَهُمْ جَزَاءً؟»[(٦)].

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدَّثنا محمَّد بن بكر أخبرنا عبد الحميد -يعني ابن جعفر- أخبرني أبي، عن زياد بن ميناء، عن أبي سعيد بن أبي فضالة[(٧)] الأنصاري -وكان من الصحابة- أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِذَا جَمَعَ اللهُ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ لِيَوْمِ القِيَامَةِ لِيَوْمٍ لا رَيْبَ فِيهِ، نَادَىٰ مُنَادٍ: مَنْ كَانَ أَشْرَكَ فِي عَمَلٍ عَمِلَهُ للهِ أَحَدًا، فَلْيَطْلُبْ ثَوَابَهُ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ، فَإِنَّ اللهَ أَغْنَىٰ الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ»[(٨)].

---

(١) سقط من (ز)، وهو مثبت من «المسند».

(٢) **ضعيف**: رواه أحمد (٤/ ١٢٤)، وابن ماجه (٤٢٠٥)، والحاكم (٤/ ٣٣٠)، وصححه وردَّه الذهبي؛ لأن فيه عبد الواحد بن زيد: متروك.

(٣) في (ز): «الحسن»، والمثبت كما في «البزار»، وانظر: «تهذيب التهذيب» (٢/ ٢٩٨).

(٤) **صحيح**: رواه الطبري (١٦/ ٣٢) وعزاه للبزَّار، ثم أورد الرِّواية الأخرىٰ عند أحمد (٢/ ٣٠١) وإسنادها صحيح، وانظر: «السلسلة الصحيحة» (٢٧٦٥).

(٥) **صحيح**: رواه أحمد (٢/ ٣٠١)، ورواه مسلم (٢٩٨٥)، وابن ماجه (٤٢٠٢).

(٦) **صحيح**: رواه أحمد (٥/ ٤٢٨)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٩٥١).

(٧) لوحة (٢١٠ ب).

(٨) **صحيح**: رواه أحمد (٤/ ٢١٥)، وابن ماجه (٤٢٠٣)، والترمذي (٣١٥٤).

وأخرجه الترمذي وابن ماجه، من حديث [محمَّد بن][(١)] بكر وهو البُرساني به.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدَّثنا أحمد بن عبد الملك، حدَّثنا بكار، حدَّثني أبي - يعني عبد العزيز بن أبي بكرة- عن أبي بكرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ سَمَّعَ سَمَّعَ اللهُ بِهِ، وَمَنْ رَاءَىٰ رَاءَىٰ اللهُ بِهِ**»[(٢)].

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا معاوية، حدَّثنا شيبان، عن فراس، عن عطية، عن أبي سعيد الخدري، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**مَنْ يُرَائِي يُرَائِي اللهُ بِهِ، وَمَنْ يُسَمِّعُ يُسَمِّعُ اللهُ بِهِ**»[(٣)].

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدَّثنا يحيىٰ بن سعيد، عن شعبة، حدَّثني عمرو بن مرة، قال: سمعت رجلًا في بيت أبي عبيدة؛ أنه سمع عبد الله بن عمرو يحدث ابن عمر، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**مَنْ سَمَّعَ النَّاسَ بِعَمَلِهِ سَمَّعَ اللهُ بِهِ، سَامِعَ[(٤)] خَلْقِهِ وَصَغَّرَهُ وَحَقَّرَهُ**» قال: فذرفت عَيْنا عبدِ الله[(٥)].

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدَّثنا عمرو بن يحيىٰ الأيلي، حدَّثنا الحارث بن غسان، حدَّثنا أبو عمران الجوني، عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**تُعْرَضُ أَعْمَالُ بَنِي آدَمَ بَيْنَ يَدَي اللهِ عز وجل يَوْمَ القِيَامَةِ فِي صُحُفٍ مَخْتُومَةٍ مختمةٍ، فَيَقُولُ اللهُ: أَلْقُوا هَذَا، وَاقْبَلُوا هَذَا، فَتَقُولُ المَلَائِكَةُ: يَا رَبِّ، وَاللهِ مَا رَأَيْنَا مِنْهُ إِلَّا خَيْرًا. فَيَقُولُ: إِنَّ عَمَلَهُ كَانَ لِغَيْرِ وَجْهِي، وَلَا أَقْبَلُ اليَوْمَ مِنَ العَمَلِ إِلَّا مَا أُرِيدَ بِهِ وَجْهِي**».

ثم قال الحارث بن غسَّان: روىٰ عنه جماعة وهو بصريٌّ ليس به بأس[(٦)].

وقال ابن وهب: حدَّثني يزيد بن عياض، عن عبد الرحمن الأعرج، عن عبد الله بن قيس الخزاعي، أَنَّ رسول الله ﷺ قال: «**مَنْ قَامَ رِيَاءً وَسُمْعَةً، لَمْ يَزَلْ فِي مَقْتِ اللهِ حَتَّىٰ يَجْلِسَ**»[(٧)].

وقال أبو يعلىٰ: حدَّثنا محمَّد بن أبي بكر، حدَّثنا محمَّد بن دينار، عن إبراهيم الهَجَري عن أبي

---

(١) سقط من (ز)، وهو موافق لما في «الترمذي» و«ابن ماجه».

(٢) **حسن**: رواه أحمد (٥/ ٤٥) من حديث أبي بكرة، ورجاله ثقات، قال الهيثمي في «المجمع» (١/ ٢٢٥): رواه أحمد والبزار والطبراني، وأسانيدهم حسنة.

(٣) **لا بأس به**: رواه أحمد (٣/ ٤٠)، والترمذي (٢٣٨٢) وقال: حسن صحيح. وابن ماجه (٤٢٠٦)، وفيه عطية العوفي: شيعي مدلس، لكن الحديث يشهد له ما تقدم، وقد ثبت نحوه في «الصحيحين». انظر: البخاري (٤٦٩٩)، ومسلم (٢٩٨٧) من حديث جندب رضي الله عنه.

(٤) في (ز): «سا خلقه»، والمثبت كما في «المسند».

(٥) رواه أحمد (٢/ ١٦٢، ١٩٥، ٢١٢، ٢٢٣)، ورواه أبو نعيم في «الحلية» (٤/ ١٢٣)، والطبراني في «الأوسط» (٢٩٨٤) عن عمرو بن مرَّة عن خيثمة؛ وبهذا الاعتبار فالإسناد رجاله ثقات، ويشهد لصحَّته ما تقدَّم في الحديثين السَّابقين.

(٦) البزار (٣٤٣٥-كشف)، والدارقطني (١/ ٥١)، وابن عساكر (٥٥/ ١٨٤).

(٧) **يزيد بن عياض**: متروك، وقال الحافظ في «التقريب»: كذبه مالك وغيره، ولذا أورده الألباني في «ضعيف الجامع» (٥٧٥٥) وقال: موضوع.

الأحوص، عن عوف بن مالك، عن ابن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ أَحْسَنَ الصَّلَاةَ حَيْثُ يَرَاهُ النَّاسُ، وَأَسَاءَهَا حَيْثُ يَخْلُو، فَتِلْكَ اسْتِهَانَةٌ اسْتَهَانَ بِهَا رَبَّهُ ﷻ**»(١).

وقال ابن جرير: حدَّثنا أبو عامر إسماعيل بن عمرو السَّكوني، حدَّثنا هشام بن عمار، حدَّثنا ابن عياش، حدَّثنا عمرو بن قيس الكندي؛ أنَّه سَمِعَ معاوية بن أبي سفيان تلا هذه الآية: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ(٢) عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ وقال: إنَّها آخر آيةٍ نزلَتْ مِن القرآن(٣).

وهذا أثرٌ مشكلٌ؛ فإنَّ هذه الآية هي آخر سورة الكهف. والكهف كلها مكيَّةٌ، ولعلَّ معاوية أراد أنَّه لم ينزل بعدها ما تنسخها ولا يغير حكمها، بل هي مثبَتَةٌ محكَمَةٌ؛ فاشتبه ذلك علىٰ بعضِ الرُّواة، فروَىٰ بالمعنىٰ علىٰ ما فَهِمَهُ، والله أعلم.

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدَّثنا محمَّد بن علي بن الحسن بن شقيق، حدَّثنا النضر بن شميل، حدَّثنا أبو قُرَّة، عن سعيد بن المسيب، عن عمر بن الخطاب ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ قَرَأَ فِي لَيْلَةٍ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾، كَانَ لَهُ مِنْ نُورٍ، مِنْ عَدَنِ أَبْيَنَ إِلَىٰ [مَكَّةَ](٤) حَشْوُهُ الْمَلَائِكَةُ**» غريبٌ جدًّا(٥).

آخر [تفسير](٦) سورة الكهف ولله الحمد.

---

(١) ضعيف: أبو يعلىٰ (٥٠١٧)، وفيه إبراهيم بن مسلم الهجري: ضعيف.

(٢) لوحة (٢١١ أ).

(٣) ضعيف، وقد تقدم تخريجه قريبًا.

(٤) سقط من (ز)، وهو مثبت من «البزار».

(٥) ضعيف: رواه البزار (٣١٠٨-كشف الأستار)، وأبو قرة: مجهول، قال الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ١٢٩): فيه أبو قرة الأسدي لم يروِ عنه غير النضر بن شميل.
والحديث رواه أيضًا الحاكم (٢/ ٣٧١) وصححه، وتعقبه الذهبي فقال: أبو قرة فيه جهالة ولم يضعف.

(٦) ليست في (ز).

الفهرس

❁ **تفسير سورة التوبة ٣**

- فصل: في أسماء الأيام والشهور ٤٩
- قصة مسجد ضرار ١١٣
- بيان أن المراد بالسياحة: الصيام ١٢١
- قصة الثلاثة الذين خُلِّفُوا ١٣٠

❁ **تفسير سورة يونس ١٤٩**

- المراد بقوله تعالىٰ: ﴿وَزِيَادَةٌ﴾ ١٦٥
- مَن هم أولياء الله؟ ١٨١
- دعاء موسىٰ عليه السلام علىٰ فرعون وملئه ١٩٣

❁ **تفسير سورة هود ٢٠٥**

- قصة نوح عليه السلام ٢٢٠
- نوح عليه السلام وولده الذي غرق ٢٢٩
- قصة هود عليه السلام ٢٣٢
- قصة صالح عليه السلام ٢٣٤
- نبأ إبراهيم ولوط عليهما السلام ٢٣٥
- قصة شعيب عليه السلام ٢٤٣
- قصة موسىٰ عليه السلام ٢٤٨
- العبرة من ذكر أنباء القرىٰ السابقة ٢٤٩

❁ **تفسير سورة يوسف ٢٦٦**

❁ **تفسير سورة الرعد ٣٢٩**

❁ **تفسير سورة إبراهيم ٣٧٧**

- سؤال العبد في قبره ٣٩٤
- قصة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام وتركه رضيعًا مع أمه في مكان مكة ٤١٢
- إمهال الظالمين إلىٰ يوم المعاد ليس عن غفلة بأعمالهم ٤١٤

❁ تفسير سورة الحجر ٤٢٣

❁ تفسير سورة النحل ٤٥٥

❁ تفسير سورة الإسراء ٥١٥

- ذكر الأحاديث الواردة في الإسراء ٥١٦
- فصل في بيان مضمون ما ورد في أحاديث الإسراء ٥٥٤
- بيان مصير أولاد المشركين ٥٦٥
- **فصل**: أقوال العلماء في هذه المسألة ٥٧١
- الإجماع منعقد في أولاد المؤمنين أنهم في الجنة ٥٧٣
- بِرُّ الوالدين ٥٧٧
- الكون كله يسبح بحمد الله ويشهد له بالواحدانية ٥٩١
- المقام المحمود ٦١٧
- الأحاديث الواردة في المقام المحمود ٦١٨

❁ تفسير سورة الكهف ٦٤٧

- ذكر ما ورد في فضلها، والعشر الآيات من أولها وآخرها، وأنها عصمة من الدجال ... ٦٤٧
- قصة أصحاب الكهف ٦٥٢
- قصة أصحاب الجنتين ٦٧٢
- من مشاهد القيامة والعرض ٦٨٠
- عداوة إبليس لبني آدم ٦٨٣
- قصة موسىٰ والخضر عليهما السلام ٦٨٩
- قصة ذي القرنين ٧٠٦
- عرض جهنم علىٰ الكافرين يوم القيامة ٧١٧
- المراد بـ ﴿بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا﴾ ٧١٨
- مصير السعداء في الآخرة ٧٢٠

❁ الفهرس ٧٢٧